

مَسَائِلُ الْإِعْتِقَادِ عِنْدَ

الشَّيخِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي عِشْرَةَ

فِي ضَوْءِ مَصَادِرِهِمُ الْحَدِيثِيَّةِ

تَأَلَّفَ

د. مُحَمَّدُ زَكْرِيَّا النَّدَافُ

الْمَجْلَدُ الْأَوَّلُ

دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال ربنا ﷻ:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ
بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا
سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْطَهُ فَآزَرَهُ
فَأَسْتَقَلَطَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ
الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ
مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩] .

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ
الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ٥٠ وَأَذْكُرَنَّ مَا يُثَلَى فِي
بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ
لَطِيفًا خَبِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣، ٣٤] .

﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾

[آل عمران: ١٠٣] .

مسائل الاعتقاد عند

الشيعة الاثني عشرية

في ضوء مصادر الحديثية

كَافَّةُ حُقُوقِ الطَّبْعِ وَالنَّشْرِ وَالتَّرْجُمَةِ مَحْفُوظَةٌ

لِلنَّاشِرِ

دَارُ السَّلَامِ لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ وَالتَّرْجُمَةِ

لصاحبها

عبد الناصر محمود البكار

الطَّبعة الأولى

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

النداف ، محمد زكريا .

مسائل الاعتقاد عند الشيعة الاثني عشرية في ضوء
مصادرهم الحديثية / تأليف محمد زكريا النداف . -
ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع

والترجمة ، ٢٠١٠ م .

٢ مج ٢٤٤ سم .

تدمك ٨ ٩١٨ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الاثنا عشرية . ٢ - الشيعة .

أ - العنوان .

٢٤٧، ٨

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت -
الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (+ ٢٠٢)

فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (+ ٢٠٢)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (+ ٢٠٢)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (+ ٢٠٢)

فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (+ ٢٠٢)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (+ ٢٠٣)

بريدياً : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دَارُ السَّلَامِ

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت

على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة

أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،

٢٠٠١م هي عفر الجائزة بتويجا لعقد

ثالث مضى في صناعة النشر

فهرس محتويات المجلد الأول



٩	مقدمة
٢٣	تمهيد
٢٣	تعريف الشيعة
٣٣	فرق الشيعة
٤٥	عوامل نشوء وتطور الفكر الشيعي
الفصل الأول: (الغلو والغلاة وموقف أئمة أهل البيت منهم)		
١٠٢	المبحث الأول: ابن سبأ والسبئية
١١٥	المبحث الثاني: الغلاة الذين ركبوا موجة التشيع
١٢٨	المبحث الثالث: رجال الشيعة الأوائل بين الغلو والاعتدال
١٤٦	المبحث الرابع: موقف الأئمة من الغلو والغلاة
١٥٣	المبحث الخامس: الغلو يتسلل إلى أحاديث الشيعة
١٦٨	المبحث السادس: موقف علماء الاثني عشرية من الغلو والغلاة
الفصل الثاني: (مصادر تلقي العقيدة عند الاثني عشرية)		
١٩٣	المبحث الأول: نظرية اختصاص أهل البيت بعلوم الوحي بعد النبي ﷺ ونقضها
٢٢٢	المبحث الثاني: موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم
٢٢٤	- المطلب الأول: هل اختص الأئمة بجمع القرآن وحفظه؟
٢٣١	- المطلب الثاني: موقف الاثني عشرية من سلامة القرآن الكريم من التحريف
٢٧٢	- المطلب الثالث: تفسير القرآن عند الاثني عشرية
٢٨٢	المبحث الثالث: السنة عند الاثني عشرية
٢٨٦	- المطلب الأول: كتب الحديث عند الاثني عشرية

- ٣٠١ - المطلب الثاني: ملاحظات على كتب الحديث الشيعية
- - المطلب الثالث: منهج التعامل مع روايات الأئمة عند الاثني عشرية بين
- ٣١٥ الأخباريين والأصوليين
- - المطلب الرابع: ردود على بعض شبهات كتاب الشيعة حول الحديث النبوي
- ٣٣٤ المبحث الرابع: بعض مصادر التلقي الخلافية بين أهل السنة والاثني عشرية
- ٣٥٧ - المطلب الأول: الإجماع والقياس
- ٣٥٧ - المطلب الثاني: بعض المصادر الغربية لتلقي العقيدة عند الاثني عشرية
- ٣٦٢ الفصل الثالث: (مسائل الاعتقاد العامة بين الاثني عشرية وأهل السنة)
- المبحث الأول: الإيمان والإسلام
- ٣٧٩ المبحث الثاني: الإلهيات
- ٤٠٦ - المطلب الأول: أدلة وجود الله ﷻ
- ٤٠٨ - المطلب الثاني: صفات الله ﷻ
- ٤٣٦

?

التهنئة

- إلى النبي الخاتم ﷺ وآل بيته الطاهرين وصحابته الكرام الأبرار أجمعين..
- وإلى المجاهدين الصامدين في أرض الرباط في فلسطين وفي كل بقاع الأرض، وإلى المنكوبين في أرض الرافدين.. الذين تعصف بهم رياح الاحتلال وفتن المتآمرين.
- إلى والدتي الكريمين اللذين كانا سبب وجودي، وبنوع صبري.
- إلى سكن نفسي؛ زوجتي التي شاركتني همومي، وأعانتني على المثابرة رغم المحن.
- إلى كل باحث عن الحق والحقيقة، منزّه نفسه عن العصبية والطائفية، آلى على نفسه أن ينطق بالحق مهما كان مرًا.
- إلى كل من شكّل لبنة من لبنات بنائي العلمي، من المرحلة الابتدائية والإعدادية والثانوية والجامعية.
- إلى قسم العلم الشامخة في كلية دار العلوم العريقة وكلية الشريعة الأبية اللذين نهلت من علومهم وآدابهم.
- إلى كل من أسدى إليّ معروفًا لإنجاح هذا البحث.

مُقَدِّمَةٌ



الحمد لله الهادي من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الحاكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون.

والصلاة والسلام على علم الهدى، ونبي الورى؛ سيدنا محمد بن عبد الله، رحمة الله تعالى للعالمين، وعلى آله الأخيار وصحبه الأبرار، ومن اتبع نهجه إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن العلاقة بين الشيعة الإمامية الاثني عشرية وأهل السنة ما تزال علاقة يتخللها الغموض وسوء التفاهم في كثير من الجزئيات، رغم وجود قواسم جوهرية مشتركة بين الجانبين، ولم تستطع دعوات الحوار والتقارب والنقاش والجدال أن تزيل شيئاً من ذلك الغموض وسوء التفاهم.

ومع أن الدعوة إلى الحوار ثم التقارب بين أهل السنة والشيعة ما تزال دعوة مستمرة؛ لكنها دعوة لم تتكامل بالنجاح حتى الآن؛ لوجود موانع كثيرة تحول دون نجاح الحوار السني الشيعي، فتحوّلت حلقات الحوار إلى ساحات للمجاملات والمزايدات، أو إلى حلقات للتباغض والمشاحنات، فلم تغيّر شيئاً من تصور أي طرف عن الآخر.

وإذا تغافل المرء عن الأسباب الخارجية التي تمنع أن يؤتي هذا الحوار أُكله - من التعصب والتقليد والاستبداد بالرأي والعوامل السياسية... - لأنها لا طائل من الحديث عنها، ودقق النظر في الأسباب العلمية الموضوعية التي يتوخاها المنصفون؛ فعند ذلك سيجد أن ضعف الاطلاع على الأصول العقيدية للطرف الآخر ومصادره من أهم هذه الأسباب العلمية والموضوعية لفشل الحوار.

وهناك من يريد أن يسيّط الأمور فيقول: لماذا الحوار والاطلاع على ما عند الآخرين مادام أهل السنة والشيعة يعدّون القرآن الكريم والسنة المشرفة أهم مصدرين للعقيدة؟ فليس الخلاف حقيقياً بينهما إذن. وهذا نوع متقدم من أنواع المجاملات التي تغفل الواقع، في زمن سهلت فيه الاتصالات وكثرت فيه اللقاءات بين كافة البشر، فلم يعد سهلاً إخفاء شيء من حقائق الأمور.

صحيح أن أهل السنة والشيعة يؤمنون بالقرآن الكريم، ولكن نظرة الشيعة إلى كثير

من آيات القرآن تختلف عن نظرة أهل السنة وتفسيرهم لها؛ وبالتالي سيصدر عن الطائفتين في الآية الواحدة فهمان مختلفان.

ويزداد الأمر صعوبة إذا انتقلنا إلى أحاديث العقيدة بين الطرفين، فحين يستشهد الشني بحديث يعتقد صحته؛ إذ رواه له البخاري ومسلم مثلاً - يقول له الشيعي: إن هذا الحديث غير ثابت في كتبنا معشر الشيعة، وحين يستشهد شيعي بحديث يعتقد صحته؛ إذ رواه له الكليني في كتابه الكافي، وصححه علماء الشيعة - يقول له الشني: لا أعرف هذا الحديث، ولا أجده في مصادرني الحديثية المعروفة. فيصبح الحوار بين الطرفين حوارًا كلاميًا بين رجلين أصمّين!

إنّ قلة الاطلاع على عقائد كل طرف من مصادره المعتمدة بقصد الوصول إلى الحق لا بمنهج الانتقائية - إن كان للانتقائية منهج - أوقعت كلا الطرفين بأخطاء كثيرة في فهم الطرف الآخر، فوقعوا فيما يسمى بالتراجم؛ بحيث يرحم كل طرف صاحبه بتهمة يبرى نفسه منها، ثم يعود الطرف الآخر فينفي هذه التهمة عن نفسه، ويرجم الطرف الآخر بها. وعلى سبيل المثال: تهمة التجسيم، وتحريف القرآن.

وحين يرى أهل السنة أن الشيعة فأتهم كثير من الأحاديث النبوية بتركهم أخذ الحديث عن كبار محدثي الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كأبي هريرة راوية الإسلام؛ يقول الشيعة: إن أهل السنة فؤتوا على أنفسهم كثيرًا من أحاديث النبي ﷺ التي رواها أهل البيت.

فكيف يستقيم تقارب - وقبل التقارب الحوار - إن لم يكن الطرفان يجلسان على أرض صلبة ثابتة تجمعهما؟.

إن هذا الحوار الذي لا يقوم على هذه الأرض الثابتة لا بد أن ينهار، ويعطي ثمرة مرة معاكسة للمرجو منه؛ حيث ينقلب الحوار إلى صراع فخصام فتكفير.

ولذلك جاء هذا البحث ليعرّف بمسائل الاعتقاد عند الشيعة الإمامية من المصادر الأصلية التي يؤمنون بها، ومما كتبوا هم عن أنفسهم، لا مما كُتب عنهم، مستندًا إلى فهمهم للقرآن الكريم ورواياتهم الحديثية المعتمدة، دون الاعتماد على ما كُتب عن الشيعة في تراث خصومهم ولو كانوا من أهل السنة، فلا يأتي ذكر ما رواه أهل السنة عنهم إلا من باب الاطلاع أو المقارنة بين العقائد، أو لمعرفة مدى ما تميّر به علماء السنة من إنصاف للفرق الأخرى.

وبعد جمع روايات أهل التشيع المعتبرة في باب العقيدة يأتي دور المقارنة لهذه العقائد مع ما توصل إليه علماءهم من عقائد؛ ليصل الباحث إلى إجابة على سؤال مهم: ما مدى اتساق روايات الشيعة الحديثية مع أفكار علمائهم، وهل شهدت عقائد الشيعة تطوراً بعد غيبة الإمام الثاني عشر؟

أما عن أهم الصعوبات التي اعترضت البحث والباحث، فأهمها: ندرة المصادر الشيعية المتخصصة مع كثرة الركام الكبير من الكتابات حول التشيع - له أو عليه - وقد يسر الله الحصول على هذه المصادر من خلال السفر إلى بعض الدول التي تكثر فيها كتب الشيعة، ومن خلال المعارض الدولية التي تلتقي فيها الثقافات من كل اتجاه، إضافة إلى وجود شبكة الاتصالات العالمية (الإنترنت) والتي سهلت معرفة مظان الكتب والتعريف بها... إلخ، ووجود الأقراص الليزرية التي يصدرها الاثنا عشرية موثقة من مراكزهم العلمية.

وكان من الصعوبات: حساسية هذا الموضوع الشائك الذي يتهيب المرء الولوج فيه؛ لما فيه من حالات القداسة لأهل البيت العظماء والصحابة الكرام، كما أنه يتعرض لعقائد حيية لها أتباعها وأهلها؟ وليست من العقائد البائدة التي فني أهلها واندرس ذكرها، ناهيك عن أن معظم المحاولات السابقة في هذا المضمار لم تجلب إلا الأكدار. والمرء إذا ألّف - في أي علم - فقد استهدف، فكيف إذا ألّف في موضوع يختلف فيه الناس اختلافاً عظيماً، وتتنوع فيه عوامل الاختلاف، وتتعدد فيه الأفهام، وتؤثر فيه البيئات والنزعات والسياسات، وقد قال لي مرة أحدهم: بحثك هذا عقيم؛ لأنك لن ترضي أهل السنة ولن ترضي الشيعة، فقلت في نفسي: الهدف الوصول إلى الحقيقة والاجتهاد في طلبها، وهذا يتطلب التجرد الفكري والنظرة العلمية النزيفة العميقة، بأسلوب علمي هادئ بعيد عن التعصب والتزمت، وعليّ أن أسعى وليس عليّ إدراك النجاح، وطالب الحق لا يرضى عن الحق بديلاً، ولا يطلب رضا غير خالقه ﷻ.

كما كان من الصعوبات: كثرة الاختلاف بين علماء الاثني عشرية تجاه كثير من المسائل العقدية؛ ففي بعض المسائل يذكر أحد علمائهم الإجماع على رأي معين (كالرجعة)، ثم يأتي عالم آخر فيخالف هذا الذي ادّعى الأول الإجماع فيه، والاستقراء لجميع الآراء كان هو السبيل لحل هذه المشكلة.

أما عن المناهج التي استخدمتها في صياغة هذا البحث: فهي المنهج التاريخي الوصفي الذي اعتمدت عليه في جمع نصوص العقيدة من كتب الحديث الاثني عشرية، والمنهج

التحليلي لدراسة هذه النصوص والغوص في معانيها، ثم المنهج النقدي لهذه النصوص، إضافة إلى المنهج المقارن؛ وذلك لإيضاح الفروق بين عقائد الاثني عشرية من خلال كتب المصادر الحديثية، وعقائد الاثني عشرية من خلال رجال المذهب الاثني عشري وعلمائه، والمقارنة لكل ذلك أيضًا مع عقائد أهل السنة والجماعة إذا لزم الأمر.

هذا وحاولت ما استطعت في هذا البحث الابتعاد عن العواطف؛ ولذلك ابتعدت عن كتب المناظرات والرودود بين الشيعة والسنة، وقد جعلني هذا البحث أوقن أن كتب المناظرات والرودود بين علماء الملل المختلفة لا تعبر - في غالب الأحوال - تعبيرًا دقيقًا عن مذاهب العلماء وآرائهم، فهي لا تخلو من مزايدات، ولا تخلو من اتهام الطرف الآخر بالسذاجة والبساطة، ومن أمثلة ذلك كتاب المراجعات لعبد الحسين شرف الدين الموسوي^(١).

وكما جاء في كتاب (المناظرات بين فقهاء الشيعة والسنة) الذي طبعه صالح الورداني في مصر!^(٢)

وكتاب (وركبت السفينة) لمروان خليفات، الذي يحاول أن يتصيد ما يدعم آراءه حول ضياع كثير من أحاديث السنة النبوية، وحول عدالة الصحابة من هنا وهناك، ولو اعتمد على كتب لا اعتبار لها ولا قيمة عند أهل السنة؛ كاعتماده على كتاب (أضواء على السنة المحمدية) لمحمود أبي رية، والذي يمثل تيارًا لهدم السنة النبوية ينكره ويحاربه علماء أهل السنة، فيجعل منه خليفات واسطة موصلة لأقوال علماء أهل السنة!

(١) حيث يقوم على « تصوير شيخ الأزهر وشيخ المالكية - وقد تجاوز الثمانين عامًا - على صورة جاهل لا يدري ما في كتب التفسير والحديث عند أهل السنة أنفسهم وما يدرس منها لطلاب الأزهر!! انظر: د. علي أحمد السالوس: مع الشيعة الاثني عشرية في الأصول والفروع الجزء الأول، دراسة مقارنة في العقائد (ص ٨)، دار التقوى - مصر (١٩٩٧م).

(٢) وسنرى أن قصة المناظرة قديمة مبثوثة في كتب الشيعة، وطبعت من قبل تحت مسمى آخر لم يشر له الورداني! وهو كتاب (مؤتمر علماء بغداد) الذي نسبه الناشر إلى (أبي الهجاء شبل الدولة: مقاتل بن عطية البكري نسبا الحنفي مذهبًا!!) مقدمه: السيد شهاب الدين الحسيني المرعشلي النجفي (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م) تحقيق الشيخ محمد جميل حمّود، منشورات لبنان: الجنوب - النفاخية. حيث يدعي جهل الطرف المخالف وضعف حجته، وفي النهاية خضوعه لخصمه ورجوعه عن مذهبه « فقد غضب الملك وانزعج من كلام العباسي، وأطرق العباسي وسائر علماء السنة، وبقي العلوي رافعًا رأسه، ينظر في وجه الملك ليرى النتيجة. مرت لحظات على العباسي تمنى فيها أن تشق الأرض تحته ويغيب فيها، أو يأتيه ملك الموت، فلقد ظهر بطلان مذهبه، ولقد ظهرت خرافة عقيدته أمام الملك ووزيره وسائر العلماء والأركان » مؤتمر علماء بغداد (ص ١٠٢ - ١٠٣). وهناك أمثلة أخرى في كتاب (ليالي بشاور) وغيره.

بحيث يأخذ ما يؤيد هواه، ويترك ما يثبت عكس مناه (١).

وكذلك كتاب (مؤتمر النجف) والذي يتهم فيه أحد أطراف المناظرة الطرف الآخر بالكفر مجرد أنه لم يقف للسلام عليه! (٢).

كما جهدت ما استطعت الابتعاد عن التعميم، حتى لا أنسب إلى هذه الفرقة أو تلك قولاً لم يقل به إلا بعض علمائهم؛ ولذلك لم أعتد - مثلاً - في مسألة (القرآن الكريم وسلامته من التحريف) عند الشيعة على كتاب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) للنوري الطبرسي؛ حيث لم يرتضه كثير من علماء الشيعة، وأنكروا قوله حقيقة كما سنبين.

وكذلك ابتعد البحث والباحث عن كيل التكفير والتفسيق والتبديع لجميع المخالفين من المسلمين؛ فالبحث العلمي ليس دأبه كيل التهم والمحاسبة والقضاء، إنما هو عرض ونقد علمي موضوعي؛ فالتكفير والتنفير لا يخدم المنهج العلمي، كما أنه لا يقنع ولا يقطع حجة المخالفين، وإنما الذي يخدم العلم ويفحم الخصم: التفكير لا التكفير، وردُّ الشُّبه ومقابلة الحجة بالحجة، وهذا المنهج القويم السديد تشرَّبه الباحث واصطبغ به من

(١) مثلاً (ص ١٦٨) يذكر رأيًا للشيخ محمد رشيد رضا ثم يقول في الهامش: « ذكر قوله أبو رية في الأضواء (ص ٥٠) ». وجدير بالذكر أن كتاب (خليفات) هذا يوزع مجاناً وعندي منه نسخة مكتوب عليها: (إهداء تمثلية سماحة آية الله العظمى السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم) مؤسسة الرشد للطباعة والنشر. وهذه بعض عناوين الباب الثاني من هذا الكتاب (الفصل الثاني: ضياع السنة، الفصل الثالث: إشكاليات في مرجعية الصحابة... الفصل الرابع: صور من حياة الصحابة - ومنه عنوان محاولة حرق بيت الزهراء - الفصل السابع: أربعة نماذج من الصحابة - وهم خالد بن الوليد، والمغيرة بن شعبة، والوليد بن عقبة، ومعاوية بن أبي سفيان -). هل هكذا يعمل لإخواننا الشيعة من أجل التقريب!!

(٢) يقول السويدي العباسي في كتاب مؤتمر النجف: « فلما أقبلت على « الاعتماد » وسلّمت عليه رد علي السلام وهو جالس، فأنفعلت ووجدت في نفسي؛ حيث لم يقم على قدميه، فقلت في نفسي: إذا استقر بي الجلوس أقول للاعتماد: إن الشاه أمر برفع المكفرات ووكلني على ذلك، فأول كفر أرفعه الكفر الصادر منك حيث قصدت تحقير العلماء وإهانتهم، ولا أرضى برفعه إلا بقتلك ثم أقوم من مجلسه وأذهب إلى الشاه لأخبره بالواقعة! ». صحيح أن الرجل لم يفعل ما فكر به؛ إذ ظهر له أنه أساء الظن، ولكن ما جال في خاطره وسطره بيده يدل على الحالة النفسية التي كان داخلاً للحوار من خلالها. وقد ظهر في الكتاب نفسه أن السويدي أساء الظن بالرجل، « فلما استقر بي الجلوس نهض على قدميه ورحب بي... فلما قام علمت أن هذه عادتهم يقومون بعد جلوس القادم ». مؤتمر النجف: مقتطف من مذكرات علامة العراق وعماد هذا المؤتمر السيد عبد الله بن الحسين السويدي العباسي (١١٠٤ - ١١٧٤ هـ)، (ص ٧٣، ٧٤)، (ط ٨) القاهرة، المطبعة السلفية (١٣٩٣).

خلال دراسة الكتاب والسنة ومنهجهما في مناقشة المخالفين، في كلية الشريعة وكلية دار العلوم، حرسهما الله تعالى.

أما عن غاية هذا البحث والمؤمل منه:

- تجلية عقائد الإمامية من خلال مصادرهم الأصلية الموثوقة؛ توخيًا للإنصاف، دون قبول ما يُكتب عنهم بيد خصومهم.

- الاستيثاق من صحة ما ينسب إلى الاثني عشرية من عقائد؛ لأنها إنما وجدت ضمن المصادر الأصلية حيث لا مجال لدخول التقية فيها، بخلاف بعض التصريحات والكتب المؤلفة للتسويق والدعوة للتشيع، تلك التصريحات التي تغلفها المجاملات أو التقية.

- معرفة ما اتفق عليه السنة والشيعة من عقائد، وما اختلفوا فيه منها.

- إزاحة ما تراكم لدى أهل السنة والشيعة من سوء فهم للآخر على مدى السنين بسبب البعد عن المصادر الأصلية أو سوء فهمها.

- وتكون نتائج الدراسة - إن شاء الله - أرضًا صلبة لأي نقاش بين أهل السنة والشيعة الاثني عشرية بعد تجلية عقائد كلا الجانبين.

والله تعالى هو الموفق والمعين، والهادي إلى الصراط المستقيم.

د. مُحَمَّد زَكْرِيَّا النَّدَاف

مَدْخَل

تاريخ الأمة المسلمة بعد انتقال
النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى

إن مما يساعد على معرفة التشيع ونشأته وفرقه وآرائه هو معرفة تاريخ الأمة المسلمة في قرونها الأولى من منظور أهل السنة، بحاسنه ومساوئه، مع محاولة النظر إلى القرون الأولى من منظور الشيعة أنفسهم؛ إذ ليس هناك اتفاق بين السنة والشيعة على هذا التاريخ الإسلامي، فتاريخ الصدر الأول وهو التاريخ الذي نشأ فيه التشيع وفرقه ليس هو تاريخًا واحدًا بين السنة والشيعة؛ ذلك لأن كلاً من هاتين الفرقتين ينظر إليه من زاوية مختلفة، وبروايات مختلفة، بحيث يصبح عندنا تاريخان مختلفان لأمة واحدة؛ وكأنهما تاريخان لأمتين مختلفتين؛ إذ ليس هناك اتفاق على المصادر التاريخية، وليس هناك يقين في صدقها كلها على الإطلاق. فعندما يعتمد أهل السنة على تاريخ الطبري والبداية والنهاية لابن كثير - يعتمد الشيعة على كتاب سليم بن قيس وروايات الكافي؛ بحيث يخرج الباحث لهذا التاريخ بنظرات متناقضة.

وما نراه أحياناً من اعتماد أي من الطرفين على مصادر الطرف الآخر المقابلة لمصادره ليس اعترافاً بالآخر ومصادره؛ إنما هو من قبيل المقارنة أو إفحام وإسكات الخصم من خلال مصادره.

في حين ينطق تاريخ أهل السنة بأن النبي ﷺ لم ينصب خليفة من بعده، فقامت الأمة بطريقة أو أخرى باختيار خلفائها، مع الاعتقاد بأفضلية الخلفاء الأربعة الأوائل الذين كان آخرهم علياً ؑ، وأنه كان محبباً لمن سبقه من الخلفاء، مبايعاً لهم ومناصباً، ولم يكن يرى لنفسه أفضلية عليهم، ولم يكن يرى منهجهم العقدي والشرعي مختلفاً عن منهجه، وأنه كان على تناصح وتوادد معهم حتى زوّج ابنته من ثانيهم عمر ؑ وسمى بعض أولاده بأسمائهم (عبد الله، عمر، عثمان). وكانت عهودهم عهود خير وفتوح وامتداد للإسلام، إلى أواخر عهد الخليفة الثالث عثمان ؑ، وأن الفتنة التي وقعت في عهد الخليفة الثالث ؑ وبعيد استشهاده كانت فتنة سياسية يفترض ألا تؤثر على

عقيدة الأمة، ولكن أهوال تلك الأزمة السياسية وأحداثها سببت ظهور بعض الفرق (١) كفرقة الخوارج التي لم ترتض ما ارتضاه علي عليه السلام من التحكيم في صفين (رغم أن هذا لم يكن رأيه الخاص) تلك الفرقة التي أتى عن النبي صلى الله عليه وآله نبوءة بظهورها ووجوب قتالها، كما أن وجود عناصر مشوشة خارجية من السبئية اليهودية متمثلة في عبد الله بن سبأ اليهودي وأتباعه من الغلاة المحرضة على اقتتال المسلمين وتفرقهم، وتحويلهم إلى الغلو العقدي في علي عليه السلام - سبب ظهور بعض الغلاة في علي، الذين حرق علي عليه السلام بعضهم. وبهذا يكون علي عليه السلام قد حارب على ثلاثة محاور:

محور داخلي عقدي تمثل بالغلاة فيه؛ حارب غلوهم، وحرق بعضهم تشنيعاً لاعتقادهم، وكان وراءهم عبد الله بن سبأ اليهودي اليميني. ومحور داخلي عقدي وعسكري، يمثله الخوارج الذين كانوا من شيعته بالأمس، ولكن خرجوا عليه بسبب مسألة التحكيم في صفين، فحاججهم وبعث لهم ابن عباس رضي الله عنه يردّ شبههم، فلما يئس من رجوعهم حاربهم. ومحور عسكري سياسي: يمثله أهل الشام، ولم يكن في هذا المحور أي خلاف عقدي - كما صرح علي عليه السلام نفسه بذلك في نهج البلاغة، وإنما هو خلاف حول السلطة الشرعية.

(١) قال ابن حزم: « مات رسول الله صلى الله عليه وآله والإسلام قد انتشر وظهر في جميع جزيرة العرب... كلهم قد أسلم وبنوا المساجد، ليس منها مدينة ولا قرية ولا محلة لأعراب إلا قد قرئ فيها القرآن في الصلوات، وعلمه الصبيان والرجال والنساء وكتب، ومات رسول الله صلى الله عليه وآله والمسلمون كذلك ليس بينهم اختلاف في شيء أصلاً، بل كلهم أمة واحدة ودين واحد ومقالة واحدة... إلا ما حدث في آخر حياة رسول الله صلى الله عليه وآله وأول خلافة أبي بكر رضي الله عنه من ظهور الأسود العنسي في جهة صنعاء ومسيلمة في اليمامة يدعيان النبوة وهما في ذلك مقرآن بنبوة محمد صلى الله عليه وآله معلنان بذلك، ومن انقسام العرب ومن باليمن من غيرهم أربعة أقسام إثر موته صلى الله عليه وآله؛ فطائفة ثبتت على ما كانت عليه من الإسلام لم تبدل ولزمت طاعة أبي بكر، وهم الجمهور والأكثر، وطائفة بقيت على الإسلام أيضاً إلا أنهم قالوا: نقيم الصلاة وشرايع الإسلام، إلا أننا لا نؤدي الزكاة إلى أبي بكر ولا نعطي طاعة لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله... وطائفة ثالثة أعلنت بالكفر والردة كأصحاب طليحة وسجاح وسائر من ارتد... أخرج إليهم أبو بكر البعوث، فقتل مسيلمة، وقد كان فيروز وذاذويه الفارسيان الفاضلان رضي الله عنهما قتل الأسود العنسي. فلم يمض عام واحد حتى راجع الجميع الإسلام أولهم عن آخرهم، وأسلمت سجاح وطليحة وغيرهم، وإنما كانت نزعة من الشيطان، كئنا اشتعلت فأطفأها الله للوقت، ثم مات أبو بكر وولي عمر ففتحت بلاد الفرس طولاً وعرضاً، وفتحت الشام كلها والجزيرة ومصر كلها، ولم يبق مصر إلا وبنيت فيه المساجد ونسخت فيه المصاحف وقرأ الأئمة القرآن وعلمه الصبيان في المكاتب شرقاً وغرباً، وبقي كذلك عشرة أعوام وأشهرًا والمؤمنون كلهم لا اختلاف بينهم في شيء بل ملة واحدة ومقالة واحدة... ثم ولي عثمان فزادت الفتوح واتسع الأمر... وبموته حصل الاختلاف وابتداء أمر الروافض « اهـ. [الفصل في الملل والأهواء والنحل (٦٦/٢، ٦٧) مكتبة الخانجي - القاهرة].

وكان لتلك المحاور الثلاثة دورها في ضياع المحور الرابع وهو المحور الخارجي الذي كان الأولى للمسلمين في ذلك العهد صرف جهودهم العلمية والعسكرية تجاهه في البلاد التي لم تصلها دعوة الإسلام، ولم يذعن طغاتها لدعوة الإسلام؛ إذ انحسرت في هذه المرحلة حركة الفتوحات الإسلامية التي كانت على أوجها في العهود السابقة ثم من بعده في العهود اللاحقة.

ولم يكن استعمال لقب « الشيعة » في عهد علي عليه السلام إلا بمعنى الموالية والنصرة، ولا يعني بحال الإيمان بعقيدة من عقائد الشيعة اليوم ^(١)، « فإذا أطلقت كلمة شيعة على هذه الجماعات فإنها لا تخرج في دلالتها على معناها اللغوي العام الذي يشير إلى الأتباع والأنصار » ^(٢).

وانتقل عليه السلام إلى الرفيق الأعلى دون وصية منه لأحد من بنيه في الخلافة، ولكن أتباعه (شيعة) - بالمعنى اللغوي ذي الجانب السياسي - بايعوا ابنه الحسن عليه السلام والذي رأى أن وحدة الأمة خير من فرقتها، ولو كان ذلك على حساب خلافته؛ فتنازل لمعاوية عليه السلام عن الخلافة فسمي ذلك العام: عام الجماعة.

وإن كانت الأمة تعدّ ما فعله معاوية عليه السلام من مبايعة ابنه يزيد خطأ سياسيًا، لا يستلزم التكفير ولا التفسيق؛ فإنها ترى مقتل الحسين وكثير من أسرته في كربلاء فاجعة شديدة وذنبا عظيما يتحمله يزيد وواليه عبيد الله بن زياد وكل من اشترك في قتل ريحانة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، هذه الفاجعة أفسدت ما بناه الحسن عليه السلام في عام الجماعة، ومزقت الأمة ووحدتها من جديد، فتحرّكت مظاهر الغلو مرة أخرى - بعد أن وأدها علي عليه السلام في مهدها - على يد المختار الثقفي وحركة « التوابين » في العراق، وما صاحب ذلك من ظلم سياسي نتج عنه ثورات كثيرة كانت أنظار الناس تتجه إلى قادتها من آل البيت. كل تلك الأحداث الجسام حركت كوامن الماضي وفتحت المجال لغياب العقل وفيضان العاطفة الذي استغله أعداء الإسلام؛ فنشأت الفرق الغالية ومنها غلاة الشيعة وغيرهم، « وصار التشيع وسيلة لكل من أراد هدم الإسلام من ملحد ومنافق وطاغوت،

(١) د. ناصر بن عبد الله علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية: عرض ونقد (١/٩٨)، مكتبة الرضا - القاهرة (ط ٣)، (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).

(٢) أستاذنا الدكتور عبد الفتاح الفاوي: المنظومة الشيعية وآلياتها (ص ٨٨) كلية دار العلوم - جامعة القاهرة مجلة حوليات دار العلوم العدد (١٧) سنة (١٩٩٤م) مطبعة جامعة القاهرة (١٩٩٥م).

ودخلت إلى المسلمين أفكار ومعتقدات أجنبية اكتست بثوب التشيع وتيسر دخولها تحت غطاءه» (١).

هذا مختصر شديد لأحداث التاريخ المرتبط بنشأة التشيع؛ كما تذكرها كتب تاريخ أهل السنة. فما هي نظرة أهل التشيع لهذا التاريخ؟
نظرة أهل التشيع الاثني عشري لهذا التاريخ:

إنه تاريخ آخر.. كأنه لأمة أخرى ليست هي الأمة التي خاطبها الله تعالى بقوله:
﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

مختصر هذا التاريخ يقول: إن التشيع له مبتدأ مفروق في القدم: من عهد آدم على أبعد الأقوال وأغورها، أو من عهد النبي ﷺ على أقرب الأقوال، وهو الحيز المتفق عليه بين الشيعة أنفسهم.

يقول هذا التاريخ: إن الله تعالى أثبت وصية علي بن أبي طالب عليه السلام وبنيه كما أثبت وصية هارون عليه السلام، وأنه ﷺ أعلن ذلك في عدة أحاديث؛ أشهرها حديث الغدير، وبه كمل الدين، ولكن الأمة بعد وفاة النبي ﷺ تنكبت عن هذا الأمر، « فلما قبض النبي ﷺ افترست الذئاب وتهارشت الكلاب » (٢)؟! فضيقت حق علي وبنيه عندما رضيت بيعة أبي بكر ثم عمر ثم عثمان، الذين تزعم الروايات الشيعية أنهم مكروا بعلي وفاطمة وأولادهما لسلبهم الخلافة، وأن علياً عليه السلام إنما سكت عن حقه من أجل مصلحة الأمة تَقِيَّةً.

ويذكر كتاب سليم بن قيس (أقدم كتاب تاريخي مشهور ومتداول بين الشيعة) أن فاطمة تحركت تطوف بيوت الأنصار تذكُرهم بوصية النبي ﷺ فلم يستجيبوا لها، وأجبر علي عليه السلام على البيعة بالخلافة ممن أذعنوا لبيعته زمن النبي ﷺ حتى قال الشاعر:

بايعوه وبعدها طلبوا البيعة منه! لله ريب الدهور (٣)

وتذكر الروايات الشيعية أن تلامذة النبي ﷺ الأوائل كادوا يحرقون بيت فاطمة وهي بداخله، ونالها من إيداء عمر ما نالها، ثم ماتت وهي ساخطة على هذه الأمة ممثلة

(١) د. ناصر بن عبد الله علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية عرض ونقد (٩٨/١).

(٢) الخنيزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٤٤)، مؤسسة البلاغ - بيروت (١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م).

(٣) الخنيزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٣٩).

بأبي بكر وعمر^(١). وأنه لم يثبت على وصية النبي ﷺ إلا بضعة أشخاص من الصحابة أشهرهم عمار وأبو ذر وسلمان؟ وجابر بن عبد الله الأنصاري^(٢)، فارتدت الأمة إذن بعد وفاة نبيها؛ لأنها خالفت أمره في الإمامة التي ليست منصبًا دنيويًا متروكًا لاجتهاد الأمة كما يرى أهل السنة؛ ولكنها منصب ديني وركن ركين من عقائد الدين.

(١) قال سليم: « وضع عمر النار بالباب وهو متخوف أن يخرج علي ﷺ بسيفه لما عرف من بأسه وشدته حتى احترق الباب. ثم قال لقتنذ: اقتحم عليه فأخرجه، فاقتمح هو وأصحابه، وثار علي ﷺ إلى سيفه فسبقوا إليه وكاثروه فضبطوه وألقوا في عنقه حبلاً. وجاءت فاطمة ﷺ لتحول بينهم وبينه، فضربها قنفذ بسوطه وأضغطت بين الباب فصاحت: يا أبتاه يا رسول الله! وألقت جنيثا ميتا، وأثر سوط قنفذ في عضدها مثل الدملاج، ثم أمر أناسا حوله أن يحملوا الحطب فحملوا الحطب وحمل معهم عمر، فجعلوه حول منزل علي وفاطمة وابنيهما ﷺ. ثم نادى عمر حتى أسمع عليًا وفاطمة ﷺ: (والله لتخرجن يا علي ولتبايعن خليفة رسول الله وإلا أضرمت عليك بيتك النار) فقالت فاطمة ﷺ: يا عمرا ما لنا ولك؟ فقال: افتحي الباب وإلا أحرقتنا عليكم بيتكم، فقالت: (يا عمر، أما تتقي الله تدخل علي بيتي)؟ فأبى أن ينصرف. ودعا عمر بالنار فأضرمها في الباب ثم دفعه فدخل، فاستقبلته فاطمة ﷺ وصاحت: (يا أبتاه يا رسول الله) فرفع عمر السيف وهو في غمده فوجأ به جنبها فصرخت: (يا أبتاه) فرفع السوط فضرب به ذراعها فنادت: (يا رسول الله، لبس ما خلفك أبو بكر وعمر)... وقد كان قنفذ لعنه الله ضرب فاطمة ﷺ بالسوط - حين حالت بينه وبين زوجها، وأرسل إليه عمر: (إن حالت بينك وبينه فاطمة فاضربها) - فألجأها قنفذ لعنه الله إلى عضادة باب بيتها ودفعها فكسر ضلعها من جنبها فألقت جنيثا من بطنها، فلم تزل صاحبة فراش حتى ماتت صلى الله عليها من ذلك شهيدة. قال: ولما انتهى بعلي ﷺ إلى أبي بكر انتهره عمر وقال له: بايع ودع عنك هذه الأباطيل، فقال ﷺ له: فإن لم أفعل فما أنتم صانعون؟ قالوا: نقتلك ذلاً وصغاراً... قال: أتجحدون أن رسول الله ﷺ أخى بيني وبينه؟ قال: نعم. فأعاد ذلك عليهم ثلاث مرات. ثم أقبل عليهم علي ﷺ فقال: يا معشر المسلمين والمهاجرين والأنصار، أنشدكم الله، أسمعتم رسول الله ﷺ يقول يوم غدیر خم كذا وكذا وفي غزوة تبوك كذا وكذا؟ فلم يدع عليه السلام شيئاً قاله فيه رسول الله ﷺ علانية للعامة إلا ذكرهم إياه. قالوا: اللهم نعم... فنادى علي ﷺ قبل أن يبايع - والحبل في عنقه - : ﴿ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوْنِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي ﴾ [الأعراف: ١٥٠] « كتاب سليم بن قيس (ص ١٥٠، ١٥٣، ١٥٨). تحقيق محمد باقر الأنصاري، وهو يمتدحه مدحا هائلا في مقدمته، مع أن الشيخ المفيد - من أعلام الاثني عشرية - يقول عن كتاب سليم: « هذا الكتاب غير موثوق به ولا يجوز العمل على أكثره وقد حصل فيه تخليط وتدليس » (المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق: ص ١٢٦).

(٢) قال ابن المرتضى المنية والأمل (ص ١٢٤، ١٢٥) (وهو من الزيدية): « فإن زعموا أن عمارًا، وأبا ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وسلمان الفارسي كانوا سلفهم؛ لقولهم بإمامة علي ﷺ أكذبهم كون هؤلاء لم يظهروا البراءة من الشيخين ولا السب لهم، ألا ترى أن عمارًا كان عاملاً لعمر بن الخطاب في الكوفة [انظر: ابن الأثير: أسد الغابة (٦٤/٤)، ابن حجر: الإصابة (٥٠٦/٢)، ابن عبد البر: الاستيعاب (٤٧٣/٢)]، وسلمان الفارسي في المدائن « طبقات ابن سعد (٨٧/٤). وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٨٢/١).

أما ما جرى من حرب الردة على عهد أبي بكر؛ فإنما كان لأن القبائل لم ترتض أبا بكر خليفة؛ لأنهم يعلمون أن عليًا هو الخليفة بعد النبي ﷺ، وليس أبا بكر؛ ولذلك فلم تكن (حروب الردة) صوابًا ولا جهادًا، بل ظلمًا وزيادة في الطغيان؛ لإجبار الناس على الدخول في بيعة أبي بكر، وكذلك كانت الفتوحات الإسلامية في عهد الثلاثة (وهو لقب الخلفاء الثلاثة الراشدين قبل علي عند الشيعة) لأطماع دنيوية، وكذلك كانت الفتوحات في عهود الأمويين والعباسيين من أجل حطام الدنيا لا من أجل الدعوة والعقيدة!

ولم تكن الوصية النبوية لخلافة علي عليه السلام له وحده، بل هي وصية له وأحد عشر رجلًا من أولاده وأحفاده، وأن آخرهم ولد واختفى وأنه في سرداب ينتظر أمر ربه بالخروج ليقوم العوج ويصلح ما أفسده الرعيل الأول، ويُخرج صاحبي النبي ﷺ فينتقم منهما.

وكل مفاخر أهل السنة من فتوحات ومن حكومات ودول إنما هي هباء لا قيمة له في النظرة الشيعية؛ لأنها إنما كانت على حساب غضب الخلافة من علي وبنيه. علاوة على أن «الفتوح الإسلامية كان القصد الأول منها السيطرة، وامتداد السلطان، وإيجاد أرض للمسلمين يعيشون فيها أغنى من أرضهم، وتربة أخصب من تربتهم»^(١).

هذه نظرة الشيعة لتاريخ القرون الإسلامية الأولى^(٢).

وهي نظرة مختلفة تمامًا عن نظرة أهل السنة الذين ينكرون هذه النظرة الشيعية الظالمة للتاريخ، ويرون أن «الشيعة حزب؛ وهم لذلك يزيفون كل ما يقف عقبة في سبيل توطيد مركزهم، ويتهافتون على كل ما يتوهمون أنه يساعدهم، ويؤولون التاريخ حسب ما تهوى نفوسهم»^(٣). ومن العجب أن يستقي بعض كتاب أهل السنة أحداث التاريخ من هذه النظرة الشيعية^(٤)!

(١) الكاتب الشيعي: محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ١٢٧)، (ط ٤) دار الشروق - بيروت.

(٢) انظر: مرتضى العسكري: معالم المدرستين (١/٤٦٠ - ٥٥٠ - ٥٥٦) المجمع العلمي الإسلامي (ط ٦) (١٣١٤هـ / ١٩٩٤م).

(٣) الشيخ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٣٢). طبعة دار المعارف - القاهرة (١٩٨٤م).

(٤) كما فعل د. علي سامي النشار في كتابه نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام؛ إذ يروي رواية قريبة من رواية سليم بن قيس، وفيها أن أبا بكر وعمر وأتباعهما هجموا على بيت فاطمة لما علموا دخول بعض الصحابة بيتها، فقالت: «والله! لتخرجنَّ أو لأكشفن شعري ولأعجنن إلى الله. فخشي الصحابة دعوتها وخرجوا!!» نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢/٢٥٠). حاشا لله! لا يفعل الشيخان مثل هذا بينت رسول الله، وحاشا بنت النبي ﷺ أن تكشف شعرها، وهي الزهراء البتول عليها السلام.

هذا ملخص تاريخ الأمة الإسلامية بعد انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى، عرضته من منظرين مختلفين، كما هو في عيون أهل السنة والجماعة وعيون الشيعة الاثني عشرية. ولا شك أن هذا التاريخ سيقى ماثلاً في عقول أبناء الطائفتين، وستبني كل طائفة مستقبلها بناء على تصورها الخاص لهذا التاريخ؛ ومن ههنا ستأتي النتائج مختلفة بين الفريقين. وسنعرض فيما يلي تصور كل طائفة منهما لتعريف التشيع وتحليل مفاهيمه.

* * *

تمهيد



- تعريف الشيعة والتشيع.
 - فرق الشيعة.
 - عوامل نشوء وتطور الفكر الشيعي.
- أولاً: تعريف الشيعة والتشيع:

لغة:

قال ابن منظور (ت ٧١١ هـ): « الشيعة أتباع الرجل وأنصاره، وجمعها شيع، وأشياح جمع الجمع... وأصل الشيعة: الفرقة من الناس، ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد، وقد غلب هذا الاسم على من يتولى علياً وأهل بيته - رضوان الله عليهم أجمعين - حتى صار لهم اسماً خاصاً، فإذا قيل: فلان من الشيعة عرف أنه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي: عندهم، وأصل ذلك من المشايعة وهي المتابعة والمطاوعة...

والشيعة: قوم يرون رأي غيرهم، وتشايح القوم: صاروا شيعاً، وتشيع الرجل إذا ادعى دعوى الشيعة، وشايحه شياحاً وشيعة تابعه... وشيعة على رأيه وشايحه، كلاهما: تابعه وقواه... وشاعت القطرة من اللبن في الماء وتشيعت: تفرقت. تقول: تقطر قطرة من لبن في الماء، وشييع فيه أي تفرق فيه » (١).

وقال الزبيدي (ت ١٢٠٥ هـ): « كل من عاون إنساناً وتحزّب له فهو له شيعة، وأصل الشيعة من المشايعة وهي المتابعة » (٢).

فالشيعة، والتشيع، والمشايعة في اللغة تدور حول معنى المتابعة، والمناصرة، والموافقة بالرأي، والاجتماع على الأمر، أو الممالأة عليه (٣).

(١) لسان العرب: مادة: ش ي ع (١٨٨ / ٨ - ١٩٢)، مختار الصحاح (ص ١٤٨) مادة شيع، وانظر النهاية في غريب الحديث (١١٥ / ٢).

(٢) تاج العروس (٤٠٥ / ٥)، مادة (ش ي ع).

(٣) د. ناصر بن عبد الله علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٦ / ١).

وهذا التعريف اللغوي للشيعة محل اتفاق؛ ولذلك تقول دائرة المعارف الشيعية العامة: « الشيعة بالكسر الأتباع والأنصار، وقد غلب على كل من يتولى عليًا وأهل بيته »^(١). ولكن إذا دار معنى كلمة التشيع على الاجتماع والناصر، فإن له في الوقت نفسه معنى آخر، يدل على عكس ذلك؛ فالتشيع يحمل في طياته معانيه التفرق والتشردم؛ لأن التشيع تجتمع من ناحية، وتشردم وتفرق عن باقي الشيع والفرق من ناحية أخرى، كما مر في لسان العرب (الشيعة: قوم يرون رأي غيرهم)، وهذا ما أشار إليه الجرجاني عندما بين أن الشيع في اللغة يدل على معنى الانتشار أيضًا، يقال: شاع القوم أي: انتشروا^(٢).

التعريف الاصطلاحي للشيعة والتشيع:

إن التعريف الاصطلاحي لكلمة الشيعة ليس متفقًا عليه بين السنة والشيعة، ولا بين الشيعة أنفسهم، ولا يمكن الوصول إلى تعريف واضح ومقتنع لهذا المصطلح إلا بعد التعرف على تاريخ نشوئه.

- أولاً: مفهوم كلمة الشيعة من منظور الشيعة الاثني عشرية أنفسهم:

لفظ الشيعة اصطلاحياً لدى الشيعة الاثني عشرية لفظ قديم، على اعتبار أنهم يعدون التشيع امتداداً من حياة النبي ﷺ الذي يرون أنه نصّ على خلافة علي عليه السلام والأحد عشر خليفة من ذريته^(٣).

بل من الشيعة من يرى أن التشيع أقدم من هذا بكثير: فيرى القمي في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصفافات: ٨٣]: «أي إن إبراهيم من شيعة علي»^(٤)!! جاء في أصول الكافي - أشهر كتب الحديث الاثني عشرية - عن أبي الحسن عليه السلام:

(١) دائرة المعارف الشيعية العامة، العلامة محمد حسين الأعلمي الحائري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت (١٩٦/١١).

(٢) الجرجاني: التعريفات (ص ٤٤٣) دار الكتاب العربي بيروت (١٤٠٥هـ)، (ط ١) تحقيق إبراهيم الأبياري. الراغب الأصفهاني: مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق صفوان داودي (ص ٤٧٠).

(٣) أصول الكافي (٦٠٦/١) كتاب الحجّة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم.

(٤) انظر: القمي: تفسير القمي (٣٢٣/٢)، المجلسي: بحار الأنوار (١٢/٦٨، ١٣) ونسبوا هذا إلى جعفر الصادق. وقد خالف بعض مفسري الشيعة هذا التفسير كالطبرسي في مجمع البيان (٦٧/٥) ففسر الآية قريباً من قول أهل السنة، وأعرض عن رأي القمي والمجلسي وغيرهما.

قال: « ولاية علي عليه السلام مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولاَ إلا بنبوة محمد صلى الله عليه وآله ووصيه علي عليه السلام » (١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبياَ قط إلا بها » (٢). وقد جاء تعريف القمي (٣) وكذلك النوبختي (٤) للشيعة بأنهم « فرقة علي بن أبي طالب المسمون شيعة علي في زمان النبي صلى الله عليه وآله وبعده، معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته » (٥)، وهو تعريف يجمع كل فرق الشيعة الاثني عشرية وغيرها، فيدخل فيه الزيدية وغيرهم، كما يدخل فيه أنصار علي مطلقاً حتى من وافقه سياسياً من الصحابة الكرام، كعمار ابن ياسر رضي الله عنه؛ فهذا التعريف ليس منطبقاً فقط على الاثني عشرية.

يقول الشيخ ابن البراج الشيعي: « إذا وقف إنسان شيئاً على المسلمين كان ذلك لجميع من أقر بالشهادتين، وأركان الشريعة؛ من الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والجهاد. فإن وقفه على المؤمنين؛ كان ذلك لجتنتي الكبائر من أهل الحق والمعرفة بالإمامة دون غيرهم، ودون الفساق منهم. فإن وقفه على الشيعة، ولم يعين منهم فرقة دون أخرى، ولا قوماً دون قوم - كان ذلك جارياً على الشيعة الإمامية، والجارودية وجميع فرق الشيعة، من الكيسانية، والناووسية، والفتحية، والواقفية، والاثني عشرية، إلا البترية؛ فإنهم لا يدخلون معهم جملة. فإن وقفه على الإمامية؛ كان جارياً على القائلين بإمامة الاثني عشر، فإن وقفه على الزيدية؛ كان جارياً على القائلين بإمامة زيد بن علي، وإمامة كل من خرج بالسيف من ولد فاطمة عليها السلام » (٦).

(١) أصول الكافي (١/٥٠٧). كتاب الحجّة، باث فيه تنفّ وجوامع من الرواية في الولاية، نص محقق أصول الكافي على أنه حديث مجهول.

(٢) أصول الكافي (١/٥٠٧). كتاب الحجّة، باث فيه تنفّ وجوامع من الرواية في الولاية.

(٣) القمي: سعد بن عبد الله القمي، هو عند الشيعة جليل القدر، واسع الأخبار، كثير التصنيف، ثقة. من كتبه: الضياء في الإمامة، ومقالات الإمامية، توفي سنة (٣٠١ هـ) وقيل: (٢٩٩ هـ). انظر: الطوسي: الفهرست (ص ١٠٥)، الأردبيلي: جامع الرواة (١/٣٥٥).

(٤) الحسن بن موسى النوبختي: أبو محمد، متكلم، فيلسوف، قال الطوسي: كان إمامياً حسن الاعتقاد، له مصنفات كثيرة منها: كتاب الآراء والديانات. توفي بعد الثلاثمائة. انظر في ترجمته: الطوسي: الفهرست (ص ٧٥)، الأردبيلي: جامع الرواة (١/٢٢٨)، ابن النديم: الفهرست (ص ١٧٧)، القمي: الكنى والألقاب (١/١٤٨)، كحالة: معجم المؤلفين (٣/٢٩٨)، الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٥/٣٢٧).

(٥) القمي: المقالات والفرق (ص ٣). والنوبختي: فرق الشيعة (ص ١٧ - ٢٠).

(٦) القاضي عبد العزيز بن البراج الطرابلسي (ت ٤٨١ هـ)، المهذب (٢/٨٩)، مؤسسة النشر التابعة لجماعة =

ويقول عبد الله شبر (ت ١٢٤٢ هـ): « إن لفظ الشيعة يطلق على من قال بخلافة أمير المؤمنين عليه السلام بعد النبي صلى الله عليه وآله بلا فصل، والمخالف في ذلك العامة ^(١)، ولفظ الإمامية والاثني عشرية مختص بمن قال بإمامة الاثني عشر صلوات الله عليهم، والمخالف في ذلك سائر فرق الشيعة » ^(٢).

وهناك تعاريف أخرى تبدأ بحصر مفهوم الشيعة في أقوام دون أقوام منهم، كالتعريف الذي نقله النجاشي عن أبان بن عثمان - أحد أصحاب الصادق والباقر وزين العابدين - : « الشيعة: الذين إذا اختلف الناس عن رسول الله أخذوا بقول علي، وإذا اختلف الناس عن علي أخذوا بقول جعفر بن محمد » ^(٣).

ومن هذه التعاريف تعريف الشيخ المفيد ^(٤): « أتباع أمير المؤمنين صلوات الله عليه، على سبيل الولاء والاعتقاد لإمامته بعد الرسول صلوات الله عليه وآله بلا فصل، ونفي الإمامة عمن تقدمه في مقام الخلافة، وجعله في الاعتقاد متبوعاً لهم غير تابع لأحد منهم على وجه الاقتداء » ^(٥).

ولذلك فالتعريف هنا ينتقل من الشيعة العامة إلى الشيعة العقدية الخاصة، بسماتها الاثني عشرية، وأهم ضروراتها: إنكار إمامة الخلفاء الراشدين الثلاثة، والقول بإمامة علي منذ وفاة النبي صلى الله عليه وآله دون فصل زمني.

ولذلك يؤكد المفيد أنه لا يدخل في هذا التعريف إلا الإمامية والجارودية ^(٦) من

= المدرسين، المطبعة العلمية رقم (١٤٠٦) تحت إشراف الشيخ جعفر السبحاني.

(١) مصطلح العامة عند الاثني عشرية، يعني من خالفهم من الفرق، كأهل السنة والجماعة. ويقابله مصطلح: الخاصة، أي: الاثني عشرية كما سنرى.

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٥١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (ط ١)، (١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م).

(٣) أحمد بن علي النجاشي: رجال النجاشي (٨٧/١). تحقيق محمد جواد النائيني (ط ١) دار الأضواء - بيروت.

(٤) محمد بن محمد النعمان الكعبري الملقب بالمفيد شيخ الطائفة، وله قريب من مائتي مصنف. ومات سنة (٤١٣ هـ). انظر في ترجمته: الطوسي: الفهرست (ص ١٩٠)، ابن النديم: الفهرست (ص ١٩٧)،

وقارن: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٢٣١/٣)، ابن الجوزي / المنتظم (١١٨/٨).

(٥) أوائل المقالات (ص ٣٩). ويفهم أن قوله (على وجه الاقتداء) لإخراج المفيد التصرفات التي اقتدى فيها علي بالأئمة الثلاثة قبله عليه السلام، مخرج التقية والمداراة، لا الطاعة والاقتداء.

(٦) الجارودية: فرقة من فرق الزيدية وتسبب إلى أبي الجارود زيد بن المنذر الهمداني الأعمى الكوفي. قال عنه

أبو حاتم: كان رافضياً، يضع الحديث في مثالب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله ورضي الله عنهم... ومن مقالة =

الزيدية فقط؛ لأنها تقول بتعيين الإمام علي بعد النبي ﷺ إمامًا، وأن الناس ضلوا من بعده. وهم بهذا يوافقون الاثني عشرية في هذا الجانب المهم من عقيدة الإمامة، أما باقي الزيدية (١) والكيسانية (٢) فلا تشملهم كلمة الشيعة حسب تعريف المفيد، على خلاف تعريف القمي والنوبختي (٣).

ولما كان تعريف المفيد قد أغفل جانب النص على الإمام علي من النبي ﷺ، فقد جاء تعريف الطوسي (٤) ليحصر الشيعة أكثر فأكثر؛ فيربط وصف التشيع بالاعتقاد بكون علي إمامًا للمسلمين بوصية من الرسول ﷺ وبإرادة من الله (٥). وهو التعريف الذي يرتضيه محمد جواد مغنية من المعاصرين فيقول في لفظ الشيعة أنه « علم على من يؤمن بأن عليًا هو الخليفة بنص النبي » (٦). وهذا التعريف يؤكد أن أهم عنصر من عناصر عقيدة الشيعة الاثني عشرية هو عنصر الإمامة والنص على الإمام بالذات.

ويرتضي عبد الله فياض - وهو شيعي - تعريف ابن حزم للشيعة ويراه من أدق التعاريف (٧): « يقول ابن حزم: « ومن وافق الشيعة في أن عليًا ﷺ أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأحقهم بالإمامة وولده من بعده؛ فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا

= الجارودية: أن رسول الله ﷺ نص على علي ﷺ بالإشارة والوصف دون التسمية والتعيين، وأن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره، انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٢١)، الأشعري: مقالات الإسلاميين (٦٦/١، ٦٧).

(١) الزيدية نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين، كان يفضل عليًا على باقي الصحابة، ولكنه كان يتولى الشيخين ويرى الخروج على أئمة الجور. انظر: مقالات الإسلاميين (٦٦/١، ٦٧)، الهيئة العامة لقصور الثقافة (ط ٤)، (١٤٢١هـ / ٢٠٠١م).

(٢) سموا بالكيسانية نسبة إلى زعيمها المختار الثقفي الذي كان يقال له: (كيسان) ويقال: هو مولى علي ﷺ، وهي إحدى عشرة فرقة تدعي إمامة محمد ابن الحنفية، منهم من وقف الإمامة عليه وقال إنه بجبال رضوى، ومنهم من قال بإمامة ابنه أبي هاشم من بعده، ومنهم من يقول برجعة محمد بن الحنفية. انظر: الأشعري مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين (٢١/١).

(٣) انظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٥٠/١).

(٤) أبو جعفر محمد بن الحسين بن علي الطوسي هو عندهم شيخ الإمامية ورئيس الطائفة، وهو مؤلف كتابين من كتبهم الأربعة (التي هي كالكتب الستة عند أهل السنة) وهما: تهذيب (الأحكام) و (الاستبصار)، توفي سنة (٤٦٠هـ). انظر: القمي: الكنى والألقاب (٣٥٧/٢)، وانظر: لسان الميزان لابن حجر (١٣٥/٥).

(٥) تلخيص الشافي (٥٦/٢).

(٦) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ١٥).

(٧) عبد الله فياض: تاريخ الإمامية (ص ٣٣).

ذلك مما اختلف فيه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعيًا» (١).
ولذلك جاء في دائرة المعارف الشيعية: «الشيعي: في مقابل السني ينصرف أولاً إلى الإمامية» (٢).

أما تعريف الشيعة على لسان أئمة أهل البيت؛ فلم يكن هذا ولا ذاك من التعاريف السابقة، بل كان تعريفاً موحداً للأمة لا مفرقاً لها: فعن أبي جعفر (ع) قال: «لا تذهب بكم المذاهب، فوالله ما شيعتنا إلا من أطاع الله ﷻ» (٣). أي: «لا تحسبوا أن مجرد القول بالشيعة كافٍ في النجاة... من دون مشايعة لنا في عبادة الله تعالى» (٤).
- مفهوم الشيعة والتشيع عند أهل السنة:

لقد لاحظ أهل السنة تطور مفهوم التشيع تطوراً كبيراً عبر التاريخ. فتعريف الشيعة مرتبط أساساً بأطوار نشأتهم ومراحل تطور آرائهم؛ ذلك أن عقائد الشيعة وأفكارهم «في تغير وتطور مستمر، فالتشيع في العصر الأول غير التشيع فيما بعده» (٥). ولذلك يرى كتاب أهل السنة «أن الشيعة كفكر وعقيدة لم تولد فجأة، بل إنها أخذت طوراً زمنيّاً، ومرت بمراحل» (٦).

فقد كان التشيع في البداية لفظاً عاماً يطلق على كل جماعة اجتمعت على رأي؛ فقد وردت في القرآن الكريم على عدة معانٍ:

أحدها: الفرقة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩].
وقوله في حق فرعون: ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا﴾ [القصص: ٤].

والثاني: الأهل والنسب، ومنه قوله تعالى في حق موسى ﷺ: ﴿هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [القصص: ١٥].

والثالث: أهل الملة، ومنه قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٠٧/٢).

(٢) دائرة المعارف الشيعية العامة، العلامة محمد حسين الأعلمي الحائري، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (٢٠١/١١).

(٣) أصول الكافي (٧٩/٢) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى.

(٤) الوافي شرح الكافي (٦٠/٣).

(٥) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٦٤/١).

(٦) المرجع السابق (٩٥/١).

عَيْنًا ﴿ [مريم: ٦٩]، وقوله: ﴿ وَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ٥١]،
وقوله: ﴿ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ ﴾ [سبأ: ٥٤]. وقوله: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾
[الصفات: ٨٣].

والرابع: الأهواء المختلفة، قال تعالى: ﴿ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيْعًا ﴾ [الأنعام: ٦٥] (١).

والملاحظ أن لفظ الشيعة لم يأت ممدوحاً في القرآن على الغالب، اللهم إلا ما ورد في
حق نبي الله إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ [الصفات: ٨٣]؛ لأن « لفظ
الشيعة من الشيعاء والإشاعة التي هي ضد الائتلاف والاجتماع » (٢).

وكذلك وردت في السنة لفظاً عاماً يشمل كل الفرق، حتى الخوارج؛ فقد قال رجل
للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: لم أرك عدلت قال: فغضب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثم قال: « ... فإنه سيكون له
شيعة يتعمقون في الدين حتى يخرجوا منه كما يخرج السهم من الرميّة » (٣). ومعلوم أن
هذا النص كان في شأن الخوارج.

وما ورد من روايات حديثة على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم تخص الشيعة (مذهباً عقدياً)
بالمديح أو الذم فإنه لا يصح منها شيء، بل كلها ضعيفة أو موضوعة (٤).

وكذلك في « خلافة أبي بكر وعمر وعثمان لم يكن أحد يسمى من الشيعة،
ولا تضاف الشيعة إلى أحد لا عثمان ولا علي ولا غيرهما، فلما قتل عثمان تفرق
المسلمون؛ فمال قومٌ إلى عثمان، ومال قومٌ إلى علي، واقتتل الطائفتان » وقيل حينئذ:
شيعة عثمان، شيعة علي (٥).

وكذلك ما ثبت من استخدام الصحابة لكلمة الشيعة فيما بعد - لم يكن على

(١) انظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٨/١ - ٤٠).

(٢) ابن قيم الجوزية: بدائع الفوائد (١٥٥/١) وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني
عشرية (٤٠/١).

(٣) مسند الإمام أحمد (٢١٩/٢) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه. صحح إسناده الشيخ أحمد شاكر،
وهذا الرجل الذي أساء الأدب مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو ذو الخويصرة التميمي.

(٤) مثل حديث: « فاستغفرت لعلي وشيعته » ذكره الكنتاني في تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الضعيفة
والموضوعة (٤١٤/١)، وكذلك ذكر ابن الجوزي بعض تلك الأحاديث في كتابه الموضوعات (٣٩٧/١).
وقد نبه ابن تيمية على كذب ووضع الأحاديث التي فيها لفظ الرفضة - وهو معادل لفظ الشيعة تقريباً -
في منهاج السنة (٨/١).

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٩٥/٢).

أساس عقدي، بل على الأساس اللغوي، ولم تكن خاصة بعلي أو أتباعه؛ فقد استخدمت للإشارة إلى أهل الجمل، قال أحد التابعين من مخالفي السيدة عائشة رضي الله عنها في موقفها يوم الجمل: « نهيتها أن تقول في هاتين الشيعتين شيئاً فأبت فيهما إلا مضيئاً »^(١)، واستخدمها الطرفان يوم صفين؛ فهناك شيعة علي وشيعة معاوية، ووردت في وثيقة التحكيم بين علي ومعاوية « بأن علياً وشيعته رضوا بعبد الله بن قيس، ورضي معاوية وشيعته بعمرو ابن العاص »^(٢). وقال معاوية لسر بن أرطأة: « امض حتى تأتي صنعاء، فإن لنا بها شيعة »^(٣). ثم مع مرور الزمن صارت تطلق على من يدعي نصرة آل البيت خاصة، وكانت تدل على ميل عاطفي وموقف سياسي، وليس على اتجاه عقدي.

وقد خالف الأستاذ أحمد أمين ذلك عندما قال: « كانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم أن أهل بيته أولى الناس أن يخلفوه، وأولى أهل البيت العباس عم النبي وعلي ابن عمه، وعلي أولى من العباس... والعباس نفسه لم ينازع علياً في أوليته للخلافة »^(٤).

وهذا القول لا يميز بين التشيع العاطفي أو السياسي البسيط الذي لا يعدو الميل إلى علي عاطفياً أو سياسياً، والتشيع العقدي الذي صار فيما بعد عقيدة خاصة تخالف جمهور المسلمين، فلو صح قول أحمد أمين؛ فلا بد من « القول بأنه إذا وجد تشيع في زمن النبي صلى الله عليه وسلم فلا يمكن أن يكون كالتشيع في العهد الأموي وما بعده »^(٥)؛ حيث اصطبغ بالجانب العقدي إلى العظم.

ولذلك علينا أن نتذكر أن « الشيعة باعتبارها فكرة وعقيدة لم تولد فجأة؛ بل إنها أخذت أطواراً زمنية »^(٦). فالأحداث التاريخية في عهد علي كانت تزيد من ترابط أتباعه

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض رقم (٧٤٦) ترقيم الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. دار إحياء التراث العربي - بيروت (١٣٩٢هـ)، (ط ٢). وقائل القول هو: حكيم بن أفلح.
(٢) الطبري: تاريخ الطبري (٥٣/٥)، محمد حميد الله: مجموعة الوثائق السياسية (ص ٢٨١، ٢٨٢).
(٣) تاريخ اليعقوبي (١٩٧/٢).

(٤) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م)، (ص ٤٢١).

(٥) د. فتحي محمد الرغبني: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (اليهودية والمسيحية والمجوسية) (ص ٣٣)، (ط ١)، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م)، وهو في الأصل رسالة ماجستير، كلية أصول الدين، طنطا، قسم العقيدة والفلسفة (١٩٨٥م).

(٦) د. عمر محمد عبد المنعم الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية، جامعة الأزهر كلية أصول الدين - القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م). (ص ٢١).

عاطفيًا^(١)، حتى قتل ﷺ وجاء ابنه الحسن من بعده، وبقي أتباع أبيه على ولائهم له، وكان هذا سببًا لتعرض مخلصيهم ومشاهيرهم للقتل، فقد « كان زياد يتبع شيعة علي فيقتلهم، فبلغ ذلك الحسن بن علي فقال: اللهم تفرّد بموته فإن القتل كفارة »^(٢). ولكن طيلة هذه الفترة الطويلة لم يكن التشيع سوى اتجاه سياسي؟ ولم يكن قد أخذ وجهًا عقديًا.

ولكن بعد مقتل الحسين ونشوء حركة التوايين^(٣) كان اصطلاح الشيعة قد انحصر فيمن يدعي نصره آل البيت، « وفي سنة خمس وستين تحركت الشيعة في الكوفة، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم على الحسين فلم يغيثوه، ورأوا أنهم أخطئوا بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه، ولقتله إلى جانبهم فلم ينصروه »^(٤) وتكونت حركة التوايين، ثم حركة المختار (الكيسانية) وبدأت الشيعة تتكون وتضع أصول مذهبها، وأخذت تتميز بهذا الاسم^(٥).

« لقد انتهى القرن الأول والتشيع في غالب أمره ميل عاطفي وولاء قلبي لآل البيت من نسل النبي ﷺ، زاد من حرارته ومن مرارته في الوقت نفسه الكوارث التي عاناها قادة هذا البيت من السلطة الأموية، وعلى رأسها كارثة كربلاء، التي ذهب ضحيتها الحسين بن علي سبط الرسول وسيد شباب الجنة »^(٦).

ثم صارت لفظًا عقديًا فيما بعد: « وحكى الجاحظ أنه كان في الصدر الأول لا يسمى شيعيًا إلا من قدم عليًا على عثمان؛ ولذلك قيل: شيعي وعثماني، فالشيعي من قدم عليًا والعثماني من قدم عثمان، وكان واصل بن عطاء ينسب إلى الشيعة في ذلك الزمان؛ لأنه كان يقدم عليًا على عثمان »^(٧).

(١) أقول عاطفيًا؛ لأنه ثبت عن علي ذمهم والشكاية الدائمة منهم بسبب تقاعسهم عن الجهاد. وكذلك فعلوا مع الحسن والحسين ﷺ وهذا ما سيظهر في ثنايا الرسالة.

(٢) الهيثمي: مجمع الزوائد، وقال (٢٦٦/٦): رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح.

(٣) الذين لاموا أنفسهم على تقاعسهم عن نصره الحسين، وصاروا يسعون في قتل قتلته.

(٤) المسعودي (علي بن الحسين، أبو الحسن): مروج الذهب ومعادن الجوهر (١١٠/٢)، وانظر د. علي

سامي النشار (٣٥/٢)، ود. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٤٦/١).

(٥) انظر د. علي سامي النشار (٣٥/٢)، د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٤٦/١).

(٦) الأستاذ الدكتور حسن الشافعي: مدخل إلى علم الكلام (ص ٦٧)، مكتبة وهبة (ط ٢)، (١٤١١هـ / ١٩٩١م).

(٧) د. عبد الفتاح الفاوي: اختلاف المسلمين بين السياسة والدين (ص ٢١).

ويؤكد هذا المعنى ما في كتب الحديث؛ ففي صحيح البخاري عن اثنين من الرواة: « وكان علويًا.. وكان عثمانيًا... »^(١). قال ابن حجر: « (كان عثمانيًا): أي يقدم عثمان على علي في الفضل... (وكان علويًا): أي يقدم عليًا في الفضل على عثمان. وهو مذهب مشهور لجماعة من أهل السنة بالكوفة »^(٢).

ثم تطور لفظ الشيعة فأصبح يطلق على من فضل عليًا على الشيخين، وقد كان ذلك على يد الغلاة زمن علي، وهذا أمر بدهي؛ إذ ادَّعوا إلهية علي، فمن باب أولى أن يفضلوه على غيره من البشر، ولقد تسرَّبت فكرة التفضيل له على الشيخين إلى بعض أتباعه، ثم تحول التفضيل لعلي على الشيخين إلى ذم الشيخين، وإنكار بيعتهما ورفضهما؛ فسموا بالرافضة لأجل ذلك، كما هو الحال في الصورة النهائية للإمامية الإسماعيلية والاثني عشرية، في حين امتنع بعض الشيعة عن ذم الشيخين وإن قالوا بأفضلية علي وأحقَّيته بالخلافة، كما هو الحال عند الزيدية.

والتاريخ يبين أن مذهب تفضيل علي على الشيخين لم يكن مذهب أتباعه الأوائل، ويشهد لهذا أن شريك بن عبد الله النخعي قاضي واسط والكوفة (ت ١٧٧ هـ)^(٣) كان من شيعة علي، قيل له: أنت من شيعة علي وأنت تفضل أبا بكر وعمر، فقال: « كان شيعة علي على هذا، وكان علي يقول على أعواد هذا المنبر: خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم عمر. أفكنا نكذبه، والله! ما كان كذابًا »^(٤).

وهذا يعني أن فكرة تفضيل علي على الشيخين قد تسللت إلى الفكر الإسلامي

(١) صحيح البخاري: باب إذا اضطر الرجل إلى النظر في شعور أهل الذمة.. إلخ رقم (٢٩١٥)، ترقيم الأستاذ الدكتور مصطفى ديب البغا، دار اليمامة، دار ابن كثير بيروت (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م). ونصه: قال حدثني محمد بن عبد الله بن خوشب الطائفي حدثنا هشيم أخبرنا حصين عن سعد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن وكان عثمانيًا، فقال لابن عطية، وكان علويًا: « إني لأعلم ما الذي جرأ صاحبك على الدماء، سمعته يقول: ثم بعثني النبي ﷺ والزبير فقال: « اتوا روضة كذا وتجذون بها امرأة أعطاها حاطب كتابًا ». فأتينا الروضة فقلنا: الكتاب! قالت: لم يعطني. فقلنا: لتخرجن أو لأجردنك. فأخرجت من حجرتها... فهذا الذي جرأه ».

(٢) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (١٩١/٦). دار المعرفة - بيروت.

(٣) قال ابن حجر في تقريب التهذيب (ص ٢٢٦): « شريك بن عبد الله النخعي الكوفي القاضي بواسط ثم الكوفة، أبو عبد الله صدوق يخطئ كثيرًا، تغير حفظه منذ ولي القضاء بالكوفة، وكان عادلاً فاضلاً عابداً شديداً على أهل البدع، من الثامنة، مات سنة سبع أو ثمان وسبعين ». ترجمة رقم (٢٧٨٧) دار الرشيد دمشق (ط ١)، (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م)، تحقيق الشيخ / محمد عوامة.

(٤) ابن تيمية: النبوات (ص ١٣٢).

أو طفت على السطح الشيعي في القرن الهجري الثاني، وأنها لم تكن قبل ذلك الوقت سمة التشيع، فقد قال أبو إسحاق السبيعي شيخ الكوفة وعالمها (ت ١٢٧ هـ): « خرجت من الكوفة وليس أحد يشك في فضل أبي بكر وعمر وتقديهما، وقدمت الآن وهم يقولون، ويقولون، لا والله! ما أدري ما يقولون » (١).

فالتشيع إذن مشى بخطوات متطورة على مدى الزمن؛ « فقد كان لكل عصر نوع من التشيع، ولكل طائفة شيعية لون منه. فقد وجد المعاصرون لعلي الذين أبرزوا فضائله وكفاءته، كما ظهر في عهده من فضل عليًا على عثمان فقط، وظهر بعد ذلك الرفضة الذين رفضوا ولايتي أبي بكر وعمر، ثم ظهر الغلاة الذين كفروا الصحابة » (٢). وهكذا سار التاريخ بالتشيع في تطوره، فنشأت فِرَق وبادت فِرَق، حتى استقرت الفرق الشيعية إلى ما نعهده اليوم من زيدية واثني عشرية وإسماعيلية... إلخ.

وفي منظور أهل السنة لا يقتصر مفهوم الشيعة على فرقة واحدة كالإمامية، بل يشمل كل من شايح عليًا وبنى علي أساس هذا التشيع أفكارًا، سواء أكانت هذه الأفكار معتدلة أم غالية؛ ولذلك يرى الدكتور دغيم أن « الشيعة هم الذين شايحوا عليًا ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصًا ووصية، إما جليًا وإما خفيًا، واعتقدوا أن الخلافة لا تخرج عن أولاده، وهي ركن الدين » (٣). وهذا التعريف يشمل الزيدية كما يشمل الاثني عشرية والإسماعيلية، ويشمل من وقفوا على الطريق منهم أيضًا، كالواقفية الذين كانوا يقولون بحياة بعض الأئمة، بدءًا من علي ﷺ ونهاية بالمهدي المنتظر.

ثانيًا: فِرَق الشيعة:

تعدد فرق الشيعة في التاريخ تعددًا كبيرًا يصعب الإحاطة به هنا؛ لأن بسط هذه الفرق يخرج عن مقصود البحث. وقد علل جعفر الصادق ﷺ ذلك التفرق عندما سئل: « جعلني الله فداك! ما هذا الاختلاف الذي بين شيعتكم؟ فقال: وأي الاختلاف؟ فقال: إني لأجلس في جِلَقهم بالكوفة فأكاد أشك في اختلافهم في حديثهم.. فقال أبو عبد الله: أجل، هو كما ذكرت أن الناس أولعوا بالكذب علينا، وإني أحدث أحدهم

(١) المنتقى (ص ٣٧٥).

(٢) أ.د. عبد الفتاح أحمد الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ٢٢). مطبوعات قسم

الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م).

(٣) د. سميح دغيم: موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي (١/٦٧٧، ٦٧٨)، مكتبة لبنان ناشرون.

بالحديث، فلا يخرج من عندي، حتى يتأوله على غير تأويله؛ وذلك أنهم لا يطلبون بحديثنا وبحبنا ما عند الله، وإنما يطلبون الدنيا، وكلُّ يحب أن يُدعى رأساً» (١).

وهذه الرواية تبين أن من أسباب تفرق الشيعة:

- الكذب على الأئمة.

- تأوُّل أحاديثهم على غير المراد.

- طلب الدنيا بأقوال الأئمة.

- طلب الزعامة والرئاسة من بعض المتشيعين؛ مما يؤدي إلى التفرق والتشردم.

كما أن الخلاف في المبادئ والتعاليم بين الشيعة قد قسمهم إلى غلاة ومعتدلين، وساهم هذا الخلاف في انشطار الشيعة وتشظيهم إلى فرق كثيرة؛ فكان من فرق الغلاة: (السبئية، والختارية، والمغيرية، والخطابية... إلخ).

وقد كان الخلاف بين الشيعة - سواء أكانوا من المعتدلين أم الغلاة - حول تعيين الأئمة من أسباب تفرقهم (٢)؛ فبعد مقتل الحسين عليه السلام اختلفت الشيعة في الإمامة، فمنهم من ساقها إلى محمد ابن الحنفية وعرفوا بالكيسانية، ثم إلى ابنه أبي هاشم فعرفوا بالهاشمية، ومنهم من ساقها إلى زين العابدين بن الحسين وذريته من بعده، ومنهم ساقها سوقاً آخر، وقد كان اختلافهم الأكبر بعد موت جعفر الصادق عليه السلام؛ حيث نشأت الإسماعيلية التي ساقت الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر - رغم أنه مات في حياة جعفر، والأفطحية التي ساقتها إلى عبد الله الأفظح بن جعفر، والموسوية التي ساقتها إلى موسى ابن جعفر، ثم في بنيه حتى عدت اثني عشر إماماً؛ فسميت بعد ذلك بالاثني عشرية.

ظاهرة الوقف على الأئمة:

وهي تعني إنكار بعض الشيعة موت إمامهم لسبب من الأسباب؛ إما لغموض الإمام التالي، أو اختفائه، أو عدم رضاهم به، أو لطمع وكلاء الإمام السابق بأمواله؛ مما يدعو لرفضهم للإمام التالي خوفاً من تسليم مال الإمام السابق للإمام اللاحق (٣).

(١) رجال الكشي (ص ١٣٥، ١٣٦)، بحار الأنوار (٢ / ٢٤٦).

(٢) أنور الباز: عصمة الأئمة عند الشيعة، دار الوفاء (ط ١)، (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م). وأصلها رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة (ص ٢١).

(٣) انظر: أصول الكافي (١ / ٥٩٤، ٥٩٥) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب. وسيأتي الحديث عن دور هؤلاء الوكلاء عند الحديث عن العامل الاقتصادي وأثره في التشيع.

وقد ضمّنوا فكرة الوقف فكرة المهديّة، وأن إمامهم الذي وقفوا عليه وأنكروا موته هو المهدي المنتظر والغائب القائم، كالناوسية « القائلين بغيبة الصادق، وأنه لم يمت بل هو المهدي الذي يظهر... وكالواقفية الواقفين على إمامة الكاظم عليه السلام زعمًا منهم أنه لم يمت، بل هو الغائب القائم » (١).

فبعد استشهاد الحسين قال قوم بإمامة محمد بن علي المعروف بابن الحنفية عليه السلام ورضي عن أبيه، وهم الكيسانية؛ حيث اعتقد بعضهم بعد وفاته أنه لم يمت وأنه سيعود، وأن مقره في جبل رضوى بالمدينة، على حد قول كثير عزة الذي كان كيسانيًا:

ألا إن الأئمة من قريش	ولاية الحق أربعة سواء
عليّ والثلاثة من بنيه	هم الأسباط ليس بهم خفاء
فسبّ سبّ إيمانٍ وبرّ	وسبّ غيبته كربلاء
وسبّ لا يذوق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء
يغيب فلا يرى فيهم زمانًا	برضوى عنده غسل وماء (٢)

والذين ساقوا الإمامة بعد الحسين في ولده زين العابدين علي بن الحسين، ثم في الباقر محمد بن علي، ثم في الصادق جعفر بن محمد؛ اختلفوا خلافاً عظيماً بعد وفاة الصادق، ففرقة وقتت عليه، وهم الناوسية أتباع عجلان بن ناوس من أهل البصرة، وقيل: نسبة إلى قرية ناوسا قرب همدان،.... وفرقة قالت بانتقال الإمامة إلى إسماعيل بن جعفر بالنص عليه، فلما مات قبل جعفر أنكرت فئة مماته، وقالت بمهديته، وهم الإسماعيلية الواقعة عند الشهرستاني، ويسميهم النوبختي الإسماعيلية الخالصة، وفرقة أقرت بموت إسماعيل ونقلت الإمامة إلى ابنه محمد بن إسماعيل، وهم المباركية أصحاب المبارك مولى محمد بن إسماعيل، ومن هؤلاء من وقف الإمامة على محمد بن إسماعيل، وفرقة أخرى ساقَت الإمامة إلى موسى بن جعفر نصًّا وهم أسلاف الاثني عشرية (٣).

وبعد موت موسى الكاظم بن جعفر (١٨٣هـ) اختلف هؤلاء وافترقوا إلى ثلاث

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٥١).

(٢) انظر: الفصول المختارة للشيخ المفيد (ص ٢٩٩، ٣٠٠). دار المفيد - بيروت (ط ٢)، (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) تحقيق / السيد مير علي شريف.

(٣) الأستاذ الدكتور: السنهوتى: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، رسالة ماجستير كلية دار العلوم عام (١٩٦٧م)، إشراف الأستاذ الدكتور محمود قاسم (ص ٣٨).

فرق: فرقة شكّت في موته فتوقفت في موته وهم المطورة، وفرقة أنكرت موته ووقفت عليه وهم الواقفة، وفرقة قطعت بموته وسأقت الإمامة إلى ابنه الرضا، وسموا بالقطعية.. (١).

تكاثر فرق الشيعة:

وهكذا كانت فرق الشيعة تتعدد كلما مات إمام من أئمتهم، وقد ذكر المسعودي أن فرق الشيعة بلغت ثلاثاً وسبعين فرقة، كل فرقة تخطئ أو ربما تكفر الأخرى (٢)، بل أوصلها المقرئزي إلى ثلاثمائة فرقة! (٣).

أما أصول هذه الفرق ورؤوسها في كتب الفرق عند أهل السنة فهي أيضًا مختلفة في العدد وفي المسميات وفي مدلولاتها أحياناً؛ فهي عند الأشعري: (الغالية، والرافضة - وهي الإمامية - والزيدية). ويبلغ مجموع الفرق الشيعية عنده خمسًا وأربعين فرقة؟ ويعتبر الاثني عشرية من فرق الرافضة - الإمامية - ويسمون بـ (القطعية)؛ لأنهم قطعوا بموت موسى الكاظم، ونقلوا الخلافة بعده إلى ابنه الرضا، ويصفهم بأنهم جمهور الشيعة (٤).

أما عبد القاهر البغدادي فيرجع فرق الشيعة إلى أربع فرق: (زيدية، وإمامية، وكيسانية، وغلاة) ويلقب الجميع بالرافضة (٥).

أما الشهرستاني فيرجعهم إلى « خمس فرق: (كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية) » (٦).

وابن الجوزي يعتبر الشيعة اثنتي عشرة فرقة، ويسميتها جميعاً بالرافضة (٧).

أما كتب الفرق عند الشيعة « فهي تذكر فرق الشيعة حسب الأئمة؛ حيث نجد أن الشيعة تفتقر إلى فرق كثيرة بعد وفاة كل إمام، وقد وصل عدد فرق الشيعة في (المقالات والفرق)

(١) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم (ص ٣٨).

(٢) علي بن الحسين بن علي المسعودي المؤرخ. قال ابن حجر: كتبه طافحة بأنه كان شيعيًا معتزليًا، ويعتبره الاثنا عشرية من شيوخهم. توفي سنة (٣٤٦ هـ). مروج الذهب (٢٢١/٣).

(٣) الخطط (٣١٥/٢).

(٤) مقالات الإسلاميين (٦٦/١ - ٨٨ - ١٤٠)، ويقترّب منه ابن تيمية، انظر: التسعينية (ص ٤٠)، ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام، المجلد (٥) ط. كردستان (١٣٢٩ هـ).

(٥) انظر: الفرق بين الفرق (ص ٢١). (٦) الملل والنحل (١٤٧/١).

(٧) تلييس إبليس (ص ٣١)، دار الكتاب العربي - بيروت (ط ١)، (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م)، تحقيق: د. السيد الجميلي.

للقمي، و (فرق الشيعة) للنوبختي - إلى ما يربو على ستين فرقة » (١).

ويبين الدكتور النشار أن التشيع « ظاهرة مركبة معقدة، وبين طوائف الشيعة قديماً وحديثاً من الاختلاف ما لا نجد بين طوائف أهل السنة قديماً وحديثاً. وليس بين الخلف والسلف - وهما فريقاً أهل السنة الكبيران الآن - ما بين الإسماعيلية والاثني عشرية - وهما فريقاً الشيعة الكبيران الآن - من خلاف كبير وتنافر شديد » (٢).

فرق الشيعة اليوم:

معظم الفرق الشيعية المتكاثرة قد اندثرت، ولم يبق لها ذكر إلا في كتب الفرق، أما اليوم فقد انحصرت الفرق الشيعية المعاصرة بثلاث فرق (٣)، هي:

- الزيدية أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وسموا بالزيدية نسبة إليه وقد اختلفوا عن الإمامية حينما سئل زيد عن أبي بكر وعمر فترضى عنهما، فرفضه قوم فسموا رافضة.. وسمي من لم يرفضه من الشيعة زيدية لاتباعهم له؛ وذلك في آخر خلافة هشام بن عبد الملك، سنة إحدى وعشرين أو اثنتين وعشرين (٤) وهم اليوم في اليمن.

- الإسماعيلية وهم الذين قالوا: الإمام بعد جعفر الصادق ابنه إسماعيل بن جعفر (وليس موسى الكاظم بن جعفر كما يرى الاثنا عشرية)، ثم قالوا بإمامة محمد ابن إسماعيل بن جعفر (٥).

(١) انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٩٦) حيث ذكر أن أصحاب الحسن العسكري اختلفوا أربع عشرة فرقة بعد وفاته، بينما ذكر القمي أنهم خمس عشرة فرقة. وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١١٧/١).

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢٢/٢) مقدمة الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة (ط ٨).

(٣) انظر: د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي (١٢/٢)، العاملي: أعيان الشيعة (٢٢/١).

(٤) والزيدية فرق: منهم من لم يحمل من الانتساب إلى زيد إلا الاسم فهم روافض في الحقيقة يقولون: إن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غير علي، وهؤلاء الجارودية أتباع أبي الجارود عدّهم المفيد من الشيعة. ومنهم من يقترب من أهل السنة كثيراً وهم أصحاب الحسن بن صالح بن حي الفقيه، القائلون بأن الإمامة في ولد علي ﷺ، ويقول ابن حزم: « إن الثابت عن الحسن بن صالح هو أن الإمامة في جميع قریش، ويتولون جميع الصحابة إلا أنهم يفضلون عليّاً على جميعهم »؛ ولذلك سماهم ابن تيمية: المفضلة. ابن حزم، الفصل (٢٦٦/٢)، الملل والنحل (١٥٤/١)، منهاج السنة (٢١/١).

(٥) ومن الإسماعيلية انبثق القرامطة والحشاشون والفاطميون والدرروز وغيرهم، ولالإسماعيلية فرق متعددة وألقاب كثيرة تختلف باختلاف البلدان، يقول الغزالي وغيره: « إنه مذهب ظاهره الرفض وباطنه الكفر المحض ». =

- الاثنا عشرية « سموا كذلك لأنهم يسلسلون أئمتهم إلى اثني عشر إمامًا » (١).
بعد النبي ﷺ وهم الذين نحن بصدد دراسة عقائدهم.
وهذا جدول بأسماء الأئمة الاثني عشر وألقابهم وسني ولادتهم ووفاتهم، كما يعتقد
الاثنا عشرية:

م	اسم الإمام	كنيته	لقبه	الميلاد	الوفاة	عمره
١	علي بن أبي طالب	أبو الحسن	المرتضى	٢٣ق.هـ	٤٠هـ	٦٣ سنة
٢	الحسن بن علي	أبو محمد	الزكي	٢هـ	٥٠هـ	٤٨
٣	الحسين بن علي	أبو عبد الله	الشهيد	٣هـ	٦١هـ	٥٨
٤	علي بن الحسين	أبو محمد	زين العابدين	٣٨هـ	٩٥هـ	٥٧
٥	محمد بن علي	أبو جعفر	الباقر	٥٧هـ	١١٤هـ	٥٧
٦	جعفر بن محمد	أبو عبد الله	الصادق	٨٣هـ	١٤٨هـ	٦٩
٧	موسى بن جعفر	أبو إبراهيم	الكاظم	١٢٨هـ	١٨٣هـ	٥٥
٨	علي بن موسى	أبو الحسن	الرضا	١٤٨هـ	٢٠٣هـ	٥٥
٩	محمد بن علي	أبو جعفر	الجواد	١٩٥هـ	٢٢٠هـ	٢٥
١٠	علي بن محمد	أبو الحسن	الهادي	٢١٢هـ	٢٥٤هـ	٤٢
١١	الحسن بن علي	أبو محمد	العسكري	٢٣٢هـ	٢٦٠هـ	٢٨
١٢	محمد بن الحسن	أبو القاسم	المهدي	٢٥٥هـ	؟؟؟؟ (٢)	إلى الآن ١١٧٥ عامًا

= [فضائح الباطنية (ص ٣٧) وما بعدها] أو كما يقول ابن الجوزي: « فمحصول قولهم تعطيل الصانع وإبطال النبوة والعبادات وإنكار البعث ». [تلبيس إبليس (ص ١٢٤)].

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م)، (ص ٤٣١)، الإمام عبد الحلیم

محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٢٨)، دار المعارف - القاهرة (١٩٨٤ م).

(٢) انظر هذا الجدول: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٩/١).

أما تفصيل وفاتهم حسب روايات الشيعة: فيقول الصدوق: الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٧٢، ٧٣):

« وأمير المؤمنين عليه السلام قتله عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله ودفن بالغري. والحسن بن علي عليه السلام سمته امرأته

جعدة بنت الأشعث الكندي لعنهما الله فمات من ذلك. والحسين بن علي عليه السلام قتل بكر بلاء، وقاتله سنان

ابن أنس النخعي لعنهما الله. وعلي بن الحسين السيد زين العابدين عليه السلام سمه الوليد بن عبد الملك لعنه الله

فقتله. والباقر بن علي عليه السلام سمه إبراهيم بن الوليد لعنه الله. والصادق عليه السلام سمه أبو جعفر المنصور الدوانيقي

لعنه الله فقتله [!]. وموسى بن جعفر عليه السلام سمه هارون الرشيد لعنه الله فقتله [!]. والرضا علي بن موسى عليه السلام =

وقد ظهرت فرقة الاثني عشرية في مسرح التاريخ في أخريات القرن الثالث الهجري تقريباً، وهي تمثل الصورة الأخيرة التي انتهى إليها الفكر الشيعي الإمامي^(١). في حين تقول دائرة المعارف الإسلامية: « إن الاثني عشرية لم يسلموا بترتيب أئمتهم المعهود إلا منذ القرن الخامس الهجري »^(٢).

ويؤكد هذا أن تسميتهم بالاثني عشرية لم تكن موجودة في الكتب الشيعية القديمة ولا في كتب المقالات السنيّة والشيعية على السواء؛ فلم توجد حتى في المقالات والفرق للقمي (ت ٢٩٩ أو ٣٠١ هـ) ولا في فرق الشيعة للنوبختي (ت ٣١٠ هـ) ولا في مقالات الإسلاميين للأشعري (ت ٣٣٠ هـ). ولعل أول من ذكره المسعودي (ت ٣٤٩ هـ)^(٣)، فهذه التسمية لم يكن لها وجود حتى وجدت فكرة الإمام الثاني عشر الغائب بعد وفاة الإمام الحادي عشر سنة (٢٦٠ هـ).

وطائفة الاثني عشرية هي أكبر الطوائف الشيعية اليوم، كما كانت تمثل أكثرية الشيعة وجمهورها في بعض فترات التاريخ. فقد وصفهم طائفة من علماء الفرق بـ « جمهور الشيعة »^(٤)، ومن نعتهم بهذا: الأشعري والمسعودي^(٥).

وقد انقسمت الاثنا عشرية في تطورها الفكري عبر الزمن إلى عدة اتجاهات فكرية،

= قتل المأمون لعنه الله بالسم [!!]. وأبو جعفر محمد بن علي عليه السلام قتله المعتصم لعنه الله بالسم [!!]. وعلي ابن محمد عليه السلام قتله المتوكل لعنه الله بالسم [!!]. والحسن بن علي العسكري عليه السلام قتله المعتصم لعنه الله بالسم « وبقي الإمام المنتظر الغائب ». وهذا الذي ذكره الصدوق كما يعتقدون في خلفاء الإسلام، ونحن لا نبرئ الحكام، ولكن لا نخوض فيما لا نعلم لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ [الإسراء: ٣٦]. والنبي صلى الله عليه وآله يهانا عن لعن المسلمين « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا البذيء ولا الفاحش » أخرجه ابن حبان: صحيح ابن حبان (٤٢١/١) رقم (١٩١)، مؤسسة الرسالة (ط ٢)، (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م) تحقيق / شعيب الأرنؤوط، وأخرجه أحمد في مسند عبد الله بن مسعود (٤٠٥/١).

(١) الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية، إشراف الأستاذ الدكتور محمد كمال جعفر، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، رسالة دكتوراه عام (١٩٧٧ م)، (ص ٣٩).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (٤٢٩/١).

(٣) المسعودي: التنبيه والإشراف (ص ١٩٨)، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٧/١).

(٤) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٠/١).

(٥) مقالات الإسلاميين (٩٠/١). مروج الذهب (١٩٩/٤)، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٠/١).

بحيث يمكن إطلاق لفظ الطائفة عليها؛ فانقسمت بسبب موقفها وطريقتها في الحكم والاستدلال إلى أصولية وأخبارية، فالأخبارية ترى قطعية الكتب الحديثية الأربعة من حيث ثبوتها عن الأئمة، وتقفل باب الاجتهاد والعقل، وتسمح بتقليد المجتهد الميت. وهذه الطائفة تكثر في البحرين. بينما الأصولية تصحح وتضعف في النصوص الحديثية، وتفتح باب الاجتهاد وتمنع تقليد المجتهد الميت، وتجعل العقل دليلاً شرعياً، وهذه الطائفة تمثل غالبية الشيعة^(١).

تسميات أخرى للاثني عشرية:

الإمامية: « سموا كذلك لأن أهم عقائدهم أسست حول الإمام، وقد قالوا بأن محمداً ﷺ نص على خلافة علي... وجعلوا الاعتراف بالإمام جزءاً من الإيمان »^(٢).
« ولقد تعددت الآراء في كون الإمامية فرقة واحدة من الشيعة أو كونها فرقا عدة تنطوي تحت اسم الإمامية كالاثني عشرية والكيسانية والزيدية والإسماعيلية والفضحية وغيرهم »^(٣).

ويرى كتاب الفرق من أهل السنة أن « الإمامية فرق متعددة لا تتفق على أشخاص الأئمة، فمن أشهر فرقهم: الاثنا عشرية »^(٤). فالشهرستاني يقول: « الإمامية هم القائلون

(١) انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية عرض ونقد (١٤٢/١ - ١٤٥). وعدّ من الأخبارية: (ابن بابويه القمي صاحب من لا يحضره الفقيه، والحر العاملي صاحب وسائل الشيعة، والكاشاني صاحب الوافي، والنوري الطبرسي صاحب مستدرک الوسائل، ومحمد حسين آل كاشف الغطا صاحب أصل الشيعة وأصولها) وعد من الأصولية: (الطوسي صاحب الاستبصار والتهذيب، والمرتضى المنسوب له نهج البلاغة، ومحسن الحكيم، وشريعت مداري، والخوئي، والخميني) وقد عدّ جعفر آل كاشف الغطا الخلاف بين الطائفتين راجعاً إلى ثمانين مسألة (الحق المبين في تصويب المجتهدين وتخطئة الأخباريين) طهران (١٣١٦هـ)، بينما يحاول غيره التقليل من حجم الخلاف بينهما (فرج عمران: الأصوليون والأخباريون فرقة واحدة). وقد حصل بينهما ردود ومنازعات لدرجة التكفير والإفتاء بتحريم صلاة الأخباري خلف الأصولي والعكس!

كما هناك طوائف أخرى كالشيخية أتباع الشيخ أحمد الإحسائي (١١٦٦هـ - ١٢٤١هـ) والكشفية (أصحاب كاظم بن قاسم الرشتي تلميذ الإحسائي) وقد اشتهرت الطائفتان بالغلو في الأئمة، ومنها خرج زعيم البائية.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م)، (ص ٤٣١).

(٣) د. عائشة يوسف المناعي أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٣٩).

(٤) أحمد أمين: فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب (٢٠٠٠م)، (ص ٤٣١).

إمامة علي عليه السلام نصًّا ظاهرًا، وتعيينًا صادقًا من غير تعريض بالوصف، بل إشارة إليه بالعين» ^(١)، ومثله الأشعري حيث يقول: «.. وهم يدعون الإمامية لقولهم بالنص على إمامة علي ابن أبي طالب» ^(٢). ونلاحظ هنا أن اللفظ عام على كل الشيعة القائلين بالنص على الإمام. «ومن المسلم به أن فرق الإمامية - السابقة الذكر - على كثرتها وتنوع مذاهبها قد ذابت وانقرضت، ولم يبق منها إلا فرقتان فقط: هما الاثنا عشرية، والإسماعيلية، فهاتان الفرقتان يمكن اعتبارهما من الناحية المذهبية الحصيلية المتبقية من فرق الشيعة الإمامية» ^(٣). ولكن الاثني عشرية أرادوا قصر (الإمامية) لقبًا عليهم وحدهم؛ ولذلك يقول المفيد: «الإمامية علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها في كل زمان، وأوجب النص الجلي والعصمة والكمال لكل إمام، ثم حصر الإمامة في ولد الحسين بن علي، وساقها إلى الرضا علي بن موسى عليه السلام» ^(٤)؛ وبهذا يكون قد أخرج من لقب (الإمامية) الإسماعيلية وغيرهم من فرق الشيعة، وجعل لفظ الإمامية مرادفًا للفظ الاثني عشرية، وإن كان أصل كلمة الإمامية يطلق على الاثني عشرية وغيرهم ممن قال بالنص الجلي في الإمامة.

ويعلل المفيد قصر التسمية بالإمامية على فرقته الاثني عشرية بأن الفرق الأخرى أحدثت مقالات غريبة في المذهب اقتضت إقصاءها عنه: فيقول: «لأنه وإن كان (أي لقب الإمامية) في الأصل علمًا على من دان من الأصول بما ذكرناه» ^(٥) دون التخصيص لمن قال في الأعيان بما وصفناه، فإنه قد انتقل عن أصله، لاستحقاق فرق من معتقديه ألقابًا بأحاديث لهم وبأقويل أحدثوها؛ فغلبت عليهم في الاستعمال، دون الوصف بالإمامية، وصار هذا الاسم في عرف المتكلمين وغيرهم من الفقهاء والعامّة علمًا على من ذكرناه» ^(٦)، وبهذا أخرج الزيدية؛ لأنهم لم يقولوا بالنص الجلي، وأخرج الإسماعيلية؛ لأنهم لم يسوقوا الخلافة بعد جعفر إلى موسى ثم علي بن موسى، ولكنهم ساقوها في إسماعيل بن جعفر ثم محمد بن إسماعيل.

وهكذا رأينا أن المفيد (ت ٤١٣ هـ) يفعل بلفظ الإمامية ما فعله في لفظ الشيعة

(١) الملل والنحل (١٦٢/١).

(٢) مقالات الإسلاميين (١٨٦/١).

(٣) الأستاذ الدكتور: السنهوتوي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٠).

(٤) أوائل المقالات (ص ٤٤).

(٥) وهو القول بوجوب النص على الإمام والعصمة. كما بين ذلك في كتابه: العيون والحاسن (٩١/٢) عن

د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٢٤/١).

(٦) أوائل المقالات (ص ٤٤).

نفسه، ليحوّل هذه المصطلحات لمصلحة الاثني عشرية، فيجعل الاثني عشرية هم الأصل الذي حادت عنه الفرق الأخرى، وليس العكس.

الروافض أو الرافضة: ويسميهم مخالفوهم بالروافض والرافضة، وقد ثبت ذلك في مصادر الشيعة الأصلية كأصول الكافي: « .. ذاك إمام الرافضة ذاك الحسن بن عليّ المعروف بابن الرضا » (١).

ويعلل مخالفوهم هذه التسمية بأنها بسبب رفضهم إمامة الشيخين، ورفض إمامة زيد ابن علي بن الحسين عليه السلام بسبب تولّيه للشيخين وتفضيلهما عليهما السلام؛ فقد « كانت الشيعة أصحاب علي يقدمون عليه أبا بكر وعمر، وإنما كان النزاع في تقدمه على عثمان ولم يكن حينئذ يسمّى أحد لا إماميًا ولا رافضيًا » (٢). ولكن لما ظهر زيد « بالكوفة سمع من بعض من بايعوه من الشيعة الطعن على الشيخين عليهما السلام، فأنكر ذلك على من سمعه منه، فترفق عنه الذين بايعوه، فقال لهم: رفضتموني. فيقال: إنهم سموا الرافضة لقول زيد لهم رفضتموني » (٣).

ولعلمهم تعللوا بقولهم هذا؛ حتى ينجوا من القتال، وليس هذا بغريب عنهم، فقد خذلوا جد زيد بن علي بن الحسين عليه السلام، وخذلوا والد جده من قبل، وهل الخلاف في مسألة من المسائل تمنع من نصره بطل من أبطال آل البيت؟ لقد خذلوه وتركوه حتى قُتل عليه السلام مع أصحابه الذين لقبوا بالزيدية، وهذا ما جعل ابن تيمية يقول: « فالزيدية خير من الرافضة، أعلم وأصدق وأزهد وأشجع » (٤)؛ ذلك أنهم قُتلوا مع قادتهم، ولم يخذلوهم كما فعل أهل الكوفة من الروافض.

ومع أن هذا القول هو الأشهر؛ فقد ينسب بعض المؤرخين كالنوبختي مصطلح الرفض إلى المغيرة بن سعيد؛ وذلك لقوله بمهدية محمد بن عبد الله بن الحسن، وأنه القائم وأنه حي لم يمّت، يقول النوبختي: « وأظهر المغيرة بن سعيد المقالة بذلك، فبرئت

(١) جاء في أصول الكافي (٥٨٠/١) كتاب الحجّة، باب في مولد أبي محمد الحسن بن علي: « كان أحمد بن عبيد الله بن خاقان على الضياع والخراج بقم، فجرى في مجلسه يومًا ذكر العلوية ومذاهبهم، وكان شديد النصب، فقال: ... فإني كنت يومًا قائمًا على رأس أبي - وهو يوم مجلسه للناس - إذ دخل عليه حجاجه فقالوا: أبو محمد ابن الرضا بالباب، فقال بصوت عالٍ: ائذنوا له... قلت: يا أبا من الرجل؟ فقال: يا بني ذاك إمام الرافضة، ذاك الحسن بن عليّ المعروف بابن الرضا ».

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٩٦/٢). (٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين (٦٥/١).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٩٦/٢).

منه الشيعة أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد - ورفضوه، فزعم أنهم رافضة وأنه هو الذي سماهم بهذا الاسم» (١).

وبهذا لا يكون اسم الرافضة خاصًا بالاثني عشرية وحدهم، بل بعدة طوائف من الإمامية. ولكن لما فنيت تلك الطوائف وبقيت الاثنا عشرية كانت حريّة بهذا اللقب؛ ولذلك ظهر من الاثني عشرية المعاصرين من يرى في هذا اللقب مدحًا ويؤوله تأويلًا آخر فيقول: «سموا به لرفضهم ما عليه عامة الناس في أمر الإمامة والحكم» (٢). بل يخترع لهذا الاسم أصلًا تاريخيًا قديمًا، فيقول: «لما بغض عبدة العجل هارون ومن معه سموهم رافضة؛ فأجري ذلك الاسم على شيعة علي لمناسبته لهارون وشيعته» (٣)!

وقد جاءت روايات نسبت إلى الأئمة تدعم هذا الرأي، منها: «أن أبا بصير قال للصادق عليه السلام: إن الناس يسموننا الرافضة، فقال: والله! ما سموكم به ولكن الله سماكم، فإن سبعين رجلاً من خيار بني إسرائيل آمنوا بموسى وأخيه، فسموهم رافضة، فأوحى الله إلى موسى: أثبت هذا الاسم لهم في التوراة. ثم ادخره الله لينحلكموه» (٤).

الجعفرية: وتسمى الاثنا عشرية بالجعفرية نسبة إلى جعفر الصادق إمامهم السادس - كما يزعمون - وهو من باب التسمية للعام باسم الخاص. فقد ورد أن: شيعة جعفر في الكوفة (أو من يدعون التشيع لجعفر) سمو بالجعفرية، وأن هذه التسمية نقلت إلى جعفر فغضب، ثم قال: «إن أصحاب جعفر منكم لقليل، إنما أصحاب جعفر من اشتد ورعه وعمل لخالفه» (٥). وقد جاء في الكافي ما يدل على أن الناس كانوا يطلقون على من يدعي التشيع لجعفر الصادق «جعفري» (٦)؛ فهذا يدل - إن صحت الرواية - على أن اسم الجعفرية كان شائعًا في زمن جعفر (٧).

(١) التوبختي: فرق الشيعة (ص ٦٣).

(٢) محمد جعفر شمس الدين في تعليقه على أصول الكافي (١/٥٨٠) هامش رقم (١).

(٣) زين الدين أبو محمد علي بن يونس النباطي العاملي البياضي (ت ٨٧٧هـ): الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم (١/٣٢٣) المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية مطبعة الحيدري. الطبعة الأولى (١٣٨٤هـ).

(٤) العاملي [زين الدين أبو محمد علي بن يونس النباطي العاملي (ت ٨٧٧هـ)]، الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم (٣/٧٦)، المجلسي: بحار الأنوار (٦٨/٩٦ - ٦٧).

(٥) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٢/٥٢٥) طبع مؤسسة آل البيت قم (١٤٠٤هـ)، تحقيق / محمد باقر الحسيني وآخرين، وهو تهذيب لكتاب معجم الرجال للكشي.

(٦) أصول الكافي (٢/٧٧).

(٧) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/١٣٤).

الخاصة: وهو لقب يطلقه شيوخ الشيعة على طائفتهم، ويلقبون أهل السنة والجماعة بالعامية.

جاء في دائرة المعارف الشيعية ما نصه: «الخاصة في اصطلاح بعض أهل الدراية: الإمامية الاثنا عشرية، والعامية: أهل السنة والجماعة» (١).

وللاثني عشرية تسميات أخرى منها: القطعية؛ لأنهم قطعوا بموت موسى بن جعفر الصادق (٢). في حين وقف بعضهم عليه وادعى مهديته.

كما أن الرازي يلقبهم بأصحاب الانتظار؛ وذلك لأنهم يقولون بأن الإمام بعد الحسن العسكري ولده محمد بن الحسن العسكري وهو غائب وسيحضر، فهم ينتظرون خروجه (٣)؛ ولذلك يسمونه المهدي المنتظر.

وأطلق عليهم لقب: المتأولة في العصور الأخيرة، وخصوصاً في بلاد الشام (٤).

توزع الشيعة في العالم وعددهم:

أما الإسماعيلية ففي الهند وباكستان وتركيا وسورية ولبنان.
وأما الزيدية فينتشرون في اليمن.

أما التوزيع الجغرافي للشيعة الإمامية فهو ممتد في دول كثيرة؛ إذ ينتشر الشيعة الاثنا عشرية بنسبة كبيرة في العراق وإيران، كما يوجد منهم الملايين في الهند وباكستان، ولهم وجود واضح في أفغانستان ولبنان، وكذلك يوجدون في سورية، وبلاد القوقاز كأذربيجان، وفي دول الخليج العربي: في الكويت، ومنطقة الأحساء في بلاد الحجاز، والبحرين (٥).

يقول الدكتور عمارة: «إذا كان تعداد الأمة الإسلامية يبلغ الآن ملياً وملياً وثلاث المليار (١,٣٧٤٨٠٠) فإن نسبة أهل السنة تبلغ (٩٠٪) من هذا التعداد، والباقي شيعة بفرقها المختلفة وخوارج وإباضيون» (٦).

(١) دائرة المعارف الشيعية (١٢٢/١٧).

(٢) انظر: القمي: المقالات والفرق (ص ٨٩)، الأشعري: مقالات الإسلاميين (٩٠/١).

(٣) انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ٨٤، ٨٥).

(٤) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٣١/١ - ١٣٥).

(٥) انظر: الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية (ص ١٣).

(٦) د. محمد عمارة: الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية (ص ٨٦)، نهضة مصر (٢٠٠٠م).

وقد صرح الزعيم الروحي لشيعة إيران الخامني - وهو من أشهر مراجع الشيعة في العالم - في خطاب له نشره عدد من الفضائيات أن عدد الشيعة في العالم قرابة مائتي مليون؛ وذلك في الشهر الخامس من عام (٢٠٠٤ م). وقد قدّر الخميني تعداد الشيعة في العالم بحدود هذا العدد عام (١٣٨٩ هـ) (١).

وطائفة الاثني عشرية هي أكبر الطوائف الشيعية اليوم، « وعقيدتهم هي العقيدة الرسمية لدولة إيران » (٢).

ثالثاً: عوامل نشوء وتطور الفكر الشيعي:

لعل من أعظم الأخطاء التي يخطئها الباحثون والمحللون في كثير من الأحيان: نسبة أي حادثة تاريخية أو سياسية إلى عامل واحد أو مؤثر واحد، ويتضح هذا في تأملنا للتشيع وعوامل ظهوره.

فالتشيع كما لم ينشأ دفعة واحدة، لم ينشأ أيضاً من عامل واحد؛ بل تداخلت في نشأته عدة عوامل.

والتنبيه إلى عامل من العوامل لا يعني إقصاء العوامل الأخرى.

وقد يختلف العلماء حول العامل الأهم في نشأة هذه الفرقة أو تلك، أو هذه الفكرة أو تلك (٣). ولكن يهّمنا - ونحن نتحدث عن عامل من العوامل - ألا نتجاهل العوامل الأخرى.

فيمكن أن نقول: إن العامل الديني العاطفي هو الدافع الأول لأفكار التشيع، والعامل السياسي يشكل البيئة الخصبة لنشوئه، والعامل الاقتصادي له دور التغذية والمساندة المادية المساهمة في ثبات التشيع ونشره، والعامل الفكري له دور محاولة دعم الفكر الشيعي من خلال تطوير بعض أفكار الفرق الأخرى لمصلحته، إضافة إلى العامل الخارجي التأمري

(١) انظر: الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ١٣٢)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، والكتاب في الأصل دروس فقهية ألقاها على طلاب النجف - تحت عنوان: ولاية الفقيه - عام (١٣٨٩ هـ).

(٢) انظر: د. أمال السبكي: تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩ م)، (ص ٢٤٣، ٢٤٤).

(٣) كمسألة مرتكب الكبيرة عند الخوارج والمعتزلة؛ فقد ذهب الأستاذ الدكتور محمد عمارة إلى أن أصلها سياسي. انظر: المعتزلة ومشكلة الحرية الإنسانية (ص ٦٣). في حين أكد الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي على أساسها الديني إلى جانب العامل السياسي. انظر: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر (ص ٣٥)، وانظر مناقشة هذه الآراء: الدكتور حسن خطاب: منزلة السنة في الفكر المعتزلي (ص ٢٨)، أطروحة دكتوراه، جامعة الزيتونة (٢٠٠٣ م).

الذي كان وبالأثر ثقيلًا على الفكر الشيعي، ممثلًا بحركة ابن سبأ اليهودية وبعض الترسبات الفارسية والهندية في الفكر الشيعي.

وسندرس هذه العوامل بشيء من التفصيل:

١ - العامل الديني:

إذا كان كثير من الناس يتبادر إلى أذهانهم عند ذكر التشيع العامل السياسي؛ لأن الإمامة كانت قطب الرحى الذي دار حوله الفكر الشيعي - فإن العامل الديني لنشأة التشيع يشكل الدافع الأول؛ فالخلاف والمجدل حول الإمامة « وإن كان سياسيًا في مظهره، وبالمعنى الذي يفهمه الناس اليوم، إلا أنه ديني في منشئه وأساسه » (١).

ذلك أن التشيع في مفهومه الديني لا يعدو « أن يكون محبة للرسول وآل بيته، وهذا قدر مشترك وعام بين المسلمين جميعًا؛ فلا يوجد مسلم لا يدين بهذا الحب » (٢).

وقد بين القرآن الكريم والسنة المشرفة مكانة أهل البيت عليهم السلام، دون إجحاف ولا مغالاة، كما بين فضائل الصحابة الكرام رضي الله عن الجميع. وزخرت كتب السنة بفضل علي عليه السلام، وفصل سبطي النبي صلى الله عليه وآله وريحانتيه، ولم يدع أهل السنة مجالاً للشك في محبتهم لآل البيت؛ ولذا فكتب الحديث الشئبة زاخرة بروايات صحيحة متعددة في وجوب اتباع آل البيت ومحبتهم وإكرامهم؛ فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (.. دخلت على رسول الله صلى الله عليه وآله والحسن والحسين يتقبلان على بطنه قال ويقول: « ريحانتي من هذه الأمة ») (٣)، وعن أبي بكر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله على المنبر والحسن إلى جنبه ينظر إلى الناس مرة وإليه مرة ويقول: « ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » وفي رواية: « ففتين عظيمتين من المسلمين » (٤).

(١) الأستاذ الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر (ص ٣١)، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). مطبوعات جامعة دمشق.

(٢) أستاذنا الدكتور عبد الفتاح الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين، ا.د. عبد الفتاح الفاوي (ص ٣٠) مطبوعات قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

(٣) النسائي: سنن النسائي الكبرى (٤٩/٥) : كتاب المناقب، باب فضائل الحسن والحسين ابني علي عليه السلام رقم (٨١٦٦).

(٤) أخرجه البخاري: باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام، رقم (٣٥٣٦)، وفصل موقف الحسن رضي الله عنه في الصلح في باب قول النبي صلى الله عليه وآله للحسن بن علي عليه السلام: « ابني هذا سيد.. » إلخ. رقم (٢٥٥٧).

وقال عليه السلام في حق علي عليه السلام: « من كنت وليه فهذا وليه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه »^(١).

وقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبوة بعدي »^(٢). وقال له أيضًا: « لا يحبك إلا مؤمن؟ ولا يبغضك إلا منافق »^(٣).

وقد ذكر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بعض فضائل علي عليه السلام فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: « ... أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه لا نبوة بعدي »، وسمعته يقول يوم خيبر: « لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ». قال: فتناولنا لها فقال: « ادعوا لي عليًا ». فأتني به أرمد فبصق في عينه ودفع الراية إليه ففتح الله عليه، ولما نزلت هذه الآية ﴿ فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ﴾ [آل عمران: ٦١] دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عليًا وفاطمة وحسنا وحسينًا فقال: « اللهم هؤلاء أهلي »^(٤).

وجاءت الوصية برعاية قرابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في القرآن الكريم؛ قال تعالى: ﴿ قل لآ أسألكم عليه أجرًا إلاً المودة في القربى ﴾ [الشورى: ٢٣] ^(٥).

وقال تعالى ذاكراً فضل آل البيت: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. وجاء حديث الكساء ليؤكد دخول فاطمة وعلي والحسن والحسين رضي الله عنهم في مفهوم آل البيت. والآل والأهل بمعنى واحد؛ « وأصل

(١) الإمام النسائي: السنن الكبرى (٤٥/٥). دار الكتب العلمية بيروت (١٤١١هـ / ٢٠١٩م). والمؤالة هنا بمعنى المحبة بدلالة ضدها الموجود في النص (وعاد من عاداه) والمودة والمحبة ضد المعادة. في حين يفهم الشيعة منها المؤالة من الولاية والإمامة.

(٢) صحيح مسلم (١٢٠/٧) كتاب فضائل الصحابة: باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رقم (٢٤٠٤). وأورده الشيعة في مصنفاتهم: الكليني: الكافي (١٠٧/٨) دار الكتب الإسلامية آخوندي (١٣٨٩هـ) تحقيق: علي أكبر غفاري.

(٣) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، رقم (٣٧٣٦).

(٤) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب (١٨٧١/٤) رقم (٢٤٠٤). (٥) قال أنور الباز بعد سوقه الأقوال في تفسير هذه الآية « وأولى الأقوال في ذلك بالصواب وأشبهها بظاهر التنزيل قول من قال: معناه قل لا أسألكم عليه أجراً يا معشر قريش إلا أن تودوني في قرابتي منكم، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم » ونسبه إلى الطبري في تفسيره جامع البيان (٢٥/٢٢ - ٢٦). مطبعة الحلبي - مصر (ط ٣)، (١٣٨٨هـ / ٢٠١٦م). انظر: عصمة الأئمة عند الشيعة، أنور الباز (ص ٩٦).

آل: أهل، ثم أبدلت الهاء همزة، ثم أبدلت الهمزة الساكنة ألفاً على القاعدة من إبدال ثاني الهمزتين إذا سكنت حرف مد (١).

قالت أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: خرج النبي صلى الله عليه وسلم غداً وعليه مرط مرحل (٢) من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه، ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣] (٣). ومن الملاحظ أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها هي راوية هذا الحديث؛ مما يدل على تقديرها لأهل البيت النبوي الشريف.

ومهما يكن من أمر حديث الكساء على ما فيه (٤) من بيان مكانة هذه الأسرة المحببة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى المسلمين من بعده؛ فإن دائرة آل البيت أوسع منه، فيدخل فيها أهل الكساء، ولكن لا يحرمون غيرهم من أفضلية الانضواء تحت اسم آل البيت؛ فقد جاء في صحيح مسلم عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: والله لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعني من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوني. ثم قال: قام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خمًا بين مكة والمدينة فحمد الله وأثنى عليه ووعظ وذكر ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين، أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به». فحث على كتاب الله ورغب فيه ثم قال: «وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي». فقال له حصين: ومن أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرِّم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقيل وآل جعفر وآل عباس، قال: كل هؤلاء حُرِّم الصدقة؟ قال: نعم (٥).

(١) علي بن محمد المعروف بالموخر (كان حيًا عام ١١١٨هـ): مبلِّغ الطالب إلى معرفة المطالب (ص ٩٦)، (١ ط)، (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م). تحقيق: الشيخ حبيب بن الطاهر. وقد استند إلى قول ابن مالك في ألفيته:

وملأ أبدل ثاني الهمزتين من كلمه إن يسكن كآثر واتمن

(٢) مرط بكسر الميم وسكون الراء المهملة كساء من صوف أو خزّ، الجمع مروط كذا في القاموس. وقيل: كساء من خزّ أو كتان. قوله: مرحل بميم مضمومة وراء مهملة مفتوحة وحاء مهملة مشددة ولام كمعظم وهو برد فيه تصاوير... قال النووي: والمراد تصاوير رحال الإبل. نيل الأوطار: الشوكاني (٩٥/٢) دار الجيل بيروت.

(٣) صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب فضائل أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، رقم (٢٤٢٤).

(٤) سيأتي الحديث حول دلالة آية التطهير في فصل العقائد الخاصة بالشيعة.

(٥) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي رضي الله عنه، رقم (٢٤٠٨)، وأخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٤).

ونلاحظ أن هذا الحديث قد رواه زيد رضي الله عنه بعد طول العمر وطروء بعض النسيان عليه، ولكن محبة آل البيت ووصية النبي صلى الله عليه وآله في حقهم بقيت ثابتة في ذاكرته؛ مما يدل على تأصل مكانة آل البيت في فؤاده وأفئدة إخوانه من صحابة النبي صلى الله عليه وآله.

وأخرج أحمد بن حنبل في المسند، وابن أبي عاصم في كتاب السنة، والبيهقي في شرح السنة وغيرهم، عن أبي سعيد الخدري، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «إني تركت فيكم، ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي، الثقلين: أحدهما أكبر من الآخر، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض» (١).

وهكذا يفهم أهل السنة الأمر بموالاتة علي رضي الله عنه بمعنى المحبة والمودة، ولا يبنون على ذلك أمراً بوجوب توليتهم الخلافة، هذا هو مذهب أهل السنة، «أما ما يرويه الشيعة وما تزخر به كتبهم من أحاديث ووصايا تؤكد أن مفهوم المودة تقتضي وجوب أن تكون الخلافة في علي وأبنائه، وأن علياً كان أحق بها من الثلاثة قبله فشيء منه لم يثبت، ولو ثبت لاشتهر، ولما وسع أبا بكر وعمر وعثمان وسائر الصحابة أن يهملوه أو يتجاهلوه» (٢).

ولذلك كان من علماء المسلمين من رمي بالتشيع، ولم يكن به بأس، وإنما كان سبب ذلك ما عرف عنه من محبة آل البيت وتعاطفه السياسي مع آل بيته، وأدرك رجال الجرح والتعديل هذا فلم يجزّحوا من عرف بالتشيع المعتدل لا الغالي، ومن هؤلاء العلماء الذين عُرفوا بالتشيع المعتدل: عبد الرزاق صاحب المصنف (ت ٢١١)، قال العجلي في معرفة الثقات: «عبد الرزاق بن همام يمانى ثقة يكتنى أبا بكر، وكان يتشيع» (٣). بل

(١) مسند أحمد بن حنبل (٥٩/٣)، وراجع (ص ١٤ - ١٧ - ٢٦). كتاب السنة (ص ٦٢٩). شرح السنة (١١٩/١٤) وقال: حسن غريب.

ويحاول الشيعة أن يلمسوا أوجه الشبه بين القرآن الكريم وأئمة آل البيت، ولو وصلوا في هذا إلى شيء من التكلف، قال الشيخ دستغيب: «ومما يذكر أن عدد آيات القرآن (٦٦٦٦) آية على المشهور، وجروح بدن الحسين (ع) قيل: إنها أربعة آلاف جرح، ولو أضيف إليها مواضع سنابك الخيل فإن عددها ربما يطابق آيات القرآن». آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٢٣٧)، مؤسسة المنار (ط ٢)، وهو ينقل هذا عن كتاب اسمه الخصائص للشيخ الشوشطري.

(٢) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ٣٦)، مطبوعات قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة (١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م).

(٣) العجلي [أحمد بن عبد الله (ت ٢٦١ هـ)]، معرفة الثقات (٩٣/٢) رقم (١٠٩٧)، مكتبة الدار - المدينة المنورة (ط ١)، (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م)، وذكره ابن حبان في الثقات (٤١٢/٢)، قال: «روى عنه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وإسحاق بن إبراهيم وعلي بن المديني... ومات بعد أن عمي...»

وشيخه أيضًا محدّث اليمن معمر بن راشد أبو عروة معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي بالولاء الصنعاني اليماني، عدّه الشيعة من رجال الإمام جعفر الصادق، وهو من أئمة أهل الحديث عند أهل السنة (١).

وهذا الشافعي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وقد كان على منهج السنة في حب الشيخين وتقديمهما ﷺ - يقول:

إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي (٢)

فتقدير علماء السنة لأئمة أهل البيت على مدى الزمن أمر لا جدال فيه، ويستمر ما دامت الشجرة النبوية النيرة موجودة، ولقد رأينا ذلك التقدير في ثناء أهل العلم على أهل البيت ومشاهيرهم بعد عهد الصحابة الكرام رضوان الله عليهم.

ففي حق زين العابدين علي بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول سعيد بن المسيب عالم المدينة الكبير رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو شيخ الزين: « ما رأيت قط أفضل من علي بن الحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وما رأيت قط إلا مقتٌ نفسي » (٣).

ويقول ابن تيمية عن محمد الباقر - مع أن ابن تيمية معدود من أشهر خصوم الإمامية في الماضي والحاضر - : « أبو جعفر محمد بن علي من خيار أهل العلم والدين، وقيل: إنما سُمِّي الباقر لأنه بقر العلم؛ لا لأجل بقر السجود جبهته » (٤).

= كان يخطئ إذا حدّث من حفظه على تشيع فيه « وقال عنه ابن حجر [تقريب التهذيب (٥٩٩) دار الكتب العلمية بيروت (١٤١٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا]: « ثقة حافظ مصنف شهير عمي في آخر عمره فتغير، وكان يتشيع ».

(١) انظر: عبد الحسين الشبستري: أصحاب الإمام الصادق (٢٧٨/٣، ٢٧٩). قال: معمر بن راشد أبو عروة معمر بن راشد بن أبي عمرو الأزدي بالولاء، الجداني، وقيل: الحرائي، الصنعاني، اليماني، البصري. محدث لم يذكر أصحابنا تفاصيل أحواله في كتبهم، ويعدّه العامة من ثقات محدثيهم وفقهائهم وحفاظهم، ويقولون عنه بأنه كان يتشيع... روى عنه عبد الرزاق بن همام، وسفيان الثوري، وعمرو ابن دينار وغيرهم. توفي بصنعاء في شهر رمضان سنة (١٥٣)، وقيل: سنة (١٥٤)، وقيل: سنة (١٥٠)، وقيل: سنة (١٥٢) عن ثمان وخمسين سنة.

(٢) رواه السنة والشيعة عن الإمام الشافعي، أورده المجلسي في بحار الأنوار (٢٣/٢٣٥)، وذكره الذهبي: سير أعلام النبلاء (١٠/٥٨) مؤسسة الرسالة - بيروت (ط ٩)، (١٤١٣هـ) تحقيق / شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي.

(٣) اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ): تاريخ اليعقوبي (٢/٣٠٣).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة (٤/٥٠). (بقر): شق ووشع.

ويقول عنه ابن كثير: « تابعي جليل كبير القدر، أحد أعلام هذه الأمة علمًا وعملاً وسيادة وشرقًا » (١).

أما ابنه جعفر الصادق عند أهل السنة فهو: « أحد الأئمة الأعلام، بَرَّ صادق كبير الشأن » (٢)، و « قال عمرو بن أبي المقدام: كنت إذا نظرت إلى جعفر بن محمد علمت أنه من سلالة النبيين » (٣).

ولكن أهل السنة لا يضحّمون مكانة آل البيت - عليهم رضوان الله - وينسون قدر باقي الصحابة رضي الله عنهم وعلماء السلف؛ بل يرتضون ما ارتضاه علماء أهل البيت من إكرام الصحابة وعلماء التابعين، فعلماء أهل البيت تعلموا في مدارس الصحابة والتابعين رحمهم الله تعالى. يقول ابن تيمية عن الإمام محمد الباقر ثم عن ابنه جعفر: « أخذ العلم عن جابر وأنس بن مالك، وروى أيضًا عن ابن عباس وأبي سعيد وأبي هريرة وغيرهم من الصحابة، وعن سعيد بن المسيب، ومحمد ابن الحنفية وعبيد الله بن أبي رافع... جعفر الصادق رضي الله عنه: من خيار أهل العلم والدين أخذ العلم عن جده أبي أمه أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، وعن محمد بن المنكدر ونافع مولى ابن عمر والزهري وعطاء بن أبي رباح وغيرهم » (٤).

بل مما يتميز به أهل السنة عن الاثني عشرية أن الاثني عشرية - كما سنرى - يدعون احترام الأئمة من آل البيت، وهم في الحقيقة يكتفون بطرف واحد من شجرة آل البيت؛ وهو طرف علي رضي الله عنه، ثم الحسن، ثم الحسين، ثم هكذا يكون الأمر في نسل الحسين؛ فيسلطون الضوء على واحد من كل طبقة، دون غيره ممن هم في مكانته.

أما أهل السنة والجماعة فيتولون آل البيت كلهم من كل الأطراف، كما ورد في تفسير زيد رضي الله عنه لمعنى الآل في الحديث السابق: « نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حُرْم الصدقة بعده » (٥)، قال: ومن هم؟ قال: هم آل علي وآل عقیل وآل جعفر وآل عباس » (٦)؛

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٨/٩) دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط ١)، (١٤١٨ هـ) تحقيق / علي شيري.

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال (٢٨٥/٢). (٤، ٣) ابن تيمية: منهاج السنة (٥٢/٤، ٥٣).

(٥) جاء في تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (١٧٧/٥) أن نساء النبي صلى الله عليه وآله وسلم لا تحل لهن الزكاة أيضًا، وأورد حديثًا قال: إسناده حسن. عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة» أخرجه ابن أبي شيبة.

(٦) سبق تخريجه (ص ٤٨).

فليس الأمر مقصوراً إذن على هؤلاء الاثني عشر من آل البيت؛ بل وأقاربهم وإخوانهم، وأعمامهم وأولاد أعمامهم. بل سنرى أن كتب الاثني عشرية تفيض بالطعن ببعض آل البيت النبوي، مرة بمحمد ابن الحنفية، ومرة بمحمد بن عبد الله بن الحسن الملقب: النفس الزكية^(١)، ومرة بجعفر أخي الحسن العسكري؛ إذ نسبوه للفسق والفجور^(٢). وبهذا يتبين أن أهل السنة يتولون آل البيت أكثر من الشيعة.

ثم هؤلاء الشيعة الذين كانوا حول الإمام علي والحسن^(٣) والحسين، هل كانوا على قدر هذه المسؤولية؟ لقد خذلوا أئمتهم ثم جلسوا ليكون على قبورهم! كما فعلوا مع الحسين إذ أسلموه للظالمين، ثم لاموا أنفسهم وجلسوا ليكون، وبالغوا في ادعاء المحبة حتى رفعوا الأئمة فوق مكانهم السامق الذي رضىه لهم الله تعالى؛ مما يدل على أن التعامل العاطفي من دون عمل هو دأب الحب الشيعي، وهو ما حاربه الأئمة أنفسهم؛ فقد كان زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام يقول: «أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عازاً»^(٤). وقال جعفر الصادق لمن سموا أصحاباً له: «إن أصحاب جعفر منكم لقليل، إنما أصحاب جعفر من اشتد ورعه وعمل خالقه»^(٥).

إن الولاء العاطفي القلبي دون عمل لا يثبت عند الشدائد؛ فعند الشدائد لا يبقى إلا من ثبتت عقيدته واستقام حاله وتعلق بربه؛ ولذلك رأينا أن بعض أتباع الأئمة يسيئون الأدب معهم، يتبرمون ويشكون إليهم ضجراً ومللاً؛ فقد قال أحد أصحاب الصادق له: «ما نلقى من الناس فيك! فقال أبو عبد الله: وما الذي تلقى من الناس في؟ فقال: لا يزال يكون بيننا وبين الرجل الكلام فيقول: جعفري خبيث، فقال: يعيركم

(١) جاء في أصول الكافي (٤٢٢/١ - ٣٢٦) كتاب الحجّة باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة: ذمّ جعفر الصادق لمحمد بن عبد الله بن الحسن - وهو من آل البيت النبوي - بقوله: «فوالله إني لأراه أشأمّ سلحة أخرجتها أصلاب الرجال إلى أرحام النساء» لأنه - كما ترعم روايتهم - أراد إكراه جعفر على البيعة له، وسجنه لأجل ذلك.

(٢) أصول الكافي (٥٨٠/١، ٥٨١)، كتاب الحجّة، باب في مولد أبي محمد الحسن بن علي، وسبب ذمهم له أنه أعلن أن أخاه الحسن العسكري مات دون عقب، وهم يقولون بولادة القائم بالحجة من نسله الموهوم. (٣) قال ابن أبي الحديد - شرح نهج البلاغة (٤٣/١١): «بويع الحسن بن علي ثم غدر به، ووثب عليه أهل العراق، حتى طعن بخنجر في جنبه، فوادع معاوية».

(٤) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٣٧٤/٤١) دار الفكر - بيروت (١٥٤١ هـ)، تحقيق: علي شيري. (٥) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٥٢٥/٢) طبع مؤسسة آل البيت قم (١٤٠٤ هـ)، تحقيق: محمد باقر الحسيني وآخرين، وهو تهذيب لكتاب معجم الرجال للكشي.

الناس بي؟ فقال له أبو الصباح: نعم. قال: فقال: ما أقل والله من يتبع جعفرًا منكم، إنما أصحابي من اشتد ورعه وعمل لخالقه ورجا ثوابه فهؤلاء أصحابي» (١).

ثم إن موقف الشيعة من آل البيت يختلف اختلافًا عظيمًا عن موقف أهل السنة؛ إذ يستثمرون الدافع الديني من حب المسلمين لعلي وبنيه عليهم السلام للوصول إلى القول بالإمامة التي يرونها أصلًا من أصول عقائدهم، وقد فسروا بعض الأحاديث الواردة في فضل علي عليه السلام تفسيرًا يخدم فكرة الإمامة، وهو تفسير مخالف لما عليه أهل السنة.

ففي قوله عليه السلام: « من كنت وليه فهذا وليه. اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » (٢). فأهل السنة يقولون - على فرض صحة الحديث (٣) - : الموالاة هنا بمعنى المحبة بدلالة ضدها الموجود في النص (وعاد من عاداه) والمودة والمحبة ضد المعاداة (٤). ويشهد لذلك سبب ورود هذا الحديث؛ « من أن عليًا لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله إلى اليمن أميرًا هو وخالد بن الوليد، ورجع عليٌّ فوافى رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة في حجة الوداع وقد كثرت فيه المقالة، وتكلم فيه بعض من كان معه بسبب استرجاعه منهم خلعًا كان خلعهما نائبه عليهم لما تعجل السير إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فلما تفرغ رسول الله من حجة الوداع أحب أن يري ساحة علي مما نسب إليه من القول الذي لا أصل له » (٥).

ولكن الشيعة يفهمون من الخبر أمرًا أعظم وأكبر، هو الولاية والإمامة والخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله (٦). كما يرون في قول النبي صلى الله عليه وآله: « أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبوة بعدي » (٧) - دليلًا على خلافة علي للنبي بعد وفاته صلى الله عليه وآله. قال المازندراني شارح الكافي: « واستدل أصحابنا رضوان الله عليهم بهذا الحديث المتواتر عند العامة والخاصة بالتنصيص على خلافته عليه السلام وتوضيحه أن النبي صلى الله عليه وآله أثبت

(١) أصول الكافي (٨٢/٢، ٨٣) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى، قال محققه: والحديث موثق.

(٢) الإمام النسائي: السنن الكبرى (٤٥/٥). دار الكتب العلمية بيروت (١٤١١هـ / ١٩٩١م).

(٣) إذ لا يقر ابن تيمية بصحة هذا الحديث. انظر: منهاج السنة النبوية (٥٢/٧).

(٤) قال البيهقي: « والمراد به ولاء الإسلام ومودته وعلى المسلمين أن يوالي بعضهم بعضًا ولا يعادي بعضهم بعضًا، وهو في معنى ما ثبت عن علي عليه السلام أنه قال والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إنه لعهد النبي الأمي صلى الله عليه وآله إلي أنه لا يحبيني إلا مؤمن ولا يبغضني إلا منافق » الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد (ص ٣٥٤، ٣٥٥). دار الآفاق الجديدة بيروت (ط ١)، (١٤١١هـ)، تحقيق أحمد عصام الكاتب.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٥/٧). (٦) الشهرستاني: الملل والنحل (ص ١٦٣).

(٧) صحيح مسلم، كتاب الفضائل: باب من فضل علي عليه السلام (١٢٠/٧)، رقم (٢٤٠٤).

لعلي عليه السلام جميع منازل هارون من موسى، واستثنى النبوة فبقي الباقي على عمومته؛ لأنه قضية الاستثناء، ومن جملة منازل هارون من موسى أنه كان خليفة لموسى عليه السلام: ﴿أَخْلَفَنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلَحَ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. وقوله تعالى حكاية عن موسى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي﴾ ﴿هٰذُونَ اٰخِي﴾ ﴿اَشَدُّدَ بِهٖ اَزْرِي﴾ ﴿وَأَشْرِكُهُ فِيْ اٰمْرِى﴾ ﴿كَيْ تُسِحَّكَ كَثِيْرًا﴾ ﴿وَنَذْرَكَ كَثِيْرًا﴾ ﴿اِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيْرًا﴾ ﴿قَالَ قَدْ اُوْتِيْتَ سُوْلَكَ يٰمُوْسٰى﴾ [طه: ٢٩ - ٣٦] «^(١)».

ولا يرتضي أهل السنة هذا الاستنتاج من هذا الحديث؛ قال الإمام النووي رحمته الله: «هذا الحديث مما تعلق به الروافض والإمامية وسائر فرق الشيعة في أن الخلافة كانت حقاً لعلي وأنه وصي له بها... وهذا الحديث لا حجة فيه لأحد منهم بل فيه إثبات فضيلة لعلي ولا تعرض فيه لكونه أفضل من غيره أو مثله، وليس فيه دلالة لاستخلافه بعده؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله إنما قال هذا لعلي حين استخلفه في المدينة في غزوة تبوك، ويؤيد هذا أن هارون المشبّه به لم يكن خليفة بعد موسى، بل توفي في حياة موسى وقبل وفاة موسى بنحو أربعين سنة على ما هو مشهور عند أهل الأخبار والقصص، قالوا: وإنما استخلفه حين ذهب لميقات ربه للمناجاة، والله أعلم» «^(٢)».

وبالرجوع إلى سبب ورود الحديث يتضح معناه، عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له لما خلفه في بعض مغازبه فقال له علي: يا رسول الله! خلفتني مع النساء والصبيان؟ فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلا أنه لا نبوة بعدي» «^(٣)».

فالمشابهة بين هارون - عليه الصلاة والسلام - وعلي عليه السلام ليست على إطلاقها، كل ما في الأمر أن موسى عليه السلام استخلف هارون عليه السلام لما ذهب لتكليم ربه، واستخلف النبي صلى الله عليه وآله علياً عندما توجه لغزوة تبوك، وقد ثبت عند أهل السنة أن النبي صلى الله عليه وآله استخلف على المدينة غير علي؛ فقد استخلف ابن أم مكتوم رضي الله عنه «^(٤)».

(١) مولي محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (١١/٢٧٣، ٢٧٤).

(٢) شرح صحيح مسلم (١٥/١٧٤). دار الكتاب العربي - بيروت (١٤٠٧هـ)، (٢ ط).

(٣) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه رقم (٢٤٠٤).

(٤) اسمه عبد الله أو عمرو، وهو أرجح، قال ابن سعد: أهل المدينة يقولون: اسمه عبد الله، وأهل العراق يقولون اسمه عمرو. واختلفوا في اسم أبيه، فقيل: هو ابن قيس بن زائدة بن الأصم، ومنهم من قال: عمرو ابن زائدة ولم يذكر قيساً، ومنهم من قال: قيس بدل زائدة، وقال ابن حبان: من قال: ابن زائدة نسبه لجدّه، =

على المدينة ثلاث عشرة مرة في غزواته^(١)، واستخلف غيره أيضًا^(٢).

لقد روى الشيعة أحاديث كثيرة تؤكد وصية النبي ﷺ لعلي بالخلافة، كما فسروا - قبل ذلك - آيات قرآنية بما يبين هذه الوصية؛ حتى شت عليها الصغير وشاخ عليها الكبير؛ فنشأ جيل يعتقد بإمامة آل البيت تدئيًا، ولو صح عندهم ما صح عند أهل السنة من عدم هذه الوصية لما اعتقدوا بإمامة الاثني عشر إمامًا؛ ولذلك جاء دور الحوار لتغيير هذه المعتقدات التي لا تقوم على أدلة عقلية ولا نقلية صحيحة.

واليوم يعدّ العامل الديني - وهو محبة آل البيت - مدخلًا من مداخل نشر مذهب الشيعة بين المسلمين؛ إذ من خلاله يتسللون إلى عامة المسلمين، ويزعمون أنهم أحباب وأنصار آل البيت، فمن لا يحب آل البيت؟! فإذا اطمأن إليهم العامة بما في نفوسهم من حبّ وعاطفة جياشة تجاه أهل البيت الكرام؛ أوغروا صدور هؤلاء البسطاء على أصحاب النبي ﷺ بروايات مكذوبة مسمومة تدعي ظلم الصحابة لآل بيت النبي ﷺ فأخرجوهم من مذهب أهل السنة والجماعة إلى مذهبهم، مستغلين العامل السياسي الملائم والعامل الاقتصادي الداعم، كما سنبين.

وواجب علماء المسلمين اليوم أن يؤكدوا على مكانة الصحابة الكرام وآل بيت النبي ﷺ بدرجة واحدة على السواء، والتأكيد على أنهم جميعًا ﷺ كانوا متحايين، رحماء بينهم، ولم يكونوا كما تصورهم تلك الروايات المزعومة.

وأن يبينوا للعامة أنّ أي محاولة للنيل من الصحابة الكرام أو من آل بيت النبي ﷺ

= ويقال: كان اسمه الحصين فسماه النبي ﷺ عبد الله. حكاه ابن حبان، واسم أمه أم مكتوم عاتكة بنت عبد الله الخزومية، وهو ابن خال أمنا خديجة رضي الله عنها، كان من أوائل من أسلم بمكة ومن هاجر إلى المدينة، قيل: مع مصعب بن عمير، وقيل: بعده، كان معه اللواء يوم القادسية، قيل: استشهد فيها، وقيل: رجع إلى المدينة فمات فيها ﷺ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٦٠١/٤).

(١) انظر: تاريخ خليفة بن خياط (خليفة بن خياط الليثي العصفري أبو عمر) (ص ١٤)، دار القلم، مؤسسة الرسالة - دمشق، بيروت (ط ٢)، (١٣٩٧هـ)، تحقيق / د. أكرم ضياء العمري. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٦٠١/٤).

(٢) استخلف ﷺ أبا رهم الغفاري كلثوم بن حصين حين سار إلى مكة وحنين والطائف، واستخلف محمد ابن مسلمة في غزوة قرقرة الكدر، وفي غزوة بني المصطلق نميلة بن عبد الله الليثي، وفي غزوة الحديبية عوف ابن الأصبط من بني الدليل، وفي غزوة خيبر أبا رهم الغفاري، وفي عمرة القضاء أبا رهم أيضًا، وفي غزوة تبوك سباع بن عرفطة الغفاري، وفي بعض غزواته غالب بن عبد الله الليثي، واستخلف على مكة عند انصرافه عنها عتاب بن أسيد، فلم يزل عليها حتى مات ومات أبو بكر. تاريخ خليفة بن خياط (ص ١٤).

هي دليل واضح على فساد عقيدة أصحابها، فحرّي بالأمة الحذر منهم؛ لأنهم يريدون تمزيق الأمة بالنيل من عظمائها وإسقاط رموزها وقدواتها^(١).

٢ - العامل السياسي:

يرفض كتّاب الشيعة أن يكون التشيع قد نشأ بسبب العامل السياسي؛ يقول محمد جواد مغنية: « سبب التشيع ديني صرف، ولا صلة له بالسياسة من قريب أو بعيد، إنه فعل النبي ﷺ وقوله »^(٢). كما يرفض محمد باقر الصدر القول بوجود تشيع روحي نشأ زمن النبي ﷺ، وتشيع سياسي واجتماعي نشأ متأخرًا عن التشيع الروحي، ويرى أن التشيع واحد لا ينفصل، وهو يتضمن الجانب الروحي والسياسي والاجتماعي^(٣). ويمكن القول: إن الأفكار لا تخرج من هذا العامل السياسي؛ بل من الآثار التي يتركها، حيث يكون المناخ الخصب لنشأة الأفكار المتطرفة الخارجة عن عقيدة الأمة، كما حصل مع الخوارج والشيعة.

صحيح أن المظهر الديني كان الأبرز في نشأة الفرق، لكن يجب ألا ننسى الدور السياسي الذي سبّب البيئة الصالحة لخروج الأفكار، والمشكلة عندما نرى أن الفرق نشأت بعامل واحد، فنختلف في تعيينه بين هذا العامل أو ذاك.

وليس العامل السياسي مقصورًا في تأثيره على نشأة الشيعة وحدهم، بل له تأثير في نشأة بعض الفرق الأخرى في التاريخ كخصوم الشيعة (وهم الخوارج) : « فالخوارج إنما خرجوا على علي عليه السلام لا لأنه تحدث عن الله ﷻ أو عن صفاته بما لا يرضيهم، أو بما يخرجهم عن حظيرة الإسلام... وإنما خرجوا عليه لأنه قبل التحكيم، وقد كوّنوا في مقابل حزب الشيعة حزبًا معارضًا يستل السيف ويمتشق الحسام »^(٤).

أما عن الدور الذي لعبته السياسة في تشكل فرقة الشيعة فكلّنا يذكر عملها في

(١) انظر: المودة والمحبة بين القرابة والصحابة، للمؤلف، دار المعراج - دمشق (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).

(٢) الشيعة والحاكمون (ص ١٥)، دار الهلال - بيروت (١٩٨١م)، (ط ٥)، وانظر: د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٤٩).

(٣) انظر: السيد محمد باقر الصدر: بحث حول الولاية (ص ٨٩ - ٩٣)، دار التعاريف للمطبوعات - بيروت (١٣٩٩هـ). وبهذا يرد الصدر على د. عبد الله فياض الذي قسم التشيع إلى تشيع خاص نشأ في عهد النبي ﷺ، وتشيع عام وهو القول بحق علي عليه السلام في الخلافة والعمل على استردادها. في كتابه (تاريخ الإمامية) (ص ٣٨).

(٤) الشيخ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٨).

تشكيل الشيعة الأوائل وتجمعهم حول علي ثم الحسن والحسين رضوان الله عليهم، وما كان في تلك العهود من أحداث أليمة أجمت نار عاطفة التشيع، ورسخت تفرق الأمة عبر الجمل وصفين، ثم كربلاء والحرة.

كما يذكر لنا التاريخ دور العامل السياسي في الثورات التي ترأسها مشاهير أهل البيت، والرد العنيف من الملك العضوض عليها؛ مما حرم الأتباع من أئمتهم الذين كانوا يربطونهم بباقي جسد الأمة، فتهيأ السبيل لبعض طلاب الانحراف الفكري أو المطامع السياسية ليركبوا موجة التشيع، ثم يقودوا دفته إلى مصير مظلم، فتحول الفكر الشيعي من الظهور إلى الخفاء، ومن الاندماج مع الأمة المسلمة إلى الانطواء والانعزال عنها، مما هتأ المناخ المناسب لتطرف أتباع الأئمة وغلوهم في الأئمة، ومقتهم لملوك الأمويين والعباسيين، ثم للرعايا المغلوبين من أهل السنة الذين ما كانوا يملكون من أمر تلك الأحداث شيئاً.

وقد عدّ لنا الأشعري في مقالات الإسلاميين معظم هذه الثورات التي كانت تؤول في نهايتها إلى التقتيل في أسرة البيت النبوي، « بحيث يعتبر تاريخ تلك الأسرة بحق مأساة من أكبر المآسي في تاريخ الإنسانية، ولقد صور الشيعة تلك المآسي تصويراً أخاذاً، وبكى شعراء الشيعة أهل البيت بكاءً مريئاً، ورأوا فيهم صورة الإنسانية الحزينة » (١).

- فقد خرج الحسين بن علي عليه السلام (٢) منكراً على يزيد بن معاوية ما أظهر من ظلمه، فقتل في كربلاء رضوان الله عليه، وحديثه مشهور، وقتله عمر بن سعد وكان الذي أنفذه عبيد الله بن زياد، وحمل رأس الحسين إلى يزيد بن معاوية... وقتل مع الحسين من آل النبي عليه السلام ابنه علي الأكبر ومن ولد أخيه عبد الله بن الحسن والقاسم بن الحسن وأبو بكر بن الحسن، ومن إخوته العباس بن علي، وعبيد الله بن علي وجعفر بن علي وعثمان بن علي وأبو بكر بن علي ومحمد بن علي وهو محمد الأصغر... » (٣).

- « ثم خرج زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضوان الله عليهم - بالكوفة على هشام بن عبد الملك، ووالي العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي، فقتل في

(١) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: المنظومة الشيعية وآلياتها (ص ٩٢) كلية دار العلوم - جامعة القاهرة مجلة حوليات دار العلوم العدد (١٧) سنة (١٩٩٤ م) مطبعة جامعة القاهرة (١٩٩٥ م). وانظر: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ٢٢).

(٢) انظر حول ثورة الحسين بن علي: أصول الكافي (٣٢٧/١) كتاب الحجة باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٣) مقالات الإسلاميين (٧٥/١).

المعركة ودفن، فعلم به يوسف بن عمر فنبشه وصلبه، ثم كتب هشام يأمر بأن يحرق فأحرق ونُسف رماده في الفرات [!]....

- ثم خرج يحيى بن زيد بأرض الجوزجان على الوليد بن يزيد بن عبد الملك... فقتل في المعركة ودفن في الجبانات « (١).

ويأتي دور السياسة من جديد في عهد بني عباس حيث تظاهروا أولاً بدعم الشيعة والتشيع، ثم بطشوا بالشيعة، فزادوهم حنقاً وكمداً.

قال الإمام الأشعري:

- « ثم خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالمدينة وبويع له في الآفاق، فبعث إليه أبو جعفر المنصور بعيسى بن موسى وحמיד بن قحطبة، فحارب محمد حتى قُتل، ومات تحت الهدم أبوه عبد الله بن الحسن وعلي بن الحسن ابن الحسن، وقُتل بسببه رجال من أهل بيته...»

- ثم خرج بعد محمد بن عبد الله أخوه إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسن ابن علي بن أبي طالب بالبصرة، فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس وأكثر السواد، وشخص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى ابن زيد بن علي، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم، فحاربهما إبراهيم حتى قُتل وقتلت المعتزلة بين يديه « (٢).

- وهكذا تتوالى الثورات التي كان يرأسها آل البيت، فخرج بعد ذلك: « الحسين ابن علي بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب فقتل.. ولم يجسر أحد أن يدفنهم حتى أكلت السباع بعضهم [!].»

- ثم خرج يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي جعفر وصار إلى الديلم ثم قتل.

- ثم خرج محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن...

- ثم خرج بالكوفة في أيام المأمون محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن ابن الحسن بن علي... ثم مات بعد أربعة أشهر من خروجه ودفن بالكوفة...

(٢) المرجع السابق (٨١/١).

(١) مقالات الإسلاميين (٧٨/١، ٧٩).

- فخرج بعده محمد بن محمد بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ^(١).
وهكذا حتى يعدد لنا الأشعري خمسة وعشرين رجلاً من آل بيت محمد عليه السلام
خرجوا على حكام زمانهم ^(٢).

فتلك الثورات الشيعية وما تلاها من ردود أفعال عنيفة وشديدة من أصحاب الملك
العضوض تركت آثارها في نفوس أتباع آل البيت، حيث لجؤوا إلى الانطواء والتخفي
بمعتقداتهم وآرائهم، وزادت من اشتعال نار الحقد على هذه الأمة الجريحة التي لم تستطع
أن تنصر آل بيت نبيها عليه السلام. لقد « كانت الشيعة في بدء أمرها محبة... فلما أصبح الظلم
اضطهادًا وتعذيبًا وتشتيئًا وبتوا للأعضاء وسملًا للعيون وقتلاً - تكونت الشيعة بالمعنى
الاصطلاحي المعروف الآن » ^(٣).

وها هنا تخرج الأفكار المنحرفة الضالة، كما رأينا فعل السجون في العصر الحاضر
بعض المعارضين السياسيين؛ إذ جعلت تلك السجون - بما فيها من عسف - بعضهم
يصل إلى تكفير الأمة حكامًا ومحكومين!

ومن الحقيقة أن هذا الظلم الذي وقع على رجالات الشيعة في التاريخ أمر مستنكر
وغير مبرر، ولكن من الحقيقة أيضًا أن هذه المظالم والقتل والتعذيب لم يكن خاصًا
بهم، بل أصاب الطوائف الأخرى من الأمة المسلمة، ولم يكن أصلًا باسم عدا
التشيع ذاته؛ إنما كان باسم حِقَاقِ الحُكَّامِ على السلطة، فحيث وجد تهديد عروش
الحكم والحاكمين كان هناك الرد العنيف والدموي لمن قام بهذا التهديد، سواء كان
شيعيًا أو سنيًا أو زيديًا... إلخ.

فكما حدثت فاجعة مقتل الحسين عليه السلام، التي ينسبها الشيعة إلى تاريخهم، وهي في
الحقيقة فاجعة لكل المسلمين - شيعة وسنة - حدثت أيضًا حادثة استباحة مدينة الرسول
المقدسة من جند يزيد، حين خرج أهلها من أهل السنة على حكمه الأموي، ولكن أحدًا

(١) مقالات الإسلاميين (٨١/١ - ٨٥) .

(٢) وفي بدايات القرن العشرين، عندما فكر المتآمرون بتمزيق الخلافة العثمانية بفصل العرب عنها؛ لجأ
المخططون إلى رجل من أهل البيت، هو الشريف حسين - شريف مكة - ليقود تلك الثورة؛ فقد كان وجود
رجل من آل بيت النبي عليه السلام - وهم أهل الاحترام بين الناس - سيسهل إسقاط الخلافة العثمانية ذات الصبغة
الدينية؛ مما يدل على أن تأثير البيت النبوي في الناس لا يزال موجودًا. وعلى كلِّ فحن لا نتحدث حول
مشروعية هذه الثورات المتتالية أو عدم مشروعيتها، ولكننا نسوق ذكرها لنبين أثرها في فكر الشيعة.

(٣) الشيخ عبد الحلیم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٢٦) .

لم يذكر أن هذه الفواجع كانت سبباً في إنشاء عقيدة خاصة بأهل السنة والجماعة، أوغلوها من خلالها في مخالفة باقي الطوائف، وبهذا نعلم أن مظالم التاريخ لا تكون وحدها عقيدة خاصة؛ وإنما تكون المناخ الملائم الذي يسهل دور العوامل الأخرى في نشر تلك العقائد المنحرفة الغالية.

وإذا كان كتاب الشيعة يسلطون الأضواء على الصور القائمة التي تعكس سوء العلاقة بين سادة آل البيت والحكام في التاريخ، فإن التاريخ يحمل لنا الصور المشرفة في حسن العلاقة بين آل البيت والحكام؛ إذ تذكر المصادر الشيعية وغيرها مظاهر توقيير خلفاء بني العباس لآل البيت: فالمأمون يعرض الخلافة على الإمام الرضا، ثم يزوجه ابنته، وعند رفضه الخلافة يعرض عليه ولاية العهد^(١).

والمتموكل يكرم الإمام أبا الحسن الثالث ويأمر بإكرامه وإجلاله. كما روى الشيعة رسالة كتاب الخليفة المتموكل إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام سنة ثلاث وأربعين ومائتين، ومما جاء فيه: (بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد فإن أمير المؤمنين عارفٌ بقدرك راعٍ لقربانتك، موجبٌ لحقك، يقدر من الأمور فيك وفي أهل بيتك ما أصلح الله به حالك وحالهم، وثبت به عزك وعزهم، وأدخل اليمن والأمن عليك وعليهم، يبتغي بذلك رضاء ربّه وأداء ما افترض عليه فيك وفيهم، وقد رأى أمير المؤمنين صرف عبد الله بن محمد عمّا كان يتولاه من الحرب والصلاة بمدينة رسول الله ﷺ؛ إذ كان على ما ذكرت من جهالته بحقك واستخفافه بقدرك، وعند ما قرفك به ونسبك إليه من الأمر الذي قد علم أمير المؤمنين براءتك منه وصدق نيتك في ترك محاولته، وأنتك لم تؤهل نفسك له. وقد ولي

(١) انظر الخبر في أصول الكافي (٥٦٤/١)، كتاب الحجّة باب في مولد أبي الحسن الرضا. وقال محققه: الحديث صحيح. وفيها: «... لما انقضى أمر المخلوع [يعني الأمين] واستوى الأمر للمأمون كتب إلى الرضا عليه السلام يستقدمه إلى خراسان.. فعرض عليه المأمون أن يتقلد الأمر والخلافة، فأبى أبو الحسن عليه السلام، قال: فولاية العهد فقال: على شروط أسألكها. قال المأمون له: سل ما شئت. فكتب الرضا عليه السلام: إني داخل في ولاية العهد على أن لا أمر ولا أنهي ولا أفتي ولا أقضي ولا أولي ولا أعزل ولا أغير شيئاً مما هو قائم، وتعفيني من ذلك كله. فأجاب المأمون إلى ذلك كله». فهذه الرواية تثبت الموقف السلبي للإمام من قضية الخلافة، وها هي صارت بين يديه فرفضها، ثم اختار ولاية العهد بشكل سلبي أيضاً، فلماذا يصوّر شيعة اليوم على المطالبة بما تنازل عنه أئمتهم السابقون كالحسن عليه السلام وأبي الحسن الرضا؟ وإن كان الأمر في الواقع أن بني العباس هم الذين رفضوا أن يُنصب الإمام موسى الرضا ولياً للعهد، فقد قال الخطيب البغدادي: «بعث المأمون إلى علي بن موسى الرضا، فحملة وباع له بولاية العهد، فغضب من ذلك بنو العباس وقالوا: لا يخرج الأمر عن أيدينا. وباعوا إبراهيم بن المهدي» وهو عمه، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه [انظر: تاريخ بغداد (١٤٢/٦)].

أمير المؤمنين ما كان يلي من ذلك محمد بن الفضل وأمره بإكرامك وتبجيلك والانتهاه إلى أمرك ورأيك، والتقرب إلى الله وإلى أمير المؤمنين بذلك. وأمير المؤمنين مشتاق إليك يحب إحداث العهد بك والتظر إليك..» (١).

وهذا النص يبين أن هنالك من الوشاة من كان يحاول إساءة العلاقة بين آل البيت والخلفاء، ويزعم أنهم يريدون الانقضاء على الخلافة والانقلاب على الخلفاء، فلما تبين بطلان ذلك للخليفة عزل واليه لإساءته لآل بيت النبي ﷺ ممثلين بالإمام الهادي علي ابن محمد (أبي الحسن الثالث)، وعين مكانه آخر، وأوصاه بآل بيت النبي ﷺ خيرًا. وفي الحقيقة أن عمل الوشاة لم يكن خاصًا بأئمة الشيعة، بل بكل عَلمٍ وُشي به أنه ينازع في الملك، فالإمام الشافعي رحمته الله تعرّض لما تعرّض له الإمام الهادي وأكثر؛ حيث جيء به موثقًا بالحديد من اليمن إلى العراق لما حسده والي اليمن وادعى أنه يريد الخروج على هارون الرشيد مع بعض رجال آل البيت (٢).

ولكن تلك الصور الجميلة التي تبين أن الخلفاء كانوا يحترمون أئمة آل البيت لم تكن لتغير شيئًا من نظرة الشيعة إلى الحكام؛ فقد كانت عقائد الشيعة الاثني عشرية قد تبلورت بشكل لا يمكن التراجع عنه، إلا بالتراجع عن التشيع ذاته. فهؤلاء الحكام في عقيدة الاثني عشرية غاصبون لإمامة أهل البيت؛ ولذلك لم تُجد تلك المودات من الخلفاء شيئًا في تغيير نظرة كتاب الشيعة إلى هؤلاء الحكام.

- ويظهر العامل السياسي في التشيع أيضًا في حركات الطامعين بالسلطة الثائرين على الخلفاء؛ فقد ذكر التاريخ الأموي والعباسي أن من أراد الثورة على الحكام كان لا بد أن يتخذ من آل البيت درعًا ووقاءً، وكان الأذى يصل إلى آل البيت بسبب هؤلاء، كما فعل المختار الثقفي صاحب الأطماع؛ إذ حاول التقرب من محمد ابن الحنفية، وكذلك أبو مسلم الخراساني (٣) دعا الناس إلى إمامة آل البيت، ولما عرف الخليفة الأموي مروان

(١) أصول الكافي (١/٥٧٦)، كتاب الحجّة، باب في مولد أبي الحسن علي بن محمد، سكت عنه المحقق.
 (٢) قال الشافعي: خرجت إلى اليمن، وكان بها وال غشوم من قبل الرشيد فكنت أمنعه من الظلم وأخذ على يده، وكان باليمن سبعة من العلوية، ولا أمر لي معه ولا نهي، فكتب إليه بحملنا جميعًا فحملنا فضربت رقاب العلوية ونظر إلي فوعظته فبكي « الوافي في الوفيات (١/٢٢٣). وانظر: تاريخ دمشق (١/٢٩٠).
 (٣) هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، أحد مؤسسي الدولة العباسية وأحد كبار القادة. ولد سنة (١٠٠هـ) في ماه البصرة - مما يلي أصبهان - فلما شب أرسله إبراهيم بن محمد الإمام من بني العباس داعية إلى خراسان، فاستولى على نيسابور وخطب باسم عبد الله بن محمد السفاح العباسي، ثم هزم جنود =

ابن محمد أن الدعوة إلى إبراهيم - من آل البيت النبوي - أخذه وحبسه، فتحيرت الشيعة فقال لهم يقطين بن موسى - وهو أحد رؤساء الدعوة الشيعية - : « ذهبْتُ إلى إبراهيم الإمام وهو في حبس مروان، فقلت له: إلى من تكلمني؟ فقال: إلى ابن الحارثية، وعنى به: أخاه أبا العباس السفاح » ^(١) أول خلفاء الدولة العباسية.

ويروى أن أبا مسلم كتب إلى جعفر الصادق: « أني قد دعوت الناس عن موالة بني أمية إلى موالة أهل البيت، فإن رغبت فيها فلا مزيد عليك. فكتب الصادق إليه: ما أنت من رجالي ولا الزمان زماني » ^(٢). فلما يئس منه لعب على حبل الكيسانية وأتاه دعائها، « واستخدمهم أبو مسلم الخراساني على مختلف مشاربهم... ليقضي على بني أمية » ^(٣) باسم التشيع. وبهذا مهّد الشيعة لحكم بني العباس، وساهموا في إسقاط خلافة الأمويين، لكنهم لم ينالوا الإمامة التي كانوا يريدون.

= مروان بن محمد آخر ملوك بني أمية، وصفا الجور للسفاح بعد مقتل مروان بن محمد، ولما خلفه أخوه المنصور بعد موته رأى من أبي مسلم ما أخافه أن يطمع بالملك - وكانت بينهما ضغينة - فقتله برومة المدائن سنة (١٣٧هـ). روي عنه أنه قال: « ارتديت الصبر، وآثرت الكفاف، وحالفت الأحران والأشجان، وشامت المقادير والأحكام، حتى بلغت غاية همتي، وأدركت نهاية بغيتي ». قال عنه الذهبي: « كان ذا شأن عجيب، ونبأ غريب، من شاب دخل إلى خراسان ابن تسع عشرة سنة على حمار يأكاف، فما زال بمكره وحزمه وعزمه ينتقل، حتى خرج من مرو بعد عشر سنين يقود كائب أمثال الجبال، فقلب دولةً وأقام دولةً، وذلت له رقاب الأمم، وحكم في العرب والعجم، وراح تحت سيفه ستمائة ألف أو يزيدون ».

انظر: وفيات الأعيان (٣/١٤٥ - ١٥٥)، وميزان الاعتدال (٣/٣٠٣، ٣٠٤)، والبداية والنهاية (١٠/٦٧ - ٧١)، والأعلام (٣/٣٣٧، ٣٣٨).

(١) انظر: المحصل للرازي (ص ٢٤٥). وأبو العباس هو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، أول خلفاء الدولة العباسية وأحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب. ولد سنة (١٠٤هـ) بالشدادة - بين الشام والمدينة - ونشأ بها، ثم انتقل إلى الكوفة، وقام بدعوته أبو مسلم الخراساني، وكافأه بعد ذلك بأن ولاه خراسان، وبويع بالخلافة جهراً في الكوفة سنة (١٣٢هـ) وصفا له الملك بعد مقتل مروان بن محمد آخر ملوك الأمويين في الشام، وكان شديد العقوبة عظيم الانتقام، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق حتى لم يبق منهم غير الأطفال والجالين إلى الأندلس، ولقب بالسفاح لكثرة ما سفح من دماهم. وهو أول من أحدث الوزارة في الإسلام، وكان سخياً جداً. أصيب بالجدري فتوفي شاباً بالأندلس سنة (١٣٦هـ). انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٥٣٩/٥ - ٥٤٢).

(٢) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١/١٣٧)، والمحصل للرازي (ص ٢٤٥). وذكر الطوسي أن كل ما يروى عن أبي مسلم هنا بخلاف ما ذكره عنه أصحاب التواريخ. انظر: تلخيص المحصل له (ص ٢٤٦).

(٣) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٦٤).

- ويتجلى دور العامل السياسي في ازدهار التشيع في عهود الدول الشيعية التي قامت في التاريخ؛ فالناس على دين ملوكهم وحكامهم.

- يقول التاريخ: لما كانت دولة بني بويه ببغداد سنة (٣٣٤هـ) قوي بهم أمر التشيع والرافضة وجهروا بلعن الصحابة على المنابر، وكتبوا على أبواب المساجد سنة (٣٥١هـ): « لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من أغضب فاطمة »^(١).

- فلما دالت دولتهم أُزيل ما كتبه على أبواب المساجد من غلو في علي عليه السلام وإساءة للصحابة الكرام، « ودخل المنشدون من باب البصرة إلى باب الكرخ ينشدون بالقصائد التي فيها مدح الصحابة؛ وذلك أن نوء الرافضة اضمحل لأن بني بويه كانوا حكامًا، وكانوا يقوونهم وينصرونهم، فزالوا وبادوا وذهبت دولتهم وجاء بعدهم قوم آخرون » وذلك في عام (٤٤٨هـ)^(٢).

- وقد كثر الغبيديون (الفاطيون) في مصر ما فعله البويهيون في بغداد، ففي سنة (٤٧٨هـ) (في عهد المستنصر معد العبيدي) كُتب « سب الصحابة على الحيطان »، وفشا مذهب الشيعة بين العامة بمصر في تلك الأيام « بسبب ولاية مصر بني عُبيد، إلا من ثبته الله تعالى على السنة »^(٣)، وبقيت مصر رسميًا أسيرة الفكر الشيعي حتى جاء صلاح الأيوبي، فأسقط دولتهم الإسماعيلية، وقطع الخطبة لآخرهم (العاقد) وأقامها للعباسيين السنة، بأمر من الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي في أول المحرم سنة (٥٦٧هـ)^(٤). وهذا الذي جعل بعض كتاب الشيعة ينقمون على صلاح الدين عليه السلام.

يقول داعية التقريب الشيعي محمد جواد مغنية: « ولولا سياسة الضغط والتنكيل التي اتبعتها صلاح الدين الأيوبي مع الشيعة لكان لمذهب التشيع في مصر اليوم وبعد اليوم شأن أي شأن، وإذا لم يكن الفاطميون على مذهب الاثني عشرية؛ فإن هذا المذهب قد اشتد أزره ووجد منطلقًا في عهدهم؛ فقد عظم نفوذه ونشطت دعواته وعملوا على نشره وتوطيده... ذلك أن الاثني عشرية والإسماعيلية وإن اختلفوا من جهات فإنهم يلتقون في هذه الشعائر... في تدريس علوم أهل البيت والتفقه بها وحمل الناس عليها »^(٥).

(١) الخطط للمقريزي (٣٥٦/٢) (٢٦١/٢).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (٦٨/١٢) وانظر: ابن الجوزي: المنتظم (١٧٢/٨).

(٣) ابن تغري بردي [يوسف، جمال الدين أبو المحاسن، (ت ٨٧٤هـ)]: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة (١٢٠/٥). المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة.

(٤) النجوم الزاهرة (٧/٦). (٥) الشيعة في الميزان (ص ١٧٣).

فلا أدري كيف يستنكر مغنية ما فعله صلاح الدين في تقوية المذهب السني في مصر - وقد كان هو السائد قبل مجيء العبيديين - في حين يجيز ذلك لأبناء عمّه الإسماعيلية الدخلاء على مصر؟! (١).

- وفي عهد الدولة الصفوية قام مؤسسها الشاه إسماعيل الصفوي بفرض التشيع على إيران قسراً وجعله المذهب الرسمي، وأمر بتنظيم المآتم ومجالس العزاء بذكرى قتل الحسين ﷺ، وجرى تمثيل مقتل الحسين كل عام لكسب عواطف العوام، فكان لهذه الدولة أثرها الكبير في صرف كثير من أهل إيران عن المذهب السني إلى المذهب الاثني عشري (٢).

وحسبك أن تعلم أن الكافي للكليني (ت ٣٢٩ هـ) أهم مصدر شيعي بقي دون أي شرح مشهور ما يزيد على سبعة قرون، حتى ازدهر التأليف تحت راية الدولة الصفوية (٩٠٥ - ١١٤٨ هـ) في القرن الحادي عشر والثاني عشر الهجريين (٣).

وقد اشتهر الغلو في معظم مؤلفات هذا العهد الصفوي؛ فهذا هو علي الكركي (٩٨٤ هـ) المقرب من الشاه طهماسب بن إسماعيل الصفوي يؤلف رسالة في التربة التي

(١) سنناقش رأي مغنية في صلاح الدين في الفصل الأخير من الرسالة (موقف الاثني عشرية من الأمة ..).
(٢) انظر: د. ناصر عبد الله بن علي القفاري أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٤٧٥/٣).
راجع تاريخ الصفويين (ص ٥٥) كامل مصطفى الشيباني: الفكر الشيعي والتزعات الصوفية حتى مطلع القرن الثاني عشر الهجري (ص ٤١٣).

جاء في كتاب: الشيعة في الميزان - محمد جواد مغنية (ص ١٧٦، ١٧٧) : « أمر الشاه عباس أن يؤذن (بحي على خير العمل) في جميع بلاد إيران، ونقش على النقود اسم علي وآله، ونشر في الأقطار المجاورة لإيران الدعاة لمذهب التشيع، وحين دخل إلى بغداد، وذلك في (٢٥) جمادى الآخرة سنة (٩١٤ هـ)، فرح الناس بقدمه، والتجؤوا إلى عدله، وكانوا ينتظرونه بفارغ الصبر، وأخذوا يقدمون القرابين والذبايح إكراماً له، وفي اليوم التالي بلا فاصل توجه إلى كربلاء، وأدى مراسم الزيارة، وبات ليلته معتكفاً في الحائر، منكباً على قبر الحسين الشهيد (ع)، وأمر بصنع الصندوق المذهب للقبر الشريف، وعلق بالحضرة (١٢) قنديلاً من الذهب، وفرشها بأنواع السجاد الثمين، كما أمر بصنع صناديق أخرى للنجف الأشرف والكاظمية وسامراء بدلاً عن صناديقها القديمة. ثم سافر إلى النجف الأشرف، وتشرف بزيارة المشهد العلوي، وقدم القناديل من الذهب والفضة، والمفروشات الثمينة، وفي هذه السنة شرع ببناء حرم الكاظميين والمسجد الكبير المعروف بمسجد الصفويين، وأمر بحفر النهر الذي كان قد حفزه عطا ملك، ثم اندثر بمرور الزمن، فجدهه الشاه إسماعيل، ووقف ريعه على خدام المشهدين: العلوي والحسيني، هذا إلى حبه وتعظيمه العلماء والعلويين، وإنعامه عليهم بالأموال والمناصب، والاستعانة بأهل الكفاءة والمقدرة على نشر المذهب، وإعلان أسماء الأئمة الاثني عشر على المنابر وفي المحافل، وبشتى المناسبات... ».

(٣) انظر: تقديم أصول الكافي (٢٤/١ - ٢٦)، وانظر الذريعة: باب (الكاف) وباب (شرح) .

يسجد عليها الشيعة الآن في صلواتهم، وألف رسالة في جواز السجود للعبد، تقريبًا للسلطان، وألف رسالة في لعن الشيخين (عليهما السلام)، سماها (نفحات اللاهوت في لعن الجبت والطاغوت)، ويقال: إنه الذي شرع السب في المساجد أيام الجمع.

وكذلك كان من شيوخ الشيعة في العصر الصفوي المجلسي صاحب موسوعة (بحار الأنوار) التي كان لها دور في نشر الغلو بين الشيعة، وقد قيل: إن كتابه (حق اليقين في الإمامة) كان سببًا في تشييع سبعين ألفًا من سنّي الإيرانيين^(١).

إن ما كان من عهد التقيّة قد ولى في كثير من جوانبه في زمن الصفويين؛ فظهر التشيع على حقيقته، وزاد غلوًا على غلو، ساهم في ذلك الصراع السياسي بين الدولة العثمانية السنية والدولة الصفوية الشيعية، فكان للخلاف السياسي دوره في إذكاء نار الخلاف بين المذهبين.

- وقد ذكر التاريخ دور الصفويين في حرب الدولة العثمانية لدرجة تعاون الصفويين مع البرتغاليين ثم الإنجليز ضد العثمانيين^(٢).

- ثم جاء في العصر الحاضر الدفعة القوية للشيعة بنجاح ثورة إيران المعاصرة في الربع الأخير من القرن الماضي؛ حيث اصطبغت بالمذهب الاثني عشري^(٣)، وما جاء به إمام الاثني عشرية الخميني من فكرة تصدير الثورة إلى العالم، وما تقوم به الملاحق الثقافية في سفارات إيران في العالم من نشاط للتعريف بالتشيع والدعوة إليه؛ مما يزيد نشاط حركة التشيع والتفكير بالمذهب الشيعي بين الأوساط السنية وغيرها، خصوصًا مع جو الإحباط الذي تعيشه هذه الأوساط في ظلّ حالة التمزق الذي تعيشه الأمة، مع عدم وجود متنفس شرعي يخلصها من مصائبها - وفي مقدمتها العدو الجاثم على صدور أهلنا في فلسطين - مما يجعل البسطاء يطلبون الخلاص من واقع الأمة الأليم من أي جهة كانت، ولا عجب؛ فقد طلبه السدّج من عقود في الفكر الماركسي والليبرالي البعيدين كل البعد عن تعاليم الإسلام، فلأن يطلبوه من الفكر الشيعي فلا غرابة.

- ولكي تعلم الدور السياسي في تطور وانتشار الفرق، وأنه ما يزال مستمرًا، فاعلم

(١) انظر: دونالدسن: عقيدة الشيعة (ص ٣٠٢).

(٢) انظر: تاريخ الصفويين (ص ٩٣) وما بعدها، وانظر د. جميل صبري: حاضر العالم الإسلامي (ص ١١٧).

(٣) أكد الخميني على الصبغة الاثني عشرية للدولة في دستور إيران. انظر: د. أمال السبكي: تاريخ إيران

السياسي بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩م)، (ص ٢٤٣، ٢٤٤).

أنه بمجرد لقاء عابر بين الرئيس الإيراني والرئيس المصري على هامش قمة دولية - رفع الشيعة في مصر رؤوسهم ليعلنوا أن عددهم (٧٠٠) ألف نسمة!!^(١).

- وكذلك غدَّت السياسة الخلاف بين المسلمين الشيعة والسنة بسبب العلاقات الإيرانية المتدهورة في الماضي القريب مع دول الجوار من دول الخليج العربي، في حرب الخليج الأولى؛ حيث زادت الهوة بين المسلمين الشيعة في إيران مع المسلمين السنة في الخليج. وشُنَّت حملات واسعة من بعض مفكري الطائفتين، وخصوصًا في الخليج وإيران، وسعت المراكز الثقافية في سفارات تلك الدول لتأجيج نار الخلاف بين الطرفين^(٢) مما لم نشهده في دول أخرى كسورية ولبنان، التي يعيش فيها المسلمون جميعًا في شتى مذاهبهم في سلام ووثام.

٣ - العامل الاعتزالي: (تفسير علاقة التشيع بالاعتزال):

ثبت عن أئمة أهل البيت كراحتهم للاعتزال وذمهم له؛ حتى لعنهم الإمام جعفر الصادق

(١) نشرت جريدة الحياة اللندنية بتاريخ الخميس (١٦) ذو القعدة (١٤٢٤)، الموافق له (٨) كانون الثاني / (يناير) (٢٠٠٤) العدد (١٤٨٩٦) عن منظمة حقوقية مصرية نبأ اعتقال (١١) مصريًا في محافظة البحر الأحمر في مدينة رأس غارب، بتهمة التشيع، ثم ظهر أنهم ينتمون لقبائل الأشراف (ذوو النسب الهاشمي) وليسوا على مذهب الشيعة.

في تصريح لـ « إسلام أون لاين. نت » الثلاثاء (٢٠٠٤/٢/١٠)، في حين قدم أحمد راسم النفيس الأستاذ بكلية الطب جامعة المنصورة طلبًا لوزير الداخلية المصري يطالب فيه بالاعتراف رسميًا بالطائفة الشيعية في مصر، مشيرًا إلى أن عدد الشيعة في مصر يتجاوز (٧٠٠) ألف (إجمالي السكان يصل إلى ٧٠ مليون نسمة)، وطلب النفيس في نهاية مذكرته التي تقدم بها نيابة عنه هاني أبو شنب الحامي بالاعتراف بالشيعة المصريين « كطائفة مذهبية رسمية. وقد جاء هذا الطلب في الوقت الذي تبذل فيه محاولات من أكثر من جهة لاستئناف العلاقات الدبلوماسية بين إيران ومصر. ولكن الطيب أضاف أن السبب الرئيسي وراء تقديمه للطلب ما حدث في محافظة البحر الأحمر مؤخرًا. ولا مشكلة دينية في مصر حول الشيعة؛ إنما المشكلة سياسية وأمنية؛ ذلك أن الأزهر من زمن شيخه محمود شلتوت أفتى بجواز التعبد بالمذهب الجعفري (الشيعي) في فتواه الصادرة في (١٦) شوال سنة (١٣٧٩ هـ)، معتبرًا أن مذهب الشيعة الإمامية مذهب « يجوز التعبد به شرعًا كسائر مذاهب أهل السنة » وما زالت هذه الفتوى سارية ومعترفًا بها من قبل الأزهر الشريف حتى الآن. فلا مشكلة دينية إذن وإنما المشكلة سياسية.

(٢) فأصرت الشيعة على أن الطرف الآخر لا يمثل الإسلام؛ وإنما هي الحركة الوهابية، في حين يركز الطرف الآخر على نقاط الغلو عند الشيعة. وصارت المراكز الثقافية للطرفين توزع الكتب الهجومية المسيئة بالجنان في البلاد الإسلامية!! في حين يشكو المسلمون الفقر والضعف هنا وهناك!

قائلاً: « لعن الله المعتزلة أرادت أن توحد فألحدت، ورامت أن ترفع التشبيه فأثبتت » (١)، وقد كان والده الباقر مخاصماً صريحاً للمعتزلة، وأوردت المصادر حججه العنيف لعمر بن عبيد وواصل بن عطاء (٢).

فكيف إذن تأثر المتأخرون من الشيعة بالمذهب المعتزلي؟.

يوضح لنا الدكتور النشار سير خط التشيع وتطوره، فيراه مر على الشكل التالي: عقائد سلفية قديمة تمتد حتى وفاة محمد الباقر، « ثم عقائد كلامية عقلية تتوسط المذاهب وهي أقرب إلى الأشاعرة على يد جعفر الصادق، وعقائد مجسمة على يد تلامذة جعفر؛ هشام ابن الحكم وهشام الجواليقي ومؤمن الطاق،... ثم ظهر كتاب الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) أوائل المقالات الذي يمثل لنا المرحلة المعتزلية في عقائد الشيعة أو يمثل لنا تكوّن العقائد الشيعية الاثني عشرية » (٣).

ومهما أنكر الاثنا عشرية صلتهم بالمعتزلة، وأكدوا أن آراءهم العقدية بنت منهجهم المعتمد على أئمة أهل البيت، وليس على فكر المعتزلة؛ فإن الواقع أكبر دليل على عكس ذلك؛ لوجود قواسم مشتركة بين الفرقتين. وهي حقيقة يقر بها الشيعة، فيقول عبد الله نعمة: « أما آراء الشيعة الكلامية فإن الكثير منها يتفق مع جملة من الآراء الاعتزالية، وخاصة في مسألة العدل، ونفي رؤية الخالق، وفي إثبات الحسن والقبح العقليين، وقاعدة اللطف، ونفي قدم الصفات، وأن صفاته تعالى عين ذاته، وفي وجوب الأصلح للعبد في دار الدنيا، وإن اختلفوا في جهة الوجوب؛ فعند أكثر الشيعة ومنهم المفيد أنه واجب من جهة الكرم والتفضل، وعند أكثر المعتزلة والنوبختي صاحب كتاب (الياقوت) أنه واجب من باب العدل، وفي أنه تعالى قادر على الشر كما أنه قادر على الخير، ولكنه لا يفعل الشر؛ لأنه قبيح » (٤).

صحيح أن المعتزلة حاربت التطرف الشيعي والغلو فيه، ولكن « التشيع نما في أوساط المعتزلة نمو الخضاب في اليد » (٥). فالمعتزلة يرجعون مذهبهم إلى أئمة أهل البيت: علي

(١) الكراجكي، كنز الفوائد (١/ ١٢٥ - ١٢٧)، وانظر: الشيخ جعفر السبحاني: رسائل ومقالات (ص ٣٦٣)، مؤسسة الإمام الصادق.

(٢) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢١٨، ٢١٩).

(٣) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٢١).

(٤) عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٥٢).

(٥) الأستاذ الدكتور عبد الفتاح الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ٣٤).

وبنيه من بعده، فإذا نظرنا إلى الكتب التي تحدثت عن طبقات المعتزلة وجدنا الحسن والحسين ابنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام معدودين في الطبقة الثانية من رجال المعتزلة، كما نجد في الطبقة الثالثة الحسن بن الحسن عليه السلام، وابنه عبد الله، وابن ابنه محمد، وأبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية وأخاه الحسن، ومحمد بن علي بن عبد الله ابن عباس، وزيد بن علي، كما نجد في الطبقة التاسعة الحسن بن موسى النوبختي صاحب (فرق الشيعة) وهو من أعلام الإمامية ^(١).

وترى الدكتورة عائشة المناعي: « أن المعتزلة وإن كانوا قد انقضوا فإن مقولاتهم لا تزال تعيش وتحيا ضمن مقولات علم الكلام الإمامي، ومن هنا كان الاهتمام بعلم الكلام الإمامي اهتمامًا في نفس الوقت بعلم الكلام الاعتزالي » ^(٢).

ويفسر الإمام عبد الحلیم محمود هذا التمازج بين المعتزلة والشيعة بقوله: « كانت الشيعة حزبًا ولكنه حزب ديني، أعني أنه يرى أن الأسرة العلوية خير من يقيم الدين على ظهر المعمورة... نقول: إنها حزب وليست بفرقة، ونحتكم إلى التاريخ؛ فإذا به يحدثنا أن زيد بن علي إمام الزيدية تتلمذ في الأصول على واصل بن عطاء رأس المعتزلة... الزيدية إذن كلهم معتزلة أهم شيعة أم معتزلة؟ إنهم شيعة باعتبار حزبهم، معتزلة باعتبار فرقتهم، ولا أظن أنه يمكننا تفسير الأمر على غير هذا، والإمام أبو حنيفة معروفة عقيدته أنه من أهل السنة، ومع ذلك... كان يوالي زيدًا ويناصره » ^(٣).

فالمعتزلة نُسبوا إلى الشيعة بتفضيلهم عليًا عليه السلام ونصرتهم آل البيت سياسيًا؛ فقد كان بين المعتزلة وآل البيت وشيعتهم الزيدية تناصر وتآزر؛ إذ يقول التاريخ: لما خرج « إبراهيم ابن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالبصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وفارس وأكثر السواد وشخص عن البصرة في المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه عيسى بن زيد بن علي، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم، فحاربهما إبراهيم حتى قُتل وقُتلت المعتزلة بين يديه » ^(٤).

(١) انظر: د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة (ص ٥٨). دار الهلال (١٩٧١).

(٢) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية: دار الثقافة - الدوحة (ط ١)،

(١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م)، وأصلها رسالة دكتوراه جامعة الأزهر (١٩٩١ م)، (ص ١٤، ١٥).

(٣) الشيخ عبد الحلیم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (٧٦، ٧٧).

(٤) مقالات الإسلاميين (٨١/١).

« فإذا جاء عهد هارون الرشيد (ت ١٩٤ هـ) نجده يسجن بشر بن المعتز المعتزلي؛ لانتهامه بمبول شيعية » (١).

إذن فالاعتزال مذهب عقدي، والتشيع - في بدايته - اتجاه سياسي، وإن اعتمد على فكرة دينية لم ترق لتكون أصلاً عقدياً عند الزيدية - وهي الإمامة - ولكنها لم تلبث حتى تطورت لتصبح كذلك عند الاثني عشرية.

لقد توجب على الضعفاء أن يتحدوا ضد الأقوياء، فكما تآزر المعتزلة والشيعة ليقفوا أمام طغيان الحكم السياسي تآزرُوا أيضاً - ولكن فكرياً هذه المرة - ضد أفكار أهل السنة، وكان مما ساهم في تقارب الشيعة من المعتزلة ما كان عليه بعض المعتزلة من تفضيل لعلي عليه السلام. « وكان واصل بن عطاء ينسب إلى الشيعة في ذلك الزمان؛ لأنه كان يقدم علياً على عثمان » (٢). وكذلك القاضي عبد الجبار في كتابه: شرح الأصول الخمسة نقل عن جمع من المعتزلة تفضيلهم لعلي على عثمان، ولم يكونوا شيعة.

أضف إلى ذلك أن كثيراً من الزيدية دخلوا في مذهب الإمامية، وحملوا معهم كثيراً من عناصر مذهبهم المعتزلي ومزجوه بمذهب الاثني عشرية (٣).

وبعد ثبوت القواسم المشتركة سياسياً وفكرياً بين الشيعة والمعتزلة يأتي السؤال هنا: أيهما أسبق؛ فكر التشيع أو الاعتزال؟ ومن الذي تأثر بالآخر: الشيعة بالمعتزلة أم المعتزلة بالشيعة؟

الرأي السائد أن فكرة الاعتزال أسبق، وأن الشيعة تأثروا بالمعتزلة، ويدل على ذلك « ما حدث بين الشيعة الاثني عشرية والمعتزلة من مخالطة في غضون القرن الرابع الهجري، فقد انخرط بعض الشيعة في صفوف المعتزلة، وخاصة معتزلة أصفهان، الذين انتسبوا بسبب ذلك إلى علي عليه السلام، ورووا سند مذهبهم إليه » (٤)، « وتكشف الدراسات القديمة [و] الحديثة عن أن المعتزلة - منذ القرن الرابع الهجري - حالفوا الشيعة الذين كان يحكم منهم بنو بويه في فارس (٣٣٢ هـ)؛ وبذلك فشا الاعتزال في ظل الدولة

(١) انظر: د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة (ص ٥٨). دار الهلال (١٩٧١ م).

(٢) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: اختلاف المسلمين بين السياسة والدين (ص ٢١).

(٣) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢١/٢)، ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية (ص ١٠، ١١).

(٤) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية (ص ١١).

البوذية في العراق وخراسان ودخل فيه جماعة من مشاهير الفقهاء... ووجد الشيعة - بالمقابل - بغيتهم في المذهب الكلامي الاعتزالي؛ إذ لم يكن لهم مذهب كلامي خاص بهم، فتسنى لهم أن يقتبسوا عنهم أصول الكلام وأساليبه^(١). وبناء على هذا الرأي قال آدم متز: (إن الشيعة ورثة المعتزلة) «^(٢).

ولكن الشيعة ينحون طريقاً معاكساً، فيؤكد كتابهم أن « من الأغلاط الواضحة ما يحاوله بعض الباحثين بقصد وبدون قصد حين يردّ أصول التفكير الشيعي إلى المعتزلة، ويربط أفكار الشيعة بالأفكار الاعتزالية.

فالشيعة يعكسون القضية، ويرون أن الشيعة هم أساتذة المعتزلة؛ حيث تتلمذ واصل ابن عطاء على أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية^(٣).

فأنصار الإمامية يرون أن التشيع - كعقيدة - سابقٌ على الاعتزال؛ لأن أئمة آل البيت سبقوا المعتزلة في معالجة قضايا علم الكلام، فأبو هاشم ابن الحنفية ألف فيه كتاباً جليلاً، ثم عيسى بن روضة التابعي، وهما أسبق من واصل بن عطاء وأبي حنيفة^(٤).

« أما نشأة واصل بن عطاء على يد محمد ابن الحنفية فهي حقيقة تاريخية ثابتة^(٥). ولكن أينسى الاثنا عشرية أنهم لا يقرون لمحمد ابن الحنفية وابنه أبي هاشم بشيء؟ فليسا عندهم من الأئمة المعصومين ولا من أتباعهم. بل إن التاريخ ليؤكد أن الاثني عشرية استفادوا من الكيسانية فيما قالوه في أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية. يقول د. النشار: « وكما أخذت الشيعة المعتدلة فيما بعد بكل العقائد التي أعلنها الشيعة في محمد

(١) د. عبد العزيز حاجي: تفسير آيات العقيدة: استعراض شامل لمذاهب المفسرين في العقيدة (٨٤٣/٢)، دار الصابوني (١٤٢٤ هـ)، وهي في الأصل رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم - القاهرة.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع (١٠٦/١)، نقله إلى العربية محمد عبد الهادي أبو ريذة (ط ٣) وقد ردّ قوله عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٤٢) وجعفر سبحاني في: رسائل ومقالات (ص ٢٥٥) وما بعدها.

(٣) انظر: العلامة الحسن بن يوسف الحلبي: كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين (ص ٥٩)، (ط ١)، طهران (١٤١١ هـ / ١٩٩١ م)، تحقيق: حسين الدراكهي، عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٤٣) .

(٤) انظر: آل كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها (ص ٢٧)، د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٤٥٠) .

(٥) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٢٨) دار الثقافة - الدوحة (ط ١)، (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م)، وأصلها رسالة دكتوراه جامعة الأزهر.

ابن الحنفية ونسبها إلى الأئمة الاثني عشر - دخلت العقائد الغنوصية بعد عهد أبي هاشم في عقائد الشيعة الإمامية الاثني عشرية في صورة معتدلة وفي عقائد الإسماعيلية في صورة مغالية» (١).

وعلى كل فإن ابن المطهر الحلي لم يقنع بأن يكون المعتزلة وحدهم أتباعاً للشيعة؛ بل أراد أن ينسب إلى الشيعة كل جهود مدارس علم الكلام! إذ يقول: « فإن المعتزلة انتسبوا إلى واصل بن عطاء وهو كبيرهم، وكان تلميذ أبي هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ علي عليه السلام، والأشعرية تلامذة أبي الحسن علي بن أبي بشر الأشعري، وهو تلميذ أبي علي الجبائي، وهو شيخ من شيوخ المعتزلة » (٢).

وقد وجدت د. عائشة المناعي أن الحديث عن أسبقية الظهور بالنسبة لفكر كلتا المدرستين يعد « مسألة غامضة إلى حد بعيد، وهي نقطة نزاع قديم وحديث أيضاً بين أنصار المعتزلة وأنصار الإمامية »، وإن كانت دراستها التاريخية أثبتت - من حيث ظهور أعلام هاتين المدرستين - تأثر الشيعة بالمعتزلة؛ فهناك تشابه بين آراء أبي القاسم البلخي (ت ٣١٩ هـ) المعتزلي وآراء المفيد (ت ٤١٣ هـ) الشيعي الإمامي؛ فلا بد أن يتأثر المتأخر بالمتقدم (٣)، وكذلك هناك تشابه بين القاضي عبد الجبار (ت ٤١٥ هـ) والشريف المرتضى أبي القاسم علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ) الإمامي رئيس نقابة الطالبين في عصره، بل يؤكد لنا التاريخ أن الشريف المرتضى تتلمذ على يد الشيخ أبي عبد الله المرزباني الذي كان شيخاً من شيوخ المعتزلة (٤). ومن هنا رأينا المرتضى والحسن بن موسى النوبختي - صاحب (فرق الشيعة) وهو من أعلام الإمامية - وغيرهما معدودين من أعلام المعتزلة (٥).

والحقيقة أن العلاقة بين التشيع والاعتزال علاقة تأثير وتأثر متبادل؛ حيث أخذ كل منهما من الآخر.

فإن لقاءات الشيعة بالمعتزلة لا بد وأن تكون قد أثرت في الطائفتين؛ ففكرة تبادل الأسلحة بين المتحاورين ممكنة؛ فكيف إذا ارتقت لیتتلمذ رجال من المعتزلة على يد الشيعة

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٦١/٢).

(٢) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة (ص ١٦٢).

(٣) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د.عائشة يوسف المناعي (ص ٤٥٠).

(٤) انظر: د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة (ص ٥٦، ٥٧). دار الهلال (١٩٧١ م).

(٥) انظر: د. محمد عمارة: رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة (ص ٥٨). دار الهلال (١٩٧١ م).

الأوائل كالنظام المعتزلي على يد هشام بن الحكم، كما تتلمذ من قبل واصل رائد الاعتزال على يد أبي هاشم بن محمد ابن الحنفية!

لقد احتك رجال الشيعة الأوائل مع المعتزلة في العراق، فهذا هو الميثمي علي بن إسماعيل ابن شعيب بن ميثم التمار (ت ١٧٩هـ) الذي « كان من كبار متكلمي الروافض وأول من كتب منهم كتباً، قد ناظر أبا الهذيل عند أمير البصرة، ثم قابله هشام بن الحكم وحضر مجالسه... وسيسير على نهجه فيما بعد ويناقش المعتزلة نقاشاً عنيفاً »^(١). ولا بد لهذه النقاشات في بداية تشكيل الفكر الاثني عشري من دور فعال في صياغة المذهب الإمامي.

بل كان لتلك اللقاءات دورها في تشكيل كثير من الآراء حتى الاعتزالية منها؛ فهذا إبراهيم بن سيار النظام المعتزلي يأخذ نظرية جسمية الأعراض (كاللون والطعم والرائحة) عن هشام بن الحكم^(٢). ويعتمد قوله « بإبطال الجزء الذي لا يتجزأ »^(٣).

وإذا كان لا بد للباحث من رأي؛ فإنه يميل إلى القول بتأثر الاثني عشرية بالفكر المعتزلي وغيره أيضاً أكثر من العكس؛ ذلك أن الباحث وجد من استقرائه لآرائهم أن من خصائص مذهب الاثني عشرية أنه مذهب جمعي، فهو يعتمد على جمع ما عند الفرق الأخرى من نقاط، سواء أئفق عليها أو اختلف فيها، ثم يأخذ من هذه الآراء ما لا يتعارض مع مبادئه الأساسية كالإمامة، ولعل خير مثال لهذا مسألة اللطف؛ إذ استعارها الشيعة من المعتزلة ليثبتوا أن وجود الإمام لطف من الله تعالى. « والحق أن فكرة الاستعانة بآراء الآخرين ونظرياتهم فكرة جوهرية في مذهب الاثني عشرية؛ حيث إنهم يلتقطون من كل مذهب القضايا التي تخدم أغراضهم وتؤكد نظرياتهم دون التزام بهذه القضايا ذاتها... وتطبيقاً لهذا المنهج استعان الشيعة الاثنا عشرية برأي المعتزلة في اللطف الإلهي ووجوب فعل الأصلح من الله تعالى، ولما كانت هذه الآراء نابعة من عقيدة المعتزلة في العدل الإلهي لم يجد الاثنا عشرية صعوبة أن ينقلوا فكرة العدل بكل ما يلزم عنها من مجالها الميتافيزيقي إلى مجالها السياسي »^(٤).

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٧١/٢).

(٢) عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٦٠).

(٣) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٧٢/٢).

(٤) الأستاذ الدكتور السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٥٧).

ومما يسهل هذه الاستفادة أن الاثني عشرية يعبرون عن باقي الأمة المسلمة باسم (العامة)، ويعدّون أنفسهم الخاصة، وهذا يسوغ لهم الأخذ من العامة فيما اتفق عليه، بخلاف العامة ممثلين بأهل السنة والمعتزلة وغيرهم؛ إذ يعدون الاثني عشرية من الفرق المبتدعة أو المنحرفة، وبالتالي يمتنع الاستناد إلى آرائها والأخذ عنها.

فلم تُثبِت فكر الاثني عشرية أفكار الاعتزال وحده؛ بل شابته وخالطته بعض الأفكار الصوفية والفلسفية، وذلك في عهود متأخرة عن الأفكار الاعتزالية؛ ففي عهد الدولة الصفوية ازدادت صلة التشيع بالتصوف من خلال تأثر مدرسة أصفهان الشيعية بالتصوف على يد محمد باقر الإستراباذي (الداماد) (ت ١٠٤١ هـ)، وصدر الدين الشيرازي (ت ١٠٥٠ هـ) حيث ازدادت صلة التشيع بالتصوف والتفلسف^(١).

وإذا جمعنا ما ألفه متكلمو الشيعة وما ألفه المعتزلة في قرن واحد، وقارنّا الجهود؛ لرأينا غزارة ما أنتجه المعتزلة وضآلة ما أنتجه الاثنا عشرية، وعلى سبيل المثال فلا يمكننا المقارنة بين كتاب المغني للقاضي عبد الجبار المعتزلي بمجلداته الضخمة مع أعظم مؤلف للشيعة الاثني عشرية في زمانه، فلو صح ادعاء الاثني عشرية من شدة تأثر الفكر المعتزلي ببعض رجال الشيعة كأبي هاشم؛ فلماذا برز اسم القاضي عبد الجبار، ولم يبرز من الشيعة من يحمل لواء فكر أبي هاشم بدل أن يخطفه منهم المعتزلة؟!.

٤ - العامل الاقتصادي:

ربما يفاجأ القارئ أن يكون للمال دور في انتشار التشيع وتطوره، وخصوصاً إذا تذكر ما كان عليه آل البيت الكرام من زهد وتقوى.

وعندما طلب معاوية رضي الله عنه من أحد أصحاب علي رضي الله عنه - وهو ضرار بن ضمرة الضبابي - وصف حال علي رضي الله عنه قال: « فأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه، وقد أرخى الليل سدوله، وهو قائم في محرابه قابض على لحيته، يتململ تملل السليم، ويكي بكاء الحزين ويقول: يا دنيا! يا دنيا! إليك عني، أبي تعرضت، أم إلي تشوفت؟ لا حان حينك، هيهات غرّي غيري. لا حاجة لي فيك. قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة فيها. فميشك قصير، وخطرك يسير، وأملك حقير. آه من قلة الزاد، وطول الطريق، وبعد السفر، وعظيم المورد »^(٢).

(١) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية (ص ١٢).

(٢) نهج البلاغة (٤/١٦، ١٧). السليم: المملوغ من حية ونحوها.

ولكن كثيرًا ممن كان حوله لم يكن على هذه التقوى، حتى ذمهم علي عليه السلام فقال: « كم أداريكم كما تُدارى البكار العمدة؟ والثياب المتداعية؟ كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر، أكلّمًا أطل عليكم مُنِيرٌ من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابَه وانجحر انجحار الضبّة في جحرها والضبع في وجارها؟ الذليل واللّه من نصرتموه، ومن رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل^(١). إنكم واللّه لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات، وإني لعالم بما يصلحكم، ويقيم أودكم، ولكني واللّه لا أرى لإصلاحكم بإفساد نفسي »^(٢) يقصد ببذل مال بيت المال لهم.

وكذلك كانوا مع ابنه الحسن من بعده: فيذكر لنا التاريخ نماذج من هذه الجنود المخلصة لآل البيت!! كيف كانوا طامعين في أموال أئمتهم: « فبينما الحسن في سرادقه بالمدائن وقد تقدم قيس بن سعد؛ إذ نادى مناد في العسكر: ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا، فانفروا إلى سرادق الحسن فنازعوه حتى أخذوا بساطًا كان تحته، وطعنه رجل بمشقص فأدماه، فازدادت رغبته في الدخول في الجماعة، وذعر منهم فدخل المقصورة التي في المدائن بالبيضاء، وكان الأمير على المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار وياه عليها علي عليه السلام. فقال له المختار^(٣)، وكان شائبًا: هل لك في العناء والشرف؟ قال: وما ذلك؟ قال: تستوثق من الحسن وتسلمه إلى معاوية، فقال له سعد: قاتلك الله، أثب على ابن رسول الله وأوثقه وأسلمه إلى ابن هند؟ بئس الرجل أنا إن فعلته »^(٤).

وسيجري الحديث الآن عن المال، وكيف كان يصل للأئمة من الأتباع، فيقومون موافقهم به، ثم كيف صار يجري ويسري إلى فقهاء الشيعة بعد غيبة الإمام، وكيف سبب هذا العامل الاقتصادي ظهور أفكار شيعية متطرفة كالقول بعدم موت أحد الأئمة والوقف عليه اعتقادًا بأنه المهدي، ثم كيف صار هذا المال عاملاً من عوامل ثبات المراجع الشيعية (الآيات) على منهجهم لما يحقق لهم من مصالح.

(١) البكر: الفتى من الإبل، والعمدة: بفتح العين وكسر الميم: الإبل التي انفضح وانشدخ داخل سنامها من كثرة الركوب وظهرها سليم، حيصت: خيطة، المنسر: كمجلس، وقيل: منشتر: القطعة من الجيش، والوجار: جحر الضبع، والسهم الأفوق الناصل: المكسور مكان موضع الوتر منه، والمنزوع النصل، فلا أثر له في الرمية.
(٢) نهج البلاغة (١١٨/١) دار المعرفة - بيروت، تحقيق الشيخ محمد عبده، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (١٠٢/٦) تحت عنوان: كلام له عليه السلام في ذم أصحابه.
(٣) سيأتي الحديث عن المختار وفرقه في فصل الغلو والغلاة وأثره في التشيع.
(٤) المجلسي: بحار الأنوار (٢٨/٤٤)، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية (١٦/٨). دار إحياء التراث العربي بيروت.

لقد أورد الشيعة أحاديث كثيرة تحجب بذل الأموال للأئمة، منطلقين من أن الأرض كلها للإمام، « فإن الدنيا كلها للإمام على وجه الملك، وإنه أولى بها من الذين هي في أيديهم »^(١)؛ عن مسمع أبي سيار عن أبي عبد الله جعفر الصادق أنه قال: « .. يا أبا سيار! إن الأرض كلها لنا، فما أخرج الله منها من شيء فهو لنا. فقلت له: وأنا أحمل إليك المال كله؟ فقال: يا أبا سيار! قد طيِّبناه لك وأحللناك منه، فضمَّ إليك مالك، وكل ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محللون »^(٢).

وإذا كان الخمس عند أهل السنة موقوفًا على الغنائم لقوله تعالى: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ ﴾ [الأنفال: ٤١]؛ فإن الشيعة يرون الخمس للإمام من كل ما يستفيده الناس من مكاسبهم؛ « عن سماعة قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن الخمس، فقال: في كل ما أفاد الناس من قليل أو كثير »^(٣).

« أي كل ما يستفاد حتى بالاكتساب والتجارة فهو من الغنيمة، فتشمله الآية في وجوب إخراج خمسه فورًا، ولكن المشهور عند فقهاءنا هو استثناء المؤونة منها، وقد استثنوا من وجوب الخمس الميراث المحتسب والهدية والمهر »^(٤).

وثبت في الروايات التشجيع على دفع المال للإمام:

عن عمر عن الخبير يونس بن ظبيان قالوا: سمعنا أبا عبد الله عليه السلام يقول: « ما من شيء أحب إلى الله من إخراج الدرهم إلى الإمام، وإنَّ الله ليجعل له الدرهم في الجنة مثل جبل أحد، ثم قال: إنَّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ ﴾ [الحديد: ١١] قال: هو والله! في صلة الإمام خاصة »^(٥).

وعن إسحاق بن عمار عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: « سألته عن قول الله عز وجل: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ لَكُمْ ﴾ [الحديد: ١١] قال: هو والله! في صلة الإمام خاصة »^(٥).

(١) ا.د. محمد عمارة: الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية، نهضة مصر (٢٠٠٠م)، (ص ٨٤).

(٢) أصول الكافي (٤٧٤/١)، كتاب الحجّة، باب في أن الأرض كلها للإمام عليه السلام. والحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٦٢٤/١)، كتاب الحجّة، باب صلة الإمام. قال المحقق: هذا الحديث حسن أو موثق.

(٤) أصول الكافي (٦٢٤/١) الهامش حاشية رقم (٨)، وانظر: المجلسي: مرآة العقول (٢٧٢/٦، ٢٧٣).

(٥) أصول الكافي (٦١٦/١)، كتاب الحجّة، باب صلة الإمام.

يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَوِّفُهُ لِمَنْ وَاهَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿ [الحديد: ١١] قال: نزلت في صلة الإمام » (١).
 وعن علي بن إبراهيم عن محمد بن عيسى عن يونس عن بعض رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام
 قال: « درهمٌ يوصل به الإمام أفضل من ألفي ألف درهمٍ فيما سواه من وجوه البر » (٢).
 ويأتي إلى الأئمة بعض الأتباع ممن يريد أن يتحلل من خمسه ولا يريد دفعه، فيرفض
 الأئمة ذلك؛ عن محمد بن زيد قال: قدم قومٌ من خراسان على أبي الحسن الرضا عليه السلام
 فسألوه أن يجعلهم في حلٍّ من الخمس فقال: « ما أمحل هذا، تمحضونا بالموذة بألستكم
 وتزروون عتًا حقًا جعله الله لنا وجعلنا له وهو الخمس لا نجعل، لا نجعل، لا نجعل لأحد
 منكم في حلٍّ » (٣).

وكان الإمام أحيانًا يحلل في الظاهر من ساومه على الخمس من خزائن الخمس تقيّةً،
 فإذا أدير هذا المساوم توعده بالحساب الشديد يوم القيامة:

عن علي بن إبراهيم عن أبيه قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام؛ إذ دخل عليه
 صالح بن محمد بن سهل، وكان يتولّى له الوقف بقمّ، فقال: يا سيدي! اجعلني من
 عشرة آلاف في حلٍّ فأني أنفقتها. فقال له: أنت في حلٍّ. فلما خرج صالح قال
 أبو جعفر عليه السلام: أحدهم يثب على أموال حق آل محمد وأيتامهم ومساكينهم وفقرائهم
 وأبناء سبيلهم، فيأخذهم ثم يجيء فيقول: اجعلني في حلٍّ، أتراه ظنّ أنّي أقول: لا أفعل،
 والله! ليسألتهم الله يوم القيامة عن ذلك سؤالًا حثيثًا » (٤).

أين هذا الكلام المزعوم عن الأئمة في مقابل قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وآله: ﴿ قُلْ لَّا أَسْأَلُكُمْ
 عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ سَأَلْتَهُمُ أَجْرًا فَهُمْ مِن مَّغْرَمٍ مَّنْقَلُونَ ﴾ [الطور: ٤٠، القلم: ٤٦].. وغيرها من
 الآيات التي تحذر من اتخاذ الدين وسيلة لكسب الأموال؛ كما قال تعالى في ذم اليهود:
 ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبُطْلِ
 وَيُضَدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤].

(١) أصول الكافي (٦١٧/١)، كتاب الحجّة، باب صلة الإمام، والحديث موثق.

(٢) أصول الكافي (٦١٧/١)، كتاب الحجّة، باب صلة الإمام.

(٣، ٤) أصول الكافي (٦٢٨/١)، كتاب الحجّة، باب صلة الإمام.

ومع أن الإمام جعفر الصادق قد طيب أموال الشيعة إلى يوم خروج الإمام القائم الاثني عشري ورفض أخذ الخمس من أبي سيار - أحد شيعته - فقال: « ... يا أبا سيارٍ قد طيبناه لك وأحللناك منه؛ فضمّ إليك مالك وكلّ ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محلّلون حتّى يقوم قائمنا فيجيبهم طسق ما كان في أيديهم ويترك الأرض في أيديهم »^(١). ولكن أصحاب الأئمة ثم الفقهاء صار لهم خمُس الإمام حال الغيبة. وقد تحول بعض تلامذة الإمام إلى نهبه للأموال من بعده؛ فهذا زياد بن مروان القندي وكان من خُزّان أحماس الإمام موسى بن جعفر، فلما مات موسى أنكر بيعة ابنه علي الرضا، وصار من الواقفة على الإمام الميت موسى، مدعيًا أنه لم يميت، ولكنه الإمام المنتظر الغائب عن الأنظار، وأن له عودة. ويعلل المازندراني وقفه على موسى وإنكاره إمامة الرضا قائلاً: « كان عنده سبعون ألف دينار من مال موسى، فأنكر موته وإمامة الرضا لئلا يدفع المال إليه »^(٢). فأنت تلاحظ أنه شارك عثمان بن سعيد في الوكالة، فلما توفي استأثر بالمال. وتأمل كيف كُنزت أموال الخمس، فلماذا تكنز سبعون ألف دينار؟! والنبي ﷺ - وهو الإمام الأعظم - لم يترك دينارًا ولا ذهبًا ولا فضة، وانتقل للرفيق الأعلى ودرعه مرهونة عند يهودي.

ويؤكد نصّ آخر أن هذا الرجل لم يكن وحده، بل إن جماعة من أتباع موسى فعلوا الفعل نفسه، « فلما مضى ووقفوا عليه طمعًا في الأموال، ودفعوا إمامة ابنه علي الرضا وجحدوه »^(٣). ويؤكد ذلك قول أحدهم - وقد عُنّف على قوله بالوقف - « فقال: هذا أمرٌ قد جرينا عليه »^(٤). فهذا الدخل الوفير هو الذي يجعله يقول بالوقف فيأخذ ويجبي من الخمس ما كان يجبيه لإمامه من قبل.

(١) أصول الكافي (٤٧٤/١)، كتاب الحجّة، باب في أن الأرض كلها للإمام ﷺ. والحديث مصحّح عندهم.

(٢) المازندراني: (١٦٨/٦).

(٣) غيبة الطوسي (ص ٢٢٧)، انظر: ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٥٨).

(٤) عن محمّد بن علي بن إبراهيم بن موسى بن جعفر قال: ضاق بنا الأمر، فقال لي أبي: امض بنا حتّى نصير إلى هذا الرجل - يعني: أبا محمّد - فإنّه قد وصف عنه سماحةً. فقلت: تعرفه؟ فقال: ما أعرفه ولا رأيته قطّ. قال: فقصدناه فقال لي أبي وهو في طريقه: ما أحوجنا إلى أن يأمر لنا بخمسمائة درهم؛ مائتا درهم للكسوة ومائتا درهم للدّين ومائةٌ للنفقة، فقلت في نفسي: ليته أمر لي بثلاثمائة درهم؛ مائةٌ اشتري بها حمازًا ومائةٌ للنفقة ومائةٌ للكسوة، وأخرج إلى الجبل. قال: فلما وافينا الباب خرج إلينا غلامه فقال: يدخل علي بن إبراهيم ومحمّد ابنه، فلما دخلنا عليه وسلّمنا قال لأبي: يا علي ما خلّفك عنّا إلى هذا الوقت؟ فقال: يا سيدي استحيت أن ألقاك على هذه الحال، فلما خرجنا من عنده جاءنا غلامه فناول أبي صرةً فقال: هذه خمسمائة =

وبهذا نرى أثر العامل الاقتصادي على بعض أفكار التشيع. وفي مثل هذه النصوص إلماحة خطيرة إلى ما كان عليه بعض أتباع الأئمة من ذبذبة فكرية؛ بحيث يضلون بعد وفاة أئمتهم.

ويذكر الطوسي أن رجلاً يدعى محمد بن علي بن بلال رفض نيابة محمد بن عثمان العمري عن المهدي المنتظر في حالة الغيبة الصغرى، وأنه تمسك « بالأموال التي كانت عنده للإمام، وامتنع من تسليمها، وادعى أنه الوكيل حتى تبرأت منه الجماعة ولعنوه »^(١). وهذا يعلل كثرة أدياء النيابة عن المهدي في غيبته الصغرى، ويشكك في حال الأربعة الرسميين ذاتهم؛ حيث ظهر ما يزيد على عشرين مدّعياً للنياحة عن المهدي، تلقّهم المطامع والشبهات التاريخية وعلامات الاستفهام؛ مما يجعل الشك يحوم حول جميع من ادعى النيابة^(٢).

- شكوك الناس بوكلاء الإمام الغائب:

وقد أتى الكليني بأحاديث تدعم أمانة الوكلاء ونزاهتهم عند امتحان الناس لهم^(٣)، ولكن هذه الأحاديث تبين أن الذين كانوا يريدون السطو على مال الوكلاء صاروا وكلاء.

عن محمد بن إبراهيم بن مهزيار قال: شككت عند مضيّ أبي محمد عليه السلام واجتمع عند أبي مائل جليل فحملة وركب السفينة وخرجت معه مشيماً، فوعك وعكاً شديداً فقال: يا بنيّ ردّني فهو الموت وقال لي: اتق الله في هذا المال. وأوصى إليّ فمات، فقلت في نفسي: لم يكن أبي ليوصي بشيء غير صحيح، أحمل هذا المال إلى العراق وأكثرني داراً على الشطّ ولا أخبر أحداً بشيء، وإن وضع لي شيء كوضوحه في أيام أبي محمد عليه السلام

= درهم مائتان للكسوة ومائتان للدين ومائة للتفقة. وأعطاني صرة فقال: هذه ثلاثمائة درهم، اجعل مائة في ثمن حمائر ومائة للكسوة ومائة للتفقة، ولا تخرج إلى الجبل وصر إلى سورا فصار إلى سورا وتزوج بامرأة فدخله اليوم ألف دينار، ومع هذا يقول بالوقف. فقال محمد بن إبراهيم فقلت له: ويحك أتريد أمراً أين من هذا؟ فقال: هذا أمر قد جرينا عليه « أصول الكافي (١/٥٨٢) »، كتاب الحجّة، باب في مولد أبي محمد الحسن بن علي.

(١) الغيبة للطوسي (ص ٢٤٥).

(٢) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٦)، (ط ١)، (١٩٩٧ م).
(٣) أصول الكافي (١/٥٩٤، ٥٩٥) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب قال محققه: والحديث هذا صحيح. وفيه عن « علي بن محمد عن سعد بن عبد الله قال: إنّ الحسن بن التضر وأبا صدام وجماعة تكلموا بعد مضيّ أبي محمد عليه السلام فيما في أيدي الوكلاء وأرادوا الفحص... » أي حصر ما في يد الوكيل من أموال الإمام.

أنفذته وإلا قصفت به. فقدمت العراق واكترت دارًا على الشطّ وبقيت أيتامًا، فإذا أنا برقعةٍ مع رسولٍ فيها: « يا محمد معك كذا وكذا في جوف كذا وكذا ». حتى قصّ عليّ جميع ما معي ممّا لم أحط به علمًا، فسلمته إلى الرسول وبقيت أيتامًا لا يرفع لي رأسٌ واغتممت فخرج إليّ: « قد أقمنك مكان أبيك فاحمد الله » (١).

- تهارش الوكلاء على أموال الخمس:

لقد صار بعض أصحاب الأئمة يتنافسون على الوكالة والنيابة عن الأئمة، فهذا محمد بن علي الشلمغاني، كان وكيلاً عن النائب الثالث الحسين بن روح (٢)، ثم انشق عنه وادعى النيابة لنفسه وقال: ما دخلنا مع أبي القاسم الحسين بن روح في هذا الأمر - يعني النيابة في حلب الأموال من الناس - إلا ونحن نعلم فيما دخلنا فيه، لقد كنا نتهارش على هذا الأمر كما تتهارش الكلاب على الجيف. قال أبو محمد: فلم تلتفت الشيعة إلى هذا القول وأقامت على لعنه والتبرؤ منه (٣).

ولما وصلت دعوى غيبة الإمام الصغرى إلى طريق مسدود؛ بسبب كثرة خلافات من يدعي النيابة (البابية) عن الإمام - أخرج نواب الإمام توقيماً منسوباً للمهدي المنتظر يعلن فيه انقطاع البابية أو الوكالة المباشرة عن الإمام الثاني عشر الغائب، ويقرر حلول الغيبة الكبرى، واختراع مبدأ النيابة العامة للفقهاء، بحيث توسعت دائرة المنتفعين من الخمس، فصار يناله فقهاء الشيعة (٤).

- واقع الخمس اليوم:

والواقع المعاصر يبين أن عامة الشيعة ما يزالون يدفعون الخمس ديانةً إلى فقهاءهم ومراجعهم (الآيات)، فمنهم من يجعله في مصارف خيرة كبناء المشافي وغيرها، أو يستخدمه في الدعوة إلى التشيع، وتشجيع الناس على الدخول فيه بالأموال والكتب... وغير ذلك، وقد يستخدم في خدمة الثورات السياسية الشيعية، ولا يستبعد أن يصرفه بعضهم فيما يريد من أمور الدنيا، بغياب تنظيمه والرقابة عليه.

(١) أصول الكافي (١/٥٩٤، ٥٩٥) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه.

(٢) هذا هو النائب الثالث للإمام القائم في غيبته الصغرى.

(٣) الطوسي: الغيبة (ص ٣٩٣)، مؤسسة المعارف الإسلامية قم (ط ١)، (١٤١١ هـ)، بحار الأنوار

(١٣٥٩/٥١)، وانظر: أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي (ص ٢٢٦). (ط ١)، (١٩٩٧ م).

(٤) انظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/١٠١٨، ١٠١٩).

يقول الخميني: « الخمس مورد ضخم يدر على بيت المال أموالاً طائلة تشكل النصيب الأكبر من بيت المال.... السادة متى كانوا بحاجة إلى مثل هذا المال، خمس سوق بغداد يكفي لاحتياجات جميع السادة، ولجميع نفقات المجامع العلمية والدينية ولجميع فقراء المسلمين، فضلاً عن سوق طهران وإسلامبول والقاهرة [!!] ^(١) وغيرها، فميزانية بمثل هذه الضخامة إنما تراد لتسيير أمة كبرى، ولإشباع الحاجات الأساسية المهمة للناس... هل نلقي بهذه الثروة الواسعة في البحر؟ أو ندسها في التراب حتى ظهور الحجة؟ أو نوزعها على (٥٠) هاشميًا أو خمسمائة ألف هاشمي؟ وإذا دفع إليهم هذا المال أليس يذهلهم ويحيرهم؟ ألا نعلم أن حق الهاشميين في هذا المال إنما هو بمقدار ما يحتاجون إلى إنفاقه بقصد واعتدال » ^(٢).

يقول د. القفاري: « والتأمل للحركات الشيعية الكثيرة في تاريخ الأمة المسلمة... لا ينبغي أن يفوته أن المادة الممولة لهذه الحركات هي ما أخذ من أولئك الأتباع الأغرار باسم آل البيت وحقهم من الخمس... بل إن الحركات الشيعية في العالم إلى اليوم إنما تمّول من هذا المورد، وآيات الشيعة يعتبرون من كبار الرأسماليين في العالم... وهذا الجانب التمويلي هو الذي غدّى ويغذّي دور النشر التي تقذف سنويًا بمئات النشرات والكتب والمراجع... وأصبح هؤلاء الآيات أو المراجع يوجهون فتاواهم على رغبات رجل الشارع، بل ويكتمون الحقيقة مجاراةً لهم » ^(٣).

وهذا الخمس هو الذي يمول بناء الحوزات والحسينيات والمكتبات والمراكز البحثية الشيعية، ويؤمن الحاجات الاقتصادية لعدد كبير من الباحثين الشيعة ليتفرغوا ويوجهوا جهودهم العلمية من أجل توسيع دائرة المذهب الشيعي والرد على خصومه، في حين يعيش معظم علماء الفرق الأخرى في عوز وفقر، فينشغلون في معظم أوقاتهم بلقمة العيش عن كثير من الواجبات الشرعية المناطة في أعناقهم.

٥ - العوامل الخارجية:

يرى بعض الباحثين أن التشيع صار مأوى يلجأ إليه كل من أراد هدم الإسلام لعداوة

(١) لاحظ تطلعه لتشيع أهل هذه العواصم الستة الكبرى لإسلامبول والقاهرة!.

(٢) روح الله الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ٢٩ - ٣١).

(٣) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٤٩٦/٣).

أو حقد؛ فقد تستر بعض الفرس بالتشيع وحاربوا الدولة الأموية، وما في نفوسهم إلا الكره للعرب ودولتهم، وكان هؤلاء وأمثالهم يتخذون من حب آل البيت ستارًا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم.

قال المقرئزي: «واعلم أن السبب في خروج أكثر الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانت [في] سعة الملك وعلو اليد على جميع الأمم وجلالة الخطر في أنفسها... وكانوا يعدون الناس عبيدًا لهم... وكان العرب عند الفرس أقل الأمم خطرًا.. وراموا كيد الإسلام بالحاربة في أوقات شتى، وفي كل ذلك يظهر الله الحق.. فرأوا أن كيده على الحيلة أنجع، فأظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل البيت واستبشاع ظلم علي، ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن طريق الهدى» (١).

كما صار التشيع ملجأ لمن يريد إدخال تعاليم آبائه في الدين الجديد؛ فاليهودية ظهرت في التشيع بالقول بالرجعة، ويقول الشيعة: إن النار محرمة على الشيعة إلا قليلاً، كما قال اليهود: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ﴾ [آل عمران: ٢٤] والنصرانية ظهرت في التشيع في تشبيه الأئمة بالمسيح عليه السلام. والبرهمية والجوسية وأقوال الفلاسفة ظهرت في التشيع في القول بتناسخ الأرواح، والقول بالتجسيم والحلول والخوض في الصفات (٢).

ويرى د. القفاري أن من تتبّع مذاهب الشيعة على اختلافها فسيجد أن فيها آثارًا لمعظم المذاهب والأديان التي جاء الإسلام بمخالفتها (٣).

وتختلف وجهات نظر الباحثين حول أعظم هذه المؤثرات في التشيع، فبعض المستشرقين كـ (فلهوزن) يرى - كما يذكر الأستاذ أحمد أمين - أن العقيدة الشيعية نشأت من اليهودية أكثر مما نشأت من الفارسية، مستدلًا بآبن سبأ ودوره في غلو الشيعة، في حين يميل (دوزي) إلى أن أساسها الفارسي أبلغ من الأثر اليهودي؛ لأن الفرس يدينون بالملك والوراثة في الحكم، وأن الفرس اعتادوا النظرة الإلهية لحكامهم، ويرجح أحمد أمين أن التشيع في البداية لم يكن لا هذا ولا ذلك، إنما كان بسيطًا ساذجًا في العهد الأول إلى بُعيد عهد عثمان، ثم بعد ذلك بدأت تظهر المؤثرات الأخرى فيه، فصار

(١) انظر: الأستاذ أحمد أمين: فجر الإسلام (ص ٤٣٧، ٤٣٨).

(٢) المقرئزي (٣٦٢/١) مختصرًا. وانظر: فجر الإسلام (ص ٤٣٧، ٤٣٨). وانظر: مختصر التحفة (ص ٢٩٨) وما بعدها.

(٣) انظر حول هذه المؤثرات: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٦/١ - ١٠٨).

اليهود يصبغونه بصبغتهم، وكذلك النصارى وكذلك المجوس، وإن كان الأثر الفارسي أظهر هذه المؤثرات (١).

- أولاً: حول الأثر الفارسي في التشيع:

يقول الشيخ محمد أبو زهرة: «إنا نعتقد أن الشيعة قد تأثروا بالأفكار الفارسية حول الملك والوراثة، والتشابه بين مذهبهم ونظام الملك الفارسي واضح، ويزكي هذا أن أكثر أهل فارس من الشيعة، وأن الشيعة الأولين كانوا من فارس» (٢).

ومن دلائل الأثر الفارسي في التشيع:

١ - تعظيم سلمان الفارسي رضي الله عنه.

٢ - ما ذكره ابن حزم والمقرئزي من أن الفرس كادوا للإسلام من داخله بنشر العقائد الضالة.

٣ - التشابه في الأفكار، فالعرب تدين بالحرية، أما الفرس فتدين بالوراثة والملك، وهو ما جاء التشيع فأكدته من خلال تسلسل الأئمة الاثني عشر من سلالة واحدة.

٤ - لقد أثبت التاريخ أن الحسين بن علي رضي الله عنه تسرى بـ (شهربانويه) بنت (يزدجرد) أحد ملوك فارس، وأنجبت له علي بن الحسين (زين العابدين) رحمه الله تعالى، «وذلك أن عمر بن الخطاب لما أتى بابنتي يزيدجرد وهب إحداهما للحسين بن علي، فسامها غزالة، وكان يقول بعض الأشراف إذا ذكر علي بن الحسين: يود الناس كلهم أن أمهاتهم إماء» (٣). وهكذا صار الفرس أحوالاً لأحد أئمة آل البيت، وهو علي ابن الحسين؛ فربما كان لذلك أثر في نفوس الفرس، فضحّموا ذكر نسله من بعده، في حين أهملوا ذكر نسل الحسن، فلا مكان لهم في الإمامة.

٥ - كما يدل على الأثر الفارسي في التشيع بغضهم الشديد للخليفة عمر بن الخطاب، الذي سقطت إمبراطورية الفرس تحت سنايك خيل جنوده، ومحبتهم وتقديسهم لقاتله أبي لؤلؤة؛ فمن المشهور بين الناس أن في مدينة كاشان الفارسية في شارع الفيروزي هناك

(١) أحمد أمين فجر الإسلام (ص ٤٣٩).

(٢) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية (٣٨/١). وانظر: منهاج السنة: (١٤٧/٤)، ود. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٣/١).

(٣) اليعقوبي [أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ)]: تاريخ اليعقوبي (٣٠٣/٢). دار صادر - بيروت. انظر بحار الأنوار (٣٣٠/٤٥) للمجلسي - مؤسسة الوفاء - بيروت (٢ط) - (١٤٠٣).

مزار مقام في ميدان فيروزي، هو مزار لقبر المجوسي فيروز أبي لؤلؤة قاتل سيدنا عمر رضي الله عنه. ويسمون هذا المجوسي بـ (بابا شجاع الدين) ^(١).

بل إنهم يعدّون يوم مقتل عمر رضي الله عنه من أعظم الأعياد، يقول الجزائري: «إن هذا يوم عيد وهو من خيار الأعياد» ^(٢)؛ والعلة الظاهرة من هذا هو أن عمر رضي الله عنه ورجاله الكرام كانوا وراء سقوط إمبراطورية الفرس.

ومن أوضح الأدلة على هذا الأثر الفارسي ما أورده بعض الروايات الحديثية الشيعية التي أثبتت نجاة كسرى فارس، وأن «الله خلصه من عذاب النار، والنار محرمة عليه» ^(٣). في حين جاءت روايات كثيرة تقدح بالعرب؛ وتتوعدهم بالقتل على يد المهدي المنتظر، فعن أبي عبد الله قال: «اتقِ العرب؛ فإن لهم خبر سوء، أما أنه لم يخرج مع القائم منهم أحد» ^(٤). وعنه أيضًا قال: «ما بقي بيننا وبين العرب إلا الذبح» ^(٥).

وتستمر نار الحقد على العرب حتى اليوم فتتهمهم بالتخلف، وتنمي روح الشعوبية الفارسية، وعلى سبيل المثال يقول أحدهم: «إن الصدمات التي واجهها كل من شعبي إيران والروم الكبيرين نتيجة حملات المسلمين والمعاملة التي تلقوها من الأعراب البدائيين الذين لا علم لهم بروح الإسلام العظيمة - أورثت في نفوسهم نزعة صدود عن العرب، وشريعة العرب؛ فطبيعة سكان البادية الأوباش الخشنة، وذلك الخراب والدمار اللذين أحقوهما بالمدن الجميلة، والأراضي العامرة في الشرق والغرب، وغارات عباد الشهوات العطاشى إلى عفة وناموس الدولتين الملكية والإمبراطورية... إلخ» ^(٦).

وقد يجد الباحث من بعض النصوص ما فيه بعض الإشارات إلى آثار ديانة الفرس وتقديسهم للنور ومن ذلك هذا الخبر: عن أبي الحسن: بينما رسول الله صلى الله عليه وآله جالس إذ دخل عليه ملك له أربعة وعشرون وجهًا. فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله: «حبيبي جبرائيل لم أرك في مثل هذه الصورة» قال الملك: لست بجبرائيل يا محمد. بعثنى الله تعالى أن

(١) انظر: عباس القمي: الكنى والألقاب (٥٥/٢).

(٢) انظر أخبارهم في ذلك في الأنوار النعمانية للجزائري (١٠٨/١) وما بعدها، فصل (نور سماوي يكشف عن ثواب يوم قتل عمر بن الخطاب). وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩١٤/٢).

(٣) بحار الأنوار (٤١/١٤).

(٤) الطوسي: الغيبة (ص ٤٧٦)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٣٣/٥٢).

(٥) بحار الأنوار (٣٤٩/٥٢).

(٦) ميرزا حسن الخائري الإحقاقي: الإيمان (ص ٣٢٣)، مكتبة الصادق - الكويت (ط ٢)، (١٤١٢).

أزوج النور من النور. قال: « من ممن؟ » قال: فاطمة من علي. قال: فلما ولى الملك إذا بين كتفيه: محمد رسول الله، علي وصيه. فقال رسول الله تعالى: « منذ كم كُتِبَ هذا بين كتفيك؟ » فقال: من قبل أن يخلق الله آدم باثنين وعشرين ألف عام ^(١).

ومن المعلوم أن الأفكار الفارسية كانت قبل الإسلام قد تغلغلت في العراق لمجاورتها له، و « أكثر شيعة علي كانوا في العراق، وكانوا من عناصر متنوعة، والعراق من قديم منبع الديانات المختلفة، والمذاهب الغريبة، وقد سادت فيهم قبل الإسلام تعاليم مانوي ومزدك وابن ديسان... ومنهم نصارى ويهود سمعوا المذاهب المختلفة في حلول الله في بعض الناس، كل هذه الأمور جعلت منهم من يؤله عليا.

ومن المعلوم أن العرب كانوا أبعد الناس عن هذه المقالات والمذاهب الدينية، حياتهم البسيطة وعقليتهم التي على الفطرة تأبى عليهم أن يلصقوا بمحمد ﷺ ألوهية، وهو الذي يكرر دائماً ما جاء في القرآن الكريم: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴾ [الكهف: ١١٠] ^(٢).

ثانياً: حول الأثر اليهودي والنصراني في التشيع:

قد يجد المرء بعض النقاط التي تدل على تأثر الفكر الشيعي باليهودية والنصرانية، ومن هذه النقاط:

١ - التشابه في بعض الأصول الفكرية بين اليهود والشيعة، ولعل أول بيان لذلك وأشمله هو ما روي عن الشعبي ^(٣) كما أشار ابن حزم إلى شيء من ذلك حينما قال: « سار هؤلاء الشيعة في سبيل اليهود القائلين.. إن إلياس عليه السلام، وفنحاس بن العازار ابن هارون عليه السلام أحياء إلى اليوم ^(٤). وقد ذكر ابن تيمية أن في الشيعة من الجهل والغلو واتباع الهوى ما أشبهوا فيه النصارى من وجه واليهود من وجه، وأن الناس ما زالوا يصفونهم بذلك، ثم نقل ما روي عن الشعبي من مشابهة الشيعة لليهود والنصارى ^(٥). وقد قال بهذا الرأي جمع من الباحثين ^(٦).

(١) أصول الكافي (٣٨٣/١) كتاب الحجّة، باب مولد الزهراء عليها السلام.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام (ص ٤٢٨، ٤٢٩)، الهيئة المصرية للكتاب (٢٠٠٠ م).

(٣) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار الشعبي، راوية من التابعين، يضرب المثل بحفظه، توفي (١٠٢ هـ). (تهذيب التهذيب: ٥/٥).

(٤) الفصل (٣٧/٥). (٥) ابن تيمية: منهاج السنة (٦/١).

(٦) من هؤلاء: الأستاذ أحمد أمين: فجر الإسلام (ص ٢٧٦)، ويرى جولد تسيهر أن فكرة الرجعة تسربت =

وهناك بعض الآثار التي تومئ إلى الأثر اليهودي في بعض الروايات المزعومة، كتلك التي تشير إلى أن الأئمة سيحكمون بحكم داود وسليمان إذا ظهروا:
 عن أبي عبيدة الحذاء... قال أبو عبد الله عليه السلام: « يا أبا عبيدة إذا قام قائم آل محمد عليه السلام حكم بحكم داود وسليمان لا يسأل بيته » ^(١).
 وعن عمارة الساباطي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « بم تحكمون إذا حكمتم؟ قال: بحكم الله وحكم داود » ^(٢).

وكذلك سيوف آل داود تؤيد المهدي المنتظر في الروايات الاثني عشرية، قال الصادق: « فضحك أبي عليه السلام وقال: ... فلذلك كفّ فوددت أنّ عينك تكون مع مهدي هذه الأئمة والملائكة بسيف آل داود بين السماء والأرض تعذب أرواح الكفرة من الأموات وتلحق بهم أرواح أشباههم من الأحياء » ^(٣).

٢ - عبد الله بن سبأ اليهودي ودوره: كان عبد الله بن سبأ اليهودي أول من قال بالنص والوصية والرجعة، وهذه المسائل صارت من أصول المذهب الشيعي؛ ولهذا أشار القمي والنوبختي والكشي - وهم من شيوخ الشيعة القدامى - إلى الأثر اليهودي في التشيع حينما استعرضوا آراء ابن سبأ والتي أصبحت فيما بعد من أصول الشيعة، قالوا:
 « فمن هنا قال من خالف الشيعة: إن أصل الرفض كان مأخوذاً من اليهودية » ^(٤).

وقد أثار ربط التشيع بابن سبأ وحزبه علماء الشيعة وباحثيهم؛ ومن ثم حرصوا على إبعاد

= إلى التشيع من طريق المؤثرات اليهودية والنصرانية [انظر: العقيدة والشريعة (ص ٢١٥)]. وكذلك يرى فريد لندر أن التشيع قد استمد أفكاره الرئيسة من اليهودية. [انظر: المصدر السابق (ص ١٠٠) وما بعدها]، ويقول فلهوزن بالأصل اليهودي للتشيع، ويشير إلى بعض أوجه التشابه في الأفكار بين اليهود والشيعة [أحزاب المعارضة (ص ١٧٠)].

(١) أصول الكافي (٤٦٠/١) كتاب الحجّة، باب في الأئمة - عليهم السلام - أنهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البيته - عليهم السلام - والرّحمة والرّضوان. قال محققه: والحديث حسن أو موثق.

(٢) أصول الكافي (٤٦٣/١) كتاب الحجّة، باب في الأئمة - عليهم السلام - أنهم إذا ظهر أمرهم حكموا بحكم داود وآل داود ولا يسألون البيته عليهم السلام والرّحمة والرّضوان.

(٣) أصول الكافي (٢٩٩/١) كتاب الحجّة، باب في شأن ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ [القدر: ١] وتفسيرها. قال محقق أصول الكافي: الحديث ضعيف على المشهور بالحسن بن العباس.

(٤) انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٢٢)، رجال الكشي (ص ١٠٨)، د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٠/١).

هذه التهمة عنهم، « وشنوا هجوماً عنيفاً على السبئية محاولين إخراجها من دائرتهم » (١)، بل وصل الأمر ببعض كتابهم المعاصرين (كمرتضى العسكري ومحمد جواد مغنية وغيرهما) - لدرجة إنكار وجود ابن سبأ اليهودي نفسه، وهو ما سنتعرض له في الحديث عن الغلاة من الشيعة وعلاقة الأئمة بهم.

إن « الجامع اليهودية من ناحية والغنوصية من ناحية أخرى وجدت في انقسام المسلمين إبان ذلك الوقت - زمن علي وبنيه - فرصة لا تعوز لإلقاء بذور الفتنة بينهم، فألقت في مجتمع الكوفة والمدائن بآراء يمكننا أن نطلق عليها الآراء السبئية » (٢). ومن أشهرها القول بالوصية والرجعة.

٣ - ومما يدل على الأثر النصراني في التشيع ما فعله رواة الشيعة من ربط التشابه بين علي عليه السلام وعيسى ابن مريم عليه السلام، من حيث إنهما واجها الواقع نفسه؛ إذ قابلهما الناس بالإفراط والتفريط في حقهما. فقد روى المجلسي: عن علي عليه السلام أنه قال: جئت إلى رسول الله صلى الله عليه وآله يوماً فوجدته في ملأ من قريش فنظر إلي ثم قال: « يا علي إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا » (٣).

كما حاولوا إظهار التشابه بين نبي الله عيسى عليه السلام والحسين بن علي عليه السلام؛ إذ يصورون كربلاء تصويراً يقترب من تصوير النصارى لقصة الفداء من عيسى المخلص للبشر!! عن أبي جعفر عليه السلام قال: « لما نزل التصر على الحسين بن علي حتى كان بين السماء والأرض ثم حير: التصر أو لقاء الله، فاختار لقاء الله » (٤).

وإذا كان عيسى - عليه الصلاة والسلام - قد أحيأ الموتى؛ فكذلك تنسب الروايات إلى علي عليه السلام أنه أحيأ إنساناً من بني مخزوم (٥). وتنسب إلى المهدي المنتظر إحياء بعض

(١) ا.د. عبد الفتاح الفاوي: اختلافات المسلمين بين السياسة والدين (ص ١٦).

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٣٩/٢).

(٣) بحار الأنوار: المجلسي (١٥١/٩)، وفي معناه روى أهل السنة عن علي عليه السلام قال: قال لي النبي صلى الله عليه وآله: (فيك مثل من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبتته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به) ثم قال عليه السلام: « يهلك في رجلان: محبٌ مفرط يقرظني بما ليس فيّ، ومبغضٌ يحمله شناني على أن يهتني ». مسند الإمام أحمد (١٦٠/١) بسند ضعيف، والحاكم في المستدرک (١٢٣/٣) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ولم يوافقه الذهبي، فقال عن أحد رواته: الحكم بن عبد الملك وهما ابن معين.

(٤) أصول الكافي (٥٣٨/١) كتاب الحججة باب مولد الحسين بن علي عليه السلام حسنه المحقق.

(٥) أصول الكافي (٥٢٩/١)، كتاب الحججة باب في مولد النبي صلى الله عليه وآله ووفاته. سكت عنه محقق أصول الكافي.

الموتى، كإحياء بقرة بمئى لامرأة فقيرة « فصوّت بالبقرة فنخسها نخسةً أو ضربها برجله فاستوت على الأرض قائمةً، فلما نظرت المرأة إلى البقرة صاحت وقالت: عيسى ابن مريم ورب الكعبة! » (١).

ثالثاً: دور العقائد الآسيوية في التشيع:

يرى بعض الكتاب أن المذهب الشيعي كان موثقاً ومستقرّاً للعقائد الآسيوية القديمة كالبودية وغيرها (٢). يقول الأستاذ أحمد أمين: « وتحت التشيع ظهر القول بتناسخ الأرواح (٣) ونحو ذلك من الأقوال التي كانت معروفة في العقائد الآسيوية القديمة كما هو الحال عند البراهمة والفلاسفة والمجوس (٤) قبل الإسلام ».

ولقد كانت الكوفة والعراق وفارس أرض التشيع الغالي، ولا عجب في ذلك؛ فإن هذه المنطقة « ما زالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل البدعية... وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني وديصان ومزدك وغيرهم... ففي الكوفة إذن يجتمع شذاذ الناس وأشراهم مع خيارهم، وأتى الصحابة كما أتى النصارى واليهود، وأقبلت القبائل العربية كما أقبل الموالي، وانتشرت الزندقة والسحر... وأطلت رؤوس الجماع السرية والمراكز المتغلغلة الخفية، وبجانب هذا كله كان هناك اليهود، وفي العراق وفي مناهم السحيق

(١) أصول الكافي (٥٥٧/١)، كتاب الحجة باث في مولد أبي الحسن موسى بن جعفر، وقال محققه: الحديث صحيح.

(٢) انظر: تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة (٣٧/١ - ١٠٠) .

(٣) تناسخ الأرواح: انتقال الروح بعد الموت من بدن إلى آخر، إنساناً أو حيواناً. قال بهذه النظرية بعض الهنود، وفيثاغورس من اليونان، وتسربت للعالم الإسلامي. [انظر: المعجم الفلسفي (ص ٥٥)، التعريفات للجرجاني (ص ٩٣)]. وتجسيم الله: المقصود وصف الله - جل شأنه - بصفات المخلوقين، وقد وجد هذا عند طوائف من الشيعة كالهشامية أتباع هشام بن الحكم وغيرها.. انظر في ذلك: ابن تيمية: التدمرية (ص ٣٢، ٣٣)، منهاج السنة (٩٧/٢) وما بعدها، (١٤٥/٢) وما بعدها، درء تعارض العقل والنقل (١١٨/١، ١١٩)، التعريفات للجرجاني (ص ١٠٣)، والحلول: هو الزعم بأن الإله قد يحل في جسم عدد من عباده، أو بعبارة أخرى أن اللاهوت يحل في الناسوت [المعجم الفلسفي (ص ٧٦)].

(٤) البراهمة: هم المنتسبون إلى رجل منهم يقال له: براهم [الملل والنحل (٢٥١/٢)] [أو: برهام من ملوك الفرس [المنية والأمل (ص ٧٢)]. يقرون بالله، ويجحدون الرسل.. وهم فرق مختلفة (انظر نفس الموضوع من المصدرين السابقين).

المجوس: هم عبدة النار، ويقولون بأصلين؛ أحدهما: النور، والآخر: الظلمة. انظر: الملل والنحل (٢٣٢/١) وما بعدها، الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ١٣٤). وانظر: فجر الإسلام (ص ٢٧٧).

أنشدوا التلمود وكتبوه، وكان هناك النصارى أيضًا ينادون بتجسيد الألوهية» (١).

ويشير بعض المستشرقين إلى تسرّب كثير من العقائد الآسيوية إلى الشيعة ويقول: «إن تلك العقائد انتقلت إليها من المجوسية، والمناوية (٢)، والبوذية وغيرها من الديانات التي كانت سائدة في آسيا قبل ظهور الإسلام» (٣).

(ردود علماء الشيعة الاثني عشرية على القول بتأثر التشيع بالعامل الخارجي):

ومن الإنصاف أن نذكر أن كتاب الشيعة المعاصرين يردون هذه الدعاوى ويجدون ما يناقضها؛ لأنها لا تمتلك أدلة كاملة دامغة، إنما هي بعض الدلائل والقرائن، فلا يمكن - في نظر الباحث - الاعتماد عليها في قضية كبيرة وخطيرة كهذه القضية. وهذه نماذج من ردودهم:

١ - أن تهمة التأثير بالأديان السابقة قد وجهت إلى رسول الله ﷺ نفسه، ونص الذكر الحكيم على ذلك، قال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ [الفرقان: ٤].

٢ - أن هذا الاتهام لم يكن خاصًا بالتشيع؛ بل ذهب المستشرقون وغيرهم إلى اتهام الإسلام بأنه تأثر بالعقائد السابقة، وأن الرسول ﷺ قد بشر بها.. قال جولد تسيهر: «فتبشير النبي العربي ليس إلا مزيجًا منتخبًا من معارف وآراء دينية عرفها أو استقها بسبب اتصاله بالعناصر اليهودية والمسيحية وغيرها التي تأثر بها تأثرًا عميقًا» (٤). وهذا خلاف الواقع الذي جاء به الإسلام من نقده الشديد لعقائد أهل الكتاب المنحرفة التي كانت سائدة في المحيط العربي آنذاك.

٣ - من الطبيعي أن تكون بعض الأفكار مشتركة بين الأديان المختلفة؛ خصوصًا

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٦٦/٢).

(٢) المناوية: أصحاب ماني بن فاتك، كان في الأصل مجوسيًا، ثم أحدث دينًا بين المجوسية والنصرانية، وقد خالفته المجوس وسعت في قتله، حتى قتله بهرام بن هرمز بن سابور وذلك بعد عيسى عليه السلام، وبقي مذهبه في أتباعه. والمناوية يقولون بالأصلين: النور والظلمة، وأن العالم صدر عنهما، وأن النور خير من الظلمة وهو الإله المحمود. (انظر: الملل والنحل (٢٤٤/١) وما بعدها، المنية والأمل (ص ٦٠)، شرح الطحاوية (ص ١٨)، الرازي، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ١٣٨)).

(٣) فلوتن: السيادة العربية (ص ٨٣، ٨٤).

(٤) العقيدة والشريعة في الإسلام (ص ٦) دار الرائد العربي - بيروت.

المنزلة من الله سبحانه؛ إذ هي صدرت من منبع واحد رغم طروء التحريف والتبديل؛ لأن القرآن الكريم جاء مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه (١).

٤ - أما عن تأثر الشيعة بالبيئة الفارسية على الخصوص، فيجيب الشيخ الوائلي عن هذه الدعوى، ويجمع من أقوال المستشرقين أنفسهم ما يرد عليها:

فيذكر قول جولد تسيهر أن الحركة الشيعية نشأت في أرض عربية بحتة؛ فقد مال لاعتناق التشيع قبائل عربية تشبعت بالآراء الثيوقراطية وبشرعية حق علي بالخلافة، وقوله: « يمثل الأثر التعديلي الذي أحدثته أفكار الأمم الإيرانية في الإسلام بعد أن اعتنقته وخضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية، وهذا الوهم الشائع مبني على سوء فهم الحوادث التاريخية؛ فالحركة العلوية نشأت في أرض عربية بحتة »، وقول المستشرق فلهوزن: « أما أن آراء الشيعة تلائم الإيرانيين فهذا مما لا شك فيه، وأما كون هذه الآراء انبعثت من الإيرانيين فليست تلك الملاءمة دليلاً عليه؛ بل الروايات التاريخية تقول عكس ذلك؛ إذ تقول: إن التشيع الواضح الصريح كان... أولاً في الدوائر العربية ثم انتقل منها إلى الموالي »، وقول المستشرق آدم متز: « إن مذهب الشيعة لا كما يعتقد البعض رد فعل من جانب الروح الإيرانية تخالف الإسلام؛ فقد كانت جزيرة العرب شيعية كلها عدا المدن الكبرى كمكة وتهامة وصنعاء. وكان للشيعة غلبة في بعض المدن مثل عمان وهجر وصعدة وفي بلاد خوزستان التي تلي العراق فكان نصف أهلها على مذهب الشيعة، أما إيران فكانت سنية عدا قم، وكان أهل أصفهان يغالون في معاوية »، وقول المستشرق نولدكه: « ظلت بلاد فارس في أجزاء كبيرة منها تدين بالمذهب السني واستمر ذلك حتى سنة (١٥٠٠ م) عندما أعلن التشيع مذهباً رسمياً فيها بقيام الدولة الصفوية » (٢).

أما عن شبهة دخول الفرس في الإسلام ونشر التشيع كيداً للإسلام، فيقول مغنية: « وإذا جاز أن يقال: إن الفرس تشيعوا كيداً للإسلام؛ لأنه قهرهم - جاز أن يقال: إن

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٤٤، ٤٥) دار الهادي بيروت (١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م)، (ط ١) .

(٢) أحمد الوائلي: هوية التشيع، دار الصفوة - بيروت (ط ٣)، (١٤١٣ هـ)، (ص ٨٥)، وانظر نقولاته عن هؤلاء المستشرقين في: الشيعة والخوارج (ص ٢٤١) . الحضارة الإسلامية (١ / ١٠١) العقيدة والشريعة (ص ٢٠٤)، دراسات في الفرق والعقائد (ص ٣٢٦) .

غير الفرس تستنوا كيدًا للإسلام؛ لأنه غلب وقهر الجميع لا الفرس وحدهم» (١).
وينفي شيخ الأزهر الإمام عبد الحليم محمود دور المؤثرات الخارجية في التشيع فيقول: « نرى أن السبب في نشأة الشيعة لا يرجع إلى الفرس عند دخولهم الإسلام ولا يرجع إلى اليهودية ممثلة في عبد الله بن سبأ، وإنما أقدم من ذلك؛ فنواته الأولى ترجع إلى شخصية علي عليه السلام من جانب، وصلته بالرسول صلى الله عليه وسلم من جانب آخر»، و « كانت الشيعة في بدء أمرها محبة كمحبة سلمان الفارسي لآل البيت، ثم أصبحت محبة وعطفًا وشفقة، حينما اعتقد بعض الناس أن البيت العلوي لم يأخذ المكانة اللائقة في المجتمع، فلما أصبح الظلم اضطهاذاً وتعديتاً وتشتيتاً، وبتراً للأعضاء، وسملاً للعيون، وقتلاً - تكونت الشيعة بالمعنى الاصطلاحي المعروف الآن» (٢).

وهنا نسأل: هل كان لهذه المؤثرات الخارجية: الفارسية واليهودية والآسيوية دورها في الشيعة كل الشيعة؟ أم الغالية منها؟ ثم ما مدى تأثر الاثني عشرية على الخصوص بهذه المؤثرات الخارجية؟

يجيبنا الشهرستاني فيقصر دور هذه المؤثرات في الفرق الشيعية الغالية، وليس في الاثني عشرية فيقول معرّفًا بهم: « الغالية هؤلاء هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليقة، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فربما شبهوا واحدًا من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق، وهم على طرفي الغلو والتقصير، وإنما نشأت شبهاتهم من مذاهب الحلولية، ومذاهب التناسخية، ومذاهب اليهود والنصارى؛ إذ اليهود شبهت الخالق بالخلق، والنصارى شبهت الخلق بالخالق، فسرت هذه الشبهات في أذهان الشيعة الغلاة؛ حتى حكمت بأحكام الإلهية في حق بعض الأئمة» (٣). ثم صار يعدد بعض فرق الغلاة وأفكارهم، وعدّ منهم: السبئية والكاملية والعلبائية والمغبرية والمنصورية والخطابية والكيالية والهشامية والنعمانية واليونسية والنصيرية والإسماعيلية (٤).

ولذلك فينبغي التفريق بين كل طور من أطوار التشيع، عند الحديث عن تأثر التشيع

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٦٥).

(٢) الشيخ عبد الحليم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ١٢٦).

(٣) الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم ت ٥٤٨ هـ): الملل والنحل، المكتبة التوفيقية، تحقيق / محمد بن فريد

(١/١٨٠، ١٨١).

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٨٠ - ٢٠٠٤).

بالعوامل الخارجية؛ فالتشيع المعتدل غير التشيع الغالي. يقول د. القفاري: « والذي أرى أن التشيع المجرد من دعوى النص والوصية ليس هو وليد مؤثرات أجنبية؛ بل إن التشيع لآل البيت وحبهم أمر طبيعي، وهو حب لا يفرق بين الآل، ولا يغلو فيهم، ولا ينتقص أحدًا من الصحابة، كما تفعل الفرق المنتسبة للتشيع، وقد نما الحب وزاد للآل بعدما جرى عليهم من المحن والآلام بدءًا من مقتل علي، ثم الحسين... إلخ. هذه الأحداث فجّرت عواطف المسلمين؛ فدخل الحاقدون من هذا الباب؛ ذلك أن آراء ابن سبأ لم تجد الجو الملائم لتنمو وتنتشر إلا بعد تلك الأحداث.

لكن التشيع بمعنى عقيدة النص على علي عليه السلام، والرجعة، والبداء، والغيبة، وعصمة الأئمة... إلخ - فلا شك أنها عقائد طارئة على الأمة، دخيلة على المسلمين، ترجع أصولها لعناصر مختلفة؛ ذلك أنه قد ركب مطية التشيع كل من أراد الكيد للإسلام وأهله، وكل من احتال ليعيش في ظل عقيدته السابقة باسم الإسلام؛ من يهودي، ونصراني، ومجوسي، وغيرهم. فدخل في التشيع كثير من الأفكار الأجنبية والدخيلة » (١).

* * *

(١) أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٨/١، ١٠٩).



الفصل الأول

الغلو والغلاة وموقف أئمة أهل البيت منهم
(وفيه مباحث) :

المبحث الأول: ابن سبأ والسبئية.

المبحث الثاني: الغلاة الذين ركبوا موجة التشيع.

المبحث الثالث: رجال الشيعة الأوائل بين الغلو والاعتدال.

المبحث الرابع: موقف أئمة أهل البيت من الغلو والغلاة.

المبحث الخامس: الغلو يتسلل إلى أحاديث الشيعة.

المبحث السادس: موقف علماء الاثني عشرية من الغلو والغلاة.

تمهيد



قال الراغب الأصبهاني: الغلو تجاوز الحد، وقال ابن منظور: أصل الغلاء الارتفاع ومجازة القدر في كل شيء، وغلا في الدين يغلو غلواً: جاوز حده، والغلاء ضد الرخص، وغالى بالشيء: اشتراه بثمان غال^(١)، قال تعالى: ﴿يَتَّاهَلُ الْكُتُبِ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ [النساء: ١٧١]، وقال ﷺ محذراً من الغلو: «أيها الناس! إياكم والغلو في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين»^(٢). أي: التشدد فيه.

ومع أن الغلو عام يشمل العبادة، كما يشمل العقيدة؛ فإن هذا المصطلح يطلقه علماء الشيعة على نوع مخصوص من الغلو في العقيدة، يقول المفيد: «والغلاة من المتظاهرين بالإسلام هم الذين نسبوا أمير المؤمنين والأئمة من ذريته ﷺ إلى الألوهية والنبوة، ووصفوه من الفضل في الدين والدنيا إلى ما تجاوزوا فيه الحد وخرجوا عن القصد، وهم ضلال كفار، حكم فيهم أمير المؤمنين بالقتل والتحريق بالنار، وقضت الأئمة عليهم بالإكفار والخروج عن الإسلام»^(٣).

وهذا المعنى للغلو متفق عليه بين طوائف الشيعة والسنة، فالغالية كما يقول الشهرستاني: «هؤلاء هم الذين غلوا في حق أئمتهم حتى أخرجوهم من حدود الخليفة، وحكموا فيهم بأحكام الإلهية، فرموا شبهوا واحداً من الأئمة بالإله، وربما شبهوا الإله بالخلق»^(٤) وذلك كقولهم بتجسيم الخالق؛ حيث (ركزوا همهم في الارتفاع بالإنسان مرة حتى يصير إلهاً، والنزول بالإله حتى يصير إنساناً)^(٥).

(١) ابن منظور: لسان العرب (١٣٢/١٥)، (ط ١)، دار إحياء التراث العربي (١٤٠٥ هـ) مادة (غ. ل. و).
 (٢) أخرجه ابن ماجه، باب قدر حصى الرمي رقم (٣٠٢٩) من حديث ابن عباس ؓ، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر - بيروت، وذكره من الشيعة: ابن مطهر جمال الدين الحسن بن علي بن يوسف الحلبي في تذكرة الفقهاء (١/٣٧٤)، و (٨/٢١٠) مؤسسة آل البيت، قم (١٤١٧ هـ).

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصلوق (ص ١٠٩).

(٤) الشهرستاني: (محمد بن عبد الكريم أبو الفتح ت ٥٤٨ هـ): الملل والنحل، المكتبة التوفيقية، تحقيق

محمد بن فريد (ص ١٣١).

(٥) مصطفى كامل الشيبني: الصلة بين التصوف والتشيع (ص ١٣٥)، (ط ٣)، دار الأندلس - بيروت (١٩٨٢ م).

تطور مفهوم الغلو بين السنة والشيعة:

ولا بد من البيان أن الغلو عند الشيعة يختلف في مفهومه وأهله عن الغلو في فكر أهل السنة؛ إذ يعدّ علماء أهل السنة مذهب الإمامية - اليوم - فيما انفردوا به من القول بعصمة الأئمة وغير ذلك من العقائد الخاصة لديهم غلاةً مطلقاً، فمجرد القول بعصمة الأئمة يعدّ غلوًا، في حين لا يسمى هذا غلوًا في نظر الاثني عشرية؛ بل يعدّ من ضرورات المذهب الاثني عشري. كما أن هناك عقائد كانت تعدّ من الغلو في نظر بعض علماء الشيعة الأوائل صارت بعد ذلك من سمات الاعتدال الاثني عشري، ومن ضروراته أيضًا. فقد سار الغلو بخطى متتالية متطورة عبر القرون، فما كان يُعدّ غلوًا عند الشيعة الأوائل صار بتوالي القرون اعتدالاً ومنهجًا نابغًا من المذهب عند المتأخرين.

ويقرّ علماء الشيعة أن مفهوم الغلو قد تطور داخل المذهب الشيعي، فإن بعض الأفكار التي كانت تعتبر غلوًا عند المتقدمين صارت مع الوقت من ضروريات المذهب!! فقد أكد الحلبي: « أن جملة مما هو من ضروريات مذهبنا اليوم قد كان يُعدّ في سالف الزمان غلوًا، وعليه فرّعوا تضعيف جمع من الثقات » (١).

ولعل من خير الأمثلة على ذلك مسألة (عصمة الأئمة من السهو والنسيان)؛ فقد كان هذا يعدّ في نظر الصدوق من الغلو، في حين صار بعد ذلك على يد المفيد ومن بعده من ضرورات مذهب الاثني عشرية في العهد المتأخرة.

وبيّن لنا المفيد في (تصحيح اعتقادات الصدوق) وجود التصارع بين الفكر المعتدل والغالي في زمانه فيقول: « وقد وجدنا جماعة وردوا علينا من قم يقصرون تقصيرًا ظاهرًا في الدين، وينزلون الأئمة عن مراتبهم، ويزعمون أنهم كانوا لا يعرفون كثيرًا من الأحكام الدينية حتى ينكت في قلوبهم... ويدعون مع ذلك أنهم من العلماء، وهذا هو التقصير الذي لا شبهة فيه! » (٢).

فالمفيد يرى أن ضوابط الحكم على الفكر بالغلو مرتبط بوصم الأئمة بالألوهية ومستلزماتها؛ حيث يقول بعد قوله السابق: « ويكفي في علامة الغلو في نفي القائل به عن الأئمة سمات الحدوث، وحكمه لهم بالإلهية والقدّم؛ إذ قالوا بما يقتضي ذلك من خلق أعيان الأجسام واختراع الجواهر وما ليس بمقدور العباد من الأعراض، ولا يحتاج

(١) العلامة الحلبي: إيضاح الاشتباه (ص ١٣١)، مؤسسة النشر الإسلامي، جماعة المدرسين.

(٢) تصحيح الاعتقاد (ص ١١٤، ١١٥).

مع ذلك إلى الحكم عليهم وتحقيق أمرهم بما جعله أبو جعفر سمة للغلو» (١). أما إنكار السهو عليهم وما شابه ذلك فليس من الغلو في شيء في نظر المفيد ومن جاء بعده، وخصوصًا في زمن علماء الحكم الصفوي، وهذا تطور في المذهب جدير بالاهتمام والملاحظة.

وهذه النظرة للغلو الشيعي وتطوره أدركها علماء السنة أنفسهم، ولكنهم جعلوا التشيع المعتدل - الذي لا يضر في دين صاحبه - ما كان نابغًا عن زيادة محبة لآل البيت، ولم يتجاوز ذلك إلى تكفير كبار الصحابة والقول بالتقية بين المسلمين؛ فقد قال الإمام الذهبي في معرض الحديث عن رمي ببدعة التشيع من المحدثين: «إن البدعة على ضربين (فبدعة صغرى) كغلو التشيع، أو كالتشيع بلا غلو؛ فهذا كثير في التابعين وأتباعهم مع الدين والورع والصدق، فلو رد حديث هؤلاء لذهب جملة من الآثار النبوية، وهذه مفسدة بينة، ثم (بدعة كبرى) كالرفض الكامل، والغلو فيه، والحط على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما والدعاء إلى ذلك؛ فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة، وأيضًا فما أستحضر الآن في هذا الضرب رجلاً صادقًا، ولا مأمونًا، بل الكذب شعارهم، والتقية والنفاق دثارهم؛ فكيف يقبل نقل من هذا حاله؟ حاشا وكلا.

فالشيعي الغالي - في نظر أهل السنة - في زمان السلف وعرفهم هو من تكلم في عثمان، والزبير، وطلحة، ومعاوية، وطائفة ممن حارب عليًا رضي الله عنه وتعرض لسبهم. والشيعي الغالي في زمننا وعرفنا هو الذي يكفر هؤلاء السادة، ويتبرأ من الشيخين، فهذا ضال مفتر» (٢).

ومن خلال كلام الذهبي وابن حجر يتبين أن التشيع الغالي مر بمراحل متعددة، وهذا الذي يسميه هذان العالمان ممثلين لأهل السنة غلوا إنما هو اليوم مذهب الاثني عشرية عينه، ثم زيد عليه غلو آخر، وهو ما أطلق عليه الاثنا عشرية أنفسهم غلوا من المغالاة بالأئمة كالقول بإلهية علي رضي الله عنه.

وهكذا تطور الغلو؛ فقد كان من الشيعة من قال بأفضلية علي على باقي الصحابة رضي الله عنهم، ثم قالوا بعصمته، وانتقلوا من القول بتخطئة أبي بكر وعمر وعثمان - رضوان الله عليهم -

(١) تصحيح الاعتقاد (ص ١١٤ ، ١١٥).

(٢) الذهبي: ميزان الاعتدال (١ / ٥ ، ٦)، وانظر: ابن حجر: لسان الميزان (١ / ٩ ، ١٠)، د. ناصر عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة (١ / ٦٧).

لعدم تولية علي الخلافة في عهدهم إلى القول بتفسيقهم، ثم بتكفيرهم ومن شايعهم، ولم يكتفوا بعد ذلك بعصمة علي؛ بل زعموا أنه يعلم الغيوب، ثم آلهه بعضهم فزعموا أن الرعد صوته والبرق تبسمه (١).

ويحاول الشيعة القول أن الغلاة فئة ظهرت وماتت ودفنت في مدافن التاريخ، ولكن يرى الدكتور النشار أن الغلو لا بد أن يبقى أثره في التشيع فيقول: « وقد تبينت لي ظاهرة لا تخلف فيها [في] كل عصور التشيع، وهي ظهور نظرية معتدلة مقتصدة، ونظرية غالية مسرفة؟ ثم يعقب كلاً من هذه وتلك نظرية تأخذ عناصر من هذه وعناصر من تلك، ولكل نظرية أتباعها ورجالها، وإن كان الإطار العام للتشيع واحدًا إلا أن التشيع يختلف » (٢).

أسباب الغلو:

يفصل لنا الشيعة على لسان أمير المؤمنين علي (أسباب الغلو؛ فقد جاء في الكافي: « عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: بني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلو والشك والشبهة... والغلو على أربع شعب: على التعمق بالرأي، والتنازع فيه، والزيف، والشقاق؛ فمن تعمق لم ينب إلى الحق ولم يزد إلا غرقاً في الغمرات ولم تنحسر عنه فتنة إلا غشيتة أخرى وانخرق دينه، فهو يهوي في أمر مريج، ومن نازع في الرأي وخاصم شهر بالعتل (٣) من طول اللجاج، ومن زاغ قبحت عنده الحسنه وحسنت عنده السيئة، ومن شاق اعوزت عليه طرقة واعترض عليه أمره، فضاقت عليه مخرجه إذا لم يتبع سبيل المؤمنين » (٤).

- كما أن من أسباب الغلو: الجهل، فيظهر أثر الجهل والهوى في تفكير الغلاة؛ إذ يذكر الإمام أبو جعفر سبب هلاك أبي الخطاب: فيقول: « هي التي هلك فيها أبو الخطاب » (٥).

(١) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل (١٨٠/١) وما بعدها، أحمد أمين فجر الإسلام (ص ٤٢٥، ٤٢٦).

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٥/٢) مقدمة الطبعة الثالثة دار المعارف القاهرة (ط ٨).

(٣) المريج: المختلط والمضطرب، والعتل: أي الحمق وهو في بعض النسخ بالفشل.

(٤) أصول الكافي (٣٧٣/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الكفر وشعبه، سكت عنه المحقق.

(٥) أبو الخطاب هو محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، زعم أنه من أتباع جعفر الصادق وصار يفترى على لسانه الأباطيل، فلما وقف الصادق على كذبه وغلوه في حقه تبرأ منه ولعنه وأمر أصحابه بالبراءة منه، عندها ادعى أبو الخطاب لنفسه بالإمامة، وزعم أن الأئمة أنبياء ثم آلهة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١٧٩/١).

فلم يدر ما تأويل المحدث والتبّي»^(١). أي أن الذي جعل أبا الخطاب يقول بنبوّة الأئمة عدم تفريقه بين المحدث الذي يأتيه الملك فيسمعه صوته، والنبي الذي يعاين الملك.

وتدل المصادر الشيعية أن الشيعة مروا بمرحلة كان الجهل فيها مسيطراً؛ ففي أصول الكافي: « كانت الشيعة قبل أن يكون أبو جعفر وهم لا يعرفون مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم، حتى كان أبو جعفر؛ ففتح لهم، وبيّن لهم مناسك حجهم وحلالهم وحرامهم.. »^(٢).

- كما أن من أسباب الغلو محاولة إسقاط العقائد القديمة على الدين الجديد من قبل أولئك الداخلين في الدين الذين عزّ عليهم أن يتخلوا عن عقائدهم السابقة، كشأن أولئك الفرس الذين دخلوا الإسلام فأرادوا منح الأئمة صفات العظمة الكسروية. يقول الشيخ الندوي رحمته الله: « إن عقيدة الإمامة الغالية التي ذكرناها والتي تصل جذورها وأبعادها إلى تقديس السلالات والبيوتات وتأليهها يعكس عليها معتقدات إيران القديمة... وكان الفرس يعتقدون في طبقة الكهنوت أنهم ظل الإله على الأرض، ولم يخلقوا إلا للخدمة الآلهة، ولا بد للحاكم أن يكون من هذه القبيلة، فإن ذات الإله يتجسم فيه »^(٣).

- والكيد لهدم الدين سبب وجيه للغلو من قبل أولئك الحاقدين على الإسلام، يريدون تهديمه من داخله بعد أن عجزوا عن مواجهته عسكرياً. وقد تجلّى ذلك في ابن سبأ والسبئية.

- ويظهر دور الأطماع واضحا جلياً في أسباب الغلو، كما هو شأن الطامعين في كل زمان؛ إذ يصلون بالأئمة والحكام إلى درجة الألوهية في مزايدة ومبالغة عظيمة يرتجون منها الشهرة والحظوة، ولعل خير مثال لهذا الدور هو حركة المختار الثقفي.

- ولا ننسى دور العاطفة الجياشة والمحبة في ظهور الغلو؛ لأن حبك الشيء يعمي ويصم، ويظهر هذا في كثير من مبالغات تلامذة الأئمة ورواة الشيعة في حق أئمتهم.

وقد عد الدكتور الزغبى من أسباب الغلو:

- الإفراط في الحب: « الفكرة بدأت محبة، وأن المحبة أصبحت هياماً، والهيام استحال عشقاً، والعشق غلواً وتقديساً »^(٤).

(١) أصول الكافي (٣٢٦/١)، كتاب الحجّة بآب أن الأئمة (ع) محدثون مفهمون.

(٢) أصول الكافي (٢٠/٢).

(٣) أبو الحسن الندوي: صورتان متضادتان (ص ٩٩، ١٠٠).

(٤) د. صبحي الصالح: النظم الإسلامية (ص ٩٦)، دار العلم للملايين، عن د. فتحي محمد الزغبى: غلاة الشيعة =

والإسلام يأمرنا أن نسيطر على عواطفنا، وإن التعبير عن المحبة باتباع أوامر المحبوب والسير على نهجه أولى من الثناء الزائد على المحبوب؛ فالثناء الموصل إلى الغلو ليس دليلاً على تمام المحبة، بل الثناء المعتدل مع اتباع المحبوب أولى بالصواب؛ ذلك أن اتباع المحبوب والحرص على رضاه يدل على المحبة القلبية، أما ثناء اللسان فربما أخفى في القلوب أطماعاً تبتغي من وراء الثناء والمديح؛ ولذلك قال علي عليه السلام لرجل امتدحه يوماً: «أنا دون ما تقول، وفوق ما في نفسك»^(١).

- الاضطهاد والحرمات: كان الاضطهاد وما أدى إليه من حرمان سبباً من أسباب الغلو الشيعي^(٢). ولقد جعل الاضطهاد والحرمات الشيعة يعيشون في خيال واسع شاسع، تغذيه الأماني، فهم يحلمون بالنصر على أعدائهم وانتشار مذهبهم؛ ولذلك فالمطالع لأخبار القائم المنتظر عندهم يرى أنه يأتي ليشفي غليل الشيعة من أعدائهم ويفعل ما عجزوا في تاريخهم من فعله.

- كراهة الصحابة: وقد أوقعتهم حالة الاضطهاد التي مورست ضدهم في حالة من اختلال موازين الحكم على الشخصيات، فوقعوا في حباتل مبغضي الصحابة من اليهود والفرس، وصاروا من أشهر من عرف بكراهة الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم أجمعين - هذه الكراهة أوقعتهم في غلو أشد؛ إذ إن كراهة الصحابة - وهم المقتدون الأوائل بالنبي صلى الله عليه وآله، وحماة الإسلام ورجاله الأقدمون - جعلت الشيعة محرومين مما رواه الصحابة عن النبي صلى الله عليه وآله من أخبار، وكذلك حرّموا الاقتداء بهم، وهم - رضوان الله عليهم - الذين تربّوا على يد النبي صلى الله عليه وآله «^(٣). وقد كان حرمان الخوارج أيضاً من الاقتداء بالصحابة سبباً واضحاً في غلوهم؛ لدرجة أنهم قتلوا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وهم يظنون أنهم يحسنون صنعا!.

- السرية: فقد «اتسمت حركة الغلاة بالسرية، وهذه السرية هي التي شجعتهم على الغلو، وما دام قوم يستترون ولا يجهرون بعقيدتهم فإن هذه العقيدة سيدخلها كثير من الباطل»^(٤)؛ حيث يُحرّم أتباعها من مناقشة الفرق الأخرى ونقدها لعقائدهم الباطلة؛

= وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (اليهودية والمسيحية والمجوسية) (ص ٥٣)، (ط ١)، (١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م).

(١) نهج البلاغة (ص ١٩٤)، باب المختار من حكم أمير المؤمنين، دار المعرفة - بيروت، بشرح الشيخ محمد عبده.

(٢) د. فتحي محمد الزغبى: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٥٨).

(٣) انظر حول أثر كراهة الصحابة في الغلو: المرجع السابق (ص ٦٠).

(٤) د. فتحي محمد الزغبى: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٦٢). وانظر: بركات =

مما يجعل رجوعهم عنها شبه مستحيل.

إن السرية الدائمة والمستمرة تولد التطرف والغلو في جميع الطوائف؛ فكلما أوغلت طائفة منها في السرية ازداد تطرفها وغلوها. ولما كان الإسماعيلية وإخوان الصفا قد أوغلوا في السرية فلأجل ذلك ازدادوا تطرفًا وغلوًا بالمقارنة مع الفرق الشيعية الأخرى التي أظهرت عقائدها كالزيدية.

ولما كانت عقائد الاثني عشرية تقسم إلى عقائد عامة معلنة - وهو غالب عقائد المسلمين العامة -، وعقائد خاصة سرّية مكتومة - وهي مسألة الإمامة وما اتصل بها - فإننا نرى أنهم توخّذوا مع باقي المسلمين في العقائد الإسلامية العامة (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر) في حين ابتعدوا عن باقي الأمة في مسألة الإمامة التي تواصلوا بكتمان أسرارها فمستهم فيها الغلو؛ فقد رووا عن الإمام زين العابدين، علي بن الحسين قوله: « وددت والله! أنني افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي: الترق وقلة الكتمان ^(١). ورووا عن جعفر الصادق عليه السلام: « من أذاع علينا حديثنا سلبه الله الإيمان » ^(٢).

والمتوقع في هذا العصر الذي يشتهر بسرعة الاتصالات، وسهولة وسائل الحوار، ونشاط الإعلام - أن يغلق باب السرية أمام كثير من العقائد؛ ومن ثم ظهورها للنور المبهر، وهناك يظهر خيرها من شرها، وحقائقها من زيوفها. وهذا سلاح جديد، لو أحسن المسلمون استخدامه؛ فإنه سيكون فتحًا جديدًا للإسلام والمسلمين في هذا العصر.

- العوامل الخارجية: إن لهذا العامل دورًا مهمًا، لكنه لا يمكن أن يؤثر إلا مع وجود العوامل السابقة: (الجهل بالدين، والتقدّيس، والاضطهاد والحرمان، والسرية، وكرهية الصحابة والحرمان من الاقتداء بهم). وقد ظهر هذا العامل في حركة ابن سبأ، وحركات أخرى كانت لها دوافع سياسية خارجية أو داخلية.

= دويدار: تاريخ الجمعيات السرية في الإسلام (ص ٣١).

(١) أصول الكافي (٢٢٤/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكتمان. قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٣٥٤/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الإذاعة. قال محققه: الحديث صحيح.

المِجْتِ الْأَوَّلُ

ابن سبأ والسبئية



لقد كان للخلافات السياسية في أواخر العهد الراشدي دور كبير في كسر باب الفتن المغلق، هذا الباب صار مفتوحاً على مصراعيه منذ ذلك العهد؛ فتوالدت الفتن وتكاثرت على الأمة وما تزال.

ففي عهد الفتن يضعف قلب الأمة، وينشط أعداؤها في الداخل والخارج، وقد وجدت مجامع اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام والمسلمين « في انقسام المسلمين إبان ذلك الوقت - فرصة لا تعوض لإلقاء بذور الفتنة بينهم؛ فألقت في مجتمع الكوفة والمدائن بآراء يمكننا أن نطلق عليها الآراء السبئية » (١).

وتكاد المصادر القديمة، سواء عند السنة أو الشيعة تجمع على وجود ابن سبأ وأتباعه، وقد كان لهذه الشخصية دور سياسي وعقدي في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما.

وملخص سيرته أنه كان يهودياً قدم من صنعاء فأظهر الإسلام، وأخذ يتنقل في بلاد المسلمين يريد ضلالتهم؛ فبدأ بالحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم بالشام، فلم يقدر على شيء فيها، فأتى مصر واستقر بها، ووضع لهم عقيدتي الوصية والرجعة، مبشراً برجعة النبي صلوات الله عليه كرجعة عيسى عليه السلام وأن وصي محمد صلوات الله عليه هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن عثمان - والخليفين قبله - غاصب حق هذا الوصي فيجب مناهضته لإرجاع الحق لأهله، وهو أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، وتبعه على ذلك شذاذ الآفاق من كل جاهل وفاسق ناقم على الخليفة الثالث رضي الله عنه. كما غرّر به بعض أبناء الصحابة رضي الله عنهم، حتى حاصروا المدينة وقتلوا الخليفة رضي الله عنه، ثم كان لهم دورهم في تأجيج الفتن بين المسلمين في معركة الجمل؛ حيث اندسوا بين الفريقين (فريق علي وفريق عائشة وطلحة والزبير رضي الله عنهم) وأشعلوا القتال بينهم ليلاً، حتى قُتل طلحة والزبير رضي الله عنهما (٢).

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٣٩/٢).

(٢) انظر: تاريخ الطبري (٣٤٠/٤)، والكامل لابن الأثير (٧٧/٣)، البداية والنهاية لابن كثير (١٦٧/٧)،

تاريخ دمشق لابن عساكر (٧/٢٩، ٨) ضمن أحداث سنة (٣٥ هـ).

وقد ذكر ابن سبأ للناس « أنه وجد في التوراة أن لكل نبي وصيًا، وأن عليًا وصي محمد ﷺ، وأنه خير الأوصياء، كما أن محمدًا ﷺ خير الأنبياء » (١)، وقد استند في ذلك إلى ما ذكره اليهود؛ حيث قالوا: « كان موسى ﷺ قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون وصيه وفتاه والقائم بالأمر من بعده ليفضي بها إلى أولاد هارون؛ لأن الأمر كان مشتركًا بينه وبين أخيه هارون ﷺ؛ إذ قال تعالى حكاية عن موسى ﷺ في دعائه حين أوحى إليه أولًا: ﴿ وَأَشْرِكُ فِي أَمْرِي ﴾ [طه: ٣٢] وكان هو الوصي، فلما مات هارون في حال حياة موسى انتقلت الوصية إلى يوشع بن نون وديعة ليوصلها إلى شبير وشبر ابني هارون قرارًا؛ وذلك أن الوصية والإمامة بعضها مستقر بعضها مستودع » (٢).

ولم يكتف ابن سبأ بهذه الأراجيف؛ بل زاد عليها إلحاذًا وكفرًا، حين ادعى ألوهية علي ﷺ بعد ذلك، حتى حرّقه فيمن حرّق من جماعته، وقيل: لم يحرقه بل نفاه إلى المدائن مع ابن السوداء، وهو يهودي مثله داعٍ إلى فكره معين له على الغلو.

فقد ذكر البغدادي أنه لما بلغ عليًا غلو ابن السوداء فيه همّ بقتله فنهاه ابن عباس عن ذلك وقال له: إن قتله اختلف عليك أصحابك، وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام، وتحتاج إلى مداراة أصحابك. فلما « خشى من قتله ومن قتل ابن سبأ الفتنة التي خافها ابن عباس فهاهما إلى المدائن، فافتتن بهما الرعاع بعد قتل علي ﷺ » (٣)؛ ذلك أنه لما بلغ ابن سبأ نعي علي ﷺ قال: « لم يميت ولم يقتل، وأنه لا يموت حتى يسوق العرب ويملك الأرض بعصاه... وأنه إله العالمين، وأنه توارى عن خلقه سخطًا منه عليهم وسيظهر » (٤). وأكد زعمه ابن السوداء قائلًا: « واللّه! لينبعن لعلي في مسجد الكوفة عينان تفيض إحداهما عسلًا والأخرى سمًا، ويعترف منهما شيعته » (٥).

قال الشهرستاني في حق ابن سبأ: « وهو أول من أظهر القول بالنص بإمامة علي ﷺ ومنه انشعبت أصناف الغلاة » (٦).

(١) د. محمد الرغبى: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٤٢٧).

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (٢٠٩/١). (٣) انظر: البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢٢٥).

(٤) انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٤٠، ٤١)، والشهرستاني: الملل والنحل (ص ١٥٥)، والبغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢٢٥).

(٥) انظر: البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢٢٥).

(٦) الشهرستاني: الملل والنحل (ص ١٥٥).

هذا عن ابن سبأ، أما السبئية أتباعه، وما فعل بهم علي عليه السلام عندما وصله غلؤهم في ذاته عليه السلام؛ فيقول ابن حجر: « وزعم أبو المظفر الإسفراييني في « الملل والنحل » أن الذين أحرقتهم علي طائفة من الروافض ادعوا فيه الإلهية وهم السبئية، وكان كبيرهم عبد الله ابن سبأ يهوديًا ثم أظهر الإسلام وابتدع هذه المقالة، وهذا يمكن أن يكون أصله ما روينا في الجزء الثالث من حديث أبي طاهر المخلص من طريق عبد الله بن شريك العامري عن أبيه قال: قيل لعلي: إن هنا قومًا على باب المسجد يدعون أنك ربهم. فدعاهم فقال لهم: « ويلكم! ما تقولون؟ قالوا: أنت ربنا وخالقنا ورازقنا، فقال: ويلكم! إنما أنا عبد مثلكم آكل الطعام كما تأكلون وأشرب كما تشربون، إن أطعت الله أثابني إن شاء، وإن عصيته خشيت أن يعذبني، فاتقوا الله وارجعوا. فأبوا، فلما كان الغد غدوا عليه فجاء قبر، فقال: قد والله رجعوا يقولون ذلك الكلام. فقال: أدخلهم، فقالوا كذلك، فلما كان الثالث قال: لئن قلت ذلك لأقتلتكم بأخبث قتلة، فأبوا إلا ذلك... فخذ لهم أحدودًا بين باب المسجد والقصر، وقال: احفروا فأبعدوا في الأرض، وجاء بالخطب فطرحة بالنار في الأحدود، وقال: إني طارحكم فيها أو ترجعوا. فأبوا أن يرجعوا، فقذف بهم فيها حتى إذا احترقوا. قال:

إني إذا رأيت أمرًا منكراً أوقدت ناري ودعوت قبراً

قال ابن حجر بعد أن أورد هذه الرواية: « وهذا سند حسن » (١).

ابن سبأ بين التضخيم والإنكار:

هناك موقفان متناقضان من ابن سبأ والسبئية؛ فهناك من يضخم دوره السياسي والفكري، فيرى أن أحداث الفتن كلها في عهد الصحابة الكرام كانت من تخطيطه وتنفيذه، وأن التشيع كله من اختراعه، ووليد أفكاره؛ وذلك بما كان يتمتع به شخصيًا من دهاء عجيب، ولما كانت تتمتع به جماعته السرية من تماسك وقوة وتنظيم.

وهناك من ينكره إنكارًا تامًا وينسف وجوده من التاريخ أصلًا، فيلغي الصفحات الطوال التي سطرها المؤرخون سنة وشيعة في إثبات وجوده ووجود جماعته ودورهم السياسي والفكري.

(١) فتح الباري (٢٧٠/١٢). دار المعرفة - بيروت. وانظر: الشوكاني: نيل الأوطار (٨/٥)، وصحح إسناده. وانظر الحديث: سنن البيهقي الكبرى (٧١/٩)، دار الباز، مكة (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م) تحقيق محمد عبد القادر عطا، مسند الإمام أحمد (٢٨٢/١)، رقم (٢٥٥٢) وليس فيه إلا أنهم مرتدون، وليس أنهم السبئية أو غيرهم.

ولكل من المضخمين والمنكرين غايات وأهداف مختلفة.

فيرى بعض المستشرقين وبعض كتاب الفرق المعاصرين أن تضخيم دور ابن سبأ على يد « كتاب الفرق من أهل السنة وأشاعرة وسلفية » - كما يقولون - يهدف إلى: « إدانة التشيع من جهة، وإلى تبرير قيام حرب بين بعض كبار الصحابة وتبرئتهم من دمائها؛ حتى تتسنى موالاتهم جميعاً من جهة أخرى، لقد ساءت لهم الحرب، فأرادوا أن يحفظوا لصحابه كبار مكانتهم في نفوس المسلمين؛ فلم يجدوا إلا أن يتحمل وزر ذلك كله يهودي أسلم ليؤكد للإسلام، ولكن فاتهم أن هذا التفسير يعني أن يهوديًا نكرة قد تلاعب بصحابه كبار فأثار بينهم قتالاً » (١).

وعلى الجهة الأخرى يذهب كثير من كتاب الشيعة وبعض كتاب أهل السنة المعاصرين إلى إنكار وجود ابن سبأ وجماعته إنكارًا تامًا، أو جزئيًا بالتقليل من دوره التاريخي والفكري. فقد « أثار ربط التشيع بابن سبأ علماء الشيعة وباحثهم ومن حرصوا على إبعاد هذه الفئة عنهم، وشنوا هجومًا عنيفًا على السبئية، محاولين إخراجها من دائرتهم، وذهبوا إلى أن شخصية ابن سبأ من اختلاق خصوم الشيعة » (٢). - وقد تبعم بعض كتاب السنة - فقام بعضهم بنفي وجوده تمامًا، وقام بعضهم بالتشكيك في وجوده فقط، كما ظهر بعض الكتاب الشيعة - كالشيبني - الذين لم ينكروا وجود ابن سبأ، ولكن التبست عليهم حقيقته، فزعموا أن ابن سبأ وابن السوداء وعمار بن ياسر الصحابي الجليل رضي الله عنه شخصية تاريخية واحدة (٣)!! وحاشا هذا الصحابي الجليل أن يمثل

(١) د. أحمد محمود صبحي: الزيدية (ص ٢٣) الزهراء للإعلام العربي (ط ٢)، (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م)، عن برنارد لويس: أصول الإسماعيلية.

(٢) د. عبد الفتاح الفاوي: المنظومة الشيعية وآلياتها (ص ٨٦).

(٣) أ - المشككون بوجود ابن سبأ من أهل السنة:

١ - يقف الدكتور طه حسين على رأس الكتاب المحدثين الذين شككوا في وجود ابن سبأ بل وأنكروه. انظر كتاب الفتنة الكبرى: عثمان (ص ١٣٢)، وعلي وبنوه (ص ٩٠).

٢ - الدكتور: حامد حنفي داود، وهو من الذين تأثروا بكتابات الشيعة حول شخصية ابن سبأ فأنكر وجودها، وذلك عندما قام بكتابة المقدمة المتعلقة بكتاب (عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى)، وضمن كتابه: التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية (ص ١٨).

٣ - وهناك أيضًا الدكتور: محمد كامل حسين في كتابه: أدب مصر الفاطمية (ص ٧).

٤ - عبد العزيز الهلابي في كتابه عبد الله بن سبأ (ص ٧٣)، حيث حجج هذا الشخص الغموض الذي أثاره غيره من المشككين في وجود ابن سبأ فلازم الإنكار.

هذا الدور الخطير الحقيق، وهو من هو إيمانًا وتقوى، وقد بشره النبي ﷺ بالجنة.

وللمرء أن يسأل لماذا هذا الإصرار على إنكار ابن سبأ اليوم من قبل بعض كتاب الشيعة؟

١ - إنهم يريدون من وراء ذلك قطع الصلة بين التشيع والغلو، بإنكار وجود رأسه ومدبره؛ فإذا ثبت أن ابن سبأ موجود وهو القائل الأول بالوصية لعلي عليه السلام، وهو القائل بالظعن على الخلفاء الثلاثة، وهو القائل بالرجعة للأئمة؛ فإن الشيعة اليوم - وهم يعتقدون بهذه المعتقدات - فهم إذن غلاة وسبئيون؛ لأن هذه العقائد مما آل إليه مذهب الشيعة الاثني عشرية اليوم. في حين يصر الشيعة على أن التشيع بدأ منذ عهد النبي ﷺ،

٥ - وأيضًا الدكتور: محمد عمارة في كتابه الخلافة ونشأة الأحزاب الإسلامية (ص ١٥٤، ١٥٥)، فيقول: «وتنسب أغلب مصادر التاريخ والفكر الإسلامي إلى ابن السوداء هذا نشاطًا عظيمًا وجهدًا خرافيًا»، ويقول: «فإن وجود ابن سبأ على فرض التسليم بوجوده...».

٦ - والدكتور: عبد الله السامرائي في كتابه الغلو والفرق الغالية في الحضارة الإسلامية (ص ٨٦)، إلا أنه يثبت وجود الأفكار التي تنسب إلى عبد الله بن سبأ، من غير جزم بوجود صاحبها.
ب - المنكرون لوجود ابن سبأ من الشيعة:

١ - محمد الحسين كاشف الغطاء، في كتابه أصل الشيعة وأصولها (ص ٦١) يقول: «على أنه لا يستبعد أن يكون هو - أي عبد الله بن سبأ - ومجنون بني عامر وأبو هلال.. وأمثالهم أحاديث خرافية وضعها القصاص لتزجية الفراغ وشغل أوقات الناس».

٢ - مرتضى العسكري: وله كتابان في هذا الموضوع، ينفي فيهما وجود ابن سبأ من الأصل، ويعتبر مرتضى هذا من أكثر الشيعة المحدثين اهتمامًا بمسألة عبد الله بن سبأ. الكتاب الأول بعنوان: (عبد الله بن سبأ بحث حول ما كتبه المؤرخون والمستشرقون ابتداء من القرن الثاني الهجري). ورمز له بالجزء الأول. الكتاب الثاني بعنوان: (عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى).

٣ - محمد جواد مغنية، وقد ذكر ذلك في تقديمه لكتاب عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى لمرتضى العسكري (١٢/١). وكتاب التشيع (ص ١٨).

٤ - الدكتور علي الوردى، في كتاب وعاظ السلاطين (ص ٢٧٣ - ٢٧٦)، يقول: «يخيل إلي أن حكاية ابن سبأ من أولها إلى آخرها كانت حكاية متقنة الحيك رائعة التصوير». ويعتبر علي الوردى صاحب القول بأن ابن السوداء هو عمار بن ياسر عليه السلام (ص ٢٧٨).

٥ - عبد الله الفياض في كتابه تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة (ص ٩٥)، يقول: «يبدو أن ابن سبأ كان شخصية إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة».

٦ - الدكتور كامل مصطفى الشبيبي في كتاب الصلة بين التصوف والتشيع (ص ٤١)، وقد تابع الدكتور علي الوردى في كلامه حول كون عمار بن ياسر هو ابن السوداء (ص ٨٨).

٧ - طالب الرفاعي في التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية (ص ٢٠).

٨ - إحسان الأمين: في كتابه التفسير بالمأثور وتطوره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٧٥ - ٢٧٨).

وأنه عليه السلام هو الذي أوصى لعلي بالخلافة، وأن الصحابة الكرام رضي الله عنهم خالفوا الأوامر النبوية في ذلك.

٢ - وإذا كان التاريخ يؤكد على الدور الذي قام به ابن سبأ والسبئية في التفريق بين المسلمين في زمن عثمان وعلي رضي الله عنهما، فهو وجماعته هم الذين أجمجوا معركة الجمل، وإذا كان التاريخ ينزه الصحابة الكرام من قصد الكيد والمكر في تلك الأحداث المريرة؛ فإن الشيعة - سيرًا وراء موقفهم السياسي ثم العقدي من هؤلاء الصحابة الكرام - يريدون الطعن على الصحابة الكرام رضي الله عنهم ونسبة تلك الأحداث الدامية إليهم رضوان الله عليهم. والحقيقة أننا نرفض نسبة الأحداث التاريخية والسياسية التي مرت على عهد الصحابة، وخصوصًا الأحداث الأليمة في صفين والجمل، نرفض نسبتها كاملة إلى ابن سبأ صياغة وفعلاً؛ فلهذه الأحداث عدة عوامل كثيرة داخلية وخارجية متداخلة، ولكن إن كنا نرفض تضخيم دور ابن سبأ في تلك الأحداث المحزنة؛ فإننا نرفض أيضًا المكابرة وإنكار الواقع بإلغاء وجود ابن سبأ وأتباعه تاريخيًا.

وقفه مع منكري وجود ابن سبأ والسبئية:

لقد اتكأ منكرو وجود ابن سبأ على عدة شبهات يجدر طرحها ومناقشتها، ومن هذه الشبهات:

١ - غموض شخصية ابن سبأ في التاريخ، والحقيقة أن شخصية ابن سبأ شخصية غامضة، حتى التبس على بعض المؤرخين هل هو ابن السوداء أم هو غيره ^(١)، وحتى ذهب بعض الكتاب إلى أنه عمار بن ياسر رضي الله عنه!! ^(٢).

٢ - ضخامة الدور الذي أعطي لابن سبأ؛ فلا يمكن أن يكون مذهب كبير في العقيدة قد تشكل بناء على آراء رجل واحد، كان له دوره المهم في موت الخليفة الثالث

(١) كثير من المصادر التاريخية ترى أن ابن سبأ هو ابن السوداء نسبة إلى أمه، ولكن البغدادي يرى أن ابن السوداء شريك لابن سبأ لا نفسه. [انظر: الفرق بين الفرق (ص ٢٢٥، ٢٢٦)]، وكذلك فعل الأشعري القمي من الشيعة؛ حيث قال: « هو عبد الله بن وهب بن سبأ الراسبي الهمداني، وساعده على ذلك عبد الله بن حرس وابن أسود وهما من جلة أصحابه »، فجعل لابن سبأ نسبا آخر (ابن وهب الراسبي)، وجعل له شريكين منهما ابن أسود (ولعله يقصد ابن السوداء) [انظر: المقالات والفرق (ص ٢٠، ٢١)].

(٢) د. علي الوردي: وعاظ السلاطين (ص ٢٧٨)، د. كامل مصطفى الشبيبي: الصلة بين التصوف والتشيع (ص ٤١).

عثمان رضي الله عنه؛ فقد « رسمت هذه الروايات أدوارًا خيالية لشخص يسلم مؤخرًا زمن عثمان أو علي، ولكنه يستطيع بفترة قصيرة أن يكون العقل المدبر للأحداث، يدير بها جملة ومن وجوه الصحابة، ويجول البلاد طولًا وعرضًا، دون أن يناله خطر أو عقوبة » (١).

٣ - تناقض الروايات في حقه: هل أحرقه علي؟ أم نفاه إلى المدائن؟ وخصوصًا أن أشهر من روى روايات ابن سبأ في كتب التاريخ هو سيف بن عمر، وقد « اتفق علماء الرجال على ضعف سيف بل على زندقته ووضعه للحديث » (٢)؛ فقد قال مغنية عن سيف: « كما ابتدع رجالاً من التابعين وغير التابعين، ووضع على لسانهم الأخبار والأحاديث. من هؤلاء بطل اختلق شخصيته، واختلق اسمه، واختلق قضايا ربطها به، هذا البطل الأسطوري هو (عبد الله بن سبأ) الذي اعتمد عليه كل من نسب إلى الشيعة ما ليس لهم به علم، وتكلم عنهم جهلاً وخطأً، ونفاقاً وافتراءً، وجاء المؤرخون بعد سيف الوضاع فرأوا الكتاتين المذكورين بين مصادر التاريخ؛ فنهلوا منهما دون فحص وتمحيص » (٣).

والجواب عن هذه الشبهة:

١ - أما أن يكون ابن سبأ شخصية غامضة؛ فنعم، ولا بد من أن تكون كذلك؛ لأن من يريد أن يقوم بالتخريب الذي قام به هذا الرجل لا بد أن يكون صاحب حيلة ودهاء حتى لا يكشف أمره، وهناك شخصيات تاريخية كان لها التأثير العظيم، مع أنها كانت غامضة، ولم نسمع من أحد إنكار وجودها بسبب هذا الغموض الذي لقيها؛ فهذا أبو مسلم الخراساني، « ولقد أحاط الغموض بهذه الشخصية الكبرى في تاريخ الإسلام، هل هو أعجمي أم عربي أم كردي؟ هل هو من نسل بني العباس أنفسهم... أم هو مولى؟ هل هو شخصية سياسية حربية، أم هو وجه غنوصي؟ » (٤). ولم ينكر وجوده أحد.

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٨٧).

(٢) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٧٨). قال النسائي عن سيف: « ضعيف متروك الحديث، ليس بثقة ولا مأمون، وقال عنه ابن حبان: « يروي الموضوعات عن الأنبيات، اتهم بالزندقة وقالوا: كان يضع الحديث ». انظر: أقوال العلماء فيه: مرتضى العسكري: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى (١/٧٤ - ٧٦)، (ط ٦)، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢).

(٣) محمد جواد مغنية: تقديمه لكتاب: ابن سبأ (ص ١٢)، وانظر: مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٢/٤٤٧).

(٤) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٦٢).

٢ - وأما الحديث عن ضخامة الدور الذي أعطي لابن سبأ؛ فإن الجواب عليه من التاريخ نفسه؛ ألم يستطع شأؤول اليهودي (بولس النصراني) قلب ديانة النصرانية، رأساً على عقب، وحرفها عن التوحيد، وادعاء أن عيسى ابن الله (تعالى الله عن ذلك) حتى تحولت من دين ربّاني إلى دين قائم على التثليث. قال البغدادي: « وقال المحققون من أهل السنة: إن ابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي وأولاده؛ لكي يعتقدوا فيه ما اعتقدت النصراني في عيسى عليه السلام »^(١).

٣ - وأما أن يكون هناك تناقضات تاريخية في الروايات المتحدثة عن ابن سبأ وأعماله فهو أمر ممكن الحصول في التاريخ والحديث، وليس الحل هو إنكار كل حقيقة تاريخية مجرد أن يكون في بعض رواياتها تناقضات، وهذا كثير في التاريخ؛ فهل ننكر كل حقائق التاريخ لوجود بعض التناقضات، أم نرجح بين الروايات؟ ولو مشينا على منهج المنكرين لابن سبأ لأجل هذا السبب لضربنا بالمعاول آلاف الروايات التي تحوي تناقضات في كتب الشيعة - وما أكثرها - قبل غيرهم.

وعلى سبيل المثال: فإن أكبر عقيدة يصبرّ عليها الاثنا عشرية، وهي عقيدة الإيمان بالمهدي المنتظر الغائب - يلفّ رواياتها تناقضات كثيرة؛ فقد اختلفت تلك الروايات في تحديد أمه واسمها، وتحديد تاريخ ولادته، وعمره يوم وفاة أبيه، وطريقة ولادته ونموّه ووصفه... إلخ^(٢)؛ فلماذا لا ينكر الاثنا عشرية وجوده بسبب هذه التناقضات؟!

وأما أن مصادر التاريخ حول ابن سبأ تقف في سندها إلى رجل ضعفه علماء الرجال واتهموه بما اتهموه به؛ فهذا أمر صحيح، ولكن هل انفرد هذا الرجل بذكر ابن سبأ، إن كان انفرد في كتب التاريخ العامة كالطبري وابن كثير وغيرهما؛ فما بال تلك الروايات الواضحة بأسانيد الشيعة أنفسهم تذكر ابن سبأ وتؤكد وجود دوره التخريبي؟!.

والعجيب أن الخوئي بعد أن ذكر الروايات عن زين العابدين وجعفر الصادق^(٣) والتي تدل على دور ابن سبأ في الكذب على لسان علي عليه السلام، وأنه ادعى في نفسه النبوة،

(١) البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢١ - ٢٢٣).

(٢) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٢٠٦)، وستعرض لذلك في فصل (العقائد الخاصة).

(٣) الخوئي: أبو القاسم الموسوي: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة (٢٠٧/١١)، رقم الترجمة

وإدعى الألوهية في علي (١) - يعود فيرد تلك الروايات، زاعماً أنها من أكاذيب سيف ابن عمر أحد رواة التاريخ السني (٢).

مع أن ابن سبأ ورد في معظم المصادر الشيعية القديمة؛ فقد ورد في رجال الكشي، والمقالات والفرق للقمي، وورد في فرق الشيعة للنوبختي، والصدوق في (من لا يحضره الفقيه) (٣)، وذكره أبو جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) في كتابه تهذيب الأحكام (٤) وابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ) في مناقب آل البيت (٥). وابن أبي الحديد (٦٥٦ هـ) في شرح نهج البلاغة (٦)، كما أورده العاملي في وسائل الشيعة (٧)، وأشار الحسن بن علي الحلبي (ت ٧٢٦ هـ) (٨) إلى ابن سبأ ضمن أصناف الضعفاء، وذكره الأردبيلي (ت ١١٠٠ هـ) (٩)، وذكره نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢ هـ) (١٠)، ووردت بعض روايات ذكر فيها ابن سبأ عند المامقاني (ت ١٣٢٣ هـ) (١١)، وكذلك ذكر الخوانساري لعن ابن سبأ واتهامه بالكذب والتزوير على لسان جعفر الصادق عليه السلام (١٢).

ولم تكتف المصادر الشيعية الكثيرة بذكر ابن سبأ، بل أوردت الفرقة التي انتشرت بسببه وهي السبئية؛ فقد جاء ذكرهم في بحار الأنوار، وأنهم يقولون برجعة علي عليه السلام (١٣)،

(١) الخوئي: أبو القاسم الموسوي: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة (٢٠٦/٤).

(٢) المرجع السابق (٢٠٧/١١)، رقم الترجمة (٦٨٨٩).

(٣) من لا يحضره الفقيه (٢١٣/١). وذكر اعتراض ابن سبأ على الإمام علي عليه السلام في رفع اليدين إلى السماء عند الدعاء.

(٤) تهذيب الأحكام (٣٢٢/٢)، وذكر أن ابن سبأ رجع إلى الكفر وأظهر الغلو.

(٥) مناقب آل أبي طالب (٢٢٧/١، ٢٢٨).

(٦) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (١٢٠/٨)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة آية الله المرعشلي النجفي. قال: «فلما قتل أمير المؤمنين، عليه السلام، أظهر ابن سبأ مقالته، وصارت له طائفة وفرقة يصدقونه ويتبعونه».

(٧) محمد بن الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤ هـ): وسائل الشيعة (٣٣٦/٢٨) مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم، (١٤١٤ هـ).

(٨) الرجال (٧١/٢).

(٩) جامع الرواة (٤٨٥/١)، وذكر أن ابن سبأ غال ملعون يزعم ألوهية علي عليه السلام ونبوته.

(١٠) الأنوار النعمانية (٢٣٤/٢): قال: «قال عبد الله بن سبأ لعلي بن أبي طالب عليه السلام: أنت الإله حقاً. ففناه علي عليه السلام إلى المدائن، وقيل: إنه كان يهودياً فأسلم، وكان في اليهودية يقول في يوشع بن نون وفي موسى مثل ما قال في علي».

(١١) تنقيح المقال في أحوال الرجال (١٨٣/٢). (١٢) روضات الجنات (١٤١/٣).

(١٣) بحار الأنوار (٢١٠/٥١). إضافة إلى رواية تذكره باسمه كما ذكرت في الأصل.

بل ذكرهم الشيخ الصدوق (٣٨١هـ) في كمال الدين وتمام النعمة (١) والشيخ المفيد (٤١٣هـ) في الفصول العشرة وشرح عقائد الصدوق (٢).

وجاء في رجال الكشي المعروف باختيار معرفة الرجال للطوسي - عدة روايات عن الأئمة منهم أبو جعفر وجعفر الصادق أن ابن سبأ كان يهوديًا فأسلم، وأنه كان يقول في علي عليه السلام بقول اليهود في يوشع بن نون بعد موسى عليه السلام، ثم إنه ادعى ألوهية علي عليه السلام وأنه [أي ابن سبأ] نبي وقد حرقه علي عليه السلام بعد استتابته (٣).

وهناك روايات تثبت أن عليًا نفاه إلى المدائن (٤)، ويمكن الجمع بين الروايات بأنه نفاه أولاً عندما قال بالوصية، فلما قال بإلهيته حرقه مع أتباعه بعد استتابتهم، والله أعلم. ومهما يكن فإن الروايات مجمعة على وجوده، وإن اختلفت في مصيره.

وقد ذكره علماء الفرق الشيعة؛ فقد ذكر القمي (ت ٣٠١هـ) وقريبًا منه النوبختي (ت ٣١٠هـ) أن عبد الله بن سبأ أول من أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة، وتبرأ منهم، وادعى أن عليًا أمره بذلك، وأن السبئية قالوا للذي نعاه - أي علي بن أبي طالب - : « كذبت يا عدو الله! لو جئتنا والله بدماعه خربة فأقمت علي قتله سبعين عدلاً ما صدقناك، ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل، وإنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويملك الأرض » (٥).

(١) كمال الدين وتمام النعمة: لمحمد بن علي بن بابويه القمي المشهور بالصدوق (ص ١٠١)، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، (١٤٠٥هـ).

(٢) الشيخ المفيد (محمد بن النعمان بن المعلم) : الفصول العشرة (ص ٣٠ - ١٠٩)، دار المفيد - بيروت، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، تحقيق فارس حسون، شرح عقائد الصدوق (ص ٢٥٧).

(٣) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (١ / ٣٢٤) رقم الرواية (١٧١) وما بعدها، (٢٠٥ / ١١)، (٢٠٦)، رقم الترجمة (٦٨٨٩) طبعة قم (١٤٠٤هـ). مؤسسة أهل البيت تحقيق محمد باقر الحسيني وآخرين. وقارن: السيد نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ) : نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين (٢ / ٣٠٨) مؤسسة النشر الإسلامي - قم، تحقيق / السيد الرجائي.

(٤) السيد نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ) : نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين (٢ / ٣٠٨)؛ حيث عكس الأمر: « قال عبد الله بن سبأ لعلي عليه السلام : أنت الإله حقًا، فنفاه علي عليه السلام إلى المدائن، ولما كان يهوديًا قبل الإسلام كان يقول في يوشع بن نون وفي موسى مثل ما قال في علي عليه السلام، ومنه تشعبت الغلاة ». وقد ضعف المازندراني (ت ١٠٨١هـ) في شرحه على الكافي (٤ / ١٧٩) أن يكون علي قد حرقه.

(٥) المقالات والفرق (ص ٢٠)، تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور فيروي - طهران (١٩٦٣م). وقريبًا منه النوبختي: في كتابه فرق الشيعة (ص ٢٣).

وهذه بعض الروايات الشيعية التي ذكرت ابن سبأ:

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام عن آبائه عليهم السلام أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: « إذا فرغ أحدكم من الصلاة فليرفع يديه إلى السماء ولينصب في الدعاء. فقال ابن سبأ: يا أمير المؤمنين، أليس الله في كل مكان؟ فقال: بلى. قال: فلم يرفع يديه إلى السماء؟ قال: أما تقرأ في القرآن ﴿ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٢] فمن أين يطلب الرزق إلا من موضعه؟ وموضع الرزق وما وعد الله السماء » (١).

وتذكر إحدى الروايات أن ابن سبأ أحضر إلى علي متلبساً بتهمة الكذب على النبي صلى الله عليه وآله: « عن أبي الطفيل: جاء المسيب بن نجبة إلى أمير المؤمنين عليه السلام متلبساً بعبد الله ابن سبأ، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ما شأنك؟ فقال: يكذب على الله وعلى رسوله. فقال: ما يقول؟ قال: فلم أسمع مقالة المسيب... » (٢). ولكن الخبر للأسف لم ينقل لنا مقالة ابن سبأ وكذبه، واكتفى بإجمال كذبه على النبي صلى الله عليه وآله.

ويذكر المجلسي جامع روايات الشيعة في بحار الأنوار رواية تقول: « دخل عمرو ابن الحمق وحجر بن عدي وحبّة العرني والحارث الأعور وعبد الله بن سبأ على أمير المؤمنين بعدما افتتحت مصر وهو مغموم حزين فقالوا له: بين لنا ما قولك في أبي بكر وعمر؟ فقال لهم علي عليه السلام: هل فرغتم لهذا؟! وهذه مصر قد افتتحت وشيعتي بها قد قتلت » (٣).

ولم تخف حقيقة وجود ابن سبأ على أئمة الشيعة؛ فقد حذروا منه ومن بدعته، « فعن هشام بن سالم، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول وهو يحدث أصحابه بحديث عبد الله بن سبأ، وما ادعى من الربوبية في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، فقال: إنه لما ادعى ذلك فيه استتابه أمير المؤمنين عليه السلام فأبى أن يتوب فأحرقه بالنار ».

وعن أبان بن عثمان، قال: « سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لعن الله عبد الله ابن سبأ، إنه ادعى الربوبية في أمير المؤمنين عليه السلام، وكان والله أمير المؤمنين عليه السلام عبداً لله طائعاً، الويل لمن كذب علينا، وإن قوماً يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، نبأ إلى الله منهم، نبأ إلى الله منهم ».

(١) الطوسي: تهذيب الأحكام (٣٢٢/٢). تحقيق حسن الخرسان مطبعة خورشيد، دار الكتب الإسلامية (٤ ط)، وذكره المحقق البحراني في الخدائق الناضرة (٥١١/٨) نشر جماعة المدرسين، قم.
 (٢) الطوسي: الأمالي (ص ٢٣٠)، (ط ١)، (١٤١٤هـ) دار الثقافة، قم.
 (٣) المجلسي (محمد باقر المجلسي ١١١١هـ): بحار الأنوار (٥٦٧/٣٣). مؤسسة الوفاء - بيروت (ط ٢)، (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).

وعن أبي حمزة الثمالي، قال: « قال علي بن الحسين صلوات الله عليهما: لعن الله من كذب علينا. إني ذكرت عبد الله بن سبأ فقامت كل شعرة في جسدي، لقد ادعى أمرا عظيما ما له لعنه الله؟! كان علي عليه السلام والله عبداً لله صالحاً، أخا رسول الله، ما نال الكرامة من الله إلا بطاعته لله ولرسوله، وما نال رسول الله الكرامة من الله إلا بطاعته الله. »

وقال أبو جعفر عليه السلام: « إن عبد الله بن سبأ كان يدعي النبوة ويزعم أن أمير المؤمنين عليه السلام هو الله!! تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فبلغ ذلك أمير المؤمنين عليه السلام، فدعاه وسأله فأقر بذلك، وقال: نعم أنت هو، وقد كان ألقى في روعي أنك أنت الله، وأني نبي! فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: ويلك! قد سخر منك الشيطان، فارجع عن هذا ثكلتك أمك وتب، فأبى؛ فحبسه واستتابه ثلاثة أيام فلم يتب فأحرقه بالنار. وقال: إن الشيطان استهواه فكان يأتيه ويلقي في روعه ذلك. »

وقال أبو عبد الله عليه السلام: « إنا أهل بيت صدّيقون لا نخلو من كذاب يكذب علينا ويسقط صدقنا بكذبه علينا عند الناس، كان رسول الله صلى الله عليه وآله أصدق الناس لهجة وأصدق البرية كلها، وكان مسيلمة يكذب عليه، وكان أمير المؤمنين عليه السلام أصدق من برأ الله بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، وكان الذي يكذب عليه ويعمل في تكذيب صدقه ويفتري على الله الكذب عبد الله بن سبأ » (١).

وعن زرارة أنه قال: « قلت للصادق عليه السلام: إن رجلاً من ولد عبد الله بن سبأ يقول بالتفويض، فقال عليه السلام: وما التفويض؟ فقلت: يقول: إن الله صلى الله عليه وآله خلق محمداً صلى الله عليه وآله وعلياً عليه السلام، ثم فوّض الأمر إليهما، فخلقاً ورزقاً وأحياً وأماتاً، فقال عليه السلام: كذب عدو الله، إذا رجعت إليه فاقراً عليه الآية التي في سورة الرعد: ﴿ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَبَّهُوا خَلْقَهُمْ قُلْ إِنَّ اللَّهَ خَلَقُ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَّاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾ [الرعد: ١٦]. فانصرفت إلى الرجل فأخبرته بما قال الصادق عليه السلام، فكأتما ألقمته حجراً، أو قال: فكأتما خرس » (٢).

(١) الخوئي: معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة (٢٠٥/١١، ٢٠٦) رقم الترجمة (٦٨٨٩)، (ط ٥) لجنة التحقيق (١٤١٣ هـ).

(٢) الصدوق: الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٧٤). والعجيب أن بعض الشيعة يؤمنون بنظرية تفويض أمر الأرض للإمام، فيعتقدون أن « للإمام عليه السلام مقاماً محموداً ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون » انظر: روح الله الخميني: الحكومة الإسلامية (٥٢، ٥٣)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، وانظر: رجب البرسي: مشارق أنوار اليقين (ص ٢٢٥)، الشيخ جلال الصغير: الولاية التكوينية، الحق الطبيعي للمعصوم (ص ١٠٣).

وبهذه النقول والنصوص الواضحة في كتب الشيعة أنفسهم تتضح لنا حقيقة شخصية ابن سبأ اليهودي، ومن طعن من الشيعة في ذلك؛ فقد طعن في كتبهم التي نقلت لعنات الأئمة المعصومين - عندهم - على هذا اليهودي (ابن سبأ)، ولا يجوز ولا يتصور أن تخرج اللعنات من المعصوم على شخص متوهم مُتَحَيَّل، وكذلك لا يجوز في معتقد القوم تكذيب المعصوم ^(١).

وعلى كلِّ فهناك أشخاص آخرون اشتهروا بالغلو، والتصقوا بتاريخ الشيعة وأئمتهم، ومن هؤلاء: المختار الثقفي وغيره.

* * *

(١) د. سعدي الهاشمي: ابن سبأ حقيقة لا خيال (ص ٧٦).

المبحث الثاني

الغلاة الذين ركبوا موجة التشيع



١ - حركة المختار الثقفي:

من المختار بن أبي عبيد الثقفي؟ إنه رجل طامح طامع في السلطة؛ ولأجل ذلك تذبذبت آراؤه السياسية والعقدية حسب المصالح، ذكر ابن كثير أنه كان خارجيًا، ثم زبيريًا، ثم شيعيًا من أنصار زين العابدين، ثم لما رأى انقطاعه للعبادة والزهد تركه إلى محمد ابن الحنفية ونادى بإمامته، ثم رأى خيرا وسيلة لتأييده هو الانتقام من قتلة الحسين عليه السلام، وقد فعل، ونُسب إليه الغلو.

« وأدق وصف للمختار أنه رجل منفعة ومصالحة، يسعى لكسب الجاه والمال دون اهتمام بالوسائل التي تحقق له ذلك » ^(١).

ويذكر التاريخ أنه « لما بايع ابن الزبير قال: « أبايعك على ألا تقضي الأمور دوني، وعلى أن أكون أول من تأذن له، وإذا ظهرت استعنت بي على أفضل عملك ». فلم يأبه له ابن الزبير وأهمله، فتحول عنه إلى حركة التوابين، وانتظر وفاة سليمان بن صرد ^(٢)

(١) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، ماجستير دار العلوم بإشراف الأستاذ الدكتور محمود قاسم (١٩٦٧م). (ص ١٩)، وانظر: د. أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية (١٩٣/٢).

(٢) صحابي جليل، قال المزي: « كان اسمه في الجاهلية يسارًا فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان، سكن الكوفة وابنتي بها دارًا في خزاعة، وكان نزوله بها في أول ما نزلها المسلمون، وكانت له سن عالية وشرف في قومه وشهد مع علي صفيين وهو الذي قتل حوشبًا ذا ظليم الألهاني بصفيين مبارزة. ثم اختلط الناس يومئذ، وكان فيمن كتب إلى الحسين بن علي يسأله القدوم إلى الكوفة، فلما قدمها ترك القتال معه، فلما قتل الحسين ندم هو والمسيب بن نجبة الفزاري وجميع من خذله ولم يقاتل معه، ثم قالوا: ما لنا توبة مما فعلنا إلا أن نقتل أنفسنا في الطلب بدمه. فخرجوا وعسكروا بالنخيلة، وذلك مستهل ربيع الآخر سنة خمس وستين، ولولا أمرهم سليمان ابن صرد وسموه أمير التوابين، ثم ساروا إلى عبيد الله بن زياد فلقوا مقدمته في أربعة آلاف عليها شرحبيل ابن ذي الكلاع، فاقتلوا فقتل سليمان بن صرد والمسيب بن نجبة بموضع يقال له: عين الورد. وقيل: إنهم خرجوا إلى الشام في الطلب بدم الحسين فسموا التوابين، وكانوا أربعة آلاف، فقتل سليمان بن صرد، رماه يزيد ابن الحصين بن نمير بسهم فقتله، وحمل رأسه ورأس المسيب بن نجبة إلى مروان بن الحكم أدهم بن محرز =

ليعلن زعامته لهذه الحركة (١). وقد اختلطت حركته بالكيسانية عند بعض الكتاب؛ ذلك أنه أراد غطاءً دينيًا لحركته، فالتمسها عند أتباع محمد ابن الحنفية (٢)؛ ولذلك ادعى مهدي محمد ابن الحنفية وعلمه الغزير الذي استودعه إياه أبوه علي (ع) (٣).

ويُسقط ابن تيمية حديث النبي ﷺ في كذاب ثقيف على المختار قائلًا: « وقد ثبت في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال: « سيكون في ثقيف كذاب ومبير » (٤). فكان الكذاب هو المختار بن أبي عبيد، وكان المبير هو الحجاج بن يوسف الثقفي (٥).

ويذكر التاريخ أنه لما أصيب الحسن في المدائن قبيل عام الجماعة، « وكان الأمير علي المدائن سعد بن مسعود الثقفي عم المختار - ولاء عليها علي (ع) ». فقال له المختار، وكان شابًا: هل لك في الغناء والشرف؟ قال: وما ذلك؟ قال: تستوثق من الحسن وتسلمه إلى معاوية، فقال له سعد: قاتلك الله، أثب على ابن رسول الله وأوثقه وأسلمه إلى ابن هند؟ بس الرجل أنا إن فعلته (٦). فهذا الخبر يدلُّك على ما كان يتصف به المختار من انتهازية.

وقد اضطرب موقف الشيعة من هذا الرجل؛ فقد روى الكشي له مدحًا وذمًا، ورجح المدح (٧). والذي رجح المدح على الذم هو أنه شفى قلوب الشيعة من أعدائهم، رغم فساد عقيدته؛ جاء في طرائف المقال: « وفيه أحاديث مختلفة قاذحة ومادحة، والترجيح مع الثانية، ويكفي في حقه أنه كسر قوارير الكفر وقتل جمًّا خطيرًا من بني أمية يبلغ إلى ثمانين ألف رجل كما في بعض الأحاديث (٨)، فهل يغير فعله هذا بقئلة الحسين

= الباهلي، وكان سليمان يوم قتل ابن ثلاث وتسعين سنة، وقال غيره: إن ذلك كان سنة سبع وستين. فالله أعلم. روى له الجماعة. « المزي: تهذيب الكمال (٤٥٤/١١).

(١) د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١). وانظر تفاصيل ذلك في تاريخ الطبري (٥٩/٧ - ٦٢).

(٢) د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢٤ - ٢٦).

(٣) انظر: د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي (٥٣/٢).

(٤) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها، رقم (٢٥٤٥)، (١٩٧١/٤) من حديث أسماء بنت أبي بكر (ع). (المبير): المهليك، السقّاق.

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٦٩/٢ ، ٧٠).

(٦) المجلسي: بحار الأنوار (٢٨/٤٤)، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية (١٦/٨). دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٧) وسائل الشيعة الحر العاملي (٤٩٠/٣).

(٨) السيد علي البروجردي الجالبي (ت ١٣١٣ هـ): طرائف المقال (٧١/٢) رقم (٧٢٦٩) مكتبة آية الله العظمى المرعشي قم (١٤١٠ م) تحقيق محمد السيد الرجائي.

والأمويين شيئاً من فساد عقيدته وسوء سريرته؟

« وقد قيل: إن السيد محمد ابن الحنفية تبرأ من المختار حين وصل إليه أنه قد لبس على الناس أنه من دعائه ورجاله، وتبرأ من الضلالات التي ابتدعتها المختار من التأويلات الفاسدة والمخاريق المموهة » (١).

وقد ورد أن المختار بعث إلى علي بن الحسين بهدايا من العراق، « فلما وقفوا على باب علي بن الحسين دخل الآذن يستأذن لهم، فخرج إليهم رسوله فقال: أميطوا عن بابي، فإنني لا أقبل هدايا الكذابين ولا أقرأ كتبهم » (٢).

قال ابن حجر عنه بعد أن ذكر تأثيره بالسبئية: « ولما غلب على الكوفة وتبع قتلة الحسين فقتلهم أحبته الشيعة، ثم فارقه أكثرهم لما ظهر منه من الأكاذيب » (٣).

ويرى د. النشار أن « الخطأ الذي وقع فيه بعض مؤرخي العقائد من الشيعة وأهل السنة أنهم خلطوا بين المختار بن أبي عبيد وبين شخصية أخرى معاصرة له هي شخصية كيسان... فهو أبو عمرة السائب بن مالك الأسعدي المتوفى سنة (٦٧ هـ)، وكان يجاور المختار بن أبي عبيد، وكان صاحب سره ومؤامراته، فلما قام المختار بن أبي عبيد بحركته جعله صاحب شرطته (٤)... وهو أعجمي فيما يقول الشعبي... يقول الدينوري: « إن المختار ولي الشرطة كيسان أبا عمرة... ويرى المؤرخون أنه تجاوز المختار في القول والفعل والقتل، أي أنه غلا في عقيدته أكثر من المختار، كما أنه أيضاً غلا في قتل أعداء الحسين بن علي وقتاليه، وكان يقول: المختار وصي محمد ابن الحنفية وعامله، وكان يكفر من تقدم علياً، ويكفر أهل صفين والجمل، بينما كان المختار لا يكفر من تقدم عليه... وأخيراً يذكر أبو خلف (٥) والنوبختي أن أبا عمرة كان يزعم أن جبريل يأتي المختار بالوحي من عند الله فيخبره بذلك ولا يراه » (٦).

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (١٤٦/١).

(٢) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٣٤١/١).

(٣) فتح الباري (١٦٧/٩). (٤) أبو خلف القمي: المقالات والفرق (ص ٣١).

(٥) أبو خلف القمي: المقالات والفرق (ص ٢٢)، والنوبختي: فرق الشيعة (ص ٣٣).

وأبو الخطاب هو محمد بن أبي زينب الأسدي الأجدع، وقف نفسه على جعفر الصادق، فلما علم الصادق بغلوه في حقه تبرأ منه ولعنه وأمر أصحابه بالبراءة منه، وعندها ادعى أبو الخطاب لنفسه بالإمامة، وزعم أن الأئمة أنبياء ثم آلهة. انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١٧٩/١).

(٦) د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي (٥٠/٢ - ٥٣).

وهذا الفرق بين المختار وأبي عمرة كيسان جعل د. النشار يرى « أنه لا مانع من أن يكون - حسب التقية الشيعية - محمد ابن الحنفية قد تبرأ من المختار ظاهريًا، كما تبرأ جعفر الصادق من زرارة ظاهريًا، في حين كان ابن الحنفية يضمّر محبته للمختار؛ لأنه كان من أخلص رجاله »^(١). وهذا القول لا دليل عليه، وقد طوى تفاصيله التاريخ، ولا نستطيع الجزم بمثل هذا. « وهنا نتساءل هل كان أبو عمرة حقًا غنوصيًا وهل كان على صلة بجماعات ثنوية ومسيحية ويهودية نفثت سمومها فيه؟ ثم حملها هو وأتباعه إلى شيعة الكوفة؛ ومن ثم نسبت إلى المختار؟ ليس لدينا نصوص قاطعة بذلك »^(٢). فالأولى عدم الجزم به، وإن كان احتمالاه قائمًا.

وتذكر بعض المصادر - كالشهرستاني - أن المختار هو أول من قال بالبداء من الشيعة، « وإنما سار المختار إلى اختيار القول بالبداء؛ لأنه كان يدّعي علم ما يحدث من الأحوال، إما بوحى يوحى إليه وإما برسالة من قبل الإمام، فكان إذا وعد أصحابه بكون شيء وحدوث حادثة فإن وافق كونه قوله جعله دليلًا على صدق دعواه، وإن لم يوافق قال: قد بدا لربكم »^(٣). وتفصيل ذلك كما ذكر الإسفراييني: « اعلم أن السبب الذي جوّزت الكيسانية البداء على الله تعالى أن مصعب بن الزبير بعث إليه عسكريًا قويًا، فبعث المختار إلى قتالهم أحمد بن شميظ مع ثلاثة آلاف من المقاتلة، وقال لهم: أوحى إلي أن الظفر يكون لكم. فهزم ابن شميظ فيمن كان معه، فعاد إليه فقال: أين الظفر الذي قد وعدتنا؟ فقال له المختار: هكذا كان قد وعدني، ثم بدا [له]، فإنه ﷺ قد قال: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، ثم خرج المختار إلى قتال مصعب ورجع مهزومًا إلى الكوفة فقتلوه بها »^(٤).

ومما يجدر ذكره أن القول بالبداء لم ينسب فقط إلى المختار وحده، فإذا كان بعض كتاب الفرق كالشهرستاني والإسفراييني، ينسبون بداية القول بالبداء إلى المختارية، فإن أبا حسين الملطي ينسبه إلى فرق السبئية^(٥). ولا يستغرب هذا؛ ذلك أن البداء واضح في

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٧).

(٢) د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي (٥٣/٢).

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (١٤٦/١).

(٤) التبصير في الدين (٣٤/١)، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٣) تحقيق: كمال يوسف الحوت.

(٥) أبو الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع =

فكر اليهود، وابن سبأ يهودي الأصل والمذهب، فقد جاء في سفر التكوين: « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه » (١).

وهكذا يلتقي الرأيان على أن أصل الفكرة يهودي محض؛ ولذلك يرى د. النشار أن البداء عند المختار فكرة يهودية، ويذكر د. إحسان إلهي أن البداء من الأفكار التي روجها اليهود في المجتمع المسلم (٢).

٢ - أشهر الكذابين والوضاعين الذين حذرّ منهم أئمة أهل البيت:

ونحن هنا لا نتحدث عن رجال الشيعة الذين يعتبرهم الاثنا عشرية من رجالهم؛ بل نتحدث عن الذين كذبهم الأئمة وتبرأوا منهم؛ لما كانوا يقومون به من تزييف وتدجيل وكذب، إذ لم يكن ابن سبأ وحده يكذب على الأئمة ويتدع العقائد ويدسها بين المسلمين، ويخدع الناس باسم التشيع؛ بل كان هناك عدد من هؤلاء الكذابين ورد ذكرهم في كتب الإمامية؛ منهم:

- أبو الخطاب محمد بن مقلص الأسدي الكوفي:

يعدّ من أشهر الغلاة، كان يدّعي اتباع الإمام الصادق، ثم كذب وافترى على لسانه، فلعنه الصادق وتبرأ منه. فعن عيسى شلقان قال: كنت قاعدًا فمرّ أبو الحسن موسى عليه السلام ومعه بهمة قال قلت: يا غلام! ما ترى ما يصنع أبوك؟ يأمرنا بالشّيء ثمّ ينهانا عنه، أمرنا أن نتولّى أبا الخطاب ثمّ أمرنا أن نلعنه ونتبرأ منه. فقال أبو الحسن عليه السلام وهو غلام:.. كان أبو الخطاب ممّن أعير الإيمان (٣).

(ص ١٩) المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة، الطبعة الثانية (١٩٧٧ م)، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري. حيث قال بعد تعداده فرق السبئية: « هؤلاء الفرق كلهم يقولون بالبداء وأن الله تبدو له البداوات، وكلامًا لا أستجيز شرحه في كتاب ولا أقدم النطق به، وهؤلاء كلهم أحزاب الكفر وفرق الجهل، فمتى لم يقرأ بموت محمد وعلي عليهما السلام فالضرورة إلى المكابرة، وأينما كانوا لا حجة لهم. وأما قولهم: إن عليًا هو الإله القديم فقد ضاهوا بذلك قول النصارى ».

(١) سفر التكوين (٦/٦ - ٨).

(٢) نشأة الفكر الفلسفي (٥٨/٢)، د. إحسان إلهي ظهير: الشيعة والسنة (ص ٥٥)، توزيع دار الأنصار - القاهرة (١٩٧٩ م)، وانظر للتوسع: د. فتحي محمد الزغبى: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٤٢٧).

(٣) أصول الكافي (٣٩٧/٢) كتاب الإيمان والكفر باب المعارين. قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

وقال يونس: وافيت العراق فوجدت بها قطعة من أصحاب أبي جعفر عليه السلام ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين؛ فسمعت منهم وأخذت كتبهم فعرضتها بعد على أبي الحسن الرضا عليه السلام فأنكر منها أحاديث كثيرة أن يكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام وقال لي: إن أبا الخطاب كذب على أبي عبد الله عليه السلام، لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبد الله عليه السلام، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن؛ فإننا إن تحدّثنا حدّثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة، إننا عن الله وعن رسوله نحدث، ولا نقول: قال فلان وفلان فيتناقض كلامنا، إن كلام آخرنا مثل كلام أولنا، وكلام أولنا مصداق لكلام آخرنا، وإذا أتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردوه عليه وقولوا: أنت أعلم وما جئت به، فإن مع كل قول منا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك قول الشيطان» (١).

ومن الكتاب من يعقد شبهًا بين حركة المختار الثقفي وانقطاعه لمحمد ابن الحنفية، وأبي الخطاب وانقطاعه لجعفر، بل هناك تشابه بين الرجلين وأطماعهما وأفكارهما؛ فكلاهما اشتهر عنه البداء، وزاد أبو الخطاب القول بنظرية الإمام الصامت بجانب الإمام الناطق، وأنه الإمام الصامت وجعفر بن محمد الإمام الناطق، كما ادعى أنه يتصور بأي صورة شاء ومنها صورة جعفر (٢).

أما عن موقف جعفر من حركة أبي الخطاب: «فبلغ أمره جعفر بن محمد فلم يقدر عليه أكثر من لعنه، وتبرأ منه وجميع أصحابه فعرّفهم بذلك، وكتب إلى البلدان بالبراءة منه واللعنة عليه» (٣). ولكن يرى د. النشار أن تبرؤ جعفر منه كان ظاهريًا، وكانت هذه خطة جعفر الصادق وهي إعلان التبرّي من بعض رجاله المخلصين حتى لا يضاروا أو يضار جعفر نفسه، وقد فعل هذا مع زرارة بن أعين، وهو من أصحابه المقربين ورواته

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٢/ ٢٥٠)، مؤسسة الوفاء بيروت، الطبعة الثانية المصححة (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م)، وعند الطوسي: اختيار معرفة الرجال. وهو تهذيب رجال الكشي: فيه ذكر المغيرة فقط دون أبي الخطاب (٢/ ٤٩١)، ولكن ثبت فيه لعن أبي الخطاب وأتباعه (٢/ ٥٨٤)، مؤسسة آل البيت - قم.
(٢) انظر: القمي: المقالات والفرق (ص ٥١)، د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٣ - ٢٣٧).
(٣) القاضي النعمان، نعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي (ت ٣٦٢ هـ): دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه السلام (١/ ٤٩، ٥٠)، دار المعارف (١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م). تحقيق آصف بن علي أصغر فيضي.

المكثرين^(١). ويستدل على ذلك بأن أصحاب أبي الخطاب قالوا بعد مقتله: في تأويل قوله تعالى: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْيِبَهَا...﴾ [الكهف: ٧٩] أن السفينة أبو الخطاب، وأن المساكين أصحابه، وأن الملك الذي وراءهم هو عيسى ابن موسى العباسي قاتل أبي الخطاب، وأن جعفرًا الصادق أراد أن يعييبهم بلعنهم في الظاهر، وفي الباطن يعني أضدادهم ومن خالفهم^(٢).

ولكن هذا بعيد؛ لأن جعفرًا وإن لعن زرارة، لكنه لم يتهمه بالكذب عليه، ثم إن أبا الخطاب اشتهر عنه الفسوق وتحليل ما حرمه الله، وإسقاط فرائض الله ﷺ، وهو أمر اشتهر عنه حتى عند كتاب غير أهل السنة، وقد « كتب أبو عبد الله إلى أبي الخطاب: بلغني أنك تزعم أن الزنى رجل، وأن الخمر رجل، وأن الصلاة رجل، وأن الصيام رجل، وأن الفواحش رجل، وليس هو كما تقول.. »^(٣).

قال القاضي النعمان الإسماعيلي عن أبي الخطاب: « وادعى النبوة وزعم أن جعفر ابن محمد إله، ثم استحل المحارم كلها ورتخص فيها، ويذكر أن أصحابه كلما ثقل عليهم أداء فريضة أتوه، وقالوا: يا أبا الخطاب خفف علينا فيأمرهم بتركها، حتى تركوا جميع الفرائض واستحلوا جميع المحارم وارتكبوا المحظورات، وأباح لهم أن يشهد بعضهم لبعض بالزور، وقال: من عرف الإمام فقد حل له كل شيء حرم عليه »^(٤).

وهذا شأن جميع المنحرفين من عهد مسيلمة إلى قيام الساعة؛ إذ الهوى يدفعهم إلى ترك الفرائض ويحضهم على انتهاك الحرمات. وصدق رسول الله ﷺ عندما قال: « إن بين يدي الساعة نحوًا من ثلاثين دجالًا كذابًا »^(٥). وسنرى أن فكر أبي الخطاب والخطابية سيتغلغل إلى الإسماعيلية؛ حيث آمنوا أن الإمام بعد جعفر هو ابنه إسماعيل، وليس موسى (إمام الاثني عشرية بعد جعفر)، حتى صارت الخطابية مرادفة للإسماعيلية، يقول النوبختي: « وأما الإسماعيلية الخالصة فهم الخطابية أصحاب أبي الخطاب.. »^(٦).

(١) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٧).

(٢) انظر: القمي: المقالات والفرق (ص ٥٥)، ونشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٧).

(٣) رجال الكشي (ص ٢٩١)، بحار الأنوار (٢٤/٢٩٩).

(٤) القاضي النعمان: دعائم الإسلام (١/٥٠).

(٥) انظر: مسند الإمام أحمد (٢/١١٧)، مسند عبد الله بن عمر، وإسناده صحيح على شرط الشيخين.

(٦) النوبختي: فرق الشيعة (ص ٦٩). انظر: د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٨).

- المغيرة بن سعيد:

ولقد كان المغيرة بن سعيد كذابًا ساحرًا. وقال المجوز جاني: قُتل المغيرة على ادعاء النبوة. كان أشعل النيران بالكوفة على التمويه والشعبذة حتى أجابه خلق. وقال أبو معاوية: قال الأعمش: أول من ينتقص أبا بكر وعمر: المغيرة المصلوب. وقال ابن عدي: لم يكن بالكوفة ألعن من المغيرة بن سعيد فيما يروى عنه من الزور عن علي عليه السلام، هو دائم الكذب على أهل البيت، ولا أعرف له حديثًا مسندًا، حكى ابن حزم مذهبه ولعنه. قتله خالد بن عبد الله القسري في حدود العشرين ومائة (١).

وعن هشام بن الحكم أنه سمع جعفر الصادق عليه السلام يقول: « لا تقبلوا علينا حديثًا إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهدًا من أحاديثنا المتقدمة؛ فإن المغيرة ابن سعيد - لعنه الله - دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا عليه السلام، فإننا إذا حدثنا قلنا: قال الله تعالى، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم » (٢).

وإذا كان أئمة أهل البيت قد حذروا من المغيرة بن سعيد وأمثاله، فإن رواة الحديث من أهل السنة قد علموا حاله وحال أمثاله وحذروا منهم؛ مما يدل على اتفاق أئمة أهل البيت وعلماء أهل السنة في المنهج العقدي والفكري في موقفهم من الغلاة؛ ففي صحيح مسلم قال « لإبراهيم - وهو أحد رواة الحديث - : إياكم والمغيرة بن سعيد وأبا عبد الرحيم فإنهما كذابان » (٣).

وقد تخوّض المغيرة بن سعيد في كتاب الله تعالى، يتأوله وتأويلًا باطنيًا متعسفًا؛ فقلوه

(١) كتاب المجروحين - ابن حبان: (٧٣)، تحقيق محمود إبراهيم زايد وانظر: الذهبي: ميزان الاعتدال (١٦١/٤) دار المعرفة - بيروت، وابن حجر: لسان الميزان (٧٦/٦)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (١٣٩٠هـ).

(٢) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٤٨٩/٢)، المجلسي: بحار الأنوار (٢٥٠/٢).

(٣) صحيح مسلم: مقدمة مسلم (٥٩/١) رقم الحديث (٥٠)، دار المعرفة بيروت (١٤١٥هـ/١٩٩٥)، (٢ط). كما هناك حديث آخر يحلنر من جابر الجعفي وهو راوي الشيعة المعروف: قال جرير: « لقيت جابر بن يزيد الجعفي، فلم أكتب عنه كان يؤمن بالرجعة ». المصدر السابق (٦٠/١)، رقم (٥٢)، وفي حديث آخر عن سفیان: « كان الناس يحملون عن جابر قبل أن يظهر ما أظهر فلما أظهر ما أظهر اتهمه الناس في حديثه وتركه بعض الناس، فقبل له: وما أظهر، قال: الإيمان بالرجعة ». مقدمة صحيح مسلم (٦١/١) رقم الحديث (٥٥)، وكان جابر يقول: « عندي سبعون ألف حديث عن أبي جعفر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كلها ». المصدر السابق رقم (٥٦).

تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠] عند المغيرة: فاطمة، ﴿ وَإِنِّي ذِي الْقُرْبَى ﴾: الحسن والحسين، ﴿ وَيَتَّخِذُ عَنِ الْفَحْشَاءِ ﴾: فلان، ﴿ وَالنُّكْرِ ﴾: فلان « (١) ينتقص من أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، « وسيوجد تأويل هذه الآية بهذه الصورة نفسها عند غلاة الإسماعيلية » (٢).

- بيان بن سمعان:

وكان مع المغيرة بن سعيد في أفكاره، بل وزاد عليها، وقد صلب معه، كان يقول: « يفنى الله كله ويبقى وجهه » تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وكان يرى نفسه المقصود بقوله تعالى: ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٨]!!؟.

وكان بيان يثبت لله تعالى الأعضاء والجوارح، ثم شبه الله بإنسان نوراني ذي جسد، وقرر أن علي بن أبي طالب قد حلّ فيه جزء إلهي واتحد بجسده - وهذه فكرة مسيحية - وأنه كان يعلم الغيب (٣).

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: « كان بيان يكذب على علي بن الحسين عليهما السلام فأذاقه الله حر الحديد. وكان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه الله حر الحديد، وكان محمد بن بشير يكذب على أبي الحسن موسى عليه السلام فأذاقه الله حر الحديد، وكان أبو الخطاب يكذب على أبي عبد الله عليه السلام فأذاقه الله حر الحديد، والذي يكذب علي محمد بن فرات. قال أبو يحيى: وكان محمد بن فرات من الكتاب، فقتله إبراهيم ابن شكلة (٤) » (٥).

- أبو منصور العجلي:

وكذلك ظهر أبو منصور العجلي المصلوب في الكوفة (عام ١٢١ هـ) وهو الملقب

(١) ابن حجر العسقلاني: لسان الميزان (٧٥/٦ - ٧٨) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (ط ٣)،

(١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م)، تحقيق دائرة المعارف الهند.

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٨٢).

(٣) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (ص ١٤٢).

(٤) هو إبراهيم بن المهدي بن المنصور، وشكلة أمه. بويغ له بالخلافة ببغداد، في أيام المأمون، ثم ظفر به المأمون فعفا عنه، وكان أسود حالك اللون، ولم ير في أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لساناً، ولا أجود شعراً (انظر: تاريخ بغداد: ١٤٢/٦).

(٥) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (وهو تهذيب رجال الكشي) (٥٩١/٢) وثبت فيه لعن أبي الخطاب وأتباعه (٥٨٤/٢)، مؤسسة آل البيت قم، وانظر: بحار الأنوار للمجلسي (٢٥٠/٢).

بالكسف وكان يقول: إنه المراد بقول الله ﷻ: ﴿ وَإِنْ رَوَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا ﴾ [الطور: ٤٤]، « وكان لعنه الله يقول: إنه عرج به إلى السماء، وإن الله تعالى مسح رأسه بيده، وقال له: ابني اذهب فبلغ عني » (١) مما يذكرنا بما قاله شاؤول بولس مبدل دين النصارى عندما زعم أن الرب تعالى تجلّى له في طريقه « بينما هو سائر، وقد اقترب من دمشق، إذا نور من السماء قد سطع حوله، فسقط إلى الأرض، وسمع صوتًا يقول له: « شاؤل، شاؤل، لماذا تضطهدني؟ » فقال: « من أنت يا رب؟ » قال: « أنا يسوع الذي أنت تضطهده، ولكن قم فادخل المدينة، فيقال لك ما يجب عليك أن تفعل » (٢).

فالفرق أن أبا منصور حرّف نص الإنجيل، وجعل نفسه عارجًا إلى السماء، « وكان لعنه الله يقول بأن أول من خلق الله تعالى عيسى ابن مريم ﷺ ثم علي بن أبي طالب » (٣) وهذا يدل على تأثير النصرانية فيه، وأخذ يفسر الآيات على طريقة الغنوصيين الباطنية، فأباح « المحرمات من الزنى والخمر والميتة والخنزير والدم وقال: إنما هم أسماء رجال.. » (٤). وهناك ثلاث ملاحظات يجدر ذكرها عند الحديث عن هؤلاء الغلاة والكذابين:

الملاحظة الأولى: اتحاد موقف حكام المسلمين وعلمائهم مع موقف أئمة آل البيت في وجه هؤلاء الزنادقة والكذابين على الأئمة؛ فلقد لاحظنا أن علماء المسلمين لم يقصّروا في بيان كذب أولئك الدجالين على الأئمة، وأفتوا بزندقتههم، كما أن حكام المسلمين من أهل السنة لم يتركوا هؤلاء الزنادقة يرتعون ويفسدون بل كانوا على موقف الصرامة معهم دفاعًا عن العقيدة؛ فكل من كذب على الأئمة ذاق حرّ الحديد أي السجن، أما سمعان والمغيرة وأبو الخطاب فكان مصيرهم الموت جزاء وفاقًا. فلا بد للعقيدة من علماء يدافعون عنها، ويبيّنون زيف الزائفين، ولا بد لها من حكام مخلصين يذودون عن التوحيد ويحمون بسطاء الأمة من الكاذبين والمدجلين، وبهذا نعلم أن موقف أئمة أهل البيت جاء مع مواقف علماء المسلمين وحكام المسلمين على جادة واحدة بيّنة واضحة.

الملاحظة الثانية: توالد فرق الغالية واستمرار ظهورها:

إن حركة التدجيل هذه لم تنته، وسيبقى الزمن شاهدًا على وجود دجالين يستغلون

(١) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٤١/٤).

(٢) الكتاب المقدس - مجمع الكنائس الشرقية أعمال الرسل (ص ٣٩٦)، الفقرات (٣ - ٦).

(٣) ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٤١/٤).

(٤) المصدر السابق نفسه.

بعض عقائد المسلمين للوصول إلى أهدافهم، فكما خرج أبو الخطاب وأصحابه في عهد الباقر والصادق - رحمهما الله تعالى - فقد خرج من بعدهم محمد بن نصير الفهري النميري والحسن بن محمد بن بابا القمي من عباءة التشيع أيضاً؛ وذلك في زمن الإمام الحادي عشر علي بن محمد أبي الحسن العسكري.

أما محمد بن نصير الفهري النميري فكان يدعي ربويّة العسكري، وأنه أرسله للناس نبياً رسولاً، وكان يقول بالتناسخ وإباحة المحارم، ويحلل نكاح الرجال بعضهم بعضاً، ويقول: إنه من الفاعل والمفعول به أحد الشهوات والطيبات ^(١)؛! ولذلك قال المجلسي عن أتباعه: « وهم قوم إباحية، تركوا العبادات والشرعيات، واستحلوا المنهيات والمحرمات » ^(٢).

وقد تطورت هذه الفرقة في العصر الحديث، فظهر منها زعيم ادعى الألوهية، وما يزال له أتباع اليوم ينتمون إليه، ويعبدون أولاده من بعده. وفي هذا العصر عصر النور والدعوة يرجع كثير منهم إلى الحق والصواب، ويتخلى عن تلك المعتقدات الفاسدة، ويؤوب إلى الإسلام الحق. نسأل الله هداية الجميع.

وأما الحسن بن محمد بن بابا القمي فقد ادعى النبوة.

وقد تبرأ الإمام العسكري منهما قائلاً لأحد أتباعه: « أبرأ إلى الله من الفهري والحسن ابن محمد بن بابا القمي، فابراً منهما؛ فإني محدّرك وجميع مواليّ، وإني ألعنهما، عليهما لعنة الله، مُستأكلين يأكلان بنا الناس، فتّانين مؤذنين آذاهما الله وأركسهما في الفتنة ركساً. يزعم ابن بابا أنني بعثته نبياً وأنه باب، ويله! لعنه الله، سخر منه الشيطان فأغواه، فلعن الله مَنْ قَبِلَ منه ذلك، يا محمد، إن قدرت أن تشدخ رأسه بحجر فافعل؛ فإنه قد آذاني آذاه الله في الدنيا والآخرة » ^(٣).

- وكذلك خرجت الشيخية ^(٤) الغالية من داخل المذهب الشيعي، وقد خصّصت

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٣١٧/٥٢، ٣١٨)، الطوسي: رجال الطوسي (ص ٣٩٢)، وانظر في ذم هذه الفرقة: ابن شهر آشوب: مناقب آل أبي طالب (١/٢٢٨)، المطبعة الحيدرية النجف (١٣٧٦ هـ).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٢٨٥/٥٢).

(٣) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٨٠٥/٢)، الثوري الطبرسي: خاتمة مستدرك الوسائل (١٤١/٤)، مؤسسة آل البيت، قم، (١٤١٦ هـ).

(٤) هو مذهب من الاثني عشرية يخص أتباعه الإمام الاثني عشر المستور وباقي الأئمة بالقداسة الزائدة، وهم من الغلاة، جاء في مجلة المنار للشيخ محمد رشيد رضا: « هم أتباع الشيخ أحمد الإحسائي؛ وهم كريم خان الفاجار والسيد كاظم الرشتي، وهم من غلاة الشيعة، ابتدعوا فيها فلسفة جديدة خيالية كانت المنشأ لما هو شر =

الإمام المهدي المنتظر المستور بهالة زائدة من التقديس^(١)، وقد استغلت البائية والبهائية هذا التقديس للمهدي المنتظر، فظهرتا إلى الوجود.

فقد نسبت البائية إلى الميرزا علي محمد الذي أطلق على نفسه الباب؛ فسمي أتباعه البائية، وقد ولد ميرزا علي محمد في مدينة شيراز من أبوين منتسبين للتشيع عام (١٢٣٥هـ / ١٨١٩ م)، وزار الأماكن المقدسة عند الشيعة في العراق، واستقر بـكربلاء، وتعلم في مدرسة الشيخية على يد الشيخ كاظم الرشتي الذي كان ييشر بقرب ظهور المهدي، وبعد موت الرشتي، استغل ميرزا علي محمد بشارته أستاذه فادعى أنه الباب - وهو مصطلح إسماعيلي أطلقوه على الشيخ الأساس الذي يعلم الناس أسرار الدعوة - ثم أطلق ميرزا على نفسه لقب المهدي ذاته، ثم ادعى النبوة، ونسخ الشريعة المحمدية، وأنكر اليوم الآخر، ونادى بالإباحية والحلول، وقد مال إلى دعوته بسطاء العقول. وقد حكم العلماء بكفره؛ ولذا أعدمه شاه إيران نصّار الدين عام (١٢٦٥هـ / ١٨٤٩ م)^(٢).

وبعد وفاته خلفه الميرزا حسين الملقب بالبهاء صاحب دعوة البهائية، والذي ادعى الوحي والوحدة مع الله تعالى، ثم ادعى الإلهية، وقد جاءت البهائية لتطور فكر البائية وتوسع دائرة توسعها في العالم^(٣).

إن توالي هؤلاء الدجالين الكذابين جاء كما أخبر النبي ﷺ؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه كان عنده رجل من أهل الكوفة « فجعل يحدثه عن المختار فقال ابن عمر: إن كان كما تقول؛ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إن بين يدي الساعة ثلاثين دجالاً كذاباً »^(٤).

الملاحظة الثالثة: أن كل دعوة ضالة مضلة مهما سخفت آراؤها لا بد أن يكون لها أتباع وشيعة، رغم بطلانها ووضوح فسادها!، ويتدخل في هذا عوامل متعددة، ليس هذا مكان بيانها، وإن المرء ليستغرب من ظهور آراء فاسدة إلى درجة الإسفاف كآراء

= منها وهو فتنه البائية والبهائية، والأصل لذلك كله ضلالات قدماء الباطنية». مجلة المنار مجلد (١٣)، (٢١٨/٣)، عدد فبراير (١٩١٤ م) ربيع الأول (١٣٣٢هـ).

(١) انظر: العقيدة والشريعة جولد تسيهر (ص ٢٧٠).

(٢) د. فتحي محمد الزغبى: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٢٦٩)، وانظر: أحمد صبحي: نظرية الإمامة (ص ٤٣٥)، الشيخ محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية (ص ٢١١).

(٣) انظر: د. فتحي محمد الزغبى: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (ص ٢٧٠ - ٢٩٧).

(٤) مسند الإمام أحمد، مسند عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: (١١٧/٢)، دار صادر - بيروت.

التجسيم والحلول، ويأخذه العجب أكثر أن تجد هذه الدعوات بعض الأتباع السذج - على ندرتهم - في المجتمع المسلم في قرونه الأولى. ولكن لا مغير لقضاء الله تعالى.

والسؤال الذي يبحث عن جواب في هذا المضمار:

هل أثر فكر السبئية والمختارية وغيرهم من الغلاة في فكر الاثني عشرية، أم هل تخلص الفكر الشيعي في أقسامه المختلفة من أفكار هؤلاء الغلاة؟

هذا ما ستجيب عنه تنمة الكتاب.

المبحث الثالث

رجال الشيعة الأوائل بين الغلو والاعتدال



ما دمنا نتحدث في الإطار التاريخي للتشيع؛ فلا بد لنا من الاطلاع على أهم الشخصيات التي قام عليها المذهب؛ والتي أثرت في نشوئه وتطوره حتى وصل إلى ما وصل إليه لدى الشيعة الاثني عشرية. وليس الحديث هنا عن الأئمة الاثني عشر الذين يدعي الشيعة عصمتهم؛ فهؤلاء في الفكر الإمامي ليسوا محل نقاش، إنهم أسس المذهب، وما يصح عنهم فهو وحي يجب اتباعه لدى الاثني عشرية^(١). ولكن الحديث عن دونهم من شخصيات المؤسسين للفكر الشيعي، والمؤرخين الناقلين للوقائع التاريخية التي تأثرت بها عقائد الشيعة عبر الزمن.

ومن أجل ذلك يتعرض البحث لنماذج شيعية كان لها أثر بالغ في التشيع، سواء في إطار التأصيل العقدي للمذهب - وهذا يتعلق بأشهر متكلمي ومفكري الشيعة الأوائل أو في إطار الرواية للوقائع التاريخية - وهو يتعلق برواة الشيعة ومحدثيهم. هذه النماذج التي كان لظهورها في ساحة التاريخ الأثر الفعال في ظهور فكر الشيعة وتطوره.

أشهر متكلمي الشيعة:

ومما لا خلاف فيه أن عهد جعفر الصادق يمثل العصر الذهبي العلمي لتوطيد المذهب الاثني عشري، ويشهد لهذا استقرار روايات كتب الحديث الشيعية؛ حيث مدار أغلبها على أقوال الإمام جعفر الصادق أبي عبد الله عليه السلام، وقد كان حوله تلامذة نقلت عنهم كتب الحديث الشيعية آراءً وأفكارًا، كما نقلت عنهم أقوال أئمتهم.

فهشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمي وشيطان الطاق^(٢) - هؤلاء هم أشهر متكلمي الشيعة المنسوبين إلى الإمام جعفر الصادق، قال

(١) كما سنرى في الفصل القادم: مصادر تلقي العقيدة.

(٢) وصاحب الطاق، ومؤمن الطاق هي ألقاب لشخص واحد يسميه أهل السنة: شيطان الطاق، والأحول، وهو محمد بن علي بن النعمان أو جعفر الأحول (ت ١٦٠ هـ) قال ابن حجر: « قيل: إن هشام بن الحكم شيخ الرافضة لما بلغه أنهم لقبوه شيطان الطاق سماه هو مؤمن الطاق ». ومما ذكر ابن حزم عن الجاحظ قال: =

الرازي: « هؤلاء رؤساء علماء الروافض »^(١).

أما هشام بن الحكم فهو الشيباني بالولاء الكوفي، أبو محمد، متكلم مناظر، وشيخ الإمامية في وقته، ولد بالكوفة ونشأ بواسط، وسكن بغداد، وانقطع إلى يحيى بن خالد البرمكي. « وكان عارفاً بصناعة الكلام، له فيه مصنفات كثيرة، وكان من أصحاب جعفر بن محمد الصادق، ومات بعد نكبة البرامكة بمديدة مستتراً، ويقال: عاش إلى خلافة المأمون »^(٢)، « توفي حوالي عام (٢٠٠ هـ)، وهو أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، وله مؤلفات عديدة تناول فيها الكثير من المواضيع الكلامية، وكثير منها يردّ على أصحاب المقالات والفرق »^(٣)، ويردّ في بعضها على أقرانه من الشيعة كهشام الجواليقي. ويقول عبد الله نعمة - من علماء الشيعة المعاصرين - : « إن هشام بن سالم الجواليقي يلتقي مع هشام بن الحكم في كثير من الآراء، ويكونان معاً مدرسة خاصة عرفت بالهشامية »^(٤)، وقد ذكر الإسفراييني أن « هشام بن الحكم قد كان يوافق هشاماً الجواليقي في كثير من بدعه »^(٥). وهذا لا يعني أنهما شيء واحد؛ فقد ثبت أن هشام بن الحكم اختلف مع الجواليقي في بعض المسائل، فألف كتاباً أسماه: (الرد على هشام الجواليقي)، وكذلك اختلف مع رفيق دربه في المذهب شيطان الطاق فألف كتاباً أسماه (الرد على شيطان الطاق)^(٦).

= « أخبرني أبو إسحاق إبراهيم النظام وبشر بن خالد أنهما قالاً لجعفر الرافضي المعروف بشيطان الطاق: ويحك! أما استحييت من الله أن تقول في كتابك في الإمامة: إن الله تعالى لم يقل قط في القرآن: ﴿ تَأْتِيكُ أَتْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْفَكَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠: ١٩]. قال: فضحك والله شيطان الطاق طويلاً حتى كآتاً نحن الذين أذنبنا » الفصل (٣٩/٥)، وانظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٥٣/١).

(١) الرازي (محمد بن عمر بن الحسين الرازي أبو عبد الله): اعتقادات المسلمين والمشركين (٦٤/١)، دار الكتب العلمية - بيروت (١٤٠٢ هـ)، تحقيق: علي سامي النشار.

(٢) انظر: ابن حجر: لسان الميزان (١٩٤/٦)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت الطبعة الثالثة، (١٤٠٦ هـ، ١٩٨٦ م)، الزركلي: الأعلام (٨٥/٨).

(٣) عبد الله نعمة: فلاسفة الإسلام (ص ٤٥).

(٤) عبد الله نعمة: فلاسفة الشيعة (ص ٤٥). وانظر الشهرستاني الملل والنحل (١٠٧/١).

(٥) طاهر بن محمد الإسفراييني: تبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، الناشر: عالم الكتب - بيروت الطبعة الأولى (١٩٨٣ م) تحقيق: كمال يوسف الحوت.

(٦) انظر: الزركلي: الأعلام (٨٥/٨).

ولأجل ذلك تشظت آراء هؤلاء الأربعة؛ حتى صار كل واحد منهم يشكل فرقة خاصة به، بعيدة كل البعد عن منهج أئمة أهل البيت، فصار من فرق الشيعة: «الحكمية: وهم أصحاب هشام بن الحكم... الجواليقية: أتباع هشام بن سالم الجواليقي الرافضي... اليونسية: أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي... الشيطانية أتباع شيطان الطاق!»^(١).
هشام بن الحكم: نشأته وعلومه الفلسفية:

وإذا وضعنا مجهر البحث على نشأة وعلوم أئمة من نماذج هؤلاء التلاميذ، وهو أشهرهم، حتى عدّه عبد الله نعمة من فلاسفة الإسلام: هشام بن الحكم - نلاحظ أن هشام قد نشأ في بيت من بيوت الثنوية^(٢) الملحدة الديصانية^(٣). كما جاء في رجال الكشي: «هشام بن الحكم من غلمان أبي شاکر، وأبو شاکر زندیق»^(٤).

وقد مر فكر هشام بعدة مراحل؛ إذ «نشأ هشام بن الحكم في الكوفة أولاً جهميّاً، فتابع آراء جهم بن صفوان... ثم قابل علي بن إسماعيل بن شعيب بن ميثم التمار (ت ١٧٩هـ)... سكن البصرة، وكان من كبار متكلمي الروافض - وكان مجسماً أيضاً كما سيأتي - وأول من كتب منهم كتباً، وقد ناظر أبا الهذيل عند أمير البصرة، ثم قابله هشام بن الحكم، وحضر مجالسه، وقد كان علي بن إسماعيل أول من وجّه هشاماً إلى المذهب الإمامي، وسيسير على نهجه فيما بعد ويناقش المعتزلة نقاشاً عنيفاً»^(٥).

«فيبدو من ثبت كتبه أنه درس كل ما في عصره من فلسفات ومذاهب، وأنه تعمق فيها أكثر من جميع معاصريه، فله كتب في الرد على الزنادقة والثنوية، كما أن له كتاباً

(١) الرازي: اعتقادات المسلمين والمشرّكين (١/٦٣ - ٦٥)، وانظر: الإسفراييني: التبصير في الدين (ص ٤٠).
 (٢) هم الذين اتخذوا إلهين اثنين، فقالوا: أحدهما: خالق الخير، والآخر: خالق الشر. وعبر بعضهم عن خالق الخير بـ «يزدان» وعن خالق الشر بـ «أهرمن». وبعضهم عن خالق الخير بـ «النور» وعن خالق الشر بـ «الظلمة». وهؤلاء الثنوية خمسة أصناف: مانوية، وديصانية، ومرفقونية، وماهانية، ومجوس.

(٣) وهم طائفة من الثنوية، قال الشهرستاني: «الديصانية: أصحاب ديسان. أثبتوا أصلين: نوراً وظلاماً، فالنور: يفعل الخير قصداً واختياراً، والظلام: يفعل الشر طبعاً واضطراراً». وذكر أن ديسان أقدم من ماني، وأن ماني أخذ منه مذهبه. الملل والنحل (١/٢٣٠ - ٢٣٢)، والتبصرة للنسفي (١/١٠٠).

(٤) رجال الكشي (ص ٢٧٨).

(٥) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢/١٧١). وانظر: المسعودي: حيث ذكر نقاشات أبي الهذيل مع هشام وقال: «قد كان أبو الهذيل هذا اجتمع مع هشام بن الحكم الكوفي الحراري، وكان هشام شيخ المجسمة والرافضة في وقته ومن وافقه على مذهبه... [ولكن] أبا الهذيل يذهب إلى نفي التجسيم ورفع التشبيه، وإلى ضد قول هشام في التوحيد والإمامة».

في الرد على أصحاب الطبائع، ومن المحتمل أن تكون كتب أرسطوطاليس قد وصلته... وأنه بهر الإمام جعفر الصادق بما لديه من معرفة واسعة، وأنه عاصر حركة الترجمة التي بدأها المنصور ورعاها الرشيد، ثم بلغت أوجها لدى المأمون، وقد كان منقطعاً إلى يحيى ابن خالد البرمكي، والبرامكة اعتنوا بالعلم القديم وساعدوا على نقله «^(١)»، والبرامكة نسبوا إلى الزندقة بسبب ذلك - على حد قول ابن قتيبة - : « البرامكة كانوا يُرمون بالزندقة إلا من عصم الله تعالى منهم، وفيهم قال الأصمعي:

إذا ذكر الشرك في مجلس أضاءت وجوه بني برمك
وإن تليت عندهم آية أتوا بالأحاديث عن مزدك «^(٢)

وهذه نصوص من كتب الحديث الشيعية تثبت ما كان عليه هذا الرجل من اطلاع فلسفي: عن هشام ابن الحكم قال: « الأشياء كلها لا تدرك إلا بأمرين بالحواس والقلب، والحواس إدراكها على ثلاثة معان: إدراكاً بالمدخلية وإدراكاً بالماسية وإدراكاً بلا مدخلية ولا ماسية... وأما الإدراك بلا ماسية ولا مدخلية فالبصر فإنه يدرك الأشياء بلا ماسية ولا مدخلية في حيز غيره ولا في حيزه، وإدراك البصر له سبيلٌ وسببٌ فسبيله الهواء وسببه الضياء، فإذا كان السبيل متصلاً بينه وبين المرئي والسبب قائم أدرك ما يلاقي من الألوان والأشخاص، فإذا حمل البصر على ما لا سبيل له فيه رجع راجعاً فحكى ما وراءه، كالتأظر في المرآة لا ينفذ بصره في المرآة، فإذا لم يكن له سبيلٌ رجع راجعاً يحكي ما وراءه، وكذلك التأظر في الماء الصافي يرجع راجعاً فيحكي ما وراءه؛ إذ لا سبيل له في إنفاذ بصره، فأما القلب فإنه سلطانة على الهواء، فهو يدرك جميع ما في الهواء ويتوهمه، فإذا حمل القلب على ما ليس في الهواء موجوداً رجع راجعاً فحكى ما في الهواء. فلا ينبغي للعاقل أن يحمل قلبه على ما ليس موجوداً في الهواء من أمر التوحيد جلّ الله وعزّ، فإنه إن فعل ذلك لم يتوهم إلا ما في الهواء موجوداً كما قلنا في أمر البصر، تعالى الله أن يشبهه خلقه «^(٣).

فلاحظ من هذا النص ما كان عليه هشام من معرفة بالفلسفة ومصطلحاتها، وأنه أراد الاستفادة منها في قضية التوحيد وتنزيه الله تعالى، كما في هذه الرواية على الأقل.

(١) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (١٧٠/٢).

(٢) ابن قتيبة: المعارف (ص ٣٨٢)، وقد نسبه له عباس القمي: الكنى والألقاب (٢٧٨/١).

(٣) أصول الكافي (١٥٣/١)، كتاب التوحيد باب في قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وتذكر إحدى الروايات اللحظة الأولى من لقاء هشام بالإمام جعفر الصادق، وأنه وسّع له في حلقة رغم صغر سنه: « فورد هشام بن الحكم وهو أول ما اختطت لحيته وليس فينا إلا من هو أكبر سنًا منه، قال: فوسّع له أبو عبد الله عليه السلام وقال: ناصرنا بقلبه ولسانه ويده » (١).

وفي أصول الكافي أيضًا أن جعفرًا الصادق أو كل تعليم الزنديق الذي أسلم على يديه إلى هشام: « يا هشام بن الحكم! خذه إليك وعلمه، فعلمه هشام؛ فكان معلّم أهل الشام وأهل مصر الإيمان، وحسنت طهارته » (٢).

وتذكر إحدى الروايات أن الإمام جعفرًا شجع هشامًا على جدال المخالفين، ودعا له بالثبوت:

عن هشام بن الحكم أنه سأل أبا عبد الله عليه السلام عن أسماء الله واشتقاقها... (ثم قال له:) « فهمت يا هشام فهمًا تدفع به وتناضل به أعداءنا والمتخذين مع الله جلّ وعزّ غيره؟ قلت: نعم. قال: فقال: ففعلك الله به وثبتك يا هشام! قال هشام: فوالله! ما قهرني أحد في التوحيد حتى قمت مقامي هذا » (٣).

وقد ثبت في روايات الشيعة أن هشامًا كان يناقش ويجادل الملاحدة، ومنهم عبد الله الديصاني الملحد الذي نشأ هشام في كنفه (٤).

عن هشام بن الحكم قال: قال أبو شاكر الديصاني: « إنّ في القرآن آية هي قولنا. قلت: ما هي؟ فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ .. ﴾ [الزخرف: ٨٤]. فلم أدر بما أجيبه فحججت فخبّرت أبا عبد الله عليه السلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث، إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك بالكوفة؟ فإنه يقول: فلاّن. فقل له: ما اسمك بالبصرة؟ فإنه يقول فلاّن: فقل: كذلك الله ربنا في السماء إله، وفي الأرض إله، وفي البحار إله، وفي القفار إله، وفي كلّ مكان إله. قال فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته فقال: هذه نقلت من الحجاز » (٥).

وأنه كان يناقش المعتزلة كعمرو بن عبيد والعلاف، فقد ذكر الشهرستاني في سياق

(١) أصول الكافي (٢٢٥/١)، كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة..

(٢) أصول الكافي (١٣٠/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٣) أصول الكافي (١٤٢/١)، كتاب التوحيد باب المعبود.

(٤) أصول الكافي (١٣٥/١)..

(٥) أصول الكافي (١٣٤/١)، كتاب التوحيد باب في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾

حديثه عن أبي الهذيل العلاف، شيخ المعتزلة: «... وجرت بينه وبين هشام بن الحكم مناظرات في أحكام التشبيه» (١).

وتؤكد روايات الكافي: لقاءات هشام بالمعتزلة ومناقشاته لهم:

فعن يونس بن يعقوب قال: كان عند أبي عبد الله عليه السلام جماعة من أصحابه منهم حمران ابن أعين ومحمد بن التعمان وهشام بن سالم والطيار، وجماعة فيهم هشام بن الحكم وهو شاب، فقال أبو عبد الله عليه السلام: «يا هشام، ألا تخبرني كيف صنعت بعمر بن عبيد وكيف سألته؟... قال هشام: بلغني ما كان فيه عمرو بن عبيد وجلوسه في مسجد البصرة، فعظم ذلك عليّ، فخرجت إليه ودخلت البصرة يوم الجمعة، فأتيت مسجد البصرة فإذا أنا بحلقة كبيرة فيها عمرو بن عبيد وعليه شملة سوداء متزراً بها من صوفٍ وشملة مرتدياً بها، والناس يسألونه، فاستفرجت الناس فأفرجوا لي، ثم قعدت في آخر القوم على ركبتي ثم قلت: أيها العالم، إنني رجلٌ غريبٌ تأذن لي في مسألة؟... فقلت له: يا أبا مروان! فالله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً (وهو القلب) يصحح لها الصحيح ويتيقن به ما شك فيه، ويترك هذا الخلق كلهم في حيرتهم وشكهم واختلافهم لا يقيم لهم إماماً يردون إليه شكهم وحيرتهم، ويقيم لك إماماً لجوارحك ترد إليه حيرتك وشكك؟! قال: فسكت ولم يقل لي شيئاً، ثم التفت إليّ فقال لي: أنت هشام بن الحكم؟ فقلت لا: قال: أمن جلسائه؟ قلت لا. قال فمن أين أنت؟ قال: قلت: من أهل الكوفة، قال: فأنت إذاً هو، ثم ضممني إليه وأقعديني في مجلسه وزال عن مجلسه، وما نطق حتى قمت. قال: فضحك أبو عبد الله عليه السلام وقال: يا هشام، من علمك هذا؟ قلت: شيء أخذته منك وألفته. فقال: هذا والله مكتوبٌ في صحف إبراهيم وموسى» (٢).

وثبت في أصول الكافي أيضاً مديح الإمام الصادق لهشام بقوله: «يا هشام، لا تكاد تقع تلوي رجليك إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم الناس، فأتق الزلّة. والشفاعة من ورائها إن شاء الله» (٣).

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (٢٠/١) دار المعرفة - بيروت (١٤٠٤هـ). وذكر ابن حجر العسقلاني أن العلاف غلب هشاماً في تلك المناظرة. انظر: لسان الميزان (٤١٣/٥)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت. وتنقل كتب الفرق - كالمقالات للأشعري - أقوالاً كثيرة منكرة ينقلها العلاف عن هشام، وقد ناظره، وكذلك على لسان الجاحظ. انظر مقالات الإسلاميين (ص ٣٢، ٣٣ - ٤١٩ - ٤٩١). (ط ٣)، (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م)، دائرة المعارف النظامية - الهند.

(٢) أصول الكافي (٢٢٣/١، ٢٢٤) كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة.

(٣) أصول الكافي (٢٢٥/١) كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة.

ثبوت القول بالتجسيم عن هشام ورجال الشيعة الأوائل:

ورغم ما في تلك الروايات السابقة من بيان فضل لهشام وأنه كان على خط الأئمة، فإن علماء الفرق من أهل السنة يرون أنه وصف الرب ﷻ بالجسمية، حتى صار القول بالجسمية سمة رجال الشيعة الأوائل^(١). مع أن فكرة التجسيم غريبة عن المجتمع المسلم، فهي فكرة دخيلة وأجنبية عنه، « وإنما أخذوا تشبيههم من اليهود حين نسبوا إليه الولد وقالوا: عزيز ابن الله. وأثبتوا له المكان والحد والنهاية والمحيء والذهاب، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً »^(٢).

والمطالع للتوراة الحالية يلاحظ كثرة التجسيم، فالرب يتمشى في الجنة كما في أول سفر التكوين^(٣)، ويتشكل في شكل رجل يصارع يعقوب... إلخ^(٤).

إن علماء الملل من أهل السنة قد أكدوا أن مذاهب الجسمة والمشبهة انطلقت من أفواه من ادعى اتباع الأئمة، وأنهم أخذوا ذلك عن اليهود؛ فقد قال الرازي:

« الحكمية: وهم أصحاب هشام بن الحكم، وكان يزعم أن الله تعالى جسم، وغير مذهبه في سنة واحدة عدة تغيرات، فزعم تارة أن الله تعالى كالسبيكة الصافية، وزعم مرة أخرى أنه كالشمع الذي من أي جانب نظرت إليه كان ذلك الجانب وجهه... الثانية الجوالقية: أتباع هشام بن سالم الجوالقي الرافضي، وهم يزعمون أنه تعالى ليس بجسم لكن صورته صورة آدمي، وهو مركب من اليد والرجل والعين، لكن أعضائه ليست من لحم ولا دم.

الثالثة اليونسية: أتباع يونس بن عبد الرحمن القمي، وهم يزعمون أن النصف الأعلى من الله مجوف وأن النصف الأدنى منه مصمت^(٥).

الرابعة الشيطانية أتباع شيطان الطاق. وهم يزعمون أن البارئ تعالى مستقر على

(١) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١٥٤/١ - ١٥٦). ومقالات الأشعري (١٠٦/١ - ١٠٩).

(٢) طاهر بن محمد الإسفراييني (ت ٤٧١ هـ): التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين (ص ٤١)، (ط ١)، عالم الكتب بيروت (١٩٨٣ م)، تحقيق كمال يوسف الحوت.

(٣) انظر: سفر التكوين الإصحاح (٣)، د. محمد علي البار: الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم (ص ٤٦)، دار القلم - دمشق.

(٤) انظر: سفر التكوين الإصحاح (٢٣/٣٢ - ٣٢)، د. محمد علي البار: الله والأنبياء في التوراة والعهد القديم (ص ٣٠)، دار القلم - دمشق.

(٥) المصمت ما لا جوف له. انظر: لسان العرب (٥٤/٢)، مادة (ص م ت).

العرش والملائكة يحملون العرش، وهم وإن كانوا ضعفاء بالنسبة إلى الله تعالى، لكن الضعيف قد يحمل القوي، كرجل الديك التي تحمل مع دفتها جثة الديك»! (١).

والسؤال المهم: هل خرج كلام علماء الملل من أهل السنة عما أثبتته روايات الشيعة؟ إذا كان كتاب الشيعة يؤكدون على روايات المديح لبعض رجال الشيعة؛ فإن هناك روايات شيعية يتجاهلونها تؤكد أن رجال الشيعة الأوائل كانوا مجسمة مشبهة، وأن الأئمة نفوا القول بالتشبيه والتجسيم المستشري في فكر بعض تلامذتهم وأتباعهم (٢):

فعن إبراهيم بن محمد الخزاز ومحمد بن الحسين قالا: «دخلنا على أبي الحسن الرضا عليه السلام فحكينا له أنّ محمداً ﷺ رأى ربه في صورة الشاب الموفق في سنّ أبناء ثلاثين سنة، وقلنا: إنّ هشام بن سالم وصاحب الطاق والميثمي (٣) يقولون: إنّ أجوف إلى الشرة، والبقية صمد. فخرّ ساجداً لله ثم قال: سبحانك ما عرفوك ولا وحدوك، فمن أجل ذلك وصفوك سبحانك، لو عرفوك لوصفوك بما وصفت به نفسك سبحانك» (٤).

ولكن مفكري الشيعة يرفضون هذه الروايات، فيقولون عن هشام الجواليقي: «هشام هذا جليل القدر بريء كهشام بن الحكم عن مثل هذا القول الشنيع في حقه تعالى، والظاهر أن نسبته إليهما من مدسوسات أعداء مذهب أهل البيت (ع) للتشنيع على أصحاب الأئمة بغية الإيقاع بهم عند السلاطين. والحديث مرسل» (٥).

ولكن المسألة ليست مرتبطة برواية واحدة؛ فالروايات التي نسبت التجسيم إلى رجال الشيعة ليست نادرة، بل هناك عدة روايات تقارب العشرين في الكافي وحده، كثير منها أوردت ذكر الهشامين في قائمة المجسمة، فإنكار هذه الروايات كلها أمر غير مسوّغ، ثم إن القول: إن «نسبته - أي التجسيم - إليهما من مدسوسات أعداء مذهب أهل البيت» يوقع الشيعة في مشكلة أعظم، وهي عدم الوثوق بالكافي وهو أهم مرجع في الحديث عند الشيعة!

(١) الرازي: اعتقادات المسلمين والمشرّكين (١/٦٣ - ٦٥)، وانظر: الإسفراييني: التبصير في الدين (ص ٤٠).

(٢) أصول الكافي (١/١٣٨).

(٣) ذكر محقق أصول الكافي (١/١٥٤): أن الظاهر أنه علي بن إسماعيل بن شعيب، أبو الحسن، أول من تكلم على مذهب الإمامية وكان من وجوه المتكلمين كما ذكر في جامع الرواة للأردبيلي (١/٥٥٨).

(٤) أصول الكافي (١/١٥٤)، كتاب التوحيد باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى. ولكن محقق الكتاب ضعف الحديث دون ذكر علته.

(٥) أصول الكافي (١/١٥٧، ١٥٨)، كتاب التوحيد باب النهي عن الجسم والصورة.

ويتهم المعتزلة هشامًا بأنه تأثر بالثنوية الملحدة الديصانية؛ إذ كان صاحبًا لأبي شاعر الديصاني، قال القاضي عبد الجبار: « هشام.. ليس من أهل القبلة، وهو معروف بعداوة الأنبياء، وقد أخذ مع أبي شاعر الديصاني صاحب الديصانية، وكان معروفًا به وبصحبته، فادعى أنه من الشيعة، فخلصه بعض أصحاب المهدي حين ادعى أنه يتشيع لبني هاشم فلم يصلبه مع أبي شاعر » (١).

وعلاقة هشام بأبي شاعر الديصاني ثابتة في نصوص الكافي (٢)، ونظريته في نفي الأعراض وجعلها صفات للأجسام مشابهة لقول بعض الثنوية؛ فقد ذكر « أن من أهل الثنوية من يثبت الأعراض من الحركات والسكون وسائر الأفعال غير الأجسام، وأن منهم من يزعم أنها صفات الأجسام لا هي الأجسام ولا غيرها » (٣). وهذا القول الأخير قريب من قول هشام في الأجسام. وهذه الأفكار كانت قد تنوقلت في المجتمع المسلم زمن هشام (٤).

في حين يرى أبو إسحاق الإسفراييني (ت ٤٧١ هـ) أن اليهود هم مصدر أقوال هشام في التشبيه والتجسيم، وقد أشربوا العجل، فالتجسيم في اليهود طباع، يقول أبو إسحاق: « أما الهشامية فإنهم أفصحوا عن التشبيه... وإنما أخذوا تشبيهم من اليهود » (٥).

وتنقل بعض مصادر الملل أن هشامًا قد تهادى في القول بالجسمية؛ فقد ذكر ابن حزم وغيره عن هشام أنه قال في « مناظرته لأبي الهذيل العلاف أن ربه سبعة أشبار بشبر نفسه. وهذا كفر صحيح » (٦). ومن المحتمل أن يكون هذا القول من وضع المعتزلة خصوم هشام (٧)، ولكن مما لا شك فيه أن هشامًا قد أثر « في معاصريه من متكلمي الإمامية، فسادت النزعة التجسيمية كتاباتهم؛ فهذا هو هشام بن سالم الجواليقي ومن

(١) تثبيت دلائل النبوة (ص ٢٢٥).

(٢) أصول الكافي (١/١٣٤)، كتاب التوحيد باب في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ [الزخرف: ٨٤].

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٣٤٩) وقد نقل هذا القول عن أبي عيسى الوراق.

(٤) د.علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٨٩).

(٥) طاهر بن محمد الإسفراييني (ت ٤٧١ هـ): التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن فرق الهالكين

(ص ٤١)، (ط ١)، عالم الكتب بيروت (١٩٨٣ م)، تحقيق كمال يوسف الحوت.

(٦) الفصل في الملل (٤/١٣٩). (٧) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٧٢).

تبعه « يزعمون أن ربهم على صورة الإنسان، وينكرون أن يكون لحمًا ودمًا، ويقولون: هو نور ساطع يتلألأ بياضًا، وأنه ذو حواس خمس كحواس الإنسان، له يد ورجل وأنف وأذن وعين وفم و... أن هشام بن سالم كان يزعم أن لربه وفرة سوداء، وأن ذلك نور أسود »^(١) حتى اضطر الأئمة لإنكار هذه الأقوال المشوهة المنبوذة. ونزهوا الله تعالى بقولهم: « سبحانك ما عرفوك ولا وحدوك؛ فمن أجل ذلك وصفوك، سبحانك، لو عرفوك لوصفوك بما وصفت به نفسك، سبحانك »^(٢).

وعلى كلِّ فهناك روايتان تعبران عن رأي هشام بن الحكم بأن الله تعالى جسم ليس كالأجسام، وهذا ما نقله أهل السنة عن هشام أيضًا، تقول الروايتان:

عن يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: « إنَّ هشام ابن الحكم يقول قولاً عظيماً، إلا أتني أختصر لك منه أحرفاً فزعم أنَّ الله جسمٌ؛ لأنَّ الأشياء شيان: جسمٌ وفعل الجسم، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل ».

وعن الحسن بن عبد الرحمن الحماني قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر عليه السلام: « إنَّ هشام بن الحكم زعم أنَّ الله جسمٌ ليس كمثلته شيءٌ عالمٌ سميعٌ بصيرٌ قادرٌ متكلمٌ ناطقٌ، والكلام والقدرة والعلم يجري مجرى واحدٍ ليس شيءٌ منها »^(٣).

ولذلك فإن المجلسي دافع عن هشام بأنه « أخطأ في إطلاق لفظ الجسم عليه تعالى، ونفى عنه صفات الأجسام كلها، ويحتمل أن يكون مراده أنه لا يشبهه شيء من الأجسام؛ بل هو نوع مابين لسائر أنواع الأجسام »^(٤).

وهو ما بينه عنه الأشعري - ثم ابن حزم - من قبل، قال الأشعري: « قال هشام ابن الحكم: معنى الجسم أنه موجود، وكان يقول: إنما أريد بقولي جسم أنه موجود، وأنه شيء، وأنه قائم بنفسه »^(٥)، فهل « المسألة ستنتهي إلى بحث لغوي »^(٦)؟

(١) الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٣٤)، الفرق بين الفرق (ص ٤٨)، ابن تيمية: منهاج السنة (٢/٢١٨).

(٢) أصول الكافي (١/١٥٤)، كتاب التوحيد باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى. ولكن محقق الكتاب ضعف الحديث دون ذكر علته.

(٣) أصول الكافي (١/١٥٨)، كتاب التوحيد باب النهي عن الجسم والصورة.

(٤) مرآة العقول (٨/٢).

(٥) الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٣٠٤). دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق هلموت ريتز (ط ٣).

(٦) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٧٦).

ولذلك أكد ابن حزم أن دعوى أن الجسم بمعنى الشيء أو الموجود « دعوى باطلة على اللغة التي يتكلمون بها، وأيضاً فهو باطل؛ لأن الحقيقة أنه لو كان الشيء والجسم بمعنى واحد لكان العرض جسماً؛ لأنه شيء، وهذا باطل يتعين. والحقيقة هي أنه لا فرق بين قولنا: شيء وقولنا: موجود وحق وحقيقة ومثبت؛ فهذه كلها أسماء مترادفة على معنى واحد لا يختلف، وليس منها اسم يقتضي صفة أكثر من أن المسمى بذلك حق ولا مزيد. وأما لفظة جسم فإنها في اللغة عبارة عن الطويل العريض العميق المحتمل للقسمة ذي الجهات الست التي هي فوق وتحت ووراء وأمام ويمين وشمال... فمن أراد أن يوقع شيئاً منها على غير موضوعها في اللغة فهو مجنون... وأما مزج الأشياء وقلبها عن موضوعاتها في اللغة فهذا فعل السوفسطائية الوقحاء الجهال » (١).

وما هذه الأقوال إلا من آثار ولوع هشام بالفلسفة التي تدخل نفسها فيما ليس لها من الحديث عن ذات الله تعالى وصفاته، ناهيك عن التخبط والجهل في مصطلحاتها ومصطلحات اللغة!

لقد خاض هشام ورفاقه في صفات الله تعالى كما خاضوا في ذاته؛ فقد ذكر ابن تيمية قول هشام: إن « إرادة الله حركة وهي معنى، لا هي الله ولا هي غيره، وأنها صفة لله ليست غيره »! (٢). لأنه يرى أن الإرادة صفة والصفة لا توصف، فلا يقال لصفات الله قديمة ولا حادثة، ولذلك يرى هشام أنه محال أن يكون الله لم يزل عالماً بالأشياء بنفسه، وأنه إما يعلمها بعلم لا يوصف بقدم ولا حدوث، ويقترّب هشام في فكرته عن العلم من جهنم بن صفوان، « والمصادر تجمع على أنه كان جهميّاً في مطلع شبابه » (٣).

فأي شيء بينه هشام ومن سار سيره على هذه الطريق في الحديث عن صفات الله تعالى؟ « هذا هو الأصل الذي أصّله هشام بن الحكم وهشام بن سالم الجواليقي وغيرهما من المجسمة الرافضة وغير الرافضة كالكرامية، فقالوا: بل يجوز ثبوت جسم قديم أزلي لا أول لوجوده، وهو خال عن جميع الحوادث، وهؤلاء عندهم الجسم القديم الأزلي يخلو عن الحوادث، وأما الأجسام المخلوقة فلا تخلو عن الحوادث، ويقولون: ما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث، لكن لا يقولون: إن كل جسم فإنه لا يخلو عن الحوادث، ثم إن هؤلاء الجهمية أصحاب هذا الأصل المبتدع احتاجوا أن يلتزموا طرد هذا الأصل فقالوا:

(١) ابن حزم: الفصل (٩٣/٢).

(٢) منهاج السنة (٢٤١/٢).

(٣) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٧٩).

إن الرب لا تقوم به الصفات ولا الأفعال، فإنها أعراض وحوادث، وهذه لا تقوم إلا بجسم، والأجسام محدثة؛ فيلزم أن لا يقوم بالرب علم ولا قدرة ولا كلام ولا مشيئة ولا رحمة ولا رضا ولا غضب، ولا غير ذلك من الصفات، بل جميع ما يوصف به من ذلك فإنما هو مخلوق منفصل عنه» (١).

ولعل الراجح أن هشام بن الحكم وبعض أصحابه كما هو حال التشيع، قد مشى بأطوار متعددة، ابتداءً أولاً بالتجسيم والتشبيه، وربما تأخر تخلّصهم منه فترة من الزمن بسبب بيّتهم التي تربّوا فيها والتي كانت مليئة بآثار هذا التجسيم والتشبيه، فلما عرض ذلك على الإمام الصادق أنكره عليهم إنكاراً شديداً؛ فكان لا بد أن يتخلوا عن هذا القول اتباعاً لأمره، وتأثراً باحتكاكهم بالمعتزلة الذين كانوا بعيدين كل البعد عن التشبيه إلى حد التعطيل.

ولكن مناظرات هشام وإخوانه مع المعتزلة واحتكاكاتهم معهم أورثتهم علة أخرى هي الخوض في صفات الله تعالى؛ حيث سيتجهون بردة فعل عنيفة نحو محاربة التجسيم والتشبيه إلى حد تعطيل الصفات، وإنكار كثير منها، متأثرين بالفكر الفلسفي المعتزلي، فصاروا كالمستجير من الرمضاء بالنار. فهذا زرارة بن أعين أشهر رواة الشيعة حتى روى أن جعفرًا الصادق قال عنه: «لولا زرارة ونظراؤه لاندurst أحاديث أبي» (٢) يرى أن «الله لم يزل غير سميع ولا عليم ولا بصير حتى خلق ذلك لنفسه» (٣) «فصار بعد أن

(١) منهاج السنة النبوية (٣١١/١).

(٢) أعيان الشيعة (١٤٤/٢٧). وهناك نصوص تثبت لعن الأئمة وشمهم لزرارة، ولكن الشيعة يؤولونها على التقية كما ورد في أعيان الشيعة: عن عبد الله بن زرارة، قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: اقرأ على والدك السلام وقل له: إنما أعيبك دفاعاً مني عنك، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا مكانه، لإدخال الأذى فيمن نحبه ونقربه، فيذموننا لمحبتنا له وقربه ودنوه منا، ويرون إدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كل من عبناه نحن وأن يحمد أمره. فإنما أعيبك لأنك رجل اشتهرت بنا وبمليك إلينا، وأنت في ذلك مذموم عند الناس، غير محمود الأثر، لمودتك لنا، وبمليك إلينا، فأحببت أن أعيبك ليحمدوا أمرك في الدين بعيبك ونقصك، ويكون بذلك منا دفع شرهم عنك، يقول الله تعالى: ﴿أَنَا السَّيِّئَةُ فَكَأَن لِّمَسْكِينٍ يَّعْمَلُونَ فِي الْبَيْتِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩] هذا التنزيل من عند الله، لا والله! ما عابها إلا لكي تسلم من الملك ولا تعطب على يديه، ولقد كانت صالحة ليس للعب فيها مساغ، والحمد لله، فافهم المثل يرحمك الله، فإنك والله! أحب الناس إلي، أحب أصحاب أبي إلي حياً وميتاً.

العالمي: أعيان الشيعة (١٩٦/٢٠، ١٩٧).

(٣) الأشعري: مقالات الإسلاميين (ص ٣٦). وقد نقل عنه ابن تيمية: منهاج السنة (٢٣٥/٢).

خلق لنفسه هذه الصفات حيًّا قادرًا عالمًا مريدًا سميعًا بصيرًا!»^(١).

وفي النهاية امتنع من امتنع منهم عن الخوض في الصفات لما لم يجدهم ذلك نفعًا، ولم يجدوا إلى الحق أو الفهم فيه سبيلًا، ويدلُّك على هذا ما نقله علماء الفرق من أهل السنة « أن شيطان الطاق وهشام بن سالم امتنعا في آخر حياتهما عن الخوض في دقيق الكلام وجليله ».

قال الشهرستاني: « وذكر عن هشام بن سالم ومحمد بن النعمان [وهو شيطان الطاق] أنهما أمسكا عن الكلام في الله، ورويا عن يوجبان تصديقه أنه سئل عن قول الله تعالى: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢] قال: « إذا بلغ الكلام إلى الله تعالى فأمسكوا »^(٢) فأمسكا عن القول في الله والتفكر فيه حتى ماتا »^(٣).

وهذا النص وأمثاله يثبت ما كان عليه علماء الملل (كالشهرستاني والأشعري وابن حزم) من أهل السنة من الإنصاف والتجرد في ابتغاء الحق والعدل في الحكم على المخالفين؛ حيث وضحوا مراد هشام من الجسمية، وإن خطَّووه فيها، ثم نقلوا توبة من تاب من قرئائه (كالجواليقي ومؤمن الطاق)، رغم مخالفة هؤلاء لمدرسة أهل السنة العقديّة.

إن الخوض في الله تعالى أمر مذموم من قبل أئمة أهل السنة وأئمة الشيعة، ولا يبعد أن يكون هذا سوء أدب مع الخالق ﷻ الجبار المتكبر؛ فكيف تناله الألسن وتتصوره الأفهام بما لم ينزل في كتابه ولا سنة نبيه ﷺ؟! ولو أن هشامًا وغيره وقفوا عند حدود ما بيّنه الله تعالى في حق ذاته العليّة وصفاته الكريمة لما أصابهم ما أصابهم من انحراف وغلو. فالمنهج الحق في دراسة صفات الله تعالى هو النظر إلى هذه الصفات بآثارها في خلق الله تعالى، والتفكر في عظمة الله تعالى من خلالها، لا محاولة معرفة كنهها.

الخلاف في المنهج بين الأئمة ورجال الشيعة الأوائل:

هل كان منهج هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، وشيطان الطاق، والميثمي، وزرارة وغيرهم من متكلمي ورواة الشيعة الأوائل - وهم تلاميذ الصادق - هو منهج الإمام الصادق الواضح في كتب الاثني عشرية؟

(١) عبد القادر البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٥٢) دار الآفاق الجديدة - بيروت (ط ٢)، (١٩٧٧ م).

(٢) أصول الكافي (١/١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

(٣) الشهرستاني: الملل والنحل (ص ١٨٧).

الجواب: لا، لم يكونوا على منهج الصادق، وقد صرح الإمام الصادق بذلك؛ بل لم يكونوا على منهج واحد - شأن علماء الكلام غالباً -، فهذا هشام بن الحكم يكتب كتاباً في (الرد على هشام بن سالم الجواليقي) (١)، وكذلك في (الرد على شيطان الطاق) (٢).

وقد جاء في أصول الكافي ما يدل على اختلاف مناهج تلامذة جعفر فيما بينهم، واختلاف منهجه ذاته عن مناهجهم:

« التفت أبو عبد الله عليه السلام إلى حمران فقال: تجري الكلام على الأثر فتصيب.

والتفت إلى هشام بن سالم فقال: تريد الأثر ولا تعرفه.

ثم التفت إلى الأحول [شيطان الطاق] فقال: قياس روائح تكسر باطلاً بباطل، إلا أنّ باطلك أظهر.

ثم التفت إلى قيس الماصر فقال: تتكلم وأقرب ما تكون من الخبر عن رسول الله ﷺ أبعد ما تكون منه، تمزج الحق مع الباطل، وقليل الحق يكفي عن كثير الباطل. أنت والأحول ققازان حاذقان.

ثم قال: يا هشام لا تكاد تقع تلوي رجليك، إذا هممت بالأرض طرت، مثلك فليكلّم الناس، فاتق الزلّة والشّفاة من ورائها إن شاء الله » (٣).

فالذي سلم من نقد الإمام في هذه الرواية هو هشام بن الحكم، وقد أسلفنا سابقاً مخالفته لمنهج الأئمة في كثير من آرائه.

وعن أبي مالك الأحمسي - في حديث - : « أن مؤمن الطاق كلم رجلاً من الشراة فقطعه، فقال أبو عبد الله عليه السلام: والله! لقد سررتني، والله ما قلت من الحق حرفاً، قال: ولم؟ قال: لأنك تكلمت على القياس، والقياس ليس من ديني » (٤).

وعن فضيل بن عثمان، قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام في جماعة من أصحابنا فلما أجلسني، قال: ما فعل صاحب الطاق؟ قال: قلت صالح، قال: أما إنه بلغني أنه جدل...، قلت: أجل هو جدل، قال: إما إنه لو شاء طريف من مخاصميه أن يخصمه

(١) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ١٩٩)، الزركلي: الأعلام (٨/٨٥).

(٢) ولم يصل هذا الكتاب ولا غيره من كتب هشام.

(٣) أصول الكافي (١/٢٢٥) كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة..

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة (٥٨/٢٧) رقم (٣٣١٨٩).

فعل، قلت: كيف ذاك؟ فقال: يقول أخبرني عن كلامك هذا من كلام إمامك. فإن قال: نعم، كذب علينا، وإن قال: لا، قال له: كيف تتكلم بكلام لم يتكلم به إمامك؟ ثم قال: « أنتم تتكلمون بكلام إن أنا أقررت به ورضيت به أقمت على الضلالة، وإن برئت منهم شق علي، نحن قليل وعدونا كثير ». قلت: جعلت فداك فأبلغه عنك ذلك؟ قال: أما إنهم قد دخلوا في أمر ما يمنعهم عن الرجوع عنه إلا الحمية، قال: فأبلغت أبا جعفر الأحوال ذاك، فقال: صدق بأبي وأمي، ما يمنعني من الرجوع عنه إلا الحمية ^(١). ومن كان يسير في تفكيره وراء الحمية فلن يعرف الحق أبداً.

تسامح الأئمة وتشدد وتعصب الأتباع:

- زرارة بن أعين (نموذجا):

يعد زرارة بن أعين من أشهر رواة حديث أئمة الاثني عشرية ^(٢)، وكتب الحديث الشيعية زاخرة برواياته عن الإمام الباقر والصادق.

وها هو الإمام الباقر يرمي هذا الراوي المكثر بالتشدد: عن زرارة قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: « ما تقول في أصحاب الأعراف؟ فقلت: ما هم إلا مؤمنون أو كافرون، إن دخلوا الجنة فهم مؤمنون، وإن دخلوا النار فهم كافرون. فقال: والله! ما هم بمؤمنين ولا كافرين، ولو كانوا مؤمنين دخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون، ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون. ولكنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقصرت بهم الأعمال، وإنهم لكما قال الله ﷻ، فقلت: أمن أهل الجنة هم أو من أهل النار؟ فقال: اتركهم حيث تركهم الله. قلت: أفترجئهم؟ قال: نعم أرجئهم كما أرجأهم الله، إن شاء أدخلهم الجنة برحمته وإن شاء ساقهم إلى النار بذنوبهم ولم يظلمهم. فقلت: هل يدخل الجنة كافر؟ قال: لا. قلت: هل يدخل النار إلا كافر؟ قال: فقال: لا إلا أن يشاء الله. يا زرارة إنني أقول: ما شاء الله، وأنت لا تقول: ما شاء الله، أما إنك إن كبرت رجعت وتحللت عنك عقدك ».

وقد ورد في إحدى الروايات ذم زرارة: عن حفص مؤذن علي بن يقطين يكنى أبا محمد، عن أبي بصير، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا

(١) الخروئي: معجم رجال الحديث: (٤٠/١٨ ، ٤١) الطبعة الخامسة (١٤١٣ هـ).

(٢) أصول الكافي (٣٨٩/٢) كتاب الإيمان والكفر باب أصحاب الأعراف قال محققه: الحديث موثق كالصحيح.

إِيْمَنَهُمْ بِظُلْمٍ... ﴿ [الأنعام: ٨٢]؟ قال: أعاذنا الله وإياك يا أبا بصير من ذلك الظلم، ذلك ما ذهب فيه زرارة وأصحابه وأبو حنيفة وأصحابه « (١).

ففي هذه الرواية جعل زرارة مذموماً مع بعض علماء أهل السنة؛ مما يجعل احتمال شتم زرارة للتقية غير وارد؛ لأنه لو كان للتقية لما ذم معه أحد علماء من سيتقي عليهم، وهو الإمام أبو حنيفة. وقد دافع المجلسي عن زرارة وما ورد فيه من هذه الرواية فقال: « وكأنه قال بمذهب باطل ثم رجع عنه » (٢). في حين حكم الخوئي في معجم رجال الحديث على هذه الرواية بالجهالة حيث قال: « حفص المؤذن مجهول »، فكيف يكون مؤذن ابن يقطين مجهولاً؟ وإن مجهل المؤذن فمن يُعرف؟!.

وزرارة هذا كان في تشدده السلوكي والعقدي قد بلغ غاية الأمر، فقد ترك الزواج من المسلمات خوفاً من أن يقع فيما لا يحل له!! عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال قلت له: فما تقول في مناقحة الناس، فإني قد بلغت ما تراه وما تزوجت قط؟.

فقال: وما يمنعك من ذلك؟ فقلت: ما يمنعني إلا أنني أخشى أن لا تحل لي مناقحتهم، فما تأمرني؟...

قلت: وهل تعدو أن تكون مؤمنة أو كافرة؟

فقال: تصوم وتصلّي وتتقي الله ولا تدري ما أمركم؟

فقلت: قد قال الله ﷻ: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَنَكَرَ كَافِرٌ وَمِنكُمْ مُؤْمِنٌ ﴾ [التغابن: ٢]

لا والله! لا يكون أحدٌ من الناس ليس بمؤمنٍ ولا كافرٍ.

قال: فقال أبو جعفر عليه السلام: قول الله أصدق من قولك يا زرارة! أرايت قول الله ﷻ:

﴿ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ﴾ [التوبة: ١٠٢]، فلما قال عسى

فقلت: ما هم إلا مؤمنين أو كافرين.

قال: فقال: ما تقول في قوله ﷻ: ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْمِعِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدِينَ

لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ٩٨] إلى الإيمان؟

فقلت: ما هم إلا مؤمنين أو كافرين.

فقال: والله ما هم بمؤمنين ولا كافرين « (٣).

(١) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٣٥٨/١).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (١٥٢/٦٦).

(٣) أصول الكافي (٣٨٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أصحاب الأعراف، قال محققه: الحديث موثق كالصحيح.

فبين هذا الحديث خلاف زرارة مع إمامه الباقر؛ فهو يرى أن القسمة إما مؤمن أو كافر ولا ثالث لهما؛ ولذلك أعرض عن الزواج خوفاً من أن يقع على (كافرة!!) - مع أنها تصلي وتصوم!! -، أما إمامه فيرى أن القسمة ثلاثية؛ ولذلك يرى صحة الزواج بمن لم يعرف الإمامة ولم يعتقد بالأئمة أساساً، وشتان بين الرايين.

وعن زرارة - أيضاً وهو يتمم الحديث السابق - « قال: قلت في نفسي: شيخ لا علم له بالخصومة. قال: فقال لي: يا زرارة! ما تقول فيمن أقرّ لك بالحكم أتقتله؟ ما تقول في خدمكم وأهلكم أتقتلهم؟ قال: فقلت: أنا والله الذي لا علم لي بالخصومة » (١).

قال المجلسي: « وحاصل كلامه [أي كلام الإمام] الرد عليه بإثبات الوسطة؛ لأن المخالفين في بعض الأحكام في حكم المسلمين... وإن كان يمكن دخول بعض المخالفين كالمستضعفين الجنة، فلما لم يفهم زرارة غرضه عليه السلام وكان يفهم أن الوسطة غير معقولة نبيه عليه السلام بأحوال من أقر له بالحكم أي خدمه... وسائر أهاليه فقال عليه السلام: أتجوز قتلهم؟ ولم لا تقتلهم إن كانوا كفاراً مشركين؟ فتفظن من ذلك بالفرق بينهم وبين سائر الكفار، وعلم أنه إذا جاز الفرق في القتل بينهم وبين سائر الكفار، فيجوز في غير ذلك من الأمور، فاعترف بأنه نفسه لا علم له بالخصومة » (٢).

إن هذه الرواية تظهر لنا تشدد هؤلاء الأتباع، وتؤكد شكوكهم بحصافة أئمتهم. ولست أدري ألا يعتبر ذلك الشك من زرارة في فطانة إمامه مسقطاً للعدالة بل للدين، في ميزان التشيع الذي عد الأئمة أعلم من الأنبياء - كما سيبين البحث -؟ وعن زرارة قال: دخلت أنا وحميران أو أنا وبكير على أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: « إنا نمد المطمار قال: وما المطمار (٣)؟ قلت: الثر، فمن وافقنا من علوي أو غيره توليناه، ومن خالفنا من علوي أو غيره برئنا منه.

فقال لي: يا زرارة قول الله أصدق من قولك، فأين الذين قال الله عليه السلام: ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعِفِينَ

(١) أصول الكافي (٣٦٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر وقال محققه: والحديث حسن كالصحيح. قال المحقق: والظاهر أن المراد بالشيخ الذي أساء زرارة الظن به هو الإمام (ع) .

(٢) مرآة العقول (١١٦/١١) .

(٣) المطمار - بالمهملتين - خيط للبناء يقدر به، وكذا الترم بضم المثناة الفوقية والراء المشددة. قال المحقق: والمعنى أن المقياس الذي نزن به الناس هو ولايتنا لأهل البيت؛ فمن كان على مذهبا فيه أحبيناه وعظمناه ونصرناه، ومن كان على مذهب غيرنا أبغضناه وحقرناه وخذلناه وتبرأنا منه.

مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَالِدِينَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ [النساء: ٩٨]؟ أين المرجون لأمر الله؟ أين الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً؟ أين أصحاب الأعراف؟ أين المؤلفه قلوبهم؟! وزاد حماد في الحديث قال: فارتفع صوت أبي جعفر عليه السلام وصوتي حتى كان يسمعه من على باب الدار» (١).

وهذا الحديث يظهر لنا تسامح الأئمة مع من خالفهم؛ فلم يكفروهم ولم يتبرؤوا منهم، في حين يظهر الحديث تعصّب الأتباع؛ بحيث يسوقون من خالفهم سوقاً واحداً إلى جهنم، يضاهئون قول الخوارج فيمن خالفهم، ويكونون أسوة للتكفيريين في عصرنا، وهم يسرون مع الطغيان العالمي الذي يقول: (من لم يكن معنا فهو علينا). وليس هنالك موقف ثالث.

وسرى أن هؤلاء التلاميذ هم الذين سينقلون روايات أهل البيت، وهم الذين سيصوغون فكر المذهب الاثني عشري؛ مما سيظهر التناقض والتصارع بين منهجين في الفكر الشيعي: فكر الأئمة، وفكر من ادعى أنه من أتباعهم، ثم خالفهم في المنهج.

* * *

(١) أصول الكافي (٣٦٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أصناف الناس، قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

المبحث الرابع

موقف أئمة أهل البيت من الغلو والغلاة



لقد أدرك علماء أهل السنة أن آل بيت النبي ﷺ عموماً وعلماءهم خصوصاً، كعلي وزين العابدين والباقر والصادق ﷺ أنكروا مواقف الغلاة وأفكارهم المسمومة، وتبرأوا منهم ولعنوهم، وحذروا الأمة من دسائسهم.

ونقلت المصادر السنية والشيعية ما فعله علي ﷺ بمن ادعى ألوهيته من السبعين. وقد سأل أحدهم أمير المؤمنين: أنت نبي؟ قال: «ويلك إنما أنا عبد من عبيد محمد ﷺ» (١). وهذه الحقيقة التي ذكرها علماء السنة؟ نجدها في ثنايا كثير من روايات الشيعة عن الأئمة الكرام. فتذكر هذه الروايات أن الأئمة كانوا يحذرون من الابتداع والمالاة على أساسه: عن أبي العباس قال: سألت أبا عبد الله ﷺ عن أدنى ما يكون به الإنسان مشركاً، قال: فقال: «من ابتدع رأياً فأحبَّ عليه أو أبغض عليه» (٢).

لقد كان موقف الأئمة من أهل البيت ﷺ حاداً وقطعياً في صدِّ وتكفير الغلاة، ولعنهم والبراءة منهم، ونفي وجود أي صلة لهم بهم، وتحذير الناس من مجالستهم والاستماع إليهم.

فعن الإمام جعفر بن محمد الصادق ﷺ أنه قال: أدنى ما يخرج به الرجل من الإيمان أن يجلس إلى غالي فيستمع إلى حديثه ويصدق على قوله، إن أبي حدثني عن أبيه عن جده ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «صنفان من أمتي لا نصيب لهما في الإسلام: الغلاة؟ والقدرية».

وقال ﷺ مخاطباً أحد أصحابه: «أيا مرازم، قل لهم (أي للغالية): توبوا إلى الله تعالى، فإنكم فساق، كفار، مشركون».

(١) ابن بابويه: التوحيد (ص ١٧٤، ١٧٥)، المجلسي: بحار الأنوار (٢٨٣/٨)، الطبرسي: الاحتجاج، وقارن: منهاج السنة (٦٩/٤).

(٢) أصول الكافي (٣٧٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك قال محققه: والحديث صحيح.

وقال عليه السلام مشيراً إلى نفي صلة أولئك الغلاة بأهل البيت عليهم السلام: « لعن الله المغيرة ابن سعيد، ولعن الله يهوديةً كان يختلف إليها يتعلم منها السحر والشعبذة والمخاريق، إن المغيرة كذب على أبي فسلبه الله الإيمان، وإن قوماً كذبوا علي، ما لهم؟! أذاقهم الله حر الحديد.. أبرأ إلى الله مما قال في الأجدع البراد عبد بني أسد أبو الخطاب لعنه الله ». وقال مخاطباً أحد الغلاة (وهو بشار الشعيري): « أخرج عني، لعنك الله » (١).

وجاء في تفسير « البرهان » تبرؤ الصادق من كل من يفسر القرآن بما يدعم نظرية الإمامة أو ينال من الشيخين (أبي بكر وعمر رضي الله عنهما) بالتأويلات الفاسدة، فمن حبيب بن معلى الخثعمي قال: « ذكرت لأبي عبد الله عليه السلام ما يقول أبو الخطاب.. قال: في قوله عليه السلام: ﴿ وَإِذَا دُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴾ [الزمر: ٤٥]: أنه أمير المؤمنين عليه السلام ﴿ وَإِذَا دُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ [الزمر: ٤٥]: فلان وفلان [يعني بهما: أبا بكر وعمر رضي الله عنهما]. قال أبو عبد الله: من قال هذا فهو مشرك بالله عليه السلام، ثلاثاً، أنا إلى الله منهم بريء، ثلاثاً. بل عنى الله بذلك نفسه، قال: فالآية الأخرى التي في حم قول الله عليه السلام: ﴿ ذَلِكَكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ ﴾ [غافر: ١٢] ثم قلت: زعم أنه يعني بذلك أمير المؤمنين عليه السلام. قال أبو عبد الله: من قال هذا فهو مشرك بالله عليه السلام، ثلاثاً، أنا إلى الله منهم بريء، ثلاثاً، بل عنى الله بذلك نفسه » (٢).

وجاء في كتاب رجال الكشي نفي الأئمة هرطقات الغلاة الذين رفعوا الأئمة إلى مراتب الألهمية، قال الإمام الصادق: « فوالله ما نحن إلا عبيد الذي خلقنا واصطفانا، ما نقدر على ضرر ولا نفع، وإن رحمتنا فيرحمته، وإن عذبنا فبذنوبنا، والله ما لنا على الله حجة، ولا معنا من الله براءة، وإننا لميتون ومقبورون ومنشورون ومبعوثون وموقوفون ومسؤولون، ويلهم! ما لهم؟ لعنهم الله؛ فقد آذوا الله وآذوا رسوله صلى الله عليه وآله في قبره، وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن علي صلوات الله عليهم.. أشهدكم أنني امرؤ ولدي رسول الله صلى الله عليه وآله وما معي براءة من الله، إن أطعته رحمني، وإن عصيته عذبني عذاباً شديداً » (٣).

ويخاطب الإمام زين العابدين علي بن الحسين أتباعه قائلاً: « أحببنا حب الإسلام، فوالله ما زال بنا ما تقولون حتى بغضتمونا إلى الناس » (٤).

(١) الشيخ كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها (ص ١٧٤).

(٢) البرهان (٧٨/٤). (٣) رجال الكشي (ص ٢٢٥، ٢٢٦).

(٤) طبقات ابن سعد (٢١٤/٥)، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٣٧٤/٤١) دار الفكر - بيروت

(١٤١٥هـ)، تحقيق / علي شيري.

الإمام جعفر الصادق والغلاة:

ويتفق علماء الملل من أهل السنة مع روايات الشيعة التي تقول: إن جعفرًا الصادق؛ لجلالته وعلمه ومكانته في الدوحة النبوية - كان مقصد الغلاة ومحط أنظارهم؛ ولأجل ذلك كان ﷺ يبتدأ منهم ويلعنهم، يقول الشهرستاني فيه: « جعفر بن محمد الصادق، وهو ذو علم غزير في الدين وأدب كامل في الحكمة وزهد بالغ في الدنيا وورع تام... ما تعرض للإمامة قط ولا نازع أحدًا في الخلافة قط،... وقد تبرأ عما كان ينسبه إليه بعض الغلاة، وبرئ منهم ولعنهم، وبرئ من خصائص مذاهب الرافضة وحماقاتهم من القول بالغيبة والرجعة والبداء والتناسخ والحلول والتشبيه. لكن الشيعة بعده افرقوا وانتحل كل واحد منهم مذهبًا، وأراد أن يروِّجه على أصحابه فنسبه إليه وربطه به، والسيد بريء من ذلك ومن الاعتزال والقدر أيضًا... فنذكر الأصناف الذين اختلفوا فيه، ونعدهم لا على أنهم من تفاصيل أشياعه، بل على أنهم منتسبون إلى أصل شجرته وفروع أولاده، ليعلم ذلك » (١).

وقد جاءت روايات الشيعة عن الصادق لتؤكد قول الشهرستاني. يقول الإمام الصادق - كما تروي كتب الشيعة -: « والله لو أقررت بما يقول في أهل الكوفة لأخذتني الأرض، وما أنا إلا عبد مملوك لا أقدر على شيء بضر ولا نفع » (٢).

لقد كان الأئمة يشكون من مبالغات ومزاعم هؤلاء الغلاة؛ ولهذا جاء في رواية ذكرها صاحب البحار وصاحب الاحتجاج عن الأئمة: « تعالى الله ﷻ عما يصفون سبحانه وبحمده، ليس نحن شركاء في علمه ولا في قدرته، بل لا يعلم الغيب غيره، كما قال في محكم كتابه تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥]... قد آذانا جهلاء الشيعة وحمقائهم، ومن دينه جناح البعوضة أرجح منه، وأشهد الله الذي لا إله إلا هو وكفى به شهيدًا... أني بريء إلى الله وإلى رسوله ممن يقول: إنا نعلم الغيب أو نشارك الله في ملكه، أو يحلنا محلًا سوى المحل الذي رضي الله لنا » (٣).

وكان الرضا عليه السلام يقول في دعائه: « اللهم إني أبرأ إليك من الحول والقوة، ولا حول ولا قوة إلا بك، اللهم إني أعوذ بك وأبرأ إليك من الذين ادَّعوا لنا ما ليس لنا بحق، اللهم إني أبرأ إليك من الذين قالوا فينا ما لم نقله في أنفسنا، اللهم لك الخلق ومنك

(١) الشهرستاني محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ): الملل والنحل (١/١٦٦) دار المعرفة - بيروت (١٤٠٤ هـ)، تحقيق / محمد سيد كيلاني.

(٢) تنقيح المقال (٣/٣٣٢)، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٢/٧٦٢).

(٣) المرجع السابق (٢/٦٨٤).

الرزق وإياك نعبد وإياك نستعين، اللهم أنت خالقنا وخالق آبائنا الأولين وآبائنا الآخرين، اللهم لا تليق الربوبية إلا بك، ولا تصلح الإلهية إلا لك، فالعن النصارى الذين صغروا عظمتك والعن المضاهئين لقلوبهم من برئتك» (١).

الأئمة يلقبون الغلاة بالخوارج:

عن هاشم صاحب البريد قال: كنت أنا ومحمد بن مسلم وأبو الخطاب مجتمعين فقال لنا أبو الخطاب: « ما تقولون فيمن لم يعرف هذا الأمر؟ فقلت: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافر. فقال أبو الخطاب: ليس بكافرٍ حتى تقوم عليه الحجّة، فإذا قامت عليه الحجّة فلم يعرف فهو كافر، فقال له محمد بن مسلم: سبحان الله ما له إذا لم يعرف ولم يجحد يكفر؟! ليس بكافرٍ إذا لم يجحد قال: فلما حججت دخلت على أبي عبد الله فأخبرته بذلك فقال: إنك قد حضرت وغابا ولكن موعدكم الليلة الجمرة الوسطى بمنى، فلما كانت الليلة اجتمعنا عنده وأبو الخطاب ومحمد بن مسلم، فتناول وسادة فوضعها في صدره ثم قال لنا: ما تقولون في خدمكم ونسائكم وأهلكم أليس يشهدون أن لا إله إلا الله؟ قلت: بلى. قال: أليس يشهدون أنّ محمداً رسول الله ﷺ؟ قلت: بلى. قال: أليس يصلّون ويصومون ويحجّون؟ قلت: بلى. قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا. قال: فما هم عندكم؟ قلت: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافر. قال: سبحان الله أما رأيت أهل الطّريق وأهل المياه؟ قلت: بلى. قال: أليس يصلّون ويصومون ويحجّون أليس يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله؟ قلت: بلى. قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا. قال: فما هم عندكم؟ قلت: من لم يعرف هذا الأمر فهو كافر. قال: سبحان الله! أما رأيت الكعبة والطّواف وأهل اليمن وتعلّقهم بأستار الكعبة؟ قلت: بلى. قال: أليس يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّ محمداً رسول الله ﷺ ويصلّون ويصومون ويحجّون؟ قلت: بلى. قال: فيعرفون ما أنتم عليه؟ قلت: لا. قال: فما تقولون فيهم؟ قلت: من لم يعرف فهو كافر. قال: سبحان الله! هذا قول الخوارج. ثم قال: إن شئتم أخبرتكم، فقلت أنا: لا. فقال: أما إنّه شرٌّ عليكم أن تقولوا بشيءٍ ما لم تسمعه مئاً. قال: فظننت أنّه يديرنا على قول محمد بن مسلم» (٢).

(١) المفيد: الاعتقادات (ص ٩٩)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٤٣/٢٥) .

(٢) أصول الكافي (٣٨٣/٢ ، ٣٨٤) كتاب الإيمان والكفر باب الضلال، قال محققه: والحديث مجهول.

الأئمة يوصون أتباعهم بالاعتدال، ويحذرونهم من الغلاة:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: « يا معشر الشيعة - شيعة آل محمد - كونوا النمرقة الوسطى يرجع إليكم الغالي ويلحق به التالي، فقال له رجل من الأنصار - يقال له: سعد -: جعلت فداك! ما الغالي؟ قال: قوم يقولون فينا ما لا نقوله في أنفسنا، فليس أولئك منا ولسنا منهم، قال: فما التالي؟ قال: المرتاد يريد الخير يبلغه الخير يؤجر عليه، ثم أقبل علينا فقال: والله ما معنا من الله براءة، ولا بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله حجة، ولا نتقرب إلى الله إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعاً لله تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصياً لله لم تنفعه ولايتنا، ويحكم لا تغتروا، ويحكم لا تغتروا » (١).

وقد وقف الأئمة من تأويلات الغلاة للقرآن موقفاً حازماً، فقد ذكر عند جعفر أن بعض الشيعة قال في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ﴾ [الزخرف: ٨٤] قال: هو الإمام، فقال أبو عبد الله: « لا والله لا يأويني وإياه سقف بيت أبداً، هم شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا، والله ما صغر عظمة الله تصغيرهم شيء قط.. والله لو أقررت بما يقول في أهل الكوفة لأخذتني الأرض. وما أنا إلا عبد مملوك لا أقدر على شيء ضر ولا نفع » (٢).

وإليك بعض أقوال الأئمة في حق الغلاة وموقفهم منهم:

- وأحبوا أهل بيتكم حباً مقتصدًا؟ ولا تغلوا.
- ولا تفرقوا... ولا تقولوا ما لا نقول.
- ولا تفضلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله أحدًا، فإن الله تبارك وتعالى قد فضله.
- يقولون فينا ما قالت اليهود في عزيز وما قالت النصارى في عيسى ابن مريم (٣).

(١) أصول الكافي (٨١/٢) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى. النمرقة: الوسادة الصغيرة، والمراد لا تكونوا من المغالين في دينكم ولا من المقصرين فيه، كما الوسادة الوسطى ليست بالمرتفعة جدًا ولا المنخفضة جدًا. انظر: الوافي (٦٠/٣). والحديث سكت عنه المحقق.

(٢) رجال الكشي (ص ٣٠٠).

(٣) وقد مر معنا أن الإسفراييني أدرك هذا القدر المشترك بين عقائد الغلاة وعقائد اليهود عندما قال عن الهشامية: « أما الهشامية فإنهم أفصحوا عن التشبيه بما هو كفر محض باتفاق جميع المسلمين، وهم الأصل في التشبيه وإنما أخذوا تشبيههم من اليهود حين نسبوا إليه الولد وقالوا: عزيز ابن الله، وأثبتوا له المكان والحد والنهاية والحيء والذهاب. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ». التبصير في الدين (ص ٤١).

- من قال بالتناسخ فهو كافر... لعن الله الغلاة.
- إنما وضع الأخبار عنا في التشبيه والجبر الغلاة.
- هم سبعة: المغيرة، وبيان، وصائد، وحمزة بن عمارة البربري، والحارث الشامي، وعبد الله بن الحارث، وأبو الخطاب.
- كذاب يكذب علينا أو عاجز الرأي.
- ويسقط صدقنا كذبه علينا عند الناس.
- فإن الغلاة شر خلق الله... والله إن الغلاة شر من اليهود والنصارى والمجوس والذين أشركوا.
- إنما وضع الأخبار الذين صغروا عظمة الله.
- إن فيهم من يكذب حتى إن الشيطان ليحتاج إلى كذبه!
- فمن أحبهم فقد أبغضنا، ومن أبغضهم فقد أحبنا، ومن والاهم فقد عادانا، ومن عاداهم فقد والانا.
- صنفان لا تنالهما شفاعتي... وغالٍ في الدين مارق منه غير تائب ولا نازع.
- لعن الله الغلاة... لا تقاعدوهم ولا تصدقوهم، وابرؤوا منهم، برئ الله منهم.
- من جالسهم أو خالطهم أو واكلهم.. أو صدق حديثهم أو أعانهم بشطر كلمة خرج من ولاية الله ﷺ وولاية الرسول ﷺ وولايتنا أهل البيت.
- فلا هم منا ولا نحن منهم.
- الغلاة كفار والمفوضة مشركون (١).
- وقال زين العابدين: «أيها الناس أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارًا» (٢).

- وفي رواية: قال علي بن الحسين: يا أهل العراق أحبونا حب الإسلام؛ فإني سمعت أبي يقول: قال رسول الله ﷺ: «يا أيها الناس لا ترفعوني فوق حقي فإن الله اتخذني

(١) انظر: بحار الأنوار (٥٢) الباب التاسع الأرقام (٦، ٨، ١٢، ١٦، ١٨، ١٩، ٣٤، ٣٧، ٤١، ٤٦، ٥٦).

(٢) طبقات ابن سعد (٢١٤/٥)، تاريخ مدينة دمشق لابن عساکر (٣٧٤/٤١).

عبدًا قبل أن يتخذني نبيًا» (١).

- « يا إسماعيل لا ترفع البناء فوق طاقته فينهدم، اجعلونا مخلوقين، وقولوا فينا ما شئتم فلن تبلغوا» (٢).

* * *

(١) أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي (ت ٣١٠): الذرية الطاهرة (ص ٨٩) الدار السلفية - الكويت (١٤٠٧ هـ)، تحقيق / سعد المبارك الحسن.
(٢) بحار الأنوار (٦٨/٤٧) باب معجزاته واستجابة دعوته، وانظر لماذا أنا شيعي (ص ٨٤).

الغلو يتسلل إلى أحاديث الشيعة



نعم نحن نعتقد براءة الأئمة الكرام آله البيت عليهم السلام والرضوان من هؤلاء الدجالين والمحرفين، كما ثبت في كتب الشيعة تبرؤ أئمة آل البيت الكرام منهم ولعنهم. ولكن ما مدى تسرب روايات هؤلاء وأفكارهم إلى عقيدة الاثني عشرية؟ سنرى آثار هؤلاء الكذابين في روايات الشيعة التي تبلغ في الأئمة وترفعهم عن مستوى البشرية إلى قريب من الإلهية. ولأجل هذه الروايات وأمثالها « نساءل: هل توضع الاثنا عشرية في نسق الغلاة أم في نسق المعتدلين من الشيعة؟

إن ابن خلدون - من قبل - اعتبر القائلين بالرجعة من الاثني عشرية غلاة، وكذلك ابن تيمية؛ حيث قال: « وفيهم من الشرك والغلو ما ليس في سائر طوائف الأمة؛ ولهذا أظهر ما يوجد الغلو في طائفتين: في النصارى والرافضة، ويوجد في طائفة ثالثة من أهل النسك والزهد والعبادة، الذين يغلون في شيوخمهم ويشركون بهم » (١).

ولكن د. النشار يرى أنه من الصعوبة بمكان أن نضع الاثني عشرية في فرق الغلاة، إن ما يمكننا أن نقوله هو أنهم فرقة معتدلة من الشيعة، اعتنقت بعض الآراء الغالية، امتزجت فيها عقائد المعتزلة بعقائد الغنوص إلى قدر ما » (٢).

وترجيح أحد هذين الرأيين يتبين من خلال عرضنا لبعض روايات الاثني عشرية التي ستجيب عن هذا التساؤل: هل دخل الغلو في التشيع الاثني عشري، وهل أثر فكر الغلاة - مهما كانوا ومهما كان مصدرهم - في فكر الشيعة الاثني عشرية؟

إن الإفراط والتفريط ممنوع في دين الله، وقد مرّت رواية المجلسي: « عن علي عليه السلام أنه قال: جئت إلى رسول الله ﷺ يوماً فوجدته في ملاء من قریش، فنظر إلي ثم قال: « يا علي، إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه

(١) ابن تيمية: منهاج السنة (٤٨٦/١).

(٢) د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٠٩).

فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا» (١).

وقد عرفنا أن الغلاة رفعوا الأئمة إلى درجة الإلهية والنبوة، وقد جاء أتباع الأئمة إلى أئمتهم يخبرونهم بذلك:

عن أبي طالب عن سدير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «إِنَّ قَوْمًا يَزْعُمُونَ أَنَّكُمْ آلُ اللَّهِ يَتْلُونَ بِذَلِكَ عَلَيْنَا قِرَاءًا: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤] فقال: يا سدير، سمعي وبصري وبشري ولحمي ودمي وشعري من هؤلاء براء، وبرئ الله منهم، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخطٌ عليهم.

قال: قلت: وعندنا قومٌ يزعمون أنكم رسلٌ يقرؤون علينا بذلك قرآنا: ﴿يَتَأْتِيَ الرَّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١] فقال: يا سدير، سمعي وبصري وشعري وبشري ولحمي ودمي من هؤلاء براء، وبرئ الله منهم ورسوله، ما هؤلاء على ديني ولا على دين آبائي، والله لا يجمعني الله وإياهم يوم القيامة إلا وهو ساخطٌ عليهم» (٢).

إن تسلل الغلو إلى روايات الاثني عشرية قد بلغ حدًا لا يمكن لأحد إنكاره، قد يصل أحيانًا إلى حد تقليد الغلاة في ألفاظهم، فإذا كانت الغلاة تزعم في أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب أنه: هو الذي يجيء بالسحاب والرعد صوته، والبرق سوطه أو تبسمه (٣) - فإن روايات الاثني عشرية تقول عنه على لسان جعفر الصادق: «أما إنه ما كان من هذا الرعد ومن هذا البرق فإنه من أمر صاحبكم، قلت: من صاحبنا؟ قال: أمير المؤمنين عليه السلام» (٤).

ومع النظر في هذه الروايات الموضوعية على السنة الأئمة سيصم أصحابها بالغلو قطعًا، وسيصم بالغلو أيضًا من يعتقد بها من أتباع الاثني عشرية. فإذا لم يكن القول

(١) بحار الأنوار: المجلسي (١٥١/٩)، وفي معناه روى أهل السنة عن علي عليه السلام قال: قال لي النبي صلى الله عليه وآله:

(فيك مثلٌ من عيسى أبغضته اليهود حتى بهتوا أمه، وأحبته النصارى حتى أنزلوه بالمنزلة التي ليس به). مسند الإمام أحمد (١٦٠/١) بسند ضعيف، وجاء في مجمع الزوائد للهيثمي (١٣٣/٩) كتاب المناقب، باب فيمن يفرط في محبة علي وبغضه، عن علي بن أبي طالب، وهو ضعيف.

(٢) أصول الكافي (٣٢٥/١)، كتاب الحججة باب في أنّ الأئمة بمن يشبهون ممن مضى وكرامية القول فيهم بالنبوة.

(٣) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل (١٨٠/١) وما بعد.

(٤) المفيد: الاختصاص (ص ٣٢٧)، بحار الأنوار (٣٣/٢٧)، البرهان (٤٨٢/٢).

بعضمة الأئمة ومخاطبة الملائكة لهم، واختصاصهم بالعلوم، وتمييزهم بالولاية التكوينية والتصرف في الكون؛ إذا لم يكن كل هذا من الغلو، فماذا يكن منه إذن؟! ولنقرأ معاً هذه الروايات التي تزيد صورة الغلو وضوحاً:

- عن الرضا: « الإمام كالشمس الطالعة المجللة بنورها للعالم وهي في الأفق بحيث لا تنالها الأيدي والأبصار، الإمام البدر المنير والسراج الزاهر والتور الساطع... والدليل في المهالك من فارقه فهالك، الإمام السحاب الماطر والغيث الهاطل والشمس المضيئة والسماء الظليلة والأرض البسيطة.... ومفزع العباد في الداهية الناد، الإمام أمين الله في خلقه وحجته على عباده وخليفته في بلاده والداعي إلى الله والذات عن حرم الله، الإمام المطهر من الذنوب والمبرأ عن العيوب، الخصوص بالعلم الموسوم بالحلم، نظام الدين وعز المسلمين وغيظ المنافقين وبور الكافرين ».

- و « الإمام واحد دهره لا يدانيه أحد ولا يعادله عالم، ولا يوجد منه بدل ولا له مثل ولا نظير، مخصوص بالفضل كله من غير طلب منه له ولا اكتساب بل اختصاص من المفضل الوهاب؛ فمن ذا الذي يبلغ معرفة الإمام أو يمكنه اختياره، هيهات هيهات.. ضلت العقول وتاهت الحلوم وحارت الأبواب » (١).

- « فالإمام هو المنتجب المرتضى والهادي المنتجى والقائم المرتجى، اصطفاه الله بذلك واصطنعه على عينه في الدر حين ذراه وفي البرية حين برأه ظلاً قبل خلق نسمة عن يمين عرشه محبواً بالحكمة في علم الغيب عنده اختاره بعلمه وانتجبه لظهره » (٢).

- وتذكر إحدى الروايات أنه لا آية لله أكبر من الإمام، ولا نبأ أعظم منه: فعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك! إن الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾ [النبا: ١، ٢] قال: ذلك إلي إن شئت أخبرتهم وإن شئت لم أخبرهم. ثم قال: لكنني أخبرك بتفسيرها قلت: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾﴾ [النبا: ١]؟ قال: فقال: هي في أمير المؤمنين صلوات الله عليه كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: « ما لله ﷻ آية هي أكبر مني، ولا لله من نبأ أعظم مني » (٣).

(١) أصول الكافي (٢٥٧/١) كتاب الحجّة، باب جامع في فضل الإمام وصفاته.

(٢) أصول الكافي (٢٦٠/١) كتاب الحجّة، باب جامع في فضل الإمام وصفاته. قال محققه: هذا حديث

صحيح.

(٣) أصول الكافي (٢٦٤/١)، كتاب الحجّة، باب أن الآيات التي ذكرها الله ﷻ في كتابه هم الأئمة.

- والأنبياء بعثوا بولاية آل البيت:

يروى الكافي عن أبي الحسن قال: « ولاية علي عليه السلام مكتوبة في جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولا إلا بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله ووصيته علي عليه السلام » (١). وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبيا قط إلا بها » (٢).
- بل يروي الشيعة أن الأنبياء توسلوا بالأئمة:

فنوح عليه السلام لما خشى الغرق « دعا الله بحقنا فدفع عنه الغرق » (٣)، ولما رمى إبراهيم عليه السلام في النار دعا الله بحقنا (٤) فجعل الله النار عليه بردا وسلاما، وإن موسى عليه السلام لما ضرب طريقا في البحر دعا الله بحقنا فجعله ييسا، وإن عيسى عليه السلام لما أراد اليهود قتله دعا الله بحقنا فنجي من القتل فرفعه إليه... » (٥).

- والجن تخدم الأئمة تشبيها لهم بسليمان عليه السلام: تقول الرواية عن أبي جعفر: « إن لنا خدما من الجن، فإذا أردنا السرعة بعثناهم » (٦).

- ويروي المجلسي في بحار الأنوار قدرات أمير المؤمنين الفائقة فيقول:

فقال أمير المؤمنين: « لو أنني أردت أن أجوب الدنيا بأسرها والسموات السبع وأرجع في أقل من الطرف لفعلت بما عندي من اسم الله الأعظم؟ فقلنا: يا أمير المؤمنين أنت والله الآية العظمى والمعجز الباهر » (٧).

فمادام الإمام عنده هذه القدرات؛ فلماذا لم يظهرها أمام خصومه الذين حاربوه؟ ولماذا اعتمد على رجال قلّت طاعتهم له، فتدمر منهم كما تذكر روايات نهج البلاغة؟
- والأئمة أوتاد الأرض، ولولا الأئمة لساخت الأرض بأهلها:

عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « إني واثني عشر من

(١) أصول الكافي (١/٥٠٧). كتاب الحجّة، باب فيه تنفّ وجوامع من الزّواية في الولاية، نصّ محقق أصول الكافي على أنه حديث مجهول.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) وكيف يخشى الغرق، وقد أتمته الله تعالى وقال له: ﴿ وَقَالَ أَزْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ جَمْرِيهَا وَمُرْسِيهَا ﴾ [مرد: ٤١].

(٤) في حين ثبت عند أهل السنة أنه قال: (حسبنا الله ونعم الوكيل) كما في الصحيح.

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (٦٩/١١)، الحر العاملي: وسائل الشيعة (١٠٣/٧).

(٦) أصول الكافي (٤٦٠/١) كتاب الحجّة باب أن الجن تأتيهم.... والحديث حسن عند محقق أصول الكافي.

(٧) بحار الأنوار (٤٠/٢٧).

ولدي وأنت يا عليّ زرّ الأرض يعني أوتادها وجبالها، بنا أوتد الله الأرض أن تسيخ بأهلها، فإذا ذهب الاثنا عشر من ولدي ساخت الأرض بأهلها ولم ينظروا» (١).

- ولولا الأئمة ما عُبد الله:

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إنّ الله تعالى خلقنا فأحسن خلقنا وصورنا فأحسن صورنا وجعلنا خزّانه في سمائه وأرضه ولنا نطق الشجرة، وعبادتنا عُبد الله تعالى، ولولانا ما عُبد الله» (٢).

- وعلم الغيب عند الأئمة:

عن عبد الأعلى بن أعين قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «قد ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وأنا أعلم كتاب الله وفيه بدء الخلق وما هو كائنٌ إلى يوم القيامة وفيه خبر السماء وخبر الأرض وخبر الجنة وخبر النار، وخبر ما كان وخبر ما هو كائنٌ، أعلم ذلك كما أنظر إلى كفي، إنّ الله يقول: ﴿فيه تبيان كلّ شيء﴾» (٣).

«فقال هشام: هذا القاعد الذي تشدّ إليه الرّحال ويخبرنا بأخبار السماء والأرض ورائة عن أب عن جدّ. قال الشّامي: فكيف لي أن أعلم ذلك؟ قال هشام: سله عمّا بدا لك. قال الشّامي: قطعت عذري، فعليّ السّؤال. فقال أبو عبد الله عليه السلام: يا شاميّ أخبرك كيف كان سفرك وكيف كان طريقك؟ كان كذا وكذا، فأقبل الشّاميّ يقول: صدقت» (٤).

- والأئمة يختصّون بوجود ملائكة معهم تسددهم:

عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ﴿.. وَنَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء: ٨٥] قال: خلق أعظم من جبرئيل وميكائيل لم يكن مع أحدٍ ممّن مضى

(١) أصول الكافي (٦١٣/١) كتاب الحجّة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم. سكت عنه المحقق. والعجيب أن هذه الرواية تجعل الأئمة ثلاثة عشر، ولكن المحقق يقول: «ومعنى الكلام على هذا أن عليّاً وفاطمة والأئمة الأحد عشر (ع) هم أوتاد الأرض» (٦١٣/١) هامش حاشية رقم (١).

(٢) أصول الكافي (٢٤٩/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه.

(٣) أصول الكافي (١١٥/١) كتاب فضل العلم باب الرد إلى الكتاب والسنة، قال محقق أصول الكافي: «لا توجد هذه الآية في القرآن ولعله (ع) نقل بالمعنى قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتٍ لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] اه، فعجيب أن يُعتدّ في شخص علم الغيب وعلم الأولين والآخريين، ثم ينقل آية من القرآن بغير ما هي عليه. وهو يقول: «إنّ الله تعالى يقول»، فلا احتمال لنقل المعنى إذن.

(٤) أصول الكافي (٢٢٦/١) كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة.

[أي من الأنبياء] غير محمّد ﷺ وهو مع الأئمة يسدّدهم، وليس كلّ ما طلب وجد « (١) » .
- وتذكر رواية أخرى أن عليًّا أعلم من الأنبياء السابقين:

قال أبو جعفر عليه السلام: « يَمْضُونَ التَّمَادِ وَيَدْعُونَ التَّهْرَ الْعَظِيمَ: قِيلَ لَهُ: وَمَا التَّهْرُ الْعَظِيمُ؟ قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَالْعِلْمُ الَّذِي أَعْطَاهُ اللَّهُ. إِنَّ اللَّهَ ﷻ جَمَعَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ سِنَنَ النَّبِيِّينَ مِنْ آدَمَ وَهَلَمَّ جَزْأً إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ. قِيلَ لَهُ: وَمَا تِلْكَ السِّنَنُ؟ قَالَ: عِلْمُ النَّبِيِّينَ بِأَسْرِهِ، وَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَيَّرَ ذَلِكَ كُلَّهُ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ. فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: يَا بَنَ رَسُولَ اللَّهِ، فَأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ أَمْ بَعْضُ النَّبِيِّينَ؟ فَقَالَ أَبُو جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: اسْمَعُوا مَا يَقُولُ! إِنَّ اللَّهَ يَفْتَحُ مَسَامِعَ مَنْ يَشَاءُ، إِنِّي حَدَّثْتُهُ أَنَّ اللَّهَ جَمَعَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ عِلْمَ النَّبِيِّينَ، وَأَنَّهُ جَمَعَ ذَلِكَ كُلَّهُ عِنْدَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَهُوَ يَسْأَلُنِي أَهْوَأَ أَعْلَمُ أَمْ بَعْضُ النَّبِيِّينَ » (٢) .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِلْمِينَ: عَلِمًا أَظْهَرَ عَلَيْهِ مَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ وَرَسُولَهُ؛ فَمَا أَظْهَرَ عَلَيْهِ مَلَائِكَتَهُ وَرَسُولَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ فَقَدْ عَلِمْنَاهُ، وَعِلْمًا اسْتَأْثَرَ بِهِ؛ فَإِذَا بَدَأَ اللَّهُ فِي شَيْءٍ مِنْهُ أَعْلَمْنَا ذَلِكَ وَعَرَضَ عَلَى الْأُمَّةِ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِنَا » (٣) .

- والأئمة تطَّلَعُ عَلَى بَوَاطِنِ الْقُلُوبِ وَتَعْلَمُ السَّرَائِرَ (كَالْإِيمَانِ وَالنَّفَاقِ):

عن عبد الله بن جندبٍ أنه كتب إليه الرضا عليه السلام: « أَمَا بَعْدَ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ كَانَ أَمِينَ اللَّهِ فِي خَلْقِهِ فَلَمَّا قَبِضَ ﷺ كُنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ وَرَثَتُهُ؛ فَنَحْنُ أَمْنَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ عِنْدَنَا عِلْمُ الْبَلَايَا وَالْمَنَائِي وَأَنْسَابُ الْعَرَبِ وَمَوْلِدُ الْإِسْلَامِ وَإِنَّا لَنَعْرِفُ الرَّجُلَ إِذَا رَأَيْنَاهُ بِحَقِيقَةِ الْإِيمَانِ وَحَقِيقَةِ التَّفَاقُقِ، وَإِنَّ شَيْعَتَنَا لِمَكْتُوبُونَ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ، أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَعَلَيْهِمُ الْمِيثَاقَ، يَرُدُّونَ مَوْرِدَنَا وَيَدْخُلُونَ مَدْخَلَنَا لَيْسَ عَلَى مِلَّةِ الْإِسْلَامِ غَيْرِنَا وَغَيْرِهِمْ، نَحْنُ التَّجْبَاءُ التَّجَاةُ وَنَحْنُ أَفْرَاطُ الْأَنْبِيَاءِ، وَنَحْنُ أَبْنَاءُ الْأَوْصِيَاءِ وَنَحْنُ الْمَخْصُوصُونَ فِي كِتَابِ اللَّهِ ﷻ، وَنَحْنُ أَوْلَى النَّاسِ بِكِتَابِ اللَّهِ، وَنَحْنُ أَوْلَى النَّاسِ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ » (٤) .

(١) أصول الكافي (٣٢٩/١) كتاب الحجّة باب الروح التي يسدّد بها الأئمة. قال محققه: والحديث حسن. وليس كلّ ما طلب وجد: أي بل هو فضل من الله يؤتبه من يشاء.

(٢) أصول الكافي (٢٨٠/١) كتاب الحجّة باب أنّ الأئمة عليهم السلام ورثة العلم يرث بعضهم بعضًا العلم.

(٣) أصول الكافي (٣١٠/١) كتاب الحجّة باب أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل عليهم السلام.

(٤) أصول الكافي (٢٨١، ٢٨٠/١) كتاب الحجّة باب أنّ الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم. قال محقق أصول الكافي: الحديث حسن.

- والكتب السماوية السابقة محفوظة عند الأئمة:

عن المفضل بن عمر قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: « إنَّ سليمان ورث داود، وإنَّ محمدًا ورث سليمان، وإنَّا ورثنا محمدًا، وإنَّ عندنا علم التَّوراة والإنجيل والرَّبُّور وتبيان ما في الألواح. قال: قلت: إنَّ هذا لهو العلم، قال: ليس هذا هو العلم، إنَّ العلم الَّذي يحدث يومًا بعد يوم وساعةً بعد ساعةٍ » (١). وفي رواية: « وإنَّ عندنا صحف إبراهيم وألواح موسى » (٢). وما الحاجة إلى هذه الكتب بعد ثبوت تحريفها، وبعد نزول القرآن مهممًا على الكتب السابقة وناسخًا لها؟!

- والأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه:

عن عبد الرحمن بن كثيرٍ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة وحي الله » (٣).

- وهناك في كتاب الحجّة باب (أنَّ الأئمة عليهم السلام يعلمون متى يموتون، وأنهم لا يموتون إلا باختيارٍ منهم).

وقد ضعف المحقق روايات هذا الباب (٤). ولو ضعف روايات باقي الأبواب المغالية في الأئمة لأفلح وأنجح.

- والأئمة وجه الله، وبهم تينع الثمار:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: « نحن المثاني الَّذي أعطاه الله نبيّنا محمدًا صلى الله عليه وآله، ونحن

(١) أصول الكافي (٢٨١/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين قبلهم. « لعل المراد والعلم عند الله: أن العلم ليس ما يحصل بالسماع وقراءة الكتب وحفظها؛ فإن ذلك تقليد، وإنما العلم ما يفيض من عند الله سبحانه على قلب المؤمن يومًا فيوم وساعة فساعة » انظر: الفيض الكاشاني: الوافي شرح الكافي (١٢٩/٢). وما الفرق بين هذا الكلام وما يقوله بعض المتصوفة: حدثني قلبي عن ربي. وأنهم يأخذون علومهم عن الأحياء، أما أهل العلم فيأخذونه عن الأموات. ! هذا قاسم مشترك جديد بين الشيعة وبعض المتصوفة.

(٢) أصول الكافي (٢٨٢/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين قبلهم. قال المحقق: والحديث صحيح على الظاهر. وهناك روايات أخرى تقول: إن ألواح موسى وعصاه عند الأئمة، وقميص من الجنة ألبسه الله تعالى لإبراهيم لما ألقوه في النار فلم تضره وأنه صار قميص يوسف ثم صار للنبي صلى الله عليه وآله ثم للأئمة من بعده. باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء (٢٨٧/١ ، ٢٨٨).

(٣) أصول الكافي (٢٤٨/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه. (عيبة الرجل): خاصته وموضع سره، والعيبة ما يجعل فيه الثياب. المازندراني (٢٠١/٥ ، ٢٠٢).

(٤) أصول الكافي (٣١٣/١ - ٣١٥). وسيأتي نقض نظرية علم الغيب عند الأئمة في الفصل القادم.

وجه الله نتقلب في الأرض بين أظهركم، ونحن عين الله في خلقه ويده المبسوطة بالرحمة على عباده، عرفنا من عرفنا وجهلنا من جهلنا» (١).

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: «نحن والله الأسماء الحسنى التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا» (٢).

قال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا فَأَحْسَنَ خَلْقَنَا وَصَوَّرَنَا فَأَحْسَنَ صُورَنَا، وَجَعَلَنَا عَيْنَهُ فِي عِبَادِهِ وَلِسَانَهُ التَّاطِقَ فِي خَلْقِهِ، وَيَدَهُ الْمَبْسُوطَةَ عَلَى عِبَادِهِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَوَجْهَهُ الَّذِي يُؤْتَى مِنْهُ، وَبَابَهُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَخَزَانَهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ، بَنَى أَثْمَرَ الْأَشْجَارِ وَأَيْعَتِ الثَّمَارَ وَجَرَّتِ الْأَنْهَارُ، وَبَنَى يَنْزِلَ غَيْثَ السَّمَاءِ وَيَنْبِتُ عَشْبَ الْأَرْضِ، وَبِعِبَادَتِنَا عُيِدَ اللَّهُ، وَلَوْلَا نَحْنُ مَا عُيِدَ اللَّهُ» (٣).

وغلو بعض الروايات يوقع في تناقضات عجيبة، بل في أمور لا يرضى العاقل أن تنسب لسادة آل البيت؛ مما يسيء للإسلام ونبيه صلى الله عليه وآله وآل بيته الكرام أكثر مما يحسن، وعدو عاقل خير من صديق جاهل.

- ومن تلك التناقضات التي لا نرضاها للخليفة الرابع: وصفه بأنه دابة الأرض:
عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «كان أمير المؤمنين عليه السلام كثيراً ما يقول: أنا قسيم الله بين الجنة والنار، وأنا الفاروق الأكبر، وأنا صاحب العصا والميسم (٤) ولقد أقرت لي جميع الملائكة والروح والرسل بمثل ما أقرّوا به لمحمد صلى الله عليه وآله ولقد حملت على مثل حملته وهي حمولة الرب» (٥).

ما أغرب هذا النص الذي يريد الغلو في علي؛ فيصفه بأنه دابة الأرض التي تخرج

(١) (٢، ١) أصول الكافي (١٩٢/١)، كتاب التوحيد باب النوادر.

(٢) (٣) أصول الكافي (١٩٢/١، ١٩٣)، كتاب التوحيد باب النوادر.

(٤) الميسم: الحديدية التي كانت العرب توسم بها الدواب.

(٥) (٥) أصول الكافي (٢٥٢/١)، كتاب الحجّة باب أن الأئمة هم أركان الأرض، قال محققه: والحديث ضعيف بسنديه على المشهور. أما عن حكم الحديث الضعيف عندهم، فيقول الشهيد الثاني - زين الدين ابن نور الدين علي بن أحمد العاملي (ت ٩٦٥ هـ) -: «جوّز الأكثرون العمل بالحديث الضعيف في نحو القصص والمواعظ وفضائل الأعمال، لا في نحو صفات الله تعالى، وأحكام الحلال والحرام، وهو حسن حيث لا يبلغ بالضعيف حد الوضع والاختلاق لما اشتهر بين العلماء المحققين من التساهل بأدلة السنن، وليس في المواضع والقصص غير محض الخبر...!!». مقباس الهداية (١٩٢/١). وهذا يدل على أن الخبر الضعيف يعتد به عندهم في مجال الأخبار، وانظر: د. عمر محمد الفرموي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية رسالة دكتوراه من قسم الحديث في كلية أصول الدين جامعة الأزهر (ص ١٢٠).

آخر الزمان، فهل في هذا مدح أم قده؟ وللأسف أكد هذا المجلسي لدى شرحه هذا الحديث؟ فقال: « هذا إشارة إلى أنه (ع) الدابة التي أخبر بها في الآية (٨٢) من سورة النمل، وعن حذيفة عن النبي ﷺ: « دابة الأرض لا يدركها طالب، ولا يفوتها هارب، فتسم المؤمن بين عينيه: مؤمن، وتسم الكافر بين عينيه: كافر، ومعها عصا موسى وخاتم سليمان، فتجلو وجه المؤمن بالعصا، وتحطم أنف الكافر بالخاتم حتى يقال: يا مؤمن ويا كافر » (١).

- ولقد ذكر المجلسي في فضائل فاطمة الزهراء رَضِيَ اللهُ عَنْهَا ما لا يليق بها ولا بغيرها من النساء: عن حذيفة: « كان النبي ﷺ لا ينام حتى يقبل عرض وجنة فاطمة أو بين ثدييها ». وعن جعفر بن محمد قال: « كان رسول الله ﷺ لا ينام حتى يضع وجهه الكريم بين ثديي فاطمة » (٢). فهل هذا الذي ذكره يتناسب مع غيرة النبي ﷺ على آل بيته؟ وهل من عادات العرب أصحاب الحياء فعل هذا العمل، أو حتى جواز مروره على الألسنة؟ أم أن وراء الأكمة ما وراءها؛ من آثار المجوسية الإباحية القديمة؟.

- كما تزخر بعض الروايات بالغلو في الصفات الجسمانية للأئمة:

قال أبو جعفر: « للإمام عشر علامات: يولد مطهراً مختوناً، وإذا وقع على الأرض وقع على راحته رافعاً صوته بالشهادتين ولا يجنّب، وتنام عينه ولا ينام قلبه، ولا يتشاءب ولا يتمطى ويرى من خلفه كما يرى من أمامه، ونحوه (فساؤه وضراطه وغائطه) كريح المسك » (٣). وهذه الأخيرة، يستحي المرء من الحديث عنها، فقد كان من أدب النبي ﷺ أن يبعد إذا أراد الغائط كما ورد في السنن، فمن أين جاء الشيعة بهذا الوصف لنجو الأئمة؟؟ وماذا يستفيد المرء من معرفة ذلك إلا أن يغالي بالأئمة.

- ويدعون أن الحسين كان لا يرتضع الحليب كباقي الغلمان، بل يتغذى من لسان النبي ﷺ:

عن أبي الحسن الرضا عليه السلام: « أن النبي ﷺ كان يؤتى به الحسين فيلقمه لسانه فيمصه فيجتزئ به ولم يرتضع من أمي » (٤). فماذا كان يفعل الحسين لما كان يغيب النبي ﷺ في غزواته الكثيرة!؟

(١) مرآة المجلسي (٣٦٨/٢). وانظر: عبد الله بن شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٠٨).
 (٢) المجلسي: بحار الأنوار (٧٨/٤٣) تحت عنوان: تاريخ سيدة النساء فاطمة الزهراء.
 (٣) الكافي (٣١٩/١). كتاب الحجّة، باب مواليد الأئمة.
 (٤) أصول الكافي (٥٣٧/١). كتاب الحجّة باب مولد الحسين بن علي. سكت عنه المحقق.

- بل يدعي الشيعة أن النبي ﷺ نفسه رضع من ثدي عمه أبي طالب:

عن أبي عبد الله قال: « لما ولد النبي ﷺ مكث أيامًا ليس له لبن. فألقاه أبو طالب على ثدي نفسه. فأنزل الله فيه لبنًا فرضع منه أيامًا حتى وقع أبو طالب على حليمة السعدية فدفعه إليها » (١). والهدف من الرواية واضح، هو إبراز مكانة أبي طالب، والد أول الأئمة الاثني عشر، الإمام علي عليه السلام.

- وقد وصل الغلو إلى درجة إنكار العلوم القطعية الكونية، كقولهم: إن فاطمة لا يصيبها الطمث:

عن علي بن جعفر عن أخيه أبي الحسن عليه السلام قال: « إن فاطمة عليها السلام صديقة شهيدة وإن بنات الأنبياء لا يطمنن » (٢).

في حين روى الكليني في أصول الكافي ما يناقض هذه الرواية: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « كان بين الحسن والحسين عليه السلام طهرٌ وكان بينهما في الميلاد ستة أشهرٍ وعشراً » (٣). قال المحقق: « أي بين ولادة الحسن وعلوق الحمل بالحسين مقدار أقل الطهر لدى النساء عادة وهو عشرة أيام ».

وأي شرف للمرأة إن كانت لا تحيض أو تحيض، وهو أمر جبلي « كتبه الله على بنات حواء »؟.

- كما ينسبون إلى علي عليه السلام من الخوارق ما لم يرد عنه ولم يتواتر، كإحياء الموتى تشبيهاً له بعيسى عليه السلام، أو مسخه لبعض خصومه، وهو أمر لم يشتهر عن النبي محمد ﷺ: عن عيسى شلقان قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « إن أمير المؤمنين عليه السلام له خؤولة في بني مخزوم، وإن شابًا منهم أتاه فقال: يا خالي إن أخي مات وقد حزنت عليه حزناً شديداً قال: فقال له: تشتهي أن تراه؟ قال: بلى. قال: فأرني قبره، قال: فخرج ومعه بردة رسول الله ﷺ متزراً بها فلما انتهى إلى القبر تلممت شفتاه ثم ركضه برجله فخرج من قبره وهو يقول بلسان الفرس. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ألم تمت وأنت رجل من العرب؟ قال: بلى، ولكنا متنا على سنة فلان وفلان فانقلبت ألسنتنا » (٤).

(١) أصول الكافي (٣٧٣/١) كتاب الحجة. باب مولد النبي ﷺ ووفاته.

(٢) أصول الكافي (٥٣٥/١) كتاب الحجة مولد الحسن بن علي. وصححه المحقق.

(٣) أصول الكافي (٥٣٦/١) كتاب الحجة مولد الحسين بن علي. وصححه المحقق.

(٤) أصول الكافي (٥٢٩/١)، كتاب الحجة باب في مولد النبي ﷺ ووفاته. سكت عنه محقق أصول =

ولذلك فلا عجب أن تنسب إحدى الروايات إلى المهدي المنتظر - الذي يظهر في عدة أماكن فجأة - أنه أحيا بقرة:

عن عبد الله بن المغيرة قال: « مرّ العبد الصّالح [وهم يقصدون بذلك المهدي المنتظر] بامرأة بمنى وهي تبكي وصبيانها حولها يبكون وقد ماتت لها بقرة، فدنا منها ثم قال لها: ما يبكيك يا أمة الله؟ قالت: يا عبد الله إنّ لنا صبيانا يتامى، وكانت لي بقرة معيشتي ومعيشة صبياني كان منها، وقد ماتت وبقيت منقطعاً بي وبولدي لا حيلة لنا. فقال: يا أمة الله، هل لك أن أحيينها لك؟ فألهمت أن قالت: نعم يا عبد الله، فتنحى وصلى ركعتين ثم رفع يده هنيهةً وحرك شفثيه ثم قام فصوت بالبقرة، فنخسها نخسةً أو ضربها برجله فاستوت على الأرض قائمةً، فلما نظرت المرأة إلى البقرة صاحت وقالت: عيسى ابن مريم وربّ الكعبة! فخالط الناس وصار بينهم ومضى عليه السلام » (١).

وروي في كتاب جمع من هذه الطامات ما جمع وهو (سلوني قبل أن تفقدوني من مختصات أمير المؤمنين) أن عليّاً عليه السلام صعد منبر الكوفة. « فقام رجل من أهل المسجد فقال له: يا بن أبي طالب سحرت أهل الحجاز وأتيت تسحر أهل العراق بتأويلك القرآن. فرمقه عليه السلام بطرفه، فإذا هو قد صار غراباً، فطار بين القوم ووقع على حائط المسجد يزعق والناس ينظرون إليه » (٢).

- وهناك رواية في بحار الأنوار على لسان علي عليه السلام نسبت إليه من صفات الربوبية ما لا يختلف عما كان يقول به ابن سبأ، والعياذ بالله تعالى:

ومما جاء فيها: « لي الكثرة بعد الكثرة، والرجعة بعد الرجعة، وأنا صاحب الرجعات والكثرات، وصاحب الصولات والنقمة، والدولات العجيبات، وأنا قرن من حديد، وأنا عبد الله وأخو رسول الله صلى الله عليه وآله. أنا أمين الله وخازنه، وعيبة سره وحجابه، ووجهه وصراطه وميزانه، وأنا الحاشر إلى الله، وأنا كلمة الله التي يجمع بها المفترق ويفرق بها

= الكافي. لاحظ أن الجواب جاء من الرجل (بلى) مع أن صيغة السؤال ليس فيها نفي « فقال له: تشتهي أن تراه، قال: بلى ». وهذا خلاف اللغة.

(١) أصول الكافي (٥٥٧/١)، كتاب الحجّة باب في مولد أبي الحسن موسى بن جعفر، وقال محققه: الحديث صحيح.

(٢) محمد رضا الحكيمي: سلوني قبل أن تفقدوني من مختصات أمير المؤمنين (٢٧/٢)، مكتبة الصدر، طهران (١٤٢٠هـ)، وهو يأخذ عن الأنوار النعمانية (٩٠/٢).

المجتمع. وأنا أسماء الله الحسنی، وأمثاله العليا، وآياته الكبرى، وأنا صاحب الجنة والنار، أسكن أهل الجنة الجنة، وأسكن أهل [النار] النار، وإليّ تزويج أهل الجنة وإليّ عذاب أهل النار، وإليّ إياب الخلق جميعاً، وأنا الأيتاب (١) الذي يؤوب إليه كل شيء بعد القضاء، وإليّ حساب الخلق جميعاً، وأنا صاحب الهبات، وأنا المؤذن على الأعراف، وأنا بارز الشمس، وأنا دابة الأرض، وأنا قسيم النار، وأنا خازن الجنان وصاحب الأعراف. وأنا أمير المؤمنين، ويعسوب المتقين، وآية السابقين، ولسان الناطقين، وخاتم الوصيين، ووارث النبيين، وخليفة رب العالمين، وصراط ربي المستقيم، وفسطاطه والحجة على أهل السماوات والأرضين، وما فيهما وما بينهما، وأنا الذي احتج الله به عليكم في ابتداء خلقكم، وأنا الشاهد يوم الدين، وأنا الذي علمت علم المنايا والبلايا والقضايا، وفصل الخطاب والأنساب، واستحفظت آيات النبيين المستخفين المستحفظين. وأنا صاحب العصا والميسم، وأنا الذي سخرت لي السحاب والرعد والبرق، والظلم والأنوار، والرياح والجبال والبحار، والنجوم والشمس والقمر، أنا القرن الحديد، وأنا فاروق الأمة، وأنا الهادي وأنا الذي أحصيت كل شيء عدداً بعلم الله الذي أودعني، وبسره الذي أسرّه إلى محمد ﷺ، وأسرّه النبي ﷺ إليّ، وأنا الذي أنحلني ربي اسمه وكلمته وحكمته وعلمه وفهمه. يا معشر الناس أسألوني قبل أن تفقدوني، اللهم إني أشهدك وأستعديك عليهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والحمد لله متبعين أمره « (٢).

فمادام علي ﷺ بهذه الصفات؛ كيف غلب على الخلافة وقال - كما تذكر إحدى الروايات: مقولة هارون الرشيد: ﴿ إِنَّ أَلْقَوْمَ اسْتَضَعُّونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي ﴾ [الأعراف: ١٥٠]؟! (٣).

- كما تزعم إحدى روايات بحار الأنوار أن علياً ﷺ يعرج إلى السماء!:
فعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: « أتيت فاطمة صلوات الله عليها فقلت لها: أين بعلك؟ فقالت: عرج به جبريل عليه السلام إلى السماء، فقلت: فيم؟ فقالت: إن نفرًا من الملائكة تشاجروا في شيء فسألوا حكماً من الآدميين، فأوحى الله تعالى إليهم أن تخبروا، فاختاروا علي بن أبي طالب «!!!» (٤).

(١) لعلها الأواب!! (٢) المجلسي: بحار الأنوار (٤٧/٥٣، ٤٨).

(٣) كتاب سليم بن قيس (ص ١٥٨).

(٤) الشيخ المفيد: الاختصاص (ص ٢١٣)، والمجلسي: بحار الأنوار (١٥١/٣٩).

- ادعاء العصمة للأئمة:

عن جعفر الصادق أنه قال: « نحن قومٌ معصومون، أمر الله تبارك وتعالى بطاعتنا ونهى عن معصيتنا، نحن الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض » (١).

- والإمام يتكلم جميع لغات المخلوقات:

فالحسن يتكلم سبعين مليون لغة! عن أبي عبد الله أن الحسن قال: « إن لله مدينتين، إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب. وفيها سبعون ألف لغة... وأنا أعرف جميع تلك اللغات » (٢).

وعن أبي حمزة نصير الخادم قال: « سمعت أبا محمّد غير مرّة يكلم غلمانهم بلغاتهم ترك وروم وصقالبة فتعجّبت من ذلك وقلت: هذا ولد بالمدينة ولم يظهر لأحد حتّى مضى أبو الحسن عليه السلام ولا رآه أحدٌ فكيف هذا؟! أحدثت نفسي بذلك. فأقبل عليّ فقال: إنّ الله تبارك وتعالى يبيّن حجّته من سائر خلقه بكلّ شيءٍ ويعطيه اللغات ومعرفة الأنساب والآجال والحوادث، ولولا ذلك لم يكن بين الحجّة والمحجوج فرق » (٣).

وعن ابن أبي عمير عن رجاله عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إنّ الحسن عليه السلام قال: « إنّ لله مدينتين إحداهما بالمشرق والأخرى بالمغرب، عليهما سورٌ من حديد وعلى كلّ واحدةٍ منهما ألف ألف مصراع وفيها سبعون ألف لغة يتكلم كلّ لغةٍ بخلاف لغة صاحبه، وأنا أعرف جميع اللغات وما فيها وما بينهما وما عليهما حجّةٌ غيري وغير الحسين أخي » (٤).

قال المجلسي مصدّقاً بهذه الرواية: « ومما يؤيد أن الإمام وجب أن يكون عالماً بجميع اللغات أنه لو حضر عنده خصمان بغير لسانه ولم يوجد هناك مترجم لزم تعطيل الأحكام، وهو مع استلزامه تبدد النظام يوجب فوات الغرض من نصب الإمام » (٥).

والحقيقة أننا لو تتبعنا نصوص القرآن والسنة لما وجدنا هذه المبالغات في الأئمة ثابتة

(١) أصول الكافي (٣٢٥/١)، كتاب الحجّة باب في أنّ الأئمة بمن يشبهون ممن مضى وكراهية القول فيهم بالتبوة.

والحديث عن العصمة طويل، وسيكون له مبحث خاص سيأتي في فصل العقائد الخاصة بالشيعة.

(٢) أصول الكافي (٣٨٤/١، ٣٨٥) كتاب الحجّة، باب مولد الحسن بن علي.

(٣) أصول الكافي (٥٨٥/١)، كتاب الحجّة، باب في مولد أبي محمد الحسن بن علي.

(٤) أصول الكافي (٥٣٠/١) كتاب الحجّة، باب مولد الزهراء، وصححه المحقق.

(٥) مرآة العقول (١٥٦/٦).

في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهم أولى بهذه الأمور من الأئمة. بل رأينا النبي ﷺ وهو خاتم الأنبياء يبعث برسائله المشهورة المنشورة إلى الملوك وكلها بلغة العرب، ويأمر أحد فتيان الصحابة أن يتعلم لغة يهود، عن زيد بن ثابت ؓ قال: (أمرني رسول الله ﷺ فتعلمت له كتاب يهود، وقال: « إني والله ما آمن يهود على كتابي » فتعلمته فلم يمر بي إلا نصف شهر حتى حذقته - أي عرفته - ، فكنت أكتب له إذا كتب وأقرأ له إذا كتب إليه) (١). ولو كان ﷺ يعلم كل اللغات - كما زعمت روايات الاثني عشرية - لما كان لأمره لزيد أي معنى، حاشا وكلا.

والحقيقة أن روايات المبالغات في الأئمة هذه قد دسّت من قبل الغلاة؛ لأن المتتبع لكثير من روايات الاثني عشرية يلاحظ أن الأئمة كانوا يؤكدون على بشرتهم وعدم اختصاصهم بالعصمة ولا غيرها، ويربطون قلوب أتباعهم بالله ﷻ:

قال أبو الحسن الطوسي رحمه الله: « أخبرني عنك؛ لو أنني قلت لك قولاً أكنت تثق به مني، فقلت له: جعلت فداك إذا لم أثق بقولك فبمن أثق وأنت حجة الله على خلقه؟ قال: فكن بالله أوثق فإنك على موعد من الله، أليس الله ﷻ يقول: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ... ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقال: ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ... ﴾ [الزمر: ٥٣]. وقال: ﴿ وَاللَّهُ يَعْذِبُكُمْ مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا... ﴾ [البقرة: ٢٦٨]. فكن بالله ﷻ أوثق منك بغيره، ولا تجعلوا في أنفسكم إلا خيراً فإنه مغفور لكم » (٢).

وقال الإمام الرضا: « والإمام يولد ويلد، ويصح ويمرض، ويأكل ويشرب، ويبول ويتغوط، وينكح وينام، وينسى ويسهو، ويفرح ويحزن، ويضحك ويبكي، ويحيا ويموت، ويُقبر ويُزار، ويحشر ويُوقف، ويُعرض ويسأل ويثاب ويكرم ويُشفع. ودلالته في خصلتين: في العلم واستجابة الدعوة، وكل ما أخبر به من الحوادث التي تحدث قبل كونها؛ فذلك بعهد معهود إليه من رسول الله ﷺ توارثه عن آبائه ؓ ويكون ذلك مما عهد إليه جبريل من علام الغيوب » (٣).

(١) سنن أبي داود (٣٤٢/٢) كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، رقم (٣٦٤٥) وهو حديث حسن صحيح.

(٢) أصول الكافي (٤٥٨/٢) كتاب الدعاء باب من أبطأت عليه الإجابة، قال محققه: والحديث هذا صحيح. ومعنى: لا تجعلوا في أنفسكم إلا خيراً: أي لا تظنوا بربكم إلا خيراً.

(٣) عيون أخبار الرضا (١٩٣/١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (١٤٠٤ هـ).

وهذا ما أكده بعض علماء الاثني عشرية؛ فقد قال الشيخ المفيد: « فأما إطلاق القول عليهم (أي الأئمة) بأنهم يعلمون الغيب فهو منكر يبين الفساد؛ لأن الوصف بذلك إنما يستحقه من علم الأشياء بنفسه لا بعلم مستفاد، وهذا لا يكون إلا لله ﷻ، وعلى قولي هذا جماعة أهل الإمامة، إلا من شذ عنهم من المفوضة (١) ومن انتمى إلى الغلاة » (٢).

* * *

(١) المفوضة: فرقة من الغلاة: تقول إن الله خلق محمدًا ﷺ ووكّل الأمور وفوضها إليه فخلق الدنيا، ثم فوّض محمد ﷺ إلى علي بن أبي طالب ﷺ تدبير العالم، ولهم هرطقات كثيرة، منها تخوين محمد وموسى عليهما صلوات الله وسلاماته. ويؤولون الجنة والملائكة تأويلات باطنية. انظر: ابن الجوزي: تلبيس إبليس (ص ١١٩)، البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٢٣٨)، الإسفراييني: التبصير في الدين (ص ١٢٨). وانظر: بحار الأنوار (٣٤٥/٢٥).

(٢) الشيخ المفيد: أوائل المقالات (ص ٧٧).

الْمَجْهَدُ السَّادِسُ

موقف علماء الاثني عشرية من الغلو والغلاة



وأمام هذا التناقض في الروايات عن الأئمة: روايات تؤكد بشريتهم، وروايات تؤكد عصمتهم وارتفاعهم عن البشر - كان هناك موقفان لعلماء الاثني عشرية؛ فعالية علماء الاثني عشرية وقفوا مع روايات تعظيم الأئمة والمبالغة فيهم، وأولوا الروايات النافية « بأنها صادرة عن الأئمة في مقام التعليم لعامة الناس، أو أنها صادرة تَقِيَّةً، وقاموا إلى جانب ذلك برواية مجموعة من الروايات التي تدعي العصمة بصراحة، وتشرطها في الإمام أو الأئمة، وهي روايات ضعيفة وغامضة وغير ذات دلالة » (١).

في حين أدرك بعض العلماء الاثني عشرية أن هذه الروايات من تسريبات الغلاة، فحكموا بضعف أو وضع هذه الروايات، وهذا يدل على وجود تصارع شديد داخل المدرسة الشيعية؛ بين فكر يميل إلى التوسط الاعتدال، وفكر يميل إلى الغلو والانغلاق. وإذا كان الأئمة قد تبرؤوا من الغلو والغلاة؛ فإن علماء الاثني عشرية أيضًا قد تبرؤوا منهم باللسان، ولكن سئروا في المواقف والأفكار الجزئية أن آراءهم تتراوح بين المد والجزر، بين الاعتدال والغلو.

الْمَطْلَبُ الْأَوَّلُ

تبرؤ علماء الاثني عشرية من الغلو والغلاة

يشهد كثير من نصوص علماء الاثني عشرية أنهم تبرؤوا من الغلاة وكفروهم؛ كالصدوق والمفيد وغيرهما.

قال الشيخ الصدوق: « قال الشيخ أبو جعفر عليه السلام: اعتقادنا في الغلاة والمفوضة أنهم كفار بالله جل اسمه، وأنهم شر من اليهود والنصارى والمجوس والقدرية والحرورية، ومن

(١) أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي (ص ٧٥، ٧٦).

جميع أهل البدع والأهواء المضلة، وأنه ما صغر الله ﷻ تصغيرهم بشيء، كما قال الله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيُنَا بِمَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩، ٨٠]، وقال ﷻ: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ﴾ [النساء: ١٧١] (١).

وقال المفيد: « وهم ضلال كفار، حكم فيهم أمير المؤمنين عليه السلام بالقتل والتحريق بالنار، وقضت عليهم الأئمة عليهم السلام بالإكفار والخروج عن الإسلام (٢).
وأما النوبختي الشيعي فقد بين الأثر الخارجي في نشأة الغلاة؛ فقال: « فهذه فرق أهل الغلو ممن انتحل التشيع، وإلى الخرميدنية والمزدكية والزنديقية والدهرية مرجعهم جميعاً، لعنهم الله تعالى » (٣).

واتخذ علماء الحديث الاثنا عشرية أيضاً موقفاً حازماً من غلاة الرواة؛ فلم يقبلوا من حيث المبدأ رواية الغلاة، قال الشيخ الطوسي: « فأما ما رواه الغلاة ومن هو مطعون عليه في روايته ومتهم في وضع الأحاديث فلا يجوز العمل بروايته إذا انفرد » (٤). وكثيراً ما يقول علماء الرجال: « ضعيف جداً لا يلتفت إليه، في مذهبه غلو، » « كذاب غال ضعيف متروك الحديث، » « غال ضعيف ». يقول إحسان أمين: « ومن يراجع كتب الرجال المعتمدة عند الشيعة يخرج بنتيجة قاطعة عن موقفهم الحاسم ضد الغلاة ورد أحاديثهم » (٥).

وقد ورد في الذريعة إلى تصانيف الشيعة ما يقارب عشرين مؤلفاً في الرد على الغلاة (٦).

(١) الشيخ الصدوق: الاعتقادات في دين الامامية (ص ٧١ ، ٧٢). والحرورية: فرقة ممن كان مع علي عليه السلام وخالفته بعد تحكيم الحكيم بينه وبين معاوية وأهل الشام، وقالوا: لا حكم إلا لله، وكفروا علياً عليه السلام وتبرؤوا منه، وأتروا عليهم ذا الندية وهم المارقون، فخرج علي عليه السلام فحاربهم بالنهروان فقتلهم وقتل ذا الندية فسموا (الحرورية) لوقعة حروراء، وسموا جميعاً: الخوارج .

(٢) المفيد: أوائل المقالات (٢٣٨). (٣) النوبختي: فرق الشيعة (ص ٤١).

(٤) محمد بن الحسن الطوسي: عدة الأصول (ص ٣٥١). مؤسسة آل البيت - قم.

(٥) انظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويرة عند الشيعة الإمامية (ص ٢٦٦ ، ٢٦٧)، وهو يعزو ذلك إلى كتب الرجال كرجال النجاشي، والفهرست للطوسي واختيار الرجال للكشي، ومعجم رجال الحديث للخوئي.

(٦) انظر: أغا بزرك الطهراني الذريعة إلى تصانيف الشيعة الجزء العاشر، عبد الله نعمة: روح التشيع (ص ١٠٠).

ويرى بعض كتاب الشيعة أن نسبة الغلاة إلى الشيعة فيه ظلم كبير؛ يقول الشيخ جعفر سبحاني: « قد ذكر أصحاب الفرق فرقا للشيعة باسم الغلاة، ومع أنهم يصرحون بأنهم ليسوا من فرق المسلمين، ولكن يذكرونها فرقا للشيعة ويحملون أوزار الغلاة على الشيعة » (١).

ولكن عذر كتاب الفرق من أهل السنة أن هذه التقسيمات وردت في كتب الفرق السنية والشيعة على السواء، كالنوبختي والقمي. والسبب في نسبة فرق الغلو إلى الشيعة: خروج الغلاة من عباءة التشيع، وكونهم في البداية من أتباع الأئمة كأبي الخطاب وغيره.

ويحاول إحسان الأمين قصر مفهوم الغلو على الخارجين عن الدين دون المغالين في الأئمة فيقول: « بقي أمر وهو أن البعض اعتبر كل مبالغة أو زيادة أو إفراط في القول في أئمة أهل البيت (ع) نوعا من الغلو، والواقع أن إطلاق القول بهذا التسرع على كل زيادة هو في ذاته نوع من الغلو والتطرف؛ إذ إن الغلو وإن كان يعني التجاوز عن الحد ولكنه صار مصطلحا في العرف الإسلامي يقترن بالغلاة الخارجين عن الدين لإطلاقهم صفات الربوبية على البشر، لا كل زيادة وإفراط... كما نجد اليوم كثيرا من المسلمين من أتباع الفرق الصوفية وغيرهم ممن يبالغ في كرامة الأولياء ويعطيهم صفات عظيمة وآثارا خارقة... إلخ » (٢).

والحق أننا نرفض الغلو من كل الأطراف ومن كل الطوائف، وفي كل المجالات: العقيدية والتعبدية والسلوكية..

* * *

المطلب الثاني

بعض مظاهر الغلو في فكر بعض علماء الشيعة

ولكن للأسف نرى أن حبل هذا الغلو موصول بين الغلاة ورواة الأحاديث الشيعية، وبعض مفكري الشيعة القدامى والمعاصرين، وإن حاول بعض كتاب الشيعة إنكار ذلك. فالصدوق يرى أن السجود لآدم لأجل نور الأئمة: « السر في أمره تعالى الملائكة

(١) جعفر سبحاني: بحوث في الملل والنحل (١٠/٧). مؤسسة الصادق - قم (١٤١٦ هـ).

(٢) التفسير بالمأثور وتطوره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٧٠، ٢٧١).

بالسجود لآدم عليه السلام واستعباد الله تعالى والملائكة بالسجود لآدم تعظيمًا له... وذلك أنه عليه السلام إنما أمرهم بالسجود لآدم لما أودع في صلبه عليه السلام من أرواح حجج الله تعالى « (١) يعني: الأئمة.

ويقول كثير من مفكري الشيعة بخضوع ذرات الكون للإمام، بإثبات الولاية التكوينية للأئمة: « فإن للإمام عليه السلام مقامًا محمودًا ودرجة سامية وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم عليه السلام والأئمة عليهم السلام كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم الله بعرشه محققين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله... وقد ورد عنهم (ع) أن لنا مع الله حالات لا يسعها ملك مقرب ولا نبي مرسل، ومثل هذه المنزلة موجود لفاطمة عليها السلام » (٢).

وقد زادوا على هذه المعاني معنى آخر اشتركوا به مع بعض المتصوفة، وهو معنى الفناء مع الله تعالى، « وقالوا عليهم السلام أيضًا: لنا مع الله حالات هو فيها نحن ونحن هو، وهو هو ونحن نحن » (٣).

هذه النصوص صريحة بوجود تسرب من فكر الغلاة إلى فكر بعض علماء الاثني عشرية، وهي لا ترفع الأئمة؛ بل على العكس تسيء إليهم؛ فقد كان أجمل وصف وُصف به النبي صلى الله عليه وآله هو العبودية، وهو عارج فوق السماوات السبع: قال تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَرَكْنَا

(١) الصدوق: كمال الدين (١٣/١).

(٢) روح الله الخميني: الحكومة الإسلامية (٥٢، ٥٣)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، وأصله دروس فقهية ألقاها على طلاب علوم الدين في النجف تحت عنوان (ولاية الفقيه) (١٣٨٩ هـ). وانظر: رجب البرسي: مشارق أنوار اليقين - (ص ٢٢٥)، الشيخ جلال الصغير: الولاية التكوينية، الحق الطبيعي للمعصوم (ص ١٠٣).

(٣) التبريزي الأنصاري: اللعة البيضاء (ص ٢٨)، وعزاه المحقق إلى: الكلمات المكونة للفيض الكاشاني (ص ١١٤) في معنى الفناء في الله، وأورده أيضًا الخميني في كتاب مصباح الهداية صفحة (٦٧)، وقال بعده: « وكلمات أهل المعرفة - خصوصًا الشيخ الكبير، محيي الدين - مشحونة بأمثال ذلك، مثل قوله: « الحق خلق، والخلق حق، والحق حق، والخلق خلق ». وهكذا يتقاطع فكر أهل (العرفان) الشيعي مع أهل (التصوف) السني.

حَوْلَهُ لِزَيْبٍ مِنْ عَائِلَتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿ [الإسراء: ١] .

وقد كان سيد الأنبياء محمد ﷺ يكرر التأكيد على بشريته فيقول: « لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله » (١). عن جرير ابن عبد الله ؓ قال: أتى النبي ﷺ برجل ترعد فرائضه. قال: فقال له: « هَوْنُ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قَرِيْشٍ، كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ فِي هَذِهِ الْبَطْحَاءِ » (٢).

ويرى إحسان أمين - الاثني عشري المعاصر - أن « المراجع لتفاسير الشيعة الاثني عشرية المعروفة كالتبيان ومجمع البيان والميزان وغيرها مما يصح أن تنسب إليهم وتمثل وجهة نظرهم في التفسير يجدها خلواً تماماً مما يمكن أن يكون غلوًا » (٣). وهذه الدعوى يدحضها كثير من الروايات الغالية التي تزخر بها هذه الكتب، وخصوصاً في مسألة الإمامة (٤).

كما أن شراح أحاديث الأئمة الذين نشؤوا في عهود فشو الفكر الغالي - كالعهد الصفوي - صاروا يلوون أعناق نصوص الأئمة لدعم غلوهم في الأئمة. ومن أمثلة ذلك: أن هناك رواية تقول: سأل أحدهم جعفر الصادق: إنكم تقدرون أرزاق العباد؟ فقال: « والله ما يقدر أرزاقنا إلا الله، ولقد احتجت إلى طعام لعيالي فضاقت صدري وأبلغت إليّ الفكرة في ذلك حتى أحرزت قوتهم، فعندها طابت نفسي. لعنه الله وبرئ منه » (٥). وكذلك رواية تقول: « يا عجباً لأقوام يزعمون أننا نعلم الغيب ما يعلم الغيب إلا الله ﷻ. لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت متي فما علمت في أي بيوت الدار هي » (٦).

(١) صحيح البخاري، كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ [مريم: ١٦]، رقم (٣٢٦١).

(٢) سنن ابن ماجه رقم (٣٣١٢)، (١١٠١/٢)، وفي الزوائد هذا إسناد صحيح ورجاله ثقات، الحاكم: المستدرک (٥٠٦/٢). وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. (القدید): اللحم المحقّف بتشريقه وتعريضه للشمس.

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويرة عند الشيعة الإمامية (ص ٢٧٣).

(٤) سيمر عدد كبير من هذه الروايات في فصل العقائد الخاصة بالشيعة، مبحث الإمامة.

(٥) بحار الأنوار (٣٠١/٢٥)، رجال الكشي (ص ٣٢٣)، وانظر رواية في هذا المعنى في بحار الأنوار

(٣٢/٢٥)، ورجال الكشي (ص ٣٢٤، ٣٢٥)، وأخرى أيضاً في البحار (٣١٦/٢٥)، ورجال الكشي

(ص ٥١٨، ٥١٩).

(٦) أصول الكافي (٣١٣/١)، كتاب الحجّة، باب نادر فيه ذكر الغيب. وقال المحقق: وهذا الحديث

مجهول.

ولكن هذا لم يعجب شراح الحديث الشيعة فجاء المازندراني ليقول: « .. الغرض من هذا التعجب وإظهاره هو ألا يتخذة الجهال إلهًا، أو يدفع عن وهم بعض الحاضرين المنكرين لفضله ما نسبوه إليه من العلم بالغيب حفظًا لنفسه، وإلا فهو ﷺ كان علمًا بما كان وما يكون؛ فكيف يخفى عليه مكان الجارية؟ فإن قلت: إخباره بذلك على هذا يوجب الكذب، قلت: إنما يوجب الكذب لو لم يقصد التورية، وقد قصدتها؛ فإن المعنى ما علمت علمًا غير مستفاد منه تعالى بأنها في أي بيوت الدار » (١).

وهكذا يخالف المازندراني نصّ الرواية، ويقف أمامها وجهًا لوجه، ويحتال في تأويلها؛ لأن ضروريات مذهبه لا تسمح له بالإقرار بها. فأيهما واجب الاتباع: قول الإمام أم تأويل الشراح!؟

وبهذا نصل إلى أن الفكر الشيعي يحمل في طياته بذور الاعتدال والغلو معًا؛ ولذلك فنحن ندعو المسلمين جميعًا سنة وشيعة إلى الاعتدال، وأخذ موقف واضح من الغلو والغلاة.

المطلب الثالث

كتاب الشيعة المعاصرون بين الغلو والاعتدال

إن الغلو في الأئمة ليس هو اللحن الوحيد الذي يظهر على الساحة الشيعية؛ فهناك من علماء الشيعة من يحارب الغلو والغلاة، ويظهر هذا بكل وضوح في عبارات دعاة الوسطية والوحدة الإسلامية والحوار بين الطوائف الإسلامية.

ويمكن تقسيم دعاة الاعتدال والوسطية من الشيعة المعاصرين، وهم دعاة التقريب مع المذاهب الإسلامية الأخرى إلى ثلاث مجموعات:

المجموعة الأولى:

تتضمن هذه المجموعة نماذج لعلماء الاثني عشرية الذين حاربوا الغلو بكافة أنواعه، جملة وتفصيلاً، حتى خرجوا أو أخرجوا من دائرة التشيع، وتحملوا لأجل ذلك العناء والعنت من قومهم. ومن أشهر هؤلاء:

(١) المازندراني: شرح أصول الكافي (٦/٣٠، ٣١).

١ - أحمد مير قاسم بن مير أحمد الكسروي:

ولد (١٢٦٧) في تبريز، عمل أستاذًا في جامعة طهران، ومحررًا لجريدة (برجم) الإيرانية، كما تولى عدة مناصب قضائية، حتى أصبح المدعي العام في محكمة طهران. ألّف عدة كتب ينتقد فيها الأفكار المنحرفة عن التصور الإسلامي.

- فمن مؤلفاته:

١ - نقد الصوفية.

٢ - نقد البهائية.

٣ - نقد الشيعة.

٤ - التشيع والشيعة.

وقد أثار كتابه « التشيع والشيعة » ردّة فعل عنيفة تجاهه؛ حيث اتهم الكسروي بالعلمانية والشيوعية، والنيل من الحوزة العلمية ومراجعها، كما حارب طغيان الاتجاه الفلسفي في فهم الدين الإسلامي؛ إذ رآه عقّد الدين وخرج بالإسلام عن روحه. وانتقد ماتم الشيعة في عاشوراء وأمثالها قائلاً: « مما لا ريب فيه أن الحسين قتل مظلوماً مخدوعاً، ولكن أي جدوى لتكرار البكاء والنحيب وإقامة المآتم عليه بعد مضي ألف وثلاثمائة عام »^(١). كما نسف نظرية الإمامة من أساسها، واعتمد نظرية الشورى باعتبارها تعليمًا من تعاليم القرآن الكريم. ولذلك فقد قام الخميني بتأليف كتابه (كشف الأسرار) للرد على أفكار الكسروي، وإن لم يسمّه باسمه؛ بل بالخبيث^(٢).

ولذلك تعرض لمحاولة اغتيال بالرصاص، وأسعف إلى المستشفى فشفاه الله تعالى. كما اتهم بعد ذلك بالخروج عن الإسلام، فاستدعي إلى المحكمة فأطلق عليه خصومه الرصاص وطعنوه بخنجر حتى مات وفي جسده تسعة وعشرون جرحًا، عام (١٩٤٦ م). وعمره (٥٧) سنة^(٣).

(١) انظر: خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، (ص ١٧١)، (في صفوف الإمامية في القرن الأخير)، (ط ١)، (١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م)، نسخة مصورة من مكتبة الملك فهد الوطنية، عن التشيع والشيعة (ص ١٤١) .

(٢) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ١٧٣) .

(٣) المرجع السابق (ص ١٥٧) .

٢ - محمد بن إسكندر الياصري:

ينحدر من عائلة علوية النسب، فكان أبوه يلقب بالسيد كاظم، ولد في مدينة الحلة، تعلم الهندسة، ثم التحق بالحوزة العلمية لعدة سنوات (١).

- من مؤلفاته:

١ - مذهبنا الإمامي الاثني عشري بين منهج الأئمة والغلو.

٢ - المنهاج والمرجعية القرآنية.

٣ - القرآن وعلماء أصول ومراجع الشيعة.

انتقد فكر الغلاة، ودافع عن سلامة القرآن الكريم من التحريف، فانتقد الكليني والمجلسي لقولهما بتحريف القرآن في كتبهما، ورأى أن هذا واضح في كتبهما (٢).

كما انتقد النوح عند الشيعة؛ لأنه يخالف اتجاه الأئمة، مستشهداً بقول علي عليه السلام: « ينزل الصبر على قدر المصيبة، ومن ضرب يده على فخذ، عند مصيبته حبط عمله » (٣) وقوله: « تغلبكم نساءؤكم على ما أسمع، ألا تنهونهن عن هذا الرنين » (٤).

توفي رحمه الله عندما أطلق عليه النار ثلاثة من المتعصبين عام (١٩٩٧ م).

٣ - إسماعيل بن عبد الكريم آل إسحاق الخوئيني:

ولد عام (١٩٣٧ م) في زنجان في أسرة لها مكانتها الاجتماعية والعلمية، فوالده آية الله عبد الكريم الخوئيني، تعلم الأدب العربي والفارسي، سافر إلى النجف وتلمذ على يد مراجعه، ودرس على يد مرتضى مطهري خمس سنوات في جامعة طهران.

- من مؤلفاته:

١ - أنواع الشرك وأقسامه.

٢ - الحسين وليس يا حسين واحسيناه.

٣ - علي وليس يا علي.

(١) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، (ص ١٨٦، ١٨٧).

(٢) انظر: القرآن وعلماء أصول ومراجع الشيعة (ص ١٠ - ١٧)، خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٢١٠).

(٣) انظر: كتابه مذهبنا الإمامي الاثني عشري بين منهج الأئمة والغلو (ص ٧٠).

(٤) انظر: نهج البلاغة، قصار الحكم رقم (١٤٤)، ورقم (٣٢٢)، جامع أحاديث الشيعة (٣/٣٨٧).

٤ - البدع في الدين.

نبذ الخوئيني المذهب الاثني عشري مع ما كان يقدمه له من امتيازات؛ فحاول خصومه اتهمه بالعمالة فلم يفلحوا، ولذلك حورب الخوئيني وضيق عليه في مكانته السياسية وفي رزقه؛ حيث اضطرت عائلة (أبي إسحاق) إلى التخلي عنه، وجاء القرار بإلغاء عمله رئيسًا لمكتب مركز حماة القدس، كما عاش في فاقة شديدة اضطرته أن يبيع مزرعته العامرة من أجل العلاج، ولم يكن يستجيز أخذ الخمس كباقي المراجع الشيعة، ثم قبض عليه وألقي في السجن، وحُكِمَ عليه بالإعدام، ولكن حال موت الخميني بين قومه وبين إعدام الخوئيني، ولكن ضيق إلى أن توفي عام (٢٠٠٠ م) عن عمر يناهز ثلاثاً وستين سنة^(١).

قال في قصيدة له: « تركت منصبًا بعد ما كنت مرجعًا للمذهب كالأخرين؛ ابتغاء وجه الله وخوف عقوبة الجناية على دين الله، لو لم أترك لكنك خائناً، لن أكون من أهل التزوير، ولن آخذ أموالاً من الناس، ولن أكون داعياً إلى ترويج المذهب؛ بل سأكون موحدًا ومتبعًا للإسلام »^(٢).

٤ - آية الله العظمى أبو الفضل بن رضا البرقي:

هو أبو الفضل بن رضا البرقي، درس في الحوزة العلمية بقم على يد كبار مراجعها، كأبي الحسن الأصفهاني وعبد الكريم الخائري اليزدي، ونال فيها درجة الاجتهاد. له مئات التصانيف التي أتت على نبذ التعصب الطائفي المقيت، ونبّهت إلى ضرورة الرجوع إلى دراسة القرآن والسنة دراسة هادئة متأنية.

- من مؤلفاته:

- ١ - كتاب أحكام القرآن.
- ٢ - دروس من الولاية.
- ٣ - تضاد (مفاتيح الجنان) مع القرآن.
- ٤ - دراسات في أخبار المهدي.
- ٥ - الجامع المنقول في سنن الرسول بالفارسية.

(١) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٢٢٥).

(٢) النص مترجم من قصيدته بالفارسية (أشكرك يا إلهي)، انظر: أعلام التصحيح (ص ٢٣٠).

٦ - ترجمة مختصر منهاج السنة النبوية لابن تيمية.

٧ - كسر الصنم.

انتقد في كتابه كسر الصنم منهج الكليني في الكافي، وحكم بوضع كثير من رواياته، وقد حظرت هذه الكتب ومنع طبعها أو تداولها في إيران^(١).

وقد تبرزت مراجع الاثني عشرية من البرقعي رغم مكاتبه العلمية السامقة، واتهمته بالعمالة وخفة العقل، جاء في فتوى (على الإنترنت) لمركز الأبحاث العقائدية: « كان أبو الفضل البرقعي من أسرة عريقة من أهالي قم، وكان من جملة المحصلين في الحوزة العلمية؛ إلا أنه كان منذ شبابه خفيف العقل منحرف الفكر، فترك الدراسة وذهب إلى طهران بدعوة من بعض السفارات الأجنبية بواسطة بعض عملائهم، فجعلوا يروجون له ويمدونه بالأموال ويطبعون مقالاته؛ حتى أفتى كبار المراجع بضلالتة، وأوعزوا إلى الجهات الحكومية بإلقاء القبض عليه وتأديبه، فانكشف حاله وافتضح أمره ومقتته الناس وطرده، فمات على تلك الحال، وخسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين »^(٢).

ولو كان ما يقوله هؤلاء صحيحاً؛ إذن لحكموا على من زكاه أولاً من مراجعهم بخفة العقل وانحراف الفكر، فقد ضمّ آخر كتابه (كسر الصنم) صوراً لعدد من إجازات وشهادات كبار المراجع الدينية في حقّه، ومن هؤلاء العلماء الذين أثنوا على علمه وذكائه وتقواه: آية الله العظمى أبو الحسن الأصفهاني، وآية الله الكاشاني، وأغا بزرك الطهراني^(٣).

أوذى الشيخ البرقعي في سبيل الحق الذي وصل إليه؛ حيث وشى به بعض المتعصبين للسلطات الإيرانية، فتعرض للإيذاء في عهد الشاه، ثم ازداد إيذاؤه في عهد الثورة الإيرانية؛ حيث تعرّض لمحاولة اغتيال بالرصاص، وقد ناهز الثمانين، فدخلت رصاصة من خده الأيسر إلى خده الأيمن، وفي المستشفى مُنع الأطباء من مداواته، فنصححه أحدهم أن يمضي إلى بيته ويُعالج هناك، وشفي الشيخ البرقعي بقدرة الله تعالى، ولم تلن له قناة في

(١) انظر البرقعي: كسر الصنم، (نقض كتاب أصول الكافي) مقدمة المؤلف (ص ٢٩)، (ط ١)، دار البيارق - عمان (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، ترجمه إلى العربية عبد الرحيم ملا زاده البلوشي.

وقد ظهر من قبله في سيد أسد الله الخرقاني وآية الله شريعتي سنغلي، وذكور شعار، وسيد مصطفى طباطبائي، وحسين الموسوي، وكلهم كتبوا مقالات ومؤلفات في نقد المذهب الاثني عشري، فنالهم ما نالهم من الأذى والتضليل. راجع قسم الملحقات (الوثائق) آخر الرسالة.

(٢) انظر: مركز الأبحاث العقائدية، ضمن قرص المعجم الفقهي.

(٣) انظر صور شهادات الآيات بالبرقعي وذكائه وعلمه في آخر كتابه كسر الصنم (ص ٣٧٤ - ٣٧٦) .

الصدع بآرائه، فما كان من خصومه إلا أن يودعوه في سجن (إوين) الذي يعتبر من أقسى السجون السياسية من حيث وضعه وطرق التعذيب فيه، وأقام في غياهبه قرابة السنة، لينفي بعد ذلك إلى مدينة (يزد)، ولكن بعد خمسة أيام من نفيه اقتيد مرة أخرى إلى السجن، ثم نفي مرة أخرى إلى (يزد). حتى توفي عام (١٩٩٢ م) عن عمر يناهز (٩٣) عامًا، وقد خرج عن مذهب الاثني عشرية، وأوصى بأن يدفن في مدافن السنة^(١).

٥ - الدكتور موسى الموسوي:

ولد في النجف عام (١٩٣٠ م) من أسرة علوية علمية عريقة، فينتهي بنسبه إلى الإمام موسى الكاظم، وجدّه أبو الحسن الأصفهاني أحد أبرز مراجع الشيعة في القرن الماضي، درس في النجف، ونال درجة الاجتهاد، كما حصل على درجة الدكتوراه في التشريع الإسلامي من جامعة طهران عام (١٩٥٥ م)، وحصل على دكتوراه في الفلسفة من جامعة باريس (السيوريون) عام (١٩٥٩ م)، عمل مدرّسًا في جامعة طهران (١٩٦٠ - ١٩٦٢ م) وجامعة بغداد (١٩٦٨ - ١٩٧٨ م)، ودرّس في جامعة طرابلس في ليبيا، وجامعة هالة في ألمانيا، وجامعة لوس أنجلوس.

انتخب رئيسًا للمجلس الإسلامي الأعلى في غرب أمريكا عام (١٩٧٩ م).

- من أشهر مؤلفاته:

- ١ - الشيعة والتصحيح.
- ٢ - يا شيعة العالم استيقظوا.
- ٣ - الصرخة الكبرى، أو عقيدة الشيعة الإمامية في أصول الدين وفروعه في عصر الأئمة وبعدهم.
- ٤ - الديموقراطية في عصر الخلفاء الراشدين.
- ٥ - فقه الصادق.
- ٦ - المتآمرون على المسلمين الشيعة.

(١) انظر: مقدمة د. عبد الرحيم ملازاده البلوشي، مترجم كتاب البرقي: كسر الصنم (نقض كتاب أصول الكافي)، (ص ٢٤)، (ط ١)، دار البيارق - عمان (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، وراجع موقع صحوة الشيعة: www.newshia.com.

٧ - الثورة البائسة.

أنكر موسوي جميع مظاهر الغلو في الفكر الاثني عشري، كالقول بتحريف القرآن الكريم، والنيل من الصحابة، وعصمة الأئمة^(١).

كما أنكر تعذيب الجسد بالتطبير الذي يقوم به عوام الشيعة في ذكرى عاشوراء، ورآه مناقضاً لتكريم الله تعالى للإنسان، وأكد أنه من المظاهر التي أساءت إلى الإسلام في العالم الغربي^(٢).

- أهم الأفكار التي نادى بها:

- العودة إلى التشيع الأول الذي لم يكن يختلف عن عقيدة الأمة إلا في مسألة تفضيل علي عليه السلام.

- تحكيم القرآن الكريم والعودة إلى عهد السلف الصالح لتصحيح الخلل الذي نال عقيدة الشيعة الاثني عشرية.

- السعي لأن يكون الخلاف بين السنة والشيعة خلافاً فقهياً، لا عقدياً.

- ترك التبعية لفقهاء الشيعة المجتهدين، والأخذ بفقهِ الإمام جعفر الصادق مباشرة.

- وضع الموسوي برنامجاً من أجل تطبيق هذه الأفكار على أرض الواقع:

١ - اختيار لجنة من العلماء الثقات لتأليف كتب تتضمن غرلة لروايات وأحاديث الاثني عشرية، ثم طباعة هذه الكتب ونشرها.

٢ - نشر فقه الإمام الصادق وترجمته إلى جميع لغات العالم.

٣ - إنشاء مركز دائم لتهيئة رجال التصحيح، واشترط أن يكون في بلد يتمتع بالحرية، بعيداً عن تدخل السياسية فيه.

٤ - إصدار مجلة تهتم بقضايا التصحيح^(٣).

لقد ظهرت أفكار الدكتور موسى الموسوي في أوج الثورة الخمينية؛ حيث لم يكن هنالك مجال للتروي والتفكير في آرائه في أوساط الشيعة؛ ولذلك وُوجهت أفكاره بالمحاربة والانتقاد من قبل مراجع الشيعة، يقول القزويني عنه: « ويبدو أن مروقه عن

(١) انظر: الشيعة والتصحيح (ص ٣٠) وما بعدها.

(٢) انظر: موسى الموسوي: يا شيعة العالم استيقظوا (ص ٥٣)، ولا تنس أنه عاش في الغرب، فكلامه عن معاناة.

(٣) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وأراؤهم (ص ٣٤١ - ٣٤٣).

الدين وعدم تورعه في ارتكاب المنكرات وعداءه الشديد للتشيع يعود إلى عقدة نفسية عميقة الجذور في شخصيته» (١).

توفي الدكتور موسى الموسوي عام (١٤١٧ هـ) رحمته الله.

وهناك شخصيات شيعية كثيرة شبيهة بهذه الشخصيات الصامدة على الحق، ولكن لا يتسع المقام لبسط الحديث عنها، مثل سيد أسد الله الخرقاني، وآية الله شريعتي سنغلي، ودكتور شعار، وسيد مصطفى طباطبائي، وأحمد الكاتب (٢)، وحسين الموسوي (٣)، ولهم مقالات ومؤلفات في نقد المذهب الاثني عشري، وجميعهم نالهم ما نالهم من قومهم الأذى والتضليل.

المجموعة الثانية:

وهم مجموعة من علماء الاثني عشرية المعاصرين الذين انتقدوا بعض مسائل الغلو داخل مذهبهم، مع محافظتهم على البنيان الاثني عشري ومراكزهم الدينية داخل هذا المذهب، ومن أشهر هؤلاء:

١ - آية الله العظمى محمد بن محمد مهدي بن حسين الخالصي:

ولد عام (١٨٨٨) في مدينة الكاظمية في العراق، ووالده آية الله العظمى محمد مهدي الخالصي.

كان الخالصي الذي كان قائداً علمياً، وجهادياً؛ حيث له الباع الطويل في جهاد المستعمر، حيث قاد ثورة عام (١٩٢٠ م) ضد الإنكليز في العراق، ومنع عمال العراق من العمل في معامل الإنكليز؛ مما اضطرهم لنفيه إلى مدينة (كاشان) الإيرانية، وبعدها كانت له وقفات طويلة في جهاد الإنكليز، فتعرض للنفي مراراً، وبلغ مجموع

(١) انظر: الدكتور علاء الدين بن السيد أمير محمد القزويني: مع الدكتور موسى الموسوي في كتابه الشيعة والتصحيح (ص ١٦)، دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت (ط ٢)، (١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م).
(٢) وكان اسمه عبد الرسول بن عبد الزهراء بن عبد الأمير لاري، وقد نسف نظرية ولاية الفقيه، وغيبة المهدي، ونادى بالشورى طريفاً إسلامياً لاختيار الإمام انظر: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه.
(٣) صاحب كتاب (لله ثم للتاريخ) الذي يذكر فيه الفظائع عن بعض رموز الشيعة الذين عاصروهم، وقد صدرت في حقّه فتوى المرجع الديني الأعلى السيد حسين بحر العلوم عام (١٤٢١ هـ) وهذا نصّها: «قولنا في المدعو حسين الموسوي أنه ضال مضل أعمى الله بصيرته، كما أعمى قلبه، وقد أصبح سبباً في فتنة كثير من الناس، لعنه الله، وقد قامت زعامة الحوزة العلمية بإسقاط جميع درجاته العلمية، واعتبار جميع أحكام المرتدين منطبقه عليه، وأن رسائله العلمية غير مبرئة للذمة».

ما قضاه في المنافي سبعة وعشرين عامًا^(١)، حاول مع باقي علماء المسلمين إصلاح الخلافة العثمانية؛ حيث شارك في مشروع إصدار الدستور العثماني أيام السلطان عبد الحميد الثاني، وعبر عن وحدة المسلمين عندما لبى مع من أطاعه دعوة المجاهدين في ليبيا لجهاد الإيطاليين.

وقف الخالصي في وجه الإلحاد والشيوعية، وفي وجه فكر غلاة الشيعة كالشيخية، هذا الفكر الذي رآه يتسلل إلى فكر خطباء ووعاظ الشيعة في مجالس العزاء الحسينية، وألّف لأجل ذلك كتابه: (علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين)؛ حيث حارب فيه كثيرًا من الأفكار الغالية كالقول بأن الأئمة يعلمون الغيب^(٢)، ويملكون الولاية التكوينية في الكون^(٣)، كما أنكر الاستغاثة بالأئمة وحرّم دعاء الفرج (وفيه: يا محمد يا علي، يا علي يا محمد! اكفياني فإنكما كافياني) وقد رأى هذه الاستغاثات تناقض عقيدة التوحيد.

وعندما رأى ما يفعله بعض الشيعة في إيران من الاستغاثة بالأموات ذكره ذلك بما فعله بعض السنوسيين في طرابلس ليبيا من الاستنجاد بأصحاب الأضرحة (كالشيخ أحمد البدوي) زاعمين أن هؤلاء الأموات قادرون على دحر الطليان، وكذلك بما فعله أصحاب الطرق في العراق أثناء الحرب العالمية الأولى؛ حيث جاؤوا متسلّحين بالطبول والدفوف مستنجدين بالشيخ (عبد القادر الجيلاني) فلما سمعوا أزيز رصاص الإنكليز ولّوا هاربين، وبين الخالصي أن هذه الاستغاثات تناقض التوحيد، وتخالف منهج النبي ﷺ في أخذه بالأسباب.

كما أنكر الخالصي غلو الشيعة في الأئمة، مثل زعمهم أن الأئمة وجه الله، وأن النبي ﷺ والأئمة علّة خلق الله للكون، وأن الأئمة إذا شأوا أن يموتوا ماتوا، وأنهم يملؤون الكون بذواتهم - على حدّ زعم الشيخية^(٤).

(١) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٢٨١).
 (٢) علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين (ص ٤١٥)، وما بعدها، وانظر: خالد ابن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٣٠١).
 (٣) علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين (ص ٣٨٨ - ٤١٦، ٤١٧)، وانظر: خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٣٠٦).
 (٤) علماء الشيعة والصراع مع البدع والخرافات الدخيلة في الدين (ص ٤٠٧)، وما بعدها وانظر: خالد ابن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (ص ٣١٦) وما بعدها.

كما أحيا الخالصي شعيرة صلاة الجمعة في العراق؛ حيث كانت معطلة بسبب فتاوى مراجع الشيعة، ومن أشهرهم آية الله العظمى محسن الحكيم بمنع صلاة الجمعة حال غياب الإمام المهدي المنتظر، فأقام الخالصي صلاة الجمعة في الكاظمية أولاً، ثم في كربلاء، ثم سعى لإقامة صلاة الجمعة موحدة بين الشيعة والسنة.

عمل الخالصي على وحدة المسلمين، من خلال فتحه باب الحوار والتعاون مع علماء المسلمين السنة في شتى البقاع، فاتصل بالشيخ بهجت البيطار في الشام، ونسّق للعمل السياسي مع قادة العراق السنة كالشيخ أحمد الزهاوي مفتي العراق، والشيخ فؤاد الألوسي، وله صحبة مميزة مع الشيخ عبد العزيز البدري، ويكفي موقفه في الاستنفار إلى قتال الطليان في ليبيا دليلاً على روحه الوطنية.

وهذا لا يعني أنه تخلّى عن المذهب الشيعي وعن آرائه فيه (كوقفه من الصحابة) ولكن مراسلاته الصريحة وحواره مع علماء أهل السنة أثبتت أن مدرسته كانت جدية في طلب الوصول إلى الحق في حوار له أهل السنة والجماعة، لم يمار ولم يدار ولم يستخدم التقيّة.

وقد تعرض الخالصي لحرب ضروس من مراجع الشيعة الكبار في زمنه مثل الشيخ محسن الحكيم، ومحمد حسين آل كاشف الغطاء، ولكن مكانة الخالصي العلمية وقربه من والده آية الله العظمى، ونضاله وجهاده - جعلت مهمة أعدائه في حربه شديدة الصعوبة، فلدجؤوا إلى تلفيق الأكاذيب حوله، فاتهمه بعضهم بالعمالة للإنكليز، وأن نفية مع أيه إلى إيران كان يهدف لجعله جاسوساً على أيه، وأن حربه على الشيخية إنما كانت من أجل تقوية زعامته الدينية من خلال مزاحمة زعيمها أبي القاسم زين العابدين ابن كريم خان الكرمانلي. كما زعم خصومه أن أطباء إيران حكموا على الخالصي بالجنون بعد الفحص الدقيق، أما سعيه في سبيل الوحدة الإسلامية مع أهل السنة، فإنه جعل أعداءه يتهمونه بمخالفة ضروريات الدين^(١).

ولأجل ذلك حرّمت تلك المراجع تقليده، حتى قال عادل رؤوف: « إنه من سوء الحظ للعراق أنه لم يكن الخالصي الابن مرجحاً أعلى » يعني للشيعة بعد وفاة أيه^(٢).

(١) التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، تأليف: خالد بن محمد بن صالح البديوي (ص ٣٢٥).

(٢) عادل رؤوف: عراق بلا قيادة (ص ١٦٠).

وبعد موت الخالصي نرى أن أولاده من بعده ساروا على خطى والدهم، ولهم اليوم مدرسة علمية ممثلة بالشيخ جواد الخالصي (١).

وقد أثبت طروء الاحتلال على العراق - الإنكليزي والأمريكي - أن أتباع مدرسة الخالصي لم يلبّطخوا يدهم في الحرب الطائفية، ولم يستكينوا ضد المحتل الغاصب.

٢ - آية الله العظمى محمد حسين فضل الله (٢):

آية الله العظمى أبو علي محمد حسين بن عبد الرؤوف بن نجيف فضل الله. لبناني الأصل، ولد في مدينة النجف عام (١٩٣٥ م)؛ حيث كان أبوه مقيمًا فيها، درس في النجف، في مدرسة على النظام الحديث في النجف، ثم التحق بالحوزة العلمية في النجف. واطلع على الحركة العلمية في مصر من خلال المجالات التي ازدهرت في تلك الآونة مثل (الرسالة، والكاتب، والمصور).

- من مؤلفاته:

- ١ - مفاهيم إسلامية.
- ٢ - الحوار في القرآن.
- ٣ - تأملات في الفكر السياسي الإسلامي.
- ٤ - صلاة الجمعة الكلمة والموقف.
- ٥ - الحركة الإسلامية هموم وقضايا.
- ٦ - أحاديث في قضايا الاختلاف والوحدة.

أنكر فضل الله الولاية التكوينية، ورأى أن مهمة الأنبياء التشريعية في الأمة تجعلهم في غنى عن الولاية التكوينية، كما أنكر خرافات القصص وغلوهم في الأئمة، كزعمهم أن الأئمة يعلمون الغيب، وكذلك أنكر تحريف القرآن الكريم، كما أنكر شتم الصحابة الكرام، وأفتى بتحريم التطبير.

كما نادى آية الله حسين فضل الله بوحدة المسلمين بعيدًا عن الطائفية قائلاً: « إنني أرى أن يفكر المسلم الشيوعي كمسلم، لا كشيوعي يعيش في دائرته الضيقة التي يختنق

(١) التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، تأليف: خالد بن محمد بن صالح البديوي (ص ٣٢٩).

(٢) خالد بن محمد بن صالح البديوي: أعلام التصحيح والاعتدال؛ مناهجهم وآراؤهم (ص ٣٨٤ - ٤٣٥).

فيها بعصبيته، وأن يفكر المسلم السني كمسلم قبل أن يفكر بسنيته» (١).
حورب آية الله فضل الله من أقرانه من آيات الشيعة، وأصدرت الفتاوى بتحريم قراءة كتبه، بل وبتكفيره وإخراجه من الدين (٢). وصدرت فتوى عن المرشد الأعلى للثورة الإيرانية السيد الخامني تقرر أن العدول عن تقليد فضل الله صحيح، بسبب انحرافات الفكرية.

ويقول عنه محمد تقي بهجت: «إنه مشروع وهابي ينخر في كيان التشيع من داخله» (٣).
ويقول آية الله العظمى الميرزا جواد التبريزي عن أقوال فضل الله: «خلاف المسلمات بل ضروريات المذهب الحق، وقائلها خارج عن طريق المذهب الاثني عشري، وأن فضل الله ومن يساهم في نشر أقواله يدخلون في عنوان من يشري مرضاة أعدائنا بسخط الخالق» (٤).

وآخر ما يتوقعه المرء أن يأتي طعن فضل الله من قبل أحد دعاة التقريب في لبنان، وهو الشيخ محمد مهدي شمس الدين، حيث وقع تحت يدي صورة لنقص رسالة منه إلى آية الله العظمى الميرزا جواد التبريزي، يؤيد فيها فتواه ضد فضل الله.

وجاء فيها قول شمس الدين مخاطباً التبريزي: «وقد كان موقفكم المرجعي القيادي موضع تقدير كبير عند علماء الدين في لبنان وفي الحوزات الدينية اللبنانية المبنية على التقوى، وقد تبين لنا من شأن هذا الرجل في عقيدته وسلوكه منذ سنين ما دعانا إلى التحذير من خطر أفكاره وسلوكه على الدين وعلى وحدة المؤمنين، ولكن المؤسف أن تحذيرنا لم يُسمع، بل قوبل بالإهمال، واستمرت بعض الجهات في دعمه ماليًا ومعنويًا حتى تعاضم خطره بالصورة التي ظهرت أخيراً، وغداً خطراً على مذهب الإمامية وعلى سلامة بعض العقائد الإسلامية الأساسية؛ حيث إن انحرافات لم تقتصر على آحاد القضايا العقائدية، بل تبلغ العشرات، ويقول بعض المتبعين: إنها مئات، وغدت أفكاره

(١) السيد محمد حسين فضل الله: مقابلة في جريدة القدس العربي عدد (٣٠٣٥)، (ص ١٨)، بتاريخ (٢٤) شوال (١٤١٩هـ / ١٩٩٩م).

(٢) جاء بيان أساتذة الحوزة العلمية في قم تحارب أفكاره وتحرم قراءة كتبه وتنسبه إلى الضلال، وكذلك أفتى آية الله العظمى النكراني بتحريم قراءة كتبه وبيعها. راجع موقع البرهان؛ حيث هناك صور لوثائق تحتوي عدة فتاوى حول المرجع حسين فضل الله: قسم الوثائق، تحت عنوان الحوزة العلمية تدين الانحراف، القسم الثالث.

(٣) فتنة فضل الله: فصل الموقف من الفتنة.

(٤) الحوزة العلمية تدين الانحراف، القسم الثالث، وثيقة (١٢)، الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).

المعلنة وما يسميه (فتاواه) حجة يتسلح بها أعداء الدين من جهة، وأعداء المذهب من جهة أخرى، والمتربصون شرًا بالمرجعية الدينية للشيععة الإمامية من الأجانب وغيرهم من جهة ثالثة، كما غدا فتنة وحجة لأتباع المدينة الغربية من الشيعة من جهة رابعة.. »^(١).

ولكن كل هذا الهجوم من رموز الاثني عشرية على الشيخ فضل الله لا يسوّغ لنا أن نصنّفه في المجموعة الأولى التي هجرت التشيع الاثني عشري؛ لأن فضل الله ما يزال مرجعًا دينيًا لدى أتباعه من الاثني عشرية، وله كلمته المؤثرة في الوسط الشيعي. كما أنه وإن قام بتطويع هذا المذهب في كثير من القضايا لما ينسجم مع الرؤية القرآنية، التي هي رؤية الأمة الإسلامية؛ فإن دوره في تعزيز المذهب الاثني عشري في الواقع ما يزال قائمًا.

وقد تعرض فضل الله لحادثة اغتيال في الجمعة (٨) / آذار / (١٩٨٥ م)، في مجزرة عُرفت بمجزرة بئر العبد؛ حيث وقع الانفجار قبل أن يخرج فضل الله من المسجد بسبب تأخره في إجابة امرأة استفتته في المسجد، وكان حصيلة الانفجار (٨٠) قتيلًا^(٢).

٣ - محمد باقر البهودي:

محقق ومدقق بارع في التراث الاثني عشري، ولخبرته في هذا المضمار أعاد النظر في صحة أحاديث كتاب (الكافي)، المصدر الحديثي الأول للاثني عشرية، مخالفًا في التصحيح والتضعيف طريقة من سبقه، فسطر كتابه: (الصحيح من الكافي) في ثلاثة مجلدات^(٣). واعتبر الصحيح من روايات الكافي (٤٤٢٨) رواية من أصل (١٦١٢١)^(٤)، وأسقط من حسابه عددًا من أبواب كتاب الكافي؛ لأنها تمثل تسربات فكر الغلاة، مثل: باب أن الأئمة إذا شأؤوا أن يعلموا علموا، وباب أن الأئمة يعلمون متى يموتون، ولا يموتون إلا باختيار منهم، وباب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم الشيء، كما حذف روايات تحوي جملة من العقائد التي تُنتقد فيها الشيعة، مثل روايات باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة، والروايات التي تنسب التحريف لكتاب الله تعالى، مع أن المجلسي حكم عليها بالصحة في مرآة العقول^(٥).

(١) صورة لنص رسالة تأييد الشيخ محمد مهدي شمس الدين من لبنان إلى الميرزا جواد التبريزي بتاريخ

(١٤) / جمادى الآخر / (١٤١٨ هـ)، الحوزة العلمية تدين الانحراف الشبكة العنكبوتية (الإنترنت).

(٢) التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم، تأليف: خالد بن محمد بن صالح البديوي (ص ٣٨٥).

(٣) البهودي: صحيح الكافي، طبعة الدار الإسلامية (١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م).

(٤) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣٤٤/٣).

(٥) انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٦٩/١).

ولكن لم يُسمع لليهودي، فكأن فعله كان صحيحة في واد، أو نفخة في رماد؛ فقد انتقده كثير من علماء الشيعة - وعلى الأخص الأخباريون منهم - على هذه الخطوة الجريئة، واعتبروا فعله هذا «إساءة كبيرة إلى التراث الشيعي، بل إساءة إلى أهل البيت عليهم السلام» (١).

المجموعة الثالثة: (أدعياء الاعتدال):

إن كثيراً من علماء الاثني عشرية صرّحوا بكل وضوح بعقائدهم وآرائهم التي خالفوا فيها أهل السنة والجماعة، ولم يجدوا أنفسهم مضطرين إلى التقيّة أو ادعاء تطوير المذهب أو تعديله، فهم غير مهتمين بنظرة الآخرين إليهم، ونحن نشكرهم على صراحتهم هذه، ولعلّها تكون مدخلاً لحوار بّناء يوصلنا معاً إلى قواسم مشتركة كثيرة. ولكن هنالك شخصيات أخرى أرادوا إظهار المذهب الاثني عشري بمظهر آخر، محاولين عرضه بأسلوب إعلامي يجلب الأنظار، ويكثر الأتباع والأنصار، مدّعين أنهم أصحاب الاعتدال والتقريب والوحدة بين المسلمين، ولكن دون أن يعطونا الدليل، بل جاءت الأدلة تخالف دعواهم، ومن هذه الأدلة:

- أولاً: أنهم لو صدقوا في دعواهم محاربة الغلو لأنكروا مظاهره على كثرتها في المجتمع الشيعي، كما فعل إخوانهم من أصحاب المجموعة الأولى والثانية، بل رأينا منهم العكس؛ فهم يجاملون الغلاة، فمنهم من يقمّم لكتب الغلاة ويشني عليها.
 - ثانياً: أنهم عندما يترجمون للمغالين - كالقائلين بتحريف القرآن الكريم - لا ينكرون على مؤلفيها، بل يترحمون ويشنون عليهم (٢).
- وعلى سبيل المثال:

١ - محمد جواد مغنية:

.. الذي يتظاهر بالتقريب مع أهل السنة، ويحاول أن يظهر بمظهر العالم الاثني عشري المعتدل الذي يحزّم اللطم والتطبير، ولكنه يمدح محمد حسن النجفي الذي أباح غيبة وهجاء مخالفتي الشيعة، ويقول عنه وعن كتابه الجواهر: «لم يؤلف أحد مثل كتاب (الجواهر) في سعته وإحاطته وعمقه وتدقيقاته... إن توفيق كتاب الجواهر ورواجه يعود

(١) عبد الرسول عبد المحسن الغفاري: الكليني والكافي (ص ٤٣٢): مؤسسة النشر الإسلامي - قم (١٤١٦هـ)، (ط ١).

(٢) عبد الله عبد الله الموصلي: حقيقة الشيعة (ص ١٠٠).

بالدرجة الأولى إلى إخلاص مؤلفه وطيب سريرته وتواضعه لله وللناس... ورحم الله صاحب الجواهر؛ فقد كانت له مناقب لا يبلغها الحصر»^(١).

كما يشني مغنية أيضاً على الشيخ يوسف البحراني صاحب الحدائق الناضرة الذي كَفَّر المخالفين لفكر الشيعة، وفي مقدمتهم أهل السنة^(٢).

٢ - الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني (من كبار علماء (سمنان) بإيران):

إنه لتناقض عجيب أن يؤكد بعض علماء الاثني عشرية على سلامة القرآن من التحريف، ثم بعد ذلك يشني على من تولَّى كبره في العصر الحديث وهو النوري الطبرسي صاحب مستدركات الوسائل.

فالحائري المازندراني يسطر المقالات في التقريب مع أهل السنة، ولكنه مع ذلك يقول أثناء تعريفه بكتب الاثني عشرية: « (مستدركات الوسائل) لمحمد الحسين المرحوم المعاصر النوري، صاحب المؤلفات الكثيرة المطبوعة »^(٣). ومن المعلوم أن النوري الطبرسي صاحب المستدركات هو صاحب الفرية الكبرى في تحريف القرآن الكريم، فهو مؤلف كتاب: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب)؛ فكيف يمتدحه المازندراني، ثم يأتي ويدّعي التقريب مع أهل السنة؟.

٣ - الشيخ عبد الحسين شرف الدين:

ومما يدل على التناقض بين المبدأ والتطبيق في فكر مدّعي الوسطية والاعتدال والتقريب قولهم ما يخالف أفعالهم، فهم يدعون للتقريب بين المذاهب الإسلامية باللسان، ويهدمون وحدة الأمة بالأفعال والأقلام والبنان.

ومن أمثلة هؤلاء عبد الحسين شرف الدين، فقد ذكر الدكتور مصطفى السباعي رحمته الله أنه رأى عبد الحسين شرف الدين عام (١٩٥٣ م) في صور، وأنه حدّثه عن التقريب والوحدة بين المسلمين، ولكن عبد الحسين يؤلف بعد أعوام كتاب: (أبو هريرة)^(٤)

(١) محمد جواد مغنية: مع علماء النجف الأشرف (ص ٨١ - ٨٤) دار الجواد - بيروت (١٩٨٤ م).

(٢) محمد جواد مغنية: مع علماء النجف الأشرف (ص ٦٩). وانظر: حقيقة الشيعة: عبد الله عبد الله الموصللي (ص ٤١، ٤٢).

(٣) انظر: منهج عملي للتقريب: الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني من كبار علماء « سمنان » بإيران. مطبوع ضمن كتاب الوحدة الإسلامية (ص ٤٣٠ - ٤٣٢).

(٤) السنة ومكانتها في التشريع (ص ٨، ٩).

يحكم فيه على هذا الصحابي الجليل بالنفاق والاختلاق والكذب^(١)، وأن «أبا هريرة كلما ازداد مثالة زاده الله رعالة»^(٢). مع أن من أهم ما يُعرف به الغلاة: النيل من صحابة النبي ﷺ وتكفيرهم.

ثم ينتقص عبد الحسين من البخاري ومسلم وأحمد - رحمهم الله تعالى -؛ لأنهم رووا عن أبي هريرة رضي الله عنه قائلًا: «وايم الله! إنني لا ينقضي عجبني من البخاري ومسلم وأحمد وأمثالهم ممن يرجعون إلى عقل أصيل ورأي جميع، ثم ينقادون انقياد الأكمه الأبله إلى ما يشاء أبو هريرة وأمثاله»^(٣).

فأي وحدة وأي تقريب يدعي هؤلاء وأمثالهم، وهم ينتقصون صحابة النبي ﷺ ورموز ورجالات أهل السنة!!

وبناء على هذا التقسيم يتوجب على من رام الإنصاف ألا يرمي جميع علماء الاثني عشرية بالغلو؛ فإن منهم من قصد الحق فأصابه، ومنهم من حاول وقارب الوصول إلى الحق، ومنهم من لزم الحق في مسائل، وغاب عنه الحق في مسائل أخرى، ومنهم من علم الحق، ولكن أسكته عن الصدع به ما رآه من مصير العلماء الذين خرجوا على الخط العام، فأصابهم الذبح أو التشريد أو التهميش.

كما يتوجب أيضًا مد اليد إلى هؤلاء العلماء المنصفين المعتدلين ومن سار على دربهم (من المجموعة الأولى والثانية) لبناء مستقبل مشرق للأمة الإسلامية بعيدًا عن التطرف والغلو والطائفية.

أما أصحاب المجموعة الثالثة ومن لفّ لقمهم فإننا نهمهم وننظرهم، ونتركهم للأيام، فهي كفيلة بإظهار ما أبطنوه، وكشف ما يتتوه.

وعلى كلّ الأحوال فإن لهم منّا التسامح وحسن التعايش والتناصح الذي أمرنا به الإسلام؛ عسى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويقتدوا بإخوانهم الذين عرفوا الحق فاتبعوه.

(١) يتهم عبد الحسين شرف الدين الموسوي أبا هريرة بأنه كان: «يلفق أحاديث في فضائل الخليفين نزولاً على رغائب معاوية... وتارة يرتجل أحاديث يدافع فيها عن منافقي بني أمية». أبو هريرة (ص ٤٥ - ٤٧).

(٢) عبد الحسين شرف الدين الموسوي: أبو هريرة (ص ٦٨)، وشرحها في الهامش بقوله: مثل يضرب لمن كان كلما ازداد رزقاً ازداد حمقاً.

(٣) عبد الحسين شرف الدين الموسوي: أبو هريرة (ص ٢١٣).



الفصل الثاني

مصادر تلقي العقيدة عند الاثني عشرية
(وفيه مباحث):

المَبْحَثُ الْأَوَّلُ: نظرية اختصاص آل البيت بعلوم الوحي
بعد النبي ﷺ ونقضها.

المَبْحَثُ الثَّانِي: موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم.

المَبْحَثُ الثَّلَاثُ: السنة عند الاثني عشرية.

المَبْحَثُ الرَّابِعُ: بعض مصادر التلقي الخلافية بين أهل السنة
والاثني عشرية.

تمهيد



إذا كانت العقيدة السنّية مستمدة من القرآن الكريم والسنة المشرفة والإجماع؛ فإن الشيعة الاثني عشرية ترى أن « أصول الأحكام ثلاثة: الكتاب، والسنة النبوية، وأقوال الأئمة »^(١).

فإذا كان الأصلان الأساسيان (القرآن والسنة) متفقًا عليهما إجمالًا بين أهل السنة والإمامية: فقد قال جعفر الصادق عليه السلام: « من خالف كتاب الله وسنة محمد صلى الله عليه وآله فقد كفر »^(٢)، وقال داعيًا للتمسك بالكتاب والسنة، ولو خالف أقوال الرجال: « من أخذ دينه من أفواه الرجال أزالته الرجال، ومن أخذ دينه من الكتاب والسنة زالت الجبال ولم يزل »^(٣).

ولكن هذا لا يعني اتفاق السنة والإمامية تفصيليًا حول القرآن والسنة. وسيظهر الخلاف من عدة نواح:

- من حيث طريق الوصول إلى معاني القرآن الكريم وتفسيره، هل هو شامل لكل خبر صحيح وصلنا عن الصحابة الكرام أو آل بيت النبي صلى الله عليه وآله، كما هي طريقة أهل السنة والجماعة؟ أم أن معرفة أسرار التفسير مقتصرة على ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله من طريق الأئمة الاثني عشر دون غيرهم من الصحابة والتابعين؟

- كما أن هناك خلافا كبيرا حول سلامة القرآن من التحريف، وما ورد في ذلك من روايات وأقوال لدى الشيعة الاثني عشرية، في حين تُعدّ سلامة القرآن من التحريف من مسلمات العقيدة لدى أهل السنة والجماعة.

- وبالنسبة للسنة من حيث مصدرها (أو مفهومها) فهي مقتصرة على سنة النبي صلى الله عليه وآله

(١) محمد رضا المظفر: أصول الفقه (١٢١/٣)، النجف (١٩٦٧م). وبهذا نعلم أن الاثني عشرية لا يعدون الإجماع ولا القياس من مصادر التشريع عندهم. وأما القياس فقد ذمته روايات الأئمة بشدة. وأما الإجماع فلا يعتبر إلا إذا كان بين الجمع بين إمام من الأئمة المعصومين.

(٢) الكليني: أصول الكافي (١٢٣/١)، كتاب العلم، باب الأخذ بالسنة وشواهد الكتاب.

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٥٧).

كما يعتقد أهل السنة، أم أنها تطلق على سنة النبي ﷺ وسنة الأئمة الاثني عشر بالدرجة نفسها من حيث الإلزام والقوة؟

- وكذلك هناك خلاف كبير حول مظانّ السنة، أي الكتب الحديثية التي حوتها، بين السنة والاثني عشرية. بحيث تختلف مصادر الحديث - والتفسير من قبل ذلك - بين كل طائفة منهما.

وهناك كلام كثير حول المصادر التبعية بعد القرآن والسنة، من الإجماع والقياس، وكذلك خلاف عريض حول بعض المصادر التي تفرد بها الشيعة، وأنكرها أهل السنة والجماعة، كالإلهام وتوقيعات الأئمة.

* * *

المبحث الأول

نظرية اختصاص أهل البيت بعلوم

الوحي بعد النبي ﷺ ونقضها



يجيب هذا المبحث عن سؤال كبير، وهو: هل اختص علي ﷺ وأئمة الاثني عشرية من بعده بعلوم الوحي من تفسير وحديث بعد النبي ﷺ دون صحابة النبي وأزواجه الذين صاحبوه في حضره وسفره؟

تؤكد الروايات عن الأئمة اختصاص الأئمة وحدهم بالعلوم كلها، وأهمها علوم القرآن والسنة؛ فعن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر ﷺ يقول: « ليس عند أحد من الناس حق ولا صواب ولا أحد من الناس يقضي بقضاء حق إلا ما خرج منا أهل البيت، وإذا تشعبت بهم الأمور كان الخطأ منهم والصواب من علي ﷺ » (١).

- ومن وصفه الله تعالى في كتابه بالعلم هم الأئمة ﷺ:

عن جابر عن أبي جعفر ﷺ في قوله ﷺ: ﴿ .. هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩]؟ قال: « نحن الذين يعلمون، وعدونا الذين لا يعلمون، وشيعتنا أولو الألباب » (٢).

- والأئمة أهل الذكر ولا يسأل غيرهم:

وعن معلّى بن محمد عن الوشاء قال: سألت الرضا ﷺ فقلت له: « جعلت فداك ﴿ فَتَشْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] فقال: نحن أهل الذكر ونحن المسؤولون، قلت: فأنتم المسؤولون ونحن السائلون؟ قال: نعم. قلت: حقاً علينا أن نسألكم؟ قال: نعم. قلت: حقاً عليكم أن تجيبونا؟ قال: لا، ذاك إلينا إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل. أما تسمع قول الله تبارك وتعالى: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩] » (٣).

(١) أصول الكافي (٤٦٤/١) كتاب الحجّة باب أنّه ليس شيء من الحقّ في يد الناس إلا ما خرج من عند الأئمة ﷺ وأنّ كلّ شيء لم يخرج من عندهم فهو باطلٌ. والحديث صحيح كما ذكر محقق أصول الكافي.
(٢) أصول الكافي (٢٦٩/١) كتاب الحجّة، باب أنّ من وصفه الله تعالى في كتابه بالعلم هم الأئمة ﷺ.
(٣) أصول الكافي (٢٦٧/١) كتاب الحجّة، باب أنّ أهل الذّكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الأئمة ﷺ.

- فالقرآن الكريم جمعًا وحفظًا وتفسيرًا وتأويلًا منوط بالأئمة دون غيرهم من الناس: عن أبي بصير قال: قال أبو جعفر عليه السلام في هذه الآية: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْدُتُ فِي صُورِ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]: «أما والله يا أبا محمد! ما قال بين دفتي المصحف. قلت: من هم جعلت فذاك؟ قال: من عسى أن يكونوا غيرنا؟»^(١). وفي ضوء تفسير الأئمة لهذه الآية قال المازندراني: «ما: نافية، يعني ما قال (بينات) أي واضحات بين دفتي المصحف؛ لأنه خفي غير واضح بينهما»^(٢).

وعن حمزة عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبْدُتُ فِي صُورِ الَّذِينَ أوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] «قال: هم الأئمة عليهم السلام خاصة»^(٣).
- وكذلك فإن تأويل القرآن عند الأئمة وحدهم؛ لأنهم هم - دون غيرهم - الراسخون في العلم:

عن بريد بن معاوية عن أحدهما عليهما السلام في قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَسْأَلُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧] «فرسول الله ﷺ أفضل الراسخين في العلم قد علمه الله تعالى جميع ما أنزل عليه من التنزيل والتأويل. وما كان الله لينزل عليه شيئًا لم يعلمه تأويله وأوصياؤه من بعده يعلمونه كله»^(٤).

- ويروون عن علي عليه السلام قوله: «ليس كل أصحاب رسول الله ﷺ كان يسأله فيهم، وكان منهم من يسأله ولا يستفهم»^(٥). وأن عليًا عليه السلام قد اختصه النبي ﷺ بخصائص منها فهم القرآن؛ فقد جاء في بعض الروايات ما يفسر تفرد علي - رضوان الله عليه - بالعلم عن رسول الله ﷺ بقرب علي عليه السلام من رسول الله ﷺ، وطول خلواته مع رسول الله ﷺ:
عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: وقد كنت أدخل على رسول الله ﷺ كل يوم دخلةً وكل ليلة دخلةً فيخيلني فيها أدور معه حيث دار، وقد علم أصحاب رسول الله ﷺ أنه لم يصنع ذلك بأحدٍ من الناس غيري فربما كان في بيتي يأتيني رسول الله ﷺ أكثر ذلك في بيتي، وكنت إذا دخلت عليه بعض منازل أخلاقي وأقام عتي نساءه، فلا يبقى عنده غيري، وإذا أتاني للخلوة معي في منزلي لم تقم عتي فاطمة ولا أحدٌ من بني، وكنت إذا

(١) أصول الكافي (٢٧١/١) كتاب الحجّة، باب أنّ الأئمة قد أوتوا العلم وأثبت في صدورهم.

(٢) شرح المازندراني على الكافي (٣٢٩/٥). (٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) أصول الكافي (٢٧٠/١) كتاب الحجّة، باب أنّ الراسخين في العلم هم الأئمة عليهم السلام.

(٥) كتاب سليم بن قيس (ص ١٨٣). تحقيق محمد باقر الزنجاني الأنصاري.

سألته أجبني، وإذا سكّته عنه وفنيت مسائلي ابتدائي، فما نزلت على رسول الله ﷺ آية من القرآن إلا أقرأنيها وأملاها عليّ فكتبتها بخطي وعلمني تأويلها وتفسيرها وناسخها ومنسوخها ومحكمها ومتشابهها وخاصها وعامها ودعا الله أن يعطيني فهمها وحفظها، فما نسيت آية من كتاب الله ولا علماً أملاه عليّ وكتبته منذ دعا الله لي بما دعا، وما ترك شيئاً علمه الله من حلالٍ ولا حرامٍ ولا أمرٍ ولا نهْيٍ كان أو يكون ولا كتابٍ منزلٍ على أحدٍ قبله من طاعةٍ أو معصيةٍ إلا علمنيّه وحفظته، فلم أنس حرفاً واحداً، ثم وضع يده على صدري ودعا الله لي أن يملأ قلبي علماً وفهماً وحكماً ونوراً. فقلت: يا نبي الله بأبي أنت وأمّي! منذ دعوت الله لي بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتني شيءٌ لم أكتبه، أفتتخوف عليّ التسيان فيما بعد؟ فقال: « لا لست أتخوف عليك التسيان والجهل » (١).

وقد أكد أحد شيوخ الاثني عشرية المعاصرين (حسين البروجردي) العقيدة المنبثقة عن هذه الروايات قائلاً: « اعلم أن علم القرآن مخزون عند أهل البيت، وهو مما قضت به ضرورة المذهب » (٢).

- كما أن هنالك روايات أخرى تنسب إلى الأئمة علوماً أخرى بكتب خاصة، غير القرآن الكريم؛ إذ تدعي وجود كتب خاصة بعلي عليه السلام كالجامعة:

عن أبي شيبة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « ضلّ علم ابن شيرمة عند الجامعة إملاء رسول الله ﷺ وخطّ علي عليه السلام بيده، إنّ الجامعة لم تدع لأحدٍ كلاماً فيها علم الحلال والحرام، إنّ أصحاب القياس طلبوا العلم بالقياس فلم يزدادوا من الحق إلا بعداً. إنّ دين الله لا يصاب بالقياس » (٣).

وعن أبي بصير قال: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: « جعلت فداك، إنّي أسألك عن مسألة هاهنا، أحدٌ يسمع كلامي؟ قال: فرفع أبو عبد الله عليه السلام سترًا بينه وبين بيتٍ آخر، فاطّلع فيه ثم قال: يا أبا محمّدٍ سل عمّا بدا لك. قال: قلت: جعلت فداك، إنّ شيعتك يتحدّثون أنّ رسول الله ﷺ علّم عليّاً عليه السلام باباً يفتح له منه ألف باب. قال: فقال: يا أبا محمّدٍ! علّم رسول الله ﷺ عليّاً عليه السلام ألف باب يفتح من كلّ بابٍ ألف بابٍ... »

(١) أصول الكافي (١١٨/١، ١١٩)، كتاب فضل العلم باب اختلاف الحديث، وانظر: كتاب سليم ابن قيس (ص ١٨٣).

(٢) تفسير الصراط المستقيم (٤/٣).

(٣) أصول الكافي (١٠٤/١) كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس.

وإنّ عندنا الجامعة وما يدريهم ما الجامعة؟! قال: قلت: جعلت فداك، وما الجامعة؟ قال: صحيفةٌ طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله ﷺ وإملائه من فلق فيه وخطّ عليّ بيمينه، فيها كلّ حلالٍ وحرامٍ وكلّ شيءٍ يحتاج الناس إليه حتّى الأرش في الخدش... وإنّ عندنا الجفر وما يدريهم ما الجفر؟! قال: قلت: وما الجفر؟ قال: وعاءٌ من آدم فيه علم التبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل... ثمّ قال: وإنّ عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام وما يدريهم ما مصحف فاطمة عليها السلام؟! قال: قلت: وما مصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: مصحفٌ فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرّات، والله ما فيه من قرآنكم حرفٌ واحدٌ. قال: قلت: هذا والله العلم... ثمّ قال: إنّ عندنا علم ما كان وعلم ما هو كائنٌ إلى أن تقوم الساعة. قال: قلت: جعلت فداك، هذا والله هو العلم. قال: إنّه لعلمٌ، وليس بذاك. قال: قلت: جعلت فداك فأيّ شيءٍ العلم؟ قال: ما يحدث بالليل والنهار الأمر من بعد الأمر، والشّيء بعد الشّيء إلى يوم القيامة» (١).

عن الحسين بن أبي العلاء قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «إنّ عندي الجفر الأبيض قال: قلت: فأيّ شيءٍ فيه؟ قال زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى ومصحف إبراهيم عليه السلام والحلال والحرام ومصحف فاطمة، ما أزعم أنّ فيه قرآناً، وفيه ما يحتاج الناس إلينا ولا نحتاج إلى أحدٍ، حتّى فيه الجلدة ونصف الجلدة وربيع الجلدة وأرش الخدش، وعندي الجفر الأحمر. قال: قلت: وأيّ شيءٍ في الجفر الأحمر؟ قال: السّلاح وذلك إنّما يفتح للدّم يفتحه صاحب السيف للقتل. فقال له عبد الله بن أبي يعفور: أصلحك الله! أيعرف هذا بنو الحسن، فقال: إي والله! كما يعرفون الليل أنّه ليلٌ والنهار أنّه نهارٌ، ولكنهم يحملهم الحسد وطلب الدّنيا على الجحود والإنكار، ولو طلبوا الحقّ بالحقّ لكان خيراً لهم» (٢).

فهذه الرواية تثبت وجود كتب خاصة عند الأئمة، ولكنها تثبت أن الجامعة وأمثالها ليست قرآناً، حتى لا تستمر دعوى تحريف القرآن ملاصقة للشيعنة بسبب الرواية السابقة لها على الأقل. وإن كان في الرواية ما يشكل؛ فما حاجة البشر إلى الصحف الأولى

(١) أصول الكافي (٢٩٥/١) باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٢٩٦/١) باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث حسن.

ما دام القرآن قد نسخ تلك الشرائع السابقة؟ بل نسخ بعضها بعضاً؛ فهذا عيسى عليه السلام نسخ بعض أحكام التوراة، كما ذكر القرآن الكريم على لسان عيسى عليه السلام: ﴿ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَأَلْحَلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فما الحاجة إلى التوراة إذن، وقد قال تعالى في حق كتابه القرآن الكريم: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا.. ﴾ [المائدة: ٤٨] .

- وتذكر بعض الروايات نزول جبريل عليه السلام على فاطمة بعلم ومعارف:

عن أبي عبيدة قال: « سأل أبا عبد الله عليه السلام بعض أصحابنا عن الجفر فقال: هو جلد ثور مملوء علمًا، قال له: فالجامعة؟ قال: تلك صحيفة طولها سبعون ذراعًا في عرض الأديم مثل فخذ الفالج فيها كل ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضية إلا وهي فيها حتى أرش الخدش. قال: فمصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: فسكت طويلًا ثم قال: إنكم لتبحثون عما تريدون وعما لا تريدون. إن فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وسبعين يومًا، وكان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة عليها السلام » (١).

- وتؤكد روايات كثيرة أن الأئمة هم خزنة علم الله:

عن عبد الرحمن بن كثير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « نحن ولاة أمر الله وخزنة علم الله وعيبة (٢) وحي الله ».

وعن سورة بن كليب قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: « والله! إننا لخزنان الله في سمائه وأرضه، لا على ذهب ولا على فضة إلا على علمه » (٣).

وعن سدير عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك ما أنتم؟ قال: « نحن

(١) أصول الكافي (٢٩٧/١) باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح. وورد قريبًا منه كتاب الحجة باب مولد الزهراء فاطمة (٥٣٠/١) نص المحقق على صحته.

(٢) عيبة (الرجل) خاصته وموضع سره، والعيبة ما يجعل فيه الثياب. المازندراني (٢٠١/٥، ٢٠٢) أصول الكافي (٢٤٨/١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه.

(٣) أصول الكافي (٢٤٨/١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه.

خُزَّانِ عِلْمِ اللَّهِ وَنَحْنُ تَرَاجِمَةٌ وَحْيِ اللَّهِ، وَنَحْنُ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ عَلَيَّ مِنْ دُونِ السَّمَاءِ وَمِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ» (١).

وعن أبي حمزة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ: « قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: اسْتِكْمَالُ حُجَّتِي عَلَيَّ الْأَشْقِيَاءُ مِنْ أَمْتِكَ مِنْ تَرْكِ وَايَةِ عَلِيِّ وَالْأَوْصِيَاءِ مِنْ بَعْدِكَ، فَإِنَّ فِيهِمْ سِتْنِكَ وَسِتَّةَ الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِكَ، وَهُمْ خُزَّانِي عَلَيَّ عِلْمِي مِنْ بَعْدِكَ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لَقَدْ أَنْبَأَنِي جِبْرِئِيلُ عليه السلام بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ» (٢).

لقد اعترض الطبرسي في مجمع البيان على من نسب إلى الشيعة أنهم يقولون: إن الأئمة يعلمون الغيب، وجعل هذه النسبة من الظلم للإمامية، وقال: « ولا نعلم أحدا منهم استجاز الوصف بعلم الغيب لأحد من الخلق » (٣)، وأكد على ذلك صاحب (الشيعة في الميزان) (٤)، مع أن روايات الشيعة أنفسهم تزعم أن الأئمة يعلمون غيوب أخبار السماء والأرض، فهم على حد تعبير الكليني: (يعلمون علم ما كان وما يكون؟ وأنه لا يخفى عليهم الشيء)، وهذا عنوان باب في أصول الكافي.

وعن ضريس الكناسي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: « أترون أنّ الله - تبارك وتعالى - افترض طاعة أوليائه على عباده، ثم يخفي عنهم أخبار السماوات والأرض، ويقطع عنهم مواد العلم فيما يرد عليهم مما فيه قوام دينهم؟! » (٥).

- كما أن بعض الروايات تذكر اختصاص الأئمة بعلوم لا يعلمها الملائكة المقربون ولا الرسل والأنبياء:

عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال: « إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِلْمِينَ: عَلِمًا أَظْهَرَ عَلَيْهِ مَلَائِكَتَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ وَرَسُولَهُ؛ فَمَا أَظْهَرَ عَلَيْهِ مَلَائِكَتَهُ وَرَسُولَهُ وَأَنْبِيَاءَهُ فَقَدْ عَلِمَنَاهُ، وَعَلِمًا اسْتَأْثَرَ

(٢، ١) أصول الكافي (٢٤٨/١) كتاب الحجة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه.

(٣) الطبرسي: تفسير مجمع البيان عند تفسير قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [هود: ١٢٣]. (٣٥٢/٥).

(٤) محمد جواد مغنبة: الشيعة في الميزان (ص ٤٣).

(٥) أصول الكافي (٣١٧/١) كتاب الحجة باب أن الأئمة عليهم السلام يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم الشيء صلوات الله عليهم. قال المحقق: وهذا الحديث صحيح. وانظر هذه الجراة من الكليني، عندما بوب هذا الباب بما وصف الله تعالى به نفسه، فالله تعالى هو الذي ﴿ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴾ [آل عمران: ٥].

به؛ فإذا بدا لله في شيء منه أعلمنا ذلك وعرض على الأئمة الذين كانوا من قبلنا» (١). وهكذا يصل الغلو إلى أقصاه في روايات الكافي، حين ينسب إلى الأئمة التهل من معين علم لا ينهل منه غيرهم، حتى الأنبياء والمرسلون والملائكة المقربون؛ فما فائدة أن تأتي رواية أخرى صحيحة عندهم لتنفى النبوة عن هؤلاء الأئمة قائلة: « لا نبي بعد نبينا » (٢)؟!

إن من مقتضيات هذه الرواية الصحيحة أن يقف الشيعة عند نصوص القرآن الكريم التي تثبت تعليم الله ما شاء من علم الغيب للرسول كما في سورة الجن: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ مِمَّن بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ۝﴾ [الجن: ٢٦-٢٨]. يقول الشيخ المفيد: « من يزعم أن أحدًا بعد نبينا ﷺ يوحى إليه فقد أخطأ وكفر » (٣).

وتحاول الرواية السابقة نفسها أن تفسر علوم الأئمة: عن أبي الحسن الأول موسى عليه السلام قال: « مبلغ علمنا على ثلاثة وجوه: ماضٍ، وغابرٍ، وحادث. فأما الماضي فمفسرٌ، وأما الغابر فمزبورٌ، وأما الحادث فقذفٌ في القلوب ونقرٌ في الأسماع، وهو أفضل علمنا، ولا نبي بعد نبينا » (٤).

وتؤكد رواية أخرى أن الأئمة يعلمون بالإلهام، فعن صفوان قال: قلت للرضا عليه السلام: « أخبرني عن الإمام متى يعلم أنه إمامٌ حين يبلغه أن صاحبه قد مضى أو حين يمضي مثل أبي الحسن قبض بيغداد وأنت هاهنا؟ قال: يعلم ذلك حين يمضي صاحبه. قلت بأبي شيء؟ قال: يليه الله » (٥).

فتقرر هاتان الروايتان أن من مصادر علوم الأئمة القذف في القلوب وهو الإلهام،

(١) أصول الكافي (١/٣١٠) كتاب الحجّة باب أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل عليهم السلام.

(٢) أصول الكافي (١/٣١٩) كتاب الحجّة، باب جهات علوم الأئمة، والمفسر أي من جهة النبي والمزبور « مكتوب لنا في الجامعة ومصحف فاطمة وغيرها » مرآة المجلسي (٣/١٣٦). قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح على الظاهر.

(٣) أوائل المقالات (ص ٧٦).

(٤) أصول الكافي (١/٣١٩) كتاب الحجّة، باب جهات علوم الأئمة، والمفسر أي من جهة النبي والمزبور « مكتوب لنا في الجامعة ومصحف فاطمة وغيرها » مرآة المجلسي (٣/١٣٦). قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح على الظاهر.

(٥) أصول الكافي (١/٤٤٤٣) كتاب الحجّة باب في أن الإمام متى يعلم أن الأمر قد صار إليه. والحديث صحيح.

وتتفرد الرواية الثانية بأن من طرق علوم الأئمة: النقر في الأسماع دون رؤية الملك، وتؤكد أنه أفضل علم الأئمة، وهذا ينسجم مع ما ذكرته رواية الباقر في تعريف الإمام والتفريق بينه وبين النبي: « التَّبَيُّ الَّذِي يَرَى فِي مَنَامِهِ وَيَسْمَعُ الصَّوْتِ وَلَا يَعَايِنُ الْمَلِكَ، وَالرَّسُولَ الَّذِي يَسْمَعُ الصَّوْتِ وَيَرَى فِي الْمَنَامِ وَيَعَايِنُ الْمَلِكَ » فسأله زرارة: الإمام ما منزلته؟ قال: « يَسْمَعُ الصَّوْتِ وَلَا يَرَى وَلَا يَعَايِنُ الْمَلِكَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج: ٥٢] وَلَا مَحْدِثٍ » (١).

وفي هذه الرواية هدم للرواية السابقة التي أكدت اختصاص الأئمة بعلوم دون الملائكة والأنبياء والمرسلين، (رواية: « إِنَّ لِلَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِلْمِينَ: عَلِمًا أَظْهَرَ عَلَيْهِ مَلَائِكَتُهُ... إلخ » (٢)). فنسبت إلى الأئمة علم الأنبياء والملائكة جميعًا، ثم نسبت إلى الأئمة زيادة علم من خلال اطلاعهم على شيء من القسم الثاني من علم الله!

إذ كيف يصل من كان طريق علمه الإلهام أو سماع صوت الملك - إن صح أنه ملك! - إلى علوم لم تصل إلى الأنبياء الذين رأوا الوحي عيانًا، أو إلى من كلّم الحق تكليمًا من رسل الله ﷺ، كموسى عليه السلام؟! وما الحكمة في حجب علوم عن الأنبياء والمرسلين - وهم رسل الله المبلغين رسالات الله لإصلاح عقيدة وسلوك البشر - ثم اختصاص اثني عشر رجلًا بهذه العلوم السرية، وهم - على جلاله قدرهم - لم يكن لهم الدور الحضاري الذي قام به أنبياء الله تعالى؟!.

والاثنا عشرية يعتقدون أن هذا من تعليم الله للأئمة، وليس هذا من باب علم الغيب. وذلك يخفف من غلواء فكرة علوم الغيب عند الأئمة، ويلطفها قليلًا: « سأل أبا الحسن عليه السلام رجلٌ من أهل فارس فقال له: أتعلمون الغيب؟ فقال: قال أبو جعفر عليه السلام: يبسط لنا العلم فنعلم ويقبض عنا فلا نعلم، وقال: « سَرَّ اللَّهُ ﷻ أَسْرَهُ إِلَى جِبْرِئِيلَ ﷺ، وَأَسْرَهُ جِبْرِئِيلُ ﷺ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَسْرَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى مَنْ شَاءَ اللَّهُ » (٣).

وعن عمّار الساباطي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإمام يعلم الغيب؟ فقال: لا، ولكن إذا أراد أن يعلم الشيء أعلمه الله ذلك (٤).

(١) أصول الكافي (٢٣٠/١) كتاب الحجّة، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث.

(٢) أصول الكافي (٣١٠/١) كتاب الحجّة باب أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون جميع العلوم التي خرجت إلى الملائكة والأنبياء والرسل عليهم السلام.

(٣) أصول الكافي (٣١١/١)، كتاب الحجّة، باب نادر فيه ذكر الغيب. وقال المحقق: والحديث صحيح.

(٤) أصول الكافي (٣١٣/١)، كتاب الحجّة، باب نادر فيه ذكر الغيب. وقال المحقق: والحديث موثق.

- ويرى الشيعة أن نزول هذه العلوم من لدن السماء على الأئمة مستمر؛ لنمو معارفهم؛ إذ يزدادون علمًا من الله على مدى الزمن، وإلا نفدت علومهم:

عن زرارة قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: « لولا أننا نزداد لأنفدنا، قال: قلت: تزدادون شيئًا لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله؟ قال: أما إنّه إذا كان ذلك عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله ثم على الأئمة، ثم انتهى الأمر إلينا » (١).

وهناك ثلاث روايات تبين كيفية ذلك، وأن أرواح الأئمة توافي العرش مع أرواح النبيين كل ليلة جمعة، فيرجعون وقد زيدوا علمًا (٢).

- وصغار الأئمة ككبارهم؛ فلا يشترط في الإمام سنّ معين، ولا ينتظر له سن رشد ولا بلوغ، في حين أتت الرسالة إلى النبي صلى الله عليه وآله في الأربعين. فهذا أحد الأئمة، وهو ابن عشر سنين - يجيب عن ثلاثين ألف مسألة - وهي تحتاج إلى أيام طوال - في مجلس واحد؛ فقد « استأذن على أبي جعفر عليه السلام قوم من أهل التواحي من الشيعة فأذن لهم، فدخلوا فسألوه في مجلس واحد عن ثلاثين ألف مسألة، فأجاب عليه السلام وله عشر سنين » (٣).

وفي كتاب الحجة باب أنّ الأئمة عليهم السلام « يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيارٍ منهم » (٤). وهذا أمر لم يجعله الله تعالى لأحد من البشر حتى الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

نقض نظرية اختصاص أهل البيت - أو غيرهم - بالعلوم:

نبدأ من حيث انتهينا بتلك الروايات التي أوردتها الكافي في باب (أنّ الأئمة عليهم السلام يعلمون متى يموتون وأنهم لا يموتون إلا باختيارٍ منهم) (٥). وأمثالها من الروايات التي تنسب علم الغيوب للأئمة؛ فهي روايات تخالف ما في القرآن الكريم مخالفة ظاهرة بيّنة.

(١) أصول الكافي (٢٩٧/١) كتاب الحجة باب لولا أنّ الأئمة عليهم السلام يزدادون لنفد ما عندهم. والحديث صححه محقق أصول الكافي.

(٢) أصول الكافي (٣٠٨/١، ٣٠٩) كتاب الحجة، باب أنّ الأئمة يزدادون في ليلة الجمعة. ولكن ضعف محقق أصول الكافي هذه الروايات، وقد لاحظت منه تضعيف كثير من الروايات التي فيها مبالغات أو مخالفات ظاهرة لأهل السنة، إلا ما كان متصلًا بوجوب الإمامة، وهذا يعدّ دفعا بالمذهب نحو الاعتدال. (٣) أصول الكافي (٥٧٠/١) كتاب الحجة، باب مولد أبي جعفر محمد بن علي الثاني وقال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٤، ٥) أصول الكافي (٣١٣/١ - ٣١٥). وقد ضعف المحقق روايات هذا الباب.

حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

وكان الذين يقولون بمعرفة الأئمة علم الغيب لم يقرؤوا صريح آياته ليعلموا أن الله تعالى أعلن في سورة النمل: ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [النمل: ٦٥]، وقوله لرسوله ﷺ في سورة الأنعام: ﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ ﴾ [الأنعام: ٥٠] وفي سورة يونس: ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ [يونس: ٢٠].

إن شخصية الرسول - كما بينها القرآن الكريم - هي شخصية المتلقي لوحي الله تعالى، والذي يقف علمه حيث وقف الوحي؛ فالله يكشف لرسله بعض الأخبار الغيبية التي يشاء، ويحجب عنهم ما يشاء، كما جاء في سورة الجن: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] وكما جاء في سورة هود بعد بيان قصة نوح، يقول تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُنْقِذِينَ ﴾ [هود: ٤٩].

فهل تكون شخصية الأئمة أرسخ قدمًا من الأنبياء والمرسلين حتى يدعي الكليني في أحد أبواب كتابه (الكافي) أن الأئمة (يعلمون علم ما كان وما يكون وأنه لا يخفى عليهم الشيء) وأنهم «لخزان الله في سمائه وأرضه»؟! (١).

وكان هؤلاء الذين يغالون في أئمتهم لم يقرؤوا أيضًا تلك الروايات التي نفى فيها الأئمة عن أنفسهم علم الغيب: فعن ابن المغيرة قال: كنت أنا ويحيى بن عبد الله ابن الحسن عند أبي الحسن عليه السلام فقال له يحيى: «جعلت فداك إنهم يزعمون أنك تعلم الغيب، فقال: سبحان الله، ضع يدك على رأسي، فوالله! ما بقيت شعرة فيه و [لا] في جسدي إلا قامت، ثم قال: لا والله ما هي إلا وراثة عن رسول الله ﷺ» (٢).

وما أروعها من رواية تبين بشرية الأئمة وبراءتهم مما نسب إليهم من الغلو. عن سدير قال: كنت أنا وأبو بصير ويحيى البرزاز وداود بن كثير في مجلس أبي عبد الله عليه السلام؛ إذ خرج إلينا وهو مغضب؟ فلما أخذ مجلسه قال: «يا عجبا لأقوام يزعمون أننا نعلم

(١) أصول الكافي (٢٤٨/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة ولاة أمر الله وخزنة علمه.

(٢) المفيد: الأمالي (ص ٢٣).

الغيب! ما يعلم الغيب إلا الله ﷻ، لقد هممت بضرب جاريتي فلانة، فهربت مني، فما علمت في أي بيوت الدار هي» (١).

لقد وقف علماء الاثني عشرية أمام هذه الرواية مندهشين، وقد أسقط في أيديهم. ولذلك عمدوا إلى تحويرها، فمنهم من أولها أو زاد عليها، ومنهم من فسرها بالتقية ليفرغها من مضمونها الناصع المنسجم مع الكتاب والسنة، ومنهم من ضعف سندها - على أقل تقدير - كما فعل محقق الكافي.

فقد جاءت تنمة تلك الرواية لتقول:

قال سدير: فلما أن قام من مجلسه وصار في منزله دخلت أنا وأبو بصير وميسر وقلنا له: جعلنا فداك! سمعناك وأنت تقول كذا وكذا في أمر جاريتك، ونحن نعلم أنك تعلم علماً كثيراً ولا ننسبك إلى علم الغيب. قال: فقال: يا سدير ألم تقرأ القرآن، قلت: بلى. قال: فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله ﷻ ﴿ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [النمل: ٤٠]؟ قال: قلت: جعلت فداك قد قرأته. قال: فهل عرفت الرجل وهل علمت ما كان عنده من علم الكتاب، قال: قلت: أخبرني به. قال: قدر قطرة من الماء في البحر الأخضر، فما يكون ذلك من علم الكتاب؟. قال: قلت: جعلت فداك ما أقل هذا! فقال: يا سدير! ما أكثر هذا أن ينسبه الله ﷻ إلى العلم الذي أخبرك به، يا سدير! فهل وجدت فيما قرأت من كتاب الله ﷻ أيضاً: ﴿ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٤٣] قال: قلت: قد قرأته جعلت فداك، قال: أفمن عنده علم الكتاب كله أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ قلت: لا بل من عنده علم الكتاب كله، قال: فأوماً بيده إلى صدره وقال: علم الكتاب، والله! كله عندنا، علم الكتاب والله! كله عندنا» (٢).

قال البرقي - وهو المرجع الشيعي الذي أنكر الغلو في الأئمة - معلقاً على هذه الرواية متهمًا سديراً وأبا بصير بوضع آخر الرواية؛ لكسر المعنى الأول منها: « وسدير وأبو بصير اللذان أحبا أن يعظما الإمام، اختليا مع الإمام بعد المجلس؛ حيث لم يعجبهما أن يصغر الإمام نفسه بأن يقول: لا أعلم الغيب، وأرادا منه أن يعظم نفسه قليلاً ويشي على علمه، وعندها صنعا أخباراً لا توافق القرآن. ومن المؤكد أن الإمام الذي يجب عليه

أن يكون عالماً بالقرآن لا يقول كلاماً كهذا؛ لأن هذا الإمام نفسه يقول في صدر الحديث: « لقد هممت بضرب جاريتي فلانة فهربت مني، فما علمت في أي بيوت الدار هي » كيف يقول في آخر الخبر أنا أعلم الغيب ويقول: « أضمن عنده علم الكتاب كله أفهم أم من عنده علم الكتاب بعضه؟ »^(١).

« وقد أراد بعض الوضّاعين من غير الشيعة أن يقرروا نفس الشيء بالنسبة لأبي بكر الصديق عليه السلام فقالوا: إنه أصبح خليفة لأن الرسول صلى الله عليه وآله قد نقل إليه العلوم السرية، وحباه بمعارف لم يمكن منها غيره، وروى هؤلاء عن الرسول صلى الله عليه وآله قوله: « ما صبب الله في صدري شيئاً إلا صببته في صدر أبي بكر »^(٢). وهؤلاء « من أنصاف العلماء الذين قاوموا الكذب بالكذب، وهرعوا إلى الوسائل السهلة لمقاومة الخصوم والتأثير على الأتباع »^(٣)؛ ولذلك لم يستقر في الفكر السني مثل هذه الترهات.

ونحن نطمع أن يستعلي الفكر الشيعي أيضاً على مثل هذه الأكاذيب، وخصوصاً أن آية عظمى من آياتهم، وهو الشيخ آية الله العظمى أبو الفضل بن رضا البرقي قد قام بنقد هذه الروايات في أصول الكافي سنداً ومنتاً، فحكم عليها بالوضع، والحق أحق أن يتبع. ولقد أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله أن يبلغ كل ما أوحى إليه للناس كافة، فقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ [المائدة: ٦٧].

و « جاء الإسلام داعياً إلى المساواة بين البشر بطريقة تضمن للاجتهاد مكانته، وتحت على العلم والعمل، وتدعو إلى تمكين الأفراد من الفرص المتكافئة التي تمكنهم من المعرفة... فأخبار نقل العلم من إمام إلى آخر بطريقة لا تعتمد على البذل والاجتهاد تتعارض والأصول الإسلامية؛ فلا بدّ من عدّها من الموضوعات »^(٤).

إن اعتقاد بعض الناس باختصاص أهل البيت بشيء من العلوم نشأت في الصدر الأول للإسلام، والإمام علي عليه السلام حي؛ فقد كان السبئية يشيعون مثل هذه الأفكار ذات

(١) البرقي: كسر الصنم (نقض كتاب أصول الكافي)، (ص ١٨٩)، (ط ١)، دار البيارق - عمان (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، ترجمة: د. عبد الرحيم ملا زاده البلوشي.

(٢) محسن عبد الناظر: مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية (ص ٤٤٢)، والحديث ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (ص ٩٣).

(٣) محسن عبد الناظر: مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية (ص ٥١٧).

(٤) المرجع السابق (ص ٤٤٣، ٤٤٤).

الأصل اليهودي؛ فقد صح عند أهل السنة أن عليًا عليه السلام سئل: « هل خصكم النبي صلى الله عليه وآله بشيء لم يخص به الناس كافة؟ ». وهذا يدل على أن الغلو في علي رضوان الله عليه كان موجودًا في حياته: عن عامر بن واثلة رضي الله عنه قال: « كنت عند علي بن أبي طالب فأتاه رجل فقال: ما كان النبي صلى الله عليه وآله يسر إليك؟ قال: فغضب وقال: ما كان النبي صلى الله عليه وآله يسر إليّ شيئًا يكتمه الناس غير أنه قد حدثني بكلمات أربع، قال: فقال: ما هن يا أمير المؤمنين؟ قال: « لعن الله من لعن والده، ولعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثًا، ولعن الله من غير منار الأرض » (١).

ومرة أخرى يقف المغالون أمام خبر يدحض ما بنوه من مبالغات في علوم الأئمة، فيردّ أحدهم الحديث السابق الذي رواه الإمام مسلم، قائلًا: « رواه أهل السنة في كتبهم، وارد فقط من طرقهم، وليس من طرق الشيعة، فلم تثبت صحته عند الشيعة ولا يعلمون قطعًا بصدور هذا الكلام من أمير المؤمنين عليه السلام... فلا يلزم الشيعة ولا يحتج عليهم بأحاديث وردت من طرق غيرهم أو لم تثبت عندهم صحتها »، بل ورأى أن روايات الحديث متناقضة: فقال: « تناقض الروايات التي ذكرها أهل السنة بما يخص السؤال الموجه لأمير المؤمنين عليه السلام (هل خصكم رسول الله صلى الله عليه وآله بشيء؟) » ثم سرد الروايات (٢). وغاية ما في تلك الروايات الستية: روايتها بالمعنى؛ فإذا اختلفت في بعض ألفاظها فهي متفقة في مقصودها ومعانيها، وهو أمر لا تخلو منه أحاديث الشيعة قبل أحاديث أهل السنة.

وعلى كل فقد جاء الوضّاعون برواية تحارب رواية أهل السنة التي تنكر اختصاص علي بشيء من العلوم، وتناقض معناها: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « كان في ذؤابة سيف رسول الله صلى الله عليه وآله صحيفة صغيرة، فقلت لأبي عبد الله عليه السلام: أي شيء كان في تلك الصحيفة؟ قال: هي الأحرف التي يفتح كل حرف ألف حرف، قال أبو بصير: قال أبو عبد الله عليه السلام: فما خرج منها حرفان حتى الساعة » (٣).

وقد مرّ - في فصل الغلاة وموقف الأئمة منهم - أن الاعتقاد بعلم الغيب عند الأئمة

(١) أخرجه مسلم: كتاب الأضاحي: باب تحريم الذبح لغير الله تعالى ولعن فاعله، رقم (١٩٧٨).

(٢) الشيخ حسن عبد الله: وقفة مع الجزائري (ص ٢٨).

(٣) أصول الكافي (١/٣٥٢) كتاب الحجّة باب الإشارة والنصّ على أمير المؤمنين عليه السلام، قال محققه:

هو من افتراءات الغلاة، وفي تصرفات الأئمة ما يكذب هذه الافتراءات؛ فقد كان جعفر الصادق يأمر أتباعه أن يتولوا أبا الخطاب ثم أمرهم أن يلعنوه ويتبرؤوا منه (١)؛ لما ثبت أنه كان يكذب على الأئمة، ولو كان جعفر رضي الله عنه يعلم الغيب لما أمر أتباعه أولاً بموالاته أبي الخطاب، ما دام يعلم أنه سيكذب على لسانه!

ثم إن فكرة العلوم السرية فكرة يهودية صرفة؛ إذ يزعم اليهود أن موسى عليه السلام « كان قد أفضى بأسرار التوراة والألواح إلى يوشع بن نون، وصيِّه وفتاه والقائم بالأمر بعده، ليفضي بها إلى أولاد هارون... شبر وشبير ابني هارون » (٢)، وانتقلت نظرية العلوم السرية من اليهودية إلى التشيع عن طريق عبد الله بن سبأ الذي كان أول من أظهر هذه الفرية في المجتمع الإسلامي، بزعمه أن محمداً صلى الله عليه وآله كتم تسعة أعشار العلم عن جمهور صحابته وأعطى آل البيت بعلوم خفية (٣). « وسرعان ما انتقلت النظرية من السبئية، وتأصلت لدى فرقة الكيسانية » (٤).

وكذلك « فكرة إضفاء علم الغيب على الأئمة نبتت أول ما نبتت على يد الغلاة من السبئية؛ حيث كانوا يقصدون علياً ويدعون حلول روح الإله فيه بقولهم: (أنت أنت)، ثم انتقلت الفكرة إلى فرقة البيانية الذين ادعوا إلهية علي » (٥).

والحقيقة أن « فكرة العلوم السرية تتنافى مع روح الإسلام الذي ينكر أشد الإنكار فكرة احتكار العلم والمعرفة؛ فكيف يكتم النبي صلى الله عليه وآله شيئاً عن جمهور أمته (٦)، وهو القائل: « فليبلغ الشاهد الغائب فزُبْ مَبْلُغٌ أَوْعَى من سامع » (٧)، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: « نَصَرَ اللَّهُ امرأ سمع منا شيئاً فبلغه كما سمع، فزُبْ مَبْلُغٌ أَوْعَى من سامع » (٨)!

وكيف يُفسح المجال للعلوم السرية في الإسلام والنبي صلى الله عليه وآله يتوعد بلجام من النار لمن

(١) أصول الكافي (٣٩٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المعارين قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (٢٠٩/١). (٣) انظر تاريخ اليعقوبي (٢٠٨/٢).

(٤) انظر: ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٣٢٢).

(٥) المرجع السابق (ص ٣٦٦).

(٦) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٣١٩).

(٧) صحيح البخاري: كتاب الحج، باب الخطبة أيام منى، رقم (١٦٥٤).

(٨) سنن الترمذي: كتاب العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع رقم (٢٦٥٧)، وقال: حديث حسن صحيح (٣٤/٥)، وأخرج قريباً منه أبو داود عن زيد بن ثابت بسند صحيح أيضاً.

يكتم علمًا عن أهله؟! فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من سئل عن علم فكتمه أجمه الله بلجام من نار يوم القيامة » (١).

يقول ابن حزم: « اعلموا أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه، وجهر لا سر تحته، كله برهان لا مسامحة فيه، واتهموا كل من يدعو أن يتبع بلا برهان، وكل من ادعى للديانة سرًا وباطنًا؛ فهي دعاوى ومخارق، واعلموا أن رسول الله ﷺ لم يكتم من الشريعة كلمة فما فوقها، ولا أطلع أخص الناس به - من زوجة أو ابنة أو عم أو ابن عم أو صاحب - على شيء من الشريعة كتّمه عن الأحمر والأسود ورعاة الغنم، ولا كان عنده - عليه الصلاة والسلام - سر، ولا رمز، ولا باطن غير ما دعي الناس كلهم إليه، ولو كتّمهم شيئًا لما بلغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر » (٢).

إن إكمال الرب ﷺ لدينه وختم النبوة برسول الله محمد ﷺ هو أكبر دليل على أن تلك الروايات التي يرويها الشيعة في مضممار علوم الأئمة إنما هي من الموضوعات التي وضعها الغلاة في حق الأئمة ثم تسربت إلى المذهب الاثني عشري.

فقد قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]. ويؤكد ذلك روايات شيعية تقرر أنه لا حاجة لعلوم أحد في شؤون الدين بعد وفاة النبي ﷺ: فعن أبي جعفر الطوسي قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: « أيها الناس، والله ما من شيء يقربكم من الجنة ويباعدكم من النار إلا وقد أمرتكم به، وما من شيء يقربكم من النار ويباعدكم عن الجنة إلا وقد نهيتكم عنه » (٣).

كما أن فكرة اختصاص الإمام علي والأئمة من بعده بالعلوم الشرعية تتعارض مع كثير من النصوص الصحيحة والصريحة التي تثبت كون بيت النبي ﷺ منبعًا ومرتعًا وفيه العلم لكل سائل، دون اختصاص علي ﷺ وزوجه وبنيه ﷺ؛ فقد قال ربنا ﷺ في حق أمهات المؤمنين: ﴿ يَلَسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۗ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو داود بسند صحيح: كتاب العلم، باب كراهية منع العلم، رقم (٣٦٥٨). وأخرجه الترمذي في كتاب العلم، باب ما جاء في كتمان العلم، رقم (٢٦٤٩)، وقال: حديث حسن، وأخرجه ابن ماجه، وأحمد في مسنده.

(٢) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل (٩١/٢، ٩٢).

(٣) أصول الكافي (٧٩/٢) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى. قال محققه: الحديث موثق كالصحيح.

لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿١٣٣﴾ وَأَذْكَرَنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿١٣٤﴾ [الأحزاب: ٣٢ - ٣٤].

فالأية الأخيرة أمرت نساء النبي ﷺ بحفظ ما يتلى في بيوت النبي ﷺ من الكتاب والحكمة، وفي نصوص السنة ما يثبت أن عائشة كانت تستمع إلى ما يتساءله الناس في بيتها، كما في قصة خولة بنت ثعلبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا في حادثة تشريع الظهار (١).

بل في روايات السنة أن عليًا وغيره من الصحابة فاتهم شيء من أحاديث النبي ﷺ، وما في ذلك من ضير عليهم، كما في مسألة منع التحريق بالنار؛ ففي مصادر أهل السنة أن عليًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أتى بقوم من الزنادقة فحرقهم بالنار، فقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: لو كنت أنا ما حرقتهم لقول رسول الله ﷺ: « لا تعذبوا بعداب الله » (٢). وكذلك في عدة المتوفى عنها زوجها وهي حامل، فقد أفتى بأبعد الأجلين (وضع الحمل، أو الأربعة أشهر وعشرا) في حين قررت السنة أن عدتها وضع حملها، كما ورد في كتب الحديث والفقهاء (٣).

ومن العجب أن الاثني عشرية مع ادعاء اختصاص الأئمة بالعلوم يقررون أنه لا يجب على الإمام الجواب على من سألته، فهناك تسع روايات تؤكد عدم وجوب الجواب على الأئمة إن سئلوا، منها ما هو مصحح، كرواية عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « على الأئمة من الفرض ما ليس على شيعتهم، وعلى شيعتنا ما ليس علينا، أمرهم الله ﷻ أن يسألونا قال: ﴿ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣، الأنبياء: ٧] فأمرهم أن يسألونا، وليس علينا الجواب، إن شئنا أجبنا وإن شئنا أمسكنا » (٤).

(١) قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ويخفي علي بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ وهي تقول: يا رسول الله، أكل شبابي وثرت له بطني، حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني! اللهم إني أشكو إليك. فما برحت حتى نزل جبرائيل بهؤلاء الآيات ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَدِّدُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ ﴾ [المجادلة: ١] انظر: سنن ابن ماجه (١/٦٦٦) باب الظهار، رقم (٢٠٦٣).
(٢) سنن البيهقي الكبرى (٧١/٩)، دار الباز - مكة (١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م) تحقيق محمد عبد القادر عطا، مسند الإمام أحمد (٢٥٥٢)، (١/٢٨٢)، وانظر: فتح الباري (١٢/٢٧٠). دار المعرفة - بيروت.
وانظر: الشوكاني: نيل الأوطار (٥/٨)، وصحح الخبر.

(٣) انظر: رأي علي، في مصنف ابن أبي شيبة (٣/٥٥٥) وهو قول ابن عباس أيضًا. وقد جاء في صحيح البخاري: باب وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن (٤/١٨٦٤) رقم (٤٦٢٦): أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية وضعت حملها بعد وفاة زوجها بأربعين يومًا فخطبت وأنكحها النبي ﷺ.

(٤) انظر: أصول الكافي (١/٢٦٧ - ٢٨٩) كتاب الحجّة، باب أنّ أهل الذّكر الذين أمر الله الخلق بسؤالهم هم الأئمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.

وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: « جعلت فداك، إنَّ الشيعة يسألونك عن تفسير هذه الآية ﴿عَمَّ يَسْأَلُونَ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿ [البأ: ١، ٢] . قال: ذلك إليّ إن شئت أخبرتهم، وإن شئت لم أخبرهم » (١).

قال محقق أصول الكافي: « هذا يظهر منه عدم وجوب الجواب من قبلهم عليهم السلام على أية مسألة توجه إليهم، بل هم مخيرون في الجواب وعدمه حسب ما تقتضيه المصلحة، وسوف يمر معنا من الروايات ما يدل على ذلك » (٢).

فكيف يوجب الله تعالى طاعة من لا يجب عليهم أن يجيبوا إذا سألهم الناس؟! وقد كان النبي صلى الله عليه وآله مأموراً بالتبليغ عن ربه عز وجل.

الأمة وعاء العلوم الإسلامية وليس الأئمة:

لا ينكر أحد من المسلمين فضل علي عليه السلام ولا علمه، ولكن هل يمكن أن تكون علوم الشريعة كلها مخصصة بعلي وآل بيته وحدهم دون باقي الصحابة؟.

ونحن لا ندعي في حق أحد من الصحابة، حتى الخلفاء الراشدين ولا ابن عباس ولا ابن مسعود ولا غيرهم من علماء الصحابة - ما ادعاه الشيعة في علي، ونرى أن الإحاطة بعلوم القرآن الكريم من قبل شخص واحد أمر متعذر، وهنا يأتي حفظ الله تعالى للأمة وعلومها من خلال مجموعها؛ فهي الأمة المنصورة المرحومة، التي لا تجتمع على خطأ.

ونسأل: ما الذي دعا الإمامية للقول بإلزام الناس بما ورد عن الأئمة، وترك ما ورد عن غيرهم من الصحابة أو التابعين، إن ذلك يعود إلى أنهم اعتقدوا أن الإمام هو الخليفة عن النبي صلى الله عليه وآله، وهو مستودع العلم الإلهي، ووارث الأنبياء، وحافظ الكتاب والسنة فلا يجمعهما غيره، وهو صاحب السلطة والمسؤول عن إصدار الأحكام وبيان الحق؛ فلا بد أن يكون معصوماً (٣)، فالأرض لا تبقى بلا إمام، و « لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت » (٤). وهلك أهلها وقامت قيامتهم، فعلى الناس أن يتبعوا هؤلاء الأئمة المعصومين، و « من مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهليّة... جاهليّة كفرٍ ونفاقٍ وضلالٍ » (٥).

(١) أصول الكافي (٢٦٤/١)، كتاب الحجّة باب أن الآيات التي ذكرها الله عز وجل في كتابه هم الأئمة.

(٢) انظر: أصول الكافي (٢٦٤/١)، كتاب الحجّة باب أن الآيات التي ذكرها الله عز وجل في كتابه هم الأئمة.

(٣) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٢٦) .

(٤) أصول الكافي (٢٣٣/١) كتاب الحجّة، باب أن الأرض لا تخلو من حجّة.

(٥) أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجّة باب من مات وليس له إمام من أئمة الهدى. وهذا الحديث متفق عليه لفظاً بين أهل السنة والشيعة بل ثبت عند السنة زيادة عليه تحريم الخروج على الحاكم وتفريق =

في حين يعتقد أهل السنة أن العصمة للأمة وليس للأئمة؛ فالمسؤول عن بيان الحق وصاحب السلطة ووارث الأنبياء وحافظ السنن النبوية هي الأمة ممثلة بجماعة المؤمنين التي حذر الله تعالى من الشذوذ عنها فقال ﷺ: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، منذ عهد الصحابة الكرام، وهم خير القرون إلى يوم القيامة؛ « فأمة محمد ﷺ هم الذين أورثوا الكتاب بعد الأمتين قبلهم اليهود والنصارى، وقد أخبر الله أنهم الذين اصطفى، وتواتر عن النبي ﷺ أنه قال: « خير القرون القرن الذي بعثت فيهم ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم »^(١) ومحمد ﷺ وأصحابه هم المصطفون من المصطفين من عباد الله^(٢).

فاجتماع هذه الأمة في نقل القرآن والحديث، وفي الاجتهاد حجة على الناس، لقول النبي ﷺ في الحق: « ما كنت عليه وأصحابي »^(٣)، وقوله: « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق »^(٤)، وقوله: « يد الله مع الجماعة »^(٥)، وقوله: « هذه الأمة مرحومة »^(٦). وقوله ﷺ: « فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين،

= المسلمين: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: « من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات؛ مات ميتة جاهلية. ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل؛ فقتله جاهلية. ومن خرج على أمتي، يضرب برها وفاجرها. ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفني لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه »، انظر: صحيح مسلم (٣٣) - كتاب الإمارة (١٣) - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال. وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة. رقم (٥٣) - (١٨٤٨) (١) أخرجه مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، بلفظ: « خير أمتي القرن الذين يلوني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته » رقم (٢٥٣٣).

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٣٤/٢، ٣٥).

(٣) سنن الترمذي (٢٦/٥) عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: « ليأتين على أمتي ما أتى على بني إسرائيل حذو النعل بالنعل، حتى إن كان منهم من أتى أمه علانية لكان في أمتي من يصنع ذلك، وإن بني إسرائيل تفرقت على ثنتين وسبعين ملة وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة كلهم في النار إلا ملة واحدة » قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: « ما أنا عليه وأصحابي ». وهو حديث حسن. وفي ألفاظ الحديث تفصيل طويل نؤخره للفصل الأخير من الرسالة.

(٤) صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: « لا تزال طائفة.. » رقم (١٩٢٠).

(٥) أخرجه الترمذي: أبواب الفتن، باب لزوم الجماعة رقم (٢٢٥٦)، والنسائي كتاب تحريم الدم، باب قتل من فارق الجماعة.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي موسى الأشعري رقم (١٩٥٧٥)، وابن ماجه: كتاب الزهد، باب صفة أمة محمد ﷺ رقم (٤٢٩٢).

عَضُوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِدِ» (١).

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: « إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه، فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ » (٢). ومن المعلوم أن علياً رضي الله عنه من أوائل هؤلاء الصحابة الكرام، وأعلمهم وأقربهم للنبي صلى الله عليه وسلم.

وعقيدة أهل السنة في مجال حفظ الشريعة أن الله تعالى تكفل بحفظ كتابه بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، فيسر حفظه وجمعه وتلاوته وبيانه إذ قال: ﴿ لَا تَحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۗ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَنبِعْ قُرْآنَهُ ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنَّا عَلَيْنَا بَيَانُهُ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩] وحفظ بحفظ كتابه سنة نبيه صلى الله عليه وسلم في صدور أهل الحديث؛ فالسنة هي المبينة لكتابه الشارحة له، وقد ذكر المحدثون من أهل السنة أنه لم يحط بسنة النبي صلى الله عليه وسلم حافظ رغم كثرة الحفاظ، ولكن الأمة بمجموعها حافظة لسنة نبيها صلى الله عليه وسلم بما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم من عصمة هذه الأمة عن الخطأ.

قال السيوطي: « من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً؛ لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم » (٣).

ولم يدع أحد من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم اختصاصه وحده بحفظ القرآن، ولم يجسر أحد على دعوى جمع كل السنة، وعلي منهم رضوان الله عليهم، بل على العكس من هذا، فلو كان علي رضي الله عنه وحده اختص دون غيره بحفظ القرآن الكريم لما تجاوزته الصحابة الكرام في

(١) سنن الترمذي وقال: حديث صحيح. عن العرياض بن سارية رضي الله عنه، كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتتاب البدع رقم (٢٦٧٦)، وأبو داود كتاب السنة، باب في لزوم السنة رقم (٤٦٠٧). وأخرجه أحمد في المسند (٣٧٩/١)، رقم (٣٦٠٠)، بإسناد صحيح.

(٢) مسند أحمد بن حنبل (٣٧٩/١)، حسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط، ورواه الحاكم في المستدرک، ووافقه الذهبي (٨٣/٣).

(٣) السيوطي: الإتيان في علوم القرآن (١٢٠٤/٢). دار ابن كثير، دمشق (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م)، (ط٣)، تحقيق د. مصطفى ديب البغا.

جمع المصحف ثم نسخه^(١). وقد أثبت الصحابة الكرام لعلي عليه السلام التقدم في القضاء، وأثبتوا لأبي ابن كعب عليه السلام التقدم في القراءة؛ فقد قال عمر رضي الله عنه: «أقرؤنا أبي، وأفضانا علي»^(٢). وحياة علي عليه السلام مع أصحابه وأتباعه كانت تجسيداً لهذا الحق، فإن «علينا عليه السلام كان ينازعه أصحابه وأتباعه في مسائل كثيرة لا يرجعون فيها إلى قوله؛ بل فيها مسائل كثيرة وجد فيها نصوص النبي صلى الله عليه وآله وسلم توافق من نازعه لا قوله، منها المرأة المتوفى عنها زوجها إذا كانت حاملاً فإن علينا عليه السلام أفتى بأنها تعتدّ أبعد الأجلين، وعمر وابن مسعود وغيرهما رضي الله عنهم أفتوا بأنها تعتدّ بوضع الحمل، وبهذا جاءت سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان أبو السنابل ابن بعك رضي الله عنه أفتى بمثل قول علي عليه السلام، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «كذب أبو السنابل، قد حلت فانكحي»^(٣).

ولا نستغرب ألا يصل هذا الحديث إلى علي؛ فقد غاب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فترة من الزمن بمهمات رسمية جليلة، فقد بعثه النبي صلى الله عليه وآله وسلم داعياً وقاضياً إلى اليمن، وخلفه في أهله في غزوة تبوك فلم يحضرها. فعمل هذا الحديث الصحيح مما قاله النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فترة غياب علي عليه السلام. فعذر علي عليه السلام ومن اتبعه في رأيه في عدة الحامل عدم علمهم بحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي بيّن فيه أن عدة الحامل وضع حملها مهما قصرت مدّته، وقد جاء البخاري بعد ذلك وخرج هذا الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم^(٤)، ولم يبلغ علينا، ولو اختص علي عليه السلام بالإحاطة بحديث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وبحفظ الحديث النبوي لما غاب عنه هذا الحديث وأمثاله.

وهذه القاعدة (قاعدة عدم اختصاص أحد من الأمة بحفظ السنة) ليست خاصة في علي عليه السلام؛ فقد أعمل أهل السنة هذه القاعدة فيما ورد من آراء عن بعض الصحابة الكرام، خالفت نصوصاً نبوية لم تبلغهم، أو فهموها بغير ما فهمها جمهور الصحابة. ومن ثم صار قول هذا الصحابي أو ذاك قولاً مهجوراً لا يعتدّ به، مع حفظ حرمة وقدر هذا الصحابي، فلم يأخذ أهل العلم بقول عائشة وابن عمر وعلي رضي الله عنهم في مسألة جواز

(١) انظر: د. عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٥١٠). وهو يعتمد على أبي حامد المقدسي: رسالة في الرد على الرافضة (ص ٢٦١).

(٢) صحيح البخاري كتاب التفسير، باب قوله ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخْهَا تَأْتِي بِمِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] رقم (٤٢١١).

(٣) د. عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٥١٠). وكذب هنا معناه مخالفة الحقيقة، وليس الكذب الذي يأتى صاحبه، والله أعلم.

(٤) انظر: حديث سبيعة بنت الحارث الأسلمية: صحيح البخاري ومسلم. وانظر مسألة الحامل التي توفي عنها زوجها: الفقه الإسلامي وأدلته: أستاذي الدكتور وهبة الزحيلي (٦٣٤/٧) دار الفكر - دمشق (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م).

انتعال رجلٍ واحدة؛ لأنها مخالفة لحديث صحيح (١).

وسنرى أن الشيعة بعد غيبة الإمام - وخصوصًا بعد الغيبة الكبرى - سيضطرون للإدعان إلى نظرية أهل السنة في عصمة الأمة؛ فماذا فعل الشيعة بعد غيبة الإمام للوصول إلى الأحكام وبيان الحق؟ لقد ذهبوا إلى القول بوجوب اتباع المراجع الدينية من الفقهاء والمجتهدين، وهم بذلك يعودون إلى رأي أهل السنة من دون أن يشعروا:

عن يعقوب بن شعيب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « إذا حدث على الإمام حدثٌ كيف يصنع الناس؟ قال: أين قول الله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٢]؟ قال: هم في عذرٍ ما داموا في الطلب، وهؤلاء الذين ينتظرونهم في عذرٍ حتى يرجع إليهم أصحابهم » (٢).

وهذه الرواية قريبة جدًا من منهج أهل السنة والجماعة، وأبعد ما تكون عن فكر الذين يعتمدون على توقيعات الإمام الثاني عشر، الذي ما يزال غائبًا في عقيدة الشيعة الاثني عشرية منذ ما يزيد عن ألف ومائة عام.

ولذلك فإن مجتهدي الشيعة المعاصرين رسخوا هذا المبدأ القريب من منهج أهل السنة، ولكنهم زادوا عليه نظرية أخرى هي نظرية وجوب حكم الفقهاء للدولة تحت مسمى (ولاية الفقيه) كما هو معمول به في دولة إيران؛ حيث « منح الدستور الجديد الفقيه سلطات مطلقة، منها سلطة تعيين قائد القوات المسلحة وحق إعلان الحرب، وعقد السلم، وحق إلغاء انتخابات الرئاسة، كما منحه الدستور حق إقالة رئيس الجمهورية بعد الحصول على موافقة البرلمان »، وتنتقل هذه السلطات بعد هذا المرشد الأعلى إلى مرجع

(١) فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وآله قال: « لا يمشي أحدكم في نعل واحدة ليحفهما جميعًا أو لينعلهما جميعًا ». أخرجه البخاري، باب لا يمشي في نعل واحدة، رقم (٥٥١٨)، ومسلم في اللباس والزينة، باب استحباب لبس النعل في اليمنى أولاً، رقم (٢٠٩٧). وأجازت أم المؤمنين عائشة وعلي وابن عمر رضي الله عنهم انتعال رجل واحدة، قال ابن حجر: « وكأنها لم يبلغها النهي .. وقال ابن عبد البر: لم يأخذ أهل العلم برأي عائشة في ذلك، وقد ورد عن علي وابن عمر أيضًا أنهما فعلا ذلك، وهو إما أن يكون بلغهما النهي فحملاه على التنزيه، أو كان زمن فعلهما سيرًا بحيث يؤمن معه المخذور، أو لم يبلغهما النهي ». (ابن حجر: فتح الباري ٣١٠/١٠).

(٢) أصول الكافي (٤٤١/١) كتاب الحجّة، باب ما يجب على الناس عند مضي الإمام، قال محققه: والحديث صحيح.

فقهي مجتهد آخر متفق على مكانته، وفي حالة تعذر العثور عليه تنتقل هذه السلطات إلى لجنة مكونة من خمسة فقهاء (١).

معوّقات الاستفادة من علوم الأئمة من خلال روايات الاثني عشرية:

وإذا اعتمدنا على روايات الشيعة ذاتها سنرى أن التقية ووجوب كتمان المذهب، وصعوبة حديث أهل البيت، وغياب الإمام الثاني عشر، وكثرة الكذابين على الأئمة؛ كل هذه الظواهر تعد معاول تهدم دعوى اختصاص الأئمة بالعلوم، كما تمنع الاستفادة من علومهم.

١ - دور التقيّة في تعذر الانتفاع بعلوم الأئمة:

التقيّة: إظهار خلاف ما في الباطن (٢). وقد عرّفها المفيد بقوله: «التقية كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، وكتمان المخالفين، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أو الدنيا» (٣).
عن موسى بن أشيم قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل عن آية من كتاب الله تعالى فأخبره بها، ثم دخل عليه داخل فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبر به الأول، فدخلني من ذلك ما شاء الله، حتى كأنّ قلبي يشرح بالسكاكين فقلت في نفسي: تركت أبا قتادة بالشام لا يخطئ في الواو وشبهه وجئت إلى هذا يخطئ هذا الخطأ كله. فبينما أنا كذلك إذ دخل عليه آخر فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبرني وأخبر صاحبي، فسكنت نفسي فعلمت أنّ ذلك منه تقيّة. قال: ثم التفت إليّ فقال لي: «يا بن أشيم إنّ الله تعالى فوّض إلى سليمان بن داود فقال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص: ٣٩] وفوّض إلى نبيّه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧]. فما فوّض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقد فوّضه إلينا» (٤).

ومما زاد مشكلة التقيّة تعقيداً: عجز الشيعة في كثير من الأحيان عن التفريق بين

(١) د. أمال السبكي: تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩ م) (ص ٢٤٣، ٢٤٤)، سلسلة عالم المعرفة رقم (٢٥٠) الكويت (١٩٩٩ م).

(٢) انظر: النهاية لابن الأثير (١/١٩٣).

(٣) شرح عقائد الصدوق (ص ٢٦١) (ملحق بكتاب أوائل المقالات). وستعرض للتقية في مبحث مستقل في فصل (العقائد الخاصة عند الاثني عشرية).

(٤) أصول الكافي (١/٣٢١) كتاب الحجّة باب التفويض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى الأئمة عليهم السلام في أمر الدين.

ما قاله الإمام تقيّة وما قاله على الحقيقة، حسب زعمهم، فنرى « أن الحقيقة التي تعبر عن مذهب الأئمة قد تخفى على شيوخ الشيعة أنفسهم؛ فلا يعلمون أي القولين تقيّة، فكان هذا من أسباب ضياع مذهب الأئمة واستمرار الغلو »^(١). فصار كل نص يخالف ما استقرت عليها عقائدهم يتهم بأنه قيل تقيّة، فلا عجب إذن أن الكليني يذكر بعض أحاديث التقيّة في باب اختلاف الحديث في أصول الكافي: عن عليّ بن رثاب عن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: « يا زياد ما تقول لو أفتينا رجلاً ممن يتولانا بشيء من التقيّة؟ قال: قلت له: أنت أعلم جعلت فداك. قال: إن أخذ به فهو خير له وأعظم أجراً ». وفي رواية أخرى: « إن أخذ به أجر، وإن تركه والله أثم ».

وعن نصر الخنعمي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « من عرف أنا لا نقول إلا حقاً فليكتف بما يعلم منا، فإن سمع منا خلاف ما يعلم فليعلم أن ذلك دفاعٌ منا عنه »^(٢). « فالتقيّة عند الاثني عشرية والإسماعيلية وسيلة دفاعية لا تكلف الإنسان ضرراً، وإنما تطلب منه أن يصدّق بما يصدر عن الأئمة بدون نقاش، حتى ولو بدا له أن في أقوالهم تضارباً أو في مواقف أحدهم تناقضاً؛ فعليه أن لا يشك في الإمام لا من حيث العلم أو من حيث القدرة، بل يحمل ذلك التناقض على التقيّة »^(٣).

قال المحقق يوسف البحراني (١١٨٦ هـ): « فإنّ جل الاختلاف الواقع في أخبارنا بل كله عند التأمل والتحقيق إنما نشأ من التقيّة، ومن هنا دخلت الشبهة على جمهور متأخري أصحابنا رضوان الله عليهم، فظنوا أن هذا الاختلاف إنما نشأ من دس أخبار الكذب في أخبارنا، فوضعوا هذا الاصطلاح ليميزوا به صحيحها عن سقيمها »^(٤). وقد يختلف علماء الاثني عشرية في صحة بعض أقوال الأئمة، لا من حيث ثبوت صدورها عنهم؛ بل من حيث هل كانت على التقيّة أم على الحقيقة؟ وما عليك إلا أن تنتظر حتى يأتي أحد العلماء فيقول لك: « إذا عرفت ذلك فاعلم أن الذي ظهر لي في معنى الخبرين المذكورين أنهما إنما خرجا مخرج التقيّة »^(٥).

(١) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٦٨/١، ٢٦٩).

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث (١١٩/١).

(٣) الحر العاملي: وسائل الشيعة: باب وجوه الجمع بين الأحاديث المختلفة وكيفية العمل بها، محسن عبد الناظر: مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية (ص ٤٢٣)، الدار العربية للكتاب.

(٤) الحدائق الناضرة (٨/١). (٥) يوسف البحراني: الحدائق الناضرة (٣٥٩/١).

ومن أمثلة جعل التقية مشجبا تعلق عليه الحيرة من تناقض الروايات: قول أبي عبد الله الصادق: « لا تسافر يوم الإثنين ولا تطلب فيه حاجة »^(١)، في حين وردت روايتهم عن سيدنا علي عليه السلام: « يوم السبت يوم مكر وخديعة [!]»، ويوم الأحد يوم غرس وبناء، ويوم الإثنين يوم سفر وطلب، ويوم الثلاثاء يوم حرب ودم، ويوم الأربعاء يوم شؤم يتطير فيه الناس [!]، ويوم الخميس يوم الدخول على الأمراء وقضاء الحوائج، ويوم الجمعة يوم خطبة ونكاح »^(٢).

فإنك تلاحظ أن الرواية الأخيرة عدت يوم الإثنين يوم سفر وطلب، وهذا يخالف ما مضى من روايات؛ ولذلك حمل شيخهم الحر العاملي هذا على التقية^(٣). وهذا يؤكد أن التقية لم تكن فقط لمجرد الخوف من المخالفين وبطشهم، بمقدار ما هي تعبير عن الحيرة من تناقض روايات المذهب. « فلا يميزون بين ما يصح نقله عن أئمتهم وما لا يصح، ولا يعرفون أدلتهم ومآخذهم... وفيما ينقلونه عنمن يقلدونه من الاختلاف وفيما لا ينقلونه عنمن يقلدونه من الاختلاف ما لا يكاد يحصى »^(٤).

وفي هذه الحيرة وعدم القدرة على التوفيق بين الروايات المتضاربة، « حتى لا يكاد يتفق خبر إلا وبإزائه ما يضاذه، ولا يسلم حديث إلا وفي مقابلته ما ينافيه، حتى جعل مخالفوننا ذلك من أعظم الطعون على مذهبنا، وتطرقوا بذلك إلى إبطال معتقدنا » على حد قول الطوسي في تهذيب الأحكام »^(٥).

ومع انتفاء القدرة على الترجيح بينها يلجأ الشيعة إلى التسليم والتفويض للأئمة، يقول يوسف البحراني: « فلم يعلم من أحكام الدين على اليقين إلا القليل لامتزاج أخباره بأخبار التقية، كما قد اعترف بذلك ثقة الإسلام محمد بن يعقوب الكليني في جامع الكافي، حتى إنه تخطى العمل بالترجيحات المروية عند تعارض الأخبار، والتجأ إلى مجرد الرد والتسليم للأئمة الأبرار »^(٦). « حتى صار سببا لرجوع بعض

(١) المحاسن (ص ٣٤٦)، وسائل الشيعة (٢٥٥/٨).

(٢) الصدوق: علل الشرائع (ص ١٩٩)، الحصال (٢٨/٢). عيون الأخبار (ص ١٣٧)، وسائل الشيعة (٢٥٨/٨).

(٣) وسائل الشيعة (٢٥٨/٨).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٤٧٥/٢، ٤٧٦).

(٥) أبو جعفر الطوسي: تهذيب الأحكام (٢/١) دار الكتب الإسلامية - طهران، تحقيق السيد حسن الموسوي.

(٦) يوسف البحراني: الحقائق الناضرة (٥/١).

الناقصين عن اعتقاد الحق» (١).

٢ - الكتمان ودوره في ضياع علوم الأئمة:

والى جانب التقية كانت مبالغة الشيعة في كتمان الأخبار سبباً من أسباب عدم اشتهاؤها؛ استجابة لدعوة الأئمة بوجود الكتمان:

عن عبد الله بن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «التقية ترس المؤمن، والتقية حرز المؤمن، ولا إيمان لمن لا تقية له. إنَّ العبد ليقع إليه الحديث من حديثنا فيدين الله عليه السلام به فيما بينه وبينه فيكون له عزاً في الدنيا ونوراً في الآخرة، وإنَّ العبد ليقع إليه الحديث من حديثنا فيذيعه فيكون له ذلاً في الدنيا وينزع الله عليه السلام ذلك التور منه» (٢).
وعنه أيضاً قال: «من أذاع علينا حديثنا سلبه الله الإيمان» (٣).

وتذكر الروايات أن الأئمة كانوا يشكون من إذاعة أتباعهم وجهرهم بعقائد المذهب؛ لأن ذلك يجلب لهم الويلات:

عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «وددت والله آتي افتديت خصلتين في الشيعة لنا ببعض لحم ساعدي: التزق وقلة الكتمان» (٤).

وهذه المرويات تخالف روايات أخرى تقرر أن قدر الرجال عند الأئمة بمقدار كثرة روايتهم عنهم:

عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال: «اعرفوا منازل الناس على قدر روايتهم عنا» (٥).
ولذلك يمتدح جعفر الصادق رواة الحديث عن أبيه الباقر، فهذا زرارة بن أعين يقول فيه جعفر الصادق: «لولا زرارة ونظراؤه لاندروست أحاديث أبي» (٦).

وهذا جابر الجعفي (٧) «روى سبعين ألف حديث عن الباقر عليه السلام، وروى مائة

(١) حقيقة الشيعة: عبد الله عبد الله الموصلي عن: دلدار علي اللكهنوي: أساس الأصول (ص ٥١)، (ط ١)، لكهنؤ الهند.

(٢) أصول الكافي (٢/٢٢٤) كتاب الإيمان والكفر، باب التقية. قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٢/٣٥٤) كتاب الإيمان والكفر، باب الإذاعة. قال محققه: الحديث صحيح.

(٤) أصول الكافي (٢/٢٢٤) كتاب الإيمان والكفر، باب الكتمان. قال محققه: والحديث صحيح.

(٥) أصول الكافي (١/١٠٢) كتاب فضل العلم، باب في النوادر.

(٦) أعيان الشيعة (٢٧/١٤٤).

(٧) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي، توفي سنة (١٢٧هـ).

وأخبار الشيعة فيه متناقضة كابن زرارة (انظر حول ابن زرارة العاملي: أعيان الشيعة ٢٠/١٩٦، ١٩٧)، فأخبار =

وأربعين ألف حديث»^(١). فهل كان مخالفاً في روايته لوصية الأئمة بالكتمان؟
ليس من العجيب أن أهم خبر فضّل أسماء الأئمة كان محلاً للكتمان والإخفاء؟ إن
أهم نصوص أحقية الأئمة الاثني عشر هو ما ورد في لوح أخضر لفاطمة رضي الله عنها استنسخه
جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه يذكر فيه الأئمة بأسمائهم؛ فكان يجب في حق هذا
النص - لو ثبت - أن يشتهر وينشر في الآفاق. ولكن كيف يشتهر وهم يتواصلون
بكتمانه إلا عن ثقاتهم؟! ففي نص الرواية: «فصنه إلا عن أهله»^(٢). فإن صح هذا
النص ألا تعذر عامة الناس لعدم قناعتهم بالأئمة؛ لأنهم لم يصلهم هذا النص الخطير
الذي يجب صونه عن غير أهله!.

٣ - صعوبة حديث آل البيت:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ذكرت التقيّة يوماً عند عليّ بن الحسين عليهما السلام فقال:
«والله، لو علم أبو ذرّ ما في قلب سلمان لقتله، ولقد آخى رسول الله صلى الله عليه وآله بينهما، فما
ظنّكم بسائر الخلق؟ إنّ علم العلماء صعبٌ مستصعبٌ لا يحتمله إلا نبيّ مرسلٌ أو ملكٌ
مقرّبٌ أو عبدٌ مؤمنٌ امتحن الله قلبه للإيمان»^(٣).

= تجعل الجعفي من انتهى إليه علم أهل البيت، وأخبار تطعن فيه. ذكر الكشي: قال زرارة: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن
أحاديث جابر فقال: «ما رأيته عند أبي قط إلا مرة واحدة، وما دخل عليّ قط». لكنهم يحملون أخبار الطعن
فيه على التقيّة (انظر: وسائل الشيعة (٥١/٢٠)، رجال الكشي (ص ١٩١)، جامع الرواة (١٤٤/١)).
أما عند أهل السنة فقد قال ابن حبان: كان سبباً من أصحاب عبد الله بن سبأ. كان يقول: إن عليّاً يرجع إلى
الدنيا، وروى العقيلي بسنده عن زائدة أنه قال: جابر الجعفي رافضي يشتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وقال
النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: لا يكتب حديثه ولا كرامة، قال ابن حجر: ضعيف رافضي. (انظر:
ميزان الاعتدال (٣٧٩/١، ٣٨٠)، تقريب التهذيب (١٢٣/١)، الضعفاء للعقيلي (١٩١/١ - ١٩٦).
انظر: د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (٢٠٣/١) هامش (٢).

(١) الحر العاملي: وسائل الشيعة (٣٠/٣٢٩). وقال عنه: ضعفه بعض علمائنا، والأرجح توثيقه. فلماذا
يستنكر الشيعة أن صحابياً واحداً كأبي هريرة يروي عن النبي صلى الله عليه وآله (٥٣٧٤) حديثاً؟ ما دام رجل واحد من
الشيعة يروي مائة وأربعين ألف حديث؟.

(٢) أصول الكافي (٦٠٦/١) كتاب الحجّة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم. سكت عنه المحقق.
(٣) أصول الكافي (٤٦٦/١، ٤٦٧) كتاب الحجّة باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب قال
المجلسي: «أي من مراتب معرفة الله سبحانه ومعرفة النبي والأئمة (ع) وغيرها، فلو كان أظهر سلمان له شيئاً
من ذلك كان لا يحتمله، وحمله على الكذب والارتداد، أو العلوم والأعمال الغريبة التي لو أظهرها لحملها
على السحر فقتله أو كان يفشيه فيصير سبباً لقتل سلمان» مرآة العقول (٣١٥/٤)، وهنا قاسم مشترك مع
بعض المتصوفة الذين يقولون بالمعارف الخاصة التي لا يجوز الكشف عنها، وأن الخلاج إنما قتل لما أباح السر.

وقد أوردوا حديثاً آخر فيه هذا المعنى، ولكن تأوله لهم أحد الأئمة على معنى آخر: عن محمد بن أحمد عن بعض أصحابنا قال: كتبت إلى أبي الحسن صاحب العسكر عليه السلام: « جعلت فداك، ما معنى قول الصادق عليه السلام: حديثنا لا يحتمله ملكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ ولا مؤمنٌ امتحن الله قلبه للإيمان، فجاء الجواب: إنما معنى قول الصادق عليه السلام أي لا يحتمله ملكٌ ولا نبيٌّ ولا مؤمنٌ، إنَّ الملك لا يحتمله حتى يخرج به إلى ملكٍ غيره، والتبني لا يحتمله حتى يخرج به إلى نبيٍّ غيره، والمؤمن لا يحتمله حتى يخرج به إلى مؤمنٍ غيره. فهذا معنى قول جدِّي عليه السلام » ^(١). قال المجلسي: أي لا يصبر ولا يطيق كتمانها؛ لشدة حبه لهم وحرصه على ذكر فضائلهم حتى ينقله إلى آخر فيحدثه به. والحاصل أن هذا الاحتمال غير الاحتمال الوارد في الأخبار المتضمنة للاستثناء فلا تنافي بينهما ^(٢).

ولكن يرد هذا المعنى عنوان الباب نفسه (حديثهم صعب مستصعب) وكذلك سياق الأحاديث؛ فقبله كان حديث (لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لقتله) وهي دعوة لكتم العلوم عن غير أهلها، وكذلك الحديث الذي بعده وفيه ما يبين أن معنى عدم الاحتمال هو صعوبته حتى لا يصدِّقه الناس: قال أبو عبد الله عليه السلام: « يا أبا محمد إنَّ عندنا والله سرًّا من سرِّ الله وعلماً من علم الله، والله ما يحتمله ملكٌ مقرَّبٌ ولا نبيٌّ مرسلٌ ولا مؤمنٌ امتحن الله قلبه للإيمان، والله ما كلَّف الله ذلك أحداً غيرنا، ولا استعبد بذلك أحداً غيرنا، وإنَّ عندنا سرًّا من سرِّ الله وعلماً من علم الله أمرنا الله بتبليغه فبلغنا عن الله ﷻ ما أمرنا بتبليغه فلم نجد له موضعاً ولا أهلاً ولا حمالةً يحتملونه، حتى خلق الله لذلك أقواماً خلقوا من طينة خلق منها محمدٌ وآله وذريته عليهم السلام ومن نور خلق الله منه محمدًا وذريته وصنعهم بفضل رحمته التي صنع منها محمدًا وذريته فبلغنا عن الله ما أمرنا بتبليغه فقبلوه واحتملوا ذلك، فبلغهم ذلك عتاً فقبلوه واحتملوه وبلغهم ذكرنا فمالت قلوبهم إلى معرفتنا وحديثنا؛ فلولا أنَّهم خلقوا من هذا لما كانوا كذلك لا والله ما احتملوه. ثم قال: إنَّ الله خلق أقواماً لجهنم والنار فأمرنا أن نبليغهم كما بلغناهم واشمأزوا من ذلك ونفرت قلوبهم وردوه علينا ولم يحتملوه وكذبوا به، وقالوا: ساحرٌ كذابٌ، فطبع الله على قلوبهم وأنساهم ذلك، ثم أطلق الله لسانهم ببعض الحق فهم ينطقون به وقلوبهم منكراً ليكون ذلك دفقاً عن أوليائه وأهل طاعته، ولولا ذلك ما عبد الله في

(١) أصول الكافي (٤٦٧/١) كتاب الحجة باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب.

(٢) المجلسي: مرآة العقول (٣١٨/٤).

أرضه، فأمرنا بالكف عنهم والستر والكتمان، فاكتتموا عمن أمر الله بالكف عنه، واستروا عمن أمر الله بالستر والكتمان عنه» (١).

وإذا كان وحي السماء جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ومن العنت إلى اليسر والخير: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَ الَّتِي فِي قُلُوبِكُمْ وَيُبَيِّنَ لَكُمْ سُبُلَ الْخَيْرِ﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٠﴾ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا ﴿١٥١﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وِجْدَانَهُمْ وَالْحُلُقَ الْإِنْسَانِيَّ ضَعِيفًا ﴿١٥٢﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]؛
فما حاجة البشرية إلى أشخاص عندهم كل العلوم، لكنهم:

- قد يُسألون فلا يجيبون؛ لأنهم لا تجب عليهم الإجابة.

- وقد يتكلمون بكلام يناقض بعضه بعضاً، ويطلب من السامعين تحليل هذا الكلام هل كان على التقية أم على الحقيقة؟

- وعلمهم غير منشور ولا مشهور؛ لأنهم أمروا أتباعهم بكتمانه.

- وصفة حديثهم أنه صعب مستصعب، لا تدركه إلا عقول الخواص.

ما حاجة البشرية إلى علوم من هذه صفاتهم، والله تعالى قد أنزل الكتاب المبين، وبينه بسنة نبيه الأمين ﷺ؛ قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]!.

ثم من خلال الاستقراء للنصوص عند الشيعة والسنة فيمكن القول: إن أهل السنة لم يُفْتَهُمْ شيء من حديث النبي ﷺ الذي رواه الشيعة؛ اللهم إلا ما وضعه الشيعة في مسألة الإمامة، وهذه الحقيقة قد أشار إليها علماؤنا قديماً حين قالوا: «وأما ما انفردت به الشيعة عن جميع طوائف السنة فكله خطأ، وليس معهم صواب إلا وقد قاله بعض أهل السنة» (٢). فلو قارنا ما رواه البخاري وغيره من محدثي السنة في باب الأخلاق، مثلاً مع ما أورده الكليني في (الكافي) (٣)، لوجدنا اشتراك الشيعة والسنة في معظم أحاديث

(١) أصول الكافي (٤٦٧/١) كتاب الحجّة، باب فيما جاء أن حديثهم صعب مستصعب. قال محققه: والحديث ضعيف على المشهور.

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٤٧٩/٢).

(٣) انظر: مثلاً أصول الكافي (١٠٦/٢ - ٢١٥) كتاب الإيمان والكفر باب حسن الخلق وما بعده؛ تَرَشَّبَ الوفاق على كثير من هذه الأحاديث المتعلقة بالأخلاق والآداب العامة. ثم تعود للانفراق عن أهل السنة في باب التقيّة وباب الكتمان (٢١٩/٢) وما بعد، ثم يعود الاتفاق على أحاديث أخلاقية (٢٨٣/٢) =

الأخلاق؛ حيث لا سبب للخلاف فيها؛ لأن الفطرة السليمة تدعو إلى هذه الأخلاق، أما في مسائل الاعتقاد فيلعب التعصب دوره، وتنشط همم الوضاعين من أجل « خدمة المذهب »، وهو أمر لا تخلو منه طائفة من الطوائف. ولكن المشكلة عندما تتحول هذه الموضوعات إلى عقائد يرتضعها الصغار، ويموت عليها الكبار، دون أن يخضعوها للنقد والتمحيص.

* * *

الْمَبْحَثُ الثَّانِي

موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم



القرآن الكريم كلام الله ﷻ، أنزله على قلب رسوله محمد ﷺ، هداية للعالمين، وهو المصدر الأعظم من مصادر تلقي العقيدة والأحكام عند كل المسلمين. وقد « ذكر الرضا عليه السلام يومًا القرآن فعظم الحجة فيه.. فقال: « هو حيل الله المتين وعروته الوثقى.. جعل دليل البرهان، وحجة على كل إنسان، ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَتْرَبِلُّ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] » (١).

« فإذا التبست عليكم الفتن كقطع الليل المظلم؛ فعليكم بالقرآن، فإنه شافع مشفع، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل » (٢).

وروى الكليني قول رسول الله ﷺ: « إنما العلم ثلاثة: آية محكمة، أو فريضة عادلة، أو سنة قائمة، وما خلاهن فهو فضل » (٣).

ولقد بينت روايات الأئمة شمول القرآن الكريم، وعجز العقول عن إدراك أسرارها: قال أبو عبد الله عليه السلام: « ما من أمر يختلف فيه اثنان إلا وله أصل في كتاب الله ﷻ، ولكن لا تبلغه عقول الرجال » (٤).

ولذلك تعددت الروايات عن الأئمة توصي بتعهد القرآن وحفظه ورعايته: عن الفضيل بن يسار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « الحافظ للقرآن العامل به مع السفارة الكرام البررة » (٥). وهي رواية رواها أهل السنة في الصحيحين (٦).

(١) انظر: المجلسي: البحار (١٤/٩٢)، ابن بابويه: عيون أخبار الرضا (١٣٠/٢).

(٢) انظر: تفسير العياشي: (٢/١)، البحار (١٧/٩٢).

(٣) أصول الكافي (٧٩/١) كتاب العلم، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء.

(٤) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب الرد إلى الكتاب والسنة (١١٤/١).

(٥) أصول الكافي (٥٦٨/٢) كتاب الدعاء باب فضل حامل القرآن. قال محققه: والحديث صحيح.

(٦) متفق عليه: عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « الماهر بالقرآن مع السفارة الكرام البررة =

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: « تعلموا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شاب جميل شاحب اللون فيقول له القرآن: أنا الذي كنت أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك، وأجففت ريقك وأسلت دمعتك، أوول معك حيثما ألت، وكل تاجر من وراء تجارته، وأنا اليوم لك من وراء تجارة كل تاجر، وسيأتيك كرامة الله ﷻ فأبشر. فيؤتى بتاج فيوضع على رأسه ويعطى الأمان بيمينه والخلد في الجنان بيساره ويكسى حلتين ثم يقال له: اقرأ وارقه، فكلما قرأ آية صعد درجة، ويكسى أبواه حلتين إن كانا مؤمنين، ثم يقال لهما: هذا لما علمتماه القرآن » (١)، وقد روى قريباً منه أهل السنة كما في مسند أحمد (٢).
وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إن الذي يعالج القرآن ويحفظه بمشقة منه وقلة حفظ له أجران » (٣). ومعنى هذه الرواية مما صح عند أهل السنة أيضاً.

وروي عنه أنه قال أيضاً: « من نسي سورة من القرآن مثلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة في الجنة فإذا رآها قال: ما أنت؟ ما أحسنك! ليترك لي. فتقول: أما تعرفني؟ أنا سورة كذا وكذا ولو لم تنسني رفعتك إلى هذا » (٤).

وكذلك ثبت عند أهل السنة ضرورة تعاهد القرآن حتى لا ينسى: عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: « بئسما لأحدهم يقول: نسيت آية كيت وكيت، بل هو نسي. استذكروا القرآن فهو أشد تفصيلاً من صدور الرجال من التعم بعقله » (٥).

وقد كان الإمام الصادق يقرأ مصحفاً جزأه إلى أجزاء: عن حسين بن خالد، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: « في كم أقرأ القرآن، فقال: أقرأه أخصاساً، أقرأه أسباعاً،

=والذي يقرأ القرآن ويتتبع فيه وهو عليه شاق له أجران ». صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة عبس رقم (٤٦٥٣)، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتبع به رقم (٧٩٨)، واللفظ له.

- (١) أصول الكافي (٥٦٨/٢) كتاب الدعاء، باب فضل حامل القرآن. قال محققه: والحديث صحيح.
- (٢) أخرجه أحمد في مسنده عن بريدة عليه السلام (٣٥٢/٥). عن بريدة قال: قال رسول الله ﷺ: « يجيء القرآن يوم القيامة كالرجل الشاحب فيقول لصاحبه: أنا الذي أسهرت ليلك وأظمأت هواجرك، وإسناده حسن في المتابعات والشواهد، وقال الحاكم في المستدرک (٧٤٢/١): « هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه ».
- (٣) أصول الكافي (٥٧١/٢) كتاب الدعاء باب من يتعلم القرآن بمشقة قال محققه: والحديث صحيح.
- (٤) أصول الكافي (٥٧٢/٢) كتاب الدعاء باب من حفظ القرآن ثم نسيه قال محققه: والحديث حسن.
- (٥) صحيح مسلم: كتاب فضائل القرآن، باب الأمر بتعهد القرآن وكراهة قول: نسيت آية كذا، وجواز قول: أنسيته، رقم (٧٩٠). شبه المصطفى ﷺ سرعة نسيان القرآن لمن لم يتعاهده بالقراءة بسرعة انطلاق الإبل من عقالها ورباطها إذا فكّت منه.

أما إن عندي مصحفًا مجزأً أربعة عشر جزءًا» (١).

وهكذا أجمعت روايات أهل السنة والاثني عشرية على لزوم تعهد القرآن وحفظه؛ وكيف تأتي روايات بعد ذلك تخالف هذه الوصايا عن النبي ﷺ وعن الأئمة؟!

المطلب الأول

هل اختص الأئمة بجمع القرآن وحفظه؟

تؤكد روايات الكافي أنه لم يجمع القرآن إلا الأئمة، وأن القرآن في صدور الأئمة أبلغ مما في المصحف:

عن جابر قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: « ما ادعى أحدٌ من الناس أنه جمع القرآن كله كما أنزل إلا كذاب، وما جمعه وحفظه كما نزله الله تعالى إلا علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من بعده عليهم السلام » (٢).

وروا « في أخبار أهل البيت عليهم السلام أنه [أي علي] آلى أن لا يضع رداءه على عاتقه إلا للصلاة حتى يؤلف القرآن ويجمعه، فانقطع عنهم مدة إلى أن جمعه، ثم خرج إليهم به في إزار يحمله وهم مجتمعون في المسجد، فأنكروا مصيره بعد انقطاع مع التيه، فقالوا: لأمر ما جاء أبو الحسن؟ فلما توسطهم وضع الكتاب بينهم، ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: « إني مخلف فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله وعترتي أهل بيتي ». وهذا الكتاب وأنا العترة. فقام إليه الثاني [يقصدون عمر رضي الله عنه] فقال له: إن يكن عندك قرآن فعندنا مثله، فلا حاجة لنا فيكما! فحمل عليه السلام الكتاب وعاد به بعد أن ألزمهم الحجة.

وفي خبر طويل عن الصادق عليه السلام أنه حملة وولي راجعًا نحو حجرته وهو يقول: ﴿ فَنَبِّدُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرُوا بِهِ نَمْنًا قَلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ولهذا قرأ ابن مسعود: « إن عليًا جمعه وقرأه » (٣). وهذا تحريف واضح للنص القرآني.

(١) أصول الكافي (٥٨٢/٢) كتاب الدعاء باب في كم يقرأ القرآن ويختتم قال محققه: والحديث حسن.
(٢) أصول الكافي (٢٨٤/١) كتاب الحجة باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة عليهم السلام وأنهم يعلمون علمه كله. قال المحقق: هذا الحديث مختلف فيه، ولم يبين السبب. قال المازندراني: « المراد بجمعه جمع المباني والمعاني الأولية والثانوية فصاعدًا » شرح المازندراني للكافي (٣٦٠/٥).

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (١٥٥/٤٠، ١٥٦).

وقد ورد في كتاب المصاحف عند أهل السنة رواية ضعيفة تذكر جمع علي للمصحف، أوردها ابن أبي داود في كتابه (المصاحف)، قال: «حدثنا عبد الله قال: حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسي قال: أقسم علي أن لا يرتدي برداء إلا لجمعة حتى يجمع القرآن في مصحف ففعل، فأرسل إليه أبو بكر بعد أيام: أكرهت إمارتي يا أبا الحسن؟ قال: لا والله، إلا أنني أقسمت أن لا أرتدي برداء إلا لجمعة، فبايعه، ثم رجع.»

ثم علق ابن أبي داود على هذه الرواية قائلاً: «قال أبو بكر: لم يذكر المصحف إلا أشعث وهو لين الحديث، وورد: «حتى جمع القرآن» يعني أتم حفظه، فإنه يقال للذي يحفظ القرآن: جمع القرآن» (١).

فمعنى الحفظ في هذه الرواية وفي الرواية الشيعية - إن صحتا - هو الحفظ في الصدر، وليس الكتابة في الكتاب، وإن كانت كتابة المصحف ممن حفظه ليست بمستحيلة، فقد كان لعدد كبير من الصحابة مصاحف خاصة، وقد يكون لعلي ذاته مصحف خاص به، ولكنه لا يختلف عن المصحف الذي جمعه أبو بكر، ولا الذي نسخه نسخاً عثمان.

والصحيح عند أهل السنة أن الذي جمع القرآن أولاً زيد بن ثابت بأمر من أبي بكر وبمشورة من عمر، فهل كان لكرهه الاثني عشرية لأبي بكر وعمر دور في رد هذه الرواية الصحيحة عند أهل السنة؟

ففي صحيح البخاري قول زيد بن ثابت رضي الله عنه: «أرسل إلي أبو بكر مقتل أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني فقال: إن القتل قد استحر يوم اليمامة بقراء القرآن، وإني أخشى أن يستحرق القتل بالقراء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال عمر: هذا والله خير. فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه. فوالله لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كان أثقل علي مما أمرني به من جمع القرآن... فتتبع القرآن أجمعه من العُسبِ واللخاف (٢) وصدور الرجال، حتى وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة

(١) ابن أبي داود: كتاب المصاحف (ص ١٦).

(٢) قال ابن منظور: «اللخاف: الحجارة، والعُسب: جريد النخل» (لسان العرب ٢٧/٨ مادة: تبع).

الأنصاري لم أجدها مع أحد غيره: ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ۗ ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنه ^(١).

أما نسخ المصاحف وإرسالها إلى الأمصار الكبرى على عهد عثمان؛ ففي صحيح البخاري أيضاً أن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قدم على عثمان رضي الله عنه، وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى. فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلني إلينا بالصحف ننسخها في المصاحف ثم نردّها إليك فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد ابن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإتما نزل بلسانهم فافعلوا. حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق.

قال ابن شهاب: وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت سمع زيد بن ثابت قال: فقدت آية من الأحزاب حين نسخنا المصحف قد كنت أسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بها فالتمسناها فوجدناها مع خزيمه بن ثابت الأنصاري: ﴿ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الأحزاب: ٢٣] فألحقناها في سورتها في المصحف ^(٢). وقد كان الصحابة يحفظون هذه الآية، ولكن كان زيد يطلبها مكتوبة، - كما قال ابن حجر - فقد: « كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة، ولا يلزم من عدم وجدانه إيها حينئذ ألا تكون تواترت عند من لم يتلقها من النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما كان زيد يطلب الثبوت عن تلقاها بغير واسطة » ^(٣). وقد جاء في كتاب المصاحف لابن أبي داود: قول علي رضي الله عنه: « أعظم الناس أجراً في المصاحف أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر! هو أول من جمع بين اللوحين » ^(٤). وقد

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (٤٤٠٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (٤٧٠٢).

(٣) ابن حجر: فتح الباري (١٥/٩).

(٤) ابن أبي داود (أبو بكر، عبد الله بن أبي داود سليمان بن الأشعث): كتاب المصاحف (ص ١١) باب

جمع القرآن، دار الكتب العلمية (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).

سرد ابن أبي داود خمس روايات حول هذا المعنى، كلُّها عن علي.

وقد لمز بعض الغلاة في عهد علي بعثمان وتحريقه للمصاحف غير الرسمية التي استنسخها، فقال علي عليه السلام: « لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل في المصاحف إلا عن ملأ منا » ^(١)، وقال أيضًا: « لو لم يصنعه هو لصنعه » ^(٢).

ومثل هذه الروايات مروية عن كتاب الاثني عشرية أيضًا؛ فقد جاء عند الزنجاني أن عليًا عليه السلام قال: « أيها الناس الله الله إياكم والغلو في أمر عثمان، وقولكم: حرّاق المصاحف، فوالله ما حرّقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله » ^(٣).

وإذا صح عند أهل السنة أن القرآن منزل على سبعة أحرف: عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « أقرّني جبريل على حرف فراجعت فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف » ^(٤). فإن بعض روايات الاثني عشرية تنكر ذلك: عن الفضيل ابن يسار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « إن الناس يقولون: إن القرآن نزل على سبعة أحرف، فقال: كذبوا أعداء الله، ولكنه نزل على حرف واحد من عند الواحد » ^(٥).

قال المازندراني: اتفقت العامة على أن القرآن نزل على سبعة أحرف، وإن اختلفوا في تفسيرها وتعيينها، حتى نقل ابن حبان أنه بلغ الاختلاف في معنى الأحرف السبعة إلى خمسة وثلاثين قولًا، وبالغ الصادق في الرد عليهم، وقال: إنه نزل على حرف واحد، والاختلاف إنما جاء من قبل الرواة، فالتبس الحرف المنزل بغيره على الأمة لأجل ذلك، فيجوز لهم القراءة بأحد هذه الحروف حتى يظهر الأمر » ^(٦).

وهكذا يستغل المازندراني هذا اللفظ ليصل إلى أن الصحابة اختلفوا في القرآن ولم يحسنوا حفظه ولا جمعه، وقد جاء النوري الطبرسي بعد ذلك ليستدل على وقوع التحريف باختلاف القراءات ^(٧).

وإذا كانت بعض روايات الأئمة تتهم الصحابة بتضيق القرآن ورفض مصحف علي،

(١) فتح الباري (١٨/١٣).

(٢) ابن أبي داود: كتاب المصاحف (ص ١٩).

(٣) تاريخ القرآن: للزنجاني (ص ٦٨).

(٤) صحيح البخاري كتاب فضائل القرآن، باب أنزل القرآن على سبعة أحرف رقم (٤٧٠٥).

(٥) أصول الكافي (٥٩٤/٢) كتاب الدعاء، باب النوار. قال محققه: هذا الحديث حسن.

(٦) شرح المازندراني (٧٠/١١).

(٧) رسول جعفریان: أكذوبة تحريف القرآن بين السنة والشيعة (ص ١٢٧، ١٢٨).

فإن مباحاة بعض علماء الاثني عشرية بالأئمة اضطرتهم إلى الاعتراف من حيث لا يشعرون بصحة قراءة أهل السنة، وصحة جمع القرآن على يد عثمان رضي الله عنه، يقول المجلسي: « والقراء السبعة إلى قراءته (يعني قراءة علي) يرجعون، فأما حمزة والكسائي فيقولان على قراءة علي.. وأما نافع وابن كثير وأبو عمرو فمعظم قراءاتهم يرجع إلى ابن عباس، وابن عباس قرأ على أبي بن كعب وعلي، والذي قرأ هؤلاء القراء يخالف قراءة أبي فهو إذا مأخوذ عن علي رضي الله عنه وأما عاصم فقراه على أبي عبد الرحمن السلمي، وقال أبو عبد الرحمن: قرأت القرآن كله على علي بن أبي طالب رضي الله عنه » (١).

بل يقول بعضهم: « ثم عاد عثمان فجمع المصحف برأي مولانا علي بن أبي طالب رضي الله عنه » (٢). وقالوا: إنه ورد عن أهل البيت عليهم السلام أن عثمان بن عفان لما رأى اختلاف الصحابة في قراءة القرآن طلب من علي رضي الله عنه مصحف فاطمة الذي كانت هي - سلام الله عليها - دوتته بإشارة أبيها، وطابقه مع المصاحف الأخرى التي كانت بيد الصحابة، فما طابق منها مصحف فاطمة نشره وما لم يطابقه أحرقه. فعلى هذا يكون المصحف الذي بأيدينا مصحف فاطمة لا مصحف عثمان، وعثمان كان ناشره لا مدوّنه ومرتبته » (٣).

وقد قارن الشيعة بين مصحف عثمان ومصحف علي؛ فلم يشبوا بينهما أي فرق كما نقل المفيد عن الطوسي - وإن كان المفيد له رأي آخر في القرآن سنذكره - : « قال الشيخ - يعني الطوسي -: اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وآله هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربع عشرة سورة. وعندنا أن (الضحى) و (ألم نشرح) سورة واحدة، و (لإيلاف) و (ألم تر كيف) سورة واحدة، ومن نسب إلينا أنا نقول: إنه أكثر من ذلك فهو كاذب » (٤).

وكيف يتّهم أهل السنة بترك قراءة علي، وقد تواترت عندهم قراءة علي؟! فمن بين القراء المشهورين من يرجع سند قراءته إلى علي، وعن طريق أهل البيت أنفسهم، فأحد

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٥٣/٩٢، ٥٤)، مناقب آل أبي طالب (٤٢/٢، ٤٣).

(٢) الزنجاني: تاريخ القرآن (وهو من الاثني عشرية المعاصرين) (ص ٦٧).

(٣) انظر: ناصر القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٢٧/١، ٣٢٨). عن المرعشي:

المعارف الجليلة (ص ٢٧).

(٤) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦).

القراء السبعة المشهورين حمزة الزيات، وسند قراءته هو: حمزة الزيات، عن جعفر الصادق، وهو قرأ على محمد الباقر، وهو قرأ على زين العابدين، وهو قرأ على أبيه الحسين، وهو قرأ على أبيه علي بن أبي طالب عليه السلام، فهؤلاء الأبرار من آل البيت لم يخرجوا على إجماع المسلمين على المصحف الإمام، وآية رضاهم به: إقراؤهم الناس بمحتواه دون زيادة أو نقص أو ادعاء يمس كمال كتاب الله سبحانه ^(١).

وقال الدكتور محمد بلتاجي رحمته الله: « ونضيف إلى ذلك أن قراءة علي بن أبي طالب للقرآن قد رويت أيضًا بطريق زيد بن علي أخي الإمام الباقر وعم الإمام الصادق - وهذا ما يسلّم به الإمامية الاثنا عشرية أنفسهم - » ^(٢).

نواتر حفظ القرآن:

لم ينتقل الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله إلى الرفيق الأعلى إلا وهو مطمئن على سلامة القرآن وحفظه؛ فقد كان صلى الله عليه وآله يراجع القرآن مع جبريل كل عام مرة، وفي عام وفاته راجعه مرتين، وكان صلى الله عليه وآله يبعث بالقراء إلى القبائل لتعليمهم القرآن، وكان حوله عدد كبير من حفاظ القرآن الكريم. « إن القرآن الكريم كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله مجموعًا مؤلفًا على ما هو عليه في ذلك الزمان.. وكان يعرض على النبي صلى الله عليه وآله ويُنلى عليه، وإن جماعة من الصحابة مثل عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب وغيرهما ختموا القرآن على النبي صلى الله عليه وآله عدة ختمات، وكل ذلك يدل بأدنى تأمل على أنه كان مرتبًا غير مبتور ولا مبثوث » ^(٣).

والحقيقة أن كثيرًا من صحابة النبي صلى الله عليه وآله وآل بيته الكرام - وفي مقدمتهم علي عليه السلام - حفظوا كتاب الله، ولم يختص علي ولا بنوه وحدهم بحفظ القرآن الكريم، ولا يستغرب ذلك؛ فإن حفظ القرآن لا يحتاج إلى معجزة أو خارقة يختص بها الأئمة، فإن حفاظ القرآن الكريم اليوم من أهل السنة ومن الشيعة لا يعدّون ولا يحصون، فهل هذا الجيل - الذي ضاعت سليقته العربية، وتعرض للفتنة في دينه، وكثرت وسائل صرفه عن القرآن - أحرص على حفظ القرآن من الجيل الذي نزل في عهده القرآن منجمًا مفرقًا، متناسبًا مع

(١) د. عبد الصبور شاهين: تاريخ القرآن (ص ١٦٥ - ١٧٠).

(٢) مناهج التشريع الإسلامي (١٨٩/١)، وأحال في هذا الاعتراف إلى كتاب تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام (ص ٢٨٥ - ٣٤٣)، والفهرست للطوسي (ص ١١٥).

(٣) رسول جعفریان: أكلذوبة تحريف القرآن بين السنة والشيعة (ص ٣٢، ٣٣)، الناشر: ممثلية الإمام الخامنه في الحج عام (١٤١٣ هـ)، مطبعة سلمان الفارسي.

كثير من أحداثه، ناهيك عن سلامة فطرته، وقوة ذاكرته، وقلة دواعي النسيان لديه؟! ويستغرب كيف أراد بعض علماء الاثني عشرية حصر حفظ القرآن على عدد محدود هم الأئمة، باسم الغلو في الأئمة، أو بغض بعض الصحابة؛ ليفتحوا بذلك مجالاً للمشككين في حفظ الكتاب الكريم من المستشرقين والعلمانيين؟!.

لقد كان كثير من الصحابة يحفظون القرآن، وقد كان شهداء بئر معونة السبعون يسمون بالقراء، وفي صحيح البخاري قول عمر رضي الله عنه: « قد استحرّ القتل يوم اليمامة بقرّاء القرآن »^(١)، وقد مر قوله: « أقرؤنا أبي وأقضاننا علي »^(٢). وعن عبد الله بن عمرو قال: « سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: « خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأبي بن كعب »^(٣).

وقد عدّ ابن حجر جماعة من حفاظ القرآن الكريم من الصحابة الكرام، فعّد منهم: (أبا بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، وسعدًا، وحذيفة، وأبا هريرة، وعبد الله ابن السائب، وعبد الله بن مسعود، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص، وسالم مولى أبي حذيفة، وتميم بن أوس الداري، وأبا موسى الأشعري، وعقبة بن عامر، وعبادة ابن الصامت، ومجمع بن حارثة، وفضالة بن عبيد، ومسلمة بن مخلد، وعمرو بن العاص، وسعد بن عبادة). وعدّ من النساء: (عائشة، وحفصة، وأم سلمة، وأم ورقة)^(٤) رضي الله عنهن.

يقول الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) مؤكّدًا تواتر حفظ القرآن الكريم: « إن العلم بصحة نقل القرآن كالعلم بالبلدان والحوادث الكبار والوقائع العظام والكتب المشهورة وأشعار العرب المسطورة، فإن العناية اشتدت والدواعي توفرت على نقله وحراسته لم يبلغه ما ذكرناه؛ لأن القرآن معجزة النبوة، ومأخذ العلوم الشرعية، والأحكام الدينية، وعلماء المسلمين قد بلغوا في حفظه وحمايته الغاية، حتى عرفوا كل شيء اختلف فيه؛ من إعرابه وقراءته وحروفه وآياته، فكيف يجوز أن يكون مغيرًا ومنقوصًا مع العناية الصادقة والضبط الشديد؟! ».

(١) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن، رقم (٤٤٠٢).

(٢) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿ مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسَخُ بِهَا نَسَخًا ﴾ [البقرة: ١٠٦] رقم (٤٢١١).

(٣) صحيح البخاري: كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله، رقم (٣٥٩٧).

(٤) ابن حجر: فتح الباري (٩ / ٥٢).

ثم ذكر أنه لو رام أحد الزيادة أو النقص من كتاب مشهور ككتاب سيبويه والمزني لعرف ونقل؛ لأن أهل العناية بهذا الشأن يعلمون من تفصيلهما ما يعلمونه من جملتهما، حتى لو أن مدخلاً أدخل في كتاب سيبويه باباً في النحو ليس من الكتاب لعرف وميّز، وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المُزني. ومعلوم أن العناية بالقرآن وضبطه أصدق من العناية بنقل كتاب سيبويه ودواوين الشعراء (١).

المطلب الثاني

موقف الاثني عشرية من سلامة القرآن الكريم من التحريف

إذا كان اعتقاد أهل السنة أن القول بتحريف القرآن الكريم أو القول بنقصه أو زيادته من المكفّرات المخرجة من الملة لقول الله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. فمنكر سلامة القرآن منكر لمعلوم من الدين بالضرورة، خارج عن الملة الإسلامية، سيئ العقيدة بالصحابة الكرام الذين حملوا هذا الدين ونشروه في أرجاء المعمورة - إذا كان اعتقاد أهل السنة كذلك؛ فالقرآن الكريم عند الشيعة ليس محل اتفاق في عدد آياته، ولا في معانيها؛ ولذلك كان عندهم عدة آراء في سلامة القرآن من التحريف، فقسم منهم يقول بتحريف القرآن العظيم كالنوري، وقسم ينزه القرآن عن التحريف والزيادة والنقصان كالصدوق والشريف المرتضى والطوسي، وقسم يتردد بينهما كالمفيد، وقسم يتناقض فيذهب إلى تنزيه القرآن عن الزيادة والنقص، ولكنه يصحح بعض الروايات التي تزعم وقوع التحريف.

وسنعرض فيما يلي الروايات الشيعية التي تقول بالتحريف أو النقص أو الزيادة، وما يعارضها من روايات تثبت سلامة القرآن من كلّ ذلك:

أولاً: الروايات الشيعية بين إثبات التحريف وإنكاره:

لقد وضع غلاة الشيعة روايات كثيرة تؤكد تحريف القرآن الكريم ونقصانه، وسبب وضع تلك الروايات أن أصحاب العصبية والهوى لم يجدوا في المصحف ذكر ولاية علي ولا ذكر الأئمة ولا ولايتهم، ولا ذكر أعدائهم.. فوضعوا روايات على لسان أهل

البيت تؤكد وجود ذلك كله في المصحف، ثم زعموا أن أعداء أهل البيت قاموا بحذف تلك الآيات من كتاب الله!! فقد رووا « عن أبي جعفر عليه السلام قال: « لولا أنه زيد في كتاب الله ونقص منه، ما خفي حقنا على ذي حجبى، ولو قد قام قائمنا فنطق صدقه » (١).

وبناء على هذه الرواية ترد أيضاً رواية أخرى تقول: « نزل القرآن أثلاثاً: ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام » (٢). فواضح أن الذي يزعمون أنه فُقد وحذف هو هذا الثلث الأول الذي فيه مدح آل البيت وذم أعدائهم.

وعن محمد بن سليمان، عن بعض أصحابه، عن أبي الحسن عليه السلام قال: « قلت له: جعلت فداك! إنا نسمع الآيات في القرآن ليس هي عندنا كما نسمعها ولا نحسن أن نقرأها كما بلغنا عنكم، فهل نأثم؟ فقال: لا، اقرؤوا كما تعلمتم فسيجيئكم من يعلمكم » (٣).

وعن أحمد بن محمد بن أبي نصر قال: « دفع إليّ أبو الحسن عليه السلام مصحفاً وقال: لا تنظر فيه، ففتحته وقرأت فيه: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ [البينة: ١] فوجدت فيها اسم سبعين رجلاً من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم. قال: فبعث إلي: ابعث إلي بالمصحف » (٤).

وعن سالم بن سلمة قال: قرأ رجل على أبي عبد الله عليه السلام وأنا أستمع حروفاً من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس، فقال أبو عبد الله عليه السلام: « كف عن هذه القراءة اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم، فإذا قام القائم عليه السلام قرأ كتاب الله تعالى على حده، وأخرج المصحف الذي كتبه علي عليه السلام ».

وقال: أخرجه علي عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه فقال لهم: « هذا كتاب الله تعالى كما أنزله الله على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقد جمعته من اللوحين. فقالوا: هو ذا عندنا مصحف جامع فيه القرآن، لا حاجة لنا فيه، فقال: أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً، إنما كان

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٥٥/٨٩). الحجبى: العقل (الخطابي: غريب الحديث) (٢٥٩/٢).

(٢) أصول الكافي (٦٢٧/٢) تحقيق غفاري. وقال: « ليس بناء هذا التقسيم على التسوية الحقيقية ولا على التفريق من جميع الوجوه، فلا ينافي زيادة بعض الأقسام على الثلاث أو نقصه عنه، ولا دخول بعضها في بعض، ولا ينافي أيضاً مضمونه مضمون ما يأتي بعده ». ونحن نترك الحكم على التناقض بين الرواية أعلاه وهذه الرواية للفقهاء: « عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن القرآن نزل أربعة أرباع: ربع حلال وربع حرام وربع سنن وأحكام وربع خير ما كان قبلكم ونياً ما يكون بعدكم وفصل ما بينكم »!.

(٣) أصول الكافي (٥٨٣/٢) كتاب الدعاء، باب أن القرآن يرفع كما أنزل. قال محققه: هذا الحديث مجهول.

(٤) أصول الكافي (٥٨٣/٢) كتاب الدعاء، باب النوادر. قال محققه: الحديث ضعيف.

عليّ أن أخبركم حين جمعته لتقرؤوه» (١).

وعن جعفر بن محمد: خرج عبد الله بن عمرو بن العاص من عند عثمان فلقى أمير المؤمنين صلوات الله عليه فقال له: يا علي! بتنا الليلة في أمر نرجو أن يثبت الله هذه الأمة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: « لن يخفى عليّ ما بيّتم فيه: حرّفتم وغيرتم وبدلتم تسعمائة حرف: ثلاثمائة حرفتم وثلاثمائة غيرتم، وثلاثمائة بدلتم ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩] » (٢).

وعن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إن القرآن الذي جاء به جبرئيل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وآله سبعة عشر ألف آية » (٣).

وهذه الرواية أربكت علماء الشيعة؛ ولذلك يقول الكاشاني: « وقد اشتهر اليوم بين الناس أن القرآن ستة آلاف وستمائة وست وستون آية... فهل البواقي تكون مخزونة عند أهل البيت وتكون فيما جمعه أمير المؤمنين (ع)؟ أو جاء الاختلاف من قبل تحديد الآيات وحسابها أو يكون مما نسخ تلاوته؟ » (٤).

قراءة آل البيت هل تزيد في القرآن؟

يعرف المطلعون على كتب علوم القرآن ما يسمى بالقراءة التفسيرية، وهي لا تعد جزءاً من القرآن، ولا يتعبد بقراءتها، ولكن دورها التفسير، ولكن هناك قراءات منسوبة لآل البيت تزيد في المصحف، وهذا تحريف واضح:

عن الحكم بن عتيبة قال: دخلت على عليّ بن الحسين عليهما السلام يوماً فقال: يا حكم! هل تدري الآية التي كان عليّ بن أبي طالب عليه السلام يعرف قاتله بها ويعرف بها الأمور العظام التي كان يحدث بها الناس؟ قال الحكم: فقلت في نفسي: قد وقعت على علم من علم عليّ بن الحسين أعلم بذلك تلك الأمور العظام. قال: فقلت: لا والله! لا أعلم، قال: ثم قلت: الآية تخبرني بها يا بن رسول الله! قال: هو والله قول الله عزّ ذكره: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ (وَلَا مُحَدِّثٍ) ﴾ [الحج: ٥٢] وكان عليّ

(١) أصول الكافي (٥٩٦/٢) كتاب الدعاء، باب النوادر. قال محققه: الحديث ضعيف.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٥٥/٨٩).

(٣) أصول الكافي (٥٩٧/٢) كتاب الدعاء، باب النوادر. قال محققه: الحديث موثق.

(٤) الوافي للفيض الكاشاني (٢٧٤/٥).

ابن أبي طالب عليه السلام محدثاً» (١). قال محقق أصول الكافي: « (ولا محدث) هو على قراءة أهل البيت (ع) » (٢)! فهل يسمح قراءة آل البيت أن تزيد في القرآن، وخصوصاً أنهم ينكرون أن القرآن نزل على سبعة أحرف؟

عن الحسين بن محمد بن معلى بن محمد رفعه في قول الله عز وجل: ﴿ فَبِأَيِّ آيَاتِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] (أباالتيي أم بالوصيي تكذبان) نزلت في الرحمن (٣)..
وعن أبي جعفر عليه السلام قال: « نزل جبرئيل عليه السلام بهذه الآية على محمد عليه السلام هكذا: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا (آل محمد حَقَّهُمْ) قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا (آل محمد حَقَّهُمْ) رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ يَمَآ كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٩] » (٤).
وأمثلة هذه الزيادات كثيرة في أصول الكافي.

وقد ذكرنا في البحث السابق الروايات التي تثبت الكتب التي ادعت روايات الشيعة نزولها على الأئمة: (الجامعة، والجفر، ومصحف فاطمة). فهي كتب أعطها الشيعة قدسية كالقرآن وكثيراً من ميزاته، فهي وحي من الله، وفيها تفصيل كل شيء كالحلال والحرام وما يحتاجه الناس، وهي تحيط بالكتب الإلهية السابقة!

فهناك « الجامعة إملاء رسول الله عليه السلام وخط علي عليه السلام بيده، إن الجامعة لم تدع لأحد كلاماً فيها علم الحلال والحرام » (٥). « صحيفة طولها سبعون ذراعاً بذراع رسول الله عليه السلام وإملائه من فلق فيه وخط علي بيمينه، فيها كل حلال وحرام وكل شيء يحتاج الناس إليه حتى الأرض في الخدش... وإن عندنا الجفر، وما يدرهم ما الجفر، قال: قلت: وما الجفر؟ قال: وعاء من آدم فيه علم التبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بني إسرائيل... ثم قال: وإن عندنا لمصحف فاطمة عليها السلام وما يدرهم ما مصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: قلت: وما مصحف فاطمة عليها السلام؟ قال: مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات، والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد » (٦).

- (١) أصول الكافي (٣٢٦/١)، كتاب الحجّة، باب أن الأئمة (ع) محدثون مفهمون..
- (٢) أصول الكافي (٣٢٦/١)، كتاب الحجّة، باب أن الأئمة (ع) محدثون مفهمون.. حاشية رقم (٢)..
- (٣) أصول الكافي (٢٧٤/١) كتاب الحجّة، باب أن التّعمة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه الأئمة.
- (٤) الكليني: أصول الكافي (٤٩٢/١) كتاب الحجّة، باب في نكت وتنف من التنزيل في الولاية.
- (٥) أصول الكافي (١٠٤/١) كتاب فضل العلم باب البدع والرأي والمقائيس.
- (٦) أصول الكافي (٢٩٥/١) باب فيه ذكر الصّحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح.

وعن أبي عبد الله عليه السلام: « إنَّ عندي الجفر الأبيض. قال: قلت: فأبي شيءٍ فيه؟ قال: زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى وصحف إبراهيم عليه السلام والحلال والحرام ومصحف فاطمة، ما أزعَم أنَّ فيه قرآنًا، وفيه ما يحتاج النَّاسُ إلينا، ولا نحتاج إلى أحدٍ، حتَّى فيه الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش.. » (١).

وتقول إحدى روايات الكافي عن مصحف فاطمة: «.. إن الله تعالى لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله دخل على فاطمة عليها السلام من وفاته من الحزن ما لا يعلمه إلا الله تعالى، فأرسل الله إليها ملكًا يسلي غمها ويحدثها، فشكت ذلك إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال: إذا أحسست بذلك، وسمعت الصوت قولي لي، فأعلمته بذلك، فجعل أمير المؤمنين عليه السلام يكتب كل ما سمع حتى أثبت من ذلك مصحفًا.. أما إنه ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون » (٢).

وهاتان الروايتان متناقضتان، فالأولى تذكر بعض مسائل التشريع المتعلقة بالحلال والحرام، « فيه الجلدة ونصف الجلدة وربع الجلدة وأرش الخدش » (٣). والثانية تجعل مصحف فاطمة المزعوم مختصًا بالأخبار المستقبلية، « ليس فيه شيء من الحلال والحرام، ولكن فيه علم ما يكون » (٤).

ولا يكفي هذا التناقض؛ بل إن الرواية السابقة التي تجعل مصحف فاطمة سطر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وتقول إحدى روايات الكافي عن مصحف فاطمة: «.. إن الله تعالى لما قبض نبيه صلى الله عليه وآله... فأرسل الله إليها ملكًا يسلي غمها ويحدثها» تناقض رواية مزعومة أخرى تدعي أن هذا المصحف من إملاء النبي صلى الله عليه وآله وخط علي، تقول الرواية: « وخلفت فاطمة عليها السلام ما هو قرآن، ولكنّه كلام من كلام الله أنزله عليها إملاء رسول الله وخطّ علي » (٥).

إن هذه التناقضات تدلّ على كذب واضعي هذه الروايات، وصدق الله تعالى القائل: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

[النساء: ٨٢]

(١) أصول الكافي (٢٩٦/١) باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث حسن.

(٢) أصول الكافي (٢٤٠/١)، بحار الأنوار (٤٤/٢٦)، بصائر الدرجات (ص ٤٣).

(٣) أصول الكافي (٢٤٠/١).

(٤) أصول الكافي (٢٤٠/١)، بحار الأنوار (٤٤/٢٦)، بصائر الدرجات (ص ٤٣).

(٥) بحار الأنوار (٤٢/٢٦)، عن بصائر الدرجات (ص ٤٢).

ثم يتساءل المرء: أين هذه الكتب المزعومة ما دامت بهذه الأهمية؟ ﴿ قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].
لما اضطر الشيعة للجواب على هذا السؤال أتبعوا ما سبق بزعم آخر، وهو أن هذه الكتب مخزونة عند المهدي المنتظر!

المهدي المنتظر سيأتي بكتاب جديد:

هناك روايات تزعم أن من أعمال المهدي المنتظر عند الشيعة أن يخرج لهم كتاباً جديداً وقرآناً يتلى: « لكأني أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد، على العرب شديد »^(١).

وجاء في كتاب (الغيبة) رواية مزعومة عن علي عليه السلام قال: « كأني أنظر إلى الشيعة، قد بنوا الخيام بمسجد الكوفة، جلسوا يعلمون الناس القرآن الجديد »^(٢).

وهناك رواية يقول فيها أحد الأئمة لأحد الأتباع: « اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم »^(٣).

وهذه الروايات تذهب أكثر من القول بتحريف القرآن الموجود؛ إذ هي ترميه بسهم مسموم آخر، وهو انتهاء صلاحية هذا القرآن الكريم لدى خروج القائم، مع أن الله تعالى يقول عن القرآن: ﴿ لِنُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴾ [الأنعام: ١٩] أي هو حجة لمن يبلغه هذا القرآن إلى قيام الساعة، فهو كما وصفه قائله تعالى: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] وهذا المعنى هو ما يؤكد علماء الشيعة المعاصرون، فهم يقولون: « إن القرآن الكريم لن يفقد صحته واعتباره أبداً »^(٤)، كما سنبين لاحقاً.
ويتتبع أحد كتّاب الشيعة المعاصرين روايات التحريف - مشكوراً - ويردّ على النوري الطبرسي صاحب (فصل الخطاب) الذي جمع روايات التحريف، فيصل بنا إلى النتيجة التالية:

- « إن أكثر من (٣٢٠) رواية من هذه الأحاديث يرجع إلى السيارى^(٥) الملعون

(١، ٢) كتاب الغيبة للنعماني (ص ١٠٢).

(٣) بصائر ذوي الدرجات (٤١٣/٤). مامادو كارامبيري: موقف الرفضة من القرآن الكريم (ص ٥٧).

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣١٠).

(٥) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد السيارى، قال عنه النجاشي في رجاله: « ضعيف الحديث فاسد المذهب ».

« ضعيف متهاك غال منحرف، مجفوف الرواية » انظر: رجال النجاشي (ص ٨٠)، الخوئي: معجم رجال

الحديث (٢٩٠/٢) طبعة قم، انظر: أكذوبة تحريف القرآن بين الشيعة والسنة لرسول جعفرريان (ص ٧٦، ٧٧).

على لسان الصادق عليه السلام، والمخدوش من قبل جميع الرجالين [أي علماء الرجال والجرح والتعديل] .

- وإن أكثر من (٦٠٠) حديث من مجموع الألف حديث مكررة، والفرق فيها: إما من جهة نقلها من كتاب آخر مع وحدة السند، أو نقلها عن طريق آخر.

- أما غير ما ورد من الروايات عن السيارى وكذلك غير المكررات فإننا نجد أن أكثر من مائة حديث عبارة عن قراءات مختلفة أكثرها عن الطبرسي في مجمع البيان .. « (١) .
ويصل بنا الباحث إلى أن روايات التحريف هي « روايات آحاد وطرقها ضعيفة، لا تمكّنها من الوقوف والصمود أمام تلك الروايات المتواترة للقرآن الكريم » (٢) .

وقائع تثبت وجود مصحف خاص للشيعة:

قال السبكي في طبقات الشافعية الكبرى: « ومن محاسن الشيخ أبي حامد [أحمد ابن محمد الإسفراييني] أنه اتفق في سنة (٣٩٨ هـ) وقوع فتنة بين أهل السنة والشيعة ببغداد بسبب إخراج الشيعة مصحفًا قالوا: إنه مصحف ابن مسعود، وهو يخالف المصاحف كلها، فثار عليه أهل السنة... ثم آل الأمر إلى جمع العلماء والقضاة في مجلس... وأحضر المصحف المشار إليه، فأشار الشيخ أبو حامد والفقهاء بتحريقه، ففعل ذلك بمحضر منهم » (٣) .

ويذكر جولد تسيهر أنه وجد بمكتبة (بانكيبور) بالهند نسخة شيعية من القرآن تغاير المصحف العثماني المتفق على صحته وسلامته، وتشتمل على سورتين زائدتين عما في هذا المصحف الإمام، إحداهما سورة الولاية، والأخرى تسمى سورة النورين « (٤) .

(١) رسول جعفریان: أکذوبة تحريف القرآن (ص ١٢٦، ١٢٧) .

(٢) رسول جعفریان: أکذوبة تحريف القرآن، المقدمة.

(٣) السبکی (عبد الوهاب تقي الدين) طبقات الشافعية الكبرى (٢٦/٣)، وانظر: ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١٤، ٢١٥) .

(٤) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١٥) عن مذاهب التفسير الإسلامي (ص ٢٩٤، ٢٩٥) .

وهاتان المفترتان: سورة النورين: « يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين اللذين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي ويحذرانكم عذاب يوم عظيم » .

« يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالنورين اللذين أنزلناهما يتلوان عليكم آياتي. إن الذين يوفون ورسوله في آيات لهم جنات نعيم. والذين كفروا من بعد ما آمنوا بنقضهم ميثاقهم وما عاهدهم الرسول عليه يقذفون في الجحيم. =

وإنَّ من المريب حقًا اهتمام المستشرقين الشديد بهذه المسألة؛ إذ يذكر الأستاذ محب الدين الخطيب في كتابه (الخطوط العريضة) أن خبيرًا في وزارة العدل المصرية هو الأستاذ محمد علي سعودي أطلعه مستشرق اسمه (شفيق دايفز براين) على مصحف إيراني وفيه سورة الولاية المزعومة، فنقلها منه بالتصوير الشمسي. كما أن سورة النورين نشرها المستشرقون في أوروبا، كالفرنسي (جارمان دي سي)، والألماني (نولدكه)، والإنجليزي (كليرندال)^(١). وكأنهم بنشرها قد عثروا على صيد ثمين أو كنز دفين، يفرق الأمة المسلمة ويقطع أوصالها؛ ولذلك فلا أرى أي قيمة لما نقلوه وما نشره في هذا الصدد، فليسوا بالعدول...

وما أنت بالحكم الذي ترضى حكومته ولا الأصيل ولا بالحكم العدل

= ظلما أنفسهم وعصوا الوصي الرسول يسقون من حميم. إن الله الذي نور السماوات والأرض بما شاء واصطفى من الملائكة وجعل من المؤمنين أولئك في خلقه يفعل الله ما يشاء... إن عليًا من المتقين وأنا لنوفيه حقه يوم الدين.. فإنه وذريته الصابرون، وإن عدوهم إمام المجرمين... يا أيها الرسول قد جعلنا لك في أعناق الذين آمنوا عهدًا فخذة وكن من الشاكرين بأن عليًا قانتًا بالليل، يحذر الآخرة ويرجو ثواب ربه قل هل يستوي الذين ظلموا وهم بعدائي يعلمون. سيجعل الأغلال في أعناقهم وهم على أعمالهم يندمون». فصل الخطاب (ص ١٨٠، ١٨١).

أما سورة الولاية المزعومة: « يا أيها الذين آمنوا آمِنُوا بالنبي والولي اللذين بعثناهما يهديانكم إلى صراط مستقيم، نبي وولي بعضهما من بعض، وأنا العليم الخبير، إن الذين يوفون بعهد الله لهم جنات النعيم، فالذين إذا تليت عليهم آياتنا كانوا به مكذِبين إنَّ لهم في جهنم مقام عظيم إذا نودي له يوم القيامة: أين الضالون المكذِبون للمرسلين، ما خلقهم المرسلون إلا بالحق وما كان الله لينظرهم إلى أجل قريب، وسبح بحمد ربك وعليَّ من الشاهدين » (ص ١٦٥)، عن تذكرة الأئمة للمجلسي (ص ١٩، ٢٠). وراجع مقدمة الأستاذ محب الدين الخطيب للخطوط العريضة.

هذه هي الآيات المزعومة، وهي لا تحتاج إلى نقد، لركاكتها وسوء نظمها، وبعدها عن أسلوب القرآن الكريم، فأين الثرى من الثريا! وكان الرب تعالى حكم على من أراد تحريف القرآن وتزويره أن ينحط في أسلوبه انحطاطًا لا يدانيه أحد، كما حصل لمسيمة ولقائل هذه الكلمات!؛ ولذلك قال الدكتور القفاري: « فهي من هنر الكلام وسقط المتاع، تلفيق مهلهل مضطرب المعاني والألفاظ، وإن أقل الأدباء ليأبى نسبتها إليه فضلًا عن أن تكون من كتاب الله الذي أعجز أرباب البيان وفرسان الفصاحة، وقد نقد هذه السورة المخترعة [سورة النورين] الشيخ يوسف الدجوي في كتابه: (الجواب المنيف في الرد على مدعي التحريف في القرآن الشريف) (ص ١٧٤) وما بعدها، وقد ردها - أيضًا - وبينَ زينها أحد شيوخ الشيعة وهو البلاغي في تفسيره آلاء الرحمن (ص ٢٤، ٢٥).

والله تعالى يقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبِيٍّ فَتَبَيَّنْوْا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِمَهَلَةٍ فَتُصْحِرُوْا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦].

ولكن الضالّ المضلّ النوري الطبرسي أثبتها في كتابه (فصل الخطاب) وكذلك فعل حسن الكشميري في كتابه (دبستان مذاهب) المطبوع باللغة الإيرانية، وقد طبع الكتابان في إيران طبعات متعددة (١).

وأغلب الظن أن هذه الفقرات المزعومة والعبارات المفتراة من تأليف بعض الغلاة من متأخري الإمامية الذين عزّ عليهم ألا يجدوا خلال موارثهم الضخمة سورة الولاية التي ادعت بعض روايات الشيعة حذفها من القرآن، فأرادوا أن يصيروا هذه الدعوة السلبية واقعا ملموسا فألفوها، أما سورة ذي النورين المكذوبة، فيشير الباحثون أنها لم توجد قبل القرنين التاسع والعاشر الميلاديين (٢).

ولو كانت هاتان السورتان موجودتين في الزمن القديم كزمن المفيد ومن جاء بعده ممن يقول بالتحريف - لاستدلوا بها على إثبات وقوع التحريف، ولشكّلت إذن واقعا ملموسا ودليلا أكيدا على التحريف، ولكنها لم تكن قد ألفت بعد، وحتى النوري الذي حارب من أجل القول بإثبات التحريف لم يستطع أن يجدها في كتب الإمامية على حرصه الشديد على أمثالها؛ ولذلك نقلها من كتاب (دابستان مذاهب) الذي ظهر في القرن السابع عشر لا من كتب أصيلة في المذهب (٣).. الناظر في هذه الصياغة وعنده مسكة عقل وقليل معرفة بلغة العرب يستطيع اكتشاف زيفها وأنها أبعد عن القرآن بُعد الثرى عن الثريا.

وللأسف فقد وجد المستشرقون والمنصرون والعلمانيون من أعداء الإسلام من ظهور هاتين الضالّتين ومن ظهور كتاب (فصل الخطاب) « فرصة مواتية للطعن على القرآن والنيل منه، فبادروا إلى ترجمة هذا الكتاب بلغاتهم قصداً إلى ترويج الباطل وإشاعة الفتنة وتشكيك المسلمين في صحة هذا الأثر الخالد من وحي السماء » (٤). ولا عجب أن

(١) انظر: محب الدين الخطيب في الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية، المقدمة (ص ١١ - ١٣)، وانظر: الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١٩).

(٢) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢١٩).

(٣) انظر إن شئت: فصل الخطاب (ص ١٨١).

(٤) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٢٢١).

ينادوا اليوم بكتاب جديد أسموه (فرقان الحق) (١).

صحيح أن مثل هذه الأنباء تُحزن القلب، ولكن المرء من ناحية أخرى يستبشر بهلاك من يريد الاعتداء على كتاب الله تعالى؛ لأن حرب القرآن الكريم وإهانتة تنقل المعركة من حرب بين الكافرين والمسلمين المغلوبين على أمرهم اليوم - إلى حرب بين الكافرين الطاغين، والجبار القهار القائل في كتابه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. وما دامت المعركة قد سارت في هذا الاتجاه فنصرة كتاب الله مؤكدة مؤكدة.

الدوافع الكامنة وراء دعوى بعض الشيعة تحريف القرآن الكريم:

ويظهر للباحث أن الذين أثبتوا التحريف ووضعوا رواياته من الشيعة هم أكثر من فئة، ولأكثر من دافع، ومن هذه الدوافع:

١ - كراحتهم للصحابة الكرام، فاتهموهم بتحريف القرآن؛ إذ « كيف يجتمع حينئذ في قلب واحد وعقل واحد الاعتقاد بسلامة القرآن وخيانة جامعيه؟! » (٢)؛ ولذلك غمزوا ولزوا بعثمان وجمعه للمصحف. ولكي يقولوا بتخوين الصحابة مع إرادتهم القول بسلامة القرآن وضعوا المقالة الأخيرة التي تقول: إن عثمان قابل القرآن على مصحف فاطمة؛ للخروج من هذا المأزق.

ولكن هذا يوقعهم في تناقض آخر وهو مخالفة أخبارهم التي تقول: إن مصحف فاطمة غير القرآن (٣). وأنه ليس قرآناً.

٢ - عدم وجود نصوص قرآنية تدعم رأيهم في النص والإمامة على علي ؑ، وعدم وجود نصوص قرآنية في فضائل علي وآل بيته وعدم وجود نصوص قرآنية تدم أعداء الشيعة. وخصوصاً وقد جاء في الكافي: « عن الأصبع بن نباتة قال: سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول: « نزل القرآن أثلاثاً: ثلث فينا وفي عدونا، وثلث سنن وأمثال، وثلث فرائض وأحكام » (٤).

٣ - الغلو في علي ؑ جعل بعضهم يزعم أن علياً وحده قام بمهمة جمع القرآن، بل يزعم أن علياً ؑ كان عالماً بالكتب السماوية السابقة؛ ولذلك نسبوا إليه: « لوثنى الناس لي وسادة... لحكمت بين أهل التوراة بالتوراة، ولحكمت بين أهل الإنجيل بالإنجيل،

(١) وهو يوزع في بعض الدول العربية، التي أخبرني أحد الناشرين أنها تمنع عرض المصحف الشريف في معرضها السنوي للكتاب!!

(٢) د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٢٧/١، ٣٢٨).

(٣) المرجع السابق نفسه. (٤) أصول الكافي (٦٢٧/٢) تحقيق غفاري.

ولحكمت بين أهل الزبور بالزبور، ولحكمت بين أهل الفرقان بالفرقان»^(١). وهذا النص يخالف ما ثبت عند الجميع من نسخ القرآن الكريم للكتب السابقة وهيمنته عليها، وقد أمر الله تعالى نبيه محمدًا أن يحكم بين اليهود والنصارى بالقرآن لا بحكم كتبهم المحرفة: قال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

ألا تدل روايتهم الأخيرة هذه على أضحوكة وحدة الأديان؟! أليست دليلًا على أن التشيع كان عبر الزمن مأوى يجمع النحل والأديان، وكل صاحب دين يجد فيه مراده؟^(٢). والذين قالوا بتحريف القرآن بسبب الدافع الأول ليسوا هم القائلين بالتحريف بسبب الدافع الثاني، والثالث كذلك، وهذا يدلنا على اختلافهم بسبب العاطفة التي تُترك لتعمل عملها دون تعقل، وصدق ربنا القائل عن كتابه: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ أَلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢].

- وقد حاول بعض العلماء الشيعة الرد على هذه الروايات إما بتضعيفها أو تأويلها. ثم باتهام الفرق الأخرى بتحريف معاني القرآن الكريم:

يقول باقر شريف القرشي: « وما ورد في بعض الروايات الشاذة من وجود تحريف فيه فإنها باطلة؛ لأنها تتصادم مع الكتاب العزيز والسنة المقدسة، وما ذكر من الروايات المنافية لذلك فإنها موضوعة أو مؤولة »^(٣).

ويقول مؤولًا تلك الروايات ولا مزمًا بالفرق الأخرى: « وقد دلت هذه الكوكبة من الروايات على ذم المحرفين لكتاب الله تعالى، كما دلت على وقوع التحريف فيه، وليس المراد منه الزيادة أو النقصان منه؛ فذلك باطل جزمًا جملة وتفصيلاً، وإنما المراد منه تأويله وتفسيره على غير ما أنزل الله تعالى؛ فقد عمد بعض المفسرين إلى ذلك دعمًا للحكم الأموي والعباسي، فمن ذلك ذكر بعض المفسرين أن الآية الكريمة: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴾ [البقرة: ٢٠٧] نزلت في ابن ملجم الباغى الأثيم - ونلاحظ أنه لم يذكر هؤلاء المفسرين الذين يزعم أنهم قالوا

(١) بحار الأنوار (١٨٢/٢٦).

(٢) د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٧٤٠/٢).

(٣) باقر شريف القرشي: سلامة القرآن الكريم من التحريف (١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م)، (ص ٧٤).

هذا الافتراء والكذب - لأنه عمم بسيفه رائد الحكمة والعدالة الاجتماعية في الإسلام؛ أمير المؤمنين... وكثير من أمثال هذا التفسير يوجد في مصادر تفسير القرآن الكريم، وهي بعيدة كل البعد عن كتاب الله تعالى وسنة نبيه، وقد وضعها من لا حريجة له في الدين تقريباً للسلطات الحاكمة التي جهدت على تدعيم حكمها بكل ما خالف القرآن الكريم»^(١).
ويناقش الطباطبائي الرواية المزعومة في عرض أمير المؤمنين علي عليه السلام القرآن على الصحابة وردّهم له فيقول:

« إن جمعه ﷺ القرآن وحمله إليهم وعرضه عليهم لا يدل على مخالفة ما جمعه لما جمعه في شيء من الحقائق الدينية الأصلية أو الفرعية، إلا أن يكون في شيء من ترتيب السور أو الآيات من السور التي نزلت نجومًا، بحيث لا يرجع إلى مخالفة في بعض الحقائق الدينية. ولو كان كذلك لعارضهم بالاحتجاج، ودافع فيه ولم يقنع بمجرد إعارضهم عما جمعه واستغنائهم عنه، كما روي عنه ﷺ في موارد شتى، ولم ينقل عنه ﷺ فيما روي من احتجاجاته أنه قرأ في أمر ولايته ولا غيرها آية أو سورة تدل على ذلك، وجههم على إسقاطها أو تحريفها»^(٢).

ثم من التناقضات العجيبات أن المجلسي يورد هذه الرواية العجيبة التي أتى الرافع ليكذبها عن أمير المؤمنين قال: « لو ثني لي الوسادة^(٣) وعرف لي حقي لأخرجت لهم مصحفًا كتبه وأملاه علي رسول الله ﷺ »^(٤)؛ ولذلك قال نعمة الله الجزائري: « ولما جلس أمير المؤمنين ﷺ على سرير الخلافة لم يتمكن من إظهار ذلك القرآن وإخفاء هذا لما فيه من إظهار الشنعة على ما سبقه »^(٥).

قال ابن حزم رحمه الله رادًا على هذا الزعم: « ولقد كان جهاد من حرّف القرآن وبدّل الإسلام أوكد عليه من قتال أهل الشام الذين إنما خالفوه في رأي يسير رأوه ورأى خلافه فقط »^(٦).

(١) سلامة القرآن الكريم من التحريف (ص ٦٥، ٦٦).

(٢) السيد الطباطبائي: تفسير الميزان (٢٥١/١٢). مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين، قم.

(٣) وهو كناية عن توليه الحكم كما شرح المجلسي ذاته.

(٤) بحار الأنوار (٥٢/٩٢).

(٥) الأنوار النعمانية (٣٦٢/٢). ومع ذلك فللجزائري منزلته عندهم، وقد وصفوه بأنه السيد السند، والركن المعتمد، المحدث النبوي، المحقق، النحرير، المدقق العزيز النظر، وقالوا بأنه من أكابر متأخري علماء الإمامية، محدث جليل القدر، ومحقق عظيم الشأن، توفي سنة (١١١٢ هـ). انظر: أمل الآمل (٣٣٦/٢)، الكنى والألقاب (٢٩٨/٣)، سفينة البحار (٦٠١/٢)، مقدمة الأنوار النعمانية.

(٦) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل (٢١٦/٢، ٢١٧).

وقد تولى علي عليه السلام أمر الخلافة، فلو كان عنده مصحف خاص به لوجب عليه أن ينشره في الآفاق كما فعل عثمان عليه السلام. فلو كان ما ادعاه دعاة التحريف صحيحًا لكان علي هو المقصّر الملوم - وحاشاه - حيث إنه لم يصحح - مع قدرته وتمكّنه في عهد خلافته - ما طرأ على القرآن من تحريف (١).

وهكذا يتبين سخف تلك الروايات التي زعمت هذا الزور والبهتان، وسقوطها سندًا وامتثًا، ثم هذه هي بلاد المسلمين مجمعة على مصحف واحد، فينبغي إذن طرح تلك الروايات والتأكيد على زيفها ووضعها، ما دامت تخالف القرآن الكريم الذي قال الله فيه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، خصوصًا وقد جاء عن الأئمة روايات تخالفها وتؤكد سلامة القرآن من التحريف، فينبغي التعويل عليها، وطرح ما عداها.

الروايات الشيعية التي تؤكد سلامة القرآن وتدحض كل تلك الروايات المزعومة:

لقد جاءت رواية صحيحة عن أبي عبد الله جعفر الصادق - وهو الذي يروون عنه تلك الروايات المزعومة المثبتة لمصحف فاطمة - تنفي أي كتاب بعد القرآن: عن أيوب ابن الحرّ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ ذَكَرَهُ خَتَمَ بِنَبِيِّكُمْ النَّبِيِّينَ فَلَا نَبِيَّ بَعْدَهُ أَبَدًا، وَخَتَمَ بَكِتَابِكُمُ الْكُتُبَ فَلَا كِتَابَ بَعْدَهُ أَبَدًا، وَأَنْزَلَ فِيهِ تَبْيَانَ كُلِّ شَيْءٍ وَخَلَقَكُمْ وَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ، وَنَبَأَ مَا قَبْلَكُمْ وَفَصَّلَ مَا بَيْنَكُمْ وَخَبَرَ مَا بَعْدَكُمْ، وَأَمَرَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ وَمَا أَنْتُمْ صَائِرُونَ إِلَيْهِ » (٢).

ويقول الإمام الصادق أيضًا: « القرآن واحد، نزل من عند واحد على واحد، وإنما الاختلاف من جهة الرواة » (٣).

ويقول الإمام الرضا: « شريعة محمد ﷺ لا تُنسخ إلى يوم القيامة، فمن ادعى بعده نبوة، أو أتى بعد القرآن بكتاب؛ فدمه مباح لكل من سمع ذلك منه » (٤).

وهناك رواية عن الصادق تبين أن قراءة آل البيت هي قراءة أبي بن كعب؛ فعن

(١) انظر: الشيعة (ص ٤٦)، والخطوط العريضة (ص ١٢).

(٢) أصول الكافي (١/٣٢٤)، كتاب الحجّة باب في أنّ الأئمة بمن يشبهون ممن مضى وكراهية القول فيهم بالنبوة، قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) رواه الكليني في الكافي (٢/٤٦١) باب النوادر باختلاف يسير. وصيغة الحديث: (أنزل من واحد على واحد، وإنما الاختلاف وقع من جهة الرواية).

(٤) بحار الأنوار (٢٢١/٧٩)، و (٣٥، ٣٤/١١)، وعزاه إلى علل الشرائع لابن بابويه.

عبد الله بن فرقد والمعلی بن خنيس قالوا: كنا عند أبي عبد الله عليه السلام ومعنا ربيعة الرأي، فذكرنا فضل القرآن فقال أبو عبد الله عليه السلام: « إن كان ابن مسعود لا يقرأ على قراءتنا فهو ضال، فقال ربيعة: ضال؟ فقال: نعم ضال، ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: أما نحن فنقرأ على قراءة أبي ». وهذا « يدل على أن قراءة أبي بن كعب أصح القراءات عندهم عليهم السلام » (١).

وهذه الرواية وإن حوت سوء الأدب مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وهو من خيرة قراء الكتاب الكريم - ونحن ننزه الإمام جعفر الصادق عنه - ولكنها تبين أن قراءة جعفر الصادق هي قراءة أبي بن كعب وهو أيضًا من أشهر قراء كتاب الله تعالى. فلا غضاضة أن يختار الصادق قراءته ويفضله على غيره، المهم أن هذه الرواية تثبت اتباع الصادق لقراءة أحد الصحابة الكرام، لا أن يدعي أن عنده قرآنًا آخر مختلفًا.

قال الدكتور القفاري: « كما أن لديهم روايات تقول بالتحريف، فإن عندهم روايات أخرى تنفي هذا الباطل وتنكره... مثل ما جاء عندهم في ثواب قراءة القرآن (٢)، وفضل حامل القرآن (٣)، ووجوب عرض أحاديثهم عليه (٤) والتمسك به إلى قيام الساعة، وهذا يبطل أن يكون محرفًا أو مخفيًا عند منتظرهم (٥)... وقد صدر حديثًا كتاب اسمه: (صحيح الكافي) (٦). وقد راجعته فوجدت صاحبه قد جرده من الروايات التي تمس كتاب الله، فحذف أبوابًا بكاملها مع أحاديثها مثل: باب أنه لم يجمع القرآن كله إلا الأئمة، وهو من أبواب الكافي الصريحة في هذا الافتراء، كما حذف كل روايات « باب فيه نكت وتنف من التنزيل في الولاية » والبالغة (٩٢) رواية، (ما عدا روايتين فقط ليس فيهما الطعن في نص القرآن) (٧).

غير أن بعض علماء الشيعة لم يرتض صنيع اليهودي في (صحيح الكافي)، ورأى في فعله: « إساءة كبيرة إلى التراث الشيعي، بل إساءة إلى أهل البيت عليهم السلام » (٨)!. وهذا يدل

(١) تعليق علي أكبر غفاري محقق كتاب الكافي على الرواية السابقة (٦٣٤/٢).

(٢) أصول الكافي، كتاب فضل القرآن (٦١١/٢).

(٣) أصول الكافي (٦٠٣/٣).

(٤) أصول الكافي (٥٩/١) باب الرد إلى الكتاب والسنة.

(٥) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٦٩/١).

(٦) طبع سنة (١٤٠١ هـ) من تأليف أحد شيوخهم المعاصرين « محمد الباقر البهودي » ويقع في ثلاثة أجزاء.

(٧) انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٦٩/١).

(٨) عبد الرسول عبد المحسن الغفاري: الكليني والكافي (ص ٤٣٢)، مؤسسة النشر الإسلامي، قم، (١٤١٦)، (ط ١).

على عمق الخلاف بين علماء الشيعة أنفسهم، وأن ما فعله اليهودي لم يكن مجرد تقية، فقد كان اليهودي بغنى عن حملة التشويه التي أطلقها ضده بعض معاصريه من الاثني عشرية. وإذا كان الغلاة قد هالهم عدم وجود اسم علي وآل بيته في كتاب الله ﷻ، فوضعوا روايات تؤكد حذف اسم علي وآل بيته، وحذف أعداء آل البيت أيضًا من القرآن بعد نزولها، فإن في روايات الكافي ما يؤكد أن القرآن في عهد النبي لم يكن يشتمل على ما ادعوا وكذبوا:

عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام.. فقلت له: « إن الناس يقولون: لم يسمَّ عليًّا في القرآن وأهل بيته في كتاب الله، فقال: قولوا لهم: إن رسول الله نزلت عليه الصلاة ولم يسمَّ الله ثلاثًا وأربعًا، كان رسول الله هو الذي فسر لهم ذلك » (١).

فهذه رواية دامعة، تؤكد أن الأئمة يقررون أن القرآن الذي أنزله الله تعالى لا يحتوي أسماء الأئمة؛ وبالتالي فإن الروايات التي تزعم أن أسماءهم قد حُذفت من المصحف هي روايات مكذوبة موضوعة.

ثانيًا: آراء علماء الشيعة في سلامة القرآن من التحريف:

القول المشهور بين علماء الشيعة الأقدمين والمعاصرين هو سلامة القرآن الكريم من التحريف، وإن خالف في ذلك بعض رموزهم. وستعرض فيما يلي لتفصيل آراء علمائهم من هذه المسألة الخطيرة.

١ - القائلون بسلامة القرآن الكريم من علماء الاثني عشرية:

- أولًا: أشهر القائلين بذلك من علماء الاثني عشرية المتقدمين:

- يُعدّ ابن بابويه القمي، الصدوق، شيخ الطائفة - من أشهر علماء الاثني عشرية المنكرين للتحريف؛ حيث يقول: « اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربع عشرة سورة. وعندنا أن (الضحى) و (ألم نشرح) سورة واحدة، و (لإيلاف) و (ألم تر كيف) سورة واحدة، ومن نسب إلينا أنا نقول: إنه أكثر من ذلك؛ فهو كاذب » (٢).

(١) أصول الكافي: كتاب الحجّة، باب نص الله ورسوله على الأئمة.

(٢) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦).

- وقد أكد رجحان القول بسلامة القرآن في مذهب الاثني عشرية أحد أعلام مفسريهم ومتكلميهم، وهو الشيخ الطوسي عندما قال في مقدمة تفسيره التبيان « وأما الكلام في زيادته ونقصانه فمما لا يليق بهذا الكتاب المقصود منه العلم بمعاني القرآن؛ لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها والنقصان منه، فالظاهر من مذهب المسلمين خلافه، وهو الأليق بالصحيح من مذهبنا وهو الذي نصره الشريف المرتضى وهو الظاهر في الروايات، غير أنه رويت روايات كثيرة من جهة الخاصة والعامة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع طريقها الآحاد لا توجب علمًا ولا عملًا، والأولى الإعراض عنها وترك التشاغل بها؛ لأنه يمكن تأويلها... ورواياتنا متناصرة بالحث على قراءته والتمسك بما فيه، وردّ ما يرد من اختلاف الأخبار في الفروع إليه وعرضها عليه، فما وافقه عمل عليه، وما يخالفه يجتنب ولم يتلفت إليه »^(١).

ويستدل الطوسي على سلامة القرآن الكريم بالأخبار الدالة على وجوب التمسك بالقرآن الكريم إلى قيام الساعة، فيقول: « وقد وردت عن النبي ﷺ رواية لا يدفعها أحد أنه قال: « إني مخلّف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض »^(٢)، وهذا يدل على أنه موجود في كل عصر؛ لأنه لا يجوز أن يأمر الأمة بالتمسك بما لا تقدر على التمسك به، كما أن أهل البيت ومن يجب اتباع قوله حاصل في كل وقت، وإذا كان الموجود بيننا مجمعًا على صحته، فينبغي أن نتشاغل بتفسيره وبيان معانيه وترك ما سواه »^(٣)، وهذا دليل على سلامة القرآن؛ لأنه لا يمكن اتباع القرآن والعتره إن لم يكن القرآن سليمًا من التحريف.

- وعلى نهجه الطبرسي^(٤) (الفضل بن الحسن) صاحب مجمع البيان الذي قال: « والكلام في زيادة القرآن ونقصانه مما لا يليق بالتفسير، أما الزيادة فيه فمجمع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن في القرآن تغييرًا ونقصانًا، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه »^(٥).

(١) الطوسي: التبيان، المقدمة. (٢) المجلسي: بحار الأنوار (٤٠/١٥٥، ١٥٦).

(٣) تفسير التبيان (٣/١). وانظر: الدكتور القفاري: أصول مذهب الشيعة (١/٣٥٣).

(٤) لاحظ أن الطبرسي ليس واحدًا، فأشهرهم الطبرسي (الفضل بن الحسن ت ٥٤٨ أو ٥٦١ هـ) صاحب مجمع البيان، وهو ينكر التحريف، والطبرسي (أحمد بن علي من علماء القرن السادس الهجري) صاحب الاحتجاج، والنوري الطبرسي وهو في القرن الماضي صاحب (فصل الخطاب) وهما يقولان بتحريف كتاب الله تعالى.

(٥) مجمع البيان: المقدمة، وانظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٨ - ١٥٩).

- أما الشريف المرتضى علي بن الحسين أبو القاسم (ت ٤٣٦ هـ) فقد استدل - كما ذكرنا سابقاً - على تواتر القرآن الكريم بتواتر ما هو دونه من الكتب؛ فلو أن مدخلاً أدخل في كتاب سيبويه باباً في النحو ليس من الكتاب العرف ومُيَّز، وعلم أنه ملحق وليس من أصل الكتاب، وكذلك القول في كتاب المُزني. ومعلوم أن العناية بالقرآن وضبطه أصدق من العناية بنقل كتاب سيبويه ودواوين الشعراء^(١).

وقد نقل أهل السنة عنه أنه كان يكفّر من يقول بتحريف القرآن، قال ابن حزم عنه: « فإنه كان يُنكر هذا القول ويكفّر من قاله »^(٢).

- ويقول المحقق الحلبي (ت ٧٢٦) عن القرآن الكريم: « الحق أنه لا تبديل ولا تأخير ولا تقديم فيه، وأنه لم يزد منه ولم ينقص، ونعوذ بالله تعالى من أن يُعتقد مثل ذلك، فإنه يوجب التطرق إلى معجزة الرسول المنقولة بالتواتر »^(٣).

- ثانيًا: جمهور علماء الشيعة المعاصرين يؤكدون سلامة القرآن من التحريف:

- يقول الزنجاني عن القرآن الكريم: « لا يعتريه التبديل والتغيير والتحريف، وهو الذي بين أيدينا، هو نفس القرآن المنزل على النبي ﷺ ومن ادعى فيه غير ذلك فهو منحرف أو مغالط أو مشتبّه، وكلهم على غير هدى، فإنه كلام الله الذي: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبُطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢] »^(٤).

(١) انظر: مجمع البيان (٣١/١). (٢) الفصل (١٣٩/٤)، مكتبة الخانجي، القاهرة.

(٣) الحلبي: أجوبة المسائل المهنية (ص ١٢١)، عن جعفر سبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ص ١٧٢).

(٤) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٤٩)، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

ولي وقفة وصلت إليها بعد جهد بليغ، وهو الاختيار الدقيق للكلمات، حسب المفهوم الاثني عشري، فقد قال مغنية عن سلامة القرآن: إنه (ضرورات الدين وعقيدة جميع المسلمين)، وهناك سؤال يطرح نفسه: هل هو من عقيدة جميع المسلمين أم جميع المؤمنين؟! سنرى أن بين اللفظين فرقاً عظيماً عند الاثني عشرية - كما سيظهر في الفصل القادم - حيث إن لفظ الإيمان مقصور على الاثني عشرية، ولفظ المسلمين أعم، يشمل غيرهم، ولا يقتضي النجاة من الخلود في جهنم، ولو أراد التزام سلامة التحريف وجعله من ضرورات الدين لقال: (من ضرورات الدين وعقيدة جميع المؤمنين) وكذلك الزنجاني يقول: « ومن ادعى فيه غير ذلك فهو منحرف أو مغالط أو مشتبّه »، فنلاحظ أنه لم يستخدم كلمة (فهو كافر) بل استخدم كلمات أخرى (مغالط). أما في الأمور التي تدل على مذهبهم كالموقف من الصفات يقول (كافر)، (بمنزلة كافر)!! إن سبب هذا التحرج من تكفير من ادعى تحريف القرآن نابع من أن قسماً كبيراً من علماء الشيعة قد اعتقدوا هذه العقيدة الفاسدة، وكبر على معظم كتاب الاثني عشرية وضئهم بالكفر؛ فقد كان الزنجاني مدرّكاً =

- ويقول باقر شريف القرشي: « وعلى أي حال فإن الشيعة تبرأ من تحريف الكتاب العزيز، وتجمع على أنه هو الكتاب المنزل من رب العالمين، لا زيادة ولا نقصان فيه » (١).

- ويقول محمد اليزدي: « صرح كبار علماء الإسلام من الشيعة وأهل السنة وأكدوا عدم تعرض القرآن الكريم للنقيصة كما لم يتعرض للزيادة، وجاؤوا بأدلة كثيرة على هذه الحقيقة، ولكن مع الأسف ونتيجة لنقل بعض الروايات الموضوعية في كتب الحديث لدى الفريقين والتفسير الخاطئ والفهم المنحرف لبعض الروايات المعتبرة احتمال بعضهم بل ربما ذهبوا إلى حذف بعض الآيات من القرآن الكريم... يمكن أن تثبت اعتمادًا على القرآن الكريم نفسه صيانتها من حذف آية أو سورة مستقلة ».

ومن الآيات التي اعتمد عليها لنفي التحريف قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]. ثم يضيف أن النقص في بعض نسخ المصحف، أو عروض الخطأ عليها، أو الخلاف في القراءات، أو في ترتيب بعض الآيات والسور، أو الخلاف في التفسير « لا ينافي صيانة القرآن الكريم عن التحريف » (٢).

كما يؤكد على خلود القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّكُمْ لَكَائِبٌ عَزِيزٌ ۝ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢]؛ « حيث تدل على أن القرآن الكريم لن يفقد صحته واعتباره أبدًا » (٣).

- ويقول مغنية: « اتفق المسلمون بكلمة واحدة على أنه لا زيادة في القرآن، ونحن لا نتردد ولا نتوقف في تكفير من أنكر كلمة واحدة من القرآن، وأن جحود البعض تمامًا كجحود الكل؛ لأنه طعن صريح فيما ثبت عن النبي ﷺ بضرورة الدين واتفاق المسلمين » (٤).

- ويقول آية الله دستغيب: « في تفسير قوله تعالى: ﴿ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْأَمْطَرُونَ ﴾ [الواقعة: ٧٨، ٧٩] وجهان: الأول: أن المكنون هو اللوح المحفوظ. الوجه

= ما يقول عندما قال عن أثبت التحريف: (فهو منحرف أو مغالط أو مشتبه)؛ لأنه سيذكر هذه العقيدة الفاسدة عن بعض « سادات » الإمامية. عقائد الإمامية الاثنى عشرية (ص ٥٥).

(١) باقر شريف القرشي: سلامة القرآن الكريم من التحريف (ص ٥٦).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣٠٤، ٣٠٥).

(٣) المرجع السابق (ص ٣١٠).

(٤) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

الثاني: أن هذا المصحف بشكله هذا وبكلماته وسطوره لا تمسه يد الخيانة، ولن تمسه أي: لا يمكنها زيادة شيء عليه، وهذه من معجزات القرآن؛ أن لا تناله يد الخيانة من أول نزوله إلى الآن» (١).

- ويقول جعفر سبحاني: « فإن القرآن الكريم بقي مصوناً من أي نوع من أنواع التحريف والتغيير، فإن رسول الله ﷺ ترك للبشرية من بعده مائة وأربع عشرة سورة قرآنية كاملة، وقد قام كتاب الوحي، وبالخصوص الإمام علي عليه السلام بكتابة الوحي وتدوينه منذ البداية، ولحسن الحظ لم ينقص من القرآن الكريم وسوره وآياته شيء قط، رغم مرور قرابة خمسة عشر قرناً على بدء نزول القرآن، كما لم يزد عليه شيء أبداً» (٢). ثم ساق كثيراً من الأدلة على سلامة القرآن من التبديل والتغيير، وفي مقدمتها قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

٢ - القائلون بتحريف القرآن الكريم من علماء الاثني عشرية:

ومع أننا نؤيد موقف علماء الشيعة المعاصرين في تأكيدهم - ونحن نؤكد معهم - على سلامة القرآن من التحريف، ولكننا لا نرضى طمس الحقائق؛ إذ يدعي بعضهم إجماع علماء الشيعة الأقدمين على سلامة القرآن من التحريف، يقول إحسان الأمين: « ولأنهم التزموا صحة الأخبار عموماً وتمسكوا بظاهرها دون بحث أو تنقيب، فإن بعضهم وخلاقاً لإجماع علماء الشيعة وأعلامهم قد اتجه إلى القول بنقص بعض الآيات في الولاية من القرآن الكريم كالشيخ النوري والسيد الجزائري وغيرهما» (٣). كما أن منهم من نسب القول بسلامة القرآن الكريم إلى من لا يقتر به من قدماء علماء الشيعة، كما فعل صاحب مجمع البيان؛ إذ نسب إلى الشيخ المفيد القول بسلامة القرآن من التحريف (٤)، وليس هذا هو مذهبه عند التحقيق والتأمل.

- قال كاشف الغطاء: « القول بالتحريف هو مذهب الأخباريين (٥) والحشوية،

(١) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٢٣٤).

(٢) جعفر سبحاني: العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت (ص ١٦٩ - ١٧٣). نقله إلى العربية جعفر الهادي (ط ١)، (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، قم.

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٤).

(٤) انظر: الطبرسي: مجمع البيان (٣١/١).

(٥) انظر مثلاً مشارق الشمس الدرية في أحقية مذهب الأخبارية لعبدان العلوي آل عبد الجبار البحراني منشورات المكتبة العدنانية البحرين (ص ١٢٧): عن القرآن « منه ما هو خلاف ما أنزل الله، ومنه ما هو =

خلافًا لأصحاب الأصول الذين رفضوا احتمال التحريف في القرآن رفضًا قاطعًا^(١).
- وحتى نضع الأمور في نصابها، ولا نظلم للحقيقة؛ سنكتفي ببعض الأمثلة التي تجرح دعوى إجماع علماء الشيعة على حفظ القرآن من التحريف:

- القمي المفسر والكليني المحدث: وقد استدل آية الله الأصفهاني بما أورده كل من الكليني في الكافي وعلي بن إبراهيم القمي في تفسيره على وضوح رأيهما في التحريف والنقصان. أما القمي فأمره واضح، وأما الكليني فقد روى في كتابه الكافي « الأحاديث الظاهرة في ذلك ولم يعلق عليها »^(٢). وعلى سبيل المثال: عن الحسين بن محمد عن معلى بن محمد رفعه في قول الله ﷻ: ﴿ فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكُمَا تَكْذِبَانِ ﴾ [الرحمن: ١٣] (أباالتيبي أم بالوصي تكذبان) نزلت في الرحمن »^(٣).

وروى الكليني أيضًا عن أبي حمزة عن أبي جعفر الطوسي قال: نزل جبرئيل عليه السلام بهذه الآية على محمد ﷺ هكذا: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا (آل محمد حَقَّهُمْ) قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَآزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا (آل محمد حَقَّهُمْ) رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٩]^(٤).

« والظاهر من طريقته أنه يعقد الكتاب على ما يرتضيه »^(٥).

- موقف الشيخ المفيد: يلاحظ متتبع أقوال المفيد اختلاف كلام المفيد وتناقضه؛ فمرة يحاول أن يوفق بين القول بسلامة القرآن والتصديق برواية أنه سبع عشرة ألف آية بأن يفرق بين القرآن والوحي؛ فيقول:

« إنه قد نزل الوحي الذي ليس بقرآن، ما لو جمع إلى القرآن لكان مبلغه مقدار سبعة عشر ألف آية. وذلك مثل قول جبرئيل للنبي ﷺ: « إن الله تعالى يقول لك يا محمد:

= محرف ومغير وأنه قد حذف منه أشياء كثيرة منها اسم علي (ع) في كثير من المواضع ومنها لفظة آل محمد (ع) ومنها أسماء المنافقين ومنها غير ذلك، وأنه ليس على الترتيب المرضي عند الله وعند رسول الله (ص) كما في تفسير علي بن إبراهيم « يعني القمي.

(١) صيانة القرآن من التحريف (ص ٦٤، ٦٥)، وانظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٨).

(٢) آية الله العظمى الأصفهاني: آراء حول القرآن: دار الهادي (ص ٨٨)، انظر: علماء الشيعة يقولون (ص ١٢).

(٣) أصول الكافي (٢٧٤/١) كتاب الحججة باب أن التعمة التي ذكرها الله ﷻ في كتابه الأئمة.

(٤) الكليني: أصول الكافي (٤٩٢/١) كتاب الحججة باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية.

(٥) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ١٩١).

دار خلقي» (١) ومثل قوله: « اتق شحناء الناس وعداوتهم » (٢).... ومثل هذا كثير، كله وحي ليس بقرآن، ولو كان قرآنًا لكان مقرونًا به، وموصلًا إليه غير مفصول عنه، كما كان أمير المؤمنين عليه السلام جمعه، فلما جاءهم به قال: « هذا كتاب ربكم كما أنزل على نبيكم، لم يزد فيه حرف، ولم ينقص منه حرف ». فقالوا: لا حاجة لنا فيه، عندنا مثل الذي عندك. فانصرف وهو يقول: ﴿ فَتَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَيَسَّ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧]، وقال الصادق عليه السلام: « القرآن واحد، نزل من عند واحد على واحد، وإنما الاختلاف من جهة الرواة » (٣) « (٤).

ويقول: « القول في تأليف القرآن وما ذكر قوم من الزيادة فيه والنقصان أقول: إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد عليهم السلام باختلاف القرآن وما أحدثه بعض الظالمين فيه من الحذف والنقصان، فأما القول في التأليف فالموجود يقضي فيه بتقديم المتأخر وتأخير المتقدم، ومن عرف الناسخ والمنسوخ والمكي والمدني لم يرتب بما ذكرناه. وأما النقصان فإن العقول لا تحيله ولا تمنع من وقوعه، وقد امتحنت مقالة من ادعاه، وكلمت عليه المعتزلة وغيرهم طويلاً فلم أظفر منهم بحجة أعتمدها في فساده. وقد قال جماعة من أهل الإمامة (٥): إنه لم ينقص من كلمة ولا من آية ولا من سورة، ولكن حذف ما كان مثبتاً في مصحف أمير المؤمنين عليه السلام من تأويله وتفسير معانيه على حقيقة تنزيله، وذلك كان ثابتاً منزلاً، وإن لم يكن من جملة كلام الله تعالى الذي هو القرآن المعجز، وقد يسمى تأويل القرآن قرآنًا، قال الله تعالى: ﴿ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤] فسمى تأويل القرآن قرآنًا، وهذا ما ليس فيه بين أهل التفسير اختلاف.

وعندي أن هذا القول أشبه من مقال من ادعى نقصان كلم من نفس القرآن على الحقيقة دون التأويل، وإليه أميل. والله أسأل توفيقه للصواب. وأما الزيادة فيه فمقطوع على فساده من وجه، ويجوز صحتها من وجه؛ فالوجه الذي أقطع على فساده أن يمكن لأحد من الخلق زيادة مقدار سورة فيه على حد يلتبس به عند أحد من الفصحاء، وأما

(١) الكليني: الكافي (٩٥/٢) باب المدارة.

(٢) الكليني: الكافي (٢٢٨/٢) باب المراء والخصومة.

(٣) الكليني: الكافي (٤٦١/٢) باب النوادر. (٤) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦).

(٥) لاحظ « قال جماعة »، ولم يذكر الإجماع على مقالته.

الوجه المجوّز فهو أن يزداد فيه الكلمة والكلمتان والحرف والحرفان وما أشبه ذلك مما لا يبلغ حد الإعجاز، ويكون ملتبسًا عند أكثر الفصحاء بكلم القرآن، غير أنه لا بد متى وقع ذلك من أن يدل الله عليه، ويوضح لعباده عن الحق فيه، ولست أقطع على كون ذلك؛ بل أميل إلى عدمه وسلامة القرآن عنه « (١) ».

ولكن انظر إلى نفس المفيد ما أثبتته أعلاه - مع ردّنا بعضه - عندما يقول في المسائل السروية: « إن الذي بين الدفتين من القرآن جميعه كلام الله تعالى وتنزيله، وليس فيه شيء من كلام البشر، وهو جمهور المنزل، [أي: ليس كل المنزل!]، والباقي مما أنزله الله تعالى قرآنًا عند المستحفظ للشريعة، المستودع للأحكام [أي: المهدي المنتظر!]، لم يضع منه شيء ». ويقول أيضًا: « إن الخبر قد صحح من أئمتنا عليهم السلام أنهم أمروا بقراءة ما بين الدفتين، وأن لا نتعداه، بلا زيادة فيه ولا نقصان منه، حتى يقوم القائم عليه السلام فيقرأ الناس القرآن على ما أنزله الله تعالى وجمعه أمير المؤمنين « (٢) ».

ويقول: « وإنما نهونا عليهم السلام عن قراءة ما وردت به الأخبار من أحرف تزيد على الثابت في المصحف؛ لأنها لم تأت على التواتر، وإنما جاء بها الآحاد، وقد يغلط الواحد فيما ينقله. ولأنه متى قرأ الإنسان بما خالف ما بين الدفتين غرر بنفسه وعرض نفسه للهلاك. فنهونا عليهم السلام عن قراءة القرآن بخلاف ما ثبت بين الدفتين لما ذكرناه « (٣) ».

ثم تأمل كيف يروي المفيد رواية تثبّط الناس عن حفظ القرآن الكريم؛ لأن من حفظه على حاله الآن كان حفظه للقرآن الذي سيأتي به القائم صعبًا: فقد روى المفيد بإسناده إلى جابر الجعفي عن أبي جعفر أنه قال: « إذا قام قائم آل محمد عليه السلام ضرب فساطيط، ويعلم الناس القرآن على ما أنزل الله صلى الله عليه وآله وسلم، فأصعب ما يكون على من حفظه اليوم؛ لأنه يخالف فيه التأليف « (٤) ».

قال الدكتور القفاري « هذه الرواية لمفيدهم الذي يقصدونه ويعظمونه حتى زعموا أنه

(١) المفيد: أوائل المقالات (ت ٤١٣هـ) (ص ٨٠ - ٨٢): دار المفيد - بيروت تحقيق إبراهيم الأنصاري الزنجاني الخوئي (١٤١٤هـ).

(٢) المفيد: المسائل السروية (ص ٧٨) مطبعة المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد، وانظر في الخبر الذي أورده أصول الكافي (٦٣٢/٢) باب النوادر، والمجلسي: بحار الأنوار (٧٤/٩٢).

(٣) المسائل السروية (ص ٨٢)، بحار الأنوار (٧٤/٩٢).

(٤) المفيد: الإرشاد في معرفة حجج الله على العباد (٣٨٦/٢) دار المفيد - بيروت.

فوق مستوى البشر؛ لأن إمامهم المنتظر خاطبه (بالأخ السديد والمولى الرشيد) (١) ...
 هذه الرواية جاءت في كتابه الإرشاد وهو في قمة كتبهم المعبرة، حتى قال شيخهم
 المجلسي: « كتاب الإرشاد أشهر من مؤلفه » (٢) وهذه الرواية التي نقلها المفيد تثبت أنه
 يقول: إن مع المهدي كتابًا أوضح من القرآن الكريم، أو - على الأقل - تصويًا أو زيادة
 على ما في المصحف الشريف!! وهكذا يستوي المفيد في نقله لهذه الرواية مع النعماني
 صاحب كتاب (الغيبة)؛ حيث روى النعماني في كتابه ما يشبه الرواية السابقة،
 بإسناده إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: « كأني بالعجم فساطيطهم في مسجد الكوفة
 يعلمون الناس القرآن كما أنزل، قلت: يا أمير أوليس هو كما أنزل؟ فقال: لا، مُجِي منه
 سبعون من قريش بأسمائهم وأسماء آبائهم، وما ترك أبو لهب إلا إزرًا على رسول الله صلى الله عليه وآله
 لأنه عمه » (٣).

ومن الجدير بالملاحظة اعتراف المفيد بأن أهل السنة ينكرون وقوع تحريف القرآن؛
 حيث يقول في كتابه أوائل المقالات: « واتفقوا - أي الإمامية - على أن أئمة الضلال
 خالفوا في كثير من تأليف القرآن وعدّلوا فيه عن موجب التنزيل وسنة النبي صلى الله عليه وآله، وأجمعت
 المعتزلة، والخوارج، والزيدية، والمرجئة، وأصحاب الحديث - على خلاف الإمامية » (٤).
 وعجبتًا لأمر المفيد، لم يستفد ممن سبقه ولا ممن لحقه، فإن شيخه ابن بابويه القمي
 الملقب عندهم بالصدوق (ت ٣٨١ هـ) قد أنكر نسبة التحريف إلى الإمامية (٥)، وتبعه
 على ذلك الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) (٦)، والطوسي (ت ٤٥٠ هـ) (٧) وهما من
 تلامذة المفيد، ورابعهم الطبرسي (ت ٥٤٨ أو ٥٦١ هـ).

(١) انظر: السيد علي البروجردي: طرائف المقال في معرفة طبقات الرجال (٤٨٣/٢)، مكتبة آية الله
 العظمى المرعشي النجفي، قم، (ط ١)، (١٤١٠ هـ).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٢٧/١).

(٣) النعماني (محمد بن إبراهيم ت ٣٨٠ هـ): الغيبة (٣١٨) مكتبة الصدوق طهران، تحقيق علي أكبر
 غفاري، وانظر: بحار الأنوار (٣٦٥، ٣٦٤/٥٢)، وانظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول
 مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣١٥/١).

(٤) أوائل المقالات (ص ١٣)، د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني
 عشرية (٣٣٦/١).

(٥) انظر: الاعتقادات (ص ١٠١، ١٠٢).

(٦) انظر: التبيان (٣/١)، مجمع البيان (٣١/١).

(٧) انظر: التبيان (٣/١).

- الطبرسي (أحمد بن علي) صاحب الاحتجاج: أما الطبرسي صاحب الاحتجاج فقد روى ما جرى من حجاج بين علي عليه السلام وبعض الزنادقة، فنسب إلى علي عليه السلام قولاً عظيماً؛ إذ نسب إليه القول بإسقاط المنافقين آيات كثيرة من القرآن الكريم، وأنها تتعدى في موضع واحد أكثر من ثلث القرآن! « هذا من إسقاط المنافقين من القرآن، وبين القول في اليتامى وبين نكاح النساء والخطاب والقصص أكثر من ثلث القرآن » (١).

وعلى كل فإن منزلة هذا الطبرسي ليست بالمنزلة السامقة حتى عند الشيعة أنفسهم، وفي كتابه طامات غير مسألة التحريف، مما يجعله لا يستحق الوقوف عليه أو الالتفات إليه (٢). ويأسف المرء من طبعه ونشره في أوساط الشيعة، ووضعه في الأقرص الليزرية التي يشرف عليها علماءهم.

- المجلسي: المجلسي صاحب كتاب (بحار الأنوار) الموسوعة الحديثية الشيعية الكبيرة، الذي يقول في حقه محققو الاثني عشرية: « أجمع كتاب في فنون الحديث » (٣). أما عن مصداقية مصادره فيقولون: « وأكثر ما أخذ البحار من الكتب المعتمدة والأصول المعتمدة » (٤).

يقول المجلسي معتمداً على ما نقل من روايات في حق القرآن الكريم: « ولا يخفى أن هذا الخبر وكثير من الأخبار الصحيحة صريحة في نقص القرآن وتغييره، وعندني أن الأخبار في هذا الباب متواترة معني، وطرحها جميعاً يوجب رفع الاعتماد عن الأخبار رأساً، بل ظني أن الأخبار في هذا الباب لا تقصر عن أخبار الإمامة، فكيف بثبوتها بالخبر » (٥). وقد روى كثيراً من الروايات في بيان ذلك عن أبي جعفر عليه السلام قال: « لولا أنه زيد في كتاب الله ونقص منه ما خفي حقنا على ذي حجي، ولو قد قام قائمنا فنطق صدقه » (٦).

وروى عن جعفر بن محمد: خرج عبد الله بن عمرو بن العاص من عند عثمان، فلقي أمير المؤمنين صلوات الله عليه فقال له: يا علي بنتنا الليلة في أمر نرجو أن يثبت الله هذه الأمة، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: « لن يخفى علي ما يبتم فيه: حزقتم وغيرتم وبدلتم

(١) الاحتجاج (ص ٢٤٠). ونقلها عنه تفسير الصافي (٢٨/١ - ٣٢).

(٢) انظر حول قيمة كتاب الاحتجاج: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٠٦، ٢٠٧). وسيمرّ في البحث التالي.

(٣) محسن العاملية: أعيان الشيعة (٢٩٣/١). (٤) الذريعة (٢٦/٣، ٢٧).

(٥) المجلسي: مرآة العقول (٥٢٥/١٢). (٦) المصدر السابق (٥٥/٨٩).

تسعمائة حرف: ثلاثمائة حرفتم وثلاثمائة غيرتم وثلاثمائة بدلتهم ﴿ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ
الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ
أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٩] « (١).

ولم تنته مهمة المجلسي في رواية أخبار التحريف، بل حكم على كثير منها بالصحة،
في كتابه الذي شرح فيه (الكافي) كتصحيحه رواية: « القرآن الذي جاء به جبرائيل عليه السلام
إلى محمد ﷺ سبعة عشر ألف آية » (٢).

ومع ذلك يقول عنه كتاب الاثني عشرية: « شيخ الإسلام والمسلمين » (٣)،
و « رئيس الفقهاء والمحدثين، آية الله في العالمين، ملاذ المحدثين في كل الأعصار، ومعاد
المجتهدين في جميع الأمصار » (٤).

والمجلسي مع تصحيحه لكثير من روايات التحريف، وزعمه أنها متواترة تواتراً معنوياً،
إلا أنه يناقض نفسه فيدعي أنها تفصيلياً آحاد لا يركن إليها. فيقول: « الذي بين الدفتين
كلام الله تعالى على الحقيقة من غير زيادة ولا نقصان » (٥) « فإن قال قائل: كيف يصح
القول بأن الذي بين الدفتين هو كلام الله تعالى على الحقيقة من غير زيادة ولا نقصان،
وأنتم تروون عن الأئمة عليهم السلام أنهم قرؤوا: (كنتم خير أئمة أخرجت للناس)
أو (وكذلك جعلناكم أئمة وسطاً) وقرؤوا: (يسألونك الأنفال) وهذا بخلاف ما في
المصحف الذي في أيدي الناس؟ قيل له:.. إن الأخبار التي جاءت بذلك أخبار آحاد
لا يقطع على الله بصحتها؛ فلذلك وقفنا فيها، ولم نعدل عما في المصحف الظاهر على
ما أمرنا به.. مع أنه لا ننكر أن تأتي القراءة على وجهين منزلين أحدهما ما تضمنه
المصحف، والثاني ما جاء به الخبر، كما يعترف مخالفوننا به من نزول القرآن على وجوه
شتى » (٦).

وهو يحاول أن يربط تشابهاً بين هذه المخالفات لنصوص القرآن الكريم واختلاف
وجوه القراءات عند أهل السنة. ولكن شتان بين الأمرين؛ فإن اختلاف القراءات المتواترة

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٥٥/٨٩).

(٢) انظر: مرآة العقول (٥٣٦/٢)، ومن المعلوم أن آيات القرآن كما هو معروف لا تصل إلى سبعة آلاف
آية، فكيف تصل إلى سبعة عشر ألفاً؟

(٤) مقدمة البحار (ص ٣٩).

(٣) الأردبيلي: جامع الرواة (٧٨/٢).

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٥) بحار الأنوار (٧٥/٨٩).

لا يغير شيئاً في المعنى، ولا يخالف الرسم العثماني الذي أجمع عليه الصحابة، بخلاف ما أورده المجلسي من أمثلة تخالف الرسم القرآني بزيادة حروف مثل زيادة الهمزة في قوله: (أئمة) بدل (أمة)، وإنقاص كلمات مثل قوله: (يسألونك الأنفال) فأسقط (عن). والملاحظ أن شيوخ الدولة الصفوية هم الأجرأ على التصريح بتحريف القرآن، ولعل سبب هذه الجرأة: العامل السياسي وازدياد قوة الأخباريين؛ إذ إن قوة الدولة الصفوية التي ساندتهم ألغت دور التقية لديهم، فنبشوا الروايات القديمة منذ القرن الثالث الهجري، وضخموها ونشروها.

حيث إن شيوخ الدولة الصفوية كالمجلسي في بحاره^(١). والكاشاني في تفسير الصافي والبحراني في البرهان ونعمة الله الجزائري في الأنوار النعمانية وما سواها من كتبه، وأبي الحسن الشريف في مرآة الأنوار، والمازندراني شارح الكافي وغيرهم تولوا نشر هذه الفرية على نطاق واسع في ظل الحكم الصفوي الذي انحسرت فيه التقية إلى حد ما. ولهذا كثرت أقوالهم بتواتر هذا الكفر عندهم حتى زعم شيخهم أبو الحسن الشريف وهو من تلامذة المجلسي بأنه: « يمكن الحكم بكونه [أي القول بتحريف القرآن] من ضروريات مذهب التشيع »!!^(٢).

- حسين النوري الطبرسي و (فصل الخطاب)!: ألف شيخ الشيعة وراويهم صاحب الموسوعة الحديثية الشيعية (مستدرك الوسائل) حسين النوري الطبرسي الذي يحظى بتعظيمهم^(٣) مؤلفاً في إثبات هذا الكفر، قال في مقدمته: « هذا كتاب لطيف وسفر شريف عملته في إثبات تحريف القرآن وفضائح أهل الجور والعدوان، سميته (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) »^(٤).

لقد حاول هذا النوري الطبرسي أن يؤكد تأكيداً جازماً أن الشيعة منذ نشأتها كانت

(١) انظر: بحار الأنوار: كتاب القرآن، باب تأليف القرآن وأنه على غير ما أنزل الله ﷻ: (٦٦/٩٢) وما بعدها.

(٢) انظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٣٣٣/١)، عن مرآة الأنوار (ص ٤٩).

(٣) فقد جعلوا كتابه « مستدرك الوسائل » مصدراً من مصادرهم المعتمدة في الحديث، كما سيأتي عند الحديث عن عقيدتهم في السنة، وبعد أن مات هذا الطبرسي وضعوه في أشرف بقعة عندهم « في الإيوان الثالث عن يمين الداخل إلى الصحن الشريف من باب القبلة (في النجف) ». انظر: (أغا بزرك الطهراني: أعلام الشيعة، القسم الثاني من الجزء الأول ص ٥٥٣).

(٤) كان تأليفه سنة (١٢٩٢ هـ)، وطبع في إيران سنة (١٢٩٨ هـ). انظر: موقف الراضة من القرآن الكريم:

على مذهبه الضال في القول بالتحريف، وأن مخالفة هذا المذهب كانت طارئة!، ولكن هيهات هيهات. فإن الحقيقة التي لا شك فيها أن أوائل الشيعة ما كانت على هذا الكفر، فما كان خلاف الشيعة في أول الأمر إلا في مسألة الأحق بالإمامة. وما كانت مسألة سلامة القرآن من التحريف من المسائل التي اختلفت فيها الآراء والفرق، فشيعة علي، وجند معاوية، والخوارج، ومن اعتزل الفتنة من الصحابة في الصدر الأول.. كلهم كانوا على رأي واحد في سلامة القرآن ووجوب تحكيمه والعمل به، ولو داخل القرآن شيء من التحريف في العهد الأول لما ترك علي عليه السلام وجنده القتال لما رأوا المصحف مرفوعة فوق رماح جند الشام يوم صفين، ولكان بوسع علي عليه السلام أن يقول لهم: لا نتحاكم إلى كتاب حَرَفْتُمُوهُ وَغَيَّرْتُمُوهُ. في حين يثبت التاريخ خضوعه لتحكيم كتاب الله تعالى؛ ولذلك جاء في كتاب أمير المؤمنين عليّ إلى أهل الأمصار يذكر فيه ما جرى بينه وبين جند معاوية: « وكان بدء أمرنا التقينا والقوم من أهل الشّام، والظاهر أنّ ربّنا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله، والتصديق برسوله، ولا يستزيدوننا، الأمر واحد، إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء »^(١). ولو كان هناك خلاف حول المصحف وسلامته لكان الأولى أن يرمي أهل الشام به، وأن يحاربهم ويجالدهم من أجله.

ولذلك يعترف النوري الطبرسي بشيوع القول بسلامة القرآن بين عامة طائفته - وإن لم يسلم هو به - فيقول: « ثم شاع هذا المذهب (يعني إنكار التحريف) بين الأصوليين من أصحابنا، واشتهر بينهم حتى قال المحقق الكاظمي في (شرح الوافية): إنه حكي عليه الإجماع »^(٢). ثم حاول النوري ردّ دعوى الإجماع.. ليجعل جل الشيعة الاثني عشرية على مذهبه^(٣).

وبعد افتضاح أمر النوري قام فئة من شيوخ الشيعة المعاصرين يتبرؤون من قوله، كما فعل البلاغي في آلاء الرحمن^(٤)، ومحسن الأمين في الشيعة بين الحقائق والأوهام^(٥)، وعبد الحسين شرف الدين في أجوبة مسائل جار الله^(٦)، ومحمد حسين آل كاشف

(١) نهج البلاغة (ص ٤٤٨).

(٢) فصل الخطاب (ص ٣٨).

(٣) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٣٤٣).

(٤) آلاء الرحمن (١٧/١ - ٣٢).

(٥) الشيعة بين الحقائق والأوهام (ص ١٦٠).

(٦) أجوبة مسائل جار الله (ص ٢٧ - ٣٧).

الغطا في (أصل الشيعة وأصولها)^(١)، ومحمد جواد مغنية في (الشيعة في الميزان)^(٢).
ومحمد تقي مصباح اليزدي في (دروس في العقيدة الإسلامية)^(٣). والحوثي في
تفسيره (البيان في تفسير القرآن)^(٤)، حيث يقول منبهاً إلى وجوب طرح كل
ما خالف القرآن والسنة من تلك الروايات التي ساقها النوري في (فصل الخطاب)
وأمثاله: « فلا بد من طرح هذه الروايات لمخالفتها للكتاب والسنة، والأدلة المتقدمة على
نفي التحريف. وقد دلت الأخبار المتواترة على وجوب عرض الروايات على الكتاب
والسنة، وأن ما خالف الكتاب منها يجب طرحه، وضربه على الجدار »^(٥).

- موقف القائلين بالتحريف من شيخ الطائفة الصدوق:

يُعَدُّ ابن بابويه القمي، الصدوق، شيخ الطائفة، من أشهر علماء الاثني عشرية
المنكرين للتحريف - كما عرفنا - حيث يقول: « اعتقدنا أن القرآن الذي أنزله الله
تعالى على نبيه محمد ﷺ هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من
ذلك، ومبلغ سوره عند الناس مائة وأربع عشرة سورة. وعندنا أن (الضحى) و (ألم
نشرح) سورة واحدة، و (لإيلاف) و (ألم تر كيف) سورة واحدة، ومن نسب إلينا
أنا نقول: إنه أكثر من ذلك؛ فهو كاذب »^(٦).

والذي يدل على اعتقاد الصدوق بسلامة القرآن من التحريف - بعيداً عن التقيّة -
أنه أورد رواية حوار علي عليه السلام مع أحد الزنادقة، وهي الرواية التي ذكرها الطبرسي
صاحب الاحتجاج بزيادة: « هذا من إسقاط المنافقين من القرآن، وبين القول في اليتامى
وبين نكاح النساء والخطاب والقصص أكثر من ثلث القرآن »^(٧). ولكن الصدوق يوردها
في كتابه (التوحيد) دون هذه الزيادة المكذوبة^(٨). فهل هذه الزيادات الأثيمة زيدت
بعد قرنين من عصر الصدوق، ليثبتها صاحب الاحتجاج ثم المجلسي ثم النوري؟ أم أنها
كانت في أصل الرواية لدى الصدوق، فحذفها لأنه لا يرضى بالتحريف؟.. مهما يكن

(١) أصل الشيعة وأصولها (ص ٨٨).

(٢) الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (١٤٢٤)، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، ترجمة هاشم محمد طهران.

(٤) البيان في تفسير القرآن، المقدمة (ص ٢٢٦). دار الزهراء - بيروت (١٣٩٥ هـ)، (ط ٤).

(٥) المرجع السابق: المقدمة (ص ٢٣٠، ٢٣١). (٦) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦).

(٧) الاحتجاج (ص ٢٤٠). ونقلها عنه تفسير الصافي (٢٨/١ - ٣٢).

(٨) انظر: التوحيد (ص ٢٥٥ - ٢٦٩). جماعة المدرسين - قم (١٣٨٧ هـ)، تحقيق هاشم الحسيني الطهراني.

الجواب؛ فإن عدم وجود هذه العبارات الفاسقة تشهد بسلامة الصدوق من القول بالتحريف.

وقد احتار صاحب النوري في تعليل عدم وجود هذه الزيادة لدى الصدوق، فقال: « وساق (يعني الصدوق) الخبر مع نقصان كثير عما في (الاحتجاج)، منه ما يتعلق بنقصان القرآن وتغييره، إما لعدم الحاجة إليه كما يفعل ذلك كثيرًا، أو لعدم موافقته لمذهبه » (١). وقال في مستدرك الوسائل: « إن الساقط [يعني من خبر حجاج الزنديق لعلي ؑ] في كتاب التوحيد للصدوق [هي المواضع التي صرح الشيخ بوقوع النقص والتغيير في القرآن المجيد، وهي تسعة مواضع، ولما لم يكن النقص والتغيير من مذهبه ألقى منه ما يخالف رأيه، قال المحقق الكاظمي الشيخ أسد الله في كشف القناع: وبالجملة فأمر الصدوق مضطرب جدًّا، إلى أن قال: وقد ذكر صاحب البحار حديثًا عنه في كتاب (التوحيد) عن الدقاق عن الكليني، بإسناده عن أبي بصير، عن الصادق ؑ ثم قال: هذا الخبر مأخوذ من الكافي وفيه تغييرات عجيبة، تورث سوء الظن بالصدوق، وأنه إنما فعل ذلك ليوافق مذهب أهل العدل » (٢). يعني المعتزلة القائلين بعدم التحريف.

مع أن الصدوق هو شيخ الطائفة كما يقولون، وصاحب أحد أشهر أربعة كتب حديثة عند الاثني عشرية، وهو كتاب (من لا يحضره الفقيه)، ومن العجيب أن المجلسي الذي شارك في اتهام الصدوق بالاضطراب وعدم الموثوقية روى في بحاره من سبعة عشر كتابًا من كتب الصدوق (٣)!

ولذلك جاء الخوئي ليردّ على النوري ومن لفّ لفّه اتهامهم للصدوق بسبب اختصاره رواية حجاج الزنديق لعلي ؑ؛ لأن هذا الاتهام سينقلب على مصداقية كتبهم الحديثية، فيقول: « جلالة مقام الصدوق قدس سره تمنع إساءة الظن به، ولم يوجد أي شاهد من أن الخبر مأخوذ من الكافي، وإنما رواه الصدوق عن الدقاق (علي بن أحمد بن موسى) عن الكليني، فعمل السقط منه غفلة أو لأمر آخر، فمن أين ظهر أن الصدوق - قدس سره - هو الذي اختصر الحديث، وأسقط منه ما أدى نظره إلى إسقاطه؟ » (٤).

(١) فصل الخطاب (ص ٢٤٠).

(٢) النوري الطبرسي: مستدركات الوسائل (١١/١٧٠).

(٣) انظر: المجلسي: بحار الأنوار (١/٢٦ - ٧٣).

(٤) الخوئي: معجم رجال الحديث (١٧/٣٤٨).

- أهم الملاحظات والنتائج المستخلصة من موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم:

١ - تناقضات بعض القائلين بسلامة القرآن الكريم من علماء الاثني عشرية: لقد صنفنا الشيخ الصدوق وكذلك الطوسي ضمن علماء الشيعة المنكرين للتحريف، والمثبتين لسلامة القرآن وحفظه، ولكننا عند التنقيب نرى أنهما يوردان نصوصًا تخالف ما ذهبوا إليه. - فهذا الصدوق شيخ الطائفة لا يسلم من ذكر بعض روايات التحريف (وناقل الكفر ليس بكافرا): فقد جاء في كتابه (ثواب الأعمال) في ثواب من قرأ سورة الأحزاب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إن سورة الأحزاب فضحت نساء قريش من العرب، وكانت أطول من سورة البقرة ولكن نقصوها وحرفوها » ^(١).

فهل أحبط الصدوق بسوقه هذه الرواية - دون أن يردّها أو يضعفها أو يعلّق عليها على أقلّ تقدير - قوله الأول: « اعتقادنا أن القرآن الذي أنزله الله تعالى على نبيه محمد عليه السلام هو ما بين الدفتين، وهو ما في أيدي الناس، ليس بأكثر من ذلك،... ومن نسب إلينا أنا نقول: إنه أكثر من ذلك؛ فهو كاذب » ^(٢)!

إنه لتناقض عجيب، فسح المجال لدعاة التحريف أن ينسبوا أمر الصدوق إلى الاضطراب قائلين: « فأمر الصدوق مضطرب جدًّا » ^(٣)!

ويفسّر د. القفاري هذا التناقض بين أقوال الصدوق باحتمال تعرّض كتبه للتحريف بالزيادة على ما فيها، وهذا ليس ببعيد؛ لأن « الزيادة أمر ميسور عندهم، كما بدا لنا ذلك في كتاب (سليم بن قيس) والذي اعترف بوضعه والتغيير فيه شيوخهم [كالمفيد ^(٤)] وكما زادوا في روايات كتاب (من لا يحضره الفقيه) لابن بابويه [أي: الصدوق شيخ الطائفة] نفسه أكثر من الضعف » ^(٥).

- وقد ذكرنا أن الطوسي ينكر القول بالتحريف، ولكنه يقرّ بوجود روايات شيعية تدلّ عليه، فيقول: « الكلام في زيادته ونقصانه مما لا يليق به أيضًا؛ لأن الزيادة فيه مجمع على بطلانها، والنقصان منه، فالظاهر أيضًا من مذهب المسلمين خلافه، وهو

(١) ثواب الأعمال (ص ١٣٩)، وانظر: بحار الأنوار (٥٠/٩٢).

(٢) المفيد: الاعتقادات (ص ٨٤ - ٨٦). (٣) الخوئي: معجم رجال الحديث (٣٤٨/١٧).

(٤) يقول المفيد: « هذا الكتاب غير موثوق به، ولا يجوز العمل على أكثره، وقد حصل فيه تخليط وتدليس »

(المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق: ص ١٢٦).

(٥) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٥٣/١).

الأليق بالصحيح من مذهبنا، ورويت روايات كثيرة من جهة العامة والخاصة بنقصان كثير من آي القرآن ونقل شيء منه من موضع إلى موضع، لكن طريقها الآحاد التي لا توجب علماً؛ فالأولى الإعراض عنها، وترك التشاغل بها؛ لأنه يمكن تأويلها «^(١)». ولكن شأنه شأن الصدوق يروي روايات تثبت التحريف؛ لأجل الطعن على الصحابة؛ كروايته عن أحد الأئمة: « لا تأخذن معالم دينك من غير شيعتنا؛ فإنك إن تعديتهم أخذت دينك عن الخائين الذين خانوا الله ورسوله، وخانوا أماناتهم، إنهم أوتمنوا على كتاب الله - جل وعلا - فحرفوا وبدلوه.. »^(٢).

ويورد في (دعاء الغيبة): « اللهم جدد ما محي من دينك، وأحي به ما بدل من كتابك »^(٣)، « ولا شك أنه يؤمن بهذا الدعاء؛ لأنه من إمامهم المعصوم بزعمهم، وهو صريح في تبديل القرآن!! »^(٤).

٢ - خضوع مسألة سلامة القرآن للاجتهااد عند الشيعة: والقارئ لكل ما كتبه الاثنا عشرية في مسألة القرآن يصل إلى نتيجة مهمة وخطيرة: وهي إمكانية خضوع مسألة سلامة القرآن من التحريف عند كثير من علمائهم للرأي والاجتهداد - بخلاف مسألة الإمامة، فلا إمكانية للاجتهداد فيها عندهم، - فمن شك في إمامة إمام واحد من الأئمة يكفر - كما سنين في مبحث الإمامة في فصل العقائد الخاصة - أما من انتقص القرآن الكريم، واعتقد نقصانه وتحريفه، فإنه يعدّ مجتهداً لا يكفر، بل قد يعذر عند كثير من علماء الاثني عشرية، ويشكر عند أنصار القول بالتحريف.

قال إحسان الأمين عن فئة منهم قالت بنقص القرآن: « ولأنهم التزموا صحة الأخبار عموماً وتمسكوا بظاهرها دون بحث أو تنقيب فإن بعضهم، وخلافاً لإجماع علماء الشيعة وأعلامهم^(٥) قد اتجه إلى القول بنقص بعض الآيات في الولاية من القرآن الكريم كالشيخ النوري والسيد الجزائري وغيرهما »^(٦).

ولذلك عندما أخرج هذا النوري الطبرسي كتابه (فصل الخطاب في إثبات تحريف

(١) تفسير التبيان (٣/١). وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٣٥٣/١).

(٢) رجال الكشي (ص ٤). (٣) الطوسي: كتاب الغيبة (ص ١٦٥).

(٤) ماماكادو: موقف الراضة من القرآن الكريم، مكتبة ابن تيمية (ص ١٣٤).

(٥) في ادعاء الإجماع نظر؛ لأن كثيراً منهم خالفه كما سنين.

(٦) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٤).

كتاب رب الأرباب) أنكر عليه من أنكر من علماء الشيعة، وهم على حق وصدق في ذلك، ولكن لم أعلم أنهم كفروه، بل ما تزال كتبه ماثورة في وسط الشيعة، وكتابه (مستدرک الوسائل) من أشهر الكتب الحديثية عندهم - بعد الأصول الأربعة - و « عزّز وكزّم ودفن في أعظم الأمكنة عندهم وأقدسها » (١). وهو المشهد المرتضوي عام (١٣٢٠ هـ) (٢).

وهذا التناقض بين إنكار التحريف ثم الثناء على القائلين بالتحريف من علماء الشيعة هو الذي حير الباحثين في التشيع، وأثار تعجبهم: يقول الدكتور السالوس: « والذي تعجب له هو موقف المعتدلين من الشيعة حيث نرى تناقضاً واضحاً؛ فهم يشنون على الصحابة الكرام، ويقولون بأن القرآن الكريم الذي بين أيدي المسلمين هو كما أنزله الله ﷻ... والتناقض يأتي في الإشادة بكتب الغلاة كالمراجعات، وهو الذي يتعارض مع كل ما سبق... وكذلك القول بأن كل ما في تفسير علي بن إبراهيم القمي صحيح، وهو الذي كفر الصحابة وقال بالتحريف تنزيلاً وتأويلاً... تناقض واضح جلي، فمتى يزول مثل هذا التناقض؟! » (٣).

في حين رأينا الحجاج واللغظ يدور بين علماء الاثني عشرية حول سلامة الصدوق من تهمة تحريف رواية واحدة أتهم بأنه حرّفها فأنقص منها حتى قال فيه بعضهم: (تورث سوء الظن بالصدوق)، فانبرى من يدافع عنه، في حين تتهم روايات الكافي والمجلسي والنوري كتاب الله تعالى بالتحريف، فيأتي من يدافع عنهم، مدعيًا أنهم مجتهدون، وأن هذا المذهب لا يضرهم! يقول آية الله الأصفهاني: « لا يضر القول بالتحريف بمذهب القائل به... بل القائل به إنما ترجح بنظره التحريف لأجل الروايات! » (٤).

أما مسألة وجوب اعتقاد الأئمة الاثني عشر، فلا عذر لأحد في إنكار معشارها، فعن محمّد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجلٌ قال لي: اعرف الآخر من الأئمة ولا يضرّك أن لا تعرف الأوّل. قال: فقال: « لعن الله هذا، فإنّي أبغضه ولا أعرفه، وهل

(١) علماء الشيعة يقولون (ص ٦).

(٢) انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٦٠/١).

(٣) انظر علي أحمد السالوس: مع الاثني عشرية في الأصول والفروع (موسوعة شاملة)، وحول تفسير

البيان بالذات (١٣/١). دار التقوى مصر (ط ٤)، (١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م).

(٤) آية الله الأصفهاني: آراء حول القرآن (ص ٨٧)، دار الهادي - بيروت (ط ١)، (١٩٩١ م).

عرف الآخر إلا بالأول؟!» (١).

فقد حكم الاثنا عشرية على منكر إمام واحد من الأئمة الاثني عشر بالضلال والنفاق - كما سنبين في فصل (العقائد الخاصة بالاثني عشرية) - رغم أن هذه المسألة كثر فيها الخلاف بين طوائف الأمة، وتخللها من الغموض ما تخللها، فأبي المسألتين أولى بالعدر: وجوب الاعتقاد بالأئمة الاثني عشر، أم سلامة القرآن من التحريف؟!.

إننا نطالب إخواننا الاثني عشرية بالتبرؤ من كل من يقول بالتحريف، دون حجل أو هيبة؛ فالحق أحق أن يتبع، وهذا خير من تلمس الأعدار لهم في مسألة أوضح من ضوء الشمس لذي عينين.

وليس هذا بدعاً من القول؛ فقد قال به بعض علماء الشيعة المتقدمين والمتأخرين، فإن ممن ذهب إليه من المتقدمين: الشريف المرتضى (ت ٤٣٦ هـ) حيث كان يكفر من قال بتحريف القرآن، وقد نقل ابن حزم ذلك عنه (٢). وممن أكده من المعاصرين الشيخ محمد جواد مغنية في قوله: «ونحن لا نتردد ولا نتوقف في تكفير من أنكر كلمة واحدة من القرآن، وأن جحود البعض تماماً كجحود الكل؛ لأنه طعن صريح فيما ثبت عن النبي ﷺ بضرورة الدين واتفاق المسلمين» (٣).

٣ - إنصاف كتاب الفرق لعلماء الشيعة في هذه المسألة: قد تجرّ العاطفة بعضهم اليوم إلى ادعاء أن كل الشيعة على القول بتحريف القرآن.

وقد علمنا أن التعميم دون استقراء كامل من أهم الأخطاء المنهجية، والقرآن الكريم يعلمنا منهج التفصيل في نسبة الأمور إلى أصحابها، حتى مع غير المسلمين - فمن باب أولى أن يكون هذا هو المنهج في التعامل مع المسلمين - فقد قال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيْنِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥]. وقال: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦]، وهذا المنهج العادل هو

(١) أصول الكافي (٤٣٥/١) كتاب الحجّة، باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل ومن جحد الأئمة أو بعضهم ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهل، وقيل: المراد بالأول: الله ورسوله، وبالأخر: الإمام. انظر: المازندراني (١٥٧/٥).

(٢) انظر: مجمع البيان (٣١/١)، ابن حزم: الفصل (١٣٩/٤).

(٣) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

الذي ينبع من قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوْمِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَتَانُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وقد سار كتاب الفرق الإسلامية الأقدمون على هذا المنهج القرآني؛ فالأشعري في (مقالات الإسلاميين) لم ينسب مقالة تحريف القرآن إلى كل طوائف الشيعة، بل بين أن بعضهم ينكر هذه المقالة^(١)، وكذلك فعل ابن حزم^(٢) وغيره. وهذا يدل على إنصافهم وسعة اطلاعهم على مذاهب وأقوال الطوائف الأخرى.

٤ - براءة الزيدية والمعتزلة من القول بالتحريف مع تقاربهم من الشيعة: ومما يجدر ذكره أن شيوخ الزيدية والمعتزلة - على تقاربهم مع الشيعة - إلا أنهم أنكروا نقصان القرآن أو زيادته، «وقد ألف يحيى بن الحسين الزيدي المعتزلي كتاباً اسمه (الرد على من زعم أن القرآن قد ذهب بعضه)»، ويظهر من عنوانه أنه في الرد على من قال بنقص القرآن من الشيعة الإمامية، كما يعطي إشارة إلى تبرئة الزيدية من تلك التهمة، كذلك شن الخياط حملة شديدة على أصحاب هذا القول في كتابه (الانتصار) واختصهم بالنصيب الأوفر من هجومه، وكرر في أكثر من موضع أنهم يزعمون أن القرآن بُدِّلَ وغيَّرَ وزيد فيه ونُقِصَ منه وحُرِّفَ عن مواضعه، ومعروف أن ابن الراوندي الذي ألف (الانتصار) في الرد عليه كان مستتراً تحت ستار التشيع^(٣).

(١) قال الأشعري: «اختلف الروافض في القرآن هل زيد فيه أو نقص منه؟ وهم ثلاث فرق، فالفرقة الأولى منهم يزعمون أن القرآن قد نقص منه، وأما الزيادة فذلك غير جائز أن يكون... فأما ذهب كثير منه فقد ذهب كثير منه والإمام يحيط علماً به.

والفرقة الثالثة منهم وهم القائلون بالاعتزال والإمامة يزعمون أن القرآن ما نقص منه ولا زيد فيه، وأنه على ما أنزل الله تعالى على نبيه ﷺ لم يغير ولم يبدل ولا زال عما كان عليه» (مقالات الإسلاميين (ص ٤٧) ط إحياء التراث العربي، تحقيق هلموت ريتز).

(٢) قال ابن حزم: «ومن قول الإمامية كلها قديماً وحديثاً أن القرآن مبديل زيد فيه ما ليس منه، ونقص منه كثير وبدل منه كثير، حاشا علي بن الحسن [يقصد الشريف المرتضى]... وكان إمامياً يظاهر بالاعتزال مع ذلك، فإنه كان ينكر هذا القول ويكفر من قاله، وكذلك أصحابه أبو يعلى ميلاد الطوسي، وأبو القاسم الرازي» الفصل (١٣٩/٤). أما حصر ابن حزم القائلين بسلامة القرآن من الإمامية في ثلاثة، فغير مسلم به، ولكنه مبلغ علمه، وقد ذكرنا أن كثيراً من علمائهم نزهوا القرآن عن التحريف.

(٣) انظر: حجية الدليل النقلية بين المعتزلة والأشاعرة، أحمد قوشتي عبد الرحيم، ماجستير دار العلوم (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد الله الشراقوي (ص ٦٥).

٥ - إنكار روايات التحريف والتبرؤ من القائلين به خير من رجم الطوائف الأخرى بالقول بالتحريف: إن التأكيد على سلامة القرآن، وأن ذلك عقيدة مجمع عليها لدى كل الطوائف الإسلامية، وإثبات كذب ووضع الروايات المنكرة الزاعمة للتحريف، والتبرؤ من القائلين به، هو الموقف المرجو من كل المسلمين شيعة وسنة.

وهذا الموقف خير من التأكيد على سلامة القرآن من التحريف ثم قذف الفرق الأخرى بهذه التهمة الشنيعة التي لا طائل من ورائها إلا بثّ الأحقاد، وزعزعة عقيدة العامة، وشغل علماء الأمة في أمر لا خلاف فيه.

لقد دأب كثير من كتّاب الشيعة - من باب الردّ على من اتهموهم بالتحريف، أو النيل من خصومهم - على أن يرموا الآخرين بتهمة القول بالإنقاص والزيادة في القرآن، مستندين على بعض الشبه الواهية التي قرؤوها في تراث خصومهم. وعلى سبيل المثال يقول الفضل بن شاذان الأزدي (ت ٢٦٠) (١) مخاطباً أهل السنة: « ثم رويت عن ابن مسعود أن المعوذتين ليستا من القرآن، وأنه لم يشبههما في مصحفه، وأنتم تروون أنه من جحد آية من كتاب الله ﷻ فهو كافر بالله (٢)، وتقرون أنهما من القرآن. فمرة تقرون على ابن مسعود أنه جحد سورتين من كتاب الله، وأنه من جحد حرفاً منه فقد كفر، فكيف قبلتم أحاديث ابن مسعود في الحلال والحرام والصلاة والصيام والفرائض والأحكام؟! فإن لم تكن المعوذتان من القرآن لقد هلك الذين أثبتوهما في المصاحف، ولئن كانتا من القرآن لقد هلك الذين جحدوهما ولم يشبهوهما في المصاحف » (٣).

أقول: ثبت عند بعض علماء السنة رواية تقول: إن ابن مسعود لم يكتب المعوذتين في

(١) هناك بهذا الاسم اثنان، الأول سني، وهو الفضل بن شاذان الرازي، أبو العباس، قال ابن أبي حاتم: « الفضل بن شاذان بن عيسى المقرئ أبو العباس، روى عن إسماعيل بن أبي أويس وأحمد بن عبد الله ابن يونس وسعيد بن منصور ومهدي بن جعفر وإبراهيم بن حمزة والليث بن خالد البلخي وإبراهيم بن موسى كتب عنه أبي وكتب عنه وهو صدوق » (الجرح والتعديل ٦٣/٧).

والآخر شيعي وهو الفضل بن شاذان الأزدي النيسابوري، أبو محمد، من أعلام الشيعة، وكبار رواةها ومتكلميها، وهو المقصود هنا، روى عن أبي جعفر الثاني، والهادي والعسكري، قيل: ألّف (١٨٠) كتاباً، منها كتاب (الإيضاح) الذي نقل منه، ومنها كتاب (الرجعة)، قال عنه الشيعة: كان ثقة جليلاً متكلماً، توفي سنة (٢٦٠ هـ). انظر: رجال النجاشي (ص ٣٠٦ - ٨٤٠).

(٢) وهو بهذا يقتر لأهل السنة بأنهم يكفرون من ينتقص القرآن، كما يؤكد كلامه ما وصلنا إليه من أنّ الشيعة لا يرون تكفير من يقول بانتقاص القرآن معتمداً على روايات التحريف الواهية.

(٣) الفضل بن شاذان الأزدي: الإيضاح (ص ٢٢٩).

مصحفه، وأنّ أبي بن كعب أثبت في مصحفه دعاء القنوت (١)، ولكن هذا لا يعني أن ابن مسعود جحد قرآنية المعوذتين، ولا أنّ أبي أثبت قرآنية دعاء القنوت.

قال أهل العلم: « لا يجوز أن يضاف إلى عبد الله أو إلى أبي بن كعب أو زيد أو عثمان أو علي أو واحد من ولده أو عترته جحد آية أو حرف من كتاب الله وتغييره أو قراءته على خلاف الوجه المرسوم في مصحف الجماعة بأخبار الآحاد، وأن ذلك لا يحل ولا يسمع، بل لا تصلح إضافته إلى أدنى المؤمنين في عصرنا، فضلاً عن إضافته إلى رجل من الصحابة، وأن كلام القنوت المروي عن أبي بن كعب أثبت في مصحفه لم تقم حجة بأنه قرآن منزل، بل هو ضرب من الدعاء، وأنه لو كان قرآناً لنقل نقل القرآن وحصل العلم بصحته....

أجمع المسلمون على أن المعوذتين والفاتحة من القرآن، وأنّ من جحد منها شيئاً كفر. وما نقل عن ابن مسعود باطل وليس بصحيح،.... إنما صح عنه قراءة عاصم عن زر ابن حبيش عنه وفيها المعوذتان والفاتحة، وقال القاضي أبو بكر بن الطيب في كتاب (التقريب) لم ينكر عبد الله بن مسعود كون المعوذتين والفاتحة من القرآن، وإنما أنكر إثباتهما في المصحف، وإثبات الحمد؛ لأنه كانت السنة عنده ألا يثبت إلا ما أمر النبي ﷺ بإثباته وكتبه، ولم يجده كتب ذلك ولا سمع أمره به، وهذا تأويل منه وليس حججاً لكونهما قرآناً» (٢). وهكذا نعلم أن إثبات أفراد من الصحابة لبعض الأحاديث والتفسيرات في مصاحفهم الخاصة، أو عدم كتابة بعض الآيات - كفعل ابن مسعود مع المعوذتين - لا يعني إنكار شيء من القرآن أو الزيادة عليه، وهذا سرّ إحراق عثمان ؓ المصاحف التي كانت في أيدي الصحابة، والاعتماد على المصاحف التي تمّ نسخها في عهده والتي أجمعت عليها الأمة؛ حيث أثبت فيها كل آيات القرآن، ولم يسمح أن يكتب فيها شيء غيره مهما كان مهمّاً - كالتفسيرات والأدعية والأحاديث - وذلك صوتاً للقرآن الكريم من أن يختلط بغيره.

ثم إن الشيعة ذاتهم يردّون على هذه الشبهة قائلين: إن مصحف ابن مسعود ليس متواتراً، ولا يجوز العمل به، وفي هذا يقول العلامة الحلبي: « يقرأ بما نقل متواتراً في المصحف الذي يقرأ به الناس أجمع، ولا يقول على ما يوجد في مصحف ابن مسعود؛

(١) انظر: السيوطي: الإتقان في علوم القرآن (١٧٨/١).

(٢) البرهان في علوم القرآن (١٢٧/٢) وما بعدها.

لأن القرآن ثبت بالتواتر، ومصحف ابن مسعود لم يتواتر، ولو قرأ به بطلت صلاته» (١). إن محاولة بعض كتاب الشيعة اتهام أهل السنة بالتحريف، مستندين إلى بعض هذه الشبه الواهية يزيد تعقيد الأمور، ويفتح المجال أمام المستشرقين لمحاولة النيل من القرآن الكريم، وما أظن إخواننا الشيعة يرضون بذلك.

والأولى بكل طائفة أن تقوم بنقد ما في جعبتها من نصوص صحيحة توهم القول بالتحريف؛ فنتفيه من خلال تأويلها تأويلاً صحيحاً مقبولاً، والتأكيد على كذب الروايات الموضوعة التي تدل على التحريف.

يقول الشيخ مغنية: «أما النقصان... فقد قال به أفراد من السنة والشيعة في العصر البائد، وأنكر عليهم يومذاك المحققون وشيوخ الإسلام من الفريقين، وجزموا بكلمة قاطعة أن ما بين الدفتين هو القرآن المنزل دون زيادة أو نقصان للآية [٩] من سورة الحجر: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الْحَافِظُونَ ﴾ والآية [٤٢] من سورة فصلت: ﴿ لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ واليوم أصبح هذا القول ضرورة من ضرورات الدين وعقيدة جميع المسلمين؛ إذ لا قائل بالنقيصة لا من السنة ولا من الشيعة، فإثارة هذا الموضوع والتعرض له في هذا العصر لغو وعبث، أو دس وطعن على الإسلام والمسلمين» (٢).

وإذا كان إحراق الكتب الحاوية لروايات التحريف أمراً متعذراً، أو ثقيلاً على نفوس أبناء الطائفة، فلا أقل من التنويه إلى بطلان تلك الروايات المكذوبة، تنويهاً ينفي الشك باليقين، ويقوي عقيدة الأمة بسلامة كتاب ربها، ويجمع أمرها ولا يفرق جمعها. ومن أمثلة ذلك ما فعل كتاب علوم القرآن من أهل السنة - كالسبوطي في الإتيقان والزرركشي في البرهان - إذ أزالوا كل شبهة حول سلامة القرآن الكريم.

ومن أمثلة ذلك لدى الشيعة: تلك الجهود التي قام بها بعض محققي الكتب الشيعية، حيث بينوا وضع وكذب روايات التحريف كلما مرّت، وعلى سبيل المثال: وجدت أثناء متابعة روايات التحريف في (بحار الأنوار) للمجلسي، أن السادة محققي الكتاب - ومنهم الشيخ البهبودي - يعلّقون على هذه الروايات بما هي أهله من التكذيب والإنكار،

(١) منتهى المطلب: العلامة الحلي (١/ ٢٧٣)، ولكن ادعى الحلي أن الجمهور يجيزون القراءة بمصحف ابن مسعود، وهذا غير مسلم به؛ لأن الجمهور يتفقون مع الحلي في عدم جواز القراءة إلا بالمواتر.

(٢) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

مؤكدين أن سلامة القرآن الكريم من التحريف هو عقيدة الأمة الإسلامية جمعاء.

ففي رواية البحار في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ [طه: ١٥] قال: « (من نفسي) هكذا نزلت ». علق المحققون قائلين: « هذا يوافق ما قيل من التحريف، وقد أشرنا مراراً: ما عليه جمهور محققي الإمامية خلفاً وسلفاً أن ما بين الدفتين هو المنزل من عند الله على النبي الكريم، لم يزد فيه ولم ينقص، فكلما ورد خبر شاذ أو قول نادر يدل على خلافه فهو عندنا مطروح لا نعبأ به، ونردّ علم الخبر الوارد فيه إلى أهله » (١).

وفي تلك الرواية التي ذكرها العياشي في تفسيره ثم ساقها المجلسي في البحار والتي تقول: « إن القرآن قد طرح منه آي كثيرة، ولم يزد فيه إلا حروف أخطأت بها الكتبة، وتوهمها الرجال » يقول هؤلاء المحققون معلّنين: « والحديث مع الغض عن وثاقته وعدمها مرسل معارض لما عليه إجماع الأمة من أن القرآن هو ما بين الدفتين، لم يزد فيه ولم ينقص عنه، وهو أحد الثقلين الذي تركه النبي بين الأمة، وهو باق إلى قيام الساعة » (٢).

٦ - إجماع كل الاثني عشرية على وجوب العمل بهذا المصحف: هناك حقيقة ينبغي التوقف عندها وذكرها من باب الإنصاف: وهي أن جميع الشيعة مشتركون في حجية القرآن الكريم الآن، أما من نفى التحريف فواضح رأيه، وأما من أثبتته فقد قال بوجوب اتباعه وقراءته على حاله هذه حتى يأتي المهدي المنتظر فيصحّحه، حسب الرواية التي تقول: « اقرؤوا كما تعلمتم فسيجيئكم من يعلمكم » (٣).

ولذلك جاءت الروايات تحض على تعلم القرآن الكريم وحفظه: عن الفضيل بن يسار، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: « إن الذي يعالج القرآن ويحفظه بمشقة منه وقلة حفظ له أجران » (٤). فهذه الرواية - المتفق على معناها بين الطائفتين: السنة والشيعة - تؤكد وجوب التمسك بالقرآن الكريم عند الشيعة، وتلغي كل ذلك اللغط والروايات المقتراة.

فهذا الجزائري القائل بوقوع التحريف بقوله: « وأخبارنا متواترة بوقوع التحريف والسقط منه بحيث لا يسعنا إنكاره، والعجب العجيب من الصدوق وأمين الإسلام الطبرسي، والمرضى في بعض كتبه كيف أنكروه وزعموا أن ما أنزله الله تعالى هو هذا المكتوب مع أن فيه رد متواتر الأخبار ».

(١) بحار الأنوار (١٠٧/١٣)، الحاشية. (٢) بحار الأنوار (١٧٩/١٥)، الحاشية رقم (٣).

(٣) أصول الكافي (٥٨٣/٢) كتاب الدعاء، باب أن القرآن يرفع كما أنزل، قال محققه: هذا الحديث مجهول.

(٤) أصول الكافي (٥٧١/٢) كتاب الدعاء، باب من يتعلم القرآن بمشقة، قال محققه: والحديث صحيح.

ويحاول أن يجيب عما اعترض به عقلاء قومه من أن القول بتحريف القرآن يلزم منه ألا يعمل به لارتفاع الثقة عنه، وهذا مخالف لما عليه الشيعة والأئمة.. فيقول: « وما قيل من طرفهم أنه يلزم عليه ارتفاع الموثوق بالآيات الأحكامية، وينتفي جواز الاستدلال بها لمكان جواز التحريف عليها. فجوابه: أنهم عليه السلام أمرونا في هذه الأعصار بتلاوة هذا القرآن والعمل بما تضمنته آياته؛ لأنه زمن هدنة، فإذا قامت دولتهم وظهر القرآن كما أنزل الذي ألقه أمير المؤمنين بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وشده في رداؤه وأتى إلى أبي بكر وعمر وهما في المسجد في جماعة من الناس فعرضه عليهم فقالوا: لا حاجة لنا في قرآنك ولا فيك، عندنا من القرآن ما يكفينا. فقال: لن تروه بعد هذا اليوم حتى يقوم قائمنا. فعند ذلك يكون ذلك القرآن هو المتداول بين الناس. مع أن ما وقع من التحريف في الآيات الأحكامية أظهوره عليه السلام، فيقوم الظن بأن ما لم يعرفونا تحريفه لم يكن فيه تحريف » (١).

ولذلك لا عجب أن يضع عبد الله شبر (١٢٤٢ هـ)، مع أنه من القائلين بالتحريف - هذا العنوان العريض: (باب وجوب العمل بما في أيدينا من القرآن الكريم، وعدم تجاوزه وعدم جواز القراءة بما حذف منه، وإن ما بين الدفتين حجة يجب العمل به » (٢).

٧ - آراء علماء السنة في فهم موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم: وقد اختلفت وجهة علماء السنة في موقفهم من رأي الشيعة في القرآن:

- فهناك من علماء السنة من يرى تعميم دعوى القول بالتحريف على كل علماء الشيعة كمحب الدين الخطيب، في (الخطوط العريضة لدين الشيعة) ومحمد مال الله في (الشيعة وتحريف القرآن) وإحسان إلهي ظهير في (الشيعة والقرآن). ويرى أصحاب هذا الرأي أن ما ينقل عن بعض علماء الشيعة خلاف القول بالتحريف إنما هو من باب التقية.

- وهناك من يرى أن القائلين بالتحريف هم الأخبارية فقط، كالشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق)، والدكتور علي أحمد السالوس في (مع الشيعة الاثني عشرية في الأصول والفروع)، والدكتور ناصر بن عبد الله بن علي القفاري في (أصول

(١) انظر: شرح الصحيفة السجادية (ص ٤٣)، د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٤٥/١).

(٢) عبد الله شبر: الأصول الأصلية (ص ١٣٣)، انظر: موقف الرفض من القرآن الكريم (ص ١٠٨).

مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١). وأن أقوال بعض علماء الاثني عشرية في إنكار التحريف يعدّ موقفًا عن عقيدة وتصميم، لا عن تقية أو مراوغة.

ولعل مما يؤيد الرأي الأخير، الذي يثبت أن دعوى تحريف القرآن بين أخذ ورد بين علماء الشيعة أنفسهم بعيدًا عن التقية - « أن صاحب فصل الخطاب ألف كتابه - كما سيأتي - لإقناع طائفة من قومه أنكرت هذا الكفر وأبت أن تهضمه، واحتجت بما قاله بعض شيوخها السابقين من إنكار هذه الفرية، فرد عليها صاحب فصل الخطاب بكتابه هذا، وعزا الإنكار من شيوخه السابقين إلى التقية أو إلى عدم توفر المصادر عندهم » (٢).

ومما يدل على هذا محاربة القائلين بالتحريف لمعارضيهم القائلين بسلامة المصحف، كقول أبي الحسن العاملي - أحد القائلين بالتحريف - عن المرتضى، يعيب عليه قوله بسلامة القرآن: « والعجب من مثل السيد [أي: المرتضى] أن يتمسك بأمثال هذه الأشياء التي هي محض الاستبعاد بالتخيالات في مقابل متواتر الروايات، وقال: « ومن أعجب الغرائب أن السيد في مثل هذا الخيال الضعيف الظاهر خلافه.. واستضعف الأخبار التي وصلت فوق الاستفاضة عندنا وعند مخالفينا » (٣)، وقال البحراني في رده على الصدوق والمرتضى: « وأما ما احتج به الصدوق في اعتقاداته، وكذلك المرتضى في جملة كلامه أو هن من بيت العنكبوت، وإنه لأوهن البيوت » (٤). وقال الفيض الكاشاني في رده على الطوسي: « وليت شعري كيف يجوز لمثل الشيخ أن يدعي أن عدم النقصان ظاهر الروايات... ومن الغرائب أن الشيخ ادعى إمكان تأويل هذه الأخبار، وقد أحطت خبرًا بأن أكثرها مما ليس بقابل للتوجيه » (٥).

فهذا الجدل العنيف بين الفريقين يدلّ على أن ما بينهما أقوى من التقية.

وهذا ما نصره الدكتور القفاري عندما قال: « أقول بأن هذا الموقف من كبار علماء الشيعة في رد وإنكار ما ورد في كتبهم مما يمس كتاب الله - سبحانه - لا نقول: إنه تقية؛ فلا سبيل إلى معرفة ذلك على وجه اليقين، وإن كان البعض من السنة والشيعة قد ذهب إلى ذلك، فقد لاحظت الصراع الدائر بين الطائفتين في (فصل الخطاب)، كما

(١) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٢٦١، ٢٦٢).

(٢) المرجع السابق (١/٢٦١ - ٢٦٤).

(٣) مقدمة مرآة الأنوار (ص ٥٠)، مامادو كارامبيري: موقف الرافضة من القرآن الكريم (ص ١٣٣).

(٤) الدرر النجفية (ص ٢٩٨، ٢٩٩). (٥) مقدمة مرآة الأنوار (ص ٥٠).

تبين شيوع الكذب والدس في كتبهم كما بيئنا، ثم إن من يتبرأ من هذا الكفر (بعد إيمانه بالله ورسوله) نقبل ذلك منه، والله يتولى السرائر » (١).

ومنهج الإسلام في التعامل مع من أنكر الكفر يقتضي منا أن نصدق تأكيد علماء الشيعة المعاصرين على سلامة القرآن من التحريف، لا تحريجهم وتكذيبهم، فلم يأمرنا الإسلام أن نشق الصدور لنعلم حقائق الإيمان، وهذه قضية من قضاياها (٢).

وعلى كلٍّ فرغم كل الخلاف بين علماء الشيعة القدامى في مسألة سلامة القرآن، وما تبعهم من مقولة النوري في (فصل الخطاب)؛ فإن الصوت الأقوى اليوم هو الصوت المؤكد على سلامة القرآن؛ ولذلك نجد المعاصرين من أئمة الشيعة كالإمام الخميني والإمام الخوئي أشد نكيراً على القائلين بالتحريف، وينكرون على صاحب فصل الخطاب: « إيراد روايات أعرض عنها الأصحاب واختلاط ضعاف بين الروايات ». ويؤكدون على أن إنكار القول بالتحريف هو « مذهب المحققين من علماء الإسلام والمعتبرين من الفريقين » (٣).

وهناك جهود مشكورة من هؤلاء العلماء للرد على المخالفين في المسألة سواء كانوا من القدامى أو المحدثين (٤).

وقد صرح محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠ هـ) بتكفير من يقول بالتحريف - دون تعيين أحد بعينه - فقال: « ونحن لا نتردد ولا نتوقف في تكفير من أنكر كلمة واحدة من القرآن، وأن جحود البعض تماماً كجحود الكل؛ لأنه طعن صريح فيما ثبت عن النبي ﷺ بضرورة الدين واتفاق المسلمين » (٥).

ولذلك يجب أن تطوى هذه الصفحة حول القرآن، ويجب تأكيد سلامته للأجيال القادمة، والبراءة من كل من قال بتحريفه.

(١) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٦٥/١).

(٢) المرجع السابق (٢٦٥/١).

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويده عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٨، ٣٥٩).

(٤) انظر مثلاً: مجلة تراثنا (ص ٢٤٩): قم عدد (١)، سنة (١٤٠٧ هـ)، مؤسسة آل البيت، حيث أفردت مقالاً كبيراً حول هذه المسألة، وردت على المجلسي وغيره، ويتت أن القرآن جمع على عهد النبي ﷺ وحاولت تأويل معنى التحريف والنقصان: بالزيادة والنقصان من جهة الأحاديث القدسية، ومن جهة التأويل والتفسير، ومن جهة النسخ والمنسوخ.

(٥) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٨).

المطلب الثالث

تفسير القرآن الكريم عند الاثني عشرية

« الرأي المشهور عند الشيعة أن تفسير القرآن لا بد فيه من الرجوع إلى المأثور عن رسول الله ﷺ وأهل البيت (ع) باعتبارهم خزنة علمه وحفظه وحيه »^(١).

وهناك فكرة اثني عشرية تقول بلزوم وجود قيم على القرآن، وهو الإمام، مع أن القرآن الكريم جعل مهمة النبي ﷺ تبين القرآن وإيضاح حجته في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤] وقوله سبحانه: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۗ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۗ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ ۗ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩]، ولم تسند إلى النبي الكريم ﷺ مهمة حفظ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]؛ ولذلك نهى القرآن النبي ﷺ عن إجهاد نفسه في تحصيل حفظ القرآن فقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ۗ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ۗ فَإِذَا قَرَأْتَهُ فَانْبِعْ قُرْآنَهُ ۗ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ [القيامة: ١٦ - ١٩].

ومع أن الله تعالى تكفل بإيضاح القرآن وتيسير تفهيمه للبشر، كما مر في الآية السابقة، وفي قوله ﷺ: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ [القمر: ١٧]؛ فإن روايات الاثني عشرية تدعي أنه لا يمكن الاحتجاج بالقرآن وبيانه إلا بوجود الإمام: عن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « ... فنظرت في القرآن فإذا هو يخاصم به المرجئ والقدري والزندقي الذي لا يؤمن به حتى يغلب الرجال بخصومته، فعرفت أن القرآن لا يكون حجة إلا بقيم فما قال فيه من شيء كان حقاً، فقلت لهم: من قيم القرآن؟ فقالوا: ابن مسعود قد كان يعلم، وعمر يعلم، وحذيفة يعلم، قلت: كلّه؟ قالوا: لا. فلم أجد أحداً يقال: إنه يعرف ذلك كله إلا علياً عليه السلام وإذا كان الشيء بين القوم فقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: لا أدري، وقال هذا: أنا أدري؛ فأشهد أن علياً عليه السلام كان قيم القرآن وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٦٩) وإن كان يرى أن هناك رأياً آخر عندهم يجيز التفسير بالرأي « بالتدبر في آيات القرآن نفسها وبالاستعانة بأدوات اللغة واستنباط المفاهيم الدلالية منها وبالاستعانة بآيات القرآن بعضها في تفسير البعض الآخر ». وانظر: هاشم بن سليمان الحسيني البحراني: البرهان في تفسير القرآن (١) مقدمة التفسير، مؤسسة البعثة، طهران، تحقيق قسم الدراسات الإسلامية، ومحمد حسين الطباطبائي: الميزان في تفسير القرآن (١٠١/٣)، مؤسسة الأعلمي - بيروت (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م).

التاس بعد رسول الله ﷺ وأن ما قال في القرآن فهو حقٌّ. فقال: رحمك الله « (١). وهذه الرواية تناقضها رواية أخرى تبين وضوح معاني القرآن، مما لا يجعل العقول تنبيه فيه دون فهم، وهو الكتاب العربي الذي يسر الله جمعه وقرآنه وبيانه، وقد قال تعالى عن القرآن في القرآن: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢] فمن فهم العربية فهمه الله تعالى كثيراً من أسرار القرآن، وتكفل الله تعالى ببيانه: ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ [القيامة: ١٩].

وإلى هذا يشير ما نقل عن جعفر الصادق: « ما كان الله ﷻ ليخاطب خلقه بما لا يعلمون » (٢).

وقد جعلت إحدى الروايات علياً قسيماً للقرآن؛ حيث سمّوه الكتاب الصامت، ويروون عن علي عليه السلام أنه قال: « هذا كتاب الله الصامت، وأنا كتاب الله الناطق » (٣). وهذه النزعة في حصر فهم غور القرآن في مدرسة آل البيت يقرها كتاب الشيعة، فيؤكد الطباطبائي أن الإنسان العادي قد يفهم شيئاً من ظاهر الآيات القرآنية، و « لكن إدراك وفهم معانيها يستلزم اتخاذ نهج أهل البيت ﷺ مع الاستعانة بالآيات، فإنها تفسر بعضها بعضاً، ولا يمكن الاستعانة برأي خاص » (٤). ومن أجاز التفسير بالرأي منهم فإنه لا يجيزه إلا بعد الاطلاع على التفسير المأثور عن النبي ﷺ وآل بيته: قال الطباطبائي صاحب تفسير الميزان: « واجب المفسر هو ملاحظة الأحاديث الواردة في التفسير عن النبي ﷺ وأئمة البيت (ع) والغور فيها ليعرف طريقتهم، ثم يفسر القرآن الكريم بالمنهج الذي يُستفاد من الكتاب والسنة، ويأخذ بالأحاديث التي توافق الكتاب ويطرح ما عداها » (٥).

وإذا كان أهل السنة يعتمدون في التفسير المأثور على ما يصح من أحاديث نبوية، ثم ما أتى عن الصحابة - رضوان الله عليهم - في تفسير القرآن الكريم، سواء أكانوا من آل البيت كعلي عليه السلام وابن عباس عليه السلام، أم من غير آل البيت كابن مسعود عليه السلام وغيره؛ فإن الشيعة يرون عدم إمكانية أخذ التفسير عن الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - ومن

(١) أصول الكافي (١٨٣/١)، كتاب الحجّة باب الاضطرار إلى الحجّة (٢٢٢/١).

(٢) رجال الكشي (ص ٢٩١). (٣) الحر العاملي: الفصول المهمة (ص ٢٣٥).

(٤) الطباطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ٨٠)، مركز بنية الله الأعظم - بيروت (١٩٩٩م).

(٥) محمد حسين الطباطبائي: القرآن في الإسلام (ص ٨٦)، مؤسسة الإعلام الإسلامي - طهران (١٤٠٤هـ).

بعدهم من التابعين^(١). فيستشهدون بمواقف كثيرة أعلن فيها الصحابة عن عدم معرفتهم ببعض الآيات كما فعل عمر رضي الله عنه، فلم يعرف الأب في قوله تعالى: ﴿وَفَكِهَةٌ وَأَبًا﴾ [عبس: ٣١]، كما روى الحاكم في المستدرک عن أنس، وكذلك يروون عن ابن عباس ترجمان القرآن أنه أخذ تفسيره عن علي، ومع ذلك كان يجهل تفسير بعض الآيات، كما في قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ١] وأنه قال: كنت لا أدري ما (فاطر السماوات) حتى أتاني أعرابيان - اختلفا على بئر - فقال أحدهما: أنا فطرتها، يقول: أنا ابتدأتها»^(٢).

وليس المجال هنا مجال تفصيل في التفسير، لكن يمكن القول: إننا لو جمعنا ما نقله الشيعة في كتبهم التفسيرية كلها لم نجد عندهم زيادة على ما نقله أهل السنة في تفسيرهم؛ اللهم إلا ما يسندون به نظرية الإمامة وما يحيكون حولها من روايات تدعم موقفهم العقدي وتحارب منكري الإمامة. أما فيما عدا ذلك فلن نجد أي جديد.

بل ربما لجأ مفسرو الشيعة إلى كتب تفسير أهل السنة مستفيدين مما فيها من آثار عن الصحابة الكرام. قال إحسان أمين: «وقد عددنا في فهارس تفسير (الميزان) [للطباطبائي الشيعي] الموارد التي رجع فيها إلى الدر المنثور للسيوطي فكانت تزيد عن ثمانمائة مورد، كما أورد فيه آراء معظم الصحابة والتابعين من المفسرين كعبد الله بن عباس (أكثر من ٥٠٠ مورد) وعبد الله بن عمر بن الخطاب (١٠٩ موردًا) وعبد الله بن مسعود (١٢٦ موردًا) وآخرين كثيرين ممن وردت عنهم الآثار»^(٣).

وإن كانت هذه الاستفادة لم تسلم من نقد بعض كتاب الشيعة، ومثال ذلك أن سالم الصفار عندما وجد الفيض الكاشاني (محسن بن محمد المرتضى ت ١٠٩١هـ) يعتمد على تفسير البيضاوي (السنبي) في تفسيره (الصافي) قال متألمًا: «ومن المؤسف له حقًا أن هناك بعض علمائنا من أغرتهم أسماء بعض المفسرين وكتب أهل السنة الرنانة

(١) انظر: د. عبد العزيز حاجي: تفسير آيات العقيدة: استعراض شامل للمذاهب المفسرين في العقيدة (١٤٨/٢) دار الصابوني (١٤٢٤هـ / ١٤٠٣)، وهي في الأصل رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم - القاهرة.

(٢) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٨٤ - ٨٨).

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ١٢٧، ١٢٨). ومع ذلك يعد ما فعله محمد حسين الطباطبائي - وهو من المعاصرين - فلتة إذا ما قورن بالكتب التفسيرية الشيعية المتقدمة. انظر حول تفاسير الشيعة المعتدلين منهم والمتطرفين: د. علي أحمد السالوس: مع الاثني عشرية في الأصول والفروع (٢٥٥/٤). دار التقوى مصر (ط ٤)، (١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م).

وراحوا يستفيدون منها والاعتماد عليها! «^(١). ويزداد الأمر خطورة عندما يقترن هذا الاقتباس من أهل السنة بمحاولة التجديد والنقد الداخلي للتشيع، كما حصل للسيد محمد حسين فضل الله في تفسيره (من وحي القرآن) « وقد حاول تذيب بعض الفوارق بين المسلمين - حسب منهجه - بتأثير إعجابي بمفكري أهل السنة مما أثار النقود بل الحملات عليه عندما لمسوا منه - حسب ما فهموه - أنه على حساب المساس بمنزلة علي وأهل البيت «^(٢).

ويعترف كتاب الشيعة بوجود الوضع في بعض كتب التفسير الشيعي، يقول إحسان أمين: « ورغم سعي كثير من مفسري الشيعة للحذر من الأحاديث الموضوعية وتأكيدهم على مبدأ عملهم في التفسير وردّهم الكثير من الموضوعات، إلا أنه مع ذلك فقد تسربت بعض هذه الموضوعات إلى كتبهم خصوصاً كتب التفسير بالمأثور، ولا سيما التي تتبع نهج جمع الأحاديث ودرجها دون دراسة وتحقيق؛ فقد كان السبب الرئيس وراء ذلك هو الأخذ أساساً من مصادر متهمة بالوضع نذكر منها:

- التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) إذ إن راويه مجهولان، والراوي الثالث لم تثبت وثاقته... والتفسير موضوع عن سهل الديباجي عن أبيه بأحاديث من هذه المناكير... ومع ذلك فقد أخذت روايات هذا التفسير طريقها إلى الكثير من الجماع التفسيرية بالمأثور كتفسير (البرهان) و (نور الثقلين) و (الصافي)، وغيرها..

- كتاب (مشارق الأنوار في أسرار أمير المؤمنين) للشيخ رجب البرسي، وهو متهم بالغلو عند علماء الشيعة، وكتابه فاقد للاعتبار العلمي... وكتابه مشحون بالغلو والأخبار المكذوبة... ومع ذلك فقد كان من مصادر البحراني في تفسيره (البرهان).

- كتاب (مصباح الشريعة) المنسوب إلى الإمام الصادق، ولم تثبت نسبته ومؤلفه مجهول... رجع إليه البحراني أيضاً.

- كتاب (الاحتجاج) للطبرسي^(٣) الذي يرجع إليه البحراني وأكثر منه الحوزي

(١) سالم الصفار: نقد منهج التفسير والمفسرين المقارن (ص ٣٧٩) دار الهادي بيروت (١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م).

(٢) المرجع السابق (ص ٤١٩).

(٣) مما يشكل طباعة هذه الكتب طباعات جديدة ومحققة على الدوام، مما يجعلها تبقى في ضمير عوام الشيعة، فالاحتجاج مطبوع طبعة فاخرة في مجلدين، منشورات الشريف الرضي (١٣٨٠هـ)، منسوبة لأبي المنصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي من علماء القرن السادس. والاحتجاج مرجع من مراجع بحار الأنوار، =

في تفسيره (نور الثقلين) والكتاب لا يعلم مؤلفه بدقة... وهو لا يعدو مراسيل لا إسناده لها، أكثرها تلفيقات من روايات نقلية واحتجاجات عقلية....

- وهناك مصادر أخرى مقطوعة السند وبعضها لا اعتبار لها، كما أورد بعض المفسرين طائفة من الروايات الضعيفة من حيث السند والمضطربة من حيث المتن، ومع الأسف لم تجر عملية تصفية في الأصول والتفسير في روايات أهل البيت (ع) كما جرى في حقل الفقه « (١).

ونحن نشكر إحسان الأمين على جرأته؛ لأنه يبين كثرة الموضوعات في كتب التفسير عند الشيعة، ولكن الملاحظ أنه نسب ذلك إلى بعض الغلاة، وهذا بعض الحقيقة، ولكن الحقيقة أن الموضوعات متجددة في معظم كتب التفسير والحديث الشيعية؛ إذ هناك روايات تفسيرية موجودة في كتب معتبرة، بل هي أصول كتب عقائد الإمامية؛ كالكافي للكليني محدث الشيعة الأشهر، ومع ذلك فيها من الغلو والتطرف ما فيها:

فقد استخدمت روايات الاثني عشرية تأويل آيات القرآن لإثبات مكانة الأئمة وفضلهم، ووصلوا في ذلك إلى حد التكلف الشديد، ولعل فعلهم هذا فسح المجال بعد ذلك للباطنية للإسراف في التأويل الباطني. ومن أمثلة هذه التأويلات البعيدة عن أصول التفسير القرآني ما يأتي:

- فقد قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي الأئمة. وفي قوله ﷺ: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]: رسول الله ﷺ المنذر، وعليّ الهادي (٢). مع أن الله تعالى قال عن رسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢]، وجاء بالهادي أثناء الحديث عن الأنبياء ﷺ، فكل نبي هو هادي لأُمَّته.

- عن صالح بن سهل الهمداني قال: قال أبو عبد الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِ كَيْسَكُوفٍ ﴾ [النور: ٣٥]: فاطمة ﷺ. ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾: الحسن. ﴿ أَلْيَصْبَاحُ فِي زَجَاجَةٍ ﴾: الحسين. ﴿ الزَّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾: فاطمة كوكب

= وينقل عنه كثيراً مثلاً (٢٢١/١٧)، وكثير من أحاديث الاحتجاج مبثوثة في كتاب بحار الأنوار، وهو من أشهر وأكبر كتب الحديث الشيعية!!

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) أصول الكافي (٢٤٧/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة ﷺ هم الهداة.

درِّي بين نساء أهل الدنيا. ﴿يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ﴾: إبراهيم عليه السلام. ﴿زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: لا يهودية ولا نصرانية. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ﴾: يكاد العلم ينفجر بها. ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾: إمامٌ منها بعد إمام. ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾: يهدي الله للأئمة من يشاء... ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا﴾ [النور: ٤٠]: إماماً من ولد فاطمة عليها السلام. ﴿فَمَا لَهُمْ مِنْ نُورٍ﴾ [النور: ٤٠]: إمام يوم القيامة. و... في قوله: ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَتْلُوهُ﴾ [الحديد: ١٢]: أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين يدي المؤمنين وأيمانهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة ^(١).

- عن الحسن بن محبوب قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قوله عليه السلام: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِي مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانُ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَنُكُمْ﴾ [النساء: ٣٣] قال: «إِنَّمَا عَنِى بِذَلِكَ الْأئِمَّةُ عليهم السلام بِهِمْ عَقَدَ اللَّهُ عليه السلام أَيْمَانَكُمْ» ^(٢).

- عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ عَلَى الْكِرَامِ كَمَا عَلَى الْبَنِينَ﴾ [النساء: ١٦] قال: «يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والأوصياء من ولده عليه السلام وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم ﴿لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا﴾ [النساء: ١٦]: يقول: لأشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة هي الإيمان بولاية علي والأوصياء» ^(٣).

- عن موسى بن جعفر في قول الله عليه السلام: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْحَابُ مَاؤُكْرٍ عُورُوا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [الملك: ٣٠] قال: «إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد» ^(٤).

- عن الحسين بن نعيم الصحاح قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عليه السلام: ﴿فَنَكُرْ كَافِرٌ وَمَنْكُرٌ مُؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] فقال: «عرف الله إيمانهم بولايتنا وكفرهم بها يوم أخذ عليهم الميثاق في صلب آدم عليه السلام وهم ذر» ^(٥).

- عن جعفر الصادق عليه السلام في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٧] قال: أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة، ﴿وَأُخْرَى﴾

(١) أصول الكافي (٢٥١/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة نور الله عليه السلام. حكم محقق أصول الكافي على هذه الرواية بالضعف، دون بيان سببه.

(٢) أصول الكافي (٢٧٣/١) كتاب الحجّة، باب أنّ القرآن يهدي للإمام.

(٣) أصول الكافي (٢٧٧/١) كتاب الحجّة، باب أنّ الطريقة التي حثّ على الاستقامة عليها ولاية علي.

(٤) أصول الكافي (٣٩٩/١) كتاب الحجّة، باب في الغيبة.

(٥) أصول الكافي (٤٧٩/١) كتاب الحجّة، باب فيه نكت وتنف من التنزيل في الولاية، والحديث حسن.

وارجع لهذا الباب ففيه عدة أحاديث تؤول القرآن بغير ما ورد لإثبات الولاية.

مُنْتَشِبَهُمْ ﴿ [آل عمران: ٧] قال: فلانٌ وفلانٌ، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾ [آل عمران: ٧]: أصحابهم وأهل ولايتهم، ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا شَغَبَهُ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧]: أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام «^(١).

وهكذا جاءت هذه الرواية الضالة لأعظم آية في باب التفريق بين المحكم والمتشابه من آيات كتاب الله تعالى، لتحرفها عن معناها ومقصدها، فيحق على واضعها صفة الزيغ الذي حذرت منه الآية الكريمة.

- وذكرت الرواية عن أبي جعفر عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴾ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿ [النبأ: ٢٠١]... فقال: «هي في أمير المؤمنين صلوات الله عليه، كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: ما لله ﷻ آية هي أكبر مني، ولا لله من نبي أعظم مني»^(٢). يقول د. الذهبي: «وما ذكره إبراهيم بن فرات الكوفي في تفسيره لأول سورة النبأ قول ينبو عنه سياق السورة، ويطله أن لله ﷻ أبناء وآيات أعظم من علي عليه السلام»^(٣).

- عن أبي جعفر عليه السلام قال: «نزل جبرئيل عليه السلام بهذه الآية على محمد ﷺ هكذا: ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة: ٥٨] آل محمدٍ حقهم ﴿ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ [البقرة: ٥٨] آل محمدٍ حقهم ﴿ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٨]»^(٤).

ولعل خير ما يردّ على الكليني في تفسيراته وتأويلاته الغريبة هذه هو الرجوع للنصوص ذاتها والملاحظة لسباقها وسياقها؛ فالآية السابقة لهذه الآية تتحدث عن نعم الله تعالى على بني إسرائيل في تظليل الغمام والمن والسلوى.. والآية وما بعدها تتحدث عن قصة دخول القرية وجحود بني إسرائيل، وما بعدها عن استسقاء بني إسرائيل^(٥)،

(١) الكليني: أصول الكافي (٤٨٢/١) كتاب الحجّة باب في نكت وتنف من التنزيل في الولاية.

(٢) أصول الكافي (٢٦٤/١)، كتاب الحجّة، باب أن الآيات التي ذكرها الله ﷻ في كتابه هم الأئمة.

(٣) بدع التفسير في الماضي والحاضر، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، المملكة الأردنية الهاشمية (ص ٦٠).

(٤) الكليني: أصول الكافي (٤٩٢/١) كتاب الحجّة، باب في نكت وتنف من التنزيل في الولاية.

(٥) قال تعالى: ﴿ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَا كَلُوا مِنْ طِينَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ ﴿ وَإِذْ قُلْنَا انْزِلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغْداً وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّداً وَقُولُوا حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ وَسَرِّبْهُمُ الْمُخْسِبِينَ ﴾ ﴿ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ ﴿ وَإِذْ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ ﴾ [البقرة: ٥٧ - ٦٠].

ولم تتعرض الآيات لمسألة الإمامة من قريب ولا بعيد، فكيف تنزع الآية من سياقها وسبقها، وتفسر بغير معناها؟

- وإذا كان الشيعة كالطبرسي يستدلون على العصمة بقوله تعالى: ﴿ وَقَرَنَ فِي يُبُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّحَ تَبَرَّحَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمَنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَكَ الزَّكَاةَ وَأَطَعَنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ فإن سياق الآيات وسبقها يخاطب أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، وادعاء العصمة للأئمة بأنهم المخاطبون بأية التطهير، دون أزواج النبي على أقل تقدير « مدفوع بأن صدر الآية (١) وما بعدها في أزواج النبي ﷺ ». وإخراج أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن من مفهوم الآية « تحكّم ظاهر دفعه إليه الهوى، وحمله عليه التعصب المذهبي » (٢).

الشيعة والتأويل الباطني:

تؤكد روايات الشيعة أن للقرآن ظهراً وباطناً، حتى يروون عن النبي ﷺ في حق القرآن الكريم: « ظاهره أنيق وباطنه عميق » و « للقرآن بطن وظهر ولبطنه بطن إلى سبعة بطون » (٣). ولهذا ذكر المجلسي صاحب بحار الأنوار عنواناً يقول: « باب أن للقرآن ظهراً وباطناً » (٤)؛ وهذا البطن موكل للأئمة يشرحوه ويبينونه.

وهكذا فتح تقسيم القرآن إلى ظاهر وباطن المجال واسعاً للتأويل الباطني على يد الغلاة أولاً ثم على أيدي الفرق التي انفصلت عن فكر الشيعة الأوائل كالإسماعيلية. وحسبنا دليلاً على إيغال هذه الفرقة في عالم السر والباطن ما صورها به أحد أتباعها المعاصرين في قوله: « الإسماعيلية كنز مقل، يقوم على حراسته دعاة احتجبوا بالثقبة، وحجج استتروا بالستر الكثيف الذي لم تصل إليه أيدي الساعين والراغبين » (٥). وقد أفاض الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ فِي الرَّدِّ عَلَى هَوْلَاءِ الْبَاطِنِيِّينَ فِي كِتَابِهِ (فضائح الباطنية) (٦). ولم تسلم كتب التفسير الشيعية من تسربات وترسبات بعض أفكار هؤلاء الغلاة،

(١) الآية بتمامها: ﴿ وَقَرَنَ فِي يُبُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّحَ تَبَرَّحَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقَمَنَ الصَّلَاةَ وَآتَيْنَكَ الزَّكَاةَ وَأَطَعَنَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

(٢) بدع التفسير في الماضي والحاضر (ص ٦١).

(٣) انظر: تفسير الصافي (١٥/١)، بحار الأنوار (١١٧/١).

(٤) انظر: بحار الأنوار (٧٨/٩٢ - ١٠٦).

(٥) عارف تامر: مقدمة كتاب أربع رسائل إسماعيلية، رسالة الدستور ودعوة المؤمنين للحضور (ص ٨).

(٦) انظر: أبا حامد الغزالي: فضائح الباطنية (ص ٥٥ - ٥٨).

فقد « قامت مصادرهم في التفسير - غالبًا - على هذا المنهج الباطني في التأويل الذي استتته من أبي الخطاب وجابر الجعفي والمغيرة بن سعيد وغيرهم من الغلاة »^(١). وإن كانت هناك محاولات اثني عشرية مشكورة في محاربة تأويلات الباطنية التي تؤكد إلهية الأئمة. يقول المازندراني: « فتح أمير المؤمنين عليه السلام باب التأويل، ولكن التأويل شيء يختص به الراسخون في العلم، وليس لكل أحد أن يؤول كل شيء بهواه كما فعله الباطنية، بل لكل شيء حد وقاعدة ومورد ومصدر »، وقد ذكر الشيعة أن علماءهم ردوا قديمًا على الباطنية، كفضل بن شاذان (ت ٢٦٠ هـ)، وهو صاحب الإمامين الهادي والعسكري، ولحبي الدين الحسين بن المظفر بن علي الحمداني - قرأ على أبي جعفر الطوسي معظم كتبه - كتاب (هتك أستار الباطنية)^(٢)، كما عدّ الاثنا عشرية الإسماعيلية من الباطنية^(٣).

ولكن علماء الاثني عشرية لم يستطيعوا أن يقفوا الموقف نفسه من التأويلات الباطنية في حق الأئمة التي تحشى بها بعض كتب التفسير الاثني عشرية. وعلى سبيل المثال: ذكر العياشي في تفسير قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: « الصلوات التي يجب المحافظة عليها هم: رسول الله وعلي وفاطمة وابناهما ﴾ ﴿ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: طائعين للأئمة »^(٤). فهل أبقى تأويل الصلاة المفروضة بطاعة الأئمة للباطنية شيئًا يضيفونه أو جهدًا يبذلونه؟.

وإن كانت هناك كتب تفسيرية أخرى نحت منحى آخر بعيدًا نسبيًا عن فكر الغلاة، بمقدار اقترابها نسبيًا من كتب التفسير عند أهل السنة، ويلاحظ أنه في القرن الخامس بدأ اتجاه التفسير عندهم يحاول التخلص من تلك النزعة المفرقة في التأويل الباطني؛ حيث بدأ شيخ الطائفة عندهم أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (المتوفى سنة ٤٦٠ هـ)

(١) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٤١/١، ٢٤٢). وانظر: منهاج السنة (٢٤٦/٣)، د. علي أحمد السالوس: مع الشيعة الاثني عشرية في الأصول والفروع الجزء الثاني الخاص بعلم التفسير.

(٢) انظر: بحار الأنوار (٢١٩/١٠٢)، وأيضًا (٢٥٦/٤٧).

(٣) محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (٩٣/٤).

(٤) تفسير العياشي (١٢٧/١، ١٢٨)، لأبي النظر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي (ت ٣٢٠)، ذكر ابن النديم في الفهرست أنه من فقهاء الإمامية، أوحد دهره وزمانه في غزارة العلم!.

يؤلف لهم كتابًا في تفسير القرآن يستضيء في تأليفه بأقوال أهل السنة، ويأخذ من مصادرهم في التفسير، ويحاول فيه أن يتخلص أو يخفف من ذلك الغلو الظاهر في تفسير القمي والعياشي وفي أصول الكافي وغيرها، وهو وإن كان يدافع عن أصول طائفته ويقرر مبادئهم، إلا أنه لا يهبط ذلك الهبوط الذي نزل إليه القمي ومن تأثر به. ومثل الطوسي في هذا النهج الفضل بن الحسن الطبرسي في (مجمع البيان) (١).

ولذلك ينبغي لمن يقرأ كتب التفسير الشيعية أن يميز بين منهجين، منهج أقرب للاعتدال، ومنهج أقرب للغلو؛ فالكتب القديمة كتفسير القمي والعياشي.. قامت على منهج تأويل باطني مغال في الأئمة، بينما حاول من جاء بعدهم التخفيف من حدة الغلو.

وإذا كان كتاب أهل السنة - بدافع الإنصاف العلمي - يحاولون التفريق بين المنهجين (الغالي والأقرب إلى الاعتدال) عند مفسري الشيعة رغم الاختلاف في المذهب، فإن من العجب أن النوري الطبرسي صاحب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب) يأبى إلا أن ينسب جميع مفسري طائفته إلى الغلو، فيؤكد أن كتب التفسير المعتدلة لدى الشيعة إنما خرجت مخرج التقية للعامة فقط (٢)!! وما أظن أهل طائفته اليوم يوافقونه على ما زعم.

(١) انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٢٤١)،

٢٤٢). وانظر: منهاج السنن (٣/٢٤٦).

(٢) فصل الخطاب (ص ٣٥). ط إيران (١٣٩٨هـ).

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ

السنة عند الاثني عشرية



إن جميع المسلمين متفقون على حجية السنة النبوية، سوى طوائف شاذة منحرفة هم على التحقيق خارجون عن مسمى الإسلام، وهذا الإجماع على حجية السنة ينسحب على الفرق الكلامية الإسلامية المشهورة كالمعتزلة والأشاعرة والاثني عشرية (١).

ويكفي المسلمين دليلاً على حجية السنة ووجوب اتباع أوامر الرسول ﷺ قول الله تعالى: ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ [الحشر: ٧].

هذا من حيث المبدأ، أما من حيث التطبيق فالأمر مختلف؛ إذ « ترى الشيعة أن السنة هي كل ما يصدر عن النبي وأهل بيته المعصومين من قول أو فعل أو تقرير، وانطلاقاً من ذلك فكل حديث نُقل أو رُوي من غير طريقهم ولم يكن إمامياً يسقط من الاعتبار » (٢). « معنى ذلك أن أحاديث أهل السنة والجماعة أحاديث موضوعة مردودة من وجهة النظر الشيعية » (٣). إلا إن أتى مثلها عن أئمة أهل البيت. فلا اعتبار لا لصحيح البخاري ولا لصحيح مسلم، ولا للسنن الأربعة وباقي كتب حديث أهل السنة، وإن رأينا في بعض كتب الاثني عشرية استشهاداً بكتب أهل السنة؛ فإن ذلك من باب إسكات الخصوم من كلامهم على مبدأ (من فمك أدنك)، وغالباً ما يكون ذلك بمنهج انتقائي؛ إذ يأتون من الأحاديث ما يرضيهم ويعجبهم ويدعم آراءهم، ويتناسون الأحاديث التي تخالفهم في العقيدة. وعلى سبيل المثال: كتاب (عقائد الإمامية برواية الصحاح الستة)

(١) حجية الدليل النقلية بين المعتزلة والأشاعرة، أحمد قوشتي عبد الرحيم، ماجستير، دار العلوم (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، إشراف الأستاذ الدكتور محمد عبد الله الشرفاوي (ص ٩٨)، وانظر: د. محمد محمد أبو شهبة: دفاع عن السنة (ص ١٣)، د. رؤوف شلبي: السنة الإسلامية بين إثبات الفاهمين ورفض الجاهلين (ص ٣٧)، وغيرهما.

(٢) د. خالد علي عباس القط: أثر الأحاديث الموضوعة في نشأة وصياغة عقائد الشيعة الإمامية، رسالة دكتوراه، كلية البنات، قسم الدراسات الفلسفية (ص ٣٣)، إشراف الدكتورة كوكب محمد عامر (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

(٣) المرجع السابق (ص ٣٣).

يجمع مؤلفه من النصوص ما يخدم هدفه، ويهمل الأخرى التي لو جمعها مع تلك ثبت ضد ما أراد^(١).

« والحقيقة أن الشيعة تخصصوا تخصصًا واضحًا في التقاط النصوص التي تؤيد نزعاتهم، ومع أن بعضهم يعرف درجة الحديث من الضعف في متنه والجرح والقدح في رجاله إلا أنه يصير دائمًا على نقل الضعيف والموضوع والمكذوب على رسول الله ﷺ بدعوى حب علي وحب آل البيت »^(٢).

و « على الرغم من التشابه بين تصور أهل السنة لعلوم الحديث وتصور الشيعة لها، إلا أن الأحاديث المروية عن طريق أهل السنة هي أحاديث مردودة موضوعة لدى الشيعة الإمامية، وكذلك الأحاديث المروية عن طريق الشيعة والمخالفة لعقائد الإسلام والسنة النبوية الصحيحة والعقل الصريح هي أحاديث مردودة لدى أهل السنة والجماعة، وانطلاقًا من ذلك تدرك أن هناك اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف، يصعب التقريب أو التوفيق بينهما، لاختلافهما في أصول العقائد الدينية »^(٣).

و « لو أن أهل السنة والشيعة اتفقوا على وضع قواعد في مصطلح الحديث يكون التحاكم فيها عند الاختلاف في مفردات الروايات، ثم اعتمدوا جميعًا على ما صح منها، لو أنهم فعلوا ذلك لكان هناك أمل في التقارب والتفاهم في أمهات المسائل المختلف فيها بينهم؛ أما والخلاف لا يزال قائمًا في القواعد والأصول على أشده؛ فهذه هي هيات أن يمكن التقارب والتفاهم معهم، بل كل محاولة في سبيل ذلك فاشلة »^(٤).

وإذا كان أهل السنة يطلقون مصطلح السنة على قول النبي ﷺ وفعله وتقريره، ولا يرتبطون بأقوال غيره من الصحابة والتابعين إلا بمقدار ما يبين قول النبي ﷺ ويشرحه أو يبيّن عليه فهمًا، وإذا كانوا يرون عليًا عليه السلام وباقي آل البيت ممن عاصروا النبي ﷺ كالعباس وابنه عليه السلام في عداد أشهر الصحابة الكرام، ويرون أبناءهم من التابعين كباقي التابعين من حيث الاستدلال بأقوالهم مع حفظ مكانتهم الشريفة باعتبارهم آل بيت

(١) انظر: محمد علي الحلو: عقائد الإمامية برواية الصحاح الستة، دار الهادي للطباعة والنشر، بيروت (ط ١)، (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م).

(٢) د. عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٤٩١).

(٣) د. خالد علي عباس القط: أثر الأحاديث الموضوعة في نشأة وصياغة عقائد الشيعة الإمامية، خاتمة البحث (ص ٣٦٩).

(٤) الشيخ ناصر الدين الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة (٢/ ٢٩٩).

النبي ﷺ، ولكن لا يرون ذلك ميزة في مسألة الحجية لأقوالهم - إذا كان أهل السنة كذلك؛ فإن الشيعة لهم رأي آخر؛ إذ ترى الشيعة أنه لا فرق بين حديث النبي ﷺ وحديث أي واحد من الأئمة الاثني عشر (المعصومين)، فقد رواوا عن جعفر الصادق أنه قال: « حديثي حديث أبي، وحديث أبي حديث جدّي، وحديث جدّي حديث الحسين، وحديث الحسين حديث الحسن، وحديث الحسن حديث أمير المؤمنين الكليلا، وحديث أمير المؤمنين حديث رسول الله ﷺ، وحديث رسول الله قول الله ﷻ » (١).

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله الكليلا: « الحديث أسمعك منك أرويه عن أبيك أو أسمعك من أبيك أرويه عنك؟ قال: سواء، إلا أنك ترويه عن أبي أحب إليّ. وقال أبو عبد الله الكليلا لجميل: ما سمعت منّي فاروه عن أبي » (٢).

قال المازندراني: « إن حديث كل واحد من الأئمة الطاهرين قول الله ﷻ، ولا اختلاف في أقوالهم كما لا اختلاف في قوله تعالى » (٣).

وإذا عرفنا أن نهضة علوم الشيعة قد جاءت على يد الإمام جعفر وتلامذته؛ فإننا نلاحظ كثرة الروايات عن جعفر الصادق (أبي عبد الله) في كتب الشيعة، لدرجة أننا إذا فحصنا أقوال أئمة أهل البيت - والصادق على وجه الخصوص - في بعض المسائل وجدناها أغزر وأكثر من الأحاديث التي يرويها الاثنا عشرية عن النبي ﷺ، وقد لاحظت هذا باستقراي لكتاب أصول الكافي، وكذلك فقد لاحظ الأستاذ الدكتور السنهوتي - من قبل - كثرة الأقوال المنقولة عن آل البيت في مجال الصفات الإلهية، فقال: « تمثل أقوال الأئمة من آل البيت المصدر الذي يستقي منه علماء الاثني عشرية مذهبهم في التوحيد بين ذات الله تعالى وصفاته » (٤).

وكما أنه لا حجية لنقول الصحابة والتابعين في تفسير القرآن عند الاثني عشرية؛ فلا حاجة عند الشيعة أيضًا لجهود الصحابة - وبالأخص من خالف عليًا ؓ في مواقفه السياسية - في حفظ السنة؛ إذ السنة محفوظة عند الأئمة، كما أن القرآن محفوظ لديهم بوحى يأتيهم فيسمعون صوته ولا يرونه. أما « قول الصحابي كصحابي فيفقد

(١) أصول الكافي (١/١٠٤) كتاب فضل العلم، باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب (٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المازندراني: شرح أصول الكافي (٢/٢٧٢).

(٤) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية، دكتوراه، كلية دار العلوم (ص ٩٤).

اعتباره عند الشيعة إلا إذا كان الصحابة من الأئمة المعصومين كالإمام علي الذي أقيمت أدلة ساطعة على حجبة قوله « (١) ».

وعلى الرغم من النصوص الواضحة في رضا الله تعالى عن الصحابة وتوثيقهم؛ فإن الشيعة لا ترى في صحبة النبي ﷺ أي ميزة، فلا تكسبهم عدالة ولا حصانة، في حين نرى أن مجرد معرفة رجل لأحد الأئمة تجعله مقدسًا رغم أخطائه الكثيرة؛ كهشام ابن الحكم وزرارة بن أعين...، قال العاملبي عن الصحابة: « وحكمهم عندنا في العدالة حكم غيرهم » (٢). قال المامقاني: « فمجرد كون الرجل صحابيًّا لا يدل على عدالته، بل لا بد من إحرازها. نعم ثبوت كونه صحابيًّا مغني عن الفحص عن إسلامه إلا أن يكون ممن ارتد بعد وفاة النبي ﷺ » (٣). في حين يثبتون لمن رأى الغائب المنتظر عندهم هالة من الاحترام والقداسة، فأيهما أعظم رؤية النبي الأكرم ﷺ أم رؤية المهدي المنتظر؟ فقد قالوا عن أحد رجالهم: « تشرف برؤية الحجة المنتظر... فإننا نستشهد بذلك على كون مرتبته أعلى من مرتبة العدالة؛ ضرورة أنه لا يحصل ذلك إلا بتصفية النفس وتحلية القلب من كل رذيلة، وإلى هذا أشار مولانا العسكري رضي الله عنه بقوله لمن رأى الحجة: لولا كرامتك على الله ما أريتك ولدي هذا » (٤)!!

والمقياس الذي قاسوا به الرجال عمومًا والصحابة خصوصًا هو الموقف من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، قال عبد الحسين شرف الدين: « فالصحابة كغيرهم من الرجال فيهم العدول، وفيهم أهل الجرائم من المنافقين، وفيهم مجهول الحال. فنحن نحتج بعدولهم ونتولاهم في الدنيا والآخرة، أما البغاة على الوصي وأخي النبي وسائر أهل الجرائم والعظائم، كابن هند وابن النابغة وابن الزرقاء وابن عقبة وابن أرتأة وأمثالهم؛ فلا كرامة لهم ولا وزن لحديثهم » (٥). « لأن النبي ﷺ جعل حب علي من الإيمان وبغضه من علامات النفاق؛ لذا فهم [أي الشيعة] لا يلتزمون برواية من قاتل الإمام عليًّا أو الأئمة

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية (ط ١)، (١٤٢٢) - قم (ص ٣٢).

(٢) العاملبي: الرعاية في علم الدراية (ص ٤٤٣).

(٣) المامقاني (ت ١٣٥١ هـ): تلخيص مقياس الهداية (ص ٢٠٧)، (ط ١) جامعة الإمام الصادق طهران، تحقيق علي أكبر الغفاري (ط ١). وانظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ١٢٠).

(٤) تنقيح المقال (١/٢١١)، وانظر د. فرماوي: الشيعة والصحابة (ص ٢٥).

(٥) أجوبة مسائل جار الله (ص ١٥)، (ط ٢) طبعة الفقيه: قم.

من أهل البيت (ع) ومن عاداهم صحابيًا كان أو غير صحابي » (١).

المطلب الأول

كتب الحديث عند الاثني عشرية

يرى الشيعة أن « أول من دوّن الحديث في مدرسة أهل البيت هو الإمام علي عليه السلام حيث دوّن ما أملاه عليه رسول الله صلى الله عليه وآله في كتب منها (الجامعة) التي كان طولها سبعين ذراعًا في عرض الأديم... ثم توارث الأئمة من ولده كتبه، ورووا منها عن رسول الله صلى الله عليه وآله » (٢).

ويرون أن « أول من دوّن الحديث من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام بعده أبو رافع، وله كتاب (السنن والأحكام والقضايا) (٣) وابنه كان كاتبًا لأمير المؤمنين علي عليه السلام وجمع كتابًا في فنون الفقه والوضوء والصلاة وسائر الأبواب » (٤).

وهناك خلاف في الزمن الذي كتبت فيه أصول كتب الحديث الشيعية: فالقول الأول أنها كتبت من زمن ممتد بين أمير المؤمنين علي عليه السلام وعهد الإمام العسكري، والقول الثاني

(١) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ١٢٣). نعم جعل النبي صلى الله عليه وآله حب علي من الإيمان، ولكن كذلك جعل حب الأنصار من الإيمان في الروايات نفسها، انظر: صحيح مسلم، كتاب الإيمان، (باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي عليه السلام من الإيمان)، وسنن الترمذي: (باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي من الإيمان وبغضهم من النفاق)، وأهل السنة جمعوا بين الخيرين.

(٢) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٣٦، ٣٣٧).

(٣) أبو رافع القبطي مولى النبي صلى الله عليه وآله، واسمه أسلم وقيل: إبراهيم، كان للعباس، ووهبه للنبي صلى الله عليه وآله، فلما أسلم العباس أعتقه النبي صلى الله عليه وآله، أسلم قديمًا، وهاجر إلى المدينة، وشهد المشاهد مع النبي صلى الله عليه وآله، ولزم بعده أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب، وشهد معه حروبه، وكان صاحب بيت المال في الكوفة، وابناه عبيد الله وعلي كاتبًا أمير المؤمنين علي عليه السلام. انظر: رجال النجاشي (ص ٤)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم (١٤١٦).

وقد روى أهل السنة عن أبي رافع عليه السلام، وروى هو عن ابن مسعود رضي الله عنه. وله في البخاري حديث واحد، وثلاثة أحاديث في صحيح مسلم، وفي مسند أحمد سبعة عشر حديثًا، توفي قبل عام (٣٦ هـ)، قيل: في آخر خلافة عثمان، وقيل: في خلافة علي، ولعله الراجح. انظر: الصفدي: الوافي بالوفيات (٣١/٩)، محمد جعفر الطبسي: رجال الشيعة في أسانيد السنة (ص ١٣)، مؤسسة المعارف الإسلامية، قم (١٤٢٠ هـ).

(٤) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة، تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية (ط ١)، (١٤٢٢) قم (ص ٤٥) عن السيد حسن الصدر تأسيس علوم الشيعة (ص ٢٨٠، ٢٨١).

يرى أنها كتبت في زمن الإمام جعفر الصادق، صاحب النهضة العلمية للفكر الاثني عشري، فهذه الأصول هي: « ما جادت به أنامل أصحاب الإمام الصادق وتلامذته »^(١).

وقد كثرت أصول الحديث الشيعية - ووصلت إلى أربعمائة أصل - إلا أنها في النهاية استقرت على ثمانية كتب. وعمدتها الكتب الأصول الأربعة، وقد آلفت في القرن الرابع والخامس الهجري، وهذه الكتب الأربعة هي: (الكافي) للكليني، (من لا يحضره الفقيه) للصدوق (ت ٣٨١ هـ)، و (التهذيب) و (الاستبصار) للطوسي (ت ٤٦٠ هـ). في حين جاءت الكتب الأخرى الرديفة في عصور متأخرة (القرن الثاني عشر الهجري وما بعده).

وهناك خلاف بين الأخباريين والأصوليين - وهما جناحا الاثني عشرية - في قطعية صدور هذه الأحاديث عن الأئمة، فمال الأخباريون إلى قطعية صدور روايات الكتب الأربعة، وخالفهم في ذلك الأصوليون^(٢).

وقد أثبت السيد الخوئي في معجم رجال الحديث « أن الشيخ الطوسي والصدوق وشيخه لم يكونوا يرون صحة جميع ما جاء في الكافي من حديث، وأن الشيخ الطوسي لم يكن يرى صحة جميع ما جاء في (من لا يحضره الفقيه) من حديث، والأهم من ذلك أن الكليني نفسه لم يكن يرى جميع ما ذكره من حديث في كتابه الكافي صحيحاً، وكذلك الصدوق لم يكن يرى صحة جميع أحاديث (من لا يحضره الفقيه)، والشيخ الطوسي لم يكن يرى صحة جميع ما ذكر من حديث في (التهذيب) و (الاستبصار)، واستدل فيما أفاد بأدلة قوية »^(٣).

ومما تجدر الإشارة إليه أن بعض علماء الشيعة كوالد الشيخ البهائي... ذكروا أصلاً خامساً وهو كتاب (مدينة العلم) للشيخ الصدوق [ت ٣٨١ هـ] والذي يبلغ ضعف كتاب (من لا يحضره الفقيه)؛ ولذا عبروا عنها بالأصول الخمسة، بيد أن الكتاب المذكور عفى عليه الدهر « على أثر إحراق كتب أتباع أهل البيت ومكتباتهم ومطاردتهم

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٨٩). وقد ذكر خلافاً في عدد هذه الأصول بين (٤٠٠ ، و ٥٩) في الفهرست، و (٧) عند النجاشي، وأحصى صاحب الذريعة (١١٧)، وقال: وليس من السهل حسم الموقف في هذا الموضوع في الوقت الحاضر. انظر: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٩٠ ، ٩١).

(٢) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٩٣).

(٣) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٤٩ ، ٣٥٠). وانظر: الخوئي: معجم رجال الحديث

وتشريدهم»^(١)، على حدّ زعمهم - فلم يصل إلى العلامة المجلسي، ومن هنا ساد اصطلاح الكتب الحديثية الأربعة^(٢).

أولاً: الكافي للكليني:

وهو أهم كتاب في عقائد الشيعة وأحكامهم على الإطلاق.

يرى الشيعة أن « أول كتاب في الحديث ألف في الإسلام كتاب علي، أملاه رسول الله ﷺ وخطه علي على صحيفة فيها حلال وحرام، وله كذلك صحيفة في الديات، كان يعلقها بجراب سيفه، وقد نقل البخاري منها، ثم دوّن أبو رافع القبطي الشيعي مولى الرسول ﷺ كتاب السنن والأحكام والقضايا، ثم صنف علماء الطبقات كتباً كثيرة وأصولاً قيمة جمعها وهذبها ورتبها طائفة من ثقات المحدثين في مجموعات حديثية ربما كان أجلها الكافي للكليني»^(٣).

ويرى الشيعة أن ما كتبه الكليني وغيره مأخوذ من مجموعات حديثية هي الأصول، وأن عددها أربعمئة كتاب^(٤)، ولكن لا ذكر لها ولا وجود. ولا ذكر لأصحابها اليوم « وكانت تلك الأصول بأجمعها موجودة في عصر الكليني»^(٥).

وقد ألف الكليني كتابه الكافي في عشرين سنة، وكان معاصراً لوكلاء المهدي المنتظر وسفرائه الأربعة، وقال صاحب (الوسائل) « ما حاصله أن الأصول والكتب التي كانت منابع اطلاعات الكليني قطعية الاعتبار؛ لأن باب العلم واستعلام حال تلك الكتب بوسيلة سفراء القائم كان مفتوحاً عليه، لكونه معهم في بلد واحد بغداد... وأما عدة أحاديث الكافي فهي ستة عشر ألف ومائة وتسعون حديثاً، وزاد بعضهم على ذلك تسعة أحاديث»^(٦).

(١) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٣٧).

(٢) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٩٣).

(٣) مقدمة الكافي بقلم: د. حسين علي محفوظ (ص ٣).

(٤) المصدر السابق، وراجع الوجيزة للشيخ البهائي (ص ١٨٣)، والذريعة (٢/٧٠ - ١٢٥)، (٦/٣٠١ -

٣٧٤)، مادة كتاب الحديث، وأعيان الشيعة (١/٢٦٢، ٢٦٣).

(٥) الشيخ محمد صالح الحائري: منهاج عملي للتقريب إلى إخواننا المسلمين (ص ٢٣٣). مطبوع ضمن كتاب الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب الإسلامية السبعة، وهو مجموعة مقالات لكبار علماء السنة والشيعة، جمعها ورتبها: عبد الكريم الشيرازي، مؤسسة الأعلمي للطبوعات - بيروت (ط ٢)، (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).

(٦) المرجع السابق (ص ٢٣٣).

ويعتقد الاثنا عشرية أن الكافي « عرض على القائم - صلوات الله عليه، فاستحسنه، وقال: (كافي لشيعتنا) » (١).

ومع أن الكليني كان في زمن سفراء المهدي الأربعة الذين كانوا في عهد الغيبة الصغرى إلا أنه لم يرو عنهم أي حديث!

والكافي ينقسم إلى ثلاثة أقسام: (أصول الكافي) وهو جامع لعقائد الشيعة، و (فروع الكافي) يتكلم في فقه الاثني عشرية، و (الروضة) وفيها أخبار متفرقة وسير ونوادر. والذي يهمننا في دراسة عقائد الشيعة هو القسم الأول (أصول الكافي).

ويجدر بالذكر أن كتاب الكافي لم يوجد له ذكر عند علماء الملل من أهل السنة كالأشعري، مع أنه كان معاصراً للكليني، أو ابن حزم، أو ابن تيمية، مع أن الكافي هو الأصل الأول المعتمد عند الاثني عشرية (٢)؛ مما يدعونا للمقارنة بين ما كتبه علماء الملل من أهل السنة عن الاثني عشرية وما هو مسطر في كتاب الكافي، ومما يجعل الباحثين في التشيع يزدادون قناعة بإمكانية إضافة ما هو جديد في هذا المضمار.

شروح الكافي وحواشيه:

وللكافي شروح كثيرة، وقد ذكر محقق أصول الكافي اثني عشر شرحاً له، ألفت في زمن الدولة الصفوية (٩٠٥ - ١١٤٨ هـ)، إلا واحداً تأخر للقرن الثالث عشر الهجري (٣). وهذا يدلنا على ازدهار علوم الشيعة زمن الصفويين الذين حملوا المذهب الاثني عشري ونشروه.

وأهم هذه الشروح: شرح محمد بن صالح المازندراني المتوفى (١٠٨٠ هـ)، وكذلك مرآة العقول في شرح أخبار الرسول للمجلسي، محمد باقر بن محمد تقي المتوفى سنة (١١١٠ هـ)، وهما مطبوعان، كذلك الوافي للفيض الكاشاني المتوفى (١٠٩١ هـ) مطبوع.

المقارنة بين الكافي والبخاري غير منطقية:

ويباهي بعض كتّاب الاثني عشرية بتفوق الكافي على البخاري في عدد الأحاديث،

(١) مقدمة الكافي (ص ٢٠، ٢١)، وانظر: منتهى المقال (ص ٢٩٨)، وروضات الجنات (ص ٥٥٣).

(٢) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٣/١) دار الرضا للنشر والتوزيع، القاهرة (ط ٣)، (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م).

(٣) المتأخر هو (هدي العقول في شرح أحاديث الأصول) للقطيفي، فقد توفي مؤلفه في القرن الثالث عشر الهجري وهو مخطوط. انظر تقديم أصول الكافي (٢٤/١ - ٢٦)، وانظر الذريعة باب الكاف.

فيقول المولى محمد أمين الأسترابادي في الفوائد المدنية: « وقد سمعنا عن مشايخنا وعلمائنا أنه لم يصنف في الإسلام كتاب يوازيه أن يدانيه » (١). « فإن عدة أحاديث الكافي (١٦١٩٩) حديثاً، وجملة ما في كتاب البخاري الصحيح (٧٢٧٥) حديثاً، بالأحاديث المكررة » (٢). وهذه المباهاة بالكافي تنطلي على من لا علم له بمصطلح الحديث، ولو كان الأمر بالكم فإن مسند أحمد يزيد تعداده على ما في الكافي بأكثر من عشرة آلاف حديث؛ إذ يقترّب تعداد ما فيه من أحاديث من (٢٨٠٠٠) حديث، وهو أقدم تأليفاً من الكافي.

ولعمر الحق ليست المسألة بالكثرة والقلة إنما العبرة بالدقة العلمية؛ فإن هذا الكافي باعتراف كثير من علماء الشيعة لم يقتصر على الحديث الصحيح، ففيه الضعيف وما دون الضعيف، بخلاف صحيح البخاري، الذي كان مؤلفه حافظاً متقناً ثقة، اجتهد ألا يضم في كتابه الجامع إلا الحديث الصحيح، وكتاب الكافي ذاته يدلّك على قلة ضبط الكليني: -
ففيه شكّ ونسيان أسماء بعض الرواة: وعلى سبيل المثال:

قال الكليني: « وحدّثني شيخٌ من أصحابنا ذهب عني اسمه أنّ أبا عمرو سأل عن أحمد بن إسحاق عن مثل هذا فأجاب بمثل هذا » (٣).

- كما أن فيه روايات ضعيفة مبهمّة لم يعرف قائلها، حشاها الكليني في الكافي، عبّر عنها بقوله: (عن عدة من أصحابنا)، وتكرر هذه العبارة وأمثالها فيه كثيراً، وعلى سبيل المثال: « عن سهل بن زياد عن علي بن أسباط عن إسماعيل بن يسار عن بعض من رواه قال: قال: « إذا أحزنتك أمر فقل في آخر سجودك: يا جبرئيل يا محمد، يا جبرئيل يا محمد. تكرر ذلك - اكفياني ما أنا فيه فإنكما كافيان، واحفظاني بإذن الله فإنكما حافظان » (٤) هذه الرواية التي لا يعرف قائلها، كيف قبل الكليني أن يحشو بها وبأمثالها كتابه؟.

- والملاحظ أيضاً من روايات الكافي أنها في معظمها معنعة، مما يعني تأخر علوم

(١) مقدمة الكافي (ص ٢٢)، وانظر: مستدرک الوسائل (٣/٥٣٢).

(٢) مقدمة الكافي.

(٣) أصول الكافي (١/٣٨٩) كتاب الحجّة، باب في تسمية من رآه [يعني الإمام الثاني عشر].

(٤) أصول الكافي (٢/٥٢٦) كتاب الدعاء، باب الدعاء للكرب والهم والحزن والخوف قال محققه: هذا الحديث ضعيف من جهة، ومضمّن من جهة أخرى باعتبار أنه لم يعرف القائل فيه!! أقول: وهو باطل من كل جهة؛ لأن فيه استغائة بغير الله القريب السميع المحيّب.

الحديث وطرق الرواية عند الكليني، فلا تستخدم مصطلحات المحدثين (حدثنا، أنبأنا، أخبرنا) بل الروايات كلها تساق سوقاً واحداً بالنعنة.

- وقد روى عن عُمر بن عُمر بن كزياد بن مروان القندي وكان من الواقفة (١) وليس من الاثني عشرية، وقصة جحوده لمال الإمام موسى بن جعفر مشهورة، وكان سبب وقفه مع سماعه النص من موسى بن جعفر علي ابنه الرضا أنه « كان عنده سبعون ألف دينار من مال موسى فأنكر موته وإمامة الرضا لئلا يدفع المال إليه » (٢). وكفى بهذا تجريحاً له وإسقاطاً لروايته. وقد قال المجلسي: « كتب أخبارنا مشحونة بالأخبار الدالة على كفر الزيدية وأمثالهم من الفطحية، والواقفة » (٣).

وعلى كلِّ فالأصوليون من الشيعة لا يرون كل ما في الكافي صحيحاً بخلاف المتقدمين والأخباريين المعاصرين، قال الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني: « وكلها صحيح باصطلاح القدماء، أي حجة معتبرة، وأما على اصطلاح المتأخرين - أي الأصوليين - في تنوع الأحاديث المنسوب لإحداثه إلى ابن طاوس والعلامة الحلبي، فالصحيح الاصطلاحي (٥٠٧٢) والموثقات (١١١٨)، والقوي (٣٠٢)، والمعتبر أي الصحيح القدمائي (٩٤٨٥) » (٤).

والحقيقة أن القول بأن كل ما في الكافي صحيح هو مكابرة وتناقض عظيم؛ فإن في الكافي رواية ليسوا على مذهب الاثني عشرية، ولا يمكن أن يصحح الاثني عشرية روايتهم؛ لأنهم اشترطوا في الصحيح أن يكون رواته على مذهب الاثني عشرية، وعلى سبيل المثال: علي بن أبي حمزة، قال عنه النجاشي: « روى عن أبي عبد الله عليه السلام، ثم وقف، وهو أحد عمد الواقفة » (٥).

وقد بشرته إحدى الروايات بالنار: عن يونس قال: دخلت على الرضا عليه السلام فقال لي: « مات علي بن أبي حمزة؟ قلت: نعم، قال: قد دخل النار، قال: ففزعت من ذلك، قال:

(١) أصول الكافي (٣٦٩/١) كتاب الحجة، باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا. « أحمد بن مهران عن محمد بن علي عن زياد بن مروان القندي وكان من الواقفة قال: دخلت على أبي إبراهيم وعنده ابنه أبو الحسن عليه السلام فقال لي: يا زياد هذا ابني فلان كتابه كتابي وكلامه كلامي ورسوله رسولي وما قال فالقول قوله ».

(٢) المازندراني: شرح أصول الكافي (١٦٨/٦).

(٣) بحار الأنوار (٣٤/٣٧).

(٤) محمد صالح الحائري المازندراني: منهاج عملي للتقريب (ص ٢٣٥).

(٥) رجال النجاشي (ص ٢٤٩، ٢٥٠).

أما إنه سئل عن الإمام بعد موسى أبي فقال: لا أعرف إمامًا بعده، فقيل: لا؟ فضرب في قبره ضربة اشتعل قبره نارًا» (١).

ومع ذلك كان هو قائد أبي بصير - الراوي الضرير المكثّر عن الأئمة - وروى عنه عدة روايات، وقد أحصيت له (٤٦) رواية في أصول الكافي (٢٤) رواية في الجزء الأول، و٢٢ رواية في الجزء الثاني) فهل تكون رواياته صحيحة؟!.

ولوضوح هذه الحقيقة قام محمد باقر البهودي من علماء الشيعة فألف كتابًا أسماه: (الصحيح من الكافي) يقع في ثلاثة مجلدات (٢). «واعتبر من مجموع (١٦١٢١) حديثًا من أحاديث الكافي: (٤٤٢٨) حديثًا صحيحًا، وترك (١١٦٩٣) حديثًا منها لم يرها حسب اجتهاده صحيحة» (٣)، وقد انتقده كثير من علماء الشيعة - وعلى الأخص الأخباريون منهم - على هذه الخطوة الجريئة.

والحقيقة أن فعل البهودي ليس بدعة؛ فإن الإمام المجلسي، وهو من لا ينكر مكانته العلمية أحد من الاثني عشرية - قام في كتابه (مرآة العقول) بذكر «علل الحديث وقوته وصحته وفق القواعد المتبناة لدى المحدثين منذ عصر العلامة الحلبي وابن طائوس، وخالفهم أحيانًا وقال: (ضعيف على المشهور معتمد عندي) أو (معتبر عندي) وكان نتيجة تقويمه لأحاديث الكافي أنه وجد منها خمسة وثمانين وأربعمائة وتسعة آلاف (٩٤٨٥) حديث ضعيف من مجموع (١٦١٢١) حديثًا» (٤).

ثانيًا: كتاب (من لا يحضره الفقيه):

للشيخ محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي المتوفى سنة (٣٨١هـ)، المشهور بالصدوق. مدحه بعض الشيعة قائلين: «كان محمد بن علي بن الحسين حافظًا للأحاديث، فقيهاً، بصيرًا بالفقه والرجال، ناقدًا للأخبار، لم ير في القميين مثله في حفظه وكثرة علمه» (٥).

(١) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٧٤٢/٢)، بحار الأنوار - العلامة المجلسي (٢٤٢/٦)، وانظر: عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٨٤).

(٢) البهودي: صحيح الكافي، الدار الإسلامية (١٤٠١هـ / ١٩٨١م).

(٣) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٤٤).

(٤) المرجع السابق: (٣/٣٩٣، ٣٩٤).

(٥) انظر: الفوائد الرجالية (٣/٢٩٣)، ومقدمة من لا يحضره الفقيه (ص ٨)، منشورات جماعة المدرسين، قم (٢ ط)، تحقيق علي أكبر غفاري.

ولكن لم يسلم من نقد بعض أعلام الاثني عشرية، ويكفي في ذلك موقف الشيخ المفيد؛ حيث قام بتصحيح (اعتقادات الصدوق) معترضاً على بعض المسائل العقديّة التي أثبتها الصدوق في كتابه (اعتقادات الإمامية)، وانتقده في أكثر من مكان في هذا الكتاب، فاتهمه بالاعتماد على كتب غير موثوقة ككتاب سليم بن قيس، كما اتهمه بقلّة الفطنة، وعدم التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها (١).

ثالثاً، ورابعاً: (التهديب) و (الاستبصار):

لمؤلفهما شيخ الطائفة أبي جعفر محمد بن الحسن بن علي الطوسي (المولود في سنة ٣٨٥هـ والمتوفى بالنجف في المحرم سنة ٤٦٠هـ).

وقد ساهم الاستقرار السياسي وقوة الشوكة الاثني عشرية على يد الصفويين الذين حملوا المذهب الاثني عشري؛ في نشاط النهضة العلمية لعلوم الاثني عشرية، وفي مقدمتها تأليف الموسوعات الحديثية، ذات الطابع الأخباري، المعتمد على جمع الروايات ونقلها، ومن أشهر رجاله محمد أمين الأسترابادي (ت ١٠٣٦هـ)، وقد أسدى علماء هذه المرحلة « خدمات هامة للحديث » (٢) الاثني عشري.

فقد جمعت الأصول الأربعة في كتاب (الوافي) للمحسن الكاشاني (محمد ابن المرتضى ت ١٠٩١هـ). ولعل أوضح ثمرة لنتاج هذه المرحلة الصفوية كتاب (بحار الأنوار) للمجلسي:

خامساً: بحار الأنوار:

لمحمد باقر المجلسي المتوفى سنة (١١١٠هـ) وقيل: سنة (١١١١هـ). « ويعد هذا الأثر دائرة معارف للتراث الروائي الشيعي، وقد لعب دوراً هاماً في بقاء الأحاديث وحفظها من الاندثار » (٣). جمع غالب ما قبله من الكتب الحديثية الاثني عشرية، وغلب عليه الطابع الأخباري الجمعي.

(١) انظر مثلاً نقده للصدوق لاعتماده على كتاب سليم بن قيس، المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ١٢٦)، ونقده لرأيه في بقاء الأنفس واتهامه له بعدم التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها (ص ٨٧).
 (٢) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية (ط ١)، (١٤٢٢هـ) قم (ص ١٢٣).
 (٣) المرجع السابق (ص ١٣٠).

سادسًا: الوسائل:

محمد بن الحسن الحر العاملي. وهو أيضًا موسوعة حديثية ضخمة.

سابقًا: مستدركات الوسائل:

« محمد الحسين المرحوم المعاصر النوري، صاحب المؤلفات الكثيرة المطبوعة »^(١) في ثلاثة مجلدات كبيرة مطبوعة^(٢). وهو صاحب فرية تحريف القرآن الكريم، التي حاول تعميمها والصاقها بالذهب الاثنى عشري في كتابه المشؤوم: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب). ومع ذلك فكتابه (مستدركات الوسائل) من مصادر الاثنى عشرية الحديثية!

ويلاحظ أن هذه الكتب الأربعة الأخيرة (الوافي والبحار والوسائل ومستدركات الوسائل) تضمنت الكتب الأربعة الأولى، فالوافي ما هو إلا جمع للكتب الأربعة الأولى بترتيب جديد، وكذلك بحار الأنوار جمع معظم الكتب القديمة التي ألفت؛ ولذلك جاء منهجه الأخباري الجمعي المستكثر من روايات الكتب السابقة دون تمحيص ولا تدقيق. بقي أن نتحدث عن كتابين مشهورين لدى الشيعة الاثنى عشرية، وهما وإن غلب على أحدهما الأسلوب التاريخي (وهو كتاب سليم بن قيس)، وغلب على الثاني أسلوب الخطابة والبلاغة العربية (وهو كتاب نهج البلاغة)، ولكنهما يعدان من مصادر الحديث التي تثري الفكر الشيعي.

كتاب سليم بن قيس^(٣):

هو أول كتاب ظهر للشيعة، كما ذكر ابن النديم في (الفهرست)^(٤). بل يعدونه

(١) ولا يضير هذا الرجل - عندهم - أن يقول بعد ذلك بتحريف القرآن الكريم؛ إذ من مؤلفاته: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب ط إيران ١٣٩٨ هـ). ويقتى كتابه مستدركات الوسائل من أسس حديث الشيعة.

(٢) انظر: منهاج عملي للتقريب: الشيخ محمد صالح الحائري المازندراني (ص ٤٣٠ - ٤٣٢).

(٣) سليم بن قيس الهلالي يكنى أبا صادق، كان من أصحاب أمير المؤمنين، وكان هارياً من الحجاج؛ لأنه طلبه ليقتله، ولجأ إلى أبان بن أبي عياش فأواه، فلما حضرته الوفاة أعطاه (سليم) كتاباً وهو كتاب سليم ابن قيس. انظر: البرقي: الرجال (ص ٣، ٤)، الطوسي: الفهرست (ص ١١١)، الأردبيلي: جامع الرواة (١/٣٧٤)، رجال الكشي (ص ١٦٧)، رجال الحلبي (ص ٨٢، ٨٣). ابن النديم (محمد بن إسحاق

أبو الفرج النديم): الفهرست (ص ٣٠٧)، دار المعرفة - بيروت (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م).

(٤) ابن النديم: الفهرست (ص ٣٠٧).

أول كتاب صنف في الإسلام، ولنا معه وقفات كثيرات؛ إذ يعد من أهم المراجع العقديّة بالنسبة لموقف الشيعة من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

قال محققه: « كتاب سليم بن قيس أول مصنف عقائدي حديثي تاريخي وصل إلينا من القرن الأول، تأليف التابعي الكبير سليم بن قيس الهلالي (٢ ق.هـ - ٧٦ هـ) من خواص أصحاب الإمام أمير المؤمنين والإمامين الحسين والإمام زين العابدين والإمام الباقر عليه السلام » (١).
ويدعي محققه أن كتاب سليم يتميز بأنه عرض على ستة من الأئمة المعصومين عليهم السلام فأقروه ووثقوا صاحبه! فقد عرض عليه كتابه على أمير المؤمنين والإمام الحسن والإمام الحسين والإمام زين العابدين عليهم السلام. كما عرضه أبان بن أبي عياش على الإمام زين العابدين والإمام الباقر عليهم السلام. ثم عرضه حماد بن عيسى - الناقل الرابع للكتاب - على الإمام الصادق عليه السلام أيضًا (٢).

ونقل المحقق عن علماء الشيعة ذكر مكانة هذا الكتاب؛ قال السيد هاشم البحراني (ت ١١٠٧ هـ): « وهو كتاب مشهور معتمد نقل عنه المصنفون في كتبهم ». وقال المجلسي (ت ١١١١ هـ): « كتاب سليم بن قيس الهلالي في غاية الاشتهار »، وقال المحدث القمي: « كتاب معروف بين المحدثين ». وقال العلامة الطهراني: « كتاب سليم هذا من الأصول الشهيرة عند الخاصة والعامة ». وقال السيد الأمين العاملي: « كتاب مشهور »، وقال العلامة الأميني: « كتاب سليم من الأصول المشهورة المتداولة في العصور القديمة » (٣).

وقال عبد الله شبر عنه « كتاب سليم بن قيس الهلالي، الذي رواه عنه أبان بن أبي عياش، وقرأه جميعه على سيدنا علي بن الحسين بحضور جماعة من أعيان أصحابه، منهم أبو الطفيل، فأقره عليه زين العابدين عليه السلام وقال: هذه أحاديثنا صحيحة » (٤).

ولكن وجدت في حنايا البحث عن كتب التفسير بالمأثور عند الشيعة، أن الشيخ سالم الصفار من كتّاب الشيعة يرى أن هذا الكتاب دس فيه ما ليس منه، فيقول في

(١) انظر عنوان الكتاب وتقديم محمد باقر الأنصاري الزنجاني لكتاب سليم بن قيس (ص ١)، وتاريخ الوفاة لسليم غير متفق عليه، فهناك من الشيعة من ذكر أنه توفي (٩٠ هـ)..

(٢) مقدمة محمد باقر الأنصاري الزنجاني لكتاب سليم بن قيس (ص ٢٤).

(٣) المرجع السابق (ص ٢٢).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٠٨).

معرض نقده لتفسير البرهان للبحراني: « وما يؤخذ عليه في تفسيره هذا أنه يعتمد كتباً لا اعتبار بها أمثال: التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري الذي هو من صنع أبي يعقوب يوسف بن محمد بن زياد وأبي الحسن علي بن محمد بن سيار الأستراباديين، وكذلك كتاب سليم بن قيس الهلالي المدسوس فيه بما لا يليق، سواء من الأعداء أو الأصدقاء، وغير ذلك من الكتب التي لا اعتبار فيها عندنا، فضلاً عن ضعف الإسناد أو الإرسال في أكثر الأحاديث التي ينقلها من هذه الكتب » (١).

وهذا ما جعلني أعرض عن مديح كثير من علماء الشيعة لسليم وكتابه، وأبحث في حقيقته، حتى وصلت إلى أن الشيخ المفيد قد أنكره وأنكر كتابه فقد قال راداً على أبي جعفر الصدوق:

« وأما ما تعلق به أبو جعفر عليه السلام من حديث سليم الذي رجع فيه إلى الكتاب المضاف إليه برواية أبان بن أبي عياش؛ فالمعنى فيه صحيح غير أن هذا الكتاب غير موثوق به، ولا يجوز العمل على أكثره وقد حصل فيه تخليط وتدليس » (٢)، ورأيت أن هناك من علماء الشيعة من ذهب هذا المذهب مؤكداً أن سليماً هذا لا يُعرف ولا يُذكر في خبر، وأن أسانيد هذا الكتاب مختلفة مضطربة (٣)، واتهموا في وضع الكتاب أبان ابن أبي عياش (٤).

وقال فيه ابن أبي داود الحلبي: « سليم بن قيس الهلالي ينسب إليه الكتاب المشهور، وهو موضوع... لم يرو عنه إلا ابن أبي عياش، وفي الكتاب مناكير مشتهرة، وما أظنه إلا موضوعاً » (٥).

وحدد بعض المعاصرين تاريخ وضعه فقال: إنه « موضوع في آخر الدولة الأموية لغرض صحيح » (٦)!. وفريق منهم عزّ عليهم - فيما يبدو - أن يفقدوا هذا الكتاب

(١) سالم الصفار: نقد منهج التفسير والمفسرين المقارن (ص ٣٧٧)، دار الهادي بيروت (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م).

(٢) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ١٢٦).

(٣) انظر: رجال الحلبي (ص ٨٣)، الخوانساري: روضات الجنات (٦٧/٤)، ابن داود: الرجال (ص ٤١٣، ٤١٤).

(٤) ابن داود الحلبي: الرجال (ص ٢٤٩)، المطبعة الحيدرية - النجف.

(٥) الرجال، ابن أبي داود الحلبي، المطبعة الحيدرية، النجف (ص ٢٤٩).

(٦) صاحب هذا الرأي هو أبو الحسن الشعراني في تعليقه على الكافي مع شرحه للمازندراني (٣٧٣/٢،

٣٧٤). وانظر: علي أكبر غفاري: دراسات في علم الدراية (ص ٢٣٢) الهامش.

جملة واحدة مع أنه أصل من أصولهم وعمدة لشييوخهم.. فقال هذا الفريق: « والوجه عندي الحكم بتعديل المشار إليه والتوقف في الفاسد من كتابه » (١).

مع أن هذا الفاسد ينقض ببيان الاثني عشرية من الأساس؛ وذلك في جعله « الأئمة ثلاثة عشر » يقول د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري، وهو الذي أسهب في تتبعه لهذا الكتاب وتاريخه مشكوراً: « وقد بحثت عن عيوب الكتاب في نظر الشيعة، والتي أشار إليها الفريق الأول في طبعتين من طبعات الكتاب (٢) فلم أجد لها ذكراً فيه، وهذا يدل على أنهم يغيرون في كتبهم ويزيدون وينقصون. ومع هذا فقد أصبح هذا الكتاب عمدة عند متأخري الشيعة كما قرره المجلسي في البحار والحر العاملي في الوسائل وغيرهما » (٣).

ويرجح د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري - بعد تنقيبه عن سليم في كتب التراجم عند أهل السنة - أن شخصية سليم بن قيس شخصية خيالية أو نكرة من النكرات التي لم يعرفها التاريخ (٤). فالله أعلم.

والذي يميل إليه الباحث أن شخصية سليم بن قيس هذا شخصية حقيقية، والذي يدل على ذلك كثرة رواية الكليني عنه في كتابه (الكافي) (٥). أما بالنسبة لصحة نسبة ذلك الكتاب الذي سمي باسمه (كتاب سليم بن قيس) إليه فهو أمر مختلف فيه بين كتاب الاثني عشرية، بين مؤيد لنسبة الكتاب بعجره وبجره إليه، وبين مثبت لبعض ما جاء فيه، منكر لما يخالف فيه العقيدة الاثني عشرية، وبين منكر لهذا الكتاب جملة وتفصيلاً. قال هاشم بن معروف الحسني: « سليم بن قيس بن سمعان، وثقه جماعة، وضعفه آخرون، وادعى جماعة من المحدثين أن الكتاب المعروف بكتاب سليم بن قيس من الموضوعات، وأطالوا الحديث حوله وحول كتابه، وجاء فيه أن الأئمة ثلاثة عشر إماماً، وأن محمد بن أبي بكر وعظ أباه عند الموت، مع أنه كان في حدود الستين » (٦).

(١) رجال الحلبي (ص ٨٣)، وسائل الشيعة (٢٠/٢١٠).

(٢) طبعة النجف الخيدرية، وطبعة الأعلمي - بيروت.

(٣) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٢٧٥).

(٤) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٢٧١، ٢٧٢) هامش.

(٥) انظر: على سبيل المثال: الكافي (٤٤/١ - ٤٦ - ٦٢ - ١٧١ - ٢٩٧ - ٥٢٢ - ٥٢٩)، (٢/٣٢٣ - ٣٩١).

(٦) هاشم معروف الحسني: دراسات في الحديث والمحدثين، (ص ١٩٧). (ط ١)، دار التعارف

للمطبوعات - بيروت - لبنان (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م).

كتاب نهج البلاغة:

لقد « حاز كتاب نهج البلاغة على شهرة واسعة »^(١)، وهو من الكتب المشهورة في مصادر الفكر الاثني عشري، « فهم يكثرون من الاستشهاد به في دراساتهم العقديّة قديماً وحديثاً »^(٢). « ويضم خطب أمير المؤمنين وكتبه وكلماته القصار »^(٣)، « ولا يزال هذا الكتاب متداولاً يتمتع بإجلال واحترام الشيعة، ذا قيمة أدبية كبيرة »^(٤).

وقد جمعه الشريف الرضي (المتوفى ٤٠٦ هـ)^(٥)، وانتهى من تأليفه عام (٤٠٠ هـ)^(٦).

ومن أهم الاستفهامات المطروحة حول نهج البلاغة - من داخل البيت الشيعي - :
 خلوّ الكتاب من الأسانيد الحديثية والتاريخية التي يمكن من خلالها تمحيص الأخبار؛
 حيث إن الشريف الرضي لم يتعرض لذكر الرجال الذين نقلوا تلك الخطب والرسائل؛
 مما يجعل اعتبارها في مهب الشك والتردد، حتى قيل: إن نهج البلاغة كتاب مرسل،
 ولا يمكن الاعتماد عليه فقهياً، ولكن هذا الرأي خالفه كثير من كتّاب الشيعة، كالأميني
 في كتابه الغدير^(٧).

وقد استقر في الفكر السني أن كتاب نهج البلاغة لم تثبت نسبته إلى علي عليه السلام فقد شك النقاد قديماً وحديثاً في صحة نسبة الكتاب إلى علي عليه السلام. قال الذهبي: « ومن طالع نهج البلاغة جزم بأنه مكذوب على أمير المؤمنين علي عليه السلام »، ثم بيّن علامات ذلك^(٨).
 والنقد الداخلي لنصوص الكتاب يثبت أنه أُلّف في عهد متأخر؛ ففيه بعض الكلمات التي لم يكن يتداولها العرب في عهد علي عليه السلام، ومنها في وصف القرآن الكريم: (كتاب ربكم مبيّناً حاله وحرامه وفرائضه وفضائله، وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه، وخاصه وعامه،

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٦٧).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٢٣ - ٢٨٥، ٢٨٦).

(٣) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٦٧).

(٤) أبو الحسن الندوي: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية (ص ٣٠).

(٥) وقيل: إن الذي ألّفه الشريف المرتضى. انظر: ميزان الاعتدال (١٢٤/٣)، ترجمة الشريف المرتضى.

(٦) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٦٧).

(٧) انظر: مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٧٩)، وقارن الأميني: الغدير (١٩٣/٤ - ١٩٨).

(٨) انظر: ميزان الاعتدال (١٢٤/٣)، ترجمة الشريف المرتضى، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة

الإمامية الاثني عشرية (١٦١/١).

وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسّرًا مجمله ومبينًا غوامضه»^(١).
ومن المعروف أن (الخاص والعام، والمحكم والمتشابه والمفسر والمجمل) من مصطلحات
علم الأصول الذي وضع في القرن الهجري الثاني^(٢).

وقد استحسّن الشيخ أبو الحسن الندوي قول الأستاذ حسن الزيات: «ومن الناس من
يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من صناعة الشريف؛ لما فيه من التعرض للصحابة بالأذى
والهجر، ولأن فيه من فلسفة الأخلاق وقواعد الاجتماع ودقة الوصف وتكلف الصنعة
ما ليس في إمكان ذلك العصر، ولا في طبعه، والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب
إلى الإمام، وفيه الصحيح والمشوب»^(٣).

وإذا عرفنا أن الشريف الرضي ارتضع فكر المعتزلة، فلن نستغرب صدور تلك العبارات
الكلامية والفلسفية عنه في (نهج البلاغة)، كاستخدامه كلمة الأزل بمعنى القدم كقوله:
(لم يخلق الأشياء من أصول أزلية)^(٤)، «وقد صرح أئمة اللغة أن قولهم أزلي وأزلية
مصنوع وليس من كلام العرب»^(٥)، ومثل كلمة (الغيرية والأبعاض) في قوله من
خطبة التوحيد: «ولا يوصف بشيء من الأجزاء، ولا بالغيرية والأبعاض»^(٦). وفيه من
الآراء ما عرف به المعتزلة ومتكلمو الاثني عشرية في موقفهم من القرآن بعد قرن من
الزمن: (وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائناً، ولو كان
قدماً لكان إلهاً ثانياً)^(٧).

(١) مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المسمى: (نهج
البلاغة) (٢٥/١)، دار المعرفة - بيروت، تحقيق الشيخ محمد عبده.

(٢) تقديم الأستاذ حسن السماحي لكتاب دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي
(ص ١٤٤) دار القلم - دمشق (١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م).

(٣) تاريخ الأدب العربي للزيات (٢٣٠/٢) ط القاهرة.

(٤) مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المسمى: (نهج
البلاغة) (٦٦/٢).

(٥) تقديم الأستاذ حسن السماحي لكتاب دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، للحافظ أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي
(ص ١٤٥) دار القلم - دمشق (١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م).

(٦) مجموع ما اختاره الشريف الرضي من كلام سيدنا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب المسمى: نهج البلاغة
(١٢٢/٢).

(٧) نهج البلاغة (١٢٣/٢).

أما أخلاقياً فإن فيه من الألفاظ ما لا يتناسب مع ما عرف به علي عليه السلام من نبل ودمائة خلق، ففي النهج قوله لأحدهم: « عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين، حائك ابن حائك، ومنافق ابن كافر » ^(١)، وقوله لآخر: « يا ابن اللعين الأبتري، والشجرة التي لا أصل لها ولا فرع » ^(٢).. إلى غير ذلك، مما نرّته أمير المؤمنين عنه، وقد تربّى في حجر خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وآله القائل: « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا البذيء ولا الفاحش » ^(٣). ولا يخلو الكتاب من كثير من الألفاظ التي نوقن بصدورها عن سيدنا علي عليه السلام، وخصوصاً كلماته الخلقية البليغة؛ فقد أجمعت الفرق على فصاحة أمير المؤمنين علي، فاهتموا بجمع خطبه وكلماته؛ ولذلك يقر الشيعة أنهم لم ينفردوا بذكر خطب علي عليه السلام، فقد جمع الجاحظ المعتزلي مئة كلمة من كلمات الإمام علي تحت عنوان: (مطلوب كل طالب من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب)، وكذلك ألف أبو عبد الله القضاعي من أهل السنة جمع كتاباً سماه: (دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم) جمع فيه كثيراً من كلمات علي عليه السلام في تسعة أبواب ^(٤). وهناك قواسم مشتركة كثيرة من الكلمات والجمل البليغة بين كتاب (نهج البلاغة) و (دستور معالم الحكم). وكذلك هناك بعض القواسم المشتركة بين بعض النصوص الموجودة في نهج البلاغة والموجودة في كتاب (أصول الكافي) للكليني، وهو متقدم بجيل كامل تاريخياً عن الشريف الرضي.

قال الشيخ أبو الحسن الندوي رحمته الله: « أما كتاب نهج البلاغة الذي جمعه الشريف الرضي.. فهو أكبر مجموع لكلام أمير المؤمنين خطباً وكتباً ورسائل وحكمًا وأمثالاً... ولكن الناقد البصير الذي تذوق أسلوب ذلك العصر ولغته وعرف كذلك ما طبع عليه سيدنا [علي] من المواهب الاستثنائية، وما مارسه من طبائع الناس وحلو الحياة ومرها، يستطيع أن يميز بين ما فاض من لسانه أو قلمه، وبين ما تأخر زمانه ونسب إليه، ومنه ما استشهدنا به ونقلناه في كتابنا، وقد جاء الشيء الكثير في مؤلفات أدبية قديمة كالكمال للمبرد والعقد الفريد لابن عبد ربه والبيان والتبيين للجاحظ.

(١ ، ٢) نهج البلاغة (١ / ٥٦)، (٢ / ١٨) .

(٣) أخرجه ابن حبان: صحيح ابن حبان (١ / ٤٢١) رقم (١٩١)، مؤسسة الرسالة (ط ٢)، (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م) تحقيق شعيب الأرنؤوط، وأخرجه أحمد في مسند عبد الله بن مسعود عليه السلام (١ / ٤٥٥) .

(٤) مهدي المهرزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات الإسلامية (ط ١)، (١٤٢٢) قم (ص ١٧٧، ١٧٨) .

وقد اعتنني بشرح نهج البلاغة اعتناء كبيراً، وشرّاحه في القديم والحديث أربوا على الخمسين، منهم أبو الحسين البيهقي والإمام فخر الدين الرازي، وشرحه عز الدين ابن أبي الحديد المدائني، ويعدّ شرحه أفضل الشروح وأطولها، نشر في عشرين جزءاً في دار الفكر، ومن المتأخرين الشيخ محمد عبده ^(١).

المطلب الثاني

ملاحظات على كتب الحديث الشيعية

حول العناية والضبط في كتب الحديث الشيعية:

لقد بقي الكافي من القرن الرابع إلى القرن العاشر دون شروح، وقد قال محقق أصول الكافي: « قررت - وحفاظاً على النص شكلاً ومضموناً - أن أبقى ما وجدت له وجهاً ولو بعيداً يمكن أن يحمل عليه من تلك القواعد، وأعملت قلم التغيير فيما يبدو شاذاً بل غلطاً واضحاً لا يمكن توجيهه، وهذا ما أغفل في جميع الطبقات التي خرجت حتى الآن من هذا الكتاب الجليل ^(٢). وهذا في القرن الخامس عشر الهجري، في حين اشتهرت عناية علماء أهل السنة منذ العصور الأولى بكتب الحديث حفظاً وضبطاً وشرحاً لغريب الألفاظ، وغير ذلك ^(٣).

وربما ساهم في ضعف الضبط في روايات الأئمة ما ورد عنهم باتباع الحديث دون سؤال عن مصدره؛ فعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « من سمع شيئاً من الثواب على شيء فصنعه كان له وإن لم يكن على ما بلغه ^(٤). في حين لم يجمع أهل السنة على العمل

(١) الشيخ أبو الحسن الندوي: المرتضى (ص ٢٠١) هامش، دار القلم - دمشق (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، (٢) ، وهو كتاب قيم في بيان فضل سيدنا علي عليه السلام وعلاقته بصحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.
(٢) محمد جعفر شمس الدين: مقدمة تحقيق شرح أصول الكافي، دار التعارف للمطبوعات - بيروت (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م)، ص (ج).

(٣) وانظر على سبيل المثال: صحيح البخاري، والعناية بنسخه، وروايات الحفاظ عن البخاري له، مع تقدمه في الزمن عن كتب الحديث عند الشيعة؛ فقد توفي البخاري رحمته الله (٢٥٦هـ). ناهيك عن وجود حفاظ له ولغيره من كتب السنن في القديم والحديث.

(٤) أصول الكافي (٩٣/٢) كتاب الإيمان والكفر باب من بلغه ثواب من الله على عمل، والحديث حسن كالصحيح على حد قول المحقق.

بالحديث الضعيف، ومن ارتضى ذلك منهم وضع لذلك شروطاً (١).

وقد جاء في روايات الأئمة عدة نصائح من أجل إيجاد منهج حديثي رصين:

أ - كاستحباب الإسناد والكتابة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: « إذا حدثتم بحديث فأسندوه إلى الذي حدّثكم؛ فإن كان حقاً فلكم، وإن كان كذباً فعليه » (٢).

وعن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « اكتبوا فإنكم لا تحفظون حتى تكتبوا » (٣).

ب - وكراهة التدليس وقطع سند الحديث: وقال أبو عبد الله عليه السلام: « إياكم والكذب

المفترع. قيل له: وما الكذب المفترع؟ قال: أن يحدثك الرجل بالحديث فتركه وترويه عن الذي حدّثك عنه » (٤).

ج - رواية الحديث بلفظه عزيمة، مع جواز رواية الحديث بالمعنى بشرط عدم تغيير

المعاني: عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله جلّ ثناؤه: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ [الزمر: ١٨] قال: « هو الرجل يسمع الحديث فيحدّث به كما سمعه لا يزيد فيه ولا ينقص منه ».

وعن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « أسمع الحديث منك فأزيد

وأنقص، قال: إن كنت تريد معانيه فلا بأس ».

وعن داود بن فرقد قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « إني أسمع الكلام منك فأريد أن

أرويه كما سمعته منك فلا يجيء. قال: فتعمّد ذلك؟ قلت: لا، فقال: تريد المعاني؟ قلت: نعم. قال: فلا بأس » (٥).

د - جواز الرواية من الكتب (الوجادة): عن محمد بن الحسن بن أبي خالد شينولة

قال: قلت لأبي جعفر الثاني عليه السلام: « جعلت فداك! إن مشايخنا رووا عن أبي جعفر

(١) وهي: ألا يكون الضعف فيه شديداً بوجود رايٍ متهم بالكذب، وعدم الاعتقاد بصحته عند العمل به، وإنما

العمل به من باب الاحتياط، وأن يندرج تحت أصل شرعي عام.

(٢) أصول الكافي (١/١٠٤) كتاب فضل العلم باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق نفسه. والمفترع هنا: من الفرع بمعنى العلو فكأن هذا يريد أن يجعل حديثه مفترعاً أي

مرتفعاً فيسنده إلى الأعلى بحذف الوسطة ليعلو السند. انظر الوافي (١/٥٥). ويقترّب هذا من مصطلح

التدليس عند علماء مصطلح الحديث السني.

(٥) أصول الكافي (١/١٠٣) كتاب فضل العلم، باب رواية الكتب والحديث، وفضل الكتابة والتمسك بالكتب.

وأبي عبد الله عليه السلام وكانت التقيّة شديدةً، فكتبوا كتبهم ولم ترو عنهم، فلما ماتوا صارت الكتب إلينا؟ فقال: حدّثوا بها فإنّها حقٌّ « (١).

وسائل الترجيح بين الروايات المتعارضة:

لا تخلو روايات الشيعة من روايات متعارضة أو متناقضة، مثل تناقض رواية تدل على وجوب إظهار العلوم مع رواية أخرى تميز الكتمان للعلم:

عن محمّد بن جمهور العمّي يرفعه قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا ظهرت البدع في أمّتي فيلظهر العالم علمه، فمن لم يفعل فعليه لعنة الله ». «

وقد خالف هذه الرواية رواية تقول: عن عبد الله بن سليمان قال: « سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول، وعنده رجلٌ من أهل البصرة يقال له: عثمان الأعمى وهو يقول: إنّ الحسن البصريّ يزعم أنّ الذين يكتمون العلم يؤذي ربح بطونهم أهل النار، فقال أبو جعفر عليه السلام: فهلك إذن مؤمن آل فرعون، ما زال العلم مكتومًا منذ بعث الله نوحًا عليه السلام فليذهب الحسن يمينًا وشمالًا فوالله ما يوجد العلم إلا هاهنا « (٢). فهذه الرواية تتناقض مع الرواية السابقة الآمرة بكشف وإظهار العلوم.

ولأجل هذا احتاج الاثنا عشرية لوسائل يرجحون بها بين الروايات المتعارضة:

ومن أهم وسائل الترجيح بين الروايات:

أ - عرضها على الكتاب الكريم، فلا يصح أن يتضادّ الوحي الكريم بين الكتاب والسنة، وهو أمر متفق عليه بين أهل القبلة. وقد جاءت الروايات مصرحة بوجوب طرح ما خالف القرآن الكريم من الروايات:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: « إنّ على كلّ حقٍّ حقيقةً، وعلى كلّ صوابٍ نورًا؛ فما وافق كتاب الله فخذوه، وما خالف كتاب الله فدعوه ». «

وعن أيّوب بن الحرّ قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « كلّ شيءٍ مردودٌ إلى الكتاب والسنة، وكلّ حديثٍ لا يوافق كتاب الله فهو زخرفٌ ». «

وعن هشام بن الحكم وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام قال: خطب النبي ﷺ بمنى

(١) أصول الكافي (١٠٦/١) كتاب فضل العلم باب رواية الكتب والحديث وفضل الكتابة والتمسك بالكتب.

(٢) أصول الكافي (١٠٦/١) كتاب فضل العلم باب النوادر.

فقال: « أيها الناس ما جاءكم عني يوافق كتاب الله فأنا قلته، وما جاءكم يخالف كتاب الله فلم أقله ».

ب - ويعد ما أجمع عليه الناس من وسائل الترجيح، لقول جعفر الصادق: « خذوا بالمجمع عليه، فإن المجمع عليه لا ريب فيه »^(١). ولكن هذا المرجح يفتح المجال للنقاش: ما هو المجمع عليه، هل هو ما رأته جماعة المسلمين؟ أم هو ضرورات المذهب التي أجمع عليها الاثنا عشرية؟.

ج - ومن المرجحات الغريبة والعجيبة: (مخالفة العامة) أي: أهل السنة، وذلك عند عدم وجود مرجح آخر؛ فعن الإمام جعفر الصادق: دعوا ما وافق القوم فإن الرشد في خلافهم »^(٢). ويعلمون ذلك بأن السابقين الأولين حرّفوا الفتاوى والأحكام عكس مراد الله تعالى، فإذا خالفوا العامة - وهم أتباع أولئك السابقين - وصلوا إلى الصواب. وهذا ليس في الروايات المتعارضة فقط بل في المعاملات وغيرها.

ولا يعد أمر حكام المسلمين قاطعاً للخلاف في المسائل؛ لأن هؤلاء الحكام لم يعينوا من قبل الإمام الغائب، فحكوماتهم باطلة، وأي تحاكم إليهم إنما هو تحاكم إلى الطواغيت، فعن عمر بن حنظلة قال: « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة أيحل ذلك؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل فإيما تحاكم إلى الطاغوت... قال: ينظر فما وافق حكمه حكم الكتاب والسنة وخالف العامة فيؤخذ به ويترك ما خالف حكمه حكم الكتاب والسنة ووافق العامة. قلت: جعلت فداك! أرايت إن كان الفقيهان عرفا حكمه من الكتاب والسنة ووجدنا أحد الخبرين موافقاً للعامة والآخر مخالفاً لهم بأي الخبرين يؤخذ؟ قال: ما خالف العامة ففيه الرّشاد. فقلت: جعلت فداك، فإن وافقهما الخبران جميعاً؟ قال: ينظر إلى ما هم إليه أميل حكامهم وقضاتهم فيترك ويؤخذ بالآخر »^(٣).

- ويختصر المفيد الحديث عن طرق الترجيح بين الروايات ومعايير قبولها أو ردها فيقول:

- « فإذا وجدنا أحد الحديثين متفقاً على العمل به دون الآخر علمنا أن الذي اتفق

(١) الكليني: أصول الكافي (٤٩/١). مقدمة الكليني.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) الكليني: أصول الكافي (١٢١/١، ١٢٢)، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث.

على العمل به هو الحق في ظاهره وباطنه، وأن الآخر غير معمول به، إما للقول فيه على وجه التقية أو لوقوع الكذب فيه .»

- « وإذا وجدنا حديثاً يرويهِ لرواية عشرة من أصحاب الأئمة يخالفه حديث آخر في لفظه ومعناه لا يصح الجمع بينهما على حال رواه اثنان أو ثلاثة قضينا بما رواه العشرة ونحوهم على الحديث الذي رواه الاثنان أو الثلاثة، وحملنا ما رواه القليل على وجه التقية أو توهم ناقله .»

- « ومتى وجدنا حديثاً بما يخالفه الكتاب ولا يصح وفاقه على حال أطرحناه، لقضاء الكتاب بذلك وإجماع الأئمة عليه .»

- « وكذلك إن وجدنا حديثاً يخالف أحكام العقول طرحناه لقضية العقول بفساده، ثم الحكم على أنه صحيح أخرج مخرج التقية، أو باطل أضيف إليهم » (١).

ومن خلال تأمل وسائل الترجيح التي رواها الكليني في الكافي عن الأئمة، والتي فقدتها المفيد (ت ٤١٣) في تصحيح اعتقادات الصدوق: يتأكد بكل وضوح أن علوم الحديث، وهي أهم الأدوات التي استخدمها محدثو أهل السنة لتمحيص الروايات والترجيح بينها، بالتفريق بين الصحيح والضعيف - لم يكن لها وجود عند الشيعة حتى القرن الخامس الهجري، ولم تستخدم في تمحيص الروايات المختلفة؛ ولذلك اضطروا إلى تلك القرائن الخارجية لرد هذا الحديث أو قبول ذلك الحديث، ولو وجدت معايير تقسيم الحديث إلى صحيح وغير صحيح عبر دراسة الإسناد لما اضطروا الاثنا عشرية إلى تلك القرائن الخارجية للترجيح بين الروايات.

ترك أحاديث صحيحة لأنها تخالف ضروريات المذهب أو ادعاء التقية فيها:

هنالك سؤال يجب الجواب عنه: هل المذهب قام على الروايات؟ أم أن الروايات

قامت على المذهب؟

فهناك أحاديث صحيحة عند الشيعة ومع ذلك ذهبوا إلى حرف معانيتها، وقصرها على بعض الأفراد مع أنها عامة، وعلى سبيل المثال ما رواه معمر بن خلاد قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما وتصدق

عنهما، وإن كانا لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله ﷺ قال: « إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوب » (١).

ومع صحة هذا الحديث إلا أن محقق أصول الكافي يقول مبيّنًا من هو الوالد الذي يستحق الدعاء: « سواء على الكفر أو على مذهب المخالفين، ولكن لما كان هذا مخالفًا لما عليه أكثر علماء الإمامية من عدم جواز الدعاء للكافر ومنه الناصب وعدم انتفاعه بالطاعات لا بد من حمل الحديث على المستضعف » (٢).

فأنت تلاحظ كيف تدخلت ضروريات المذهب لتخصص هذا الحديث، وتقصره على ضعيف الإدراك من الناس، مع أن لفظه عام.

كما أن هناك أمثلة كثيرة لروايات صحيحة، تركها الاثنا عشرية، وقالوا: إنها خرجت مخرج التقية، كما ظهر وسيظهر في ثنايا البحث.

اعتبار الحديث وإن كان في روايته كذاب ما دام داعيًا للعقيدة الاثني عشرية:

ولنضرب لهذه الدعوى دليلين وردا في كتاب الكافي:

عن أحمد بن إدريس عن عمران بن موسى عن موسى بن جعفر البغدادي عن علي بن أسباط عن محمد بن الفضيل عن أبي حمزة الثمالي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « سمعته يقول: ألواح موسى عليه السلام عندنا وعصا موسى عندنا، ونحن ورثة النبيين » (٣).

وعن محمد بن يحيى عن محمد بن الحسين عن موسى بن سعدان عن أبي الحسن الأسدي عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال: « خرج أمير المؤمنين عليه السلام ذات ليلة بعد عتمة وهو يقول: همهمة همهمة، وليلة مظلمة، خرج عليكم الإمام عليه قميص آدم وفي يده خاتم سليمان وعصا موسى عليه السلام » (٤).

وهذان الحديثان ضعيفان عند الشيعة أنفسهم (٥)، ولكن قال أحد علمائهم معلقًا:

(١) أصول الكافي (١٦٦/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب البر بالوالدين، قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (١٦٦٥/٢) الهامش حاشية رقم (٣).

(٣) الكليني: أصول الكافي: كتاب الحجّة، باب ما عند الأئمة من آيات الأنبياء عليهم السلام (٢٨٧/١).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) وإن ورد بمعناهما أحاديث صحيحة عندهم. انظر: الكليني: كتاب الحجّة: باب أنّ الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء الذين من قبلهم فقد حكموا بصحة أحاديث منها حديث: محمد بن يحيى عن محمد بن عبد الجبار عن محمد بن إسماعيل عن علي بن التعمان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام =

« فكونه خبراً ضعيفاً لا يدل على عدم وقوعه، وإن كان بعض رواته معروفاً بالكذب؛ لأن الكذب قد يصدق، ولهذا أمر الله ﷺ عباده المؤمنين أن يتبينوا في أخبار الفاسقين، حيث قال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِمِجَالَتِهِمْ فَنُصِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦] فأمر بالتبين في أخبارهم ولم يأمر بردها « (١).

وكذلك فعلوا بحديث « العلماء ورثة الأنبياء »، لما ورد عندهم بسند ضعيف - بخلاف أهل السنة؛ إذ ثبت الحديث عندهم - قال محقق الكافي: « فقد ورد عن أبي البخترى، قال محقق أصول الكافي: « هنالك اثنان يكتبان بأبي البخترى أحدهما وهب بن وهب وصف بالكذاب، بل أكذب البرية كما نقل الكشي، والثاني هو سعد ابن عمران، وقد اختار المازندراني أن الأول هو الذي ورد بكتيبته في سند هذا الحديث، ومع ذلك ذهب إلى اعتباره وإن كان أحد رواته كذوباً، (لأن الكذب قد يصدق) « (٢). ولو مشينا وراء هذه الدعوى الباطلة لدمرنا جهود علماء الجرح والتعديل الذين ميزوا بين الثقات والضعفاء.

ظاهرة الوضع في كتب الحديث الاثني عشري:

يقول محمد جواد مغنية - بأسلوبه الإعلامي المعروف - : « ولا نعرف فرقة من المسلمين تشددت في تحريم الكذب عامة وعلى الله والرسول خاصة كالإمامية؛ فإنهم حكموا بخروج مستحله من الإسلام... واختصوا دون سائر الفرق بالقول: إنَّ تعمّد الكذب على الله ورسوله من المفطرات، وإنَّ على هذا الكاذب أن يكفر بالجمع بين عتق رقبة وصيام شهرين متتابعين وإطعام ستين مسكيناً » (٣).

وهذا الكلام من الشيخ مغنية جميل، وجميل جداً. ولكن المتأمل في كتب الحديث الاثني عشري لا بد أن تسترعي اهتمامه ظاهرة الوضع في الحديث، حتى إن كثرة الوضع في كتب الحديث عند الاثني عشرية ألححت للباحثين دراسة هذه الظاهرة، كما

= قال: قال لي: « يا أبا محمد إنَّ الله ﷻ لم يعط الأنبياء شيئاً إلا وقد أعطاه محمداً ﷺ قال: وقد أعطى محمداً جميع ما أعطى الأنبياء، وعندنا الصحف التي قال الله ﷻ: ﴿ صُفِّىٰ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾ [الأعلى: ١٩]، قلت: جعلت فداك، هي الألواح؟ قال: نعم. »

(١) الشيخ حسن عبد الله: وقفة مع الجزائري (ص ٣٢).

(٢) أصول الكافي (٨٠/١) حاشية (١)، وانظر المازندراني (٢٩/٢)، والملاحظ أن المجلسي ضعف

الحديث في مرآة العقول (١٠٣/١).

(٣) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٨٥، ٨٦).

فعل الدكتور خالد علي عباس القط؛ حيث اختار لأطروحة الدكتوراه عنوان (أثر الأحاديث الموضوعية في نشأة وصياغة عقائد الشيعة الإمامية) (١).

وهي ظاهرة قديمة مرتبطة بالغلو والغلاة، « وليس في الطوائف المنتسبة إلى القبلة أعظم افتراء للكذب على الله وتكذيباً بالحق من المنتسبين إلى التشيع، ولهذا لا يوجد الغلو في طائفة أكثر مما يوجد فيهم، واتفق أهل العلم على أن الكذب ليس في طائفة من الطوائف المنتسبين إلى القبلة أكثر منه فيهم » (٢). « لا سيما على جعفر بن محمد الصادق، فإنه ما كذب على أحد ما كذب عليه، حتى نسبوا إليه كتاب (الجفر) و (البطاقة) و (الهفت) و (اختلاج الأعضاء) و (جدول الهلال)، و (أحكام الرعود والبروق)، و (منافع سور القرآن) و (قراءة القرآن في المنام)... فهي إنما صُنفت بعد موت جعفر بن محمد بنحو مائتي سنة؛ فإن جعفر بن محمد توفي سنة ثمان وأربعين ومائة، وهذه وضعت في أثناء المائة الرابعة لما ظهرت الدولة العبيدية بمصر، وبنوا القاهرة، فصنفت على مذهب أولئك الإسماعيلية، كما يدل على ذلك ما فيها، وقد ذكروا فيها ما جرى على المسلمين من استيلاء النصارى على سواحل الشام، وهذا إنما كان بعد المائة الثالثة، وقد عرف الذين صنّفوها مثل زيد بن رفاعة وأبي سليمان بن معشر البستي المعروف بالمقدس » (٣).

لقد أحس هؤلاء الغلاة الموضوعون « أن مجرد صوغ عقائدهم ونظرياتهم في صورة تقريرية وصفية لا يغني فتياً ما لم تؤيد هذه العقائد والنظريات بأسانيد قوية تضيف عليها صفات الصحة والقبول؛ فاحتالوا لذلك بأن لاذوا بحمى آل البيت ينتحلون الأخبار عليهم وينطقون بالروايات والآثار التي تعضد عقائدهم ونظرياتهم » (٤).

(١) رسالة دكتوراه - كلية البنات، قسم الدراسات الفلسفية (ص ٣٣) إشراف الدكتورة كوكب محمد عامر (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/ ٣٤).

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/ ٤٦٤ - ٤٦٦).

(٤) انظر: ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ١٤٥).

ويذكر الإسفراييني أن الذي دلّ الشيعة على هذه الطريقة المرذولة هو الجاحظ، حيث طلبوا إليه أن يصنف لهم كتاباً في ترسيخ عقائدهم، فقال: لست أدري لكم شبهة حتى أرتبها وأتصّرف فيها. فقالوا له: إذن دلنا على شيء نتمسك به. فقال: إذا أردتم أن تقولوا شيئاً تزعمونه فقولوا: إنه كلام جعفر بن محمد الصادق، فتمسكوا بهذه السوأة التي دلّهم عليها. (انظر: الإسفراييني (طاهر بن محمد): التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين (ص ٤٣). عالم الكتب - بيروت الطبعة الأولى (١٩٨٣م)، تحقيق: كمال يوسف =

ولم يكتف الوضاعون بالكذب على ألسنة الأئمة؛ بل اخترعوا أسانيد كاملة لنصرة آرائهم، وسموا بعضهم بأسماء بعض العلماء الأثبات الثقات، ووضعوا الكتب بأسماء مشهورة ليلبسوا على الناس، ونسبوا بعض الكتب الدخيلة إلى بعض العلماء المشهورين؛ فقد كان منهم من سمي بالطبري، و « كان منهم من سمي بالسدي، ومنهم من سمي بآبن قتيبة، فكانوا يروون عن السدي وآبن قتيبة... بل وضعوا الكتب وحشوها بتعاليمهم ونسبوا لأئمة أهل السنة ككتاب (سر العارفين) الذي نسبوه للغزالي » (١).

ومن العلماء من ربط ظاهرة الوضع والكذب في الروايات بعقيدة التقية، فإذا « جؤزوا ارتكاب المعاصي حتى الكفر تقيّةً عند معرفتهم غضب من عرف بمذهبهم وسخطه عليهم... فلا أمان أن يكذبوا على رسول الله وآله وصحبه » (٢).

والحقيقة أن مسألة الإمامة كان لها دورها العظيم في وضع الحديث النبوي عند جميع الطوائف، وليس الاثني عشرية وحدهم، بل صار سلاحاً يستخدمه المتعصبون الجاهلون من كل الفرق. وهذا ما حدا بالأستاذ محسن عبد الناظر ليدرس هذه الظاهرة في كتابه (مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية) (٣). وكانت تلك الظاهرة قد رصدت من قبل علماء الحديث في القرون المتقدمة؛ فكتاب (الموضوعات) لابن الجوزي و (تذكرة الموضوعات) لمحمد طاهر بن علي الفتني، وغيرهما من الكتب المتخصصة في رصد الأحاديث الموضوعة زاخرة بالأحاديث الموضوعة في مسألة الإمامة عند كل الفرق، ومن يطالع هذه الكتب ير أحاديث موضوعة في فضل علي ﷺ كما يجد أحاديث موضوعة في فضل أبي بكر ﷺ أيضاً كحديث: « إن الله يكره في السماء أن يخطأ أبو بكر في الأرض » (٤).

كما أن موقف أهل السنة من الوضع والوضاعين أكثر تشدداً ومحاربة نظرياً وعملياً، فقد سُئل الإمام أحمد بن حنبل عن محدث كذب في حديث واحد ثم تاب ورجع؟

= (الحوت). والله أعلم بصحة هذا الخبر عن الجاحظ، فأنا أراه أعلى من أن ينزل إلى هذا المستوى، اللهم إلا أن

يريد اقتضاح الكذابين بين الناس!..

(١) فجر الإسلام (ص ٤٣٦).

(٢) عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري: فوائح الرحموت شرح مسلم الثبوت (١٤٠/٢، ١٤١)،

(١٣٢٤هـ)، دار الفكر دمشق.

(٣) مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية. طبعة الدار العربية للكتاب.

(٤) الفتني: تذكرة الموضوعات (ص ٩٣).

« قال: توبته فيما بينه وبين الله تعالى، ولا يكتب حديثه أبداً »^(١)، بل إن بعض المحدثين من أهل السنة حكموا بردة الكذاب على رسول الله، وعدم قبول توبته^(٢).

اعتراف كتاب الشيعة بكثرة الوضع:

وتقرّر كتب الحديث الاثني عشرية بوجود أشخاص حول الأئمة كانوا يكذبون ويضعون الحديث، وهم الغلاة:

عن هشام بن الحكم أنه سمع أبا عبد الله عليه السلام يقول: لا تقبلوا علينا حديثاً إلا ما وافق القرآن والسنة أو تجدون معه شاهداً من أحاديثنا المتقدمة؛ فإن المغيرة بن سعيد لعنه الله دس في كتب أصحاب أبي أحاديث لم يحدث بها أبي، فاتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف قول ربنا تعالى وسنة نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، فإننا إذا حدثنا قلنا: قال الله تعالى، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

وقال يونس: وافيت العراق... ووجدت أصحاب أبي عبد الله عليه السلام متوافرين، فسمعت منهم وأخذت كتبهم فعرضتها بعد علي أبي الحسن الرضا عليه السلام فأكثر منها أحاديث كثيرة أن تكون من أحاديث أبي عبد الله عليه السلام، وقال لي: « إن أبا الخطاب كذب علي أبي عبد الله عليه السلام، لعن الله أبا الخطاب، وكذلك أصحاب أبي الخطاب يدسون هذه الأحاديث إلى يومنا هذا في كتب أصحاب أبي عبد الله عليه السلام، فلا تقبلوا علينا خلاف القرآن؛ فإننا إن تحدثنا حدثنا بموافقة القرآن وموافقة السنة، إنا عن الله وعن رسوله نحدث، ولا نقول: قال فلان وفلان فيتناقض كلامنا، إن كلام آخرنا مثل كلام أولنا، وكلام أولنا مصداق لكلام آخرنا، وإذا أتاكم من يحدثكم بخلاف ذلك فردوه عليه وقولوا: أنت أعلم وما جئت به، فإن مع كل قول منا حقيقة وعليه نور، فما لا حقيقة معه ولا نور عليه فذلك قول الشيطان »^(٣).

ويقترّ المنصفون من كتاب الشيعة بوجود الوضع في الروايات عن الأئمة، ولبعضهم

(١) الخطيب البغدادي (أحمد بن علي بن ثابت أبو بكر): الكفاية في علم الرواية (ص ١١٧)، المكتبة العلمية - المدينة المنورة، تحقيق: أبو عبد الله السورقي، إبراهيم حمدي المدني.

(٢) انظر: ا.د. مصطفى البغا: بحوث في علوم الحديث (ص ٨٤)، كتاب كلية الشريعة - جامعة دمشق، للسنّة الأولى (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م).

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (٢/٢٥٠)، مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية المصححة (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، وعند الطوسي: اختيار معرفة الرجال (وهو تهذيب رجال الكشي): (٢/٤٩١)، وفيه ذكر المغيرة فقط دون أبي الخطاب، ولكن ثبت فيه لعن أبي الخطاب وأبناؤه (٢/٥٨٤)، مؤسسة آل البيت، قم.

محاولات جادة لبيان الموضوعات منها، وإن كانت هذه الجهود تقبل على مضض، أو لا تقبل أحياناً وخصوصاً من الأخباريين، يقول مهدي المهريزي: « لا شك أن في ثنايا الكتب الحديثية روايات موضوعة، والاعتقاد بصحة الروايات قاطبة أمر لا يقبله أحد، وحتى الأخباريون فإن مدعاهم يقتصر على صحة روايات الكتب الأربعة، وفرز الروايات الموضوعة عند الشيعة تم في هذا الدور على يد العلامة الشوشتري في كتابه (الأخبار الدخيلة) المنشور في أربعة أجزاء، هذا العمل، وإن أثار حفيظة بعض الشخصيات الشيعية، لكنه على أية حال إنجاز مبارك »^(١).

وقال هاشم معروف الحسني في كتابه (الموضوعات في الآثار والأخبار): « كما وضع قصاص الشيعة مع ما وضعه أعداء الأئمة عددًا كبيرًا من هذا النوع للأئمة الهداة ولبعض الصلحاء الأتقياء... وبعد التتبع في الأحاديث المنتشرة في مجاميع الحديث كالكافي والوافي وغيرهما - نجد أن الغلاة والحاقدين على الأئمة الهداة لم يتركوا بابًا من الأبواب إلا ودخلوا منه لإفساد أحاديث الأئمة والإساءة إلى سمعتهم »^(٢).

ومن العجيب استمرار الكذب حتى إن زين الدين العاملي يفترى على الإمام مالك المحذّر من كذب الرافضة، فيقول: « نقل مالك بن أنس أخبارًا جمّة في فضائل علي، وكان يفضلها على أولي العزم من الأنبياء فرمي بالغلو لذلك »^(٣). فأين نجد مثل هذا الافتراء عند الإمام مالك؟ وأين ذكر هذا القول الذي تهتز له السماوات؟.

الوضع في روايات التاريخ:

عرفنا قيمة التاريخ في عقائد الشيعة، فهم يعتمدون على التاريخ ورواياته لتأجيح العاطفة الداعمة للمذهب، وخصوصاً أحداث الفتن العظيمة التي مرت بها الأمة كحروب علي عليه السلام وفاجعة كربلاء، ويعتمد الشيعة في أخبار الفتنة على راوٍ شيعي هو لوط بن يحيى أبو مخنف، ويعتمد السنة في هذه الأخبار على راوٍ ضعيف متروك هو سيف بن عمر.

ويكثر الشيعة الاعتراض على روايات سيف بن عمر، ويجعلونه مختلفًا لشخصيات

(١) مهدي المهريزي: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ١٤٣).

(٢) هاشم معروف الحسني: الموضوعات في الآثار والأخبار (ص ٥٣)، (س ١٦٥)، (ط ١)، (١٩٧٣ م).

(٣) العاملي علي بن يونس العاملي (ت ٨٧٧) : الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم (٢١٠ / ١). المكتبة

المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، بتحقيق محمد باقر البهبودي (١٣٨٤ هـ).

لا وجود لها في التاريخ كابن سبأ^(١). وقد رأينا - في فصل الغلو والغلاة - أنه لم ينفرد وحده بذكر ابن سبأ وأخباره.

والحقيقة أن سيف بن عمر ضعيف متروك الحديث، كما ذكر النسائي وابن أبي حاتم^(٢). أما في مجال الأخبار والتاريخ، فيدافع عنه بعض رجال الحديث، يقول عنه الذهبي: « كان إخباريًا عارفاً »^(٣)، ويرى ابن حجر أنه « عمدة في التاريخ »^(٤).

وإذا أكثر الشيعة الملامة على رواية المؤرخين لأخبار سيف بن عمر ذكّرناهم بروايات أبي مخنف، فليس أبو مخنف (لوط بن يحيى) وأمثاله بثقة عندنا، وهو راوي روايات الفتنة في تاريخ الطبري، كما رواها سيف، فلنسقط هذين الراويين وأخبارهما من الحساب. فلا يحتج كل منا على الآخر برواياتهما ولا بروايات أمثالهما؛ لأننا لو رجعنا إلى علماء الجرح والتعديل لرأينا وصف أبي مخنف مشابهاً لوصف سيف بن عمر؛ إذ كلاهما ضعيف في الحديث قوي في الأخبار والتاريخ: يقول علماء الجرح والتعديل: « أبو مخنف أخباري تالف لا يوثق به، تركه أبو حاتم وغيره، وقال الدارقطني: ضعيف. وقال ابن معين: ليس بثقة. وقال: مرة ليس بشيء. وقال ابن عدي: شيعي محترق صاحب أخبارهم... روى عن الصعق بن زهير وجابر الجعفي ومجالد، روى عنه المدائني وعبد الرحمن بن مغراء. مات قبل السبعين ومائة »^(٥).

قال ابن كثير: « وللرافضة في صفة مصرع الحسين كذب كثير وأخبار باطلة، وفيما ذكرنا كفاية، وفي بعض ما أوردناه نظر، ولولا أن ابن جرير وغيره من الحفاظ والأئمة

(١) انظر: محمد جواد مغنية: تقديمه لكتاب مرتضى العسكري: ابن سبأ (ص ١٢)، (ط ٦)، (١٣٤١٣هـ/ ١٩٩٢م)، نشر التوحيد. وانظر مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٤٤٧/٢).

(٢) يقول النسائي في الضعفاء والمتروكين (ص ١٤): « سيف بن عمر الضبي ضعيف. وذكر ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢٧٨/٢) أن سيف بن عمر: « متروك الحديث، يشبه حديثه حديث الواقدي ». وعند ابن معين في نفس المصدر (٢٧٨/٢) أن سيفاً ضعيف الحديث. وذكره الذهبي فيمن له رواية في الكتب الستة، واكتفى بالقول: « ضعفه ابن معين وغيره ». الكاشف (٤١٦/١). وفي المغني في الضعفاء (ص ٢٩٢) قال الذهبي: « سيف بن عمر التميمي الأسدي له تواليف، متروك باتفاق ». وعند ابن حجر في التقریب (٣٤٤/١): « سيف ضعيف الحديث ». ويقول ابن حبان في المجروحين (٣٤٥/١): « سيف بن عمر الضبي الأسدي من أهل البصرة اتهم بالزندقة.. يروي الموضوعات عن الأنبياء » ولم يرق اتهامه بالزندقة لابن حجر فقال: « أفحش ابن حبان القول فيه » (تقریب التهذيب ٣٤٤/١).

(٣) ميزان الاعتدال (٢٥٥/٢).

(٤) تقریب التهذيب (٣٤٤/١).

(٥) ميزان الاعتدال في نقد الرجال (٥٠٨/٥)، رقم (٦٩٩٨).

ذكره ما سقته، وأكثره من رواية أبي مخنف لوط بن يحيى، وقد كان شيعيًا، وهو ضعيف الحديث عند الأئمة، ولكنه أخباري حافظ، عنده من هذه الأشياء ما ليس عند غيره» (١).

فهل يكفي أن يكون عنده ما ليس عند غيره من تفاصيل الأحداث مبررًا للرواية عنه، إن « هذا الدفاع في واقع الأمر ضعيف؛ لأن المؤرخ الذي يجترئ على الكذب وغش المسلمين في أعز ما يعتزون به وهو سنة نبيهم ﷺ لا يتورع أن يدلس عليهم تاريخهم ويدس عليهم الأكاذيب والأساطير » (٢). وهذا ينطبق على أبي مخنف كما ينطبق على سيف بن عمر، فإما أن نردّ رواياتهما معًا أو نعتبرها معًا، وحذفهما وردّهما معًا أحب إليّ وإلى منهج المحدثين (٣).

وقد أدرك علماء الحديث من أهل السنة ظاهرة الوضع هذه، ورصدوا لها الكتب الكثيرة، وأدركوا أيضًا دور الشيعة - وبالأخص الغلاة منهم - في الكذب في الأحاديث. وقد سئل الإمام مالك عن الرافضة فقال: « لا تكلمهم ولا ترو عنهم فإنهم يكذبون » (٤) وكان يقول: « نزلوا أحاديث أهل العراق منزلة أحاديث أهل الكتاب، لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » (٥).

وإذا كانت الكوفة بلد الغلاة؛ فإن « الكذب في الكوفة نشأ مع التشيع جنبًا إلى جنب » (٦) فقد شبهها الإمام مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بدار ضرب الدنانير، فقد قال له أحد الكوفيين: « يا أبا عبد الله، سمعنا في بلدكم أربعمئة حديث في أربعين يومًا، ونحن في يوم واحد

(١) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٢٠/٨) دار إحياء التراث العربي - بيروت (١٤١٨ هـ).

(٢) عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٥٧).

(٣) بعد صياغتي هذا البحث وقع بين يدي كتاب تناول روايات سيف بن عمر، تحت عنوان (نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي) حيث قدّم صاحبه روايات سيف، وذكر أنه لا يروي غالبًا إلا عن مجهولين ولا يروي عنه إلا مجهولون كشيخ محمد العربي التباني في كتابه (تحذير العقبى من محاضرات الحضري)، ود. أكرم ضياء العمري في كتابه (السيرة النبوية الصحيحة) (٣٩/١). انظر: نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي (قراءة نقدية لنماذج من الأعمال والدراسات الجامعية) حسن بن فرحان المالكي، كتاب الرياض العدد (٤٢) يونيو (١٩٩٧م)، مؤسسة اليمامة الصحفية (١٩٩٨م). (ص ٤٥ - ١١٠)، ولكنه للأسف لم يتناول بالمنهج نفسه لوط بن يحيى (أبا مخنف الشيعي) الذي عليه المدار في كثير من أحداث الفتنة.

(٤) منهاج السنة (١٦/١).

(٥) المصدر السابق (٣٠٩/١).

(٦) يحيى اليحيى: مرويات أبي مخنف في تاريخ الطبري (ص ٤٠).

نسمع هذا كله. فقال له عبد الرحمن: ومن أين لنا دار الضرب، أنتم عندكم دار الضرب تضربون بالليل وتنفقون بالنهار» (١).

ويروى عن الإمام الشافعي رحمته الله قوله: لم أر أحدًا أشهد بالزور من الرافضة (٢) وعن الأعمش أنه قال: أدركت الناس وما يسمونهم إلا الكذابين، يعني أصحاب المغيرة ابن سعيد (٣) وهو من الغلاة وقد تبرأ منه الشيعة.

وظاهرة الوضع في كتب الشيعة لم تسترع أنظار أهل السنة وحدهم، بل تعدتها إلى غيرهم من الزيدية والمعتزلة، فهذا هو نشوان الحميري يذكر أن بعضهم كان يجمع حكم بزرجمهر وينسبها إلى الأئمة بأسانيد يضعها، فقليل له في ذلك فقال: «ألحق الحكمة بأهلها» (٤).

ويقول ابن أبي الحديد: «الكذب في أحاديث الفضائل جاء من جهة الشيعة» (٥).

كما رصد علماء أهل السنة ظاهرة الوضع عمومًا بكل إنصاف وحياد، فبيّنوا الأحاديث الموضوعية في فضل كل الصحابة - رضوان الله عليهم - بلا استثناء، وبدؤوا بالموضوعات في حق أبي بكر الصديق قبل غيره رضي الله عنه، وعلى سبيل المثال: قال العجلوني (١١٦٢ هـ): «وباب فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه أشهر المشهورات من الموضوعات كحديث: «إن الله يتجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة». وحديث: «ما صب الله في صدري شيئًا إلا وصبته في صدر أبي بكر». وحديث: «كان صلى الله عليه وسلم إذا اشتاق إلى الجنة قبل شيبة أبي بكر». .. وحديث: «أنا وأبو بكر كفرسي رهان». .. وحديث: «إن الله لما اختار الأرواح اختار روح أبي بكر». .. وأمثال هذا من المفتريات المعلوم بطلانها بيديها العقل. وباب فضائل علي رضي الله عنه وضعوا فيه أحاديث لا تعد، ومن أفضحها الأحاديث المجموعة في الكتاب المسمى بـ (الوصايا النبوية) أول كل حديث: يا علي!، والثابت من تلك الجملة حديث واحد: «يا علي أنت مني بمنزلة هارون من موسى». وباب فضائل معاوية ليس فيه حديث صحيح. وباب فضائل أبي حنيفة والشافعي وذمهما ليس فيه شيء صحيح» (٦).

(١) منهاج السنة (٣٠٩/١).

(٢) منهاج السنة (١٦/١).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) نشوان الحميري: الحور العين (ص ٢٥٣)، مطبعة السعادة (١٩٤٨ م).

(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (١٣٤/٢) (عن السنة ومكاتها في التشرية: ص ٧٦).

(٦) العجلوني (إسماعيل بن محمد الجراحي ت ١١٦٢ هـ): كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من

الأحاديث على ألسنة الناس (٤١٩/٢) دار الكتب العلمية (ط ٢)، (١٤٠٨ هـ).

لقد نضح علم الحديث عند أهل السنة لدرجة أن الحقاظ منهم كانوا يميزون - وللوهلة الأولى - بين الصحيح والضعيف؛ ذلك لأن الأحاديث عند أهل السنة قسمت إلى صحيح وحسن وضعيف وموضوع، وصنفت التصانيف في كل نوع من الأنواع، حتى صنفت للأحاديث المكذوبة الموضوعية كتب مستقلة^(١). ناهيك عن التحذير منها في التصانيف المتنوعة.

قال ابن خلدون في مقدمته: « واعلم أن الأحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح وحسن وضعيف ومعلول وغيرها... ولقد كان الأئمة في الحديث يعرفون الأحاديث بطرقها وأسانيدها بحيث لو روي حديث بغير سنده وطريقه يفتنون إلى أنه قد قلب عن وضعه، ولقد وقع مثل ذلك للإمام محمد بن إسماعيل البخاري، حين ورد علي بغداد وقصد المحدثون امتحانه، فسألوه عن أحاديث قبلوا أسانيدها، فقال: لا أعرف هذه، ولكن حدثني فلان.. ثم أتى بجميع تلك الأحاديث على الوضع الصحيح، وردّ كل متن إلى سنده وأقروا له بالإمامة »^(٢).

* * *

المطلب الثالث

منهج التعامل مع روايات الأئمة عند الاثني عشرية (بين الأخباريين والأصوليين)

لقد « ظهرت في الساحة الفكرية الشيعية تيارات متعددة، متشددة ومعتدلة في تعاملها مع النص عمومًا، ومع الحديث بشكل أخص »^(٣)؛ فعلماء الشيعة ليسوا على

(١) من أشهر الكتب التي اختصت بالموضوعات عند أهل السنة (الموضوعات) لابن الجوزي في ثلاثة أجزاء، و (تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشيعية الموضوعية) للشيخ أبي الحسن علي بن محمد بن عراق الكناني (ت ٩٦٣هـ) مطبوع في مجلدين، و (المنار المنيف في الصحيح والضعيف) لابن قيم الجوزية، و (اللآلي المصنوعة في الأحاديث الموضوعية) لجلال الدين السيوطي (ت ٩١١هـ)، و (تذكرة الموضوعات) لمحمد طاهر بن علي الصديقي الفتني، و (البرق اللومع لكشف الحديث الموضوع) لمحمد بن محمد الحيزري الشافعي (ت ٨٩٤) (انظر: كشف الظنون ١/٢٣٩)، وكتاب (الكشف الإلهي عن شديد الضعف والموضوع والواهي) لمحمد بن محمد بن محمد الحسيني الطرابلسي السندروسي الحنفي (ت ١١٩٧هـ)، و (المصنوع في معرفة الحديث الموضوع) لملا علي القاري. انظر: الرسالة المستطرفة (١/١٤٩) .

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٤٤، ٤٤٥)، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط ٤) .

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٠) .

خط واحد في التعامل مع النصوص؛ فهناك اتجاه يُعمل العقل في النصوص، فيصّح ويضعف، ويقبل ويرفض حسب معايير كثيرة، وهناك اتجاه يصدق كل خبر ورد في النصوص. وهكذا انقسم الشيعة إلى أصولية وأخبارية.

ومن هنا نشأت جماعة الأخباريين الذين « عارضوا الاجتهاد وبالتالي شجبوا علم الأصول... وقد شكل هذا فيما بعد تيارًا اتسع في بعض الفترات، ولكنه عاد فتقلص تحت عنوان الأخباريين، والذي اعتبره بعض العلماء موازيًا لتيار الحشوية عند أهل السنة » (١). وقد أدرك علماء السنة وجود هذين التيارين عند الشيعة قديمًا؛ فهذا هو الشهرستاني (ت ٥٤٨ هـ) يقول: « صارت الإمامية متمسكين بالعدلية في الأصول والمشبهة في الصفات، متحيرين تائبين، بين الأخبارية منهم والكلامية [أي: الأصولية] سيف وتكفير » (٢).

فالأخبارية يقولون بصحة جميع الأخبار المروية، وقطعية روايات الكتب الأربعة (الكافي والتهذيب والاستبصار ومن لا يحضره الفقيه) بل ذهب بعضهم إلى صحة أخبار غير هذه الكتب من كتب الصدوق وأمثاله، وردّوا استحداث تقسيم الروايات إلى صحيح وضعيف.. إلخ، يقول المحقق البحراني - ممثلًا هذا الاتجاه وقرينًا منه الحر العاملي - : « صرح جملة من أصحابنا المتأخرين بأن الأصل في تنويع الحديث إلى الأنواع الأربعة المشهورة هو العلامة [يعني: ابن مطهر الحلبي] أو شيخه جمال الدين بن طائوس - نور الله تعالى مرقيدهما - وأما المتقدمون فالصحيح عندهم هو ما اعتضد بما يوجب الاعتماد عليه من القرائن والأمارات... وعلى هذا جرى جملة من أصحابنا المحدثين وطائفة من متأخري المجتهدين كشيخنا المجلسي رحمته الله وجمع ممن تأخر عنه. وقد اتسع خرق الخلاف بين المجتهدين من أصحابنا والأخباريين في جمل عديدة من مسائل الأصول التي تبنى عليها الفروع الفقهية. وبسط كل من علماء الطرفين لسان التشنيع على الآخر، والحق الحقيق بالاتباع ما سلكه طائفة من متأخري المتأخرين كشيخنا المجلسي » (٣).

(١) التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٠).

(٢) الشهرستاني: الملل والنحل (١/١٦١) دار المعرفة (١٤٠٤ هـ) بيروت، تحقيق محمد سيد كيلاني.

(٣) الحدائق الناضرة (١/١٤١، ١٥)، والعاملي: الوسائل (٣/٢٥١) الفائدة التاسعة. وذكر البحراني أن

سبب هذا التنويع قلة العلم: « إن السبب - الداعي إلى تقرير هذا الاصطلاح في تنويع الحديث إلى الأنواع

الأربعة - هو أنه لما طالت المدة بينهم وبين الصدر الأول، وبعدت عليهم الشقة وخفيت عليهم تلك القرائن

التي أوجبت صحة الأخبار عن المتقدمين. وضاق عليهم ما كان متسقا على غيرهم. التجؤوا إلى العمل بالظن

بعد فقد العلم؛ لكونه أقرب مجازًا إلى الحقيقة عند تعذرهما، وبسبب التباس الأخبار غثها بسمينها وصحيحها =

فإذا قال علماء الشيعة هذا القول حول الإسناد، وأنه مستحدث عندهم، فإنه عندئذ لا يستغرب أن يقول أهل السنة: « والإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة، والرافضة من أقل الناس عناية؛ إذ كانوا لا يصدقون إلا بما يوافق أهواءهم، وعلامة كذبه أنه يخالف هواهم، ولهذا قال عبد الرحمن بن مهدي: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم. ثم إن أولهم كانوا كثيري الكذب، فانتقلت أحاديثهم إلى قوم لا يعرفون الصحيح من السقيم، فلم يمكنهم التمييز إلا بتصديق الجميع أو تكذيب الجميع » (١).

وقد نقل عبد الله المامقاني (ت ١٣١٥ هـ) عن أهل هذا الموقف قولهم: « إن أحاديثنا كلها قطعية الصدور عن المعصوم، وما كان كذلك فلا يحتاج إلى ملاحظة سنده » (٢)، وقالوا أيضًا: « ولما كان الإمام معصومًا عند الإمامية فلا مجال للشك فيما يقول » (٣)، و « إن الاعتقاد بعصمة الأئمة جعل الأحاديث التي تصدر عنهم صحيحة دون أن يشترطوا إيصال سندها إلى النبي ﷺ كما هو الحال عند أهل السنة » (٤).

ويا للعجب من أصحاب هذا الرأي! حيث قطعوا بقطعية صدور الحديث عن الأئمة، ولم يقطع كثير منهم بسلامة القرآن من التحريف - كما بيّنا في مبحث القرآن الكريم - سيرًا وراء بعض الروايات المنسوبة للأئمة؛ فأى القولين أولى بالقطعية والحفظ والسلامة من التحريف؟ كلام الله ﷻ القائل: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩] أم الكلام المنقول عن الأئمة؟!

بل أنكر أصحاب هذا الاتجاه الأخباري أي محاولة للأصوليين لتقسيم كتاب الكافي المصدر الحديثي الأول إلى صحيح وغير صحيح، فيقول صاحب كتاب (الكُليني والكافي): « ومع كل ذلك فقد أنكر بعض المتأخرين جملة كبيرة من الأحاديث التي أودعها الشيخ في (الكافي)، فهذا محمد باقر البهبودي قد صير (الكافي) في ثلاثة أجزاء صغيرة وسماه بـ (صحيح الكافي)، ثم أعاد طبعه تحت عنوان (زبدة الكافي)

= سبقيهما التجؤوا إلى هذا الاصطلاح الجديد. وقربوا لنا البعيد، ونوعوا الحديث إلى الأنواع الأربعة « الحدائق الناضرة (١٥/١) .

(١) منهاج السنة النبوية (٣٧/٧) .

(٢) تنقيح المقال في علم الرجال (١٧٧/١)، وقد خالف المامقاني هذا القول.

(٣) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة (ص ١٤٠) .

(٤) المرجع السابق (ص ١٥٨) .

ظناً منه أنه يحسن صنعاً، وما يدري أن ذلك إساءة كبيرة إلى التراث الشيعي، بل إساءة إلى أهل البيت عليهم السلام «^(١)».

والعجيب أن علي أكبر غفاري - محقق كتاب أصول الكافي - يسطر في نهاية تحقيقه إقراراً بتضلع اليهودي وخبرته العلمية قائلاً: « أقدم شكري المتواصل وثنائي العاطر إلى زميلنا المحترم البارع المفضل (محمد باقر اليهودي)، زاد الله في تأييده، حيث عاضدني في تصحيح الكتاب [أي أصول الكافي] ومقابلته على النسخ المخطوطة «^(٢)»، وهكذا نعلم أن عمل اليهودي لم يأت من اعتباط أو قلة خبرة، بل من تدقيق ومراجعة ومعرفة.

ولكن هذا المحقق لكثير من كتب التراث الشيعي، و (البارع المفضل !): « لم يلق عمله القبول في الحوزات العلمية » على حدّ قول مرتضى العسكري ^(٣)، وما ذلك إلا لأنه حذف بعض الروايات التي حكم المجلسي في (مرآة العقول) بصحتها مع أنها في حقيقتها تمثل تسريبات فكر الغلاة ^(٤).

فهل كان اليهودي غافلاً عن آراء المجلسي؟ أم أنه أطرحها عن عمد، إن القارئ يمتلك الجواب إذا علم أن اليهودي كان أحد الأعضاء الناطقين باسم لجنة التحقيق والتصحيح لدار الكتب الإسلامية، صاحبة الجهد في تدقيق وتحقيق كتاب (بحار الأنوار) للمجلسي ذاته؛ حيث يقول عن عمل اللجنة في تحقيق هذا الكتاب: « ولقد بذلنا الجهد عند طبعها في التصحيح، فخرج بعون الله ومشيتته نقيّاً من الأغلاط... » ^(٥).

ومن اطلع على التراث الشيعي لا يستغرب ما حصل مع اليهودي؛ ففي الماضي قام عدد من مشاهير علماء الشيعة بانتخاب أحاديث أطلق عليها لفظ الصحيح والحسن،

(١) عبد الرسول عبد المحسن الغفاري: الكليني والكافي (ص ٤٣٢)، مؤسسة النشر الإسلامي - قم (١٤١٦ هـ)، (ط ١) .

(٢) علي أكبر غفاري: تحقيقه لأصول الكافي للكليني (٦٧٤/٢)، دار الكتب الإسلامية - طهران (١٣٦٥ هـ) .

(٣) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣٤٣/٣) هامش (١) .

(٤) مثل باب أن الأئمة إذا شأوا أن يعلموا علموا، وباب أن الأئمة يعلمون متى يموتون ولا يموتون إلا باختيار منهم، وباب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم الشيء صلوات الله عليهم، وغيرها. انظر: د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٦٩/١) .

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (٣٦٧/١٩)، وسترى أن اسم اليهودي سيقى ظاهراً في الكتاب إلى الجزء الأخير رقم (١٠٧) .

مثل « ما انتخبه العلامة الحلبي (الحسن بن يوسف ت ٧٢٦ هـ) من حديث، ودوّنه في عشرة أجزاء، وسمّاه (الدر والمرجان في الأحاديث الصحاح والحسان)، وكذلك ما انتخبه الشيخ حسن (ت ١٠١١ هـ) ابن الشهيد الثاني (زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد العملي ت ٩٦٥ هـ) مقتفيًا أثر العلامة، وسمّاه منتقى الجمان من الأحاديث الصحاح والحسان) لم يتداول في الحوزات العلمية، ولم يعتد به العلماء، وإنما اعتبروا عملهما اجتهادًا شخصيًا... نسيت مؤلفاتهم في صحاح الأحاديث وحسانها »^(١).

وما دام الأخباريون لا يعتنون بالسند تصحيحًا وتضعيفًا؛ فكيف يحكمون على الحديث؟ إن لهم منهجًا آخر، وهو في الحقيقة جزء من منهج الأصوليين، لا كله، ويعتقدون أنهم قد أخذوا هذا المنهج أو هذا المعيار لقبول الحديث أو رده من كلام الأئمة من أهل البيت، فهم يرون أنه: « لا ضرورة تلجئ إلى اصطلاحهم [أي الأصوليين]؛ لأنهم عليهم السلام قد أمرونا بعرض ما شك فيه من الأخبار على الكتاب والسنة فيؤخذ بما وافقهما وي طرح ما خالفهما، فالواجب في تمييز الخبر الصادق من الكاذب مراعاة ذلك، وفيه غنية عما تكلفوه، ولا ريب أن اتباع الأئمة عليهم السلام أولى من اتباعهم »^(٢).

وقد رفض الأخباريون الاجتهاد وعلم الأصول الموصل إليه، وانكبوا على الأخبار؛ ولذلك كثرت المصنفات الحديثية في زمن ازدهار الأخبارية (أواخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الهجري) فكان (بحار الأنوار) للمجلسي، و (الوسائل) للحر العاملي، و (الوافي) للفيض الكاشاني، ومؤلفات السيد هاشم البحراني صاحب تفسير (البرهان)^(٣).

- أدلة الأخباريين:

وقد استدل الأخباريون بروايات آل البيت التي تدعو للعمل بالحديث مطلقًا:

- عن علي السائي، عن أبي الحسن عليه السلام أنه كتب إليه في رسالة: « ولا تقل لما بلغك عنا أو نسب إلينا هذا باطل، وإن كنت تعرف خلافه؛ فإنك لا تدري لم قلنا، وعلى أي وجه وصفة »^(٤).

(١) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٢٨).

(٢) الحدائق الناضرة (١٦/١).

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٠).

(٤) بحار الأنوار (٢/١٨٦)، نقلًا عن البصائر.

- وعن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: «أما والله! إن أحب أصحابي إلي أروعهم وأفقههم وأكتمهم لحديثنا، وإن أسوأهم عندي حالاً وأمقتهم إلي الذي إذا سمع الحديث ينسب إلينا ويروى عنا فلم يعقله ولم يقبله قلبه، اشتمأ من وجهه، وكفر بمن دان به، وهو لا يدري لعل الحديث من عندنا خرج، وإلينا أسند، فيكون بذلك خارجاً من ولايتنا» (١).

- وعن سفیان بن السمط، قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك، إن الرجل ليأتينا من قبلك فيخبرنا عنك بالعظيم من الأمر، فيضيق بذلك صدورنا حتى نكذبه، قال: فقال أبو عبد الله عليه السلام: «أليس عني يحدثكم؟» قال: قلت: بلى، قال: «فيقول لليل: إنه نهار، وللنهار: إنه ليل؟» قال: فقلت له: لا، قال: فقال: «ردّه إلينا، فإنك إن كذبت فإتما تكذبنا» (٢).

- وفي كتاب سليم بن قيس أن علي بن الحسين عليهما السلام قال لأبان بن أبي عياش: «يا أخا عبد القيس، فإن وضع لك أمر فاقبله، وإلا فاسكت تسلم، ورد علمه إلى الله، فإنك في أوسع مما بين السماء والأرض»، قال أبان: فعند ذلك سألته عما يسعني جهله وعما لا يسعني جهله، فأجابني بما أجابني...» (٣).

- ولهم رواية عن النبي صلى الله عليه وآله: «من رد حديثاً بلغه عني فأنا مخاصمه يوم القيامة، فإذا بلغكم عني حديث لم تعرفوا فقولوا: الله أعلم» (٤).

ثم قال صاحب كتاب (الكليني والكافي) بعد أن أورد هذه الروايات: «وهناك عشرات الأحاديث الواردة في هذا المعنى، وقد أحصى منها الشيخ العلامة المجلسي أكثر من مائة حديث، فراجع. فما أكثرها الأحاديث التي لا تدركها عقولنا، أو لا يمكن أن نظفر لها على وجه للجمع بينها وبين غيرها من الروايات، فهل يعني ذلك أن نردها أو ننفیها؟! نعم، ما خالف القرآن والسنة، وما جاء عن المخالفين ونقطع بعدم صدوره عن الإمام، للقرائن الخارجية والأمارات الدالة على كذب الراوي وفسقه وعناده... آنذاك نستطيع أن نشكك في الحديث، أما إذا كان السند صحيحاً والرواة ثقات فلا بد من الوقوف عنده أو رده إلى الإمام؛ لأن حديثهم صعب مستصعب، لا يتحملة إلا عبداً

(١) بحار الأنوار (١٨٦/٢)، نقلاً عن البصائر. (٢) بحار الأنوار (١٨٧/٢).

(٣) كتاب سليم بن قيس (ص ٦٧). (٤) بحار الأنوار (٢١٢/٢).

امتحن الله قلبه للإيمان، ولا تعي أحاديثهم إلا الصدور الأمانة والأحلام الرزينة» (١).
والحقيقة أنهم نسفوا هذا المنهج عندما قالوا بتحريف القرآن، جرياً وراء تلك الروايات التي أقرت ذلك الإفك؛ «لأنهم التزموا صحة الأخبار عموماً وتمسكوا بظاهرها دون بحث أو تنقيب فإن بعضهم وخلافاً لإجماع علماء الشيعة وأعلامهم قد اتجه إلى القول بنقص بعض الآيات في الولاية من القرآن الكريم كالشيخ النوري والسيد الجزائري وغيرهما» (٢). قال كاشف الغطاء: «القول بالتحريف هو مذهب الأخباريين والحشوية» (٣).
خلافاً لأصحاب الأصول الذين رفضوا احتمال التحريف في القرآن رفضاً قاطعاً» (٤).
فمسألة قول الأخباريين بتحريف القرآن دليل على أنهم لم يملكوا منهجاً قوياً في التصحيح والتضعيف.

الاتجاه الأصولي:

وقد وقف في وجه هذا الاتجاه العلماء الأصوليون، وسقوهوا رأي الأخبارية، يقول الطوسي في تفسيره البيان مؤكداً على ضرورة التدبر في التعامل مع متن الحديث: «تنبيه على بطلان قول الجهال من أصحاب الحديث: (إنه ينبغي أن يروى الحديث على ما جاء وإن كان مختلاً في المعنى)؛ لأن الله دعا إلى التدبر والتفقه وذلك منافٍ للتعامل والتعامي» (٥).

ويرى الطباطبائي وجود اتجاهين منكرين في التعامل مع الحديث النبوي الشريف: اتجاه الرفض المطلق للأحاديث النبوية، واتجاه القبول المطلق للأحاديث؛ فيقول: «سلك بعض الأخباريين وأصحاب الحديث والحرورية وغيرهم مسلك الإفراط والأخذ بكل رواية منقولة كيف كانت، وكما أن القبول المطلق تكذيب للموازن المنصوبة في الدين؛ لتمييز الحق من الباطل ونسبة الباطل واللغو من القول إلى النبي ﷺ؛ كذلك الطرح

(١) عبد الرسول عبد المحسن الغفاري: الكليني والكافي (ص ٤٣٢ - ٤٣٤).

(٢) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٤).

(٣) لماذا هذا الإصرار على ضم الحشوية إلى الأخبارية، مع أن الحشوية لم يقولوا بتحريف القرآن الكريم، بل علمنا أن منهم من بالغ فقال: إن جلدة القرآن قديمة، في ردة فعل عنيفة على قول المعتزلة بخلق القرآن الكريم؟

(٤) صيانة القرآن من التحريف (ص ٦٤، ٦٥)، وانظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٨).

(٥) الطوسي: البيان (٣٠١/٩)، تفسير الآية (٢٤) من سورة محمد ﷺ.

الكلية تكذيب لها وإلغاء وإبطال للكتاب العزيز» (١).

يقول الخوئي: «لم تثبت صحة جميع روايات الكتب الأربعة، فلا بد من النظر في سند كل رواية منها، فإن توفرت فيها شروط الحجية أخذ بها، وإلا فلا» (٢).

وبين هؤلاء الأخبارية والأصولية سجال وخلاف كبير؛ إذ يدعي كل منهم أنه الأصل في مذهب الاثني عشرية، فالأخبارية يرون أنهم يمثلون الخط الأصيل لعلماء الإمامية وأنهم كانوا يشكلون الاتجاه السائد إلى عصر الكليني والصدوق قبل أن يخرج عن هذا الاتجاه (الأصوليون) فيتأثرون بعلم الأصول وعلم الحديث السنيين، وبالتالي يعتمدون إلى طريق الاستنباط الذي اعتمده أهل السنة.

ويرفض الأصوليون زعم الأخباريين أن «الاتجاه الأخباري كان هو الاتجاه السائد بين فقهاء الإمامية... ولم يتزعزع هذا الاتجاه إلا في أواخر القرن الرابع وبعده حين بدأ جماعة من علماء الإمامية ينحرفون عن الخط الأخباري ويعتمدون على العقل في استنباطهم ويربطون البحث الفقهي بعلم الأصول متأثرًا بالطريقة السنية في الاستنباط [!!] ثم أخذ هذا الانحراف بالتوسع والانتشار» (٣).

وقد صور الشهيد المطهري تأثير هذه المقولات على عامة الناس وتحريكها لعواطفهم المذهبية فقال: «إن مما يبعث على انتشار طراز التفكير الأخباري بين العامة هو إرضاء ما يميل إليه العامة» (٤). وبالفعل نرى هذا الاتجاه الأخباري سائدًا عند قضاة الشيعة المعاصرين وعامتهم.

في حين يرى الأصوليون أن الأخبارية هي الطائفة على المذهب، وأنها ظهرت بشكل بارز في أوائل القرن الحادي عشر على يد الميرزا محمد أمين الإسترابادي (ت ١٠٢١ هـ) (٥).

(١) الطباطبائي: تفسير الميزان (١/٢٣٧).

(٢) أبو القاسم الخوئي: معجم رجال الحديث (١/٩١) المقدمة الخامسة، وانظر: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثة نقدية، د. عداب محمود الحمش (ص ٤٣٥). فقد بين أن علماء الرجال منذ القرن الثالث كأحمد بن محمد بن خالد البرقي (ت ٢٧٤ أو ٢٨٠ هـ) إلى الخوئي (١٣٩٨ هـ) وثقوا وضعفوا كثيرًا من رجال كتب الأصول الأربعة لدى الاثني عشرية.

(٣) إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٦٠)، عن المعالم الجديدة للأصول (ص ٨٠).

(٤) الاجتهاد والتجديد (ص ٨٩) عن إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٦١).

(٥) انظر: إحسان الأمين: التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية (ص ٣٥٢). والمعالم الجديدة

- التضعيف والتصحيح والجرح والتعديل عند الأصوليين:

يقسم علماء الشيعة الأصوليون الحديث إلى عدة أقسام أشهرها: الحديث الصحيح، والموثق، والحسن، والضعيف؛ « فالحديث الصحيح منها حجة بلا خلاف بين القائلين بحجية خبر الواحد... وأما الموثق والحسن فالمشهور حجيتهما، وخالف في ذلك جماعة »^(١).

ويذكر محمد جواد مغنية - بطريقته المحببة بالمذهب - أنه « لا يشترط الإمامية في الراوي أن يكون إماميًا، ويكتفون بصدقه وأمانته، سنّيًا كان أو شيعيًا، وقد صرحوا بذلك في جميع كتب الرجال - منها: كتاب تنقيح المقال للمامقاني -: ورد النص عن الإمام أن تأخذ برواية من خالفنا دون ما رآه، وقد لزمنا بذلك العمل بالخبر الموثوق الذي هو في اصطلاح العلماء من كان ثقة غير إمامي »^(٢).

ولكننا لو رجعنا إلى تعريف الحديث الصحيح عند الشيعة لرأينا أنه يشترط أن يكون بسلسلة إمامية متصلة؛ إذ يعرف الشيعة الحديث الصحيح: « هو ما اتصل سنده إلى المعصوم عليه السلام بنقل العدل الإمامي عن مثله في جميع الطبقات »^(٣).

وهم يعتدون برواية غير الإمامي في الحديث الموثق أو القوي الذي هو دون الصحيح برتبتين، وهذا تفصيل رأبهم في المسألة: (صحيح إن كان كل واحد من رواه ثقة إماميًا. وحسن إن كان الجميع إماميًا ممدوحًا، أو بعضه إماميًا ممدوحًا وبعضه ثقة إماميًا. وقوي إن كان جميع رجاله ثقات مع فساد مذاهب الكل أو البعض، أو بعضه ممدوحًا إماميًا وبعضه ثقة غير إمامي. وضعيف إن كان جميع رجاله أو بعض رجاله ضعيفًا أو مهملاً »^(٤).

(١) انظر تفاصيل أنواع الحديث عند الاثني عشرية: د. عمر محمد عبد المنعم الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية (ص ١٠٤). رسالة دكتوراه من قسم الحديث في كلية أصول الدين بالقاهرة (١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م)، المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثة نقدية، د. عدا ب محمود الحمش (ص ٤٣٤، ٤٣٥).

(٢) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٨١) عن تنقيح المقال (٢٠٦/١).

(٣) محيي الدين الموسوي: قواعد الحديث (ص ٢٤) عن: د. عمر محمد عبد المنعم الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية (ص ١٠٤). رسالة دكتوراه من قسم الحديث في كلية أصول الدين بالقاهرة (١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م).

(٤) السيد مصطفى التفرشي: نقد الرجال (٣٢٩/٥، ٣٣٠). (ط ١)، (١٤١٨ هـ)، قم، مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

ولكن ما هو مفهوم الثقة إذا كان أبو هريرة (راوية الإسلام) ليس بثقة عندهم؟! وقد بين الدكتور الفرماوي أن الشيعة لا يلتزمون بما ألزموا به أنفسهم في تعريف الحديث الصحيح، وقد ذكر عدة أحاديث منقطعة السند ومع ذلك حكم علماء الشيعة بصحتها، وهذه مخالفة في أصل المنهج (١).

ويشترط في الحديث حتى يكون صحيحًا عندهم وروده من طرقهم برواية « عدل إمامي » (٢).

وإذا كان الشيعة لا يعدون رواية من خالفهم صحيحة؛ فإن الأئمة خالفوهم في هذا المنهج، فهذا نافع مولى عبد الله بن عمر أشهر الرواة عند أهل السنة، وسلسلته سلسلة الذهب المعروفة: مالك عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومع ذلك فإن الشيعة لا يعتبرون رواياته؛ في حين اعتمده جعفر وأبوه محمد الباقر في الشهادة على وصيته:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إنَّ أباي عليه السلام استودعني ما هناك، فلَمَّا حضرته الوفاة قال: ادع لي شهودًا. فدعوت له أربعة من قريش فيهم نافع مولى عبد الله بن عمر، فقال: اكتب هذا ما أوصى به يعقوب بنيه عليه السلام إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ عليه السلام [البقرة: ١٣٢]، وأوصى محمد بن علي إلى جعفر بن محمد وأمره أن يكفنه في برده الذي كان يصلِّي فيه الجمعة، وأن يعتمه بعمامته، وأن يربِّع قبره ويرفعه أربع أصابع » (٣).

ومع ذلك لا وجود لهذا العالم الفقيه المحدث في كتاب الكافي ولا مكانة له بين الرواة فيه، في حين رووا عن بعض من خالفهم كالواقفة.

أما عن جهود علماء الاثني عشرية في مجال الجرح والتعديل؛ فلهم فيه عدة مؤلفات،

(١) د. الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية (ص ١٠٥)، وعلى سبيل المثال: رواية محمد بن أبي عمير مرسله، وقد تلفت كتبه فحدث من حفظه. قال عنه النجاشي بعد أن ذكر تلف كتبه: « فحدث من حفظه، وما كان سلف له في أيدي الناس، فلهذا أصحابنا يركنون إلى مراسيله » رجال النجاشي (٢/٢٠٤)، وقد روى عن الضعفاء كعلي بن حمزة - لعنه الطوسي وقال عنه الحسن بن فضال: كذاب ملعون - في حين لم يركن أهل السنة إلى روايات ابن لهيعة القاضي المصري الصالح (ت ١٧٤ هـ)؛ لأنه اختلط عليه بعد احتراق مكتبته، ونصوا على ضعف روايته، جاء في الكامل في الضعفاء للجرجاني (٤/١٤٥): « قال عمرو بن علي: عبد الله بن لهيعة كان احترقت كتبه، ومن كتب عنه قبل ذلك مثل بن المبارك والمقبري أصح من كتب بعد الاحتراق، وهو ضعيف الحديث ». وانظر: الذهبي: الكاشف (١/٥٩٠)..

(٢) محمد صالح الحائري المازندراني: منهاج عملي للتقريب: الشيخ (ص ٤٣٠ - ٤٣٢).

(٣) أصول الكافي (١/٣٦٣)، كتاب الحجة باب الإشارة والنص على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق.

وإن لم يتفقوا مع علماء أهل السنة حول كل المعايير التي يتم الجرح والتعديل على أساسها: « فألف عبيد الله بن أبي رافع كتابًا في « الطبقات » خلال القرن الأول الهجري، وألف عبد الله الكناني (ت ٢١٩ هـ) كتابًا في « الرجال » وكذلك الحسن بن فضال (ت ٢٢٤ هـ) وعلي بن الحسن بن فضال (المولود عام ٢٠٦ هـ)، والبرقي (ت ٢٨٠ هـ) وغيرهم كثيرون، كابن عقدة والكشي والعقيقي، الذين دونت أسماؤهم في كتب الفهارس. أما في القرنين الرابع والخامس الهجريين؛ فقد تصدّى العالمان الجليلان الشيخ أحمد بن علي النجاشي (ت ٤٥٠ هـ) والشيخ محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) لهذه المهمة، وألّفا أربعة كتب رئيسية في علم الرجال، جمعا فيها ما تراكم من تراث رجالي خلال القرون المنصرمة، وهي: (اختيار معرفة الرجال) و (الفهرس) و (الرجال) للشيخ الطوسي، و (الفهرس) المعروف بـ (رجال الكشي) (١) « (٢).

وتغصّ كتب الرجال الشيعية بالخلافات حول كثير من الرواة، هل هو فلان أم أنه فلان، ويحتمل أنه فلان؛ لكذا وكذا، وعلى سبيل المثال: « محمد بن إسماعيل هذا

(١) أبو عمرو محمد بن عمر بن عبد العزيز الكشي: نسبة إلى « كش » (بفتح الكاف وتشديد الشين) وهي قرية من قرى كركان وعلى قول من بلاد ما وراء النهر في حدود منتصف القرن الرابع. ذكر الشيخ الطوسي في الفهرست في ترجمة حياة (أبي عمرو الكشي): (ثقة بصير بالأخبار وبالرجال حسن الاعتقاد، له كتاب الرجال ...) الفهرست (ص ١٦٧). كما لم تشتمل عبارة النجاشي على توضيح أكثر من ذلك، فقد اكتفى بذكر أنه: « كان ثقة عينا، وروى عن الضعفاء كثيرا، وصحب العياشي وأخذ عنه، وتخرج عليه في داره التي كانت مرتعا للشيعية وأهل العلم، له كتاب الرجال... » رجال النجاشي (ص ٢٨٨).

(٢) الشيخ محمد علي التسخيري: تقديمه لكتاب: الأصول الأربعة في علم الرجال: للإمام الخامني (١٤١٤ هـ).

ويرجح الشويشري، ويتابعه الخامني تحت عنوان (نسبة الكتاب إلى الشيخ الطوسي ت ٤٦٠ هـ) أن كتاب رجال الكشي هو تهذيب الطوسي لهذا الكتاب، وليس الكتاب الأصلي، فيقول: « لقد اختلفوا في نسبة الكتاب إلى الشيخ الطوسي، غير أن أكثر علماء هذا الفن ذهبوا إلى أن الكتاب المذكور هو تهذيب وتقيح الشيخ الطوسي لكتاب الرجال لأبي عمرو محمد بن عبد العزيز الكشي، وعنوان الكتاب يؤيد هذا الرأي إلى حد ما، أما الرأي الآخر فيذهب إلى أن الكتاب الموجود هو أصل كتاب الكشي وليس هو منتحب الشيخ، ويظهر من كلام أحمد بن طائوس الحلبي (ت ٦٧٣ هـ) وتلميذه العلامة الحلبي (ت ٧٢٦ هـ) وابن داود الحلبي (ت ٦٤٧ هـ) الرأي الثاني. إلا أن هناك قرائن وشواهد تؤيد بشكل قاطع انتساب هذا الكتاب إلى الشيخ الطوسي نفسه، وتؤيد كونه منتخبا من أصل كتاب الكشي ». ويعزو إلى الشويشري: قاموس الرجال (٣٣/١). وهذا الكلام يزيد من قيمة الكتاب؛ إذ يجعل ما فيه معتبرا عند عالمين من علماء الشيعة، الكشي أولا ثم الطوسي إمام الشيعة في زمانه.

الاسم مشترك بين ثلاثة عشر رجلاً، ثلاثة منهم ثقات معتمدون، وهم محمد بن إسماعيل بزيق، ومحمد بن إسماعيل بن ميمون الزعفراني، ومحمد بن إسماعيل بن أحمد البرمكي، والعشرة الباقية لم يوثق علماء الرجال أحدًا منهم، ولما اتفق علماؤنا على تصحيح ما يرويه المصنف عن محمد بن إسماعيل، وكان الظاهر أن روايته عنه بلا واسطة ولا حذف - ظهر أن ليس المراد أحد هؤلاء العشرة، على أنهم عدوا ستة منهم من أصحاب الصادق عليه السلام، وبقاؤهم إلى زمان المصنف بعيد جدًا؛ فتعين أن يكون أحدًا من الثلاثة المذكورين أولاً» (١).

وقد وقع الخلط في رواية أخرى بين هذه الشخصيات، ومن الغريب أن المجلسي جمع في حديث فيه هذا الراوي بين الصحة والجهالة: فقد ورد في هامش شرح المازندراني: «اختلاف العلماء في محمد بن إسماعيل هذا معروف، والصحيح قول السيد الداماد: إنه النيسابوري المعروف بيندفر. وقال المجلسي عليه السلام: في إسناده مجهول كالصحيح [!!] وليس في الإسناد مجهول إلا أن يكون محمد بن إسماعيل هذا» (٢).

حجية حديث الآحاد عند الاثني عشرية:

إذا نظرنا إلى موقف الاثني عشرية من حديث الآحاد، وهو كل حديث صحيح لم ينقل بالتواتر؛ فإن هنالك مذهبين واضحين؛ أما الأول، فهو مذهب الأخباريين الذي يقبل الحديث الآحاد، وكيف لا يقبل الأخباري حديثًا آحادًا صحيحًا ما دام يرى قطعية كل الكتب المروية عن الأئمة دون تمحيص ودون أن يقسمها إلى صحيح وضعيف؟! فلأن يقبل الصحيح الآحاد من باب أولى.

أما من فرق بين الصحيح وغيره كالأصوليين؛ فإنهم نصوا على أن الآحاد لا يفيد اليقين؛ ولذلك قال المفيد - معبرًا عن هذا المذهب - : «الأحاديث التي رويت في صفة الملائكة الحاملين للعرش أحاديث آحاد، وروايات أفراد لا يجوز القطع بها ولا العمل عليها، والوجه الوقوف عندها والقطع على أن الأصل في العرش هو الملك، والعرش المحمول جزء من الملك، تعبد الله بحمله الملائكة على ما قدمناه» (٣).

(١) مولى محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (١٦/٢).

(٢) انظر: هامش: المازندراني شرح أصول الكافي (٢٧٧/٤). وانظر: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعية الإمامية دراسة حديثة نقدية، د. عذاب محمود الحمش (ص ٤٥٠).

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٦٢).

وهذا الرأي مستعار من المعتزلة، فقد اتفقت كلمة المعتزلة على عدم جواز الاعتداد بأخبار الآحاد في مجال العقيدة، ويأتي ذلك نتيجة حتمية لما سبق أن قرروه من إفادتها الظن وقصورها عن الارتقاء إلى مرتبة اليقين، ولما كانت مسائل العقيدة لا يقبل فيها سوى القطعيات؛ لم يصحَّ الاحتجاج عندهم بأخبار الآحاد في إثباتها أو التذليل عليها^(١). أما عند أهل السنة فإن المحدثين عموماً جروا على وجوب قبول حديث الآحاد ما دام صحيحاً، وهو رأي الإمام الأشعري من أهل الكلام، فإن الأشعري ذاته لم يفرق بين الآحاد والمتواتر من حيث الاستشهاد في كتابه الإبانة عندما قال: (وما رواه الثقات عن رسول الله لا يردون من ذلك شيئاً)^(٢)، وقد استشهد بها في الإبانة، وإن كان أتباعه من بعده تدرجوا حتى اقتربوا من منهج المعتزلة والاثني عشرية في ردِّ حديث الآحاد، وذلك تطور ملحوظ في المذهب لا يجوز أن يغفل^(٣).

مثال يوضح الفرق بين منهج الأصوليين والأخباريين:

- حول ما روي عن حمارٍ كَلَّمَ النبي ﷺ:

روي أن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «إنَّ ذلك الحمار كَلَّمَ رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي! إنَّ أبي حدَّثني عن أبيه عن جدِّه عن أبيه أنه كان مع نوح في السفينة، فقام إليه نوح فمسح على كفه ثم قال: يخرج من صلب هذا الحمار حمارٌ يركبه سيِّد التَّيِّبِينَ وخاتمهم. فالحمد لله الَّذي جعلني ذلك الحمار»^(٤).

علق المجلسي على هذه الرواية: قائلًا: «ولا يستبعد من كلام الحمار من يؤمن بالقرآن

(١) د. أحمد قوشتي عبد الرحيم حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص ١٥٢).

(٢) أبو الحسن الأشعري: الإبانة (ص ٢٧).

(٣) «وتظهر أول بادرة للتفريق بين الآحاد والمتواتر في الاحتجاج على المسائل العقيدية عند الباقلاني، والذي يرى أن خبر الواحد لا يوجب العلم وإنما يوجب العمل، ويرى قبوله إن تلقته الأمة بالقبول (التمهيد ص ١٦٤)، ثم استقر المذهب فيما بعد الجويني على اعتبار أن الآحاد لا يعول عليها في مجال العقيدة وصرح به الغزالي (في المنحول والمستصفي ١٤٥/١) والجام العوام (ص ٧٧) والأمدني في غاية المرام (ص ٣٦٨)، وابن العربي في العواصم من القواصم (ص ١٧٢)، والتفتازاني وابن جماعة، والإيجي في المواقف (ص ٣٦١). والرازي الذي حكى الاتفاق بين الأصوليين على عدم اعتماد الآحاد في العقائد: في المطالب العالية (٢٠٣/٩) وعصمة الأنبياء (ص ١٠٥). انظر: د. قوشتي حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة، أحمد قوشتي عبد الرحيم (ص ١٥٨، ١٥٩).

(٤) أصول الكافي (٢٩٣/١) باب ما عند الأئمة من سلاح رسول الله ومتاعه.

وبكلام الهدهد والنمل وغيرهما « وهذا يدل على منهج أخباري واضح.

في حين قال محمد جعفر شمس الدين محقق أصول الكافي: « ونحن وإن كنا نؤمن بما قصه الله سبحانه علينا من كلام الهدهد والنمل وغيرهما، ولكننا لسنا أمام قرآن يحدثنا فنعلم قطعيته صدوراً ودلالة؛ وإنما نحن أمام قول من دون سند مصدر بمقولة (روي) ولكن أين روي ومن الراوي؟ هذا من جهة... لكل ذلك نميل إلى طرح ذيل هذه الرواية، بل نميل إلى أنها من جملة المدسوسات التي كان أبو الخطاب أو ابن أبي العوجاء الذي دسها ليشنع علينا ويشكك في مروياتنا وأحاديثنا، كما ثبت أن هذين وأمثالهما قد دسًا في أحاديث أهل البيت مئات الأحاديث المكذوبة عليهم، والحديث ضعيف وآخره مرسل » (١).

من هذا المثال نرى الفرق بين منهج المجلسي (الأخباري) الذي يرى صحة ما روي عن الأئمة دون تمحيص فيدافع عن هذا الخبر الواهن الواهي الذي لا معنى له، حيث لم يكن أصلاً في سفينة نوح إلا حمار واحد لقوله تعالى لنوح صَلِّ عَلَىٰ: ﴿ فَأَسْلَفَ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فلا بد من أن يكون غفير (كما جاء اسم الحمار في رواية الشيعة) من نسل ذلك الحمار الوحيد على السفينة، وكذلك كل حمير الدنيا من نسل ذلك الحمار!.

أما محقق أصول الكافي فيسلك مسلك الأصوليين فيمحص في الخبر، ولكن لنا معه وقفة أن هذا الخبر لا ينال من شيء من أمور عقائد التشيع الخاصة كالإمامة؛ ولذلك فإعمال العقل فيه سهل ولا مندوحة فيه، أما عندما تتعلق المسألة بأمر من أمور العقائد - كالإمامة وصفات الإمام - فهناك كثير من الروايات كانت تحتاج من المحقق الوقوف عندها ومناقشتها، ولكنه لم يفعل، بل أقر بصحتها رغم مخالفتها لصريح القرآن الكريم؛ كالقول بوجود الكتب السماوية غير محرقة عند الأئمة، وقد ذكر لنا القرآن تحريف تلك الكتب عند أهلها.

ثم لما ذكر المحقق وجود دس من الغلاة في كتب الشيعة، لم يحدد لنا هذا الدس، ويبين الأحاديث المدسوسة من غيرها، وهكذا تصبح كل رواية تخالف المذهب من دسائس الغلاة!.

(١) أصول الكافي (٢٩٣/١) باب ما عند الأئمة من سلاح رسول الله ومتاعه. هامش رقم (٣).

الحكم بالتضعيف عند الشيعة لا يعني عدم الاعتماد على الحديث:

ليس الكلام هنا عما ورد عن أهل السنة ^(١) وأهل التشيع من الاستئناس بالحديث الضعيف الذي لم يصل دركة شديدة الضعف. فقد قال بذلك كتاب من أهل السنة والشيعة على السواء: يقول الشهيد الثاني (زين الدين بن نور الدين علي بن أحمد العاملي ت ٩٦٥ هـ): « جَوِّزُ الأكثرُونَ العملَ بالحديثِ الضعيفِ في نحوِ القصصِ والمواعظِ وفضائلِ الأعمالِ، لا في نحوِ صفاتِ اللهِ تعالى، وأحكامِ الحلالِ والحرامِ، وهو حسنٌ حيث لا يبلغُ بالضعيفِ حدِ الوضعِ والاختلاقِ، لما اشتهر بين العلماءِ المحققين من التساهلِ بأدلةِ السننِ، وليس في المواعظِ والقصصِ غيرِ محضِ الخبرِ » ^(٢). بل جاء في إحدى الروايات عن أبي عبد الله عليه السلام: « من سمع شيئاً من الثوابِ على شيءٍ فصنعه؛ كان له أجره، وإن لم يكن على ما بلغه » ^(٣)!!.

بل الكلام عما يدور حول تصحيح روايات اثني عشرية ضعيفة، ما دامت تخدم المذهب؛ مما يجعل التضعيف والتصحيح مزاجيًا انتقائيًا. فمن المعلوم في علم الحديث أن كثرة رواية الراوي عن الضعفاء دون ضوابط تتسبب بتضعيف رواياته وجرحه، ولكن عبد الرسول غفار يدافع عن الرواية عن المخالفين للاثني عشرية؛ فيقول مدافعًا عن ابن محبوب الذي روى عن أحد الواقفة هو علي بن حمزة البطائني ^(٤): « فالتعين هو علي بن حمزة البطائني حيث كان معاصرًا لابن محبوب، ثم في رواية الثقة عن غيره من المخالفين لا يقدح في عدالة الراوي الثقة، كما أن الكذب قد يصدق، فلو كان الخبر المنقول وفق الموازين السليمة فلا ضير فيه » ^(٥).

(١) هناك أربعة أقوال متعددة في حكم العمل بالحديث الضعيف عند أهل السنة، وأوسطها - والله أعلم - العمل به بشروط: وهي (ألا يكون شديد الضعف، ويندرج تحت أصل معمول به في الدين، وألا يعتقد ثبوته عند العمل به، بل الاحتياط) راجع الأستاذ الدكتور: مصطفى البغا: بحوث في علوم الحديث ونصوصه (ص ١٣٥، ١٣٦)، منشورات كلية الشريعة - جامعة دمشق.

(٢) مقباس الهداية (١/١٩٢). وانظر: شرح المازندراني على أصول الكافي (٨/٢٧٥).

(٣) الكليني: أصول الكافي مع شرح المازندراني (٨/٢٧٤)، وقال في شرحه: الحديث حسن الطريق، مؤيد بالخبر الذي بعده، وساق رواية قريبة منه تؤيده.

(٤) جاء في رجال النجاشي: « روي عن أبي عبد الله عليه السلام، ثم وقف، وهو أحد عمد الواقفة » رجال النجاشي (ص ٢٤٩، ٢٥٠) مؤسسة النشر الإسلامي - قم (١٤١٦ هـ) ومع ذلك كان هو قائد أبي بصير - الراوي الأكثر عن الأئمة - وروى عنه عدة روايات. وله في الكافي (٤٦) رواية كما يتت عند الحديث عن كتاب الكافي.

(٥) عبد الرسول عبد المحسن غفار: الكافي والكليني (ص ٤٧٦)، مؤسسة النشر الإسلامي (١٤١٦ هـ)، =

وأى موازين سليمة مع قوله: (الكذب قد يصدق)؟ لم يبق من هذه الموازين إلا موافقة ضرورات مذهب الاثني عشرية!

وعلى سبيل المثال: رواية تعلق عدم دخول آدم عليه السلام في أولي العزم من الرسل؛ ففي تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ... ﴾ [آل عمران: ٨١]: « عن أبي جعفر.. ثم أخذ الميثاق على النبيين... قالوا: أقررنا يا رب ولم يجحد آدم ولم يقر، فثبتت العزيمة لهؤلاء الخمسة في المهدي، ولم يكن لآدم عزم على الإقرار به، وهو قوله تعالى: ﴿ وَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسَىٰ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ [طه: ١١٥].. » هذا الحديث حكم عليه محقق أصول الكافي بأنه مجهول، ومع ذلك قال في شرحه للحديث: « يفهم من هذا أن آدم عليه السلام لما لم يعزم على الإقرار بالحجة (عج) (١) خرج عن كونه من أهل العزم » (٢).

فما دام الحديث مجهولاً ما كان ينبغي زيادة التأكيد والتفهم والتوضيح حوله، « ومن المعلوم أن تجرد الرواية الضعيفة من أي قيمة علمية » (٣). وهذا الاهتمام

= وكلامه غير مسلم به، فقد اتهم بعض الأصحاب من الشيعة ابن محبوب بسبب روايته عن أبي حمزة الشمالي. قال الخوئي: معجم رجال الحديث (٨٦/٣) : قال الكشي عن نصر بن الصباح: ما كان أحمد بن محمد ابن عيسى يروي عن ابن محبوب؛ من أجل أن أصحابنا يتهمون ابن محبوب في روايته عن أبي حمزة الشمالي، ثم تاب ورجع عن هذا القول. « إضافة إلى روايته عن الواقف (علي بن أبي حمزة) ومع ذلك يبقى هذا الراوي من الثقات عند الشيعة.

وقد روى عدة من المحدثين أحاديث الحسن بن محبوب عن علي بن أبي حمزة؛ فقد روى له الكليني في الكافي (١٣٨/٣) : عن سهل بن زياد، عن ابن محبوب، عن علي بن أبي حمزة قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: « المرأة تقعد عند رأس المريض وهي حائض في حد الموت؟ فقال: لا بأس أن تموضه، فإذا خافوا عليه وقرب ذلك فلتنتخ عنه وعن قربه، فإن الملائكة تتأذى بذلك »!! وحديث آخر (٣٠٨/٣)، و (٢١٠/٨)، وروى له في ما لا يحضره الفقيه عن ابن محبوب أيضًا (٣٩١/٢)، والصدوق في إكمال الدين وتمام النعمة (ص ٢٣٤) عن أبي بصير عن الصادق: إن الله أجل وأعظم من أن يترك الأرض بغير إمام. « ولهذا نرى أن السبب في الرواية عن هذا الرجل طول صحبته لأبي بصير، وروايته لأحاديث مهمة تدعم عقيدة الإمامة.

(١) رمز لدعائهم للإمام: عجل الله فرجه، أي خروجه وظهوره من غيبته الطويلة.
 (٢) أصول الكافي (١١/٢) كتاب الإيمان والكفر (٣) باب آخر منه (زيادة وقوع التكليف الأول). انظر هامش رقم (١). وترد عليه رواية تعلق تسميتهم بأولي العزم؛ لأنهم أنزل عليهم كتب ألزم من بعدهم باتباعها انظر: أصول الكافي (٢١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرائع، وهي رواية موثقة.
 (٣) الشيخ محمد حسين الفقيه: لماذا أنا شيعي؟ (ص ٧٤)، دار الغدير للدراسات والنشر - بيروت (ط ٣)، (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

بالضعيف وشرحه يدل على جواز الاستدلال به في موضوع خطير وهو الإقرار بالإمام، وإن كان هذا الحديث يتعارض مع روايات أخرى تؤكد التوقف عن الإقرار بالأئمة تخرج المرء من دائرة الإيمان!

فكيف يتجرأ الرواة والشارحون على مقام أبي البشر آدم عليه السلام فينسبون إليه ما يحذرون منه عامة الناس، وهو خطر إنكار الأئمة؟!.

إن أهمية موضوع الإمامة في الفكر الشيعي وما يقترب من محيطها يجعل التصحيح والتضعيف دون معيار؛ فيضرب الصفح عن علم الرجال والجرح والتعديل، فهناك عقيدة يجب تثبيتها بأي وسيلة.

ومن أجلى أمثلة ذلك ما جاء في (باب أن الحجة لا تقوم لله على خلقه إلا بإمام) في الكافي. « وفيه أربع روايات.. الصحيح الذي فيها أحد رواته داود البرقي من أصحاب الصادق، نص النجاشي في رجاله أنه كان من الغلاة، وقال عنه الغضائري إنه كان فاسد المذهب، يأتي بالموضوعات. ومع ذلك صححه المجلسي » ^(١).

فإذا كنا نخشى من غلو الأخباري في قبول كل حديث في الأصول الأربعة، على ما فيها من أخبار غير مقبولة؛ فإننا نخشى أيضاً التصحيح والتضعيف عند الأصوليين على مقياس (الحفاظ على ضرورات المذهب) وعلى قاعدة (الكذب قد يصدق) والتصحيح والتضعيف كميّاً، وهو ما يشم من قول أحدهم: « إنما يكون الحديث حجة على الشيعي الذي ثبت عنده الحديث بصفته الشخصية، وهذه نتيجة طبيعية لفتح باب الاجتهاد لكل من له الأهلية؛ فإن الاجتهاد يكون في صحة السند وضعفه، كما يكون في استخراج الحكم من آية أو رواية » ^(٢).

وهذا هو في الحقيقة أس الخلاف بين أهل السنة والاثني عشرية: قضية الحديث النبوي، وكيفية الحكم على الحديث، والاتفاق على الأحاديث المشتركة بين الطائفتين؛ ولذلك أدرك الإمام المحدث المفسر ابن كثير: استحالة الحوار دون وجود قواسم حدِيثية مشتركة؛ حيث قال بعد أن ساق أحداث الفتنة - وفيها ما فيها من خلاف بين روايات الطائفتين -:

(١) المجلسي: مرآة العقول (٢٩٣/٢)، وانظر: أحمد حارس سحيمي توثيق السنة: بين الشيعة الإمامية وأهل السنة في أحكام الإمامة ونكاح المتعة (ص ٣٣٤، ٣٣٥). ماجستير دار العلوم. دار السلام - القاهرة (٢٠٠٣)، (ط ١).

(٢) باقر شريف القرشي: سلامة القرآن الكريم من التحريف (١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م). (ص ٧٠).

« هذا ملخص ما ذكره أبو جعفر ابن جرير رحمته الله عن أئمة هذا الشأن، وليس ما ذكره أهل الأهواء من الشيعة وغيرهم من الأحاديث المختلفة على الصحابة والأخبار الموضوعة التي ينقلونها بما فيها، وإذا دعوا إلى الحق الواضح أعرضوا عنه، وقالوا: لنا أخبارنا ولكم أخباركم، فنحن حينئذ نقول لهم: ﴿ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَا نَبْنِيَنَّ الْجَاهِلِينَ ﴾ [القصص: ٥٥] »^(١).
أصوليون ولكتهم أخباريون!:

ومن الملاحظ أن الأصوليين وهم المشهورون بجسارتهم على التضعيف والتصحيح - يتحولون إلى أخباريين لا قدرة لهم على رد الحديث أو مناقشته ما دام هذا الحديث يتناول مسائل تتصل بضروريات المذهب كمسألة المهدي المنتظر وما شابه ذلك من مسائل. يقول السيد محمد الصدر في مقدمة كتاب (تاريخ الغيبة الصغرى): « الأمور التي هي من ضروريات مذهبنا أو قام عليها بالتواتر في النقل فإننا نعتبر ذلك إثباتاً تاريخياً كافياً »^(٢).

وهكذا نرى أنه يساوي بين ضرورة المذهب والتواتر! مع أن المنطق يقول: إن التواتر هو السبيل لوصول فكرة ما لتصبح ضرورة من ضروريات المذهب.

وعندما يحتاج الاثنا عشرية إلى أحاديث تدعم مسألة عقديّة؛ فلن يتورع علماءهم عن الاستشهاد بأحاديث لها أسانيد واهية فيها الضعفاء والمجروحون، وعلى سبيل المثال: « نرى الشيخ الطوسي الذي ألف (الفهرست)^(٣) و (الرجال) في علم الرجال ينقل تلك الروايات عن رجال يضعفهم في كتبه، وذلك بسبب الحاجة إلى تلك الروايات لبناء نظرية كلامية معينة »^(٤). وعلى سبيل المثال: رواية أبي الأديان البصري، وهو مجهول غير معروف^(٥).

(١) البداية والنهاية (٢٥٧/٧).

(٢) انظر السيد محمد الصدر في مقدمة كتاب (تاريخ الغيبة الصغرى) (ص ٣٣ - ٤١)، وقد نقلت هذا النص من كتاب المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثة نقدية، د. عذاب محمود الحمش (ص ٤١٥).

(٣) لاحظ أن الفهرست للطوسي غير الكتاب المشهور (الفهرست) لابن النديم: (محمد بن إسحاق أبو الفرج) الذي يتحدث عن المؤلفات العلمية وأصحابها.

(٤) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٢٠٥)، انظر المرجع السابق (ص ٢١٠).

(٥) المرجع السابق (ص ٢١٠). وتذكر المصادر الشيعية كالصدوق في كمال الدين (٤٧٤/١) أنه كان خادماً للحسن العسكري، لكن لا تذكر أي معلومات حوله، بينما تذكر مصادر أهل السنة أنه من شيوخ =

في حين وجدنا من علماء الشيعة المعاصرين - كالسيد مرتضى العسكري - من يستخدم التضعيف والتصحيح لصالح آرائه، فتراه يبذل « جهودًا مضنية » لكي ينفي وجود عبد الله بن سبأ ودوره في الفكر الشيعي، ولكنه لم يبذل واحدًا بالمائة أو بالألف من الجهود لبحث عن حقيقة وجود الإمام الثاني عشر، أو يدرس تلك الروايات التي تتحدث عن ولادته، ولم يتوقف عندها في كتاب من كتبه، وهو الذي اكتشف وجود مائة وخمسين صحابي مختلف!!^(١) - حسب زعمه - ولو حكّم هو وأمثاله تلك القواعد التي انتقد فيها روايات أهل السنة في الروايات الشيعية لوصل إلى إنكارها وحكم بوضعها، ولكنه لن يفعل، فالتضعيف والتصحيح صار ذاتيًا لا معياريًا عند هذا الكاتب وأمثاله.

« ولو أن علماء الشيعة الإمامية قاموا بنقد مصادر الاعتقاد والفكر والتشريع والتاريخ، وأوضحوا لمقلديهم أن هذه الروايات التي بنيت بعض العقائد وكثير من المواقف الشيعية عليها غير صحيحة بل هي باطلة... وهي أثر من آثار الصراع الطائفي القديم؛ لكان أبناء الشيعة الإمامية في طليعة المسلمين دينًا وإيمانًا وخلقًا؛ لأن في تربيتهم من الانقياد للمجتهد الحي ما يساعد على ذلك »^(٢).

ولذلك فإننا « ننادي الشيعة بنبذ تلك الروايات التي تخالف كتاب الله والعقل الصريح، والتي تمثل الغالبية العظمى في هذه الكتب، إننا نناديهم بأن يخطوا خطوة شجاعة فيفعلوا كما فعل أهل السنة؛ حيث أخرج أهل السنة كتبًا خاصة بالأحاديث الصحيحة عن النبي ﷺ، وكتبًا خاصة بالأحاديث الموضوعية والمكذوبة، وكتبًا خاصة بالأحاديث الضعيفة وهكذا... وبهذا تبرأ الذمة ويذبّ عن الكتاب والسنة »^(٣).

* * *

= الصوفية. انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد (٣٨٠/٥)، ابن عساکر: تاريخ دمشق (٤٩٠/٥).

(١) د. عذاب محمود الحمش: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثة نقدية (ص ٤٢٢).

(٢) المرجع السابق (ص ٤٠٩).

(٣) علماء الشيعة يقولون: وثائق مصورة من كتب الشيعة، إعداد مركز إحياء تراث آل البيت (ص ٦).

والحقيقة أن بعض علماء الشيعة مشوا على هذا الطريق، والأمة تطالبهم بمتابعة المسير فيه بجرأة وجدّة، وتطالب إخوانهم بتشجيعهم وتأييدهم.

المطلب الرابع

ردود على بعض شبهات كتاب الشيعة حول الحديث النبوي

من الأمور التي تسترعي الاهتمام أن كتاب الشيعة ينقلون من أمهات الكتب الحديثية لأهل السنة؛ وذلك إما بقصد الحجاج، أو دعم آرائهم العقدية، أو الاستكثار من الأحاديث فيما لا يمس عقيدة الإمامة، فيأخذون من الصحيحين ما يوافقهم، في حين أن أهل السنة لا يروون عن كتب الاثني عشرية؛ وذلك لاستقلال أهل السنة في مصادرهم وشروط قبول الحديث عندهم، ولما شاع لدى السنة من اتهام رواة الاثني عشرية بالوضع؛ مما سبب في النهاية قلة اطلاع كثير من علماء السنة على أحاديث الشيعة، وبالتالي الجهل العميق بمنهجهم وعقائدهم.

وإن عدم اطلاع أي فريق على أدلة خصومه وأسلحته سيؤدي إلى ضعف الحجة لدى مناقشته، وخصوصًا إذا كان هذا الخصم مطلعًا على أدلة خصمه محيطًا بها، وهذا سيؤدي إلى فتنة للعامة.

فعلى علماء أهل السنة المعاصرين - وخصوصًا من يحتكون بالاثني عشرية أو يسعون للتقريب بين المذاهب الإسلامية - أن يكونوا على تضرع ومعرفة بما في كتب الشيعة. وهذا ليس بدعًا من القول؛ فقد كان العلماء السابقون من أهل السنة على اطلاع واسع على كتب الفرق الأخرى ومقالاتهم، ومن قرأ كتاب (مقالات الإسلاميين) للأشعري، يقر بما كان عند علماء المسلمين القدامى من سبر واسع لأفكار وكتب الفرق الأخرى.

ومن المؤسف أن بعض كتاب الشيعة المعاصرين جلسوا في خندق واحد مع المستشرقين في حملة التشكيك بالسنة النبوية. ومن أمثلة ذلك أنهم يستشهدون في ضرب السنة والحديث بما ذكره المستشرقون في افتراءاتهم، وينقلون عن أذنان المستشرقين كأبي رية، و (يؤستذونه) كأنه عملاق من عمالقة الحديث النبوي!! فهذا أحدهم يقول ناقلاً وماشيًا وراء أبي رية حذو القذة بالقذة: « قال الأستاذ أبو رية: كان من آثار تأخير تدوين الحديث وربط ألفاظه بالكتابة إلى ما بعد المائة الأولى من الهجرة وصدر كبير من المائة الثانية أن اتسعت أبواب الرواية وفاضت أنهار الوضع بغير ضابط ولا قيد » (١).

(١) مهدي المهري: نصوص الحديث ونهج البلاغة (ص ٦١)، عن أبي رية: أضواء على السنة المحمدية (ص ١٨٨).

ويغفل هؤلاء أن مكاييد المستشرقين والعلمانيين وأذيالهم تنال من الحديث النبوي السني والشيوعي على السواء، ولكنه التعصب المذهبي المقيت يأتي بالخراب على صاحبه قبل الآخرين.

والسنة النبوية محفوظة بحفظ الله تعالى، ولن تصمد شبهات هؤلاء في وجه السنة ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨].
وعلى حد قول الشاعر:

كناطح جبلاً يوماً ليوهنه فلم يضره وأوهى رأسه الوعل

وتأمل - بشيء من الصبر والحلم - قول أحدهم مشككاً في السنة الشريفة: « وجاء في كتب السنة أنفسهم أن جماعة منهم تعمد وضع الأحاديث على لسان رسول الله، واحتجوا بأنهم يكذبون تأييداً لدينه وانتصاراً لشريعته » (١).

ومعلوم أن العلماء نخلوا الأحاديث فبيّنوا صحيحها من سقيمها، ثم هذا النص أخذه جواد مغنية عن كتاب (أضواء على السنة المحمدية) لأبي رية (٢). وهذا الكتاب غير معترف به عند أهل السنة، ولا يصح الاستدلال به على أهل السنة. ولو جاز للشيعة أن يحكموا بمثله على أهل السنة، جاز إذن أن نحكم على الشيعة من خلال كتاب (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب)، ولكن العجيب أن دور النشر الشيعة في العالم العربي تنشر كتاب أبي رية بناءً على إطراد علماء الشيعة له، وتتبنى تسويقه وإذاعته رغم إنكار العالم الإسلامي له ولأمثاله من الكتب التي تطعن في الحديث النبوي؛ فقد وجدّت عدداً من نسخته عند عدد من الدور الشيعة في معرض الكتاب الدولي في دمشق، وعلى سبيل المثال مؤسسة الأعلمي للطبوعات، وهي دار شيعة بحتة.

- ويتهم كتاب الشيعة الصحابة عموماً بالوضع بالأحاديث، ولم يتورع بعضهم أن ينسب إلى أبي بكر ﷺ ذلك أيضاً، يقول أحدهم في حق صحابة النبي ﷺ عموماً وأبي بكر ﷺ خاصة: « ولن يتركوا الرئاسة بسبب كلام الله، غاية الأمر أن أبا بكر يحل المسألة بوضع حديث كما حصل بالنسبة لآيات الإرث، أما عمر فلا يستبعد منه أن يقول في آخر الأمر: إن الله أو جبرئيل أو النبي قد اشتبهوا في هذه الآية فيتركها، والسنة

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٨٦).

(٢) أبو رية: أضواء على السنة المحمدية (ص ١٠٢)، (١٩٥٨م).

حينئذ ستتبعه، كما تبعوه في جميع تغييراته التي أوجدها في دين الإسلام» (١).
 مع أن أبا بكر رضي الله عنه قال للصحابة في أول خلافته: «أيها الناس إني قد وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني» (٢). وفي طبقات ابن سعد: «أيها الناس! إنما أنا متبع ولست بمبتدع، فإن أحسنت فأعينوني، وإن زغت فقوموني» (٣). فمن رام الابتداع في الدين لم يكن ليبدأ خلافته بتشجيع الصحابة على نصحه وتقويمه. ثم إن من بين الذين خاطبهم في هذه الخطبة الجليلة علي رضي الله عنه الذي لم يكن يخاف في الله لومة لائم، فهل شعر من اتهم الصحابة بمجاراة أبي بكر واتباعه أنه في الحقيقة ينال من علي رضي الله عنه الذي كان كثير النصح لأبي بكر، وعمر وعثمان من بعده؟! -
 ولما كان عمر رضي الله عنه يخوف الناس بالله حفاظاً على سنة النبي صلى الله عليه وسلم؛ ولذلك لم يكن يقبل أي حديث إلا بعد الوثوق منه بالبينة خوف الوضع في الحديث، استغل بعض كتاب الشيعة ذلك فقال أحدهم: «فنتخذ أن الهدف الأساس من منع رواية الحديث ونقله هو الهدف من منع تدوينه وتقييده وضبطه، وهو إخفاء الأحاديث الدالة على إمامة أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، وعلى أساس سياسة مدبرة» (٤).

مع أن عمر رضي الله عنه كان يهدف من تحفظه ضبط السنة، ومنع الوضع في الحديث، فقد قال معاوية رضي الله عنه: «إياكم وأحاديث إلا حديثاً كان في عهد عمر، فإن عمر كان يخيف الناس في الله صلى الله عليه وسلم» (٥).

وقد كان عمر يتشدد في قبول الحديث ويطلب البينة على الحديث في أي موضوع كان، وعلى سبيل المثال: حديث الاستئذان: عن عبيد بن عمير: «أن أبا موسى استأذن على عمر ثلاثاً، فكأنه وجده مشغولاً فرجع، فقال عمر: ألم تسمع صوت عبد الله بن قيس؟ ائذنوا له، فدعي له، فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إنا كنا نؤمر بهذا. قال: لتقيمنا على هذا بينة أو لأفعلن. فخرج فانطلق إلى مجلس من الأنصار، فقالوا: لا يشهد

(١) روح الله الخميني: كشف الأسرار (ص ١٢٦)، عن علماء الشيعة يقولون (ص ٨٧)، مصورة من أصل الكتاب.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك (٢٣٨/٢).

(٣) طبقات ابن سعد: الطبقات الكبرى (١٨٣/٣)، ابن عساکر: تاريخ دمشق (٣٠١/٣٠).

(٤) محمد رضا الحسيني الجلاي: تدوين السنة الشريفة (ص ٤٧٠)، (ط ٢)، (١٤١٨هـ) مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.

(٥) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة رقم (١٠٣٧).

لك على هذا إلا أصغرنا، فقام أبو سعيد فقال: كنا نؤمر بهذا، فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ﷺ؟! ألهاني عنه الصفق بالأسواق» (١). والعجيب أن الكاتب يأتي من هذا الحديث بما يعجبه، فلا يذكر من هذه الرواية إلا قول عمر: «والله لتقيمن عليه بينة» وفي لفظ: «أقم عليه البينة وإلا أوجعتك» ليستدل بها على العنوان الذي اجترأ عليه قائلاً: (عمر يهدد الصحابة على الحديث ويهينهم) (٢) [يقصد بسبب رواية الحديث]. ولا يذكر خضوع عمر لأبي سعيد وهو من صغار السن بين الصحابة، في آخر عبارة في الرواية التي اجترأها، ولا يذكر إقرار عمر بصحة الحديث بعد ما تبين له، ولا يذكر تحسّر عمر واعترافه بخفاء الحديث عليه بسبب انشغاله بتجارته: «فقام أبو سعيد فقال: كنا نؤمر بهذا، فقال عمر: خفي عليّ هذا من أمر رسول الله ﷺ؟! ألهاني عنه الصفق بالأسواق» (٣). وهذا هو المنهج الانتقائي الذي عوّدنا عليه «نقاد» الشيعة في قراءتهم لسنة النبي ﷺ وشبهاتهم عليها.

- ويتهم بعض كتاب الاثني عشرية فرسان الحديث النبوي الثقات بالكذب والنفاق!! يقول عبد الحسين شرف الدين في حقّ راوية الإسلام أبي هريرة رضي الله عنه: «استعبد بنو أمية أبا هريرة بيزّهم، فملكوا قياده، واحتلّوا سمعه وبصره وفؤاده، فإذا هو لسان دعايتهم في سياستهم، يتطور فيها على ما تقتضيه أهواؤهم، فتارة يفتتت الأحاديث في فضائلهم.. وتارة يلفق أحاديث في فضائل الخليفين نزولاً على رغائب معاوية... وتارة يرتجل أحاديث يدافع فيها عن مناقبي بني أمية» (٤).

ويختلق عبد الحسين صورة في وصف أبي هريرة في معركة صفين أنه «كان يعجبه المضيرة (٥) جدًّا فيأكلها مع معاوية، فإذا حضرت الصلاة صلّى خلف علي، فإذا قيل له قال: مضيرة معاوية أدسم، والصلاة وراء علي أفضل، فكان يقال له: شيخ المضيرة!» (٦).

(١) صحيح البخاري: كتاب التجارة، باب الخروج في التجارة، وصحيح مسلم: كتاب الآداب، باب الاستئذان رقم (٢١٥٣).

(٢) محمد رضا الحسيني الجلالى: تدوين السنة الشريفة (ص ٤٣٤، ٤٣٥)، (ط ٢)، (١٤١٨هـ)، مركز النشر التابع لمكتب الإعلام الإسلامي.

(٣) صحيح البخاري: كتاب التجارة، باب الخروج في التجارة، وصحيح مسلم: كتاب الآداب، باب الاستئذان رقم (٢١٥٣).

(٤) عبد الحسين شرف الدين: أبو هريرة (ص ٤٥ - ٤٧).

(٥) المضيرة مريّة تطبخ باللبن الحامض.

(٦) عبد الحسين شرف الدين: أبو هريرة (ص ٢١٣).

مع أن أبا هريرة رضي الله عنه لم يحضر حرب صفين، بل كان مع من اعتزل الفتنة من الصحابة الكرام رضي الله عنهم.

ولم تأت اتهامات عبد الحسين لأبي هريرة والصحابة الكرام من فراغ، فلها جذور عميقة غائرة في التراث الاثني عشري؛ فقد جاء في بحار الأنوار: « ثلاثة كانوا يكذبون على رسول الله أبو هريرة وأنس وامرأة » ^(١) وقد جاء في هامش بحار الأنوار بيان ما أبهمته الرواية: (عائشة)!

ولماذا لا يصرح من في قلبه مرض بأنهم يحقدون على الحديث النبوي بالطعن على أشهر رواته كأبي هريرة وأنس ^(٢)، وعائشة، أكثر أمهات المؤمنين حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم. الرد على تشكيك الاثني عشرية بتوثيق أحاديث الصحابة (أبو هريرة رضي الله عنه نموذجًا):

إن الشيعة - في الغالب - لم يحتجوا بأحاديث كل الصحابة الذين روى لهم أهل السنة؛ بل رووا عن أعجبهم موقفه من علي وآل بيته وحروبهم، وهكذا فاتهم من الأحاديث النبوية التي يرويها أهل السنة الشيء الكثير.

وحسبك أن تعلم أنهم لم يرووا عن راوية الإسلام أبي هريرة رضي الله عنه حديثًا واحدًا في أصولهم الحديثية؛ بل إنه رضي الله عنه لم يسلم منهم، فأنكروا رواياته واستكثروها، واستغربوها، وشككوا بها، في حين نسبوا لبعض أتباعهم أنه روى عن أئمتهم أضعاف أضعاف ما رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

فإذا كان كل ما رواه أبو هريرة لا يتجاوز ستة آلاف (٥٣٧٤ حديثًا) عن النبي صلى الله عليه وسلم،

(١) بحار الأنوار (٢١٧/٢)، (١٠٢/٢٢ - ٢٤٢)، (٦٤٠/٣١) .

(٢) دمرت الدهماء في هذا اليوم ٢٦ محرم (١٤٢٧ هـ) الموافق لـ (٢٠٠٦/٢/٢٤ م) ضريح سيدنا أنس ابن مالك في مدينة البصرة، بحجة هدم مجهولين - غير معروفين - ضريحي الإمام الهادي والعسكري في سامراء في ٢٤ محرم، في فتنه عمياء مدبرة بليل، وقد صدرت تصريحات المراجع الشيعة التي استنكرت هدم ضريحي الإمامين الهادي والعسكري، ودعت إلى التظاهر السلمي في الشوارع؛ مما دعا الغوغاء ومن اندس فيهم من أعداء الإسلام، فقاموا بهدم (١٧٢) مسجدًا من مساجد أهل السنة وإحراقها وتمزيق مصاحفها أو الاستيلاء عليها في بغداد وغيرها من المناطق، ومقتل ما يزيد عن مائة وثلاثين مسلمًا هم أقدس وأطهر عند الله تعالى من الكعبة أقدس مكان، ذلك كله تحت مسموع من حكومة شيعة واحتلال أجنبي. فندعو المسلمين سنة وشيعة لنبذ نار الحقد والأضغان التي يشعلها الغرباء. وندعوهم للتأخي تحت راية الإسلام، ووالله الذي لا إله إلا هو! لو خرج أصحاب تلك الأضرحة لنهوا هؤلاء الدهماء عن هذه الأفعال.

فإنهم يروون أن جابر الجعفي روى عن إمامه اثني عشر ضعفاً أو يزيد عن إمام واحد من الأئمة؛ فقد قال الشيعة عن جابر الجعفي (١) أنه « روى سبعين ألف حديث عن الباقر عليه السلام، وروى مائة وأربعين ألف حديث » (٢).

وهذا عالم الشيعة في الجرح والتعديل أبو العباس النجاشي يروي في كتابه المعروف برجال النجاشي أن الراوي أبان بن تغلب روى عن الإمام جعفر الصادق ثلاثين ألف (٣٠٠٠٠) حديث!! (٣). فكيف ينسى عبد الحسين ذلك وهو ينتقد أبا هريرة ولم يرو ستة آلاف حديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم؟ (٤).

وحسب من أحب أبا هريرة وأمه بشارة النبي صلى الله عليه وآله وسلم له بالإيمان: فعن أبي هريرة رضي الله عنه: « قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « اللهم حبب عبديك هذا - يعني أبا هريرة - وأمه إلى عبادك المؤمنين وحبب إليهم المؤمنين ». فما خلق مؤمنٌ يسمع بي ولا يراني إلا أحبني » (٥).

أما عن الافتراء على أبي هريرة أنه كان محايياً لبني أمية، فنقول: ما كان أبو هريرة انتهازياً راکضاً وراء الدنيا؛ بل كان يصدع بالحق، ولم يكن تأخذه في كلمة الحق لومة لائم، فقد صدع بالحق في بيوت حكام بني أمية، كمروان بن الحكم، قال أبو زرعة: « دخلت مع أبي هريرة في دار مروان، فرأى فيها تصاوير » فما كان من أبي هريرة

(١) جابر بن يزيد بن الحارث الجعفي الكوفي، توفي سنة (١٢٧ هـ) وأخبار الشيعة فيه متناقضة كابن زرارة، فأخبار تجعله ممن انتهى إليه علم أهل البيت، وأخبار تطعن فيه.. ذكر الكشي: قال زرارة: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أحاديث جابر فقال: « ما رأيته عند أبي قط إلا مرة واحدة، وما دخل علي قط » لكنهم يحملون أخبار الطعن فيه على التقية. انظر: وسائل الشيعة: (٥١/٢٠)، رجال الكشي: (ص ١٩١)، جامع الرواة: (١٤٤/١). أما عند أهل السنة فقد قال ابن حبان: كان سبباً من أصحاب عبد الله بن سبأ. كان يقول: إن علياً يرجع إلى الدنيا، وروى العقيلي بسنده عن زائدة أنه قال: جابر الجعفي رافضي يشتم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقال النسائي وغيره: متروك. وقال يحيى: لا يكتب حديثه ولا كرامة، قال ابن حجر: ضعيف رافضي. انظر: ميزان الاعتدال: (٣٧٩/١، ٣٨٠)، تقريب التهذيب (١٢٣/١)، الضعفاء للعقيلي: (١٩١/١ - ١٩٦). انظر: د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (٢٠٣/١) هامش (٢).

(٢) الحر العاملي: وسائل الشيعة (٣٢٩/٣٠). وقال عنه: ضعفه بعض علمائنا، والأرجح توثيقه.
(٣) رجال النجاشي (٧٩، ٧٨/١)، وخاتمة وسائل الشيعة (١١٦/٢٠). انظر: البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان، عبد الله بن عبد العزيز بن علي الناصر (ص ٢٢).

(٤) انظر: المراجعات لعبد الحسين، مراجعة رقم (١١٠)، (ص ٧٢٢)، تحقيق حسين الراضي.

(٥) أخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه، رقم (٢٤٩١).

إلا أن ينصح مروان ويصدق بالحق، ويحدّث عن النبي ﷺ حديثاً يبين فيه مسألة التصاوير: « يقول الله ﷻ: ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقاً كخلفي، فليخلقوا ذرة، وليخلقوا حبة، وليخلقوا شعيرة »^(١). فهل يقول هذا الحق - دون خوف ولا محاباة - من كان همّه طعامه وشرابه؟!

وقد ثبت أن أبا هريرة كان يحدّث ولا يكثرث برضا ولاة بني أمية، فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا صلى أحدكم الركعتين قبل الصبح فليضطجع على يمينه ». فقال له مروان بن الحكم: أما يجزئ أحدنا ممشاه إلى المسجد حتى يضطجع على يمينه؟! قال عبيد الله في حديثه: قال: لا. قال: فبلغ ذلك ابن عمر فقال: أكثر أبو هريرة على نفسه. قال: فقيل لابن عمر: هل تنكر شيئاً مما يقول؟ قال: لا. ولكنه اجترأ وجبتاً^(٢).

وكان ﷺ يتخوّف على الأمة مما سيأتي بعد معاوية ﷺ من حكم قاهر، ويصرّح بذلك معلّناً وهو يمشي في سوق المدينة داعياً: « اللهم إني أعوذ بك من رأس الستين وإمارة الصبيان »^(٣). ومن المعلوم أن في عام ستين كان حكم يزيد وما جاء في حكمه من المصائب في مقدّماتها: مقتل الحسين ﷺ واستباحة جيش الأمويين مدينة النبي ﷺ. وقد استجاب الله دعاء أبي هريرة ﷺ فمات سنة سبع وخمسين للهجرة على الراجح، ولم يدرك إمارة الصبيان التي حذر الناس منها^(٤).

أسباب اشتهار أبي هريرة بالحديث:

إن من أهم أسباب اشتهار أبي هريرة بحفظ حديث النبي ﷺ: تفرغه لحديث النبي ﷺ، ودعاء النبي ﷺ له بقوة الحفظ، وتعميره طويلاً بعد النبي ﷺ على خلاف كثير من الصحابة، وقلة ممارسته السياسة - بما فيها من انشغال - كما مارسها غيره من الأصحاب، ومذاكرته لحديث النبي ﷺ في الأسفار.

وقد كان جريئاً في سؤاله النبي ﷺ؛ فقد قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة: « والذي

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري، باب نقض الصور رقم (٥٩٥١)، ومسلم في كتاب الألبسة، باب في تحريم صور الحيوان رقم (٢١٠٨) ترقيم دار القلم - دمشق.

(٢) سنن أبي داود (٤٠٤/١)، وسنده صحيح كما ذكر الشيخ الألباني.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ١٨٠)، وانظر: ابن كثير: البداية والنهاية (٢٢٩/٦).

(٤) انظر: ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة (٤٤٤/٧)، وقيل: توفي عام (٥٨) أو (٥٩). وقد رجّح

نفس محمد بيده، لقد ظننت أنك أول من يسألني عن ذلك من أمتي؛ لما رأيت من حرصك على العلم»^(١). وفي رواية قال: «لقد ظننت لا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك؛ لما رأيت من حرصك على الحديث»^(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أبو هريرة وعاء من العلم»^(٣). وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: فقلنا: يا رسول الله، ونحن نسأل الله علمًا لا ينسى. فقال: «سبقكم بها الغلام الدوسي»^(٤).

وعن سعيد بن المسيب أن أبا هريرة قال: «يقولون: إن أبا هريرة قد أكثر والله الموعد، ويقولون: ما بال المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه؟ وسأخبركم عن ذلك: إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أرضيهم، وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصنفق بالأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا وأحفظ إذا نسوا، ولقد قال رسول الله ﷺ يومًا: «أيكم يبسط ثوبه فيأخذ من حديثي هذا ثم يجمعه إلى صدره فإنه لن ينسى شيئًا سمعه؟» فبسطت بردة علي حتى فرغ من حديثه ثم جمعتها إلى صدري، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئًا حدثني به، ولولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئًا أبدًا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَأَهْدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ [البقرة: ١٥٩، ١٦٠]»^(٥). وقد أقر بحفظ أبي هريرة ابن عمر؛ إذ يقول له: «يا أبا هريرة أنت كنت ألزمتنا لرسول الله ﷺ وأحفظنا لحديثه»^(٦).

كما شهد بجرأته في السؤال أبي بن كعب رضي الله عنه؛ إذ يقول: «كان أبو هريرة جريئًا

(١) مسند أحمد (٢٠٨/١٥).

(٢) فتح الباري (٢٠٣/١)، وسير أعلام النبلاء (٤٣٠/٢).

(٣) سير أعلام النبلاء (٤٣٠/٢).

(٤) فتح الباري (٢٢٦/١)، وسير أعلام النبلاء (٤٣٢/٢) وحلية الأولياء (٣٨١/١).

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري: كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب الحججة على من قال: إن أحكام النبي ﷺ كانت ظاهرة (٦٩٢١)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب من فضائل أبي هريرة الدوسي رضي الله عنه رقم (٢٤٩٣)، واللفظ لمسلم.

(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٦٨٤/٥) وقال: هذا حديث حسن.

على النبي ﷺ يسأله عن أشياء لا نسأله عنها» (١).

ورع الصحابة - رضوان الله عليهم - في التحديث عن رسول الله ﷺ:

وانظر إلى دقة رواية أصحاب النبي وتشددهم في الرواية وفي قبول الحديث: فهذا زيد بن ثابت ؓ يقول ليزيد بن حيان، وقد سأله المزيد من الحديث: «يا بن أخي، والله! لقد كبرت سني، وقدم عهدي، ونسيت بعض الذي كنت أعني من رسول الله ﷺ، فما حدثتكم فاقبلوا، وما لا فلا تكلفوني» (٢).

وعن مسروق عن عبد الله بن مسعود «أنه حدث يوماً عن رسول الله ﷺ فارتعد وارتعدت ثيابه ثم قال: أو نحو هذا» (٣). وفي رواية أخرى: «قال ابن عون: قلّ ما أخطأني عشية خميس إلا أتيت فيها ابن مسعود فما سمعته لشيء يقول: قال رسول الله ﷺ، حتى إذا كان ذات عشية قال: قال رسول الله ﷺ: «فنظرت إليه فإذا هو محلول أزرار قميصه منتفخ أوداجه مغرورقة عيناه، ثم قال: هكذا أو فوق ذا أو قريب من ذا أو كما قال رسول الله ﷺ» (٤).

وما هذا التحفظ إلا من تذكر هذا الصحابي الجليل وأمثاله قول النبي ﷺ الذي بلغ حد التواتر: «إن كذباً عليّ ليس ككذب علي أحد، من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» (٥). وفي رواية أخرى: «لا تكذبوا عليّ فإنه من كذب عليّ فليج النار» (٦). فهذا كعب بن مالك يقول: «قلت لأبي قتادة: حدّثني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ

(١) المستدرک (٥٨٤/٣)، سكت عنه الذهبي في التلخيص، وفي مسند أحمد بن حنبل (١٣٩/٥)، قال عنه الشيخ شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف، ولكن في مجمع الزوائد (٤٠٨/٨): «رواه عبد الله ورجاله ثقات وتفقهم ابن حبان».

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي ؓ، رقم (٢٤٠٨)، وأخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٤).

(٣) الحاكم النيسابوري: المستدرک على الصحيحين (١٩٣/١)، ووافقه الذهبي.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) متفق عليه، رواه البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، وأخرج مسلم شرطه الأول في المقدمة، باب تليظ الكذب على رسول الله ﷺ رقم (٤). وشرطه الثاني في الجنائز، باب الميت يعذب بيكاء أهله عليه رقم (٩٣٣).

(٦) متفق عليه، صحيح البخاري: كتاب العلم، باب إثم من كذب على النبي ﷺ رقم (١٠٦)، وأخرجه مسلم في المقدمة، باب تليظ الكذب على رسول الله ﷺ رقم (١).

قال: أخشى أن يزل لساني بشيء لم يقله رسول الله ﷺ، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إياكم وكثرة الحديث عني، من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (١).

ولذلك رأينا محدثي الأمة يتورعون أن يرووا عمّن خافوا منه قلة الضبط، وإن كان من الصالحين أو من الأحباب المقربين، حتى إن الرجل يأتي أن يحدث عن أبيه أو أخيه بالرغم من ورعه وصلاحه، ويبين أمره للناس، من ذلك قول علي بن المدني في أبيه حين سأله عنه قال: سلوا عنه غيري، فأعادوا المسألة، فأطرق ثم رفع رأسه فقال: هو الدين إنه ضعيف.

كما كانوا يابون أن يحدثوا من يرتابون في أمره، وإن كان صالحاً أو ذا منزلة ومكانة، من هذا ما رواه أحمد بن أبي الخواري قال: « جاء رجل من بني هاشم لسمع من ابن المبارك فامتنع، فقال الهاشمي لعلامة: فمُ بنا، فلما أراد الركوب، جاء ابن المبارك، ليمسك بركابه، فقال: يا أبا عبد الرحمن لا ترى أن تحدثني وتمسك بركابي!! قال: رأيت أن أذل لك بذلي، ولا أذل لك الحديث!!

هؤلاء جهابذة العلم، ورجال الفن، الذين نقبل حكمهم في أبي هريرة، فلو عرفوا عنه شيئاً ما سكتوا عنه وإن كان صحائياً؛ لأن السنة والشريعة لا تحابي أحداً (٢).

ردُّ على شبهة ترك أهل السنة الرواية عن أئمة آل البيت:

- ويسأل بعض كتاب الشيعة: لماذا لم يرو بعض المحدثين عن بعض سادة أهل البيت في حين رووا عن الخوارج؟

قال عبد الحسين شرف الدين الموسوي: « إعراض إخواننا أهل السنة عن مذهب الأئمة من أهل البيت، وعدم الاعتناء بأقوالهم في أصول الدين وفروعه بالمرّة، وعدم الرجوع إليهم في تفسير القرآن العزيز... وأنكى من هذا كله عدم احتجاج البخاري في صحيحه بأئمة أهل البيت النبوي؛ إذ لم يرو شيئاً عن الصادق والكاظم والرضا والجواد والهادي والزكي العسكري، وكان معاصراً له... حتى أنه لم يرو شيئاً من حديث سبطه الأكبر وريحانته من الدنيا أبي محمد الحسن المجتبي سيد شباب أهل الجنة، مع احتجاجه

(١) الحاكم النيسابوري: المستدرک علی الصحیحین (١٩٣/١)، ووافقه الذهبي.

(٢) انظر: أستاذنا الدكتور محمد عجاج الخطيب: أبو هريرة راوية الإسلام (ص ١٦٣، ١٦٤)، انظر:

عبد الله بن عبد العزيز بن علي الناصر: البرهان في تبرئة أبي هريرة من البهتان (ص ٢٢).

بداعية الخوارج وأشدهم عداوة لأهل البيت عمران بن حطان (١) « (٢).

فهذه دعوى دون دليل، وهذا الأمر أصلاً يتبع ثبوت الرواية عنهم، ولا يتأثر بموقفهم منهم ﷺ، ثم قد روى البخاري ومسلم وغيرهما عن علي ﷺ - وهو الإمام الأول للاثني عشرية الأحاديث الكثيرة - أكثر مما رووا عن أبي بكر ﷺ ولو كان هناك تحرج لما رووا عنه ﷺ.

وغاية ما يحتج به الشيعة أن البخاري لم يرو عن جعفر الصادق وأبيه، فنحب أن نبين لهم - خدمة للحقيقة وكشفاً لها ودفعاً للبس - أن من ترك من محدثي السنة الرواية عن فضلاء البيت لم يفعل ذلك زهادة فيهم ولا إنقاصاً من مكانتهم الشريفة، ولكن بسبب كثرة الوضّاعين المتلفين حولهم والكاذبين على ألسنتهم. ولو صححت المسانيد إليهم لكانوا أولى من غيرهم في الرواية عنهم؛ فقد أكد أهل السنة فضلهم وتقدمهم -

(١) جاء في ترجمته في تهذيب الكمال (٣٢٢/٢٢) رقم (٤٤٨٧): « عمران بن حطان بن ظبيان... الخارجي... قال العجلي: بصري تابعي ثقة، وقال أبو داود: ليس في أهل الأهواء أصح حديثاً من الخوارج. ثم ذكر عمران بن حطان وأبا حسان الأعرج، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات، وقال أبو سلمة عن أبان بن يزيد: سألت قتادة فقال: كان عمران بن حطان لا يتهم في الحديث. وقال يعقوب بن شيبة: أدرك جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، وصار في آخر أمره أن رأى رأي الخوارج... توفي سنة أربع وثمانين روى له البخاري وأبو داود والنسائي » اهـ.

وقال ابن حجر: الإصابة (٣٠٣/٥، ٣٠٤): « تابعي مشهور وكان من رؤوس الخوارج... ذكر أبيات عمران هذا التي رثى بها عبد الرحمن بن ملجم قاتل علي يقول فيها:

يا ضربة من تقي ما أراد بها
إني لأذكره يوماً فأحسبه
قال: فعارضه الإمام أبو الطيب الطبري فقال:

إني لأبرأ مما أنت تذكره
إني لأذكره يوماً فألعنه
عن ابن ملجم الملعون بهتانا
ديننا وألعن عمران بن حطانا

... واعتذروا عنه [أي عن البخاري] بأنه إنما أخرج عنه لكونه تاب، فقد ذكر المعافي في تاريخ الموصل عن محمد بن بشر العبدي قال: ما مات عمران بن حطان حتى رجع عن رأي الخوارج، وقيل: إنما خرج عنه ما حدث به قبل أن يتدع؛ فقد قال يعقوب بن شيبة: أدرك جماعة من الصحابة وصار في آخر أمره أن رأى رأي الخوارج، وكان سبب ذلك أنه تزوج ابنة عم له فبلغه أنها دخلت في رأي الخوارج، فأراد أن يردها عن ذلك، فصرفته إلى مذهبها « فأنت تلاحظ أن أهل السنة لم يوافقوه فيما ذهب إليه من آراء، بل على العكس تبرؤوا من فكره وشعره، وعارضوه فيهما، ولكنهم للإنصاف الذي اتصفوا به رووا عنه لما كان موثقاً في حديثه.

(٢) السيد شرف الدين: الفصول المهمة في تأليف الأمة (ص ١٨٠، ١٨١).

كما بينا سابقاً في تمهيد الرسالة. فالرواية عنهم شرف يتسابق إليه المحدثون، كما تسابقوا على رواية أحاديث أمير المؤمنين علي عليه السلام.

ولو كان للبخاري رحمته الله موقف من سيدنا علي وابنه الحسن والحسين - وحاشا أن يكون لمؤمن موقف منهم - لما خرّج في فضلهم أحاديثه الصحيحة على شرطه في جامعه الصحيح. فمما رواه تعليقاً: « ولما مات الحسن بن الحسن بن علي عليه السلام ضربت امرأته القبة على قبره سنة ثم رفعت فسمعوا صائحاً يقول: ألا هل وجدوا ما فقدوا، فأجابه الآخر: بل يؤسوا فانقلبوا » ^(١)، ومما رواه مسنداً قول النبي صلى الله عليه وآله في حق الحسن: « اللهم أحبه وأحب من يحبه » ^(٢). وروى قول أبي هريرة في حق الحسن بعد هذا الحديث: « فما كان أحد أحب إلي من الحسن بن علي بعدما قال رسول الله صلى الله عليه وآله ما قال ». وروى البخاري أوصاف الحسن: عن الزهري أخبرني أنس قال: « لم يكن أحد أشبه بالنبي صلى الله عليه وآله من الحسن بن علي » ^(٣). وروى أحاديث كثيرة في حق الحسن والحسين، لا يسعني ذكرها؛ منها حديث نهى النبي الحسن عن الأكل من تمر الصدقة، وحديث تقبيل النبي للحسن أمام الأقرع بن حابس، وخبر صعود الحسن على المنبر وعمار في أسفله. وخرّج حديثاً من أروع معجزات النبي صلى الله عليه وآله في حق الحسن، وهو نبوءته صلى الله عليه وآله في صلح الحسن عليه السلام مع معاوية عليه السلام وجد الشام وحقن دماء المسلمين والإصلاح بينهم، فقد جاء الحسن بن علي عليه السلام إلى معاوية بالكتائب، قال عمرو بن العاص لمعاوية: أرى كتيبة لا تولّي حتى تدبر أحرها. قال معاوية: من لذراري المسلمين؟ فقال: أنا، فقال عبد الله ابن عامر وعبد الرحمن بن سمرة: نلقاه فنقول له الصلح.

قال الحسن: ولقد سمعت أبا بكره قال: بينا النبي صلى الله عليه وآله يخطب جاء الحسن فقال النبي صلى الله عليه وآله: « ابني هذا سيد، ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين » ^(٤).

ولا يستغرب أن لا يكثر حديث الحسن والحسين عن النبي صلى الله عليه وآله إذا تذكرنا أن النبي صلى الله عليه وآله

(١) صحيح البخاري، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور.

(٢) صحيح البخاري، باب ما ذكر في الأسواق (٥٥٤٥)، وقد أخرجه مسلم أيضاً في فضائل الصحابة، باب فضائل الحسن والحسين عليهما السلام رقم (٢٤٢١).

(٣) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين عليهما السلام رقم (٣٥٤٢).

(٤) صحيح البخاري، باب قول النبي صلى الله عليه وآله للحسن بن علي (إن ابني هذا سيد ولعلّ الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين) رقم (٦٦٩٢).

انتقل إلى الرفيق الأعلى، والحسن دون العاشرة، فلم يتح له أن يسمع ما سمع غيره من الصحابة، ومن باب أولى أخوه الحسين وهو أصغر منه سنًا. في حين كثرت روايات سيدنا علي عليه السلام عند البخاري وغيره من كتب السنة لطول مصاحبته للنبي صلى الله عليه وآله.

ثم ما ذنب البخاري رحمته الله إذا لم تصح عنده إلى الصادق وأبيه الباقر - رحمهما الله - طريق صحيحة على شروطه الدقيقة ليروي بها عنهما؟ خصوصًا إذا تذكرنا كثرة من كذب على لسان الصادق والباقر.

فقد أقرت روايات الشيعة أنفسهم بوجود كثرة من الكذابين على جعفر والباقر؛ فعن شريك: « إن أقوامًا يزعمون أن جعفر بن محمد ضعيف في الحديث فقال: أخبرك القصة؛ كان جعفر بن محمد رجلًا صالحًا مسلمًا ورعًا، فاكتنفه قوم جهال يدخلون عليه ويخرجون من عنده ويقولون: حدثنا جعفر بن محمد، ويحدثون بأحاديث كلها منكرات كذب موضوعة على جعفر، يستأكلون الناس بذلك ويأخذون منهم الدراهم، فكانوا يأتون من ذلك بكل منكر، فسمعت العوام بذلك منهم، فمنهم من هلك ومنهم من أنكر » (١). وقد مر أن المغيرة بن سعيد من أشهر من كذب على لسان الإمام جعفر الصادق.

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: « كان بيان يكذب على علي بن الحسين عليه السلام فأذاقه الله حر الحديد، وكان المغيرة بن سعيد يكذب على أبي جعفر عليه السلام فأذاقه الله حر الحديد، وكان محمد بن بشير يكذب على أبي الحسن موسى عليه السلام فأذاقه الله حر الحديد، وكان أبو الخطاب يكذب على أبي عبد الله عليه السلام فأذاقه الله حر الحديد، والذي يكذب علي محمد بن فرات. قال أبو يحيى: وكان محمد بن فرات من الكتاب، فقتله إبراهيم ابن شكلة » (٢).

وإن قاصمة الظهر لهذا الافتراء على البخاري: أن البخاري ترجم لجعفر الصادق في كتابه التاريخ الكبير فقال: « جعفر بن محمد بن علي بن حسين بن علي بن أبي طالب، الهاشمي المدني، أبو عبد الله الهاشمي، سمع أباه والقاسم وعطاء، سمع منه مالك والثوري وشعبة. قال أبو نعيم: مات سنة ثمان وأربعين ومائة » (٣). وكذلك روى عنه

(١) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٦١٦/٢). مؤسسة آل البيت قم (١٤٠٤ هـ).

(٢) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال (وهو تهذيب رجال الكشي) (٥٩١/٢) وثبت فيه لعن أبي الخطاب وأتباعه (٥٨٤/٢)، مؤسسة آل البيت قم، وانظر: بحار الأنوار (٢٥٠/٢)، مؤسسة الوفاء بيروت، الطبعة الثانية المصححة (١٤٠٣ هـ / ١٩٨٣ م).

(٣) البخاري: التاريخ الكبير (١٩٨/٢). دار الفكر، تحقيق: السيد هاشم الندوي.

أيضًا: « قال لنا سعيد بن سليمان عن حفص بن غياث عن جعفر بن محمد قال: « كان بين الحسن والحسين طهر واحد »^(١)، وأخرج له عن « سعيد بن سفيان الأسلمي قال الحميدي: حدثنا بن أبي الفديك سمع سعيدًا، عن جعفر بن محمد عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر عن النبي ﷺ أن الله مع الدائن حتى يقضي دينه »^(٢)، وهناك أمثلة كثيرة^(٣).

وأخرج بالسند عنه رأيه في مسألة القرآن: عن « معبد بن راشد أبو عبد الرحمن سمع معاوية بن عمار عن جعفر بن محمد قال: القرآن كلام الله ليس بمخلوق »^(٤).

وكذلك خرج عن الباقر والد الصادق - رحمهما الله تعالى - في التاريخ الكبير، ومثال ذلك: « قال لي شهاب: حدثنا بكر بن سليمان قال: أخبرنا ابن إسحاق قال: حدثني محمد بن عبد الله بن قيس بن مخزومة عن الحسن بن محمد بن علي عن أبيه محمد عن جده علي قال: سمعت النبي ﷺ يقول: « ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين، كل ذلك يحول بيني وبينه، ما هممت بعدهما حتى أكرمني الله برسالته »^(٥).

وذلك لأن البخاري لم يشترط في التاريخ الكبير صحة الإسناد، ولو كان هناك سبب خفي غير اشتراط الصحة لما روى البخاري عن الصادق في التاريخ الكبير ولما ترجم له فيه. ولما صح السند عند غير البخاري إلى جعفر وأبي جعفر - رحمهم الله - روى عنهما، ودونوا أحاديثهما، فقد روى مسلم وغيره عن جعفر الصادق وأبيه الباقر رحمهما الله. فأشهر حديث في الحج، هو حديث جابر بن عبد الله وقد رواه عنه الإمام الباقر: ففي صحيح مسلم قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة وإسحاق بن إبراهيم جميعًا عن حاتم قال أبو بكر: حدثنا حاتم بن إسماعيل المدني عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: دخلنا على جابر بن عبد الله، فسأل عن القوم حتى انتهى إليّ، فقلت: أنا محمد بن علي ابن حسين، فأهوى بيده إلى رأسي، فنزع زري الأعلى ثم نزع زري الأسفل ثم وضع كفه بين ثديي وأنا يومئذ غلام شاب، فقال: مرحبًا بك يا بن أخي، سل عما شئت

(١) البخاري: التاريخ الكبير (٢٨٦/٢). المصدر السابق (٤٧٥/٣).

(٢) وانظر روايات أخرى (٣٨١/٢)، (٢٨٦/٤).

(٣) البخاري: التاريخ الكبير (٤٠٠/٧).

(٤) البخاري: التاريخ الكبير (١٣٠/١). وانظر (١٧٧/١)، (٢٨٠/١).

[وهذا يدل على تعظيمه لأهل بيت النبي ﷺ] فسألته (١) وهو أعمى... فقلت: أخبرني عن حجة رسول الله ﷺ.... وفي الحديث قوله ﷺ في خطبة الوداع: « قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعدي إن اعتصمتم به كتاب الله » (٢).

وهناك أحاديث أخرى وروايات كثيرة رواها مسلم في صحيحه عن جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر، ناهيك عما رواه لكل واحد منهما دون الآخر (٣).

(١) من العجيب الغريب أن في الكافي رواية تقول: إن الباقر كان يخاف أن يحدث فيكذب الناس؛ ولذلك كان يروي الحديث عن جابرًا في حديث طويل يظهر كذب الراوي؛ إذ ينسب إلى جابر البصر، مع أنه ثبت أنه عمي آخر عمره. وهذه هي رواية الكافي في الجزء الأول: باب مولد أبي جعفر محمد بن علي ﷺ: « عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن جابر بن عبد الله الأنصاري كان آخر من بقي من أصحاب رسول الله، وكان رجلاً منقطعاً إلينا أهل البيت، وكان يقعد في مسجد رسول الله ﷺ وهو معتجزٌ بعمامة سوداء، وكان ينادي: يا باقر العلم يا باقر العلم! فكان أهل المدينة يقولون: جابرٌ يهجر. فكان يقول: لا والله ما أهجر، ولكتي سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إنك ستدرك رجلاً متي اسمه اسمي وشمائله شمالي يقر العلم بقراً ». فذاك الذي دعاني إلى ما أقول، قال: فبينما جابرٌ يتردد ذات يوم في بعض طرق المدينة؛ إذ مرَّ بطريقي في ذلك الطريق كتابٌ فيه محمد بن عليٍّ فلما نظر إليه [ومن المعلوم أن جابرًا فقد بصره آخر عمره كما في الصحيح] قال: يا غلام! أقبل. فأقبل ثم قال له: أدير. ثم قال: شمائل رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده... فكان محمد بن عليٍّ يأتيه على وجه الكرامة لصحبته لرسول الله ﷺ، قال: فجلس ﷺ يحدثهم عن الله تبارك وتعالى فقال أهل المدينة: ما رأينا أحدًا أجراً من هذا. فلما رأى ما يقولون حدثهم عن رسول الله ﷺ فقال أهل المدينة: ما رأينا أحدًا قطُّ أكذب من هذا يحدثنا عمن لم يره. فلما رأى ما يقولون حدثهم عن جابر بن عبد الله، قال: فصلتوقه، وكان جابر بن عبد الله يأتيه فيتعلم منه.

(٢) صحيح مسلم (٨٨٦/٢)، كتاب الحج، باب حجة النبي ﷺ رقم (١٢١٨).

(٣) ومن هذه الروايات التي رواها جعفر عن أبيه في صحيح مسلم: حديث جابر، وقد كرره بضع مرات. وهناك روايات أخرى هذا ما جمعتها منها:

١ - وحدثني حجاج بن الشاعر حدثنا معلى بن أسد حدثنا وهيب بن خالد عن جعفر بن محمد عن أبيه عن أبي مرة مولى عقيل عن أم هانئ أن رسول الله ﷺ صلى في بيتها عام الفتح ثمانين ركعات في ثوب واحد. صحيح مسلم (٥٨٨/٢).

٢ - عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: كنا نصلي مع رسول الله ﷺ ثم نرجع فنريح نواضحنا. قال حسن: فقلت لجعفر: في أي ساعة تلك؟ قال زوال الشمس، صحيح مسلم (٥٩٢/٢).

٣ - عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه؛ حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، صحيح مسلم (٨٦٩/٢).

٤ - عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله ﷺ في حديث أسماء بنت عميس حين نفست بذي الحليفة أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر ﷺ فأمرها أن تغتسل وتهل. صحيح مسلم (١٤٤٤/٣). وهذا

الحديث يدل على حسن العلاقة بين الآل والصحب، فجعفر يروي عن أبيه قصة عن أبي بكر، وهذا =

أما عند غير مسلم؛ كالسنن ومسنند أحمد وموطأ مالك وغيرها من الكتب الحديثية كالمستدرک وسنن الدارقطني... إلخ، فهناك مئات الروايات عن (جعفر بن محمد عن أبيه) ناهيك عن كل واحد منهما برواياته على انفراد، مما لا يتسع المقام لإحصائه، وقد حاولت إحصاءها على الحاسوب فعجزت. ومن أمثل تلك الروايات ما عند مالك في الموطأ: «عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر الجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم! فقال عبد الرحمن بن عوف: أشهد لسمعت رسول الله ﷺ يقول: «ستوا بهم سنة أهل الكتاب»^(١). وفي هذا الحديث من الفوائد الفرائد: رواية إمام أهل السنة مالك بن أنس عن جعفر الصادق عن باقر العلم حديثاً يحكي حال عمر ابن الخطاب، الخليفة الراشدي الذي يبغضه الشيعة بغضاً شديداً، وفيه الرواية عن عبد الرحمن بن عوف أحد المبشرين بالجنة، الذين أكثرت الروايات الاثنا عشرية من النيل منهم بسبب مسألة الإمامة^(٢).

وأما عن انتقاد كتاب الشيعة للبخاري وغيره لروايته عن الخوارج؛ فهذه مسألة متفرعة عن رأي أهل السنة في حكم الرواية عن المبتدعة؛ حيث كان الخوارج لا يستبيحون الكذب لنصرة مذهبهم؛ لذلك جوّزوا الرواية عنهم، ومهما يكن فإن الرواية عن الخوارج ليست دعماً لمذهبهم إنما لما عرفوا فيه من التحرج من الكذب؛ لأنهم يرون الكذب ذنباً وكبيرة، والكبيرة كفر عندهم؛ ولذلك قال أبو داود: «ليس في أهل الأهواء أصح حديثاً من الخوارج»^(٣). وغاية ما خرج البخاري لعمران بن حطان روايتين في أمر تعبدي متعلق بالحلال والحرام، ولا صلة له بأراء الخوارج ولا بأراء أهل السنة، وكان فيهما

= لا يستغرب؛ لأن جعفر سبط أبي بكر من طرف الأم مرتين؛ ولذلك قال جعفر: ولدني أبو بكر مرتين كما سنيين. ٥ - عن جعفر بن محمد عن أبيه عن يزيد بن هرمز: أن نجدة كتب إلى ابن عباس يسأله عن خمس خلال فقال ابن عباس: لولا أن أكرم علماً ما كتبت إليه كتب إليه نجدة أما بعد فأخبرني هل كان رسول الله ﷺ يفزو بالنساء... وهذا الحديث يدل أيضاً على حسن العلاقة بين آل بيت النبي جميعاً، فهنا يروي جعفر عن محمد في سند عن ابن عباس وهو أحد أعمامه، ثم يدل على إنصاف الإمامين جعفر ومحمد؛ إذ يرويان حديثاً موضوعه حول الفرقة التي قتلت جدما علي ﷺ، وهي الخوارج.

(١) الإمام مالك بن أنس: الموطأ برواية يحيى الليثي (٢٧٨/١). دار إحياء التراث العربي - مصر. تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٢) انظر: فصل موقف الاثني عشرية من الأمة المسلمة والمخالفين عموماً، وهو الفصل الأخير من الرسالة.

(٣) تهذيب الكمال (٣٢٢/٢٢). مع أننا ننكر عليهم ضيق أفقهم وضعف تفكيرهم، وشر أعمالهم وأهمها ولوغهم في دماء المسلمين وقتلهم أمير المؤمنين علي ﷺ.

ابن حطان ناقلاً، ولم يمتدحه البخاري ولم يثن عليه شيئاً، ولست أدري أي الأمرين أحب إلى صاحب (الفصول المهمة) الذي انتقد البخاري في روايته عن ابن حطان: أن يقبل حديثاً عن رسول الله وَصَلَ للبخاري بسند صحيح، أم أن يردّه؟

ثم كيف يستجيز الاثنا عشرية أن يرووا عن الواقعة ما يعجبهم وينصر نظرية الإمامة الاثني عشرية، مع أن الواقعة جحدوا بعض الأئمة، وهم عند الاثني عشرية مكفرون؟ فقد قال المجلسي: « كتب أخبارنا مشحونة بالأخبار الدالة على كفر الزيدية وأمثالهم من الفطحية، والواقفة » (١) كرواية الكليني في (الكافي) عن (زياد بن مروان القندي) وكان من الواقعة؛ حيث وقف على موسى، وأنكر إمامة الرضا، وسرق ماله (٢). وروايته عدة روايات عن (علي بن أبي حمزة) - وكان يقود أبا بصير الأعمى، أحد المكثرين في الرواية عن الأئمة - وقد قال عنه النجاشي: « أحد عمد الواقعة » (٣) - كما مر - ثم يعيرون على محدثي أهل السنة أن يرووا، من باب الأمانة العلمية - عن الخوارج في أمور لا تتعلق بنصرة فرقة على أخرى، إنما بأمر تعبدي يتعلق بالحلال والحرام! (٤).

لقد فصل محدثو أهل السنة الحديث حول جواز الرواية عن المخالفين الصادقين الذين لا يستحلون الكذب، ووقع بينهم الخلاف في هذا (٥). قال المنذري: « قد اختلف أهل

(١) بحار الأنوار (٣٤/٣٧).

(٢) أصول الكافي (٣٦٩/١) كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا. « أحمد بن مهران عن محمد بن عليّ عن زياد بن مروان القندي - وكان من الواقعة - دخلت على أبي إبراهيم وعنده ابنه أبو الحسن عليه السلام فقال لي: يا زياد هذا ابني فلأنّ كتابه كتابي وكلامه كلامي ورسوله رسولي، وما قال فالقول قوله.

(٣) رجال النجاشي (ص ٢٤٩، ٢٥٠) مؤسسة النشر الإسلامي قم (١٤١٦ هـ).

(٤) روايتا ابن حطان في صحيح البخاري (٢١٩٤/٥) رقم (٥٤٩٧). قال البخاري: « حدثني محمد ابن بشار، حدثنا عثمان بن عمر، حدثنا علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير عن عمران بن حطان قال: سألت عائشة عن الحرير فقالت: اتت ابن عباس فسله، فسألته فقال: سل ابن عمر، قال: فسألته عن عمر، فقال: أخبرني أبو حفص، يعني عمر بن الخطاب أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « إنّما يلبس الحرير في الدنيا من لا خلاق له في الآخرة ». فقلت: صدق وما كذب أبو حفص على رسول الله صلى الله عليه وآله. والحديث الثاني: صحيح البخاري (٢٢٢٠/٥) رقم (٥٦٠٨): حدثنا معاذ بن فضالة حدثنا هشام عن يحيى عن عمران بن حطان أن عائشة رضي الله عنها حدثته: أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه.

(٥) قال الإمام السيوطي: « وقد صرح بذلك الذهبي في الميزان فقال البدعة: على ضريين صغرى كالتشيع بلا غلو أو بغلو كمن تكلم في حق من حارب عليّاً، فهذا كثير في التابعين وتابعيهم مع الدين والورع. والغلو فيه والخط على أبي بكر وعمر والدعاء إلى ذلك، فهذا النوع لا يحتج بهم ولا كرامة [أقول: وإن كان المنهج العملي في كتب الحديث قد خالف هذا الاتجاه فروى عنهم كما سنين أعلاه] وأيضاً فما أستحضر الآن في =

العلم في أهل البدع كالقدرية والرافضة والخوارج:

أ - فقالت طائفة: لا يحتج بحديثهم جملة.

ب - وذهبت طائفة إلى قبول أخبار أهل الأهواء الذين لا يعرف منهم استحلال الكذب ولا الشهادة لمن وافقهم بما ليس عندهم فيه شهادة.

= هذا الضرب رجلاً صادقاً ولا مأموناً، بل الكذب شعارهم والتقية والنفاق دثارهم «. اهـ. وهذا الذي قاله هو الصواب الذي لا يحل لمسلم أن يعتقد خلافه.

وقال في موضع آخر: اختلف الناس في الاحتجاج برواية الرافضة على ثلاثة أقوال:
- المنع مطلقاً.

- والترخص مطلقاً إلا من يكذب ويضع.

- والثالث: التفصيل بين العارف بما يحدث وغيره.

وقال أشهب: سئل مالك عن الرافضة فقال: لا تكلموهم ولا ترووا عنهم. وقال الشافعي: لم أر أشهد بالزور من الرافضة، وقال يزيد بن هارون: يكتب عن كل صاحب بدعة إذا لم يكن داعية، إلا الرافضة «. تدريب الراوي (٣٢٦/١، ٣٢٧) (مكتبة الرياض الحديثة - الرياض، تحقيق: عبد الوهاب عبد اللطيف). ونلاحظ من النص أن من ردّت روايته منهم إما ردّت لتخوّف الكذب منه.

قال السخاوي: « قال صاحب المحصول: الحق أنه إن اعتقد حرمة الكذب قبلنا روايته؛ لأن اعتقاده كما قدمت لمنعه من الكذب وإلا فلا، قال شيخنا: والتحقيق أنه لا يرد كل مكفر ببدعة؛ لأن كل طائفة تدعي أن مخالفيها مبتدعة وقد تبالح فتكفراها، فلو أخذ ذلك على الإطلاق لاستلزم تكفير جميع الطوائف؛ فالمتعمد أن الذي ترد روايته من أنكر أمراً متواتراً معلوماً من الدين بالضرورة، أي إثباتاً ونفيّاً، فأما من لم يكن بهذه الصفة وانضم إلى ذلك ضبطه لما يرويه مع ورعه وتقواه فلا مانع من قبوله أصلاً. وقال أيضاً: والذي يظهر أن نحكم بالكفر على من كان الكفر صريح قوله، وكذا من كان لازم قوله وعرض عليه فالتزمه، أما من لم يلتزمه وناضل عنه فإنه لا يكون كافراً، ولو كان اللازم كفراً. وينبغي حمله على غير القطعي ليوافق كلامه الأول، وسبقه ابن دقيق العيد فقال: الذي تقرر عندنا أن لا تعتبر المذاهب في الرواية؛ إذ لا نكفر أحداً من أهل القبلة إلا بإنكار قطعي من الشريعة، فإذا اعتبرنا ذلك وانضم إليه التقوى والورع فقد حصل معتمد الرواية وهذا مذهب الشافعي؛ حيث يقبل شهادة أهل الأهواء. فقال: وأعراض الناس حفرة من حفر النار، وقف على شفيرها طائفتان من الناس: المحدثون، والحكام. أشار بذلك إلى أنهم من أهل القبلة، فتقبل روايتهم، كما نرتبهم ونورثهم، وتجري عليهم أحكام الإسلام. وممن صرح بذلك النووي فقال: في الشهادات من الروضة: جمهور الفقهاء من أصحابنا وغيرهم لا يكفرون أحداً من أهل القبلة. وقال في شروط الأئمة منها: ولم يزل السلف والخلف على الصلاة خلف المعتزلة وغيرهم ومناكحتهم وإجراء أحكام الإسلام عليهم « اهـ. شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي: فتح المغيث شرح ألفية الحديث (٣٣٤/١)، دار الكتب العلمية - لبنان (ط ١)، (١٤٠٣ هـ). وانظر: الصنعاني: توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأنظار (٢٣٦/٢)، المكتبة السلفية - المدينة المنورة، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. ولا بد من التذكير أن الرافضة في زمانهم يقصد بهم غلاة الشيعة، وردّت روايتهم؛ لأنهم كانوا يكذبون في حق أئمتهم لدعم مذهبهم.

ج - وذهبت طائفة إلى قبول غير الدعاة من أهل الأهواء؛ فأما الدعاة فلا يحتج بأخبارهم.

د - ومنهم من ذهب إلى أنه يقبل حديثه إذا لم يكن فيه تقوية لبدعتهم ^(١). هذا الخلاف من الناحية النظرية، أما المنهج العملي الذي اتبعه المحدثون في كتب الحديث فإنه يعتمد ترجيح القول بالرواية عن ثقات الفرق الأخرى، من الخوارج والقدرية والشيعية أنفسهم، يقول ابن قيم: « كم في الصحيح من رواية الشيعة الغلاة والقدرية والخوارج والمرجئة وغيرهم، لم يتمكنوا من الطعن في هذا الحديث بأن رواه شيعة؛ إذ مجرد كونهم شيعة لا يوجب رد حديثهم » ^(٢).

وقال الحافظ ابن حجر: « وأما التشيع فقد قدمنا أنه إذا كان ثبت الأخذ والأداء لا يضره، ولا سيما ولم يكن داعية إلى رأيه » ^(٣).

نماذج لرواية ثقات من أهل الفرق المخالفة لأهل السنة في صحاح كتب أهل السنة: وهناك أمثلة كثيرة لتطبيق محدثي أهل السنة هذه القاعدة؛ فهذا ابن حجر يذكر أحد الرواة فيقول:

- « أجلس بن عبد الله بن حجية.. يعد في شيعة الكوفة، وهو عندي مستقيم الحديث صدوق.. وقال عمرو بن علي: مات سنة (١٤٥ هـ) في أول السنة » ^(٤). ومن هؤلاء الرواة أيضًا:

- عبد العزيز بن سياه الأسدي الكوفي: أخرج له الجماعة إلا أبا داود، ووثقه أبو داود وابن معين، والعجلي، وابن نمير، ويعقوب وسفيان. قال أبو زرعة: ثقة، وهو من كبار الشيعة ^(٥).

- والسدي (إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة، المفسر المشهور): روى له مسلم في الصحيح، منسوب إلى سدة جامع الكوفة، وثقه ابن حنبل، وعبد الرحمن

(١) المنذري: (عبد العظيم بن عبد القوي المنذري أبو محمد): رسالة في الجرح والتعديل (ص ٣٥، ٣٦)، مكتبة دار الأقصى - الكويت، الطبعة الأولى (١٤٠٦ هـ)، تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي.

(٢) ابن قيم الجوزية: تهذيب سنن أبي داود (١٧١/٦) دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م).

(٣) ابن حجر العسقلاني: هدي الساري (ص ٣٩٨).

(٤) تهذيب التهذيب (١/١٦٥) دار الفكر بيروت (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م)، (ط ١).

(٥) المصدر السابق (٦/٣٤٠، ٣٤١).

ابن مهدي والعجلي، وقال القطان: لا بأس به، ما سمعت أحدًا يذكره إلا بخير، وما تركه أحد، وقال النسائي في (الكنى): صالح، وذكره ابن حبان في (الثقات) مات (١٢٧ هـ). قال عنه الجوزجاني: كذاب شتام.. وقال حسين بن واقد: « سمعت من السدي فأقمت حتى سمعته يتناول أبا بكر وعمر، فلم أعد إليه » (١)، وذكره المامقاني من كتاب الشيعة، وذكر أنه معدود من أصحاب السجّاد، ومرة من أصحاب الباقر، ومرة من أصحاب الصادق، ثم حكى عن تقريب الحافظ ابن حجر: أنه صدوق، ثم قال: « وصف ابن حجر إياه بكونه صدوقًا مع اعترافه بالتشيع كافٍ في ذلك؛ لأن الفضل ما شهدت به الأعداء... والمتحصل من ذلك كون الرجل من الحسان » (٢).

- وسليمان بن قرم بن معاذ التيمي الضبي (أبو داود النحوي): « أخرج له مسلم، روى عنه سفيان الثوري وهو من أقرانه... قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: كان أبي يتتبع حديث قطبة بن عبد العزيز وسليمان بن قرم ويزيد بن عبد العزيز بن سياه، وقال: هؤلاء قوم ثقات، وهم أتم حديثًا من سفيان وشعبة، وهم أصحاب كتب، وإن كان سفيان وشعبة أحفظ منهم. وقال محمد بن عوف عن أحمد: لا أرى به بأسًا، لكنه كان يفرط في التشيع » (٣).

- وهذا سعيد بن عمر بن أشوع الهمداني القاضي الكوفي: قال ابن معين: مشهور، وقال النسائي: ليس به بأس، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الجوزجاني: غال زائع، يعني في التشيع، ووثقه العجلي والحاكم (٤).

- وروى أهل السنة عن خالد بن مخلد القحطاني: وكان متهمًا بالتشيع، روى له البخاري ومسلم وأهل السنن إلا أبو داود، وقد أخرج البخاري من روايته حديث « من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب... » (٥).

(١) ابن حجر: تهذيب التهذيب (٣١١/١، ٣١٢)، الثقات لابن حبان (٢٠/٤)، الأنساب (١٠٩/٧)، وذكره المامقاني في تنقيح المقال ونسبه للشيعة (١٣٧/٢).

(٢) المامقاني: تنقيح المقال (١٣٧/٢).

(٣) تهذيب التهذيب (١٨٧/٤)، وانظر أصل الترجمة المزي (يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج): تهذيب الكمال (٥٣/١٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م) تحقيق: د. بشار عواد معروف.

(٤) انظر: تهذيب التهذيب (٦٧/٤).

(٥) انظر: ميزان الاعتدال للذهبي (٦٤١/١)، تهذيب الكمال (٥٨٨/٦).

- وخالد بن مخلد القطواني: أبو الهيثم البجلي، وثقه ابن حبان، وروى له الشيخان في صحيحيهما، وقال ابن سعد: كان متشيعًا منكر الحديث مفرطًا في التشيع، وكتبوا عنه للضرورة، وقال العجلي: ثقة فيه قليل تشيع، وكان كثير الحديث، وقال صالح ابن محمد: ثقة في الحديث إلا أنه كان متهمًا بالغلو. وقال الجوزجاني: كان شتائمًا معلنًا لسوء مذهبه، وقد كان المحدثون يروون عنه وهم يعلمون حاله؛ فقد روى له أبو داود، مع أنه قال فيه: « صدوق، ولكنه يتشيع » (١).

- وهذا عدي بن ثابت الأنصاري: الشيعي المعروف، روى له الجماعة، قال أهل الجرح والتعديل: كوفي، ثقة، غير أنه كان من الشيعة، وكان إمام مسجدهم وقاصهم، قال ابن معين: « شيعي مفرط، قال الدارقطني: ثقة إلا أنه كان غاليًا، وقال أحمد: ثقة إلا أنه كان يتشيع، قال عنه الذهبي: عالم الشيعة وصادقهم وقاصهم، وإمام مسجدهم، ولو كانت الشيعة مثله لقلّ شرهم » (٢).

- وعبد الرحمن بن صالح الأزدي العتكي أبو صالح: « كان عبد الرحمن بن صالح رافضيًا، وكان يغشى أحمد بن حنبل فيقره ويدنيه، وقليل له فيه، فقال: سبحان الله! رجل أحب قومًا من أهل بيت النبي ﷺ وهو ثقة... قال محمد بن هارون: كان ثقة، وكان يحدث بمثالب أزواج الرسول ﷺ،... كان رجل سوء » (٣). ومع ذلك روى له النسائي حديثًا في جزء (خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ) (٤).

قد يقول قائل: إن الاثني عشرية أيضًا رووا عن خالفهم من أهل الملل الأخرى، نقول: نعم، ولكنهم لم يعدوا أحاديثهم صحيحة، بل هي في المرتبة الثالثة، فهي دون الصحيح ودون الحسن، وسموه القوي. وهذا يبيّن الفرق بين المنهجين.

وقد روى أهل السنة عن أصحاب المواقف السياسية والفكرية المختلفة في الكتب الصحاح: فكما روى أهل السنة في الصحيح عن رجال الشيعة رووا عن غيرهم من أصحاب المواقف السياسية والعقدية المختلفة؛ منهم:

(١) تهذيب التهذيب (١٠١/٣). نسخة دار الفكر - بيروت الطبعة الأولى (١٤٠٤هـ / ١٩٨٤ م).

(٢) ميزان الاعتدال (٦١/٣)، التهذيب (١٦٥/٧).

(٣) تهذيب التهذيب (١٧٨/٧).

(٤) الإمام النسائي: خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ص ٢٠١) تحت باب ذكر الأخبار المؤيدة لما تقدم وصفه. مكتبة المعلا - الكويت، الطبعة الأولى (١٤٠٦هـ)، تحقيق: أحمد ميرين البلوشي.

- ابن حصين: عثمان بن عاصم الكوفي: من رجال الجماعة، كان ثقة ثبتًا في الحديث، وكان عثمانياً^(١).

- وإسماعيل بن سميع: روى له مسلم: باب من أشرك في عمله غير الله في (كتاب الزهد): كان يهسيًا، وهم طائفة من الخوارج يرى رأيهم، ثقة في الحديث، وهو قول البخاري وأحمد والقطان وغيره. جاور في المسجد أربعين سنة، ولم ير في جمعة ولا جماعة^(٢).

- وسعد بن عبيدة السلمى: أبو حمزة الكوفي، كان يرى رأي الخوارج، ثم تركه، يكتب حديثه، وثقه ابن سعد وابن حبان^(٣).

- والمنقري: عبد الله بن عمر بن أبي الحجاج التيمي من رواة الجماعة، ثقة، كان يرى القدر، مات سنة (٢٢٤ هـ)^(٤).

- وشيبان بن فروخ: روى له مسلم وأكثر عنه، قال الساجي عنه: إنه قدرى إلا أنه كان صدوقًا، وقال أبو حاتم: كان يرى القدر، واضطر إليه بآخر، مات سنة (٢٣٦ هـ)^(٥). وهذا منهج أهل السنة في الرواية عن أهل الأهواء والبدع التي لا تكفر، ولا يستحل أهلها الكذب.

- وعثمان بن غياث: الزهراني البصير، روى له مسلم، قال عنه أحمد: ثقة، كان يرى الإرجاء، وثقه ابن معين والنسائي^(٦).

ومن أمثلة الإنصاف وحرية الرأي عند رواة ومحدثي السلف الصالح من هذه الأمة: أن كثيرًا منهم على اختلاف مذاهبهم العقدية رووا عنم خالفهم؛ فهذا زيد الشيعي، وهو زيد بن الحارث بن عبد الكريم الياامي... وكان علويًا مات (١٢٢ هـ)^(٧)، يروي عن سعد بن عبيدة الخارجي، وهو أبو حمزة الكوفي، وكان يرى رأي الخوارج، ثم تركه، يكتب حديثه، وثقه ابن سعد وابن حبان^(٨). وقد أخرج ذلك مسلم في صحيحه:

(١) تهذيب التهذيب (١١٦/٧).

(٢) تهذيب التهذيب (٣٠٥/١)، وتكملة فتح الملهم (٢٣٩/٦).

(٣) تهذيب التهذيب (٤٧٨/٣). (٤) المصدر السابق (٣٣٦/٥).

(٥) المصدر السابق (٣٧٥/٤). روى له مسلم عدة أحاديث منها في كتاب الأيمان والنذور، باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها (٤٢٤٤) روى عنه مسلم مباشرة، كشيوعه.

(٦) تهذيب التهذيب (١٤٧/٧). (٧) المصدر السابق (٢٦٨/٣).

(٨) المصدر السابق (٤٧٨/٣).

فقال: « عن زبيد عن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن عن علي أن رسول الله ﷺ بعث جيشًا وأمر عليهم رجلاً.. » (١).

وأحيانًا كان أصحاب البيت الواحد نفسه ينقسمون، فبعضهم يتبع هذا المذهب أو ذاك، ولا غضاضة، قال محمد بن طلحة بن مصرف: ما كان بالكوفة من أب وأخ أشد تحايًا من طلحة بن مصرف وزبيد اليامي؛ كان طلحة عثمانيًا وكان زبيد علويًا (٢).

بل يحكي لنا تاريخ الرواة أن بعضهم غير مذهبه العقدي؛ فقد تقدم أن بعض الخوارج رجعوا عن مذهبهم، هذا أبو عبد الرحمن السلمي (عبد الله بن حبيب) أشهر قراء التابعين، من رواة مسلم « كان ثقة كثير الحديث وقال غيره عن الواقدي: شهد مع علي صفيين ثم صار عثمانيًا، ومات في سلطان الوليد بن عبد الملك، وكان من أصحاب ابن مسعود، وقال ابن عبد البر: هو عند جميعهم ثقة » (٣).

* * *

(١) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية رقم

(١٨٤٠).

(٢) تهذيب التهذيب (٣/٢٦٨).

(٣) المصدر السابق (٥/١٦١).

المبحث الرابع

بعض مصادر التلقي الخلافية بين أهل السنة والاثني عشرية



بقي لنا كلمة - ونحن نتحدث عن مصادر التلقي - أن نذكر رأي الشيعة في الإجماع والقياس؛ إذ هما دليلان شرعيان عند جلّ أهل السنة والجماعة - إن استثنينا نفاة القياس وهم الظاهرية - فنذكر رأيهم في هذين الدليلين بشيء من الاختصار، ثم نتطرق لبعض المصادر التي مال إليها الاثنا عشرية، وأنكرها باقي علماء الأمة:

المطلب الأول

الإجماع والقياس

أما الإجماع: فلا يعتدّ به الشيعة في إثبات العقائد والأحكام إلا أن كان بين العلماء المجمعين أحد الأئمة المعصومين، ويكون الاعتداد به ليس لذات الإجماع؛ بل لوجود الإمام ضمن المجمعين، يقول الشيخ الطوسي عن هؤلاء المجمعين: « حكم اجتماعهم حكم انفرادهم، فإذا كان كل واحد منهم ليس معصوماً فكيف يصيرون باجتماعهم معصومين... وذلك باطل »^(١).

وبهذا نعلم أن الزنجاني قد أجمل حين يجب التفصيل عندما تحدث عن الإجماع بصفته دليلاً شرعياً، فقال: « الأدلة الشرعية هي الكتاب والسنة النبوية والأحاديث التي رواها الثقات عن أئمة الهدى، والإجماع والعقل على التفصيل المذكور في كتب الفقه »^(٢). مما يدل على أن كلامه عن الإجماع كان إعلامياً، لا حقيقياً موضوعياً.

وقد جرّهم قولهم بوجوب وجود الإمام للاعتداد بالإجماع إلى مسألة غريبة: وهي أنه إن كان العلماء المجمعون على مسألة معروفين فلا يعتدّ بهم، أما إن كان هناك عالم مجهول النسب بينهم ففي هذه الحالة يعتدّ بهذا الإجماع؛ رجاء أن يكون هو المهدي الغائب المنتظر!! ففي مسألة إنكار السهو والنسيان في حق الأئمة ذهب الصدوق وشيخه

(١) الشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ): الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد (ص ٣٠٣).

(٢) الموسوي الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة الأعلمي - بيروت (ص ١١٣).

ابن الوليد إلى وقوع ذلك، فردّ الشيعة على هذا بقولهم: « إن خروجهما لا يخل بالإجماع لكونهما معروفين بالنسب »!!^(١). وما الذي يضمن أن يكون هذا الذي خفي نسبه بين المجمعين هو الإمام، وليس شخصاً شريراً مدسوساً لإفساد رأي السادة العلماء؟! أما أهل السنة فيرون الإجماع دليلاً تشريعياً أكدته نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية. قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۖ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥]، « فما رأى المسلمون حسناً فهو عند الله حسن، وما رأوا سيئاً فهو عند الله سيئ »^(٢).

وأما القياس^(٣): فإن الشيعة يعدون العقل أحد المصادر الشرعية للأحكام، وقد مر منذ قليل قول الزنجاني: « الأدلة الشرعية هي الكتاب والسنة النبوية والأحاديث التي رواها الثقات عن أئمة الهدى والإجماع والعقل على التفصيل المذكور في كتب الفقه »^(٤). وقد امتدحت روايات الشيعة العقل، وكذلك أكد عليه علماءهم: « والحقيقة أن العقل بوصفه حجة قاطعة ومصدرًا من مصادر اليقين يقف إلى جوار السنة... بل إن بعض علمائهم يؤكد على أن العقل لا يعد فقط طريقًا إلى معرفة الله تعالى، بل يعد أيضًا طريقًا إلى معرفة أصول الاعتقاد الخمسة المعروفة عند الإمامية، وأن العقل بذاته حجة في إثبات هذه الأصول » وهم بهذا لا يختلفون عن المعتزلة الذين يعدون العقل أصلًا من أصول الأدلة^(٥). بل يؤكد الإمامية على إثبات التلازم بين العقل والشرع، وهناك قول مشهور عند الإمامية: (كل ما حكم به العقل فقد حكم به الشرع)^(٦). وتروي كتب الشيعة من الأحاديث ما يبين مكانة العقل، فعن أبي جعفر قال:

(١) بحار الأنوار (٣٥١/٢٥).

(٢) من كلام ابن مسعود رضي الله عنه، انظر: مسند أحمد بن حنبل (٣٧٩/١)، حسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط، ورواه الحاكم في المستدرک، وواقفه الذهبي (٨٣/٣).

(٣) نذكر أننا نذكر القياس هنا من باب المقارنة بين مصادر التشريع بين أهل السنة والاثني عشرية، لا من حيث مكانة القياس في العقيدة وتلقيها عند أهل السنة والجماعة؛ إذ عمل القياس في الأحكام الشرعية التي لا دليل فيها، بقياس ما فيه دليل شرعي من الكتاب والسنة على ما لا دليل عليه منهما، عند وجود العلة الواضحة المشتركة، أما العقائد فالقياس فيها ممتنع.

(٤) الموسوي الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة الأعلمي - بيروت (ص ١١٣).

(٥) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١١٤).

(٦) محمد رضا المظفر: أصول الفقه (١٨٨/١)، (ط ٤)، (١٣٧٠ هـ)، الحوزة العلمية قم.

« لما خلق الله العقل قال له: أقبل فأقبل، ثم قال له: أدبر فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحسن منك، إياك أمر وإياك أنهى، وإياك أثيب وإياك أعاقب » (١).
وتنسب كتب الحديث الشيعية إلى النبي ﷺ: « إذا رأيتم الرجل كثير الصلاة كثير الصيام فلا تباهاوا به حتى تنظروا كيف عقله » (٢).

وجاء في أصول الكافي عن موسى بن جعفر: « يا هشام، إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة؛ فأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام، وأما الحجة الباطنة فالعقول ». وجاء في بحار الأنوار عن الرضا: « العقل تعرف به الصادق فتصدّقه، والكاذب فتكذّبه ».

ولكن مما يثير العجب أن الشيعة مع وقوفهم هذا الموقف من العقل أنكروا حجية القياس، والمنطق يقول: إن القياس هو أحد العمليات العقلية البحتة التي يستخدمها كل العقلاء؛ فكيف امتلأت كتب أصول العقيدة عندهم بعبارات ذم القياس وذم الفقهاء الذين قالوا به؟!

عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: « من عمل بالمقاييس فقد هلك وأهلك، ومن أفتى الناس بغير علمٍ وهو لا يعلم التاسخ من المنسوخ والمحكم من المتشابه فقد هلك وأهلك » (٣).

وقال شارح هذا الحديث: « والمراد بالمقاييس: القياس عند أبي حنيفة ومن تابعه من فقهاء العامة، وجعلوه دليلاً على الحكم الشرعي يعولون عليه في عملية الاستنباط » (٤).
وعن أبي شيبة الخراساني، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « إن أصحاب المقاييس

(١) الكليني: أصول الكافي (٦٩/١) كتاب العقل والجهل. وهذا الحديث وإن كان صحيح المعنى؛ فإن علماء السنة حكموا بضعفه أو وضعه؛ حيث لم يرد بسند جيد. انظر: الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، للشوكاني (ص ٤٧٧)، المكتب الإسلامي - بيروت (ط ٣)، (١٤٠٧ هـ)، تحقيق: عبد الرحمن يحيى المعلمي، وقال العجلوني في كشف الخفاء (٣٠٧/١): « قال الصغاني: موضوع باتفاق » وكذلك نقل عن الزركشي متابعا ابن تيمية، كشف الخفاء (١٠٧١/٢)، وقد أخرجه الطبراني الكبير (٢٨٣/٨)، من حديث أبي أمامة وأبي هريرة رضي الله عنهما، وضعفه العراقي في تخريجه لأحاديث إحياء علوم الدين المستقى: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار (٥١/١).

(٢) الكليني: أصول الكافي (٧٠/١) كتاب العقل والجهل.

(٣) المصدر السابق (٩٣/١)، كتاب فضل العلم، باب النهي عن القول بغير علم.

(٤) محمد جعفر شمس الدين، في تعليقه على أصول الكافي (٩٣/١)، الحاشية.

طلبوا العلم بالمقاييس فلم تزدهم المقاييس من الحق إلا بعداً، وإنّ دين الله لا يصاب بالمقاييس» (١).

وعن محمد بن حكيم قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: « جعلت فداك فقهننا في الدين وأغنانا الله بكم عن الناس، حتى إنّ الجماعة متاً لتكون في المجلس ما يسأل رجل صاحبه تحضره المسألة ويحضره جوابها فيما منّ الله علينا بكم، فربّما ورد علينا الشيء لم يأتنا فيه عنك ولا عن آبائك شيء، فنظرنا إلى أحسن ما يحضرنا وأوفق الأشياء لما جاءنا عنكم فنأخذ به؟ فقال: هيهات هيهات في ذلك والله! هلك من هلك يا بن حكيم. قال: ثمّ قال: لعن الله أبا حنيفة كان يقول: (قال عليّ وقلت) قال محمد بن حكيم لهشام بن الحكم: والله ما أردت إلا أن يرتخص لي في القياس» (٢).

ولا مجال إذن لفسح المجال للعقول لتفترض فرضيات لا وجود لها، فقد جاء عن يونس عن قتيبة قال: « سأل رجل أبا عبد الله عليه السلام عن مسألة فأجابها فيها، فقال الرجل: أرايت إن كان كذا وكذا ما يكون القول فيها؟ فقال له: مه، ما أجبتك فيه من شيء فهو عن رسول الله صلى الله عليه وآله. لسنا من أرايت في شيء» (٣).

وهذه النصوص التي روتها كتب الإمامية في ذم القياس العقلي هي التي جعلت قسماً من الشيعة - مع اعترافهم بكون العقل أصلاً من أصول اليقين - يقللون من مكانة العقل. ومثل هذه النصوص التي وردت في روايات الأئمة وعن علمائهم تثبت صدق ما نسبته الغزالي إليهم؛ إذ « نسب الغزالي إلى الإمامية القول بإثم المجتهد الخاطئ، وذهب بشر المريسي إلى أن الإثم غير محطوط عن المجتهدين في الفروع... وتابعه على هذا ابن عليّة وأبو بكر الأصم، ووافقهم جميع نفاة القياس ومنهم الإمامية» (٤). على حد قول أحد الأئمة: « أما إنك إن أصبت لم تؤجر، وإن أخطأت كذبت على الله» (٥).

ويحاول الدكتور السنهوتي أن يفسر موقف الأئمة المتشدد من القياس فيقول: « لأنهم يريدون من الناس أن يردّوا لهم كل شيء» وقد عبّر عن هذه الحقيقة الشيخ

(١) أصول الكافي (١٠٩/١) كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقاييس.

(٢) أصول الكافي (١٠٨/١) كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقاييس.

(٣) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقاييس (١١٢/١).

(٤) عبد العلي محمد بن نظام الدين الأنصاري: فوائح الرحموت شرح مسلم الثبوت (٤٦١/٢)،

(١٣٢٤هـ)، دار الفكر - دمشق.

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (٣٠٦/٢).

المظفر عندما قال: « ونعتقد أن الأحكام الشرعية الإلهية لا تستقى إلا من نعيم مائهم، ولا يصح أخذها إلا منهم »^(١)، وخصوصًا في مسألة الإمامة: فإذا كان أهل السنة يرون وجوب الاجتهاد بالعقول لاختيار الإمام - هذا ما كان ينبغي بخلاف ما وقع في كثير من مراحل التاريخ - فإن الاثني عشرية يرون أن الإمامة فوق العقل، وأنها « أجل من أن يدركها الناس بعقولهم »^(٢).

أما جمهور أهل السنة فيرون القياس مصدرًا من مصادر التشريع الإسلامي. والحقيقة أن قول علماء الاثني عشرية بوجوب الاجتهاد حال الغيبة الكبرى - وقد وقعت - يقرب وجهات النظر في مسألة القياس والاجتهاد العقلي واقعيًا. يقول الزنجاني: « نعتقد أن الاجتهاد في الأحكام الفرعية واجبٌ بالوجوب الكفائي على جميع المسلمين في عصر غيبة الإمام من تاريخ (٣٢٩ هـ) إلى زماننا »^(٣). « فأرجع شيعته إلى فقهاء مدرستهم، وأناهم عنه نيابة عامة دون تعيين أحد بالخصوص... حيث تحولت الحلقات الدراسية التي كانت تعقد في المساجد والبيوت على عهد الأئمة إلى معاهد تعليمية وحوزات علمية »^(٤).

والحقيقة أن تلك النصوص الدائمة للقياس، والتي نقلها أتباع الأئمة عنهم - كان من الممكن توجيهها من علماء الاثني عشرية: بأن المراد بالقياس المذموم هو القياس والاجتهاد عند ورود النص الصحيح الصريح؛ إذ (لا اجتهاد في مورد النص) وهو أمر واضح الصواب، أما الاجتهاد والقياس عند غياب النص بعيدًا عن الهوى فلا حرج فيه، بل لا بد منه. ولكنهم لم يوجهوها هذا التوجيه؛ لأن هنالك بعدًا آخر لذم القياس؛ فإذا كان تأثر الشيعة بالمعتزلة جعلهم يقولون بمكانة العقل ودوره في تأسيس اليقين، فإن عقيدة الشيعة في الأئمة وشمول علومهم وأنهم (خزّان العلوم الإلهية)، وأنهم قد علموا كل شيء يحتاجونه - كل ذلك يجعل الشيعة يتجهون اتجاهًا معاكسًا؛ إذ يعولون على ما نقل من كلام الأئمة، ويعرضون عن الاجتهاد، وهذا هو مذهب الأخبارية منهم^(٥).

(١) الشيخ المظفر: عقائد الإمامية (ص ٥٥).

(٢) ا.د. السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٦٥).

(٣) الموسوي الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة الأعلمي - بيروت (ص ١١٣).

(٤) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٩٢).

(٥) انظر: د. عائشة المناعي (ص ١١٥)، وانظر: د. رشدي محمد عرسان: العقل عند الشيعة الإمامية مطبعة دار السلام - بغداد (ط ١)، (١٩٧٣ م)، (ص ٩٨).

وبهذا ندرك أن الصراع بين الأصوليين والأخباريين لم يقتصر على إمكانية دور العقل في الحكم بتضعيف أو تصحيح النصوص الواردة عن الأئمة؛ بل يتعدى ذلك الخلاف والصراع إلى دور العقل في الاجتهاد والمعرفة بعيدًا عن روايات الأئمة. ولا عجب بعد ذلك أن نرى قسمًا من الشيعة يوغل في تمسكه بظواهر أقوال الأئمة دون تمحيص بين صحيحها وسقيمها، في حين يتجه القسم الآخر إلى علم الكلام والفلسفة المشائية ويوغل فيها.

* * *

المطلب الثاني

بعض المصادر الغريبة لتلقي العقيدة عند الاثني عشرية

إذا كان الاثنا عشرية قد أنكروا الإجماع - بماهيته عند أهل السنة والجماعة - وكذلك أنكروا القياس ودموه؛ فإنهم في الحقيقة وقعوا في شرك الاعتقاد بمصادر غريبة لم يوافقهم عليها أهل السنة والجماعة ولا غيرهم. ومن هذه المصادر الغريبة:

١ - توقيعات المهدي الغائب المنتظر:

وهي عبارة عن رسائل يزعم بعض الاثني عشرية أنهم يحصلون عليها من الإمام الغائب - وخصوصًا في فترة الغيبة الصغرى التي ابتدأت بولادته منتصف شعبان (٢٥٥ هـ) وانتهت بغيبته الكبرى في (١٥ شعبان ٣٢٨ هـ).

واعلم أن الرقاع كثيرة؛ منها رقعة علي بن الحسين بن موسى بن بابويه القمي، فإنه كان يظهر رقعة بخط صاحب في جواب سؤاله، ويزعم أنه كاتب أبا القاسم ابن أبي الحسين ابن روح [أحد سفراء الإمام حال الغيبة الصغرى] على يد علي بن جعفر بن الأسود أن يوصل له رقعته إلى صاحب فأوصلها إليه، فزعم أبو القاسم أنه أوصل رقعته إلى صاحب (أي المهدي) وأرسل إليه رقعة زعم أنها جواب صاحب الأمر له.

ومنها رقاع محمد بن عبد الله بن جعفر بن حسين بن جامع بن مالك الحريري أبو جعفر القمي، كاتب صاحب الأمر وسأله مسائل في أبواب الشريعة قال: قال لنا أحمد بن الحسين: وقفت على هذه المسائل من أصلها والتوقيعات بين السطور. ذكر تلك الأجوبة محمد بن الحسن الطوسي في كتاب الغيبة وكتاب الاحتجاج.

فهؤلاء كلهم كانوا يزعمون أنهم كانوا يكتبون صاحب الأمر (المهدي المنتظر)
ويسألونه مسائل في أحكام الشرع، وأنه كان يكتب جواب أسئلتهم كما ذكره النجاشي
وغيره من علمائهم، وأبو العباس هذا قد جمع كتابًا في الأخبار المروية عنه وسماه
(قرب الإسناد إلى صاحب الأمر).

ومنها رفاع علي بن سليمان بن الحسين بن الجهم بن بكير بن أعين أبو الحسن الرازي
فإنه كان يدعي المكتابة أيضًا ويظهر الرقاق. قال النجاشي: كان له اتصال بصاحب
الأمر وخرجت له التوقيعات.

وقد ذكر الكليني في الكافي أن الشيعة كانوا يكتبون المهدي في صغار الأمور مثل كبارها؛
فعن القاسم بن العلاء قال: « ولد لي عدّة بنين فكنت أكتب وأسأل الدعاء فلا يكتب
إليّ لهم بشيء فماتوا كلّهم، فلمّا ولد لي الحسن ابني كتبت أسأل الدعاء فأجبت: يبقى
والحمد لله » (١).

وآخر يسأله الدعاء لشفاء من مرض؛ فعن محمّد بن يوسف الشاشيّ قال: خرج بي
ناصرٌ على مقعدتي فأرثته الأطباء وأنفقت عليه مالاً فقالوا: لا نعرف له دواءً، فكتبت
رقعةً أسأل الدعاء فوقع ~~الخط~~ إليّ: « ألبسك الله العافية وجعلك معنا في الدنيا والآخرة.
قال: فما أتت عليّ جمعةٌ حتّى عوفيت وصار مثل راحتي، فدعوت طبيبًا من أصحابنا
وأرثته إيّاه فقال: ما عرفنا لهذا دواءً » (٢).

وآخر يكتب ليستأذن بركوب الماء فلا يؤذن له، وآخر يستأذن بالسفر إلى بغداد
فلا يؤذن له، ثم يؤذن له بالخروج يوم الأربعاء (٣)، وهذا يسأله عن الجارية أيستولدها؟
عن محمّد بن صالح قال: « كانت لي جاريةٌ كنت معجبًا بها فكتبت أستأمر في
استيلادها فورد: استولدها ويفعل الله ما يشاء. فوطئتها فحبلت ثمّ أسقطت فماتت » (٤).

وعن الحسن بن الفضل بن زيد اليمانيّ قال: « كتب أبي بخطّه كتابًا فورد جوابه، ثمّ
كتبت بخطّي فورد جوابه، ثمّ كتب بخطّه رجلٌ من فقهاء أصحابنا فلم يرد جوابه،

(١) أصول الكافي (٥٩٦/١) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه.

(٢) أصول الكافي (٥٩٧/١) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه. الناصور: فروح
داخلية تصيب مخرج الغائط.

(٣) أصول الكافي (٥٩٧/١) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه..

(٤) أصول الكافي (٥٩٧/١) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب. حكم بصحته محققه.

ف نظرنا فكانت العلة أنّ الرجل تحوّل قمرطيّاً» (١).

وبعضهم كان يسأل في هذه الرقاع عن أهم أصول الدين، وكان القرآن والسنة لم يبيّنا أصول العقيدة؛ عن أيّوب بن نوح أنّه كتب إلى أبي الحسن عليه السلام يسأله عن الله تعالى وكان يعلم الأشياء قبل أن خلق الأشياء وكونها..؟ فوقّع بخطّه: لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء.

وعن جعفر بن محمّد بن حمزة قال: كتبت إلى الرجل عليه السلام أسأله أنّ مواليك اختلفوا في العلم... فكتب عليه السلام بخطّه: «لم يزل الله عالماً تبارك وتعالى ذكره» (٢). وهذه التوقيعات قدّست وعظّمت عند الاثني عشرية - مع أنها من الناحية العلمية لا قيمة لها؛ إذ من السهل ادعاؤها أو تزويرها، كما أنها خالية عن السند - وقد أحاطتها هالة من الهيبة والقداسة، حتى قدّمت على الأحاديث المسندة. مع أنها من الأمور الخفية التي لا يدل عليها أي دليل؛ غاية ما في الأمر أن هذا السفير «كان يزعم أنه يكتب مسألة في رقعة فيضعها في ثقب شجرة ليلاً، فيكتب الجواب عنها المهدي صاحب الزمان بزعمه»!! وقد قدّموها على الكتب المسندة، كما ذكر الآلوسي في مقال كتبه في مجلة المنار أنهم: رجّحوا التوقيع على المروي بالإسناد الصحيح لدى التعارض، قال ابن بابويه في الفقه بعد ذكر التوقيعات الواردة من الناحية المقدسة في (باب الرجل يوصي إلى الرجلين): هذا التوقيع عندي بخط محمد بن الحسن بن علي، وفي الكافي للكليبي رواية بخلاف ذلك التوقيع عن الصادق، ثم قال: لا أفني بهذا الحديث، بل أفني بما عندي من خط الحسن بن علي (٣)! فما دامت أحاديث الكليبي منقولة عن الأئمة، وقد زعموا أن الكليبي أرسل بكتاب (الكافي) إلى الإمام الغائب، «فاستحسنه، وقال كافٍ لشيعتنا» (٤) - فكيف تتصادم أحاديثه مع خبر أتى عن الإمام الغائب نفسه!! ولو كان هذا الخبر في الكافي ضعيفاً فكيف لم يصححه الغائب ويحذفه من النسخة

(١) أصول الكافي (١/٥٩٧) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه..

(٢) أصول الكافي (١/١٦٠)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٣) مجلة المنار مجلد (٢٩) (٦/٤٢٤)، ربيع الآخر (١٣٧٤هـ) أكتوبر (١٩٢٨م)، تحت عنوان خطة المنار في التأليف بين المسلمين، وهي في أصلها صورة الكتاب الذي أرسله علامة العراق السيد محمود شكري الآلوسي إلى علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي في الرد على صاحب رسالة (الحصون النبية فيما أورده صاحب المنار في الشيعة) العاملي.

(٤) مقدمة الكافي (ص ٢٠، ٢١)، وانظر: منتهى المقال (ص ٢٩٨)، وروضات الجنات (ص ٥٥٣).

التي وصلت إليه؟ ولذلك جاء السيد مرتضى العسكري ليشكك بهذا القول الذي يتصدر كتاب أصول الكافي، فيقول: «أما ما قيل من أن المهدي عليه السلام قال: (إن الكافي كافي لشيعتنا)؛ فإنه قول مجهول رواه، ولم يسم أحدًا باسمه»^(١)، فيستدلون بهذا القول حينما يريدون، ويطرحونه حينما يريدون.

٢ - حساب الحروف واعتقاد النفع والضرر في النجوم:

أما علم الفلك فهو من العلوم الكونية المهمة التي نشط فيها علماء المسلمين، ولكن المذموم هو التنجيم واعتقاد الضرر والنفع في النجوم.

وهناك روايات اثنا عشرية تعظم من شأن النجوم والتطلع إليها، وترفع قدر حساب الحروف، وتنسب إلى نبي الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام - حساب النجوم؛ فعن علي بن محمد رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ۝ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصفوات: ٨٨، ٨٩] قال: «حسب فرأى ما يحلّ بالحسين عليه السلام فقال: إني سقيم لما يحلّ بالحسين عليه السلام»^(٢).

وعن محمد بن عبد الله رفعه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن أبا طالب أسلم بحساب الجمل قال: بكلّ لسان. وحساب الجمل: «هو حساب الأبجد؛ إذ لكل حرف من حروفه عدد مخصوص به»^(٣).

و«عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أسلم أبو طالب بحساب الجمل وعقد بيده ثلاثاً وستين»^(٤). «عنى بذلك: (إله أحد جواد)، وتفسير ذلك أن الألف واحد، واللام ثلاثون، والهاء خمسة، والألف واحد، والحاء ثمانية، والذال أربعة، والجيم ثلاثة، والواو ستة، والألف واحد، والذال أربعة؛ فذلك ثلاثة وستون»^(٥).

ومن المعلوم عند أهل السنة والجماعة، بل عند عقلاء البشر أن التعامل بالنجوم وحساب الحروف ليس من الإسلام في شيء.

(١) السيد مرتضى العسكري: معالم المدرستين (٣/٣٤٤).

(٢) أصول الكافي (١/٥٣٧) كتاب الحجّة، باب مولد الحسين بن علي. قال محققه: والحديث مرفوع، مع أنه لم يذكر له سنداً هنا، ويعلم من له أدنى معرفة بمصطلح الحديث أن رفع الحديث لا يعني تصحيحاً ولا تضعيفاً.

(٣) أصول الكافي (١/٥٢١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي صلى الله عليه وآله ووفاته. هامش (٣).

(٤) أصول الكافي (١/٥٢١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي صلى الله عليه وآله ووفاته.

(٥) مرآة العقول (٥/٢٥٨).

اعتقاد النفع والضرر في النجوم:

« عن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « جعلت فداك، إنني أخاف العقرب، فقال: انظر إلى بنات نعش ^(١) الكواكب الثلاثة الوسطى منها بجنبه كوكب قريب منه تسميه العرب: السها، ونحن نسميه: أسلم، أحد النظر إليه كل ليلة وقل ثلاث مرات: « اللهم رب أسلم صلّ على محمد وآل محمد، وعجل فرجهم وسلّمنا » قال إسحاق: فما تركته منذ دهري إلا مرة واحدة فضربتني العقرب » ^(٢).

وجاء في روضة الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام: « من سافر أو تزوج والقمر في العقرب لم ير الحسنى » قال المحقق: « أي في بروجها أو محاذة كواكبها » ^(٣).

ولما انتشرت مثل هذه الترهات بين العامة تصدى لها علماء السنة وأكدوا وضعها، جاء في (تذكرة الموضوعات): « (لا تسافروا والقمر في العقرب): موضوع » ^(٤).

ولذلك لا غرابة أن يطبع في النجف كتاب (ضياء الصالحين) الذي يجمع في بعض صفحاته عدة طلاسم تقرأ على مدار الأسبوع معنونة: (طلسم يوم الجمعة... إلخ)، فيه آيات من القرآن إلى جانب بعض الحروف والرموز ^(٥).

وسرّ انتشار هذه الكتب تلك الروايات التي ذكرت النجوم والحروف، وتردد علماء الشيعة في تحريم الطلاسم التي يقولون: إنه لا ضرر فيها. يقول الأنصاري - الشيعي -: « ما كان من الطلاسم مشتملاً على إضرار أو تمويه على المسلمين، أو استهانة بشيء من حرّات الله - كالقرآن وأبعاضه وأسماء الله الحسنى، ونحو ذلك - فهو حرام بلا ريب، سواء عد من السحر أم لا، وما كان للأغراض - كحضور الغائب، وبقاء العمارة، وفتح الحصون للمسلمين، ونحوه - فمقتضى الأصل جوازه » ^(٦).

كما حوى بحار الأنوار بعض التعويذات عن الأئمة بكلمات أعجمية لا يعرف

(١) بنات نعش: سبعة كواكب؛ أربعة منها نعش وثلاث بنات وكذلك الصغرى، والسها: هي الكواكب

الثاني من بنات نعش ويسمى الأول منها: القائد والثاني: المحور، ويسميتها الناس اليوم: الدب الأكبر.

(٢) أصول الكافي (٥٣٧/٢) كتاب الدعاء، باب الحرز والعوذة. قال محققه: الحديث حسن أو موثق.

(٣) الروضة من الكافي (٢٧٥/٨) باب فضل الشيعة وأنهم نور في ظلمات الأرض.

(٤) الفتني: تذكرة الموضوعات (ص ١٢٢)، باب فضل السفر للغازي وغيره في البر والبحر.

(٥) انظر: الحاج محمد صالح الجوهري: ضياء الصالحين (ص ٥٢٥)، مكتبة الألفين - الكويت.

(٦) الشيخ الأنصاري: كتاب المكاسب (٢٦٦/١) مطبعة باقري قم (١٤١٥ هـ).

معناها، شأن كثير من تعاويذ الكهان والسحرة والمشعوذين:

« ٣ مكا: حرز لأمير المؤمنين صلوات الله عليه للمسحور والتوابع والمصروع والسم والسلطان والشيطان وجميع ما يخافه الإنسان، ومن علق عليه هذا الكتاب لا يخاف اللصوص والسارق، ولا شيئاً من السباع والحيات والعقارب وكل شيء يؤذي الناس وهذه كتابته: بسم الله الرحمن الرحيم، أي كنوش أي كنوش، ارشش عطيطنيطح، يا ميظطرون فريالسنون، ما وما ساما سوياء، طيطشالوش خيطوش مشفقيش مشاصعوش أو طيعينوش ليظفيتكش هذا هذا، ﴿ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرْشِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [القصص: ٤٤] اخرج بقدرة الله منها أيها اللعين بعزة رب العالمين، اخرج منها وإلا كنت من المسجونين، اخرج منها ﴿ فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴾ [الأعراف: ١٣] » (١).

ولا شك أن هذه الأخبار مكذوبة على علي وآل بيته الكرام، كما قال ابن قيم: « والكذّابون كثيراً ما ينفقون سلعمهم الباطلة بنسبتها إلى علي وأهل بيته، كأصحاب القرعة والجفر والبطاقة والمراحم وغيرها، فلا يدري ما كذب على أهل البيت إلا الله سبحانه » (٢).

وقد ثبت عند أهل السنة قول النبي ﷺ - كما في صحيح مسلم - : « من أتى عزافاً لم تقبل منه صلاة أربعين يوماً » (٣)، وجاء في المسند: « من أتى كاهناً أو عزافاً فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ » (٤)، وثبت عندهم قول سيدنا علي أمير المؤمنين ﷺ: « من طلب علم النجوم تكهن » (٥).

وورد أنه قيل له: « لا تحاربهم اليوم فإن القمر في العقب. فقال ﷺ: قمرنا أم قمرهم (٦)؟! »

(١) المجلسي: بحار الأنوار (١٩٣/٩١).

(٢) ابن قيم الجوزية: مفتاح دار السعادة (٢٢٦/٢ - ٢٢٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الآداب، باب تحريم الكهانة، رقم (٢٢٣٠).

(٤) مسند أحمد بن حنبل (٤٢٩/٢). وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط، وقال: رجاله ثقات رجال الصحيح، والطبراني: المعجم الكبير (٧٦/١٠).

(٥) القضاعي: (الحافظ أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي): دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (ص ١٨٦) دار القلم - دمشق (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

(٦) ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦هـ): شرح نهج البلاغة (٣٧٦/١٩). دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (١٩٥٩م).

وهذا الجواب منه - رضوان الله عليه - من دلائل علمه وفطنته؛ إذ النحس والطيرة ستكون للفريقين، فلو كان لها وجود لكان جيشه وجيش عدوه في الطيرة والشؤم سواء. « ومن كلام له عليه السلام قاله لبعض أصحابه لما عزم على المسير إلى الخوارج فقال له: يا أمير المؤمنين، إن سرت في هذا الوقت خشيت أن لا تظفر بمرادك من طريق علم النجوم. فقال عليه السلام: زعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها صرف عنه السوء، وتخوف من الساعة التي من سار فيها حاق به الضر؟! من صدق بهذا فقد كذب القرآن، واستغنى عن الإعانة بالله في نيل المحبوب ودفع المكروه. وتبغني في قولك للعامل بأمرك أن يوليك الحمد دون ربه؛ لأنك بزعمك أنت هديته إلى الساعة التي نال فيها النفع وأمن الضر. ثم أقبل عليه السلام على الناس فقال: أيها الناس، إياكم وتعلم النجوم إلا ما يهتدى به في بر أو بحر؛ فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر في النار. سيروا على اسم الله » (١).

وقد أشار الشيخ شبر إلى جملة من المعاصي منبهاً، فذكر « منها الإخبار عن الغائبات على البت والقطع لغير نبي أو وصي نبي، سواء كان بالتنجيم أو الكهانة أو القيافة أو غير ذلك والشعبذة والسحر، وفي الحديث...: « المنجم ملعون والكاهن ملعون والساحر ملعون... » ومنها: استخدام الملائكة والجن واستنزال الشياطين في كشف الغائبات واستحضارهم وتلييسهم بيدن صبي أو امرأة أو نحو ذلك، فتعلم ذلك وأشباهه وتعليمه حرام، والكسب به سحت إلا للتوقي ودفع المبتلى » (٢).

هل تعود أمة الإسلام إلى الاستقسام بالأزلام؟!

نهانا الله تعالى عن الاستقسام بالأزلام، وأمرنا بصلاة ودعاء الاستخارة، ولكن عن الكليني والمجلسي رواية تبين إمكانية الرجوع للأزلام، ولكن بطريقة تدخل عبارات إسلامية! عن هارون بن خارجة، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إذا أردت أمراً فخذ ست رقاع فاكتب في ثلاث منها (بسم الله الرحمن الرحيم، خيرة من الله العزيز الحكيم لفلان ابن فلانة، افعل) وفي ثلاث منها (بسم الله الرحمن الرحيم، خيرة من الله العزيز الحكيم لفلان بن فلانة، لا تفعل) ثم ضعها تحت مصلاك ثم صل ركعتين، فإذا فرغت فاسجد سجدة وقل مائة مرة: (أستخير الله برحمته خيرة في عافية). ثم استو جالساً وقل: (اللهم

(١) نهج البلاغة (١٢٨/١، ١٢٩).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٤١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

خر لي واختر لي في جميع أموري في يسر منك وعافية). ثم اضرب بيدك إلى الرقاع فشوشها وأخرج واحدة واحدة، فإن خرج ثلاث متواليات (افعل)؛ فافعل الأمر الذي تريده، وإن خرج ثلاث متواليات (لا تفعل)؛ فلا تفعله، وإن خرجت واحدة (افعل) والأخرى (لا تفعل)؛ فأخرج من الرقاع إلى خمس فانظر أكثرها، فاعمل به، ودع السادسة لا يحتاج إليها» (١).

وهذا قريب من حال أهل الجاهلية في ابتغاء علم الغيب، قال تعالى مبينًا بعض ما نهانا عنه: ﴿وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾ [المائدة: ٣]. قال ابن جرير الطبري: «أي وأن تطلبوا علم ما قسم لكم أو لم يقسم بالأزلام... قال ابن قتيبة: الأزلام القداح واحدها زَلَمٌ وزَلَمٌ، والاستقسام بها أن يضرب بها فيعمل بما يخرج فيها من أمر أو نهى... قال سعيد بن جبير: الأزلام حصى بيض كانوا إذا أرادوا غدوًا أو رواحا كتبوا في قدحين في أحدهما: أمرني ربي، وفي الآخر: نهاني ربي. ثم يضربون بهما، فأيهما خرج عملوا به» (٢).

فما الفرق بين الصورتين؟!

٣ - مكانة الإلهام بين مصادر العقيدة عند الاثني عشرية وأهل السنة والجماعة:

قال الجرجاني الحنفي (٣): «الإلهام ما يلقي في الروح بطريق الفيض، وقيل: الإلهام ما وقع في القلب من علم وهو يدعو إلى العمل من غير استدلال بآية ولا نظر في حجة» (٤).

قال ابن الجوزي: «ولا ينكر أن الله ﷻ يلهم الإنسان الشيء كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْأُمَمِ مَحْدَثِينَ، وَإِنْ يَكُنْ فِي أُمَّتِي فَعَمْرٌ» (٥)، والمراد بالتحديث: إلهام الخير، إلا أن الملهم لو ألهم ما يخالف العلم لم يجز له أن يعمل عليه... وليس الإلهام من العلم

(١) الكليني: الكافي (٣/٤٧٠، ٤٧١)، والمجلسي: بحار الأنوار (٢٣٠/٨٨)، واللفظ للمجلسي.

(٢) ابن الجوزي: زاد المسير (٢/٢٣٨).

(٣) علي بن محمد الجرجاني الحنفي (ت ٨١٦هـ)، شارح (المواقف في علم الكلام) للإيجي (٧٥٦هـ)، وهو غير عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجاني اللغوي (ت ٤٧١هـ) صاحب (دلائل الإعجاز) و(أسرار البلاغة).

(٤) الجرجاني: التعريفات (ص ٥٢)، دار الكتاب العربي - بيروت (ط ١)، (١٤٠٥هـ)، تحقيق: إبراهيم الأبياري.

(٥) أخرجه البخاري بلفظ (إنه كان قد كان فيما مضى قبلكم من الأمم محدثون، وإنه إن كان في أمتي هذه منهم فإنه عمر بن الخطاب) كتاب الأنبياء، باب قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ﴾

[الكهف: ٩] رقم (٣٢٨٢)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل عمر، رقم (٢٣٩٨).

(محدثون): جمع محدث، وهو الذي يجري الصواب على لسانه أو يخطر بباله الشيء فيكون.

في شيء؛ إنما هو ثمرة العلم والتقوى فيوفق صاحبهما للخير ويلهم الرشد، فأما أن يترك العلم ويقول إنه يعتمد على الإلهام والخواطر؛ فليس هذا بشيء... واعلم أن العلم الإلهامي الملقى في القلوب لا يكفي عن العلم المنقول، كما أن العلوم العقلية لا تكفي عن العلوم الشرعية؛ فإن العقلية كالأغذية، والشرعية كالأدوية، ولا ينوب هذا عن هذا» (١).

ويقول الجرجاني في حجية الإلهام: « هو ليس بحجة عند العلماء إلا عند الصوفيين » (٢).

ويرى بعض كتّاب الشيعة أن الإلهام من مصادر العقيدة؛ إذ يقول الأستاذ مرتضى مطهري - شيعي معاصر - عن الإلهام أنه: « أحد أنواع الهداية الأخرى... العلم الإشراقي (الإلهام) »، ويراها سابقاً للتفكير والتجربة فيقول: « إن هناك منشأ اسمه الإلهام أو الحدس أو الإشراق - سمه ما شئت - وراء التجربة والتفكير... هذا وفي الأحاديث إشارات كثيرة إلى العلم الإشراقي اللدني خصوصاً فيما يتعلق بتهديب النفس وطهارتها، وأنها كلما كانت على حد من الطهارة والنزاهة كلما كانت مستعدة لقبول العلم والإلهام والإشراق » (٣).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ [النور: ٣٥] يقول مطهري: « وفي ذلك إشارة - على ما في بعض التفاسير - إلى استعداد بعض النفوس لكسب العلوم والمعارف من دون طبي مقدمات العلم ». وقد أخذ مطهري القول بأهمية الإلهام في العلوم عن بعض فلاسفة المسلمين كابن سينا وعلماء الغرب كأششتاين وألكسيس كاريل (٤). وهكذا يتفق القائلون بالإلهام من الشيعة مع المقرين بأهميته من أهل التصوف؛ فكلاهما يستشهد بالحديث القائل: « من أخلص لله أربعين يوماً فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه » (٥).

وإذا كان الكشف طريقاً من طرق المعرفة عند بعض المتصوفة وبعض الشيعة؛ فإن هنالك من علماء الشيعة من أنكر أن يكون الكشف طريقاً موصلاً إلى الله؛ إذ لو كان أحد طرق الوصول إلى الحقيقة لبيّنه القرآن الكريم وفضّله، يقول الطباطبائي - المعاصر -:

(١) ابن الجوزي: تليس إبليس (ص ٣٩٢)، دار الكتاب العربي - بيروت (ط ١)، (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م)، تحقيق: د. السيد الجميلي.

(٢) الجرجاني: التعريفات (ص ٥٢). (٣) مطهري: التوحيد (ص ١٤١، ١٤٢).

(٤) المرجع السابق نفسه.

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (٢٤٩/٦٧)، وليس له ثبوت عند أهل السنة، فقد ذكره الفتني في (تذكرة الموضوعات) باب خرقة الصوفية والأربعينات والمجاهدة (ص ١٩١، ١٩٢). قال ابن عدي عن الحديث: منكر.

« فهل يمكن أن يتصور أن الإسلام يعرّف لنا الطريق إلى الله تعالى ولا يبحث الناس على تتبعه، أو يعرّفه ويفعل عن تبيان نهجه في حين يقول: ﴿ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [النحل: ٨٩] » (١).

وهذا ينسجم مع ما قرره المحققون من علماء الكلام من أهل السنة، من إنكار أن يكون الإلهام موصلاً للعلم الملزم بين الناس، وإن أجاز بعضهم أن يكون الإلهام طريقاً خاصاً للاستثناس، فلا يترتب عليه شيء من الأحكام؛ فقد قال النسفي عن الإلهام: « والإلهام ليس من أسباب المعرفة بصحة الشيء عند أهل الحق » (٢). وقال التفتازاني شارحاً: « الظاهر أنه أراد أن الإلهام ليس سبباً يحصل به العلم لعامة الخلق ويصلح للإلزام على الغير، وإلا فلا شك أنه قد يحصل به العلم، وقد ورد القول به في الخبر، وحكي عن كثير من السلف » (٣).

أما اليزدي الاثنا عشري فإنه يقسم المعرفة والرؤية الكونية إلى:

- ١ - الرؤية الكونية العلمية (العلوم التجريبية).
 - ٢ - الرؤية الكونية الفلسفية.
 - ٣ - الرؤية الكونية الدينية (من طريق الاعتقاد بقيادة الأديان والإيمان بأحاديثهم).
 - ٤ - الرؤية الكونية العرفانية التي تحصل من طريق الكشف والشهود والإشراق.
- ويتحدث عن هذا النوع الرابع فيقول: « في الكثير من الحالات ربما يشتهبه الشهود الحقيقي بالتصورات الخيالية لها وتفسير الذهن لهذا الشهود، وربما يعرض هذا الخلط الاشتباه حتى على المشاهد نفسه... لا يمكن التوصل للحقائق التي يعبر عن تفسيرها الذهني (الرؤية الكونية) إلا بعد سنوات طويلة من السير والسلوك العرفاني » (٤).
- والملاحظ أن اليزدي يضحّم دور الرؤية الفلسفية؛ لتكون سنداً بعد ذلك للرؤى

(١) الطباطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ١٠٨) وما بعدها.

(٢) النسفي: (عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل السمرقندي الحنفي ت ٥٣٧ هـ): العقائد النسفية مع شرحها للتفتازاني (ص ٧٤). تحقيق محمد عدنان درويش.

(٣) التفتازاني: (سعد الدين بن مسعود بن عمر ت ٧٩٢): شرح العقائد النسفية (ص ٧٤). تحقيق محمد عدنان درويش، تقديم الشيخ أديب الكلاس.

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (١٤٢٤ هـ)، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع - طهران،

ترجمة هاشم محمد (ص ٥٤).

الكشفية، فيقول: « الطريق الوحيد لكل باحث عن معالجة المسائل الأساسية للرؤية الكونية وحلها هو طريق العقل والمنهج العقلي، ومن هنا فالرؤية الواقعية هي الرؤية الكونية الفلسفية... وأخيرًا بعد التوفر على الرؤية الكونية والأيدولوجية الصحيحة يمكن التوصل من خلال المكاشفات والمشاهدات ومن خلال السعي والرقي في مراحل السير والسلوك، ليتوصل وبدون الوسائط الذهنية إلى الكثير من الحقائق التي أثبتتها الاستدلالات العقلية » (١).

وإذا قارنا موقف اليزدي (الشيعي) من مصادر المعرفة بموقف الشيخ عبد الرحمن حبنكة (السني) منها؛ فنرى الأستاذ حبنكة يحصر مسالك الوصول إلى اليقين في ثلاثة مسالك: (الخبر الصادق، الإدراك الحسي، الاستنتاج العقلي). ويعلق على الإشراق والإلهام بقوله: فمن الناس من « يكون صادق الفطرة والإشراق، بدليل موافقة إشراقه الخاص لنتائج مسالك الآخرين البرهانية اليقينية... قد يصلح للمعتقد نفسه، ولكنه لا يغنيه في إقامة الحججة على الآخرين، إلا إذا كان من الأمور التي يشهد الناس بصدقها » (٢).

وبهذا نرى أن الطباطبائي واليزدي في موقفهما من الإشراق والإلهام يتقاربان مع التفتازاني المتقدم والأستاذ عبد الرحمن حبنكة - المعاصر - في حين ضخم بعض علماء الاثني عشرية دور الإلهام في الوصول إلى المعارف، وضخم غيرهم دور الرؤية الفلسفية. ويا حبذا لو ركز الباحثون في مجال العقيدة على أهمية وأولية الخبر الصادق، حسب عبارة الشيخ حبنكة - أو الرؤية الكونية الدينية - على حد تعبير الشيخ اليزدي - في مجال العقيدة، وذلك لعدة أسباب:

- لأن الخبر الصادق هو الذي جاءت به رسل الله تعالى، وبهم أقام الله الحججة على العباد كما قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

- ولأنه هو الوحي المعصوم من الله تعالى، وهو المنظار الواضح الذي يكشف لنا عن عالم الغيب، بشكل يقيني.

- ولأن موضوع عالم الغيب يتناسب مع الخبر الصادق، فهو مجاله وميدانه.

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٥٤، ٥٥).

(٢) الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ٤٥، ٤٦)، دار القلم - دمشق

(ط ٧)، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م).

أما التجربة والمشاهدة فمجالها عالم الشهادة والمحسوسات؛ فلا سلطان لها على عالم الغيب الذي جاءت به الأنبياء.

وأما طريق الاستنتاج العقلي، فمرحبا بها في فهم النصوص الواردة بطريق الوحي المعصوم؛ بحيث تكون وسيلة لفهمه، لا ندًا له ولا مناقشًا ولا معقبًا.

أما الرؤية الفلسفية فإنما تبحث في المجردات العقلية؛ فإنها وإن كانت لا تخلو من فوائد تخدم المناهج الأخرى، ولكن فيها من الصعوبة ما فيها، مما لا يستطيع كل البشر الوصول إليها، بل نخبة قليلة منهم، وقد تختلف آراؤهم في كثير من مسالكها، مما لا يجعل حجة الله تعالى تقوم على الناس بها.

ولعل من أهم الأخطاء المنهجية المعرفية التي وقعت بها البشرية في تاريخها - وقد تغلغل في معظم المعارف الإنسانية - هو: سوء استخدام مناهج الوصول إلى الحقيقة، بالخلط بين مناهج المعرفة، واستخدام بعض المناهج في غير ما وضعه الله تعالى له، كاستخدام منهج التجربة في مجال عالم الغيب، واعتماد منهج الوحي في مجال عالم التجربة والمشاهدة.



الفصل الثالث

مسائل الاعتقاد العامة

بين الشيعة الاثني عشرية وأهل السنة
(وفيه مباحث) :

المبحث الأول: الإيمان والإسلام.

المبحث الثاني: الإلهيات.

المبحث الثالث: النبوات.

المبحث الرابع: الإيمان بالملائكة عليهم السلام.

المبحث الخامس: القضاء والقدر.

المبحث السادس: أحداث ما بعد الموت.

تمهيد



يعتقد الشيعة الاثنا عشرية أن أصول العقائد هي (الإمامة والتوحيد والعدل والنبوة والمعاد)، ويسيرون في كتب عقائدهم على هذا الترتيب. أما أهل السنة فيعتقدون أن أصول العقائد هي أركان الإيمان الستة (الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر) ويتناولها المتكلمون في (الإلهيات والنبوات والسمعيات).

وقد يتدنى الفريقان كتب عقائدهم بمدخل تمهيدي عن معنى الإيمان والإسلام. وهذا لا يعني الجمود على هذه التقسيمات عند مؤلفي أهل السنة والشيعة؛ فإن من المؤلفين المعاصرين من أحدث تقسيمات جديدة^(١)، وإن كانت المضامين مشتركة بين المتقدمين والمتأخرين من الطرفين، فالحديث عن التوحيد والعدل عند الشيعة يتناوله السنة في قسم الإلهيات، والحديث عن المعاد يتحدث عنه أهل السنة في السمعيات، ولا مشاحة في الاصطلاح.

وسيسير هذا الفصل على الترتيب الذي جاء في حديث جبريل عليه السلام المشهور عندما سأل النبي صلى الله عليه وآله عن الإسلام والإيمان والإحسان؛ حيث قال صلى الله عليه وآله: « الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقضاء والقدر واليوم الآخر ». وقد استغرق هذا الحديث مسائل الاعتقاد العامة التي أجمع عليها الفريقان. وهو ترتيب حوى عقائد الاثني عشرية العامة.

أما عقيدة الإمامة ومتعلقاتها عند الاثني عشرية فهي ليست داخلة في هذا الفصل؛ لأنها ليست من العقائد المتفق عليها، بل يرى أهل السنة أنها من مسائل الفروع الفقهية، لا الأصول العقدية؛ ولذلك ستبحث في فصلٍ قادمٍ باسم (العقائد الخاصة عند الاثني عشرية) إن شاء الله تعالى.

(١) مثلاً: قسم أستاذنا الدكتور محمد سعيد البوطي العقائد في كتابه (كبرى اليقينيات الكونية) إلى (الإلهيات، النبوات، الكونيات، الغيبات). وقسم الشيخ محمد رضا المظفر (عقائد الإمامية) إلى (الإلهيات - النبوة - الإمامة - ما أذب به آل البيت شيعتهم) (تعرض فيه للدعاء وموقف الشيعة من الجور والظلم ووحدة المسلمين وحقوق المسلمين) - المعاد).

ولا نقصد من خلال تسمية هذا الفصل (العقائد العامة) أن يكون للطائفتين الرأي نفسه في هذه العقائد؛ وإنما المقصد هو ذكر المسائل العقدية المشتركة التناول، والتي يشتها الاثنا عشرية وأهل السنة في كتبهم العقدية، بحيث يراها الطرفان باتفاق من أصول العقائد، وإن اختلفا في تصورهما وتفصيلها والحديث عنها أحياناً.

* * *

المِحْتُ الأَوَّلُ

الإيمان والإسلام



الإيمان عند الاثني عشرية:

« المشهور بين المتكلمين أن الإيمان لغة: التصديق؛ من الأمن بمعنى سكون النفس واطمئنانها، واختلف في معناه شرعاً على أقوال شتى ». والذي ذكره (شبر) عن المحققين من الإمامية أن التصديق « هو أن تنسب باختيارك الصدق إلى الخبر »^(١).

واشترط الاختيار في التصديق يخرج العلم الاضطراري؛ لأن المعرفة « قد تحصل بلا كسب كما في الضروريات »^(٢). وقد قال المفيد: « إن المعرفة بالله تعالى اكتساب، وكذلك معرفة أنبيائه وكل غائب، وأنه لا يجوز الاضطرار إلى شيء مما ذكرناه، وهو مذهب كثير من الإمامية والبغداديين من المعتزلة خاصة، ويخالف فيه البصريون من المعتزلة والمجبرة والحشوية من أصحاب الحديث »^(٣).

ومما يدعو للاستغراب أن هشام بن الحكم أحد أشهر متكلمي الإمامية يرى أن معرفة الله تعالى ضرورية، كما أورد عنه المفيد وغيره؛ فاضطر المهتمون بهشام وآرائه أن يؤولوا معنى الاضطرار^(٤)!

وخلاصة رأي الإمامية أن معرفة الله تعالى ليست ضرورية ولا حسية، وإنما هي كسبية تكتسب بالنظر والاستدلال، ولم يخرج الشيعة بهذا عما قاله المعتزلة في المعرفة^(٥).

ولكن الحد الفاصل بين التصديق وغيره من المعارف هو عزم القلب على عدم الإنكار؛ ولذلك يقول شبر: « فينبغي أن يشترط في التصديق القلبي: عدم الإنكار »^(٦).

والفاحص للأدلة سيجد أن منها ما يكون فطرياً أو بدهياً، وهي تدل على معنى قريب

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٥٥)، مؤسسة الأعلمي - بيروت (١٤١٨هـ/١٩٩٧م).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: عبد الله نعمة: هشام بن الحكم (ص ١٦٦).

(٤) انظر: د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٠٩).

(٥) عبد الله شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٥٥).

من معنى الاضطراب، وقد ذكر القرآن الكريم أن من الناس من يصل إلى المعرفة اضطراباً أو اختيارياً؛ كقوله تعالى في حق سحرة فرعون: ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴾ [فوق الحق وبطل ما كانوا يعملون] ﴿ فَعَلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَغِيرِينَ ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢] وألقى السحرة سجدين ﴿ قَالُوا أَمَّا رَبُّ الْمَلِئِينَ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٧-١٢٢] وكذلك ملاً فرعون: ﴿ وَحَمَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتَهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤]. وكانت المعول عليه - بعد استيقان قوم فرعون والسحرة - موقفهم من هذا الاستيقان؛ هل يعزم عليه القلب ويصدقه اللسان والعمل كما فعل السحرة، أم يصرفه القلب وينكره اللسان والجوارح كما فعل قوم فرعون؟! ولذلك ذهب متأخرو الشيعة كالطوسي إلى اشتراط الإقرار باللسان إلى جانب تصديق القلب في الإيمان^(١). فلا يهمننا كيف وصل العاقل إلى الإيمان أبدليل مرتب أم بدليل بدهي أم بالاضطراب، ولكن يهمننا - في قضية الإيمان - ما يتبع هذه المعرفة من خضوع أو إنكار.

« وقد اختلف المتكلمون في أنه هل يشترط في العقائد الإيمانية العلم اليقيني أم يكفي الظن القوي؟ ويقرب من ذلك الخلاف في أنه هل يجب ذلك بالدليل أم يكفي فيه التقليد؟ وظاهر الأكثر الأول، بل حكي الإجماع عليه للآيات والأخبار الدالة على النهي عن متابعة الظن؛ فإن شمولها لأصول الدين مستيقن، ولو لم يكن إلا قوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ [النجم: ٢٨] لكفى، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا... ﴾ [الحجرات: ١٥]. حيث نفى الريب؛ فيكون الثابت هو اليقين، وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْلَمَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩]، وللإجماع على وجوب المعرفة والتقليد وما في حكمه لا يوجب العلم.... وللإجماع على عدم جواز تقليد غير الحق، وإنما يعلم الحق من غيره بالنظر في أن ما يقوله حق أم لا؛ وحينئذ فلا يجوز له التقليد إلا بعد النظر والاستدلال، وإذا صار مستدلاً امتنع كونه مقلداً، فامتنع التقليد في المعارف الإلهية.

وأجيب بأن العلم شرعاً ما تسكن إليه النفس، كما عرفه المرتضى في (الذريعة) وغيرها؛ فهو شامل للظن اللغوي، والظن المنهني عنه ما لا تسكن إليه النفس... واحتج من أوجب التقليد في الأصول بأن العلم بالله تعالى غير ممكن... ولذا ورد: عليكم بدین العجائز... ولذا ترى أن من اكتفوا بالدلائل الإجمالية، ولم يعرفوا التسلسل ولا اصطلاحات

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٦٠/٢)، عن تجريد الاعتقاد للطوسي.

المتكلمين والمنطقيين: أكمل إيمانًا وأثبت جنائنا، وأشد اعتقادًا ممن يخوضون في ذلك» (١).
كما سنبين في مبحث أدلة وجود الله تعالى.

وكما جرى الخلاف بين علماء الشيعة في حكم المقلد في العقائد، فكذلك جرى بين علماء أهل السنة، والمختار من أقوالهم: أنه إن جزم على ما قلّد أجزاءه، وفيه يقول اللقاني:

فقال: إن يجزم بقول الغير كفى وإلا لم يزل في الضير (٢)

وتأكيدًا على مكانة العمل في الإيمان فإن الروايات الواردة عن الأئمة تؤكد على إطلاق الإيمان على «العقائد الحقة مع ترك الكبائر وفعل الفرائض التي يكون تركها كبيرة» (٣).
وعن محمد بن مسلم عن أحدهما عليهما السلام: قال: «الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل» (٤).

وعن الإمام الباقر قال: «الإيمان هو الإقرار باللسان وعقد في القلب، وعمل بالأركان»،
وعن الباقر عليه السلام قيل لأمر المؤمنين عليهم السلام: «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله كان مؤتمنًا؟ قال: فأين فرائض الله؟!». وعن الصادق: «الإيمان عمل كله، والقول بعض ذلك العمل» (٥).

ولكن ما هي العقائد الأساسية التي يحصل بها الإيمان؟

يرى الشيعة - كما ذكر الطوسي في قواعد العقائد - أن أصول الإيمان هي:

١ - التصديق بوحداية الله تعالى في ذاته.

٢ - والعدل في أفعاله.

٣ - والتصديق بنبوة الأنبياء.

٤ - والتصديق بإمامة الأئمة.

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٧٢/٢). وقد نسب القول إلى الإمام علي (ص ٢٤) «البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير وأثار القدم تدل على المسير، فهيكلك علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة لا يدلان على اللطيف الخبير؟!» نقله عن جامع الأخبار.

(٢) جوهرة التوحيد (ص ٥٧).

(٣) عبد الله شبر (ت ١٢٤٢ هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٦١/٢).

(٤) أصول الكافي (٢٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدي به الأمانة، وأن الفواب على الإيمان. قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٥) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٥٩/٢).

٥ - والإيمان بالمعاد الجسماني^(١).

ويظهر الفرق بين أهل السنة والاثني عشرية في أصول الإيمان في مسألة (الإمامة)؛ إذ هي عند أهل السنة من مسائل الفروع الفقهية، بينما يجعلها الشيعة من أصول الإيمان، فلا إيمان لمن لا يؤمن بالأئمة وعصمتهم وباقي صفاتهم.

ولكن هناك روايات واردة عن الأئمة في كتب الشيعة تعدّ أمورًا أخرى من شروط تحقق الإيمان؛ فقد ورد عن الإمام الرضا قوله: «من أقر بتوحيد الله... وأقرّ بالرجعة والمتعتين، وآمن بالمعراج والمسألة والقبر والحوض والشفاعة، وخلق الجنة والنار والصراف والميزان، والبعث والنشور والجزاء والحساب؛ فهو مؤمن حقًا، وهو من شيعتنا أهل البيت»^(٢). وهذا النص يجعل مسألة الرجعة - وهي مسألة عقديّة خلافية بين الشيعة - وكذلك المتعة - وهي مسألة فقهية - من أصول الإيمان. وسنعرض لهاتين المسألتين بشرح وافٍ في فصل (العقائد الخاصة).

معنى الإسلام عند الشيعة الاثني عشرية:

وهنا يتبادر تساؤل مهم هو: ما حكم من أقرّ بما اتفق عليه أهل السنة والاثنا عشرية وغيرهم من المسائل العقديّة، ثم أنكر ما تفرّد به الاثنا عشرية؟ هل يكون مؤمنًا؟ أم كافرًا؟ أم فاسقًا؟

يطلق الإسلام عند الشيعة الإمامية على معنيين عام وخاص.

فالمعنى العام هو:

١ - الاعتقاد بوجود الله الواحد الأحد.

٢ - وبنبوة سيدنا محمد ﷺ والتصديق برسالته.

٣ - والإيمان بيوم البعث والجزاء.

فكلّ من نطق الشهادتين واعتقد ما سبق، ولم ينكر ضرورة من ضرورات الدين الإسلامي؛ بحيث يعود إنكارها إلى تكذيب النبي ﷺ فيما جاء به؛ كان مسلمًا حقًا، دمه وماله وعرضه حرام،.. فالإسلام بهذا المعنى تنتظم به جميع الفرق الإسلامية من دون فرق بينها، وكل من أنكر هذه الأصول الثلاثة.. أو أنكر واحدًا منها فليس بمسلم، بل هو كافر.

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٦٥/٢ - ٥٦٩).

(٢) المصدر السابق (ص ٣١٩).

أما المعنى الخاص:

فهو يقوم على اعتقاد أصلين آخرين بالإضافة إلى الثلاثة السابقة، وهما:

- ١ - الاعتقاد بأن الله عادل لا يظلم أحداً (العدل الإلهي).
- ٢ - الاعتقاد بإمامة الأئمة الاثني عشر وعصمتهم ووجوب الطاعة لهم^(١).

فالمعنى العام للإسلام لا يتضمن الإيمان، في حين يكون الإطلاق الخاص للإسلام مساوياً لمعنى الإيمان.

وتفرق الروايات المنقولة عن أئمة الاثني عشرية بين الإيمان والإسلام - بالمعنى العام - تفريقاً جوهرياً، بحيث لا يقوم أحدهما مقام الآخر، بل الإسلام باب، والإيمان بيت ومستقر، وأهم ما يفرق بينهما: أن الإسلام يأتي أولاً وهو إقرار بالواجبات الرئيسة للدين: « عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال: الإيمان إقرار وعمل، والإسلام إقرار بلا عمل »^(٢)؛ فالإسلام « إقرار بالشهادتين وبما هو من ضروريات الدين، وإن لم يعمل وفق إقراره، بشرط ألا يظهر خلافه، وأما الإيمان فهو انضمام العمل بما أقر به إلى الإقرار »^(٣). وعن أبي جعفر عليه السلام قال: سمعته يقول: « ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ نَزْمُنَا وَلكِن قَوْلُوا أَسَلَمْنَا ﴾ [الحجرات: ١٤] فمن زعم أنهم آمنوا فقد كذب، ومن زعم أنهم لم يسلموا فقد كذب »^(٤).

فبين الإسلام والإيمان عموم وخصوص؛ فلا بد للمؤمن أن يكون أولاً مسلماً، ثم يصطبغ بالإيمان؛ ولذلك لا يكون كل مسلم مؤمناً حسب روايات الشيعة.

والإسلام بالمعنى العام عند الشيعة لا يترتب عليه نجات يوم القيامة؛ إنما يترتب عليه فقط عصمة الدم وصحة المعاملات الدنيوية بين الناس، كالكفاح والمواريث. أما الإيمان فعليه مدار النجاة والفوز يوم القيامة.

(١) انظر: عبد الله نعمة: روح التشيع (ص ٣٩٥ - ٤٠٠) دار الفارابي اللبنانية (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م)، د. عمر محمد عبد المنعم الفرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية (ص ٢٤)، جامعة الأزهر، كلية أصول الدين - القاهرة (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

(٢) أصول الكافي (٢٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدي به الأمانة وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٣) أصول الكافي (٢٨/٢) هامش، حاشية رقم (٧).

(٤) أصول الكافي (٢٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدي به الأمانة وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: هذا الحديث موثق كالصحيح. ويفيد بأن الإسلام أعم من الإيمان.

عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « .. إِنَّ الْإِيمَانَ مَا وَقَر فِي الْقُلُوبِ، وَالْإِسْلَامَ مَا عَلَيْهِ الْمَنَاحِحُ وَالْمَوَارِيثُ وَحَقَّنَ الدَّمَاءَ. وَالْإِيمَانَ يَشْرِكُ الْإِسْلَامَ، وَالْإِسْلَامَ لَا يَشْرِكُ الْإِيمَانَ » (١).

وهذه الروايات تنسجم مع قوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمَّنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٤].

ولكن لما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْأَذْيَانَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ .. ﴾ [آل عمران: ١٩]، وقال تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ فَمَا وَحَدَّا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]؛ « اختلف في معنى الإسلام أيضًا على أقوال، فقيل: هو والإيمان واحد... وقيل: إن الإسلام عبارة عن الإقرار بالشهادتين واعتقادهما مع عدم إنكار ضروري من ضروريات الدين، وقيل: إنه مجرد الإقرار بالشهادتين وإن لم يعتقدهما... والحق أن الإسلام كالإيمان له مراتب ودرجات، ويطلق على معانٍ كثيرة » (٢). ففي الحديث المروي عند الشيعة والسنة: « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ». وقال أبو جعفر: « المؤمن من ائتمنه المسلمون على أموالهم وأنفسهم، والمسلم حرام على المسلم أن يظلمه أو يخذله أو يدفعه دفعة تعنته » (٣).

وقال أمير المؤمنين علي عليه السلام في إحدى خطبه: « لأنسبن الإسلام نسبة لم ينسبها أحد قبلي: الإسلام هو التسليم، والتسليم هو اليقين، واليقين هو التصديق، والتصديق هو الإقرار، والإقرار هو الأداء، والأداء هو العمل » (٤).

أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا أو كافرًا أو ضالًّا:

هناك رواية عن أمير المؤمنين علي عليه السلام تبين أدنى ما يكون به المرء مؤمنًا أو كافرًا، أو ضالًّا - وهو مصطلح خاص عند الشيعة كما سنرى :-

(١) أصول الكافي (٣٠/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان، والحديث صحيح.

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٧٠/٢).

(٣) أصول الكافي (٢٣٤/٢، ٢٣٥) كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن علاماته وصفاته، قال محققه: والحديث صحيح.

(٤) المولى المازندراني: شرح أصول الكافي (١٣٨/٨)، عبد الله شير: حق اليقين (٥٧٠/٢).

عن سليم بن قيس قال: سمعت عليًا عليه السلام يقول - وأتاه رجلٌ فقال له: ما أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا وأدنى ما يكون به العبد كافرًا وأدنى ما يكون به العبد ضالًّا؟ - فقال له: قد سألت فافهم الجواب:

- أما أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا أن يعترفه الله تبارك وتعالى نفسه فيقرّ له بالطاعة، ويعترفه نبيه صلى الله عليه وآله فيقرّ له بالطاعة ويعترفه إمامه وحقّته في أرضه وشاهده على خلقه فيقرّ له بالطاعة. قلت له: يا أمير المؤمنين، وإن جهل جميع الأشياء إلا ما وصفت؟ قال: نعم إذا أمر أطاع وإذا نهى انتهى.

- وأدنى ما يكون به العبد كافرًا من زعم أنّ شيئًا نهى الله عنه أنّ الله أمر به ونصبه دينًا يتولّى عليه ويزعم أنّه يعبد الذي أمره به وإنّما يعبد الشيطان.

- وأدنى ما يكون به العبد ضالًّا أن لا يعرف حجّة الله تبارك وتعالى وشاهده على عباده الذي أمر الله صلى الله عليه وآله بطاعته وفرض ولايته قلت: يا أمير المؤمنين صفهم لي، فقال: الذين قرّنههم الله صلى الله عليه وآله بنفسه ونبيه فقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ...﴾ [النساء: ٥٩] قلت: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك، أوضح لي. فقال: الذين قال رسول الله صلى الله عليه وآله في آخر خطبته يوم قبضه الله صلى الله عليه وآله إليه: «إني قد تركت فيكم أمرين لن تضلّوا بعدي ما إن تمسّكتم بهما كتاب الله وعترتي أهل بيتي؛ فإنّ اللطيف الخبير قد عهد إليّ أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض كهاتين، وجمع بين مستبّحته، ولا أقول كهاتين وجمع بين المستبّحة والوسطى فتسبق إحداهما الأخرى، فتمسّكوا بهما لا تزلّوا ولا تضلّوا ولا تقدّموهم فتضلّوا» (١).

ومع أن القول بالولاية عندهم شرط إيمان لا شرط إسلام؛ فإنّ هناك من الروايات الصحيحة لديهم ما يخالف هذا، فيعدّ الولاية جزءًا من الإسلام ذاته، وليس فقط من الإيمان:

عن أبي بصير قال: كنت عند أبي جعفر عليه السلام فقال له سلام: إنّ خيشمة بن أبي خيشمة يحدثنا عنك أنّه سألك عن الإسلام فقلت له: «إنّ الإسلام من استقبل قبلتنا، وشهد شهادتنا، ونسك نسكنا، ووالى ولينا، وعادى عدوّنا، فهو مسلم». فقال: صدق خيشمة. قلت: وسألك عن الإيمان فقلت: الإيمان بالله، والتصديق بكتاب الله، وأن لا يعصي الله. فقال: صدق خيشمة» (٢).

(١) أصول الكافي (٣٩٤/٢، ٣٩٥) كتاب الإيمان والكفر، باب أدنى ما يكون به العبد مؤمنًا... قال محققه: والحديث مختلف فيه معتبر عند المجلسي.

(٢) أصول الكافي (٤٣/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب في أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلّها، قال محققه: هذا الحديث صحيح.

وأوضح منه حول هذا المعنى ما جاء في حديث دعائم الدين:

عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: « بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة والحج والصوم والولاية ».

قال زرارة فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل؟ فقال: الولاية أفضل؛ لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن. قلت: ثم الذي يلي ذلك في الفضل؟ فقال: الصلاة... قلت: ثم الذي يليها في الفضل؟ قال: الزكاة..... ثم قال: ذروة الأمر وسنامه ومفتاحه وباب الأشياء ورضا الرحمن الطاعة للإمام بعد معرفته.

إن الله ﷻ يقول: ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ﴾ [النساء: ٨٠] « أما لو أن رجلاً قام ليله وصام نهاره وتصدق بجميع ماله وحج جميع دهره ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه ويكون جميع أعماله بدلالته إليه ما كان له على الله - جلّ وعزّ - حقٌّ في ثوابه، ولا كان من أهل الإيمان. ثم قال: أولئك المحسن منهم يدخله الله الجنة بفضل رحمته » (١).

فهذا الحديث يبين أن الإسلام جاء هنا بمعنى الدين، وليس هو الإسلام الظاهري الذي ورد في الروايات السابقة، أي إنه أطلق على الإسلام بالمعنى الخاص المرادف للإيمان. ولكن هناك رواية أخرى صحيحة تخالف هذه الرواية عن سليمان بن خالد عن أبي جعفر عليه السلام قال: ألا أخبرك بالإسلام أصله وفرعه وذروة سنانه؟ قلت: بلى جعلت فداك. قال: أما أصله فالصلاة، وفرعه الزكاة، وذروة سنانه الجهاد. ثم قال: إن شئت أخبرتك بأبواب الخير. قلت: نعم جعلت فداك. قال: الصوم جنة من النار والصدقة تذهب بالخطيئة وقيام الرجل في جوف الليل بذكر الله ثم قرأ عليه السلام: ﴿ تَسْجَاتُ جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَصَاجِعِ ﴾ [السجدة: ١٦] (٢). وهذه الرواية لم تذكر الولاية، وهي رواية قريبة لرواية صحيحة عند أهل السنة من حديث معاذ بن جبل قال عليه السلام: « رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنانه الجهاد » (٣).

وهناك رواية تجعل الإمامة سبباً من أسباب الرقي في الجنة، لا شرطاً من شروط دخولها، وهذا لا يجعلها ركناً من أركان الإيمان؛ فقد ساق الشيخ دستغيب عن بحار

(١) أصول الكافي (٢/٢٢، ٢٣) كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام. قال محققه: هذا الحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٢/٢٨) كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الإسلام. قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٢٣١) من حديث معاذ بن جبل عليه السلام. وهو حديث صحيح لغيره بشواهد.

الأنوار أن « أم أيمن خادمة فاطمة من أهل اليمن وليست من السابقين؛ لأنها لم تعرف الإمامة » (١).

وهكذا نتبين أن روايات الاثني عشرية لم تأت على نسق واحد في بيان معنى الإسلام؛ بل مرة استخدمته بالمعنى الأعم الشامل الوارد في سورة الحجرات، وهو التسليم الذي تحقق على أساسه الدماء، ومرة استخدمته بمعنى الإيمان الكامل؛ ولأجل ذلك ضمّت إليه ركن الإمامة.

زيادة الإيمان ونقصانه:

نص القرآن واضح في زيادة الإيمان، وهذه عقيدة أهل السنة والجماعة وعقيدة الاثني عشرية أيضاً، فقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢]، وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤]. ولذلك قال الشيخ دستغيب: « المحققون يعتقدون أن ظاهر الآيات والروايات يدل على أنه يمكن زيادته ونقصانه، ومنها الآية التي تقول: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الأنفال: ٢] هذه الآية تبين أن الإيمان قابل للزيادة فهو إذن قابل للنقصان... مما يوجب زيادة نور الإيمان، واليقين العبادة الخالصة، خصوصاً مجالسة الصالحين... وعلى العموم كل عمل خير يقوم به المرء خالصاً لله » (٢).

عن أبي عمرو الزبيرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: « أيها العالم أخبرني أي الأعمال أفضل عند الله؟ قال: ما لا يقبل الله شيئاً إلا به، قلت: وما هو؟ قال: الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو أعلى الأعمال درجةً وأشرفها منزلةً وأسانها حظاً. قال: قلت: ألا تخبرني عن الإيمان أقول هو وعمل أم قول بلا عمل، فقال: الإيمان عملٌ كلّه، والقول بعض ذلك العمل، بفرض من الله بين في كتابه واضح نوره ثابتة حجته يشهد له به الكتاب ويدعوه إليه. قال: قلت: صفه لي جعلت فداك حتى أفهمه. قال: الإيمان حالات ودرجات وطبقات ومنازل؛ فمنه التام المنتهي تمامه ومنه الناقص البين نقصانه ومنه الراجح الزائد رجحانه. قلت: إن الإيمان ليتم وينقص ويزيد؟ قال: نعم. قلت: كيف ذلك؟ قال: لأن

(١) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٤٣)، مؤسسة المنار (ط ٢) ترجمة لجنة الهدى عن بحار الأنوار.

(٢) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: اليوم الآخر (ص ٢٨٥، ٢٨٦).

الله تبارك وتعالى فرض الإيمان على جوارح ابن آدم وقسمه عليها وفزقه فيها؛ فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من الإيمان بغير ما وكلت به أختها... فسمي الصلاة إيماناً، فمن لقي الله ﷻ حافظاً لجوارحه موفياً كل جارحة من جوارحه ما فرض الله ﷻ عليها لقي الله ﷻ مستكماً لإيمانه، وهو من أهل الجنة، ومن خان في شيء منها أو تعدى ما أمر الله ﷻ فيها لقي الله ﷻ ناقص الإيمان. قلت: قد فهمت نقصان الإيمان وتماهه فمن أين جاءت زيادته؟ فقال: قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ هَلْ مِنَّا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴿١٢٥﴾] [التوبة: ١٢٤، ١٢٥]، وقال: ﴿ لَمَّا نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾] [الكهف: ١٣]، ولو كان كله واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ولا استوت التعم فيه، ولا استوى الناس وبطل التفضيل، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنة وبالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله وبالنقصان دخل المفرطون النار ^(١). وكما يزيد الإيمان بالطاعات فإنه ينقص بالذنوب والآثام، حتى ينحط صاحبه عن مرتبة الإيمان:

ففي رواية عن الصادق: « فإذا أتى العبد كبيرة من كبائر المعاصي أو صغيرة من صغائر المعاصي التي نهى الله ﷻ عنها كان خارجاً من الإيمان، ساقطاً عنه اسم الإيمان وثابتاً عليه اسم الإسلام؛ فإن تاب واستغفر عاد إلى دار الإيمان، ولا يخرج به إلى الكفر إلا الجحود والاستحلال ^(٢) ».

ولا يرتضي أهل السنة هذه الرواية من حيث إنها ساوت بين الصغائر والكبائر، وقد فُرق القرآن الكريم والسنة بينهما. قال تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾] [النساء: ٣١]، وقال: ﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٣٢﴾] [النجم: ٣٢] فاللمم هو صغائر الذنوب، وتكفرها الصلاة والصدقة والوضوء، قال اللقاني:

(١) أصول الكافي (٣٩/٢ - ٤٢) كتاب الإيمان والكفر، باب في أنّ الإيمان مبثوث لجوارح البدن كلها، قال محققه: الحديث ضعيف على المشهور وإن أيدت مضامينه أخبار أخرى قد تدل على صحته.

(٢) أصول الكافي (٣٢/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب آخر منه وأن الإسلام قبل الإيمان، قال محققه: والحديث موثق.

وباجتتاب للكبائر تغفر كبائر، وجا الوضو يكفر^(١)

وعن الفضيل، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: يسلب منه روح الإيمان ما دام على بطنها، فإذا نزل عاد الإيمان. قال: قلت له: رأيت إن هم؟ قال: لا، رأيت إن هم أن يسرق أتقطع يده؟»^(٢).

وهذه الرواية من معين النبوة، فقد جاء في الصحيح عند أهل السنة قوله عليه السلام: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن...»^(٣). قال القيرواني - معبراً عن مذهب أهل السنة -: «الإيمان قول باللسان، وإخلاص بالقلب، وعمل بالجوارح. ويزيد بزيادة الطاعات وينقص بنقصها»^(٤).

وللإيمان درجات:

قال جعفر الصادق: «إن الله تعالى وضع الإيمان على سبعة أسهم: على البرِّ والصدق واليقين والرضا والوفاء والعلم والحلم، ثم قسم ذلك بين الناس؛ فمن جعل فيه هذه السبعة الأسهم فهو كاملٌ محتملٌ، وقسم لبعض الناس السهم، ولبعض السهمين، ولبعض الثلاثة حتى انتهوا إلى السبعة. ثم قال: لا تحملوا على صاحب السهم سهمين، ولا على صاحب السهمين ثلاثة فتبهضوهم»^(٥)، ثم قال: كذلك حتى ينتهي إلى السبعة»^(٦).

وورد أنه قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْتَبُونَ كَثِيرَ الذَّنْبِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّامَةَ﴾ [النجم: ٣٢]: «الفواحش: الزنى والسرقعة، واللثم: الرجل يلم بالذنب فيستغفر الله منه.

(١) اللقاني: جوهرة التوحيد (ص ٣٨٢).

(٢) أصول الكافي (٢٧٢/٢، ٢٧٣) كتاب الإيمان والكفر، باب الكبائر، قال محققه: والحديث حسن كالصحيح. (على بطنها): كناية عن الزنى والعياذ بالله تعالى.

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب الأشربة وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا اتَّخَذُوا لَمَمًا...﴾ [المائدة: ٩٠] رقم (٢٢٥٥) وكرره في صحيحه، ومسلم: كتاب الإيمان، باب بيان نقصان الإيمان بالمعاصي ونفيه عن المتلبس بالمعصية على إرادة نفي كماله رقم (٥٧).

(٤) أبو محمد عبد الله بن زيد القيرواني (٣١٠ - ٣٨٦ هـ): الرسالة القيروانية شرح عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام مالك، مع شرح القيروانية الميسر، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار الفتح - الشارقة (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م)، (ص ٦٢).

(٥) بهضك شق عليك، أي لا تشقوا عليهم وتكلفوهم ما لا يطيقون، وهي لغة ضعيفة، والأقوى (بهظ) بالطاء، انظر: ابن منظور: لسان العرب (١٢٢/٧)، مادة بهض، تاج العروس مادة بهض.

(٦) أصول الكافي (٤٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب درجات الإيمان. سكت عنه المحقق.

فسئل: بين الضلال والكفر منزلة؟ فقال: ما أكثر عرى الإيمان « (١).

الإيمان الكامل:

عن سلام الجعفي قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الإيمان فقال: « الإيمان أن يطاع الله فلا يعصى » (٢). قال محقق أصول الكافي: « وقد حمل البعض هذا الحديث على الإيمان الكامل ».

ومرتبة الإحسان التي ذكرتها كتب السنة هي درجة عالية في الارتقاء بالإيمان، وهو ما أوصى به الأئمة الأطهار - عليهم رحمة الله وسلامانه - فعن إسحاق بن عمار: قال أبو عبد الله: « يا إسحاق، خف الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، فإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية فقد جعلته من أهون الناظرين إليك » (٣).

وتبين الروايات سنية وشيعية أن للإيمان طعمًا؛ فقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام المنبر: « لا يجد أحدكم طعم الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه » (٤).

وقد جاءت نصوص أهل السنة تبين هذا المعنى وزيادة، فللإيمان طعم وحلاوة، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » (٥)، وعن العباس بن عبد المطلب أن النبي صلى الله عليه وآله قال: « ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد صلى الله عليه وآله رسولًا » (٦).

وقد أطلق عبد الله شير من علماء الشيعة لفظ الإيمان على بعض ما سمته الروايات

(١) أصول الكافي (٢٧١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكبائر قال المحقق: الحديث موثق.

(٢) أصول الكافي (٣٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب (١٧).

(٣) أصول الكافي (٧٣/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الخوف والرجاء، سكت عنه محققه.

(٤) أصول الكافي (٦٤/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فضل اليقين.

(٥) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم (١٦)، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (٤٣).

(٦) أخرجه مسلم: كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من رضي بالله ربًا... إلخ، فهو مؤمن وإن ارتكب المعاصي الكبائر، رقم (٣٤).

إسلامًا، وذلك أنه قسم الإيمان إلى عدة أقسام، فقال:

«تختلف مراتب كمال الإيمان باختلاف مراتب الطاعات وترك المعاصي». والحاصل أن للإيمان في الشرع إطلاقات:

أحدها: ما يرادف الإسلام، وفائدته حقن الدم والمال في الدنيا.

وثانيها: على التصديق القلبي والإقرار اللساني كما في فتاوى المؤمنين وثمرته عدم الدخول في النار.

وثالثها: على ما ذكر مع ترك الكبائر وفعل الفرائض التي تركها كبيرة كالصلاة والزكاة والحج؛ ولذا ورد: (تارك الصلاة كافر).

رابعها: إطلاقه على جميع الاعتقادات مع الإتيان بالواجبات وترك المحرمات.

خامسها: إطلاقه على ما ذكر مع الإتيان بالمستحبات وترك سائر المكروهات. وفائدته تضاعف الدرجات، وعليه ينزل ما روي أن من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا ينام وحده..

سادسها: إطلاقه على جميع ما ذكر مع التوجه بكله إلى عالم الملكوت وصرف الوقت في الإقبال على جنبه الأعلى، وهو الإيمان الكامل وينافيه فعل المباحات؛ ولذا تاب الأنبياء وكثر بكاؤهم ^(١) عليهم الصلاة والسلام.

الإيمان بأئمة الاثني عشرية شرط لصحة الإيمان:

الإمامة عند أهل السنة والجماعة مسألة من فروع الفقه، لا من أصول العقيدة، أما عند الإمامية فالإيمان بالأئمة الاثني عشر كلهم ركن من أركان الإيمان، لا يصح الإيمان بفقده؛ فمن آمن بجميع أركان الإيمان وأهمل الإيمان بالإمامة فلا يعدّ مؤمنًا عندهم، بل مسلمًا، وهذا المسلم (!!) ينعت عندهم بالضال والجاهل إن لم يعرف الأئمة جميعًا ولكنه لم ينكر إمامتهم، ويوصم بالكفر والنفاق - رغم أنه مسلم موحد - إن أنكر أحدًا منهم! تقول رواياتهم عن الأئمة: «لا يكون العبد مؤمنًا حتى يعرف الله ورسوله والأئمة كلهم وإمام زمانه، ويردّ إليه ويسلم له» ^(٢).

وعن جعفر الصادق: «نحن الذين فرض الله طاعتنا لا يسع الناس إلا معرفتنا، ولا يعذر الناس بجهالتنا، من عرفنا كان مؤمنًا، ومن أنكرنا كان كافرًا، ومن لم يعرفنا

(١) عبد الله شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٦٤/٢).

(٢) أصول الكافي (٢٣٥/١) كتاب الحجّة، باب معرفة الإمام والرد عليه. والمقصود بالأول الإمام الذي قبل زمانه.

ولم ينكرنا كان ضالاً حتى يرجع إلى الهدى الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة، فإن يميت على ضلالتة يفعل الله به ما يشاء» (١).

وإذا كانت الرواية السابقة قد فوّزت المنكر للإمامة عن الغافل الشارد عنها؛ فإن الرواية القادمة لا تفرّق بينهما، بل تنسب من مات على غير الإمامة إلى الكفر والنفاق مطلقاً: «والله يا محمد من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله - جلّ وعزّ - ظاهراً عادلاً أصبح ضالاً تائهاً، وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفرٍ ونفاقٍ» (٢). فهذه الرواية تقول: إن من لم يؤمن بالأئمة من المسلمين فهو ضال تائه ما دام على قيد الحياة، وربما يهتدي إليها فيصح إيمانه، فإن مات على غير معرفة الإمامة تأكّد للثاني عشرية أنه كافر منافق!

ولا بد من الاعتقاد بالأئمة كلهم، فلو أنكر واحداً منهم صار كمنكر جميع الأئمة: عن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: رجلٌ قال لي: اعرف الآخر من الأئمة ولا يضرك أن لا تعرف الأول. قال: فقال: لعن الله هذا، فإني أبغضه ولا أعرفه، وهل عرف الآخر إلا بالأول؟ (٣).

فميتة من مات دون معرفة الإمام هي ميتة جاهلية وكفر ونفاق في روايات الاثني عشرية: عن ابن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول رسول الله ﷺ: «من مات وليس له إمامٌ فميتته ميتة جاهلية» قال: قلت: ميتة كفرٍ؟ قال: ميتة ضلالٍ. قلت: فمن مات اليوم وليس له إمامٌ فميتته ميتة جاهلية؟ فقال: نعم (٤).

وإذا كانت الرواية السابقة تتخرج من نسبة الكفر إلى من لم يعرف الأئمة، فإن الرواية القادمة تتجرأ وتجاسر على ذلك:

عن الحارث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: «من مات لا يعرف إمامه مات ميتةً جاهليةً» قال: نعم. قلت: جاهليةً جهلاء أو جاهليةً لا يعرف

(١) أصول الكافي (٢٤٣/١) كتاب الحجّة، باب فرض طاعة الأئمة.

(٢) أصول الكافي (٤٣٧/١) كتاب الحجّة، باب فيمن دان الله ﷻ بغير إمام من الله ﷻ. والحديث صحيح. ولكن هذا النص يشترط ظهور الإمام وعدله، وهذا لم يتيسر إلا لعلي والحسن رضوان الله عليهما، فهذا الشرط غير متوفر في حياة الأئمة الباقين، وخصوصاً هذا الإمام الثاني عشر الغائب المحجوب من ألف سنة ويزيد.

(٣) أصول الكافي (٤٣٥/١) كتاب الحجّة، باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهلٍ ومن جحد الأئمة أو بعضهم ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهلٍ. وقيل: المراد بالأول الله ورسوله، وبالأخر الإمام. انظر المازندراني (١٥٧/٥). وهذا تفسير بعيد يخالف سياق الرواية.

(٤) أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجّة، باب من مات وليس له إمامٌ من أئمة الهدى، وقيل: المراد بالأول الله ورسوله، وبالأخر الإمام. انظر المازندراني (١٥٧/٥).

إمامه؟ قال: جاهليّة كفرٍ ونفاقٍ وضلالٍ» (١).

ولكن ألا يعكّر على هذه الروايات المغالية روايةٌ صحيحة تضيف من صار مسلماً إلى الإيمان، ولو لم يعتقد بالأئمة؟!، وهي رواية أبي جعفر عليه السلام التي جاء فيها: «.. والإسلام ما ظهر من قولٍ أو فعلٍ، وهو الذي عليه جماعة الناس من الفرق كلّها، وبه حققت الدماء، وعليه جرت الموارث وجاز التّكاح، واجتمعوا على الصّلاة والزّكاة والصّوم والحجّ، فخرجوا بذلك من الكفر وأضيفوا إلى الإيمان» (٢).

فلم تقل الرواية: (أضيفوا إلى الإسلام)، بل: (أضيفوا إلى الإيمان). ولكن هذه الرواية المصححة عند الاثني عشرية لم ترق لمحقق أصول الكافي، فقال معلقاً: «والحديث صحيح. وهناك روايات تجعل شرط الإيمان هو القول بالولاية، وتجعلها مصدر التفرقة بينهما، ولكن الرواية فيها جهالة، ومع ذلك فالعمل عند علماء الإمامية على ما في معناها، وسيأتي من الروايات ما يؤيدها» (٣).

وليس مقصود هذا المبحث مناقشة رأي الاثني عشرية في الإمامة، إنما معرفة مكانة الإمامة في الإيمان وحكم منكرها، وسيأتي الحديث عن تفصيل مسألة الإمامة ومناقشتها في المبحث الأول من فصل (العقائد الخاصة بالشيعة الاثني عشرية).

النتائج المترتبة على الإيمان والإسلام:

ولما اختلفت ماهية كل من الإيمان والإسلام اختلفت كذلك نتيجة كل واحد منهما،

(١) أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجة، باب من مات وليس له إمام من أئمة الهدى. لاحظ أن بين هذه الرواية وسابقتها خلاف؛ فالأولى لم تنسب الكفر لمن لا إمام له، والثانية نسبت الكفر والنفاق لمن لا إمام له.
(٢) أصول الكافي (٣٢، ٣١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإيمان يشرك الإسلام، والإسلام لا يشرك الإيمان. قال محققه: «والحديث صحيح».

(٣) أصول الكافي (٣٢، ٣١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإيمان يشرك الإسلام والإسلام لا يشرك الإيمان، (الهامش). وهو يشير إلى رواية: سفيان بن السمط قال: سألت رجلاً أبا عبد الله عليه السلام عن الإسلام والإيمان، ما الفرق بينهما؟ فلم يجبه ثم سأله فلم يجبه ثم التقيا في الطريق وقد أرف من الرجل الرحيل، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: كأنه قد أرف منك رحيل؟ فقال: نعم. فقال: فالتقني في البيت، فلقيه، فسأله عن الإسلام والإيمان ما الفرق بينهما؟ فقال: الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس: شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصيام شهر رمضان فهذا الإسلام، وقال: الإيمان معرفة هذا الأمر مع هذا، فإن أقر بها ولم يعرف هذا الأمر كان مسلماً وكان ضالاً. أصول الكافي (٢٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة، وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: «والحديث مجهول».

فالإسلام يحمي ظاهر المسلم في الدنيا ويعطيه حقوق الإسلام، أما الإيمان فلما كان هو المقصود كانت نتائج الأعمال في الآخرة مترتبة عليه: عن قاسم بن شريك بن المفضل قال: سمعت أبا عبد الله يقول: «الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة وتستحل به الفروج، والثواب والعقاب على الإيمان» (١).

وتقرر الروايات أن بين الإسلام والإيمان شيئاً من التداخل والاشتراك في المعنى، ويكون هذا بحيث يدل أحدهما على الآخر، أما إن وردا معاً في سياق واحد فهنا لا بد من التفريق بينهما في المعاني، كما قيل في الفقير والمسكين، واللّهو واللعب، والحق والصدق: إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا (٢).

وهذه المسألة كما تناولها الشيعة تناولها أيضاً أهل السنة في بحوثهم العقدية، قال الإمام الغزالي: الحق فيه أن الشرع ورد باستعمالها على سبيل التوارد والترادف، وورد على سبيل الاختلاف، وورد على سبيل التداخل، أما الترادف ففي قوله تعالى: ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]، ولم يكن بالاتفاق إلا بيت واحد، وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يُقَوْمٌ إِن كُنتُمْ ءَامَنُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ [يونس: ٨٤]... وأما الاختلاف فقوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] ومعناه استسلمنا في الظاهر باللسان والجوارح، وفي حديث جبرائيل عليه السلام لما سأله عن الإيمان فقال: « أن تؤمن بالله وملائكته... » فقال: فما الإسلام؟ فأجاب بذكر الخصال الخمس، فعبر بالإسلام عن تسليم الظاهر بالقول والعمل، وفي الحديث عن سعد أنه عليه السلام أعطى رجلاً عطاءً لم يعط الآخر، فقال سعد: يا رسول الله، تركت فلاناً، لم تعطه وهو مؤمن! فقال عليه الصلاة والسلام: « أو مسلم؟ » فأعاد عليه، فأعاد رسول الله عليه السلام. وأما التداخل فما روي عنه أنه سئل فقيل: أي الأعمال أفضل؟ فقال عليه السلام: « الإسلام » فقال: أي الإسلام أفضل؟ فقال عليه السلام: « الإيمان ». وهذا دليل على الاختلاف وعلى التداخل، وهو أوفق الاستعمالات في اللغة؛ لأن الإيمان عمل من الأعمال، وهو أفضلها، والإسلام إما تسليم بالقلب وإما تسليم باللسان وإما تسليم بالجوارح، وأفضلها الذي بالقلب وهو

(١) أصول الكافي (٢٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة وأن الثواب على الإيمان. قال محققه: هذا الحديث موثق.

(٢) انظر: عبد الله شير (ت ١٢٤٢ هـ) : حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٦٤/٢) .

التصديق الذي يسمى إيماناً^(١).

ولكن شتان بين حقيقة الإيمان بين السنة والشيعة؛ فالشيعة ترى أن شرط رفع المرء من مرتبة الإسلام إلى مرتبة الإيمان - إضافة على الأعمال - هو الإيمان بعصمة الأئمة ووجوب طاعتهم، وهذا ما لن يتحقق عند أي أحد من أهل السنة؛ إذ لا يعتقدون بعصمة أحد من البشر بعد الأنبياء، أما عند أهل السنة فإن الذي يرفع المرء من الإسلام إلى الإيمان هو العمل الصالح وطمأنينة القلب بعد الإسلام الظاهري.

وبهذا يكون أهل السنة في نظر الاثني عشرية من أهل الإسلام بالمعنى العام الذي يترتب عليه عصمة الدم والعرض والمال، لا من أهل الإيمان الذي يوصل العبد لدخول الجنة والنجاة من النار، وهذا في غالب رواياتهم ومعظم نقول علمائهم، فصار لهذا الإسلام آثار الكفر في الآخرة. وهو ما أقر به أحد علماء الشيعة عندما قال: « هو بالنتيجة يؤدي إلى الكفر، بمعنى ترتب أثره عليه في الآخرة، وهو الخلود في النار، وفي الدنيا هو الضلال والنفاق »^(٢).

قال الجزائري: (وأما طوائف أهل الخلاف على هذه الفرقة الإمامية، فالنصوص متضاربة في الدلالة على أنهم مخلدون في النار، وأن إقرارهم بالشهادتين لا يجديهم نفعاً إلا في حقن دمائهم وأموالهم وإجراء أحكام الإسلام عليهم. روي عنه عليه السلام أنه قال: « ولاية أعداء علي ومخالفة علي سيئة لا ينفع معها شيء إلا ما ينفعهم بطاعتهم في الدنيا بالنعم والصحة والسعة، فيردوا الآخرة، ولا يكون لهم إلا دائم العذاب ». ثم قال: « إن من جحد ولاية علي عليه السلام لا يرى بعينه الجنة أبداً، إلا ما يراه مما يعرف به أنه لو كان يواليه لكان ذلك محله ومأواه، فيزداد حسرات وندامات »^(٣).

وسيترب على معنى الإيمان والإسلام عند الاثني عشرية آثار مهمة في (موقف الشيعة الاثني عشرية من المخالفين) وهو الفصل الأخير من هذه الرسالة.
حكم مرتكب الكبيرة من الاثني عشرية:

يقرر الشيخ المفيد أن « مرتكبي الكبائر من أهل المعرفة^(٤) والإقرار مؤمنون بإيمانهم بالله

(١) الإمام الغزالي: إحياء علوم الدين (١٦/١، ١٧).

(٢) انظر: أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجّة، باب من مات وليس له إمام من أئمة الهدى. حاشية رقم (٥).

(٣) السيد نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢هـ): نور البراهين (١/٥٧)، (ط ١)، (١٤١٧هـ)، قم مؤسسة النشر الإسلامي قم.

(٤) أهل المعرفة، حسب نصوص الاثني عشرية، هم المقرون بالولاية للأئمة.

ويرسوله وبما جاء من عنده، وفاسقون بما معهم من كبائر الآثام، ولا أطلق عليهما اسم الفسق ولا اسم الإيمان... وأطلق لهما اسم الإسلام بلا تقييد وعلى كل حال، وهذا مذهب الإمامية إلا بني نوبخت؛ فإنهم خالفوا فيه وأطلقوا للفساق اسم الإيمان»^(١). وهذا مذهب قريب جدًا من رأي المعتزلة في شأن مرتكب الكبيرة، وإن وقد صرحت روايات الأئمة بمخالفته! قال إبراهيم بن العباس: كنا في مجلس الرضا عليه السلام فتذاكروا الكبائر وقول المعتزلة فيها: إنها لا تغفر، فقال الرضا عليه السلام: قال أبو عبد الله عليه السلام: «قد نزل القرآن بخلاف قول المعتزلة؛ قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ﴾ [الرعد: ٦]»^(٢).

وإذا كانت روايات الشيعة وأهل السنة اتفقت على أن (قتال المؤمن كفر)^(٣)، إلا أن الطائفتين أجمعتا على أنه لا يسمى من فعل ذلك كافرًا، وأن ذلك لا يخرج من دائرة الإيمان، قال محقق أصول الكافي شارحًا هذا الحديث: «لا بدّ من حمله على أنه يقاتله بسبب إيمانه، أو أنه يقاتله مستحلًا قتاله، أو يحمل على أن قتاله قد يكون من أسباب الكفر فيكون الإطلاق مجازيًا»^(٤).

(١) أوائل المقالات (ص ٨٤).

(٢) الصدوق: التوحيد (ص ٤٠٦).

(٣) عن أبي جعفر عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: (سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمة معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه). أصول الكافي (٣٤٤/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب السباب. قال محققه: الحديث موثق كالصحيح. وقد ورد هذا الحديث عند أهل السنة أيضًا بهذا اللفظ: (سباب المسلم فسوق وقتاله كفر). أخرجه البخاري ومسلم، والنسائي والترمذي وابن ماجه وأحمد في خمسة روايات. (البخاري: كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، رقم (٤٨)، ومسلم في الإيمان، باب بيان قول النبي صلى الله عليه وآله: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، رقم (٦٤) وأخرجها أحمد في مسنده (٣٨٥/١)، (٤١١/١ - ٤٣٣ - ٤٤٦ - ٤٥٤). والفرق بين الروایتين عظيم عند ذوي النظر؛ لأن الاثني عشرية يخصون الإيمان بأهل طائفتهم، أما غيرهم من الفرق الإسلامية فيمنحونهم لقب الإسلام فقط، دون الإيمان؛ وبالتالي فلا حرمة لغيبتهم أو شتمهم أو قتالهم، كما سنوضح في الفصل الأخير من الكتاب (موقف الاثني عشرية من الأمة المسلمة)، في حين أكدت رواية أهل السنة حصانة دم وعرض المسلم؛ فهي تشمل من تحققت فيه صفة الإسلام، من أي فرقة إسلامية كانت.

ولكن جاءت رواية واحدة عند أحمد بلفظ (سباب المؤمن) (٤٣٩/١) عن عبد الله بن مسعود. ولعله من تصرف الرواة وروايتهم للحديث بالمعنى؛ لأن كل الروايات عند البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وابن ماجه وخمس روايات في مسند جاءت من طريق ابن مسعود رضي الله عنه نفسه بلفظ (سباب المسلم..). كما جاءت رواية ابن ماجه (١٢٩٩/٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه لتؤكد ذلك برواية (سباب المسلم..). مما يدل على تصرف أحد الرواة بالمعنى في رواية (سباب المؤمن).

(٤) أصول الكافي (٣٤٤/٢) الهامش حاشية رقم (٦).

ومن هذا النص يظهر مخالفة الاثني عشرية لمذهب من قال بتكفير مرتكب الكبيرة كالخوارج، ولمذهب من قال بخلوده في النار كالمعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين. ويظهر من روايات الاثني عشرية موافقتها لمذهب أهل السنة في حكم مرتكب الكبيرة، وأنه مؤمن، ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ﴾ [الحجرات: ٩]. فقد سمّاهم المولى ﷺ مؤمنين رغم قتالهم وتنازعهم. ولكن مع إقرار الشيعة بهذه الحقيقة، عزّ عليهم ألا يحكموا بكفر من قاتل أمير المؤمنين عليًا ؑ، فقال قائلهم: « واجتمعت الشيعة على الحكم بكفر محاربي أمير المؤمنين ﷺ، ولكنهم لم يخرجوهم بذلك عن حكم ملة الإسلام؛ إذ كان كفرهم من طريق التأويل كفر ملة، ولم يكفروا كفر ردة عن الشرع، مع إقامته على الجملة منهم وإظهار الشهادتين، والاعتصام بذلك عن كفر الردة المخرج عن الإسلام، وإن كانوا بكفرهم خارجين عن الإيمان مستحقين لللعنة والخلود والنار »^(١).

ومن هذا النص يظهر غموض مصطلحات الاثني عشرية وتعارضها: (كفر ملة، كفر ردة)، (لا يخرجون به من الإسلام، ولكنهم يكونون معه « مستحقين لللعنة والخلود والنار »)!

والذي يظهر للباحث أن هذا الغموض جاءهم من قبل المعتزلة من ناحية، ومن بغضهم لمن أنكر الإمامة أو ارتكب ما يعارضها بزعمهم - كقتال أمير المؤمنين علي ؑ. فالمعتزلة سبقوهم بالقول بالمنزلة بين المنزلتين للفاسق، وفي النهاية لم يحكموا له بكفر ولا إيمان، ثم لما سئلوا عن مصيره قالوا: الخلود في جهنم!

قال الإسفراييني: « قولهم [أي: المعتزلة] بمنزلة بين المنزلتين وزعمهم أن الفاسق المَلِي لا مؤمن ولا كافر، وأن الفاسق من أهل الملة خرجوا من الإيمان ولم يبلغوا الكفر، وأنهم مع الكفار في النار خالدين مخلدين لا يجوز لله تعالى أن يغفر لهم، وأنه لو غفر لهم لخرج من الحكمة، ولما أظهروا هذه المقالة هجرهم المسلمون »^(٢).

والذي فعله الاثنا عشرية أنهم طوّروا مصطلح (المنزلة بين المنزلتين) ليشمل كل من خالفهم في مسألة الإمامة؛ ولذلك عدّوا من قاتل عليًا منكرًا للإمامة التي هي أصل من

(١) الجمل (ص ٢٩، ٣٠)، مكتبة الدواوري، قم.

(٢) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، طاهر بن محمد الإسفراييني (ص ٢٢)، عالم الكتب - بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٣ م)، تحقيق: كمال يوسف الحوت.

أصول الدين عندهم، فحكموا له بالخلود في النار، وإن ستموه مسلمًا، أما من ارتكب كبيرة من الكبائر من أهل مذهبهم فحكموا بنجاته كما بيّنا.

أنواع الكفر:

هناك رواية طويلة تعبر عن الكفر ووجوهه وأنواعه: « عن أبي عمرو الزبيرى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قلت له: أخبرني عن وجوه الكفر في كتاب الله تعالى، قال:

الكفر في كتاب الله على خمسة أوجه:

فمنها كفر الجحود والجحود على وجهين. والكفر بترك ما أمر الله، وكفر البراءة، وكفر التعم.

- فأما كفر الجحود فهو الجحود بالزبويّة وهو قول من يقول: لا ربّ ولا جنة ولا نار، وهو قول صنفين من الزنادقة يقال لهم: الدهريّة، وهم الذين يقولون: ﴿ وَمَا يُهْلِكُكَ إِلَّا اللَّهُ ﴾ [الجمانية: ٢٤] وهو دين وضعوه لأنفسهم بالاستحسان على غير تثبّت منهم، ولا تحقيقٍ لشيءٍ مما يقولون، قال الله تعالى: ﴿ وَإِنَّ هُمْ إِلَّا يَطْمُونُ ﴾ [البقرة: ٧٨] أنّ ذلك كما يقولون وقال: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [البقرة: ٦] يعني بتوحيد الله تعالى. فهذا أحد وجوه الكفر.

- وأما الوجه الآخر من الجحود على معرفة وهو أن يجحد الجاحد وهو يعلم أنّه حقّ قد استقرّ عنده، وقد قال الله تعالى: ﴿ وَحَدُّوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤]، وقال الله تعالى: ﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْخِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمِنَئِهِ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩] فهذا تفسير وجهي الجحود.

- والوجه الثالث من الكفر: كفر التعم، وذلك قوله تعالى يحكي قول سليمان عليه السلام: ﴿ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠]، وقال: ﴿ لِيَنْ شَكَرْتُمْ لِأَزِيدَنَّكُمْ وَلِيَنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال: ﴿ فَادْكُرُونِي أذكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٢].

- والوجه الرابع من الكفر: ترك ما أمر الله تعالى به، وهو قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تَخْرُجُونَ أَنفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿١٥٦﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتَخْرُجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِلْغَامِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسْرَى تَفْتَدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ [البقرة: ٨٤، ٨٥] فكفّرهم بترك ما أمر الله تعالى به،

ونسبهم إلى الإيمان، ولم يقبله منهم ولم ينفعهم عنده، فقال: ﴿فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

- والوجه الخامس من الكفر: كفر البراءة وذلك قوله ﷺ يحكي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿كَفَرْنَا بِكَ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ﴾ [المتحنة: ٤] يعني تبرأنا منك. وقال يذكر إبليس وتبرئته من أوليائه من الإنس يوم القيامة: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ﴾ [العنكبوت: ٢٥] يعني: يتبرأ بعضكم من بعض^(١).

وجاء في رواية عن سليم بن قيس الهلالي رواية تبين دعائم الكفر التي يقوم عليها بناؤه المنهار:

عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: بني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلو والشك والشبهة: والفسق على أربع شعبي: على الحفاء والعمى والغفلة والعتو... والغلو على أربع شعبي: على التعمق بالرأي والتنازع فيه والزيف والشقاق... والشك على أربع شعبي: على المرية والهوى والتردد والاستسلام وهو قول الله ﷻ ﴿فِي أَيِّ آيَاتِنَا لَا تَحْمِلُهَا أَصَابٌ وَلَا تُلَاقِيهَا سُلْبَةٌ﴾ [النجم: ٥٥].

وفي رواية أخرى: على المرية والهول من الحق والتردد والاستسلام للجهل وأهله. فمن هاله ما بين يديه نكص على عقبيه، ومن امترى في الدين تردّد في الزيب، وسبقه الأولون من المؤمنين، وأدركه الآخرون، ووطئته سنابك الشيطان، ومن استسلم لهلكة الدنيا والآخرة هلك فيما بينهما، ومن نجا من ذلك فمن فضل اليقين، ولم يخلق الله خلقاً أقلّ من اليقين. والشبهة على أربع شعبي: إعجاب بالزينة، وتسويل النفس، وتأول العوج، وليس الحق بالباطل. وذلك بأن الزينة تصدف عن البيّنة، وأن تسويل النفس يقمّح على الشهوة، وأن العوج يميل بصاحبه ميلاً عظيماً، وأن اللبس ظلمات بعضها فوق بعض. فذلك الكفر ودعائمه وشعبه^(٢).

(١) أصول الكافي (٣٧١/٢، ٣٧٢) كتاب الإيمان والكفر، باب وجوه الكفر، سكت عنه المحقق.

(٢) أصول الكافي (٣٧٣/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب دعائم الكفر وشعبه، سكت عنه المحقق.

أدنى الشرك:

عن بريد العجلي عن أبي جعفر عليه السلام قال: « سألته عن أدنى ما يكون العبد به مشركاً؟ قال: فقال: من قال للتواة: إنها حصاة، وللحصاة: إنها نواة ثم دان به » (١).

وعن أبي العباس قال: « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن أدنى ما يكون به الإنسان مشركاً؟ قال: فقال: من ابتدع رأياً فأحبّ عليه أو أبغض عليه » (٢).

فالرواية الأولى تجعل العناد ومخالفة المحسوس بداية الشرك، والرواية الثانية تبين أن الابتداع في الدين أدنى الشرك. ولا يخلو مشرك من هذين الأمرين: العناد والابتداع. وبناء على ما في روايات أئمة البيت فإن أهم المكفّرات:

١ - الشك في الله ورسوله:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « من شك في الله وفي رسوله صلى الله عليه وآله فهو كافر » (٣). أما الوسوسة التي تطرأ فليست من الشك وليست من الكفر؛ بل هي صريح الإيمان ودليل صفائه، كما ثبت في روايات أهل السنة والشيعة معاً:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سئل النبي صلى الله عليه وآله عن الوسوسة، قال: « تلك محض الإيمان » (٤).

وعن أبي عبد الله عليه السلام جعفر الصادق عليه السلام قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا رسول الله، هلكت، فقال له عليه السلام: « أتاك الخبيث فقال لك: من خلقت؟ فقلت: الله، فقال لك: الله من خلقه؟ » فقال: إي والذي بعثك بالحق لكان كذا. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « ذاك والله! محض الإيمان » (٥).

قال محقق أصول الكافي: « وإنما كانت هذه الخطرات وما استتبعها من خوف الهلاك محض الإيمان؛ لأن الكافر لا يداخله شيء من هذا الخوف بسبب ذلك، بل لا يداخله

(١) أصول الكافي (٣٧٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٣٧٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٣٦٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر وقال محققه: والحديث صحيح.

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة في الإيمان، رقم (٢١١).

(٥) أصول الكافي (٤٠٣/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الوسوسة وحديث النفس قال محققه: والحديث

خوف حتى من محاربتة لله ورسوله، فكان ذلك الخوف أمانة على صدق إيمانه» (١).

٢ - الاعتراض على الله تعالى أو رسوله:

عن عبد الله الكاهلي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لو أن قومًا عبدوا الله وحده لا شريك له، وأقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وحجّوا البيت، وصاموا شهر رمضان، ثم قالوا لشيء صنع الله أو صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم: ألا صنع خلاف الذي صنع. أو وجدوا ذلك في قلوبهم؛ لكانوا بذلك مشركين. ثم تلا هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِي مَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] ثم قال أبو عبد الله عليه السلام: عليكم بالتسليم» (٢).

٣ - إنكار فريضة من فرائض الإسلام، أو الاستخفاف بأوامر ونواهي الدين:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: «.. فمن اجترأ على الله فأبى الطاعة وأقام على الكبائر فهو كافر. يعني مستخف كافر» (٣).

و «الحكم بكفره مقيد بما إذا كان إباؤه للطاعة وإقامته على الكبائر بنحو الاستخفاف» (٤).

قال عبد الله شبر: «واعلم أن الأصحاب قد اتفقوا على أن إنكار أحد ضروريات الإسلام موجب للكفر، ولكنهم لم يحصروا الضروريات، بل ذكروها متفرقة في كتب الفقه... المراد بضروري الدين ما كان وضوحه وبداهته في دين الإسلام ضروريًا؛ بحيث إن كل من دخل في ذلك الدين عرفه، إلا من كان جديد الإسلام أو في بلدان الكفر أو بعيدًا عن بلدان الإسلام، بحيث لم يطرق سمعه ذلك» (٥).

ثم يبين بعض هذه الضروريات التي يكفر منكرها؛ مثل وجوب الفرائض الخمس في اليوم والليلة وعدد ركعات كل منها.. ووجوب غسل الجنابة والحيض، ووجوب الزكاة، وحرمة الزنى واللواط، وحرمة الميتة ولحم الخنزير والربا وقتل المسلمين من غير حق، وحقية القرآن، وأنه منزل من عند الله بل إنه معجز على الأظهر» (٦).

(١) أصول الكافي (٤٠٣/٢).

(٢) أصول الكافي (٤٥٥/١) كتاب الحجّة، باب التسليم وفضل المسلمين، والحديث حسن.

(٣) أصول الكافي (٣٦٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر وقال محققه: والحديث موثق كالصحيح.

(٤) أصول الكافي (٣٦٧/٢) هامش حاشية رقم (٣).

(٥) عبد الله شبر: حق اليقين (٥٧٢/٢ - ٥٧٧).

(٦) المصدر السابق لاحظ أنه لم يتعرض لمسألة سلامة القرآن من التحريف.

وقد ذكر عبد الله شبر من المكفرات « السجود للأصنام وهتك حرمت الله ونحوها » (١).

٤ - ترك الصلاة عمداً:

ولا تعدّ روايات أئمة أهل البيت ترك طاعة من الطاعات أو فعل معصية من المعاصي كفرةً إلا ترك الصلاة:

عن عبيد بن زرارة قال: « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ... ﴾ [المائدة: ٥] فقال: من ترك العمل الذي أقر به، قلت: فما موضع ترك العمل حتى يدعه أجمع؟ قال: منه الذي يدع الصلاة متعمداً لا من سكرٍ ولا من علةٍ » (٢).

ونلاحظ أن الرواية اشترطت أن يكون تركه للصلاة دون عذر شرعي: « لا من سكرٍ ولا من علةٍ ». ومن العلل: السقم والانشغال بعذر كما جاء في إحدى الروايات التي ذكرت من المكفرات: « أن يترك الصلاة من غير سقم ولا شغلٍ » (٣).

وقد بينت رواية أخرى عن الأئمة العلة التي من أجلها كان ترك الصلاة كفرةً، بخلاف باقي المعاصي:

عن مسعدة بن صدقة قال: « سمعت أبا عبد الله عليه السلام وسئل: ما بال الزاني لا تسميه كافراً وتارك الصلاة قد سميته كافراً؟ وما الحجّة في ذلك؟ فقال: لأنّ الزاني وما أشبهه إنما يفعل ذلك لمكان الشهوة لأنها تغلبه، وتارك الصلاة لا يتركها إلا استخفافاً بها؛ وذلك لأنك لا تجد الزاني يأتي المرأة إلا وهو مستلذّ لإتيانه إياها قاصداً إليها، وكلّ من ترك الصلاة قاصداً إليها فليس يكون قصده لتركها اللذّة، فإذا نفيت اللذّة وقع الاستخفاف، وإذا وقع الاستخفاف وقع الكفر » (٤).

هذا، والحكم عند أهل السنة أن تارك الصلاة جحوداً واستخفافاً كافر باتفاق، أما تاركها تكاسلاً فإن الجمهور (الحنيفة والمالكية والشافعية) يقولون بأنه مسلم عاصٍ، أما عند الحنابلة؛ فهناك روايتان: « فروي أنه يقتل لكفره كالمرتد، فلا يغسل ولا يكفن

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٧٣). أما السجود عند أضرحة الأئمة والطواف حولها؛ فليس من المكفرات عندهم إلا إذا قصد منه العبادة والتعظيم، كما سنبين في (فصل العقائد الخاصة).

(٢) أصول الكافي (٣٦٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، وقال محققه: والحديث موثق كالصحيح.

(٣) أصول الكافي (٣٦٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، وقال محققه: والحديث ضعيف على المشهور.

(٤) أصول الكافي (٣٦٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، وقال محققه: والحديث ضعيف.

ولا يدفن بين المسلمين، ولا يرثه أحد، ولا يرث أحدًا، اختارها أبو إسحاق ابن شاقلاً وابن حامد، وهو مذهب الحسن والشعبي وأيوب السختياني والأوزاعي وابن المبارك وحماد بن زيد وإسحاق ومحمد بن الحسن؛ لقول رسول الله ﷺ... في لفظ عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشَّرْكِ تَرْكُ الصَّلَاةِ » (١)... والرواية الثانية: يقتل حدًا مع الحكم بإسلامه كالزاني المحسن، وهذا اختيار أبي عبد الله ابن بطة، وأنكر قول من قال: إنه يكفر، وذكر أن المذهب على هذا، لم يجد في المذهب خلافاً فيه. وهذا قول أكثر الفقهاء وقول أبي حنيفة ومالك والشافعي (٢).

٥ - تحليل ما حرم الله، وتحريم ما أحل الله:

عن عبد الله بن مسكان عن أبي بصير قال: « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله ﷻ: ﴿ أَنْتَحَدُّوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُوبَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ... ﴾ [التوبة: ٣١] فقال: أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجابوهم، ولكن أحلوا لهم حرامًا وحرموا عليهم حلالًا، فعبدوهم من حيث لا يشعرون » (٣).

وعن ابن أبي عمير عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « من أطاع رجلاً في معصية فقد عبده » (٤).

هل يمكن كفر المؤمن بعد إيمانه؟

اختلف المتكلمون الشيعة في هذا؛ « فالأكثر على إمكان ذلك ووقوعه، لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَامَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ءَزَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَغْفِرْ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴾ [النساء: ١٣٧] وقوله: ﴿ يَتَأَيَّبُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا قَرِيبًا مِنَ الَّذِينَ ءُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ ءِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٠٠]... وذهب جماعة إلى عدم جواز

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة. ومن الأحاديث التي استندت عليه الرواية: قوله ﷺ: « إن العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » أخرجه الترمذي: كتاب الإيمان، باب ما جاء في ترك الصلاة رقم (٢٦٢١)، وقال: حديث حسن صحيح غريب، والنسائي (٢٣١/١)، وأحمد في مسند بريدة (٣٤٦/٥) رقم (٢٢٩٨٧)، وابن حبان في صحيحه (٣٠٥/٤).
(٢) ابن قدامة: المغني مع الشرح الكبير (١٥٧/٢)، ط دار الفكر - بيروت، وانظر: الصلاة وحكم تاركها لابن قيم الجوزية، دار ابن حزم - بيروت، والجفان والجاني - قبرص (١٤١٦هـ / ١٩٩٦م)، (ط ١) تحقيق بسام عبد الوهاب الجاني (ص ٨٣).

(٣) أصول الكافي (٣٨٠/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك، قال محققه: والحديث حسن.

(٤) أصول الكافي (٣٨٠/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرك، قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

زوال الإيمان الحقيقي بصد أو غيره، ونسب إلى السيد المرتضى وجماعة؛ لأن ثواب الإيمان دائم وعقاب الكفر دائم، والإحباط والموافاة عنده باطلان، وأن الارتداد الواقع من بعض الناس كاشف عن عدم الإيمان سابقاً وعن نفاقهم، وأول الآيات الدالة على ذلك بأن المراد بمن وصفهم بالإيمان: الإيمان اللساني دون القلبي، وقد وقع مثله كثيراً في القرآن كقوله تعالى: ﴿ قَالُوا ءَأَمِنَّا بِأَفْرِهِمْ وَلَمْ نُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ﴾ [المائدة: ٤١] «^(١).

ويشهد لمجيزي الكفر بعد الإيمان الرواية التي تذكر وجود صنف سموا: المعارين؛ عن الإمام أبي الحسن موسى الرضا: « إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْإِيمَانِ لَا زَوَالَ لَهُ، وَخَلَقَ خَلْقًا لِلْكَفْرِ لَا زَوَالَ لَهُ، وَخَلَقَ خَلْقًا بَيْنَ ذَلِكَ أَعَارَهُ الْإِيمَانَ، يَسْمُونَ الْمَعَارِينَ إِذَا شَاءَ سَلِبَهُمْ »^(٢).
حكم المرتد:

الارتداد عند الشيعة نوعان: فطري وملّي:

فالارتداد الفطري: يتعلق بارتداد من كان أحد والديه مسلماً، ويجب قتله وفسخ نكاحه وإبانة امرأته وقسمة أمواله بين ورثته، واختلف في صحة توبته، وأكثر المحققين من علماء الاثني عشرية على صحتها.

والارتداد الملّي: يتعلق بمن تولّد كافراً ثم أسلم ثم كفر؛ « فالمشهور أنه يجبر على التوبة؛ فإن تاب قبلت توبته ظاهراً وواقعاً، وإن لم يتب قتل. واختلف في مدته، فقيل: ثلاثة أيام كما روي، وقيل: لا حدّ لذلك، بل ما احتمال توبته ورجوعه، فإن أيس من ذلك قتل، أما المرأة المرتدة فطرية أو ملية فلا تقتل، ولكن تحبس بعد الارتداد، وتضرب حتى ترجع إلى الإسلام^(٣).

التفريق بين الشرك والكفر في روايات الشيعة:

عن أبي جعفر عليه السلام قال: « وَاللَّهِ إِنَّ الْكَفْرَ لِأَقْدَمَ مِنَ الشَّرْكِ وَأَحْبَثُ وَأَعْظَمَ. قَالَ: ثُمَّ ذَكَرَ كُفْرَ إِبْلِيسَ حِينَ قَالَ لِلَّهِ لَهُ: اسْجُدْ لِأَدَمَ. فَأَبَى أَنْ يَسْجُدَ. فَالْكَفْرُ أَعْظَمُ مِنَ الشَّرْكِ، فَمَنْ اخْتَارَ عَلَى اللَّهِ ﷻ وَأَبَى الطَّاعَةَ وَأَقَامَ عَلَى الْكِبَائِرِ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ نَصَبَ دِينًا غَيْرَ دِينِ الْمُؤْمِنِينَ فَهُوَ مُشْرِكٌ »^(٤).

(١) عبد الله شبر: حق اليقين (٥٧٢/٢، ٥٧٣).

(٢) أصول الكافي (٣٩٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المعارين، قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين (٥٧٢/٢ - ٥٧٦).

(٤) أصول الكافي (٣٦٦/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

قال المجلسي: « الكفر هو ترك طاعة الله معاندة واستكباراً، والشرك هو أن يثبت لله في الخلق أو العبادة أو الطاعة شريكاً أعم من أن يكون ذلك على المعاندة أو على الجهل والضلال، فبين الشرك وأولاً: أن ترك طاعته تعالى مع العلم معاندة واستكباراً أخبث وأقدم من الشرك؛ لأن أول معصية وقعت من العباد وأشدّها معصية إبليس، وهي كانت من هذا القبيل؛ لأنه لم يشرك بل ترك السجود والطاعة معاندة واستكباراً وهذا أشد من شرك لم ينضم إليه ذلك، وكان من الجهل والضلالة، فأما الشرك الذي كان على وجه الاستكبار والمعاندة فهو أشد لتلك الجهة لا لجهة الشرك » (١).

فهذا التفريق بين الشرك والكفر إن صحّ لغة، إلا أن الاصطلاحات الشرعية جعلت نتيجهما واحدة، فالشرك والكفر يؤديان إلى النار، وما داما قد أوصلا إلى النار، فلا فرق بينهما في النتيجة، لقد قال تعالى عن الشرك وأهله: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِسَرَّوِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَنْصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال عن الكافرين: ﴿ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

بل وأطلق أحدهما على الآخر؛ مما يدل على ترادفهما كقوله تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [المائدة: ٧٣]، ومن المعلوم أنهم أشركوا بالله تعالى، وخالفوا صفة الوجدانية، ومع ذلك سماهم كافرين؛ ذلك أن المشرك بالله تعالى كافر، بمعنى أنه جاحد لله تعالى، سواء كان فعله جحوداً لذاته أو صفاته، أو جحوداً لوجوب طاعته، أو جحوداً لفضله ونعمته.

المبحث الثاني

الإلهيات



لقد « أجمع العلماء كافة على وجوب معرفة الله تعالى وصفاته الثبوتية والسلبية وما يصح عليه وما يمتنع عنه والنبوة والإمامة والمعاد » (١).

والتفكير عبادة حض عليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعْظُمُكُمْ بِيُوحْدِهِ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ شَيْءٍ وَفِرَادَىٰ تُهَنَّفُكُمْ أَمْ يَصَاحِبُكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ [سبأ: ٤٦]. وقد حض أئمة أهل البيت على التفكير، قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: « أول الديانة معرفة الله وكمال معرفته توحيداً، وكمال توحيدِهِ الإخلاص له » (٢). وقال: « إن الفكر يدعو إلى البر والعمل به » (٣).

وقد روى أهل السنة عن أبي الدرداء عليه السلام قوله: « تفكر ساعة خير من قيام ليلة » (٤). وعن أبي الحسن الرضا عليه السلام: « ليس العبادة كثرة الصلاة والصوم، إنما العبادة التفكير في أمر الله ﷻ » (٥).

ويعتقد علماء الاثني عشرية - موافقين المعتزلة - أن معرفة الله تعالى مستفادة من العقل، يقول الشيخ كاشف الغطاء: « يجب على العاقل بحكم عقله عند الإمامية تحصيل العلم والمعرفة بصانعه والاعتقاد بوحدانيته في الألوهية وعدم الشريك له في الربوبية » (٦).

« ومذهب الإمامية هذا مخالف للقرآن وللأخبار الواردة عنهم، أما مخالفته للقرآن فلأن الله تعالى قال: ﴿ إِنَّ أَلْحَقَّكُمْ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧، يوسف: ٤٠] وقال: ﴿ .. وَمَا كُنَّا

(١) ابن المطهر الحلبي (ص ١٣).

(٢) القضاعي: دستور معالم الحكم (ص ٣٠٣)، وذكره محمد باقر المحمودي: نهج السعادة في مستدرك نهج البلاغة (٣٩/٣) دار المعارف - بيروت (١٣٩٧هـ).

(٣) أصول الكافي (٦١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التفكير. سكت عنه المحقق.

(٤) البيهقي: شعب الإيمان (١٣٥/١).

(٥) أصول الكافي (٦١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التفكير. حكم المحقق بصحته.

(٦) كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها (ص ٦١).

مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿ [الإسراء: ١٥]، وقال: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجْمٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥]. فلو كانت معرفة الله تبارك وتعالى أمراً واجباً بحكم العقل لوقع العذاب بترك ذلك الواجب قبل بعثة الرسل « (١) ».

أما مخالفته للنصوص الواردة عن أئمتهم فقد روى الكليني عن جعفر الصادق: « ليس لله على خلقه أن يعرفوا، وللخلق على الله أن يعرفهم، ولله على الخلق إذا عرفهم أن يقبلوا » وسئل: « من لم يعرف شيئاً هل عليه شيء؟ قال: لا » (٢).

وروايات الشيعة وإن عظمت دور الفكر للوصول لمعرفة الله تعالى، إلا أنها أعلنت أنه لا حساب قبل المعرفة وإرسال الرسل؛ فقد قال جعفر الصادق قوله الفصل في ذلك: « ما حجب الله عن العباد فهو موضوع عنهم » (٣). وقال أيضاً مؤكداً هذا المعنى: « إن من قولنا: إن الله يحتج على العباد بما آتاهم وعرفهم، ثم أرسل إليهم رسولاً، وأنزل عليهم الكتاب فأمر فيه ونهى، أمر فيه بالصلاة والصيام... وما أمروا إلا بدون سعتهم، وكل شيء أمر الناس به فهم يسعون له، وكل شيء لا يسعون له فهو موضوع عنهم » (٤). والحقيقة أن العقل والنقل كليهما يوصل إلى الإيمان بالله تعالى، فقد قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] (٥).

ويأتي دور الخبر اليقيني ليفتح عقولنا على حقائق ما كنا لنصل إليها إلا من خلال الوحي الصادق، فيجيبنا هذا الوحي الكريم عن أسئلة الوجود الكبرى، مبيئاً لنا صفات الخالق العظيم، وواجبات المخلوق تجاه خالقه ونفسه والعالم من حوله، معرِّفاً الإنسان بمصيره المحتوم الذي ينتظره بعد الموت. وما يكون في حنايا هذه المسائل من تفاصيل لا غنى للإنسان عن معرفتها.

فلا داعي لإحداث زوابع حول هذه البديهية، بضرب العقل بالنقل، وهما أخوان

(١) د. فرماوي: أصول الرواية عند الشيعة الإمامية، جامعة الأزهر كلية أصول الدين، القاهرة (١٤١٧ هـ / ١٩٩٦ م). (ص ٢٦).

(٢) الكليني: أصول الكافي: باب حجج الله على خلقه (٢١٥/١).

(٣) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب حجج الله على خلقه (٢١٥/١).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) انظر: د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٠٧).

شقيقان يخرجان من معين إلهي واحد.

المطلب الأول

أدلة وجود الله تعالى

إن الحديث عن الله تعالى وأدلة وجوده وصفاته مما يدعو إلى الحياء من الخلاق العظيم الظاهر في كل شيء، قال سبحانه: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَلِيَّ اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

ولكنه سبحانه هو الذي هدانا وعرفنا طرق الوصول إليه؛ فقد دلل ﴿﴾ على ذاته في كتابه العظيم وسنة نبيه الكريم وكونه الواسع. وليس لوجود الخلاق العظيم دليل واحد، بل أدلة كثيرة تتسع لجميع أفهام البشر ومشاربهم.

« أما إثبات الصانع فطرقه لا تحصى، بل الذي عليه جمهور العلماء أن الإقرار بالصانع فطري ضروري مغروز في الجبلة؛ ولهذا كانت دعوة عامة الرسل إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وكان عامة الأمة مقرين بالصانع مع إشراكهم به بعبادة ما دونه، والذين أظهروا إنكار الصانع كفرعون خاطبتهم الرسل خطاب من يعرف أنه حق، كقول موسى لفرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَنْفِرَعَوْتُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢] ولما قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] قال له موسى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾ ﴿قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ﴾ ﴿قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ﴿قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٤ - ٢٨] » (١).

وإن خير وأوضح وأسهل الأدلة على وجود الله ما ساقه القرآن الكريم، ولا عجب في هذا؛ فليس هناك تأكيد على وجود الخالق أعظم من تأكيد الخالق على وجوده ذاته، ولن تكون هناك طريقة أسهل وأوضح من طريقته، ولن يكون هناك كتاب يشرح هذا ويبينه كما سيبينه كتاب الخالق نفسه، وهذا ما وصل إليه كثير من علماء السنة والشيعه على السواء.

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/٢٧٠).

وإذا تأملنا كتب ومؤلفات علماء الشيعة الإمامية وجدنا مسالكهم في إثبات وجود الله تعالى متنوعة تتشابه كثيراً مع مسالك الفرق الأخرى، فإذا كان متقدموهم - كابن بابويه القمي (ت ٣٨١هـ) والشريف المرتضى (ت ٤٣٦هـ) - يستدلون على وجود الله تعالى بدليل المعتزلة الذي يعتمد على فكرة (حدوث الأجسام وحاجتها إلى محدث)؛ فإن متأخري الإمامية كنصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢هـ) وابن مطهر الحلبي (ت ٧٣٦هـ) لجؤوا إلى منهج الفلاسفة الذي يعتمد على فكرة (الإمكان والوجوب)^(١). ثم ظهر تيار آخر يدعو إلى الأدلة القرآنية والنبوية التي استخدمها أئمة أهل البيت عليهم السلام.

أولاً: أشهر الأدلة الفلسفية والكلامية على وجود الله تعالى:

١ - دليل الإمكان والوجوب:

وهو من أشهر أدلتهم، ولعل أول من استخدمه في المحيط الإسلامي المعتزلة، ثم تبعهم الفلاسفة الإسلاميون، كما استخدمه باقي الفرق الكلامية الإسلامية والاثني عشرية من جملتهم.

فقد لجأ الفارابي وابن سينا في استدلالهم على وجود الله إلى تقسيم الوجود إلى واجب وممكن، ثم الاستدلال بالممكن على الواجب، من حيث حدوثه بعد أن لم يكن، ومن حيث ثباته على الإمكان^(٢)، وقد عبّر عنه ابن سينا (ت ٤٢٨هـ) بقوله: « لا شك أن هنا وجوداً، وكل وجود إما واجب أو ممكن؛ فإن كان واجباً فقد صح وجود الواجب، وإن كان ممكناً فإن... الممكن ينتهي وجوده إلى واجب الوجود »^(٣).

والفلاسفة وإن كانوا يلجؤون وينزعون إلى أساتذتهم من فلاسفة اليونان، إلا أنهم في هذا الدليل على وجود الله تعالى تتلمذوا على يد أقرانهم من المعتزلة، وسرّ ذلك أنهم نفروا مما رأوا من تخبط فلاسفة اليونان في أحوال ما سمّوه العلة الأولى للكون وما رافق هذه النظرية من ضلالات، « فلما رأى ابن سينا وأمثاله من المتأخرين ما فيها من الضلال عدلوا

(١) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٣٧).

(٢) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٧٣، ١٧٤)، وانظر إيضاح ابن تيمية لهذه المسألة في: منهاج السنة النبوية (١/٩٦)، ط. بولاق (١٣٢٢هـ).

(٣) ابن سينا: النجاة (ص ٣٨٣) مطبعة الكندي - القاهرة (١٣٣١هـ)، والإشارات بتحقيق سليمان دنيا (٣/٤٣٥)، دار المعارف مصر (١٩٦٨م)، وانظر: سعيد بن أحمد الأفتدي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط (ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان) (١٠٦).

إلى طريقة الوجود والوجوب والإمكان، وسرقوها [!] من طريق المتكلمين المعتزلة وغيرهم؛ فإن هؤلاء احتجوا بالمحدث على المحدث، فاحتج أولئك بالممكن على الواجب « (١) ».

وقد استخدم هذا الدليل أيضًا متكلمو الأشاعرة كما استخدمه متكلمو الاثني عشرية، يقول الجويني: « هذا العالم أجسام محدودة متناهية المنقطعات، وأعراض قائمة بها كألوانها... هذه الموجودات يسري عليها جميعًا حكم الجواز؛ لما تتميز به الأجسام من صفات متغيرة »؛ فالعالم « بما فيه من موجودات... غير ممنوع تقديره بخلاف ما هو عليه، فإذا لزم العالم كله الجواز استحال قدمه، وثبت افتقاره إلى محدث، وهو الله تعالى » (٢). ويقول الإيجي: « العالم ممكن؛ لأنه مركب وكثير، وكل ممكن فله علة مؤثرة... نقول: مدبر العالم إن كان واجب الوجود فهو المطلوب، وإلا كان ممكنًا فله مؤثر، ويعود الكلام فيه، ويلزم إما الدور أو التسلسل، وإما الانتهاء إلى مؤثر واجب الوجود لذاته، والأول بقسميه باطل لما مر؛ فتعين الثاني، وهو المطلوب » (٣).

وقد ظهر من متكلمي الشيعة من ذهب في الاستدلال على وجود الله تعالى معتمدًا على فكرتي الوجوب والإمكان العقليين، كنصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢ هـ) وابن مطهر الحلي (ت ٧٣٦ هـ) (٤). وكذلك درج على شرحه بعض المعاصرين منهم، يقول البيزدي: « فواجب الوجود عبارة عن الموجود الذي هو موجود بذاته، ولا يحتاج إلى موجود آخر، وبالطبع يكون هذا الموجود أزليًا أبدئيًا... ويمكن الوجود عبارة عن الموجود الذي لا يوجد بذاته وإنما يناط وجوده بموجود آخر ويتوقف عليه » (٥).

ويعتمد هذا الدليل على مقدمتين: الأولى: هي بطلان تسلسل العلل، والثانية: هي استحالة أن تكون الموجودات كلها ممكنة الوجود؛ لأن « ممكن الوجود محتاج للعلة، وإن التسلسل في العلل محال؛ إذن فلا بد أن تنتهي سلسلة العلل إلى موجود لا يكون ممكن الوجود وليس محتاجًا إلى علة، أي إنه واجب الوجود » (٦).

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١/٣٤٧، ٣٤٨).

(٢) الجويني: الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد (ص ٢٨). مطبعة السعادة - مصر (١٣٦٩ هـ).

(٣) عضد الدين الإيجي: المواقف (٣/٧، ٨).

(٤) د. عائشة يوسف الناعني: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٣٧).

(٥) محمد تقي مصباح البيزدي: دروس في العقيدة (ص ٧٢، ٧٣).

(٦) المرجع السابق (ص ٧٤ - ٧٦).

وهذا دليل منطقي معقد كان محل نقد في صعوبته من قبل كثير من علماء الشيعة والسنة على السواء.

وينتقد الأستاذان الفاضلان الدكتور رزق الحجر والدكتور محمد السيد الجليند هذا المسلك في الاستدلال على وجود الله تعالى بأنه « لا يخفى أن هذه التفرقة بين الممكن والواجب إنما جاء كوسيلة للتفريق بين الفلسفة والدين »^(١). فدليل الإمكان والوجوب الذي قال به المعتزلة والأشاعرة والأثنا عشرية والفارابي وابن سينا « يصح الاستدلال به على أن هناك وجودًا واجبًا في العقل فقط » أما إثبات هذا الواجب وتعيينه خارج الذهن والتصور العقلي؛ فهذا ما لم ينتجه هذا الدليل، وما زال الأمر في ذلك محتاجًا إلى دليل آخر^(٢).

فالملاحظ أن هذا الدليل يفرق في التجريد؛ إذ يتناول الموجود المجرد في الذهن، لا الموجود الحقيقي في الواقع، بخلاف أدلة القرآن التي اتجهت إلى الموجود في الواقع، كقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧] فقد لفتت هذه الآية إلى الموجودات الحقيقية، لا المجردة في الذهن، وهذا يسهل إدراكها والتفكير فيها.

٢ - دليل حدوث العالم وتناهيه:

اعتمد الفلاسفة والمتكلمون بعدهم على دليل حدوث العالم وتناهيه؛ لإثبات وجود محدثه، وهو الله تعالى، وقد كانت فكرة حدوث العالم وتناهيه من الأفكار التي تناولها الفكر اليوناني، وقد استمد الفلاسفة المسلمون كالكندي فكرة تناهي العالم من أرسطو، وقالوا: إن العالم إذا كان حادثًا له أول وبداية في الزمان، وله نهاية فلا بد أن يكون له محدث^(٣).

وقد جاء المتكلمون فيما بعد فاعتقدوا « بحدوث العالم، وجعلوا الاعتقاد بذلك من

(١) أستاذنا الدكتور: سيد رزق الحجر: ابن الوزير ومنهجه الكلامي، ضمن رسائل كلية دار العلوم الجامعية (ص ١٩٤، ١٩٥).

(٢) انظر: أستاذنا الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٧٣، ١٧٤)، وانظر إيضاح ابن تيمية لهذه المسألة في: منهاج السنة النبوية (١/٩٦)، ط. بولاق (١٣٢٢هـ).

(٣) انظر: سعيد بن أحمد الأندلي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (ص ١٠٦). وانظر: الكندي وفلسفته (ص ٦٩) وما بعدها دار الفكر العربي القاهرة (١٩٥٠م).

لوازم التوحيد»^(١). وقسموا الموجودات في العالم إلى أعراض وجواهر، واستدلوا بحدوثها وإمكانها على حدوث العالم، و« بحدوث العالم على وجود الله»^(٢).

وقد اشتهر هذا الدليل لدى المتكلمين باسم دليل (الجوهر الفرد) و« مضمونه أن موجودات العالم جواهره وأعراضه حادثة لحدوث الأعراض بدلالة التغيير، وملازمة الأعراض لها وحدوثها على أساس أن ما يلزم الحادث فهو حادث مثله، وإذا ثبت حدوث العالم بجوهره وأعراضه ثبت احتياجه لمحدث، وهو الله تعالى»^(٣). ويبين الإيجي أن العالم إما جوهر أو عرض، وقد يستدل بكل واحد منهما إما بإمكانه أو بحدوثه على أن العالم حادث، وكل حادث فله محدث، وهو الله تعالى^(٤).

وقد اعتمد متكلمو الاثني عشرية على هذا الدليل في إثبات وجود الله، وسموا هذا الدليل (دليل حدوث الأجسام)، ولا يخفى أن « دليل حدوث الأجسام عند الاثني عشرية هو نفس الدليل الذي اعتمد عليه عامة المتكلمين في البرهنة على وجود الله تعالى، سواء المعتزلة والأشاعرة وغيرهم»^(٥). وقد استخدمه القدماء والمحدثون منهم. وقد حاول الدكتور مطهري - الاثنا عشري المعاصر - أن يتكئ على العلم الحديث للوصول إلى صحة هذا الدليل، فقرر أن « العلماء الغربيين يرون التلازم بين الاعتقاد بالله تعالى وبين كون العالم له أول وبداية، وأنه إن لم نعتقد بأن للعالم بداية فلا بد من إنكار وجود الله»^(٦).

ولكن هذا الدليل واجه مشكلة كبرى عندما اعتقد بعض الفلاسفة قدم العالم، وعكسوا القضية، وجعلوا من لوازم التوحيد: الاعتقاد بعدم كون العالم حادثاً وأن له بداية، بل العالم قديم لا أول له!^(٧)

(١) د. مطهري: التوحيد (ص ١٥٨، ١٥٩).

(٢) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٨٥ - ١٨٧).

(٣) سعيد بن أحمد الأندلي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق (ص ١٠٥). وعزا الدليل إلى الجويني: الإرشاد (ص ٢٠١)، والغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد (ص ١٣) وما بعدها.

(٤) عضد الدين الإيجي: المواقف (٧/٣، ٨).

(٥) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٩، ٢٠). وقد ذكر أنه قد استخدمه القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة، الشهرستاني في نهاية الإقدام، والباقلاني في التمهيد، والغزالي في قواعد العقائد، وفخر الدين الرازي.

(٦) د. مطهري: التوحيد (ص ١٦٠).

(٧) المرجع السابق (ص ١٥٨، ١٥٩).

فقد « ذهب جميع الحكماء والفلاسفة أمثال ابن سينا والفارابي والخواجة نصير الدين الطوسي وصدر المتألهين إلى عدم تناهي العالم في القدم »^(١). ويستشهدون بما ورد في الدعاء: « يا عظيم المن!.. يا قديم الإحسان »^(٢).

ومن الواضح أن هذا الدعاء - لو ثبت - لا يدل على قدم العالم؛ لأن استخدام لفظ القديم فيه لا يقتضي أن يكون قد جرى على مصطلح المتكلمين؛ فالقديم في اللغة ليس محصوراً بعدم البداية وعدم افتتاح الوجود، بل يطلق على ما كان سابقاً لغيره. فقد قص القرآن قول أهل يعقوب له: ﴿ قَالُوا تَأَلَّهَ إِنَّكَ لَنِي ضَلَّلِكَ الْفَكْدِيرِ ﴾ [يوسف: ٩٥]. وقال تعالى: ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴾ [يس: ٣٩] أي مثل عذق النخلة اليابس^(٣)، وقال: ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَمَسِيحُونَهُ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ [الأحقاف: ١١] « أي: كذب قديم، أي مأثور عن الناس الأقدمين »^(٤).

كما استدلوا على القول بقدم العالم بأن « الله تعالى قديم لا نهاية له؛ فلا بد أن يكون خلقه مثله في القدم. فما دام الله موجوداً فهو لا يزال خالقاً؛ لأن لازم قول المتكلمين بالحدوث هو أن الله تعالى محدود من جهة الخلق، لكن ذاته المقدسة غير محدودة فهو تعالى ذاتاً وفعلاً غير محدود، فلا بد أن يكون العالم غير محدود أولاً وآخرًا »^(٥).

ويرى الدكتور مطهري أنه « لا فرق في نظر القرآن بين أن يكون العالم محدوداً بزمان، كأن يكون مخلوقاً قبل مليون سنة، وبين أن يكون غير محدود، فإن الله في نظر القرآن كان خالقاً في المليون عام وقبله وبعده »^(٦).

ويجدر التنبيه إلى أن إشكالية الحديث عن قدم المخلوقات أو حدوثها وعلاقتها بقدم الصفات الإلهية - فشت في الوسط الإسلامي وتغلغت حتى استدعت رد العلماء عليها؛ فالطحاوي في أواخر القرن الثالث وبداية الرابع الهجري رد على هذه الإشكالية فقال

(١) مطهري: التوحيد (ص ١٦٠).

(٢) رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاوس (ت ٦٦٤هـ): إقبال الأعمال (١/١٦٠)، (ط ١٤١٤) مكتب الإعلام الإسلامي. وأورده النووي في كتابه (الأذكار) في باب الدعاء والتضرع والتكبير عند القتال بلفظ: « يا قديم الإحسان يا من إحسانه فوق كل إحسان يا مالك الدنيا والآخرة يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام... » (ص ٢١١)، ط. دار الفكر.

(٣) تفسير الطبري (١٠/٤٤١).

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤/١٩٨).

(٥) مطهري: التوحيد (ص ١٥٨، ١٥٩).

(٦) المرجع السابق (ص ١٦١).

عن الرب سبحانه: « له معنى الرب ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيا استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم »^(١)، وذلك إشارة إلى ثبوت صفاته تعالى في الأزل قبل خلقه^(٢)، ومقتضى كلامه اعتقاد حدوث المخلوقات، لا قدمها.

والحقيقة أن دليل حدوث العالم وتناهيه دليل شائك حزن، صعب المنال لبسطاء الناس؛ لأن الاستدلال به يبني على عدة مقدمات، « وقد كلف هذا الاستدلال أصحابه جهدًا كبيرًا؛ إذ يلزمهم أن يطيلوا البحث في صفات الجوهر، ذلك الجزء الذي لا يتجزأ، أو في إثبات الأعراض وأنها حادثة، وأن العرض لا يقوم بعرض مثله، ولا يقوم بنفسه، وأنه من المستحيل أن تعرى الجواهر عن الأعراض، كل ذلك ليتم لهم إثبات حدوث العالم بكل ما فيه »^(٣).

وهكذا صار هذا الدليل مشوشًا أكثر منه مقتنًا، وطمعت البشرية بالسلامة من هذا الدليل؛ حيث سبب تشويشًا وقلقًا بدل أن يورث وضوحًا واطمئنانًا.

وبسبب هذا اللغظ بين المتكلمين والفلاسفة حول القول بقدم العالم أو حدوثه جاء من العلماء من أنكر على المتكلمين استدلالهم بحدوث العالم بعده دليلًا على وجود الله ﷻ كابن رشد وابن تيمية.

وقد رأوا أنه مستمد من دليل (الجوهر الفرد)، والحقيقة أن القول « بأن الأجسام مركبة من الجواهر المنفردة قول لا يعرف عن أحد من أئمة المسلمين، لا من الصحابة ولا التابعين لهم بإحسان ولا من بعدهم من الأئمة المعروفين »^(٤)، بل هو مأخوذ من « نظرية إغريقية استخدمها ديمقريطس لإثبات قدم العالم ولإنكار وجود الله »^(٥)!

فهل يُقبل من المتكلمين - وهم يحملون لواء الدفاع عن العقائد الإيمانية - أن يعتمدوا في برهنتهم على أعظم حقيقة في الوجود وأوضحها - وهي وجود الله تعالى -

(١) الطحاوية مع شرحها (ص ١٤٢)، المكتب الإسلامي (١٣٩١ هـ)، بيروت (ط ٤) .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٢) .

(٣) سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق (ص ١٠٥) .

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٣٨/٢، ١٣٩) .

(٥) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٢) . وانظر: ابن تيمية:

منهاج السنة النبوية (١٧٧/١) مؤسسة قرطبة (١٤٠٦ هـ) تحقيق د. محمد رشاد سالم.

على « نظرية يونانية مشكوك فيها، وهي في الوقت ذاته مؤدّية عند أصحابها إلى قدم العالم، لا إلى حدوثه كما أراد المتكلمون »!؟^(١).

٣ - دليل الحركة:

اعتمده أرسطو في إثبات الواجب، فالعالم يتحرك ولا بد له من محرّك، ثم أخذه ابن رشد عن أرسطو، ولكن لم يقل مثله أن حركة الأفلاك قديمة^(٢).

واعتمده من الاثني عشرية صدر المتألهين الشيرازي وتابعه الدكتور مطهري والشيخ الخنزي، حين أكّدا على أن في كل « شيء يتصور الإنسان أنه ثابت وقارّ حركة وتغيرًا مستمرًا »^(٣). في حين أن « الموجد الأول لا يتغير؛ إذ التغير أكبر دليل على الإمكان، وهو واجب الوجود »^(٤).

وقد ذكر ابن تيمية انتقاد بعض فلاسفة المسلمين لدليل أرسطو هذا قائلاً: « فلما رأى ابن سينا وأمثاله من المتأخرين ما فيها من الضلال؛ عدلوا إلى طريقة الوجود والوجود والإمكان »^(٥)، وبيّن مخاطر هذا الدليل بقوله: « ولكن الاستدلال على ذلك بالطريقة الجهمية المعتزلية طريقة الأعراض والحركة والسكون التي مبنها على أن الأجسام محدثة لكونها لا تخلو عن الحوادث، وامتناع حوادث لا أول لها طريقة مبتدعة في الشرع باتفاق أهل العلم بالسنة، وطريقة مخطرة مخوفة في العقل، بل مذمومة عند طوائف كثيرة... والاستدلال بهذه الطريق أوجب نفي صفات الله القائمة به ونفي أفعاله القائمة به، وأوجبت من بدع الجهمية ما هو معروف عند سلف الأمة، وسلطت بذلك الدهرية على القدرح فيما جاءت به الرسل عن الله؛ فلا قامت بتقرير الدين، ولا قمعت أعداءه الملحدين »^(٦).

(١) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٢).

(٢) سعيد بن أحمد الأفندي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق (ص ١٠٧). وانظر:

د. محمود قاسم: ابن رشد وفلسفته الدينية (ص ٩٦، ٩٧)، (ط ٣) الأنجلو المصرية (١٩٦٩ م).

(٣) مطهري: التوحيد (ص ١٦٥).

(٤) أبو الحسن الخنزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٢١)، مؤسسة البلاغ - بيروت (١٤١٦ هـ /

١٩٩٦ م).

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١/٣٤٧، ٣٤٨).

(٦) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١/٣٠٣، ٣٠٤).

٤ - دليل العناية أو العلة الغائية:

والحقيقة أن هذا الدليل واضح سهل، و « نجده في الأديان كما نجده في الفلسفة »، وقد استدل به الفلاسفة والمتكلمون، و « ليس مقصورًا على الاثني عشرية وحدهم، وإنما شاركت فيه كل الفرق الإسلامية تقريبًا باعتبار أنه دليل القرآن »^(١). كما سنبين.

والملاحظ أن ما فعله الفلاسفة والمتكلمون في استدلالهم على وجود الله تعالى جاء بتهديب فلسفة اليونان، وصبغها بالطابع الإسلامي، ولو جئنا إلى فلاسفة اليونان أنفسهم؛ لما وافقوا المسلمين في تصورهم للخالق جل في علاه، ولما وافقوهم حتى في بعض أجزاء الأدلة التي استمدها الفلاسفة والمتكلمون المسلمون منهم. و « لو أمعنا النظر في عصر الصحابة والتابعين؛ لما وجدنا هناك إشارة إلى استعمال هذه الطريقة، وإنما هي مبتدعة في الإسلام بعد المائة الأولى للهجرة »^(٢).

ذلك أن من الناس من لم يقنع بأدلة القرآن وتطلع إلى أقوال الفلاسفة والمتكلمين؛ ولذلك « لم يكذب ينقضني الصدر الأول من حياة الصحابة حتى ظهر بين الناس الجدل والمراء وتشويش عقائد المسلمين »^(٣)، فأولع بعض الناس بكلام « الفلاسفة بما نقل إليهم من آراء ومفاهيم إنسانية... وغلوا فيها، وربما ذهبوا إلى القول بعصمتها »؛ فالحكمة اليونانية عند « الفارابي سبيل الهدى والرشاد، وعند ابن سينا متلقاة من أرباب الملة الإلهية، وعند السجستاني مولدة الديانة... وهم يشترطون على الرسول أن يكون عارفًا لغة الفلاسفة واصطلاحاتهم ومرموزاتهم »^(٤)، ويقول ابن سينا: « فالملشترط على النبي أن يكون كلامه رمزًا وألفاظه إيماءً »^(٥)؛ ذلك لأن « جلة الفلاسفة كانوا يستعملون في كتبهم المراميز والإشارات التي حشوا بها أسرارهم »^(٦).

(١) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٤).

(٢) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٨٨، ١٨٩)، وانظر: مجموعة شذرات البلانين (ص ٤)، ط. أنصار السنة المحمدية (١٩٥٦م)، تحقيق محمد حامد الفقي.

(٣) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٧٩). وانظر: مفتاح السعادة لطاش زاده (٣٢/٢).

(٤) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١١٨). كما ذكر هذا إخوان الصفا في رسائلهم (١٢٤/٤) دار صادر - بيروت (١٩٥٧م).

(٥) تسع رسائل لابن سينا (ص ٨٤).

(٦) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١١٩) عن تسع رسائل لابن سينا (ص ٨٩).

والسؤال الذي يُوجّه إلى الفلاسفة والمتكلمين في أدلتهم الموعلة في الغموض: هل اتفقت معشر الفلاسفة والمتكلمين على دليل واحد لوجود الله؟ الجواب النفي؛ لأن مناهج الفلاسفة متعددة المآخذ، ومن هنا اختلفوا في عرض الأدلة، فما رضىه أحدهم رفضه الآخر؛ « إذ ليس للفلاسفة مذهب معين ينصرونه ولا قول يتفقون عليه في الإلهيات والمعاد والنبوات والشرائع »^(١). فكل الأدلة التي ساقها الفلاسفة والمتكلمون بعيداً عن القرآن هي محل أخذ وردّ، وتمحيص ونقد، أما الأدلة القرآنية فقد اتفقت عليها العقول واطمأنت إليها القلوب.

لأجل هذا كانت أدلة الفلاسفة على وجود الله محل نقد من عدد من العلماء، ومن أشهرهم: أبو الحسن الأشعري في (جواب رسالته لأهل الثغر). وابن رشد الفيلسوف الخبير بمسالك الفلاسفة، وكذلك ابن تيمية صاحب الحجاج الطويل مع الفلاسفة والمتكلمين، وابن الوزير اليميني^(٢) وسعيد النورسي في كتابه (التوحيد)، وغيرهم؛ فقد قالوا عن طريقة الفلاسفة: إنها « طريقة معنضة شائكة، وليس في استطاعة عامة الناس تقبلها، وقد يتبن الأشعري في رسالته إلى أهل الثغر بأن هذه الطريقة بدعة محرمة في دين الأنبياء »^(٣).

وقد يتبن أبو الحسن الأشعري أن السلف الصالح بعد إيقانهم بصدق النبي ﷺ جهدوا في: « التمسك بالكتاب والسنة، وطلب الحق في سائر ما دعوا إلى معرفته منها، والعدول عن كل ما خالفها ». وأنهم « أعرضوا عما صارت إليه الفلاسفة ومن اتبعهم من القدرية وغيرهم من أهل البدع من الاستدلال بذلك على ما كلفوا معرفته؛ لاستغنائهم بالأدلة الواضحة في ذلك عنه »^(٤).

ويتبن أن ترك الفلاسفة للدلالات الواضحة على وجود الله كدليل حدوث العالم،

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٣٥٧/١، ٣٥٨).

(٢) انظر: سعيد بن أحمد الأندلي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، ضمن الرسائل الجامعية في كلية دار العلوم، بإشراف الأستاذ الدكتور سيد رزق الحجر (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)، وكتاب البرهان الساطع طبع المطبعة السلفية مصر (١٣٤٩هـ)، ودار المأمون للتراث - دمشق (ص ٥١ - ٥٣).

(٣) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٨٥ - ١٨٧).

(٤) الأشعري: جواب رسالة إلى أهل الثغر (ص ١٩٠، ١٩١)، مكتبة العلوم والحكم - دمشق الطبعة الأولى (١٩٨٨م) تحقيق: عبد الله شاكر محمد الجنيد.

وركونهم إلى الأدلة العويصة كدليل الأعراض والجواهر إنما كان بسبب إنكارهم بعثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فيقول: « وإنما صار من أثبت حدث العالم والمحدث له من الفلاسفة إلى الاستدلال بالأعراض والجواهر لدفعهم الرسل وإنكارهم لجواز مجيئهم »^(١).
 وقارن سعيد النورسي بين أسلوب القرآن الكريم وجملة أساليب المتكلمين والصوفية في الاستدلال على وجود الله تعالى، فوصل إلى نتيجة مهمة تقول: « إن المعرفة المستنبطة بدلائل علم الكلام ليست المعرفة الكاملة، ولا تورث الاطمئنان القلبي، في حين إذا جاءت على نهج القرآن المعجز؛ فإنها تصبح معرفة تامة، وتكسب الاطمئنان الكامل في القلب... وكما أن معرفة الله الناشئة عن علم الكلام تبدو ناقصة وقاصرة، وأن المعرفة عن طريق التصوف ناقصة ومبتورة بالنسبة نفسها أمام المعرفة المستقاة من القرآن الكريم مباشرة من قبل ورثة الأنبياء »^(٢).

ولكن الإنصاف يقتضي أن يقال: إن بعض أدلة الفلاسفة لو دققنا النظر فيها لوجدناها أدلة بديهية صحيحة، بل تعتمد على الأدلة القرآنية، كالأستدلال بتغير وموت المخلوقات وانعدامها، ناهيك عن حاجتها لموجد أوجدها ثم لمعدم أعدها؛ فهذا دليل قرآني واضح، ومن بابه قوله تعالى على لسان سيدنا إبراهيم: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦] .

كما رأى بعض العلماء أن في قوله تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾^(٣) أم خَلِقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ [الطور: ٣٥، ٣٦] إشارة إلى بعض الأدلة الفلسفية، وهي بطلان رجحان الشيء دون مرجح، وبطلان الدور والتسلسل^(٤) ولكن وضع هذا الدليل في قالب فلسفي معقد، واستخدام مصطلحات غريبة عن الحس الإسلامي (كالعرض والجوهر، والحركة، والإمكان والوجود، بطلان التسلسل والدور) - يجعل هذه الأدلة بعيدة عن الجو الإسلامي.

فإذا تأملنا في المصطلحات التي استخدمها الفلاسفة والمتكلمون في التدليل على وجود الله وجدنا أنها ألفاظ غريبة عن البيئة العربية والإسلامية؛ ولذلك كانت هذه الكلمات في لغة الفلاسفة والمتكلمين مصطلحات لا يفقهها إلا من درس الفلسفة والكلام، « كلفظ الجسم والجهة والممكن والواجب والحركة والحيز؛ فهذه كلها ألفاظ

(١) جواب رسالة إلى أهل الثغر (ص ١٩٠، ١٩١). (٢) سعيد النورسي: التوحيد (ص ١٢).

(٣) انظر: أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، كلية الشريعة (ص ٣).

استعملها العرب في معنى غير المعنى الذي استعملها فيه المتكلمون والفلاسفة»^(١). وقد رأينا - المتكلمين سنة وشيعة - يستخدمون مصطلحات الفلاسفة مكان المصطلحات الشرعية، مثل (أنه تعالى علة للموجودات)^(٢)، ولم يقولوا: (خالق المخلوقات)، فأرأوا أن «مفهوم الخالق الذي يتوصل إليه من خلال هذه العلاقة الوجودية مساوٍ للعلة الموجودة»^(٣)، وعبروا عن مفهوم (الخلق، والخالق، والمخلوق) الذي ورد في كتاب الله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢] بلفظ (الحدوث، والمحدث، والحادث)، فعندما قرؤوا قوله تعالى: ﴿.. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] قالوا: هذه الآية تثبت صفة (مخالفته تعالى للحوادث)، ولو قالوا: (مخالفته للمخلوقات) لوافقوا القرآن الكريم.

ونحن نعذر هؤلاء الفلاسفة في استخدامهم هذه المصطلحات في جوّ عاشوه، فاضطروا لاستخدام هذه المصطلحات في الرد على مخالفي التوحيد، وفي الحجاج والدفاع عن العقيدة، ولكن لا عذر لنا - وقد اختلف الزمان وتغيرت الأجواء والظروف - في أن نكتب على مصطلحاتهم، ونعرض عن مصطلحات القرآن.

ولذلك ظهر من علماء الشيعة الاثني عشرية - كما ظهر من قبل من علماء أهل السنة - من انتقد أدلة الفلاسفة والمتكلمين، ورجح أدلة القرآن الكريم؛ فهذا عبد الله شبر (ت ١٢٤٢هـ): يعرض عن أدلة المتكلمين والفلاسفة، ويسرد أدلة وجود الله تعالى من خلال القرآن الكريم وأقوال النبي ﷺ وأئمة الاثني عشرية، ثم يقول: «لا يجب على عامة الناس معرفة أصول الدين بالدلائل التفصيلية وترتيب الأشكال المنطقية، وإنما يجب كفايةً لدفع شبه الكفار والمعاندين... ولذا ورد (عليكم بإيمان العجائز) وبدين الأعرابي حيث قال: (البعرة تدل على البعير، والروثة تدل على الحمير، وآثار القدم تدل على المسير، فهيكلك علوي بهذه اللطافة، ومركز سفلي بهذه الكثافة - كيف لا يدلّان على اللطيف الخبير؟!)^(٤).. ولذا ترى أن من اكتفوا بالدلائل الإجمالية ولم يعرفوا

(١) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (١٨٨، ١٨٩) وانظر: مجموعة شذرات البلايين (ص ٤).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٨٥).

(٣) المرجع السابق (ص ٩٩).

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (٣/٥٤)، عبد الله شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٧٢/٢). وقد روت كتب أهل السنة هذا المعنى عن أحد الأعراب، انظر: ابن الجوزي (٥٩٧هـ): زاد =

التسلسل ولا اصطلاحات المتكلمين والمنطقيين أكمل إيمانًا وأثبت جناحًا وأشد اعتقادًا ممن يخوضون في ذلك»^(١).

أدلة وجود الله تعالى في القرآن الكريم وروايات أهل البيت:

يرى الكاتب مرتضى المطهري أن «الطرق التي يمكن إثبات الوجود فيها لله تعالى ثلاثة... الأول: منها الطريق الفطري أو النفسي القلبي، والثاني: الطرق الحسية أو العلمية وشبه الفلسفية، والثالث: الطرق الفلسفية»^(٢). ويبين أن «خصوصية القرآن التي يمتاز بها هو كونه كتابًا سماويًا جامعيًا؛ فهو في هذا المجال لم يسلك طريقًا واحدًا، بل سلك طرقًا متعددة؛ أحدها هو هذا الطريق الذي سلكه العرفاء في كتبهم»^(٣).

«إن القرآن الكريم في الوقت الذي يتكلم فيه بلغة العرفاء من الطراز الأول فيقول: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ...﴾ [الحديد: ٣]، ويقول: ﴿فَأَيْنَمَا تُولَؤُوا فَتَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٥]، ويقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] و﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]؛ فتراه يتكلم بلغة العوام التي يفهمها الراعي وأمثاله، فيدل العباد على معرفة الله بكلام سلس وأمي فيقول: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية: ١٧]؛ وبذلك وأمثاله يظهر شأن القرآن وعلو منزلته»^(٤).

وقد كثر الاستدلال على وجود الله تعالى اعتمادًا على المسلك القرآني عند متأخري الشيعة^(٥).

وهو يرتكز على النظر والتفكير في عالم الآفاق والأنفس؛ فقد جاءت آيات القرآن الكريم لتدل الناس على الله تعالى بتحفيز فطرتهم وعقولهم للوصول إلى الإيمان بالله تعالى، وأنه وحده الخالق الرازق، المستحق للعبادة والطاعة.

= المسير (١/٣٦٢)، العصد الإيجي (٧٥٦هـ): المواقف في علم الكلام (١/١٥١)، دار الجيل - بيروت (١ ط)، (١٩٩٧م)، تحقيق: د. عبد الرحمن عميرة.
 (١) عبد الله شبر (ت ١٢٤٢هـ): حق اليقين في معرفة أصول الدين (٢/٥٧٢).
 (٢) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ٦١)، ترجمة إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، ودار الرسول الأكرم (١٤١٨هـ / ١٩٩٨م).
 (٣) المرجع السابق (ص ٥٣، ٥٤).
 (٤) المرجع السابق (ص ٥٧).
 (٥) انظر: آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٣٩ - ٤١).

دليل الفطرة:

لقد خاطب القرآن الكريم الفطرة والعاطفة البشرية، وبين أن نفوس البشر مجبولة على الإيمان بالخالق الذي أقوت له بالوحدانية من عالم الذر، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، وقال: ﴿ .. فَطَرْتَنَّا اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيَّهَا لَا بَدِيلَ لِمَا يَخْلُقُ اللَّهُ ذَلِكَ الَّذِي يُقِيمُ وَاللَّيْلُ وَالنَّجْمُ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

سأل زرارة أبا جعفر الباقر عن قول الله ﷻ: ﴿ حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ﴾ [الحج: ٣١]؟ فقال: « الحنيفية من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، قال: فطرهم على المعرفة به » قال زرارة: وسألته عن قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال: « أخرج من ظهر آدم ذريته إلى يوم القيامة فخرجوا كالذر فعرفهم وأراهم نفسه، ولولا ذلك لم يعرف أحد ربه » (١). « فالآية تريد بيان أنه تعالى سأل بلسان التكوين من بني آدم قبل أن يكونوا نطقاً وقبل أن يستقروا في الأرحام: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾؟ [الأعراف: ١٧٢]، وكان ذلك في مرحلة الاستعداد والقوة وفي مرحلة ما قبل أن يكونوا نطقاً في الأرحام، فأجاب الجميع بذلك اللسان: ﴿ بَلَىٰ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] » (٢).

أما تفسير الأئمة لقول النبي ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة » فإنه « يعني المعرفة بأن الله ﷻ خالقه، كذلك قوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴾ [لقمان: ٢٥] » (٣).

ومن الآيات الموقظة للفطرة البشرية السليمة قوله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ؕ وَاللَّهُ خَبِيرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ

(١) أصول الكافي (١٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد قال محققه: الحديث حسن.

(٢) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ٥٥).

(٣) أصول الكافي (١٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد قال محققه: الحديث حسن. وقد روت هذا الحديث كتب حديث أهل السنة؛ فقد أخرج البخاري في كتاب التفسير، باب سورة الروم رقم (٤٤٩٧) قال ﷺ: « ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه ».

لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَهُمْ قَوْمٌ يَعِدُونَ ﴿١٦﴾ أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خَلْقَهَا أَنْهْرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ لَكُمْ لَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ أَمْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَدْكُرُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتٍ أَلْوَىٰ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ تَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ أَمْ يَدْعُوا الْخَلْقَ نَدًّا يُعِيدُهُمْ وَمَنْ يَرْفُكُهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ قَوْلٌ حَاسِتًا يُرْهِنُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٠﴾ [النمل: ٥٩ - ٦٤].

ودليل الفطرة يتميز بأنه مجمع عليه ولا خلاف في صحته، فينتصر له القرآن والسنة والعلماء جميعاً سنة وشيعة، ويعتمد عليه الصوفية؛ لارتباطه بالاطمئنان القلبي (١). كما يذكره الشيعة في رواياتهم عن أئمة أهل البيت. ويراه ابن الوزير الزيدي اليميني أقوى دليل؛ ولذلك كان تعجب الرسل من كفر أقوامهم؛ لأن هذا الكفر معاند للفطرة السليمة التي غرسها الله تعالى في القلوب، قال تعالى: ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَأَطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠] (٢).

ولذلك استخدمه الإمام الصادق عندما سأله سائل عن دليل وجود الله تعالى: فقال له: « يا عبد الله! هل ركبت السفينة قط؟ قال: نعم، قال: فهل تعلق قلبك هنالك أن شيئاً من الأشياء قادر على أن يخلصك من ورطتك؟ قال: نعم، قال الصادق: فذلك الشيء هو القادر على الإنجاء حيث لا منجى، وعلى الإغاثة حيث لا مغيث » (٣). وهكذا أظهر الإمام بواعث الفطرة السليمة في قلب السائل، تلك الفطرة التي تجعله يلجأ في الملمات إلى ربه ﷻ، وهذا دليل أكثر القرآن من التنبيه إليه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ فَلَمَّا جَنَّكُمُ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء: ٦٧].

ومن خصائص هذا الدليل سهولته ويسره، فهو كما يقول محمد تقي مصباح اليزدي -

(١) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٣٤ - ٣٦).

(٢) سعيد بن أحمد الأفتدي: قواعد المهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (١١٢)، ترجيح أساليب القرآن (ص ٤٥).

(٣) الصدوق: كتاب التوحيد (ص ٢٣١)، جماعة المدرسين، قم، بحار الأنوار (٤١/٣)، نعمة الله الجزائري: نور البراهين (٦/٢).

الاثنا عشري المعاصر - : « لا يحتاج إلى مقدمات صعبة معقدة وفنية، ويمكن عرضه بأسلوب ميسر واضح في هذا المجال، ومن هنا يمكن لجميع الناس على اختلاف مستوياتهم الثقافية فهمه واستيعابه... إن مهمة هذا الطريق ودوره - قبل كل شيء - هو إيقاظ الفطرة، والأخذ بيد المعرفة الفطرية إلى عالم الوعي والشعور... ومن أجل هذه الخصائص والميزات اختار قادة الدين ورؤاد الأديان السماوية هذا الدليل لعرضه على الناس، ودعوا الجميع إلى السعي في هذا السبيل، وخصوا بعض أتباعهم الخواص بأدلة أخرى أو استخدموها في احتجاجاتهم وحوارهم مع العلماء الملحدون أو الفلاسفة الماديين » (١).

إن هذا الدليل إذا ترسخ في النفس المؤمنة؛ ارتقت في معارج المعرفة واليقين، حتى صارت تعرف بارتها بيارتها، فلا تحتاج إلى أي دليل خارجي، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: « اعرفوا الله بالله، والرسول بالرسالة » (٢).

وعن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « إني ناظرت قومًا فقلت لهم: إنَّ الله ﷻ أَجَلٌّ وَأَعَزٌّ وَأَكْرَمٌ مِنْ أَنْ يَعْرِفَ بِخَلْقِهِ، بَلِ الْعِبَادُ يَعْرِفُونَ بِاللَّهِ. فَقَالَ: رَحِمَكَ اللَّهُ » (٣). وعن إبراهيم بن عمر قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « إنَّ أَمْرَ اللَّهِ كُلَّهُ عَجِيبٌ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ احْتَجَّ عَلَيْكُمْ بِمَا قَدْ عَرَفْتُمْ مِنْ نَفْسِهِ » (٤).

دليل الخلق أو الاختراع أو السببية:

كما حفز القرآن الكريم العقول إلى الوصول إلى معرفة الخالق، عبر دلالة الخلق على وجود الخالق، وهو المسمى بدليل (الخلق أو الاختراع أو السببية)، فقد نادى العقول بسؤالها: من الذي خلق الإنسان، هل خلق نفسه بنفسه، أم خلق من غير خالق؟ وكلاهما محال في العقول البشرية بدهاءة، قال تعالى: ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ [الطور: ٣٥، ٣٦]. وقد ذكرنا أن من العلماء من يرى أن هذه الآية فيها إشارة إلى بعض الأدلة الفلسفية، وهي بطلان رجحان الشيء دون

(١) محمد تقي مصباح البيدي: دروس في العقيدة (ص ٦٤، ٦٥).

(٢) أصول الكافي (١/١٤٠)، كتاب التوحيد، باب أنه لا يعرف إلا به.

(٣) أصول الكافي (١/١٤٠، ١٤١)، كتاب التوحيد، باب أنه لا يعرف إلا به. وانظر رواية أخرى: أصول

الكافي (١/١٨٣)، كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة (١/٢٢٢).

(٤) أصول الكافي (١/١٤١)، كتاب التوحيد، باب أدنى المعرفة.

مرجح، وبطلان الدور والتسلسل^(١). ولكن القرآن الكريم عرض هذه الأدلة في بساطتها وسهولتها دون أن يستخدم مصطلحات فلسفية، ثم إنه تحدث عنها مشيرًا إلى المحسوسات (خلق الإنسان، خلق السماوات)، لا إلى المجردات الذهنية كدأب الفلاسفة.

فالقرآن الكريم أمر البشر بالنظر في الآفاق والأنفس، وتأمل ما « يتجدد في العالم في طلوع القمرين والكواكب وغروبها عند دوران الأفلاك الدائرات، والسفن الجاريات، والرياح الداريات، والنجوم الثابت منها... كما يدل على ذلك حركة القمرين الدائمة وسائر النجوم والأفلاك، وكذلك تغير أحوال الهواء بالغيوم والصواعق والبروق العجيبة المتتابعة المختلطة بالغيوم الثقيل الحاملة للماء الكثير المطفى بطبعه للنار المضادة له، وما في الجمع بينها وإنشائها وإنزال الأمطار منها بالحكمة البالغة »^(٢). فإن هذا التأمل يوصل البشر إلى الإيمان، ولا يكلفهم عناء البحث في المجردات الذهنية.

قال تعالى: ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، وقال: ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

وهذا الدليل (دليل الخلق أو الاختراع، أو السببية) استخدمته كل الطوائف^(٣). وهو في الأصل دليل قرآني نير واضح. قال ابن الوزير اليميني - الزيدي -: « فإننا نعلم بالضرورة وجودنا أحياء قادرين عالمين ناطقين، بعد أن لم نكن شيئًا، وأن أول وجودنا كان نطفة قدرة مستوية الأجزاء الطبيعية غاية الاستواء، بحيث يمتنع في عقل كل عاقل أن يكون منها بغير صانع حكيم ما يختلف أجناسًا وأنواعًا وأشخاصًا »^(٤).

وجاء في حوار عبد الكريم الملحد لجعفر الصادق: « قال الرجل: فما الدليل عليه؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إني لما نظرت إلى جسدي ولم يمكّني فيه زيادة ولا نقصان في العرض والطول ودفع المكاره عنه وجرّ المنفعة إليه؛ علمت أنّ لهذا البنيان بانيًا فأقررت به

(١) أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي: العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، ط. كلية الشريعة، وانظر: كبرى اليقينيّات الكونية.

(٢) ابن الوزير: إثمار الحق (ص ٤٩ - ٥١)، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثانية (١٩٨٧ م) وانظر: ترجيح أساليب القرآن (ص ١١٠).

(٣) انظر: ابن تيمية: بيان تلبيس (١٧٤/١)، ومناهج الأدلة (١٥٣، ١٥٤).

(٤) ابن الوزير اليميني: إثمار الحق على الخلق (ص ٤٦).

مع ما أرى من دوران الفلك بقدرته وإنشاء السحاب وتصريف الرياح ومجرى الشمس والقمر والنجوم، وغير ذلك من الآيات العجيبات المبيّنة علمت أنّ لهذا مقدراً ومنشأً» (١).

فدليل خلق الخلق دليل قرآني واضح غير معقد، أكثر الأئمة من الاعتماد عليه في نقاشهم للملاحدة والزنادقة، فقد « قال هشام: فكان من سؤال الزنديق أن قال: فما الدليل عليه؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: وجود الأفاعيل دلّت على أنّ صانعا صنعها، ألا ترى أنّك إذا نظرت إلى بناءٍ مشيدٍ مبنيٍّ علمت أنّ له بانئا، وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده» (٢).

دليل الإتيان والعناية:

ومن وسائل القرآن في الاستدلال على وجود الله تعالى لفت النظر إلى حقيقة (الإتيان والعناية) في الكون؛ حيث أكد أن وجود الصنعة الرائعة دليل على وجود الصانع فقال: ﴿ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَأَرْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۗ ثُمَّ انْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۗ ﴾ [الملك: ٣، ٤] .

وقد استخدم هذا الدليل القرآني الفلاسفة - كالفارابي (٣) - والمتكلمون، كما ذكر هذا الدليل المفسر الشيعي (صدر المتألهين الشيرازي) (٤) .. وتنبه لهذا الدليل الإمام جعفر الصادق عندما ناقش الديصاني الملحد، فقال أبو عبد الله عليه السلام: « ناولني يا غلام! البيضة. فناوله إيّاها، فقال له أبو عبد الله عليه السلام: يا ديصاني! هذا حصنٌ مكنونٌ له جلدٌ غليظٌ، وتحت الجلد الغليظ جلدٌ رقيقٌ، وتحت الجلد الرقيق ذهبٌ مائةٌ وفضةٌ ذائبةٌ، فلا الذهب المائة تختلط بالفضة الذائبة، ولا الفضة الذائبة تختلط بالذهب المائة، فهي على حالها لم يخرج منها خارجٌ مصلحٌ فيخبر عن صلاحها، ولا دخل فيها مفسدٌ فيخبر عن فسادها، لا يدري للذكر خلقت أم للأُنثى، تنفلق عن مثل ألوان الطّواويس، أترى لها مدبراً؟ قال: فأطرق ملياً ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنك إمامٌ وحجّةٌ من الله على خلقه، وأنا تائبٌ بما كنت فيه» (٥).

(١) أصول الكافي (١٣٤/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٢) أصول الكافي (١٣٦/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٣) انظر: د. بكار حاج جاسم: الأثر الفلسفي في التفسير (ص ١٠٥)، رسالة دكتوراه دار العلوم، وانظر الثمرة المرضية (كتاب الجمع بين آراء الحكيمين) (ص ٢٩).

(٤) صدر المتألهين الشيرازي (ت ١٠٥٠ هـ): تفسير القرآن الكريم (٨٣/٥)، (٣٣٥/٧).

(٥) الكليني: أصول الكافي: كتاب التوحيد، باب حدوث العالم، وإثبات المحدث، وانظر: ا.د. السنهوتي:

التنزيه والتشبيه عند الشيعة الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

« إن النظم الدقيق في الكون أمر متفق عليه بين الناس مؤمنهم وكافرهم، ولكن الفرق بين الملحد والموحد هو أن الملحد يتحدث عن النظم في الكون، والموحد يتحدث عن الناظم له.. الأول ينسب الأفعال إلى الفاعل بصيغة المجهول، والثاني ينسبها إلى الفاعل بصيغة المعلوم فيقول: الله فعل ذلك » (١).

دليل الهداية:

كما ورد في القرآن الاستدلال على الخالق بهداية المخلوقات إلى ما يصلحها (دليل الهداية)، فإن في هداية المخلوقات وإرشادها إلى ما يصلحها أكبر دليل على وجود الخالق، وقد استخدمه موسى عليه السلام في دعوته لفرعون: ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى ﴿ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. والصدوق من أقدم من ذكره من علماء الاثني عشرية، كما ورد في كتابه التوحيد (٢)، وقد أشاد به ابن رشد في (مناهج الأدلة) (٣). لقد « سئل الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى: ﴿ الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠] قال: ليس شيء من خلق الله إلا وهو يعرف من شكله الذكر من الأنثى. قيل: ما يعني: ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ [طه: ٥٠]، قال: ثم هداه للنكاح والسفاح من شكله » (٤). والحقيقة أن ما ذكر عن الصادق في هذا التفسير إنما هو من باب التمثيل لا الحصر؛ فالهداية للكائنات بتسييرها إلى ما فيه صلاحها، مادياً ومعنوياً.

وعلى سبيل المثال: فقد امتن الله تعالى على البشر بهداية الأخلاق فقال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ [البلد: ١٠]، يقول مطهري: « هناك أنواع عديدة من الهداية والإلهام في الإنسان أحدها الهداية في الأخلاق... فالإنسان بفطرته يعرف أن جزاء الإحسان هو الإحسان... قال تعالى: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿ فَأَلَمَهَا جُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] » (٥). فمن الذي علّم النحل بناء الخلايا بهذا الشكل الهندسي البديع؟ ومن الذي هدى الرضيع إلى ثدي أمه بمجرد ولادته؟ تقول إحدى الروايات: « ألا ترى أنك إذا نظرت إلى بناءٍ مشيدٍ مبنيٍّ علمت أنّ له بانياً وإن كنت لم تر الباني ولم تشاهده » (٦).

(١) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ٧٣، ٧٤). (٢) التوحيد (ص ٢٢٧).

(٣) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٢٩، ٣٠).

(٤) الحر العاملي: الفصول المهمة (٣٣٩/٢) مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا قم (١٤١٨هـ).

(٥) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ١٣٦، ١٣٧).

(٦) أصول الكافي (١٣٦/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

ولعل من الجدير بالذكر أن ابن رشد الذي انتقد أدلة إخوانه من الفلاسفة قد ارتضى من الأدلة الدالة على الله تعالى طريقين: « أحدهما: طريق الوقوف على العناية بالإنسان وخلق جميع الموجودات من أجله، ولنسم هذا: (دليل العناية)، والثاني: ما يظهر من اختراع الأشياء الموجودات مثل اختراع الحياة في الجماد والإدراكات الحسية والعقلية، ولنسم هذا: (دليل الاختراع) »^(١). وهما دليلان قرآنيان كما رأينا.

ويشير مرتضى مطهري إلى هذا الدليل - ملازمًا لدليل الخلق - في قول الله تعالى: ﴿ قَالَ رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠] وقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسْوَىٰ ۙ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾ [الأعلى: ٢، ٣] وقوله: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨] يجمع بين (دليل الخلق) و (دليل الهداية)^(٢).

وما دمنا نتحدث عن دليل هداية الله للخلق ليعرفوه؛ يتبادر للذهن إشكال حول عوام البشر أصحاب القدرات العقلية والمعرفية المحدودة، كيف يذمهم القرآن الكريم وهم تابعون في أفكارهم لغيرهم من المراجع الدينية والفكرية؟! قال تعالى: ﴿ وَمَنْهُمْ أُمَّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ أَلْكَتَبَ إِلَّا أَمَانِي وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [البقرة: ٧٨]، ويجب على هذا الإشكال مفهوم الهداية في الأخلاق؛ فقد ركز الله تعالى في نفوس العامة والخاصة أن من يكذب على الناس لن يصدق على الله تعالى، ومن كان خائنًا في أموال الناس يأكلها بالباطل فلن يكون أمينًا على رسالة السماء.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَجْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَآكُونُوا أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُفْقِفُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [التوبة: ٣٤]. في حين جاء وصف النبي ﷺ بالصادق الأمين قبل البعثة وبعدها.

« قال رجل للصادق عليه السلام: فإذا كان هؤلاء القوم من اليهود لا يعرفون الكتاب إلا بما يسمعون من علمائهم لا سبيل لهم إلى غيره؛ فكيف ذمهم بتقليدهم والقبول من علمائهم؟... قال عليه السلام: إن عوام اليهود كانوا قد عرفوا علماءهم بالكذب الصريح، وبأكل الحرام والرشاء، وبتغيير الأحكام عن واجبها بالشفاعات والعنايات والمصانعات، وعرفوهم بالتعصب الشديد الذي يفارقون به أديانهم، وأنهم إذا تعصبوا أزالوا حقوق من

(١) ابن رشد: مناهج الأدلة (ص ١٥٠، ١٥١).

(٢) مرتضى مطهري: التوحيد (ص ١١٠، ١١١).

تعصبوا عليه، وأعطوا ما لا يستحقه من تعصبوا له من أموال غيرهم، وظلموهم من أجلهم، وعرفوهم يقارفون المحرمات، واضطروا بمعارف قلوبهم إلى أن من فعل ما يفعلونه فهو فاسق لا يجوز أن يصدق على الله ولا على الوسائط بين الخلق وبين الله؛ فلذلك ذمهم لما قلّدوا من قد عرفوا ومن قد علموا أنه لا يجوز قبول خبره، ولا تصديقه في حكاياته، ولا العمل بما يؤديه إليهم عنمن لم يشاهده، ووجب عليهم النظر بأنفسهم في أمر رسول الله ﷺ؛ إذ كانت دلائله أوضح من أن تخفى، وأشهر من أن لا تظهر لهم» (١).

كما أن من أدلة وجود الله تعالى دليل التأليف بين المقترب والتفريق بين المتألف:

« وقد سبق المعتزلة إلى هذا الدليل أثناء مناقشتهم الثنوية المؤمنين بإلهي النور والظلمة، وأصله دليل قرآني، قال تعالى: ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقَدُونَ ﴾ [يس: ٨٠]، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْغَيْبِ وَالنَّوْمِ يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْأَرْحَامِ وَمُنْجِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥] » (٢).

دلالة المعجزات:

كما أوضح القرآن الكريم دلالة المعجزات على الله تعالى، وقد جاءت للتأكيد على صدق دعوى الأنبياء ﷺ الذين تحداهم الجاحدون وطالبوهم بالدليل على صدق النبوة، قائلين للرسول: ﴿ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ [الشعراء: ١٥٤]. فيأتي التغيير في عوائد الكون، وخرق ناموسه، ليشدّ العقول ويدعوها للتفكير في سبب هذا التغيير الذي لا قدرة للبشر عليه؛ كتحويل العصا الجامدة إلى ثعبان مبيّن، فهناك يخضع أصحاب العقول الحرة إلى الحق المبين؛ كسحرة فرعون الذين رأوا معجزة موسى ﷺ: ﴿ وَالْقِيَاسُ سَحْرَةُ سَاجِدِينَ ﴾ ﴿ قَالُوا أَمْ آتَىٰ رَبِّي الْأَعْلَامِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٠، ١٢١]. وقد استدلت بمعجزات الأنبياء معظم علماء الفرق الإسلامية على اختلاف مشاربهم؛ كالبيهقي وابن تيمية وابن القيم، وتوسع بها ابن الوزير اليميني، وأكثر من ذكرها الاثنا عشرية في كتبهم، بل إن المعتزلة - وقد اشتهروا بالحجج العقلية - استخدموها كغيرهم من طوائف المسلمين (٣).

وفي الصحيحين عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال: « ما من نبي من الأنبياء

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٨٧/٢)، باب النهي عن كتمان العلم.

(٢) ١. د. السنهوتى: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٣١).

(٣) انظر: مثلاً كتاب (دلائل تثبيت النبوة) للقاضي عبد الجبار المعتزلي.

إلا قد أعطي من الآيات ما آمن على مثله البشر» (١).

دليل عجز المخلوقات:

ومن الأدلة على وجود الله تعالى دليل العجز البشري عن إدارة النفس والكون؛ فقد يعزم المرء على أمر يخطط له فيصرفه عنه صارف، فمن الذي حال بين المرء وما يشتهي؟ إنه الرب الذي يجري الأقدار كيف يشاء على مقتضى حكمته ﷻ، فقد سئل أمير المؤمنين: «بماذا عرفت ربك؟ قال: بفسخ العزائم، ونقض العقود» (٢). وفي بعض الروايات: «لما هممت فحيل بيني وبين همتي، وعزمت فخالف القضاء والقدر عزمي، علمت أن المدبر غيري» (٣).

دليل التغيير والزوال في الكون:

لقد استدل إبراهيم عليه السلام بتغيير حالة الكواكب وتأثرها بما حولها على ضعفها وخلقها من العدم، قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٦].

وقد جاء في جدال الملحد ويسمى عبد الكريم الديصاني لجعفر الصادق عليه السلام: « فقال: ما الدليل على حدث الأجسام؟ فقال: إني ما وجدت شيئاً صغيراً ولا كبيراً إلا وإذا ضمَّ إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوالٌ وانتقالٌ عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال؛ لأنَّ الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخولٌ في الحدث، وفي كونه في الأزل دخوله في العدم. ولن تجتمع صفة الأزل والعدم والحدوث والقدم في شيءٍ واحدٍ » (٤).

وهذه الرواية تستخدم دليل التغيير في الكون، ولكنها تدل من حيث الصياغة على التأثير بأدلة الفلاسفة؛ إذ نلاحظ أن قول الإمام مركب من دليل الحركة والحدوث الذي ساقه الفلاسفة والمتكلمون، وأطلقنا الحديث عنه.

(١) صحيح البخاري، باب كيف نزول الوحي رقم (٦٨٤٦)، مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ رقم (١٥٢).

(٢) نهج البلاغة (٥٤/٤) العقود: أي عقد القلب: وهو النية.

(٣) أبو علي القتال النيسابوري (ت ٥٠٨ هـ): روضة الواعظين (ص ٣٠)، منشورات الشريف الرضي - قم، عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤).

(٤) أصول الكافي (١٣٣/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

وبهذا نستنتج أن الأدلة التي ساقتها روايات الشيعة عن الأئمة - رحمهم الله تعالى - جاءت بنت العصر الذي كانوا فيه، وخصوصًا عصر الإمام جعفر الصادق؛ فجاء بعضها على النسق القرآني والهدي النبوي السهل الواضح في الدلالة على الله ﷻ. كما جاء بعضها الآخر على نسق الفلاسفة وأهل صنعة الكلام كدليل الحدوث والتغير في الكون. دور علماء المسلمين (سنة وشيعة) في محاربة الإلحاد:

لقد كان لعلماء المسلمين من كل الطوائف دور كبير في محاربة الإلحاد، ومناقشة فلسفاته، وبيان العوامل الموصلة إليه، واشترك في هذا علماء السنة والشيعة على السواء^(١)، وخصوصًا في النصف الثاني من القرن العشرين؛ حيث طغت الفلسفة المادية الجدلية (الديالكتيكية)، وانتشر الإلحاد. وقد ردّ هؤلاء العلماء على شبه الملاحدة.

وأجاب هؤلاء العلماء عن سؤال مهم: ما دام الإيمان بالخالق فطريًا؛ فلماذا هذا الانتكاس في فطرة بعض البشر حتى وصلوا إلى إنكار الخالق العظيم، وحاربوا شرعه وأحدوا في أسمائه وصفاته؟ وبمعنى آخر: « أي الدوافع التي يمكن أن تدفع الفرد إلى اللادينية والإلحاد؟ ». يشير بعض الكتاب سنة وشيعة إلى عدة عوامل « تساهم جميعًا في تكوين حالة من التردد والشك أو الجحود والإلحاد »^(٢). وأهم هذه العوامل:

١ - العوامل النفسية:

وتتلخص في « الرغبة في الراحة والاسترخاء والكسل والميل إلى العيث والتحلل وعدم الشعور بالمسؤولية؛... لأن تقبل النظرة الإلهية والإيمان بالخالق الحكيم يعتبر منطلقًا لمجموعة من المعتقدات الأخرى تفرض على الإنسان الشعور بالمسؤولية في جميع ممارساته وأفعاله الاختيارية، وهذه المسؤولية تفرض على الإنسان في كثير من المواقف والمجالات التنكّر لرغباته، والالتزام ببعض الضوابط، ولا يتلاءم الالتزام بهذه الضوابط مع الرغبة بالتحلل؛ ومن هنا تكون هذه الرغبة الحيوانية - وإن كانت بصورة لا شعورية - سببًا في

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٣١ - ١٤١) وعلى سبيل المثال لليزدي: (الرؤية الكونية المادية عرض ونقد) و (المادية الديالكتيكية عرض ونقد). كما كان لعلماء السنة دورهم الكبير في هذا وعلى سبيل المثال: بعض كتابات الأستاذ الدكتور محمود قاسم والدكتور محمد البهي والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي في كتابه (نقض أوهام المادية الجدلية) والأستاذ عبد الرحمن حبنكة (صراع مع الملاحدة حتى العظم)، وغيرهم من علماء المسلمين.

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٧).

ضمور الجذر والأساس لهذه المسؤوليات والضوابط وإنكار وجود الله تعالى» (١).

يقول الأستاذ عبد الرحمن حبنكة - من علماء أهل السنة - مشيراً إلى هذه العوامل النفسية ودورها في إلحاد الملحدين: «ثم لا نجد الإلحاد إلا عند مغفلين مضللين، أو مقلدين متعصبين، أو مجرمين شهوانيين، أو مستكبرين مغرورين بالنزر اليسير الذي تعلموه من ظواهر الكون... وذلك أنه قد تطفى على الإنسان ملاذته وأنانيته، فيحاول أن يتهرب من بعض الحقائق التي يشعر بها في قرارة نفسه إرضاءً لغرائزه وشهواته، التي أخذت صبغة الانحراف والشذوذ، أو إرضاءً لأنانيتها في كبره واستعلائه وحبه للسيطرة والإجرام... ويصح لنا إذا أمعنا النظر أن نقول: إن الإلحاد بالله وإنكار وجوده - بعد وضوح الدلائل من خلال تأمل الإنسان في نفسه وفي الكون من حوله - ليس إلا تهرباً من الفضيلة والحق والخير والجمال؛ لتبرير أعمال الرذيلة والظلم والقيح، وقلب الحقائق وإرضاء للنزوات والغرائز والشهوات الجانحة الجامحة... ما يضر الملحدين لو عقل وأنصف - على فرض أنه لم تقم لديه الدلائل القاطعة على وجود الخالق؛ بحد زعمه الفاسد - أن يؤمن بقوة ظنية لا يوجد ما يعارضها، لا في الظن ولا في الوهم، فضلاً عن اليقين، وهذه القوة إذا تم الإيمان بها تجعل منه ومن الناس جميعاً سعداء فضلاء يعيشون عمرهم عيش الرفاهية والنعيم والطمأنينة النفسية والمحبة للخير، بينما لا توجد قوة أخرى في الدنيا تستطيع أن تقف في وجه غرائز الإنسان الشاذة المجرمة، وأنانيته الظالمة المستكبرة» (٢).

٢ - العوامل الاجتماعية:

فالبينة التي يعيش بها الإنسان لها دور كبير في نشأة أفكاره؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء». ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه قوله تعالى: ﴿فَطَرَتَّ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا يَبْدِيلُ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠] (٣).

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٥، ١١٦).

(٢) الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، تحت عنوان: الإلحاد والملحدون (ص ١٠٧، ١٠٨).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب التفسير، باب سورة الروم، ورواه غيره من محدثي أهل السنة، وأورده الشيعة في مصنفاتهم كالحلي في منتهى المطلب (٢/٩٣٢)، طبعة تيريز (١٣٣٣هـ). والشهيد الثاني (زين الدين العاملي ٩٦٥هـ): الروضة البهية شرح اللمعة الدمشقية للشهيد الأول (محمد بن جمال الدين العاملي =

كما أن بعض الأحداث الاجتماعية تسبب بعض ردات الأفعال لدى الأفراد تجاه التدين، وعلى سبيل المثال: « فإن مواقف الكنيسة السيئة في مختلف المجالات الدينية والقانونية والسياسية كانت من أهم العوامل في نفور الناس وابتعادهم عن المسيحية، بل عن الدين بصورة عامة »^(١)، وقد جاء بعد ذلك من يستورد هذه النظرة للدين إلى بلاد المسلمين على الرغم من أن المسلمين لم يعانون من ظروف نصارى أوروبا.

ولذلك أكد علماء التوحيد قديمًا وحديثًا على منع التقليد، وعدم جواز اتخاذه دليلًا للوصول إلى المعرفة؛ فقد « تسلك المعتقدات إلى قلوب الناس طريق الشكوك، أو الأوهام والحيلالات أو التقاليد العمياء... وهذا لا يكون بحال مسلکًا صحيحًا ترتضيه العقول السليمة، بل هو زائف باطل، أو تحت تأثير تقليد محض من التقاليد غير المبصرة، كقولهم كما حكى الله عنهم في سورة الزخرف: ﴿ .. وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٣]. ولذلك نعى الله على المقلدين وذم طريقتهم بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠] »^(٢).

٣ - العوامل الفكرية:

تنشأ هذه العوامل عن « الشبهات التي تنشأ من الفرضيات العلمية؛ حيث يفهم البعض منها معارضتها للمعتقدات الدينية، والشبهات المتعلقة ببعض الأحكام والتعاليم الدينية »^(٣). ويأتي دور العلماء والمفكرين ليردوا على هذه الشبهات، ويخلصوا أصحابها منها، ويرشدوهم إلى الصواب الذي جاء به الكتاب والسنة.

وقد كان الأئمة وخصوصًا الإمامان محمد الباقر وجعفر الصادق يثبتان عقيدة التوحيد في قلوب الناس؛ فهذا هو الإمام الباقر يجيب أحدهم عن سؤال حيرته: لماذا احتجب الرب ذو الجلال عن خلقه؟

= ت ٧٨٦ هـ (٧٩٧/١) طبعة قم (١٤١٠ هـ)، وأخرج أوله الكليني: أصول الكافي (١٥/٢)، كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد قال محققه: الحديث حسن.

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٦).

(٢) الأستاذ عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ٤٨).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٧).

فيقول: « ويلك! وكيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك؛ نشوءك ولم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد حزنك، وحبك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك، وعزمك بعد أناتك، وأناتك بعد عزمك، وشهوتك بعد كراهتك، وكراهتك بعد شهوتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاءك بعد يأسك، ويأسك بعد رجائك، وخاطرك بما لم يكن في وهمك، وعزوب ما أنت معتقده عن ذهنك ».

فقد بين الإمام للسائل أن أفعال الله تعالى مع الإنسان في كل حين، ويستدل بها عليه ذوو البصائر. حتى وصل اليقين بالسائل إلى أن يقول: « وما زال يعدد علي قدرته التي هي في نفسي التي لا أدفعها حتى ظننت أنه (سبحانه) سيظهر فيما بيني وبينه عنه » (١). كما تذكر لنا روايات الشيعة مناقشة وإفحام الأئمة للملحدين المنكرين لوجود الله تعالى، وعلى سبيل المثال: جاء في أصول الكافي قول أحد الأئمة لأحد الملاحدة: « أتعلم أن للأرض تحتمًا وفوقًا؟ قال: نعم... قال: أنت جاحد بما فيهن، وهل يجحد العاقل ما لا يعرف؟! » (٢). فالإمام من خلال هذه المناقشة أراد أن يقنع هذا الملحد بأن المرء قد يعتقد بوجود أشياء وإن كان لا يعرف جزئياتها ولا يراها؛ فكذلك يوقن بربه وإن كان لا يراه، ولا يعرفه حق المعرفة. « فعدم إدراك شيء بواسطة الحواس ليس دليلًا على عدم وجوده، بل لا ينبغي أن يكون سببًا في الاستبعاد والاستغراب أيضًا... كما قالوا: عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود » (٣).

وعندما يبس جعفر الصادق من هداية أحد الملاحدة، بعد طول مناظرة ومجادلة قال له: « إن يكن الأمر كما تقول وليس كما نقول؛ نجونا ونجوت، وإن يكن الأمر كما نقول وهو كما نقول؛ نجونا وهلكت، فأقبل عبد الكريم على من معه فقال: وجدت في قلبي حزازة، فردوني فردوه فمات لا رحمه الله » (٤).

(١) أصول الكافي (١٣٢/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٢) أصول الكافي: كتاب التوحيد، باب حدوث العالم، وانظر: آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٧٨).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٢٢ - ١٢٩).

(٤) أصول الكافي (١٣٢/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

وقد استخدم من بعده الإمام أبو الحسن (علي الرضا) هذا الأسلوب في مناظرة من يئس إيمانه؛ فقد « دخل رجلٌ من الزنادقة على أبي الحسن عليه السلام وعنده جماعةٌ فقال أبو الحسن عليه السلام: أيها الرجل أرأيت! إن كان القول قولكم وليس هو كما تقولون؛ ألسنا وإياكم شرعاً سواءً، لا يضرتنا ما صلينا وصمنا وزكينا وأقرنا، فسكت الرجل ثم قال أبو الحسن عليه السلام: وإن كان القول قولنا - وهو قولنا - ألستم قد هلكتم ونجونا؟! » (١).

والحقيقة أن هذا الحجاج لإفحام الملحدين في النهاية، جاء تلميحاً في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿۲۸﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿۲۹﴾ [الملك: ٢٨، ٢٩].

وقد استخدمه بأسلوب آخر المعري الذي قال:

قال المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إيكما
إن صح قولكما فليس بضائري أو صح قولي فالوبال عليكما (٢)

وقد بين قديماً ابن الوزير - الزيدي المذهب - تختبط الملحدين في كفرهم بلا برهان، فقال: « فمن لم يثبت الرب قديماً أثبت العالم قديماً، ومن لم يثبت أسماء الحسنى بلا سبب أثبت الإحكام العجيب للعالم بلا سبب، ومن لم يقبل الإيمان بالبرهان قبل الكفر بلا قرآن ولا برهان » (٣). وقال: « ظهر لك أن إثبات الرب والإيمان به هو الحق والأحوط، كما تبين قبل ذلك أن إثبات العلوم هو الحق، بحيث لا يخاف في هذين الاعتقادين مضرة ألبتة، والخوف العظيم والمضار العظيمة في عدمهما » (٤).

ويقول الشيخ عبد الرحمن حبنكة: « هل يستطيع أذكي وأعلم ملحد في الدنيا أن يأتينا بدليل واحد مقنع يدل على عدم وجود الخالق سبحانه؟ إن الملحدين مهما اجتمعوا لذلك فلن يستطيعوا. ما يضر الملحد لو عقل وأنصف - على فرض أنه لم تقم لديه الدلائل القاطعة على وجود الخالق، بحد زعمه الفاسد - أن يؤمن بقوة ظنية لا يوجد ما يعارضها، لا في الظن ولا في الوهم، فضلاً عن اليقين، وهذه القوة إذا تم الإيمان بها

(١) أصول الكافي (١٣٢/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات الحدوث.

(٢) ابن الوزير: إظهار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد (ص ٦٤)، دار الكتب العلمية - بيروت (ط ٢)، (١٩٧٨ م).

(٣) المصدر السابق (ص ٦١).

(٤) ابن الوزير: إظهار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد (ص ٦٤).

تجعل منه ومن الناس جميعًا سعداء فضلاء يعيشون عمرهم عيش الرفاهية والنعيم والطمأنينة النفسية والمحبة للخير، بينما لا توجد قوة أخرى في الدنيا تستطيع أن تقف في وجه غرائز الإنسان الشاذة المجرمة، وأنانيته الظالمة المستكبرة. أليس يقوم في ظن الملحددين احتمال صدق دعوة الرسل الذين يكذبونهم، وماذا ستكون حجتهم بين يدي الله إذا قال لهم يوم القيامة: كذبتُم رسلي (١)، وأعرضتم عن البراهين التي بثتها في الوجود، الدالة على وجودي والدالة على عدلي فحق عليكم عقابي؟! بمثل هذا النوع من الاستدلال ناقش المؤمن من آل فرعون - الذي يكتم إيمانه - فرعون ومن معه؛ قال تعالى في سورة غافر: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴾ [غافر: ٢٨] (٢).

ونحن نوقن أن التعليق في الإيمان، أو الإيمان من باب الاحتياط لا ينجي من عذاب الله، ولا يحصل لصاحبه السعادة ولا يوصله إلى المأمن (٣)، ولكنه أسلوب جدلي استخدمه القرآن لدمغ المعاندين في نهاية المطاف؛ كقوله: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴾ [الزخرف: ٨١]، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُحْيِي الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الملك: ٢٨] .

وهكذا نجد أن العلماء المسلمين سنة وشيعة قد جهدوا جهدهم وأدلوها بدلوهم في استخراج الأدلة على وجود الله ﷻ، كما أنهم في الوقت نفسه لم يألوا جهدًا في محاجة ونقض أوهام الملاحدة والزنادقة.

* * *

(١) وقد أشار القرآن إلى هذا عندما قال: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ قَالَ أَكَذَّبْتُم بِمَا بَعَثْنَا بِهَا رَسُولًا مِّمَّنْ كَفَرْتُمْ تَقُولُونَ ﴿ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴾ [النمل: ٨٤، ٨٥] .

(٢) الشيخ عبد الرحمن حبنكة الميداني: العقيدة الإسلامية وأسسها، تحت عنوان: الإلحاد والملحدون (ص ١٠٧، ١٠٨) .

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين (٤٦٣/١) .

المَطَلَبُ الثَّانِي

صفات الله ﷻ

أولاً - قواعد أساسية في دراسة الصفات:

قبل الحديث عن الصفات الإلهية يجدر التنويه إلى بعض القواعد الأساسية التي يجدر للباحث في الصفات الإلهية الانتباه إليها:

١ - عدم الإحاطة بصفات الله: (صفات لا نهائية في الكمال):

تقرر نصوص القرآن والسنة والروايات الواردة عن الأئمة أن صفات الله تعالى مطلقة لا نهاية لها.

قال تعالى: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠] ، وقال: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف: ١٠٩] .

وقال ﷺ في سجوده: « سبحانك! لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك »^(١). وعن الكاهلي قال: « كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام في دعاء: (الحمد لله منتهى علمه) فكتب إلي: لا تقولن منتهى علمه. فليس لعلمه منتهى، ولكن قل: (منتهى رضاه) »^(٢). ذلك أن « صفات الكمال والجمال لا تنحصر؛ لأن الخلو عن الكمال نقص، وكل نقص منفي، وكل كمال ثابت له تعالى، وإلا استحال كونه صانعًا »^(٣).

٢ - وجوب المعرفة الإجمالية للصفات الإلهية:

عن الفتح بن يزيد عن أبي الحسن عليه السلام قال: « سألته عن أدنى المعرفة فقال: الإقرار بأنه لا إله غيره، ولا شبه له ولا نظير، وأنه قديم مثبت موجود، غير فقيد وأنه ليس كمثلته شيء ». وعن طاهر بن حاتم في حال استقامته^(٤) أنه كتب إلى الرجل^(٥): « ما الذي لا يجتزأ

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦) .

(٢) أصول الكافي (١٥٩/١) ، كتاب التوحيد، باب صفات الذات .

(٣) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤) .

(٤) لأنه كان مستقيمًا ثم تغير وأظهر القول بالعلو. انظر: الفيض الكاشاني: الوافي (٧٦/١) .

(٥) يقصدون بالرجل: المهدي الغائب المنتظر. وهم لا يجيزون ذكره باسمه الصريح كما سنبين.

في معرفة الخالق بدونه؟ فكتب إليه: لم يزل عالماً وسامعاً وبصيراً، وهو الفعّال لما يريد». وسئل أبو جعفر عليه السلام عن الذي لا يجترأ بدون ذلك من معرفة الخالق؟ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] «ولا يشبهه شيء، لم يزل عالماً سميعاً بصيراً» (١). قال الزنجاني: «اللّه تعالى واجب الوجود بذاته ولذاته، منزّه عن التجسيم والحلول والتركيب والنقائص، ومستجمع لجميع صفات الكمال من العلم والقدرة والإرادة والعدل ونحوها، وأن صفاته الحقيقية عين ذاته، وهو الواحد الأحد، لا شريك له في الألوهية ولا في المعبودية ولا في الفاعلية، وما لسواه من العالم صنيعه، لا إله غيره، ولا معبود سواه، ولا حول ولا قوة إلا باللّه، له الخلق والأمر، ولا مؤثر غيره في عالم الوجود، وهو المستقل بالخلق والرزق والموت والحياة. والمعتقد بغير اللّه فهو كافر مشرك خارج عن ربقة الإسلام، ولا تجوز العبادة إلا للّه وحده لا شريك له» (٢).

٣ - النهي عن وصف اللّه سبحانه بغير ما وصف به نفسه:

عن عبد الرّحيم بن عتيك القصير قال: كتبت على يدي عبد الملك بن أعين إلى أبي عبد اللّه عليه السلام: أنّ قومًا بالعراق يصفون اللّه بالصورة وبالتخطيط، فإن رأيت - جعلني اللّه فداك - أن تكتب إليّ بالمذهب الصّحيح من التّوحيد. فكتب إليّ: سألت - رحمك اللّه - عن التّوحيد وما ذهب إليه من قبلك، فتعالى اللّه الذي ليس كمثل شَيْءٍ وهو السّميع البصير، تعالى عمّا يصفه الواصفون المشبهون اللّه بخلقه، المفترّون على اللّه. فاعلم رحمك اللّه أنّ المذهب الصّحيح في التّوحيد ما نزل به القرآن من صفات اللّه جلّ وعزّ. فانف عن اللّه تعالى البطلان والتّشبيه، فلا نفي ولا تشبيه، هو اللّه الثّابت الموجود، تعالى اللّه عمّا يصفه الواصفون، ولا تعدوا القرآن فتضلّوا بعد البيان (٣).

٤ - للّه تعالى تسعة وتسعون اسمًا:

وإذا صحّ عن النبي صلّى الله عليه وآله عند أهل السنة: «إنّ للّه تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة» (٤)؛ فقد صحّ ذلك أيضًا في روايات الاثني عشرية: «روى

(١) أصول الكافي (١/١٤١)، كتاب التوحيد، باب أدنى المعرفة.

(٢) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٥)، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

(٣) أصول الكافي (١/١٥٣)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى.

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري، باب الشروط في القرض، رقم (٢٥٨٥)، ومسلم: باب في أسماء اللّه

تعالى وفضل من أحصاها رقم (٢٦٧٧). وفي رواية في مسلم: (من حفظها).

الصدوق في كتاب التوحيد بإسناده عن الصادق عن آبائه عن رسول الله ﷺ قال: « إن لله - تبارك وتعالى - تسعة وتسعين اسمًا، مائة إلا واحدًا من أحصاها دخل الجنة وهي: الله، الواحد، الصمد، الأول، الآخر، السميع، البصير، القدير، القاهر، العلي، الأعلى، الباقي، البديع... الخفي،... الذاري... الفرد... قاضي الحاجات... الوفي..... القديم » (١).

وقد أوصلت بعض روايات الأئمة الأسماء إلى ثلاثمائة وستين اسمًا - لا على سبيل الحصر - وذكرت منها: « الرحمن الرحيم الملك القدوس الخالق البارئ المصور الحي القيوم، لا تأخذه سنة ولا نوم، العليم الخبير السميع البصير الحكيم العزيز الجبار المتكبر العلي العظيم المقدر القادر السلام المؤمن المهيمن البارئ المنشئ البديع الرفيع الجليل الكريم الزايق المحيي المميت الباعث الوارث.. وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتم ثلاثمائة وستين اسمًا.. » (٢).

أما معنى (أحصاها) فقد ذهب بعض العلماء إلى أن المعنى حفظها عن ظهر قلب، وقيل: إحصاؤها: الإيمان بها، وقيل: العمل بمقتضاها، وقيل: معرفتها (٣).

وإذا كان الإيمان بهذه الأسماء التسعة والتسعين واجبًا على الإجمال؛ فإن تفصيل هذه الأسماء مختلف فيه بين العلماء سنة وشيعة، فقد ورد في سنن ابن ماجه والترمذي، بروايتين ضعيفتين، وبينهما خلاف في بعض الأسماء، ثم إن فيهما من الأسماء ما لم يذكر في القرآن الكريم - كالقديم - ونقص منهما بعض ما ورد في القرآن الكريم - كالأكرم.

ولذلك قام ابن حجر العسقلاني بإحصاء هذه الأسماء، بحيث جمع ما أورده القرآن، مع اعتماده على رواية الترمذي، فقال: « هذا سردها لتحفظ.. الله الرحمن الرحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصور، الغفار القهار التواب الوهاب الخلاق الرزاق، الفتاح العليم الحليم العظيم، الواسع الحكيم الحي القيوم، السميع البصير اللطيف الخبير، العلي الكبير المحيط القدير المولى النصير،

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٧٦). ومن الملاحظ أن اسم (القديم) ورد في رواية ضعيفة في سنن ابن ماجه، وفي اسم الله (الأول) الذي ورد في الكتاب والسنة غنية عن الاستشهاد باسم ورد بسند ضعيف.

(٢) أصول الكافي (١/١٦٤، ١٦٥)، كتاب التوحيد، باب حدوث الأسماء.

(٣) انظر: تكملة فتح الملهم لتقي الدين العثماني (٥/٢٧٣)، دار القلم - دمشق (١٤٢٧هـ).

الكريم الرقيب القريب، المجيب الوكيل الحسيب الحفيظ المقيت، الودود المجيد الوارث الشهيد، الولي الحميد الحق المبين، القوي المتين، الغني المالك الشديد، القادر المقدر القاهر الكافي، الشاكر المستعان الفاطر البديع الغافر، الأول الآخر الظاهر الباطن، الكفيل الغالب الحكم، العالم الرفيع الحافظ المحيي، الجامع المليك المتعالي النور الهادي الغفور الشكور، العفو الرؤوف، الأكرم الأعلى البر الحفي، الرب الإله، الواحد الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» (١).

وقد أورد علماء الشيعة غير هذه الأسماء؛ فقد روى الصدوق في كتاب التوحيد بإسناده... قال أبو عبد الله عليه السلام: «إن (آه) من أسماء الله تعالى، فمن قال: (آه) فقد استغاث» (٢).

٥ - ضعف القدرات البشرية عن كشف كنه الصفات الإلهية:

« هذا وقد تصدى بعض المتكلمين لمباحث في الذات والصفات، ولو سكتوا عنها لكان أقرب إلى ما يقتضيه العقل والنقل» (٣). قال عبد الله شبر: «اعلم أنه لا سبيل للمخلوق إلى معرفة كنه الخالق وحقيقته والإحاطة به - جل شأنه - كما قال عليه السلام: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فِكْرِهِ﴾ [الحج: ٧٤] وفي الدعاء: «سبحان من لا يعلم ما هو إلا هو». وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «لا تقدر عظمة الله على قدر عقلك فتكون من الهالكين» (٤).

« والأصل في هذا الباب أن الصفات كالذات، فكما أن ذات الحق سبحانه ثابتة حقيقة من غير أن تكون مشابهة لذوات الخلق؛ كذلك صفاته ثابتة حقيقة من غير أن تكون مشابهة لصفات الخلق... ومن عرف الدخول في هذه الطريقة نجا من غوائل المجاز ووصل إلى الحقيقة، وسهل عليه فهم كثير مما يعده الخلف متشابهاً من آيات الكتاب المنزل وأحاديث النبي المرسل صلى الله عليه وآله وتبين له المقصد الأسنى في الأسماء الحسنى، وأما من لحظ فيما تُنسب إلى الخالق مثل ما لحظه فيما نسب إلى الخلق لم ينج من إشكال» (٥).

(١) فتح الباري (٢١٩/١١).

(٢) المصدر السابق (ص ٨٠).

(٣) الشيخ طاهر الجزائري: الجوهرة في قواعد العقائد (ص ١٠٥)، تصحيح الأستاذ حسن السماحي سويدان، دار القلم - دمشق (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٨).

(٥) الشيخ طاهر الجزائري: الجوهرة في قواعد العقائد (ص ١٠٠ - ١٠٣).

ولو رجع إلى نفسه عرف أنه لم يقف على كنه ذاتها، وإنما عرفها ببعض آثارها وصفاتها، وهو مع ذلك لم يعرف كيف قامت بها تلك الصفات...

العلم للرحمن ﷻ	وسواه في غمراته يتغمغم
ما للتراب وللعلوم وإنما	يسعى ليعلم أنه لا يعلم ^(١)
والله لا موسى ولا	عيسى المسيح ولا محمد
علموا ولا جبريل	وهو إلى محل القدس يصعد
كلا ولا النفس البسيطة	لا ولا العقل المجرد
من كنه ذاتك غير أنك	أوحدي الذات سرمد
وجدوا إضافات وسلبًا	والحقيقة ليس توجد
ورأوا وجودًا واجبًا	يفنى الزمان وليس ينفد
تاه الأنام بسكرهم	فلذاك صاحي القوم عريد
ونجا من الشرك الكثيف	مجرد العزمات مفرد
فلتخسأ الحكماء عن	جرم له الأفلاك تسجد
من أنت يا رسطو؟ ومن	أفلاط قبلك، يا مبلد؟
ومن ابن سينا؟ حين قزر	ما بنيت له وشيد!
هل أنتم إلا الفراش	رأى السراج وقد توقد؟
فدنا فأحرق نفسه	ولو اهتدى رشدًا لأبعد ^(٢)

٦ - إرجاع الصفات الإلهية إلى الأسماء الحسنی:

ومما يزيد الفهم والإيضاح لصفات الله تعالى: إرجاع صفات الله تعالى إلى أسمائه الحسنی؛ حيث « أسماءه تتضمن صفاته »^(٣). كما فعل اليزدي من علماء الشيعة، وكما فعل الشيخ عبد الرحمن حبنكة من علماء أهل السنة^(٤)، قال اليزدي: « مفهوم

(١) الشيخ طاهر الجزائري: الجوهرية في قواعد العقائد (ص ١٠٦)، والآيات للزمخشري كما ذكره الحق.

(٢) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (٥٠/٣١).

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٦٠/٢).

(٤) انظر: الشيخ عبد الرحمن حبنكة رحمته: العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ١٣٧ - ٢١٤)، دار القلم -

الربوبية الذي من لوازمه تدبير الأمور، وله مصاديق عديدة، كالحافظ والمحبي والمميت والرازق والهادي والآمر والناهي وأمثالها» (١).

٧ - وجوب الربط بين الصفات الإلهية:

ولا يجوز دراسة كل صفة من الصفات الإلهية بعيدة عن أخواتها، وعلى سبيل المثال: «القدرة على كل عمل لا توجب ولا تفرض على مثل هذا القادر أن يحقق كل الأعمال التي يقدر عليها؛ بل إنما يحقق تلك الأعمال التي يريد تحقيقها، والله الحكيم لا يريد إلا الأفعال الصالحة والحكيمة، ولا يحقق إلا مثل هذه الأعمال، وإن كان قادرًا على الأعمال القبيحة والمنكرة أيضًا» (٢).

وخلافًا لهذا المنهج؛ فقد درس بعض المتكلمين صفة الإرادة بعيدًا عن صفة الحكمة، فأجازوا (من باب الجواز العقلي، لا الشرعي) أن يعذب الله المطيع ويثيب العاصي؛ فاتهمهم الاثنا عشرية بالقول بجواز الظلم على الله تعالى، وإنكار العدل الإلهي.

ولكن المتأمل يرى أن أصحاب هذا المذهب كالأشاعرة يقرّون أيضًا بالعدل الإلهي؛ حيث إن الآيات القرآنية الصريحة التي لا تقبل التأويل تثبت العدل الإلهي «ولكن البحث في هذا الموضوع يدور حول ما إذا يمكن للعقل بنفسه وبدون الاعتماد على المصادر الشرعية (الكتاب والسنة) أن يدرك ويتوصل إلى ضوابط الأفعال وخاصة الأفعال الإلهية» (٣).

فدراسة صفة القدرة والإرادة بعيدًا عن صفة الحكمة والعلم، بحيث يتم التركيز على معنى إطلاق قدرة الله وإرادته، وأنه يفعل ما يشاء، وأنه لو عاقب الطائع لما كان ظالمًا؛ إذ هذا الفعل داخل في الممكن العقلي، وهو تصرف لله تعالى في ملكه. إن هذا التركيز على هذا الجانب، ونسيان الجانب الآخر، وهو صفة العلم ومن مقتضياته الحكمة ووضع الأمور في نصابها، يجعل هذا الجائز العقلي بعيدًا عن روح الشرع الذي جاء مبينًا أن الثواب للطائعين، وأن العقوبة للعصاة المذنبين، وإنما ورد هذا الإشكال الذي سبب ذلك الهجوم على القائلين به بسبب أنهم لم يربطوا بين الصفات الإلهية؛ بل تناولوا كل واحدة منها على حدة.

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٠١).

(٢) المرجع السابق (ص ٩٥).

(٣) المرجع السابق (ص ١٨٠).

٨ - حصر الصفات والأسماء الإلهية خطأ في المنهج:

ومن الأخطاء التي وقع فيها بعض المتكلمين: حصر الصفات الإلهية في عدد معين؛ لأن صفات الله تعالى كثيرة لا نستطيع أن نحصيها، فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: « سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك »^(١)، وكذلك أسماء الله تعالى كذلك لا حصر لها، ففي دعاء كشف الكربة قال النبي ﷺ: « اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك... وأسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك... أو استأثرت به في علم الغيب عندك »^(٢).

وقد هاجم بعض متكلمي الاثني عشرية كابن المطهر الحلبي الأشاعرة، معتقداً أنهم يحصرون الصفات في عدد معين، وهذا ليس قولاً مطرداً عندهم؛ ولعل الوهم جاء من كثرة حديثهم عن بعض الصفات دون بعض، وقد ردّ عليه ابن تيمية قائلاً: « حصر الصفات في ثمانية - وإن كان يقوله بعض المثبتين من الأشعرية ونحوهم - فالصواب عند جماهير المثبتة وأئمة الأشعرية أن الصفات لا تنحصر في ثمانية، بل ولا يحصرها العباد في عدد، وحينئذ فنقل الناقل عنهم أنه تاسع تسعة باطل لو كان هذا مما يقال »^(٣).

- وقد فصلت إحدى الروايات عن سيدنا علي ؑ بعض صفات الله ﷻ:

« شاء الأشياء لا بهمة، ذرّك لا بخديعة، في الأشياء كلّها غير متمازج بها ولا بائن منها، ظاهر لا بتأويل المباشرة، متجلّ لا باستهلال رؤية، ناء لا بمسافة، قريب لا بمداناة، لطيف لا بتجسّم موجود لا بعد عدم، فاعل لا باضطراب، مقدّر لا بحركة، مريد لا بهمامية، سميع لا بألّة، بصير لا بأداة، لا تحويه الأماكن، ولا تضمنه الأوقات، ولا تحدّه الصفات، ولا تأخذه السنّات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والابتداء

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (٤٨٦).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، وأخرجه ابن حبان في صحيحه (١٥٣/٣) في باب ذكر الأمر لمن أصابه حزن أن يسأل الله ذهابه عنه وإبداله إياه فرحاً رقم (٩٧٢)، والحاكم في المستدرک على الصحيحين (٦٩٠/١). ونصه: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: « ما قال عبد قط إذا أصابه هم أو حزن: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك ماضٍ فيّ حكمك عدلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك.. أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور بصري وجلاء حزني وذهاب همي. إلا أذهب الله همه وأبدله مكان حزنه فرحاً ». قالوا:

يا رسول الله ينبغي لنا أن نتعلم هذه الكلمات. قال: أجل ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن ».

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٤٩٧/٢).

أزله.... كان ربًّا إذ لا مربوب، وإلهًا إذ لا مألوه، وعالمًا إذ لا معلوم، وسميًّا إذ لا مسموع»^(١).

وخطب بالناس بالكوفة فقال: « الحمد لله الملهم عباده حمده، وفاطهم على معرفة ربوبيته، الدال على وجوده بخلقه، وبحدوث خلقه على أزله، وباشتباههم على أن لا شبه له، المستشهد بآياته على قدرته، الممتنعة من الصفات ذاته، ومن الأبصار رؤيته، ومن الأوهام الإحاطة به، لا أمد لكونه، ولا غاية لبقائه، لا تشمله المشاعر، ولا تحجبه الحجب، والحجاب بينه وبين خلقه خلقه إياهم، لا تمتاعه مما يمكن في ذواتهم وإمكان مما يمتنع منه ولافتراق الصانع من المصنوع والحاد من المحدود والرب من المربوب، الواحد بلا تأويل عدي، والخالق لا بمعنى حركة، والبصير لا بأداة، والسميع لا بتفريق آية، والشاهد لا بماسية، والباطن لا باجتان، والظاهر البائن لا بتراخي مسافة، أزله نهيةً لمجاول الأفكار ودوامه ردغ لطامحات العقول، قد حسر كنهه نوافذ الأبصار، وقمع وجوده جوائل الأوهام، فمن وصف الله فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن عدّه فقد أبطل أزله، ومن قال: أين؟ فقد غيابه، ومن قال: علام؟ فقد أخلى منه، ومن قال: فيم؟ فقد ضمّنه»^(٢).

ثانياً: العلاقة بين الذات والصفات والأسماء الإلهية في مذهب الاثني عشرية:

يقول المفيد معرفاً الصفة: « إن الصفة في الحقيقة ما أنبأت عن معنى استفاد يخص الموصوف وما شاركه فيه»^(٣).

وقد كان سلف الأمة يفهمون الصفات، دون أن يخوضوا في تقسيمها أو في محاولة فهم العلاقة بين الذات والصفات، وأول من فعل ذلك المعتزلة؛ حيث قسموا الصفات إلى ذاتية وفعلية وسلبية، وتابعهم في ذلك متكلمو الأشاعرة والاثنا عشرية^(٤).

فمسألة الصفات والبحث فيها غريبة عن الحس العربي الصافي الواضح، وإنما دخلت خلصة إلى الفكر المسلم من كتب الفلاسفة على يد تلامذة (واصل)، يقول الشهرستاني: « وإنما شرعت أصحابه فيها بعد مطالعة كتب الفلسفة»^(٥).

(١) أصول الكافي (١٨٨/١)، كتاب التوحيد، باب جوامع التوحيد.

(٢) السابق (١٨٩/١).

(٣) أوائل المقالات (ص ٥٨).

(٤) انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٧٣).

(٥) الشهرستاني: الملل والنحل (٦٥/١ - ٧٧).

« ومذهب المعتزلة في مجموعه قد مرّ بمراحل تطويرية في قضية الصفات، بالنسبة إلى عدد هذه الصفات، وبالنسبة للعلاقة بينها وبين الذات »^(١). وبسبب قرب الاثني عشرية من المعتزلة فقد ارتبكت عباراتهم؛ تبعاً لاختلاف متكلمي المعتزلة^(٢):

- فمنهم من جعل الصفات راجعة إلى سلب أضرارها عن الله تعالى، كما ذهب النظام، ويظهر هذا الاتجاه عند الكليني والصدوق والمازندراني. يقول الكليني: « صفات الذات تنفي عنه بكلّ صفةٍ منها ضدها، يقال: حيّ وعالمٌ وسميعٌ وبصيرٌ وعزيرٌ وحكيمٌ غنيٌّ ملكٌ حليمٌ عدلٌ كريمٌ؛ فالعلم ضده الجهل، والقدرة ضده العجز، والحياة ضدها الموت، والعزة ضدها الذلّة، والحكمة ضدها الخطأ، وضدّ الحلم العجلة والجهل، وضدّ العدل الجور والظلم »^(٣). وبناء على هذا الرأي يرى الطباطبائي - المعاصر - أن « نفي صفات النقص تعني صفات الكمال، كما أن نفي الجهل يعني العلم »^(٤).

- ومنهم من جعل صفات الذات هي عين الذات، كما ذكر المظفر صاحب عقائد الإمامية^(٥)، وهذا مشابه لقول أبي الهذيل العلاف من المعتزلة، وهذا هو رأي جمهور الاثني عشرية كما في أوائل المقالات^(٦). وقد ردوا بهذا الرأي على الأشاعرة القائلين بزيادة الصفات على الذات^(٧).

ولما كان الفلاسفة مختلفين في الصفات، وفي غيرها؛ جاء المتكلمون فاختلّفوا فيها،

(١) فأبو علي الجبائي أرجع جميع الصفات إلى صفتي العلم والقدرة، وقال بأنهما صفتان ذاتيتان، أو هما اعتباران للذات القديمة، أما ابنه أبو هاشم فاعتبرهما حالين للذات القديمة، بعد أن أرجع جميع الصفات إليهما، وأبو الحسين البصري أرجع جميع الصفات إلى صفة واحدة أسماها العالمية، وذلك كما يقول الشهرستاني عن مذهب الفلاسفة فالله عالم بذاته، حي بذاته، قادر بذاته، أما أبو هذيل العلاف فقد أرجع جميع الصفات إلى صفة العلم والحياة والقدرة، واعتبر هذه الصفات وجوهاً للذات. ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٣ - ١٠٥)، انظر: المغني (١٢٩/٤)، الملل والنحل للشهرستاني (١/٤٧، ٤٨ - ٦٤ - ٧٧). الانتصار للخياط (ص ١٠٨ - ١٢٣).

(٢) والظاهر أن الخوارج والإباضية وجمهور الزيدية يذهبون مذهب المعتزلة في الصفات. انظر: ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٠٦).

(٣) أصول الكافي: كتاب التوحيد، باب الإرادة أنّها من صفات الفعل وسائر صفات الفعل. انظر شرح المازندراني لأصول الكافي مع تعليق ميرزا عليه (٤/٢٤٥).

(٤) الطباطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ١٢٠)، مركز بقية الله الأعظم للدراسة والنشر - بيروت (١٩٩٩م).

(٥) المظفر: عقائد الإمامية (ص ٣٨، ٣٩). (٦) أوائل المقالات (ص ٥١ - ٥٨).

(٧) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٩١ - ٩٣).

ومنهم الاثنا عشرية، وقد تنبه إلى اختلاف الفلاسفة والمتكلمين فيما بينهم في الذات والأسماء والصفات عدد من علماء أهل السنة (١)، يقول ابن الوزير: «ويدلك على قبح تأويل هذه الأسماء الشريفة في الفطر كلها أنك تجد المعتزلي يستقبح تأويل الأشعرية للحكيم غاية الاستقباح، والأشعري يستقبح تأويل المعتزلة البغدادية للسميع والبصير والمريد غاية الاستقباح، والسني يستقبح تأويل المعتزلي والأشعري للرحمن الرحيم الحكيم غاية الاستقباح، والكل يستقبحون تأويل القرامطة لجميع أسماء الله الحسنی غاية الاستقباح» (٢).

ولذلك فإن كلام الاثني عشرية في مسألة الصفات يصعب فهمه، تبعاً لاختلاف مشاربهم وآرائهم؛ فهم مرة يقولون بحدوث الصفات كما سنرى، ومرة يقولون: إن صفات الله عين ذاته!!.

وفي استقراء نصوصهم يعرف أنهم يعنون بالحدوث حدوث صفات المعاني كالعلم والقدرة، نسجاً على منوال المعتزلة، ويعنون بأن صفاته عين ذاته: الصفات المعنوية؛ ككونه قديراً سميعاً بصيراً، وإن لم يحسنوا التعبير عن ذلك.

- فمرة تقول الرواية: إن الصفات عين ذات الله تعالى، عن أبي بصير قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لم يزل الله تعالى ربنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور» (٣). فهذه الرواية عبرت عن كونه عليماً بـ (العلم ذاته)، وهم في الأصل قد أنكروا صفة مستقلة اسمها العلم والقدرة؛ ولذلك عابوا على الأشاعرة وغيرهم إثبات هذه الصفات، على حد قول ابن المطهر: «فجعلوه تعالى مفتقراً في كونه عالماً إلى ثبوت معنى هو العلم» (٤).

- ومرة تقول الرواية بحدوث كل الأسماء والصفات، وأن «تمام توحيد نفي الصفات

(١) يقول ابن تيمية (مجموع الفتاوى ٣٣٨/١١): «التكلمة والمتفلسفة أكثر خلق الله تناقضاً واختلافاً، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعاً». وانظر: منهاج السنة النبوية (٥٤٠/٢، ٥٤١).

(٢) ابن الوزير اليمني: إيثاق الحق على الخلق (ص ١٢٨)، وانظر: سعيد بن أحمد الأندلي: قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق مخطوط ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان (ص ١٢٢).

(٣) أصول الكافي (١/١٥٩)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات. وكان الأولى بهذه الرواية أن تعبر عن العلم بكونه تعالى (عالمًا قديراً) لا بالعلم والقدرة، وكان التفريق بين صفات المعاني والمعنوية لم يكن قد تبلور ونضج.

(٤) ابن مطهر الحلبي (الحسن بن يوسف ٧٢٦هـ): منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، تحقيق عبد الرحيم مبارك (ط ١) مؤسسة عاشوراء للتحقيقات، قم (ص ٣٨).

عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وبشهادة كل موصوف أنه غير الصفة» (١).
وتقول إحدى الروايات: « والأسماء والصفات مخلوقات، والمعاني والمعني بها هو الله
الذي لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف » (٢).

- وذكر الطباطبائي أن صفات الله تعالى « في الحقيقة عين ذاته ﷻ وكل واحدة
منها هي عين الأخرى » وأن الاختلاف الذي يشاهد بين الذات والصفات وبين
الصفات نفسها ينحصر في المفهوم (٣).

- ويرى عبد الله شير « أن صفاته تعالى اعتبارات نحدثها عند عقولنا عند مقايسة ذاته
تعالى إلى غيرها... وإلا فذاته المقدسة لا صفة زائدة عليها، وإلا لزم كونها محلاً لغيره إن
قامت به، وقيام صفته بغيره إن لم تقم به، وكلاهما بديهي البطلان، وعدم قيامها بشيء
بل بنفسها أظهر بطلاناً؛ فالكل راجع إلى كمال الذات المقدسة وغنائها » (٤).

أما مذهب أهل السنة فهو اعتقاد قدم صفات الله وأسمائه الحسنی، يقول اللقاني:

وعندنا أسماؤه العظيمة كذا صفات ذاته قديمة (٥)

وقد كان مسوِّغ المعتزلة والاثني عشرية في إنكار قدم صفات الله: التخوُّف من
الإشراك والتعدد في الذات الإلهية، فإن « شبهة تعدد القدماء كانت من أهم الأسباب
التي جعلت الأئمة من أهل البيت... يعلنون رفضهم لفكرة المعاني القديمة الزائدة على
الذات » (٦). يقول ابن المطهر: « فقال بعضهم وهم جماعة الأشاعرة أن القدماء كثيرون
مع الله تعالى (٧)، وهي المعاني التي يثبتونها في الخارج كالقدرة والعلم وغير ذلك،
فجعلوه تعالى مفتقراً في كونه عالماً إلى ثبوت معنى هو العلم » (٨).

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين، لعبد الله شير (ص ٤٢).

(٢) أصول الكافي (١/١٦٨)، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها.

(٣) انظر: العلامة الطباطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ١١٨، ١١٩)، مركز بقية الله الأعظم للدراسة
والنشر - بيروت (١٩٩٩ م).

(٤) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٢).

(٥) اللقاني: جوهرة التوحيد مع شرحها للشيخ إبراهيم الباجوري (ص ١٤٢).

(٦) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ٩٩).

(٧) وهو تقوُّل على الأشاعرة، لا يسلم الأشاعرة به، ولكن هذا فهم المعتزلة والشيعة لرأي مخالفهم الذين
اعتقدوا أن الصفات الإلهية زائدة على الذات، فألزموا الأشاعرة وغيرهم بما لم يلتزموا، وهذا خطأ منهجي.

(٨) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٣٨).

قال المفيد: « إنه الله ﷻ اسمه حي لنفسه لا بحياة، وأنه قادر لنفسه وعالم لنفسه... وهذا مذهب الإمامية كافة والمعتزلة » (١). وقد بين شبر أن من كمال التوحيد الإيمان بأن صفات الله تعالى المعنوية هي عين ذاته، ووصف من خالفه في المسألة بأنه أشرك بالله تعالى؛ حيث يقول: « وقد يطلق التوحيد على معانٍ أخر هي شرط في أصل الإيمان أو كماله منها: الأول التوحيد في الصفات وعينيته ونفي مغايرتها... والمخالف في هذا المقام هو الأشعري؛ قال بزيادة الصفات ومغايرتها وقدمها، ومن قال بهذا فقد أشرك بالله؛ لأنه يلزم تعدد القدماء » (٢)!

ويذكر الأدلة على أن صفات الله عين ذاته فيقول: « الأول: أنها لو كانت غير ذاته لكان الله تعالى محتاجاً في كاملته إلى صفاته، وإذا كان محتاجاً لكان ممكناً؛ فلا يكون واجباً صانعاً، وقد تقدم بطلانه. الثاني: أن الصفة متأخرة عن الموصوف، فيلزم أن يكون الله تعالى عاجزاً جاهلاً في وقت ثم صار قادراً عالماً، تعالى الله عما يقول الكافرون علواً كبيراً. الثالث: أنها لو كانت غير ذاته فيما أن تكون قديمة أو حادثة قائمة بذاته تعالى أو بغيره، واللازم باطل والملزوم مثله.. وإن قالوا: إنها قديمة وقائمة بذاته - وهكذا يقولون - فيلزم تعدد القدماء » (٣).

والحقيقة أن قياس الله تعالى على مخلوقاته هو من أسباب هذا الخطأ الذي وقع به شبر وحزبه؛ فصفات البشر في كثير من الأحيان تكون متأخرة عن أصحابها كالعلم بعد الجهل، أما صفات الله تعالى فهو متصف بها أولاً، فليست متأخرة عنه.

وقد بلغ الاثنا عشرية في تنزيه الله ﷻ مبلغاً أوصلهم إلى تعطيل الصفات؛ عندما حاولوا تفسير صفات الله تعالى بنفي أضعادها، فعندما يثبتون صفات الذات المعنوية ككون الله تعالى حياً؛ فإنهم في الحقيقة لا يثبتونها، ولكنهم يقررون نفي أضعادها عن الله تعالى، يقول الصدوق: « إذا وصفنا الله تبارك وتعالى بصفات الذات فإنما ننفي عنه بكل صفة منها ضدها، فمتى قلنا: إنه حي نفينا عنه ضد الحياة وهو الموت، ومتى قلنا: إنه عليم؛ نفينا عنه ضد العلم، وهو الجهل، ومتى قلنا: إنه سميع نفينا عنه ضد السمع وهو الصمم... » (٤).

(١) أوائل المقالات (ص ٥١، ٥٢).

(٢) حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧ - ٤٠).

(٣) السابق (ص ٥٨).

(٤) الصدوق: التوحيد (ص ١٥٦).

وكما قال الاثنا عشرية بحدوث الصفات قالوا بحدوث الأسماء أيضاً، قال شبر: « والحق أن أسماءه تعالى حروف حادثة مخلوقة تدل على الذات المقدسة وهي غيرها لحدوثها، ولا تكون عين الذات خلافاً لبعض العامة العمياء الذين زعموا أنها عين الذات »^(١).

وقد انطلقوا في رأيهم هذا من قناعة لم يسلم لهم بها أهل السنة ولا غيرهم، تقول قناعتهم: « إن الأسماء الإلهية اكتسبت من أفعاله التي حدثت في المستقبل ولم تكن في الأزل، فرأوا أن إطلاق هذه الأسماء عليه - وإن كان جائزاً - فإنه إنما يكون بعد فعله ما تدل عليه هذه الأسماء، ولا يجوز إطلاقها عليه في الأزل؛ ولذلك كانت حادثة بحدوث هذه الأفعال: يقول المفيد: « ألا ترى قبل خلقه الخلق لا يصح وصفه بأنه خالق »!^(٢).

وقد صارت مسألة الصفات وقدمها محل مراد وجدل بين الاثني عشرية وباقي الفرق، ولم تخل أجوبة فريق من التعسف والتسرع ورمي كل طرف صاحبه بما لم يقله، فقد زعم الاثنا عشرية - بعد رميهم خصومهم بالقول بالإشراك بتعدد القدماء - أن في القول بقدوم الصفات اتهاماً للخالق ﷻ بالعبث!!، يقول ابن مطهر الحلي عن أهل السنة: « وذهبوا إلى أن الله أمر ونه في الأزل، ولا مخلوق عنده، قائلًا: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ... ﴾ [الأحزاب: ١]... ولو جلس شخص في منزله ولا غلام عنده فقال: يا سالم قم، يا غانم كل، يا نجاح ادخل،. قيل: لمن تنادي؟ فيقول: لعبيد اشتريتهم بعد عشرين سنة؛ نسبه كل عاقل إلى السفه والحمق، فكيف يحسن منهم أن ينسبوا الله تعالى إليه في الأزل؟ »^(٣).

وتصوير الحلي لمذهب أهل السنة في الصفات بهذه الصورة المتبدلة ليس بمسلم به؛ فليس مراد أهل السنة من أن الله أمر ونه في الأزل في قيام الأمر والنهي في الأزل، بل المعنى أن الله تعالى متصف بصفة الإرادة والقدرة قبل أن يخلق المراد المقدور، وهذا المعنى أوردته روايات الاثني عشرية أنفسهم؛ فقد جاء عن سيدنا علي ﷺ وصف ربنا ﷻ: « كان رباً إذ لا مربوب، وإلها إذ لا مألوه، وعالمًا إذ لا معلوم، وسميعًا إذ لا مسموع »^(٤). فكان

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٧٥).

(٢) تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد أو شرح عقائد الصدوق المفيد، دار الكتاب الإسلامي - بيروت (١٤٠٣هـ / ٢٠٢١م)، (ص ٢٥).

(٣) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٤٦، ٤٧). ونسبه الحق إلى الملل والنحل (١/١٢٩).

(٤) أصول الكافي (١/١٨٨)، كتاب التوحيد، باب جوامع التوحيد.

الحلي ومن تبعه لم يفرق بين الصفات القديمة وتعلقاتها التنجيزية الحادثة، وهو ما بيّنه أهل السنة، يقول الإمام الطحاوي: « له معنى الرب ولا مريبوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعد ما أحيأ استحق هذا الاسم قبل إحيائهم، كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم »^(١). « وذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه »^(٢). وقال صاحب الرسالة القيروانية: « وله الأسماء الحسنى والصفات العلى، لم يزل بجميع صفاته وأسمائه تعالى من أن تكون صفاته مخلوقة وأسمائه محدثة »^(٣). فالصفات قديمة، وإنما الحادث هو تعلقها بهذا المخلوق بعد حدوثه، فالصفة والاسم قديمان، والحادث إنما هو التعلق.

وقد ردّ أهل السنة على إنكار المعتزلة والاثني عشرية صفات المعاني؛ مبينين أن هروب المعتزلة والاثني عشرية من إثبات قدم الصفات والأسماء الإلهية أوصلهم إلى سفسطة عقلية؛ إذ « يتمتع وجود حي عليم قدير لا حياة له ولا علم ولا قدرة، فإثبات الأسماء دون الصفات سفسطة في العقليات وقرمطة في السمعيات » كما « يتمتع وجود ذات مجردة عن الصفات »^(٤)؛ لأن إثبات الذات مجردة عن الصفات بدعة مخالفة للعقول، أول من ابتدأها الجهمية^(٥)، ثم تسربت إلى المعتزلة فالاثني عشرية.

وأصل الخطأ في هذه المسألة عدم التفريق بين مفهوم الذات ومفهوم الصفات؛ فأهل السنة عندما يثبتون الصفات لا يعتقدون بتعدد القدماء - كما يزعم المعتزلة والاثنا عشرية - لأن هذه الصفات ليست ذواتاً مستقلة؛ بل هي أوصاف مرتبطة بالذات، « ومن حكى عن أهل السنة أنهم يثبتون مع الله ذواتاً قديمة بقدمه، وأنه مفتقر إلى تلك الذوات؛ فقد كذب عليهم »^(٦).

وهناك حقيقة منطقية واضحة تقول: « إن صدق المشتق على شيء يقتضي ثبوت

(١) الطحاوية مع شرحها (ص ١٤٢)، المكتب الإسلامي (١٣٩١هـ)، بيروت (ط ٤).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٢).

(٣) أبو محمد عبد الله بن زيد القيرواني (٣١٠ - ٣٨٦هـ): الرسالة القيروانية شرح عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام مالك، مع شرح القيروانية الميسر، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار الفتح، الشارقة (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م)، (ص ٢٤).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٣٤/٢).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) المصدر السابق (١٢٤/٢).

مأخذ الاشتقاق له» (١). فإذا قلنا: زيد غني وقوي؛ فهو يتصف بصفة الغنى وصفة القوة، ووصفه بهاتين الصفتين لا يعني تعدد ذات زيد؛ فذاته واحدة، ولكن صفاته تعددت في أذهاننا.

ووقف أهل السنة متعجبين أمام قول الاثني عشرية: «فقدرته من حيث الوجود حياته، وحياته قدرته، بل هو قادر من حيث هو حي، وحي من حيث هو قادر...؛ لأنه لو كانت مختلفة في الوجود وهي بحسب الفرض قديمة وواجبة كالذات للزم تعدد واجب الوجود، ولانثلمت الوحدة الحقيقية، وهذا ينافي عقيدة التوحيد!» (٢).

والقارئ يعجب من إنكار المعتزلة والاثني عشرية لصفات المعاني، مع أن المتبصر بكتاب الله وسنته يجد أن الوحي قد نسب صفات المعاني إلى الله تعالى، فنسب العلم والقوة إليه؛ قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال: ﴿أَنْزَلْنَاهُ بِعِلْمِهِ﴾ [النساء: ١٦٦]، وقال: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ [فاطر: ١١] وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨] وقال: ﴿أَوْلَتْهُ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وفي الحديث الصحيح: «اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم؛ فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب..» وهو دعاء الاستخارة (٣).

وفي حديث عمار بن ياسر الذي رواه النسائي وغيره أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق...» (٤).

(١) التفتازاني: شرح العقائد النسفية (ص ١٠٠، ١٠١).

(٢) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

(٣) والحديث بتمامه: «عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها كما يعلمنا السورة من القرآن يقول: «إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ثم ليقل: اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - يسميه - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شرٌّ لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به. صحيح البخاري، أبواب التطوع، باب ما جاء في التطوع مثنى مثنى رقم (١١٠٩).

(٤) والحديث بتمامه: «عن عمار بن ياسر أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما كانت الحياة خيراً لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي، اللهم إني أسألك =

« فقد سمى الله ورسوله صفات الله تعالى: علمًا وقدرًا وقوة » (١).

فقال أهل السنة: « لو كان العلم نفس الذات والقدرة أيضًا نفس الذات - كما زعموه - لكان العلم نفس القدرة، فكان المفهوم من العلم والقدرة أمرًا واحدًا » (٢). ووضحوا أن أصل هذا الخطأ هو الخلط و « عدم الفرق بين مفهوم الشيء وحقيقته » (٣). ومن جهة أخرى: إذا كان مذهب أهل السنة والجماعة، والأشاعرة منهم - اعتقاد قدم الذات مع الأسماء والصفات؛ فإننا « نجد عند الأشاعرة منطوقًا آخر غير مفهوم في تفسيرهم للعلاقة بين الذات والصفات؛ فقد ذهب « الأشاعرة ومن تأسّى بهم إلى أن له تعالى صفات موجودة قديمة زائدة على ذاته؛ فهو عالم بعلم قادر بقدرة مريد بإرادة » (٤). ومحل الغموض في مذهب الأشاعرة - علاوة على قولهم: إن الصفات زائدة على ذاته تعالى - أنهم لما سئلوا في تفسير هذه العلاقة بين الذات والصفات قالوا: « صفات الله تعالى ليست عين الذات، ولا غير الذات » (٥)، قال اللقاني عن الله ﷻ:

متكلم ثم صفات الذات ليست بعين ولا بغير الذات (٦)

وعللوا قولهم هذا بأن الصفات « لو كانت هي هو؛ لكان ذلك إنكارًا لوجود الصفات والقول بنفيها، وذلك مذهب المعتزلة، ولو كانت غيره لأصبحت ذاتًا مستقلة قائمة بنفسها؛ وذلك يوجب التعدد والكثرة » (٧). ويرى المفيد قول الأشاعرة هذا بعيدًا عن الصواب، وينسب قائله إلى الجنون والخروج عن المعقول فيقول عمن يعتقد هذا: « ولو علم أنه قد زاد مناقضته فيما رام به الفرق وخرج عن المعقول لاستحبي من ذلك » (٨).

= خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى، وأسألك نعيمًا لا ينفد وقرّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بعد القضاء، وأسألك برد العيش بعد الموت، وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقاك في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة، اللهم زينا بزينة الإيمان واجعلنا هداة مهتدين. « سنن النسائي (٥٤/٣)، كتاب الصلاة: باب نوع آخر منه (أي: من الدعاء)، رقم (١٣٠٥).

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١١٣/٢ - ١١٥).

(٢) المواقيف (٧٠/٣). (٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المصدر السابق (٦٨/٣). (٥) التفتازاني: شرح العقائد النسفية (ص ١٠٢).

(٦) اللقاني: جوهر التوحيد (ص ١٣١).

(٧) انظر: نهاية الإقدام (٢٠٠ - ٢١٠)، عن ا.د. محمد السيد الجليلند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل

(ص ١١٣).

(٨) انظر: المفيد: الفصول المختارة من الفصول والحاسن (ص ٢٨٠) دار الأضواء - بيروت (ط ٤)،

(١٩٨٥ م)، وانظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د. عائشة المناعي (ص ١٥٧، ١٥٨).

والحقيقة أن قول الأشاعرة وكذلك المعتزلة مع الاثني عشرية والجهمية والكرامية - كله مستصعب غامض؛ ذلك أنه خوض فيما لا قدرة للعقل البشري على خوض غماره، وقد أدرك التفتازاني - الماتريدي - هذه الحقيقة فقال في مبحث الصفات: « ولصعوبة هذا المقام ذهب المعتزلة والفلاسفة إلى نفي الصفات، والكرامية إلى نفي قدمها، والأشاعرة إلى نفي غيريتها وعينيتها » (١).

وقد حاول أحد مفكري الاثني عشرية المعاصرين أن يقرب - أو يطور - مذهب الاثني عشرية في الصفات قائلاً: « الصفات الإلهية ليست لها مصاديق مستقلة كل واحدة عن الأخرى، وعن الذات الإلهية؛ بل إن هذه الصفات كلها مفاهيم ينتزعها العقل من مصداق واحد بسيط هو الذات الإلهية المقدسة » (٢). وأنت تقرأ أن الكاتب الاثني عشري قد وضع يده على محز المفصل، فقرر ما ذكره أهل السنة من التفريق بين مفهوم الصفات وحقيقتها، ولو انتبه الشيعة الأوائل لذلك لما أنكروا قدم الصفات. ولكن التعتت في الصفات بإنكار قدمها جاء بسبب الروايات الكثيرات التي أكدت حدوث الأسماء والصفات:.

القول بحدوث صفات المعاني والأسماء في روايات الاثني عشرية:

صرحت رواية عن الأئمة بحدوث الأسماء والصفات: عن أبي جعفر الثاني قال: « والأسماء والصفات مخلوقات، والمعاني والمعني بها هو الله الذي لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف، وإنما يختلف ويأتلف المتجزئ، فلا يقال: الله مؤتلف، ولا: الله قليل، ولا: كثير، ولكنه القديم في ذاته؛ لأن ما سوى الواحد متجزئ، والله واحد لا متجزئ » (٣). وورد عن أمير المؤمنين أنه قال: « أول الديانة معرفة الله، وكمال معرفته توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، والإخلاص نفي الصفات عنه بشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة الموصوف أنه غير الصفة، وشهادتهما جميعاً بالتنبيه على أنفسهما بالحدث الممتنع من الأزل » (٤).

(١) التفتازاني: شرح العقائد النسفية (ص ١٠٤).

(٢) محمد تقى مصباح البيزدي: دروس في العقيدة (ص ١٥٣).

(٣) أصول الكافي (١/١٦٨)، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها.

(٤) القضاءي: دستور معالم الحكم (ص ٣٠٣)، وذكره محمد باقر المحمودي: نهج السعادة في مشترك نهج البلاغة (٣/٣٩) دار التعارف - بيروت (١٣٩٧هـ).

ومن أكثر الصفات التي أنكرت روايات الاثني عشرية قدمها: صفة الكلام؛ فقد سأل أبو بصير أبا عبد الله جعفرًا الصادق: « قال: قلت: فلم يزل الله متكلمًا؟ قال: فقال: إنَّ الكلام صفةٌ محدثةٌ ليست بأزليَّةٍ كان الله ﷻ ولا متكلمٌ » (١). وفي نهج البلاغة: « وإنما كلامه سبحانه فعل منه أنشأه، ومثله لم يكن من قبل ذلك كائنا، ولو كان قديمًا لكان إلهًا ثانيًا » (٢).

إن رأي المعتزلة والاثني عشرية في إثبات خلق القرآن قد تبلور وتوضح في إثباتهم حدوث الأسماء الحسنیة الإلهیة، وهذا ما عبرت عنه هذه الروایات:

عن أبي عبد الله ﷺ قال: « اسم الله غيره، وكلّ شيء وقع عليه اسم شيء فهو مخلوقٌ ما خلا الله، فأما ما عبرته الألسن أو عملت الأيدي فهو مخلوقٌ، والله غايةٌ من غاياته، والمغنيا غير الغاية والغاية موصوفةٌ، وكلّ موصوفٍ مصنوعٌ، وصانع الأشياء غير موصوفٍ بحدٍّ مسمّى » (٣).

وعن أبي عبد الله ﷺ قال: « من عبد الله بالتَّوَهُّم فقد كفر، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك، ومن عبد المعنى بإيقاع الأسماء عليه بصفاته التي وصف بها نفسه فعقد عليه قلبه ونطق به لسانه في سرائره وعلايته؛ فأولئك أصحاب أمير المؤمنين ﷺ حقًا. وفي حديثٍ آخر: أولئك هم المؤمنون حقًا ».

وعن هشام بن الحكم أنه سأل أبا عبد الله ﷺ عن أسماء الله واشتقاقها الله مما هو مشتقٌّ؟ قال: فقال لي: « يا هشام الله مشتقٌّ من إله، والإله يقتضي مألوهًا، والاسم غير المسمّى، فمن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ولم يعبد شيئًا، ومن عبد الاسم والمعنى فقد كفر وعبد اثنين، ومن عبد المعنى دون الاسم فذاك التَّوْحِيد. أفهمت يا هشام، قال فقلت: زدني، قال: إنَّ لله تسعةً وتسعين اسمًا، فلو كان الاسم هو المسمّى لكان كلُّ اسم منها إلهًا، ولكنَّ الله معنًى يدلُّ عليه بهذه الأسماء وكلِّها غيره، يا هشام! الخبز اسمٌ للمأْكول، والماء اسمٌ للمشروب، والثَّوب اسمٌ للملبوس، والثَّار اسمٌ للمحرق » (٤).

وعن عبد الرحمن بن أبي نجران قال: « كتبت إلى أبي جعفر ﷺ أو قلت له: جعلني

(١) أصول الكافي (١٥٩/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٢) نهج البلاغة (١٢٣/٢).

(٣) أصول الكافي (١٦٤/١، ١٦٥)، كتاب التوحيد، حدوث الأسماء.

(٤) السابق (١٤٢/١)، كتاب التوحيد، باب المعبود.

اللَّهُ فذاك نعبد الرحمن الرحيم الواحد الأحد الصّمد؟ قال: فقال: إنّ من عبد الاسم دون المسمّى بالأسماء أشرك وكفر وجحد ولم يعبد شيئاً، بل اعبد الله الواحد الأحد الصّمد المسمّى بهذه الأسماء دون الأسماء، إنّ الأسماء صفاتٌ وصف بها نفسه « (١) » .
وقال أيضاً: « إنّ ربّي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيّاً بلا كيف، لم يزل حيّاً بلا حياة.... كان حيّاً بلا حياةٍ حادثيةٍ » (٢) .

- وقد جاءت رواية تُبين كيفية خلق الأسماء وحدوثها:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إنّ الله تبارك وتعالى خلق اسماً بالحروف غير متصوّت وباللفظ غير منطقي وبالشخص غير مجسّد وبالتشبيه غير موصوفٍ وباللون غير مصبوغٍ، منفيّ عنه الأقطار مبعّد عنه الحدود محجوبٌ عنه حسّ كلّ متوهّم مستترٌ غير مستورٍ، فجعله كلمةً تامّةً على أربعة أجزاءٍ معاً ليس منها واحدٌ قبل الآخر، فأظهر منها ثلاثة أسماءٍ لفاقة الخلق إليها، وحجب منها واحداً وهو الاسم المكنون المخزون فهذه الأسماء التي ظهرت فالظاهر هو الله تبارك وتعالى. وسخر سبحانه لكلّ اسمٍ من هذه الأسماء أربعة أركانٍ؛ فذلك اثنا عشر ركناً، ثم خلق لكلّ ركنٍ منها ثلاثين اسماً فعلاً منسوباً إليها،... وما كان من الأسماء الحسنى حتى تتم ثلاثمائة وستين اسماً، هي نسبةٌ لهذه الأسماء الثلاثة. وهذه الأسماء الثلاثة أركانٌ، وحجب الاسم الواحد المكنون المخزون بهذه الأسماء الثلاثة، وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠] » (٣) .

والمتمعق في روايات الأئمة يجد أن الأئمة إنما كانوا يريدون بالقول بخلق صفات المعاني والأسماء الحسنى: تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقات، وفرعاً من تعدد القدماء مع الذات الإلهية، أمّا إن أمن من هذين المحذورين فلا تجد الروايات حرجاً من القول بأزلية هذه الأسماء والصفات، ودليل ذلك هذه الرواية:

عن أبي هاشم الجعفريّ قال: « كنت عند أبي جعفرٍ الثاني عليه السلام فسأله رجلٌ فقال: أخبرني عن الرّبّ تبارك وتعالى له أسماءٌ وصفاتٌ في كتابه وأسماءه وصفاته هي هو؟ فقال أبو جعفرٍ عليه السلام: إنّ لهذا الكلام وجهين: إن كنت تقول: هي هو أيّ أنّه ذو عددٍ

(١) أصول الكافي (١/١٤٢)، كتاب التوحيد، باب المعبود.

(٢) السابق (١/١٤٣ - ١٤٥)، كتاب التوحيد، باب الكون والمكان، الصدوق: التوحيد (ص ٧٧).

(٣) السابق (١/١٦٤، ١٦٥)، كتاب التوحيد، حدوث الأسماء.

وكثرة؛ فتعالى الله عن ذلك، وإن كنت تقول: هذه الصفات والأسماء لم تنزل؛ فإن لم تنزل محتملٌ معنيين؛ فإن قلت: لم تنزل عنده في علمه وهو مستحقها فنعلم، وإن كنت تقول: لم ينزل تصويرها وهجاؤها وتقطيع حروفها؛ فمعاذ الله أن يكون معه شيءٌ غيره، بل كان الله ولا خلق، ثم خلقها وسيلةً بينه وبين خلقه، يتضرعون بها إليه ويعبدونه، وهي ذكره، وكان الله ولا ذكر والمذكور بالذكر هو الله القديم الذي لم ينزل، والأسماء والصفات مخلوقاتٌ والمعاني والمعاني بها هو الله الذي لا يليق به الاختلاف ولا الائتلاف، وإنما يختلف ويأْتلف المتجزئ، فلا يقال: الله مؤتلفٌ، ولا: الله قليلٌ، ولا: كثيرٌ، ولكنه القديم في ذاته؛ لأن ما سوى الواحد متجزئٌ والله واحدٌ لا متجزئٌ» (١).

فهذا النص يؤكد أن جهد الإمام كان منصباً على إنكار قدم الأسماء من حيث نطقنا بها، لا من حيث أزلتها وقدم اتصاف الله تعالى بها. وهذا متفق عليه، وقد تطرق إليه علماء الكلام من الفرق الأخرى، يقول الباقلاني: «أما الوصف فهو قول الواصف لله تعالى ولغيره بأنه عالم حي قادر منعم متفضل، وهذا الوصف الذي هو كلام مسموع أو عبارة عنه غير الصفة القائمة بالله تعالى التي لوجودها به يكون عالماً وقادراً ومريداً» (٢).

فقد كان هنالك جدل حول الصفات وقدمها بين تلامذة الأئمة؛ فعن جعفر بن محمد ابن حمزة قال: «كتبت إلى الرجل عليه السلام أسأله: إن مواليك اختلفوا في العلم؟ فقال بعضهم: لم ينزل الله عالماً قبل فعل الأشياء، وقال بعضهم: لا نقول لم ينزل الله عالماً؛ لأن معنى يعلم يفعل، فإن أثبتنا العلم فقد أثبتنا في الأزل معه شيئاً، فإن رأيت جعلني الله فداك أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه. فكتب عليه السلام بخطه: لم ينزل الله عالماً تبارك وتعالى ذكره». وجاء في رواية أخرى: «لم ينزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء، كعلمه بالأشياء بعدما خلق الأشياء» (٣).

ولهذا يرى الأستاذ الدكتور السنهوتي أن الهدف من هذه الروايات التنزيه وتأكيد التوحيد، فيقول: «ويبدو من هذه الأخبار أن الأئمة كانوا يهدفون من وراء نفي الصفات الزائدة تأكيد عقيدة التوحيد، لاختلاطهم بالزندقة وأبناء الفرس والثنية» (٤).

(١) أصول الكافي (١/١٦٨)، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها.

(٢) الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم أبو بكر الباقلاني): تهديد الأوائل وتلخيص الدلائل (ص ٢٤٥)، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٧ م) تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر.

(٣) أصول الكافي (١/١٦٠)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٤) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية، إشراف الأستاذ الدكتور محمد كمال =

والذي يهمننا من روايات الاثني عشرية تأكيدها على صفات الله تعالى، دون ذلك التقسيم، فالمهم أنهم يثبتون علم الله وقدرته وباقي الصفات، وهذا المقدار يكفي في مجال العقيدة الصافية، دون ذلك الجدل العقيم عن علاقة الذات بالصفات: يقول محمد الباقر: « كان الله ﷻ ولا شيء غيره، ولم يزل عالماً بما يكون؛ فعلمه به قبل كونه كعلمه به بعد كونه » (١).

نقد تعمق المتكلمين وخوضهم في الصفات الإلهية:

والحقيقة أن البحث عن كيفية ارتباط الذات الإلهية بصفاتها وأسمائها - صعب مستصعب؛ ولذلك لم يكلفنا المولى ﷻ عناء الخوض فيه؛ لأنه خارج نطاق قدرات العقل البشري، ولذلك زلت فيه أقدام معظم المتكلمين.

وأسوق هنا كلام الإمام الغزالي الذي بين فيه وُجُوه هذه المسألة، وعمق وتوسع الخلاف حولها، وأسباب الاختلاف فيها: « قد كثر الخائضون في الاسم والمسمى وتشعبت بهم الطرق وزاغ عن الحق أكثر الفرق؛ فمن قائل: إن الاسم هو المسمى ولكنه غير التسمية، ومن قائل: إن الاسم غير المسمى ولكنه هو التسمية، ومن ثالث معروف بالخذق في صناعة الجدل والكلام يزعم أن الاسم قد يكون هو المسمى، كقولنا لله تعالى: إنه ذات وموجود، وقد يكون غير المسمى كقولنا: إنه خالق ورازق، فإنهما يدلان على الخلق والرزق وهما غيره، وقد يكون بحيث لا يقال: إنه المسمى ولا هو غيره، كقولنا: إنه عالم وقادر، فإنهما يدلان على العلم والقدرة، وصفات الله لا يقال: إنها هي الله تعالى ولا: إنها غيره » (٢).

ثم بين الغزالي أن « الخلاف يرجع إلى أمرين؛ أحدهما: أن الاسم هل هو التسمية أم لا؟ والثاني: أن الاسم هل هو المسمى أم لا؟ والحق أن الاسم غير التسمية وغير المسمى، وأن هذه ثلاثة أسماء متباينة غير مترادفة، ولا سبيل إلى كشف الحق فيه إلا ببيان معنى كل واحد من هذه الألفاظ الثلاثة مفردًا، ثم بيان معنى قولنا: هو هو، ومعنى قولنا: هو غيره؛ فهذا منهج الكشف للحقائق، ومن عدل عن هذا المنهج لم ينجح أصلاً.

... فلذلك لا بد من معرفة معنى الاسم ومعنى المسمى ومعنى التسمية، ومعرفة معنى

= جعفر، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، رسالة دكتوراه عام (١٩٧٧ م)، (ص ١٠٠) .

(١) أصول الكافي (١٥٩/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٢) ورأي الغزالي هذا هو رأي الأشاعرة كما نعلم.

الهوية والغيرية حتى يتصور أن يعرف بعد ذلك أنه هو أو غيره، فنقول في بيان حد الاسم وحقيقته: إن للأشياء وجودًا في الأعيان، ووجودًا في الأذهان، ووجودًا في اللسان. أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي « (١).

فإن كانت معرفة الصفات والأسماء الإلهية تستلزم كل هذا العناء الذي بين الغزالي سبيل تحقيقه؛ فإن في ذلك حرجًا كبيرًا تنزه الله تعالى عن تكليف خلقه به، ولكن هذا العناء إنما جاء من التعمق والتنطع والخوض في أمر ليس للعقل البشري فيه عدة ولا قدرة. لقد « وضع المتكلمون هذه المعاني الصحيحة في هذه الألفاظ المستهجنة، ونفروا الناس من القول بها » (٢). وكان يكفيهم الإيمان بها كما جاءت في لغة العرب.

والحقيقة أن هذا الخوض في معنى الصفة والاسم من المباحث المبتدعة، فإن الصحابة والتابعين ومن تبعهم من سلف الأمة الصالح « لم نشهد لديهم هذا الجدل العقيم في أمور العقائد، الذي وجدناه فيما بعد لدى متكلمي الإسلام من معتزلة وأشاعرة؛ ومن ثم لم تكن مسألة الصفات الإلهية موضع خلاف أو نزاع لدى كبار الأئمة من أمثال مالك وأبي حنيفة والشافعي وأحمد والأوزاعي والثوري وغيرهم » (٣).

« إن هؤلاء الذين أثاروا مشكلة الصفات إنما ابتدعوا للمسلمين مشكلة مزعومة فرقتهم، وجعلت بعضهم يكفر بعضًا، مع أنه كان يكفي في حلها أن توضع وضعًا جيدًا منذ أول الأمر، فيقال: هل تجوز المماثلة بين الله والإنسان؟ فإنها لو حددت على هذا النحو لما تطلبت حلًا، ولعلم واضعوها أنه أولى بهم أن يعترفوا بهذه الصفات دون أن يبحثوا في حقيقتها؛ لأنه ليس في طاقة المخلوق أن يعلم ذات الخالق وصفاته على النحو الذي يعلمه من نفسه وصفاته هو » (٤).

وقد أحسن الإمام الغزالي رحمته الله عندما رد على الزمخشري الذي سأله عن هذه الآية: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] فأجابه الغزالي: إذا استحال أن تعرف نفسك

(١) المقصد الأسنى (ص ٢٤، ٢٥) نشر الحفان والجايي، قبرص (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، تحقيق بسم عبد الوهاب الجايي، الفصل الأول في بيان معنى الاسم والمسمى والتسمية.

(٢) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٦٧).

(٣) المرجع السابق (ص ٩٥).

(٤) ا.د. السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٦٥ - ١٦٧). وانظر: د.

محمود قاسم: مقدمة مناهج الأدلة لابن رشد (ص ٤٥).

بكيفية أو أينية؛ فكيف يليق بعبوديتك أن تصفه تعالى بأين أو كيف، وهو مقدس عن ذلك، ثم جعل الغزالي يقول:

قَلْ لِمَنْ يَفْهَمُ عَنِي مَا أَقُولُ	قَصِّرِ الْقَوْلَ إِذَا شَرَحَ يَطُولُ
ثُمَّ سِرًّا غَامِضًا مِنْ دُونِهِ	قَصُرَتْ وَاللَّهِ أَعْنَاقُ الْفُحُولِ
أَنْتَ لَا تَعْرِفُ إِيَّاكَ وَلَا	تَدْرِي مَنْ أَنْتَ وَلَا كَيْفَ الْوُصُولِ
لَا وَلَا تَدْرِي صِفَاتِ رُكْبَتِ	فِيكَ حَارَتْ فِي خَفَايَاهَا الْعُقُولِ
أَيْنَ مِنْكَ الرُّوحُ فِي جَوْهَرِهَا	هَلْ تَرَاهَا فَتَرَى كَيْفَ تَجُولِ؟
وَكَذَا الْأَنْفَاسُ هَلْ تَخْضُرُهَا؟	لَا وَلَا تَدْرِي مَتَى عَنْكَ تَزُولِ
أَيْنَ مِنْكَ الْعَقْلُ وَالْفَهْمُ إِذَا	غَلَبَ النَّوْمُ، فَقُلْ لِي يَا جَهُولِ
أَنْتَ أَكَلَّ الْجُبْرِ لَا تَعْرِفُهُ	كَيْفَ يَجْرِي مِنْكَ أَمْ كَيْفَ تَبُولِ
فَإِذَا كَانَتْ طَوَايِكَ الَّتِي	بَيْنَ جَنْبَيْكَ كَذَا فِيهَا ضَلُولِ
كَيْفَ تَدْرِي مَنْ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى	لَا تَقُلْ: كَيْفَ اسْتَوَى كَيْفَ النَّزُولِ
كَيْفَ يَحْكِي الرَّبُّ أَمْ كَيْفَ يَرَى	فَلْعَمْرِي لَيْسَ ذَا إِلَّا فَضُولِ
فَهُوَ لَا أَيْنَ وَلَا كَيْفَ لَهُ	وَهُوَ رَبُّ الْكَيْفِ وَالْكَيفِ يَحُولِ
وَهُوَ فَوْقَ الْفَوْقِ لَا فَوْقَ لَهُ	وَهُوَ فِي كُلِّ النَّوَاحِي لَا يَزُولِ
جَلْ ذَاتًا وَصِفَاتٍ وَسَمَا	وَتَعَالَى قَدْرُهُ عَمَا تَقُولِ (١)

ولعل من أسباب خوض المتكلمين - معتزلة وأشاعرة واثني عشرية وغيرهم - في ذات الله تعالى وصفاته العلية: الغرور العقلي والثقة الزائدة بالقدرات الذهنية البشرية. « وقد نتج عن هذه الثقة الكبيرة بالعقل نوع من الإقدام وعدم التهيب في تناول أي مسألة وإبداء الرأي حولها دون خوف أو وجل، أيًا كانت طبيعة الموضوع المراد بحثه. وقد رأينا نفرًا من المعتزلة ينتقدون الصحابة، ويضعفون كثيرًا من الأحاديث الثابتة في الصحيحين؛ لاعتقادهم أنها تخالف ضرورات العقول وقواطع الشرع! » (٢).

(١) ا.د. مصطفى سعيد الحن: مبادئ العقيدة الإسلامية (ص ١٣٦) مطبعة جامعة دمشق الطبعة السادسة.

(٢) د. أحمد قوشتي عبد الرحيم: حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص ٣٩٩).

ولذلك فلا يمكن فهم قول الأشاعرة: (إن صفات الله تعالى ليست ذات الله تعالى ولا عين ذاته)؛ فهذا قول لا يمكن تصوره عقلاً. كما أنه لا يمكن فهم قول الاثني عشرية عن الصفات بأنها (عين الذات)، وأن (كل واحدة منها عين الأخرى).

وهذا ما يعترف به الزنجاني - الاثنا عشري - إذ يقول: « فالبحث في الصفات إن كان بحسب الواقع فهو مع فرض الذات عبارة عما ذكرناه تطويل بلا طائل...، وعلى أي حال بالغوا في البحث عن أي منها عين الذات؟ وأي منها زائد على الذات؟ » (١).

وكذلك قول المعتزلة ثم الاثني عشرية من بعدهم بنفي صفات المعاني (كالحياة والقدرة والإرادة..) وقولهم: إن الله حي بنفسه لا بحياة، لا يمكن تفسيره، وقد وصف الله تعالى نفسه في كتابه بالصفات المعاني والمعنوية، فوصف نفسه بأنه (عليم) و (علّام) وأنه (ذو علم)، قال تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكيف يتصور أصلاً وجود عالم بلا علم، وحي بلا حياة؟ إن كل هذه المسائل مما نهانا الله تعالى عن الخوض فيه، وأخشى أن يكون من يحشر أنفه في الحديث عن علاقة الذات بالأسماء والصفات ممن قال تعالى فيهم: ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ولأجل جهلنا بحقيقة الذات الإلهية فقد جاءت الأوامر النبوية عند أهل السنة والشيعنة لتقول للناس: « تفكروا في الخلق، ولا تتفكروا في الخالق ». وهذه بعض الروايات عن الأئمة تنهي عن الخوض في ذات الله تعالى وصفاته: فمن قول علي عليه السلام: « من تفكر في ذات الله تعالى ترندق » (٢).

وقال أبو جعفر عليه السلام: « تكلموا في خلق الله، ولا تتكلموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحييراً ». وفي رواية أخرى: « تكلموا في كل شيء، ولا تتكلموا في ذات الله » (٣).

(١) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٨، ٢٩)، مؤسسة الأعلمي - بيروت.
(٢) القضاعي: (الحافظ أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي): دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (ص ١٨٦) دار القلم - دمشق (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

(٣) أصول الكافي (١ / ١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية. وأورده الصدوق في كتابه التوحيد، باب: النهي عن الكلام (ص ٤٥٤).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: إِنَّ اللَّهَ عَلَيْكَ يَقُولُ: ﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ ﴾ [النجم: ٤٢].
فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا.

وقال: « إِنَّ النَّاسَ لَا يَزَالُ بِهِمُ الْمُنَاطِقُ حَتَّىٰ يَتَكَلَّمُوا فِي اللَّهِ فَإِذَا سَمِعْتُمْ ذَلِكَ فَقُولُوا:
لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدَ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » (١).

وقال أيضًا: « مَنْ نَظَرَ فِي اللَّهِ كَيْفَ هُوَ؛ هَلَكَ ». وقال أيضًا: « إِنَّ مَلَكًا عَظِيمَ
الشَّأْنِ كَانَ فِي مَجْلِسٍ لَهُ فَتَنَاوَلَ الرَّبَّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ فَفَقَدَ فَمَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ » (٢).
وهذا أمر متفق عليه في روايات أهل السنة والشيعة، فقد « روي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه
قال: العجز عن الإدراك إدراك، والبحث في ذات الله إشراك، سبحانه من لم يجعل سبيلًا
إلى معرفته إلا العجز عن معرفته، ولا ينبغي أن نتوهم فيه كيف؛ لأن الكيف عنه مرفوع » (٣).

ولأجل خطورة مسلك المتكلمين فيما لا قدرة لعقولهم في الوصول إليه؛ جاء نهى
الأئمة عن علم الكلام كله: قال أبو جعفر عليه السلام: « يَا زِيَادُ! إِتَاكَ وَالْخُصُومَاتُ؛ فَإِنَّهَا
تَوْرَثُ الشُّكَّ وَتَهْبِطُ الْعَمَلَ وَتُرَدِّي صَاحِبِهَا وَعَسَىٰ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالشَّيْءِ فَلَا يَغْفِرُ لَهُ، إِنَّهُ
كَانَ فِيْمَا مَضَىٰ قَوْمٌ تَرَكَوْا عِلْمَ مَا وَكَلَّوْا بِهِ وَطَلَبُوا عِلْمَ مَا كَفَوْهُ حَتَّىٰ انْتَهَىٰ كَلَامَهُمْ
إِلَى اللَّهِ فَتَحْتَرِوْا، حَتَّىٰ إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لِيَدْعَىٰ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَيَجِيبُ مِنْ خَلْفِهِ، وَيَدْعَىٰ مِنْ
خَلْفِهِ فَيَجِيبُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ. وَفِي رِوَايَةٍ أُخْرَىٰ: حَتَّىٰ تَاهَوْا فِي الْأَرْضِ » (٤).

وروايات الأئمة تحذر من التفكير في ذات الله، وتدعو إلى التفكير في خلق الله تعالى
للوصول إلى عظمة الله: عن أبي جعفر قال: « إِتَاكُمْ وَالتَّفَكُّرُ فِي اللَّهِ، وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتُمْ أَنْ
تَنْظُرُوا إِلَىٰ عَظَمَتِهِ فَانظُرُوا إِلَىٰ عَظِيمِ خَلْقِهِ ».

ويبين الإمام جعفر الصادق أن ضلالة الإنسان وضعفه ينبغي أن يصدّه عن الخوض في
ذات الله تعالى؛ فالإنسان عاجز عن إدراك بعض المخلوقات؛ فكيف يعرف حقيقة رب
الأرباب؟ قال جعفر الصادق: « يَا بَنَ آدَمَ! لَوْ أَكَلْتُ قَلْبَكَ طَائِرٌ لَمْ يَشْبَعْهُ، وَبَصْرَكَ

(١) أصول الكافي (١/١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

(٢) السابق نفسه، والمعنى ففقد ما كان يعرف هو ولا يدري في أي مكان هو من الحيرة. والحديث موثق
كالصحيح كما ذكر المجلسي: مرآة العقول (١/٣٢٤).

(٣) انظر: ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (دراسة لمنهج ابن تيمية في الإلهيات وموقفه
من المتكلمين والفلاسفة والصوفية) دار قضاء للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة (ط ٥)، (٢٠٠٠م)، (ص ٨١).

(٤) أصول الكافي (١/١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

لو وضع عليه خرق إبرية لغطّاه! تريد أن تعرف بهما ملكوت السموات والأرض؟! إن كنت صادقاً فهذه الشمس خلق من خلق الله؛ فإن قدرت أن تملأ عينيك منها فهو كما تقول « (١) ».

ومما يحسن التنبيه إليه أن هذه النصوص الواردة عن أئمة الشيعة قد ورد معناها في كتب أهل السنة والجماعة؛ فقد استدل الإمام أبو حامد الغزالي على منع الخوض في مسائل علم الكلام بقول النبي ﷺ: « هلك المنتظعون » قالها ﷺ ثلاثاً (٢) وقال: « أي: المتعمقون في البحث والاستقصاء » ثم قال: « وإلى التحريم ذهب الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف، قال ابن عبد الأعلى ﷺ: سمعت الشافعي ﷺ يوم ناظر حفصاً الفرد، وكان من متكلمي المعتزلة يقول: لأن يلقى الله ﷻ العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يلقاه بشيء من علم الكلام... وقال أيضاً: لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد. وقال أيضاً: إذا سمعت الرجل يقول: الاسم هو المسمى أو غير المسمى فاشهد بأنه من أهل الكلام ولا دين له... وقال أحمد بن حنبل: لا يفلح صاحب الكلام أبداً » (٣).

ولكن للأسف لا أهل السنة التزموا بما ورد في كتب أحاديثهم وفقهائهم، ولا الشيعة التزموا بما ورد عن أئمتهم؛ فخاض معظمهم في مباحث الذات الإلهية باسم علم الكلام وتوسعوا فيها، كما سنرى فيما يلي من مباحث صفات الله ﷻ، ولو أنصف الفلاسفة والمتكلمون « لصرحوا أنهم والعامّة سواء في كشف حجب الغيب الإلهي، ولعلموا أن العقل البشري مغلوب على أمره أمام إدراك الذات واكتناه حقيقتها، وفي مثل هذه المرحلة من التفكير يستوي جميع الناس؛ فلاسفة كانوا أم عامة أم دهماء » (٤).

ثالثاً: أنواع الصفات الإلهية في روايات الاثني عشرية:

تقسم الصفات الإلهية عند الاثني عشرية إلى ذاتية « منتزعة من الذات الإلهية بالنظر إلى أنها واحدة لنوع من أنواع الكمالات، أمثال الحياة والقدرة.. ». وفعلية: وهي « نوع من الارتباط بين الله تعالى ومخلوقاته؛ كالحالقية والرازقية » (٥).

(١) أصول الكافي (١٤٨/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب هلك المنتظعون، رقم (٢٦٧٠) .

(٣) أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين (٩٥/١) .

(٤) ا.د. محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (١٢٦) .

(٥) انظر: محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٩٠) .

الفرق بين صفات الذات وصفات الأفعال:

يفرق الشيعة بين صفات الذات وصفات الفعل، « فصفات الذات كالوجود والعلم والقدرة والحياة والسرمدية ونحوها، وهي عين ذاته كما تقدم، وصفات الفعل كالحالقية والرازقية والإحياء والإماتة، فهي حادثة، وهي أمور اعتبارية انتزعت باعتبار المخلوق والمرزوق والمحبي والممات... والضابط في الفرق بين صفات الذات وصفات الفعل أن صفات الذات ما اتصف الله تعالى بها وامتنع اتصافه بضمها كالعلم والقدرة والحياة ونحوها... وصفات الفعل ما يتصف تعالى بها وبضدها، فيقال: إن الله تعالى خلق زيدًا، ولم يخلق ابنه، وأحيا زيدًا وأمات عمرًا » (١).

وقد جاء هذا التفريق بين الصفات في بعض الروايات؛ إذ تقول إحداها: « إنَّ كلَّ شَيْئٍ وُصِفَ اللهُ بِهِمَا وَكَانَا جَمِيعًا فِي الوجودِ فَذَلِكَ صِفَةٌ فَعَلٍ... وصفات الذات تنفي عنه بكلِّ صِفَةٍ مِنْهَا ضِدُّهَا، يُقَالُ: حَيٌّ وَعَالَمٌ وَسَمِيعٌ وَبَصِيرٌ وَعَزِيزٌ وَحَكِيمٌ غَنِيٌّ مَلِكٌ حَلِيمٌ عَدْلٌ كَرِيمٌ. فَالعلمُ ضِدُّه الجهلُ، والقدرةُ ضِدُّه العجزُ، والحياةُ ضِدُّه الموتُ، والعزَّةُ ضِدُّه الذلَّةُ، والحكمةُ ضِدُّه الخطأُ، وضدَّ الحلم العجلة والجهلُ، وضدَّ العدل الجور والظلم » (٢).

وهذا التفريق بين صفات الذات والفعل وجد عند الفرق الأخرى، قال الباقلاني الأشعري: « صفات فعله هي الخلق والرزق والعدل والإحسان والتفضل والإنعام والثواب والعقاب والحشر والنشر، وكل صفة كان موجودًا قبل فعله لها » (٣). غير أنه لا يترتب على تقسيم الأشاعرة للصفات إلى صفات الذات والفعل كبير فرق؛ إذ يعتقدون - كبقاى أهل السنة والجماعة - قدم هذه الصفات، يقول الباقلاني بعد تعريفه صفات الفعل: « غير أن وصفه لنفسه بجميع ذلك قديم؛ لأنه كلامه الذي هو قوله: إني خالق رازق باسط، وهو تعالى لم يزل متكلمًا بكلام غير محدث ولا مخلوق » (٤). وهذا خلاف رأي الاثني عشرية كما سنرى:

- أولًا: صفات الأفعال:

والذي يهمنا بعد تعريف صفة الفعل والتفريق بينها وبين صفات الذات أن نذكر رأي الاثني عشرية في حدوث هذه الصفات، يقول شير: « وليست هذه الصفات قديمة،

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٥، ٦٦).

(٢) أصول الكافي (١/١٦٣)، كتاب التوحيد، باب جملة القول في صفات الذات وصفات الفعل.

(٣) الباقلاني: التمهيد (ص ٢٩٩).

وإلا لزم قدم العالم، فقد كان الله ولم يكن خالقًا ولا رازقًا ولا محييًا ولا مميتًا [!]]، وهذه الصفات ليست صفات كمال حتى يلزم النقص من انتفائها عنه تعالى، بل الكمال إنما هو قدرته تعالى على الخلق وعلمه بمصلحة وقت إيجادهم، بل ربما كان استمرار هذه الصفات وقدمها وأبديتها نقصًا؛ كما إذا كان الصلاح في إيجاد زيد في هذا اليوم لا قبله ولا بعده، فإيجاده قبل ذلك أو بعده نقص على الله تعالى « (١) ».

وقد نص علماء الشيعة على أن هذه الصفات زائدة على الذات، بخلاف صفات الذات التي هي عين الذات عندهم، فقالوا: « هذه الصفات زائدة؛ إذ لا يمكن كون النقيضين عين ذاته تعالى، فلا بد من زيادتها فلا تكون من صفات الذات، وأيضًا يلزم من كونها صفات الذات قدمها مع زيادتها، فيلزم تعدد القدماء، وأيضًا لو كانت من صفات الذات لزم زوالها عند طروء نقيضها، فيلزم التغيير في الصفات الذاتية » (٢).

وإذا قارنا موقف الاثني عشرية من صفات الأفعال بموقف أهل السنة لرأينا أنهم لم يروا صفات الأفعال إلا تجليات لصفة القدرة والإرادة، فالإحياء والإماتة والرزق والخلق والإعدام إنما هي عائدة إلى صفة الإرادة والقدرة الإلهية على مقتضى علم الله تعالى. ولم يقع أهل السنة في مشكلة فهم العلاقة بين القدرة والإرادة القديمتين، ووجود الأشياء المخلوقة وإعدامها بهما؛ إذ يقولون: إن هناك فرقًا بين قدرة الله تعالى وإرادته القديمتين، وتعلقات هاتين الصفتين العظيمتين بالأشياء، فالتعلق (تجزئي حادث) أما الصفة قديمة أزلية، وبالتالي فلم يضطروا إلى القول بحدوث صفات الأفعال؛ لأنهم فرقوا بين الصفة ومتعلقاتها، فهذا الطحاوي يقول في حق الرب جل جلاله وتقدست أسماؤه وصفاته: « له معنى الرب ولا مربوب، ومعنى الخالق ولا مخلوق، وكما أنه محيي الموتى بعدما أحياء؛ استحق هذا الاسم قبل إحيائهم كذلك استحق اسم الخالق قبل إنشائهم » (٣). وذلك إشارة إلى ثبوت صفاته في الأزل قبل خلقه (٤)، أي قبل خلقه تعالى لمتعلقات هذه الصفات. فلا يوافق أهل السنة على جسارة ونكارة قول شبر الاثني عشري: « فقد كان الله ولم يكن

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٥).

(٢) المصدر السابق (ص ٦٥، ٦٦).

(٣) الطحاوية مع شرحها (ص ١٤٢) المكتب الإسلامي (١٣٩١هـ) بيروت (ط ٤). وانظر شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٢).

(٤) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٤٢).

خالقًا ولا رازقًا ولا محييًا ولا مميتًا» ^(١)!! بل يقولون معتقدين قدم صفات الأفعال كصفات الذات: «أما صفات الأفعال كخالق ورازق فالقول فيها أن البارئ تعالى لم يزل موصوفًا بها؛ لأنه يستحيل أن يكون البارئ تعالى في الأزل غير خالق وغير رازق ثم صار كذلك، وإنما المحدثات الخلق والرزق والمخلوق والمرزوق» ^(٢).

ولا يفوت الباحث أن ينبه أن الاثني عشرية - ومعهم كثير من المتكلمين - عندما يدرسون الصفات يؤخرون الحديث عن صفات الأفعال عن صفات الذات، ولكن الباحث ابتداءً الحديث هنا بصفات الأفعال، لقصص الحديث فيها، ولطول الحديث عن صفات الذات، فإن أخرت ربما كلَّ الذهن عن تذكرها، فلا يريد الباحث أن ينسى القارئ في تجواله الطويل في صفات الذات صفات الأفعال.

وسيداً الحديث الآن عما سماه الاثنا عشرية بصفات الذات:

- ثانيًا: صفات الذات:

يقسم الاثنا عشرية صفات الذات لله تعالى إلى صفات ثبوتية وسلبية.

فالصفات الثبوتية هي الصفات التي تثبت للذات الإلهية معاني الكمال.

ويرى علماء الاثني عشرية - ككثير من المتكلمين - أنها صفات لا تنحصر، ولكن أشهرها (القدرة والعلم والإرادة والإدراك - أو السمع والبصر مكانه - والكلام والصدق والسرمدية، أو البقاء). يقول الزنجاني: « ونعتقد أن من صفاته تعالى الثبوتية الحقيقية الكمالية التي تسمى بصفات الجمال والكمال؛ كالعلم والقدرة والغنى والإرادة والحياة هي كلها عين ذاته ليست هي صفات زائدة عليها، وليس وجودها إلا وجود الذات... وأما الصفات الثبوتية الإضافية كالحالقية والرازقية ^(٣)... فهي ترجع في حقيقتها إلى صفة واحدة حقيقية وهي القيومية لمخلوقاته، وهي صفة واحدة تنتزع منها عدة صفات، باعتبار اختلاف الآثار والملاحظات » ^(٤).

أما الصفات السلبية فهي الصفات التي تنفي النقائص عن الذات الإلهية.

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٥).

(٢) البطليموسي: (أبو محمد، عبد الله بن محمد السيد البطليموسي الأندلسي): الحدائق في المطالب العالية الفلسفية العويصة (ص ١٠٥)، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى (١٩٨٨ م).

(٣) لاحظ أن عبد الله شبر سماها صفات أفعال، انظر: حق اليقين (ص ٦٥).

(٤) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

ويفسر عبد الله شبر قوله تعالى: ﴿بَرَكَ أُنْتُمْ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] بأن الجلال هو الصفات السلبية، والإكرام: الصفات الثبوتية ^(١) ولذلك يسميها: صفات الجلال، وهذه التسمية أجمل وأكمل من تسميتها باسم الصفات السلبية، لما قد يتوهمه العقل من مفهوم خاطئ عن لفظ (السلبية). وإن استخدمه كثير من المتكلمين من أهل السنة والاثني عشرية وغيرهم ^(٢).

أ - صفات الكمال (الثبوتية):

لقد أكد علماء الاثني عشرية على أن الصفات الثبوتية لا حصر لها، قائلين: « إن صفات الكمال والجمال لا تنحصر؛ لأن الخلو عن الكمال نقص، وكل نقص منفي، وكل كمال ثابت له تعالى، وإلا استحال كونه صانعا » ^(٣).

ومع ذلك حاول الاثنا عشرية إحصاء هذه الصفات، « فقد اتفقت عبارات أهل الكلام في مقدار عددها، واختلفت عباراتهم في اعتبار معدودها، فجعلها المحقق الطوسي في تجريده ثمانية؛ وهي (القدرة والعلم والحياة والإرادة والإدراك والكلام والصدق والسرمدية). وجعلها بعضهم هذه، لكن اعتبر موضع الإدراك والسمع والبصر ولم يعتبر الصدق، واعتبر البقاء موضع السرمدية، ولا يخفى أولوية اعتبار الإدراك فإنه أعم من السمع والبصر... وبالجملة فوجه الاقتصار على هذه الصفات الثمانية - مع أن صفاته تعالى كثيرة جداً - أن الغرض بيان الصفات الذاتية الحقيقية، وما عدا المذكورات إما إضافة محضة كالحائق والرازق والحفيظ ونحوها، أو ترجع إلى المذكورات كما لا يخفى، على أنه يمكن أيضاً رد جميع الصفات إلى القدرة والعلم، فإن الإرادة والكلام يرجعان إلى القدرة ^(٤). وما سواهما إلى العلم، بل يمكن رد الجميع إلى وجوب الوجود » ^(٥) على حد قول الشاعر:

عبارتنا شتى وحسنك واحد
وكلُّ إلى ذاك الجمال يشير ^(٦)

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٩، ٦٠).

(٢) فالأشاعرة قسموا صفات الله تعالى إلى: صفة ذاتية واحدة هي الوجود. وخمس صفات سلبية: وهي (الوجدانية، والقيام بالنفس، والقدم، والبقاء، والمخالفة للحوادث). وتتقارب هذه الصفات السلبية بين الشيعة والأشاعرة من حيث المضمون.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤).

(٤) رجوع صفتي الإرادة والكلام إلى صفة القدرة غير مسلم به.

(٥) المصدر السابق (ص ٤١، ٤٢).

(٦) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٢).

وقد أرجع الأشاعرة وكثير من المتكلمين الصفات الإلهية الثبوتية إلى غالب هذه الصفات التي ذكرها الاثنا عشرية، ولكنهم سمّوها صفات المعاني: (العلم، القدرة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام، الحياة)^(١):

١ - (صفة العلم):

الآيات القرآنية التي تتحدث عن علم الله تعالى كثيرة، وقد استشهد بها الشيعة وأهل السنة على السواء، كقوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴾ [النساء: ١٢]، وتدل الآيات على شمول علم الله: ﴿ وَاللَّهُ يَكُلِّ شَيْءٍ عَلَيْهِ ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، ﴿ وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه: ٧]، ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَّمْنَا مَا تُوسَّسُ بِهِ، نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴾ [ق: ١٦].

والحقيقة أن ما ذكره المتكلمون سنة وشيعة في التدليل على وجود الله تعالى بدليل الإلتقان والعناية يصلح للتدليل به على علم الله تعالى وحكمته، يقول عبد الله شبر مستدلاً على علم الله تعالى بإتقانه صنع خلقه: « وتأمل في النمل واهتدائها إلى ادخار قوتها وجمعها، وتعاونها على النقل كتعاون الناس على العمل وعمدها إلى قطع الحب لكيلا ينبت ويفسد عليهم، وإن أصابته نداوة أخرجوه ونشروه حتى يجف »^(٢).

وكذلك اعتمد المعتزلة ثم الأشعرية والماتريدية على دليل الإحكام والإلتقان في الكون على إثبات كونه ﷻ عليماً، واستدلوا على هذه الصفة أيضاً بأن المخلوقات تستمد من الخالق بقاءها، فلا بد من كون الخالق عليماً، وقد قال تعالى: ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

واستدلوا بكونه تعالى مريداً على كونه عالماً؛ لأن العلم هو الذي يخصص الإرادة، كما أن مفهوم الكمال يدل على صفة العلم؛ لأن الجهل نقص والله منزه عنه^(٣).

وقد مر قول الاثني عشرية في العلم الإلهي بعدة أطوار حتى استقر على ما يوافق جمهور المتكلمين، فهشام بن الحكم، على ما نقل عنه الأشعري^(٤)، والبغدادي^(٥) -

(١) انظر: جوهره التوحيد (ص ١٠٥ - ١١٣).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٩).

(٣) انظر: الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١١١ - ١١٥).

(٤) انظر: مقالات الإسلاميين (٢٥٦/١).

(٥) انظر: البغدادي: أصول الدين (ص ٩٥)، وقارن فلاسفة الشيعة لعبد الله نعمة (ص ٤٣).

كان يقول بحدوث صفة العلم، والظاهر - كما يرى الدكتور السنهوتي - أن هذا المذهب كان قول عامة الشيعة الأوائل، كهشام بن الحكم وشيطان الطاق، وهو مذهب جهم بن صفوان من قبل (١).

وربما نجد في روايات الأئمة ما ينفي هذا القول عن هشام وإخوانه، فاحتمال وجود التباس (٢) على كتاب الفرق؛ بين قول الاثني عشرية بحدوث متعلقات صفة العلم - وهم أمر متفق عليه - وبين فكرة حدوث صفة العلم أساساً، وهو أمر أنكرته روايات الاثني عشرية أنفسهم؛ ولذلك فإن الذي استقر عليه أخيراً مذهب الاثني عشرية ومعظم المتكلمين: الاعتقاد بقدوم صفة علم الله تعالى وأزليته وشموله. وهذا الاعتقاد هو المتسق مع روايات أئمة أهل البيت المشوثة في كتب الحديث الاثني عشري؛ ومنها: عن أبي بصير قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « لم يزل الله تعالى ربنا والعلم ذاته ولا معلوم... فلما أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم » (٣).

وقد أحسن الاثنا عشرية عندما ردوا « على الفلاسفة الذين رأوا أن تعلق العلم بالجزئيات يستلزم حدوثه » (٤). فقد كانت مسألة علم الله تعالى من المسائل التي زلت فيها أقدام بعض الفلاسفة، فتحدثوا عن قدم صفة العلم، وكذلك عن تعلق صفة العلم الإلهي بالجزئيات. « والحق أن البحث في كيفية علم الله بالأشياء جسارة عقلية ليس لها ما يسوغها؛ لأن هذا أمر يؤود طاقة الإنسان، ويتجاوز آماذ مداركه، وإذا كان الإنسان قد عجز في ضوء علم النفس الحديث عن الوصول إلى نظرية صحيحة في كيفية المعرفة البشرية، فكيف يتناول إلى معرفة كيفية علم الله بالأشياء، مع أنه لا مجال للمقارنة بين

(١) انظر هذه الآراء: الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١١٨). وقد اعتمد على ابن الخياط المعتزلي في (الانتصار).

(٢) وإن كان لهذا الالتباس المحتمل مبرر بعدم نضح أقوال متكلمي الاثني عشرية الأوائل، ولهذا أمثلة كثيرة، منها قول هشام بالجسمية، فإنه بعد قوله بأن الله جسم، قال: « جسمٌ ليس كمثلته شيء!! » أصول الكافي (١٥٨/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الجسم والصورة. ونقل عنه الأشعري (مقالات الإسلاميين ص ٣٠٤) أنه عنى بالجسم الموجود!

(٣) أصول الكافي (١٥٩/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات. وكان الأولى بهذه الرواية أن تعبر عن العلم بكونه تعالى (علماً قديراً) لا بالعلم والقدرة، وكأن التفريق بين صفات المعاني والمعنوية لم يكن قد تبلور ونضح.

(٤) الأستاذ الدكتور السنهوتي: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٢٥).

علم الخالق والمخلوق والقديم والمحدث، إنه لا شك طمع في غير مطمع، واستشراق لغيب يتأبى على الإدراك» (١).

٢ ، ٣ - (الأزلية والسرمدية) :

وهما تعنيان عدم افتتاح الوجود واختتامه (٢). فالله تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣]، « هو الأول بلا أول قبله، والآخر بلا آخر يكون بعده » (٣).

وبمعنى الأزلية جاء وصف المتكلمين لله تعالى بأنه (القديم) (٤) « بمعنى أنه سابق الموجودات » (٥).

فالقديم المطلق هو الله تعالى القائل: ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [المعارج: ٤١]. والباقي المطلق هو الله تعالى، فهو سبحانه لا ينام ولا يموت ولا يفنى، قال تعالى: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَيَحْيِي مَجْمَدِيَهُ وَكَفَىٰ بِهِ إِذْ تُؤَيَّبُ عِبَادَهُ خَيْرًا ﴾ [الفرقان: ٥٨].

والدليل على هاتين الصفتين من العقل: « أنه لو جاز عليه الحدوث في الماضي والانعدام في المستقبل » لاحتاج إلى مؤثر في إيجادهِ وإعدامهِ، فيكون المؤثر أولى بأن يكون هو واجب الوجود، ولأنه لو لم يكن كذلك لم يكن وجوده واجباً ولا أزلياً، فيكون محتاجاً - تعالى الله عن ذلك - بل هو الغني بذاته عما سواه » (٦).

« ولهذا لما سئل الباقر عن الله تعالى: متى كان؟ قال: متى لم يكن حتى أخبرك متى كان؟!، وعن أمير المؤمنين: إنما يقال: (متى كان) لما لم يكن، فأما ما كان فلا يقال: (متى كان). كان قبل القبل بلا قبل، وبعد البعد بلا بعد » (٧).

٤ - (صفة الإدراك) :

يثبت الاثنا عشرية صفة الإدراك لله تعالى، يقول المفيد: « القول في وصف الباري تعالى بأنه سميع بصير وراء ومدرك: وأقول: إن استحقاق القديم سبحانه لهذه الصفات

(١) ا.د. السنهوتى: التنزية والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٢٧).

(٢) الباجوري: شرح جوهره التوحيد (ص ٨٨ ، ٨٩).

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١).

(٤) الباجوري: شرح جوهره التوحيد (ص ٨٨ ، ٨٩).

(٥) المصباح المنير (٢/٤٩٣).

(٦، ٧) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١).

كلها من جهة السمع دون القياس ودلائل العقول» (١).
وقد اختلف أهل السنة في صحة نسبة هذه الصفة لله تعالى، يقول اللقاني مبيناً
الخلاف في هذه الصفة:

وهل له إدراك أو لا؟ خلف عند قوم صح فيه الوقف (٢)

وما دام إثبات الصفات الإلهية يتم من جهة السمع، أي صحة الخبر - كما ذكر المفيد -
فأين نجد صفة (مدرِك) في الكتاب والسنة الصحيحة؟ إن من الملاحظ أن الله تعالى
سمي نفسه في القرآن الكريم بالسميع والبصير، ولم يسم نفسه مدرِّكاً، إنما جاء الفعل
من الإدراك في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ
الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فلو وقف المتكلمون حيث وقف القرآن لكانوا مصيبين، وخصوصاً أنهم قالوا: إن
صفات الله وأسماءه توقيفية، لا مجال للعقول في النقصان منها أو الزيادة عليها:

واختير أن اسماء توقيفية كذا الصفات فاحفظ السمعية (٣)

٥ - (صفة الحياة):

وقد عرفها شير بأنها: «صفة يتأتى معها العلم والقدرة، والدليل على ذلك مضافاً إلى
النقل ثبوت القدرة والعلم له بما تقدم، وثبوتها دليل على الحياة بل لازمها، فهو ﴿الْحَيُّ
الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]» (٤).

وقد أرجع الاثنا عشرية صفة الحياة إلى القدرة والعلم، فقالوا: «حياة الله عين ذاته
كسائر صفاته غير زائدة عليها، ومرجعها إلى القدرة والعلم» (٥). وهذا قريب مما قرره
أهل السنة، فقد جاء في المسامرة: «(والعلم والقدرة) أي الاتصاف بهما (بلا حياة)
أي بلا اتصاف بها (محال)... هي صفة حقيقية قائمة بالذات تقتضي صحة العلم
والقدرة والإرادة» (٦).

(١) المفيد: أوائل المقالات (ص ٥٤)، دار المفيد - بيروت (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م).

(٢) اللقاني: جوهرة التوحيد، مع شرحها للشيخ إبراهيم الباجوري (ص ١٢٠).

(٣) المصدر السابق (ص ١٤٦).

(٤) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٢).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) ابن الهمام (كمال الدين بن همام الدين عبد الواحد بن عبد الحميد الحنفي): «المسايرة في العقائد =

وتنفي الروايات الشيعية أن يكون لله تعالى حياة حادثة: عن أبي جعفر قال: «إن ربي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيًّا بلا كيف، ولم يزل حيًّا بلا حياة... كان حيًّا بلا حياة حادثة» (١).

٦ - (القدرة):

وفي هذه الصفة لا يخرج استدلال الشيعة على ما ذكره أهل السنة وغيرهم، فقدرة الله تعالى لا تحتاج إلى كبير عناء في إثباتها، ولكن الاثني عشرية دخلوا في مسائل كلامية أثناء جدلهم للفرق الأخرى حول مسألة تعلقات صفة القدرة، فقد ردّوا على المعتزلة والأشاعرة في مسألة فعل القبيح وهل يجوز على الله تعالى؟ يقول شبر: «أما قول المعتزلة: إنه لا يقدر على القبيح والشر لاستلزامه الظلم؛ باطل، فإن القدرة على القبيح ليست بظلم، فسبحانه قادر على ذلك منزّه عن فعله، وقد فروا من الظلم ووقعوا في العجز، ونحن بفضل الله نفينا كليًّا منهما عنه تعالى، والمؤمن الصالح قادر على المعاصي والشرور ولا يفعلها مع قدرته عليها لعلمه بقبحها، ولا يقال هو عاجز عنها، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أَلَهَ لِيُعْجِزُهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَبًا﴾ [الحج: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]» (٢).

ويقول أيضًا: «وقول الأشاعرة بنسبة الشر إليه تعالى ووقوعه منه باطل أيضًا؛ لأنه ظلم منافي للحكمة، وهم قد فروا من الشرك في خلق الأفعال زاعمين أن في أفعاله تعالى الشرور، وقد وقعوا في الظلم الذي هو كفر أيضًا، ولا قبح في أفعاله تعالى، بل كلّها خير لا شرّ فيها، ولأن ذلك منافي للقدرة والعلم والحكمة، وخفاء الحكمة لا يدل على عدمها» (٣).

وقد جاءت روايات الاثني عشرية لتؤكد أنه لا ينبغي السؤال عن شمول قدرة الله، وتنتهي عن الافتراضات السخيفة التي لم يرد بها نقل ولم يرض بها عقل، فقد جاء عن جعفر الصادق: «أن إبليس قال لعيسى ابن مريم: أيقدر ربك على أن يدخل الأرض في بيضة؛ ولا تصغر الأرض ولا تكبر البيضة؟ فقال عيسى - عليه الصلاة والسلام -: ويلك!

= المنجية في الآخرة» مع شرحها «المسامرة» للكامل بن أبي شريف (ص ٦٦). دار المعارف الإسلامية - كراتشي.

(١) أصول الكافي (١/١٤٣ - ١٤٥)، كتاب التوحيد، باب الكون والمكان، الصدوق: التوحيد (ص ٧٧).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٣).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٥).

إن الله - تعالى - لا يوصف بعجز، ومن أقدر ممن يلفظ الأرض ويعظم البيضة» (١)..
وقد جاء هذا الجواب مصداق جواب جميل مفحم للخصم من علي ؑ لخصمه
وقد سأله هذا السؤال فقال علي ؑ: « إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز،
والذي سألتني لا يكون » (٢).

إن هذه المسائل ليست مما علم من الدين بالضرورة، ولا مصلحة للخوض فيها من
جميع الفرق الكلامية، ومثلها السؤال الذي رده بعض المتكلمين: هل يجوز للرب أن
يعذب المطيع ويثيب العاصي!!؟ (٣).

تعلق القدرة بالممكنات: « التعلق هو طلب الصفة أمراً زائداً على الذات يصلح لها،
والذي اعتمده المحققون أن التعلق لصفات المعاني فقط » (٤).

وقد أجمع متكلمو الشيعة وأهل السنة على أن « العمل الذي تتعلق به القدرة لا بد
أن يكون ممكن التحقيق، فالشيء المحال في ذاته أو المستلزم للمحال لا تتعلق به القدرة » (٥).
وقال اللقاني - من الأشاعرة:

وقدرة بممكن تعلقت بلا تناهي ما به تعلقت (٦)

(١) الصدوق: التوحيد (ص ١٢٧)، بحار الأنوار (٤ / ١٤٧) .

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٥ ، ٤٦) .

(٣) قال الباجوري: (شرح جوهرة التوحيد ص ٢٢٨ ، ٢٢٩) : « فليست الطاعة مستلزماً للثواب، وليست
المعصية مستلزماً للعقاب، وإنما هما أمارتان عاديتان تدلان على الثواب لمن أطاع والعقاب لمن عصى، حتى
لو عذب الله المطيع وأثاب العاصي، بأن جعل الطاعة أمانة على العذاب، والمعصية أمانة على الثواب لكان منه
ذلك حسناً سبحانه، لا يسأل عما يفعل، وهذا كله بحسب العقل، وأما بحسب الشرع فلا يجوز خلف الوعد
لأنه سفيه، وهو يستحيل عليه سبحانه، وأما الوعيد فهو في حق الكفار واقع لا محالة... أما في حق المؤمنين
فواقع في بعضهم لورود الأخبار ». وهكذا نرى أن الأشاعرة وصلوا في النهاية إلى الاستحالة الشرعية لتعذيب
الطائع وإثابة العاصي، فما فائدة التركيز على الجانب العقلي في المسألة ما دام الأمر شرعياً؟! إن هذا الخوض في
هذه المسألة هو الذي جزأ عليهم بعض الاثني عشرية كالحلي الذي اتهم الأشاعرة بأنهم يعتقدون « أنه تعالى
يفعل الظلم والعبث » ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٣٢)، تحقيق عبد الرحيم مبارك
(ط ١) مؤسسة عاشوراء للتحقيقات، قم.

(٤) الباجوري: شرح جوهرة التوحيد لللقاني (ص ١٣٣) .

(٥) محمد تقى مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٩٥) .

(٦) انظر: مجموعة منظومات أمهات العلوم (ص ١٩) . وشرح جوهرة التوحيد للباغوري (ص ١٣٣) .

٧ - (الإرادة) :

الإرادة صفة من شأنها تخصيص الممكنات ببعض ما يجوز عليها من وجود أو عدم أو مكان أو زمان.. إلخ^(١).

والقدر الواجب اعتقاده في صفة الإرادة متفق عليه بين المسلمين، « ويكفي المكلف أن يعتقد أن أفعال الله تعالى تصدر منه بالإرادة والاختيار بمقتضى الحكمة والمصالح، وأنه تعالى ليس بمجهور فيها »^(٢).

« والدليل على أنه تعالى مرید لأفعال عبده وكاره لبعضها: أنه تعالى أمرهم بالطاعة فيكون مریداً لها، ونهاهم عن المعصية فيكون كارهاً لها؛ إذ إن الحكيم لا يأمر إلا بما يريد ولا ينهى إلا عما يكره، وحيث فإرادته تعالى ترجع إلى العلم بالأصلح، وكرهيته إلى العلم بالمفسدة، وقد صرح بهما في الكتاب والسنة قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ .. ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]... ﴿ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴾ [الإسراء: ٣٨] »^(٣).

وقد عنون شبر لهذه الصفة بقوله: « الإرادة: الأدلة على أنه تعالى مرید كاره »^(٤). وبالمقابلة بين الإرادة والكرهية في هذا العنوان نعلم أن الاثني عشرية فهموا من الإرادة معنى المحبة والرضا!

وقد وقع الاثنا عشرية - والمعتزلة من قبلهم - في تناقض عندما قالوا بأن الله لا يريد الشرور؛ حيث إن الجميع يعلم أنه سبحانه مهيمن على خلقه، ولا يقع منهم شيء إلا بإرادته؛ ولذلك انبرى عبد الله شبر يؤول هذا المذهب، فيقول: « وقد ورد في جملة من الأخبار أنه لا يقع في الوجود شيء إلا بإرادة الله تعالى، وقد ثبت أن الله لا يريد المعاصي والشرور والكفر والزندقة، وأن جميع ذلك غير مراد له تعالى وغير مرضي عنه، ويمكن تطبيق ذلك من عدة وجوه:

الأول: أن مشيئته تعالى وإرادته متعلقة بجميع الموجودات، ولكن بهذا المعنى، وهو أنه أراد تعالى أن لا يكون شيء إلا بعلمه كما يرشد إليه بعض الأخبار.

(١) انظر: كبرى اليقينيات الكونية، أستاذنا الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي (ص ١٢١).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٤، ٥٥).

(٣) المصدر السابق (ص ٥٣). (٤) المصدر السابق (ص ٥٢).

الثاني: أن الإرادة متعلقة بالأشياء كلها، لكن تعلقها بها على وجوه مختلفة؛ لأن تعلقها بأفعال نفسه بمعنى إيجادها والرضا بها، لكونها كلها حسنة واقعة على وجه الحكمة، والشر القليل تابع لخيرات كثيرة فيه وليس مرادًا بالذات، وتعلقها بأفعال العباد إما بالطاعات فهو إرادة وجودها، وإما بالمعاصي فهو إرادة ألا يمنع منها بالجبر والقهر كما صرح به الصدوق في العقائد، أو إرادة عدمها كما فسر به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا...﴾ [الأنعام: ١٠٧] أي لو شاء عدم شركهم على سبيل الإجماع ما أشركوا، ولكن لم يشأ على هذا الوجه لمنافاته غرض التكليف، وإنما شاء على سبيل الاختيار، لتكون لهم القدرة على الفعل والترك، ويدل على ذلك.... عن الرضا: إرادة الله تعالى ومشيتته في الطاعات؛ الأمر بها والرضا لها والمعاونة عليها، وإرادته ومشيتته في المعاصي النهي عنها والسخط لها والخذلان عليها...

الثالث: أن تعلقها بأفعاله تعالى هو ما مر، وتعلقها بأفعالهم على سبيل التجوّز باعتبار إيجاد الآلة والقدرة عليها وعدم المنع منها فكأنه أرادها^(١). وهذا الوجه الثالث قريب من تعريف أهل السنة والجماعة للإرادة.

الرابع: أن إرادته تعالى عبارة عن العلم بما في الفعل من مصلحة^(٢). وهذا القول ضعيف مردود؛ فقد جعل الإرادة بمعنى العلم، وهما ليسا شيئًا واحدًا.

الخامس: أن إرادة العبد لأفعاله مخلوقة لله تعالى، كما صرح به السيد الداماد في تفسير قول الصادق: خلق الله المشيئة بنفسها، ثم خلق الأشياء بالمشيئة؛ حيث قال: المراد هنا إرادة المخلوقين، والمراد أنه تعالى خلق إرادتهم بنفسه، لا بمشيئة أخرى مباينة لها، ثم خلق الأشياء يعني أفعالهم المترتب وجودها على مشيئته بإرادتهم^(٣).

اختلاف الاثني عشرية في صفة الإرادة: لقد ارتبكت أقوال الاثني عشرية في صفة الإرادة بين القول بقدومها أو حدوثها، فهناك نصوص تبين حدوث صفة الإرادة، قال شير: «واعلم أنه ورد في جملة من الأخبار عن الأئمة الأطهار أن إرادته عبارة عن إيجاد وإحداثه، وأنها من صفات الفعل الحادثة كالحالقية والرازقية ونحوها، لا من صفات الذات»^(٤). ومن هذه الروايات قول عاصم بن حميد لجعفر الصادق: «لم يزل

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٣).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) المصدر السابق (ص ٥٤).

(٤) المصدر السابق (ص ٥٤، ٥٥).

الله مريداً؟» قال الصادق: «إن المرید لا يكون إلا المراد معه، لم يزل عالماً قادراً ثم أراد»^(١)، وهو مذهب المفيد، وينسب إلى جمهور الإمامية ومعتزلة بغداد، مخالفين في ذلك الشيخ الصدوق^(٢).

قال المازندراني في شرح هذا الحديث: «فالإرادة من صفات الفعل التي يصح سلبها عنه في الأزل، ولا يلزم منه نقص، لا من صفات الذات كالعلم والقدرة، فإن نفيها عنه يوجب النقص وهو الجهل والعجز، وثبوتها لا يوجب وجود المعلوم والمقدور معه في الأزل. لا يقال قوله (ثم أراد) دل على اتصافه بإرادة حادثة كما هو مذهب طائفة من المعتزلة، وهو باطل لاستحالة اتصافه بالحوادث»^(٣).

لقد كان الخلط بين الصفة القديمة ومتعلقاتها الحادثة - وهي المخلوقات - سبباً من أسباب ارتباك عبارات الاثني عشرية في الصفات، وقد أدرك هذا بعض الاثني عشرية كالطوسي، فذهب إلى أن «الإرادة تطلق على معنيين... أحدهما: الإرادة الحادثة وهي التي فسرت في الحديث بأنها نفس الإيجاد وإحداث الفعل»^(٤)، وثانيهما: الإرادة التي هي من الصفات الذاتية التي لا تتصف الذات بنقيضها أزلاً وأبداً، وهي التي وقع النزاع فيها، فذهب جماعة منهم المحقق إلى أنها نفس علمه الحق بالمصالح والخيرات وعين ذاته الأحدية، وذهب الأشاعرة إلى أنها صفة غير العلم، وأيد ذلك بعض المحققين بما رواه الكليني عن الفتح بن يزيد عن أبي الحسن: «إن لله - تعالى - إرادتين إرادة حتم وإرادة عزم»^(٥).. بأن

(١) الكليني: أصول الكافي (١٠٩/١) طبعة غفاري.

(٢) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د. عائشة المناعي (ص ١٧٨، ١٧٩)، وخالف المفيد بهذا الشيخ الصدوق واتهمه بأنه «عمل على ظواهر الأحاديث المختلفة ولم يكن ممن يرى النظر فيميز بين الحق منها والباطل ويعمل على ما يوجب الحجة ومن عول في مذهبه على الأقاويل المختلفة كانت حاله في الضعف ما وصفناه» انظر: المفيد: تصحيح اعتقادات الإمامية (ص ٤٩) دار المفيد - بيروت (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م).

(٣) المازندراني: شرح أصول الكافي (٢٦٤/٣)، وانظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٥).

(٤) وهذا يجعلها صفة القدرة لا الإرادة، فقد عزم العلماء القدرة بأنها: صفة يتأتى بها إيجاد كل ممكن أو إعدامه أو تكيفه. انظر كبرى اليقينية لأستاذنا الدكتور البوطي (ص ١٢٢).

(٥) الكليني: أصول الكافي، باب الإرادة والمشيفة. النص بتمامه: عن أبي الحسن عليه السلام قال: إن لله إرادتين ومشيتين إرادة حتم وإرادة عزم ينهى وهو يشاء ويأمر وهو لا يشاء أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته أن يأكلا من الشجرة وشاء ذلك ولو لم يشأ أن يأكلا لما غلبت مشيئتهما مشيئة الله تعالى وأمر إبراهيم أن يذبح إسحاق ولم يشأ أن يذبحه، ولو شاء لما غلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله تعالى. لاحظ أن الرواية تجعل الذبيح إسحاق عليه السلام وهو قول شاذ مردود؛ لأن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام.

المراد بإرادة الحتم القديمة وبالعزم الحادثة» (١).

والحقيقة أن أصل الخطأ الذي وقع فيه المفيد والمازندراني وغيرهما في هذه المسألة هو: الخلط بين صفتي الإرادة والقدرة، وكذلك عدم التمييز بين الصفة وتعلقاتها. فصفة القدرة - كما هو مذهب أهل السنة - قديمة، في حين أن تعلقاتها التنجيزية حادثة. وشتان بين الصفة وتعلقاتها.

ثم كيف استساغ شبر وغيره التفريق بين الإرادة والقدرة - من حيث التقسيم - فجعلوا الإرادة صفة فعل، في حين جعلوا القدرة صفة ذات، وهما في الحقيقة سواء في تعلقهما بالممكنات!؟

إفراد الاثني عشرية للعدل بأصل خاص: وإذا كان العدل صفة إرادة الله تعالى وقدرته، فإن الاثني عشرية قد أطلالوا الحديث عن عدل الله تعالى، وأفردوا - والمعتزلة من قبلهم - العدل الإلهي بأصل خاص، ورأوا أنهم انفردوا وتميزوا به عن باقي الأمة، واتهموا الأشاعرة وغيرهم بنسف صفة العدل الإلهي، يقول ابن مطهر الحلي، وهو من أكثر من رأيته يفترى على متكلمي أهل السنة -: « وذهب أهل السنة إلى خلاف ذلك كله، فلم يشبوا العدل والحكمة في أفعاله تعالى، وجوّزوا عليه فعل القبيح والإخلال بالواجب، وأنه تعالى لا يفعل لغرض... وأنه تعالى يفعل الظلم والعبث » (٢)!!

والحقيقة أن المسلمين جميعاً من كل الطوائف مقرون بعدل الله تعالى وحكمته، وأنهما من صفاته ﷻ، وقد قال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضْعَفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى أمراً عباده بالعدل فيما بينهم: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٩٠]؛ ولذلك فإن أصل الاعتقاد بالعدل الإلهي متفق عليه بين الطوائف الإسلامية، وهذا ما أقرّ به بعض كتّاب الاثني عشرية، يقول الأستاذ مرتضى المطهري: « ولا بد من التنبيه على أن منكري العدل لم ينكروه صراحة؛ لأن القرآن الكريم الذي يعتمد عليه كلا الطرفين قاوم الظلم ونفاه عن ذات الله سبحانه، ودعا إلى العدل وأثبتته لذات الله سبحانه » (٣).

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٥).

(٢) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٣٢)، تحقيق عبد الرحيم مبارك (ط ١) مؤسسة عاشوراء للتحقيقات قم.

(٣) مرتضى مطهري: العدل الإلهي (ص ٢١، ٢٢)، الدار الإسلامية (١٤١٧هـ / ١٩٩٧م)، (ط ٣) - بيروت.

ويقول شير: « العدل به يتم التوحيد، وتتوقف عليه سائر الأصول من النبوة والإمامة والمعاد، وهو وإن كان داخلياً في جملة صفاته تعالى... ولكنه أفرد لكثرة متعلقاته وأصوله ليسهل فهمه، وقد قال أمير المؤمنين: التوحيد ألا تتوهمه، والعدل ألا تتهمه، وبالجملة فالعدل هو اعتقاد أنه تعالى عادل في مخلوقاته غير ظالم لهم، لا يفعل قبيحاً ولا يخل بواجب، ولا يجور في قضائه ولا يحيف في حكمه وابتلائه، يثيب المطيعين، وله أن يعاقب العاصين، ولا يكلف الخلق ما لا يطيقون ولا يعاقبهم زيادة على ما يستحقون » (١).

وهذا الكلام لا غبار عليه، غير أن الاثني عشرية يضمون له مسائل فرعية يخالفون بها أهل السنة؛ منها: مسألة الحسن والقبح وأنهما عقليان، وأنه تعالى لا يريد إلا الطاعات ولا يخلق أفعال عباده (٢). بخلاف أهل السنة الذين يرون أن الحسن والقبح شرعيان، لا عقليان، وقد أحسن مرتضى مطهري في بيان هذه المسألة الفرعية عندما قال: « الأشاعرة فسروا العدل تفسيراً خاصاً فقالوا: إن العدل ليست له حقيقة ثابتة من قبل بحيث نستطيع تحديدها وجعلها معياراً ومقياساً لأفعال الباري جل وعلا... فكل ما يفعله فهو عدل، وليس كل ما هو عدل فهو يفعله، فالعدل والظلم متأخران ومتزعمان من فعل الله سبحانه، فالعدل ليس مقياساً لفعل الله، ولكن فعل الله هو مقياس العدل.. أما المعتزلة فقد ناصروا العدل وقالوا: إن العدل له حقيقة مستقلة، ولما كان الله سبحانه حكيمًا وعادلاً فهو ينجز أفعاله حسب معيار العدل » (٣).

وقد حاول بعض المحدثين من دعاة التقريب أن يوضح سلامة القصد في المنهجين في هذه المسائل الفرعية معلناً « أن لكل من الطائفتين المعتزلة والشيعة الإمامية في جانب وأهل السنة والصفوية في جانب آخر - وجهته في الثناء على الكمال الإلهي ». « فالمعتزلة والإمامية يؤثران الدفاع عن جانب العدل الإلهي، أما أهل السنة والصفوية وجماعة من السلف الصالح فإنهم يؤثران جانب الدفاع عن الحرية الإلهية، أي الحرية المطلقة لله سبحانه، وهي الحرية التي لا تقيدتها قيود ولا تعلوها قوة أخرى، والتي يستشهدون لها بقوله: ﴿ لَا يُسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، ولكل من

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٨٣).

(٢) انظر المسائل التي فرعها عبد الله شير عن العدل الإلهي في: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٨٣ - ٩٠).

(٣) مرتضى مطهري: العدل الإلهي (ص ٢١، ٢٢)، الدار الإسلامية (١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م)، (ط ٣) بيروت.

الجانبين المتضادين في نظر المنهج العلمي الحديث وجهة هو موليتها» (١). وعلى كل حال فإن هذه المسألة وأمثالها من المسائل الفرعية، وليست من المسائل الأساسية في العقيدة، والخلاف فيها عريض بين الفرق الإسلامية، ولا يبنني عليها كثير فائدة، وتوشك أن تكون من المشكلات الزائفة، وهذه المشكلات لا تستوجب تأصيل أصل خاص للعقيدة؛ حيث لم يرد في القرآن ولا في السنة تأصيله، وتسمية المعتزلة ومن تبعهم في هذه الفروع العقدية باسم أهل العدل يوهم باستقلالهم لوحدهم بالإيمان بالعدل الإلهي، وهذا من المزاودة على الآخرين، وكأن الطوائف الإسلامية الأخرى قد أنكرت عدل الله في خلقه!!

٨ ، ٩ - (السميع والبصير بلا جارحة):

ورد في كتاب الله تعالى وسنة النبي ﷺ وصف الرب الجليل بالسمع والبصر، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وقد جاءت الروايات عن الأئمة تتحدث عن هاتين الصفتين لله تعالى:

عن أبي هاشم الجعفري قال: « كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام... فسأله رجل: فكيف سمينا ربنا سميعاً؟ فقال: لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأسماع، ولم نصفه بالسمع المعقول في الرأس، وكذلك سميناه بصيراً؛ لأنه لا يخفى عليه ما يدرك بالأبصار من لون أو شخص أو غير ذلك، ولم نصفه ببصر لحظة العين» (٢).

عن الصادق أبي عبد الله عليه السلام أنه قال عن الله عز وجل: « هو سميعٌ بصيرٌ، سميعٌ بغير جارحةٍ وبصيرٌ بغير آلة، بل يسمع بنفسه ويبصر بنفسه، ليس قولِي: إنه سميعٌ يسمع بنفسه وبصيرٌ يبصر بنفسه أنه شيء، والتنفس شيء آخر.. أنه السميع البصير العالم الخبير بلا اختلاف الذات ولا اختلاف المعنى» (٣).

قال المازندراني: « أي ليس في ذاته أجزاء يسمع ببعضها ويبصر ببعضها كما أنه ليس لذاته صفات زائدة عليها قائمة بها لاستحالة التركيب فيه» (٤).

(١) د. حامد حفني داود: تقديمه لكتاب عقائد الإمامية لمحمد رضا المظفر (ص ٢٢، ٢٣)، (ط ٣)، مؤسسة أنصاريان، قم (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

(٢) أصول الكافي (١/١٦٨)، كتاب التوحيد، باب معاني الأسماء واشتقاقها، وباب الفرق ما بين المعاني التي تحت أسماء الله (١/١٧٢، ١٧٣).

(٣) أصول الكافي (١/١٣٨)، كتاب التوحيد، باب في القول بأنه شيء.

(٤) المازندراني: شرح الكافي (٣/٩١).

والحقيقة أن الإمامية وإن كانوا يقرّون بهاتين الصفتين، ولكنهم يرجعونهما إلى صفة العلم، يقول المفيد: « المعنى في جميعها العلم خاصة دون ما زاد عليه في المعنى؛ إذ ما زاد عليه في معقولنا ومعنى لغتنا هو الحس، وذلك مما يستحيل على القديم... ولست أعلم من متكلمي الإمامية في هذا الباب خلافاً، وهو مذهب البغداديين من المعتزلة وجماعة من المرجئة ونفر من الزيدية »^(١)، ويقول عبد الله شبر: « المراد أنه تعالى عالم بجميع المسموعات والمبصرات بلا آلة لما تقدم في العلم، فمرجع هاتين الصفتين إلى العلم »^(٢). ويقول اليزدي: « وأما السميع والبصير فإن فسّرناهما بالعالم بالمسموعات والمبصرات، أو القادر على السمع والإبصار، فتؤول إلى العليم والقدير »^(٣).

وهنا يطرح سؤال: ما دامت صفة العلم تضمن صفتي السمع والبصر، فما الحكمة في أن يفردهما الله تعالى دون العلم؟ يجيب عبد الله شبر عن هذا السؤال بعدة احتمالات: - « إما لأن الله - تعالى - أفردهما بالذكر ووصف بهما ذاته في كتابه. - أو لأن الغرض منهما الرد على من أنكر علمه تعالى بالجزئيات...

- وإما أن يكون الغرض من ذكرهما أن أكثر أفعال المكلفين لما كانت لا تخلو من المسموعات والمبصرات أفردهما - تعالى - بالذكر من مطلق العلم ليكون أزر لهم عن المعاصي وأرغب لهم في الطاعات »^(٤).

وهذا التكلف في رد صفتي السمع والبصر إلى العلم اضطر إليه متكلمو الشيعة؛ لأنه لا يمكنهم رد الأخبار المستفيضة حول هاتين الصفتين، ولولا تواتر الأخبار فيهما لردوهما، ولذلك اعترف علماءهم بأن هاتين الصفتين عرفتا بالسمع دون العقل، وبالنص دون القياس، يقول المفيد: « القول في وصف البارئ تعالى بأنه سميع بصير وراء ومدرك؛ وأقول: إن استحقاق القديم سبحانه لهذه الصفات كلها من جهة السمع دون القياس ودلائل العقول »^(٥).

تأويل صفة الكلام، والقول بخلق القرآن: القرآن الكريم ينسب الكلام إلى الله تعالى:

(١) المفيد: أوائل المقالات (ص ٥٤)، دار المفيد بيروت (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٩١).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١، ٥٢).

(٥) المفيد: أوائل المقالات (ص ٥٤)، دار المفيد - بيروت (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م).

﴿ أَنْظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٥]. ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ ابْنِغْهُ مَأْمَتَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة: ٦].

وقد ثبت أن الله تعالى يكلم ملائكته الكرام: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً.. ﴾ [البقرة: ٣٠]. ويكلم الأنبياء: ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]. ويكلم المؤمنين يوم القيامة: ﴿ سَلَّمْ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨]. ويكلم الكافرين وهم في جهنم: ﴿ قَالَ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨].

وقد أنزل الله تعالى على رسله الكتب السماوية، وهي من كلامه ﷺ. وعقيدة أهل السنة والجماعة أن الله تعالى متكلم، وصفته الكلام.

وخالف هذا المعتزلة وتبعهم الاثنا عشرية، فادعوا أن الكلام ليس صفة من صفات الله الأزلية القديمة، بل هو مخلوق من المخلوقات.

والمصادر التاريخية السنية تؤكد أن أصل هذه الفكرة يهودية صرفة، مؤداها أن التوراة مخلوقة، نشرها لبيد بن أعصم^(١)، ثم أدخلها الزنادقة في الإسلام، فادعوا خلق القرآن كما ادعى أسلافهم خلق التوراة^(٢).

إذن يعتقد الشيعة أن الكلام صفة حادثة، وليست صفة أزلية لله تعالى، ورأيهم هذا مطابق لمذهب المعتزلة، قال عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة: « وأما مذهبنا في ذلك (أي في القرآن) فهو أن القرآن كلام الله تعالى ووحيه وهو مخلوق محدث^(٣)، وقد

(١) هو يهودي عاصر النبي ﷺ وحاول سحره انظر: طبقات ابن سعد (١٩٨/٢)، دار صادر - بيروت (ط ١٩٦٨م).
 (٢) انظر: البداية والنهاية (٣٥٠/٩) لابن كثير، وانظر: مختصر تاريخ دمشق، قال ابن منظور: « سئل أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الغسيل: ممن أخذ ابن أبي دؤاد؟ فقال: من بشر المريسي، وبشر المريسي أخذه من جهم بن صفوان، وأخذه جهم من الجعد بن درهم، وأخذه جعد بن درهم من أبان من طالوت ابن أخت لبيد وختته، وأخذه طالوت من لبيد بن أعصم، اليهودي الذي سحر النبي ﷺ. وكان لبيد يقرأ القرآن، وكان يقول بخلق التوراة، وأول من صنف في ذلك طالوت، وكان طالوت زنديقاً وأفتى الزندقة، ثم أظهره جعد ابن درهم. » مختصر تاريخ دمشق (٢٧٣/٢).

ومن الممكن أن تكون الفكرة من بقايا دين الصابئة، أدخلها الجعد بن درهم؛ حيث كان من أهل حران، وحران هي موطن الصابئة بقايا دين النمرود والكنعانيين، ومذهب هؤلاء في الرب: أنه ليس له إلا صفات سلبية أو إضافية، أو مركب منهما. انظر: الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ٢٠٦).

(٣) القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة (ص ٥٢٨).

ذكر لنا التاريخ ما فعل المعتزلة - من خلال السلطة - بأئمة أهل السنة من أجل مسألة خلق القرآن، كالإمام أحمد والبويطي^(١)، تلميذ الشافعي - وغيرهما.

وقد قام الاثنا عشرية يدافعون عن رأي المعتزلة في خلق القرآن، ويدللون عليه، يقول عبد الله شبر: « وحيث كان الكلام مركبًا من الحروف والأصوات، فالكلام عرض يقوم بالغير وهو حادث ضرورة، فيكون الغير الذي يقوم به الكلام محلًا للحوادث فيكون الغير حادثًا، وحينئذ فمعنى كونه تعالى متكلمًا أنه موجد للكلام في جسم من الأجسام، كما أوجد الكلام وخلق في شجرة الطور لموسى عليه السلام، وكذا في طبقة الأفلاك فتسمع الملائكة، وكذا في قلوب الأنبياء والرسل.... أو يوجد في قلوب الملائكة والأنبياء والأوصياء^(٢) ».

وكيف كان فالغرض من وصفه تعالى بالكلام قدرته تعالى على إيجاد الكلام لعموم قدرته... ونفس الكلام حينئذ من صفات الأفعال الحادثة؛ كالحاقية والرازقية، ويدل على حدوثه العقل والنقل، أما العقل فلأن الكلام مركب من الحروف المتتالية التي يتقدم بعضها بعضًا ويسبق بعضها على بعض فيكون حادثًا، وأما النقل فلقوله تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ ﴾ [الأنبياء: ٢] والذكر هو القرآن؛ لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ الحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]... وقد وصفه الله تعالى بالحدوث^(٣).

وقد ردّ علماء أهل السنة على الاستدلال الاثني عشري، بأن « قولهم باطل وإلحاد، لصرفهم القرآن عن ظاهره المتبادر من غير ضرورة، ويلزمهم أن يسموا الباري - تعالى مصوِّتًا؛ لأنه خلق الأصوات، ونائمًا لأنه خلق النوم، إلى غير ذلك مما لا يليق ولا يصح تعقله وإضافته إلى الرب جل وعلا^(٤) ».

فقوله تعالى: ﴿ .. وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٤]: « إسناد حقيقي لا مجازي، لتأكيد المصدر، والتأكيد يرفع المجاز^(٥) ».

(١) قال ابن كثير: « أبو يعقوب البويطي، وقد مات في سجن الوثائق على القول بخلق القرآن. وكان مثقلًا بالحديد ». البداية والنهاية (٣٦٩/١٠).

(٢) أي الأئمة، ففقيدة الاثني عشرية أن الأوصياء يكلمهم الله من خلال الوحي الذي لا يرونه.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٦).

(٤) علي بن محمد المعروف بالموخر (كان حيًّا عام ١١١٨هـ): مبلِّغ الطالب إلى معرفة المطالب (ص ١٨١)،

(ط ١)، (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م). تحقيق الشيخ حبيب ابن الطاهر.

(٥) المصدر السابق نفسه.

وقد دعم علماء الاثني عشرية رأيهم في مسألة خلق القرآن بروايات عن الأئمة: منها ما رواه أبو بصير عن جعفر الصادق... قال: قلت: « فلم يزل الله متكلمًا؟ قال: فقال: إنَّ الكلام صفةٌ محدثةٌ ليست بأزليَّة. كان الله ﷻ ولا متكلمٌ » (١).

ويتهم بعض الاثني عشرية الحنابلة من أهل السنة بأنهم يقولون يقدم الأصوات والحروف، يقول شبر: « والحنابلة ذهبوا إلى أن كلامه حروف وأصوات قديمة، بل قال بعضهم يقدم الجلد والغلاف » (٢). وهذا القول ليس معبرًا عن مذهب الإمام أحمد وجمهور الحنابلة، ولا هو مذهب أهل السنة والجماعة (٣)؛ إذ « لم يكن في كلام الإمام أحمد ولا الأئمة أنَّ الصَّوت الَّذي تكلم الله به قديمٌ؛ بل يقولون لم يزل الله متكلمًا » (٤).

نصوص عن الأئمة تخالف الاتجاه المعتزلي: وقد جاء عن الأئمة نصوص تخالف ما نقله أئمة الكلام الاثني عشري، منها ما جاء في تفسير العياشي: « عن الرضا أنه سئل عن القرآن؟ فقال:... إنه كلام الله غير مخلوق » (٥).

وفي رجال الكشي: «... إن الكلام ليس بمخلوق.. » (٦).

وفي « التوحيد » لابن بابويه القمي قيل لأبي الحسن موسى ﷺ: « يا ابن رسول الله، ما تقول في القرآن؟ فقد اختلف فيه من قبلنا فقال قوم: إنه مخلوق، وقال قوم: إنه غير مخلوق؟ فقال ﷺ: أما إنني لا أقول في ذلك ما يقولون، ولكنني أقول: إنه كلام الله ﷻ » (٧).

وقد جاء قريبًا من هذا الكلام عن غير واحد من سلف الأمة، ومنهم إمام أهل السنة أحمد بن حنبل؛ فقد « كان أحمد وغيره من السلف ينكرون على من يقول: لفظي بالقرآن مخلوقٌ أو غير مخلوق. يقولون: من قال: هو مخلوقٌ؛ فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوقٌ؛ فهو مبتدعٌ » (٨).

وكتب أهل السنة روت مثل هذا عن جعفر الصادق، كالبهقي في الاعتقاد؛ حيث

(١) أصول الكافي (١٥٩/١)، كتاب التوحيد، باب صفات الذات.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣٦/٣). وقال: « لم يكن في كلام الإمام أحمد ولا الأئمة أنَّ الصَّوت الَّذي تكلم الله به قديمٌ، بل يقولون: لم يزل الله متكلمًا ». مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠٨/٣).

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٠٨/٣). (٥) تفسير العياشي (٨/١).

(٦) رجال الكشي (ص ٤٩٠). (٧) ابن بابويه: التوحيد (ص ٢٢٤).

(٨) مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣٦/٣).

قال بعد ذكر قول جعفر: « فهو عن جعفر صحيح مشهور ». وقال ابن تيمية: « إنه قد استفاض ذلك عن جعفر »^(١).

ومن العجب أن يردّ بعض الاثني عشرية هذه النصوص بحجة أنها خرجت مخرج التقية أو بحجج أخرى؛ كالبروجدي الذي يقول عن إنكار الأئمة خلق القرآن: « ولعلّ المنع من إطلاق الخلق على القرآن إما للتقية مماشاة مع العامة، أو لكونه موهمًا لمعنى آخر أطلق الكفّار عليه بهذا المعنى في قولهم: إن هذا إلا اختلاق »^(٢)!

وقال الصدوق ابن بابويه القمي « إنما امتنعنا من إطلاق المخلوق عليه؛ لأن المخلوق في اللغة قد يكون مكذوبًا، ويقال: كلام مخلوق: أي مكذوب، قال تبارك وتعالى: ﴿ وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ﴾ [العنكبوت: ١٧] أي كذبًا »^(٣)، وإذن فإن عبارة غير مخلوق عنده: « غير مكذوب، لا يعني به أنه غير محدث ».

ولكن هذا القول لم يرق للمجلسي، فقال بكل صراحة: « أقول: الظاهر أن فيه نوعًا من التقية أو الاتقاء لامتناع المخالفين من إطلاق هذا اللفظ على القرآن أشد الامتناع »^(٤). وقد نقل الأشعري في مقالات الإسلاميين أن هشام بن الحكم أنكر خلق القرآن، ولا عجب فهو معدود من أشهر تلامذة الصادق، « قال هشام بن الحكم ومن ذهب مذهبه: إن القرآن صفة لله لا يجوز أن يقال: إنه مخلوق ولا: إنه خالق. هكذا الحكاية عنه، وزاد البلخي في الحكاية أنه قال: لا يقال غير مخلوق أيضًا كما لا يقال: مخلوق؛ لأن الصفات لا توصف، وحكى زرقان عنه أن القرآن على ضربين؛ إن كنت تريد المسموع فقد خلق الله سبحانه الصوت المقطع وهو رسم القرآن، وأما القرآن ففعل الله، مثل العلم والحركة منه، لا هو هو، ولا هو غيره »^(٥).

ولذلك اقترب بعض كتّاب الاثني عشرية المعاصرين من مذهب الأشاعرة في الحديث عن صفة الكلام عندما قالوا: « وأما القرآن الكريم بمعنى هذه الكلمات المكتوبة أو الألفاظ أو المفاهيم الموجودة في الأذهان أو الحقيقة النورانية والمجردة فهو من المخلوقات، إلا أن يقال

(١) الاعتقاد (ص ٣٦)، منهاج السنة (٢٧٨/١)، وقد خرج هذا النص في كتب كثير من كتب أهل السنة الدكتور القفاري (٦٦٢/٢) فراجع للاستزادة.

(٢) تفسير الصراط المستقيم (٣٠٤/١) .

(٣) انظر: التوحيد (ص ٢٢٥)، بحار الأنوار (١١٩/٩٢) .

(٤) بحار الأنوار (٨٤/٥٤) . (٥) مقالات الإسلاميين (ص ٥٨٢، ٥٨٣) .

بأن العلم الإلهي الذاتي هو حقيقة القرآن، وفي هذه الصورة تؤول هذه الصفة إلى صفة العلم الذاتية» (١).

ومن الملاحظ أن رأي المعتزلة والاثني عشرية في القول بأن حقيقة القرآن هي العلم الإلهي، أتى موافقاً لما وصل إليه الأشاعرة، عندما قسموا الكلام إلى نفسي قديم، هو الذي يطلق عليه صفة الكلام، وكلام مخلوق حادث هو الألفاظ والأصوات والخطوط المثبتة في المصاحف، فصار الخطب بين الأشاعرة والمعتزلة ثم الاثني عشرية في هذه المسألة يسيراً (٢).

وإن كان الأولى أن نقف حيث وقف القرآن، وهو ما أيدته بعض روايات أئمة الاثني عشرية التي تنهى عن الخوض في هذه المسألة وأمثالها.

ولا يلام الاثنا عشرية وحدثهم في تعرضهم لمسألة القرآن، ولكن يلام معظم الفرق الكلامية الإسلامية في أنها دخلت سرداباً مظلماً ما استطاعت الخروج منه بسلام، فخاضت فيما لم يجز الخوض فيه، وفيما لا عدة ولا قدرة للخوض فيه، ولا طائل من البحث فيه؛ ولذلك عدّ أستاذنا الدكتور حامد طاهر هذه المسألة من (المسائل المزيفة) التي لا ينبغي عليها عمل ولا فائدة (٣). وقد لاحظ هذه الحقيقة بعض كتّاب الشيعة المعاصرين كاليزدي الذي يقول: « هذه التأويلات حول الكلام الإلهي والقرآن الكريم بعيدة عن الفهم المعرفي للمخاورات ويلزم تجنبها » (٤).

ب - صفات الجلال (الصفات السلبية):

الصفات السلبية سماها عبد الله شبر بصفات الجلال (٥). و« صفات الله تعالى السلبية تنفي النقائص عنه تعالى؛ لأن إثبات الكمال لا يتم إلا بنفي النقائص، كما لا يتم إثبات الحق إلا بنفي الباطل » (٦). وهي « ترجع جميعها إلى سلب واحد هو سلب الإمكان عنه، فإن سلب الإمكان لازمه، بل معناه سلب: الجسمية والصورة والحركة

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٠).

(٢) انظر: كبرى اليقينيات الكونية، للأستاذ الدكتور البوطي (ص ١٢٦).

(٣) د. حامد طاهر: الفلسفة الإسلامية مدخل وقضايا (ص ٨٧)، دار الثقافة العربية - القاهرة.

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١١٠).

(٥) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

(٦) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٩).

والسكون والثقل والخفة، وما إلى ذلك، بل سلب كل نقص» (١).

ويتناول الحديث عنها عند الإمامية: نفي التعدد (وهو صفة الوجدانية) ونفي التجسيم والحلول، ونفي الزمان والمكان ونفي الرؤية... إلخ مما سنتناوله بالتفصيل.

ومما يجدر التذكير به أولاً أن منهج القرآن الكريم في تناول الصفات هو الإجمال في صفات الجلال السلبية، والتفصيل في صفات الكمال الثبوتية، قال تعالى مبيناً صفات الجلال: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ [الحشر: ٢٢]، وَقَرَنَ سُبْحَانَهُ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ إِجْمَالَهُ لَصِفَاتِ الْجَلَالِ السَّلْبِيَةِ بِتَفْصِيلِهِ لَصِفَاتِ الْكَمَالِ الثَّبُوتِيَةِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١] وقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وفصل في صفات الكمال الثبوتية فقال تعالى: ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣]، وقال في موضع واحد من سورة الحشر: ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

ومما يؤسف له أن الذي جرى عليه المتكلمون شيعة وسنة هو عكس المنهج القرآني؛ إذ قاموا بالتفصيل في صفات الجلال السلبية، أكثر من التفصيل في صفات الكمال الثبوتية! فيقولون إنه تعالى « ليس محلاً للحوادث كالنوم واليقظة والحركة والسكون والقيام والقعود... ». وقد أسرف كثير من المتكلمين في تفصيل الصفات السلبية حتى ذكروا ما لا ينبغي ذكره، حتى انتقدهم بعض العلماء في هذا المسلك، مؤكدين أن كثرة التفصيل في الصفات السلبية وضعت غشاوة على العقول، حتى صار مفهوم الإله غير معقول، وأقرب إلى العدم منه إلى الوجود (٢).

بل وصل الأمر عند بعضهم إلى ربط الكمال بنفي النقص دون إثبات بعض جوانب الكمال، يقول الزنجاني: « فغاية ما يجد العقل طريقاً إلى كماله المطلق هو سلب النقائص عنه سبحانه » (٣). وهذا غير مسلم به، فالسلب ليس هو غاية الكمال.

(١) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

(٢) انظر: مثلاً ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٣٣٦/٢).

(٣) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٧).

- تفصيل الاثني عشرية للصفات السلبية تأثر واضح بمنهج المعتزلة:

وإذا رجعنا قليلاً في التاريخ رأينا أن الشيعة الأوائل كانوا مفرطين في الإثبات، حتى وصل بعضهم إلى التجسيم، فلما اختلط الشيعة بالمعتزلة اتجهوا اتجاهًا عكسيًا يفرط في التنزيه، فبعد هذا الغلو في الإثبات بدأ تغير المذهب في أواخر المائة الثالثة؛ حيث تأثر بمذهب المعتزلة في تعطيل الباري سبحانه من صفاته الثابتة له في الكتاب والسنة، وساد اتجاه التعطيل عندهم في المئة الرابعة لما صنف لهم المفيد وأتباعه كالموسوي الملقب بالشريف المرتضى، وأبي جعفر الطوسي، واعتمدوا في ذلك على كتب المعتزلة، وكذلك ما يذكرونه في تفسير القرآن في آيات الصفات والقدر، ونحو ذلك هو منقول من تفاسير المعتزلة (١).

فهم يقولون: « هل يبقى مجال للبحث عن الصفات وهل له طريق إلا الإذعان بكلمة أمير المؤمنين عليه السلام: كمال الإخلاص نفي الصفات عنه » (٢). وصرح علامتهم ابن المطهر بأن مذهبهم في الأسماء والصفات كمذهب المعتزلة (٣) ومنهم من قال: « كمذهب الفلاسفة » (٤).

كما وصفت مجموعة من رواياتهم رب العالمين بالصفات السلبية التي ضمنوها نفي الصفات، فقد روى ابن بابويه أكثر من سبعين رواية تقول إنه تعالى: « لا يوصف بزمان ولا مكان، ولا كيفية، ولا حركة، ولا انتقال، ولا بشيء من صفات الأجسام، وليس حسًا ولا جسمانيًا ولا صورة.. » (٥).

وقال شيخهم محمد الحسيني الشهير بالقزويني (ت ١٣٠٠ هـ) في وصف الله سبحانه: « .. لا جزء له، وما لا جزء له لا تركيب فيه، وما ليس بمركب ليس بجوهر ولا عرض، وما ليس بجوهر ليس بعقل ولا نفس ولا مادة ولا صورة ولا جسم، وما ليس بجسم ليس في مكان ولا في زمان ولا في جهة، ولا في وقت، وما ليس في جهة لا كم له ولا كيف ولا رتبة، وما لا كم له ولا كيف له ولا جهة لا وضع له،

(١) انظر: منهاج السنة (٢٢٩/١ - ٣٥٦)، ود. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٦٤٩/٢).

(٢) الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٨).

(٣) ابن المطهر: نهج المسترشدين (ص ٣٢).

(٤) الطباطبائي: مجالس الموحدين في أصول الدين (ص ٢١).

(٥) انظر: التوحيد، لابن بابويه (ص ٣١) وما بعدها. د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (٦٥١/٢).

وما ليس له وضع ولا في وقت، ولا في مكان لا إضافة له ولا نسبة، وما لا نسبة له لا فعل فيه ولا انفعال، وما ليس بجسم ولا لون ولا في مكان ولا جهة لا يرى ولا يدرك...»^(١).

وبدل أن يتجهوا إلى إثبات الصفات التي أثبتها الله تعالى لنفسه، فهموا أن « نفي صفات النقص تعني صفات الكمال كما أن نفي الجهل يعني العلم »^(٢).

وقد ناقش أهل السنة الاثني عشرية في هذا الرأي، وقالوا: إن نفي صفات النقص عن الله تعالى ليس إثباتاً لصفات الكمال مطلقاً.

كما أن هذه الطريقة في النفي المفضل لا تتفق مع طريقة القرآن، كما لا تتفق مع الفطر السليمة والعقول الصحيحة، بل هي منكرة في مدح البشر للبشر فكيف يوصف بها رب العالمين؛ لأن « هذا النفي المجرد مع كونه لا مدح فيه؛ فيه إساءة أدب، فإنك لو قلت للسلطان: أنت لست بزبال ولا كساح ولا حجام ولا حائك! لأدبك على هذا الوصف وإن كنت صادقاً، وإنما تكون مادحاً إذا أجملت النفي فقلت: أنت لست مثل أحد من رعيتك، أنت أعلى منهم وأشرف وأجلّ. فإذا أجملت في النفي أجملت في الأدب، والتعبير عن الحق بالألفاظ الشرعية النبوية الإلهية هو سبيل أهل السنة والجماعة. والمعطلة يعرضون عما قاله الشارع من الأسماء والصفات، ولا يتدبرون معانيها ويجعلون ما ابتدعوه من المعاني والألفاظ هو المحكم الذي يجب اعتقاده واعتماده »^(٣).

١ - (توحيد الله تعالى: صفة الوحدانية):

الإسلام دين التوحيد « فالتوحيد والنبوة والمعاد، تمثل العقائد الأساسية لكل الأديان السماوية »^(٤). وقد جاءت النصوص القرآنية والنبوية لتؤكد على عقيدة التوحيد، وتحارب الشرك والمشركين، وتبين أن الله واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وفي وجوب طاعته وعبادته وتحكيم شريعته. والنصوص الواردة في ذلك لا يتسع المقام لسردها، ويكفي من باب الإشارة سورة الإخلاص، وقوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

(١) قلائد الخرائد في أصول العقائد (ص ٥٠)، وانظر في مثل هذه الطريقة: ابن المطهر: نهج المسترشدين (ص ٤٥ - ٤٧)، الطبطبائي: مجالس الموحدين في أصول الدين (ص ٢١). وانظر: د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (٦٥٢/٢).

(٢) الطبطبائي: الشيعة في الإسلام (ص ١٢٠)، مركز بقية الله الأعظم للدراسة والنشر - بيروت (١٩٩٩ م).

(٣) ابن أبي العز: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٠٦).

(٤) محمد تقي مصباح البيزدي: دروس في العقيدة (ص ٣١).

وقد أكدت روايات الأئمة على صفة الوحدانية لله تعالى: عن محمد بن مسلم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إن اليهود سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: انسب لنا ربك، فلبث ثلاثاً لا يجيبهم ثم نزلت: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] إلى آخرها».

وعن عبد العزيز بن المهدي قال: سألت الرضا عليه السلام عن التوحيد فقال: « كل من قرأ: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ وآمن بها فقد عرف التوحيد. قلت: كيف يقرؤها؟ قال: كما يقرؤها الناس، وزاد فيه: كذلك الله ربّي، كذلك الله ربّي » (١).

وتؤكد الروايات أن التوحيد فطرة الله تعالى، فقد خلق الله البشر على فطرة التوحيد، بأن أوجد فيهم الاستعداد للإذعان للحق بعد تفهمه وتعقله.

عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سألته عن قول الله ﷻ: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ [الروم: ٣٠] « ما تلك الفطرة؟ قال: هي الإسلام، فطرتهم الله حين أخذ ميثاقهم على التوحيد، قال: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وفيه المؤمن والكافر. وفي رواية أخرى: فطرتهم جميعاً على التوحيد » (٢).

- أدلة صفة الوحدانية:

لقد استدل جمهور المتكلمين على اختلافهم، المعتزلة والأشاعرة والاثني عشرية وغيرهم - بدليل التمانع (٣) لإثبات صفة الوحدانية لله تعالى (٤).

وقد جاءت روايات الشيعة لتدعم هذا الدليل بروايات عن الأئمة.

عن هشام بن الحكم في حديث الزنديق الذي أتى أبا عبد الله عليه السلام وكان من قول أبي عبد الله عليه السلام: « لا يخلو قولك: إنهما اثنان من أن يكونا قديمين قويين، أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويًا والآخر ضعيفًا. فإن كانا قويين فلم لا يدفع كل واحد منهما صاحبه ويتفرد بالتدبير؟ وإن زعمت أن أحدهما قوي والآخر ضعيف ثبت أنه واحد

(١) أصول الكافي (١٤٦/١)، كتاب التوحيد، باب النسبة.

(٢) أصول الكافي (١٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فطرة الخلق على التوحيد قال محققه: الحديث صحيح.

(٣) وخلاصة هذا الدليل كما بينه الإمام في روايته: أنه لو كان هناك إلهان فإما أن يتفقا وإما أن يختلفا، فإن اتفقا على شيء واحد فأوجداه فيلزم ذلك اجتماع المؤثرين أو علتين على محل واحد، وهو محال، وإن اختلفا فأراد أحدهما وجود أمر، وأراد الثاني إعدامه - مثلاً - لزم التمانع والتطارد لعدم المرجح فيلزم عجزهما، وإن ترجحت إرادة أحدهما دل ذلك على كون الآخر عاجز غير مستحق لأن يكون إلهًا. انظر: تفسير ابن كثير (٤٩١/٥)، دار طيبة للنشر والتوزيع، تحقيق سامي بن محمد سلامة (ط ٢)، (١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م).

(٤) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية: د. عائشة المناعي (ص ١٨٦).

كما نقول للعجز الظاهر في الثاني. فإن قلت: إتيهما اثنان لم يخل من أن يكونا متفقين من كل جهة أو مفترقين من كل جهة « (١).

وهكذا نرى أن الإمام قد استخدم دليل التمانع في إثبات صفة الوجدانية. وهو دليل قرآني الأصل يدل عليه قوله تعالى: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَمَّا لَبِثُوا عَلَىٰ بَعْضِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]، وقوله: ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا أُتُوا بِالْحَقِّ لَآتَيْنَاكَ آيَاتٍ مِنْهُنَّ لَوْلَا فَسَدَتِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ بِمَا يَكْفُورُونَ ﴾ [الإسراء: ٤٢]. وقد استدل عليه كثير من العلماء بقوله تعالى: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

والحقيقة أن هذه الآية تدل على الوجدانية بدليل آخر غير دليل التمانع، وهو دليل اتساق الكون ووحدة نظامه التي توصل العقل إلى وجدانية صانعه؛ إذ « ليست الآية مسوقة لتقرير ما يسمى بدليل التمانع، وإنما جاءت لتقرير وحدة الألوهية، ومطلوبها هو نفي الكثرة في الألوهية، ونفي أن يكون هناك شريك يُعبد مع الله. وهذا المطلوب هو الذي سيقت لأجله الآية، ليس مما يستدل عليه بدليل التمانع الذي ذكره المتكلمون، ودليل التمانع إنما يستدل به على نفي التعدد في الربوبية، وفرق كبير بين مطلوب الآية وبين مطلوب المتكلمين؛ فمطلوب الآية هو الاستدلال على وحدة الألوهية بفساد العالم لو وجد من يستحق العبادة مع الله. ومطلوب المتكلمين هو نفي أن يكون هناك رب آخر صانع للعالم « (٢).

ويتجه هذا الاتجاه الطباطبائي - المفسر الشيعي - الذي يبين أن النظام السببي الكوني يدل على أن وراء هذا الكون إلهاً واحداً، ولو كان هناك أكثر من إله لما كان هذا النظام الجاري على نظم واحد (٣).

وهذا الذي نقرؤه من قول الإمام الصادق: « فلما رأينا الخلق منتظماً والفلك جارياً

(١) أصول الكافي (١/١٣٦)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، وقد استشهد بالخبر عبد الله شبر: حق اليقين (ص ٣٥).

(٢) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة (٣/٣٠٤)، وقضية التوحيد بين الدين والفلسفة، أستاذنا الدكتور محمد السيد الجليند (ص ١٤١، ١٤٢) .. (ط ٤)، مكتبة الشباب - القاهرة، مصر (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م). والإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ٢٠٣).

(٣) انظر: الميزان في تفسير القرآن (١٤/٢٦٧). وانظر: د. بكار حاج جاسم: الأثر الفلسفي في التفسير (ص ١٦٧). دكتوراه دار العلوم، القاهرة (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م).

والتدبير واحدًا والليل والنهار والشمس والقمر، دلّ صحّة الأمر والتدبير واتّلاف الأمر على أنّ المدبّر واحدٌ» (١).

- معاني التوحيد:

إذا قارنا بين معاني التوحيد التي ساقها القرآن الكريم، ومعاني التوحيد التي أكد عليها الفلاسفة والمتكلمون سنرى أن وجهتها مختلفة، فالفلاسفة والمتكلمون وجّهوا عنايتهم عند إثبات التوحيد إلى « نفي التعدد والكثرة الخارجية الذاتية»، « وعدم تركيب الذات الإلهية من أجزاء بالفعل، ونفي الصفات الزائدة على الذات، ويعني الإيمان باتحاد الصفات الذاتية مع عين الذات الإلهية» (٢). وأكدوا على « معنى البساطة وعدم التركيب في ذات الله، فجعلوه ماهية بسيطة، فهو واحد من كل وجه، فهو في ماهيته لا تركيب له، ولا اشتراك لغيره معه فيها، ولا جنس له، ولا فصل له، ولا نوع له... وما قدموه لنا من أدلة لا تصلح دليلاً على وجود الله ووحدايته، وإنما يستدل بها على وحدة الواجب العقلي الذي أثبتوه، وفرق بين المطلوبين، بين المطلوب الأنبياء وبين المطلوب ابن سينا والفلاسفة» (٣).

وقد أغفل كثير من المتكلمين عند حديثهم عن وحدانية الله تعالى توحيد الله بالعبادة، وهو مقصود القرآن من معنى التوحيد على الغالب؛ لأن توحيد الذات كانت العرب تعرفه وتقّرّ به، بخلاف توحيد العبادة، « ولم يتعرض المتكلمون لهذا النوع من التوحيد، ولم يتنبه أحد منهم إليه، مع أنه قطب رحي القرآن؛ لأنه يتضمن التوحيد في العلم والقول» (٤).

ولكن هذه النظرة ليست على إطلاقها، فقد جاءت بعض الإشارات من كتاب أهل السنة والشيعة للتأكيد على معنى التوحيد الذي جاء به القرآن، يقول المجلسي في مرآة العقول: « اعلم أن التوحيد يطلق على معانٍ أحدها: نفي الشريك في الإلهية، أي استحقاق العبادة، وهي أقصى غاية التذلل والخضوع؛ ولذلك لا يستعمل إلا في التذلل

(١) أصول الكافي (١/١٣٦)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث، وقد استشهد بالخبر عبد الله شبر: حق اليقين (ص ٣٥).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٥١، ١٥٢).

(٣) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٧٧ - ١٨٠).

(٤) المصدر السابق (ص ٢٠٤).

لله تعالى.... والمخالف في ذلك مشركو العرب وأضرابهم، فإنهم بعد علمهم بأن صانع العالم واحد كانوا يشركون الأصنام في عبادته، كما قال تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ...﴾ [لقمان: ٢٥]. ثانيها: نفي الشريك في صانعية العالم كما قال تعالى: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ...﴾ [الإسراء: ١١١] وأمثالها، وخالف في ذلك الثنوية وأضرابهم. ثالثها: ما يشمل المعنيين المتقدمين وتنزيهه عما لا يليق بذاته وصفاته تعالى من النقص والعجز والجهل والترتب والاحتياج والمكان وغير ذلك من الصفات السلبية، وتوصيفه بالصفات الثبوتية الكمالية. رابعها: يشمل تلك المعاني وتنزيهه سبحانه عما يوجب النقص في أفعاله أيضًا من الظلم وترك اللطف وغيرها، وبالجملة كل ما يتعلق به سبحانه ذاتًا وصفاتًا وأفعالًا إثباتًا ونفيًا «^(١)».

ويقول الشيخ كاشف الغطاء: «يجب على العاقل بحكم عقله عند الإمامية تحصيل العلم والمعرفة بصانعه والاعتقاد بوحدانيته في الألوهية وعدم الشريك له في الربوبية»^(٢)، وهذا منه بيان لمعنى الوحدانية بعيدًا عن الفلسفة، وفيه تأثير بفكرة (التفريق بين توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية) التي أعلنها ابن تيمية في كتبه، وتظهر هذه الفكرة جلية عند اليزيدي؛ حيث يقول: «الإله بمعنى المعبود أو الذي يستحق العبادة والطاعة... الذي يستحق العبادة والطاعة هو الخالق والرب فحسب، وهذه الدرجة من الاعتقاد هي حد النصاب الذي يلزم توفره في كل إنسان بالنسبة للاعتقاد بالله تعالى، أي بالإضافة إلى إيمانه بأن الله واجب الوجود، وأنه الخالق المدبر ومن يخضع العالم لإرادته، يلزم عليه أيضًا أن يؤمن بأنه الذي يستحق العبادة والطاعة»^(٣). ويؤكد على أن «الألوهية لازمة للخالقية والربوبية»^(٤).

«ويقسم عبد الله شبر (١٢٤٢هـ) التوحيد: إلى: توحيد واجب الوجود فلا شريك له في وجوب وجوده، وتوحيد صانع العالم ومدبر النظام، الثالث: توحيد الإله وهو المستحق بالعبادة ونفي الشريك عنه في استحقاق العبودية، والتوحيد في الخلق والرزق

(١) المجلسي: مرآة العقول (١/٢٣٤).

(٢) كاشف الغطاء: أصل الشيعة وأصولها (ص ٦١).

(٣) محمد تقي مصباح اليزيدي: دروس في العقيدة (ص ١٠٢، ١٠٣).

(٤) المصدر السابق (ص ١٥٥).

كما قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَافٌ تُؤَفَّفُونَ﴾ [فاطر: ٣] «^(١).

« ويرى الشيخ شبر إطلاق التوحيد على معان أخرى؛ منها:

- التوحيد في الأمر والنهي، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

- التوحيد في مالكية النفع والضرر، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ...﴾ [الأعراف: ١٨٨].

- التوحيد في التوكل والاعتماد، بأن لا يتكل على غير الله، ولا يعتمد على سواه،

كما قال تعالى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [الزلزل: ٩]، ﴿وَعَلَى اللَّهِ

فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

- التوحيد في المحبة والمودة، فلا يجعل في قلبه حب غير الله، كما قال تعالى:

﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ...﴾ [المائدة: ٥٤]، ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ...﴾

[البقرة: ١٦٥].

- التوحيد في الأعمال، بأن لا يعمل لغير وجه الله، وهو الرياء الذي ورد أنه شرك،

وأن الشرك في بني آدم أخفى من ديب النمل في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء

وقال تعالى: ﴿.. كَأَلَّذِي يَنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ..﴾ [البقرة: ٢٦٥]

وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦] «^(٢).

وإذا كانت تلك المعاني السابقة متفقاً عليها بين المسلمين، فإن الاثني عشرية يضيفون

بناءً على موقفهم من الصفات توحيداً آخر، وهو: «نفي الصفات الزائدة على الذات،

ويعبر عنه بالتوحيد الصفاتي، ويذكر في الروايات بتعبير (نفي الصفات) في مقابل

البعض أمثال الأشاعرة الذين اعتقدوا بأن الصفات الإلهية أمور زائدة على الذات وقالوا

بالقدماء الثمانية»^(٣).

ويرى الشيخ عبد الله شبر أن هذا النوع هو شرط في أصل الإيمان أو كماله فيقول:

«التوحيد في الصفات وعينيتهها ونفي مغايرتها... والمخالف في هذا المقام هو الأشعري

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩ - ٤٦).

(٢) المصدر السابق (ص ٣٧ - ٤٠).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٥١، ١٥٢).

قال بزيادة الصفات ومغايرتها وقدمها، ومن قال بهذا فقد أشرك بالله؛ لأنه يلزم تعدد القدماء» (١).

وهذه النظرة المتعسفة في مسألة اجتهادية بين المتكلمين ليست بجديدة، فقد قال الحلبي في القرن الثامن: «فقال بعضهم وهم جماعة الأشاعرة أن القدماء كثيرون مع الله تعالى، وهي المعاني التي يثبتونها في الخارج كالقدرة والعلم وغير ذلك، فجعلوه - تعالى - مفتقرًا في كونه عالمًا إلى ثبوت معنى هو العلم» (٢).

وسبب هذه النظرة الظالمة المتسرعة: الخلط بين الرأي ولازمه، وعدم فهم الرأي الآخر، فما رآه الاثنا عشرية في الصفات ليس ملزمًا للفرق الأخرى حتى يحكم على أساسه بالتوحيد أو الشرك، كما أن رأي الأشاعرة ليس في ذاته دالًّا على تعدد القدماء، بل هو لازم قولهم بالصفة الزائدة على الذات، والتكفير بلازم القول ليس منهجًا سديدًا معتدًا به بين المسلمين، ثم هذا اللازم هو في تصور الاثني عشرية فقط، وهو أمر ينكره الأشاعرة وغيرهم؛ إذ لم يقل أحد منهم بوجود ذوات قديمة مع الله تعالى.

٢ - (تنزيه الله عن المكان والزمان):

يتفق أهل السنة والاثنا عشرية على أن الله تعالى «ليس بمحتاج في الذات ولا في الصفات إلى الغير والمكان والزمان والكيفية والأدوات والآلات، فإن الله - تعالى - لغني عن العالمين» (٣). «تعالى عن الحدود والغايات والأركان والأعضاء والأدوات، لا تحويه الجهات الست كسائر المبتدعات» (٤).

وقد جاءت نصوص الاثني عشرية للدلالة على التنزيه لله تعالى عن الزمان والمكان ومشابهة المخلوقات، ومن هذه النصوص:

عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال: إن يهوديًا يقال له سبخت جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! جئت أسألك عن ربك، فإن أنت أجبتني عمًا أسألك عنه وإلا رجعت. قال: «سل عمًا شئت». قال: أين ربك؟ قال: «هو في كلِّ مكان، وليس في شيء من المكان

(١) حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧ - ٤٠).

(٢) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٣٨).

(٣) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٠).

(٤) العقيدة الطحاوية (ص ٢٦)، وقد قال صاحب الجوهرة (شرح جوهرة التوحيد ص ١٨٠):

المحدود» قال: وكيف هو؟ قال: « وكيف أصف ربّي بالكيف، والكيف مخلوق، والله لا يوصف بخلقه » (١).

وعن أحمد بن محمد بن خالد بن خالد عن أبيه رَفَعَهُ قال: « اجتمعت اليهود إلى رأس الجالوت (٢)، فقالوا له: إنّ هذا الرجل عالمٌ - يعنون أمير المؤمنين عليه السلام - فانطلق بنا إليه نسأله، فأتوه، فقبل لهم: هو في القصر فانتظروه حتّى خرج. فقال له رأس الجالوت: جئناك نسألك فقال: سل يا يهودي عمّا بدا لك. فقال: أسألك عن ربك متى كان؟ فقال: كان بلا كينونيةٍ كان، بلا كيف كان، لم يزل بلا كمّ وبلا كيف كان، ليس له قبلٌ هو قبل القبل بلا قبل ولا غاية ولا منتهى انقطعت عنه الغاية، وهو غاية كلّ غاية. فقال رأس الجالوت: امضوا بنا فهو أعلم ممّا يقال فيه... وروي أنّه سئل عليه السلام: أين كان ربنا قبل أن يخلق سماءً وأرضاً؟ فقال عليه السلام: أين سؤال عن مكانٍ وكان الله ولا مكان؟! » (٣).

وسأل نافع بن الأزرق أبا جعفر عليه السلام فقال: « أخبرني عن الله متى كان؟ فقال: متى لم يكن حتّى أخبرك متى كان؟ سبحان من لم يزل ولا يزال فردًا صمدًا، لم يتخذ صاحبةً ولا ولدًا ».

وجاء رجلٌ إلى أبي جعفر عليه السلام فقال له: أخبرني عن ربك متى كان؟ فقال: ويلك! إنّما يقال لشيءٍ لم يكن: متى كان. إنّ ربّي تبارك وتعالى كان ولم يزل حيًّا بلا كيفٍ ولم يكن له كان، ولا كان لكونه كون كيفٍ، ولا كان له أين، ولا كان في شيءٍ، ولا كان على شيءٍ ولا ابتدع لمكانه مكانًا، ولا قوي بعدما كوّن الأشياء، ولا كان ضعيفًا قبل أن يكوّن شيئًا، ولا كان مستوحشًا قبل أن يبتدع شيئًا، ولا يشبه شيئًا مذکورًا، ولا كان خلوًّا من الملك قبل إنشائه، ولا يكون منه خلوًّا بعد ذهابه، لم يزل حيًّا بلا حياةٍ وملكًا قادرًا قبل أن ينشئ شيئًا وملكًا جبارًا بعد إنشائه للكون، فليس لكونه كيفٌ ولا له أينٌ ولا له حدٌّ ولا يعرف بشيءٍ يشبهه.

ولا يهرم لطول البقاء ولا يصعق لشيءٍ بل لخوفه تصعق الأشياء كلّها، كان حيًّا

(١) أصول الكافي (١٤٩/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الكلام في الكيفية.

(٢) وهو من أعظم علمائهم وأخبارهم، ويكون الجالوت من ولد داود عليه السلام، والجالوت: هم الجالية الذين جلوا عن بيت المقدس. ذكر ذلك الميرزا أبو الحسن الشعراني. انظر: أصول الكافي (١٤٤/١) رقم (٣).

(٣) أصول الكافي (١٤٣/١ - ١٤٥)، كتاب التوحيد، باب الكون والمكان، الصدوق: التوحيد (ص ٧٧)،

القضاعي: دستور معالم الحكم (ص ٢٦٤).

بلا حياة حادثة، ولا كون موصوف ولا كيف محدود ولا أين موقوف عليه ولا مكان جاور شيئاً، بل حتى يعرف وملك لم يزل له القدرة والملك، أنشأ ما شاء حين شاء بمشيئته، لا يحد ولا يبعث ولا يفنى كان أولاً بلا كيف، ويكون آخرًا بلا أين، وكل شيء هالك إلا وجهه، له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين، ويملك أيها السائل! إن ربّي لا تغشاه الأوهام، ولا تنزل به الشبهات، ولا يحار ولا يجاوزه شيء، ولا تنزل به الأحداث، ولا يسأل عن شيء، ولا يندم على شيء، ولا تأخذه سنة ولا نوم، له ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى.

وعن زرارة قال: « قلت لأبي جعفر عليه السلام: أكان الله ولا شيء؟ قال: نعم كان ولا شيء. قلت: فأين كان يكون؟ قال: وكان متكفًا فاستوى جالسًا وقال: أحلت يا زرارة وسألت عن المكان إذ لا مكان » (١).

وسأل رجل أبا الحسن الرضا فقال: « أخبرني عن ربك متى كان، وكيف كان، وعلى أي شيء كان اعتماده؟ فقال أبو الحسن عليه السلام: إن الله تبارك وتعالى أين أين بلا أين، وكيف وكيف بلا كيف، وكان اعتماده على قدرته » (٢).

وقد كان الأئمة يدحضون شبه المشككين في تنزيه الله تعالى عن المكان، ويلقنون أتباعهم الحجج في ذلك: عن هشام بن الحكم قال: قال أبو شاكر الديصاني: « إن في القرآن آية هي قولنا قلت: ما هي؟ فقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ ۗ ﴾ [الزخرف: ٨٤] فلم أدر بما أجيبه، فحججت فخبّرت أبا عبد الله عليه السلام فقال: هذا كلام زنديق خبيث؛ إذا رجعت إليه فقل له: ما اسمك بالكوفة؟ فإنه يقول: فلان، فقل له: ما اسمك بالبصرة؟ فإنه يقول: فلان، فقل: كذلك الله ربنا في السماء إله وفي الأرض إله وفي البحار إله وفي القفار إله وفي كل مكان إله. قال: فقدمت فأتيت أبا شاكر فأخبرته، فقال: هذه نقلت من الحجاز » (٣).

- إثبات العلو والفوقية بلا تشبيه، وإنكار الحلول:

وإذا كانت النصوص السابقة تؤكد على تنزيه الله تعالى عن الزمان والمكان، فإن هذا

(١) أصول الكافي (١/١٤٣ - ١٤٥)، كتاب التوحيد، باب الكون والمكان، الصدوق: التوحيد (ص ٧٧).

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) أصول الكافي (١/١٣٤)، كتاب التوحيد، باب في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ

إِلَهٌُ ۗ ﴾ [الزخرف: ٨٤]..

لا يمنع من إثبات عقيدة الفوقية والعلو لله - تعالى - على معنى يليق بجلاله: « فقد سئل أمير المؤمنين عليه السلام: بم عرفت ربك؟ قال: بما عزفني نفسه. قيل: وكيف عرفت نفسك؟ قال: لا يشبهه صورة ولا يحسّ بالحواس ولا يقاس بالتأاس، قريب في بعده، بعيد في قربه، فوق كل شيء، ولا يقال: شيء فوقه، أمام كل شيء ولا يقال: له أمام، داخل في الأشياء، لا كشيء داخل في شيء، وخارج من الأشياء، لا كشيء خارج من شيء. سبحان من هو هكذا، ولا هكذا غيره، ولكل شيء مبتدأ » (١).

وعن أبي عبد الله في وصف ربه ﷻ: « لا ظلّ له يمسه وهو يمسه الأشياء بأظلتها.. علا فقرب.. لا تحويه أرضه ولا تقله سماواته حامل الأشياء بقدرته » (٢). وذكر أنه « قرأ في بعض الكتب أن الله تبارك وتعالى يقول: « وعزتي وجلالي وارتفاعي على عرشي! لأقطعن أمل كل أمل من الناس غيري باليأس » (٣).

وعن أبي عبيدة عن أبي جعفر الباقر قال: إن الله ﷻ يقول: « وعزتي وجلالي وعظمتي وارتفاع مكاني لا يؤثر عبد هواي على هوى نفسه إلا كففت عليه ضعيفته وضمنت السماوات والأرض رزقه، وكنت له من وراء كل تجارة كل تاجر » وهناك رواية أخرى فيها: « وعزتي وجلالي وعظمتي وبهائي وعلو ارتفاعي.. » (٤).

وعن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧] فقال: « هو واحدٌ واحدٌ الذات بائنٌ من خلقه وبذلك وصف نفسه، وهو بكلّ شيء محيطٌ بالإشراف والإحاطة والقدرة، لا يعزب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر بالإحاطة والعلم لا بالذات؛ لأنّ الأماكن محدودة تحويها حدود أربعة، فإذا كان بالذات لزمها الحواية » (٥).

وقال أبو الحسن عليه السلام لمن أنكر الله تعالى لأنه لم يدرك بالحواس: « ويلك! لما عجزت

(١) أصول الكافي (١/١٤٠، ١٤١)، كتاب التوحيد، باب أنه لا يعرف إلا به.

(٢) أصول الكافي (١/١٤٦، ١٤٧)، كتاب التوحيد، باب النسبة.

(٣) أصول الكافي (٢/٧١، ٧٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التفويض إلى الله والتوكل عليه، قال المحقق: والحديث ضعيف على المشهور.

(٤) أصول الكافي (٢/١٤٥) كتاب الإيمان والكفر باب (٢٤٨) بعد باب ذم الدنيا.

(٥) أصول الكافي (١/١٧٧)، كتاب التوحيد، باب في قوله تعالى: ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَاقِعُهُمْ ﴾ [المجادلة: ٧].

حواسك عن إدراكه أنكرت ربوبيته! ونحن إذا عجزت حواسنا عن إدراكه أيقننا أنه ربنا بخلاف شيء من الأشياء» (١).

وللاثني عشرية موقف مشكور في محاربة عقيدة الاتحاد والحلول المنحرفتين؛ إذ يعتقد الشيعة «أنه تعالى لا يحل ولا يتحد بغيره كما زعمته بعض الفرق المبتدعة المضلة؛ لأن الحال يفتقر إلى المحل الذي هو فيه والفقر والاحتياج من خواص الممكن... وهو سبحانه موجود في كل مكان لا بمداخلة، خارج عنه لا بمزايلة، ولأن الانتقال من حال إلى حال علامة الزوال، والله لم يزل ولن يزال... وأما الاتحاد وهو صيرورة الشيئين واحداً بلا زيادة ولا نقصان، فهو محال في نفسه غير معقول، والواجب تعالى لو اتحد بغيره لكان هذا ذلك الغير إما واجباً أو ممكناً، فإن كان واجباً لزم تعدد الواجب، وإن كان ممكناً فالحاصل بعد الاتحاد إما أن يكون واجباً أو ممكناً، وانقلاب كل من الممكن إلى الواجب إلى الآخر محال، وما زعمه بعض هؤلاء الكفرة من أن العبد إذا بلغ درجة العرفان وفاز بمنزلة الإيقان اتحد بربه وبطل عنده ما كان يتوهم من الاثنينية والمغايرة بينه وبين ربه وسقط التكليف عنه، مستشهدين بقوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩].. فاسد؛ لأنه لو جاز سقوط العبادات عن العارف الموقن لسقطت عن سند العارفين وسيد الموقنين..، وقد قال تعالى في كتابه: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ۖ قَالُوا لَوْلَا آتَرْنَاكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۖ وَلَوْلَا نَكَّ نَطْعُكُمْ أَلَيْسَ كَيْنَ ۖ وَكُنَّا نَحْوُضَ مَعَ الْخَائِضِينَ ۖ وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الَّذِينَ ۖ حَتَّىٰ أَتْنَا الْيَقِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ - ٤٧]» (٢).

وهذا النص يجمع أهل السنة والجماعة مع الشيعة الاثني عشرية في حرب من أسقط التكليف الشرعية سواء من بعض ضلال المتصوفة أو من غلاة الشيعة الباطنية، وكذلك في حرب دعاة الحلول والاتحاد منهما.

- إنكار الاثني عشرية حديث نزول الرب ﷺ :

وإذا كان أهل السنة يثبتون صحة حديث النزول لله تعالى في الثلث الأخير من الليل، مع تنزيه الله تعالى عن المكان، فيؤمنون بالحديث ويكفلون الكيفية إلى الله تعالى (٣)؛ فإن بعض روايات الاثني عشرية تنكره!

(١) أصول الكافي (١/١٣٤)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦١، ٦٢).

(٣) الحديث رواه البخاري، أبواب التهجد، باب الدعاء والصلاة من آخر الليل، رقم (١٠٩٤)، قال ﷺ: =

ويقول قائلهم: « فأولئك الذين أثبتوا لله مكانًا كالعرش، أو نسبوا له الحركة والهبوط من السماء، أو اعتقدوا بأنه قابل للرؤية بالعين، أو أنه قابل للتحول والتكامل لم يعرفوا الله حق معرفته »^(١). وقد جاء إنكار حديث النزول في روايات نسبوها إلى الأئمة عليهم رضوان الله:

عن يعقوب بن جعفر الجعفري عن أبي إبراهيم عليه السلام قال: « ذكر عنده قوم يزعمون أن الله - تبارك وتعالى - ينزل إلى السماء الدنيا فقال: إن الله لا ينزل ولا يحتاج إلى أن ينزل، إنما منظره في القرب والبعد سواء، لم يبعد منه قريب ولم يقرب منه بعيد، ولم يحتاج إلى شيء، بل يُحتاج إليه، وهو ذو الطول، لا إله إلا هو العزيز الحكيم. أما قول الواصفين: إنه

= « ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟ ». ورواه مسلم، كتاب صلاة المسافرين، باب الترغيب في الدعاء والذكر في آخر الليل والإجابة فيه، رقم (٧٥٨).

قال ابن حجر: « اختلف في معنى النزول على أقوال:

- ١ - فمنهم من حمله على ظاهره وحقيقته وهم المشبهة، تعالى الله عن قولهم.
 - ٢ - ومنهم من أنكر صحة الأحاديث الواردة في ذلك جملة وهم الخوارج والمعتزلة، وهو مكابرة، والعجب أنهم أولوا ما في القرآن من نحو ذلك، وأنكروا ما في الحديث إما جهلاً وإما عناداً.
 - ٣ - ومنهم من أجراه على ما ورد مؤمناً به على طريق الإجمال منزهاً الله تعالى عن الكيفية والتشبيه، وهم جمهور السلف، ونقله البيهقي وغيره عن الأئمة الأربعة والسفيانيين والحماديين والأوزاعي والليث وغيرهم.
 - ٤ - ومنهم من أوله على وجه يليق مستعمل في كلام العرب.
 - ٥ - ومنهم من أفرط في التأويل حتى كاد أن يخرج إلى نوع من التحريف.
 - ٦ - ومنهم من فضل بين ما يكون تأويله قريباً مستعملاً في كلام العرب، وبين ما يكون بعيداً مهجوراً، فأول في بعض وفوض في بعض، وهو منقول عن مالك، وحزم به من المتأخرين ابن دقيق العيد.
- قال البيهقي: وأسلمها الإيمان بلا كيف، والسكوت عن المراد، إلا أن يرد ذلك عن الصادق فيصير إليه، ومن الدليل على ذلك اتفاقهم على أن التأويل المعين غير واجب، فحينئذ التفويض أسلم... وقد حكى أبو بكر ابن فورق أن بعض المشايخ ضبطه بضم أوله على حذف المفعول، أي: ينزل ملكاً. ويقويه ما رواه النسائي من طريق الأغر عن أبي هريرة وأبي سعيد بلفظ (أن الله يهمل حتى يمضي شطر الليل ثم يأمر منادياً يقول: هل من داع فيستجاب له.. الحديث) وفي حديث عثمان ابن أبي العاص (ينادي مناد: هل من داع يستجاب له الحديث) قال القرطبي: وبهذا يرتفع الإشكال « فتح الباري (٣٠/٣).

(١) محمد تقي مصباح الزيدى: دروس في العقيدة (ص ٨٤) وقال في هامش (ص ١٩٤): « نقل القول بأنه تعالى في مكان أو هبوطه من السماء أو رؤيته بالعين عن جماعات من أهل السنة ». وقال أيضاً: « فما حكى عن بعض المتكلمين من أهل السنة من أن العالم في بقائه غير محتاج لله... مثل هذه الآراء بعيدة عن الحقيقة » (ص ٨٧، ٨٨). ومعلوم أن أهل السنة لا يقولون بهذا، بل يقولون إن الله قويم السماوات والأرض.

ينزل تبارك وتعالى. فإمّا يقول ذلك من ينسبه إلى نقص أو زيادة، وكلّ متحرّك محتاج إلى من يحركه أو يتحرّك به، فمن ظنّ بالله الظنون هلك، فاحذروا في صفاته من أن تقفوا له على حدّ تحدّونه بنقص أو زيادة أو تحريك أو زوال أو استنزال أو نهوض أو قعود، فإنّ الله - جلّ وعزّ - عن صفة الواصفين ونعت التاعتين « (١).

ولكن وجدت روايات عن الأئمة تدل على صحة معنى حديث النزول، دون ذكر الكيفية، وتفويض معناه وعلمه إلى الله تعالى، وهو مذهب أهل السنة والجماعة:

عن محمّد بن عيسى قال: كتبت إلى أبي الحسن عليّ بن محمّد عليه السلام: « جعلني الله فداك يا سيدي، قد روي لنا أنّ الله في موضع دون موضع على العرش استوى، وأنّه ينزل كلّ ليلة في التّصف الأخير من الليل إلى السماء الدّنيا، وروي أنّه ينزل عشية عرفة ثمّ يرجع إلى موضعه، فقال بعض مواليك في ذلك: إذا كان في موضع دون موضع فقد يلاقيه الهواء ويتكتّف عليه والهواء جسم رقيق يتكتّف على كلّ شيء بقدره، فكيف يتكتّف عليه - جلّ ثناؤه - على هذا المثال؟ فوقع عليه السلام علم ذلك عنده وهو المقدّر له بما هو أحسن تقديراً. واعلم أنّه إذا كان في السماء الدّنيا فهو كما هو على العرش، والأشياء كلّها له سواء علمًا وقدرةً وملكًا وإحاطةً » (٢).

وكذلك جاءت روايات اثني عشرية صحيحة ظاهرها القول بالمكان أو الجسمية أو مشابهة المخلوقين، ولكن لا بد من نفي المكان والتجسيم الذي يطراً على الذهن بسببها، ثمّ التسليم بعلمها لله تعالى ونفي معرفة كيفيتها، فقد روى الاثنا عشرية عن رسول الله صلى الله عليه وآله: « ستّ خصال من كنّ فيه كان بين يدي الله تعالى وعن يمين الله... يحب المرء المسلم لأخيه ما يحب لنفسه... » (٣).

وعن محمد الباقر قال: « إن المؤمنين إذا التقيا وتصافحا أدخل الله يده بين أيديهما فصافح أشدهما حبّاً لصاحبه » (٤).

وعن جعفر الصادق قال: « إن الله - جلّ ثناؤه - ليعتذر إلى عبده المؤمن الموحج في

(١) أصول الكافي (١٧٦/١)، كتاب التوحيد، باب الحركة والانتقال.

(٢) المصدر السابق (١٧٧/١).

(٣) المصدر السابق (١٧٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب حق المؤمن على أخيه وأداء حقه، قال محققه: والحديث صحيح.

(٤) المصدر السابق (١٨٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المصافحة، قال محققه: الحديث موثق.

الدنيا كما يعتذر الأخ إلى أخيه..» (١). قال محقق الكافي: «نسبة الاعتذار إلى الله - سبحانه - مجازي، وهو كناية عن شموله - سبحانه - له بلطفه وإدخاله في رحمته والنظر إليه بعين عطفه ورضاه فيكون شبيهاً بالمعتذر» (٢).

والذين يهوشون على أهل السنة وينسبونهم إلى التجسيم بإثبات حديث النزول وما شابهه يثبتون من النصوص ما يساويه، فيستشهدون بحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «يا علي! إذا كان يوم القيامة أخذت بحجزة الله ﷻ وأخذت أنت بحجرتي، وأخذ ولدك بحجرتك، وأخذ شيعة ولدك بحجرتهم، فترى أين يؤمر بنا؟» (٣).

ويصفون الأئمة بالجلوس على العرش: وتقول نهاية الرواية، على لسان الأئمة: «ثم يؤتى بنا فنجلس على عرش ربنا..» (٤)!

وقد وجد الدكتور القفاري في كتب الشيعة إثبات حديث النزول ثم تحريفه وحذفه: «قال سائل لأبي عبد الله: تقول إنه ينزل إلى السماء الدنيا، قال أبو عبد الله: نقول بذلك؛ لأن الروايات قد صححت به والأخبار» (٥)، يقول الدكتور القفاري: «وقد عزاه المجلسي إلى كتاب التوحيد لابن بابويه، وقد رجعت إلى كتاب التوحيد فوجدت الرواية، إلا أن النص الذي يدل على النزول قد حذف، لكن محقق الكتاب أشار في الحاشية إلى وجود هذا النص في بعض النسخ الخطية للكتاب، ولكنه لم يثبت في الصلب لعدم موافقته لمشربه» (٦). ومثل هذا المعنى جاء في تفسير القمي أصل أصول التفاسير عندهم كما أثبت ذلك صاحب البحار (٧)، وإن كان ناشر الكتاب والمعلق عليه أضاف إليه ما يغير معناه؛ حيث قال: «ينزل أمره» (٨)، ولم يتفطن أن بقية النص تكشف ما زاده فيه، حيث جاء النص: «إن الرب تبارك وتعالى ينزل كل ليلة... فإذا طلع الفجر

(١) أصول الكافي (٢/٢٦٠٦) كتاب الإيمان والكفر، باب فضل فقراء المسلمين. وقال محققه: والحديث ضعيف على المشهور.

(٢) المصدر السابق (٢/٢٦٠٦).

(٣) مقدمة محقق منهاج الكرامة لابن مطهر الحلي (ص ١٩)، ونسبه لمسند الفردوس للدليمي (٥/٣٢٤). و «أصل الحجزة: موضع شد الإزار، ثم قيل للإزار حجة للمجاورة. واحتجز الرجل بالإزار إذا شده على وسطه. فاستعار للاعتصام والاتجاه والتمسك بالشيء والتعلق به». ابن الأثير: النهاية في غريب الأثر (١/٨٩٧).

(٤) تفسير العياشي (٢/٣١٢)، البحراني: البرهان (٢/٤٣٩)، المجلسي: بحار الأنوار (٣/٣٠٢).

(٥) بحار الأنوار (٣/٣٣١).

(٦) انظر: التوحيد لابن بابويه (ص ٢٤٨).

(٧) انظر: تفسير القمي (٢/٢٠٤).

(٨) بحار الأنوار (٣/٣١٥).

عاد الرب إلى عرشه» (١). ولا يخفى ما فيه من الغلو في الإثبات في قوله: «ثم عاد الرب إلى عرشه» (٢)، فإن هذه الزيادة لا وجود لها في روايات أهل السنة.

فما يبرر به الاثنا عشرية هذه الأحاديث، وما يؤولونها به وما يجيبون عليها؛ يجيب بمثله أهل السنة عن حديث النزول وأشباهه؛ حيث يتفق الجميع على الإيمان والتسليم بها، مع العجز عن معرفة الكيفية. أما أن يتهم كل طرف منهما الآخر بالقول بالجهة أو المشابهة، ويتغافل عما في جعبته من نصوص تثبت قريئاً مما يشتهه الطرف الأول أو أشدّ، فليس من المنهج العلمي المنصف في شيء.

٣ - (نفي الجسمية عن الله ﷻ):

عن سهل قال: كتبت إلى أبي محمد عليه السلام سنة خمس وخمسين ومائتين: «قد اختلف يا سيدي أصحابنا في التوحيد، منهم من يقول هو جسم، ومنهم من يقول هو صورة، فإن رأيت يا سيدي أن تعلمني من ذلك ما أقف عليه ولا أجوزه فعلت متطوّلاً على عبدك فوقّع بخطه عليه السلام: سألت عن التوحيد وهذا عنكم معزول، الله واحدٌ أحدٌ لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحدٌ، خالقٌ وليس بمخلوقٍ يخلق - تبارك وتعالى - ما يشاء من الأجسام وغير ذلك، وليس بجسمٍ ويصوّر ما يشاء وليس بصورة، جلّ ثناؤه وتقدّست أسماؤه أن يكون له شبهة هو لا غيره ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]» (٣).

وعن عليّ بن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «سمعت هشام بن الحكم يروي عنكم أنّ الله جسمٌ صمدٌ نورٌ معرفته ضرورةٌ يمتّ بها على من يشاء من خلقه فقال عليه السلام: سبحان من لا يعلم أحدٌ كيف هو إلا هو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] لا يحدّ ولا يحسّ ولا يجسّ ولا تدركه الأبصار ولا الحواسّ ولا يحيط به شيءٌ ولا جسمٌ ولا صورةٌ ولا تخطيطٌ ولا تحديّدٌ».

ويردّ الأئمة على شبهة أن إثبات الوجود تحديّد لله تعالى: «قال له السائل: فقد حددته إذ أثبت وجوده قال أبو عبد الله عليه السلام: لم تحدّه ولكنّي أثبتته؛ إذ لم يكن بين النفي والإثبات منزلة قال له السائل: فله إثنية ومائية؟ قال: نعم لا يثبت الشيء، إلا بآئيتين ومائيتين. قال له

(١) انظر: بحار الأنوار (٣/٣١٥)، تفسير القمي (٢/٢٠٤).

(٢) انظر: الدكتور القفاري: مذهب الشيعة (٢/٦٧١).

(٣) أصول الكافي (١/١٥٦)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى.

السائل: فله كيفية؟ قال: لا؛ لأنّ الكيفية جهة الصّفة والإحاطة، ولكن لا بدّ من الخروج من جهة التعطيل والتشبيه؛ لأنّ من نفاه فقد أنكره ودفع ربوبيته وأبطله، ومن شبهه بغيره فقد أثبتّه بصفة المخلوقين المصنوعين الذين لا يستحقّون الربوبية، ولكن لا بدّ من إثبات أنّ له كيفية لا يستحقّها غيره ولا يشارك فيها ولا يحاط بها ولا يعلمها غيره» (١).

وإذا كان ابن المطهر الحلي يتهم جماعة من أهل السنة والجماعة بالقول بالتجسيم، وهم من ذلك برآء، فيقول: «البحث الثالث: أنه تعالى ليس بجسم، أطبق العقلاء على ذلك إلا أهل الظاهر كداود والحنابلة كافة، فإنهم قالوا: «إنه تعالى جسم يجلس على العرش، ويفضل عنه من كل جانب ستة أشبار بشبره، وأنه ينزل في كل ليلة على حمار» (٢)!!؛ فإن هذا من باب التعصب والافتراء على المذاهب الأخرى والتحامل عليها، والخلط بين أقوال سادتها وأقوال شذاذها، وصحيح أخبارها وسقيم رواياتها؛ ولذلك لا يقبل قول فرقة من الفرق في حق فرقة أخرى حتى يتأكد من كتب هذه الفرقة، فهذا الذي يذكره الحلي من أقوال لم تثبت عند أهل السنة - والحنابلة منهم - وهي أقوال موضوعة منكرة (٣). ولعل مدخل اتهام الحلي لأهل السنة بالتجسيم - والحنابلة منهم - لأنهم معظمهم قالوا بإثبات آيات الصفات الإلهية دون تأويلها، وهذا ليس تجسيمًا، ما داموا ينكرون مشابهة الله تعالى لخلقه.

ولما ثبت عند أهل السنة نصوص صحيحة تثبت رؤية المؤمنين للرب الجليل يوم القيامة دون كيفية؛ اتهمهم الاثنا عشرية بالتجسيم والجمود على ظواهر النصوص، وكفروهم لأجل ذلك؛ يقول الزنجاني: «ومن قال بالتشبيه من خلقه بأن صور له وجهًا ويدًا وعينًا، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا، أو أنه يظهر إلى أهل الجنة كالقمر أو نحو ذلك فهو بمنزلة الكافر به جاهل بحقيقة الخالق... وكذلك يلحق بالكافر من قال إنه يتراءى لخلقه يوم القيامة وإن نفى عنه التشبيه بالجسم لقلقة من اللسان، فإن أمثال هؤلاء المدعين جمدوا على ظواهر الألفاظ في القرآن الحكيم أو الحديث الضعيف، وأنكروا عقولهم وتركوها وراء ظهورهم، فلم يستطيعوا أن يتصرفوا بالظواهر حسب ما يقتضيه النظر والدليل وقواعد الاستعارة والمجاز» (٤).

(١) أصول الكافي (١/١٣٨)، كتاب التوحيد، باب إطلاق القول بأنه شيء.

(٢) نهج الحق وكشف الصدق (ص ٥٥).

(٣) انظر: د. عائشة المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ١٩٩).

(٤) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٢٥، ٢٦).

ولو أنصف الزنجاني وغيره لعلم أن أشهر من روي عنه التجسيم في تاريخ الإسلام هو بعض رجال الشيعة الأوائل، كهشام بن الحكم وهشام الجواليقي « وهذا مما اتفق عليه نقل الناقلين للمقالات في الملل والنحل من جميع الطوائف مثل أبي عيسى الوراق وزرقان وابن النوبختي وأبي الحسن الأشعري وابن حزم والشهرستاني وغير هؤلاء، ونقل ذلك عنهم موجود في كتب المعتزلة والشيعة والكرامية والأشعرية وأهل الحديث وسائر الطوائف وقالوا أول من قال: (إن الله جسم) هشام بن الحكم » (١).

وهذه روايات الحديث عند الشيعة تؤكد صدور القول بالجسم عن تلامذة الأئمة: فعن إبراهيم بن محمد الهمداني قال: « كتبت إلى الرجل عليه السلام [أي المهدي المنتظر] أن من قبلنا من مواليك قد اختلفوا في التوحيد فمنهم من يقول: جسم، ومنهم من يقول: صورة. فكتب عليه السلام بخطه: سبحان من لا يحد ولا يوصف، ليس كمثل شيء وهو السميع العليم، أو قال: البصير » (٢).

وعن أبي حمزة الثمالي قال: رأيت علي بن الحسين عليه السلام قاعدًا واضعًا إحدى رجليه على فخذه فقلت: « إن الناس يكرهون هذه الجلسة ويقولون: إنها جلسة الرب، فقال: إني إنما جلست هذه الجلسة للملافة، والرب لا يمل ولا تأخذه سنة ولا نوم » (٣). وجاء في ترجمة هشام بن سالم الجواليقي أنه « كان يزعم أن الله صورة، وأن آدم خلق على مثل الرب، ثم يشير إلى جنبه وشعر رأسه ليبين المماثلة » (٤).

ولم يقتصر القول بالجسمية على الهشامين بل إن صاحب الطاق، والميثمي من قدماء الشيعة وأصحاب الأئمة قالوا به كما تذكر روايات الشيعة أنفسهم في أصح كتبهم: وعن الحسن بن سعيد عن إبراهيم بن محمد الخزاز ومحمد بن الحسين قالوا: « دخلنا على أبي الحسن الرضا عليه السلام فحكينا له أن محمدًا عليه السلام رأى ربه في صورة الشاب الموق في سنّ أبناء ثلاثين سنة. وقلنا: إن هشام بن سالم وصاحب الطاق والميثمي يقولون: إنه أجوف إلى السرة والبقية صمد. فخرّ ساجدًا لله، ثم قال: سبحانك! ما عرفوك ولا وحدوك، فمن أجل ذلك وصفوك، سبحانك! لو عرفوك لوصفوك بما وصفت به

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٥٠١/٢ ، ٥٠٢).

(٢) أصول الكافي (١٥٥/١)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى.

(٣) أصول الكافي: كتاب العشرة، باب الجلوس، قال محققه: الحديث حسن.

(٤) الكشي: معرفة الرجال، ترجمة هشام بن سالم الجواليقي (ص ١٨٣).

نفسك، سبحانه! كيف طاوعتهم أنفسهم أن يشبهوك بغيرك؟! اللهم لا أصفك إلا بما وصفت به نفسك، ولا أشبهك بخلقك، أنت أهل لكل خير فلا تجعلني من القوم الظالمين. ثم التفت إلينا فقال: ما توهمتم من شيء فتوهموا الله غيره، ثم قال: نحن آل محمد التمت الأوسط الذي لا يدركنا الغالي ولا يسبقنا التالي» (١).

وعن محمد بن حكيم قال: «وصفت لأبي إبراهيم عليه السلام قول هشام بن سالم الجواليقي وحكيته له قول هشام بن الحكم أنه جسم. فقال: إن الله - تعالى - لا يشبهه شيء، أي فحش أو خنا أعظم من قول من يصف خلق الأشياء بجسم أو صورة أو بخلقة أو بتحديد وأعضاء، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وعن محمد بن الفرج الرُّحَجِّي قال: كتبت إلى أبي الحسن عليه السلام أسأله عما قال هشام بن الحكم في الجسم وهشام بن سالم في الصورة، فكتب: دع عنك حيرة الحيران واستعد بالله من الشيطان، ليس القول ما قال الهشامان» (٢).

ويدافع كتاب الشيعة القدامى والمحدثون عن أصحاب الأئمة وينفون عنهم التجسيم والقول بالصورة، فقد قال المجلسي: «ولعل المخالفين نسبوا إليهما هذين القولين [يشير إلى ما نسب إليهما من القول بالجسم، والقول بالصورة] معاندة» (٣).

وقال محقق أصول الكافي في حق هشام بن سالم الجواليقي: «هشام هذا جليل القدر بريء كهشام بن الحكم عن مثل هذا القول الشنيع في حقه تعالى، والظاهر أن نسبته إليهما من مدسوسات أعداء مذهب أهل البيت (ع) للتشنيع على أصحاب الأئمة بغية الإيقاع بهم عند السلاطين، والحديث مرسل» (٤).

ولكن قولهما بالتجسيم لم يرد في رواية اثني عشرية واحدة يسهل إنكارها أو تأويلها، بل هنالك عدة روايات تقارب العشرين في الكافي وحده، منها ما صرح به

(١) أصول الكافي (١/١٥٤)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى. وانظر: ابن بابويه: التوحيد (ص ١١٣، ١١٤)، بحار الأنوار (٤/٤٠)، وصاحب الطاق، يعني محمد بن علي ابن النعمان أبو جعفر؛ لأنه يلقب بشيطان الطاق، والشيعة يقولون عنه: «مؤمن الطاق» والميثمي هو: علي ابن إسماعيل بن شعيب بن ميثم بن يحيى التمار، من وجوه متكلمي الشيعة، وتلميذ هشام بن الحكم، له كتب منها كتاب «الإمامة»، انظر: رجال النجاشي (ص ١٧٦).

(٢) أصول الكافي (١/١٥٧، ١٥٨)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الجسم والصورة.

(٣) بحار الأنوار (٣/٢٨٨).

(٤) أصول الكافي (١/١٥٧، ١٥٨)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الجسم والصورة.

بالحشامين ومنها ما لم يصرح به، فإنكار هذه الروايات كلها أمر غير مسوّغ. وقد تواتر عند علماء الفرق اتهام الهشامين وغيرهما من رجال الشيعة الأوائل بالتشبيه، قال الرازي: «اليهود أكثرهم مشبهة، وكان بدء ظهور التشبيه في الإسلام من الرّوافض؛ مثل هشام بن الحكم، وهشام بن سالم الجواليقي، ويونس بن عبد الرحمن القمي وأبي جعفر الأحول» (١).

ولكن هناك روايات تعبر عن رأي هشام بن الحكم بأن الله تعالى جسم ليس كالأجسام (٢)، وهذا ما ذكره أهل السنة عن هشام أيضاً، وهذا من أدلة وضوح منهج أهل السنة وإنصافهم لخصومهم.

ولذلك فإن المجلسي أقر بوقوع كلمة الجسم من هشام، وأنه «أخطأ في إطلاق لفظ الجسم عليه تعالى، ونفى عنه صفات الأجسام كلها، ويحتمل أن يكون مراده أنه لا يشبهه شيء من الأجسام، بل هو نوع مباين لسائر أنواع الأجسام» (٣).

وإذا كان الشيعة ينكرون حديث النزول للرب - تعالى - في الثلث الأخير من الليل، خدمةً لتنزيهه، فإن بعض روايات الشيعة تذكر ما هو أعظم منه، ففي رواية بحار الأنوار «إن قبر أمير المؤمنين يزوره الله مع الملائكة، ويوروه الأنبياء ويوروه المؤمنون» (٤)!!

فإذا كانت هذه الروايات مبنوثة في أصول المذهب الشيعي، فكيف يحق لأحدهم كابن مطهر الحلي أن يتهم أهل السنة بالقول بالجهة والتجسيم، متناسياً أن روايات الاثني عشرية أوردت ما يشابه روايات أهل السنة وما هو أعظم؟! ولذلك ردّ عليه ابن تيمية - وقد كان معاصراً له - قائلاً: «أهل السنة أحق بتنزيهه عن مشابهة المخلوقات من الشيعة، فإن التشبيه والتجسيم المخالف للعقل والنقل لا يعرف في أحد من طوائف الأمة أكثر منه في طوائف الشيعة، وهذه كتب المقالات كلها تخبر عن أئمة الشيعة المتقدمين من المقالات المخالفة للعقل والنقل في التشبيه والتجسيم بما لا يعرف نظيره عن أحد من سائر الطوائف، ثم قدماء الإمامية ومتأخروهم متناقضون في هذا الباب فقدمائهم غلوا في التشبيه والتجسيم،

(١) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (ص ٩٧).

(٢) عن يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد الله عليه السلام فقلت له: إن هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً إلا أنني أختصر لك منه أحرقاً، فزعم أن الله جسم؛ لأن الأشياء شيان جسم وفعل الجسم، فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل. أصول الكافي (١/١٥٨)، كتاب التوحيد، باب النهي عن الجسم والصورة. وفي رواية أخرى: إن هشام بن الحكم زعم أن الله جسم ليس كمثل شيء.

(٣) مرآة العقول (٨/٢).

(٤) بحار الأنوار (٢٥٨/١٠٠).

ومتأخروهم غلوا في النفي والتعطيل، فشاركوا في ذلك الجهمية والمعتزلة دون سائر طوائف الأمة» (١).

وعلى كلِّ فإن روايات آل البيت أتت لتهدم تلك الأوهام التي بناها قدماء الشيعة، فعن عبد الرحمن بن أبي نجران قال: «سألت أبا جعفر عليه السلام عن التوحيد فقلت: أتوهم شيئاً فقال: نعم. غير معقولٍ ولا محدودٍ، فما وقع وهمك عليه من شيءٍ فهو خلافه، لا يشبهه شيءٌ، ولا تدركه الأوهام، كيف تدركه الأوهام وهو خلاف ما يعقل وخلاف ما يتصور في الأوهام! إنما يتوهم شيءٌ غير معقولٍ ولا محدودٍ» (٢).

فقد كان من أقوال جعفر الصادق عن الرب ﷻ: «شيءٌ بخلاف الأشياء، ارجع بقولي إلى إثبات معنَى وأنه شيءٌ بحقيقة الشئِيَّة، غير أنه لا جسمٌ ولا صورةٌ ولا يحسُّ ولا يجسُّ ولا يدرك بالحواسِّ الخمس، لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدهور ولا تغتيره الأزمان» (٣).

وبهذا يقف أهل السنة على موقف واحد متفق مع روايات أهل البيت في نفي الجسمية والصورة عن الرب جل في علاه. فإذا أنكر علماء الشيعة تلك الروايات المبنوثة في الكافي وغيره، ولم يقولوا بتصحيحها أو أولوها على معانٍ تنفي التجسيم والتشبيه، فإنهم ينضمون إلى باقي طوائف الأمة. وهذا خير لهم من أن يشغبوا على أهل السنة ويتهمونهم بالتجسيم.

- الإثبات وسط بين التعطيل والتشبيه:

وتتفق الروايات عن الأئمة الأطهار بأنهم وإن نفوا الجسمية، ولكنهم أثبتوا صفات الرب تعالى، مبتعدين - كحال سلف الأمة - عن التعطيل أيضاً، ولذلك فهم يثبتون وجود الرب بلا تمثيل ولا تشبيه ولا تجسيم، ولا تعطيل عن الصفات. وقد وردت تلك الروايات عن أئمة أهل البيت المتقدمين منهم والمتأخرين؛ إذ قالوا: «لا بدّ من الخروج من جهة التعطيل والتشبيه؛ لأنّ من نفاه فقد أنكره ودفع ربوبيّته وأبطله، ومن شبّهه بغيره فقد أثبتّه بصفة المخلوقين المصنوعين الذين لا يستحقّون الربوبيّة، ولكن لا بدّ من إثبات أنّ له كَيْفِيَّةً لا يستحقّها غيره ولا يشارك فيها ولا يحاط بها ولا يعلمها غيره... وهو متعالٍ نافذ الإرادة والمشيئة فعّالٌ لما يشاء».

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٠٣/٢).

(٢) أصول الكافي (١٣٦/١)، كتاب التوحيد، باب إطلاق القول بأنّه شيء.

(٣) أصول الكافي (١٣٦/١)، كتاب التوحيد، باب حدوث العالم وإثبات المحدث.

وعن الحسين بن سعيد قال: سئل أبو جعفر الثاني عليه السلام: «يجوز أن يقال لله إنه شيء؟» قال: نعم. يخرج من الحدّين حدّ التعطيل وحدّ التشبيه ^(١).

وبهذا يتبين أن علماء الإمامية بما نقلوا عن أئمتهم يشبّون التنزيه لله تعالى، ويرمون خصومهم بالتشبيه، وكذلك باقي الفرق تتهم بعض رجال الشيعة بالتجسيم، وعلماء الإمامية يبرئونهم من ذلك، فنخرج من هذا بأن هذه الفرق كلها تنفي عن نفسها التجسيم، إلا ما ورد في كتب الملل عن بعض المجسمة الذين لا وجود لهم الآن، فيصبح الاتهام بالتجسيم بين الفرق من باب التراجم وقذف الأطراف الأخرى بما ليس فيها، فكل الفرق تنكر التجسيم وتبرأ منه ومن أهله.

ولكن الاثني عشرية في محاولتهم تبرئة أنفسهم من التشبيه الذي اتسم به رجالهم الأوائل، وبسبب اختلاطهم بالمعتزلة ثم تأثرهم بالفلسفة أفرطوا في التنزيه عندما لجأوا في ذلك إلى إنكار ما رأوه بزعمهم يخالف التنزيه، ولو كان ثابتاً في الأحاديث الصحيحة التي رواها الثقات، وغفلوا أن منها وأعظم منها ما روته كتبهم، فقد أنكروا رؤية الله تعالى يوم القيامة، وتعاملوا مع الآيات والأحاديث التي توهم التشبيه بطريق التأويل، وسيظهر هذا في الصفحات القادمة.

رابعاً: تأويل الاثني عشرية للنصوص الشرعية خدمةً للتنزيه:

التأويل في تاريخ الإنسانية:

إن مسألة صرف اللفظ عن حقيقته إلى معنى مجازي، أو مجاوزة ذلك إلى مرحلة صرف اللفظ عن حقيقته إلى معانٍ أخرى، هي مسألة مغرقة في القدم في الفكر الإنساني. ولكن إذا تساءلنا هل كان طرؤ عملية التأويل على الفكر الإسلامي بعوامل ذاتية تفرضها اللغة العربية وأسلوب الخطاب العربي، أم بعوامل خارجية؟ سنرى هنالك رأيين: السائد منهما «أن هناك علاقة تاريخية قوية بين التأويل كما نراه بين المتأولين في الفكر الإسلامي من فلاسفة وباطنية وقرامطة وصوفية، وبين ما وجدناه عند فليون والرواقين والفيثاغورسيين... ومن السهولة بمكان أن ندرك الصلة القوية بين تصورات أفلوطين عن (الأول) وبين ما وصف به الفلاسفة المسلمون والمعتزلة واجب الوجود من صفات سلبية، وما نفوه عنه من صفات إيجابية» ^(٢).

(١) أصول الكافي (١٣٦/١) كتاب التوحيد، باب إطلاق القول بأنه شيء.

(٢) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٤٢، ١٤٣).

ويقابل هذا الرأي اتجاه آخر يقول: إن مسألة التأويل تتعلق بالتفكير الإنساني كله، ولا يشترط فيها التأثير بالآخرين بمقدار ما هي طريقة في التعامل مع النصوص، يفرضها مناخ فكري معين، « وقد أشار ابن رشد إلى أن الخوارج هم أول من تأولوا نصوص القرآن من الفرق الإسلامية، ثم المعتزلة بعدهم ثم الأشعرية ثم الصوفية » (١). وقد علمنا أن الخوارج لم يكن لهم تلك الصلات بأولئك الفلاسفة الأقدمين ولا غيرهم. والسؤال المهم الذي يعني الباحث في دراسة الفكر الاثني عشري هو: كيف دخل التأويل إلى مذهب الشيعة؟

لقد كانت المسيحية ترى تجسم الله في عيسى عليه السلام، وتخلع عليه صفات الألوهية، واشتهرت اليهودية بالتجسيم وامتلاً كتابها المقدس بالعديد من نماذجه، ثم جاء رجال الشيعة الأوائل فقالوا بالتجسيم (٢). ولذلك اهتم المعتزلة بهذه القضية اهتماماً كبيراً، ووجهوا جزءاً غير قليل من جهودهم للرد على هذه الطوائف ونقض أقوالهم، وكما هي عادة ردود الأقوال فقد وجد لديهم نوع من المغالاة في الطرف المقابل، فأسرفوا في النفي، واتهموا كل من أثبت الصفات من أهل السنة والأشاعرة بأنه من المشبهة، فكان الأسلم الاقتصار على التأويل فحسب (٣). ولمّا تأثر الشيعة بالمعتزلة أخذوا التأويل عنهم، وسموا مخالفينهم بما سمي المعتزلة خصومهم: (المشبهة) (٤).

وقد خالف جمهور أهل السنة هذا المنهج التأويلي؛ حيث اعتصم الجماهير من أهل السنة بالإقرار بما ورد في الآيات والأحاديث « على الوجه الذي أراده الله تعالى، مدعين للعلم بذلك الوجه، لا راآين لما ورد في ذلك من السمع، ولا مشبهين لله تعالى بما لحقه من صفات النقص، معتقدين أن الله تعالى كما وصف نفسه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] منزهين الله تعالى عن كل ما يقتضي النقص من شبه المخلوقين في أفعالهم وذواتهم وصفاتهم » (٥).

(١) المرجع السابق (ص ٩٨)، مناهج الأدلة لابن رشد (ص ١٨٣) تحقيق الأستاذ الدكتور محمود قاسم، مكتبة الأجلو (١٩٦٤ م).

(٢) د. النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (٢٨٩/١ - ٣٠٦).

(٣) د. أحمد قوشتي عبد الرحيم: حجية الدليل النقلى بين المعتزلة والأشاعرة (ص ٣٠٠ - ٣٩٩).

(٤) أستاذنا الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٧).

(٥) ابن الوزير اليماني: الروض الباسم (٣٣٥/٢).

وقد خالف هذا المنهج عدد من المتكلمين، فقالوا بتأويل بعض النصوص مع إقرارهم بأن منهج السلف لا شائبة فيه، بل هو المنهج الأسلم. وسنعرض فيما يلي لأهم القضايا العقدية التي أدخل الاثنا عشرية التأويل في فهمها، ونحاول أن نناقش هذه القضايا معهم.

أشهر تأويلات الاثني عشرية:

١ - (تأويل الوجه واليد):

جاءت نصوص الاثني عشرية لتأويل الوجه واليد: عن الحارث بن المغيرة التصريّ قال: سئل أبو عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ... ﴾ [القصص: ٨٨] فقال: « ما يقولون فيه؟ قلت: يقولون: يهلك كل شيء إلا وجه الله. فقال: سبحان الله! لقد قالوا قولاً عظيماً، إنما عنى بذلك وجه الله الذي يؤتى منه ». وعن صفوان الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] قال: من أتى الله بما أمر به من طاعة محمد صلى الله عليه وآله فهو الوجه الذي لا يهلك وكذلك قال: « من يطع الرسول فقد أطاع الله » ^(١).

وهذا الفهم للآية ورد عند أهل السنة، قال صاحب الفرق بين الفرق: « فأما قوله ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨] فمعناه راجع إلى بطلان كل عمل لم يقصد به وجه الله تبارك وتعالى » ^(٢).

ومما يجدر ذكره أن ابن تيمية، وهو ممن أنكر كثيراً من تأويلات المتكلمين يتفق مع الاثني عشرية في هذا التأويل للوجه، فيقول: « كل مقصود بدون قصد الله فهو باطل، وعلى هذين فقد فسر قوله: ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ [القصص: ٨٨]: إلا ما أريد به وجهه وكل شيء معدوم إلا من جهته » ^(٣).

وهناك تأويلات بعيدة ومتعسفة في عدة روايات في الكافي، منها رواية تعلن أن وجه الله هو الأئمة المعصومون: عن أبي جعفر عليه السلام قال: « نحن المثاني الذي أعطاه الله نبينا محمدًا صلى الله عليه وآله ونحن وجه الله تتقلب في الأرض بين أظهركم، ونحن عين الله في خلقه ويده

(١) أصول الكافي (١٩٢/١)، كتاب التوحيد، باب النوادر.

(٢) عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي الإسفرائيني (ت ٤٢٩ هـ) : الفرق بين الفرق (١٥٩/١).

(٣) ابن تيمية: جامع الرسائل (٣٠٦/١).

المبسوطة بالرحمة على عباده، عرفنا من عرفنا وجهلنا من جهلنا»^(١).
وقال أبو عبد الله عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَنَا فَأَحْسَنَ خَلْقَنَا، وَصَوَّرَنَا فَأَحْسَنَ صُورَنَا، وَجَعَلَنَا عَيْنَهُ فِي عِبَادِهِ، وَلِسَانَهُ التَّاطِقَ فِي خَلْقِهِ، وَيَدَهُ الْمَبْسُوطَةَ عَلَى عِبَادِهِ بِالرَّأْفَةِ وَالرَّحْمَةِ، وَوَجْهَهُ الَّذِي يُؤْتِي مِنْهُ، وَبَابَهُ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ، وَخَزَائِنَهُ فِي سَمَائِهِ وَأَرْضِهِ»^(٢).
وجاء في إحدى الروايات تأويل أسماء الله، وأن الأئمة هم أسماء الله الحسنی: عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾ [الأعراف: ١٨٠] قال: «نحن والله الأسماء الحسنی التي لا يقبل الله من العباد عملاً إلا بمعرفتنا»^(٣).
إن وجه خطأ المؤولين أنهم قاسوا عالم الغيب على عالم الشهادة: «فلا ينبغي أن نتخذ المقياس الذي نقيس به عالم الشهادة ونطبقه على عالم الغيب»^(٤).

ثم إن جميع الفرق قد لجأت شاءت أو أبت إلى التسليم ببعض الصفات الإلهية دون تأويلها، فلماذا الوقوف عند اليد والوجه إذن؟ «فإذا كان إثبات الوجه موهماً للتشبيه؛ لأن للمخلوق وجهاً، فكذلك الأمر في صفات السمع والبصر والكلام... فإن قيل: إن سمعه تعالى وبصره وكلامه ليس كسمع المخلوقين وبصرهم وكلامهم، فهذا الكلام بعينه يصح في صفة الوجه وسائر الصفات الخبرية فوجهه عليه السلام لا يماثل وجوه المخلوقين ولا يشابهها»^(٥). «وإذا جاز لنفاة الوجه واليدين أن يحتجوا لنفيهم بأن هذه أبعاض تستلزم التركيب، جاز لمن يثبتها أن يقول لهم: وأنتم تثبتون العلم والسمع والبصر، وهذه أعراض تستلزم التركيب»^(٦).

٢ - (تأويل بعض علمائهم للعرش والكرسي):

هناك روايات شيعية تثبت العرش والكرسي حقيقة: عن ربعي بن عبد الله عن الفضيل بن يسار قال: سألت أبا عبد الله عن قول الله جلّ وعزّ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ

(١) أصول الكافي (١/١٩٢)، كتاب التوحيد، باب النوادر، وهذه الروايات ضعفتها محقق أصول الكافي، وقد علمنا أن الإخباريين يأخذون بالنصوص دون تمحيص، فيقرون بمثل هذه الأحاديث.

(٢) أصول الكافي (١/١٩٢، ١٩٣)، كتاب التوحيد، باب النوادر.

(٣) أصول الكافي (١/١٩٢)، كتاب التوحيد، باب النوادر.

(٤) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٧).

(٥) د. أحمد قوشتي عبد الرحيم: حججة الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة (ص ٤٠٨).

(٦) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٩٤).

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿ [البقرة: ٢٥٥] فقال: يا فضيل كل شيء في الكرسي، السماوات والأرض وكل شيء في الكرسي » (١).

وسئل أبو الحسن الرضا: « أفتر أن الله محمول؟ فقال أبو الحسن: كل محمول مفعول به مضاف إلى غيره محتاج، والحمول اسم نقص في اللفظ، والحامل فاعل وهو في اللفظ مدحّة، وكذلك قول القائل: فوق وتحت وأعلى وأسفل، وقد قال الله: ﴿ وَيَلَهُ الْأَنْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، ولم يقل في كتبه: إنّه المحمول، بل قال: إنّه الحامل في البرّ والبحر والممسك السماوات والأرض أن تزولا، والحمول ما سوى الله، ولم يسمع أحد آمن بالله وعظمته قطّ قال في دعائه: يا محمول، قال أبو قرة: فإنّه قال: ﴿ وَيَجْلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ مَّيْمِنَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٧].

وقال: ﴿ الَّذِينَ يَجْلُونَ الْعَرْشَ ﴾ [غافر: ٧] فقال أبو الحسن: العرش ليس هو الله، والعرش اسم علم وقدرية وعرش فيه كل شيء، ثم أضاف الحمل إلى غيره، خلق من خلقه لأنّه استعبد خلقه بحمل عرشه وهم حملة علمه، وخلقاً يستبحون حول عرشه وهم يعملون بعلمه، وملائكة يكتبون أعمال عباده، واستعبد أهل الأرض بالطّواف حول بيته، والله على العرش استوى كما قال، والعرش ومن يحمله ومن حول العرش والله الحامل لهم الحافظ لهم الممسك القائم على كل نفس، وفوق كل شيء وعلى كل شيء، ولا يقال: محمول ولا أسفل قولاً مفرّداً لا يوصل بشيء، فيفسد اللفظ والمعنى » (٢).

وهكذا نجد أن الإمام وقف حيث وقف القرآن، ونزه الرب ﷻ عن كل ما تنوّهه عقول بعض أتباعه.

وفي معرض حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، وهو حديث روته الطائفتان أهل السنة والشيعة، ومع ذلك جاء بعض كتّاب الشيعة فأولوا العرش وظل العرش يوم القيامة بأنه لطف من الله تعالى، أحدهم تحت عنوان (سبعة يستظلون بظل لطف الله): « ووجه التعبير عن لطف الله بالظل هو: أنه كما يحتمي من أصابه الحر بالظل كذلك رحمة الله ولطفه ملجأ العبد المذنب وملاذه من حر جهنم وأهوالها » (٣). وهكذا يكون الكاتب قد أوّل العرش وظله معاً.

(١) أصول الكافي (١٨٠/١، ١٨١)، كتاب التوحيد، باب العرش والكرسي.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٢٢).

وقد اختلف الاثنا عشرية في العرش وحقيقته وكذلك اللوح والقلم، وعلى سبيل المثال اختلف الصدوق والمفيد؛ فقد جاء عن الصدوق: « اعتقادنا في اللوح والقلم أنهما ملكان... اللوح كتاب الله تعالى كتب فيه ما يكون إلى يوم القيامة ». فقال المفيد: « وأما من ذهب إلى أن اللوح والقلم ملكان فقد أبعد بذلك... اعتقادنا في العرش أنه جملة جميع الخلق... العرش في اللغة هو الملك، قال الشاعر:

إذا ما بنو مروان ثلثت عروشهم وأودت كما أودت أياد وحمير

وأولوا العرش بالملك، فقالوا: « عرش عظيم ملك عظيم » (١).

وتدخلت الفلسفة أخيراً في تأويل العرش، قال أحدهم: « وقد استعمل الوحي الإلهي لفظة العرش على سبيل التجوز في دائرة ملك الله سبحانه... فعرشه كناية عن الروحانيات وما كان الحكماء يسمونه بعالم الملكوت وسماه حكماء الإسلام بعالم الأمر » (٢). في حين هنالك روايات تبين أن العرش والكرسي كلها مخلوقات واضحة المعالم، لا تحتل مجازاً ولا تأويلاً بالروحانيات ولا مجموع المخلوقات:

« روي عن الصادق: لو ألقى حجر في العرش لوقع على ظهر البيت المعمور ولو ألقى حجر من البيت المعمور لسقط على ظهر البيت الحرام » (٣). وهذا دليل أن العرش مخلوق خاص. ولكن المفيد قال: « الأحاديث التي رويت في صفة الملائكة الحاملين للعرش أحاديث آحاد، وروايات أفراد لا يجوز القطع بها ولا العمل عليها، والوجه الوقوف عندها، والقطع على أن الأصل في العرش هو الملك، والعرش المحمول جزء من الملك تعبد الله بحمله الملائكة على ما قدمناه » (٤).

٣ - (تأويل نصوص رؤية الله ﷻ يوم القيامة):

مما يندرج تحت الصفات السلبية لله تعالى عند الشيعة الاثني عشرية قولهم بأن « رؤية الله محال وغير ممكنة لا في الدنيا ولا في الآخرة » (٥). وأنه « لا يرى بحاسة البصر لا في الدنيا ولا في الآخرة، واتفقت على ذلك الإمامية » (٦).

(١) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٥٨ ، ٥٩).

(٢) تعليق العلامة هبة الدين الشهرستاني على هامش تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٦٠).

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٦١).

(٤) المصدر السابق (ص ٦٢). (٥) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٧٦).

(٦) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٢).

وقد أخذ الاثنا عشرية هذا القول عن المعتزلة؛ إذ إن « جميع المعتزلة ينكرون الرؤية في الآخرة، وعندهم أن من قال: إن الله يرى في الآخرة بالأبصار على أي وجه فمشتبّه »^(١). وعند بعضهم « المشبّه كافر »^(٢)؛ فقد جعل الحرّ العاملي نفي الرؤية من أصول الأئمة، وعقد لذلك باباً بعنوان « باب أنّ الله سبحانه لا تراه عين ولا يدركه بصر في الدنيا ولا في الآخرة »^(٣)؛ ولذلك اعتقد الاثنا عشرية ردة وجهل من أثبت الرؤية، وقال شيخهم وآيتهم جعفر التّجفي صاحب كشف الغطا: « ولو نسب إلى الله بعض الصفات.. كالرؤية حكم بارتداده »^(٤). وحكم ابن المطهر على من يقول بالرؤية أنه خالف قوانين العقلاء فقال: « وذهبت الأشاعرة إلى أن الله تعالى مرئي بالعين، مع أنه مجرد عن الجهات، وقد قال تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وخالفوا الضرورة في أن المدرك بالعين يكون مقابلاً أو في حكمه، وخالفوا جميع العقلاء »^(٥). مع أن أهل السنة لا يقولون أن من رأى الله تعالى فقد حصره في جهة ﷻ، فالله لا تحصره العيون؛ حيث إن المؤمنين يوقنون بأنه تعالى (لا تدركه الأبصار)، ولذلك قال اللقاني نافية معرفة الكيفية التي تثبت بها الرؤية:

ومنه أن ينظر بالأبصار لكن بلا كيف ولا انحصار^(٦)

ويعتقد أهل السنة أن الرؤية من الأمور الغيبية التي ثبتت بالنصوص الصحيحة، ولولا أنها ثبتت بالنصوص الصحيحة والصريحة من الكتاب والسنة لما قال بها أحد من المسلمين. ويعتمد الشيعة في إنكار الرؤية البصرية على قوله تعالى: ﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ١٠٣] وعلى قوله تعالى: ﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ .. ﴾ [النساء: ١٥٣].... ونسبوا إلى جعفر الصادق قوله وقد سئل عن الرؤية: « الشمس جزء من سبعين جزءاً من نور العرش، والعرش جزء من

(١) انظر: الانتصار للخياط (ص ٦٨).

(٢) كأبي موسى الرمدار، انظر: الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٣)، وانظر: الانتصار للخياط (ص ٦٨).

(٣) الفصول المهمة في أصول الأئمة (ص ١٢). (٤) كشف الغطا (ص ٤١٧).

(٥) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٤٦).

(٦) جوهره التوحيد مع شرحها للشيخ الباجوري (ص ٢٤٦). وقد قال: (ومنه): « أي ومن بعض جزئيات الجائز عقلاً عليه تعالى أن ينظر الله تعالى بالأبصار ».

سبعين جزءًا من نور الحجاب، والحجاب جزء من سبعين جزءًا من نور السر، فإن كانوا صادقين فليملؤوا أعينهم من الشمس ليس دونها سحاب» (١).

ويستدلون في نفي الرؤية البصرية بدليل عقلي - اخترعه المعتزلة من قبل - مختصره أن « المرئي بحاسة البصر لا بد أن يكون جسمًا وفي جهة مقابلة وذا صورة ومثل ومكان، والله تعالى منزّه عن جميع ذلك » (٢).

وهذا الدليل العقلي ساقته بعض الروايات عن الأئمة وعن هشام بن الحكم: « عن أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث عليه السلام أسأله عن الرؤية وما اختلف فيه الناس فكتب: لا تجوز الرؤية ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء لم ينفذه البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي والمرئي لم تصح الرؤية وكان في ذلك الاشتباه؛ لأنّ الرائي متى ساوى المرئي في السبب الموجب بينهما في الرؤية وجب الاشتباه؛ وكان ذلك التشبيه لأنّ الأسباب لا بدّ من اتّصالها بالمستببات » (٣).

وهناك نص عن هشام بن الحكم يعلل فيه استحالة الرؤية البصرية، ولأهميته أورده الكليني في كافيه مع أنه ليس من أقوال الأئمة، يقول هشام: « الأشياء كلّها لا تدرك إلا بأمرين بالحواس والقلب، والحواس إدراكها على ثلاثة معان: إدراكًا بالمداخلة وإدراكًا بالمماسّة وإدراكًا بلا مماسّة... وأما الإدراك بلا مماسّة ولا مداخلة فالبصر، فإنّه يدرك الأشياء بلا مماسّة ولا مداخلة في حيز غيره ولا في حيزه، وإدراك البصر له سبيلٌ وسببٌ، فسبيله الهواء وسببه الضياء، فإذا كان السبيل متّصلًا بينه وبين المرئي والسبب قائم أدرك ما يلاقي من الألوان والأشخاص، فإذا حمل البصر على ما لا سبيل له فيه رجع راجعًا فحكى ما وراءه، كالتأظر في المرأة لا ينفذ بصره في المرأة، فإذا لم يكن له سبيلٌ رجع راجعًا يحكي ما وراءه، وكذلك التأظر في الماء الصّافي يرجع راجعًا فيحكي ما وراءه؛ إذ لا سبيل له في إنفاذ بصره. فأما القلب فإنّما سلطانه على الهواء، فهو يدرك جميع ما في الهواء ويتوهمه، فإذا حمل القلب على ما ليس في الهواء موجودًا رجع راجعًا فحكى ما في الهواء، فلا ينبغي للعاقل أن يحمل قلبه على ما ليس موجودًا في الهواء من أمر التوحيد جلّ الله وعزّه، فإنّه إن فعل ذلك لم يتوهم إلا ما في الهواء

(١) أصول الكافي (١٥٢/١)، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية، وانظر: عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٣). وقال: المراد بالحجاب والسر مقامان من مقامات تجليات نور عظمتة تعالى.

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٢).

(٣) أصول الكافي (١٥١/١)، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية.

موجودٌ، كما قلنا في أمر البصر تعالى اللهُ أن يشبهه خلقه» (١).

وأنت تشم من قول هشام هذا الأثر الفلسفي والاعتزالي؛ ولذلك فقد وصل الباحثون في القواسم المشتركة بين الاثني عشرية والمعتزلة إلى أن أدلة الطرفين في إنكار الرؤية واحدة (٢). ويكفي في الرد على هذه الاستدلال أن البصر يوم القيامة مختلف عنه في الدنيا؛ حيث تتغير أجسام البشر وصفاتها، مما لا يتصوره العقل أيضاً، فالمؤمن في الجنة يعطى من القوى ما لم يكن له في الدنيا، وكذلك يتغير حال الكافر، وشكله وحجمه مما لا يسع المقام ذكره، ويكفي الخلود للبشر في الآخرة فيصلاً وفارقاً بين حال الدنيا وحال الآخرة. فالمؤمنون في الجنة « صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يبصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتغوّطون » (٣). وفي النار « ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث » (٤).

والمنقّب في روايات الأئمة يجد أن بعضها يثبت الرؤية البصرية، ولكن يضعفها الاثني عشرية لأنها تخالف المذهب: فعن محمد بن الفرج قال: كتب إليّ أبو جعفر ابن الرضا: « ... كان النبي ﷺ يقول إذا فرغ من صلاته: ... وأسألك نعيمًا لا ينفد، وقرّة عين لا تنقطع، وأسألك الرضا بالقضاء، وبركة الموت بعد العيش، وبرد العيش بعد الموت، ولذة النظر إلى وجهك، وشوقاً إلى رؤيتك ولقائك من غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة » (٥).

فإن كان المقصود بالرؤية هنا العلم؛ فقد علم المصطفى ﷺ ربه، فلا مناص من أن المراد بالرؤية في هذه الرواية رؤية البصر؛ ولذا ضعفها الشيعة، إذ لا مجال لتأويلها، وقد روى المفيد أنه قد حكى عن هشام بن الحكم القول بالرؤية البصرية - خلافاً لما صحّ عنه، ولما روى عنه الكافي كما بيّنا - فقال: « فأما نفي الرؤية عن الله ﷻ بالأبصار فعليه إجماع الفقهاء والمتكلمين من العصاة كافة إلا ما حكى عن هشام من خلافه، والحجج عليه مأثورة عن الصادقين ﷺ » (٦).

(١) أصول الكافي (١٥٣/١)، كتاب التوحيد، باب في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾

(٢) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الاثني عشرية، د. عائشة المناعي (ص ٢١٠ - ٢١٣).

(٣) صحيح البخاري: كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة (٢٣/١١).

(٤) صحيح مسلم: كتاب صفة الجنة والنار، باب النار يدخلها الجبارون (٢/١٤).

(٥) أصول الكافي (٥١٦/٢) كتاب الدعاء، باب الدعاء في أدبار الصلوات قال محققه: والحديث ضعيف.

(٦) الحكايات في مخالقات المعتزلة من العدلية والفرق بينهم وبين الشيعة الإمامية (ص ٨٥، ٨٦) دار المفيد -

بيروت (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م). تحقيق محمد رضا الحسيني الجلالي. ويوجد النص في كتابه الفصول

المختارة، حيث ألحقت الحكايات به.

وقال الشيخ الصدوق عن « أحمد بن يحيى في جامعه: في معنى الرؤية [روايات] صحيحة لا يردها إلا مكذب بالحق أو جاهل به وألفاظها ألفاظ القرآن، ولكل خير منها معنى ينفي التشبيه والتعطيل ويثبت التوحيد، وقد أمرنا الأئمة - صلوات الله عليهم - أن لا نكلم الناس إلا على قدر عقولهم. ومعنى الرؤية الواردة في الأخبار: العلم، وذلك أن الدنيا دار شكوك وارتباب وخطرات، فإذا كان يوم القيامة كشف للعباد من آيات الله وأموره في ثوابه وعقابه ما يزول به الشكوك ويعلم حقيقة قدرة الله ﷻ، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿ لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق: ٢٢] فمعنى ما روي في الحديث أنه ﷻ يرى أي يعلم علماً يقينياً « (١).

ويعتمد الاثنا عشرية في تأويل الرؤيا البصرية على الروايات التي تقول بالرؤية القلبية نور العظمة الإلهية:

عن يعقوب بن إسحاق قال: « كتبت إلى أبي محمد ﷺ أسأله كيف يعبد العبد ربه وهو لا يراه؟ فوقع ﷺ: يا أبا يوسف جلّ سيدي ومولاي والمنعم عليّ وعلى آبائي أن يرى. قال: وسألته هل رأى رسول الله ﷺ ربه؟ فوقع ﷺ: إنّ الله تبارك وتعالى أرى رسوله بقلبه من نور عظمته ما أحبّ « (٢).

و « جاء حبرٌ إلى أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - فقال: يا أمير المؤمنين! هل رأيت ربك حين عبدته؟ قال فقال: ويلك! ما كنت أعبد ربّاً لم أراه. قال: وكيف رأيت؟ قال: ويلك! لا تدركه العيون في مشاهدة الأبصار، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان « (٣).

ويؤول الاثنا عشرية ما ورد من آيات تثبت الرؤية كقوله تعالى: ﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿١﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣] بأن المراد منتظرة، كقوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّتِي فَنَاطِرَةٌ ﴿١﴾ بِمَ رِيَجِّعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٢﴾ [النمل: ٣٥] (٤). مع أن هناك فرقاً بين (نظر) التي تتعدى ب (إلى) تنفيذ الرؤية والنظر بالعين، وبين (نظر) بمعنى (انتظر)؛ إذ لا تتعدى ب (إلى) (٥).

(١) الصدوق: التوحيد (ص ١٢٠)، نشر جماعة المدرسين قم (١٣٨٧ هـ).

(٢) أصول الكافي (١ / ١٤٩)، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية.

(٣) أصول الكافي (١ / ١٥١)، كتاب التوحيد، باب في إبطال الرؤية.

(٤) انظر: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد للطوسي (ص ٧٦، ٧٧).

(٥) قال القرطبي (١٩ / ٩٧) : « لأن العرب إذا أرادت بالنظر الانتظار قالوا: (نظرته) كما قال تعالى: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ ﴾ [الزخرف: ٦٦]، ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ﴾ [الأعراف: ٥٣]، و ﴿ مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً ﴾ [يس: ٤٩] وإذا =

وكذلك يؤولون ما ورد في كتبهم من نصوص الرؤية بأنها رؤية القلب، يقول شبر: « أما رؤية القلب فليست بممتنعة عليه تعالى، وعلى ذلك يحمل ما ورد في النقل من جواز الرؤية.. وعن الصادق قال: رأى رسول الله ربه ﷺ بقلبه، وفي رواية أخرى أما سمعت الله يقول: ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ [النجم: ١١] لم يره بالبصر ولكن رآه بالفؤاد » (١).

وما ثبت عند أهل السنة من روايات تذكر ضيافة الله تعالى للمؤمنين مع الرؤية له سبحانه في الجنة، يسوقها الشيعة دون ذكر الرؤية، ويحلّون محل الرؤية كلام الرب ﷻ، « وهنا يعجز الإدراك فلا يمكننا إلا أن نقول: إن السلام يأتيهم من الباري تعالى: ﴿ سَلِّمْ قَوْلًا مِّن رَّبِّ رَحِيمٍ ﴾ [يس: ٥٨] » (٢).

وقد أكثر الصدوق في كتابه (التوحيد) من تأويلات للنصوص القرآنية في مسألة الرؤية والعرش وغيرها، وهذا بعض ما قال في ذلك:

« فأما قوله: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَائِ حِجَابٍ ﴾ [الشورى: ٥١] فإنه ما ينبغي لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً، وليس بكائن إلا من وراء حجاب، أو يرسل رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء، كذلك قال الله تبارك وتعالى علواً كبيراً، قد كان الرسول يوحى إليه من رسل السماء فيبلغ رسل السماء رسل الأرض، وقد كان الكلام بين رسل أهل الأرض وبينه من غير أن يرسل بالكلام مع رسل أهل السماء، وقد قال رسول الله ﷺ: « يا جبرئيل هل رأيت ربك؟ فقال جبرئيل: إن ربي لا يرى، فقال رسول الله ﷺ: « فمن أين تأخذ الوحي؟ » فقال: آخذه من إسرافيل، فقال: « ومن أين يأخذه إسرافيل؟ » قال: يأخذه من ملك فوفه من الروحانيين، قال: « فمن أين يأخذه ذلك الملك؟ » قال: يقذف في قلبه قذفاً... »
وأما قوله: ﴿ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴾ [آل عمران: ٧٧] يخبر أنه لا يصيبهم بخير،

= أرادت به التفكير والتدبر قالوا: نظرت فيه، فأما إذا كان النظر مقروناً بذكر (إلى) وذكر الوجه فلا يكون إلا بمعنى الرؤية والعيان... وإن قول القائل: (نظرت إلى فلان) ليس إلا رؤية عين، كذلك تقوله العرب؛ لأنهم يقولون (نظرت إليه): إذا أرادوا نظر العين، فإذا أرادوا الانتظار قالوا: (نظرت) قال:

فإنكما إن تنظراني ساعة من الدهر تنفعني لدى أم جنذب
لما أراد الانتظار، قال: (تنظراني) ولم يقل: (تنظران إلي) وإذا أرادوا نظر العين قالوا: (نظرت إليه) قال:
نظرت إليها والنجوم كأنها مصابيح رهبان تشب لقفال

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٦٣).

(٢) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١١٦). تحت عنوان (الجمعة يوم خاص لضيافة الله).

وقد تقول العرب: والله ما ينظر إلينا فلان، وإنما يعنون بذلك أنه لا يصيبنا منه بخير، فذلك النظر ههنا من الله تعالى إلى خلقه، فنظره إليهم رحمة منه لهم.

وأما قوله: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين: ١٥]، فإنما يعني بذلك يوم القيامة أنهم عن ثواب ربهم محجوبون... فقال عليه السلام: وأما قوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [تبارك: ١٦]، وقوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ..﴾ [الأنعام: ٣]، وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، وقوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ..﴾ [الحديد: ٤]، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: ١٦]، فكذلك الله تبارك وتعالى سبوحًا قدوسًا، تعالى أن يجري منه ما يجري من المخلوقين وهو اللطيف الخبير، وأجل وأكبر أن ينزل به شيء مما ينزل بخلقهم وهو على العرش استوى علمه، شاهد لكل نجوى، وهو الوكيل على كل شيء، والميسر لكل شيء، والمدبر للأشياء كلها، تعالى الله عن أن يكون على عرشه علوًا كبيرًا. فقال عليه السلام: وأما قوله: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر: ٢٢]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ..﴾ [الأنعام: ٩٤]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ..﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ..﴾ [الأنعام: ١٥٨] فإن ذلك حق كما قال الله تعالى، وليس له جيئة كجيئة الخلق.

وقد أعلمتكم أن ربَّ شيء من كتاب الله تأويله على غير تنزيله ولا يشبه كلام البشر، وسأنبئكم بطرف منه فتكتفي إن شاء الله، من ذلك قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصفات: ٩٩] فذهابه إلى ربه توجهه إليه عبادة واجتهادًا وقرية إلى الله تعالى، ألا ترى أن تأويله غير تنزيله، وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ..﴾ [الحديد: ٢٥] يعني السلاح وغير ذلك.

وقوله: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ..﴾ [الأنعام: ١٥٨] يخبر محمدًا صلى الله عليه وسلم عن المشركين والمنافقين الذين لم يستجيبوا لله وللرسول، فقال: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ..﴾ [الأنعام: ١٥٨] حيث لم يستجيبوا لله ولرسوله، ﴿أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ..﴾ [الأنعام: ١٥٨] يعني بذلك العذاب يأتيهم في دار الدنيا كما عذب القرون الأولى، فهذا خبر يخبر به النبي صلى الله عليه وسلم عنهم، ثم قال: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتَابُهَا لَوْ تَكُنَّ ءَأَمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨] يعني من قبل

أن تجيء هذه الآية، وهذه الآية طلوع الشمس من مغربها، وإنما يكتفي أولو الأبواب والحجى وأولو التهى أن يعلموا أنه إذا انكشف الغطاء رأوا ما يوعدون، وقال في آية أخرى: ﴿ فَأَتْنَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا... ﴾ [الحشر: ٢] يعني أرسل عليهم عذاباً، وكذلك إتيانه بنيانهم قال الله ﷻ: ﴿ فَأَتَفَّ اللَّهُ بِنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ... ﴾ [النحل: ٢٦] فإتيانه بنيانهم من القواعد إرسال العذاب عليهم.

وكذلك ما وصف من أمر الآخرة تبارك اسمه وتعالى علواً كبيراً أنه يجري أموره في ذلك اليوم الذي كان مقداره خمسين ألف سنة كما يجري أموره في الدنيا لا يغيب ولا يأفل مع الأفلين.

فاكتف بما وصفت لك من ذلك مما في صدرك مما وصف الله ﷻ في كتابه، ولا تجعل كلامه ككلام البشر، هو أعظم وأجل وأكرم وأعز - تبارك وتعالى - من أن يصفه الواصفون إلا بما وصف به نفسه في قوله ﷻ: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

... ﴿ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [العنكبوت: ٥] يعني: من كان يؤمن بأنه مبعوث فإن وعد الله لآتٍ من الثواب والعقاب، فاللقاء ههنا ليس بالرؤية، واللقاء هو البعث، فافهم جميع ما في الكتاب من لقائه فإنه يعني بذلك البعث، وكذلك قوله: ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ... ﴾ [الأحزاب: ٤٤] يعني أنه لا يزول الإيمان عن قلوبهم يوم يبعثون^(١).

وهناك تأويلات اختلف متكلمو الاثني عشرية فيما بينهم في تقريرها، كبعض الأمور الغيبية المتعلقة بأحداث يوم القيامة كالميزان؛ إذ « قال الشيخ المفيد رحمه الله: الموازين هي التعديل بين الأعمال والجزاء عليها ووضع كل جزء في موضعه، وإيصال كل ذي حق إلى حقه »^(٢). ولكن عبد الله شبر أعلن رفضه تأويل هذه الحقائق قائلاً: « والأحوط والأولى الإيمان بالميزان، ورد العلم بحقيقتها إلى الله وأنبيائه وخلفائه، ولا نتكلف علم ما لم يوضح لنا بصريح البيان. والله العالم بالحال »^(٣).

(١) الصدوق: التوحيد (ص ٢٦٤ - ٢٦٦).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٢٤).

(٣) المصدر السابق (ص ٤٢٥).

- وهنا يبين الباحث ثلاث ملاحظات مهمّات حول الآيات المتشابهة وتأويلها:

الأولى: الفرق بين تأويلات أهل السنة وتأويلات غيرهم: قد ثبت عن بعض أهل السنة - كالأشاعرة وغيرهم - أنهم جروا في التأويل، كما جرى الاثنا عشرية، متأثرين بالمنهج المعتزلي. فقد قال اللقاني صاحب الجوهرة:

وكلّ نص أوهم التشبيها أوّله أو فوّض ورم تشبيها (١)

فمن هذا النص نرى أنه أجاز التأويل للنصوص المتشابهة، وقدّم منهج التأويل على منهج التفويض (٢)، فقدم المختلف فيه على المتفق عليه!

ولكن الأشاعرة ومن معهم من أهل السنة وإن أجازوا مذهب التأويل في الآيات المتشابهة إلا أنهم لم يكفروا غير المؤولين، ولم يعنّفوا عليهم، بل أبقوا باب التسليم للنصوص الشرعية بلا تشبيه ولا تعطيل مفتوحاً، وبقي ذلك عندهم تحت مسمى (مذهب السلف)، وسموا طريقتهم (مذهب الخلف)، أما الاثنا عشرية فقد رموا من رفض التأويل بألفاظ التجسيم والتكفير!

ثم إن من أوّل من أهل السنة لم يصل إلى حيث وصل الاثنا عشرية؛ فقد اشتط الاثنا عشرية في التأويل حتى أنكروا الرؤية لله تعالى، وأنكروا الاستواء على العرش، وأنكروا أحاديث كثيرة - كحديث النزول - مع أن بعض هذه النصوص مبثوث في أصول كتبهم، ومنقول عن بعض رجالهم كهشام بن الحكم، ومع ذلك فلم يجيزوا إثبات هذه النصوص دون تأويل.

كما أنهم توسّعوا في التأويل واستخدموه لنصرة مذهبهم وشم خصومهم - فالجبت والطاغوت في القرآن - حسب زعمهم - : خليفنا النبي ﷺ أبو بكر وعمر! والبئر المعطلة: الإمام الصامت، والقصر المشيد: الإمام الناطق، والصلاة الوسطى النبي ﷺ وفاطمة وعلي والحسن والحسين عليهم رضوان الله! (٣) - حتى سلّموا الباطنية من

(١) اللقاني: جوهرة التوحيد (ص ١٤٩). قال الشيخ إبراهيم الباجوري: « المراد من التفويض: صرف اللفظ عن ظاهره، مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه، بل يترك ويفوض علمه إلى الله تعالى، بأن يقول: الله أعلم براده ». شرح جوهرة التوحيد (ص ١٤٩).

(٢) التفويض: هو منهج وسط بين التأويل والإثبات، يعتمد على التسليم أو التوقف في النص، وقد فهم اللقاني أن هذا هو مذهب السلف، وسيأتي الحديث عن ذلك في الملاحظة الثالثة.

(٣) عن أبي عبيدة الحذاء قال عن أبي جعفر: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطُّغُوتَ أَنْ يَبْدُوهَا ﴾ [الزمر: ١٧] والجبّيت =

بعدهم راية التأويل، ليفتح بابه على مصراعيه، دون ضابط ولا دليل.

الملاحظة الثانية: التفریق في التأويل بين سلامة المقصد وسوئه: إن الله - تعالى - قد ذم أصحاب القلوب الزائغة الذين يؤولون المتشابهات بقصد تحريف الكتاب ومعانيه، وبهدف نشر الفتنة والفساد، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿﴾ [آل عمران: ٧].

أما التأويل بمعنى محاولة فهم الآية مع تنزيه الله - تعالى - عن مشابهة المخلوقين؛ فإننا لا نعامل صاحبه معاملة من قصد من وراء التأويل الفتنة وهدم الشريعة.

وبناء على ذلك لا يجوز حشر من أول الآيات المتشابهات من أهل العلم - بقصد التنزيه لله تعالى أو تقريب معناها للعامة - في زمرة من قال تعالى عنهم: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]؛ لأن هؤلاء المذكورين في الآية أرادوا من تأويلهم هدم الدين، وتحريفه، كاليهود والنصارى والمنافقين، والباطنية.

قال ابن كثير رحمته الله: «﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ [آل عمران: ٧] أي: ضلال وخروج عن الحق إلى الباطل، ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] أي: إنما يأخذون منه بالمتشابه الذي يمكنهم أن يحزفوه إلى مقاصدهم الفاسدة، وينزلوه عليها، لاحتمال لفظه لما يصرفونه. فأما المحكم فلا نصيب لهم فيه؛ لأنه دامج لهم وحجة عليهم؛ ولهذا قال:

= والطاغوت: فلانٌ وفلانٌ وفلانٌ، والعبادة: طاعة الناس لهم «الكليني: أصول الكافي (٤٩٨/١) كتاب الحجّة، باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية. قال محققه: هذا الحديث صحيح. وعن علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَبَرٍّ مُعْتَدِلٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] قال: البئر المعطلة: الإمام الصّامت، والقصر المشيد: الإمام التاطق. الكليني: أصول الكافي (٤٩٥/١) كتاب الحجّة، باب في نكت ونتف من التنزيل في الولاية. صححه محقق أصول الكافي، وذكر العياشي في تفسير قوله تعالى: ﴿حَفِظُوا عَلَى الصُّلُوكَاتِ وَالصَّلَاةِ الَّتِي تَلْتَمِذُونَ وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: الصلوات التي يجب المحافظة عليها هم: رسول الله وعلي وفاطمة وابناها ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: طائعين للأئمة. تفسير العياشي (١٢٧/١، ١٢٨)، لأبي النظر محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي (ت ٣٢٠)، ذكر ابن النديم في الفهرست أنه من فقهاء الإمامية، وأحد دهره وزمانه في غزارة العلم. يراجع للاستزادة من الأمثلة: الفصل الثاني من الرسالة (مصادر تلقي العقيدة عند الاثني عشرية) المبحث الأول (موقف الاثني عشرية من القرآن الكريم).

﴿ اٰتِبِعَا۟ اَلْقِسْمَةَ ﴾ [آل عمران: ٧] أي: الإضلال لأتباعهم، إيهامًا لهم أنهم يحتجون على بدعتهم بالقرآن، وهذا حجة عليهم لا لهم، كما لو احتج النصراري بأن القرآن قد نطق بأن عيسى هو روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم، وتركوا الاحتجاج بقوله [تعالى]: ﴿ اِنَّ هُوَ اِلَّا عَبْدٌ اٰنَعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩] وبقوله: ﴿ اِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللّٰهِ كَمَثَلِ اٰدَمَۙ خَلَقْنٰهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لِبٰرِئِكُنَّ فَيَكُوْنُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] وغير ذلك من الآيات المحكمة المبرحة بأنه خلق من مخلوقات الله، وعبد، ورسول من رسل الله «^(١).

ويرى أحد الكتاب الداعين إلى التقارب بين المذاهب الإسلامية « أن لكل من الطائفتين المعتزلة والشيعة الإمامية في جانب، وأهل السنة والصفوية في جانب آخر، وجهته في الثناء على الكمال الإلهي »^(٢). مما يدل على أن العقول قد تختلف في بعض الحشيات، فتصل إلى نتيجتين مختلفتين وإن كان المقصد واحدًا.

وهنا يتبين الفرق في المقصد والنوايا، فجمهور من أجاز التأويل من علماء المسلمين أجازوه لخدمة التنزيه والحفاظ على الدين. على خلاف من أراد من التأويل هدم شعائر الدين كالباطنية ومن لف لفهم، وإن كان هؤلاء قد اتخذوا من فعل المؤولين الأوائل أرضًا بنوا عليها بناءهم المتصدع.

يقول أستاذنا الدكتور الجليند: « والمعتزلة والأشاعرة لم يقصدوا من وراء مقالانهم في النفي والإثبات إلا تحقيق معنى الكمال لله الذي تصوروه في حق الله تعالى، إلا أنهم جميعًا قد أخطؤوا في تصور هذا الكمال وتفسيرهم لمعناه »^(٣).

وهذا المقصد الحسن كفيل - إن شاء الله تعالى - برفع التائيم عن أصحاب هذا الرأي، وأقصى ما يقال فيهم: (قصبوا الحق فأخطؤوه) وربما أجروا. ومن باب أولى أن لا يرمى صاحب التأويل المستساغ لغةً بألقاب الكفر والتفسيق والتبديع.

(١) تفسير القرآن العظيم (٨ / ٢).

(٢) د. حامد حفني داود: تقديمه لكتاب عقائد الإمامية، لمحمد رضا المظفر (ص ٢٢، ٢٣)، (ط ٣) مؤسسة أنصاريان - قم (١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م).

(٣) الأستاذ الدكتور: محمد السيد الجليند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ١٠٧)، وقد قال الأستاذ الدكتور السنهوتي: « الفرق التي أثبتت الصفات، والفرق التي نفتها كانت تقصد جميعًا إلى غاية واحدة هي إثبات الكمال لله تعالى »: التنزيه والتشبيه عند متكلمي الشيعة الاثني عشرية (ص ١٠٨).

وهذه ملاحظة مهمة لبعض الشباب المتحمس اليوم لطريقة السلف، ولكنه لم يسر على هديهم في الحجّة وحسن النقاش، فأسرع إلى التبديع والتفسيق، وربما التكفير. فيجب على هؤلاء المتحمسين أن يعلموا أن «المهم في العقيدة هو تنزيه الله تعالى عن التشبيه والتعطيل، وإنّ كل واحد من هذه المذاهب... جازم بذلك، والاختلاف بينها ليس اختلاف عقيدة، فإن العقيدة هي التنزيه عن التشبيه والتعطيل، وإنما هو اختلاف رأي في التعبير عن تلك العقيدة وتقعيدها على النصوص... ولكن الحق أن أصل الخلاف ليس إلا خلافاً اجتهادياً، نظير اختلاف الفقهاء في المسائل الفقهية المجتهد فيها» (١).

فهل يجمع تأويل المنافقين واليهود والباطنية، القاصدين حرب الإسلام والتحلل من ربة أحكام الشرع الخفيف، مع تأويل بعض علماء المسلمين القاصدين تنزيه الله تعالى والذبّ عن عقائد الإسلام!؟

إن التأويل يطلق ويراد منه عدة معانٍ، منها ما هو ممدوح، ومنها ما هو مذموم. وهذا ما أكدّه علماء التفسير.

ولهذا قال ابن كثير في تفسير آية آل عمران: «من العلماء من فصل في هذا المقام، فقال: التأويل يطلق ويراد به في القرآن معنيان:

- أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشيء، وما يؤول أمره إليه، ومنه قوله تعالى: ﴿ وَرَفَعَ أَبْوَابَهُ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا ﴾ [يوسف: ١٠٠] وقوله: ﴿ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ ﴾ [الأعراف: ٥٣] أي: حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد، فإن أريد بالتأويل هذا، فالوقف على الجلالة؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه على الجلية إلا الله ﷻ، ويكون قوله: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧] مبتدأ و ﴿ يَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِهِ ﴾ [آل عمران: ٧] خبره.

- وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر وهو التفسير والتعبير والبيان عن الشيء كقوله تعالى: ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ [يوسف: ٣٦] أي: بتفسيره، فإن أريد به هذا المعنى، فالوقف على: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٧] لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار، وإن لم يحيطوا علماً بحقائق الأشياء على كنه ما هي عليه» (٢).

(١) الشيخ تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٥/٢٤٩، ٢٥٠).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١٢/٢).

وبهذا التفريق بين المعنيين يتوضّح لنا سر اختلاف العلماء في الراسخين في العلم: هل يعلمون المتشابه أم لا، فإن كان على المعنى الأول فلا يعلمه إلا الله تعالى، ويحمل على هذا المعنى قول ابن عباس: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون [في العلم]: آمنا به»^(١). وإن كان على المعنى الثاني؛ فالراسخون في العلم يعلمونه، برّد المتشابه إلى المحكم؛ حيث «يخبر تعالى أن في القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب، أي: بينات واضحات الدلالة، لا التباس فيها على أحد من الناس، ومنه آيات أخر فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس أو بعضهم، فمن ردّ ما اشتبه عليه إلى الواضح منه، وحكم محكمه على متشابهه عنده، فقد اهتدى. ومن عكس انعكس»^(٢). وعلى هذا تحمل الرواية الثانية لابن عباس رضي الله عنه، حيث يقول: «أنا ممن يعلم تأويله»^(٣). فلا تعارض بين الروایتين عنه.

- ولا يجوز لنا في حمأة الجدال حول جواز أو منع تأويل الآيات المتشابهات أن نخلط بين تأويل العلماء المبني على الاجتهاد مع قصد التنزيه وبين التأويل المتفق على نكارتة، وهو الذي ذكرته الآية، وهو تحريف الكلم عن مواضعه، لهدم الدين وتوهين أركانه، وهو ما فعله أعداء الإسلام من اليهود والمنافقين والباطنية وغيرهم، وما يزالون يفعلون، وهم: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زِينٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران: ٧]. فلا يجوز بحال من الأحوال أن نحشر تحت هذا المعنى البغيض للتأويل اجتهادات علماء المسلمين في فهم الآيات، سواء وقفوا فيها أو جانبوا الصواب.

الملاحظة الثالثة: تمحيص معنى الآيات المتشابهة: لقد توسّع كثير من العلماء في مفهوم الآيات المتشابهة، فحشدوا بينها من الآيات ما ليس منها، ثم ساقهم الورع والحذر من التأويل إلى ترك تفسيرها والتعمق في معانيها، فصار معنى التسليم للآيات المتشابهات عندهم ترك تدبّر كثير من آيات القرآن الكريم، الذي أنزله الله هداية للعالمين.

لقد جاء عن سلف الأمة أن التفسير على أربعة أوجه: وجهٌ تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى ذكره^(٤). وهو يتعلق بالآيات المتشابهة.

(١) تفسير الطبري (٢٠٢/٦). (٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٦/٢).

(٣) تفسير الطبري (٢٠٣/٦)، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١١/٢).

(٤) وهو مروى عن ابن عباس وعائشة رضي الله عنهما، وعروة، وأبي الشعثاء، وأبي نهيك رحمهم الله، وغيرهم. انظر: تفسير الطبري (٧٥/١)، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (ط ١)، (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م)، ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (١٤/١)، (١٠/٢).

صحيح أن فتح باب التأويل على مصراعيه خطأ كبير، ولكن من الخطأ أيضًا إقحام كثير من الآيات الواضحة تحت مسمى الآيات المتشابهة، ومنع تأويلها بما ينسجم مع العقيدة الصحيحة ولغة العرب، سواء أسمىنا هذا التأويل مجازًا أو جريًا على لغة العرب. ذلك أن مما يساعد في فهم القرآن الكريم دراسة اللغة الفصحى واستخداماتها، فإن في القرآن الكريم روائع بيانية تدرك من خلال معرفة بلاغة لغة العرب.

وعلى سبيل المثال: قد يتوقف بعض الناس بحذر عند قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ..﴾ [المائدة: ٦٤] يعدها من الآيات المتشابهة، ويفوض علمها إلى الله تعالى؛ فيعجز عن فهمها وإدراك معناها، ولو أمعن النظر فيها لرأى أسلوبًا لغويًا بديعًا تستعمله العرب، فهذه الآية إنما هي رد على قول اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُمُونُوا بِمَا قَالُوا..﴾ [المائدة: ٦٤]، فجاء الجواب مستخدمًا الأسلوب اللغوي ذاته: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ..﴾ [المائدة: ٦٤].

قال ابن كثير رحمته «أي: بل هو الواسع الفضل، الجزيل العطاء، الذي ما من شيء إلا عنده خزائنه» (١).

وقد بين القرآن ذاته أن مصطلح بسط اليد وقبضها ليس إثباتًا لليد بمعنى الآلة والعضو المخلوق، إنما هو كناية عن البذل أو البخل، فقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ [الإسراء: ٢٩]. قال شيخ المفسرين الطبري رحمته: «وإنما وصف تعالى ذكره» (اليد) بذلك، والمعنى العطاء؛ لأن عطاء الناس وبذل معروفهم الغالب بأيديهم. فجرى استعمال الناس في وصف بعضهم بعضًا، إذا وصفوه بجود وكرم، أو ببخل وشح وضيق، بإضافة ما كان من ذلك من صفة الموصوف إلى يديه، كما قال الأعشى في مدح رجل:

يداك يدا مجيد، فكف مفيدة
وكف إذا ما ضنّ بالزاد تنفق

فأضاف ما كان صفة صاحب اليد من إنفاق وإفادة إلى (اليد). ومثل ذلك من كلام العرب في أشعارها وأمثالها أكثر من أن يُحصى. فخطبهم الله بما يتعارفونه ويتحاورونه بينهم في كلامهم (٢).

(١) تفسير القرآن العظيم (١٤٦/٣).

(٢) تفسير الطبري (٤٥١/١٠). قال الشيخ أحمد شاكر في الهامش عن شعر الأعشى: «في ديوانه

(ص ١٥٠)، من قصيدته الغالية التي رفعت المخلق وطارت بذكره في الآفاق، يقول له:

- وكذلك الأمر في قوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات: ٤٧].
قال أهل العلم: « أي: بقوة » (١).

ولذلك قال تعالى في وصف داود عليه السلام، وهو النبي الملك الذي ألان الله تعالى له الحديد: ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ١٧].

فاليد في لغة العرب تطلق على معان كثيرة، قال ابن حجر: « اجتمع لنا منها خمسة وعشرون معنى ما بين حقيقة ومجاز » (٢). والذي يبين المعنى المراد سياق الجمل وتركيبها.

- وكذلك الحال في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهُ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَتْ فَإِنَّمَا يَنْكُتْ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ١٠].

قال ابن كثير: « أي: هو حاضر معهم يسمع أقوالهم ويرى مكانهم، ويعلم ضمائرهم وظواهرهم، فهو تعالى هو المبايع بواسطة رسوله » (٣).

والمسلمون للأسف في حمأة الجدال العنيف في تاريخهم، أضاعوا الوقت والجهد في التساؤل: هل له - سبحانه - يد؟ بين مجسم ومعتل، ومثبت ومؤول، ويطول الجدل، فيفتش بعضهم بعضاً، ويلعن بعضهم بعضاً، ويكفر بعضهم بعضاً!

وربما تغيب - في صخب هذا الجدل - المعاني الأساسية التي جاءت الآية لتقررها،

إلى ضوء نارٍ في يفاع تحرق
وبات على النار التدى والخلق
بأسخم عوض الدهر لا نتفرق
كما زان متن الهندواني رونق
وكف إذا ما ضن بالمال تنفق

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
تُشب لمقرورين يصطلبانها
رضيعي لبان ثدي أم تحالفا
ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه
يداه يدا صدق، فكف مفيدة

(١) قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والثوري، وغير واحد. انظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤٢٤/٧).

(٢) فتح الباري، ابن حجر (٣٩٤/١٣)، وقد ذكر من هذه المعاني: « الأول: الجارحة، الثاني: القوة، نحو

﴿ دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ ﴾ [ص: ١٧]، الثالث: الملك: ﴿ إِنَّ الْفَضْلَ يَبْدُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧٣]، الرابع: العهد ﴿ يَدُ اللَّهِ

فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ [الفتح: ١٠].. الخامس: الاستسلام والانقياد... الذل ﴿ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ ﴾ [التوبة: ٢٩]..

السلطان، الطاعة، الجماعة، الطريق: يقال: أخذتهم يد الساحل، التفرق: تفرقوا أيدي سبأ، الحفظ، يد القوس

أعلاها، يد السيف مقبضه، يد الرحي عود القابض، جناح الطائر، المدة يقال: لا ألقاه يد الدهر، الابتداء، يقال:

لقتيه أول ذات يدي وأعطاه عن ظهر يد، يد الثوب ما فضل منه، يد الشيء أمامه، الطاقة، النقد: نحو بعته يداً بيد..

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣٢٩/٧).

وفي مقدمتها: بيان فضل صحابة النبي ﷺ المبايعين، ووجوب الوفاء بعهد الله تعالى، وتغليظ الغدر بالعهود!

- ومن أمثلة ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿وَلْتَصْنَعْ عَلَى عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] وقوله: ﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الطور: ٤٨]؛ فمثل هذه الآيات لا ينبغي الخلاف فيها، بل تفهم على وفق لغة العرب وبلاغتهم بما لا يخالف التوحيد. وقد وجدت بعد طباعتي مسودة هذه الرسالة - بيض الله صحائف كاتبها وقارئها - كلامًا نفيسًا لابن دقيق العيد نقله عنه ابن حجر في فتح الباري، يدور حول هذا المعنى الذي بيّنته؛ إذ يقول:

« نقول في الصفات المشكّلة: إنها حق وصدق على المعنى الذي أراده الله، ومن تأولها نظرنا: فإن كان تأويله قريبًا على مقتضى لسان العرب لم ننكر عليه، وإن كان بعيدًا توقفنا عنه، ورجعنا إلى التصديق مع التنزيه، وما كان منها معناه ظاهرًا مفهومًا من تخاطب العرب حملناه عليه لقوله: ﴿.. عَلَى مَا قَرَطْتُ فِي جَنَبِ اللَّهِ..﴾ [الزمر: ٥٦]، فإن المراد به في استعمالهم الشائع: حق الله، فلا يتوقف في حمله عليه، وكذا قوله ﷺ: « إن قلب ابن آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن »^(١) فإن المراد به إرادة قلب ابن آدم مصروفة بقدرة الله وما يوقعه فيه، وكذا قوله تعالى: ﴿فَأَقْبَهُ اللَّهُ بُيْتَهُمْ مِمَّنْ آفَقُوا عِدًّا..﴾ [النحل: ٢٦] معناه خرب الله بنيانهم، وقوله: ﴿إِنَّمَا تُطَعَّمُونَ لُجُوجَ اللَّهِ..﴾ [الدر: ٩] معناه لأجل الله، وقس على ذلك، وهو قلّ من تيقظ له »^(٢).

فهذه النصوص مفهومة بلغة العرب، فلا حاجة إذن إلى ضمها إلى الآيات المتشابهة؛ لأن معانيها واضحة، فهمتتها العرب فهمًا واضحًا جليًا.

أما النصوص التي أتت لتؤكد على حقيقة دينية غيبية ثابتة، وتكرّر تقريرها مرات عديدة؛ فلا يد للتأويل ولا لبلاغة العرب في فهمها، وإنما الطريق هو إثباتها كما وردت، وهذه التي يصح أن يطلق عليها مصطلح الآيات المتشابهة، كالعرش والاستواء، فقد تكررت النصوص بشأنها. و « تنوعت أساليب القرآن في التعبير عن هذه الصفة غاية التنوع، فعبر تارة بالاستواء إلى السماء، وأخرى بصعود الأشياء إليه، وثالثة بنزول

(١) أخرجه مسلم: كتاب القدر، باب تصريف الله تعالى قلوب العباد كيف شاء، رقم (٦٧٠٦) ترقيم دار القلم - دمشق.

(٢) ابن حجر: فتح الباري (٣٨٣/١٣) كتاب التوحيد، باب ما يذكر في النعوت والصفات.

الملائكة من عنده، وبأنه رفيع الدرجات، وأن عباده يخافونه من فوقهم، وأنه دنا من نبيه ليلة المعراج، وأن عنده من يسبحون له بالليل والنهار» (١).

فهذا التأكيد والتكرار يدل على أن نصوص العرش والاستواء جاءت لتثبيت عقيدة واضحة بيّنة، لا لمجرد استخدام بلاغة العرب وحسن بيانهم.

وهي التي ينطبق عليها قول الإمام مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لما سئل عن قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى السَّمَوَاتِ﴾ [الرعد: ٢]، أو قوله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]: كيف استوى؟ «فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرخصاء» (٢)، ثم قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً. فأمر به أن يخرج» (٣). ويروى قريباً من «هذا الجواب عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا موقوفاً ومرفوعاً إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ» (٤).

(١) أستاذنا الدكتور: محمد السيد الجليلند: الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (ص ٨٤، ٨٥).

(٢) الرخصاء: العرق الكثير.

(٣) البيهقي: الأسماء والصفات (٤١٠/٢).

(٤) ابن أبي العز: شرح الطحاوية (١٧٦/٢).

إلى هنا ينتهي المجلد الأول
ويليه المجلد الثاني حيث يبدأ
بالمبحث الثالث (النبوات)

مَسَائِلُ الْإِعْتِقَادِ عِنْدَ

الشَّيخِ الْإِسْمَاعِيلِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي عِيسَى

فِي ضَوْءِ مَصَادِرِهِمُ الْحَدِيثِيَّةِ

٢١٥

ن د م

الطبعة

مكتبة المسجد النبوي الشريف
رقم الكتاب: ١٢٧٩١٠
تاريخ التسجيل: ٨١٤٢٤٦/١٨

تَأَلَّفَ

د. مُحَمَّدُ زَكْرِيَّا النَّدَافُ

المجلد الثاني

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

كافة حقوق الطبع والنشر والترجمة محفوظة

للسائر

دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والتجديد

لصاحبها

عبد الفادر محمود البكار

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ / ٢٠١١ م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار
الكتب والوثائق القومية - إدارة الشؤون الفنية

النداف ، محمد زكريا .

مسائل الاعتقاد عند الشيعة الاثني عشرية في ضوء
مصادرهم الحديثية / تأليف محمد زكريا النداف . -
ط ١ - القاهرة : دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع
والترجمة ، ٢٠١٠ م .

٢ مج ٢٤٤ سم .

تدمك ٨ ٩١٨ ٣٤٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - الاثنا عشرية . ٢ - الشيعة .

أ - العنوان .

٢٤٧، ٨

جمهورية مصر العربية - القاهرة - الإسكندرية

الإدارة : القاهرة : ٤٠ شارع أحمد أبو العلا - المتفرع من شارع نور الدين بهجت -

الموازي لامتداد شارع مكرم عبيد - مدينة نصر

هاتف : ٢٢٨٧٣٢٤٦ - ٢٢٧٠٤٢٨٠ - ٢٢٧٤١٥٧٨ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٧٤١٧٥٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الأزهر : ١٢٠ شارع الأزهر الرئيسي - هاتف : ٢٥٩٣٢٨٢٠ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع مدينة نصر : ١ شارع الحسن بن علي متفرع من شارع علي أمين امتداد شارع

مصطفى النحاس - مدينة نصر - هاتف : ٢٤٠٥٤٦٤٢ (٢٠٢ +)

فاكس : ٢٢٦٣٩٨٦١ (٢٠٢ +)

المكتبة : فرع الإسكندرية : ١٢٧ شارع الإسكندر الأكبر - الشاطبي بجوار جمعية الشبان المسلمين

هاتف : ٥٩٣٢٢٠٥ فاكس : ٥٩٣٢٢٠٤ (٢٠٣ +)

بريدياً : القاهرة : ص.ب ١٦١ الغورية - الرمز البريدي ١١٦٣٩

البريد الإلكتروني : info@dar-alsalam.com

موقعنا على الإنترنت : www.dar-alsalam.com

دار السلام

للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة

ش.م.م

تأسست الدار عام ١٩٧٣م وحصلت

على جائزة أفضل ناشر للتراث لثلاثة

أعوام متتالية ١٩٩٩م ، ٢٠٠٠م ،

٢٠٠١م هي عفر الجائزة تتويجا لعقد

ثالث مضى في صناعة النشر

فهرس محتويات المجلد الثاني



(تابع)

الفصل الثالث: (مسائل الاعتقاد العامة بين الاثني عشرية وأهل السنة)

- ٥٣٣ المبحث الثالث: النبوات
- ٥٨٠ المبحث الرابع: الإيمان بالملائكة عليهم السلام
- ٥٨٧ المبحث الخامس: القضاء والقدر
- ٦١٠ المبحث السادس: أحداث ما بعد الموت
- ٦٤٣ الفصل الرابع: (العقائد الخاصة بالاثني عشرية)
- ٦٤٥ المبحث الأول: الإمامة
- ٦٩٠ المبحث الثاني: عصمة الأئمة
- ٧١٣ المبحث الثالث: التقية
- ٧٢٦ المبحث الرابع: البداء
- ٧٤١ المبحث الخامس: الرجعة
- ٧٤٨ المبحث السادس: المهدي المنتظر: غيبته وأعماله
- ٧٨١ المبحث السابع: بعض الممارسات الشيعية المرتبطة بالعقيدة
- ٨٠٩ الفصل الخامس: (موقف الشيعة الاثني عشرية من المخالفين لمنهجهم العقدي)
- ٨١١ تمهيد: بيان العلاقة بين الصحابة الكرام وآل بيت النبي صلى الله عليه وآله
- ٨٣٧ المبحث الأول: تصنيف الناس عند الاثني عشرية
- ٨٦٠ المبحث الثاني: موقف الشيعة الاثني عشرية من الصحابة الكرام
- ٩١٨ المبحث الثالث: موقف الشيعة من عموم الأمة والفرق الكلامية الإسلامية
- ٩٤٩ خاتمة

٩٥٧ ملحق

٩٦٥ المصادر والمراجع

٩٨٩ السيرة الذاتية للمؤلف

* * *

الْمَبْحَثُ الثَّلَاثُ

النبوات



لقد اتفقت كلمة المسلمين على أنه « يجب على كل إنسان الإيمان بجميع الأنبياء، وعدم التفريق بينهم، في مجال الاعتقاد والتصديق بالنبوة، وكذلك التصديق بكل الرسالات والتعاليم النازلة عليهم » (١). ونصوص وجوب الإيمان بالأنبياء الكرام مبثوثة في القرآن والسنة. قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ غَزِيْرًا حَكِيْمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

ويعتقد الإمامية أنه « تجب بعثة الأنبياء؛ لأنهم يقربون الناس إلى الطاعة ويعدونهم عن المعصية » (٢)، فوجود النبوة واجب لأنه لطف من الله تعالى. وبهذا يوافق الاثنى عشرية المعتزلة القائلين بوجوب إرسال الرسل، غير أنهم يختلفون عنهم في أنهم يقولون بأن هذا الوجوب أوجبه الله تعالى على نفسه، ولذلك فهذا الوجوب يعني (اللزوم) و (استحالة الانفكاك)؛ لأن ذلك مقتضى رحمته ولطفه بعباده (٣).

والذي دعا الإمامية - والمعتزلة من قبلهم - للقول بوجوب إرسال الرسل هو أصلهم في الحسن والتبجح العقلين، فما دامت الرسالة أمراً حسناً فهي واجبة؛ ولذلك يقول الطوسي: « متى حسنت البعثة وجبت، ولا ينفصل الحسن من الوجوب » (٤).

ويتفق أهل السنة والشيعة على أن النبوة اصطفاء واجتباء من الله تعالى، فليست النبوة إذن استحقاقاً أو مرتبة يبلغها المرء بالرياضة والاجتهاد، خلافاً لمن زعم ذلك من الفلاسفة (٥). فقد بين القرآن بما لا يحتمل التأويل أن الرسالة والنبوة بيد الله وحده، يجعلها حيث يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مَنِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّكَ اللَّهُ سَمِيعٌ بَصِيْرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، وقال: ﴿.. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٦٩).

(٢) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٧٨).

(٣) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د. عائشة المناعي (ص ٣٩٤).

(٤) الطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد (ص ٢٤٦).

(٥) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د. عائشة المناعي (ص ٣٩٤).

يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾
 [آل عمران: ١٧٩]، وقال: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال:
 ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ءَ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ﴾ [النمل: ٥٩].
 وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣].
 قال اللقاني:

ولم تكن نبوة مكتسبة ولو رقى في الخير أعلى عقبة (١)

عدد الأنبياء:

وعدد الأنبياء والرسل كبير، فقد قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]، ولم يذكر منهم في القرآن إلا خمستا وعشرين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ...﴾ [غافر: ٧٨].

ولكن «ورد في بعض الروايات عن أهل بيت العصمة والطهارة أن الله بعث مائة وأربعة وعشرين ألفاً من الأنبياء، وأن سلسلة الأنبياء تبدأ من آدم أبي البشر ﷺ وتختتم بمحمد بن عبد الله ﷺ...» وورد في بعض الروايات أن عدد الرسل الإلهيين ثلاثمائة وثلاثة عشر» (٢).

قال عبد الله شير: «لا أعلم خلافاً فيمن ذكر عدد الأنبياء... ولكن خفيت علينا أكثر أسمائهم، ولم نحط بمجمل أحوالهم» (٣).

وقد ورد هذا العدد ذاته في بعض روايات أهل السنة، كما في مسند الإمام

(١) جوهره التوحيد (ص ٢٨٧).

والمخالف في هذا الفلاسفة، فقد نقل عنهم علماء الكلام أن «النبوة مكتسبة فإذا تفرغ صفى قلبه عندهم وفاض على قلبه من جنس ما فاض على الأنبياء». انظر: ابن تيمية جامع الرسائل (٣٣٧/١). «ويلزم على قولهم باكتسابها تجويز نبي بعد سيدنا محمد ﷺ أو معه، وذلك مستلزم لتكذيب القرآن والسنة فقد قال تعالى: ﴿وَكَاذِبٌ أَلْتَبَتْنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وقال ﷺ: «لا نبي بعدي» أخرجه الترمذي. انظر: الباجوري: شرح جوهره التوحيد (ص ٢٨٧).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٧٠)، وانظر: عبد الله شير: حق اليقين (ص ١٢٩)، وانظر الرواية في بحار الأنوار (٢٨/١١).

(٣) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٢٩).

أحمد رحمه الله تعالى. ولكن بسند ضعيف^(١)، وهذا الاتفاق بين رواية أهل السنة ورواية الاثني عشرية غير مستغرب، ما دام أمر عدد الأنبياء بعيداً عن أمور الخلاف العقدي كمسألة الإمامة وما لاصقها.

طبقات الأنبياء:

قال أبو عبد الله عليه السلام: « الأنبياء والمرسلون على أربع طبقات، فنبّيّ متباً في نفسه لا يعدو غيرها، ونبّيّ يرى في النوم ويسمع الصوت ولا يعاينه في اليقظة ولم يبعث إلى أحدٍ وعليه إمامٌ مثل ما كان إبراهيم على لوط عليه السلام، ونبّيّ يرى في منامه ويسمع الصوت ويعاين الملك وقد أرسل إلى طائفة، قَلَّوا أو كثُرُوا، كَيونس قال الله ليونس: ﴿ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُوكَ ﴾ [الصفوات: ١٤٧] قال: يزيدون ثلاثين ألفاً وعليه إمام، والذي يرى في نومه ويسمع الصوت ويعاين في اليقظة وهو إمامٌ مثل أولي العزم، وقد كان إبراهيم عليه السلام نبياً وليس بإمام حتى قال الله: ﴿ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] من عبد صنماً أو وثناً لا يكون إماماً »^(٢).

وهكذا تقرر الروايات أن الإمامة لا بد أن تلازم النبوة، بشخص مستقل كما في معظم الأنبياء، أو في الرسول أو النبي نفسه، كما هو الحال في أولي العزم من الرسل، وهو فهم اختص به الاثنا عشرية.

أولو العزم من الرسل:

قال شير: لا خلاف بين أصحابنا في كون أولي العزم من الأنبياء خمسة، نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وسيدنا محمد، عليهم الصلوات والسلام^(٣).

وقد ذكر البيهقي أن « الميزة التي يتميزون بها إضافة إلى الصبر والاستقامة المتميزة التي تمتعوا بها، وأشار إليها في القرآن الكريم هي أن لكل واحد منهم كتاباً وشريعة مستقلة،

(١) عن أبي أمامة رضي الله عنه: قال: قلت: يا نبي الله! فأني الأنبياء كان أول؟ قال: « آدم عليه السلام » قال: قلت: يا نبي الله! أو نبي كان آدم؟ قال: « نعم، نبي مكلّم، خلقه الله بيده ثم نفخ فيه روحه ثم قال له: يا آدم قبلًا ». قال قلت: يا رسول الله! كم وفي عبدة الأنبياء؟ قال: « مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً، الرسل من ذلك ثلاث مائة وخمسة عشر جمًّا غفيراً ». وقال محقق المسند الشيخ شعيب الأرناؤوط: إسناده ضعيف جداً. مسند الإمام أحمد (٥/٢٦٥)، رقم (٢٢٣٤٢).

(٢) الكليني: أصول الكافي، كتاب الحجّة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام.

(٣) عبد الله شير: حق اليقين (ص ١٣٢).

وقد اتبع شريعته الأنبياء المعاصرون له أو المتأخرون عنه، حتى يبعث نبي آخر من أولي العزم بالرسالة، ويأتي بكتاب وشريعة جديدة»^(١). وقد جاءت نصوص الأئمة تؤيد هذا المعنى:

عن ابن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: «سادة التبيين والمرسلين خمسة، وهم أولو العزم من الرسل وعليهم دارت الرحي: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد عليه السلام وعلى جميع الأنبياء»^(٢).

وعن سماعة بن مهران قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قول الله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ..﴾ [الأحقاف: ٣٥]؟ فقال: «نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليه وآله وعليهم، قلت: كيف صاروا أولي العزم؟ قال: لأن نوحاً بعث بكتاب وشريعة، وكل من جاء بعد نوح أخذ بكتاب نوح وشريعته ومنهاجه، حتى جاء إبراهيم عليه السلام بالصحف، وبعزيمة ترك كتاب نوح لا كفراً به، فكل نبي جاء بعد إبراهيم عليه السلام أخذ بشريعة إبراهيم ومنهاجه وبالصحف، حتى جاء موسى بالتوراة وشريعته ومنهاجه، وبعزيمة ترك الصحف، وكل نبي جاء بعد موسى عليه السلام أخذ بالتوراة وشريعته ومنهاجه، حتى جاء المسيح عليه السلام بالإنجيل؛ بعزيمة ترك شريعة موسى ومنهاجه، فكل نبي جاء بعد المسيح أخذ بشريعته ومنهاجه، حتى جاء محمد عليه السلام فجاء بالقرآن وبشريعته ومنهاجه، فحلاله حلال إلى يوم القيامة، وحرامه حرام إلى يوم القيامة، فهؤلاء أولو العزم من الرسل عليهم السلام»^(٣).

العلاقة بين النبوة والرسالة:

قال أهل السنة: «النبوة مأخوذة من النبأ بمعنى الخبر»، «والرسالة بمعنى تكليف الله لأحد من عباده بإبلاغ الناس بشرع»، والقول المشهور^(٤) عند أهل السنة: وجود التفريق بين النبي والرسول، فالقاعدة تقول: «كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً»^(٥). فكلاهما أوحى إليه، ولكن الرسول كلف بالتبليغ، والنبي لم يكلف به.

(١) محمد تقي مصباح الزيدي: دروس في العقيدة (ص ٢٧٢).

(٢) أصول الكافي (٢٢٨/١، ٢٢٩) كتاب الحجّة، باب طبقات الأنبياء والرسل والأئمة عليهم السلام.

(٣) أصول الكافي (٢١/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الشرائع. قال محققه: والحديث موثق.

(٤) إذ هناك من يرى أن كلا الكلمتين مترادفتان. انظر: د. مصطفى الخن: مبادئ العقيدة الإسلامية (ص ١٩٧).

(٥) انظر: د. مصطفى الخن: مبادئ العقيدة الإسلامية (ص ١٩٧).

وهذا التفريق بين النبوة والرسالة وارد عند الاثني عشرية أيضاً، ويضيفون له منصب الإمامة، وهو منصب لا يتناوله أهل السنة:

قال عبد الله شبر: « الأنبياء فيهم من جمع النبوة والرسالة والإمامة كنبينا ﷺ كما قال تعالى: ﴿.. وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَرَ النَّبِيِّينَ.. ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وكموسى... وكإبراهيم ﷺ قال الله فيه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤] » (١).

و « قال بعض المحققين: النبي من أوحى إليه بالعمل، والرسول من أوحى إليه بالعمل والتبليغ، والولي من حدثه الملك أو ألهم إلهاماً، والإمام من حدثه الملك بالعمل والتبليغ، فكل رسول نبي ولا عكس، وكل رسول أو نبي أو إمام فهو ولي ومحدث ولا عكس، وكل رسول إمام ولا عكس، ولا نبي إلا وولايته أقدم على نبوته، ولا رسول إلا ونبوته أقدم على رسالته، ولا إمام إلا وولايته أقدم على إمامته » (٢).

وهكذا نرى أن كتب عقائد الشيعة تحشر الحديث عن الأئمة والأولياء مع الحديث عن الرسل والأنبياء!

وقد جاء في روايات الاثني عشرية تفصيلهم بين النبي والرسول والمحدث، بمعايير أخرى تبين الفرق بينهم:

عن زرارة قال: سألت أبا جعفر الطوسي عن قول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: ٥١] ما الرسول وما النبي؟ قال: النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك، والرسول الذي يسمع الصوت ويرى في المنام ويعاين الملك. قلت: الإمام ما منزلته؟ قال: يسمع الصوت ولا يرى ولا يعاين الملك، ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: ٥٢] [ولا محدث] (٣). وهكذا ضمت الرواية كلمة (محدث) إلى الآية، وهو تحريف واضح، ومثله كثير في أصول الكافي.

ورغم أن هذا النص يبين وقوع شيء من الصلة بين الإمام والملائكة، ولكن الإمامية يرون أن الأنبياء يختصون بالوحي دون باقي البشر؛ ولذلك يقول المفيد: « من يزعم أن أحداً بعد نبينا ﷺ يوحى إليه فقد أخطأ وكفر » (٤). فهل يعني هذا التنازل عن عدد

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٣٠).

(٢) المصدر السابق (ص ١٣٤).

(٣) أصول الكافي (١/٢٣٠) كتاب الحج، باب الفرق بين الرسول والنبي والمحدث.

(٤) أوائل المقالات (ص ٧٦).

لا يستهان به من الروايات التي تؤكد أن الإمام يسمع صوت الملك، ويوحى الملك إليه بعلوم جلية، وتدعي بعد ذلك روايات أخرى تسطير هذه العلوم في كتب خاصة عند الأئمة، كمصحف فاطمة والجفر.. إلخ؟!

وإذا كان الخوض في معنى النبوة والرسالة من فضول القول، ومما لا يبنى عليه عمل، فإن بعض متكلمي الاثني عشرية خاضوا في مسألة أَعْوَرَ وَأَعْوَص، وهي التفضيل بين النبوة والرسالة والإمامة والولاية، فأدخلوا أنفسهم في متاهات لا طائل منها ولا فائدة. قال عبد الله شبر: «الولاية باطن النبوة، والإمامة والنبوة باطن الرسالة، وباطن كل شيء أشرف وأعظم من ظاهره؛ لأن الظاهر محتاج إلى الباطن والباطن مستغن عن الظاهر... فإن كلاً من النبوة والولاية صادرة عن الله ومتعلقة بالله، وكل من الرسالة والإمامة صادرة عن الله ومتعلقة بعباد الله، فتكون الأوليان أفضل...»

وقيل: بل الأخيرتان أفضل لأن نفعهما متعدّد، ونفع الأولتين مقصور على صاحبيهما، وله وجه، إلا أن التحقيق هو الأول، وكيف ما كان فليس يجب أن يكون الولي أعظم من النبي ولا من الرسول ولا من الإمام، ولا النبي أعظم من الرسول، بل الأمر في الكل على العكس، كما في ولي يتبع نبياً أو رسولاً أو إماماً، أو نبي يتبع رسولاً؛ لأن لكل من النبي والإمام مرتبتين وللرسول ثلاث مراتب، وللولي الواحدة، فمن قال: إن الولي فوق النبي فإنما يعني بذلك في شخص واحد، يعني أن النبي من حيث هو ولي أشرف منه من حيث إنه نبي ورسول، وكذلك الإمام من حيث إنه ولي أشرف منه من حيث إنه إمام» (١).

وهكذا نجد من علماء الاثني عشرية من يرى الولاية خيراً من النبوة والرسالة، ولولا أن الرسول يستجمع الخصال الثلاث لما فضّلوه على الولي. وقولهم هذا بتفضيل الولاية على النبوة والرسالة قول باطل، لا دليل عليه من عقل ولا نقل.

ويجدر القول أن المعتزلة قد خالفوا غيرهم في التفريق بين النبي والرسول، فقالوا: إنهما لفظان لمسمّى واحد، فكل نبي رسول وكل رسول نبي، «يثبتان معاً ويزولان معاً في الاستعمال، حتى لو ثبت أحدهما ونفي الآخر لتناقض الكلام، وهذا أمانة إثبات كلتا اللفظتين المتفتحتين في الفائدة» (٢).

وذلك أننا لو حللنا لفظ النبوة والرسالة، لرأينا أن النبوة من النبأ، وهي تدل على

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٣٤).

(٢) انظر: شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار (ص ٥٦٨).

العلاقة بين النبي ومن نبأه، أي الله تعالى، فالعلاقة بين الله تعالى ونبيه هي النبوة، أما الرسالة، فهي تدل على ما يكون بعد ذلك من إرسال النبي بما أنبأه الله تعالى إلى الناس، فيكون رسولاً إليهم. فالنبوة علاقة بين الله والنبي، والرسالة علاقة بين النبي والناس، وإطلاق أحدهما لا ينفي الآخر، وإن من أوهن القول أن يقال في التفريق بينهما أن النبي يوحى إليه بوحي لا يكلف أن يبلغه الناس! فإذا كان الشرع الحنيف يطلب ممن تعلم علماً أن يخبر به الناس؛ فكيف بمن أوحى الله إليه؟! ثم ما فائدة هذا الوحي إن لم ينتفع به البشر؟!

ويعكر على رأي المعتزلة هذا قول الله تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ [الحج: ٥٢]. فهذا العطف للنبي على الرسول في الآية يدل على المغايرة بين معنهما وينفي احتمال ترادفهما، فقد قرر علماء اللغة أن (العطف يقتضي المغايرة)^(١).

ولذلك فإن الزمخشري - وهو اعتزالي المشرب - استدل بالآية على تغاير الرسالة والنبوة، فقال: ﴿ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ ﴾ [الحج: ٥٢] « دليل يبين على تغاير الرسول والنبي »^(٢). فالتفصيل إذن بين الرسول والنبي: « هو ما عليه جمهور أهل التوحيد، وهناك آراء أخرى في الفرق بين النبي والرسول، لا تخلو أدلتها من ضعف »^(٣). والحمد لله، فالمسألة ليست من أصول العقيدة، ولا يترتب عليها فائدة تذكر، والسكوت عنها أولى.

صفات الأنبياء والرسول - عليهم الصلاة والسلام -:

وهناك شبه اتفاق بين السنة والشيعة على صفات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فالرسول هم صفوة البشر، وأفضلهم؛ ولذلك ميّزهم الله تعالى بعدة صفات حتى يقيم بهم الحجة على خلقه.

وقد بين اللقاني الأشعري رحمته الله هذه الصفات قائلاً:

وواجب في حقهم أمانة وصدقهم أضف له الفطانة

(١) الزبيدي: تاج العروس، باب الهاء، فصل الفاء، مادة فكه، (ص ٨٢٣٤).

(٢) الزمخشري: الكشاف (٣٠١/٤).

(٣) الأستاذ عبد الرحمن حنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها (ص ٢٧٠).

ومثل ذا تبليغهم لما أتوا ويستحيل ضدها كما رووا
بالمعجزات أيّدوا تكمّروا وعصمة الباري لكل حتماً (١)

- فواجب في حقهم الصدق والأمانة؛ لأنهم يبلغون رسالة الله تعالى، وقد كان سيدنا محمد ﷺ معروفاً بالصادق الأمين قبل بعثته.

- وواجب لهم الفطانة والذكاء وقوة الحجة حتى يجادلوا أقوامهم ليرشدوهم إلى الحق: ويمكننا الاطلاع على ما كان عليه الرسل من العلم والفطانة من خلال حوارهم لأقوامهم؛ فقد قال تعالى، مبيّناً ما جرى بين نوح ﷺ وقومه من حجاج ونقاش: ﴿ قَالُوا يَنْبُحُ قَدْ جَدَلْتَنَا فَأَكْزَرْتَ جِدْلَنَا فَاِنَّا بِمَا نَعُدُّكَ إِن كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ ﴾ [هود: ٣٢]. وقال تعالى في حق إبراهيم ﷺ: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا اِبْرٰهِيْمَ عَلٰى قَوْمِهٖ نَرْفَعُ دَرَجٰتِهٖ مَنْ نَّشَآءُ اِنَّ رَبَّكَ حَكِيْمٌ عَلِيْمٌ ﴾ [الأنعام: ٨٣]. وفي نقاش إبراهيم ﷺ مع النمرود مثال واضح يبين ما كان عليه إبراهيم ﷺ من فطانة وذكاء، قال تعالى: ﴿ اَلَمْ تَرَ اِلٰى الَّذِي حٰجَّ اِبْرٰهِيْمَ فِي رَبِّهٖ اَنْ اٰتٰهُ اللهُ الْمُلْكَ اِذْ قَالَ اِبْرٰهِيْمُ رَبِّ اَلَّذِي يُحْيِي وَيُمِيْتُ قَالَ اَنَا اٰحْيٰءٌ وَاُمِيْتُ قَالَ اِبْرٰهِيْمُ فَاِنَّكَ اَللّٰهُ يٰٓاٰتِي بِالسَّمٰوٰتِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَاَتٰ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّٰلِمِيْنَ ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

- كما ذكروا من صفاتهم: الخلو عن كل منقر خلقاً وخلقاً:

فيستحيل على الأنبياء اتصافهم بالقبائح كالكذب، وكل ما ينفر الناس منهم، « فقد جنبه ﷺ الله ﷻ الفظاظة والغلظة والخلق المشينة وكثيراً من العلل القبيحة » (٢)، وهو أمر متفق عليه بين المسلمين. وقد أكدته نصوص القرآن والسنة، قال تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَّنَ خُلُقٍ عَظِيْمٍ ﴾ [القلم: ٤].

- كما ذكر شبر في صفات النبي أن يكون « منزهاً عن كل ما يدنسه ويشينه من الغلظة والفظاظة والحسد والبخل ودناءة الآباء وعهر الأمهات » (٣). قال الزنجاني: « المشهور بين الإمامية بل حكي عليه الإجماع أنه يجب تنزيه الأنبياء عن كفر الآباء والأمهات وعهرهن، لئلا يعيروا ويعابوا في ذلك، ولئلا ينتقر عنهم، فإن ما في الآباء من

(١) اللقاني: جوهرة التوحيد، مع شرحها للشيخ الباجوري (ص ٢٧٤، ٢٨٠، ٢٩٧).

(٢) ابن المرتضى: رسالة في علم الكلام (ص ٦٨)، نصير الدين الطوسي: تجريد الاعتقاد (ص ٢٧٤).

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٤٥ - ١٤٧).

العيوب يعود إلى الأبناء عرفاً، ولقوله تعالى: ﴿ الَّذِي يَرْتَدَّ جِئْنَ نَقُومٌ ﴾ وَقَبْلِكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿ [الشعراء: ٢١٨، ٢١٩] أي انتقلك من أصلاب الساجدين إلى أرحام الساجدات » (١). وقوله تعالى: ﴿ يَتَأَخَّتْ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا ﴾ [مريم: ٢٨] (٢).

ولكن قال شبر: وعندني في ذلك تأمل، إذ لم يأت دليل عقلي قطعي على اشتراط ذلك، والدليل النقلى إنما صح بالنسبة إلى آباء النبي ﷺ دون سائر الأنبياء، لا سيما الخضر عليه السلام، فالتوقف في ذلك أولى، وأمّهات سائر الأئمة عليهم السلام لم يكن في مبدأ أمرهن على الإسلام، نعم الذي يظهر من النقل ويساعده العقل اشتراط كونهن عفيفات طاهرات نجيبات منزهات ومسلمات حين انعقاد النطفة في أرحامهن؛ لأن النطفة لما كانت دائماً في الأصلاب فينبغي الإسلام، بخلاف الأرحام، والله العالم بحقائق الأمور (٣). هذا؛ ويعتقد أهل السنة أن آباء الأنبياء وأمّهاتهم هم أهل الطهارة والعفة، ويتأكد هذا في حق سيدنا محمد ﷺ، وقد رواوا عن النبي ﷺ قوله: « فأنا من خيار إلى خيار » (٤)، وعن علي أن النبي ﷺ قال: « خرجت من نكاح، ولم أخرج من سفاح، من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي » (٥). ولكن لا يشترطون أن يكون آباء الأنبياء على دين الإسلام، فمن باب أولى أن لا يشترطوا هذا في حق أئمة أهل البيت.

(١) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٤٥).

(٢) المرجع السابق نفسه.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٤٥ - ١٤٧).

(٤) مجمع الزوائد (٢١٥/٨) جاء في باب في كرامة أصله ﷺ، عن عبد الله بن عمر قال: إنا لنعوذ بفناء رسول الله ﷺ إذ مرت امرأة فقال رجل من القوم: هذه ابنة محمد، فقال رجل من القوم: إن مثل محمد في بني هاشم مثل الريحانة في وسط التنن، فانطلقت المرأة فأخبرت النبي ﷺ فجاء النبي ﷺ يعرف في وجهه الغضب، ثم قام على القوم فقال: « ما بال أقوال تبلغني عن أقوام؟ إن الله ﷻ خلق السموات سبعاً، فاختار العليا منها فسكنها [!] وأسكن سمواته من شاء من خلقه، وخلق الخلق، فاختار من الخلق بني آدم واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا من خيار إلى خيار، فمن أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم ». رواه الطبراني في الكبير والأوسط إلا أنه قال: « فمن أحب العرب فلحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فلبغضي أبغضهم » وفيه حماد بن واقد، وهو ضعيف يعتبر به، وبقيه رجاله وثقوا.

(٥) مجمع الزوائد (٢١٥/٨) جاء في باب في كرامة أصله ﷺ، رواه الطبراني في الأوسط. وفيه محمد ابن جعفر بن محمد بن علي، صحح له الحاكم في المستدرک، وقد تكلم فيه، وبقيه رجاله ثقات.

وقد ترتب على هذه المسألة خلاف حول قضية تأكيد إيمان والدي النبي ﷺ وإيمان أبي طالب عم النبي ﷺ والد أمير المؤمنين علي ﷺ:

وجوب الإيمان بإيمان والدي النبي ﷺ وعمه أبي طالب في مذهب الاثني عشرية:

يرى الشيعة أنه « يجب الإيمان بإيمان أبوي النبي ﷺ وأبي طالب، لإجماع الشيعة على ذلك، ورووا الروايات في ذلك من طرق العامة والخاصة ولقوله تعالى: ﴿ .. وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤]، وقد اتفق المخالف والموالف أن أول من آوى النبي ﷺ ونصره أبو طالب ﷺ » (١).

ولكن ثبت أن بعض المشركين أسدوا خدمات للنبي ﷺ بدافع الشهامة أو القرابة، فقد أجاره بعضهم، كمطعم بن عدي، بعد رجوعه ﷺ من الطائف (٢)، فهل يكون من أهل الجنة دون أن يؤمن برسالة النبي؟ وخصوصاً أنه قد جاء في صحيح روايات أهل السنة عن النبي ﷺ، وهو ابن أخي أبي طالب وهو أحرص عليه منا - أن أبا طالب أخف أهل النار عذاباً.

وهذه الآية التي استدلت بها الاثنا عشرية وردت في حق المهاجرين والأنصار، فيا ليتهم رعوا حقهم - وقد آووا ونصروا - بمثل ما أرادوا أن يرعوا حق أبي طالب والد أمير المؤمنين علي ﷺ.

ويحاول الاثنا عشرية أن يجيبوا على بعض الإشكالات التي تواجه مذهبهم؛ ككفر أزر والد النبي إبراهيم ﷺ، فيقولون: « أما أزر فلم يكن أباً حقيقياً لإبراهيم ﷺ بل كان عمه، وسمي أباه لتربيته إياه، وأبوه تارخ، وأبواه ﷺ عبد الله وأمنة كانا مسلمين، لما ثبت عن أهل البيت خلافاً للعامة (٣) العمياء، وقد رووا أن النبي ﷺ استغفر لهما (٤)، و ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيِّ ءَأَمْتُونَ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بُنِيَ

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٤٤).

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية (١٣٧/٣).

(٣) مصطلح العامة عند الاثني عشرية: من خالفهم من أهل الملة، كأهل السنة والجماعة.

(٤) الثابت عند أهل السنة أن النبي استأذن ربه بزيارة والدته، فأذن له، أما الاستغفار لهما فلم يؤذن له به. عن أبي هريرة قال زار النبي ﷺ قبر أمه فبكى وأبكى من حوله، فقال: « استأذنت ربي في أن أستغفر لها فلم يؤذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الموت ». صحيح مسلم، كتاب الجنائز، باب استئذان النبي ﷺ ربه ﷻ في زيارة قبر أمه، رقم (١٦٢٢).

لَهُمْ أَنْتُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿ [التوبة: ١١٣]، وعبد المطلب جده كان من أوصياء إبراهيم عليه السلام [!!]، كذلك سائر آبائه إلى إسماعيل كلهم كانوا من أوصيائه، وكذلك أبو طالب كان وصيًا بعد أبيه عبد المطلب، لم يكن كافرًا ولم يسجد لصنم قط، ولعل إيمانه من ضروريات مذهب الإمامية، ولذا ورد عنهم عليهم السلام: ليس من شيعتنا من لم يقل بإسلام أبي طالب، ولعل إصرار المخالفين وحرصهم على القول بكفر أبي طالب دون سائر أعمام النبي مع تظافر رواياتهم واتفاقهم على أنه آوى النبي ونصره، وقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤]، ورووا عنه أشعارًا كثيرة تدل على إسلامه، كقوله في جملة قصيدة:

ولقد علمت بأن دين محمد من خير أديان البرية دينًا

ولأجل عداوة أهل البيت عليهم السلام كما اعترف بذلك بعض منصفيه، وقد أشرنا إلى أن الحق أنه لا يجب الإسلام الدائم في أمهات النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، كما في شهربانو أم السجاد عليها السلام وأمّهات أكثر الأئمة، وإنما يجب إسلامهن حين انعقاد النطفة في الأرحام « اهـ (١) ».

والحقيقة أن بيت الشعر الذي ذكره شبر ورد عند أهل السنة، ولكن ورد بعده:

لولا الملامة أو حذار مسبة لرأيتي سمحًا بذلك مبينا

ويعتقد أهل السنة أن أبا طالب أهون أهل النار عذابًا، وخفف عنه العذاب لنصرته لنبينا صلى الله عليه وآله، ولم ينبج من النار لأنه لم يسلم، فلم ينصر نبينا تدينًا وإيمانًا، إنما حمية وشهامة لقرابته منه، وفي أحاديث أهل السنة الصحيحة أن أبا طالب « أهون أهل النار عذابًا » (٢): عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه: أنه سمع النبي صلى الله عليه وآله وذكر عنده عمه فقال: « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منه دماغه » (٣). وفي رواية عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه: قال للنبي صلى الله عليه وآله: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويفضب لك؟ قال: « هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٧٧).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا رقم (٢١٢)، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « أهون أهل النار عذابًا أبو طالب وهو منتعل بتلعين يغلي منهما دماغه ».

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب رقم (٣٦٧٢)، ومسلم في الإيمان، باب شفاعته النبي صلى الله عليه وآله لأبي طالب رقم (٢١٠).

الأسفل من النار» (١).

أما آزر فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة وعلى وجه آزر قفرة وغبرة، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول أبوه: فاليوم لا أعصيك، فيقول إبراهيم: يا رب! إنك وعدتني أن لا تخزيني يوم يبعثون، فأني خزي أخزي من أبي الأبعد؟ فيقول الله تعالى: إني حرمت الجنة على الكافرين، ثم يقال: يا إبراهيم ما تحت رجلك؟ فينظر فإذا هو بذيخ متلطخ فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار» (٢).

وهكذا فلا يعلو فوق العقيدة أحد، قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَبِيًّا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

ومن اتباع الأمانى أن شبر عدّ آباء النبي صلى الله عليه وسلم من الأوصياء، في حين اكتفى الصدوق بإثبات إسلامهم، فقال: «اعتقادنا في آباء النبي صلى الله عليه وسلم اعتقادنا فيهم أنهم مسلمون» (٣).

أما أبو طالب؛ فشبر يقول بوصايته، في حين أن نص الأئمة يكتفي بإثبات إسلامه لا إيمانه ولا وصايته.

أما اشتراط إسلام أمهات الأئمة فقط حين انعقاد النطفة، فإن الذي دعا الشيعة إلى الاكتفاء بها هو الواقع التاريخي الذي أثبت أن بعضهم كان على الكفر قبل الإيمان، كوالدة زين العابدين، وهي الفارسية التي كانت وآباؤها على دين المجوس، ولولا هذا لأثبتوا للأمهات العصمة التي أثبتها لفاطمة رضي الله عنها.

وأحب أن نؤكد أننا لا نريد تأييم أحد ولا تكفير أحد، ولكن المسألة عند أهل السنة مسألة موضوعية وإحقاق حق، فلو ثبت عندنا نصوص بإيمان أبي طالب لقلنا به، ولكن

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب رقم (٣٦٧٠). ومسلم في الإيمان، باب شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأبي طالب رقم (٢٠٩). والضحاح: قريب القعر، بعكس العميق والغمر. جاء في لسان العرب (٤١٩/١٠) مادة (د. ر. ك): «والضحاح أريد به القليل من العذاب مثل الماء الضحاح الذي هو ضد الغمر، وقيل لأعرابي: إن فلاناً يدعي الفضل عليك فقال: لو كان أطول من مسيرة شهر ما بلغ فضلي، ولو وقع في ضحاح لغرق. أي لو وقع في القليل من مياه شرفي وفضلي لغرق فيه».

(٢) صحيح البخاري: كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] رقم (٣١٧٢). قال الدكتور مصطفى البغا محقق صحيح البخاري: (بذيخ): الذي ذكر الضبع الكثير الشعر، أرى أباه على غير هيئته ومنظره ليسرع إلى التبرؤ منه. (متلطخ): متلوث بالدم ونحوه.

(٣) الشيخ المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ١٢١).

وجدنا من النصوص ما يعارض هذا الإيمان.

ويعلم الله تعالى أننا نحب أن يدخل الناس جميعاً في جنان الخلد، ولكن الله - تعالى - جعل للجنة شروطاً أهمها الإيمان وعدم الشرك والكبر، فلا نحكم بجنة ولا نار إلا لمن أثبتته لنا النص الصحيح المعصوم في القرآن والسنة الصحيحة.

وما لم يرد فيه نص صريح فالأولى التوقف فيه، وإن كان المرتضى من مذهب أهل السنة في أبوي النبي ﷺ أنهما ناجيان لأنهما من أهل الفترة (١)، وهناك أقوال أخرى، والأولى التوقف في مثل هذه المسألة، وعدم الجري وراء العواطف فيها.

العصمة في حق الأنبياء:

أوجب السنة والشيعية في حق الأنبياء الكرام العصمة من الذنوب والمعاصي، و « العصمة عبارة عن قوة العقل من حيث لا يغلب مع كونه قادراً على المعاصي كلها كجائز الخطأ، وليس معنى العصمة أن الله يجبره على ترك المعصية، بل يفعل به ألطافاً يترك معها المعصية باختياره مع قدرته عليها، كقوة العقل وكمال الفطنة والذكاء ونهاية صفاء النفس وكمال الاعتناء بطاعة الله تعالى » (٢).

وقد تفضل الله تعالى على الرسل والأنبياء ﷺ بالعصمة ليكونوا قدوة للبشر، قال تعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذه العصمة متفق عليها بين الطائفتين (٣). فالأنبياء « معصومون من الذنوب كبيرها وصغيرها، قبل النبوة وبعدها، ولا يصدر منهم ما يشين لا عمدًا ولا سهواً » (٤). يقول المفيد عن النبي ﷺ: « لم يعص الله ﷻ منذ خلقه ﷻ إلى أن قبضه، ولا تعمد له خلافاً، ولا أذنب ذنباً على التعمد ولا على النسيان، وبذلك نطق القرآن وتواتر الخبر عن آل محمد ﷺ وهو مذهب جمهور الإمامية » (٥).

وإذا كانت نصوص القرآن الكريم تذكر لنا استغفار بعض الأنبياء ﷺ، وهذا

(١) انظر: شرح جوهرة التوحيد للباجوري (ص ٤٤).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٣٥).

(٣) قارن هذه الصفات عند عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٤٥ - ١٤٧).

(٤) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٧٨).

(٥) المفيد: أوائل المقالات (ص ٦٨). وانظر: المرتضى: تنزيه الأنبياء (ص ٢، ٣). وانظر: محمد جواد =

يورث إشكالاً فكرياً يتعارض في الظاهر مع اعتقادنا بعصمتهم ﷺ. فقد بين اليزدي حل ذلك الإشكال قائلاً: « يعتبرون أي توجه والتفات منهم لغير معبودهم ومحبوبهم ذنباً كبيراً، ومن هنا يقفون موقف الاستغفار والاعتذار » (١).

وقد دار حول مسألة العصمة نقاش كبير:

- إذ يضيف الشيعة إلى الأنبياء عصمة الأئمة، وخصوصاً أئمة آل البيت الاثني عشر، قال الشيخ المفيد: « الأنبياء والأئمة من بعدهم معصومون حال نبوتهم وإمامتهم من الكبائر كلها والصغائر » (٢)؛ وبهذا نلاحظ أن الشيعة تضيف إلى عصمة الأنبياء عصمة الأئمة؛ لأنهم ينظرون إليهم على أنهم مبلغون عن النبي ﷺ، وقد رد جمهور المسلمين هذا الرأي؛ لأنهم اختلفوا منذ البداية مع الإمامية في ماهية الإمام ووظائفه - كما سنبين في الحديث عن العقائد الخاصة بالشيعة - فهذا القاضي عبد الجبار من المعتزلة يبين علة عصمة النبي، فيقول: « وإنما وجبت عصمته؛ لأنه حجة فيما يتحملة من الرسالة، فلا بد من كونه معصوماً، وليس كذلك الإمام؛ لأن الذي يقوم به ليس حجة فيه... وإنما ينقذ الحدود والأحكام كالأمراء » (٣).

- ومع أن أهل السنة يؤكدون عصمة الأنبياء، فإن كتب الشيعة محشوة باتهام أهل السنة بمخالفة هذا: فقد افترى ابن المطهر الحلبي أن أهل السنة يرون « أن الأنبياء غير معصومين، بل قد يقع منهم الخطأ والزلل والفسوق والكذب والسهو وغير ذلك » (٤). وقال أيضاً بكل فظاظة: « وذهب جميع من عدا الإمامية والإسماعيلية إلى أن الأنبياء والأئمة غير معصومين، فجوزوا بعثة من يجوز عليه الكذب والسهو والخطأ والسرقعة، فأى وثوق يبقى للعامة في أقاويلهم » (٥). مما استدعى أن يرّد عليه ابن تيمية رحمه الله في كتابه (منهاج السنة) الذي ألفه ردّاً على كتاب ابن المطهر (منهاج الكرامة).

= مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٧٨)، محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٢٨، ٢٢٩).

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٤٢، ٢٤٣).

(٢) المفيد: تصحيح الاعتقادات (ص ١٠٦).

(٣) المغني (ج ٢٠)، القسم الأول (ص ٧٥، ٧٦). وانظر: د. عائشة المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٤٤٤).

(٤) ابن مطهر الحلبي (الحسن بن يوسف ٧٢٦هـ): منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، بتحقيق عبد الرحيم مبارك، (ط ١)، مؤسسة عاشوراء للتحقيقات قم (ص ٣٢).

(٥) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٤٧).

وتبع الحلبي أيضًا محمد جواد مغنية - أحد دعاة التقريب! - إذ يقول: « وقال السنة تجوز الذنوب على الأنبياء الكبار منها والصغائر قبل أن يصبحوا أنبياء، أما بعد النبوة فلا يجوز عليهم الكفر ولا تعمد الكفر، وتجوز عليهم الصغائر عمدًا وسهواً، والكبائر سهواً لا عمدًا »^(١). وكان الكاتب لم يطلع على قول الإمام النووي: « أرسل بفضلہ ﷺ الرسل، وتولاهم بعصمته إياهم عما لا يليق بهم، فهم معصومون من الصغائر والكبائر قبل النبوة وبعدها، منزهون عن كل منفرٍ طبعًا، كالجدام والعمى، يأكلون ويشربون وينكحون »^(٢).

والحقيقة أن بعض كتاب الاثني عشرية أخذوا بعض الأقوال التي لم يستقر عليها الرأي عند أهل السنة، فرموهم بها، وقد بين كمال الدين الأندكاني (ت ٧٧٧ هـ) الماتريدي مذاهب المسلمين في قضية عصمة الأنبياء قائلًا: « وأما الصغائر: فالأنبياء معصومون منها بعد البعثة خلافاً للخوارج أيضًا^(٣)، وما يروى^(٤) عن بعض مشايخ أهل السنة والجماعة من أن الأنبياء غير معصومين من الصغائر، وهي التي تكون عن قصد ودون الكبيرة، كالنظر إلى وجه الأجنبية عن قصد شهوة، احترازًا عن مذهب المعتزلة وتحقيقًا لمخالفتهم - فليس بشيء؛ لأن الدليل الصحيح إذا دل على صحة المدلول لا يضر موافقة المعتزلة وغيرهم. أما قبل البعثة فيحتمل أن يجوز عندنا خلافاً للمعتزلة^(٥)، بخلاف الكبيرة فإنها لا تجوز على الأنبياء قبل البعثة كما لا تجوز بعدها »^(٦).

فهذا الذي استقر عليه الأمر في مذهب أهل السنة والجماعة، فعلام المزايدة على أهل السنة؟

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٧٨).

(٢) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي (ت ٦٧٦ هـ): المقاصد (ص ١١)، (ط ١)، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٣ م) دار الغزالي - دمشق.

(٣) ذكر البردوي هذا القول لبعض الخوارج. انظر: أصول الدين (ص ١٦٧).

(٤) لاحظ صيغة التضعيف.

(٥) جاء في شرح الأصول الخمسة (ص ٥٧٥): « فأما الصغائر التي لا حظ لها إلا في تقليل الثواب دون التنفير، فإنها مجوزة على الأنبياء، ولا مانع يمنع منه؛ لأن قلة الثواب مما لا يقدر في صدق الرسل ولا في القبول منهم ». وانظر: مقالات الأشعري (٢٩٧/١).

(٦) الأندكاني: صدق الكلام في علم الكلام، رسالة ماجستير بتحقيق الأستاذ الفاضل حافظ عاشور حافظ عبد الحلیم (١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م) كلية دار العلوم (ص ٥٢٣).

ولماذا لا يذكر كتاب الاثني عشرية أن في بعض رواياتهم ما يناقض عصمة الأنبياء، ومن ذلك هذه الرواية:

عن أبي جعفر قال: « إن الله ﷻ أوحى إلى داود عليه السلام: أن ائت عبيدي دانيال، فقل له: إنك عصيتني فغفرت لك، وعصيتني فغفرت لك، وعصيتني فغفرت لك، فإن أنت عصيتني الرابعة لم أعفر لك... فلما كان في السحر قام دانيال فناجى ربه فقال: فوعزت لك لئن لم تعصمني لأعصينك، ثم لأعصينك، ثم لأعصينك »^(١).

ومعلوم أن الشيعة تعتقد بعصمة الإمام، فكيف بهذه الرواية التي تطعن في عصمة أحد الأنبياء؟ فهي تزعم أن نبيًا من أنبياء الله يخاطب ربه بهذا الخطاب ويثبت لنفسه إمكانية المعصية، مع أن العصمة توجب الحفظ من كل المعاصي، وتجعل طروء المعصية ممتنعًا ومستحيلًا شرعيًا.

وقريب من هذه الرواية تلك التي تزعم أن النبي ﷺ لم تستجب دعوته لعدم حضور نبيته، وهو أمر لا يتوقع في حقه ﷺ، ولا يليق بجنابه الشريف:

عن هشام بن الحكم، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « لما استسقى رسول الله ﷺ وسقي الناس حتى قالوا: إنه الغرق. وقال رسول الله ﷺ بيده وردّها: « اللهم حوالينا ولا علينا ». قال: فتفرق السحاب، فقالوا: يا رسول الله! استسقيت لنا فلم نسق ثم استسقيت لنا فسقينا؟ قال: « إني دعوت وليس لي في ذلك نية، ثم دعوت ولي في ذلك نية »^(٢).

وهاتان الروايتان تذكر بالمعتقدات اليهودية التي لا ترى العصمة في الأنبياء الكرام، وتتهمهم بارتكاب المعاصي^(٣)، في حين أكدت فرقة الفريسيين من اليهود عصمة الحاخامات في التلمود، وأقولهم صادرة عن الله « فإذا قال الحاخام إن يدك اليمنى هي اليسرى، أو العكس؛ فصدق قوله ولا تجادله »^(٤)!

إننا لن نتناسى الروايات الواضحة التي تؤكد عصمة الأنبياء عند الاثني عشرية، ولكن نذكرهم بأن عندهم من الروايات ما يناقض ذلك. وإننا لن نؤاخذهم عليها ما داموا يترأون منها، أو يؤولونها، ولكن ننصحهم ألا يتهموا غيرهم بما يبرئون أنفسهم منه.

(١) الكافي (٣١٦/٢) كتاب الإيمان والكفر باب التوبة.

(٢) أصول الكافي (٤٤٥/٢) كتاب الدعاء باب الإقبال على الدعاء. قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٣) انظر: وندلسن عقيدة الشيعة (ص ٣٢٤).

(٤) د. شلبي: اليهودية (ص ١٩٦، ١٩٧).

هل عصمة الأنبياء تقتضي عدم السهو والنسيان؟

وقد كان متقدمو الإمامية كالصدوق مع قولهم بعصمة الأنبياء والأئمة ينكرون على من يعتقد باستحالة السهو والنسيان على الأنبياء والأئمة، وكانوا يقولون: « أول درجة في الغلو نفي السهو عن النبي والإمام ». وإن كان الاثنى عشرية قد ساووا بين الإمام والنبي في مسألة السهو وعدمها؛ فإن الإمام الرضا يصف الإمام فيقول: « والإمام يولد ويلد ويصح ويمرض ويأكل ويشرب، ويبول ويتغوط وينكح وينام وينسى ويسهو.. ». وهذا نص موجود في عيون أخبار الرضا للصدوق^(١)، وهكذا رواه المجلسي في بحار الأنوار^(٢). ولكن عبد الله شبر ينقل النص عن عيون أخبار الرضا للصدوق نفسه، ويضيف إليه (لا) مرتين فيصبح النص: (ولا ينسى ولا يسهو)^(٣). قد فعل مثله هاشم البحراني في ينابيع المعاجز^(٤). وهذا تحريف واضح، يثبت استمرار حركة التغيير والتبديل في روايات الشيعة حتى توافق أهواءهم وضرورات مذهبهم!!

ويخالف الصدوق وشيخه محمد بن الحسن بن الوليد هذا الاتجاه، فيقرر أن « وقوع

(١) عيون أخبار الرضا (١٩٣/١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت (١٤٠٤هـ)، وهي موجودة في قرص المعجم الفقهي الذي أخرجه الاثنا عشرية. وهكذا وجدتها في نسختي الورقية (١٩٣/١) منشورات الشريف الرضي الطبعة الأولى (١٣٧٨) قم، وقد كتبوا عليها: عيون أخبار الرضى للشيخ الأقدم والمحدث الأكبر أبي جعفر الصدوق، فكيف يكون محدثاً أكبر ثم يخالفه أتباعه، وينكرون أقواله، ويتهمون به بعدم المعرفة بالروايات كما ذكر المفيد وشبر؟!.

(٢) بحار الأنوار (١١٧/٢٥)، قال المحقق: « وأما عيون الأخبار فيه: وينكح ولا ينسى ولا يسهو [مكان وينسى ويسهو] وقال المحمّدي في هامشه: أكثر النسخ ليس فيها: (ينسى ويسهو) وفي بعضها: (لا ينسى ولا يسهو) ». ولو أردنا نقد النص داخلياً، لرأينا أن النص يقتضي أن يكون (ينسى ويسهو) لأن الرضا كان يتحدث عن صفات الإمام التي هي من صفات البشر: « والإمام يولد ويلد ويصح ويمرض ويأكل ويشرب، ويبول ويتغوط وينكح وينام وينسى ويسهو، ويفرح ويحزن ويضحك ويكي ويحيا ويموت ويقبر ويزار، ويحشر ويوقف ويعرض ويسأل ويثاب ويكرم ويشفع، ودلالته في خصلتين: في العلم واستجابة الدعوة ». فلو أدخلنا (لا ينسى ولا يسهو) في هذا النص لرأينا أن الكلام خرج عن مقصد التأكيد على بشرية الإمام.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٤٠)، وقد قال: « وفي عيون أخبار الرضا عليه السلام قال... ». ثم ساق النص نفسه إلا أنه أضاف عليه (لا) مرتين، وهذا تحريف مقصود؛ فلو أنه نقل من غير هذا الكتاب لقلنا إنه أخذ برواية أخرى، ولكن للأسف فإنه يعلم أنه ينقل عن الصدوق، ولا يمكن حقيقة للصدوق أن يكون النص عنده إلا بحذف (لا) لأنه بنى على هذه الرواية وأخواتها جواز السهو والنسيان على الأئمة، ولو كانت الرواية عنده (لا ينسى ولا يسهو) لما ذهب إلى جواز السهو على الأئمة.

(٤) هاشم البحراني: ينابيع المعاجز (ص ١٠٥)، المطبعة العلمية، قم.

ذلك منهم إسهاء لهم من الله تعالى ليعلم الناس أنهم عباد مخلوقون، وألا يتخذوهم أرباباً من دون الله» (١).

ويخالف معظم متأخري الإمامية كالمفيد والمرضى والشيخ الطوسي (ت ٤٦٠ هـ) ونصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢ هـ) وعبد الله شبر (ت ١٢٤٢ هـ) هذا الاتجاه، يقول المفيد: «فنفى عنه ﷺ كل معصية ونسيان» (٢). ويقول ابن المطهر الحلي: «وأن الأنبياء معصومون من الخطأ والسهو والمعصية صغيرها وكبيرها من أول العمر إلى نهايته» (٣).

وقد ردّوا على الشيخ الصدوق واتهموه بالتقصير والجهل بنقد الروايات، يقول المفيد: «وقد سمعنا حكاية ظاهرة عن أبي جعفر... وهي ما حكى عنه أنه قال: (أول درجة في الغلو نفى السهو عن النبي والإمام). فإن صحت هذه الحكاية عنه فهو مقصر مع أنه من علماء القميين ومشيختهم» (٤)، ويقول شبر: اعلم أن بعض علمائنا كالصدوق محمد بن بابويه، وأستاذه محمد بن الحسن بن الوليد ذهبوا إلى جواز السهو على النبي ﷺ وقالوا: ليس سهو النبي ﷺ كسهونا؛ لأن سهوه من الله ﷻ إسهاء ليعلم أنه بشر مخلوق، فلا يتخذ معبوداً من دونه، وسهونا من الشيطان، وليس للشيطان على النبي والأئمة سلطان، واستندا في ذلك إلى بعض الأخبار الشاذة الموافقة للعامة، وإن رويت بطرق عديدة، وهي أن رسول الله ﷺ سلّم في ركعتين فسأله من خلفه: يا رسول الله أحدث في الصلاة شيء؟... وقال الصادق عليه السلام: إن الله تعالى هو الذي أنساه رحمة للأمة، ألا ترى لو أن رجلاً صنع هذا لغيره (٥)، ونحوه غيره» (٦).

ثم قال: «هذه الأخبار مع مخالفتها لإجماع الشيعة المحققة بل ضرورة المذهب وشدوذها وموافقها لمذهب العامة الذين أمرنا بخلافهم» (٧)، ومن هذا النص تعلم أن

(١) المفيد: أوائل المقالات (ص ٧٢).

(٢) المفيد: أوائل المقالات (ص ٦٨). وانظر: المرضى: تنزيه الأنبياء (ص ٢، ٣) والطوسي: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد (ص ٢٦٠).

(٣) ابن مطهر الحلي (الحسن بن يوسف ٧٢٦ هـ): منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، تحقيق عبد الرحيم مبارك (ط ١)، مؤسسة عاشوراء للتحقيقات - قم (ص ٣٧).

(٤) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ١١٤).

(٥) ولماذا يعير ويعاب؟! ونحن نرى كبار الأئمة سنة وشيعة يسهون في صلاتهم، ويذكّرهم المأمون ولا يتقص ذلك من قدرهم.

(٦) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٣٨).

(٧) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٣٩).

الذي دعاهم إلى إنكار سهو النبي ﷺ إنما هو رغبتهم في مخالفة أهل السنة - العامة - إلى جانب بعض الروايات التي ساقوها عن الأئمة تخالف تلك الروايات التي استدلت بها الصدوق وشيخه.

وهذا تطور في مذهب الإمامية جدير بالملاحظة، يدل على ما آل إليه المذهب الاثني عشري من نكسة ورجوع إلى الغلو من جديد على أيدي المفيد ومن جاء بعده.

ولا يوافق أهل السنة على هذا الاتجاه في العصمة، فعصمة الأنبياء واجبة عند أهل السنة، والعصمة محل الاتفاق هي فيما يبلغونه عن الله ﷻ^(١). ولكنها لا تعني منع السهو والنسيان فقد قال ﷺ: « إنما أنا بشرٌ أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني »^(٢). وحديث ذي اليمين في النسيان في الصلاة مثبت عند أهل السنة في صحيح البخاري وغيره^(٣).

بل إن الأئمة أنفسهم لم يكونوا يوافقون على هذا القول في حق النبي ﷺ ناهيك عن أنفسهم، وهذا ما ذكرته كتب الشيعة أنفسهم، فقد قيل للرضا - وهو الإمام الثامن لدى الاثني عشرية - : « إنَّ في الكوفة قومًا يزعمون أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يقع عليه السهو في صلاته، فقال: كذبوا - لعنهم الله - إنَّ الذي لا يسهو هو الله الذي لا إله إلا هو »^(٤).

ولكن موقف أهل السنة من جواز الإسهاء على النبي لا يعني صحة ما نسب به بعض متكلمي الاثني عشرية إلى أهل السنة من قصص موضوعة نسبوها لأهل السنة كقول عبد الله شبر: « واتفق المخالفون على عدم وجوب العصمة ووقوعها في أئمتهم، وأكثرهم بل جمهورهم على تجويز المعاصي على الأنبياء، وبعضهم جوز الكفر عليهم قبل النبوة وبعدها [!!!]، وجوزوا عليهم السهو والغلط، ونسبوا إلى رسول الله ﷺ السهو في القراءة مما يوجب الكفر، فقالوا ورووا أنه ﷺ صَلَّى يوماً الصبح وقرأ في سورة النجم عند قوله: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّدَّ وَالْمَرْيَا ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۗ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠]: تلك الغرائيق العلى... منها الشفاعة ترتجى »^(٥).

(١) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٣/١).

(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب الصلاة باب استقبال القبلة (١٠٥/١) دار الفكر - بيروت، وأخرجه مسلم في صحيحه، باب السهو في الصلاة (٨٤/٢) رقم (٥٧٢).

(٣) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره، رقم (٤٨٢)، ومسلم، كتاب المساجد، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (٥٧٤).

(٤) بحار الأنوار (٣٥٠/٢٥)، وانظر: ابن بابويه: عيون أخبار (ص ٣٢٦).

(٥) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٣٥).

وقد كرر هذا المعنى الفاسد الزنجاني عندما قال في حق أهل السنة: « ونسبوا إلى رسول الله ﷺ السهو في القراءة مما يوجب الكفر، فقالوا ورووا أنه ﷺ صلى الصبح وقرأ في سورة النجم عند قوله تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ أَكَلَّتْ وَالْعُرَىٰ ۖ وَمَوَءَا أُنَالِئَةَ الْآخِرَىٰ ﴾ [النجم: ١٩، ٢٠] تلك الغرائق العلى منها الشفاعة ترتجى). نعوذ بالله من هذه الاعتقادات الفاسدة» (١)!

وهذه الرواية من الموضوعات التي يكذبها أهل السنة والجماعة، وينصون على وضعها وكذبها، قال العلامة الكرمانى في شرحه على صحيح البخاري: « وما قيل كان بسبب ما ألقى الشيطان في أثناء قراءة الرسول ﷺ: تلك الغرائق العلاء... منها الشفاعة ترتجى، فلا صحة له نقلاً وعقلاً» (٢). وذكر الفخر الرازي أن الإمام محمد بن إسحاق ابن خزيمة سئل عن هذه القصة فقال: هذا من وضع الزنادقة، وصنف فيه كتاباً (٣). وقال ابن كثير: « ولم أرها مسندة من وجه صحيح» (٤).

وما دام محققو أهل السنة قد يتبنوا وضع هذه القصة، فكيف استساغ ابن المطهر نسبتها إليهم؟ وكذلك عبد الله شبر والزنجاني وغيرهم؟ إن السبب - والله أعلم - هو أن بعض المؤرخين ذكروها ثم جاء بعض المفسرين، فتلقفوها ثم تأولوها، ولكن ليس على أساس صحتها، بل ناقشوها وردّوا عليها على افتراض صحتها (٥). وقد كان الجدير بهم عدم الالتفات إليها، وهذا ما لامهم عليه القاضي عياض عندما قال: « يكفيك أن هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه ثقة بسند سليم متصل، وإنما أولع به وبمثله المفسرون والمؤرخون المولعون بكل غريب المتلقفون من الصحف كل صحيح وسقيم. وصدق القاضي بكر بن العلاء المالكي حيث قال: لقد بلّى الناس ببعض أهل الأهواء والتفسير، وتعلق بذلك الملحدون، مع ضعف نقلته واضطراب رواياته وانقطاع إسناده واختلاف كلماته» (٦).

(١) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٤١)، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

(٢) انظر حول قصة الغرائق: السيوطي: اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، وانظر: الشيخ محمد صادق عرجون فيما كتبه في كتابه القيم في سيرة النبي ﷺ، والدكتور محمد المسير: الرسول والوحي (ص ٢٥٣ - ٢٦٤)، (١ ط)، دار ابن كثير (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م).

(٣) مفاتيح الغيب (٥٠/٢٣). (٤) تفسير القرآن العظيم (٢٢٩/٣).

(٥) انظر هذه التأويلات في تفسير الطبري (١٨٦/١٧)، والزمخشري (١٩/٣).

(٦) القاضي عياض: الشفا (١١٠/٢)، وانظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٨٢/١٢).

هل يجوز الكتمان من النبي ﷺ؟

من الصفات الواجبة في حق الأنبياء كما قرر أهل السنة (تبليغهم لما آتاهم الله تعالى) فلا يجوز على النبي ﷺ أن يكتم شيئاً مما أمره ربه ﷻ بتبليغه: قال ﷻ: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُحُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧].

ولكن نصوص الشيعة تقول غير هذا، إذ لما كان الإمام عندهم مشتركاً مع النبي في مسألة التبليغ، فيرى الشيعة جواز الكتمان على النبي ﷺ؛ لأن الأئمة من بعده سيبينون ويبلغون. ويذكر أحدهم: «أن حكمة التدرج اقتضت بيان جملة من الأحكام وكتمان جملة، ولكنه - سلام الله عليه - أودعها عند أوصياؤه: كل وصي يعهد بها إلى الآخر، لينشرها في الوقت المناسب لها حسب الحكمة: من عام مخصص، أو مطلق، أو مقيد، أو مجمل مبين إلى أمثال ذلك، فقد يذكر النبي عامّاً ويذكر مخصّصه بعد برهة من حياته، وقد لا يذكره أصلاً، بل يودعه عند وصيته إلى وقته» (١).

وينسف هذا الادعاء قوله تعالى: ﴿... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا...﴾ [المائدة: ٣].

ويكذب هذا الزعم واقع الأئمة الاثني عشر أنفسهم، حيث إنهم لم يأتوا بجديد من الأخبار في مجال التشريع. اللهم إلا ما يدعي الشيعة وجوده مع المهدي المنتظر ﴿قُلْ أَنْظِرُوا إِنَّا مُنظِرُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وهنا نتساءل مع الشيعة: هل النبي ﷺ مبلغ عن الله تعالى أم مفوض منه سبحانه، فيحق له التشريع من تلقاء نفسه؟

يعتقد أهل السنة أن النبي ﷺ مهمته التبليغ والتذكير، كما ذكر في الآية السابقة من سورة المائدة: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُولُ يَلْفُحُ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقال: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥]، وقال: ﴿وَمَا عَلَى الرُّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]، وقال للنبي ﷺ: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلْغُ﴾ [الشورى: ٤٨]. وقال له: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ [الغاشية: ٢١].

ولكن نصوص الشيعة تعطي النبي ﷺ صفة التفويض والتشريع من نفسه، مع أن

(١) محمد حسين آل كاشف الغطاء: أصول الشيعة (ص ٧٧).

اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿ وَلَوْ نَقَوْلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿١﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٢﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٣﴾ فَمَا مِنَّا مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ ﴿٤﴾ [القلم: ٤٤ - ٤٧]. ومع أن الله تعالى قد ختم الدين بقوله: ﴿ .. أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا .. ﴾ [المائدة: ٣].

وهم لا يوجبون هذه الصفة للنبي وحده فحسب، بل للأئمة الاثني عشر من بعده، فقد عقد الكليني في الكافي عنواناً يقول: « باب التفويض إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة عليهم السلام في أمر الدين » (١).

وجاء فيه أيضاً: « عن أبي عبد الله عليه السلام... إِنَّ اللَّهَ ﷻ فَوَّضَ إِلَى سَلِيمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَقَالَ: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْتَنُ أَوْ أَسِيكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩] وفوض إلى نبيه ﷺ فقال: ﴿ وَمَا ءَاتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾ [الحشر: ٧] فما فوض إلى رسول الله ﷺ فقد فوضه إلينا » (٢).

ويروون عن أبي عبد الله: « لا والله ما فوض الله إلى أحد من خلقه إلا إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة. قال ﷻ: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ .. ﴾ [النساء: ١٠٥]. وهي جارية في الأوصياء » (٣).

ويرى الدكتور القفاري « أن الهدف من هذه المقالة تبديل دين الإسلام، وتغيير شريعة سيد الأنام » (٤).

إذ ما فائدة التفويض وقد اكتمل الدين، وثبتت الأحكام، بنصوص أهل السنة والشيعة؟ فهناك رواية عن الأئمة أنفسهم تنسف فكرة التفويض من أساسها، عن زرارة قال: « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الحلال والحرام فقال: حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره ولا يجيء غيره، وقال: قال علي عليه السلام: ما أحد ابتدع بدعة إلا ترك بها سنة » (٥).

المشهور عند الاثني عشرية تعلّم النبي ﷺ القراءة والكتابة، وإنكار أميته:

يعتقد الشيعة أن النبي ﷺ لم يكن أمياً لا يكتب ولا يقرأ، مع أن الله تعالى يقول:

(١) أصول الكافي (٢٦٥/١).

(٢) أصول الكافي (٣٢٣/١) كتاب الحجّة باب التفويض إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة عليهم السلام في أمر الدين.

(٣) أصول الكافي (٢٦٨/١).

(٤) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٨٠/١).

(٥) الكليني أصول الكافي (٥٨/١) تحقيق غفاري. كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس.

﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِّلُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقوله ﷺ لجبريل عندما رآه بالغار: « ما أنا بقارئ » (١).

ولكن قال شبر: « ورد في الكتاب المجيد والسنة المستفيضة أنه ﷺ أمي، واختلف في معنى ذلك، والمشهور في معناه أنه لا يقرأ ولا يكتب، ولا خلاف في أنه ﷺ لم يتعلم الكتابة والقراءة من أحد قبل البعثة، وأكثر الأخبار تدل على أنه معنى كونه أميًا أنه نسبة إلى أم القرى وهي مكة، وأنه ﷺ كان قادرًا على القراءة والكتابة، كما كان قادرًا على ما يعجز مثله، ولكنه لم يكتب للمصلحة، وكان يأمر غيره بكتابة الوحي وقراءة الكتب غالبًا » (٢).

وقد رووا عن الرضا: « كان رسول الله ﷺ يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لسانًا، وإنما سمي الأمي لأنه كان من مكة، ومكة من أمهات القرى... وعن الصادق عليه السلام قال: إن النبي ﷺ كان يقرأ ما يكتب ويقرأ ما لم يكتب » (٣).

وواضح أن هذا القول مخالف لما عليه جمهور أهل السنة، الذين يرون في أمية النبي ﷺ دليلًا واضحًا من أدلة نبوته. وقد عرفنا أن النبي ﷺ كان يستكتب الكتاب لآيات القرآن الكريم عند نزوله، وكان يأمر أصحابه بكتابة الكتب التي يرسلها، وموقفه يوم الحديبية معروف، إذ أمر عليًا بكتابة الصلح. وقد روى البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب عليه السلام قال: « كتب علي بن أبي طالب الصلح بين النبي ﷺ وبين المشركين يوم الحديبية... فقالوا: لا تكتب رسول الله، فلو تعلم أنك رسول الله لم نقاتلك، فقال النبي ﷺ لمعلي: (امحه) فقال: ما أنا بالذي أمحاه، فمحاه النبي ﷺ بيده » (٤).

ولكن ثبت عن بعض علماء أهل السنة أيضًا أن النبي ﷺ كتب، منهم « أبو الوليد الباجي فادعى أن النبي ﷺ كتب بيده بعد أن لم يكن يحسن يكتب، فشنع عليه علماء الأندلس في زمانه ورموه بالزندقة، وأن الذي قاله مخالف القرآن، حتى قال قائلهم:

(١) صحيح البخاري، أول الكتاب، بدء الوحي، رقم (٣)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، رقم (٢٣١).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٧٩).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب الصلح، باب كيف يكتب، رقم (٢٦٩٨)، ومسلم في كتاب الجهاد والسير،

باب صلح الحديبية، رقم (١٧٨٣). انظر: صحيح السيرة النبوية لإبراهيم العلي، دار النفائس - الأردن (ط٧)،

(١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).

برئت ممن شرى دنيا بأخرة وقال: إن رسول الله قد كتب

فجمعهم الأمير فاستظهر الباجي عليهم بما لديه من المعرفة، وقال للأمير هذا لا ينافي القرآن بل يؤخذ من مفهوم القرآن؛ لأنه قيد النفي بما قبل ورود القرآن، فقال: ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وبعد أن تحققت أميته وتقررت بذلك معجزته، وأمن الارتياب في ذلك لا مانع من أن يعرف الكتابة بعد ذلك بتعليم، فتكون معجزة أخرى، وذكر ابن دحية أن جماعة من العلماء وافقوا الباجي في ذلك، منهم شيخه أبو ذر الهروي وأبو الفتح النيسابوري وآخرون من علماء إفريقية وغيرها، واحتج بعضهم لذلك بما أخرجه ابن أبي شيبة وعمر ابن شبة من طريق مجاهد عن عون بن عبد الله قال: ما مات رسول الله ﷺ حتى كتب وقرأ....

وأجاب الجمهور بضعف هذه الأحاديث... وبهذا جزم ابن التين وأطلق (كتب) بمعنى أمر بالكتابة وهو كثير كقوله كتب إلى قيصر وكتب إلى كسرى... وتعقب ذلك السهيلي وغيره بأن هذا وإن كان ممكناً، ويكون آية أخرى، لكنه يناقض كونه أمياً لا يكتب، وهي الآية التي قامت بها الحجة وأفحم الجاحد وانحسمت الشبهة، فلو جاز أن يصير يكتب بعد ذلك لعادت الشبهة، وقال المعاند: كان يحسن يكتب لكنه كان يكتنم ذلك، قال السهيلي: والمعجزات يستحيل أن يدفع بعضها بعضاً ^(١).

وقد قال ﷺ: « إنا أمة أمية، لا نكتب ولا نحسب، الشهر هكذا وهكذا وهكذا، وعقد الإبهام في الثالثة، والشهر هكذا وهكذا وهكذا. يعني تمام ثلاثين » ^(٢).

ولا يحط في قدره الشريف عليه الصلاة والسلام أنه لم يخط بيضاء في سواد، وإنما خط حروفاً من نور في صدور أتباعه الكرام حتى غدوا مصابيح الدنيا، وسادة الآخرة بإذن الله تعالى.

آثار فلسفية حول صفات الأنبياء في كتابات الاثني عشرية:

ولم تخل بعض كتب الاثني عشرية من تأثر بكلام الفلاسفة حول الأنبياء، فيقول عبد الله شبر في حق النبي: « فمن صفاته أن يكون صافي النفس في قوته النظرية صفاء

(١) العسقلاني: فتح الباري (٥٠٣/٧، ٥٠٤).

(٢) أخرجه مسلم: كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال... إلخ، رقم (١٠٨٠)،

وأبو داود رقم (٢٣١٩)، والنسائي (١٣٩/٥)، وأحمد (٤٣/٢ - ٥٢).

تكون معه شديدة الشبه بالروح الأعظم، فيتصل به متى أراد (١) من غير كثير تعمل وتفكر حتى تفيض عليه العلوم اللدنية من غير توسط تعليم بشري بل يكاد زيت عقله يضيء ولو لم تمسسه نار التعليم البشري بمقدحة الفكر وزند البحث والتكرار، فإن النفوس متفاوتة في درجات الحدس والاتصال بعالم النور... وأن يكون شديد الحدس كثيره كمًا ونوعًا سريع الاتصال بعالم الملكوت، يدرك بحدسه أكثر المعلومات في زمان قليل إدراكًا شريفًا نوريًا ينتهي بقوة حدسه إلى آخر المعقولات في زمن قصير من غير تعلم، فيدرك أمورًا يقصر عن إدراكها كثير من الناس، وأن تكون قوته المتخيلة قوية بحيث يشاهد في اليقظة عالم الغيب، وتمثل له الصورة المثالية الغيبية، ويسمع الأصوات الملكوتية ويتلقى الغيبات والأخبار الجزئية من الملكوت، فيطلع على الحوادث الماضية والآتية، وأن تكون قوته الحساسة والحركة في القوة بحيث تؤثر في مادة العالم بإزالة صورة وإلباس أخرى، فيحيل الهواء إلى الغيم بإذن الله، ويحدث الأمطار والزلازل لأجل استهلاك أمة فجرت وعتت عن أمر ربها ورسله [!!!].

... ومن صفات النبي ﷺ أن يكون جالسًا في الحد المشترك بين عالم المعقول وعالم المحسوس، فهو تارة مع الحق بالحب وتارة مع الخلق بالرحمة عليهم والشفقة لهم، فإذا عاد إلى الخلق كان كواحد منهم كأنه لا يعرف الله وملكوته، وإذا خلا بربه كان مشتغلًا بذكره وخدمته فكأنه لا يعرف الخلق... أن يكون جيد الفهم... وأن يكون محفوظًا لكل ما يفهمه... وأن يكون صحيح الفطرة والطبيعة معتدل المزاج تام الخلقة قوي الآلات على الأعمال التي من شأنه أن يفعلها كالمناظرة في العلوم مع أهل الجدل... وأن يكون حسن العبارة... وأن يكون محبًا للعلم والحكمة لا يؤلمه التأمل في المعقولات... وأن يكون بالطبع غير شره على الشهوات متجنبًا بالطبع عن اللعب... أن يكون كبير النفس محبًا للكرامة... وأن يكون رؤوفًا عطوفًا على الخلق... وأن يكون شجاع القلب غير خائف من الموت... غير جموح ولا لجوج سلس القياد... منزلها عن كل ما يدنسه ويشينه من الغلظة والفضاظة والحسد والبخل... وأن يكون نساءً للأحقاد

(١) متى أراد!! هذا قول منقوض بانقطاع الوحي عنه ﷺ، ففي الصحيح قال رسول الله ﷺ لجبريل عليه السلام: واعدتني فجلست لك فلم تأت؟! فقال: (منعني الكلب الذي كان في بيتك. إنا لا ندخل بيتًا فيه كلب ولا صورة). متفق عليه، والرواية لمسلم، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم تصوير صورة الحيوان وتحريم اتخاذ ما فيه صورة غير ممتهنة، رقم (٢١٠٤).

وكيف لا وذكره مشغول بالحق؟» (١). ومن قارن هذه الصفات بصفات الحاكم عند الفارابي وغيره من الفلاسفة وجد أنها لا تختلف كثيراً (٢).
ليس الملك والحكم شرطاً للنبوة:

تركز بعض كتابات الشيعة على بعض المهمات والوظائف التي قام بها الأنبياء في حياتهم، كداود وسليمان عليهما الصلاة والسلام، فقد « بذلوا الكثير من الجهود في سبيل إدارة المجتمع وحسن تدبير الأمور، كما هو الملاحظ في حياة يوسف عليه السلام في أرض مصر، ولكن هذه الخدمات والمساعدات تعتبر زائدة عن وظيفتهم ومهمتهم الأصلية » (٣). ولكن هناك الكثير من المعلومات التي قد تغيب عن العقل البشري، ووجود القدوة في العمل، وتولي القيادة في المجالات الاجتماعية والسياسية والقضائية مهم في حياة الرسل الكرام (٤).

وتضخيم هذه الوظائف الثانوية يقصد منه عند الشيعة سحبها إلى الأئمة الذين هم أوصياء الأنبياء - في نظرهم - ولذلك تكثر المقارنة في كتب الشيعة بين موسى عليه السلام ووصيه يوشع بن نون، ثم رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي والأئمة من بعده.

ولكن ينبغي أن نذكر أن الهدف الأول والوظيفة الكبرى في حياة الأنبياء إنما كانت هداية الناس إلى الحق والإيمان، فقد بينت بعض الروايات عن الأئمة أن حكمة الله اقتضت ألا يكون معظم الأنبياء ملوكاً: فقد قال علي عليه السلام، كما ورد في نهج البلاغة: « ولو أراد الله سبحانه لأتبيائه حين بعثهم أن يفتح لهم كنوز الذهبان ومعادن القعيان ومغارس الجنان... ولو فعل لسقط البلاء وبطل الجزاء... ولو كانت الأنبياء أهل قوة لا ترام وعزة لا تضام وملك تمدّ نحوه أعناق الرجال وتشد إليه عقد الرحال؛ لكان ذلك أهون على الخلق في الاعتبار، وأبعد لهم في الاستكبار، ولآمنوا عن رغبة قاهرة لهم أو رغبة مائلة بهم، فكانت النيات مشتركة.... » (٥).

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٤٥ - ١٤٧).

(٢) انظر: رشدي عبد الستار: الأثر الأفلاطوني في الفكر السياسي الإسلامي (ص ٢٤٧)، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم. وانظر: محمد زكريا النداف: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية (ص ١٤٨، ١٤٩)، دار القلم - دمشق (ط ١)، (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٢٢).

(٤) انظر: محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢١٢ - ٢١٤).

(٥) نهج البلاغة، الخطبة القاصعة (١٤٥/٢). القعيان: نوع من الذهب.

فإذا استقرت العقيدة فلا بأس في الاستفادة من الملك، كما حصل مع نبي الله سليمان، حيث وجد بعد ثبات العقيدة ورسوخها، فسخر ملكه لخدمة دينه « حينما يتجه الناس لدين الحق برغبتهم واختيارهم الحر، ويوقفوا لإقامة مجتمع إلهي على أساس رضا الله تعالى، بعد ذلك تجدر الاستفادة من شتى القوى من أجل تحقيق الأهداف الإلهية، وخاصة القضاء على المعتدين والدفاع عن حقوق المؤمنين، كما تلاحظ نماذج من ذلك في ظل حكومة سليمان عليه السلام » (١).

معجزات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

يطلق مصطلح المعجزة على الأمر الخارق للعادة حين يصدر دليلاً على نبوة النبي، إضافة إلى استناده إلى الإذن الإلهي الخاص (٢).

وكان الله تعالى يقول عند المعجزة: صدق عبي (النبي أو الرسول) فيما جاءكم به فصّدقوه، بدلالة خرقى لما عوّدتكم عليه من قانون الكون.

ويذكر اليزدي أن إثبات صدق الأنبياء يأتي من خلال ثلاث طرق:

- ١ - طريق القرائن والمؤشرات أمثال الصدق والأمانة والاستقامة طول حياة النبي.
- ٢ - أن يعرفه ويبشّر به نبي سابق أو معاصر، ويختص هذا بمن عاصر أكثر من نبي.
- ٣ - عن طريق إظهار المعجزة التي يمكن أن يكون أثرها أكثر اتساعاً وشمولية (٣).

ويعتقد الشيعة بمعجزات الأنبياء عليهم السلام، ومعجزات النبي الخاتم صلى الله عليه وآله، ولكن إن كان أهل السنة يثبتون المعجزات للأنبياء، ويسمون ما يخرج من خوارق العادات على أيدي الأولياء كرامات، فإن الشيعة يطلقون اسم المعجزة على ما يخرج على يد الأئمة الاثني عشر من خوارق، وذلك أنهم ضخموا الإمامة حتى جعلوها صنو النبوة، وأوجبوا أن يكون لها دلائل وعلامات كالنبوة، يقول الصدوق: « وأنهم الذين أذهب الله عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً، وأن لهم المعجزات » (٤). فطريق تعيين الإمام « النص من الله

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٢٣). وانظر سورة الأنبياء (٨١، ٨٢) والنمل

(١٥ - ٤٤)، وانظر سورة يوسف: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا ﴾

[يوسف: ١١٠].

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٥٦).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٢٥٢).

(٤) الصدوق: رسالة الاعتقادات (ص ١٠٧).

تعالى أو نبيه أو إمام ثبتت إمامته بالنص عليه، أو ظهور المعجزات على يده» (١).
ولا يفوت متكلمي الاثني عشرية أن يفرقوا بين أصناف خوارق العادات، فهم
يقسمونها إلى ستة أقسام، لا تتعد عن تقسيم أهل السنة:

الإرهاص: وهو ما يكون قبل البعثة ودعوى النبوة.

والسحر: هو خارق للعادة بعد تهيئة الأسباب على مهلة بدون دعوى، كما أن
سحرة فرعون طلبوا الحبال والتمسوا المهلة للتهيئة فلا التباس، فإن المعجز يكون مع
الدعوى بلا تهيئة ولا مهلة، كما قال تعالى: ﴿فَأَلْقَيْنَا فَإِذَا هِيَ حَيْثُ سَتَعْنِ﴾ [طه: ٢٠].
والمكذبة: ما تكون مخالفة للدعوى كما حصل مع مسيلمة الكذاب، حيث ورد أنه
دعا لواحد العين فعميت عينه الصحيحة، وهذا ما يسميه متكلمو أهل السنة بالإهانة.
والاستدراج: وهو مكر الله في حق المنهمك في المعاصي، بحيث يعطى ما يتمنى
خارقاً للعادة.

والكرامة: وهي ما يجريه الله تعالى على أيدي الصالحين، حيث لا دعوى هناك لنبوة ولا إمامة.
أما المعجزة: فتظهر على يد النبي موافقة لدعوى النبوة، وينضوي أيضاً تحت قسم
المعجزة عند الإمامية ما يجريه الله تعالى على يد الإمام مصدقاً لدعوى الإمامة (٢).

القرآن الكريم: أعظم معجزات خاتم النبيين ﷺ:

ويؤكد الشيخ المفيد على أن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبي الأمي، سيدنا
محمد ﷺ، فالقرآن هو المعجزة الخالدة التي تستمر ولا تنقطع.

وفي تفسير إعجاز القرآن الكريم يتردد هو والمرتضى بين القول (بالصرف) (٣) متأثراً
بالنظام من المعتزلة. وبين القول بأن الصارف عن معارضة القرآن هو فصاحته وبلاغته،
كما هو مذهب جماهير العلماء.

(١) عبد الله شبر: حق اليقين (ص ١٢٨)، وهو يعتمد على الحلبي: نهج الحق وكشف الصدق (ص ١٦٨).

(٢) انظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٢٨، ١٢٩).

(٣) قال النظام: «الآية الأعجوبة في القرآن ما فيه من الإخبار عن الغيوب، فأما التأليف والنظم كان يجوز أن
يقدر عليه العباد لولا أن الله منعهم بمنع وعجز أحدثهما فيهم». (الأشعري: مقالات الإسلاميين ص ٢٢٥).
ويرى القائلون بالصرافة أنها من اللطف الإلهي. أي إن فصحاء العرب كانوا قادرين على محاكاة القرآن
والإتيان بمثله، ولكن الله تعالى صرفهم عن معارضة القرآن الكريم، وجعل صرفهم هذا إلى آخر الزمان لطفاً منه
وإعجازاً لهم، وهو مذهب النظام من المعتزلة. انظر: المفيد: أوائل المقالات (ص ٦٨، ٦٩).

وقد أتى في الكتاب والسنة ما يشير إلى أن القرآن أعظم المعجزات، قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوْلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَرِحْمَةٌ وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « ما من نبي من الأنبياء إلا قد أعطي من الآيات - أي المعجزات - ما آمن على مثله البشر، وإنما الذي كان أوتيته وحياً أوحاه الله إليّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابِعًا يوم القيامة » ^(١).

يقول المرتضى: « الدليل على نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم القرآن الذي تحدى به العرب فعجزوا عن معارضته مع تقيده لهم وتوبيخه إياهم، ومعلوم بقرب من الضرورة اشتهاه علو طبقتهم في الفصاحة كالأعشى والمغيرة ومن يجري مجراهما، وعدولهم عن المعارضة يدل على عجزهم، وصرْفهم إلى المحاربة يدل على صدقه صلى الله عليه وسلم » ^(٢).

وهذا القول اعترالي المصدر كما هو معروف، والمرتضى رضع عن المعتزلة حتى صار مشهوراً عندهم كشهرة لدى الاثني عشرية، حتى تنازعه الفريقان في كتب تراجم رجالهم.

وتفسير القول بالصرفة يأتي من شروط المعجزة عند المرتضى:

- أن تكون خارقة للعادة.
 - أن تكون مطابقة للدعوى التي يدعيها الرسول.
 - أن يتعذر الإتيان بها.
 - أن تكون فعلاً من أفعاله تعالى، أو جارية مجرى فعله تعالى ^(٣).
- فهذا الشرط الأخير يفسر قول المفيد ثم المرتضى بالصرفة؛ إذ يشترط في المعجزة أن تكون من فعل الله تعالى، وهو في معجزة القرآن الكريم تكون بصرف فصحاء العرب عن إمكانية محاكاة القرآن الكريم.
- وهذا القول مردود؛ لأن المعجزة جاءت من العجز، بحيث لا يستطيع أحد محاكاتها،

(١) صحيح البخاري، باب كيف نزول الوحي (٦٨٤٦)، مسلم: كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم رقم (١٥٢).

(٢) المرتضى: الأصول الاعتقادية (ص ٨٠). (٣) جمل العلم والعمل (ص ٤٠).

فالمعجز هو ما لم يكن بالإمكان الإتيان بمثله، ولا يشترط أن يكون ذلك بالصرفة، بل إن اشتراط الصرفة قد يوهم أن القرآن الكريم ليس معجزًا في ذاته، وكأنه لم يصل إلى درجة من الفصاحة والبيان بحيث لا يطمع أحد بمجاراته، فهو إذن غير معجز، وإنما المعجز صرف الأذهان عن محاكاته!

ولذلك جاء الطوسي بعدهما ليخفف من غلواء القول بالصرفة، فيجعلها احتمالاً وارداً، لا أمراً متحتماً؛ ولذلك يقول « وإعجاز القرآن قيل لفصاحته، وقيل لأسلوبه وفصاحته معاً، وقيل للصرفة والكل محتمل » (١).

الإيمان بالمعجزات الحسية للأنبياء:

ويؤمن الشيعة كأهل السنة بالمعجزات الحسية للأنبياء ﷺ، ويعددون في كتبهم كثيرًا من المعجزات التي أوردها أهل السنة في حق سيدنا محمد ﷺ، فقد « شق القمر بمكة لما سأله ﷺ قريش آية، وأطعم ﷺ النفر الكثير في منزل جابر... ونبع الماء من بين أصابعه، فشرب أهل العسكر كلهم، وأبطل الكهانة بمبعثه ﷺ... وحن الجذع الذي كان يخطب مستندًا إليه لما عمل له المنبر حتى سمعه جميع أصحابه مثل صوت الإبل، فضمه إليه فسكن، وأخبر ﷺ بالغيوب؛ وأخبر عمارًا بأنه ستقتله الفئة الباغية، وأن الحسن ﷺ يصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين، وأخبر عن رجل قاتل في سبيل الله تعالى [على ما يظهر] أنه من أهل النار، فظهر ذلك أن قتل ذلك الرجل نفسه، وهذه أشياء لا تعرف البتة بشيء من وجوه تقدمت المعرفة لا بالنجوم ولا بكهن ولا بكتب ولا بخط ولا بزجر، لكن بإعلام الله ووحيه إليه... وشكا إليه البعير بحضرة أصحابه وتذلل له... وكلمه الذراع المسموم، وأخبر يوم بدر بمصارع صنديد قريش... وبدرت عين بعض أصحابه فسقطت فردّها بيده، فكانت أصح عينيه وأحسنهما، وتفل في عين علي وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته، وبعثه بالراية وأخبر أنه سيظفر فكان ذلك، وكانوا يسمعون تسبيح الطعام في يديه » (٢).

وينبغي للباحث في المعجزات أن يتحرى أدلتها، فيثبت ما ثبت بدليل صحيح من كتاب الله تعالى كانشقاق القمر، أو سنة نبوية صحيحة كحنين الجذع، ويعرض عمًا لم

(١) تجريد الاعتقاد (ص ٤٠١).

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٦٠، ١٦١)، وانظر: المرتضى: رسالة في علم الكلام (ص ٧٠، ٧١).

يثبت بطريق صحيحة. مثل «إطاعة الشمس له في التوقف عن الغروب مرة، وفي الطلوع بعد الغروب أخرى» (١). «وتكليم الظبي» (٢) « (٣).

إثبات المعراج للنبي ﷺ:

ويثبت الشيعة أيضًا الإسراء والمعراج بالروح والجسد كسائر أهل السنة، لقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ويقول علماءهم: «وهو في الجملة من ضروريات الدين ومنكره خارج عن رتبة المسلمين، ولذا قال الصادق: «ليس منا من أنكر أربعة: المعراج، وسؤال القبر، وخلق الجنة والنار، والشفاعة» (٤). وقال الرضا: «من لم يؤمن بالمعراج فقد كذب رسول الله ﷺ»، والذي عليه الإمامية أنه كان بيدنه الشريف، لا بالروح فقط، وفي اليقظة لا في المنام، وإلى السماء، لا إلى المسجد الأقصى فقط، والأخبار الواردة بذلك عن العترة الطاهرة متكاثرة متظافرة» (٥).

وعن حماد بن عثمان عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «لما عرج برسول الله ﷺ انتهى به جبرئيل إلى مكانٍ فخلّى عنه فقال له: يا جبرئيل تخلّيني على هذه الحالة؟ فقال: امضه، فوالله! لقد وطقت مكانًا ما وطعه بشرٌ، وما مشى فيه بشرٌ قبلك» (٦).

ولكن أثر التشيع في خبر المعراج عندهم واضح جلي، إذ في رواياتهم أن الرب العظيم سبحانه كلم الرسول الأعظم ﷺ بلغة علي عليه السلام، فقد «روى الأربيلي في كشف الغمة عن ابن عمر قال: سمعت رسول الله ﷺ وقد سئل: بأي لغة خاطبك ربك ليلة المعراج؟

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٦٣).

وقد بين عدد من نقاد الحديث من أهل السنة وضع هذا الحديث، قال الشيخ الألباني (السلسلة الضعيفة ٢/ ٣٩٥ رقم ٩٧١) عنه: موضوع.

ويرد ذلك الخبر ما رواه (أحمد في مسنده، رقم ٧٩٦٤) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إن الشمس لم تحس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس.

(٢) لم أجد لتكليم الظبي للنبي ﷺ أصلًا ثابتًا، خلال بحثي عن أدلة المعجزات.

(٣) الحنيزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٣٢).

(٤) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٦٠)، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

(٥) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٦٨). والزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٦٠).

(٦) أصول الكافي (٥١٣/١)، كتاب الحجّة باب في مولد النبي ﷺ ووفاته. وقال محققه: الحديث حسن.

فقال: «خاطبني بلغة علي بن أبي طالب عليه السلام، فألهمت أن قلت: يا ربي أنت خاطبتي أم علي عليه السلام؟ فقال: يا أحمد! أنا شيء ليس كالأشياء ولا أفاق بالناس، ولا أوصف بالأشياء، خلقتك من نوري وخلقت، عليًا من نورك، فاطلعت على سرائر قلبك فلم أجد إلى قلبك أحب من علي بن أبي طالب عليه السلام فخاطبتك بلسانه كيما يطمئن قلبك» (١).

الاعتقاد بدوام حياة بعض الأنبياء:

تذكر بعض روايات الشيعة حياة إلياس والخضر عليهما السلام، وأن لهما مع الأئمة شأنًا. فقد قال: «قال أبو عبد الله عليه السلام: بينا أبي عليه السلام يطوف بالكعبة إذا رجلٌ معتجزٌ قد قيض له فقطع عليه أسبوعه (٢) حتى أدخله إلى دارٍ جنب الصفا فأرسل إليّ فكتنا ثلاثة فقال: مرحبًا يا ابن رسول الله، ثم وضع يده على رأسي وقال: بارك الله فيك يا أمين الله بعد آبائه يا أبا جعفر! إن شئت فأخبرني وإن شئت فأخبرتك، وإن شئت سلني وإن شئت سألتك، وإن شئت فاصدقني وإن شئت صدقتك... فضحك أبي عليه السلام... قال: أنا إلياس ما سألتك عن أمرك وبي منه جهالة، غير أنني أحببت أن يكون هذا الحديث قوة لأصحابك» (٣).

ومع أن محقق أصول الكافي يصرح بضعف الحديث على المشهور، ولكنه يجزم بأن إلياس عليه السلام «سوف يكون من أنصار الحجة (عج)» (٤).

نبوة الخضر عليه السلام واستمرار حياته:

قال المجلسي: «والخضر: المشهور بيننا أنه عليه السلام كان نبيًا، والآن من أمة نبينا عليه السلام، ويقتى إلى نفخ الصور؛ لأنه شرب من ماء الحياة (٥)،

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٧٥). ورواية أخرى مختصرة: ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة (ص ٩٠).

(٢) يعني: طوافه حول الكعبة المشرفة، والطواف سبعة أشواط، فسمي أسبوعًا.

(٣) أصول الكافي (٢٩٩/١) كتاب الحججة باب في شأن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وتفسيرها. قال محقق أصول الكافي: الحديث ضعيف على المشهور بالحسن بن العباس.

(٤) أصول الكافي (٢٩٩/١) كتاب الحججة باب في شأن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر: ١] وتفسيرها. حاشية رقم (٧) في الهامش. ورمز (عج): يقصد به عجل الله فرجه. وهي دعوة لخروج المهدي المنتظر، الإمام الثاني عشر آخر أئمة الاثني عشرية.

(٥) روي ذلك في بعض شروح أهل السنة عن جعفر الصادق عن أبيه الباقر أيضًا «روي خيثمة بن سليمان من طريق جعفر الصادق عن أبيه أن ذا القرنين كان له صديق من الملائكة، فطلب منه أن يدلّه على شيء يطول به عمره، فدله على عين الحياة وهي داخل الظلمة، فسار إليها والخضر على مقدمته فظفر بها الخضر، ولم يظفر بها ذو القرنين». (ابن حجر: فتح الباري ١٠/١٩٦).

وهو مؤنس للقائم (ع) « (١).

ويذكر أهل السنة سبب تسميته الخضر: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إنما سمي الخضر أنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهرت من خلفه خضراء » (٢).

وتذكر روايات الاثني عشرية أن الخضر كان يظهر للناس، ويقابل الأئمة ويكلّمهم (٣).

وإذا نظرنا إلى موقف أهل السنة من الخضر عليه السلام، فأما نبوة الخضر فراجحة عندهم: قال الآلوسي: « والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وقد أطلقت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وهذا قول من يقول بنبوته عليه السلام، وفيه أقوال ثلاثة: فالجمهور على أنه عليه السلام (نبي وليس برسول، وقيل: هو رسول (٤)، وقيل هو ولي، وعليه القشيري وجماعة والمنصور. ما عليه الجمهور وشواهد من الآيات والأخبار كثيرة وبمجموعها يكاد يحصل اليقين » (٥). وقد استدل الجمهور على كونه نبياً بما صنعه من عجائب لا تكون إلا بوحي رباني؛ حيث أعباب السفينة، وقتل الغلام، وبنى الجدار، ولذلك قال تعالى - قاصداً قول الخضر -: ﴿ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِئِ ﴾ [الكهف: ٨٢]، واستدلوا « بكونه أعلم من موسى، والولي لا يكون أعلم من النبي » (٦).

ولذلك « قال بعض أكابر العلماء: إن إنكار نبوته أول درجة من الزندقة؛ لأن الزنادقة يتدرجون بكونه غير نبي إلى أن الولي أفضل من النبي » (٧).

قال ملا علي القاري: « وأما قصة موسى مع الخضر، فالتعلق بها في تجويز الاستغناء عن الوحي بالعلم اللدني إلحاد عند جميع المشايخ الكرام، وكفر يخرج به عن دائرة

(١) مرآة العقول (٢٠٦/٦). والقائم: أي المهدي المنتظر الذي يعتقد الاثني عشرية حياته منذ (١٢٠٠) عام تقريبا!

(٢) صحيح البخاري رقم (٣١٥٠). والفرو: الحشيش الأبيض وما شابهه.

(٣) أصول الكافي (٦٠٤/١) كتاب الحجّة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم. وقال محققه: وهذا الحديث صحيح.

(٤) ودليله في حديث البخاري، قول الله تعالى لموسى: (هو أعلم منك). قال ابن حجر: « قوله: (هو أعلم منك) ظاهر في أنّ الخضر نبيّ، بل نبيّ مرسل ». فتح الباري (١٩٥/١).

(٥) الآلوسي: روح المعاني (٣٢٠/١٥).

(٦) ملا علي القاري: الحذر في أمر الخضر (ص ١٠٣)، تحقيق محمد خير رمضان، دار القلم - دمشق (١٤١١هـ / ١٩٩١م).

(٧) الشيخ تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٢٣/٥) دار القلم - دمشق (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م).

الإسلام... قال القسطلاني: فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالحضر مع موسى، أو جوّز ذلك لأحد من الأمة فليجدد إسلامه، وليشهد بشهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من خاصة أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان وخلفائه ونوّابه» (١).

وأما الاعتقاد بحياة الخضر عليه السلام فأمر اعتقده كثير من أهل السنة، كالإمام النووي رحمته الله، والشيخ ابن الصلاح، والقرطبي، وملا علي القاري (٢)، وابن حجر الهيتمي في الفتاوى الحديثية، والقسطلاني، وإبراهيم بن أدهم، وبشر الحافي، ومعروف الكرخي، وسري السقطي خال الجنيد والجنيد من مشايخ الصوفية، والخليفة عمر بن عبد العزيز على ما ذكره ابن حجر في الإصابة في تمييز الصحابة (٣)، ويروى ذلك عن الحسن البصري (٤). رحم الله الجميع.

قال الإمام النووي. « جمهور العلماء على أنه حي موجود بين أظهرنا، وذلك متفق عليه عند الصوفية وأهل الصلاح والمعرفة، وحكاياتهم في رؤيته والاجتماع به... أشهر من أن يستر، وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح: هو حي عند جماهير العلماء والصالحين، والعامّة معهم في ذلك، قال: وإنما شذّب بإنكاره بعض المحدثين » (٥).

وقال القرطبي: « الصحيح أن الخضر نبي معمر محجوب عن الأبصار، وروى محمد ابن المتوكل عن ضمرة بن ربيعة عن عبد الله بن شوذب قال: الخضر عليه السلام من ولد فارس وإلياس من بني إسرائيل يلتقيان كل عام في الموسم، وعن عمرو بن دينار قال: إن الخضر وإلياس لا يزالان حين في الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رفع ماتا. وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطي بن محمود بن عبد المعطي اللخمي في شرح الرسالة له للقشيري حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه، يفيد مجموعها غاية الظن بحياته مع ما ذكره النقاش والثعلبي وغيرهما، وقد جاء في صحيح مسلم أن الدجال ينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ

(١) ملا علي القاري: الحذر في أمر الخضر (ص ١٤٣ - ١٤٦).

(٢) المصدر السابق (ص ١٠٥). (٣) الإصابة (١٣٥/٢).

(٤) انظر حول مظانّ أقوال أهل هذا الرأي: محمد خير رمضان: الخضر بين الواقع والتهويل (دراسة تحليلية مقارنة على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ) (ص ١١٨، ١١٩). دار القلم - دمشق (١٤١٥هـ / ١٩٩٤م).

(٥) الإمام النووي: شرح صحيح مسلم: الشيخ تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٢٣/٥) دار القلم - دمشق (١٤٢٦هـ / ٢٠٠٦م).

رجل هو خير الناس أو من خير الناس... الحديث، وفي آخره قال أبو إسحاق: يعني أن هذا الرجل هو الخضر»^(١).

أما التقاء الخضر بإلياس، ولقاء كلّ منهما بالنبي ﷺ ففيه أخبار ضعيفة لدى أهل السنة، لا تصل إلى درجة الاحتجاج بها^(٢).

والحقيقة أنه لم يشذ بإنكاره بعض المحدثين - كما ذكر النووي عن ابن الصلاح - فقد ورد عن كثير من العلماء، كإمام المحدثين البخاري، وإبراهيم الحري، وأبي الحسين ابن المنادي، ومحمد بن أبي الفضل المرسي^(٣) وابن حزم وابن الجوزي وابن تيمية وابن قيم الجوزية، والآلوسي. ومن جزم بموته أيضًا: أبو بكر ابن العربي، وأبو يعلى الفراء، وأبو طاهر العبادي^(٤).

(١) تفسير القرطبي (٤٣/١١). وخبر مسلم في صحيحه: كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب في صفة الدجال وتحريم المدينة عليه وقتله المؤمن وإحيائه رقم (٢٩٣٨) عن أبي سعيد الخدري قال: حدثنا رسول الله ﷺ يوماً حديثًا طويلًا عن الدجال، فكان فيما حدثنا قال: «يأتي وهو محرم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله ﷺ حديثه. فيقول الدجال: أرأيتم إن قتلت هذا ثم أحبيته أتشكون في الأمر؟ فيقولون: لا. قال: فيقتله ثم يحييه، فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك قط أشد بصيرة مني الآن. قال فريد الدجال أن يقتله فلا يسلط عليه». قال أبو إسحاق: يقال إن هذا الرجل هو الخضر عليه السلام.

(٢) قال ابن حجر: وجاء في اجتماعه - أي الخضر - مع النبي ﷺ حديث ضعيف أخرجه ابن عدي من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف عن أبيه عن جدّه أنّ النبي ﷺ سمع وهو في المسجد كلامًا، فقال: «يا أنس اذهب إلى هذا القائل فقل له يستغفر لي» فذهب إليه فقال: قل له: إن الله فضلك على الأنبياء بما فضّل به رمضان على الشهور. قال: فذهبوا ينظرون فإذا هو الخضر «إسناده ضعيف، وروى ابن عساكر من حديث أنس نحوه بإسناد أوهى منه». (فتح الباري ١٠/١٩٦).

«وأخرج الحاكم في «المستدرک» من حديث أنس أنّ إلياس اجتمع بالنبي ﷺ وأكلا جميعًا، وأنّ طولهُ ثلاثمائة ذراع، وأنه قال: «إنّه لا يأكل في السنّة إلاّ مرّة واحدة»، أورده الذهبي في ترجمة يزيد بن يزيد البلوي، وقال: إنّه خبر باطل. (ابن حجر: فتح الباري ١٠/١٢٤).

«وروى الدارقطني في «الأفراد» من طريق عطاء عن ابن عباس مرفوعًا: «يجتمع الخضر وإلياس كلّ عام في الموسم، فيحلق كلّ واحد منهما رأس صاحبه، ويفترقان عن هؤلاء الكلمات: بسم الله ما شاء الله» الحديث، في إسناده محمّد بن أحمد بن زيد بمعجمة ثم موخدة ساكنة وهو ضعيف (فتح الباري ١٠/١٩٦).

(٣) من علماء الأدب والتفسير والحديث، سكن المدينة وانتقل إلى مصر من كعبة التفسير الكبير (ت ٦٥٥)، الأعلام للزركلي (٢٣٣/٦).

(٤) انظر: روح المعاني للآلوسي (٣٢٠/١٥)، إرشاد الساري (٣٨٤/٥)، المنار المنيف (ص ٧٢). وانظر هذه المسألة عند: محمد خير رمضان يوسف: الخضر بين الواقع والتهويل (ص ١٢٥ - ١٣٦).

والحقيقة أنه لم يأت في إثبات استمرار حياته حديث صحيح، ولذلك قال الآلوسي: « والأكثر من المحدثين على وفاته »^(١). قال ابن كثير: « وقد تصدى الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي رحمته الله في كتاب (عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر) للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات، فبين أنها موضوعات، ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فمن بعدهم، فبين ضعف أسانيدھا ببيان أحوالھا، وجهالة رجالھا، وقد أجاد في ذلك وأحسن الانتقاد »^(٢).

ومما يجدر ذكره أن ابن قيم الجوزية ذكر أن من قال بموت الخضر أحد أئمة الشيعة الاثني عشرية، وهو علي بن موسى الرضا رحمهما الله^(٣).

وقال ابن قيم: « الأحاديث التي يذكر فيها الخضر وحياته كلها كذب، ولا يصح في حياته حديث واحد... وسئل إبراهيم الحربي عن تعمير الخضر وأنه باقٍ، فقال: من أحال على غائب لم ينتصف منه، وما ألقى هذا بين الناس إلا شيطان »^(٤).

« وسئل البخاري عن الخضر وإلياس هل هما أحياء؟ فقال: كيف يكون هذا؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: « لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد »^(٥). وسئل عن ذلك كثير غيرهما من الأئمة فقالوا - مستدلين بالقرآن - : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِّن قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَإِنَّ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٤] .

و « لو كان الخضر حيًّا، لوجب عليه أن يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ويجاهد بين يديه ويتعلم منه، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر: « اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض »^(٦).

(٢) البداية والنهاية (٣٣٤/١) .

(١) روح البيان (٤٩٩/٢) .

(٣) انظر: ابن قيم الجوزية: المنار المنيف (ص ٧٢)، وانظر: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني (٣٢٠/١٥) . دار إحياء التراث العربي، بيروت، محمد خير رمضان يوسف: الخضر بين الواقع والتهويل (ص ١٣١) .

(٤) ابن قيم الجوزية: المنار المنيف في الصحيح والضعيف (ص ٦٧) .

(٥) رواه الشيخان. ولكن قال القرطبي: ولا حجة لمن استدل به على بطلان قول من يقول إن الخضر حي لعموم قوله: « ما من نفس منفوسة » لأن العموم وإن كان مؤكدا الاستغراق فليس نصًّا فيه، بل هو قابل لم يتناول عيسى صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت ولم يقتل، فهو حي بنص القرآن ومعناه، ولا يتناول الدجال مع أنه حي بدليل حديث الجساسة، وكذلك لم يتناول الخضر صلى الله عليه وسلم، وليس مشاهدًا للناس، ولا ممن يخالطهم حتى يخاطر بيالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضًا، فمثل هذا العموم لا يتناوله « تفسير القرطبي (٤٢/١١) .

(٦) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر وإباحة الغنائم، رقم (١٧٦٣) .

وكانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً معروفين بأسمائهم وأسماء آبائهم وقبائلهم، فأين كان الخضر حينئذ؟

قال أبو الفرج ابن الجوزي: والدليل على أن الخضر ليس يباقي في الدنيا أربعة أشياء: القرآن والسنة وإجماع المحققين من العلماء والمعقول « (١) ».

ويرى ابن حزم أن القول بحياة إلياس والخضر فكرة مأخوذة عن اليهودية، فاليهود هم الذين قالوا بحياة إلياس وحياة فنحاس بن العازار بن هارون عليه السلام، وسار في سبيلهما بعض الصوفية فادعى أنه يلقي إلياس في الفلوات (٢).

وقد بالغ ابن حزم عندما عدّ دعاوى الصوفية الأخذ عن الخضر خروجاً عن عقيدة ختم النبوة! قائلاً: « فكيف يستجيز مسلم أن يثبت بعده عليه السلام نبياً في الأرض حاشا ما استثناه رسول الله صلى الله عليه وآله في الآثار المسندة الثابتة في نزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان » (٣).

ولابن حجر رسالة في تحقيق أمر الخضر، أسماها: (الزهر النضر في نبأ الخضر) (٤)، نقل الدكتور قفاري أنه قال في خاتمتها: « والذي تميل إليه النفس من حيث الأدلة القوية خلاف ما يعتقد العوام من استمرار حياته » (٥).

« وما الحكمة في أن يبقى طيلة هذه المدة - كما يزعم الزاعمون - في الفلوات والقفار والجبال؟ ما الفائدة من هذا؟ ليس هناك فائدة شرعية ولا عقلية من وراء هذا. إنما يميل الناس دائماً إلى الغرائب والعجائب والقصص والأساطير، ويصورونها تصويراً من عند أنفسهم ومن صنع خيالهم، ثم يضيفون عليها ثوباً دينياً، ويروج هذا بين بعض السذج، ويزعمون هذا من دينهم، ولكن ليس هذا من الدين في شيء... والحكايات

(١) ابن قيم الجوزية: المنار المنيف في الصحيح والضعيف (ص ٦٧، ٦٨) .

(٢) الفصل في الملل والنحل (٣٧/٥) .

(٣) الفصل (٣٧/٥، ٣٨)، انظر: ابن عربي: الفتوحات المكية (٢٤١/١)، ابن عطاء الله السكندري: لطائف المنن (ص ٥٢، ٥٣)، وطبقات الشعراني: ٩٧/١، ٥/٢، وقارن وانظر: ابن حجر، تهذيب التهذيب (٤٧٧/٧) .

(٤) وقد وجدت عنوانه في ذكر كتب ابن حجر في تقديم تهذيب التهذيب، ولكن ورد اسمه هكذا: (الزهر النضر في حال الخضر)، (ص ١٣)، (ط ١)، (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م)، دار الفكر - دمشق.

(٥) ابن حجر: الرسائل المنيرية (٢٣٤/٢)، وانظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٥٥/٢)، الهامش.

التي تحكي عن الخضر إنما هي مخترعات ما أنزل الله بها من سلطان» (١).

وعلى كل فليست مسألة حياة الخضر من أصول العقائد، ولا فروعها المهمة.

قال الشيخ تقي الدين العثماني: «والجملة فلم يثبت في القرآن ولا في السنة دليل (٢) يجزم به على حياته أو موته، فليست المسألة مسألة عقيدة، وإنما هي مسألة ثبوت واقعة وعدم ثبوتها، ومسألة مشاهدة وتجربة، والسبيل الأسلم في مثلها التوقف والسكوت، حتى يتضح أحد الجانبين بدليل منقول أو بمشاهدة» (٣).

التفضيل بين الأنبياء والأئمة والملائكة الكرام:

أفضلية النبي ﷺ على الخلق أجمعين:

عن الحسين بن عبد الله قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: «كان رسول الله ﷺ سيد ولد آدم؟ فقال: كان - والله - سيد من خلق الله وما برأ الله بريّة خيراً من محمد ﷺ» (٤).
وهناك عدة روايات في هذا الباب تدل على نورانية التكوين المحمدي والعلوي، ولكن ذهب محقق الكافي إلى ضعف بعض تلك الروايات وجهالة بعضها (٥).

(١) الأستاذ الدكتور القرضاوي: موقع إسلام أونلاين www.Islamonlinen.net.

(٢) أي دليل خاص به، وإلا فعموميات الحديث تدل على موته كما ذكرنا.

(٣) الشيخ تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٥/٢٤).

(٤) أصول الكافي (١/٥١٠)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي ﷺ ووفاته. وروى الكليني قريباً منه عن علي عليه السلام.

(٥) انظر: أصول الكافي (١/٥١١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي ﷺ ووفاته. منها: «عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال الله تبارك وتعالى: يا محمد إني خلقتك وعلياً نوراً، يعني روحاً بلا بدن، قبل أن أخلق سماواتي وأرضي وعرشي وبحري، فلم تزل تهلّني وتمجدني، ثم جمعت روحكما فجعلتهما واحدة، فكانت تمجدني وتقدّسني وتهلّني، ثم قسمتها ثنتين، وقسمت الثنتين ثنتين فصارت أربعة: محمدٌ واحدٌ، وعلّيٌ واحدٌ، والحسن والحسين ثنتان، ثم خلق الله فاطمة من نور، ابتدأها روحاً بلا بدن، ثم مسحنا يمينه فأفضى نوره فينا». قال: والحديث ضعيف.

وكذلك نورانية الأئمة وسبق خلقهم: «عن محمد بن سنان قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام فأجريت اختلاف الشيعة فقال: يا محمد إن الله تبارك وتعالى لم يزل متفرداً بوحدانيتته، ثم خلق محمدًا وعلياً وفاطمة فمكثوا ألف دهر، ثم خلق جميع الأشياء فأشهدهم خلقها وأجرى طاعتهم عليها وفوض أمورها إليهم، فهم يحلون ما يشاؤون ويحرمون ما يشاؤون، ولن يشاؤوا إلا أن يشاء الله تبارك وتعالى. ثم قال: يا محمد هذه الدياتنة التي من تقدّمها مرق ومن تخلف عنها محق ومن لزمها لحق، خذها إليك يا محمد». أصول الكافي (١/٥١٢)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي ﷺ ووفاته. قال محققه: والحديث ضعيف على المشهور.

فأفضلية النبي ﷺ على باقي الخلق متفق عليها بين السنة والشيعية، ولكن يأتي الخلاف في من هو بعده ﷺ. يقول اللقاني:

وأفضل الخلق على الإطلاق نبينا فملا عن الشقاق
والأنبياء يلونه في الفضل وبعده ملائكة ذو الفضل (١)

ثم يأتي بعد ذلك ذكر الصحابة الكرام وفيهم علي ؑ.

أما الشيعة فيعتقدون أيضًا بتفضيل الأنبياء جميعًا على الملائكة الكرام، وجاء في (أوائل المقالات): « اتفقت الإمامية على أن أنبياء الله ورسله من البشر أفضل من الملائكة، ووافقهم في ذلك أصحاب الحديث، وأجمعت المعتزلة على خلاف ذلك » (٢).

أيهما أفضل الأنبياء أم الأئمة؟

تقر روايات الاثني عشرية أن النبي محمدًا ﷺ أفضل الأنبياء، ولكن أيهم أفضل باقي الأنبياء أم أئمة آل البيت؟

هناك نص عن زين العابدين يثبت أن الأنبياء أفضل من الأئمة، فقد « سأل الأحول زين العابدين: جعلت فداك أنتم أفضل أم الأنبياء؟ قال: بل الأنبياء » (٣).

ولكن قد خالف الصدوق هذا النص، فقال: « لم يخلق خلقًا أفضل من محمد ﷺ والأئمة، وأنهم أحب الخلق إلى الله وأكرمهم، وأولهم إقرارًا به، ونعتقد أن الله تبارك وتعالى خلق جميع الخلق له ولأهل بيته ﷺ، وأنه لولاهم لما خلق الله سبحانه السماء والأرض ولا الجنة ولا النار، ولا آدم ولا حواء ولا الملائكة ولا شيئًا مما خلق » (٤).

ويقول عبد الله شير: « يجب الإيمان بأن نبينا ﷺ وآله المعصومين أفضل من الأنبياء والمرسلين ومن الملائكة المقربين؛ لتظافر الأخبار بذلك وتواترها فيما هنالك، قال ﷺ: « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » (٥). وفي حديث للصادق يقول: أي شيء تقول الشيعة في موسى وعيسى وأمير المؤمنين؟ قلت: يزعمون أن موسى وعيسى أفضل من أمير المؤمنين. قال: يزعمون أن أمير المؤمنين علم ما علم رسول الله ﷺ؟ قلت: نعم، ولكن لا يقدمون

(١) اللقاني: جوهرة التوحيد (ص ٢٩٠ - ٢٩٣).

(٢) المفيد: أوائل المقالات (ص ٥٥).

(٣) أصول الكافي (٢٢٨/١) كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة.

(٤) رسالة الاعتقادات (ص ١٠٦، ١٠٧).

(٥) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٤٩).

على أولي العزم من الرسل أحدًا، قال أبو عبد الله فخاصمهم بكتاب الله، قلت: في أي موضع منه؟ قال: قال الله تعالى لموسى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَنْبُوتِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٥]، وقال لعيسى عليه السلام: ﴿ وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ ﴾ [الزخرف: ٦٣] وقال لمحمد: ﴿ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١]، ﴿ وَزَرَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بَيِّنَاتًا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٨٩] «^(١)».

بل إن المتأخرين نسبوا للرسول ﷺ وللأئمة من بعده ولاية تفويض على الكون من الله تعالى، في عبارات جمعت (ضعفًا على إنبالة)، جمعت غلو الغلاة مع عبارات الفلاسفة القدماء!! يقول الخنيزي^(٢):

« فما ثبت بالعلم تُدَيِّنُ به واعتقد، مثل كونهم عليهم السلام أفضل الخلق... فأفضلهم محمد ﷺ وهو الأول الحقيقي في الصدور، ثم من بعده أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ومن بعده الحسن الزكي عليه السلام ثم الحسين الشهيد عليه السلام ثم الأئمة التسعة من ذرية الحسين عليه السلام على الترتيب إلا تاسعهم صاحب الزمان عليه السلام فإنه أفضل التسعة، ثم من بعدهم: الصديقة فاطمة عليها السلام... ومثل كونهم العلة الغائية في خلق العالم؛ فإنه بديهي الثبوت ولا منافاة في ذلك وبين كون العلة الغائية معرفته ﷺ لأنهم طرق المعرفة إليه تعالى^(٣)، « بخلاف كونهم العلة الفاعلية فإنها مع عدم التفويض^(٤) معقولة لكن الدليل القطعي عليها غير موجود... نعم إن تم ما ادعته الحكماء من أن الواحد الحقيقي لا يصدر منه إلا واحد، ثبت أنه ﷺ هو العلة الفاعلية بقدرة الله ﷻ »^(٥).

وهناك نصوص شيعية تؤكد توصل الأنبياء بالأئمة؛ فقد جاء في بحار الأنوار: « إن دعاء الأنبياء استجيب بالتوسل والاستشفاع بهم صلوات الله عليهم أجمعين »^(٦).

(١) المصدر السابق (ص ١٤٩، ١٥٠).

(٢) من علماء القطيف في الجزيرة العربية (ت ١٣٦٣هـ)، ويجدر بالذكر أن نسبة غير قليلة من الشيعة تسكن المنطقة الشرقية في جزيرة العرب، وقد ذكرت إحدى القنوات الفضائية أن نسبة الشيعة في المملكة العربية السعودية تبلغ (١٤٪) على حد زعم هذه القناة. والله أعلم.

(٣) الخنيزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٧١ - ٧٣).

(٤) أي دون تفويض من الله لهم في تصريف الأمور وهو معقول... أما مع التفويض وهو واضح البطلان حيث يقود إلى الكفر. انظر: الخنيزي: مقدمة في أصول الدين (ص ٧٤) الهامش.

(٥) الخنيزي (من علماء القطيف، ت ١٣٦٣هـ): مقدمة في أصول الدين (ص ٧٦).

(٦) وهذا أحد أبواب بحار الأنوار (٣١٩/٢٦).

كما أن ما جرى لبعض الأنبياء من الحنن هي - حسب زعمهم - بسبب موقفهم من الأئمة، فآدم عليه السلام: «.. لما أسكنه الله الجنة مثل له النبي وعلي والحسن والحسين صلوات الله عليهم فنظر إليهم بحسد، ثم عرضت عليه الولاية فأنكرها، فرمته الجنة بأوراقها، فلما تاب إلى الله من حسده، وأقر بالولاية ودعا بحق الخمسة محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم غفر الله له، وذلك قوله: ﴿فَلَقَىٰ آدَمَ مِن رَّبِّهِ كَيْمَتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]» (١).

كما ادعوا أن يونس عليه السلام حبسه الله في بطن الحوت لإنكاره ولاية علي بن أبي طالب ولم يخرجته حتى قبلها. عن حبة العرنبي قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: «إن الله عرض ولايتي على أهل السماوات وأهل الأرض أقرّ بها من أقرّ، وأنكرها من أنكر، أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقرّ بها» (٢).

وقد جاء في كتاب مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب (ت ٥٨٨ هـ) عدة فصول تؤكد مساواة الشيعة بين علي عليه السلام والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ومن هذه الفصول التي هي عناوين لما تحتها من أخبار: (فصل: في مساواته مع آدم وإدريس ونوح عليه السلام... فصل في مساواته مع موسى عليه السلام... فصل في مساواته مع عيسى عليه السلام... فصل في مساواته مع سائر الأنبياء عليه السلام) (٣).

وقد ذكر الدكتور القفاري أن بعض شيوخهم ألف في تفضيل الأئمة على الأنبياء كتاباً! (٤).

ويضيف المفيد في (أوائل المقالات) مذهباً رابعاً ينقله في مذهب الاثني عشرية دون أن يعلق عليه، وهو أفضلية الأئمة على سائر الأنبياء ما عدا أولي العزم (٥).

(١) تفسير العياشي (٤١/١)، بحار الأنوار (٢٦/٣٢٦).

(٢) تفسير فرات (ص ١٣)، بحار الأنوار (٢٦/٢٨٢ - ٣٣٣، ٣٣٤)، بصائر الدرجات (ص ٢٢).

(٣) انظر: مناقب آل أبي طالب لابن شهر آشوب، المطبعة العلمية - طهران.

(٤) مثل كتاب تفضيل الأئمة على الأنبياء، وكتاب تفضيل علي عليه السلام على أولي العزم من الرسل

(كلاهما لشيخهم هاشم البحراني، المتوفى سنة ١١٠٧)، وتفضيل الأئمة على غير جدّهم من الأنبياء

لشيخهم محمّد كاظم الهزار، وتفضيل أمير المؤمنين علي عليه السلام على من عدا خاتم النبيين، لمحمّد باقر المجلسي

(المتوفى سنة ١١١١ هـ) ومن الطّريف أنّ أحد شيوخهم ألف كتاباً بعنوان: « تفضيل القائم المهدي على سائر

الأئمة » من تأليف فارسي يدعى فتحعلياشه (ت ١٢٥٠ هـ)، وانظر: الذريعة (٤/٣٥٨ - ٣٦٠).

(٥) أوائل المقالات (ص ٤٢، ٤٣).

ولكنّ المجلسي يقول: « إنّ أولي العزم إنّما صاروا أولي العزم بحبّهم صلوات الله عليهم » ولا يستثني في ذلك أحداً من المرسلين، حتى نبينا محمد ﷺ!! وذلك في باب [دعاء الأنبياء استجيب بالتوسل والاستشفاع بهم صلوات الله عليهم أجمعين] « (١) ».

بل هناك رواية توحى بتفضيل علي على النبي محمد ﷺ في بعض الوجوه:

حيث تروي أن رسول الله ﷺ قال: « أعطيت ثلاثاً وعلي مشاركي فيها، وأعطي علي ثلاثاً ولم أشاركه فيها » فقيل: يا رسول الله! وما هي الثلاث التي شاركك فيها علي ﷺ؟ قال: « لي لواء الحمد وعلي حامله، والكوثر لي، وعلي ساقيه، ولي الجنة والنار، وعلي قسميهما، وأما الثلاث التي أعطيها علي ولم أشاركه فيها: فإنه أعطي ابن عم مثلي ولم أعط مثله، وأعطي زوجته فاطمة ولم أعط مثلها (٢)، وأعطي ولديه الحسن والحسين ولم أعط مثلهما » (٣).

ولكنهم نفوا تفضيل علي على النبي ﷺ أو مساواته معه، وأكد مؤلفوهم المحدثون تفضيل الأئمة على جميع الرسل، أولي العزم وغيرهم: « يقول: أحمد الرحماني الهمداني عن آية التطهير: من كرائم الآيات التي [تدل] على أن عليّاً وأولاده المعصومين - صلوات الله عليهم أجمعين - أفضل من جميع الأنبياء والمرسلين سوى خاتم النبيين ﷺ: آية التطهير، وهي قوله ﷺ: ﴿ ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ﴾ [الأحزاب: ٣٣] » (٤).

ويقول: « إذا كان المعيار في الأفضلية أكثرية الثواب، كما هو الحق فيكون علي ﷺ أفضل من جميع الأنبياء حتى أولي العزم من الرسل؛ لأنه ﷺ أكثر ثواباً وأكرم منزلة عند الله تعالى، والشاهد على ذلك أخبار كثيرة من طرق العامة والخاصة » (٥).

كما يعلل آية الله دستغيب تفضيل الأئمة على الأنبياء بزيادة يقين الأئمة على يقين الأنبياء! (٦).

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٣١٩/٢٦).

(٢) فأين أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، هي من أكمل النساء عقلاً وأعظمهن مكانة في الدنيا والآخرة.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (٩٠/٣٩)، وانظر في هذا المعنى: عيون أخبار الرضا (ص ٢١٢)، مناقب آل أبي طالب (٤٧/٢).

(٤) الإمام علي ﷺ (ص ٢١٣، ٢٧٣). (٥) الإمام علي ﷺ (ص ٣٣٨).

(٦) « يقول عبد الحسين دستغيب من أئمتهم المعاصرين (اليقين، ص ٤٦، دار التعارف - بيروت، ١٩٨٩م): =

ويزعم العاملي (علي بن يونس العاملي ت ٨٧٧) أن الإمام مالكاً كان يرى هذا المذهب الفاسد، فيقول: « نقل مالك بن أنس أخباراً جمّة في فضائل علي، وكان يفضلّه على أولي العزم من الأنبياء، فرمي بالغلو لذلك » (١)!!

وما دام الأئمة قد بلغوا هذا القدر، فلماذا لا يقول الشيعة بنبوة الأئمة، فيكفوا أتباعهم عناء التفريق بين النبي والإمام؟ يجيب المجلسي عن هذا بقول لا تحتمله الجبال: « ولا نعرف جهة لعدم اتصافهم بالنبوة - أي الأئمة - إلا رعاية خاتم الأنبياء، ولا يصل عقولنا فرق بين النبوة والإمامة » (٢)!! وهكذا يصرح المجلسي - محدث الشيعة الأمين على روايات الأئمة! - أنه لولا ثبوت ختم النبوة بالنبي محمد ﷺ لقالوا إذن بنبوّتهم!!
نقض روايات الأئمة لمذهب تفضيل علي ﷺ على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

وهذا المذهب الفاسد من تفضيل الأئمة على الأنبياء الكرام منقوض جملة وتفصيلاً عند أهل السنة، ثم هو منقوض أيضاً ببعض روايات الشيعة أنفسهم، فعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قال: « قلت له: ما منزلتكم ومن تشبهون ممن مضى؟ قال: صاحب موسى وذو القرنين كانا عالمين ولم يكونا نبيّين » (٣).

فهذه الرواية تعكس ما ذكره من تفضيل الأئمة على الأنبياء عليهم السلام، فمن المعلوم أن قدر ذي القرنين ويوشع بن نون دون قدر أولي العزم من الرسل، ودون قدر باقي الأنبياء، حتى اختلف العلماء في نبوتهم ﷺ.

ويرى الدكتور القفاري أن هذا المذهب من آثار فرقة هالكة بائدة من فرق الشيعة، تذهب إلى تفضيل علي بن النبي الخاتم سيدنا محمد ﷺ، يقال لها (العلبائية) وهم أصحاب العلباء بن ذراع الدوسي، أو الأسدي، كان يقول بدم سيدنا محمد ﷺ، ويزعم أنه بعث ليدعو إلى علي فدعا إلى نفسه (٤).

= « وأئمتنا الاثنا عشر عليهم السلام أفضل من جميع الأنبياء باستثناء خاتم الأنبياء ﷺ، ولعل أحد أسباب ذلك أن اليقين لديهم أكثر ». انظر الدكتور القفاري.

(١) العاملي علي بن يونس العاملي (ت ٨٧٧): الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم (١/٢١٠). المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، بتحقيق محمد باقر البهبودي (١٣٨٤هـ).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٢٨/٢٦).

(٣) أصول الكافي (١/٣٢٥)، كتاب الحجّة باب في أنّ الأئمة بمن يشبهون ممن مضى وكراهية القول فيهم بالنبوة.

(٤) انظر: الملل والنحل (١/١٧٥)، وانظر: رجال الكشي (ص ٥٧١)، إلا أنه سماها: العلبائية: بحار الأنوار (٣٠٥/٢٥).

ولعل من بقايا هذه الفرقة البائدة ما ينسبه العوام إلى الشيعة أنهم يقولون بأن وحي السماء الأمين جبريل كان عليه أن ينزل على علي، فناة وأخطأ ونزل على سيدنا محمد ﷺ! وهو هراء لا يستحق الوقوف عنده، وما أظن أحداً ينسب إلى الإسلام يقول به، ويكفي في ردّ وسوسته قوله تعالى عن جبريل ﷺ: ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿٢٥﴾ [التكوير: ١٩ - ٢٥].

وقد أجمع أهل القرون الثلاثة على تفضيل الأنبياء على من سواهم (١). قال تعالى: ﴿ تِلْكَ أَرْسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقال: ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩]، فبدأ سبحانه بذكر النبيين، ويين سبحانه أنه اصطفاهم واختارهم وأنهم خيار البشر فقال: ﴿ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ ﴾ [ص: ٤٦، ٤٧].

ولم يذكر ﷺ الإمامة ولا الأئمة الاثني عشر ولا غيرهم بأي آية من القرآن الكريم. فإن قال الشيعة: إن أسماء الأئمة قد ذكرت في القرآن ثم حذفت - وقد قال بعضهم ذلك كما سنرى - فإن لنا معهم حينها حديث آخر.

كتب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

« صحف إبراهيم ﷺ، وكانت عشرين صحيفة، وصحف إدريس ﷺ وكانت ثلاثين، وصحف شيث (ابن آدم) وكانت خمسين، كما روي ذلك كله عن أمير المؤمنين ﷺ » (٢).

وعن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ: قلت: يا رسول الله! كم أنزل الله تعالى من كتاب، قال: « مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة، وأنزل التوراة والإنجيل والزيور والفرقان » (٣).

(١) مختصر الصواعق (ص ١٨٦، ١٨٧). وانظر الدكتور أحمد القفاري: مذهب الشيعة..

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١١٦).

(٣) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٣٠) عن كتاب الحवाल.

هل من الممكن شرعاً استمرار الوحي الإلهي بعد ختم النبوة:

جاء في روايات الأئمة التأكيد على ختم النبوة بسيدنا محمد ﴿.. رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ..﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وختم الكتب الإلهية بالقرآن الكريم: عن محمد الباقر أبي جعفر وجعفر الصادق أبي عبد الله: «لقد ختم الله بكتابكم الكتب، وختم بنبِيِّكم الأنبياء» (١). وقد جاء في بحار الأنوار ووسائل الشيعة ما يؤيد هذا من قول النبي ﷺ: «يا أيها الناس! لا نبي بعدي، ولا أمة بعدكم» (٢). وقوله: «أيها الناس لا نبي بعدي، ولا سنة بعد سنتي» (٣).

ولكن مع ذلك جاءت نصوص بعض علماء الشيعة لتعلن إمكانية اتصال الأرض بالسماء مرة أخرى، يقول الزيدي: «بيد أن ختم النبوة لا يعني قطع علاقة الهداية تماماً بين الله والعباد، فإن الله تعالى يفيض من العلوم الغيبية لبعض عباده الصالحين متى رأى المصلحة تقتضي ذلك، وإن لم يكن ذلك عن طريق وحي النبوة، وكما يعتقد الشيعة بأن أمثال هذه العلوم قد أفاضها الله على الأئمة المعصومين» (٤).

وهذا الذي يزعمون أنه أفاضه الله على الأئمة صار بعد ذلك كتباً خاصة بالأئمة، وصار لها أشكال وأنواع وألوان! فعندما يذكر شير صحف الأنبياء يذكر بعدها بعنوان مستقل (كتب آل محمد) (٥). مما يدل على تقديسهم لهذه الكتب باعتبارها وحيًا من الله تعالى! فيذكرون منها «الجامعة... صحيفة طولها سبعون ذراعًا بذراع رسول الله وإملائه... الجفر الأبيض الذي عندنا زبور داود وتوراة موسى وإنجيل عيسى، وصحف إبراهيم والحلال والحرام، ومصحف فاطمة ؑ...» (٦).

وهناك عدة روايات تؤكد وجود هذه الكتب، ونكتفي منها بهذه الرواية (٧):

- (١) أصول الكافي (٢٣١/١) كتاب الحجّة، باب الفرق بين الرسول والنبّي والمحدّث.
- (٢) المجلسي: بحار الأنوار (٣٨٢/٢١)، العاملي: وسائل الشيعة (٢٣/١)، ورواه أهل السنة، انظر: صحيح ابن حبان (١٩٥/١٥)، والهيتمي: مجمع الزوائد (٢٦٣/٨).
- (٣) المجلسي: بحار الأنوار (٤٧٥/٢٢)، العاملي: وسائل الشيعة (٣٣٧/٢٨).
- (٤) محمد تقي مصباح الزيدي: دروس في العقيدة (ص ٣١٨).
- (٥) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١١٧).
- (٦) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١١٧، ١١٨).
- (٧) راجع لمزيد من الروايات: الفصل الثاني: مصادر تلقي العقيدة: مبحث نظرية اختصاص أئمة أهل البيت بعلوم الوحي.

عن أبي عبيدة قال: سأل أبا عبد الله عليه السلام بعض أصحابنا عن الجفر؟ فقال: هو جلد ثور مملوءٌ علمًا. قال له: فالجامعة؟ قال: تلك صحيفةٌ طولها سبعون ذراعًا في عرض الأديم مثل فخذ الفالج فيها كلُّ ما يحتاج الناس إليه، وليس من قضيةٍ إلا وهي فيها حتى أُرش الخدش، قال: فمصحف فاطمة عليها السلام؟ قال فسكت طويلًا ثم قال: إنكم لتبحثون عما تريدون وعما لا تريدون. إن فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسةً وسبعين يومًا وكان دخلها حزنٌ شديدٌ على أبيها، وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها فيحسن عزاءها على أبيها ويطيب نفسها ويخبرها عن أبيها ومكانه ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة عليها السلام « (١).

وهذه الأخبار من روايات الأئمة التي تفيض بها كتب الحديث الاثني عشرية لا تعني وجود هذه الكتب بيد الشيعة اليوم، بل إنها كتب لا وجود لها، ولا يعرفها خواص الشيعة ولا عوامهم، ولا حاجة للناس إليها، بل هي مزاعم لا دليل عليها، وغاية ما يقولونه عنها: إنها عند المهدي المنتظر قائم الزمان، وهيئات وقد فات لغيابه حتى الآن ما يقارب ألفًا ومائتي عام، فلينتظروا إنا منتظرون.

ووجوب الإيمان بهذه الكتب، التي تدعي بعض الروايات احتواءها على تشريعات فقهية خاصة، وعلوم غيبية، وعدّها من وحي الله يبطل عقيدة ختم النبوة.

- فإما أن تكون هذه الكتب كلها أو بعضها من إماء النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة وعلي، فهي تنقض صفة واجبة من صفات الأنبياء، وهي وجوب التبليغ، قال تعالى: ﴿يَأْتِيَنَّكَ الرُّسُولُ بِبَلِيغٍ مَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٧]. وخصوصًا إذا كان هذا الوحي في مسائل التشريع الفقهي الذي يحتاجه الناس. فكيف تحمل هذه الكتب تشريعات خاصة - على حد قول الرواية: (فيها كلُّ ما يحتاج الناس إليه وليس من قضيةٍ إلا وهي فيها حتى أُرش الخدش) - ولا تشريع بعد موت النبي لقوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا..﴾ [المائدة: ٣] ١٩.

- وإما أن تكون هذه الكتب قد كتبت بعد انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى،

(١) أصول الكافي (٢٩٧/١) باث فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام. قال محقق أصول الكافي: والحديث صحيح. وورد قريبًا منه في كتاب الحجّة، باب مولد الزهراء فاطمة (٥٣٠/١). نص المحقق على صحته.

فهي تعني أن نزول جبريل بالوحي والغيوب بعد النبي جائز وممكن، وهو ما تضمنته الرواية: « وكان جبرئيل عليه السلام يأتيها... ويخبرها بما يكون بعدها في ذريتها، وكان علي عليه السلام يكتب ذلك فهذا مصحف فاطمة عليها السلام » (١). وهذا مستحيل؛ لأن الوحي اتصال الأرض بالسماء، فكيف يستمر هذا الاتصال لمعرفة الغيب بعد وفاة النبي، وقد قال تعالى: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن أَرَادَ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ۝ لِّيَعْلَمَ أَن قَدِ ابْتَلَعُوا رِيسَمَنَا وَحِطَّ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَخْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٨]؟! ثم لو فتحت هذه الدعوى؛ لادعى من شاء من الناس ما شاء من نزول جبريل عليه وإخباره بالغيوب (٢).

* * *

(١) أصول الكافي (٢٩٧/١) باب فيه ذكر الصحيفة والجفر والجامعة ومصحف فاطمة عليها السلام، وانظر: كتاب الحججة، باب مولد الزهراء فاطمة (٥٣٠/١). نص المحقق على صحته.

(٢) ونحن لا نتحدث عن بعض ما يستأنس به بعض العارفين بطريق الرؤيا المنامية أو الفراسة، فهذا واقع تؤيده السنة النبوية، كحديث: « الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة » متفق عليه رواه البخاري ومسلم، وحديث: « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » أخرجه الترمذي بسند ضعيف، ولكن الرؤيا الصالحة والفراسة لا تفيدان حكمًا فقهيًا شرعيًا ولا خبرًا يقينيًا حقيقيًا. إنما تفيدان الاستئناس لصاحبهما.

الْبَحْثُ الرَّابِعُ

الإيمان بالملائكة ﷺ



« يجب العلم بملائكة الله تعالى، حسب ما ورد في الكتاب والسنة، من أنهم أجسام على ضروب مختلفة، وأقسام متفاوتة، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١]، ومنهم الأكاير الأربعة: جبريل وميكائيل اللذان تكرر ذكرهما في القرآن، وإسرافيل وعزرائيل تكرر ذكرهما في الحديث «^(١). وأن «منهم سجود لا يركعون، وركع لا ينتصبون... ومنهم أمناء وحيه»^(٢).

ومن أصناف الملائكة حملة العرش والحاقون حوله كما قال تعالى: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ أَتَجَابِلُهَا وَيَجْمَلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ نَّازِلِينَ﴾ [الحاقة: ١٧]، وقال سبحانه: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَاتٍ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ..﴾ [الزمر: ٧٥] «^(٣).

ومن أصناف الملائكة: الحفظة الذين يحرسون الإنسان، فعن أمير المؤمنين علي عليه السلام: «إنه ليس من عبد إلا وله من الله حافظ وواقية، معه ملكان يحفظانه من أن يسقط من رأس جبل أو يقع في بحر، فإذا نزل القضاء خليا بينه وبين كل شيء»^(٤). قال محقق أصول الكافي: «إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لَمْ مَعْقَبَتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]»^(٥).

وتذكر الروايات ملك الموت وتفصل القول فيه، وقد وصفت الروايات الاثنا عشرية ملك الموت بوصف قريب مما وصفته كتب أهل السنة.

إذ تذكر إحدى الروايات: «قال إبراهيم الخليل عليه السلام لملك الموت: هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض فيها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك، قال: بلى، قال: فأعرض

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١١٣).

(٢) محمد هويدي: التفسير المعين للواعظين والمتعظين (ص ٤٤٦)، (ط ١)، (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م).

(٣) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١١٣).

(٤) أصول الكافي (٦٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب فضل اليقين. قال محققه: والحديث حسن.

(٥) أصول الكافي (٦٥/٢) حاشية رقم (٢).

عني، فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجل أسود، قائم الشعر، منتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخره لهيب النار والدخان، فغشي على إبراهيم ثم أفاق، فقال: لو لم يلق الفاجر عند موته إلا صورة وجهك لكان حسبه» (١).

وقال الصادق عليه السلام: « قيل لملك الموت عليه السلام: كيف تقبض الأرواح وبعضها في المغرب وبعضها في المشرق في ساعة واحدة؟ فقال: أَدْعُوها فتجيبني، قال: فقال ملك الموت عليه السلام: إن الدنيا بين يدي كالقصعة بين يدي أحدكم يتناول منها ما شاء، والدنيا عندي كالدرهم في كف أحدكم يقبله كيف يشاء» (٢).

وكذلك تذكر روايات الشيعة والسنة وجود ملك يسد الإنسان، ويحارب به لمة الشيطان: عن الإمام الصادق قال: « ما من قلب إلا وله أذنان، على إحداهما ملك مرشد، وعلى الأخرى شيطان مفتن، هذا يأمره وهذا يجره، الشيطان يأمره بالمعاصي والملك يجره عنها، وهو قول الله ﷻ: ﴿ إِذْ يُلْقَى الْمَلَائِكَةُ عَنِ اليمينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۗ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۗ ﴾ [ق: ١٧، ١٨] » (٣).

ويعتقد الشيعة أن خلق الملائكة مستمر، وبطريقة ذكرها الباقر: « إن في الجنة نهراً يغمس فيه جبرائيل كل غداة، ثم يخرج منه فينتفض، فيخلق الله تعالى من كل قطرة تقطر ملكاً » (٤).

الرد على من ادعى أن الملائكة هي القوى العاملة:

وقد رد شبر على بعض مفلسفي النبوة وحقيقة الملائكة، حيث زعموا أن الملائكة هي القوى العاملة، وبهذا لا يكون لها الماهية والشخصية المستقلة التي ذكرها القرآن الكريم، يقول شبر: « ليست الملائكة أيضًا القوى العاملة التي في النفوس كما قد يقولونه، بل جبريل عليه السلام ملك منفصل عن الرسول، يسمع كلام الله من الله وينزل به على رسول الله ﷺ، كما دل على ذلك النصوص والإجماع من المسلمين، وهؤلاء يقولون:

(١) المجلسي: بحار الأنوار (١٤٣/٦).

(٢) من لا يحضره الفقيه - الشيخ الصدوق (١٣٤/١) طبعة (٢) جماعة المدرسين قم (١٤٠٤ هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري. وانظر: حق اليقين (ص ٣٦٥).

(٣) أصول الكافي (٢٦٢/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أن للقلب أذنين ينفث فيهما الملك والشيطان. قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١١٥) عن الكافي.

إن جبريل هو العقل الفعال أو هو ما يتخيل في نفس النبي ﷺ من الصور الخيالية، وكلام الله ما يوجد في نفسه كما يوجد في نفس النائم. وهذا مما يعلم كل من له علم بما جاء به الرسول أنه من أعظم الأمور تكذيباً للرسول، ويعلم أن هؤلاء أبعد عن متابعة رسول الله ﷺ من كفار اليهود والنصارى» (١).

والحقيقة أنه في كل زمان يأتي من يحاول أن يقرب معاني الغيب للبشر دون دليل أو ضابط، فيلجأ إلى التأويل، فتزل قدمه به، وينقلب على عقبه، كمن ادعى أن مشاركة الملائكة في تثبيت النبي ﷺ وجهاد المشركين إنما هو ترميز للروح المعنوية! مع أن الروح المعنوية لا تعد بعدد، بخلاف أشخاص الملائكة الذين قال الله عنهم: ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَوْى مُدِّكُمْ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ ﴾ [الأنفال: ٩]. وقال: ﴿ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُدِّدَكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴾ ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥].

وبدل أن نؤول حقيقة الملائكة فنبعد عن الإحساس بوجودهم وحقيقتهم؛ فإن الإرشاد النبوي يريد منا أن نتمتع بالشعور المرهف لنحس بوجود ذوات الملائكة معنا، فتأدب معهم ونكرمهم، فعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: « إن الله ينهاكم عن التعري، فاستحيوا من ملائكة الله الذين لا يفارقونكم إلا عند ثلاث حالات: الفائط والجنابة والغسل، فإذا اغتسل أحدكم بالعراء فليستتر بثوبه أو بجذمة حائط أو ببيعه» (٢).

المسحة الشيعية في بعض الروايات المتعلقة بالملائكة الكرام:

تظهر المسحة الشيعية في بعض الروايات التي ينقلها الشيعة في حق الملائكة الكرام: - فتذكر إحدى الروايات أن قسمًا خاصًا من الملائكة قد خلق من وجه علي عليه السلام، فقد رواه عن رسول الله ﷺ أنه قال: « خلق الله من نور وجه علي بن أبي طالب سبعين ألف ملك، يستغفرون له ولحبيه إلى يوم القيامة » (٣).

- وتذكر رواية أخرى أن هناك ملك يختص بتسديد الأئمة وهو أعظم من جبريل: عن أبي بصير قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢/ ٥٣٧، ٥٣٨).

(٢) رواه البزار، ورجاله ثقات كما ذكر الهيثمي: مجمع الزوائد (١/ ٢٦٨). جذمة حائط: أصل جدار.

(٣) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة (ص ٨٩).

أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ ﴿ [الشورى: ٥٢] قال: خلق من خلق الله ﷻ أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ يخبره ويسدده، وهو مع الأئمة من بعده «^(١)»، وفي رواية صححوها: «وهو من الملكوت». وفي رواية أخرى محسنة: «لم يكن مع أحدٍ مِّن مضي [أي من الأنبياء] غير محمدٍ ﷺ، وهو مع الأئمة يسددهم»^(٢).

- وتقرر إحدى الروايات أن الملائكة تدخل على الأئمة، ولها زغب يظهر للناس، عن أبي حمزة الثمالي قال: دخلت على علي بن الحسين ﷺ، فاحتبست في الدار ساعة ثم دخلت البيت وهو يلتقط شيئاً وأدخل يده من وراء الستر فنأوله من كان في البيت، فقلت: جعلت فداك هذا الذي أراك تلتقطه أي شيء هو؟ فقال: فضلة من زغب الملائكة نجمة إذا خلونا نجعله سيحاً لأولادنا. فقلت: جعلت فداك! وإنهم ليأتونكم؟! فقال: يا أبا حمزة! إنهم ليزاحموننا على تكأتنا «^(٣)».

- ومن الغريب المستنكر الذي جاءت به بعض روايات الاثني عشرية من إنقاص قدر الملائكة الكرام جبريل وما دونه، من أجل المغالاة بقدر الأئمة رضوان الله عليهم، إذ توضّح إحدى الروايات أن من وظائف الملائكة خدمة الأئمة: «إن الملائكة لخدّامنا وخدّام محبينا»^(٤). بل تذكر أن «جبرائيل دعا أن يكون خادماً للأئمة، قالوا: فجبريل خادماً»^(٥).

- وإذا كان القرآن قد ذكر سبق خلق الملائكة وتسيبهم، لخلق آدم وذريته، فإن الصدوق يروي في (إكمال الدين) عن الرضا: «وكيف لا نكون أفضل من الملائكة وقد سبقناهم إلى التوحيد ومعرفة ربنا ﷻ وتسيبته وتقديسه وتهليله؟ لأن أول ما خلق الله تعالى أرواحنا فأنطقنا بتوحيده وتمجيده، ثم خلق الملائكة، فلما شاهدوا أرواحنا نوراً

(١) أصول الكافي (٣٢٩/١) كتاب الحجّة باب الروح التي يسد بها الأئمة. قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٣٢٩/١) كتاب الحجّة باب الروح التي يسد بها الأئمة. قال محققه: والحديث حسن.

وقال: «(وليس كل ما طلب وجد): أي بل هو فضل من الله يؤتیه من يشاء».

(٣) أصول الكافي (٤٥٨/١، ٤٥٩) كتاب الحجّة باب أنّ الأئمة تدخل الملائكة بيوتهم وتطأ بسطهم

وتأتيهم بالأخبار ﷺ. قال محققه: والحديث صحيح.

(٤) بحار الأنوار (٣٣٥/٢٦)، ابن بابويه، إكمال الدين (ص ١٤٧)، عيون أخبار الرضا (٢٦٢/١)،

علل الشرائع (ص ١٣).

(٥) بحار الأنوار (٣٤٤/٢٦، ٣٤٥)، إرشاد القلوب (ص ٢١٤)، كنز جامع الفوائد (ص ٤٨٣).

واحدًا استعظموا أمرنا فسبحنا، فتعلم الملائكة أنا خلق مخلوقون، وأنه منزه عن صفاتنا، فسبحت الملائكة لتسبحنا» (١). وتقول رواية أخرى: «وكانت الملائكة لا تعرف تسبيحًا ولا تقديسًا من قبل تسبيحنا وتسبيح شيعتنا» (٢).

- بل قد أعطى المجلسي أسماء الملائكة ووظائفهم إلى الأئمة، فعقد المجلسي بابًا بعنوان: «باب أنهم ﷺ الصافون والمستحون، وصاحب المقام المعلوم، وحملة عرش الرحمن، وأنهم السفارة الكرام البررة» (٣).

وهذا خلاف ما عليه أئمة التفسير، حتى من الشيعة أنفسهم. يقول مغنية في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٦﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ ﴿١٦٧﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٨﴾ [الصافات: ١٦٤ - ١٦٦] في تفسيره (التفسير المبين): «هذا من كلام الملائكة يردون على من قال: لله بنات من الملائكة» (٤).

- وتؤكد بعض الروايات أن حياة الملائكة موقوفة على الأئمة والصلاة عليهم؛ لأنه «ليس لهم طعام ولا شراب إلا الصلاة على علي بن أبي طالب ومحبيه، والاستغفار لشيعته المذنبين» (٥). في حين نص القرآن أنهم يستغفرون لجميع المؤمنين على وجه الأرض، قال تعالى: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ قَوْفِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ أَلَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٠﴾ [الشورى: ٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْعَرَضَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧٧﴾ [غافر: ٧]

ولا مجال للمقارنة بين هذه الروايات التي تضع من قدر الملائكة، وكلام الله تعالى الذي يرفعهم إلى مقام سامق؛ حيث يقول عنهم: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿١٧٠﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿١٧١﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿١٧٢﴾ [الأنباء: ٢٦ - ٢٨].

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٥٠).

(٢) جامع الأخبار لابن بابويه (ص ٩)، بحار الأنوار (٣٤٤/٢٦).

(٣) بحار الأنوار (٨٧/٢٤).

(٤) محمد جواد مغنية: التفسير المبين (ص ٥٩٦)، (ط ٢).

(٥) بحار الأنوار (٣٤٩/٢٦).

أن الملائكة ﷺ كانت تسبح الله وتقدس له قبل أن يعرف الأئمة، وقبل أن يذكروا، بل قبل خلق آدم أبي البشر ﷺ: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٣٠].

- ويتناقل في أوساط الشيعة وعلى السنة قصاصهم رواية تتحدث عن تقصير ملك اسمه فطرس: عن أبي جعفر ﷺ قال: لما ولد الحسين ﷺ هبط جبرئيل في ألف ملك يهنون النبي بولادته، وكان ملك يقال له (فطرس) في جزيرة من جزائر البحر بعثه الله في أمر من أموره فأبطأ عليه، فكسر جناحه وأزاله عن مقامه، وأهبطه إلى تلك الجزيرة، فمكث فيها خمسمائة عام، وكان صديقاً لجبرئيل، فلما مضى قال له: أين تريد؟ قال له: ولد للنبي مولود في هذه الليلة، فبعثني الله في ألف ملك لأهنته. قال: احملني إليه لعله يدعو لي. فلما أدى جبرئيل الرسالة ونظر النبي إلى فطرس، قال له: يا جبرئيل، من هذا؟ فأخبره بقصته فالتفت إليه رسول الله ﷺ فقال: امسح جناحك على المولود. يعني الحسين ﷺ، فمسح جناحه فعاد إلى حالته، فلما نهض قال له النبي ﷺ: « الزم أرض كربلاء وأخبرني بكل مؤمن رأيت زائراً إلى يوم القيامة ». قال: فذلك الملك يسمى (عتيق الحسين ﷺ) (١).

وهذا الاعتقاد في الملائكة مخالف لقوله تعالى: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦] ولقوله: ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٩، ٢٠].

ويظهر أن هذه الروايات من صنع الغلاة، فقد حاربها وأمثالها الحلبي، حيث قال عن الملائكة: « معصومون، لقوله تعالى: ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحریم: ٦]. وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]. وقوله تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ .. ﴾ [البقرة: ٣٠]. وهذا يدل على أنهم بخلاف ما وصفوا به غيرهم من الفساد وتعمد المعاصي أجمع. وما روي في بعض الأخبار من ضد ذلك، وكذلك ما تضمنته قصة هاروت وماروت فقد صرف

(١) محمد بن جرير بن رستم الطبري (الشيعة): دلائل الإمامة (ص ١٩٠)، مؤسسة البعثة قم (١٤١٣)، (ط ١). تحقيق قسم الدراسات مؤسسة البعثة، وذكر المحققون أن الخبر في: عيون المعجزات (٦٨)، ونحوه في روضة الواعظين (١٥٥).

ذلك عن الظاهر إلى ضرب من التأويل»^(١). قال رضا الأستاذي معلقاً على هذا النص: «كقصة فطرس وأشباهاها».

ولكن القصة وردت في (كامل الزيارات لابن بابويه القمي)^(٢)، ورددتها الشيعة في كثير من كتبهم التي يتناقلها أتباعهم^(٣)، تحت مسمى كرامات الأئمة، وكأنهم عند ذكر الأئمة وكراماتهم ينسون ما قرروه في كتب العقيدة من عصمة الملائكة ﷺ!!.

* * *

(١) المحقق الحلبي: المسلك في أصول الدين، وتليه الرسالة الماتعية (ص ٢٨٥، ٢٨٦). مؤسسة الطبع والنشر في الآستانة الرضوية المقدسة (١٤١٤ هـ)، تحقيق رضا الأستاذي.

(٢) (ص ٦٦).

(٣) دلائل الإمامة، لابن رستم الطبري (ص ١٩٠)، وعيون المعجزات (٦٨)، وروضة الواعظين (١٥٥).

الْمَبْحَثُ الْخَامِسُ القضاء والقدر



مفهوم القضاء والقدر:

القدر لغة: مقدار الشيء وحالاته المقدرة، ووقت الشيء أو مكانه المقدر له.
والقضاء لغة: الحكم والأداء، وجميع معانيه اللغوية ترجع إلى معنى انقطاع الشيء وتمامه (١).

وقد ساق المفيد معنى القضاء في اللغة: « على أربعة أضرب: الخلق والأمر والإعلام والفصل بالحكم (٢) ثم ساق الأمثلة على هذه المعاني الأربعة: فالأول كقوله تعالى: ﴿ فَفَضَّهِنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢] أي خلقهن، ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: أمر، ﴿ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لِنُفْسِدَنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنٍ وَلِنَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴾ [الإسراء: ٤] أي: أعلمنا ﴿ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [غافر: ٢٠] أي يفصل بالحكم.

أما شرعاً: فهناك شبه اتفاق بين أهل العلم على معنى القضاء والقدر بشكل مجمل، فهما علم الله تعالى بالأشياء منذ الأزل، ثم التصرف فيها بإيجاداً أو إعداماً بإرادته وقدرته تعالى على وفق علمه القديم بها، فأحدهما يستند إلى صفة العلم القديم، والثاني إلى صفتي الإرادة والقدرة. قال تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ۗ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَجْدَةٌ كَمَتِّجٍ بِالْبَصْرِ ﴾ [القم: ٤٩، ٥٠]، وأفهم من الآية الأولى علم الله بمقادير الأشياء في الأزل، ومن الآية الثانية تصرفه بالأشياء بإرادته وقدرته.

ومع وضوح المعنى الإجمالي للكلمتين فقد وقع خلاف بين أهل العلم في أيهما هو صاحب المعنى الأول، وأيها صاحب المعنى الثاني؟ فقد قال الجرجاني في التعريفات:

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور (٣٥٤٧/٥، ٣٦٦٥)، والمصباح المنير للفيومي (ص ١٨٧، ١٨٨ - ١٩٣)، والمعجم الوسيط (٧٤٥/٢، ٧٧١، ٧٧٢) مادتي (ق در / ق ض ي).
(٢) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٣٩).

« والفرق بين القدر والقضاء هو أن القضاء وجود (١) جميع الموجودات في اللوح المحفوظ مجتمعة، والقدر وجودها متفرقة في الأعيان بعد حصول شرائطها » (٢).

وقد « اختلف الأشاعرة والماتريدية في كل من القضاء والقدر، فقال الأشاعرة: القدر إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين أرادته تعالى، فهو عبارة عن الإيجاد عندهم، وهو من صفات الأفعال، وقال الماتريدية: القدر هو تحديد الله أزلًا كل مخلوق بحده الذي يوجد عليه من حسن وقبح ونفع وضرر، إلى غير ذلك، فهو علمه تعالى أزلًا بصفات المخلوقات، وهو عندهم راجع لصفة العلم وهي من صفات الذات، وأما القضاء عند الأشاعرة: فقالوا هو إرادة الله الأشياء في الأزل على ما هي عليه فيما لا يزال، فهو من صفات الذات، وعند الماتريدية هو إيجاد الله الأشياء مع زيادة الأحكام والإتقان، فهو راجع إلى صفات الأفعال، وعلى هذا يكون القدر عند الأشاعرة حادث، والقضاء قديم، وعلى العكس الماتريدية » (٣).

والظاهر أن الرأي الذي يراه الشيعة في التفريق بينهما قريب من رأي الماتريدية، قال اليزيدي: « لفظة القدر بمعنى المقدار والتقدير، يعني قياس الشيء وجعله على مقدار... ولفظة القضاء بمعنى الإتمام والفراغ من الشيء أو الأداء والحكم... وأحيانًا تستعمل كلتا الكلمتين بمعنى مترادف حيث يستعملان في معنى المصير... »

وعلى ضوء هذا التفسير تكون مرحلة التقدير متقدمة على مرحلة القضاء؛ حيث تكون للتقدير مراحل تدريجية مشتملة على مقدمات بعيدة ومتوسطة وقريبة، ويتعرض التقدير للتغير بتغير بعض الأسباب والشروط... وأما مرحلة القضاء فهي دفعية ليست تدريجية، ومرتبطة بتوفر كل الأسباب والشروط، وهي أيضًا حتمية لا تقبل التغير:

(١) التعبير بكلمة وجود لا يعني أن القضاء والقدر لا ينطبق على غيرها من الممكنات كالإعدام، لأن الإرادة الإلهية ليست مخصصة للوجود فقط، وإنما للممكنات الست، وربما قصد من ذكر الوجود التمثيل بأهم الممكنات الست التي هي الوجود والعدم والجهات والأزمنة والصفات والمقادير، كما قيل:

الممكنات المتقابلات	وجودنا والعدم الصفات
أزمنة أمكنة جهات	كذا المقادير روى الشقات

انظر: الأستاذ الدكتور الخن رحمه الله تعالى: مبادئ العقيدة الإسلامية (ص ١٤٤).

(٢) الجرجاني: التعريفات (ص ٢٢٠).

(٣) شرح جوهره التوحيد للشينخ الباجوري (ص ٢٣٩، ٢٤٠)، مؤسسة أنس بن مالك للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

﴿ وَإِذَا قَضَيْتَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧، آل عمران: ٤٧، مريم: ٣٥] ^(١). وبناء على هذا، فالقدر بمنزلة مخطط البناء، والقدر بمنزلة إقامة البناء، كما ورد في أحد الروايات عن الإمام الرضا: « يا يونس... فتعلم ما القدر؟ قلت: لا، قال: هي الهندسة ووضع الحدود من البقاء والفناء. قال: ثم قال: والقضاء هو الإبرام وإقامة العين » ^(٢). « والقضاء من الله تعالى أخص من القدر؛ لأنه الفصل بين التقدير، فالقدر ما لم يكن قضاء فمرجو أن يدفعه الله، فإذا قضى فلا مدفع له » ^(٣).

ولعل رأي الماتريدي والاثني عشرية أقرب - عندي - إلى الحق، ذلك أن معنى كلمة القضاء يدل على الحتم كما ورد في مختار الصحاح؛ ولذلك سمي حكم القاضي قضاء، حيث لا رجعة فيه، وقال تعالى: ﴿ .. قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف: ٤١]، ﴿ وَإِذَا قَضَيْتَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧]. مما يدل على عدم الرجوع. ولكن يرد على هذا الرأي ما ورد في سنن الترمذي من قوله ﷺ: « لا يرد القضاء إلا الدعاء، ولا يزيد العمر إلا البر » ^(٤)، وقرينا منه ما ورد عن علي عليه السلام: « إن القدر لا يرد القضاء، ولكن الدعاء يرد القضاء » ^(٥).

والجواب أن المقصود من كلمة (القضاء) في الحديث النبوي إنما هو (القدر)، فهاتان الكلمتان مترادفتان، وخصوصا إذا لم تذكر معا، ويدل على ذلك أن الإمام الترمذي الذي خرّج هذا الحديث، استبدل كلمة القدر بكلمة القضاء، في ترجمة هذا الحديث، فقال: (باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء)، مع أن الحديث الذي ترجم له لفظه: « لا يرد القضاء إلا الدعاء »!

وعلى كل فالخطب سهل، فالقضاء والقدر متلازمان لا ينفك معنى أحدهما عن

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٦٩، ١٧٠).

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين (٢٠٨/١).

(٣) انظر: حافظ عاشور: تحقيق صدق الكلام للأندكاني (ص ٤٥٢). وانظر: قضايا الخلاف لمحمود سلامة (ص ٢٤٦ - ٢٤٨).

(٤) سنن الترمذي: كتاب القدر، باب ما جاء لا يرد القدر إلا الدعاء، رقم (٢١٣٩). وقال: وفي الباب عن أبي أسيد وهذا حديث حسن غريب.

(٥) اللالكائي (هبة الله بن حسن ٤١٨ هـ): اعتقاد أهل السنة (٤/٦٦٦). دار طيبة، الرياض (١٤٠٢ هـ)، تحقيق د. أحمد سعد حمدان.

معنى الآخر^(١)، والإيمان بمضمونهما واجب، وهو ركن أساس من أركان الإيمان، ففي حديث جبريل عليه السلام: .. قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: « أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره »^(٢).

وعن ابن الديلمى قال: وقع في نفسي شيء من القدر، فأتيت زيد بن ثابت رضي الله عنه فسألته فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « لو أنّ الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيراً من أعمالهم، ولو كان لك جبل أحد أو مثل جبل أحد ذهباً أنفقته في سبيل الله ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر وتعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وأنك إن متّ على غير هذا دخلت النار »^(٣).

فهذا المعنى هو الذي يجب الإيمان به، أن « تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك »، سواء أسمىناه قدرًا أو قضاءً هو الذي أكّده القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].
ولذلك قال اللقاني:

وواجبٌ إيماننا بالقدر وبالقضاء كما أتى في الخبر^(٤)

الحكمة من الإيمان بالقضاء والقدر:

إن لفت الناس إلى فوائد مفردات العقيدة من الأمور المستحسنة، وقد ذكر اليزدي شيئاً من حكم الإيمان بالقضاء والقدر فقال: « من يؤمن بأن حدوث الحوادث خاضع لإرادة الله الحكيمة ومستند إلى التقدير والقضاء الإلهي لا يخشى الأحداث المؤلمة ولا ينهار أمامها، ولا يتملكه الجزع واليأس... وكذلك لا تشده ولا تخدعه ملذات الحياة وأفراحها، ولا يصيبه الغرور والخيلاء بها، ولا يتخذ النعم الإلهية سلماً للتفاخر

(١) انظر: قضايا الخلاف لمحمود سلامة (ص ٢٤٦ - ٢٤٨)، وحافظ عاشور: تحقيق صدق الكلام للأندكاني (ص ٤٥٢).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، بيان الإسلام والإحسان، رقم (٩).

(٣) مسند أحمد، من حديث زيد بن ثابت، رقم (٢٠٦٢٦)، وهو مروى أيضاً عن أبي بن كعب، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه. وهو حديث صحيح.

(٤) الجوهرية مع شرح الشيخ الباجوري (ص ٢٣٧).

والاستعلاء. إن هذه المعطيات القيمة هي التي تشير إليها الآية الشريفة: قال تعالى: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣] (١).

الجدال في القدر:

ظهر الجدل في القدر في عهد متقدم في حياة المسلمين، فقد احتج به المشركون في العهد المكي، قال تعالى: ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمًا مِنْ شَيْءٍ كَذَبَ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨، ١٤٩].

وفي العهد المدني كان للصحابة الكرام في القدر كلام وجدال، فعن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضي الله عنه قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفتقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: « بهذا أمرتم أو لهذا خلقتكم؟! تضربون القرآن بعضه ببعض؟ بهذا هلك الأمم قبلكم ». قال فقال عبد الله بن عمرو: ما غبظت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غبظت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه (٢).

ولكن منع النبي صلى الله عليه وسلم الصحابة الكرام من التخاصم في القدر لم يمنع من أن يسأله بعض الصحابة مسائل تتعلق بالقدر، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن قيمة العمل مع وجود القدر، فقد جاء سراقه بن مالك بن جعشم، قال: يا رسول الله! بين لنا ديننا كأننا خلقنا الآن، فيما العمل اليوم؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير، أم فيما نستقبل؟ قال: « لا، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » (٣).

و « عن عمران بن حصين قال: قيل يا رسول الله! أعلم أهل الجنة من أهل النار؟ قال فقال: نعم. قال قيل: فقيم يعمل العاملون؟ قال: كلٌ ميسترٌ لما خلق له » (٤).

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٧١).

(٢) الحديث في سنن ابن ماجه (٣٣/١) باب في القدر، وانظر: سنن أبي داود والترمذي.

(٣) صحيح مسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، صحيح مسلم، رقم (٤٧٨٨).

(٤) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ =

وقد كان بعض الصحابة يمتحنون عقول التابعين في مسألة القدر، فعن أبي الأسود الدؤلي قال: قال لي عمران بن الحصين: أرايت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه؛ أشياء قضي عليهم ومضى عليهم من قدر ما سبق؟ أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقلت: بل شيء قضي عليهم ومضى عليهم. قال: فقال: أفلا يكون ظلمًا؟ قال: ففزعت من ذلك فزغًا شديدًا وقلت: كل شيء خلق الله ومملك يده، فلا يسأل عما يفعل وهم يسألون، فقال لي: يرحمك الله! إنني لم أرد بما سألتك إلا لأحزر عقلك. إن رجلين من مزينة أتيا رسول الله ﷺ فقالا: يا رسول الله! أرايت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون فيه أشياء قضي عليهم ومضى فيهم من قدر قد سبق أو فيما يستقبلون به مما أتاهم به نبيهم وثبتت الحجة عليهم؟ فقال: « لا، بل شيء قضي عليهم ومضى فيهم، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿ وَتَفْسِيرٍ وَمَا سَأَلْنَا عَنْهَا غُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس: ٧، ٨] » (١).

وتذكر روايات الاثني عشرية أن أتباع الأئمة كانوا يتساءلون عن القدر أيضًا؛ قال رجل لعلي عليه السلام: « يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، قال عليه السلام: بحر عميق فلا تلجه، قال: يا أمير المؤمنين! أخبرني عن القدر، قال عليه السلام: طريق مظلم فلا تسلكه، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، قال عليه السلام: سرّ الله فلا تكلفه، قال: يا أمير المؤمنين أخبرني عن القدر، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أما إذا أبيت فإني سألتك، أخبرني أكانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد أم كانت أعمال العباد قبل رحمة الله؟! قال: فقال له الرجل: بل كانت رحمة الله للعباد قبل أعمال العباد، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: قوموا فسلموا على أحييكم فقد أسلم وقد كان كافراً، قال: وانطلق الرجل غير بعيد، ثم انصرف إليه فقال له: يا أمير المؤمنين أبا المشيئة الأولى تقوم ونقعد ونقبض ونبسط؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: وإنك لبعث في المشيئة، أما إنني سألتك عن ثلاث لا يجعل الله لك في شيء منها مخرجًا: أخبرني أخلق الله العباد كما شاء أو كما شاؤوا؟! فقال: كما شاء، قال عليه السلام: فخلق الله العباد لما شاء أو لما شاؤوا؟! فقال: لما شاء، قال عليه السلام: يأتيه يوم القيامة كما شاء أو كما شاؤوا؟ قال: يأتيه يوم القيامة كما شاء، قال عليه السلام: قم فليس إليك من المشيئة شيء » (٢).

= [القمر: ٤٠] رقم (٦٩٩٦)، صحيح مسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه، رقم (٤٧٨٨).

(١) صحيح مسلم: كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي في بطن أمه وكتابة رزقه وأجله وعمله وشقاوته وسعادته رقم (٢٦٥٠).

(٢) الشيخ الصدوق: التوحيد (ص ٣٦٥، ٣٦٦)، وأورده في دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من =

قال الصدوق: « والكلام في القدر منهبي عنه، كما قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام »^(١). وهذا النهي في أصله نهبي نبوي، فقد ورد في مرويات أهل السنة: « إذا ذكر القدر فأمسكوا »^(٢).

فكيف نوفق إذن بين ما جاء من روايات تؤكد أن الصحابة وكذلك أتباع الأئمة كانوا يتساءلون في القدر، وهذه النصوص التي تنهى عن الخوض فيه؟ يرى المفيد أن النهي عن السؤال في القدر لم يكن عامًا، وإنما لحالات، منها:

١ - أن يكون النهي خاصًا بقوم كان كلامهم في ذلك يفسدهم.

٢ - وثانيها: « أن يكون النهي عن الكلام في القضاء والقدر النهي عن الكلام فيما خلق الله تعالى وعن علله وأسبابه »^(٣). مما يترتب عليه الاعتراض على قضاء الله وقدره. ولذلك فإن التساؤل عن القدر سائغ ما دام لم يتجاوز مجرد الاستفهام حول علاقة القدر بغيره من الأمور، كعلاقته بالعمل البشري ووجوب السعي. أما أن يصل إلى درجة محاولة معرفة كنه القدر وسرّه المكنون الذي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، فإنه منهبي عنه، كما مرّ من قول علي عليه السلام عن القدر: « سرّ الله فلا تكلفه » وكذلك ينهى عن الجدال في القدر إذا أوصل إلى حدّ إنكاره، وهو ما وقعت فيه فرقة القدرية، فالإيمان بالقضاء والقدر ركن من أركان الإيمان، ثابت في الكتاب والسنة، وهو معلوم من الدين بالضرورة.

والتاريخ يحدّثنا أن معبد الجهني (ت ٨٠ هـ) هو أول من أنكر القدر، كما ورد في روايات أهل السنة. فعن يحيى بن يعمر قال: كان أول من قال في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميريّ حاجين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوقف لنا عبد الله بن عمر بن الخطّاب [ت ٧٣ هـ] داخلًا المسجد... فقلت: أبا عبد الرحمن! إنّه قد ظهر قبلنا ناسٌ، يقرأون القرآن... وذكر من شأنهم، وأنّهم يزعمون أن لا قدر، وأنّ الأمر أنفٌ. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أنّي بريءٌ منهم، وأنّهم برآءٌ منّي، والذي يحلف به عبد الله بن عمر، لو أنّ لأحدهم مثل أحدٍ ذهبًا فأنفقه، ما قبل الله منه حتّى

= كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (ص ٢٦٢).

(١) الصدوق: الهداية في الأصول والفروع (ص ٢٠)، مؤسسة الهادي - قم (١٤١٨ هـ).

(٢) اللالكائي: اعتقاد أهل السنة (١٢٦/١).

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٤٢).

يؤمن بالقدر» (١).

وقد جاءت روايات أهل التشيع أيضًا لتحارب منكري القدر، وتسميهم بالقدرية: قال جعفر الصادق: «إن القدرية مجوس هذه الأمة، وهم الذين أرادوا أن يصفوا الله بعدله فأخرجوه من سلطانه، وفيهم نزلت هذه الآية: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعْرٍ﴾ يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر» [القمر: ٤٧، ٤٨] (٢). وقال زين العابدين علي بن الحسين: «والله لو أن عندي رجلاً من القدرية لأخذت بصليفاً رقبته، ثم لا أزال أجزها حتى أقطعها، فإنهم يهود هذه الأمة ونصاراها ومجوسها» (٣).

وعن يونس بن عبد الرحمن قال: قال لي أبو الحسن الرضا عليه السلام: «يا يونس! لا تقل بقول القدرية، فإن القدرية لم يقولوا بقول أهل الجنة، ولا بقول أهل النار، ولا بقول إبليس، فإن أهل الجنة قالوا: ﴿لَحْمَدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ..﴾ [الأعراف: ٤٣]، وقال أهل النار: ﴿رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، وقال إبليس: ﴿.. رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي..﴾ [الحجر: ٣٩]» (٤).

وتطلب الروايات من المرء الصبر والرضا مع الإيمان بالقدر، عن علي بن الحسين عليه السلام قال: «الصبر والرضا عن الله رأس طاعة الله، ومن صبر ورضي عن الله فيما قضى عليه فيما أحب أو كره، لم يقض الله سبحانه له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له» (٥). وعن أبي جعفر: إذا خرجت من بيتك فقل: «بسم الله على ديني ونفسي وولدي وأهلي ومالي» ثلاث مرات ثم قل: «اللهم بارك لنا في قدرك، ورضنا بقضائك، حتى لا نحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت» (٦).

وقد ورد في مرويات أهل السنة قريباً منه؛ عن عمر بن الخطاب عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «ما يمنع أحدكم إذا عسر عليه أمر معيشته أن يقول إذا خرج من بيته

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان، رقم (٨).

(٢) الشيخ الصدوق: التوحيد (ص ٣٨٢). وهناك أحاديث واردة عند أهل السنة تذكر القدرية أنهم مجوس هذه الأمة، ولكن لم ترق تلك الأحاديث إلى درجة القبول والصحة.

(٣) القضاة: دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (ص ٢٦٢).

(٤) أصول الكافي (٢٠٨/١) كتاب فضل التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين.

(٥) أصول الكافي (٦٦/٢): كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء، قال محققه: الحديث صحيح.

(٦) الكليني: فروع الكافي (٤٨٨/٥)..

(بسم الله على نفسي ومالي وديني، اللهم رَضني بقضائك وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت، ولا تأخير ما عجلت) « (١).

مسائل مهمة في القدر:

وإذا استثنينا مسألة الإمامة فإن مسألة القدر من أكبر المسائل جدالاً ونقاشاً بين المسلمين، وهي مسألة في صميم العقيدة، على خلاف مسألة الإمامة التي لم يجمع المسلمون على عدّها مسألة عقديّة (٢)؛ ولذلك يقول ابن أبي العز: « أكبر المسائل التي وقع فيها الخلاف بين الأمة مسألة القدر، وقد اتسع الكلام فيها غاية الاتساع » (٣)، وسنعرض لأهم المسائل التي تناولتها روايات الشيعة:

١ - تفسير العلاقة بين القدر والعمل:

عن سفيان بن عيينة عن الزهري، قال: قال رجل لعلي بن الحسين عليه السلام: جعلني الله فداك! أبقدر يصيب الناس ما أصابهم أم يعمل؟ فقال عليه السلام: إن القدر والعمل بمنزلة الروح والجسد، فالروح بغير جسد لا تحس، والجسد بغير روح صورة لا حراك بها، فإذا اجتمعا قويا وصلحا، وكذلك العمل والقدر، فلو لم يكن القدر واقعا على العمل لم يعرف الخالق من المخلوق، وكان القدر شيئا لا يحس، ولو لم يكن العمل بموافقة من القدر لم يميز ولم يتم، ولكنهما باجتماعهما قويا، ولله فيه العون لعباده الصالحين، ثم قال عليه السلام: ألا إن من أجور الناس من رأى جوره عدلا وعدل المهتدي جورا، ألا إن للعبد أربعة أعين: عينان يبصر بهما أمر آخرته، وعينان يبصر بهما أمر دنياه، فإذا أراد الله تعالى بعبده خيرا فتح له العينين اللتين في قلبه فأبصر بهما العيب، وإذا أراد غير ذلك ترك القلب بما فيه، ثم التفت إلى السائل عن القدر فقال: هذا منه، هذا منه « (٤).

وسئل الإمام الصادق عن الرقي أتدفع من القدر شيئا؟ فقال: « هي من القدر » (٥).
وروا عنه قوله: « إذا حشر الله الخلائق سألهم عما عهد إليهم، ولم يسألهم عما

(١) الطبراني: كتاب الدعاء (ص ١٤٧)، دار الكتب العلمية - بيروت (ط ١)، (١٤١٣ هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، وفي المعجم الأوسط (١٢١/٦) برواية: « خر لي في قضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أحب تعجيل ما أخرت ولا تأخير ما عجلت ... ».

(٢) حيث انفرد الشيعة بعدها من أصول العقيدة ومسائلها. أما باقي الفرق فيعدونها من مسائل الفروع الفقهية.

(٣) شرح ابن أبي العز على الطحاوية (ص ١٩٣).

(٤) الصدوق: التوحيد (ص ٣٦٦، ٣٦٧). (٥) الصدوق: التوحيد (ص ٣٨٢).

قضى عليهم» (١).

٢ - تفسير العلاقة بين المشيئة والرضا:

عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « شاء وأراد وقدر وقضى؟ قال: نعم. قلت: وأحب؟ قال: لا. قلت: وكيف شاء وأراد وقدر وقضى ولم يحب؟! قال: هكذا حَرَجَ إلينا» (٢)، وهذا النص يبين أن الأئمة كانوا يفرقون - كما هو مذهب أهل السنة - بين الإرادة والرضا (المحبة).

وهناك رواية أخرى صريحة تعبر عن التفريق بين هذه المفاهيم:

عن فضيل بن يسار قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « شاء وأراد، ولم يحب ولم يرض، شاء أن لا يكون شيء إلا بعلمه وأراد مثل ذلك، ولم يحب أن يقال: ثالث ثلاثة ولم يرض لعباده الكفر» (٣).

وتفرق الروايات أيضًا بين المشيئة والأمر، فقد يأمر الله تعالى ولا يشاء.

عن عبد الله بن سنان عن أبي عبد الله عليه السلام قال: سمعته يقول: « أمر الله ولم يشأ وشاء ولم يأمر، أمر إبليس أن يسجد لآدم وشاء أن لا يسجد، ولو شاء لسجد، ونهى آدم عن أكل الشجرة وشاء أن يأكل منها ولو لم يشأ لم يأكل» (٤).

وهناك تفريق في إحدى الروايات بين المشيئة والإرادة، فقد ورد عن الإمام الرضا قوله: « يا يونس تعلم ما المشيئة؟ قلت: لا، قال: هي الذكر الأول. فتعلم ما الإرادة، قلت: لا. قال: هي العزيمة على ما يشاء» (٥).

وعن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: « لا يكون شيء في الأرض ولا في السماء إلا بهذه الخصال السبع:

بمشيئة وإرادة وقدر وقضاء وإذن وكتاب وأجل. فمن زعم أنه يقدر على نقض واحدة فقد كفر» (٦).

(١) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٤٤).

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب المشيئة والإرادة (٢٠١/١). قال المحقق: والحديث موثق كالصحيح.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب المشيئة والإرادة (٢٠٢/١).

(٥) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين (٢٠٨/١).

(٦) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب البداء (٢٠٠/١ ، ٢٠١).

والملاحظ أن ما ورد عن أئمة الشيعة من أخبار حول الرضا والمشيئة يظهر أنهم لم يأخذوا برأي المعتزلة الذي لم يفرقوا بين الرضا والمشيئة، أو بين المحبة والإرادة، وإنما جاء مذهبهم موافقاً لرأي أهل السنة الذين يميزون بين الإرادة والرضا أو المشيئة والمحبة^(١). وعلى هذا نسج علماءهم، فهذا الشيخ الصدوق فيما روى في كتبه من روايات يثبت التفرقة بين الإرادة والرضا ويقرب من رأي الأشاعرة وغيرهم من أهل السنة، ويتعد عن مذهب المعتزلة القائلين بعدم التفرقة بينهما، فيقول بشيء من التأويل: «مشيئة الله تعالى وإرادته في الطاعات: الأمر بها والرضا، وفي المعاصي: النهي عنها والمنع منها بالزجر والتحذير»^(٢).

ومن الطريف أن أعرابياً وقف على حلقة فيها عمرو بن عبيد - شيخ المعتزلة - فقال: «يا هؤلاء إن ناقتي سرقت، فادعوا الله أن يردها عليّ». فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنك لم ترد أن تسرق ناقته فسرقت، فارددها عليه. فقال الأعرابي: لا حاجة لي في دعائك. قال: ولم؟ قال: أخاف كما أراد أن لا تسرق فسرقت، أن يريد ردها فلا ترد!»^(٣).

٣ - العلاقة بين إرادة الله وإرادة الإنسان:

يبين كتاب الاثني عشرية أنه لا تعارض بين إرادة الله - تعالى - وإرادة الإنسان؛ لأن «العلم الإلهي متعلق بكل ظاهرة بما هي عليه في الواقع، والأفعال الاختيارية معلومة لله تعالى بما هي عليه في الواقع، وبوصف اختيارياتها وإراديتها، فإذا حدثت هذه الأفعال على صفة جبرية، تكون قد تحققت على خلاف العلم الإلهي وتخلفت عنه»^(٤).

= وقال المحقق: المشيئة: العزم... الإرادة: هي تأكد العزم على المشيئة، أو تأكد المشيئة. القدر: هو التقدير، أي تقدير الأشياء من حيث مواصفاتها، إذ التقدير بعد الإرادة والعزم. القضاء: الحكم بوجوده وهو خلقه في التكوينات، وبالثواب والعقاب في التكليفات. الإذن: إما العلم أو الأمر في الطاعات أو رفع الموانع، الكتاب: إما الإتيان في اللوح المحفوظ أو الفرض والإيجاب. «انظر: مرآة المجلسي (١٥٠/٢).

(١) انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية، د. عائشة المناعي (ص ٢٦٥ - ٢٧٠).

(٢) التوحيد (ص ٣٤٦، ٣٤٧)، نشر جماعة المدرسين - قم (١٣٨٧هـ)، وترى د. عائشة المناعي أن الصدوق مضطرب في هذه المسألة بحيث ينحاز إلى المعتزلة فيرى أن الإرادة والرضا في الطاعات بمعنى واحد. انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٢٦٨). ولكن الذي أراه أن الصدوق في هذه المسألة قريب من مذهب الأشاعرة وبعيد عن رأي المعتزلة عملياً؛ لأن مشكلة التفريق بين الإرادة والرضا إنما ظهرت في المعاصي والشروط لا الطاعات.

(٣) ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية (ص ١٨١، ١٨٢).

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٦٦).

قال جعفر الصادق في رواية اتفق أهل السنة وأهل التشيع على روايتها: « إن الله تعالى أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً، فما أرادنا بنا طواه عنا، وما أرادنا منا أظهره لنا، فما بالناس نشتغل بما أرادنا بنا عما أرادنا منا؟! » (١).

وقول الإمام الصادق نقله أهل السنة في كتبهم عنه عليه السلام (٢). مما يدل على أن أئمة أهل البيت شاركوا الأمة في تثبيت بناء عقيدتها.

وقال عليه السلام: « لا جبر ولا تفويض، ولكن أمرٌ بين أمرين... مثل ذلك: رجل رأيته على معصية فنهيته فلم ينته فتركته ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية » (٣).

وفصل الصادق حال الناس مع القدر فقال: « إن الناس في القدر على ثلاثة أوجه، رجل يزعم أن الله تعالى أجبر الناس على المعاصي، فهذا قد ظلم الله في حكمه، فهو كافر، ورجل يزعم أن الأمر مفوض إليهم، فهذا قد وهن الله في سلطانه، فهو كافر، ورجل يقول: إن الله كلف العباد ما يطيقون، ولم يكلفهم ما لا يطيقون، وإذا أحسن حمد الله، وإذا أساء استغفر الله، فهو مسلم بالغ » (٤).

وذكر الجبر والتفويض عند الرضا، فقال كلاماً دقيقاً مهمّاً: « إن الله تعالى لم يطع بالإكراه، ولم يعص بالغلبة، ولم يهمل العباد في ملكه، وهو المالك لما ملكهم، والقادر على ما قدرهم عليه، فإن ائتمر العباد بطاعة الله لم يكن الله عنها صاعداً، ولا منها مانعاً، وإن ائتمروا بمعصية فشاء أن يحول بينه وبين ذلك الفعل، وإن لم يحل وفعلوه فليس هو الذي أدخلهم فيه، ثم قال عليه السلام: من يضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه » (٥).

— مشيئة العبد بمشيئة الله تعالى:

كان أمير المؤمنين عليه السلام جالساً بالكوفة بعد منصرفه من صفين إذ أقبل شيخٌ فجثا بين يديه ثم قال له: يا أمير المؤمنين! أخبرنا عن مسيرنا إلى أهل الشام أبقضاء من الله وقدر؟

(١) المحقق الداماد: اثنا عشرة رسالة (١١٨/٨).

(٢) انظر: الشهرستاني: الملل والنحل دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١٠هـ)، (١/١٦٦)، عبد الحلیم الجندي: الإمام جعفر الصادق (ص ١٤٥)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة (١٣٩٧هـ/١٩٧٧م).

(٣) الكليني: أصول الكافي (١/١٦٠) تحقيق علي أكبر غفاري. الصدوق: التوحيد (ص ٢٠٦).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٠٧).

(٥) المصدر السابق نفسه.

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أجل يا شيخ! ما علوتم تلعنة ولا هبطتم بطن وادٍ إلا بقضاءٍ من الله وقدرٍ. فقال له الشيخ: عند الله أحسب عنائي يا أمير المؤمنين! فقال له: مه يا شيخ فوالله! لقد عظم الله الأجر في مسيركم وأنتم سائرون، وفي مقامكم وأنتم مقيمون، وفي منصرفكم وأنتم منصرفون، ولم تكونوا في شيءٍ من حالاتكم مكرهين، ولا إليه مضطرين. فقال له الشيخ: وكيف لم نكن في شيءٍ من حالاتنا مكرهين ولا إليه مضطرين، وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا؟ فقال له: وتظن أنه كان قضاءً حتمًا وقدرًا لازمًا، إنه لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والأمر والتَّهْيِ والزَّجْر من الله، وسقط معنى الوعد والوعيد، فلم تكن لائمةً للمذنب ولا محمداً للمحسن، ولكان المذنب أولى بالإحسان من المحسن، ولكان المحسن أولى بالعقوبة من المذنب؟! تلك مقالة إخوان عبدة الأوثان وخصماء الرحمن، وحزب الشيطان، وقدريَّة هذه الأمة ومجوسها.

إنَّ الله تبارك وتعالى كلَّف تخييراً ونهى تحذيراً، وأعطى على القليل كثيراً، ولم يعص مغلوباً ولم يطع مكرهاً، ولم يملك مفوضاً، ولم يخلق السماوات والأرض وما بينهما باطلاً، ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثاً، ذلك ظنَّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار ^(١).

وتبين الروايات أن مشيئة الإنسان وإرادته إنما هي بمشيئة الله تعالى وإرادته، فهي تفضّل من الله تعالى على ابن آدم:

قال أبو الحسن الرضا عليه السلام: « قال الله: يا ابن آدم! بمشيئتي كنت أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء، وبقوتي أديت فرائضي، وبنعمتي قويت على معصيتي، جعلتك سميعاً بصيراً قوياً، ما أصابك من حسنةٍ فمن الله، وما أصابك من سيئةٍ فمن نفسك، وذاك أتى أولى بحسناتك منك، وأنت أولى بسيئاتك مني، وذاك أنني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون » ^(٢).

٤ - أفعال العباد، والخلاف فيها:

« إن جمهور أهل السنة يقولون: إن العبد له قدرة وإرادة وفعل، والله خالق ذلك كله كما هو خالق كل شيء، كما دل على ذلك الكتاب والسنة » ^(٣).

(١) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين (٢٠٦/١، ٢٠٧).

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب المشيئة والإرادة (٢٠٢/١).

(٣) انظر: منهاج السنة (٢٠/١، ٢١).

وتبين نصوص الأئمة أن قضاء الله بالكفر لا يعني رضاه به، ولكن هروبا من القول بأن الله خلق هذه الأفعال عبر الاثنا عشرية بعبارة الاستطاعة التي تقول نصوصهم: إن (الاستطاعة جعلها الله فيهم)، وهي في الحقيقة فكرة مستعارة من المعتزلة، يقول المجلسي: «وأما التفويض فهو ما ذهب إليه المعتزلة من أنه تعالى أوجد العباد، وأقدرهم على تلك الأفعال وفوض إليهم الاختيار، فهم مستقلون بإيجادها وفق مشيئتهم وقدرتهم، وليس لله في أفعالهم صنع» (١).

- تفسير الاستطاعة:

عن علي بن أسباط قال: «سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن الاستطاعة فقال: يستطيع العبد بعد أربع خصال: أن يكون مخلى الشرب صحيح الجسم سليم الجوارح له سبب وارد من الله، قال قلت: جعلت فداك فسر لي هذا. قال: أن يكون العبد مخلى الشرب صحيح الجسم سليم الجوارح، يريد أن يزني فلا يجد امرأة ثم يجدها، فإما أن يعصم نفسه فيمتنع كما امتنع يوسف عليه السلام، أو يخلى بينه وبين إرادته فيزني فيسمى زانيا، ولم يطع الله بإكراه ولم يعصه بغلبة» (٢).

عن رجل من أهل البصرة... قال فقال له أبو عبد الله عليه السلام: «إن الله خلق خلقا فجعل فيهم آلة الاستطاعة، ثم لم يفوض إليهم، فهم مستطيعون للفعل وقت الفعل مع الفعل إذا فعلوا ذلك الفعل، فإذا لم يفعلوه في ملكه لم يكونوا مستطيعين أن يفعلوا فعلا لم يفعلوه؛ لأن الله عز وجل أعز من أن يضاده في ملكه أحد، قال البصري: فالتاس مجبورون؟ قال: لو كانوا مجبورين كانوا معذورين، قال: ففوض إليهم؟ قال: لا. قال: فما هم؟ قال: علم منهم فعلا فجعل فيهم آلة الفعل، فإذا فعلوه كانوا مع الفعل مستطيعين» (٣).

والحقيقة أن الاستطاعة إن كانت بمعنى أن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها؛ فتفصيل الحديث عنها أمر معقول تشكر الروايات عليه، كما ورد في إحداها:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال:.... «لم تجد أحدا في ضيقي، ولم تجد أحدا إلا والله عليه الحجة، والله فيه المشيئة ولا أقول إنهم ما شاؤوا صنعوا. ثم قال: إن الله يهدي ويضل، وقال: وما أمروا إلا بدون سعتهم، وكل شيء أمر الناس به فهم يسعون له، وكل شيء

(١) بحار الأنوار (٥/٨٣)، وعاب قول المعتزلة (٥/٨٢)، وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢/٧٨٠).

(٢، ٣) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب الاستطاعة (١/٢١١).

لا يسعون له فهو موضوع عنهم» (١).

وقد جاء تفسير الاستطاعة عن أهل السنة على هذا المعنى، كما ورد في العقيدة الطحاوية: «والاستطاعة التي يجب بها الفعل، من نحو التوفيق الذي لا يجوز أن يوصف المخلوق به - فهي مع الفعل، وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات - فهي قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]» (٢).

- خلق أفعال العباد:

يعتقد أهل السنة أن الله خالق جميع أفعال العباد، مريد لها، وخالفهم في ذلك المعتزلة فزعموا أن الإنسان خالق لأفعال نفسه، وتابعهم في ذلك الاثنى عشرية، لما رأوا أن الإنسان يفعل الشرور والآثام، فزعموا الله تعالى عن خلق هذه الأفعال، ولكن يلزم عن قولهم أمر أخطر وأعظم، وهو: وجود فعالية في الكون غير الله تعالى (٣).

وإذا نحن استعرضنا أقوال أئمة الاثنى عشرية في مصادرهم الحديثية حول هذه المسألة لوجدناها أقرب ما تكون لمذهب أهل السنة والجماعة.

قال جعفر الصادق رحمه الله تعالى: «.. إنَّ الله لم يجبر أحدًا على معصيته، ولا أراد إرادة حتم الكفر من أحد، ولكن حين كفر كان في إرادة الله أن يكفر وهم في إرادة الله وفي علمه أن لا يصيروا إلى شيء من الخير» فسأله صالح التيلي: «أراد منهم أن يكفروا؟ قال: ليس هكذا أقول، ولكني أقول: علم أنهم سيكفرون فأراد الكفر؛ لعلمه فيهم، وليست هي إرادة حتم، إنما هي إرادة اختيار» (٤).

فالإمام في هذه الرواية يقر بأن الله تعالى أراد الكفر بمعنى علمه بوقوعه والسماح له بالوقوع، ولكن هروبًا من معنى الإيجاب الذي سيصل إليه السائل، فزق للسائل في مسألة الإرادة بين إرادة حتم وإرادة اختيار. ولكن نلاحظ أن نص الإمام لم يتطرق إلى السؤال

(١) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب حجج الله على خلقه (١/٢١٥).

(٢) العقيدة الطحاوية (ص ٥١).

(٣) انظر: شرح جوهره التوحيد (ص ٢٠٨، ٢٠٩)، المفيد: تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد، وهو: شرح عقائد الصدوق (ص ٣٥)، دار الكتاب الإسلامي - بيروت (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م)، محمد تقي مصباح

اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٧٢).

(٤) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب الاستطاعة (١/٢١٢).

الملح: (هل أفعال العباد مخلوقة لله أم للعبد؟).

وقد حاول الصدوق أن يقول قريباً من هذا، فلم يوفق، ولم يوافقه على قوله المفيد: قال الصدوق في عقائده: « أفعال العباد مخلوقة خلق تقدير لا خلق تكوين، ومعنى ذلك أنه لم يزل الله عالماً بمقاديرها »^(١)، وقد عارضه فيها الشيخ المفيد زاعماً أن « أفعال العباد غير مخلوقة لله، والذي ذكره أبو جعفر (الصدوق) قد جاء به حديث غير معمول به ولا مرضي الإسناد، والأخبار الصحيحة على خلافه، وليس نعرف في لغة العرب أن العلم بالشيء خلق له ».

ثم ساق المفيد رواية عن أبي الحسن الثالث يجيب فيها من سأله عن أفعال العباد هل هي مخلوقة لله، فيقول: « لو كان خالقاً لها لما تبرأ منها، وقد قال تعالى: ﴿ أَنْ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ﴾ [التوبة: ٣]، ولم يرد البراءة من خلق ذواتهم، وإنما تبرأ من شركهم وقبائحهم »^(٢).

وهذه الرواية لم ترد في أصول الكافي، وقد وردت بلفظ لا يفيد قوتها (روي)، والصدوق مشتهر بالآثار، متقدم على المفيد، وخلافهما يدل على وجود صراع داخل المذهب الشيعي بين الانجذاب إلى المعتزلة حيناً وإلى أهل السنة حيناً آخر.

صحيح أن الصدوق لم يقل برأي أهل السنة بأن الله يخلق أفعال العباد ويريدها، كما أن تأويله ليس بمستساغ، ولكن تأويله جعل مذهبه قريباً من مذهب أهل السنة، أما كلام المفيد فهو قول المعتزلة ذاته، وهو مخالف لنصوص الأئمة باستثناء النص اليتيم الذي ساقه.

ثم إن المفيد لا يستحسن تعبير (يخلقون)، فيقول: « إن الخلق يفعلون، ويحدثون ويخترعون ويصنعون ويكتسبون، ولا أطلق القول عليهم بأنهم يخلقون ولا هم خالقون، ولا أتعدى ذكر ذلك فيما ذكره الله تعالى ولا أتجاوز به مواضعه من القرآن »^(٣).

وعلى كل فمن جاء بعد المفيد لم يتورع ورعه، فعبر بأن الإنسان يخلق أفعاله، فهذا القزويني يقول: « وأفعال العباد مخلوقة لهم »^(٤)، والطببائي يقول: « ذهب الإمامية

(١) رسالة الاعتقادات (ص ٧٥).

(٢) تصحيح الاعتقادات (ص ٢٧، ٢٨). وانظر الرواية في بحار الأنوار (٢٠/٥) وجاءت الرواية بصيغة روي. وهذه الرواية لم ترد في أصول الكافي، ولا غيره من أصول كتب الحديث عند الشيعة، والصدوق متقدم على المفيد.

(٣) أوائل المقالات (ص ٢٥).

(٤) قلائد الخرائد (ص ٦٠).

والمعتزلة إلى أن أفعال العباد وحركاتهم واقعة بقدرتهم واختيارهم فهم خالقون لها، وما في الآيات من أنه تعالى خالق كل شيء وأمثالها إما مخصص بما سوى أفعال العباد، أو مؤول بأن المعنى أنه خالق كل شيء، إما بلا واسطة أو بواسطة مخلوقاته « (١) ».

وهذا ما يجعل المرء يقف متسائلاً: أيعتمد في بيان حقيقة مذهب الاثني عشرية أقوال أئمتهم في الروايات أم أقوال علمائهم في كتبهم الكلامية؟ إن المسألة علمياً لا واقعياً ستحسم لا محالة لمصلحة الروايات، ومنها ما رواه الكليني في أصول الكافي والصدوق في كتابه التوحيد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: « من زعم أن الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله، ومن زعم أن الخير والشر بغير مشيئة الله فقد أخرج الله من سلطانه، ومن زعم أن المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله، ومن كذب على الله أدخله الله النار » (٢).

وقد جاء عبد الله شبر بعد سوجه هذه الرواية ليؤولها قائلاً: « يعني بالخير والشر الصحة والمرض، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً... ﴾ [الأنبياء: ٣٥] » (٣). وهذا صرف للنص عن معناه ليوافق أصول المعتزلة ومن تبعهم من علماء الاثني عشرية كالمفيد، فالنص الذي ساقه هو واضح في بيان أن المقصود ليس الصحة والمرض بل أفعال العباد، ويدل على هذا كلمة (المعاصي) .

والحقيقة أن هذا النص واضح يدل على ما ثبت عن الإمام جعفر الصادق من أن مسألة القدر هي أمر بين أمرين: « لا جبر ولا تفويض ولكن أمر بين أمرين... مثل ذلك: رجل رأته على معصية فنهيته فلم ينته، فتركته ففعل تلك المعصية، فليس حيث لم يقبل منك فتركته كنت أنت الذي أمرته بالمعصية » (٤). وهذا مذهب متزن واضح بين، يوافق رأي جمهور الأمة، قد نقله أهل السنة عن جعفر أيضاً (٥).

وتوافقه الروايات التالية:

عن جعفر الصادق عليه السلام قال: « الله أكرم من أن يكلف الناس ما لا يطيقون، والله

(١) محمد صادق الطبطبائي: مجالس الموحدين في بيان أصول الدين (ص ٢١) .

(٢) الكليني: أصول الكافي: باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين، الحديث السادس.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٠٧) .

(٤) الكليني: أصول الكافي (١٦٠/١) تحقيق علي أكبر غفاري، الصدوق: التوحيد (ص ٢٠٦) .

(٥) انظر: الملل والنحل للشهرستاني (١٦٦/١) .

أعزّ من أن يكون في سلطانه ما لا يريد» (١).

وقال: « من زعم أنّ الله يأمر بالفحشاء فقد كذب على الله، ومن زعم أنّ الخير والشرّ إليه فقد كذب على الله » (٢).

وعن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا: « إنّ الله أرحم بخلقه من أن يجبر خلقه على الذنوب ثمّ يعذبهم عليها، والله أعزّ من أن يريد أمراً فلا يكون. قال فسئلا عليهما السلام: هل بين الجبر والقدر منزلةً ثالثة؟ قالوا: نعم، أوسع مما بين السماء والأرض » (٣).

وقد مال إلى هذه الروايات بعض الشيعة المعاصرين قائلًا: إن « أفعالنا من جهة هي أفعالنا حقيقة ونحن أسبابها الطبيعية وهي تحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى هي مقدورة لله تعالى وداخله في سلطانه لأنه هو مفيض الوجود ومعطيه، فلم يجبرنا على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا على المعاصي؛ لأن لنا القدرة والاختيار فيما نفع، ولم يفوض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والأمر وهو قادر على كل شيء ومحيط بالعباد » (٤).

ويقول الشيخ اليزدي مدرّكًا وجهة الخلاف بين الأشاعرة والمعتزلة والاثني عشرية: « رأينا بعض المتكلمين (الأشاعرة) الذين تقبلوا شمول القضاء الإلهي لأفعال الإنسان، قد اتجهوا إلى القول بالجبر، بينما يرى جماعة أخرى كالمعتزلة الذين لم يمكنهم القول بالجبر وآثاره الخطيرة والسيئة قد أنكروا شمول القضاء الإلهي لأفعال الإنسان الاختيارية، وكل جماعة أوّلت الآيات القرآنية والروايات المخالفة لرأيها بما يتلاءم واتجاهها ورأيها » (٥). ولو تمسك كل طرف منهم بالأدب مع الله تعالى لوصلوا إلى حل وسط، فالمفيد الذي لا يرى أن الله تعالى يخلق أفعال الإنسان، لا يستحسن تعبير (يخلقون) - كما

(١) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين (٢١٠/١).

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين (٢٠٧/١). قال المحقق: « الضمير في (إليه) يرجع إلى من زعم الثانية، وفي هذا رد على المفوضة الذين يقولون بأن أعمال الإنسان خيرها وشرها مخلوقة له من دون مدخلية لله فيها، وهذا أيضا كذب على الله مخالفته للآيات الكثيرة الدالة على هدايته وتوفيقه وخذلانه ومشيبته وتقديره » مرآة المجلسي (١٨٤/٢).

(٣) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب الجبر والقدر والأمر بين الأمرين (٢٠٩/١).

(٤) المظفر: عقائد الإمامية (ص ٦٧، ٦٨)، وانظر: الزنجاني: في عقائد الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٧٥/٣، ١٧٦).

(٥) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٧٢).

رأينا - فيقول: « إن الخلق يفعلون، ويحدثون ويخترعون ويصنعون ويكتسبون، ولا أطلق القول عليهم بأنهم يخلقون ولا هم خالقون، ولا أتعدى ذكر ذلك فيما ذكره الله تعالى ولا أتجاوز به مواضعه من القرآن » (١).

ونحن نوافقه على هذا الأدب؛ موافقة لقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ۗ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [الصافات: ٩٥، ٩٦].

وأصحاب الرأي الآخر - وهم الأشاعرة ومن معهم - القائلون: إن الله يخلق أفعال الإنسان؛ لا يقولون: - أدباً - إن الله تعالى يخلق الشرور التي يفعلها الإنسان، فقد جاء في سنة النبي ﷺ قوله: « والشر ليس إليك » (٢). قال الباجوري: « إن الأدب يقتضي أن ينسب الخير إلى الله تعالى؛ لأنه هو الفاعل الموجد، وينسب الشر إلى أنفسنا؛ لأننا اكتسبناه لها، وقد جاء هذا الأدب العالي في كتاب الله تعالى، فانظروا إلى قوله سبحانه على لسان إبراهيم الخليل: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ۗ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ۗ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ [الشعراء: ٧٨ - ٨٠] » (٣).

ومع ترجيح مذهب السلف، ومذهب روايات آل البيت فأرى لزوماً عليّ أن أذكر هذه الملاحظة:

إن هذه المسألة من فروع العقائد، وليست من أصولها.

ولذلك أرى أن إنكار بعض متكلمي الشيعة كالمفيد وغيره لخالقية الله تعالى لأفعال العباد تقليدًا لرأي المعتزلة: لا يعد إنكارًا لقضاء الله ولا قدره، وإنما كان هروبًا من نسب الشرور إلى الله تعالى، قال المفيد: « والحق في ذلك أن الله تعالى لا يريد إلا ما حسن من الأفعال، ولا يشاء إلا الجميل من الأعمال، ولا يريد القبائح ولا يشاء الفواحش » (٤).

(١) أوائل المقالات (ص ٢٥).

(٢) جاء في صحيح مسلم (٥٣٤/١) كتاب الصلاة، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه رقم (٧٧١): « عن علي بن أبي طالب عن رسول الله ﷺ أنه كان إذا قام إلى الصلاة قال: وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيئًا وما أنا من المشركين، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا من المسلمين، اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي ذنوبي جميعًا إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها لا يصرف عني سيئها إلا أنت، لبيك وسعديك، والخير كله في يديك، والشر ليس إليك، أنا بك وإليك، تباركت وتعاليت، أستغفرك وأتوب إليك ».

(٣) شرح جوهره التوحيد (ص ٢٠٨، ٢٠٩).

(٤) المفيد: تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد، وهو: شرح عقائد الصدوق (ص ٣٥).

فلقوم أرادوا من هذا التنزيه، فلزم عن قولهم إشكال آخر لم يحسبوه، وهو نسبة الفاعلية في الكون لغير الله تعالى، فكانوا كالمستجير من الرمضاء بالنار، ومن قواعد الإنصاف ألا نحكم على فئة من خلال لوازم أقوالها.

فإذا كان قول الاثني عشرية والمعتزلة: إن الإنسان يخلق أفعال نفسه، مصاحباً لإيمانهم بالقضاء والقدر، واعتقادهم أن خلقهم لأفعالهم كان بتمكين الله تعالى، وإذنه، كما قال تعالى عن عيسى عليه الصلاة والسلام: ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ومن جهة أخرى: لو أنصف الشيعي وتأمل رأي أهل السنة، وأدرك أنه يوافق معظم روايات أئمة آل البيت، وأن السني عندما يقول: إن الله يخلق أفعال العباد، لكنه لا يقصد أن الله يرضى الشرور والمعاصي؛ فإنه عندئذ يعذره، ويتفهم موقفه؛ لأنه يعتقد أنه « لم يكن الباري تعالى مريدًا للمعاصي والقبائح والشرور؛ من حيث إنها معاص وقبائح وشرور، لا مريدًا للخيرات والطاعات والمحاسن من حيث هي كذلك، بل هو مريد لكل ما تجدد وحدث في العالم من حيث إنها مخصصة بالوجود دون العدم، ومتقدرة بأقدار دون أقدار... فالأفعال كلها من حيث تخصصها وتحدها مراده لله تعالى كلها »^(١).

وبهذا يحل الإشكال، ويتوقف الخصام والجدال، وخصوصًا في مسألة أمر الجميع بالتوقف فيها.

وللشيخ الدكتور محمد عبد الله دراز كلام نفيس ساقه في كتابه القيم (المختار من كنوز السنة)، يبين فيه اختلاف الأنظار في القدر والخلاف فيه، وأن مآل المدرستين: (مدرسة القول بخلق الإنسان لأفعال نفسه - وهي مدرسة المعتزلة - ومدرسة القول بكسب الإنسان - وهي مدرسة الأشعرية -) مآلهما إلى حيرة ومجاهيل الأولى للعقل الإعراض عنها^(٢).

والسبب أن مسألة القدر من مسائل الغيب التي نهينا عن الخوض فيها، وقد قال الطحاوي رحمته الله: « وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب

(١) الشهرستاني: نهاية الإقدام (ص ٢٥١). (٢) المختار من كنوز السنة، دار القلم - الكويت.

ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك ذريعة الخذلان، وسلّم الحرمان، ودرجة الطغيان. فالحذر كل الحذر من ذلك نظرًا وفكرًا ووسوسة، فإن الله طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، فمن سأل: لم فعل؟ فقد ردّ حكم الكتاب، ومن ردّ حكم الكتاب كان من الكافرين^(١). إن عدم التعمق في القدر هي طريقة الصحابة رضي الله عنهم، والتابعين لهم بإحسان، ثم خلف من بعدهم خلف سؤدوا الأوراق بتلك الوسوس، التي هي شكوك وشبهه، بل وسؤدوا القلوب^(٢).

٥ - لطف الله تعالى بعباده، وعدم الاتكال على العمل:

اللطف مطلقًا من العقائد التي اشترك بها الشيعة مع المعتزلة، و « مذهب الإمامية والمعتزلة وجوب اللطف على الله تعالى، وهو ما يقرب العبد إلى طاعة الله ويبعده عن معصيته بغير إلهاء - أي: إكراه - ولا إجبار، إذ لا إكراه في الدين... والدليل على ذلك مضافًا إلى قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ...﴾ [الشورى: ١٩] أي يفعل ما هو لطف بحالهم »^(٣).

وقد جعل الاثنا عشرية القضاء والقدر مجالًا من مجالات تطبيق نظرية اللطف الإلهي، فالله لا يقدر ولا يقضي إلا بما هو في مصلحة الإنسان.

وإذا كان أهل السنة قد أنكروا نظرية اللطف في الإمامة، فإنهم يتفقون مع المعتزلة والشيعة في وجود اللطف في القدر، وبهذا يكون وجود اللطف الإلهي في القضاء والقدر مسألة شبه متفق عليها، إذا استثنينا بعض المبالغات الاثني عشرية التي سيشار إليها: عن عليّ بن الحسين رضي الله عنهما قال: «... لم يقض الله تعالى له فيما أحب أو كره إلا ما هو خير له »^(٤).

وفي حديث آخر لا يبعد عن موقف أهل السنة: عن أبي جعفر عليه السلام قال: لما أسري بالنبي صلى الله عليه وآله قال: « يا رب ما حال المؤمن عندك؟ قال: يا محمد! من أهان لي وليًا فقد بارزني بالمخاربة، وأنا أسرع شيء إلى نصره أوليائي، وما ترددت عن شيء أنا فاعله

(١) العقيدة الطحاوية، مع شرح ابن العز (ص ١٨٠، ١٨١).

(٢) شرح ابن أبي العز على الطحاوية (ص ١٩٢).

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٠٨).

(٤) أصول الكافي (٦٦/٢): كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء، قال محققه والحديث صحيح.

كترددى عن وفاة المؤمن، يكره الموت وأكره مساءته، وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الغنى ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك؛ وإن من عبادي المؤمنين من لا يصلحه إلا الفقر ولو صرفته إلى غير ذلك لهلك، وما يتقرب إلي عبد من عبادي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت إذن سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبتة وإن سألتني أعطيتة» (١).

وعن ابن أبي يعفور عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «عجبت للمرء المسلم لا يقضي الله عليه السلام له قضاءً إلا كان خيرًا له، وإن قُرُضَ بالمقاريض كان خيرًا له، وإن ملك مشارق الأرض ومغاربها كان خيرًا له» (٢).

وهذه الرواية شبه متفق على معناها مع حديث أهل السنة، الذي يقول فيه عليه السلام: «عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذلك إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيرًا له» (٣).

وفي حديث آخر متفق على معناه بين الطائفتين: عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله ﷻ: إن من عبادي المؤمنين عبادًا لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالغنى والسعة والصحة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن فيصلح عليهم أمر دينهم، وإن من عبادي المؤمنين لعبادًا لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين، وإن من عبادي المؤمنين لمن يجتهد في عبادتي فيقوم من رقاده ولذيد وساده فيتهدج لي الليالي فيتعب نفسه في عبادتي فأضربه بالتعاس الليلة والليلتين نظرًا متي له وإبقاءً عليه، فينام حتى يصبح فيقوم وهو ماقث لنفسه زارئٍ عليها، ولو أخلني بينه وبين ما يريد من عبادتي لدخله العجب من ذلك، فيصير العجب إلى الفتنة بأعماله فيأتيه من ذلك ما فيه هلاكه لعجبه بأعماله ورضاه عن نفسه حتى يظن أنه قد فاق العابدين وجزا في عبادته حد التقصير، فيتباعد متي عند ذلك وهو يظن أنه يتقرب إلي،

(١) أصول الكافي (٣٣٨/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب من آذى المسلمين واحترقهم، قال محققه: هذا الحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٦٨/٢): كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء، قال محققه: والحديث صحيح.

(٣) أخرجه مسلم: كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (٢٩٩٩).

فلا يتكل العاملون على أعمالهم التي يعملونها لثوابي، فإنهم لو اجتهدوا وأتعبوا أنفسهم وأنفوا أعمارهم في عبادتي كانوا مقصرين غير بالغين في عبادتهم كنه عبادتي فيما يطلبون عندي من كرامتي والتعيم في جناتي ورفيع درجاتي العلى في جوارى، ولكن فبرحمتي فليثقوا وبفضلي فليفرحوا وإلى حسن الظن بي فليطمئنوا، فإن رحمتي عند ذلك تداركهم، ومني يبلغهم رضواني ومغفرتي تلبسهم عفوي فإنني أنا الله الرحمن الرحيم وبذلك سميت ^(١).

وقد بالغ المفيد عندما قال: « وليس يميت الله عبداً من عبده إلا وإماتته أصلح من بقائه ولا يحييه إلا وحياته أصلح له من موته، وكل ما يفعله الله تعالى بخلقه فهو أصلح لهم وأصوب في التدبير ^(٢)، وهذا مردود بحال الكافرين، لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَلِّي لَهُمْ خَبْرًا لِنَفْسِهِمْ إِنَّمَا نَطَلِّي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٨].

ومن المعاني المتفق عليها بين الطائفتين في باب القضاء: مسألة سبق الكتاب، ومسألة رد القضاء بالدعاء:

عن أبي عبد الله عليه السلام: أنه قال: « يسلك بالسعيد في طريق الأشقياء حتى يقول الناس: ما أشبهه بهم بل هو منهم، ثم يتداركه السعادة، وقد يسلك بالشقي في طريق السعداء حتى يقول الناس: ما أشبهه بهم بل هو منهم ثم يتداركه الشقاء، إن من كتبه الله سعيداً وإن لم يبق من الدنيا إلا فواق ناقة ختم له بالسعادة ^(٣).

وعن أبي عبد الله عليه السلام: قال: « إن الدعاء يرد القضاء وقد نزل من السماء وقد أبرم إبراهيم ^(٤).

وعن عمر بن يزيد قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: « إن الدعاء يرد ما قد قدر وما لم يقدر، قلت: وما قد قدر عرفته فما لم يقدر؟ قال: حتى لا يكون ^(٥).

* * *

(١) أصول الكافي ٦٦/٢ - ٦٧: كتاب الإيمان والكفر، باب الرضا بالقضاء، قال محققه: والحديث صحيح على الظاهر.

(٢) تصحيح الاعتقاد (ص ٧٤، ٧٥).

(٣) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب السعادة والشقاء (٢٠٤/١).

(٤) أصول الكافي (٤٤٠/٢) كتاب الدعاء، باب أن الدعاء يرد البلاء، قال محققه: الحديث صحيح.

(٥) أصول الكافي (٤٤٠/٢) كتاب الدعاء، باب أن الدعاء يرد البلاء، قال محققه: الحديث كالصحيح.

الْمَبْحَثُ السَّادِسُ

أحداث ما بعد الموت (عالم البرزخ، القيامة، الجنة والنار)



الموت:

يبين كتاب الاثني عشرية أن « الحياة والموت خلقان من خلق الله » و « الموت عدم الحياة لا العدم المطلق،... الموت ليس عدماً محضاً بل هو عدم الحياة، وبهذا الاعتبار فإن الموت وجود من نوع معين... هو بالحقيقة عدم الحياة بالنسبة للبدن.. الموت نوم عميق طويل » (١)، وينبغي على المؤمن « الإقرار بملك الموت ونزعه للروح وأعوانه » (٢).

وتذكر لنا رواية نقلها الشيخ دستغيب عن بحار الأنوار حواراً بين نبي الله إبراهيم عليه السلام وملك الموت، تبين كيف ظهور ملك الموت بأحسن صورة للعبد المؤمن، وبأبشع صورة للكافر (٣).

والمرء حين النزاع يعرف ما يقبل عليه من خير أو شر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢]. ولذلك قال الصادق عليه السلام: « ما يخرج مؤمن عن الدنيا إلا برضاً منه، وذلك أن الله - تبارك وتعالى - يكشف له الغطاء حتى ينظر إلى مكانه من الجنة وما أعد الله له فيها، وتنصب له الدنيا كأحسن ما كانت له، ثم يخير فيختار ما عند الله ﷻ ويقول: ما أصنع بالدنيا وبلائها » (٤).

الإيمان بعالم البرزخ:

« عذاب البرزخ وثوابه قد انعقد عليه إجماع المسلمين، بل لعله من ضروريات الدين ومنكره كافر »، « لإمكانه وتواتر السمع بوقوعه » (٥).

و « ينبغي التصديق بعالم البرزخ والقبر وثوابه وعقابه، وبقاء الروح بعد مفارقة البدن،

(١) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٩٣، ١٩٤).

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٦٢).

(٣) الشيخ دستغيب: الدار الآخرة (ص ٢٧٧).

(٤) الشيخ الصدوق: من لا يحضره الفقيه (١/١٣٤) طبعة (٢) جماعة المدرسين قم (١٤٠٤ هـ) تحقيق

علي أكبر غفاري. وانظر: حق اليقين (ص ٣٦٥).

(٥) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧٥).

وسؤال القبر ومنكر ونكير، والمراد بالبرزخ العالم الذي ما بين الموت والقيامة، وإن الميت إذا أدخل القبر تردّ روحه من رأسه إلى ظهره، ويأتيه الملكان ويسألانه، والمسؤولون بعضهم في النعيم وبعضهم في العذاب الجسيم إلى القيامة، والإقرار بضغطة القبر، وأن السؤال بالنسبة إلى هذا البدن، وسائر أمور البرزخ للروح « (١) ».

ضغطة القبر:

كما توافق الروايات الاثني عشرية روايات أهل السنة في إثبات ضغطة القبر، فقد جاء عن الصادق أن الميت « يسأل وهو مضغوط ». ولعل المعنى أن الضغطة والسؤال متلازمان... ويحتمل أن يكون الغرض إثبات الحالتين فقط (٢). أي إثبات وجود السؤال، ووجود ضغطة القبر.

وعن الصادق قال: خاطب رسول الله ﷺ قبر سعد، فمسحه بيده، واختلج بين كتفيه، فقبل: يا رسول الله! رأيتك خاطبت سعدًا واختلج بين كتفيك، وقلت: « سعد يفعل به هذا؟! » فقال ﷺ: « إنه ليس من مؤمن إلا وله ضمة » (٣).

وفي الكافي: « لما ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ قال ﷺ: « إنني لأعرف ضعفها وسألت الله ﷻ أن يجيرها من ضمة القبر » (٤). وقال ﷺ: « ضغطة القبر للمؤمن كفارة لما كان منه من تضييع النعم » (٥).

وعن يونس قال: سأته - يعني الرضا عليه السلام - عن المصلوب يعذب عذاب القبر؟ قال فقال: نعم، إن الله ﷻ يأمر الهواء أن يضغته « (٦). وعن الصادق أنه قال: « من مات ما بين زوال الشمس يوم الخميس إلى زوال الشمس من يوم الجمعة من المؤمنين أعاده الله من ضغطة القبر » (٧). وقيد (من المؤمنين) مهم؛ لأن كثيرًا من الناس من غير المؤمنين يموتون في هذه الأوقات.

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧١).

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٨٢).

(٣) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩٠).

(٤) الكليني: فروع الكافي باب المسألة في القبر ومن يسأل ومن لا يسأل رقم (١٨)، وعنه عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩٢).

(٥) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩٠).

(٦) المصدر السابق نفسه.

(٧) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩٠).

سؤال الملكين:

وروى الصدوق في الأمالي: وغيره عن الصادق: « من أنكر ثلاثة أشياء فليس من شيعةنا: المعراج والمساءلة في القبر، والشفاعة » (١).

وقال الشيخ المفيد: « جاءت الأخبار الصحيحة عن النبي ﷺ أن الملائكة تنزل على المقبورين فتسألهم عن أديانهم، وألفاظ الأخبار بذلك متضافرة، فمنها أن ملكين لله تعالى يقال لهما (ناكر ونكير) (٢) ينزلان على الميت فيسألانه عن ربه ونبيه ودينه وإمامه، فإن أجاب بالحق سلّمناه إلى ملائكة النعيم، وإن أرتج عليه سلّمناه إلى ملائكة العذاب » (٣). وأهم خلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة والجماعة في سؤال الملكين أن الشيعة أضافوا فيما يسأل عنه الملكان: (الإمامة والإمام) كما ورد في هذه الرواية وغيرها من الروايات. قال شبر: « واعلم أن الأخبار الواردة في السؤال قد دلت على أنه يسأل عن العقائد الإيمانية لا سيما ولاية أمير المؤمنين ﷺ وإمامته » (٤).

بل تذكر الروايات أن أحد رجال الشيعة المعروفين سيعذب في قبره ويدخل النار، لتوقفه في إمامة واحد من الأئمة، مع إيمانه بمن سبقه من الأئمة، فعن يونس قال: « دخلت على الرضا ﷺ فقال لي: مات علي بن أبي حمزة (٥)؟ قلت: نعم، قال: قد دخل النار، قال: ففزعت من ذلك، قال: أما إنه سئل عن الإمام بعد موسى أبي فقال: لا أعرف إمامًا بعده، فقيل: لا؟! فضرب في قبره ضربة اشتعل قبره نارًا » (٦).

(١) المصدر السابق (ص ٣٨٢).

(٢) عند أهل السنة هما (منكر ونكير) انظر مثلاً: العقيدة الطحاوية (ص ٥٠)، الأشعري: الإبانة (ص ٢٠)، العراقي: تخريج أحاديث الإحياء (٥٦/١)، ابن حجر: فتح الباري (٢٧٠/١). وقد أتى ذكرهما في سنن الترمذي بلفظ (المنكر والنكير) كتاب الجنائز، باب عذاب القبر، رقم (١٠٧١).
أخرجه الترمذي وصححه ابن حبان من حديث أبي هريرة « إذا قبر الميت - أو قال: أحدكم - أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما: المنكر، وللآخر: النكير ».

(٣) المفيد: تصحيح الاعتقاد (ص ٧٧)، وانظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧٨).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٨٤).

(٥) وهو علي بن حمزة البطائني: « روى عن أبي عبد الله ﷺ، ثم وقف، وهو أحد عمد الواقفة » رجال النجاشي (ص ٢٤٩، ٢٥٠) مؤسسة النشر الإسلامي قم (١٤١٦ هـ) ومع ذلك كان هو قائد أبي بصير، الراوي الأكثر عن الأئمة - وروى عنه عدة روايات.

(٦) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٧٤٢/٢)، بحار الأنوار - العلامة المجلسي (٢٤٢/٦)، وانظر:

عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٨٤).

في حين أن كثيراً من الروايات عندما تذكر سؤال الملكين لا تذكر السؤال عن الإمام، بل تتحد مع روايات أهل السنة في السؤال عن رب العبد ونيبه ودينه فقط، فقد ورد عند شبر: أن « عدو الله إذا أدخل قبره قال له: من ربك ومن نبيك وما دينك؟ فيقول: لا أدري، فيقولان له: لا دريت ولا هديت، فيضربانه بمرزبة ضربة ما خلق الله دابة إلا وتدعر لها ما خلا الثقلان، ثم يفتحها له باباً إلى النار، ثم يقولان له: تم بشر حال، فهو من الضيق مثل ما فيه القنا من الرّجج^(١)، حتى إن دماغه يخرج من بين ظفره ولحمه، ويسلّط عليه حيّات الأرض وعقاربها وهوامها تنهشه حتى يبعثه الله من قبره، وإنه ليتمنى قيام الساعة مما هو فيه من الشر^(٢) ».

وهناك رأي يخصّص السؤال بنوعين من البشر دون سواهم كما ذكر المفيد: فقد « روي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إنما يسأل في قبره من محض الإيمان محضاً أو محض الكفر محضاً، فأما ما سوى هذين فإنه يلهى عنه^(٣) ». وهذا يخالف ما عليه أهل السنة والجماعة في أن عذاب القبر يشمل جميع البشر، لإطلاق الخبر الوارد فيه، دون تخصيصه بطائفة من الناس دون أخرى.

نعيم القبر وعذابه:

وقد جاء في الحديث « أن الأنبياء صلوات الله عليهم خاصة والأئمة عليهم السلام من بعدهم ينقلون بأجسادهم وأرواحهم من الأرض إلى السماء، فيتنعمون في أجسادهم التي كانوا فيها عند مقامهم في الدنيا^(٤) ». قال شبر: « وهذا خاص بحجج الله دون من سواهم من الناس^(٥) ». ذلك أن شبر رجح أن عذاب القبر ونعيمه للروح فقط كما سنبين.

وجاء « عن أبي عبد الله عليه السلام قال: إن أرواح المؤمنين يرون آل محمد عليهم السلام في جبال رضوى. فتأكل من طعامهم، وتشرب من شرابهم، وتحدّث معهم في مجالسهم حتى يقوم

(١) جاء في لسان العرب: « قال أبو منصور: القنا من الرماح ما كان أجوف كالقصبية » مادة (قنا). والرّجج: بالضم الحديدية التي في أسفل الرّجج والجمع زججة بوزن عنبه. « مختار الصحاح، مادة (زجاج) (ص ١٣١)، وقال في لسان العرب: « الرّجج الحديدية التي تركب في أسفل الرمح، والسنان يركب عاليته، والرّجج تركز به الرمح في الأرض والسنان يطعن به، والجمع أزجاج وأزججة وزجاج وزججة. لسان العرب مادة (زجاج) ». (٢) انظر مثلاً: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩١).

(٣) المفيد: تصحيح الاعتقاد (ص ٧٠).

(٤) تصحيح الاعتقاد للمفيد (ص ٧٤)، وانظر عبد الله شبر: حق اليقين (ص ٣٧٢).

(٥) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٨٠، ٣٨١).

قائماً أهل البيت عليهم السلام، فإذا قام قائمنا بعثهم الله وأقبلوا معه يلبتون زمراً فزمرًا، فعند ذلك يرتاب المبطلون، ويضمحل المنتحلون، وينجو المقربون» (١).

ولست أدري لماذا جبل رضوى بالذات؟! وهو الجبل المقدس عند الكيسانية؛ لأن فيه إمامهم المستور الغائب! حيث قالت الكيسانية: إن محمد بن الحنفية لم يمت وأنه سيعود، وأن مقره في جبل رضوى بالمدينة، على حد قول كثير عزة الذي كان «كيسانيًا، وله في مذهب الكيسانية قوله:

ولاة الحق أربعة سواء	ألا إن الأئمة من قريش
هم الأسباط ليس بهم خفاء	علي والثلاثة من بنيه
وسبط غيَّبته كربلاء	فسبط سبط إيمان وبر
يقود الخيل يقدمها اللواء	وسبط لا يذوق الموت حتى
برضوى عنده غسل وماء» (٢)	يغيب فلا يرى فيهم زمانًا

فهذا يدل على أثر أفكار الغلاة في عقائد الإمامية.

وعن علي بن الحسين عليهما السلام قال: «إن المؤمن ليقال لروحه وهو يغسل: أيسرك أن ترد إلى الجسد الذي كنت فيه، فيقول: ما أصنع بالبلاء والخسران والغم» (٣). وتذكر الروايات معرفة الميت بأحوال أهله من بعده، فمن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن المؤمن ليزور أهله فيرى ما يحب ويستتر عنه ما يكره، وإن الكافر ليزور أهله فيرى ما يكره ويستتر عنه ما يحب، قال: ومنهم من يزور كل جمعة، ومنهم من يزور على قدر عمله» (٤). وقال: «ما من مؤمن ولا كافر إلا وهو يأتي أهله عند زوال الشمس، فإذا رأى أهله يعملون بالصالحات حمد الله على ذلك، وإذا رأى الكافر أهله يعملون بالصالحات كانت عليه حسرة» (٥).

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٦/٢٤٣)، وعبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧٣).

(٢) انظر: الفصول المختارة للشيخ المفيد (ص ٢٩٩، ٣٠٠). دار المفيد - بيروت (ط ٢)، (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م)، تحقيق السيد مير علي شريفني.

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (٦/٢٤٣)، وعبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧٣).

(٤) الكليني: الكافي (٣/٢٣٠)، باب أن الميت يزور أهله، وانظر: عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧٤).

(٥) الكليني: الكافي (٣/٢٣٠)، باب أن الميت يزور أهله، وانظر: عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧٤).

وعن الصادق أبي عبد الله عليه السلام: « إن أرواح المؤمنين لفي شجرة من الجنة يأكلون من طعامها ويشربون من شرابها ويقولون: ربنا أقم الساعة لنا، وأنجز لنا ما وعدتنا، وألحق آخرنا بأولنا ».

وقال: « إن الأرواح في صفة الأجساد في شجرة في الجنة تعارف وتساؤل، فإذا قدمت الروح على الأرواح يقول: دعوها فإنها قد أفلتت من هول عظيم، ثم يسألونها ما فعل فلان؟ وما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: تركته حيناً ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك، قالوا: قد هوى هوى » (١).

أما أهل السنة فقد اختلفت أقوالهم في مقام الروح في حياة البرزخ؛ « هل هي في السماء أم في الأرض؟ وهل هي في الجنة أم لا؟ وهل تودع في أجساد غير أجسادها التي كانت فيها، فتنعم وتعذب فيها، أم تكون مجردة؟ هذه مسألة عظيمة تكلم فيها للناس واختلفوا فيها، وهي إنما تتلقى من السمع فقط، واختلف في ذلك:

فقال قائلون: أرواح المؤمنين عند الله في الجنة شهداء كانوا أم غير شهداء إذا لم يحبسهم عن الجنة كبيرة ولا دين، وتلقاهم ربهم بالنعو عنهم والرحمة لهم. وهذا مذهب أبي هريرة وعبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقالت طائفة: هم بفناء الجنة على بابها، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها. وقالت طائفة: الأرواح على أفنية قبورها، وقال مالك: بلغني أن الروح مرسلة تذهب حيث شاءت، وقال الإمام أحمد في رواية ابنه عبد الله: أرواح الكفار في النار، وأرواح المؤمنين في الجنة.

وقال أبو عبد الله بن منده: وقال طائفة من الصحابة والتابعين: أرواح المؤمنين عند الله عليه السلام، ولم يزيدوا على ذلك...

وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء في الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم... وقال في شرح حديث ابن عمر: « إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغدادة والعشي، إن كان من أهل الجنة، فمن أهل الجنة، وإن كان من أهل النار، فمن أهل النار، يقال له: هذا مقعدك حتى يبعثك الله إلى يوم القيامة » (٢)، قال: وقد استدل به من

(١) الكليني: الكافي (٢٤٤/٣) وانظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٧٥).

(٢) متفق عليه، صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب الميت يعرض عليه مقعده بالغدادة والعشي، رقم (١٢٩٠)، صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب عرض مقعد الميت من الجنة والنار عليه، رقم (٥١١٠).

ذهب إلى أن الأرواح على أفنية القبور، وهو أصح ما ذهب إليه في ذلك. والله أعلم؛ لأن الأحاديث بذلك أحسن مجيئاً وأثبت نقلاً من غيرها. قال: والمعنى أنها قد تكون على أفنية قبورها لا على أنها تلزم ولا تفارق أفنية القبور، كما قال مالك رحمته الله: إنه بلغنا أن الأرواح تسرح حيث شاءت» (١).

وقد ورد في مصادر حديث أهل السنة أن أرواح الشهداء في جوف طير خضر تأوي إلى قناديل معلقة في ظل العرش: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في جوف طير خضر ترد أنهار الجنة تأكل من ثمارها وتأوي إلى قناديل من ذهب معلقة في ظل العرش. فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أنا أحياء في الجنة نرزق لئلا يزهدوا في الجهاد ولا ينكلوا عند الحرب؟ فقال الله سبحانه: أنا أبلغهم عنكم قال: فأنزل الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أحياءٌ عند ربِّهم يُرزقون...﴾ [آل عمران: ١٦٩]» (٢) إلى آخر الآية.

وقد أخرج مالك في موطنه: عن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى حياة يوم يبعثه» (٣). أما الكافر فقد ورد عن الصادق عليه السلام: «يسلط عليه الحيات والعقارب، ويظلم عليه قبره، ثم يضغطه ضغطة تختلط أضلاعه عليه [إلى] أن يدخل بعضها في بعض» (٤). «الكافر يضرب ضربة ما خلق الله شيئاً إلا سمعها ويذعر لها إلا الثقلين» (٥)، وعن الصادق عليه السلام: «أن عمدة عذاب القبر من البول» (٦). وبعض هذه الأخبار أوردتها كتب السنة كما هو معروف.

(١) ابن قيم الجوزية: الروح (ص ٩٠، ٩١).

(٢) حديث حسن، أخرجه أبو داود في سننه (١٨/٢). كتاب الجهاد، باب في فضل الشهادة رقم (٢٥٢٠)، وأخرجه أحمد بن حنبل في المسند (٢٦٥/١). قال ابن قيم الجوزية: (الروح ص ١١٣): «هذا من تمام إكرام الله للشهداء أن أعضاهم من أبدانهم التي مزقوها لله أبداناً خيراً منها تكون مركباً لأرواحهم ليحصل بها كمال تعميمهم، فإذا كان يوم القيامة رد أرواحهم إلى تلك الأبدان التي كانت فيها في الدنيا».

(٣) موطأ الإمام مالك (٢٤٠/١) رقم (٥٦٨)، باب جامع الجنائز. دار إحياء التراث العربي - مصر،

تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، انظر: ابن قيم الجوزية: الروح (ص ٩٥).

(٤) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩١).

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩١).

وقد اختلف في عذاب القبر أَللجسد والروح، أم للروح فقط؟ قال شبر: « وقد اختلف أصحابنا فيمن ينعم ويعذب بعد موته، فقال بعضهم: المنعم المعذب هو الروح التي توجه إليها الأمر والنهي والتكليف وسموها جوهرًا، وقال آخرون: بل الروح الحياة جعلت في جسد كجسده في الدنيا، وكلا الأمرين يجوزان في العقل، والأظهر عندي قول من قال: إنها الجوهر المخاطب وهو الذي تسميه الفلاسفة البسيط » (١).

والمعتمد عند أهل السنة أن نعيم القبر وعذابه للروح والجسد أيضًا، كما هو الحال بالنسبة لنعيم الجنة وعذابها (٢). ومن الخطأ محاولة النظر إلى عالم البرزخ من منظار الدنيا، فالبرزخ عالم مستقل له نظامه وأحكامه، ومن الخطأ أيضًا قياس عالم البرزخ والآخرة على عالم الدنيا ومحاولة تصور هذين العالمين اللذين طوى الله تعالى تصورهما عنا إلا من خلال ما أخبرنا عنه الوحي الصادق.

فكيف يتصور العقل البشري الذي يعيش في الدنيا أن ضربة الملك في القبر تجعل الكافر يهوي إلى سبع أرضين؟ أم كيف يتصور العقل أن ضرس الكافر في جهنم كجبل أحد، كما صح في الحديث (٣)؟ فلنذكر قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضُ عَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ سَبْعُ سَمَاوَاتٍ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] فذلك يوم آخر له مقاييسه ونظمه.

الإيمان بالمعاد:

يقول الإمام علي عليه السلام: « ألا فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، فإنَّ في القيامة خمسين موقفًا، كل موقف كألف سنة مما تعدون » (٤).

« من خلال التأمل في الآيات القرآنية نتوصل إلى أن القسم الأكبر من أحاديث الأنبياء ومناظراتهم مع الناس، كان يدور حول موضوع المعاد، بل يمكن القول بأن الجهود التي بذلوها لإثبات هذا الأصل كانت أكثر من جهودهم لإثبات التوحيد؛ لأن أغلب الناس كانوا يتخذون موقفًا أكثر عنادًا وتشددًا من هذا الأصل » (٥).

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٨٠).

(٢) انظر: ابن قيم الجوزية: الروح (ص ٥١).

(٣) جاء في صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب النار يدخلها الجبارون.. (رقم ٢٨٥١): عن أبي هريرة عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: « ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد، وغلظ جلده مسيرة ثلاث ».

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (١٢٦/٧)، وانظر: آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٩٦).

(٥) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣٧٩).

و « يكفي اعتراف المرء بأنه مخلوق دليلاً على المعاد، فمن تيقن أنه مخلوق فسيؤمن بالآخرة، حيث إن الخالق الذي خلق من النطفة هيكلًا هكذا يتمتع بكل هذه القوى الظاهرة والباطنة قادر على خلقه مرة أخرى » (١).

ويرى اليزدي أنه يمكن تقسيم الآيات التي تناولت المعاد في القرآن إلى خمسة مجموعات (٢): كل واحدة منها حوت جانبًا من جوانب الأدلة القرآنية على يوم النشور، وردّ شبه المنكرين له:

١ - نزع سلاح المنكرين للبعث: فلا يوجد عند المنكرين للمعاد برهان على ما يقولون، بل هي مجرد أوهام وظنون: ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ [الجمانية: ٢٤]، ولذلك طالبهم القرآن بالدليل: ﴿ .. قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [النمل: ٦٤].

٢ - لفت الأذهان إلى ظواهر كونية مشابهة للمعاد: ﴿ فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُنجًى لِّلْمُوتِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الروم: ٥٠]، وكقصة أصحاب الكهف: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الكهف: ٢١].

وتذكير الناس ببعض المعجزات؛ كمعجزة إحياء الطير لإبراهيم عليه السلام: ﴿ وَإِذْ قَالَ لِأَبِيهِمْ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِمُتُؤْمِنٌ قَالِ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمِئِنَّ قُلُوبُكَ قَالَ فَاخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْمَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٦٠].

وبعث بني إسرائيل بعد موتهم: ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَاكَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكَ لِمَلَكِكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [البقرة: ٥٦].

وإحياء البقرة أمامهم: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُغِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ٧٣].

وكقصة الذي ﴿ ... مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُغِي اللَّهُ هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةً عَامًا ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتُ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل

(١) آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٨٧).

(٢) انظر: محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٤٠٥ - ٤٢٠).

لَيْسَتْ مِائَةٌ عَامٍ فَأَنْظُرُ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهٗ وَأَنْظُرُ إِلَى حِمَارِكَ وَلَنْجَمَكَ
ءَايَةً لِلنَّاسِ وَأَنْظُرُ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِرُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ
لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [البقرة: ٢٥٩] .

ومعجزة عيسى عليه السلام في إحياء الموتى: ﴿ وَأُتِيَ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٤٩] .

٣ - أجوبة القرآن عن شبهات المنكرين للمعاد: كشبهة استحالة إعادة المعدوم، وشبهة
عدم قابلية البدن للحياة الجديدة، والتشكيك في القدرة على إعادة الخلق مرة أخرى، قال
تعالى: ﴿ وَصَرَبَ لَنَا مِثْلًا وَسَيِّءٌ خَلَقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي
أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا
أَنْشَأْتُم مِّنْهُ تُوفُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ
وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ [يس: ٧٨ - ٨٢] .

وقال: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْ يَخْلُقْهُنَّ بِقَدِيرٍ عَلَىٰ أَنْ
يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُمْ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿ [الأحقاف: ٣٣] .

وقال: ﴿ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْخِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ
وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿١١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن
لَبِئْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿ [الإسراء: ٥١، ٥٢] .

وقال: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَىٰ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [الروم: ٢٧] .

٤ - التأكيد على أن المعاد وعد محتوم لا يقبل التخلف، من خلال الخبر الصادق
﴿ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٧]، وأن مهمة
الأنبياء كانت الإنذار من القيامة: ﴿ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ ﴿ [غافر: ١٥] .

ويؤكد القرآن المعاد بما وصفه من نعيم للطائعين المؤمنين بالآخرة، ومن عذاب للعصاة
الكافرين: ﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿ [الفرقان: ١١]، ﴿ إِنَّ
الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفَجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿ [الانفطار: ١٣، ١٤] .

٥ - استخدام البرهان العقلي على ضرورة المعاد؛ لأن الله تعالى منزّه عن العيب،
وهو تعالى أعدل الحاكمين: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾

فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَبِيرِ ﴿ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، ﴿ ... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]، فلا مساواة بين المتقين والكافرين: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿ وَاللَّهُ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ [الحجرات: ٢١، ٢٢]، ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَعِينًا ﴾ [الأنبياء: ١٦] .

وهذه الأدلة القرآنية ومثيلاتها كافية وافية شافية؛ ولذلك فلا داعي للاعتماد على أدلة واهية للتدليل على المعاد، كالاستدلال بتحضير الأرواح، وقد استدل به اليزدي قائلاً: « من الأدلة الباعثة على الاطمئنان بوجود الروح واستقلاليتها وبقائها بعد الموت هو الأحلام والأطيايف الصادقة، فقد اطلع بعض الأفراد بعد موتهم شخصاً نائماً على بعض المعلومات الصحيحة، وكذلك من الأدلة تحضير الأرواح المقترن بشواهد قاطعة ومعبرة، وكذلك يمكن إثبات تجرد الروح بكرامات أولياء الله، وحتى بعض أعمال المرتاضين » (١).

فالأدلة الصحيحة تغني عن الأدلة الواهية. ومن المعلوم أن مسألة تحضير الأرواح لم ترق إلى درجة اليقين في ميزان العلم، وقد وقع في خطأ الاعتماد عليها بعض العلماء، والحقيقة أن الاعتماد على أدلة ضعيفة واهية في مسألة صحيحة يقلل من ثبوتها في الأذهان، ويسبب البلبلة الفكرية؛ لأن سقوط الدليل الضعيف الموهوم قد يورث لدى البسطاء سقوط المسألة الصحيحة برمتها.

ولئن اختلف في عذاب القبر أللروح وحدها أم لها مع الجسد؛ فإن مذهب الاثني عشرية أن المعاد للجسد والروح معاً، قال عبد الله شبر: « اعلم أن المعاد الجسماني مما يجب الاعتقاد به، ويكفر منكره، أما المعاد الروحاني، أعني التذاذ النفس بعد المفارقة وتألمها باللذات والآلام العقلية فلا يتعلق التكليف باعتقاده ولا يكفر منكره ولا مانع شرعاً ولا عقلاً من إثباته... أما القائلون بالمعاد الروحاني والجسماني معاً فقد أرادوا أن يجمعوا بين الحكمة والشريعة... القول بالمعاد الجسماني والروحاني معاً أقوى المذاهب، وهو الذي دلت عليه الآيات القرآنية والأحاديث المعصومية، وأيدته المؤيدات العقلية، حيث إن الكاسب للطاعات والمعاصي والبدن والروح معاً فينبغي عودهما معاً » (٢).

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣٩٣).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٤٠، ٣٤١)، وانظر: الزنجاني: عقائد الإمامية (ص ٦٣).

ويحاول اليزدي أن يعلل إنكار المشركين للمعاد بعاملين: الأول: « إنكار كل أمر غيبي وغير محسوس، والثاني: عامل مختص بموضوع المعاد أي الرغبة بالتحلل وعدم الشعور بالمسؤولية؛ وذلك لما ذكرناه من أن الاعتقاد بالقيامة والحساب يعتبر دعامة قوية وصلبة للشعور بالمسؤولية، ودافعاً قوياً لتقبل الكثير من الضوابط على السلوك والأعمال، والكف عن الظلم والاعتداء والفساد والمعصية، ويانكاره سوف يفتح الطريق أمام تدفق التصرفات المتحللة وعبادة الشهوات والأنانيات والانحرافات، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا العامل في قوله: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ نَجْمَعُ عِظَامَهُ ۗ بَلْ قَدِيرِينَ عَلَيَّ أَنْ تُسَوَّى بَنَاتُهُ ۗ بَلْ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ ۗ ﴾ [القيامة: ٣ - ٥] »^(١).

أشراط الساعة الكبرى:

تذكر لنا كتب الشيعة بعض أشراط الساعة وعلاماتها الكبرى مثل « خروج يأجوج ومأجوج كما نطق القرآن المجيد: ﴿ قَالُوا يَبْنَؤُا الْقَرْيَتَيْنِ إِنْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَيَّ أَنْ نَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ۗ ۝ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءٌ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ۗ ۝ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمِيذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَفُتِحَ فِي الْأُصُورِ لِيَجْمَعَنَّهُمْ جَمَاعًا ۗ ﴾ [الكهف: ٩٤ - ٩٩].

وقال تعالى: ﴿ حَقَّ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِمَّن كَلَّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ۗ ۝ وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا... ۗ ﴾ [الأنبياء: ٩٦، ٩٧] »^(٢).
ويضع الشيعة في مقدمة أشراط الساعة: خروج المهدي المنتظر، وهو الإمام الأخير، الثاني عشر عند الاثني عشرية، « وبعد الثاني عشر منهم ينتهي عمر الدنيا »^(٣).
ومن أشراط الساعة أيضًا: ظهور الدجال، وفيه أحاديث صحيحة متواترة عند أهل السنة، وكذلك ذكرته مصادر الاثني عشرية^(٤).

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣٧٩).
(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٠٢).
(٣) الشيخ محمد حسين الفقيه: لماذا أنا شيعي (ص ٤١)، بيروت (ط ٣)، (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).
وسياأتي تفصيل أحوال المهدي وأفعاله في مبحث خاص، في فصل العقائد الخاصة.
(٤) جاء في كتاب الروضة (الجزء الثامن من الكافي) رقم (٤٥٦) عن أبي جعفر عليه السلام قال سمعته يقول: ... وإته ليس من أحد يدعو إلى أن يخرج الدجال إلا سيجد من يبايعه. وجاء في فروع الكافي، الجزء الخامس، باب فضل الزراعة رقم (٣) عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « .. والله! ليزرعن الزرع وليغرسن التحل بعد خروج الدجال ».

وخروج دابة الأرض، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾ [النمل: ٨٢].
ومن أشراف الساعة: الدخان (١).

وكذلك طلوع الشمس من مغربها، « عن الصادق: إذا طلعت الشمس من الغرب آمن الناس كلهم، في ذلك اليوم: ﴿.. لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْتِنَاهَا لَوْ تَكُنَّ ءَامَنَتْ مِن قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِيهَا إِيْمَانًا خَيْرًا..﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وعنه: « إذا طلعت الشمس من مغربها فكل من آمن في ذلك اليوم لا ينفعه إيمانه » (٢).

النفخ بالصور:

وقد « ورد في الأخبار المتكاثرة المتظافرة من طرق العامة والخاصة أن الله تعالى خلق إسرافيل وخلق معه صورًا يعني قرنا له طرفان أحدهما في المشرق والآخر في المغرب، وهو قابض عليه منتظر لأمر الله تعالى، فإذا أمره نفخ فيه » (٣). قال تعالى: ﴿ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠٣﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١-١٠٣].

حشر الإنس والجن وباقي الخلق:

يحشر الخلق يوم القيامة، قال تعالى: ﴿ يَوْمَ نَسْفَعُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴾ [ق: ٤٤].

فيجمع الإنس والجن، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعُشَرُ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَانُكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. وقال: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثَاً ﴾ [مرم: ٦٨].
ويحشر الوحش والبهائم، قال شير: « يحشر الخلق إلى أرض المحشر، قال تعالى:

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٠٣، ٤٠٤). ولا يغيب عن الذهن ما ذكره بعض الغلاة من أن علياً عليه السلام هو « صاحب الميسم » أصول الكافي (١/١٩٢، ١٩٣)، كتاب التوحيد باب النوادر. ففسره المجلسي بأنه (دابة الأرض)! كما مر في فصل الغلاة. وانظر: مرآة المجلسي (٢/٣٦٨).
وعبد الله بن شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٠٨).
(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٠٤).
(٣) المصدر السابق (ص ٤٠٥).

﴿ وَإِذَا أَلُوهُنَّ حُشْرَتٌ ﴾ [التكوير: ٥]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أَمْثَالِكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْأَلْتَكْتَابِ مِنْ شَيْءٍ نَعَّرْنَا إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ [الأنعام: ٣٨]، والمشهور بين المفسرين أن المراد بالحشر في الآيتين الحشر يوم القيامة... فيقتصر للجماة من القرناء» (١).

الإيمان بالكوثر والحوض:

« عن ابن عباس قال: لما نزل على رسول الله ﷺ: ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ [الكوثر: ١] قال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما هذا الكوثر؟ قال: « نهر أكرمني الله به »، قال علي رضي الله عنه: إن هذا النهر شريف فانعتة لنا يا رسول الله! قال: « نعم يا علي، الكوثر نهر يجري تحت عرش الله، ماؤه أبيض من اللبن، وأحلى من العسل، وألين من الزبد، حصاه من الزبرجد والياقوت والمرجان، حشيشه الزعفران، ترابه المسك الأذفر، قواعده تحت عرش الله ﷻ، ثم ضرب رسول الله يده في جنب علي أمير المؤمنين وقال: يا علي! إن هذا النهر لي ولك ولحبيبتك من بعدي» (٢). وروى الصدوق في الأمالي والعيون بإسناده إلى الرضا رضي الله عنه... عن رسول الله ﷺ قال: من لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله على حوضي» (٣).

« وفي مجالس المفيد عن أمير المؤمنين قال: والله لأذودن بيدي هاتين القصيرتين عن حوض رسول الله أعداءنا، وليردنه أحببنا» (٤).

وقد جاء عند أهل السنة بهذا المعنى أنه يذاد عن حوض النبي ﷺ بعض الناس من أمته، قال رسول الله ﷺ: « ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧]. فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» (٥). وفي رواية: « فأقول: فسحقاً» (٦). نسأل الله العافية.

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤١٣).

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٤٨).

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (٣٤/٨).

(٤) المصدر السابق (ص ٤٤٩).

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧] رقم (٤٣٤٩). قال الإمام الخطابي: «إنما وقع - أي الارتداد - لبعض جفاة العرب، ولم يقع من أحد الصحابة المشهورين». انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢٨٦/٨).

(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب تفسير سورة المائدة، تفسير قوله تعالى: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ =

الشفاعة:

وإذا كان موقف المعتزلة من مرتكب الكبيرة قد أوصلهم إلى إنكار الشفاعة لأهل الكبائر، وتأويل نصوصها بأنها ثابتة للتائبين لا المصيرين^(١)، فإن الإمامية يخالفونهم في هذا فيثبتون الشفاعة لمرتكبي الكبائر:

فقد روى الشيعة قول النبي ﷺ: « .. ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي ». ثم قال العلامة: « إنما شفاعتي لأهل الكبائر من أممي، فأما المحسنون فما عليهم من سبيل ». قال الحسين بن خالد: فقلت للرضا عليه السلام: يا ابن رسول الله فما معنى قول الله ﷻ: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى اللَّهُ ﴾ دينه^(٢). « عن الصادق عن آبائه عنه ﷺ قال: « ثلاثة يشفعون إلى الله ﷻ فيشفعون: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء »^(٣).

ويرون أن « الفرق بين الشفاعة الصحيحة والشفاعة الباطلة هو الفرق بين الاعتقاد بالولاية والتدبير بإذن الله، والولاية والتدبير المستقل »^(٤).

- عدم الركون إلى الشفاعة من دون العمل:

الشفاعة هي أعظم أمل وآخر ملجأ للمؤمنين المذنبين هو الشفاعة، « ولكن في الوقت نفسه يلزم عدم الأمن من (المكر الإلهي) وأن يكونوا في حذر تام، حتى لا تصدر منهم تلك الأعمال التي تؤدي لسوء العاقبة وسلب الإيمان حال الاحتضار والموت »^(٥).

- شروط قبول الشفاعة:

أولاً: الإذن الإلهي، إذ « الشرط الأساس لشفاعة الشفيع أو قبول الشفاعة في حق المشفوع له: هو الإذن الإلهي كما جاء في سورة البقرة: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا

= شَهِيدًا مَّا دُمَّتْ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَيَّتْنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿ [المائدة: ١١٧] رقم (٤٣٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٧)، وكتاب الفضائل، وباب إثبات حوض رآه ﷺ وصفاته ورقم (٢٢٩٥).

(١) وقد خالفهم في هذا أبو هاشم فأثبتها للمصيرين موافقاً للأشاعرة وجمهور أهل السنة. انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٣٤/٨).

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٥٣).

(٤) المرجع السابق (ص ٥٠٤).

(٥) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٥٠٢).

يَأْذِنُهُ... ﴿ [البقرة: ٢٥٥]، ويقول: ﴿ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ﴾ [يونس: ٣]، ويقول أيضًا في سورة طه: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أِذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ [طه: ١٠٩] «^(١).
ثانيًا: وهناك شروط خاصة في الشافعين: فهناك « خصائص المأذونين ومميزاتهم...
هناك آيات أخرى يمكن التوصل من خلالها إلى شروط أكثر وضوحًا يلزم توافرها في الطرفين: الشفعاء والمشفوع لهم، ومنها الآية (٨٦) من سورة الزخرف حيث تقول: ﴿ وَلَا يَمَّاكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٦]...
القدر المتيقن من الشفعاء الذين يتوفر فيهم هذان الشرطان هم المعصومون ﷺ » «^(٢).
ولكن مرَّ أن الأنبياء والعلماء والشهداء يشفعون أيضًا.

ثالثًا: وهناك شروط في حق المشفوع لهم، إذ « يستفاد من بعض الآيات أن المشفوع لهم لا بد أن يكونوا مرضيين عند الله كما جاء في الآية [٢٨] من سورة الأنبياء حيث تقول: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى.. ﴾ [الأنبياء: ٢٨] » «^(٣).

وهنا تساؤل: إن كانوا مرضيين فما حاجتهم للشفاعة؟ لعل المعنى لمن ارتضى الله أن يشفعوا له، فيكون الضمير عائدًا إلى الشافعين لا المشفوع فيهم، أو كما أجاب اليزدي عن هذا التساؤل: « ليس المراد من كون المشفوع مرضيًا عند الله أن تكون أعماله كلها مرضية، فإنه لو كان كذلك لما احتاج للشفاعة، بل المراد أن يكون الشخص نفسه مرضيًا من حيث دينه وإيمانه، كما فسر في الروايات بهذا المعنى » «^(٤).

ولذلك فمن شروط قبول الشفاعة عند الشيعة ألا يكون المشفوع فيه ناصبيًا: « عن الصادق عليه السلام إن المؤمن ليشفع لحميمه إلا أن يكون ناصبيًا، ولو أن ناصبيًا شفع له كل نبي مرسل وملك مقرب ما شفعوا » «^(٥).

الصراط والميزان:

قال الصدوق في اعتقاداته: « الصراط حق، وأنه جسر جهنم، وأن عليه ممر جميع

(١) المرجع السابق (ص ٥٠٥).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٥٠٦).

(٣) المرجع السابق نفسه.

(٤) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٥٠٦).

(٥) المصدر السابق (ص ٤٥٥). والناصبي: ورد في تفسيره معنيان، أحدهما مضيق، وهو من نصب العناء لآل البيت، ومعنى يتوسع فيه بعض الشيعة: وهو يطلق على كل من خالفهم من أتباع الفرق الإسلامية، وفي رأسها أهل السنة والجماعة!.

الخلق، قال الله ﷻ: ﴿ وَإِنْ يَنْكُرْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴾ [مریم: ٧١] « (١)، وقد ذكر الصدوق في الأمالي أن الناس على الصراط أقسام: « منهم من يمر مثل البرق ومنهم من يمر مثل عدو الفرس، ومنهم من يمر حبواً، ومنهم من يمر مشياً، ومنهم من يمر متعلقاً قد تأخذ النار منه شيئاً، وتترك شيئاً » (٢).

وجاء في الخبر بأن « الصراط أدق من الشعرة وأحد من السيف على الكافر... وهذا مثل مضروب لما يلحق الكافر من الشدة في عبوره على الصراط » (٣).

أما الميزان، فقد ذكر مراراً في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿ وَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِيبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال: ﴿ وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ ﴾ [الأعراف: ٨، ٩]. وقال: ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٢، ١٠٣].

وهناك مدرستان عند الاثني عشرية تترددان بين الحقيقة والحجاز في التعامل مع نصوص الميزان يوم القيامة: فالمفيد يؤول الميزان، ولا يرى له وجوداً حسيّاً، فيقول: « والموازن هي التعديل بين الأعمال والحجزاء عليها... فليس الأمر في معنى ذلك على ما ذهب إليه أهل الحشو من أن في القيامة موازين كموازين الدنيا لكل ميزان كفتان توضع الأعمال فيها؛ إذ الأعمال أعراض، والأعراض لا يصح وزنها، وإنما توصف بالثقل والخفة على وجه الحجاز » (٤).

وقال شبر: « فأصل الميزان مما لا شك فيه ولا شبهة تعتريه، وإنكاره كفر، وإنما الخلاف في معناها، فالذي عليه أكثر المفسرين والمتكلمين من العامة والخاصة الحمل على ظاهرها، وأن الله تعالى في القيامة ينصب ميزاناً له لسان وكفتان، فتوزن به أعمال العباد الحسنات والسيئات، ثم تختلف في كيفية الوزن؛ حيث إن الأعمال أعراض لا يجوز عليها الإعادة،

(١) الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٧٠).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٥٨، ٤٥٩).

(٣) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٨٩). وانظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين

(ص ٤٥٧).

(٤) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٩٣).

ولا يكون لها وزن، ولا تقوم بأنفسها، فقيل توزن صحائف الأعمال، وقد روى العامة.. سئل رسول الله ﷺ عما يوزن يوم القيامة فقال: الصحف.... وقال الشيخ البهائي رحمه الله: الحق أن الموزون في الآخرة هو نفس الأعمال لا صحائفها» (١).

« وذهب جماعة من متكلمي الخاصة والعامة إلى أن الميزان كناية عن العدل والقضاء؛ لأن العدل في الأخذ والإعطاء لا يظهر إلا بالكيل والوزن في الدنيا، فجعل الوزن كناية عن العدل، والدليل على ذلك أن الميزان إنما يراد ليتوصل به إلى معرفة مقادير الشيء، ومقادير الثواب والعقاب لا يمكن إظهارها بالميزان؛ لأن أعمال العباد أعراض، وهي قد فنيت وعدمت، ووزن المعدم محال... قال الشيخ المفيد رحمه الله: الموازين هي التعديل بين الأعمال والجزاء عليها ووضع كل جزء في موضعه، وإيصال كل ذي حق إلى حقه» (٢).

ولكن شبر رفض تأويل هذه الحقائق، فقال: « أقول: لا يمكن الخروج عن ظواهر الآيات والروايات بهذه الوجوه العقلية والمؤيدات الاعتبارية، والاعتبارات الوهمية التي هي أوهن من بيت العنكبوت، وإنه لأوهن البيوت... والأحوط والأولى الإيمان بالميزان ورد العلم بحقيقتها إلى الله وأنبياؤه وخلفائه، ولا نتكلف علم ما لم يوضح لنا بصريح البيان والله العالم بالحال» (٣).

وهذا القول من شبر يدل على نزعة واضحة تجاه الإيمان بالنصوص، مع تسليم حقيقة معرفتها لله تعالى، وهو منهج أهل السنة في التعامل مع الغيبات.

واختلف أهل السنة هل توزن الأعمال، أم سجلات الأعمال يوم القيامة، فالذي عليه جمهورهم أن الأعمال هي التي توزن، لقول النبي ﷺ: « الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملآن (أو تملأ) ما بين السماوات والأرض» (٤). وقوله ﷺ: « كلمتان حببتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم» (٥).

وتتحدث كتب العقائد الشيعية عن « تطاير الكتب وإنطاق الجوارح» (٦)، وذلك

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٢٢، ٤٢٣).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٢٤). (٣) المصدر السابق (ص ٤٢٥).

(٤) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء.

(٥) أخرجه البخاري في التوحيد، رقم (٧١٢٤).

(٦) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٣٢).

مصدق قوله تعالى: ﴿ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَلْعَهُ فِي عُرْقِهِ وَنُحِرُّ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا ﴾ [الإسراء: ١٣]، وقوله: ﴿ وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ... ﴾ [فصلت: ٢١]، وقوله: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ [يس: ٦٥].

وهذه النصوص الواضحة البيّنة مما لا يسع أحدًا من المسلمين إنكاره ولا تأويله.

الإيمان بالجنة والنار:

« يجب الإيمان بالجنة والنار الجسمائيتين، على نحو ما تكاثرت به الآيات المتضاربة والأخبار المتواترة، وذلك من ضروريات الدين، لم يخالف فيه أحد من المسلمين، ومن أنكر وجودهما كالملاحدة أو أولهما بما يأتي كالفلاسفة فلا ريب في كفره »^(١).

« قال الصدوق في العقائد: اعتقادنا في الجنة والنار أنهما مخلوقتان، وأن النبي ﷺ قد دخل الجنة ورأى النار حين عرج به، واعتقادنا أنه لا يخرج أحد من الدنيا حتى يرى مكانه من الجنة أو من النار »^(٢).

وقد أكدت روايات الأئمة خلق الجنة والنار: فقد « روى الكشي في رجاله أنه قيل للرضا عليه السلام: إن فلانًا يزعم أن الجنة لم تخلق، قال: كذب، فأين جنة آدم، وعن ابن سنان قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام إن يونس يقول: إن الجنة والنار لم يخلقها، قال: فقال: ما له لعنه الله! فأين جنة آدم؟!»، وقال الصادق عليه السلام: « ليس من شيعتنا من أنكر أربعة أشياء: المعراج والمسألة في القبر، وخلق الجنة والنار، والشفاعة »^(٣). ولكن ورد عن بعض الشيعة قول بأن جنة آدم هي غير جنة الله يوم القيامة^(٤). والله تعالى أعلم.

قال ابن حزم رحمه الله تعالى: « ذهب طائفة من المعتزلة والخوارج إلى أن الجنة والنار لم يخلقها بعد، وذهب جمهور المسلمين إلى أنهما قد خلقتا، وما نعلم لمن قال أنهما لم

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٦٣) وقد أورد آراء الفلاسفة الإشراقيين: القائلين بأن الجنة والنار عالم متوسط بين المثال والظاهر كعالم الرؤيا في المنام، المشائين: القائلين بأن الجنة والنار والثواب والعقاب من قبيل اللذات والآلام العقلية « قال العلامة المجلسي: « لا يخفى على من راجع كلامهم وتتبع أصولهم أن جلها لا يطابق ما ورد في شرائع الأنبياء، وإنما يعضون ببعض أصول الشرائع وضروريات الملل على ألسنتهم في كل زمان حذرًا من القتل والتكفير من مؤمني أهل زمانهم » حق اليقين (ص ٤٦٤).

(٢) المصدر السابق (ص ٤٦٧).

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٦٥).

(٤) انظر: عبد الله شبر: حق اليقين (ص ٤٦٥).

يخلقا بعد حجة أصلاً... والبرهان على أنهما مخلوقتان بعد إخبار النبي ﷺ أنه رأى الجنة ليلة الإسراء... وكذلك أخبر ﷺ أن النار اشتكت إلى ربها فأذن لها بنفسين، وأن ذلك أشد ما نجده من الحر والبرد» (١).

ثم ذكر أن القاضي منذر بن سعيد (٢) كان يذهب إلى أن الجنة والنار مخلوقتان إلا أنه كان يقول أنها ليست التي كان فيها آدم ﷺ وامراته، فردّ عليه ابن حزم بحجج كثيرة منها: أن «اللَّهُ ﷻ وصف الجنة التي أسكن فيها آدم بأنها لا يجاع فيها ولا يعرى، ولا يظمأ فيها ولا يضحى، وهذه صفة الجنة بلا شك» (٣).

الجنة وأهلها:

وتذكر كتب أهل التشيع أن «أهل الجنة عشرون ومائة صف، هذه الأمة منها ثمانون صفًا» (٤)، وأهل الجنة يدخلون من أبوابها الثمانية على تقسيم بينته بعض روايات الأئمة: «عن علي ﷺ قال: إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيون والصديقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبتونا، فلا أزال واقفًا على الصراط، أدعو وأقول: رب سلم شيعتي، ومحبي وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش: قد أجيبت دعوتك، وشفعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربني بفعل أو قول في سبعين ألفًا من جيرانه وأقربائه، وباب منه يدخل سائر المسلمين، ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت». قال ميرزا الأصفهاني: «وجه الدلالة أن من تولى أمير المؤمنين ونصره وحارب من حاربه بفعل أو قول تقبل شفاعته في سبعين ألف» (٥).

وهناك جدال بين الصدوق والمفيد حول أصناف الناس في الجنة، فقد ذكر الصدوق

(١) الفصل في الملل (٦٨/٤)، وانظر: ابن أبي العز الحنفي: شرح العقيدة الطحاوية (٤٢٠/١).
 (٢) قاضي القضاة بقرطبة، سمع الحديث، وكان يميل إلى رأي داود الظاهري ويحتج له، ولي قضاء الجماعة سنة (٣٣٩هـ)، وطالت أيامه، فعاش (٨٢) سنة، وحمدت سيرته، وكان بصيرًا بالجدل والنظر والكلام فطنيًا بليغًا، ناصحًا قوًّا للحق لا يخاف فيه لومة لائم، توفي في الأندلس سنة (٣٥٥هـ)، (الذهبي: تاريخ الإسلام ٢٦٦٨/١).

(٣) الفصل في الملل (٦٨/٤، ٦٩).

(٤) بحار الأنوار (١٣٠/٧)، وانظر: آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٩٢).

(٥) بحار الأنوار (٣٩/٨) نقلًا عن أمالي الصدوق (ص ٣٩)، وانظر: ميرزا محمد تقي الأصفهاني: مكيال المكارم (٤٣٩/١). وجعفر سبحاني: في ظلال التوحيد (ص ٥٥٦).

في عقائده أن أهل الجنة « أنواع على مراتب، منهم المتنعمون بتقديس الله وتسيبحة وتكبيره في جملة ملائكته، ومنهم المتنعمون بأنواع المآكل والمشرب والفواكه والخور العين ». وقد رد عليه المفيد بأن القول بأناس لا يتلذذون في الجنة مأخوذ من قول النصارى الذين زعموا أن المطيعين في الدنيا يصيرون في الجنة ملائكة لا يطعمون ولا يشربون ولا ينكحون، وقد أكذب الله هذا القول في كتابه بما رغب العالمين فيه من الأكل والشرب والنكاح فقال: ﴿ أَكُلُوهَا ذَائِبٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَقَوُا... ﴾ [الرعد: ٣٥]، وقال: ﴿ حُرِّمَتْ مَقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَارِ ﴾ [الرحمن: ٧٢]... ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمِ فِي شُغْلٍ فَكَاهُونَ ﴿ ٥٦ ﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِرُونَ ﴾ [يس: ٥٥، ٥٦]، ﴿ .. وَأَتُوا بِهِمْ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ... ﴾ [البقرة: ٢٥].

فكيف استجاز من أثبت في الجنة طائفة من البشر لا يأكلون ولا يشربون ويتنعمون مما يتنعم به الخلق من الأعمال ويتألمون، وكتاب الله شاهد ضد ذلك والإجماع على خلافه... قال المجلسي بعد نقله... وأما استدلال الصدوق بقوله الطَّيِّبَاتِ: « وصنف يعبدونه حبًا له » على أنهم لا يتلذذون بالمآكل والمشرب والمناكح في الجنة؛ فهو ضعيف، إذ عدم كون الجنة مقصودة لهم عند العبادة لا تستلزم عدم تلذذهم بنعيمها في الآخرة ^(١). وهذا التيار وجد عند أهل السنة أيضًا، وشواهده كثيرة من أحوال بعض المحبين:

فقد جاء في شعب الإيمان للبيهقي بعض أخبار هؤلاء، فقد قالت إحدى العابدات:

أنت أنسي ومنيتي وسروري	قد أبقى القلب أن يحب سواكا
يا عزيزي ومنيتي واشتياقي	طال شوقي متى يكون لقاكا
ليس سؤلي من الجنان نعيم	غير أنني أريدها لأراكا

وسئلت العابدة رابعة العدوية - رحمها الله - عن السخاء فقالت: « أن تعبدوه حبًا له، لا لطلب جزاء ولا مكافأة، ثم أنشأت تقول: لولاك ما طابت الجنان، ولا نعيم جنة الخلد، قوم أرادوك للجنان، وقلبي سواك لم يرد ^(٢) ».

والحقيقة أن أقوال هؤلاء وأمثالهم لا تنفي وجود النعيم الحسني في الجنة، ولا تجعلهم

(١) انظر: سوق المفيد لعبارة الصدوق: الاعتقادات (ص ٧٧، ٧٨)، والرد عليه (ص ١١٧، ١١٨)، دار المفيد (٢ ط)، (١٤١٤هـ)، ونقل عنه المجلسي: بحار الأنوار (٨/ ٢٠٠ - ٢٠٠٢)، وعبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٤٣، ٣٤٤).

(٢) انظر: شعب الإيمان، للإمام البيهقي، العاشر من شعب الإيمان، باب في محبة الله ﷻ، معاني المحبة.

في عداد المنكرين له، ولكنها أحوال وأذواق محبة الله تعالى، إذا سيطرت على النفس فاستبدت بها، فأخرجها عن المألوف من الخلق، فرمى يعذر قائلها، وخصوصاً إذا لم يكن من طلبة العلم الشرعي، الذي يحجز المرء عن قول ما لا دليل عليه.

ولكن العجب ممن يردّد تلك الأقوال اليوم، ولا نرى عنده أحوال أولئك المحبين، فتراه يهش ويهش لحطام الدنيا الفاني، ثم ينكر على من اشتاق للجنة ونعيمها المادي!

أهل الأعراف:

الأعراف « مكان ليس من الجنة ولا من النار » (١). وفي القرآن الكريم سورة اسمها (الأعراف)، وقد ورد ذكر أهل الأعراف في معرض الحديث عن أهل الجنة والنار، في قوله تعالى: ﴿ وَبَيْنَهُمَا جَبَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْهِمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ [الأعراف: ٤٦، ٤٧].

أما في اعتقاد الإمامية، فإن « الأعراف يطلق على معان عديدة » (٢):

فبعض الروايات تذهب إلى أنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، وقد جاء في الروايات أن الله تعالى « يسكن الأعراف طائفة من الخلق لم يستحقوا بأعمالهم الجنة على الثبات، ولم يستحقوا الخلود في النار، وهم المرجون لأمر الله » (٣). وهذا التفسير موافق لتفسير أهل السنة.

وبعيداً عن نصوص أهل السنة؛ فإن بعض كتب الاثني عشرية تضيف إلى ذلك المعنى المشترك معنى خاصاً تعظيماً للأئمة، يقول شبر: « اعتقادنا في الأعراف أنه سور بين الجنة والنار عليه رجال يعرفون كلًّا بسيماهم، والرجال هم النبي وأوصياؤه، لا يدخل الجنة إلا من عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النار إلا من أنكرهم وأنكروه، وعند الأعراف المرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » (٤).

حكم الأطفال يوم القيامة:

أما أطفال المؤمنين، فقد قال الاثنا عشرية: « لا خلاف بين أصحابنا في أن أطفال

(١) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٨٦).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٠٧ - ٥٠٩).

(٣) المصدر السابق (ص ٨٧).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٠٧ - ٥٠٩).

المؤمنين يدخلون الجنة، كما دل عليه الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَهُمْ مِّنْ عَمَلِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ۝۱۰ وَأَمَدَدْنَاهُمْ بِفِكَهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴾ [الطور: ٢١، ٢٢] « (١) .

أما أطفال الكفار، فقد قال الاثنا عشرية: « ذهب المتكلمون متًا إلى أن أطفال الكفار لا يدخلون النار، لأن « تعذيب غير المكلف قبيح»، « فهم إما يدخلون الجنة، أو يسكنون الأعراف». « وقيل: إن الله تعالى يعاملهم يوم القيامة بعلمه فيهم، فمن علم أنه يكون سعيدًا لو بقي أدخله الجنة، ومن علم منه الشقاوة أدخله النار، وقيل: إنهم يكونون خدًا لأهل الجنة » (٢) .

« وذهب أكثر المحدثين منا إلى ما دلت عليه الأخبار الصحيحة الآتية أنهم يكلفون في القيامة بدخول النار المؤججة لهم»، وهذا الذي « عليه أكثر المحدثين من الشيعة، ومنهم الكليني والصدوق، أن الله يكلفهم في القيامة بأن يؤجج لهم نارًا يأمرهم بدخولها، ويشيب المطيع ويعاقب العاصي، ويدل على ذلك جملة من الأخبار.. » (٣) .

هذا تفصيل المسألة عند الاثني عشرية، أما عند أهل السنة والجماعة؛ فإن شبر يخلط بين رأي أهل السنة ورأي أزارقة الخوارج، فيقول: « وأما أطفال الكفار؛ فقد أشرنا إلى الخلاف في حالهم، فقيل بتبعيتهم لآبائهم وأنهم في النار، كما عليه أكثر العامة (٤)، ولم يذهب إليه أحد من الإمامية » (٥) !.

وهذا الرأي الذي ينسبه شبر لأهل السنة والجماعة ليس لهم برأي، فقد قال ابن حزم: « اختلف الناس في حكم من مات من أطفال المسلمين والمشركين ذكورهم وإناثهم؛ فقالت الأزارقة من الخوارج: أما أطفال المشركين ففي النار » (٦) .

فما رجحه محدثو الاثني عشرية في المسألة، هو الراجح أيضًا عند أهل السنة، للدلالة النصوص عليه.

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤١٩) .

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤١٩)، وانظر: المجلسي: بحار الأنوار (٣/٢٠٠)، آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٩٨، ٩٩)، مؤسسة المنار (ط ٢)، ترجمة لجنة الهدى.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤١٩) .

(٤) يعبر الشيعة بكلمة (العامة) عن مخالفتهم في المذهب من المسلمين، وفي مقدمتهم أهل السنة والجماعة.

(٥) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤١٩) .

(٦) الفصل في الملل والنحل (٦٠/٤) .

قال الأشعري: « قولنا في أطفال المشركين أن الله تعالى يؤجج لهم في الآخرة نارًا، ثم يقول لهم: اقتحموها، كما جاءت بذلك الرواية » (١). « وهذا أجود ما قيل في أطفال المشركين، وعليه تنزل جميع الأحاديث » (٢).

ويشهد لهذا القول حديث الإمام أحمد في المسند أنّ نبيّ الله ﷺ قال: « أربعة يوم القيامة؛ رجلٌ أصمٌ لا يسمع شيئاً، ورجلٌ أحمق، ورجلٌ هرمٌ، ورجلٌ مات في فترة. فأما الأصمٌ فيقول: ربّ! لقد جاء الإسلام وما أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: ربّ! لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالعر، وأما الهرم فيقول: ربّي لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً، وأما الذي مات في الفترة فيقول: ربّ! ما أتاني لك رسولٌ. فيأخذ موثيقهم ليطيعنّه، فيرسل إليهم: أن ادخلوا النار، قال فوالذي نفس محمد بيده! لو دخلوها لكانت عليهم بردًا وسلامًا » (٣).

قال ابن حجر: « وقد صحّت مسألة الامتحان في حقّ المجنون ومن مات في الفترة من طرق صحيحة، وحكى البيهقي في (كتاب الاعتقاد) أنّه المذهب الصحيح » (٤).

- علاوة على ذلك فقد اختار بعض علماء أهل السنة - كـبعض الاثني عشرية - نجاتهم مطلقًا يوم القيامة، ورجحه ابن حزم فقال: « ذهب الناس إلى أنهم في الجنة، وبه نقول » (٥). وقال الإمام النووي: « وهو الصحيح الذي ذهب إليه المحققون » (٦). لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

وعن عائشة عن النبي ﷺ قال: « رفع القلم عن ثلاث: عن التائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المجنون حتى يعقل أو يفيق » (٧).

ويشهد لنجاتهم قول النبي ﷺ: « كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء » (٨).

(١) أبو الحسن الأشعري: الإبانة (ص ٣٣).

(٢) كتب ورسائل ابن تيمية في العقيدة (٤/٢٤٦، ٢٤٧).

(٣) مسند أحمد، مسند المدنيين، حديث الأسود بن سريع ؓ رقم (١٦٢٥٣)، (١٢/٥١٨). دار الحديث - القاهرة. وإسناده صحيح.

(٤) فتح الباري (٤/٤٦٢).

(٥) الفصل في الملل والنحل (٤/٦٠).

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة.

(٧) سنن النسائي، كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج (١١/١٢٤) رقم (٣٤٣٢)، وهو حديث صحيح.

(٨) أخرجه البخاري: كتاب التفسير، باب سورة الروم، وأخرجه مسلم: باب معنى: كل مولود يولد على =

- وهناك قول وجيه، وهو التوقف فيهم، وتفويض أمرهم إلى الله تعالى، وهو قول ثابت في روايات السنة والشيعه أيضًا؛ وذلك لما ورد من أحاديث تنهى عن الحكم فيهم: ففي الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أطفال المشركين فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين » ^(١).

ولذلك قال البغدادي في أصول الدين: « قال بعضهم: في الجنة، وقال بعضهم: في النار، وقال بعضهم: هم خدام أهل الجنة ^(٢)، فإذا اختلف الناس فيهم فالسكوت أولى، فهم في مشيئة الله تعالى » ^(٣).

وهذه رواية شيعية مشابهة، تحض على التوقف فيهم، فقد « روى الكليني في الصحيح عن زرارة قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في الأطفال الذين ماتوا قبل أن يبلغوا؟ فقال: سئل عنهم رسول الله فقال: « الله أعلم بما كانوا عاملين »، ثم أقبل علي فقال: يا زرارة! هل تدري ما عنى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: قلت: لا، فقال: « إنما عنى كفوا عنهم، لا تقولوا فيهم شيئاً، وردوا علمهم إلى الله » ^(٤).

قال شبر: « أقول هذا هو الأصل في الباب، وينبغي أن يعلم مجملًا أن الله تعالى منزّه عن الظلم والجور » ^(٥).

وهذا هو الرأي الأحوط والأورع؛ خصوصًا إذا علمنا أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أمتنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وأرضاها عن الحكم بدخول أطفال المؤمنين الجنة، رغم أن نجاتهم محل اتفاق تقريبًا بين المتكلمين سنة وشيعه - ففي الحديث: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: دعي رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبي من الأنصار، فقلت: يا رسول الله! طوبى لهذا؛ عصفور من عصفير الجنة، لم يعمل السوء، ولم يدركه. قال: لا أو غير ذلك يا عائشة! إن

= الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٥٨)، ومعنى يمجسانه: يجعلانه على دين المجوس عبدة النار.

(١) صحيح البخاري: كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين رقم (١٣١٧)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين رقم (٢٦٥٨).

(٢) عن الحسن أن سلمان قال: أولاد المشركين خدم لأهل الجنة ثم قال الحسن: ما يعجبون أكرمهم الله، وأكرم بهم. مصنف عبد الرزاق (١١٧/١١)، رقم (٢٠٠٧٩)، وهو حديث صحيح.

(٣) أصول الدين (ص ٢١٠).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٢١).

(٥) المصدر السابق نفسه.

الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم» (١).

ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنه وهو على المنبر: قال رسول الله ﷺ: « لا يزال أمر هذه الأمة مؤامناً - أو مقارباً - ما لم يتكلموا في الولدان والقدر ». قال أبو حاتم: الولدان: أراد به أطفال المشركين (٢).

النار أعادنا الله منها:

تصف الروايات جهنم، قال النبي ﷺ: « حين خلق النار نفخت ألف عام حتى احمرت، ثم نفخت ألف عام حتى ابيضت، ثم نفخت ألف عام حتى اسودت، وقد انتهوا الآن من نفخها » (٣). وهذا الحديث يتضمن إثبات خلق النار كما يتضمن وصفها. وفي بحار الأنوار: قال ﷺ: « إن نار الدنيا أقل من نار الآخرة بسبعين درجة، ونار جهنم أشد من نار هذه الدنيا بسبعين درجة » (٤).

واتفق أهل السنة والجماعة على أنه لا يخلد في النار إلا الكافرون المشركون.

ولكن يؤمن الشيعة وأهل السنة أنه يدخلها بعض عصاة المسلمين، فيعذبون ثم يدخلون الجنة بفضل الله وكرمه، قال المفيد: « وقد يدخلها بعض من عرف بمعصية الله تعالى غير أنه لا يخلد فيها، بل يخرج منها إلى النعيم المقيم، وليس يخلد فيها إلا الكافرون » (٥).

- جهود علماء الاثني عشرية في الردّ على الشبهات حول الجنة والنار:

ولقد حاول بعض كتّاب الشيعة أن يقربوا بعض مفاهيم الغيب للناس، بضرب

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب القدر، برقم (٢٦٦٢). وقد حاول ابن حزم أن يعيد هذا النص عن الاستشهاد قائلاً: « وهذان الخبران لا حجة لهما في شيء منهما إلا أنهما إنما قالهما رسول الله ﷺ قبل أن يوحى إليه أنهم في الجنة » الفصل (٦٣/٤)، ولكن كلامه هذا يحتاج إلى دليل، فنحن نعلم أنه قد يولد المرء مسلماً فإذا كبر ربما ارتد والعياذ بالله، وخير الغلام الذي قتله الخضر دليل على هذا، وهو في صحيح مسلم. (٢) رواه ابن حبان في صحيحه، كتاب التاريخ، ذكر الإخبار عن الأمانة التي إذا ظهرت في العلماء زال أمر الناس عن سننه. قال الهيثمي: مجمع الزوائد (٢٠٢/٧) : « رواه البزار والطبراني في الكبير والأوسط ورجال البزار رجال الصحيح ».

(٣) بحار الأنوار (٢٨٠/٨)، وانظر: آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٤٥).

(٤) بحار الأنوار (١١٣/١٠٨).

(٥) المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (٩٥ - ٩٧).

الأمثال من واقع الناس المعاش، وهذا أمر لا غضاضة فيه، بل به تثبت النفوس الحائرة، فيزداد العقل اقتناعاً، والقلب اطمئناناً.

وعلى سبيل المثال؛ فإذا استغرب بعض الناس أن أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون، فيمكن أن يمثل لهم بحال « الجنين في بطن أمه يتغذى ولا يتغوط »^(١).

وإذا استغربوا حال الجنة بلا شمس ولا قمر؛ ضرب لهم المثل بالغسق والشفق، بعيد غروب الشمس، وبعيد طلوع الفجر، « كساعة بين الطلوعين »^(٢). فإذا سهل ذلك في الدنيا، فهو في الآخرة أسهل، ﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾ [إبراهيم: ٤٨].

وكذلك حاول بعض العلماء أن يردّ على الشبه والأسئلة التي ترد على بعض قضايا الجنة والنار، وعلى سبيل المثال، شبهة: كيف يعاقب الإنسان على الذنب المحدود بزمن بعقاب خالد لا ينتهي؟ ألا يخالف ذلك مبدأ العدل الإلهي؟ يجيب اليزدي قائلاً: « إن هناك بعض الجرائم تعقبها آثار سيئة تمتد إلى مدة طويلة رغم قصر مدة الجريمة، فمثلاً لو فقأ الإنسان عينه هو أو عيون الآخرين فأعماها، فإن هذا الفعل يتم في مدة قصيرة جداً، ولكن نتيجته وهي العمى تمتد إلى نهاية العمر، وكذلك الذنوب الكبيرة لها آثارها الأخروية الأبدية، وإذا لم يتوقّر للإنسان في هذه الدنيا مستلزمات جبرانها، كالتوبة مثلاً، فإنه سوف يعيش آثارها السيئة، وإلى الأبد، فكما أن بقاء عمى الإنسان إلى نهاية العمر بجريمة لم تستغرق إلا لحظة واحدة لا ينافي العدل الإلهي، فكذلك الابتلاء بالعذاب الأبدي نتيجة لارتكاب الذنوب الكبيرة لا ينافي العدل الإلهي، وذلك نتيجة الذنب الذي ارتكبه المذنب عن سابق وعي وإصرار »^(٣).

أما تفصيل الحديث عن نعيم الجنة وعذاب النار، فلا حاجة إلى التطويل فيه فقد تكفّلت بتفصيله آيات القرآن الكريم، ونصوص الحديث لدى السنة والشريعة مما لا يترتب عليه أي خلاف، نسأل الله الفردوس الأعلى من الجنة، ونعوذ بالله من النار.

دور التشيع في صياغة نصوص أحداث يوم القيامة:

تمتد يد التشيع لتصوغ أحاديث كثيرة تغلو في علي ﷺ والأئمة، ليس في الدنيا فقط

(١، ٢) الشيخ دستغيب: الدار الآخرة (ص ١٢٣).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٦٩ - ١٧١).

بل يوم القيامة، بل إن وجوب الإيمان بمنزلة علي والأئمة يوم القيامة يكاد يكون من ضروريات الدين، شأنه شأن منازل النبي ﷺ ومواقفه في القيامة، قال شبر: « الإيمان بالوسيلة واللواء والحوض والشفاعة وسائر منازل النبي ﷺ وأهل بيته في القيامة، وقد تواترت بذلك الأخبار من طرق العامة والخاصة، بل كاد أن يكون من ضروريات الدين » (١).

وسنعرض فيما يلي لبعض هذه اللمسات الشيعية في روايات أحداث يوم القيامة:

- تؤكد الروايات أن عليًا قسيم الجنة والنار، حيث يقسم الناس إلى فسطاطين، فسطاط الجنة وفسطاط النار. فعن عليّ ﷺ أنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: « يا علي! أنت قسيم الجنة والنار يوم القيامة، تقول للنار: هذا لي، وهذا لك » (٢).

وجاء « عن الصادق ﷺ قال: إذا كان يوم القيامة وضع منبر يراه جميع الخلائق، فيصعد عليه رجل فيقوم وعن يمينه ملك، وعن يساره ملك، ينادي الذي عن يمينه: يا معشر الخلائق! هذا علي بن أبي طالب يُدخل الجنة من يشاء، وينادي الذي عن يساره: هذا علي بن أبي طالب يُدخل النار من يشاء » (٣).

- ويظهر دور علي على الصراط: روى الشيخ الطوسي في أماليه من طرق المخالفين عن أنس عن النبي ﷺ قال: « إذا كان يوم القيامة نصب الصراط على جهنم لم يجز عليه إلا من كان معه جواز من ولاية علي بن أبي طالب ﷺ، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَقَفُوهُ إِتْمَمَ مَسْئُولُونَ ﴾ [الصفات: ٢٤] » يعني: عن ولاية علي بن أبي طالب (٤).

وذكر المفيد وغيره أن الخطاب في قوله تعالى: ﴿ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَيْنٍ ﴾ [ق: ٢٤] لمحمد ﷺ وعلي ﷺ، وأن النبي محمد ﷺ على يمين الصراط، وعلي على شماله (٥).
« وجاء في الخبر أنه لا يعبر الصراط يوم القيامة إلا من كان معه براءة من علي بن أبي طالب من النار » (٦).

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٤١).

(٢) ابن بابويه: عيون أخبار الرضا (ص ٢٣٩)، بحار الأنوار (١٩٤/٣٩).

(٣) الصدوق: علل الشرائع (١٦٤/١)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٢٩/٧).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٦٠).

(٥) المفيد: تصحيح اعتقادات الإمامية (ص ١٠٨)، وانظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين

(ص ٤٤٣، ٤٤٤).

(٦) الشيخ المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٨٨).

- ولآل البيت مكانة يوم القيامة يغيب عنها كثير من الأنبياء والمرسلين، فقد « روى القمي في تفسيره عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام قال: إذا كان يوم القيامة دعي محمد صلى الله عليه وآله فيكسى حلة وردية، ثم يقام عن يمين العرش، ثم يدعى بإبراهيم عليه السلام فيكسى حلة بيضاء، فيقام يسار العرش، ثم يدعى بعلي أمير المؤمنين فيكسى حلة وردية فيقام على يمين النبي صلى الله عليه وآله، ثم يدعى بإسماعيل عليه السلام، فيكسى حلة بيضاء، فيقام عن يسار إبراهيم، ثم يدعى بالحسن، فيكسى حلة وردية، فيقام عن يمين المؤمنين، ثم يدعى بالحسين، فيكسى حلة وردية، فيقام عن يمين الحسن، ثم يدعى بالأئمة فيكسون حلاً وردية، فيقام كل واحد عن يمين صاحبه، ثم يدعى بالشيعة فيقومون أمامهم، ثم يدعى بفاطمة ونسائها من ذريتها » (١).

في حين جاء في مصادر أهل السنة أن أول من يكسى يوم القيامة: إبراهيم عليه السلام: عن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال: « أول من يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام » (٢).

- وتزعم إحدى الروايات أن علياً يدخل الجنة قبل النبي الخاتم صلى الله عليه وآله، فقد جاء: عن السجاد عليه السلام عن آبائه عن علي قال: قال لي رسول الله: « أنت أول من يدخل الجنة » فقلت: يا رسول الله! أدخلها قبلك؟! قال: « نعم، لأنك صاحب لوائي في الآخرة، كما أنك صاحب لوائي في الدنيا، وصاحب اللواء هو المتقدم » (٣).

- أما فاطمة الزهراء رضي الله عنها؛ ففي حديث أبي جعفر: « .. ينادي المنادي وهو جبرائيل: أين فاطمة بنت محمد؟ أين خديجة بنت خويلد؟ أين مريم بنت عمران؟ أين آسية بنت مزاحم؟ أين كلثوم أم يحيى بن زكريا؟ فيقمن، فيقول الله تعالى: يا أهل الجمع! لمن الكرم اليوم؟ فيقول محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين: لله الواحد القهار، فيقول الله تعالى: يا أهل الجمع! إني قد جعلت الكرم لمحمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين، يا أهل الجمع طأطأوا الرؤوس، وغضّوا الأبصار، فإن هذه فاطمة تسير إلى الجنة. فيأتيها جبرائيل بناقة من نوق الجنة » (٤).

ولو صحّ الخبر بهذا لكتنا من السعداء المصدّقين به، ولكن لم يصلنا بسند صحيح، بل

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٤٢).

(٢) متفق عليه، رواه البخاري في أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿ وَأَوَّلُ مَا تَلَّكَ اللَّهُ لَبَّاسًا ﴾ [النساء: ١٢٥] رقم (٤٤٦٣)، ورواه مسلم في صفة الجنة ونعيمها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة رقم (٢٨٦٠).

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٤٣، ٤٤٤).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٥٦)، وانظر رواية أخرى (ص ٤٦٠).

إنه مردود برواية شيعية تخالفه، فقد روى الصدوق في الأمالي بإسناده عن أمير المؤمنين قال: قالت فاطمة لرسول الله ﷺ: يا أبتاه! أين ألقاك يوم الموقف الأعظم، ويوم الأهوال، ويوم الفرع الأكبر؟ قال: «يا فاطمة! عند باب الجنة ومعني لواء الحمد، وأنا الشفيح لأمتي إلى ربي»، قالت: يا أبتاه! فإن لم ألقك هناك، قال: «القيني عند الحوض وأنا أسقي أمتي» قالت: يا أبتاه! وإن لم ألقك هناك؟ قال: «القيني عند الصراط وأنا قائم أقول: ربي سلّم أمتي» قالت: فإن لم ألقك هناك؟ قال: «القيني على شفير جهنم، أمنع شررها ولهبها عن أمتي». فاستبشرت فاطمة بذلك^(١).

فانظر إلى الفرق بين هاتين الروايتين؛ رواية تجعل فاطمة وبنيتها رضوان الله عليهم فوق الأنبياء والناس أجمعين، ورواية تجعل فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كغيرها من البشر، تخشى يوم القيامة، وتسأل عن موقع النبي ﷺ في أهوال ذلك اليوم، والنبي ﷺ ينبئها أن همّه في ذلك اليوم ليس فاطمة وحدها، بل أمته كلها، يقول: «ربي سلّم أمتي». وفاطمة رضوان الله عليها وبنوها مشمولة بدعائه هذا، ولا ريب.

وهذه الرواية تتفق مع رواية أهل السنة: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] جعل ﷺ يدعو بطون قريش بطناً بطناً: «يا بني فلان! أنقذوا أنفسكم من النار»، حتى انتهى إلى فاطمة فقال: «يا فاطمة ابنة محمد! أنقذي نفسك من النار، لا أملك لكم من الله شيئاً، غير أن لكم رحمًا سألها ببلالها»^(٢).

ومن المعلوم أن فاطمة وآل بيت النبي ﷺ لم يكونوا يتكلمون على نسبهم الطاهر، بل كانوا يعملون ويحسنون العمل، ويكفي ما رواه الشيعة وبعض مفسري أهل السنة في أسباب نزول قوله تعالى: ﴿يُؤْتُونَ بِالْذِّكْرِ وَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ وَيُطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مَشَكِيئًا وَبَيْنًا وَأَسِيرًا ﴿ إِنَّمَا نُنْعَمُكَو لِرُؤْحِهِ اللَّهُ لَا تَرْبُدُ مِنْكَو جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿ إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَطَطِرًا ﴿ فَوَقَدْهُمْ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَدْهُمْ نَضْرَةٌ وَسُرُورًا ﴿ وَجَزَّهَمُ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿ [الإنسان: ٧-١٢]. فقد ذكر البغوي عن مجاهد وعطاء عن ابن عباس أنها نزلت في علي وفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حين وقيا بنذرهما، وتصدقا بطعامهما. وهو قول الحسن البصري وقتادة رحمهما الله تعالى^(٣).

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٥٣).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في المسند (٣٣٣/٢)، ورواه الترمذي في سننه في تفسير القرآن (٢٠/٥) رقم

(٣٢٣٧)، في تفسير سورة الشعراء. وقال عنه: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) انظر: البغوي (أبو محمد، الحسين بن مسعود، ت ٥١٦ هـ): معالم التنزيل (٢٩٥/٨)، تحقيق محمد =

- وتمنح الروايات الشيعية أتباع المذهب الاثني عشري خصائص ليست لغيرهم. فإن « الناس يدعون بأسماء أمهاتهم يوم القيامة، إلا الشيعة فيدعون بأسماء آبائهم »^(١)!. وما سرّ هذا التفريق بين الشيعة وغيرهم؟ هل هو تلك الروايات الشيعية، التي تبين أن نسل غير الشيعة مشوب مختلط، بخلاف الشيعة؟

فعن علي بن أسباط يرفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: « إن الله - تبارك وتعالى - يبدأ بالنظر إلى زوّار قبر الحسين بن علي عليه السلام عشية عرفة. قال: قلت: قبل نظره إلى أهل الموقف؟ قال: نعم، قلت: وكيف ذلك؟ قال: لأن في أولئك أولاد زنا، وليس في هؤلاء أولاد زنا »^(٢). وعن أبي جعفر عليه السلام قال: « .. إن الناس كلهم أولاد بغايا ما خلا شيعتنا »^(٣)!. أما أهل السنة، فتقول رواياتهم: إن الناس ينسون يوم القيامة لأبائهم، كحال الدنيا، سواء أكانوا فاجرين أم صالحين؛ لقوله عليه السلام: « الغادر يرفع له لواء يوم القيامة يقال: هذه غدرة فلان بن فلان »^(٤)، وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه الذي فضّل فيه النبي صلى الله عليه وآله رحلة ما بعد الموت إلى نزول القبر: « فيصعدون بها، فلا يميزون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة، فيقولون: فلان ابن فلان »، وكذلك روح الكافر: « فيصعدون بها فلا يميزون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث، فيقولون فلان ابن فلان »^(٥).

= عبد الله النمر - عثمان جمعة ضميرية - سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع (ط ٤)، (١٤١٧هـ /

١٩٩٧م)، انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٣١/١٩).

(١) الفصول المهمة في أصول الأئمة (ص ١٢٤).

(٢) الشيخ الصدوق: معاني الآثار (ص ٣٩١، ٣٩٢)، تحقيق علي أكبر غفاري، طبعة انتشارات إسلامي، المجلسي: بحار الأنوار (٨٥/٩٨)، والحر العاملي: وسائل الشيعة ٤٦٢/١٤، والنوري الطبرسي: مستدرک الوسائل (٢٨٣/١٠).

(٣) الكليني: الكافي (٢٨٥/٨)، بحار الأنوار (٣١١/٢٤)، وسائل الشيعة (٣٧/١٦). وسيأتي تفصيل هذه الأمور وتفسيرها في الفصل الخامس من الرسالة.

(٤) حديث صحيح أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما يدعى الناس بأبائهم، رقم (٥٨٢٣)، وأخرجه مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر (١٧٣٥).

(٥) رواه الإمام أحمد في مسنده عن البراء بن عازب وهو صحيح. وتمامه للفائدة: عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله في جنازة رجل من الأنصار، واتهينا إلى القبر ولم يلحد، فجلس رسول الله وجلسنا حوله كأن على رؤوسنا الطير وفي يده عود ينكت به الأرض، فرفع رأسه فقال: استعينوا بالله من عذاب القبر. مرتين أو ثلاثاً، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة؛ نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة وحنوط من حنوط الجنة، =

- وتزعم روايات الشيعة أن أتباع الأئمة المبعدين عن الحوض يعودون إليه: « قال أبو جعفر عليه السلام: فبين وارد يومئذ ومصروف، فإذا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله من يصرف عنه من محبينا أهل البيت بكى، وقال: يا رب! شيعة علي، يا رب! شيعة علي، قال: فيبعث الله إليه ملكاً فيقول له: ما يبكيك يا محمد، قال فيقول: وكيف لا أبكي لأناس من شيعة أخي

= حتى يجلسوا منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان. قال: فتخرج فتسيل كما تسيل القطرة من في السماء، فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الخنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا، حتى ينتهوا إلى سماء الدنيا فيستفتحون له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهوا بها إلى السماء السابعة فيقول الله تعالى: اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله وأمنت به وصدقت، فينادي منادٍ من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مدّ بصره، قال: ويأتيه رجلٌ من أحسن الناس وجهها، حسن الثياب طيب الرائحة، فيقول: أبشر بالذي يسرك، فهذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت؟ فوجهك وجه الذي يأتي بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح. فيقول: ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي». قال: « وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح فيجلسون منه مدّ البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: تتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السقود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأن تن ريح خبيثة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهي بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له، فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله: ﴿لَا تَفْتَحْ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَرِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠] فيقول الله صلى الله عليه وآله: اكتبوا كتابه في سجّين في الأرض السفلى. فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَيَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ السَّمَاءُ فَتَخَفَّتْ الْعُلُكُ أَوْ تَهَوَّى بِدِ الرِّيحِ فِي مَكَانٍ سَحِينٍ﴾ [الحج: ٣١]. تعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه.. هاه.. لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه.. هاه.. لا أدري، فينادي منادٍ من السماء أن كذب فأفرشوه من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرّها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه، ويأتيه رجلٌ قبيح الوجه، قبيح الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول: من أنت، فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث. فيقول: ربّ لا تقم الساعة».

علي بن أبي طالب، أراهم قد صرفوا تلقاء أصحاب النار، ومنعوا من ورود حوضي، قال: فيقول الله ﷻ له: يا محمد! إني قد وهبتهم لك، وصفححت لك عن ذنوبهم، وألحقتهم بك وبمن كانوا يتولون من ذريتك، وجعلتهم في زمرك، وأوردتهم حوضك وقبلت شفاعتك فيهم» (١).

والله تعالى ليس بينه وبين أحد من خلقه نسب، فقد قال ﷻ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ۖ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣، ١٢٤].

إن روايات أهل السنة تؤكد أنه يذاد عن حوض النبي ﷺ من بدلوا دينهم، من أي الناس كانوا، ولو كانوا ممن رأى النبي ﷺ، ولا تقبل فيهم شفاعته، فقد قال ﷺ: «ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناذيتهم: ألا هلم!» - وفي بعض الروايات: «فأقول: يا رب! أصحابي، أصحابي» وفي رواية «أصحابي» - فيقال: «إنهم قد بدلوا بعدك. فأقول: سحقاً، سحقاً» (٢).

- وأثر التشيع واضح يتدخل حتى في الجنة، فقد جاء في بعض كتب الشيعة صفات الحور العين، وأنه «كتب الله بقلم القدرة على وجوههن بكلمات من نور على جانبه الأيمن: محمد رسول الله، وعلى الجانب الأيسر: علي ولي الله، وعلى الجبهة: الحسن، وعلى الذقن: الحسين» (٣)!

وما أظن هذه المسحة الشيعية على أخبار يوم القيامة إلا من بقايا أقاويل الغلاة، الذين ما فتئ أئمة أهل البيت يحذرون من كذبهم وافترائهم على ألسنتهم.

* * *

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٤٤٧، ٤٤٨).

(٢) صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، رقم (٢٤٩).

(٣) دستغيب: الدار الآخرة (ص ٣٥).



الفصل الرابع

العقائد الخاصة بالشيعة الاثني عشرية
(وفيه مباحث):

المبحثُ الأوَّلُ: الإمامة.

المبحثُ الثاني: عصمة الأئمة.

المبحثُ الثالث: التقية.

المبحثُ الرابع: البداء.

المبحثُ الخامس: الرجعة.

المبحثُ السادس: المهدي المنتظر: غيبته وأعماله.

المبحثُ السابع: بعض الممارسات الاثني عشرية المرتبطة بالعقيدة.

الْمَبْحَثُ الْأَوَّلُ

الإمامة



أولاً: ضرورة وجود إمام:

« اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الإمامة، وأن الأمة واجب عليها الانقياد لإمام عادل، يقيم فيهم أحكام الله، ويسوسهم بأحكام الشريعة التي أتى بها رسول الله ﷺ » (١).

فوجوب وجود حاكم عادل وإمام متبع شبه مجمع عليه بين المسلمين، ولا يعتد بمن خالفه، حيث إنه أغرق في المثالية، حيث قال أصحابه - وهم النجدات من الخوارج - :
« لا يلزم الناس فرض الإمامة، وأن عليهم أن يتعاطوا الحق بينهم » (٢).

وقد رأينا الناس لا ينصف بعضهم بعضاً مع وجود الحكام والأمراء، وقد قال تعالى:
﴿ وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ ﴾ [النساء: ١٢٨]، فكيف يكون حالهم مع فقد من يرعى العدل والنظام بين الناس؟

والظلم من شيم النفوس فإن تجدد ذا عفة فلعله لا يظلم (٣)

وعلى الرغم من هذا الاتفاق بين المسلمين على ضرورة وجود الإمام فإن أهل السنة رأوا أن هذا الوجوب شرعي يدخل في جملة ما أوجبه الشارع من أحكام شرعية فقهية.

قال اللقاني:

وواجب نصب إمام عدل بالشرع فاعلم لا بحكم العقل

(١) ابن حزم الأندلسي: الفصل في الملل والأهواء والنحل (٨٧/٤) دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت.
(٢) المصدر السابق نفسه، ويضاف إلى النجدات من الخوارج هشام بن عمر الفوطي البصري وأبو بكر عبد الرحمن بن كيسان الأصم من الطبقة السادسة من طبقات المعتزلة. ولا يعتد برأيهم. انظر: في مذاهب الإسلاميين: د. عامر النجار (ص ٤١٤ ، ٤١٥).

(٣) البيت للمتنبّي: انظر: تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزرازي: خزنة الأدب وغاية الأرب (١٩٣/١)، دار ومكتبة الهلال - بيروت، الطبعة الأولى (١٩٨٧ م). تحقيق: عصام شعيتو، وانظر: القلقشندي: صبح الأعشى (٢٠٧/٢) دار الفكر - دمشق (١٩٨٧ م) تحقيق يوسف علي الطويل.

فليس ركناً يعتقد بالدين فلا تنزغ عن أمره المبين^(١)

فالإمامة عند أهل السنة والجماعة فرع فقهي شرعي، وليست ركناً وأصلاً عقدياً. وهنا يظهر الخلاف بين أهل السنة والشيعة الاثني عشرية، إذ ليست الإمامة عند الشيعة مسألة من مسائل الفروع كما هي عند أهل السنة والجماعة، بل هي أصل من أصول العقيدة التي تنبني على (التوحيد والعدل والمعاد والإمامة).

ويؤكد كتاب الشيعة أن « الإمامة هي الأصل الرابع في معتقدات الشيعة الإمامية الاثني عشرية، وهي أصل الخلاف بين الشيعة وسائر الطوائف الإسلامية »^(٢).

ولأجل هذا يعرف آل كاشف الغطاء الإمامة بأنها: « منصب إلهي كالنبوة »^(٣)، ولذلك لا يتعين هذا الإمام إلا بنص من الله ورسوله أو إمام قبله، وأول هؤلاء الأئمة علي عليه السلام؛ قال مغنية: « يتعين الإمام بنص النبي أو بنص إمام معصوم، وإن النبي قد نص بالخلافة على علي بعده بلا فاصل »^(٤).

وعدد الأئمة المنصوص عليهم محدد، وهم الاثني عشر إماماً من آل البيت، وهم أئمة طائفة الاثني عشرية، التي سميت بهذا الاسم نسبة إلى اعتقاد أتباعها بوجود نصب هؤلاء الأئمة الاثني عشر، وإبطال بيعة ما سواهم من خلفاء وأئمة، يقول الزنجاني: « وحيث إن الإسلام دين عام وخالد كلف به جميع البشر، وتعاليمه فطرية أبدية أراد الله بقاءه إلى آخر الدنيا، فلا بد أن ينصب إماماً لحفظه في كل عصر وزمان؛ لكي لا يتوجه نقص الفرض المستحيل على الحكيم تعالى، ولأجله أمر الله نبيه بأن ينص على علي... ثم أحد عشر إماماً من ولد علي ظاهراً مشهوراً أو غائباً مستوراً »^(٥).

فالإمامة ليست فرعاً من الدين، بل هي أصل ركين مشابه للنبوة في وجوب الإيمان بها، يقول الصدوق: « واعتقادنا فيمن جحد إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام والأئمة من بعده: أنه كمن جحد نبوة جميع الأنبياء عليهم السلام. واعتقادنا فيمن أقر

(١) اللقاني: جوهرة التوحيد مع شرحها للشيخ إبراهيم الباجوري (ص ٤٥٦ - ٤٦٤).

(٢) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٧٢).

(٣) أصل الشيعة وأصولها (ص ٥٨).

(٤) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٧٨). وقوله (بلا فاصل): لإنكارهم خلافة الخلفاء الراشدين قبل علي عليه السلام.

(٥) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ٧٢).

بأمير المؤمنين عليه السلام وأنكر واحدًا من بعده من الأئمة عليهم السلام: أنه بمنزلة من أقر بجميع الأنبياء عليهم السلام وأنكر نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله « (١) ».

ولذلك تحتل قضية الإمامة حيزًا كبيرًا لدى كتاب الشيعة الأوائل والمحدثين؛ فلهشام ابن الحكم كتاب (الإمامة)، وكتاب (الرد على من قال بإمامة المفضول مع وجود الفاضل) (٢)، ولهشام الجواليقي كتاب (الإمامة)، ومؤمن الطاق له كتاب (الإمامة)، ولعلي بن إسماعيل بن ميثم التمار (الميثمي) كتاب (الإمامة) (٣).

فالإمامة « هي جوهر العقيدة الشيعية على وجه العموم، والقاعدة الأساسية التي قام عليها البناء المذهبي لعقائد الاثني عشرية وغيرهم من فرق الشيعة، فمن هذه القاعدة انبثقت فكرة عصمة الأئمة عندهم، ونظرية العلوم السرية، وفكرة الظاهر والباطن، وعقيدة الرجعة والمهدية، ودعوى نزول الوحي على الإمام، وفكرة الخلق النوراني لروحه، وتفضيله على الأنبياء أحيانًا، ونظرية تفسير القرآن تفسيرًا باطنيًا رمزيًا، ودعوى تحريفه ونقصه، ودعوى إكفار صحابة رسول الله صلى الله عليه وآله » (٤)، ورضي عنهم.

وقد أدى هذا التضخيم في أمر الإمامة لدى الشيعة إلى ردة فعل علماء العقيدة من أهل السنة، حيث تم إدخالها وإقحامها في كتبهم العقديّة والكلامية؛ لإيضاح رأي أهل السنة في الإمامة، وللرد على عقيدة الشيعة والخوارج فيها، ونقض شبهاتهم حولها، مع أن مسألة الإمامة ليست من مسائل علم الكلام، وإنما هي من مسائل علم الفقه لديهم. ثانيًا: أدلة الاثني عشرية على إثبات الإمامة:

اعتمد الشيعة في إثبات الإمامة على أدلة نقلية وأدلة عقلية، كما استدلوا بما أسموه معجزات الأئمة لإثباتها.

- أولًا: الأدلة النقلية:

وهي تتمثل بآيات القرآن الكريم، والسنة النبوية، وأقوال الأئمة المعصومين في نظر الشيعة.

(١) الصدوق: الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٧٩).

(٢) مذهب أهل السنة والجماعة والزيدية جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، خلافاً للاثني عشرية.

(٣) انظر: الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٥، ٤٦)، وانظر:

ابن النديم: الفهرست (ص ٢٦٣، ٢٦٤).

(٤) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٦).

أ - تأويل نصوص القرآن الكريم:

استخدم الشيعة تأويل آيات القرآن لإثبات الأئمة وفضلهم، ووصلوا في ذلك إلى حد التكلف الشديد، ولعل فعلهم هذا فتح المجال بعد ذلك للباطنية للإسراف في التأويل الباطني.

- ومن أمثلة هذه التأويلات البعيدة عن أصول التفسير، ما يلي:

- ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]: أي الأئمة، ﴿ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [الرعد: ٧]: أي إمام: عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ فقال: رسول الله ﷺ المنذر وعليّ الهادي (١).

وواضح التكلف والتعسف في هذا التفسير لكتاب الله، إذ كلمة (هاد) هنا جاءت في معرض الحديث عن الأنبياء عليهم السلام، فرسول الله منذر وهاد أيضًا، فقد قال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [الشورى: ٥٢].

- وعن صالح بن سهل الهمداني قال: قال أبو عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ اللَّهُ نُورٌ أَلْمَسَمَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكُوفٍ ﴾ [النور: ٣٥]: فاطمة عليها السلام، ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾: الحسن. ﴿ أَلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾: الحسين. ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دَرِيٌّ ﴾: فاطمة كوكب دري بين نساء أهل الدنيا. ﴿ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبْرَكَةٍ ﴾: إبراهيم عليه السلام. ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾: لا يهودية ولا نصرانية. ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ ﴾: يكاد العلم ينفجر بها. ﴿ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ ﴾: إمام منها بعد إمام. ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾: يهدي الله للأئمة من يشاء... ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا ﴾ [النور: ٤٠]: إمامًا من ولد فاطمة عليها السلام. ﴿ فَمَا لِمَ مِنْ نُورٍ ﴾: إمام يوم القيامة. و... في قوله: ﴿ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ ﴾ [الحديد: ١٢]: أئمة المؤمنين يوم القيامة تسعى بين يدي المؤمنين وبأيمنهم حتى ينزلوهم منازل أهل الجنة (٢).

- وعن الحسن بن محبوب قال: سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قوله ﷻ: ﴿ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوَالِيًّا وَمَا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ [النساء: ٣٣]

(١) أصول الكافي (٢٤٧/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة عليهم السلام هم الهداة.

(٢) أصول الكافي (٢٥١/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة نور الله ﷻ. حكم محقق أصول الكافي على هذه الرواية بالضعف، دون بيان سببه.

قال: إنما عنى بذلك الأئمة عليهم السلام، بهم عقد الله ﷻ أيمانكم ^(١).

- عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَالْوَّاسِقُونَ عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْفَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴾ [الجن: ١٦]: « يعني لو استقاموا على ولاية علي بن أبي طالب أمير المؤمنين والأوصياء من ولده عليه السلام وقبلوا طاعتهم في أمرهم ونهيهم ﴿ لَأَسْفَيْنَهُمْ مَاءً عَذَقًا ﴾: يقول لأشربنا قلوبهم الإيمان، والطريقة هي الإيمان بولاية علي والأوصياء » ^(٢).

- وعن موسى بن جعفر في قول الله ﷻ: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴾ [الملك: ٣٠] قال: « إذا غاب عنكم إمامكم فمن يأتيكم بإمام جديد » ^(٣).

- عن عبد الرحمن بن كثير عن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [آل عمران: ٧] قال: « أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة، ﴿ وَأَنْزَلَ مَثَلَيْهِنَّ ﴾ قال: فلان وفلان ^(٤)، ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾: أصحابهم وأهل ولايتهم، ﴿ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾: أمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام » ^(٥).

- كما حوّل الاثنى عشرية معاني آيات المواجهة بين الحق والباطل، والإيمان بالله والكفر به وبرسله واليوم الآخر إلى صراع بين مثبتي ولاية علي ومنكريها:

- عن عبد الله بن جندب أنه كتب إليه الرضا... ﴿ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الشورى: ١٣] من أشرك بولاية علي ﴿ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾: من ولاية علي، ﴿ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾ يا محمد، ﴿ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ [الشورى: ١٣] من يجيبك إلى ولاية علي عليه السلام ^(٦).

- عن الحسين بن نعيم الصحاح قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله ﷻ: ﴿ فَمَنْ كَفَرَ كَافِرًا وَمَنْ كَفَرَ مُؤْمِنًا ﴾ [التغابن: ٢] فقال: « عرف الله إيمانهم بولايتنا، وكفرهم

(١) أصول الكافي (٢٧٣/١) كتاب الحجّة، باب أنّ القرآن يهدي للإمام.

(٢) أصول الكافي (٢٧٧/١) كتاب الحجّة باب أنّ الطريقة التي حتّى على الاستقامة عليها ولاية علي.

(٣) أصول الكافي (٣٩٩/١) كتاب الحجّة باب في الغيبة.

(٤) يقصدون بهما أبا بكر وعمر رضي الله عنهما.

(٥) الكليني: أصول الكافي (٤٨٢/١) كتاب الحجّة باب في نكت وتنف من التنزيل في الولاية.

(٦) أصول الكافي (٢٨١، ٢٨٠/١) كتاب الحجّة باب أنّ الأئمة ورثوا علم النبي وجميع الأنبياء والأوصياء

الذين من قبلهم.

بها يوم أخذ عليهم الميثاق في صلب آدم ﷺ وهم ذرٌّ» (١).
بل جعلوا عليًّا ﷺ النبي العظيم:

« عن أبي جعفر ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿عَمَّ بَسَّاءُ لَوْ أَنَّ النَّبِيَّ الْعَظِيمَ﴾ [النبا: ٢١]... فقال: هي في أمير المؤمنين صلوات الله عليه، كان أمير المؤمنين صلوات الله عليه يقول: ما لله ﷺ آية هي أكبر مني، ولا لله من نبي أعظم مني» (٢).

- عن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن ﷺ في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] قال: هم الأوصياء (٣)، وهذا تحريف واضح للمعنى.

- ومثله ما في تفسير العياشي، في تفسير قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: «الصلوات التي يجب المحافظة عليها هم: رسول الله وعلي وفاطمة وابناها» ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]: طائعين للأئمة» (٤).

ولا يخفى ما في هذه التفسيرات وأمثالها من فتح الباب للباطنية في تأويلهم للقرآن بالهوى وإسقاط التكليف الشرعية.

- عن ابن أبي عمير عن سماعة عن أبي عبد الله ﷺ في قول الله جلّ وعزّ: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِنِّي فَأَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ..﴾ [البقرة: ٤٠] قال: بولاية أمير المؤمنين ﷺ ﴿أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠]: أوف لكم بالجنة (٥). مع أن المخاطبين في الآية بنو إسرائيل!

- بل وصل الأمر في تكلف بعض مفسري الشيعة في خدمة الإمامة إلى درجة الإسفاف والإساءة إلى آل البيت أنفسهم؛ كما ورد في تفسير نور الثقلين للحويزي في

(١) أصول الكافي (٤٧٩/١) كتاب الحجّة، باب فيه نكت وتنف من التنزيل في الولاية، والحديث حسن.

وارجع لهذا الباب فقيه عدة أحاديث تأول القرآن بغير ما ورد لإثبات الولاية.

(٢) أصول الكافي (٢٦٤/١)، كتاب الحجّة باب أن الآيات التي ذكرها الله ﷺ في كتابه هم الأئمة.

(٣) الكليني: أصول الكافي (٤٩٣/١) كتاب الحجّة باب في نكت وتنف من التنزيل في الولاية. سكت عنه المحقق فلم يضعفه ولم يوثقه.

(٤) تفسير العياشي (١٢٧/١، ١٢٨)، والعياشي هو محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي

السمرقندي (ت ٣٢٠)، ذكر ابن النديم في الفهرست أنه من فقهاء الإمامية، أوجد دهره وزمانه في غزارة العلم.

(٥) الكليني: أصول الكافي (٥٠٠/١) كتاب الحجّة باب في نكت وتنف من التنزيل في الولاية. قال

محققه حسن أو موثق.

تفسير قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي ۚ أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۗ ﴾ [البقرة: ٢٦]: تقول إحدى الروايات مفسرة هذه الآية عن الإمام الصادق: « فالبعوضة أمير المؤمنين، وما فوقها رسول الله » (١).

- وعن علي بن جعفر عن أخيه موسى عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ وَيَبْرُؤُا مُعْطَلَةً وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ [الحج: ٤٥] قال: « البئر المعطلة الإمام الصامت والقصر المشيد الإمام التاطق » (٢)!

- وقد وصل الأمر عند بعض الغلاة من الشيعة إلى وضع آيات يزعم أنها من القرآن لتأييد الأئمة:

- « فعن الحسين بن محمد عن معلى بن محمد، رفعه، في قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَذِهِ السُّبُلَ الَّتِي كَفَرُوا بِهَا لَعَنَ اللَّهُ مَجْرِمِيهَا وَمَكْرَهُمْ ﴾ [الرحمن: ١٣]: « أبا النبي أم بالوصي تكذبان » نزلت في الرحمن (٣).

- وعن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام قال: « نزل جبرئيل عليه السلام بهذه الآية على محمد عليه السلام هكذا: ﴿ قَبَدَلْ الَّذِينَ ظَلَمُوا (آلَ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ) قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا (آلَ مُحَمَّدٍ حَقَّهُمْ) رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ [البقرة: ٥٩] » (٤).

وإذا تتبعنا كتب التفسير الاثني عشري وجدنا « معظمها يحتوي على اتجاهات منحرفة في التأويل، وكم من لفظ قرآني حُرِّفَ عن مدلوله الحقيقي إلى مدلولات لا وجود لها إلا في عقول أصحابها » (٥). مما يدل على أن هذه الأقاويل من وضع الغلاة؛ ولذلك رأينا البههودي يحذف كل هذه الروايات، ولا يثبتها في كتابه (صحيح الكافي)، كما مرّ في الفصل الثاني (مصادر تلقي العقيدة عند الاثني عشرية).

(١) تفسير البرهان (٧٠/١)، تفسير القمي (٣٥/١)، نور الثقلين (٣٧/١) لعبد علي جمعة العروسي الحويزي من محدثي القرن الحادي عشر (ت ١١١٢هـ) كان على مشرب الأخبارية سكن شيراز وحدث بها من تلاميذه نعمة الله الجزائري وغيره. ولم تسلم هذه الروايات من انتقاد من قبل بعض كتاب الشيعة المعاصرين كسالم الصفار: نقد منهج التفسير والمفسرين المقارن (ص ٣٧٣).

(٢) الكليني: أصول الكافي (٤٩٥/١) كتاب الحجّة باب في نكت وبتف من التنزيل في الولاية. قال محققه بتصحيحه.

(٣) أصول الكافي (٢٧٤/١) كتاب الحجّة باب أنّ التعمّة التي ذكرها الله تعالى في كتابه: الأئمة.

(٤) الكليني: أصول الكافي (٤٩٢/١) كتاب الحجّة باب في نكت وبتف من التنزيل في الولاية.

(٥) د. رمزي نعاقة: بدع التفسير في الماضي والحاضر، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، المملكة الأردنية الهاشمية (ص ٦٣).

ب - الاستدلال على الإمامة بالنصوص النبوية وروايات الأئمة:

سنسير مع نصوص الشيعة التي ورد فيها تعظيم أمر الإمامة والإمام، لنرى قيمة هذه المسألة عندهم، تلك النصوص التي أوردوها في كتب العقيدة، ككتاب (أصول الكافي) وغيره:

- تذكر الروايات وجوب وجود رجل من آل البيت على مر الزمن، لرد البدع، والمحافظة على الدين وأهله:

عن معاوية بن وهب قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: قال رسول الله ﷺ: « **إِنَّ عِنْدَ كُلِّ بَدْعَةٍ تَكُونُ مِنْ بَعْدِي يُكَادُ بِهَا الْإِيمَانُ وَلِيًّا مِنْ أَهْلِ بَيْتِي مَوْتَكُلًا بِهِ، يَذَبُ عَنْهُ يَنْطِقُ بِالْإِهْلَامِ مِنَ اللَّهِ، وَيَعْلَنُ الْحَقَّ وَيُنَوِّرُهُ، وَيُرَدُّ كَيْدَ الْكَائِنِينَ، يَعْتَبَرُ عَنِ الضَّعْفَاءِ، فَاعْتَبَرُوا يَا أَوْلِي الْأَبْصَارِ وَتَوَكَّلُوا عَلَى اللَّهِ** » ^(١).

وتذكر الروايات أن الأرض لا تخلو من إمام، ولو خليت من إمام لساخت بأهلها: عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال: « **إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَدَعْ الْأَرْضَ بِغَيْرِ عَالِمٍ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَعْرِفِ الْحَقُّ مِنَ الْبَاطِلِ** ». ونلاحظ أن هذا النص يشترط وجود العالم، ولا يشترط أن يكون العالم هو إمامًا معصومًا.

ولذلك وضعت رواية أخرى تشترط أن يكون هذا الشخص إمامًا دون بيان صفاته: عن أبي حمزة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « **أَتَبْقَى الْأَرْضُ بِغَيْرِ إِمَامٍ**، قال: لو بقيت الأرض بغير إمام لساخت » ^(٢).

وجاءت رواية تشترط العدالة في الإمام: عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « **إِنَّ اللَّهَ أَجَلٌّ وَأَعْظَمُ مِنْ أَنْ يَتْرَكَ الْأَرْضَ بِغَيْرِ إِمَامٍ عَادِلٍ** » ^(٣).

وهذا النص ليس كافيًا؛ لأنه لم يشترط أن يكون هذا الإمام العادل أحد أئمة الاثني عشرية؛ ولذلك جاءت الروايات الأخرى لتحديد المقصود من العالم، ومن الإمام العادل، وأنه أحد الأئمة: قال أبو الحسن عليه السلام: « **إِنَّ الْأَرْضَ لَا تَخْلُو مِنْ حُجَّةٍ، وَأَنَا - وَاللَّهِ! - ذَلِكَ الْحُجَّةُ** » ^(٤).

(١) أصول الكافي (١٠٨/١) كتاب فضل العلم باب البدع.

(٢) أصول الكافي (٢٣٣/١) كتاب الحججة، باب أن الأرض لا تخلو من حجة.

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) أصول الكافي (٢٣٣/١) كتاب الحججة، باب أن الأرض لا تخلو من حجة.

وجاء التأكيد على ضرورة وجوده مهما قلّ عدد سكان الأرض: فعن أبي عبد الله عليه السلام:
« لو لم يبق في الأرض إلا اثنان لكان أحدهما الحجّة » (١).

« ومما هو جدير بالذكر أن عقيدة الاثني عشرية في ضرورة وجود الحجّة وما له من أثر في حفظ الكون والخليقة، وصون الشريعة قد ترددت في بعض دوائر التصوف بصورة أخرى، مما يدل على صلة فكرية بين التشيع والتصوف، ويمكن توضيح هذه الصلة بمقارنة عقيدة الاثني عشرية بفكرة ابن عربي عن الأبدال والأوتاد والقطب، فالأبدال عنده رجال سبعة » يحفظ الله بهم الأقاليم السبعة، والأوتاد رجال أربعة يحفظ الله بهم العالم من جهاته الأربع، والدنيا لا يمكن أن تخلو من الأبدال والأوتاد أبدًا «، والقطب عند ابن عربي هو الواحد الذي لا يموت أبدًا، إذ به يحفظ الله الإيمان... والقطب الحقيقي هو الروح الحمدي الممدّ لجميع الأنبياء والرسل من حين النشأة إلى يوم والقيامة » (٢).

- وتزعم بعض الروايات أن الإمامة شرط الإيمان؛ فقد جاء في خبر الشامي الذي أتى جعفرًا فقال له: أسلمت لله الساعة. فقال أبو عبد الله عليه السلام: « بل آمنت بالله الساعة، إن الإسلام قبل الإيمان، وعليه يتوارثون ويتناكحون، والإيمان عليه يثابون، فقال الشامي: صدقت، فأنا الساعة أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله ﷺ وأنك وصي الأوصياء » (٣).

- وتوضح بعضها أن معرفة الإمام من معرفة الله تعالى، فقد رووا عن الباقر أبي جعفر عليه السلام:
« إنّما يعبد الله من يعرف الله، فأما من لا يعرف الله، فإنّما يعبده هكذا ضلالاً، قلت: جعلت فداك! فما معرفة الله؟ قال: تصديق الله ﷻ وتصديق رسوله ﷺ وموالة علي عليه السلام، والائتمام به وبأئمة الهدى عليهم السلام، والبراءة إلى الله ﷻ من عدوّهم. هكذا يعرف الله ﷻ » (٤).

- وكما أن الإيمان بكل الأنبياء واجب، وإنكار نبي واحد يعدّ مكفرًا، فكذلك يعتقد الشيعة أن معرفة الأئمة كلهم شرط الإيمان، وإنكار أحدهم كإنكارهم كلهم:
فقد رووا عن الأئمة: « لا يكون العبد مؤمنًا حتّى يعرف الله ورسوله، والأئمة كلهم

(١) أصول الكافي (٢٣٤/١) كتاب الحجّة، باب أنّه لو لم يبق في الأرض إلا رجلان لكان أحدهما الحجّة.

(٢) الأستاذ الدكتور: السنهوتّي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٦١ ، ٦٢)، عن ابن عربي: الفتوحات المكية (١٩٦/١ - ٢٠٨)، (٨/٢) .

(٣) أصول الكافي (٢٢٦/١) كتاب الحجّة، باب الاضطرار إلى الحجّة.

(٤) أصول الكافي (٢٣٥/١) كتاب الحجّة، باب معرفة الإمام والرد عليه.

وإمام زمانه، ويرد إليه ويسلم له، ثم قال: كيف يعرف الآخر وهو يجهل الأول! « (١) »
 وعن محمد بن مسلم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « رجل قال لي: اعرف الآخر
 من الأئمة ولا يضرك أن لا تعرف الأول. قال فقال: لعن الله هذا، فإني أبغضه ولا أعرفه،
 وهل عرف الآخر إلا بالأول؟! » (٢).

- ويبلغ الغلو بالإمامة مبلغه عند الاثني عشرية عندما يؤكدون أن الإيمان بوصاية علي
 وإمامته أتت به كل شرائع الأنبياء السابقين: عن أبي الحسن قال: « ولاية علي عليه السلام مكتوبة في
 جميع صحف الأنبياء، ولن يبعث الله رسولا إلا بنوّة محمد صلى الله عليه وآله ووصيته علي عليه السلام » (٣).
 وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « ولايتنا ولاية الله التي لم يبعث نبيا قط إلا بها » (٤).

أما من منظور أهل السنة فإن هذه الروايات تخالف ما تواتر من أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن
 يشترط الإيمان بالإمامة في قبول إسلام المسلمين، ولا إيمان المؤمنين، فقد بين حديث
 جبريل عليه السلام أركان الإسلام وأركان الإيمان، ولم يذكر فيها الإمامة (٥).

إن الله ﷻ قد ذكر أركان الدين في القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا
 أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ
 رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥] ولم يذكر
 الإمامة.

وقد نجد بعض الروايات الاثني عشرية التي تجعل الإمامة فرعاً من فروع الدين،
 لا أصلاً من أصوله: فقد جاء في تفسير فرات: قال علي بن أبي طالب: سمعت
 رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لما نزلت: ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى ﴾ [الشورى: ٢٣]:
 « قال جبرائيل: يا محمد، إن لكل دين أصلاً ودعامة، وفرعاً وبنیاناً، وإن أصل الدين

(١) أصول الكافي (٢٣٥/١) كتاب الحجّة، باب معرفة الإمام والرد عليه. والمقصود بالأول: الإمام الذي
 قبل زمانه، وقيل المراد بالأول: الله ورسوله، وبالأخر الإمام. انظر: المازندراني (١٥٧/٥).

(٢) أصول الكافي (٤٣٥/١) كتاب الحجّة، باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل، ومن جحد الأئمة
 أو بعضهم ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهل، وقيل: المراد بالأول الله ورسوله، وبالأخر الإمام. انظر: المازندراني
 (١٥٧/٥).

(٣) أصول الكافي (٥٠٧/١). كتاب الحجّة، باب فيه تنفّ وجوامع من الزوايا في الولاية، نص محقق
 أصول الكافي على أنه حديث مجهول.

(٤) أصول الكافي (٥٠٧/١). كتاب الحجّة، باب فيه تنفّ وجوامع من الزوايا في الولاية.

(٥) انظر: منهاج السنة (٧٥/١ - ٧٧).

ودعامته قول: لا إله إلا الله، وإن فرعه وبنائه محبتكم أهل البيت وموالاتكم فيما وافق الحق ودعا إليه « (١).

فهذا النص يخالف ما تذهب إليه الروايات الشيعية السابقة، حيث يجعل أصل الدين شهادة التوحيد، لا الولاية، ويعد محبة أهل البيت هي الفرع وهي مشروطة بمن وافق الحق منهم ودعا إليه (٢).

ولذلك فلا قيمة لكل الروايات التي تحكم بكفر منكر الولاية أو تلك التي تزعم أن منكر الإمامة يعبد غير الله؛ كرواياتهم التي تزعم أن الباقر يقول: « إنا يعرف الله ﷻ ويعبده من عرف الله وعرف إمامه من أهل البيت، ومن لا يعرف الله ﷻ ولا يعرف الإمام من أهل البيت فإنا يعرف ويعبد غير الله هكذا - والله - ضلالاً » (٣).

وكذلك الرواية التي زعموها عن جعفر الصادق: « نحن الذين فرض الله طاعتنا لا يسع الناس إلا معرفتنا ولا يعذر الناس بجهالتنا، من عرفنا كان مؤمناً ومن أنكرنا كان كافراً، ومن لم يعرفنا ولم ينكرنا كان ضالاً حتى يرجع إلى الهدى الذي افترض الله عليه من طاعتنا الواجبة، فإن يمت على ضلالته يفعل الله به ما يشاء » (٤).

وكذلك الرواية التي تزعم أن الشرك بالإمام شرك بالله: عن الإمام الصادق قال « من أشرك مع إمام إمامته من عند الله من ليست إمامته من الله كان مشركاً بالله » (٥). وفسرها المجلسي بقوله: « لأن من أشرك مع إمام الحق غيره فقد شارك الله في نصب الإمام، فإنه لا يكون إلا من الله، وإن اتبع في ذلك غيره فقد جعل شريكاً لله » (٦).

ومن هذا القبيل القول بإحباط عمل من لم يتبع الإمام:

عن ابن أبي نصر عن أبي الحسن عليه السلام في قول الله ﷻ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾

(١) تفسير فرات (ص ١٤٨، ١٤٩)، بحار الأنوار (٢٣/٢٤٧).

(٢) د. قفاري: أصول مذهب الشيعة (٢/٥٣٥).

(٣) أصول الكافي (١/٢٣٦) كتاب الحججة باب معرفة الإمام والرد عليه.

(٤) أصول الكافي (١/٢٤٣) كتاب الحججة باب فرض طاعة الأئمة.

(٥) أصول الكافي (١/٤٣٥) كتاب الحججة، باب من ادعى الإمامة وليس لها بأهل، ومن جحد الأئمة

أو بعضهم ومن أثبت الإمامة لمن ليس لها بأهل.

وقيل: المراد بالأول الله ورسوله، وبالأخر الإمام. انظر: المازندراني (٥/١٥٧).

(٦) مرآة العقول (٤/١٩٥).

بِغَيْرِ هُدَى مِنَ اللَّهِ ﴿ [الفصل: ٥٠] قال: « يعني من اتخذ دينه رأيه بغير إمام من أئمة الهدى » (١).

وعن محمد بن مسلم قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: « كل من دان الله بعبادة يجهد فيها نفسه ولا إمام له من الله فسعيه غير مقبول، وهو ضال متحير، والله شائئ لأعماله.. والله يا محمد! من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله جلّ وعزّ ظاهرًا عادلًا أصبح ضالًا تائهاً، وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفرٍ ونفاقٍ » (٢).

- وهناك رواية تساوي بين وجوب الإيمان برسول الله تعالى والإيمان بالأئمة:

« عن محمد بن مسلم عن أحدهما عليه السلام قال: قلت: إنا نرى الرجل له عبادة واجتهاد وخشوع ولا يقول بالحق فهل ينفعه ذلك شيئًا، فقال: يا أبا محمد إنما مثل أهل البيت مثل أهل بيت كانوا في بني إسرائيل كان لا يجتهد أحدٌ منهم أربعين ليلة إلا دعا فأجيب، وإن رجلاً منهم اجتهد أربعين ليلة ثم دعا فلم يستجب له فأتى عيسى ابن مريم عليه السلام يشكو إليه ما هو فيه ويسأله الدعاء، قال: فتطهر عيسى وصلى ثم دعا الله تعالى، فأوحى الله تعالى إليه: يا عيسى! إن عبي أتاني من غير الباب الذي أوّتي منه، إنه دعائي وفي قلبه شك منك، فلو دعائي حتى ينقطع عنقه وتنشر أنامله ما استجبت له، قال: فالتفت إليه عيسى عليه السلام فقال: تدعو ربك وأنت في شك من نبيته؟ فقال: يا روح الله وكلمته! قد كان والله! ما قلت، فادع الله لي أن يذهب به عني. قال: فدعا له عيسى عليه السلام، فتاب الله عليه وقبل منه، وصار في حدّ أهل بيته » (٣).

وفي رواية أخرى: « والله يا محمد! من أصبح من هذه الأمة لا إمام له من الله جلّ وعزّ ظاهرًا عادلًا أصبح ضالًا تائهاً، وإن مات على هذه الحال مات ميتة كفرٍ ونفاقٍ » (٤). ولكن هذا النص يشترط ظهور الإمام وعدله، وهذا لم يتيسر إلا لعلي والحسن رضوان الله عليهما، فهذا الشرط غير متوفر في حياة الأئمة الباقين، وخصوصًا الإمام الثاني عشر الغائب المحجوب مما يقترب من ألف ومائتي سنة.

(١) أصول الكافي (٤٣٧/١) كتاب الحجّة، باب فيمن دان الله تعالى بغير إمام من الله تعالى. وقال محققه: الحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٤٣٧/١) كتاب الحجّة، باب فيمن دان الله تعالى بغير إمام من الله تعالى. والحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٣٨٢/٢) كتاب الإيمان والكفر باب الشك قال محققه: وهذا الحديث موثق.

(٤) أصول الكافي (٤٣٧/١) كتاب الحجّة، باب فيمن دان الله تعالى بغير إمام من الله تعالى. والحديث صحيح.

وتتوعد الروايات بالميتة الجاهلية وميتة الكفر والنفاق لمن مات دون معرفة الإمام:
 عن ابن أبي يعفور قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول رسول الله ﷺ: « من مات
 وليس له إمامٌ فميتته ميتة جاهلية ». قال: قلت: ميتة كفرٍ؟ قال: ميتة ضلالٍ. قلت: فمن
 مات اليوم وليس له إمامٌ فميتته ميتة جاهلية؟ فقال: نعم ^(١). ونلاحظ أن السائل يستنطق
 إمامه ليكفر منكر الإمامة، والإمام لا يقره على ذلك، فيقول: ميتة ضلال.
 ولذلك جاءت رواية أخرى لتصل بالأتباع إلى ما يريدون من تكفير منكري الإمامة:
 عن الحارث بن المغيرة قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: قال رسول الله ﷺ: « من
 مات لا يعرف إمامه مات ميتة جاهلية » قال: نعم. قلت: جاهلية جهلاء أو جاهلية
 لا يعرف إمامه، قال: جاهلية كفرٍ ونفاقٍ وضلالٍ ^(٢).

وقد ربط محمد جعفر شمس الدين بين الجاهلية والكفر فقال: « هو بالنتيجة يؤدي إلى
 الكفر بمعنى ترتب أثره عليه في الآخرة وهو الخلود في النار، وفي الدنيا وهو الضلال والنفاق » ^(٣).
 - ويتفق أهل السنة والشيعة على صحة حديث: « من مات وليس في عنقه بيعة مات
 ميتة جاهلية » ^(٤). ويحتج به الشيعة على أهل السنة لإلزامهم بالإمامة. ولكن الحديث لم
 يشترط أن تكون البيعة لشخص معين، ولا لعدد معين من أئمة الاثني عشرية، ولا غيرهم،
 بل هو نص عام، وهو لا يستلزم كفر صاحبه، وليس من المكفرات وأسباب الخلود في جهنم.
 فأهل السنة لا يعدّون التقاعس عن البيعة أو إهمالها كفرًا بالله تعالى موجبًا للخلود في
 النار - كما أورد محدثو الشيعة - بل يعدّونه ضمن المنهيات، وأقصى ما هنالك أن
 تنزل بصاحبها إلى مرتبة الفسق والعصيان بارتكابه كبيرة من الكبائر. وليس كل فعل
 وصم صاحبه بالجاهلية مكفّرًا، فقد قال تعالى، ناهيًا عن تبرج النساء: ﴿ وَلَا تَبْرَجْنَ
 تَبْرُجُ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. ولم يعدّ أحد من العلماء ذلك التبرج المقوت
 مكفّرًا، وكذلك قال ﷺ لأبي ذر: « إنك امرؤ فيك جاهلية » ^(٥)، وقال عن العصبية

(١) أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجّة، باب من مات وليس له إمامٌ من أئمة الهدى.

(٢) أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجّة، باب من مات وليس له إمامٌ من أئمة الهدى.

(٣) انظر: أصول الكافي (٤٣٩/١) كتاب الحجّة، باب من مات وليس له إمامٌ من أئمة الهدى. حاشية رقم (٥).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإمامة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي (١٨٥١).

(٥) صحيح البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك،

رقم (١٩)، ومسلم في كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل، رقم (١٦٦١).

البيغضة والتفاخر المذموم بالقوميات: « ما بال دعوى أهل الجاهلية؟ »^(١)، ولم يحكم بكفر من قام بهذه القاذورات.

وتذكر الروايات أن مقياس التفضيل بين الأمم إنما هو موقفهم من الإمامة قبل كل المقاييس الأخرى (الأخلاقية والعقدية...)، فترى الروايات أن أمة ظالمة آمنت بالإمام خير من أمة عادلة أنكرته!

عن أبي جعفر عليه السلام قال: « قال الله تبارك وتعالى: لأعدّبنّ كلّ رعيتية في الإسلام دانت بولاية كلّ إمام جائر ليس من الله، وإن كانت الرعيتية في أعمالها برّة تقيّة، ولأعفونّ عن كلّ رعيتية في الإسلام دانت بولاية كلّ إمامٍ عادلٍ من الله، وإن كانت الرعيتية في أنفسها ظالمةً سيئةً »^(٢).

فالأعمال الصالحة - حسب هذه الرواية - ليست مقياسًا، بل الإمامة هي المقياس الأوحد، أما الأعمال فهناك تفسيرات خاصة بالشيعة رواها الكليني في باب (طينة المؤمن والكافر)؛ فعن علي بن الحسين عليه السلام قال: « إن الله تعالى خلق النبيين من طينة عليين: قلوبهم وأبدانهم، وخلق قلوب المؤمنين من تلك الطينة و [جعل] خلق أبدان المؤمنين من دون ذلك، وخلق الكفار من طينة سجين: قلوبهم وأبدانهم، فخلط بين الطينتين، فمن هذا يلد المؤمن الكافر ويلد الكافر المؤمن، ومن ههنا يصيب المؤمن السيئة ومن ههنا يصيب الكافر الحسنة، فقلوب المؤمنين تحن إلى ما خلقوا منه، وقلوب الكافرين تحن إلى ما خلقوا منه »^(٣).

قال البرقي - الإمام الشيعي الذي نقد روايات أصول الكافي - معلقًا على هذه الرواية وأمثالها: « أخبار هذا الباب توجب الجبر وسلب الاختيار من السعيد والشقي، خاصة الحديث الأول، وكذلك عالم الذر الذي أخذ الله فيه العهد من النطف حيث جميعها تخالف العقل والقرآن وهي مخالفة للاختيار والتكليف »^(٤).

وهذه الرواية وأمثالها جعلت أهل السنة يقرنون الاثني عشرية بالمرجئة الذين يقولون:

(١) صحيح البخاري: كتاب المناقب، باب ما ينهى من دعوى الجاهلية، رقم (٣٣٣٠).

(٢) أصول الكافي (٤٣٧/١) كتاب الحجّة، باب فيمن دان الله تعالى بغير إمام من الله تعالى . وقال محققه: وهذا الحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب طينة المؤمن والكافر، وقال محققه: الحديث مرسل، وجاء في معناه عدة روايات في هذا الباب حكم المحقق عليها بالضعف أو الجهالة، وورد قرينًا منها (٤٥٣/١) في كتاب الحجّة باب خلق أبدان الأئمة وأرواحهم وقلوبهم، حكم المحقق بجهالتها أيضًا.

(٤) البرقي: كسر الصنم (ص ٤٧٣).

(لا يضر مع الشهادتين ذنب)، فيقرر بعض علماء السنة « أن أكثر الشيعة يعتقدون أن حب علي حسنة لا يضر معها سيئة »^(١)، فإذا كانت المرجئة يقولون: الإيمان هو المعرفة بالله، ولا يضر مع الإيمان ذنب، فإن الاثني عشرية يقولون: الإيمان معرفة الإمام وحبّه؛ وقد عقد المجلسي بابًا تحت عنوان (ولايته - يعني عليًا عليه السلام - حصن من عذاب الجبار، وأنه لو اجتمع الناس على حبه ما خلق الله النار)^(٢)، وجاء في حديثهم: « لا يدخل الجنة إلا من أحبه من الأولين والآخريين، ولا يدخل النار إلا من أبغضه من الأولين والآخريين »^(٣).

ويخالف هذه الروايات السلبية روايات تؤكد على وجوب العمل والطاعة:

عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: « لا تذهب بكم المذاهب فوالله! ما شيعتنا إلا من أطاع الله صلى الله عليه وآله »^(٤). أي « لا تحسبوا أن مجرد القول بالتشيع كاف في النجاة... من دون مشايعة لنا في عبادة الله تعالى »^(٥).

وعن أبي جعفر عليه السلام قال: « يا معشر الشيعة - شيعة آل محمد - كونوا التمرقة الوسطى... والله ما معنا من الله براءة، ولا بيننا وبين الله قرابة، ولا لنا على الله حجة، ولا نتقرب إلى الله إلا بالطاعة، فمن كان منكم مطيعًا لله تنفعه ولايتنا، ومن كان منكم عاصيًا لله لم تنفعه ولايتنا. ويحكم لا تغتروا، ويحكم لا تغتروا »^(٦).

وعن خيشمة عن أبي جعفر: «.. يا خيشمة أبلغ موالينا أننا لا نغني عنهم من الله شيئًا إلا بعمل، وأنهم لن ينالوا ولايتنا إلا بالورع »^(٧).

وقال أبو عبد الله جعفر الصادق عليه السلام: « ما أقل والله من يتبع جعفرًا منكم، إنما

(١) منهاج السنة (٣١/١). ومن العجب أن الاثني عشرية يلقبون أهل السنة بالمرجئة أيضًا، لأنهم أرجأوا بيعة علي إلى ما بعد الخلفاء الثلاثة. وقد جاءت بذلك رواية في أصول الكافي، انظر: شرح أصول الكافي - مولوي محمد صالح المازندراني (٢٣٠/٢) حيث قال: ويطلق المرجئة على فرقة مقابلة للشيعة؛ لأنهم يؤخرون عليًا عليه السلام عن مرتبته، وعلى فرقة مقابلة للوعيدية، وهم فرقة من فرق الإسلام يعتقدون أنه لا يضر مع الإيمان معصية.

(٢) بحار الأنوار (٣٢/٣٩). (٣) علل الشرائع (ص ١٦٢).

(٤) أصول الكافي (٧٩/٢) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى.

(٥) الوافي شرح الكافي (٦٠/٣).

(٦) أصول الكافي (٨١/٢) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى. التمرقة: الوسادة الصغيرة، والمراد لا تكونوا من المغالين في دينكم ولا من المقصرين فيه، كما الوسادة الوسطى ليست بالمرتفعة جدًا ولا المنخفضة جدًا. انظر: الوافي (٦٠/٣). والحديث سكت عنه المحقق.

(٧) أصول الكافي (١٨٢/٢) كتاب الإيمان والكفر باب زيارة الإخوان، سكت عنه المحقق.

أصحابي من اشتد ورعه وعمل لخالقه، ورجا ثوابه. فهؤلاء أصحابي» (١).

ج - المعجزات الحسية:

لقد طرق الشيعة باب المعجزات لتأييد أئمتهم، حتى سوا الأئمة بالأنبياء في ضرورة تأييدهم بالمعجزات، قال عبد الله شير: « طرق معرفة النبي والإمام: لمعرفة ذلك الوساطة نيئًا كان أو إمامًا طرق، أولها: المعجزة الخارقة للعادة... ثانيها: نص السابق على اللاحق، كما نص موسى وعيسى على خاتم الأنبياء ﴿ وَمُبَشِّرًا رِسُولًا يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف: ٦] وكما أخبر نبينا الصادق المصدق بإمامة الأئمة الاثني عشر» (٢).

ونقلت كتب الحديث الشيعية أخبارًا تتضمن معجزات منسوبة للأئمة، يستدل بها الشيعة على الإمامة، كما استدل على صدق الأنبياء بمعجزاتهم؛ ولذلك تعددت كتب معجزات أئمتهم ككتاب (عيون المعجزات) لحسين بن عبد الوهاب (من القرن الخامس) حيث يذكر معجزات الأئمة ومنها إحياء الموتى، وتكليم الحيوانات (٣).

ولذلك يعتقد الشيعة في أئمتهم القدرة على إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وجميع معجزات الأنبياء (٤)، وقد ذكر هاشم البحراني في كتابه (ينابيع المعاجز وأصول الدلائل) (٥٥٠) معجزة لأمير المؤمنين علي ؑ وحده.

ولا أرى إصرار كتب الحديث الاثني عشرية على ذكر معجزات الأئمة إلا مؤكداً كثرة شكوك الأتباع في أئمتهم، لغموض أحوالهم؛ ولذلك جاء باب المعجزات والكرامات محاولاً إبعاد الغموض عن الأئمة، وإقناع أتباع الأئمة بأئمتهم، كذلك لجأ الاثنا عشرية لوضع روايات تؤكد معجزات الأئمة لإثبات إمامتهم أمام خصومهم الداخليين وهم الشيعة من غير الاثني عشرية - على حد زعمهم -.

- أهم (معجزات) (٥) الأئمة:

- فالحجر ينطق بإمامة زين العابدين:

(١) أصول الكافي (٨٢/٢، ٨٣) كتاب الإيمان والكفر باب الطاعة والتقوى، قال محققه: والحديث موثق.

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٢٨).

(٣) حسين بن عبد الوهاب (من القرن الخامس): عيون المعجزات (ص ١٧، ٢٢، ٢٥، ٣٢) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات (ط ٣)، (١٤٠٣).

(٤) انظر: بحار الأنوار (٢٩/٢٧ - ٣١).

(٥) نذكر أن أهل السنة والجماعة يقصرون مصطلح (المعجزة) على ما يجريه الله تعالى على يد الأنبياء، أما الأولياء فلهم (الكرامة)، ولكن الاثني عشرية يخلطون بين المعجزات والكرامات في حق أئمتهم.

قالوا: « لما قتل الحسين أرسل محمد بن الحنفية إلى علي بن الحسين وقال له: قتل أبوك ﷺ وصلي على روحه ولم يوص، وأنا عمك وصنو أبيك. فقال له زين العابدين: إن أبي يا عم صلوات الله عليه أوصى إلي قبل أن يتوجه إلى العراق، وعهد إلي في ذلك قبل أن يستشهد بساعة، وهذا سلاح رسول الله ﷺ عندي فلا تتعرض لهذا، فإني أخاف عليك نقص العمر وتشئت الحال، إن الله ﷻ جعل الوصية والإمامة في عقب الحسين ﷺ، فإذا أردت أن تعلم ذلك فانطلق بنا إلى الحجر الأسود حتى نتحاكم إليه ونسأله عن ذلك. قال أبو جعفر ﷺ: وكان الكلام بينهما بمكة فانطلقا حتى أتيا الحجر الأسود، فقال علي بن الحسين لمحمد بن الحنفية: ابدأ أنت فابتهل إلى الله ﷻ وسله أن ينطق لك الحجر ثم سل، فابتهل محمد في الدعاء وسأل الله ثم دعا الحجر فلم يجبه، فقال علي ابن الحسين ﷺ: يا عم لو كنت وصيًا وإمامًا لأجابه. قال له محمد: فادع الله أنت يا ابن أخي وسله. فدعا الله علي بن الحسين ﷺ بما أراد، ثم قال: أسألك بالذي جعل فيك ميثاق الأنبياء وميثاق الأوصياء وميثاق الناس أجمعين لما أخبرتنا من الوصي والإمام بعد الحسين بن علي ﷺ قال: فتحرك الحجر حتى كاد أن يزول عن موضعه، ثم أنطقه الله ﷻ بلسان عربي مبين فقال: اللهم إن الوصية والإمامة بعد الحسين بن علي ﷺ إلى علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب وابن فاطمة بنت رسول الله ﷺ. قال: فانصرف محمد بن علي وهو يتولى علي بن الحسين ﷺ » (١).

- وتحويل الحصاة إلى عجين دليل على الإمامة:

قالوا: جاءت أم أسلم يومًا إلى النبي ﷺ.. فقالت أم أسلم: بأبي أنت وأمي يا رسول الله! إني قد قرأت الكتب وعلمت كل نبي ووصي، فموسى كان له وصي في حياته ووصي بعد موته، وكذلك عيسى. فمن وصيتك يا رسول الله؟ فقال لها: « يا أم أسلم وصي في حياتي وبعد مماتي واحد ». ثم قال لها: « يا أم أسلم! من فعل فعلي هذا فهو وصي، ثم ضرب بيده إلى حصاة من الأرض، ففركها بإصبعه فجعلها شبه الدقيق ثم عجنها ثم طبعها بخاتمه، ثم قال: من فعل فعلي هذا فهو وصي في حياتي وبعد مماتي ».

فخرجت من عنده فأتيت أمير المؤمنين ﷺ فقلت: بأبي أنت وأمي! أنت وصي رسول الله ﷺ؟ قال: نعم يا أم أسلم! ثم ضرب بيده إلى حصاة ففركها فجعلها كهيمة الدقيق ثم عجنها وختمها بخاتمه، ثم قال: يا أم أسلم! من فعل فعلي هذا فهو وصي،

(١) أصول الكافي (٤٠٩/١) كتاب الحجّة، باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

فأتيت الحسن عليه السلام وهو غلامٌ فقلت له: يا سيدي أنت وصي أبيك؟ فقال: نعم يا أمّ أسلم! وضرب بيده وأخذ حصاةً ففعل بها كفعلهما، فخرجت من عنده فأتيت الحسين عليه السلام وإني لمستصغرةٌ لسته، فقلت له: بأبي أنت وأمي أنت وصي أخيك؟ فقال: نعم يا أمّ أسلم، اثنتيني بحصاةٍ ثم فعل كفعلهم، فعمّرت أمّ أسلم حتى لحقت بعليّ ابن الحسين بعد قتل الحسين عليه السلام في منصرفه فسألته: أنت وصي أبيك، فقال: نعم، ثم فعل كفعلهم صلوات الله عليهم أجمعين ^(١).

- وتحويل العجوز إلى شابة فتية على يد الإمام زين العابدين:

عن حبابة الوالبيّة... قالت: « أتيت عليّ بن الحسين عليه السلام وقد بلغ بي الكبر إلى أن أرعشت وأنا أعدّ يومئذٍ مئةً وثلاث عشرة سنةً، فرأيتُه راکمًا وساجدًا ومشغولًا بالعبادة فيعست من الدلالة فأومأ إليّ بالسّبابة فعاد إليّ شبابي ». وعاشت بعده فأدرکت الباقر والصادق والكاظم والرضا ^(٢).

- ومن معجزات موسى بن جعفر جلوسه على الجمر دون أن يحترق:

تقول الرواية أنه « لما حصل الخلاف بينه وبين أخيه عبد الله الأفطح حول الإمامة؛ أمر موسى بجمع حطب في وسط الدار وأرسل إلى أخيه عبد الله يسأله أن يصير إليه، فلما صار إليه ومع موسى جماعة من الإمامية، فلما جلس موسى أمر بطرح النار في الحطب فاحترق، ولا يعلم الناس السبب فيه حتى صار الحطب كله جمرًا، ثم قام موسى وجلس بشيابه في وسط النار وأقبل يحدث الناس ساعة، ثم قام فنفض ثوبه ورجع إلى المجلس، فقال لأخيه عبد الله: إن كنت تزعم أنك الإمام بعد أبيك فاجلس في ذلك المجلس ^(٣).

ولو كان هناك نص صريح وصحيح في إثبات إمامة الرضا لما لجأ إلى المعجزات، ففي غياب النصوص الواضحة والصريحة والعلنية على إمامة الرضا كان لا بد للإمامية من الاستعانة بسلاح المعاجز ^(٤).

- وذكر الكليني قصة أخرى لإثبات إمامة موسى بن جعفر وأحقّيته بها من أخوته الكبار بأن شخصًا جاء إلى موسى بن جعفر، فسأله عن الإمام من هو؟ فقال: إن أخبرتك

(١) أصول الكافي (٤١٧/١) كتاب الحجّة، باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٢) أصول الكافي (٤٠٧/١) كتاب الحجّة باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٣) الأربلي: كشف الغمة (٧٣/٣).

(٤) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٩٠)، (ط ١)، (١٩٩٧ م).

تقبل؟ قال: بلى جعلت فداك، قال: أنا هو. قال: فشيء أستدل به؟ قال: اذهب إلى تلك الشجرة - وأشار بيده إلى أم غيلان - فقل لها: يقول لك موسى بن جعفر: أقبلي. قال: فأتيتهما فرأيتها والله اتخذ الأرض خدًا حتى وقفت بين يديه، ثم أشار إليها فرجعت^(١).
- ونطق العصا معجزة للأئمة:

فقد ورد أنه « جاء شخص إلى محمد بن علي الرضا، فقال: والله إنني أريد أن أسألك مسألة، وإنني والله لأستحيي من ذلك، فقال لي: أنا أخبرك قبل أن تسألني، تسألني عن الإمام؟ فقلت: هو والله هذا، فقال: أنا هو، فقلت: علامة؟ فكان في يده عصا فنطقت، وقالت: إن مولاي إمام هذا الزمان وهو الحجة »^(٢).

والحقيقة أن هذه الأخبار لم يصح منها شيء عند أهل السنة والجماعة، بل إن الاثني عشرية أنفسهم يقرون بأن أخبار معجزات الأئمة روايات آحاد، لم تبلغ مبلغ التواتر، كما سنين، ولذلك ساقوا الدليل العقلي لإثبات الإمامة.

- ثانيًا: الدليل العقلي على الإمامة:

يقول المفيد: « كما أنه لا طريق إلى المعرفة بالنبوة والرسالة الواردة عن الله جل اسمه إلا بنص نبي تقدم، أو معجز باهر للعقول حسب ما وصفناه... فإن قال قائل من أهل الخلاف: إن النصوص التي يرويها الإمامية موضوعة والأخبار بها آحاد، وإلا فليذكروا طرقها أو يدلوا على صحتها بما يزيل الشك فيها والارتياب. قيل له: ليس يضر الإمامية في مذهبها الذي وصفناه عدم التواتر في أخبار النصوص على أئمتهم عليهم السلام، ولا يمنع من الحججة لهم بها كونها أخبار آحاد لما اقترن إليها من الدلائل العقلية فيما سميناه وشرحناه من وجوب الإمامة وصفات الأئمة عليهم السلام، بدلالة أنها لو كانت باطلة على ما تتوهم الخصوم لبطل بذلك دلائل العقول الموجبة؛ لورود النصوص على الأئمة بما بيناه »^(٣).

« وأشهر دليل عقلي للشيعة على وجوب الإمامة هو (نظرية اللطف)، وقد استعارها

(١) أصول الكافي (٢٥٣/١)، وإعلام الوري للطبرسي (ص ٣٠٢) .

(٢) أصول الكافي (٣٥٣/١) .

(٣) المفيد (٤١٣هـ): المسائل الجارودية (ص ٤٦، ٤٧)، دار المفيد بيروت، تحقيق الشيخ محمد كاظم مدير شانجي (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م). وهذا النص صريح يثبت عدم نضوج علم الحديث وروايته ومصطلحه زمن المفيد، كما بينا في فصل مصادر تلقي العقيدة.

الشيعة الاثنا عشرية من المعتزلة، ليثبتوا ضرورة وجود الأئمة، فقالوا: «الإمامة لطف عام، والتبوة لطف خاص لإمكان خلو الزمان من نبي حي بخلاف الإمام، وإنكار اللطف العام شر من إنكار اللطف الخاص»^(١)، و «مذهب الإمامية والمعتزلة وجوب اللطف على الله تعالى، وهو ما يقرب العبد إلى طاعة الله ويبعده عن معصيته بغير إلقاء أي إكراه ولا إجبار، إذ لا إكراه في الدين... المراد باللطف الواجب ما لا يتم التكليف بدونه كإرسال الرسل والأنبياء ونصب الأئمة والأوصياء^(٢) ﷺ في كل زمان، لما يأتي من وجوب الأصلح على الله تعالى ووجوب نصب الحجج عقلاً ونقلاً»^(٣).

وقد بين آدم متز وجولد تسيهر أن فكرة اللطف معتزلية بحتة، استعارها منهم الاثنا عشرية، وطوروها ووسعوها بما يتناسب مع عقيدة الإمامة^(٤). «حيث كانت كتب المعتزلة في الجملة عمدة المتأخرين من متكلمي الإمامية، فشيوخ الاثني عشرية المتأخرين كالمفيد والطوسي والموسوي والكراجكي أخذوا اللطف من المعتزلة، ولم تكن موجودة عند متقدمي الشيعة»^(٥).

ولكن استدلال الشيعة بنظرية اللطف على ضرورة وجود الإمام جاء على غير فائدة، بل جر إليهم النقد اللاذع من مخالفيهم، فإذا استثنينا الإمام علياً، وأضفنا الحسن والحسين على أحسن الأحوال، ثم فتننا في حياة الأئمة بعدهم لم نر لهم سلطاناً ولا طاعة من الخلق، ولم يكن وجودهم رافعاً للفتن ولا مغيّراً لمسار المجتمع، كالحال التي قام بها الأنبياء الكرام الذين يمكن أن تنطبق عليهم نظرية اللطف الإلهي. فالاثنا عشرية يريدوننا أن نؤمن بأئمة لا سلطان لهم ولا شوكة^(٦)، وما مارسوه من دور التوجيه والتزكية والتعليم في الأمة لا يبرر الاعتقاد بإمامتهم ولا عصمتهم، فدورهم في ذلك

(١) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٥٤)، واللفظ عند ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة (ص ٣)، والألفين (ص ٣).

(٢) لاحظ أنه يدل على مذهب المعتزلة، فهم مع قولهم باللطف لم يقولوا أن نصب الأئمة من لوازمه، بل على العكس أنكروا عليهم القول بالأئمة، وخصوصاً الإمام الغائب الذي ليس من اللطف اختفاؤه ألفاً ومئتي عام، كما سنرى في الفصل القادم.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٠٨).

(٤) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٥٥).

(٥) المرجع السابق نفسه، وانظر: ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٠/١)، والذهبي: المنتقى (ص ٣٣).

(٦) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٢١/١).

مشابه لما قام به سائر علماء المسلمين.

فإذا سألنا الشيعة: لماذا كان وجود الأئمة لطفًا؟ قالوا: « إن اللطف واجب على الله تعالى، ولا ريب أن وجود الإمام في كل زمان لطف من الله تعالى بعبده؛ لأنه بوجوده فيهم يجتمع شملهم ويتصل حبلهم، ويتنصف الضعيف من القوي والفقير من الغني، ويرتدع الجاهل ويتيقظ الغافل، فإذا عدم بطل الشرع وأكثر أحكام الدين وأركان الإسلام، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقضاء ونحو ذلك، فتنتفي الفائدة المقصودة منها » (١).

فنسأل: هل حقق هؤلاء الأئمة بعد الحسين عليه السلام شيئًا من مقاصد الإمامة وأعمالها؟ إن الشيعة أنفسهم يزعمون أن هؤلاء الأئمة كانوا محل البلاء والاضطهاد، ولم يستطيعوا أن يحققوا غاية وجود الإمامة؛ في حين حقق خلفاء الإسلام المرضيين الكثير من مقاصد الإمامة، بل لو تجاسرنا على المقارنة بين زمن عمر وعثمان من جهة، وزمن علي ذاته، أول أئمة الشيعة حسب زعمهم؛ لرأينا اللطف - ممثلًا بالعدل والأمن - محققًا في زمانهما أكثر من زمانه؛ لأمر خارجة عن طاقته عليه السلام، « ومن المعلوم أن المصلحة واللطف الذي كان المؤمنون فيها زمن الخلفاء الثلاثة أعظم من المصلحة واللطف الذي كان في خلافة علي زمن القتل والفتنة والافتراق » (٢).

ولقد حقق عمر بن عبد العزيز في زمن خلافته القصير اللطف الذي زعمه الشيعة، إذ صحح مسار الأمة ونشر العدل والأمن، وطبق أحكام الدين، مع أنه لم يكن معصومًا، وكان في زمانه بعض أئمة الشيعة، ولم يحققوا ما حققه. فما ادعاه الشيعة من اللطف بوجود الأئمة لم يحصل، بل « إنما حصل تكذيب الناس لهم ومعصيتهم إياهم » (٣). على حدّ زعم الشيعة أنفسهم.

وقد كانت فكرة اختفاء الإمام وغيبته قاصمة الظهر لنظرية اللطف؛ إذ إن غياب الإمام مخالف لهذه النظرية، لعدم الانتفاع بالإمام الغائب، إن الاثني عشري اليوم يؤمن بوجود إمام لا وجود له في الحياة العامة، فهو غائب مما يقارب ألفًا ومائتي عام،

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤).

(٢) منهاج السنة (١٠٤/٢).

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٣٢/١).

« ولا وصل إليه شيء من تعليمه وإرشاده ولا أمره ولا نهيه » (١)، « فلما تعذر إمكان الوصول إليه تعذر كذلك الانتفاع به » (٢).

ولذلك تناولت الفرق الإسلامية كلها - تقريبًا - الاثني عشرية بالنقد لقولها بفكرة غيبة الإمام، وقد كان أول من انتقد الاثني عشرية على ذلك المعتزلة، وهم أصحاب نظرية اللطف الأصلاء، فهذا القاضي عبد الجبار المعتزلي ينكر وجود اللطف في غيبة الإمام، ويقول: « كيف يجوز أن يغيب الإمام عن الأمة هذه المدة مع كونه لطفًا في الدين، ومع أن الحاجة إليه بهذه الشدة » (٣).

والحقيقة أن فكرة ولاية الفقيه التي لجأ إليها الشيعة اليوم، فيها من اللطف أكثر مما في فكرة الإمامة، وخصوصًا في عصر الغيبة الكبرى للإمام المهدي المنتظر، « فلو أجزنا إمكانية إقامة الدولة بالفقيه العادل أو بالعادل من المؤمنين، فإنه لا تبقى أية حاجة إلى افتراض وجود الإمام المعصوم دون أن يتفاعل مع الأمة خلال أكثر من ألف عام » (٤).

ثالثًا: غموض شخصية الإمام وشكوك الأتباع في أئمتهم:

لقد لفّ الغموض حقيقة الأئمة عبر الزمن، في حين كان الواجب ظهورها كالشمس لكل البشر حتى تتم عليهم الحجة، وما دام الغموض يلف شخصية الإمام - الذي يزعم الشيعة أن وجوده من الألفاظ الواجبة على الله تعالى - فكيف يكون الإيمان به ركنًا من أركان الدين؟

« عن عبد الأعلى بن أعين قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: من لم يعرف شيئًا هل عليه شيء؟ قال: لا ».

وقال أيضًا: « ما حجب الله عن العباد فهو موضوع عنهم » (٥).

وهذا أكبر نقد ونقض يوجه إلى نظرية الإمامة عند الاثني عشرية؛ فما دامت الإمامة (منصبًا إلهيًا كالنبوة)، وما دام هذا الإمام بهذه الأهمية؛ فلا يجوز أن يكون غائبًا

(١) المصدر السابق (١٢١/١).

(٢) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٥٣) وانظر: الرازي: الأربعين في أصول الدين (ص ٤٢٩).

(٣) شرح الأصول الخمسة (ص ٧٥١).

(٤) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٤٤٢)، (ط ١)، (١٩٩٧ م).

(٥) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب حجج الله على خلقه (٢١٥/١).

محجوباً أو مشكوكاً فيه حتى بين أتباعه المقربين؛ لأن ذلك يناقض فكرة اللطف الإلهي الذي أوجبه الشيعة في عقيدتهم.

وقد بدأ الشك في الأئمة وغموض شخصياتهم في حياة كبار أئمتهم: عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: « يا ابن رسول الله ﷺ زعم ولد الحسن عليه السلام أن القائم منهم وأنهم أصحاب الأمر، ويزعم ولد ابن الحنفية مثل ذلك، فقال: رحم الله عمي الحسن عليه السلام لقد غمد الحسن عليه السلام أربعين ألف سيف حين أصيب أمير المؤمنين عليه السلام، وأسلمها إلى معاوية، ومحمد بن علي سبعين ألف سيف قاتله، لو خطر عليهم خطر ما خرجوا منها حتى يموتوا جميعاً، وخرج الحسين صلوات الله عليه فعرض نفسه على الله في سبعين رجلاً، من أحق بدمه منا؟ نحن والله أصحاب الأمر، وفينا القائم، ومنا السفاح والمنصور، وقد قال الله: ﴿ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا ﴾ [الإسراء: ٣٣] نحن أولياء الحسين بن علي عليهما السلام وعلى دينه » (١).

فإذا كان أقرب المقربين للأئمة وهم أولاد الأعمام، قد خفي عليهم وجود نص على الأئمة، فكيف بباقي الناس، هم والله! في جهل هذا الأمر - لو افترضنا وجوده - أعذر، فأين عقيدة اللطف إذن؟ والله تعالى يقول: ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣]. وهذا النص يدل على عدم وضوح أسماء الأئمة عند الناس، « وبناء على ذلك فلم تكن هناك قائمة مسبقة بأسماء الأئمة القادمين، وإنما كانت هذه القضية متروكة للزمن » (٢).

وهذا يبين أن الروايات التي حددت وبيّنت أسماء الأئمة ومهامهم قد وضعت فيما بعد؛ كرواية الكافي عن الصادق أبي عبد الله عليه السلام قال: « إن الوصية نزلت من السماء على محمد كتاباً، لم ينزل على محمد ﷺ كتاب مختوم إلا الوصية، فقال جبرئيل عليه السلام: يا محمد هذه وصيتك في أمتك عند أهل بيتك، فقال رسول الله ﷺ: « أي أهل بيتي يا جبرئيل؟ » قال: نجيب الله منهم وذريته، ليرثك علم النبوة كما ورثه إبراهيم عليه السلام، وميراثه لعلي عليه السلام وذريته من صلبه، قال: وكان عليها خواتيم، قال: ففتح علي عليه السلام الخاتم الأول ومضى لما فيها، ثم فتح الحسن عليه السلام الخاتم الثاني ومضى لما أمر به فيها (٣)، توفي

(١) محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي (٢/٢٩١)، تفسير سورة الإسراء، المكتبة العلمية الإسلامية - طهران، تحقيق السيد هاشم الرسولي المحلاتي، وانظر: المجلسي: بحار الأنوار (٢٩/٤٥٢، ٤٥٣).

(٢) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٦٣).

(٣) نلاحظ أن النص جعل ما أمر به الحسن مجملاً، لمرارة إقرارهم بصلح الحسن لمعاوية رضي الله عنه.

الحسن ومضى فتح الحسين عليه السلام الخاتم الثالث فوجد فيها أن قاتل فاقتل وتقتل واخرج بأقوام للشهادة، لا شهادة لهم إلا معك، قال: ففعل عليه السلام، فلما مضى دفعها إلى علي ابن الحسين عليه السلام قبل ذلك، ففتح الخاتم الرابع فوجد فيها أن اصمت وأطرق لما حجب العلم، فلما توفي ومضى دفعها إلى محمد بن علي عليه السلام ففتح الخاتم الخامس، فوجد فيها أن فسر كتاب الله تعالى وصدق أبك وورث ابنك واصطنع الأمة وقم بحق الله عز وجل، وقل الحق في الخوف والأمن ولا تخش إلا الله، ففعل، ثم دفعها إلى الذي يليه، قال: قلت له: جعلت فداك فأنت هو؟ قال: فقال: ما بي إلا أن تذهب يا معاذ فتروي علي، قال: فقلت: أسأل الله الذي رزقك من آباءك هذه المنزلة أن يرزقك من عقبك مثلها قبل الممات، قال: قد فعل الله ذلك يا معاذ! قال: فقلت: فمن هو جعلت فداك؟ قال: هذا الراقد - وأشار بيده إلى العبد الصالح ^(١)، وهو راقد ^(٢).

وليس يخفى أن واضع هذه الرواية كان في زمن هذا الإمام الأخير موسى بن جعفر، ولم يكن فيما جاء بعده من أئمة، فلو كان الواضع متأخراً في الزمن إلى عصر الإمام الثاني عشر، أو كانت الرواية صحيحة بوحى معصوم؛ لأكملت سرد أسماء باقي الأئمة الذين جاؤوا بعد موسى بن جعفر إلى المهدي الغائب المنتظر. وقد حاولت الروايات وضع ضوابط يعرف بها الإمام، فجاءت هذه الضوابط غامضة غير مضطربة:

عن ابن أبي نصر قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: « إذا مات الإمام بم يعرف الذي بعده؟ فقال: للإمام علامات منها أن يكون أكبر ولد أبيه، ويكون فيه الفضل والوصية، ويقدم الزكب فيقول: إلى من أوصى فلان؟ فيقال: إلى فلان، والسلاح فينا بمنزلة التابوت في بني إسرائيل، تكون الإمامة مع السلاح حيثما كان ^(٣) ».

وقد لاحظ المجلسي عدم اطراد هذه الضوابط، فقال: « أي إذا كانت الإمامة في الولد، والحاصل أن هذه العلامة بعد الحسين عليه السلام ^(٤)، ومع ذلك مقيد بما إذا لم يكن في

(١) قالوا: هو موسى بن جعفر.

(٢) الكليني: أصول الكافي (٢٧٩/١، ٢٨٠). وهذا النص يدل على أن واضعه كان في زمان جعفر، ولذلك لم يستطع أن يفصل أسماء الأئمة بعد موسى بن جعفر.

(٣) أصول الكافي (٣٣٩/١) كتاب الحجّة، باب الأمور التي توجب حجّة الإمام. قال محققه وهذا الحديث صحيح.

(٤) فقد جاءت الرواية عن أبي عبد الله عليه السلام أنه سمعه يقول: أرى الله أن يجعلها لأخوين بعد الحسن =

الكبير عاهة كما سيأتي، أو يقال: إنما ذكر الرضا العلامة لأولاده وأولاد أولاده، فلا ينافي تخلفه فيمن تقدم» (١).

ومن حق المجلسي أن يضطرب في الجواب، فالشيعة يقولون بالإمامة للحسين بعد الحسن (عليه السلام)، وهو أخوه وليس ولده، وقد كانت الإمامة في إسماعيل الولد الأكبر للإمام الباقر، ولم يكن به عاهة، ولكنه مات قبل أبيه، فصارت الإمامة عند الاثني عشرية لجعفر، وليس هو أكبر أولاد الباقر! فاضطر الاثنا عشرية للقول بالبداء لأجل ذلك.

واشترط عدم العاهة أورده الكليني: عن أبي عبد الله جعفر الصادق قال: إن الأمر في الكبير ما لم تكن فيه عاهة (٢). والعاهة: «الآفة البدنية؛ لأن الإمام مبرراً من النقص في الخلقة... كعبد الله الأفتح فإنه كان بعد أبي عبد الله [الإمام الصادق] فإنه كان بعد أبي عبد الله أكبر ولده، لكن كان فيه عاهتان؛ الأولى: أنه أفتح الرجلين أي عريضهما [!!] والثانية: أنه كان جاهلاً، بل قيل فاسد المذهب» (٣). ولكن ما ذكره المجلسي عن الأفتح هو من داخل العقيدة الاثني عشرية، أما من خارجها فيقال: إن من الشيعة من رأى أن الإمام بعد جعفر هو عبد الله الأفتح، وسموا بالفطحية كما جاء في كتب الفرق (٤).

أما وجود السلاح عند الآباء، فمن أين يعلم أنه سلاح الأئمة الموروث، إن سلّمنا بوجوده.

وهناك علامات أخرى ذكرها الكليني، وليست مطردة في الأئمة بل مضطربة، كاشتتار الإمامة بين الناس بالبيعة الظاهرة: «عن عبد الأعلى قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): المتوثب على هذا الأمر المدعي له ما الحجّة عليه؟ قال: يسأل عن الحلال والحرام. قال: ثم أقبل عليّ فقال: ثلاثة من الحجّة لم تجتمع في أحدٍ إلا كان صاحب هذا الأمر: أن يكون أولى الناس بمن كان قبله، ويكون عنده السلاح، ويكون صاحب الوصية الظاهرة التي

= والحسين (عليه السلام). أصول الكافي (٣٤٢/١) كتاب الحجّة باب ثبات الإمامة في الأعقاب وأنها لا تعود في أخ ولا عم ولا غيرهما من القربات) - أشار المحقق إلى صحة هذا الحديث.

(١) مرآة العقول (٢٠٤/٣).

(٢) أصول الكافي (٣٣٩/١) كتاب الحجّة، باب الأمور التي توجب حجة الإمام.

(٣) المجلسي: مرآة العقول (٢٠٧/٣).

(٤) التوبختي (الحسن بن موسى التوبختي وسعد بن عبد الله القمي من علماء القرن الثالث الهجري): فرق الشيعة (ص ٨٤). تحقيق د. عبد المنعم الحفني.

إذا قدمت المدينة سألت عنها العامة والصّبيان إلى من أوصى فلان؟ فيقولون: إلى فلان ابن فلان» (١).

فالأئمة لم يثبت في حقهم هذا الشرط الذي ذكره الكليني، بل اختلف الشيعة أنفسهم في الأئمة وتفرقوا مذاهب شتى، ولم يكن بعض هؤلاء الأئمة يجرؤ على المناداة بالإمامة لنفسه خوف بطش الخلفاء - كما يدّعون - وكان يكتفي بالجواب لمن سأله عن إمامته وإمامة من بعده - كما تزعم الروايات -.

عن التصر بن قابوس قال: قلت لأبي إبراهيم عليه السلام: «إني سألت أباك عليه السلام من الذي يكون من بعدك؟ فأخبرني أنك أنت هو، فلمّا توفي أبو عبد الله عليه السلام ذهب الناس يميناً وشمالاً وقلت فيك أنا وأصحابي، فأخبرني من الذي يكون من بعدك من ولدك؟ فقال: ابني فلان» (٢).

وتقول الرواية إن الإمام كان يلجأ للتقية والتمويه حتى يحفظ حياة الإمام الذي بعده: عن أبي أيوب التحوّي قال: «بعث إليّ أبو جعفر المنصور في جوف الليل فأتيته فدخلت عليه وهو جالس على كرسيّ وبين يديه شمعة وفي يده كتاب. قال: فلمّا سلّمت عليه رمى بالكتاب إليّ وهو يبكي فقال لي: هذا كتاب محمّد بن سليمان يخبرنا أنّ جعفر بن محمّد قد مات، فإنّا لله وإنّا إليه راجعون ثلاثاً، وأين مثل جعفر؟ ثمّ قال لي: اكتب. قال: فكتبت صدر الكتاب ثمّ قال: اكتب إن كان أوصى إلى رجلٍ واحدٍ بعينه فقدّمه واضرب عنقه. قال: فرجع إليه الجواب أنّه قد أوصى إلى خمسة: واحدٍهم أبو جعفر المنصور [الخليفة!!] ومحمّد بن سليمان [والي المنصور على المدينة!!] وعبد الله [الأفطح الذي تبعه الفطحية ووصفه الاثنا عشرية بفساد العقيدة] وموسى وحميّدة [وهي أم الكاظم] (٣). فهذه الرواية تفيد أن جعفرًا خبياً وخلط الإمام الحقيقي، موسى الكاظم بين هؤلاء جميعاً، فأين الوضوح في شخص الإمام، ولماذا لا يعذر من لم يعرفه؟ والرواية تقول: ما حجب الله عن العباد فهو موضوع عنهم» (٤).

(١) أصول الكافي (١/٣٤٠) كتاب الحجّة باب الأمور التي توجب حجّة الإمام. قال محققه: وهذا الحديث حسن.

(٢) أصول الكافي (١/٣٧٠) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا.

(٣) أصول الكافي (١/٣٦٧) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي الحسن الرضا. وانظر إلى تناقض هذه الرواية: إذ تذكر أن المنصور يبكي على جعفر ثمّ يأمر بقتل وصيه!

(٤) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب حجج الله على خلقه (١/٢١٥).

وعن ذريح قال سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وآله؟ فقال: « كان أمير المؤمنين عليه السلام إمامًا ثم كان الحسن عليه السلام إمامًا ثم كان الحسين عليه السلام إمامًا، ثم كان علي بن الحسين إمامًا، ثم كان محمد بن علي إمامًا، من أنكر ذلك كان كمن أنكر معرفة الله تبارك وتعالى ومعرفة رسوله صلى الله عليه وآله، ثم قال قلت: ثم أنت جعلت فداك؟ فأعدتها عليه ثلاث مرّات فقال لي: إني إنما حدّثتك لتكون من شهداء الله تبارك وتعالى في أرضه ^(١). فنلاحظ من هذا النص أن الإمام لم يصرح لسائله عن إمامته رغم تأكيده عليه السؤال ثلاثًا، فكيف يكون هذا الأمر الغامض محكّ الإيمان وركنه الركين؟

وكيف تذكر كتب الحديث شروط الأئمة وتقعد لذلك القواعد، والأمر غير مستمر إلا لاثني عشر إمامًا، والإمام المتحدث بهذا هو سادسهم (الصادق)، في حين تذكر روايات أخرى أن النبي صلى الله عليه وآله هو الذي سمى هؤلاء الأئمة الاثني عشر؟ لعمر الحق لو كان هذا ثابتًا لما اختلف الشيعة فيما بينهم حول أئمتهم، ولما قصر باقي المسلمين في بيعتهم قط. ولذلك لا عجب أن يأتي الكليني بهذا النص، مبيّنًا حيرة الشيعة واختلافهم في إمامهم الغائب:

عن أبان بن تغلب قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: « كيف أنت إذا وقعت البطشة بين المسجدين، فيأرز العلم كما تأرز الحية في جحرها، واختلفت الشيعة وسمى بعضهم بعضًا كذّابين، وتفل بعضهم في وجوه بعض؟ قلت: جعلت فداك ما عند ذلك من خير. فقال لي: الخير كلّ عند ذلك، ثلاثًا ^(٢). »

وإذا كان العقل يرى أنه لا بد أن يكون من يدبر شؤون الرعية رجلًا رشيدًا، فإن نصوص الكافي لا تشترط السن للإمام، فقد يكون صغيرًا:

عن صفوان بن يحيى قال: قلت للرّضا عليه السلام: « قد كتنا نسألك قبل أن يهب الله لك أبا جعفر عليه السلام فكنت تقول: يهب الله لي غلامًا، فقد وهبه الله لك فأقرّ عيوننا فلا أرانا الله يومك، فإن كان كونه فإلى من؟ فأشار بيده إلى أبي جعفر عليه السلام وهو قائم بين يديه. فقلت: جعلت فداك! هذا ابن ثلاث سنين فقال: وما يضرّه من ذلك؟ فقد قام عيسى عليه السلام بالحجة وهو ابن ثلاث سنين ^(٣). »

(١) أصول الكافي (٢٣٦/١) كتاب الحجّة باب معرفة الإمام والرد عليه.

(٢) أصول الكافي (٤٠٠/١) كتاب الحجّة، باب في الغيبة. والحديث صحيح على ما ذكر المحقق.

(٣) أصول الكافي (٣٧٩/١) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي جعفر الثاني - وهو محمد الجواد -

وانظر: (٣٨٠/١) مثله.

« فإن من كان ابن سنتين كان في حكم الكتاب والسنة مستحقاً أن يحجر عليه في بدنه، ويحجر عليه في ماله حتى يبلغ ويؤنس منه الرشد فإنه يتيم، وقد قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الَّذِينَ حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦] فمن لم تفوض له الشريعة أمر نفسه كيف تفوض له أمر الأمة؟! » (١).

شكوك وحيرة تلامذة الإمام بعد وفاته:

رغم كثرة الأحاديث التي تبين أن جعفرًا الصادق أخبر أتباعه بإمامة موسى الكاظم من بعده (٢) إلا أن الشيعة من بعده تاهوا واختلفوا، وكان منهم تلامذته الكبار الذين قام عليهم المذهب من بعده كهشام الجواليقي، وصاحب (شيطان) الطاق، والأحول، وزرارة بن أعين.. وإليك هذه الرواية توضح ذلك: عن هشام بن سالم قال: كنا بالمدينة بعد وفاة أبي عبد الله عليه السلام أنا وصاحب الطاق، والناس مجتمعون على عبد الله بن جعفرٍ أنه صاحب الأمر بعد أبيه. فدخلنا عليه أنا وصاحب الطاق والناس عنده، وذلك أنهم رووا عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن الأمر في الكبير ما لم تكن به عاهة، فدخلنا عليه نسأله عما كنا نسأل عنه أباه فسألناه عن الزكاة في كم تجب؟ فقال: في مائتين خمسة، فقلنا: ففي مائة؟ فقال: درهمان ونصف. فقلنا: والله ما تقول المرجئة هذا (٣). قال: فرفع

(١) ابن تيمية: رسالة في (فضل أهل البيت وحقوقهم) جمع أبي تراب الظاهري (ص ٥١، ٥٢) دار وحي القلم (١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م).

(٢) انظر: أصول الكافي (٣٦٥/١) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي الحسن موسى. وعلى سبيل المثال عن أبي صفوان الجمال... قال أبو عبد الله: إذا كان ذلك [موته] فهو صاحبكم وضرب بيده على منكب أبي الحسن الأمين.. وعبد الله بن جعفر [أخو موسى الأكبر] جالس معنا. والحديث حسن. وعن سليمان بن خالد قال: دعا أبو عبد الله عليه السلام أبا الحسن عليه السلام يوماً ونحن عنده فقال لنا: عليكم بهذا فهو والله صاحبكم بعدي. المصدر السابق (٣٦٧/١).

(٣) وجواب عبد الله بن جعفر عن مقدار الزكاة موافق لأهل السنة، الذين يسميهم الاثنا عشرية بالمرجئة؛ إذ في كل مائة ربيع العشر. فما وجه تبرمهم وإنكارهم جواب عبد الله؟ وقد علمنا أن فقهاء أهل السنة والائتني عشرية متفقون على تحديد هذا المقدار ذاته للزكاة، ففي علل الشرائع للصدوق (٦٩/٢) : « عن صباح الخذاء عن قثم عن أبي عبد الله قال: قلت له: جعلت فداك! أخبرني عن الزكاة كيف صارت من كل ألف درهم خمسة وعشرين درهماً، لم يكن أقل منها أو أكثر ما وجهها؟ قال: إن الله تعالى خلق الخلق كلهم، فعلم صغيرهم وكبيرهم، وعلم غنيهم وفقيرهم، فجعل من كل ألف إنسان خمسة وعشرين مسكيناً، فلو علم أن ذلك لا يسعهم لزداهم؛ لأنه خالقهم وهو أعلم بهم ». وفي زبدة الأحكام للخميني: زكاة التقدين (ص ١١٦) : « وهو في الذهب عشرون ديناراً، ويساوي (١٢/٦٩) غراماً، وفيه نصف دينار، ويساوي (١/٧٢٨) غراماً ».

يده إلى السماء فقال: واللّه ما أدري ما تقول المرجئة. قال: فخرجنا من عنده ضلّالاً لا ندري إلى أين نتوجّه أنا وأبو جعفر الأحول، فقعنا في بعض أزقة المدينة باكين حيارى لا ندري إلى أين نتوجّه ولا من نقصد، ونقول: إلى المرجئة؛ إلى القدرية؛ إلى الزيدية؛ إلى المعتزلة؛ إلى الخوارج؛ فحنن كذلك إذ رأيت رجلاً شيخاً لا أعرفه يومئذ إلي بيده... فما زلت أتبعه وقد عزمت على الموت حتّى ورد بي على باب أبي الحسن عليه السلام ثمّ خلّاني ومضى فإذا خادماً بالباب فقال لي: ادخل رحمك الله! فدخلت فإذا أبو الحسن موسى عليه السلام فقال لي ابتداءً منه: لا إلى المرجئة ولا إلى القدرية ولا إلى الزيدية ولا إلى المعتزلة ولا إلى الخوارج، إليّ إليّ، فقلت: جعلت فداك مضى أبوك؟ قال: نعم. قلت: مضى موتاً؟ قال: نعم، قلت فمن لنا من بعده فقال: إن شاء الله أن يهديك هناك. قلت: جعلت فداك إنّ عبد الله يزعم أنّه من بعد أبيه. قال: يريد عبد الله أن لا يُعبد الله، قال: قلت: جعلت فداك فمن لنا من بعده؟ قال: إن شاء الله أن يهديك هناك. قال: قلت: جعلت فداك فأنت هو؟ قال: لا ما أقول ذلك. قال فقلت في نفسي: لم أصب طريق المسألة. ثمّ قلت له: جعلت فداك عليك إمام؟ قال: لا، فداخلني شيء لا يعلم إلا الله عليه السلام إعظاماً له وهيبةً أكثر ممّا كان يحلّ بي من أبيه إذا دخلت عليه، ثمّ قلت له: جعلت فداك أسألك عمّا كنت أسأل أباك، فقال: سل تخبر ولا تُدع فإن أذعت فهو الذبح، فسألته فإذا هو بحرّ لا ينزف، قلت: جعلت فداك شيعتك وشيعة أبيك ضلّالٌ فألقي إليهم وأدعهم إليك وقد أخذت عليّ الكتمان؟ قال: من أنست منه رشداً فألق إليه وخذ عليه الكتمان فإن أذاعوا فهو الذبح. وأشار بيده إلى حلقه. قال فخرجت من عنده فلقيت أبا جعفر الأحول فقال لي: ما وراءك؟ قلت: الهدى، فحدّثته بالقصة. قال: ثمّ لقينا الفضيل وأبا بصير فدخلنا عليه وسمعا كلامه وساءلاه وقطعا عليه بالإمامة، ثمّ لقينا التّاس أفواجاً فكّل من دخل عليه قطع إلا طائفة عمّارٍ وأصحابه (١) وبقي عبد الله لا يدخل إليه إلا قليلٌ من التّاس، فلما رأى ذلك قال: ما حال التّاس، فأخبر أنّ هشاماً صدّ عنك التّاس. قال هشام: فأقعد لي بالمدينة غير واحدٍ ليضربوني» (٢).

فالقارئ لهذه الرواية - بطولها - يلحظ بسهولة ما تبيّنه من غموض يلف الإمام،

(١) هو عمار بن موسى الساباطي، كان من القائلين بإمامة عبد الله بن جعفر الأفتح، فسموا الفطحية.
(٢) أصول الكافي (٤١٢/١، ٤١٣) كتاب الحجّة باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة. وانظر: الشيخ المفيد: الإرشاد (٢١٣/٢) الباب (١٦) ذكر طرف من دلائل أبي الحسن موسى، وانظر: حسين الشاكري: الإمام جعفر الصادق (٤٣/١)، دار الهادي (١٤١٧ هـ).

حتى يتفرق الأتباع بعد موت الإمام السابق ضللاً، وكيف كان الأتباع يشكون حتى في وفاة الإمام السابق « فقلت: جعلت فداك مضى أبوك؟ قال: نعم. قلت: مضى موتاً. قال: نعم ». ويخافون أن يكون له رجعة أو أنه هو المهدي المنتظر، وكيف أن الإمام يوصي أتباعه بالكتمان. فكيف لا يعذر منكر الإمامة إذن في هذه الظروف؟ وكم الفرق واسع بين الإمامة المزعومة، والنبوة المعلومة الواضحة، التي يحاول بعض الاثني عشرية قياس الإمامة عليها؛ حيث كانت دعوة كل نبي واضحة بيّنة، رغم ما قد يعترضه من إيذاء، ولا يصدق عاقل أن يعيش النبي ويموت أو يقتل دون أن تعرف دعوته وتشتهر معجزاته أمام الناس، لا أن تكون حكراً على خاصته.

وهذا زرارة بن أعين أوثق رواة الشيعة عندهم وأكثرهم رواية، ومن أقرب المقرين إلى الإمامين الباقر والصادق، حتى قال عنه جعفر: « أحب أصحاب أبي إليّ حيناً وميتاً »^(١)، مع مكانته هذه يجهل إمامه بعد موت جعفر، فيبعث ابنه ليعلم الإمام بعده، ويموت قبل رجوع ولده:

« عن جميل بن دراج وغيره، قال: وجّه زرارة عبيداً ابنه إلى المدينة يستخبر له خبر أبي الحسن عليه السلام وعبد الله بن أبي عبد الله، فمات قبل أن يرجع إليه عبيد »^(٢). ولما وقع الموت في زرارة واشتد به، قال لعتمته: « ناوليني المصحف، فأخذ المصحف وفتحه ووضع على صدره وقال: يا عمّة اشهدي أن ليس لي إمام غير هذا الكتاب »^(٣). فهذا يدل على أنه لم يعرف أيهما كان الإمام موسى بن جعفر أم عبد الله الأفضح بن جعفر، فلو كان هناك نص واضح تعرفه الأمة أكان يشك فيبعث ليستفسر؟

وإن كان هذا حال أقرب المقرين إلى الصادق فكيف بالأمة؟ ألا تعذر بجهلها بالأئمة لو ثبتت إمامتهم؟! لو

وكما شك أتباع جعفر المقرين بموته، وشكوا في وصيته من بعده، كذلك شكوا في موت الإمام موسى الكاظم من بعده، ولما أكثر أتباع موسى في شكوكهم في موته قال لهم ابنه الإمام الرضا: « سبحان الله! يموت رسول الله ﷺ ولا يموت موسى!! »^(٤).

(١) العاملي: أعيان الشيعة (١٩٦/٢٠، ١٩٧).

(٢) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٣٧٢/١).

(٣) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٣٧٣/١)، وانظر: الخوئي: معجم رجال الحديث (٢٣٩/٨).

(٤) أصول الكافي (٤٤٣/١) كتاب الحجّة باب في أن الإمام متى يعلم أن الأمر قد صار إليه.

وكما كانوا يشكون في موت الأئمة، فإنهم كذلك كانوا يكثرون مساءلتهم؛ تخوفاً من أن يكون الأئمة يمارسون التقية عليهم!

عن أبي جرير القمي قال قلت لأبي الحسن عليه السلام: « جعلت فداك قد عرفت انقطاعي إلى أبيك ثم إليك ثم حلفت له وحق رسول الله ﷺ وحق فلان وفلان حتى انتهيت إليه بأنه لا يخرج مني ما تخبرني به إلى أحد من الناس وسألته عن أبيه أحي هو أو ميت؟ فقال: قد والله! مات... قد والله الذي لا إله إلا هو هلك، قلت: هلاك غيبة أو هلاك موت؟ قال: هلاك موت. فقلت: لعلك مني في تقيّة؟ فقال: سبحان الله! قلت: فأوصي إليك؟ قال: نعم، قلت: فأشرك معك فيها أحدًا؟ قال: لا، قلت: فعليك من إختوك إمام؟ قال: لا، قلت: فأنت الإمام؟ قال: نعم » (١).

وعن محمد بن إبراهيم بن مهزيار قال: « شككت عند مضي أبي محمد عليه السلام واجتمع عند أبي مائل جليل فحملة وركب السفينة » (٢). ومع ذلك فإن هذا الرجل الشكّك صار وكيلاً على الأموال مكان أبيه.

وقد شكى الأتباع إلى الأئمة ريبهم؛ فعن الحسين بن الحكم قال: « كتبت إلى العبد الصالح عليه السلام [أي: المهدي الغائب] أخبره أنني شكك، وقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ نُحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وأني أحب أن تريني شيئاً، فكتب عليه السلام: إن إبراهيم كان مؤمناً وأحب أن يزداد إيماناً وأنت شكك والشك لا خير فيه. وكتب: إنما الشك ما لم يأت اليقين فإذا جاء اليقين لم يجز الشك. وكتب: إن الله ﷻ يقول: ﴿ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٠٢] قال: نزلت في الشك (٣).

والحقيقة أن تلك الشكوك لم تأت إلا من انعدام البينة على الأئمة المزعومين، فقد لف الغموض حياتهم.

وهذا الغموض كان السبب في تحول بعض الشيعة إلى الباطنية: عن الحسن بن الفضل ابن زيد اليماني قال: « كتب أبي بخطه كتاباً فورد جوابه، ثم كتبت بخطي فورد جوابه،

(١) أصول الكافي (٤٤٣/١) كتاب الحجّة باب في أن الإمام متى يعلم أن الأمر قد صار إليه. قال محققه والحديث حسن كالصحيح.

(٢) أصول الكافي (٥٩٤/١ ، ٥٩٥) كتاب الحجّة، باب مولد الصاحب، سكت المحقق عنه.

(٣) أصول الكافي (٣٨٠/٢) كتاب الإيمان والكفر باب الشك، سكت عنه المحقق.

ثم كتب بخطه رجلٌ من فقهاء أصحابنا فلم يرد جوابه، فنظرنا فكانت العلة أنّ الرجل تحوّل قمرطيًا» (١).

ومما زاد في الغموض والشكوك لدى الشيعة: ادعاء الإمامة داخل البيت الإمامي، فروايات الاثني عشرية تدعي أن محمد ابن الحنفية نادى بالإمامة لنفسه، ونافس ابن أخيه الحسن فيها، فظهرت فرقتان تدعوان إليه هما الكيسانية والمختارانية (٢)، وكذلك نافس عبد الله الأفظح أخاه جعفرًا في الإمامة، فكانت فرقة الفطحية (٣)، وتدعي روايات الاثني عشرية أن جعفرًا أخوا الإمام العسكري نافس ابن أخيه المهدي المنتظر في الإمامة: عن «علي بن محمد بن الحسن بن عيسى العريضي أبي محمد قال: لما مضى أبو محمد عليه السلام ورد رجلٌ من أهل مصر بمالٍ إلى مكة للناحية، فاختلف عليه فقال بعض الناس: إنّ أبا محمد عليه السلام مضى من غير خلف، والخلف جعفر، وقال بعضهم مضى أبو محمد عن خلف فبعث رجلاً يكتي بأبي طالب فورد العسكر ومعه كتاب، فصار إلى جعفر، وسأله عن برهانٍ فقال: لا يتهيأ في هذا الوقت. فصار إلى الباب وأنفذ الكتاب إلى أصحابنا فخرج إليه: أجرك الله في صاحبك فقد مات، وأوصى بالمال الذي كان معه إلى ثقةٍ ليعمل فيه بما يجب وأجيب عن كتابه» (٤).

ويعرف الشيعة جعفرًا هذا أخوا الحسن العسكري بأنه جعفر الكذاب؛ لأنه أعلن أن أخاه الحسن العسكري مات بلا عقب. فقد قال محقق أصول الكافي: «هو أخو الإمام الحسن العسكري ويعرف بالكذاب» (٥). وقد ذكر أبو الأديان البصري خادم الإمام العسكري ورسوله إلى الشيعة في مختلف الأمصار؛ أن عامة الشيعة عزّوا جعفرًا بوفاة أخيه، وهنّووه بإمامته، وكان معهم أحد سفراء المهدي المنتظر، وهو عثمان بن سعيد العمري، المشهور بالسّمّان، ولولا خروج المهدي المنتظر، وهو طفل صغير ليصلي على والده المسجّي، كما تزعم الرواية (٦) - لانطلت عليهم حيلة جعفر أخي الحسن العسكري!

(١) أصول الكافي (٥٩٧/١) كتاب الحجّة، باب مولد صاحب، سكت المحقق عنه.

(٢) انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٣٣). مع أننا نسلم أن محمد بن الحنفية وباقي آل البيت بريئون من هذه الفرق جميعًا. وإنما ادعى هؤلاء أتباع هؤلاء الأئمة لتحقيق غاياتهم.

(٣) انظر: النوبختي: فرق الشيعة (ص ٨٤).

(٤) أصول الكافي (٦٠١/١) كتاب الحجّة، باب مولد صاحب.

(٥) المصدر السابق نفسه.

(٦) الصدوق: كمال الدين (ص ٤٧٥). وفيها: «وإذا به على المغتسل، وإذا أنا بجعفر بن علي أخيه بباب =

وجاء في رواية أخرى الذم الشديد له؛ لأنه أنكر أن يكون هناك إمام بعد أخيه: « .. أو يقرن بالحسن؟! جعفرٌ معن الفسق فاجزٌ ماجزٌ شربٌ للخمور، أقلّ من رأيتَه من الرجال وأهتكهم لنفسه خفيفٌ قليلٌ في نفسه.. (١) . قال المحقق: « هو ابن الإمام الهادي أيضًا وشهرته بالكذاب، وقد غمّ الإمام الهادي عند مولده كما ذكر الصدوق » (٢) . وقد زاد الطين بلة نشوء فرقة شيعية تزعم أن الأئمة ثلاثة عشر، وهي الثلاث عشرية، ومن الغريب أن يروي أحاديثها اثنان من زعماء الفكر الشيعي، سليم بن قيس التابعي الذي يفتخر به الشيعة، والكليني المحدث الشيعي الكبير، وقادها حفيد أحد نواب الإمام المهدي المنتظر، فهذه الفرقة « استندت على بعض أحاديث كتاب سليم بن قيس الهلالي والكافي، بقيادة حفيد عثمان بن سعيد العمري، وهو أحمد بن هبة الله » (٣) .

وكذلك ظهرت فرقة أخرى تقول بأحد عشر إمام، وحجتهم أن « الحسن بن علي قد صحت وفاته، كما صحت وفاة آبائه بتواطؤ الأخبار التي لا يجوز تكذيب مثلها، وكثرة المشاهدين لموته، وتواتر ذلك عن الولي له والعدو، وهذا ما لا يجب الارتياح فيه، وصح بمثل هذه الأسباب أنه لا خلف له، فلما صح عندنا الوجهان ثبت أنه لا إمام بعد الحسن » (٤) أي العسكري.

وهكذا كان الشك في موت أحد الأئمة، مع الغموض في شخصية الإمام الذي سيأتي من بعده أحد أسباب نشوء فكرة الوقف على الإمام القديم، وإنكار إمامة الحديث. كما أن بعض الشيعة لجأوا إلى حل آخر أشد غرابة؛ هذا الحل هو إنكار إمامة الإمام القديم والحديث معًا. وعلى سبيل المثال: فإن وفاة الإمام الحسن العسكري دون ولد ظاهر تستمر الإمامة فيه أدت إلى تراجع بعض الشيعة عن القول بإمامة الحسن

= الدار والشيعة حوله يعزونه ويهتونه، فقلت في نفسي: إن يكن هذا هو الإمام فقد بطلت الإمامة، لأنني كنت أعرفه يشرب النبيذ، ويقامر في الجوسق، ويلعب بالطنبور، فتقدمت فعزيت وهنيت... فدخل جعفر بن علي والشيعة من حوله، يقدمهم السمان والحسن بن علي فتقدم جعفر بن علي ليصلي على أخيه، فلما هم بالتكبير خرج صبي بوجهه سمرة... فجبذ برداء جعفر بن علي، وقال: تأخر يا عم فأنا أحق بالصلاة على أبي، فتأخر جعفر وقد ارتد وجهه واصفر.

(١) أصول الكافي (١/٥٨٠، ٥٨١)، كتاب الحجّة باب في مولد أبي محمد الحسن بن علي.

(٢) أصول الكافي (١/٥٨٠). حاشية رقم (٣).

(٣) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ١٠٨).

(٤) النوبختي: فرق الشيعة (ص ١٠٢).

العسكري نفسه، وهو الإمام الحادي عشر، وقال هؤلاء: « إن القول بإمامة الحسن كان غلطاً وخطأً »^(١). وبعد إسقاطهم إمامة الحسن العسكري، ورفضهم بيعة جعفر الذي وصموه بالكذاب؛ رجع بعضهم إلى القول « بإمامة محمد بن علي [الرضا] المتوفى في حياة أبيه، زعمت هذه الفرقة « أن الحسن وجعفرًا ادعيا ما لم يكن لهما »^(٢).

وقد أخرج الاثني عشرية أنفسهم مرارًا في اشتراطهم أن تكون الإمامة في نسل الإمام القديم - منذ عهد الإمام الحسين، وقد تكرر ذلك في عدة حالات، وذلك حينما لا يظهر ولد للإمام - ومثالها الحسن العسكري -، وبعضها الآخر عندما يموت الإمام وولده طفل صغير لم يبلغ مبلغ الرجال، فقد كانوا « يضطرون إلى تنصيب طفل صغير في السابعة من عمره، وهو إمامهم محمد الجواد - الإمام التاسع - ولذلك وجدنا فرقتين من شيعة أبيه علي الرضا لم يعترفوا بإمامته، لأنهم استصوبوه واستصغروه.... وكذلك اعتبروا ابنه علي الهادي إمامًا وهو في السادسة من عمره، وعلى قول آخر في الثامنة أي أنه كسابقه في سن الطفولة »^(٣).

وكان الشكوك والغموض الذي لفّ ولادة المهدي المنتظر لم تكف؛ فانضاف إليها أيضًا مشكلة الطفولة نفسها التي وقعت لمحمد الجواد وعلي الهادي من قبل؛ إذ إن عمر المهدي المنتظر حسب الروايات المختلفة لم يتجاوز سنّهما على أكبر التقديرات. وقد كان صغر سن هؤلاء الأئمة محل نقد شديد من مخالفين الاثني عشرية.

وقد حاول المفيد حل هذه المعضلة فقال: « إن قال قائل: كيف يصح لكم معشر الإمامية القول بإمامة الاثني عشر عليه السلام وأنتم تعلمون أن فيهم من خلفه أبوه وهو صبي صغير لم يبلغ الحلم ولا قارب بلوغه، كأبي جعفر محمد بن علي بن موسى عليه السلام وقد توفي أبوه وله عند وفاته سبع سنين، وكقائمكم الذي تدعونونه وسنه عند وفاة أبيه عند الكثيرين خمس سنين. وقد علمنا بالعادات التي لم تنتقض في زمان من الأزمنة أن من كان له من السنين ما ذكرناه، لم يكن من بالغى الحلم ولا مقاربيه، والله تعالى يقول:

(١) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ١١٥).

(٢) النوبختي: فرق الشيعة (ص ٩٩، ١٠٠). ومحمد بن علي: هو أبو جعفر بن علي الرضا، توفي سنة (٢٥٢ هـ) في حياة أبيه.

(٣) انظر: علي أحمد السالوس: مع الاثني عشرية في الأصول والفروع موسوعة شاملة، وحول تفسير البيان بالذات (٥٢/١).

﴿ وَأَبْلُوا الَّذِينَ حَقَّ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ﴾ [النساء: ٦]، وإذا كان الله تعالى قد أوجب الحجر على هذين النفسين في أموالهما؛ لإيجابه ذلك في جملة الأيتام، بطل أن يكونا إمامين؛ لأن الإمام هو الوالي على الخلق في جميع أمر الدين والدنيا...، من لا ولاية له على درهم واحد من مال نفسه ولا يؤمن على النظر لنفسه، ومن هو محجور عليه لصغر سنه ونقصان عقله لتناقض ذلك واستحالته، وهذا دليل على بطلان مذاهب الإمامية خاصة.

فالجواب عن ذلك... وجملة القول فيه أن الآية التي اعتمدها هؤلاء القوم في هذا الباب، خاصة وليست بعامة بدلالة توجب خصوصها وتدل على بطلان الاعتقاد لعمومها»^(١). فالمفيد ينفى إذن عموم هذه الآية، ويرى أن حكمها لا ينطبق على أئمة الاثني عشرية الصغار.

ويكفي في الرد على المفيد ما أثبتته روايات الشيعة أنفسهم من أن أولياء هؤلاء الصغار أوصوا إلى الثقات من أصحابهم برعايتهم والتصرف في أموالهم بالمعروف، ولو كان هؤلاء الصغار كاملي العقول في الصغر، وعليهم رداء العصمة لما فعل أولياؤهم فيهم ما يشكك في إمامتهم وعصمتهم؛ فعلي الهادي، وهو الإمام الطفل الصغير، أمر والده عبد الله بن المساور بحفظ ماله حتى يبلغ^(٢)، وقد أشهد على هذه الوصية التي جاء فيها:

« شهد أحمد بن أبي خالد مولى أبي جعفر أن أبا جعفر محمد بن علي بن موسى ابن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام أشهده أنه أوصى إلى علي ابنه بنفسه وأخواته، وجعل أمر موسى إذا بلغ إليه وجعل عبد الله بن المساور قائمًا على تركته من الضياع والأموال والنفقات والرقيق وغير ذلك إلى أن يبلغ علي ابن محمد. صير عبد الله بن المساور ذلك اليوم إليه، يقوم بأمر نفسه وإخوانه ويصير أمر موسى إليه، يقوم لنفسه بعدهما على شرط أيهما في صدقاته التي تصدق بها، وذلك يوم الأحد لثلاث ليال خلون من ذي الحجة سنة عشرين ومائتين »^(٣).

فما دام هذا الإمام الطفل عاجزًا عن حل مشاكله الاقتصادية في صغره، فكيف يحل معضلات البشر المختلفة؟

(١). المفيد: الفصول المختارة (ص ١٤٩ - ١٥١).

(٢). أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٩٣، ٩٤).

(٣). الكليني أصول الكافي (١/٣٢٥)، نسخة غفاري، وانظر: بحار الأنوار (١٢٢/٥٠).

لقد جاءت بعض الروايات لتؤكد أن ألسنة الأئمة كانت تنطق بالحق لهداية الناس، وتدل على رجاحة عقولهم منذ نعومة أظفارهم، تقول إحدى الروايات: « استأذن على أبي جعفر عليه السلام قومٌ من أهل التواحي من الشيعة فأذن لهم فدخلوا فسألوه في مجلسٍ واحدٍ عن ثلاثين ألف مسألة فأجاب عليه السلام وله عشر سنين » ^(١). فلماذا لم يرتض والد هذا الإمام من طفله الصغير أن يرعى نفسه وأخواته، في حين ارتضى الشيعة له أن يرعى البشرية جمعاء؟!

وبسبب غموض شخصية الإمام عند أتباعه في كثير من الظروف جاءت الروايات بالخرج لهم لتبين أقل ما يكفي من الإيمان بالأئمة في حال الجهل بهم:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال قلت له: « إن كان كوثٌ - ولا أراني الله ذلك - فبمن أتمُّ؟ قال: فأوماً إلى ابنه موسى عليه السلام قلت: فإن حدث بموسى حدثٌ فبمن أتمُّ؟ قال: بولده. قلت: فإن حدث بولده حدثٌ وترك أخاً كبيراً وابناً صغيراً فبمن أتمُّ؟ قال: بولده، ثم قال: هكذا أبداً. قلت: فإن لم أعرفه ولا أعرف موضعه؟ قال تقول: اللهم إني أتولّي من بقي من حججك من ولد الإمام الماضي. فإن ذلك يجزيك إن شاء الله » ^(٢).

لقد أثبتت الروايات السابقة - وبعضها منصوص على صحتها عند القوم - كثرة شكوك الأتباع في أئمتهم؛ للغموض الشديد الذي لفّ حياتهم، وظروف تنصيبهم. وما كان على الأتباع أن يختلفوا في الأئمة، ولا أن يشكوا فيهم، لوجود الروايات التي عدت أسماء الأئمة الاثني عشر بكل وضوح، وهي روايات مصحّحة عند الاثني عشرية أيضاً، فإما أن تكون روايات شكوكهم موضوعة، وهذا مستبعد، وإما أن تكون الروايات القادمة الناصّة على أسماء الأئمة موضوعة مخترعة بعد عهد الشكوك والغموض:

من هذه الروايات رواية على لسان الخضر عليه السلام أمام الإمام الأول علي بن أبي طالب تبين أسماء الاثني عشر إماماً:

عن أبي جعفر الثاني عليه السلام قال: أقبل أمير المؤمنين عليه السلام ومعه الحسن بن علي عليه السلام وهو متكئ على يد سلمان، فدخل المسجد الحرام فجلس إذ أقبل رجلٌ حسن الهيئة... فقال الرجل: « أشهد أن لا إله إلا الله، ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنّ محمداً رسول الله،

(١) أصول الكافي (٥٧٠/١) كتاب الحجّة، باب مولد أبي جعفر محمد بن علي الثاني وقال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٢) أصول الكافي (٣٦٦/١) كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص على أبي الحسن موسى.

ولم أزل أشهد بذلك، وأشهد أنك وصي رسول الله ﷺ والقائم بحجته وأشار إلى أمير المؤمنين، ولم أزل أشهد بها، وأشهد أنك وصيه والقائم بحجته وأشار إلى الحسن عليه السلام، وأشهد أن الحسين بن علي وصي أخيه والقائم بحجته بعده، وأشهد على علي بن الحسين أنه القائم بأمر الحسين بعده، وأشهد على محمد بن علي أنه القائم بأمر علي بن الحسين، وأشهد على جعفر بن محمد بأنه القائم بأمر محمد، وأشهد على موسى أنه القائم بأمر جعفر بن محمد، وأشهد على علي بن علي بن محمد بن جعفر، وأشهد على محمد بن علي أنه القائم بأمر علي بن محمد بن جعفر، وأشهد على محمد بن علي، وأشهد على الحسن بن علي بأنه القائم بأمر علي بن محمد، وأشهد على رجل من ولد الحسن لا يكتى ولا يسمى حتى يظهر أمره فيملأها عدلاً كما ملئت جوراً، والسلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته.

ثم قام فمضى فقال أمير المؤمنين: يا أبا محمد اتبعه فانظر أين يقصد. فخرج الحسن ابن علي عليه السلام فقال: ما كان إلا أن وضع رجله خارجاً من المسجد فما دريت أين أخذ من أرض الله، فرجعت إلى أمير المؤمنين عليه السلام فأعلمته فقال: يا أبا محمد أتعرفه، قلت: الله ورسوله وأمير المؤمنين أعلم، قال هو الخضر عليه السلام «^(١)».

ومنها رواية عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه تؤكد أنه كان يقطن نسخة من كتاب فاطمة رضي الله عنها فيه أيضاً ذكر الأئمة وما يحصل لهم من أحداث. ونص الكتاب:

« بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب من الله العزيز الحكيم لمحمد نبيه ونوره وسفيره وحجابه ودليله، نزل به الروح الأمين من عند رب العالمين: ... إني لم أبعث نبياً فأكملت أيامه وانقضت مدته إلا جعلت له وصياً، وإني فضلتك على الأنبياء، وفضلت وصيتك على الأوصياء، وأكرمتك بشبليك وسبطيك حسن وحسين، فجعلت حسناً معدن علمي بعد انقضاء مدة أبيه، وجعلت حسيناً خازن وحيي وأكرمته بالشهادة

(١) أصول الكافي (٦٠٤/١) كتاب الحجّة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم. وقال محققه: وهذا الحديث صحيح. وأنت تلاحظ في آخره نسجاً على منوال حديث أركان الدين الصحيح الذي فيه أن جبريل تشكّل في هيئة رجل (شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه من أحد) فسأل النبي صلى الله عليه وآله عن الإيمان والإسلام والإحسان وعن الساعة وأماراتها، ثم انصرف. وفي آخره قال صلى الله عليه وآله: « يا عمر، أتدري من السائل؟ قلت: الله ورسوله أعلم. قال: فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم » أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صلى الله عليه وآله عن الإيمان والإسلام، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الإيمان والإسلام والإحسان.

وختمت له بالسعادة، فهو أفضل من استشهد وأرفع الشهداء درجةً، جعلت كلمتي التامة معه وحتجتي البالغة عنده، بعترته أئيب وأعاقب، أولهم عليّ سيد العابدين وزين أوليائي الماضين، وابنه شبه جدّه المحمود محمّد الباقر علمي والمعدن الحكمتي، سيهلك المرتابون في جعفر الزاد عليه كالزاد عليّ، حقّ القول منّي لأكرم منّ مثنوى جعفر وأسرتّه في أشياعه وأنصاره وأوليائه، أتاحت بعده موسى فتنة عمياء حندس، لأنّ خيط فرضي لا ينقطع وحتجتي لا تخفى، وأنّ أوليائي يسقون بالكأس الأوفى، من جحد واحدًا منهم فقد جحد نعمتي، ومن غير آية من كتابي فقد افترى عليّ. ويل للمفترين الجاحدين عند انقضاء مدّة موسى عبدي وحببي وخيرتي في عليّ ولتبي وناصري، ومن أضع عليه أعباء النبوة وأمتحنه بالاضطلاع بها يقتله عفريةً مستكبرًا يدفن في المدينة التي بناها العبد الصالح (١) إلى جنب شرّ خلقي، حقّ القول منّي لأسرتّه بمحمّد ابنه وخليفته من بعده ووارث علمه، فهو معدن علمي وموضع سرّي وحتجتي على خلقي، لا يؤمن عبدٌ به إلا جعلت الجنة مثواه، وشفّعته في سبعين من أهل بيته كلّهم قد استوجبوا النار، وأختم بالسعادة لابنه عليّ ولتبي وناصري والشاهد في خلقي وأميني على وحيي، أخرج منه الداعي إلى سبيلي والحازن لعلمي الحسن وأكمل ذلك بابنه (م ح م د) (٢) رحمةً للعالمين، عليه كمال موسى وبهاء عيسى وصبر أيوب، فيدلّ أوليائي في زمانه وتتهادى رؤوسهم كما تتهادى رؤوس الترك والدّيلم، فيقتلون ويحرقون ويكونون خائفين مرعوبين وجلين، تصبغ الأرض بدمائهم، ويفشو الويل والرّثة في نساءهم، أولئك أوليائي حقًا بهم أذفع كلّ فتنة عمياء حندس، وبهم أكشف الزلازل وأدفع الآصار والأغلال وأولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمةً وأولئك هم المهتدون» (٣).

(١) أي ذو القرنين، فهم يرون أنه هو باني مدينة طوس التي دفن فيها موسى بن جعفر رحمهما الله، ولعلمهم يقصدون بقولهم (يدفن إلى جنب شر خلقي) هارون الرشيد عليه السلام، فإنه مدفون في طوس أيضًا، وهم يبغضونه.
(٢) هكذا يكتبون اسمه مقطوعًا؛ لأن رواياتهم تحرم ذكر اسمه، كما سيأتي في مبحث المهدي المنتظر.
(٣) أصول الكافي (٦٠٦/١) كتاب الحجّة، باب ما جاء في الاثني عشر والنص عليهم. سكت عنه المحقق. وآخر الكتاب في إشكال؛ إذ يذكر ذلة الشيعة زمن القائم وصاحب الأمر المهدي: فيجيب المحقق قائلًا: «لا بد من توجيه هذا الحديث من أن الشيعة يذلون في زمان الحجّة (عج) على أن المراد به زمن غيبته (عج) وإلا يكون مخالفًا لما هو من ضروريات عقيدتنا من أن الله سبحانه يدل به الباطل ويظهر الحق وتكون العزة لله ورسوله وله (ع) ولشيعة في زمانه ويكونون هم حكام الأرض وينتقم الله بهم ولهم من كل ظالم». أصول الكافي (٦٠٧/١) هامش حاشية رقم (١٢).

وجابر الأنصاري - كما تقول الروايات - لم يكتف خبر هذا الكتاب، بل نشره وأذاعه بين الشيعة، فهذا جابر بن يزيد الجعفي - أحد كبار رواة الشيعة - يقول: سمعت جابر بن عبد الله الأنصاري يقول: لما أنزل الله ﷻ على نبيه محمد ﷺ ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] قلت: يا رسول الله! عرفنا الله ورسوله، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك؟ فقال ﷺ: «هم خلفائي يا جابر! وأئمة المسلمين بعدي؛ أولهم علي بن أبي طالب، ثم الحسن والحسين، ثم علي ابن الحسين، ثم محمد بن علي المعروف في التوراة بالباقر، وستدركه يا جابر، فإذا لقيته فأقرئه مني السلام، ثم الصادق جعفر بن محمد، ثم موسى بن جعفر، ثم علي ابن موسى، ثم محمد بن علي، ثم علي بن محمد، ثم الحسن بن علي، ثم سميتي وكنيتي حجة الله في أرضه، وبقيته في عبادته ابن الحسن بن علي، ذاك الذي يفتح الله تعالى ذكره على يديه مشارق الأرض ومغاربها، ذاك الذي يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان» قال جابر: فقلت له: يا رسول الله فهل يقع لشيعته الانتفاع به في غيبته؟ فقال ﷺ: «إي والذي بعثني بالنبوة، إنهم يستضيئون بنوره، وينتفعون بولايته في غيبته كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللتها سحاب، يا جابر هذا من مكنون سر الله، ومخزون علمه، فاكتمه إلا عن أهله» (١).

وكيف يكتف أمر عظيم من أمور العقيدة وأساس مهم من أمور الدين؟

ومنها رواية عن أبي بصير عن أبي جعفر ﷺ قال: «يكون تسعة أئمة بعد الحسين ابن علي تاسعهم قائمهم» (٢).

والذي يظهر أن هذه النصوص وضعها الشيعة في عهد متأخرة للاحتجاج بها على مخالفيهم، ولم يكن لها وجود عند الأئمة الأوائل، فهذا علي ﷺ أول أئمتهم لم يكن يستدل بالنص على إمامته في محاجة خصومه، كما روى ذلك علماء الشيعة أنفسهم، فهو يذكر أن الخلافة تكون بالشورى لا بالنص، وأنه إنما تولى الخلافة بالشورى لا بالنص كما تولى الذين من قبله، ويوضح أن أهل الشورى هم المهاجرون والأنصار، فيقول في

(١) الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة (ص ٢٥٣). جماعة المدرسين، قم (١٤٠٥ هـ)، تحقيق علي أكبر غفاري. وقد استشهد به محمد تقي اليزدي: دروس في العقيدة الإسلامية (ص ٣٣٦).

(٢) أصول الكافي (١/٦١٢) كتاب الحجّة، باب ما جاء في الاثنى عشر والنص عليهم. وقال محققه: هذا الحديث حسن كالصحيح.

رسالة لمعاوية رضي الله عنه: « فإن بيعتي بالمدينة لزمك وأنت بالشام »؛ لأنه « بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يردّ، وإيما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسمّوه إمامًا كان ذلك رضًا، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعن أو بدعة ردّوه إلى ما خرج منه، فإن أبي قاتلوه على أتباعه غير سبيل المؤمنين وولّاه ما تولّى » ^(١).

وجاء في نهج البلاغة أيضًا أن أمير المؤمنين عليًا رضي الله عنه كان كارها للإمامة، ولو كانت بالنص عليه لما حق له أن يتبرم أو يتهرب منها، فقد قال - عندما دعاه الناس لبايعوه -: « دعوني والتمسوا غيري، فإننا مستقبلون أمرًا له وجوه وألوان، لا تقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وإن تركتموني فإتي كأحدكم، ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا لكم وزيرًا خير مني لكم أميرًا » ^(٢).

ويقول: « واللّه ما كانت لي في الخلافة رغبة ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتموني إليها، وحملتُموني عليها.. » ^(٣).

وقال المفيد: ومما حفظ العلماء من كلام أمير المؤمنين أنه قال: « أتيتُموني فقلتُم: بايعنا، فقلت: لا أفعل، فقلتُم: بلي، فقلت: لا، وقبضت يدي فبسطتموها، ونازعتكم فجدبتموه، كذا، وتداككتُم عليّ تداكّ الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها، حتى ظننت أنكم قاتلي، وأن بعضكم قاتل بعضًا لديّ فبسطت يدي فبايعتموني » ^(٤).

« فهل يقول مثل هذا الكلام من يتطلع للخلافة، ويطوف بفاطمة على بيوت الصحابة يطالب بالبيعة... إلى آخر أساطير الشيعة في هذا الباب، وهل يبقى لدعوى النص على الإمامة وكفر من خالفه بعد هذا القول مكان؟! » ^(٥).

ولو كانت إمامة علي رضي الله عنه ثابتة بالنص لاستدل به عليها، ولما تهاون في تركها لغيره ما دامت ركنًا من أركان الدين أو أصلًا من أصوله - كما يزعمون - وهو فارس الإسلام الذي لا تلين له قناة.

وقد استدل الحسن بن الحسن بن علي رضي الله عنه بذلك على عدم وجود النص فقال حين

(١) نهج البلاغة (ص ٣٦٦، ٣٦٧).

(٢) نهج البلاغة (ص ١٣٦).

(٣) نهج البلاغة (ص ٣٢٢).

(٤) الإرشاد (ص ١٣٠، ١٣١) ط: الأعلمي بيروت، و (ص ١٤٣، ١٤٤) ط: الحيدرية بالنجف.

(٥) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢/٨٤٧، ٨٤٨).

سأله رجل: ألم يقل رسول الله ﷺ: « من كنت مولاه فعلي مولاه »، قال لي: بلى، والله! لو يعني بذلك رسول الله ﷺ الإمارة والسلطان لأفصح لهم بذلك، فإن رسول الله ﷺ كان أنصح للمسلمين، فقال: « يا أيها الناس هذا ولي أمركم والقائم عليكم من بعدي فاسمعوا له وأطيعوا » والله لئن كان الله ورسوله اختار عليًا لهذا الأمر، وجعله القائم به للمسلمين من بعده، ثم ترك عليًا ما أمر الله ورسوله لكان علي أول من ترك أمر الله ورسوله. وفي رواية أخرى بزيادة: « ولو كان الأمر كما يقولون: إن الله ورسوله اختار عليًا لهذا الأمر وللقيام به على الناس بعد رسول الله ﷺ إن كان علي لأعظم الناس خطيئةً وجرمًا في ذلك؛ إذ ترك أمر رسول الله ﷺ كما أمره ويعذر فيه إلى الناس » (١).
 وقرر ابن المطهر الحلبي - في معرض إنكاره بيعة أبي بكر الصديق رضوان الله عليه؛ لأنه طلب الإقالة من الخلافة - أن من طلب الإقالة من الإمامة فليس بإمام؛ إذ « لو كان إمامًا لم يجز له طلب الإقالة » (٢). مع أن نصوص الشيعة السابقة تؤكد أن عليًا ﷺ أيضًا استعفى الناس من الإمامة.

فهذه النصوص الشيعة تؤكد ما ثبت عند أهل السنة أن النبي لم يوص لأحد، وتبين أن الروايات التي تؤكد الوصية إنما وضعت وافتريت في العهود الأخيرة، فهذه عائشة رضي الله عنها تنفي الوصية، فقد جاء في صحيح البخاري أنهم ذكروا عند عائشة أنّ عليًا - رضي الله عنه وعنهما - كان وصيًا فقالت: متى أوصي إليه؟! وقد كنت مسندته ﷺ إلى صدري، أو قالت: حجري، فدعا بالطست، فلقد انخث في حجري فما شعرت أنه قد مات فمتى أوصي إليه » (٣).

وعنها رضي الله عنها قالت: « ما ترك رسول الله ﷺ درهمًا ولا دينارًا، ولا شاة ولا بعيرًا، ولا أوصى بشيء » (٤). كما صح إنكار الوصية عن ابن عباس رضي الله عنهما (٥).

(١) البيهقي: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث (ص ٣٥٥، ٣٥٦)، دار الآفاق الجديدة - بيروت (١٤٠١ هـ)، تحقيق أحمد عصام الكاتب.

(٢) ابن المطهر الحلبي: منهاج الكرامة (ص ١٩٥).

(٣) صحيح البخاري: كتاب الوصايا، وكتاب المغازي. ومسلم، كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٢٥٧/٢) رقم (١٦٣٦)، والتسائي، كتاب الأحباس، باب هل أوصى النبي ﷺ (٢٤٠/٦)، وأحمد (٣٢/٦).

(٤) صحيح مسلم: كتاب الوصية، باب ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه.

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة من طريق أرقم بن شرحبيل عنه، مصنف ابن أبي شيبة (٢٠٧/١١) رقم (١٠٩٨٨).

ويشهد لهذا ما في صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عليًا خرج من عند رسول الله في وجعه الذي توفي فيه فقال الناس: يا أبا الحسن كيف أصبح رسول الله ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد الله بارتئًا، فأخذ بيده عباس بن عبد المطلب فقال له: أنت واليه بعد ثلاث، وإلا ستكون عبد العصا، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يتوفى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه، فأوصى بنا، فقال علي: إنا والله لئن سألتها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسأله رسول الله ﷺ ^(١).

كما أن التاريخ يبين أن عليًا لم يأمر بالبيعة لأحد من بعده، وقد أشاروا عليه بالحسن، فقال: لا، ولكن أترككم إلى ما ترككم إليه رسول الله ﷺ. قالوا: ما تقول لربك إذا أتيت، قال: أقول: « اللهم تركتني فيهما ما بدا لك، ثم قبضتني إليك وأنت فيهم، فإن شئت أصلحتهم، وإن شئت أفسدتهم » ^(٢).

ونحن نقرّ أن الحسن بن علي - رضوان الله عليهما - كان أهلاً للخلافة؛ ولذلك اختاره المسلمون، وشهور خلافته ختام مسك الخلافة الراشدة، ولكننا نؤكد أن عليًا رضي الله عنه أراد للمسلمين أن يختاروا خليفتهم بأنفسهم من غير أي تدخل منه ^(٣).

وهذا يؤكد أهمية الشورى في حياة الأمة، وأن آل البيت رضوان الله عليهم، وعلي في مقدمتهم كان يدعو إلى الشورى، لا إلى النص، ولا إلى غضب السلطة. وهذا مما استفادته الأمة من القرآن الكريم ومن سنة النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨] .

ويسيء محمد جواد مغنية فهم مذهب أهل السنة في الشورى في بيعة الحاكم عندما يقول: « قال السنة إن الإمام يتعين بالانتخاب، ويكفي أن يبايعه شخص واحد حتى تتم

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب مرض النبي ﷺ رقم (٤٤٤٧).

(٢) الخبر في مسند أحمد (٢٤٢/٢) رقم (١٠٧٨)، وقال أحمد شاکر: إسناده صحيح، والحديث في مجمع الزوائد (١٣٧/٩). وقال الهيثمي: رواه أحمد وأبو يعلى ورجاله رجال الصحيح، ورواه البزار بإسناد حسن. وانظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٢١٥/٢).

(٣) انظر في نقد نظرية الوصاية: الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ١١٢ - ١١٧).

له البيعة» (١). وهذا منهج انتقائي، إذ يترك مغنية من أقوال علماء أهل السنة ما لا يروق له، ويستل من أقوالهم ما يوافق هواه.

ودليل ما أقول أننا إذا رجعنا إلى ما قاله الماوردي في (الأحكام السلطانية) حول انعقاد البيعة، فسنراه يجعل القول بانعقاد البيعة بشخص واحد آخر الأقوال، وهو قول ما فتى علماء المسلمين يردونه وينتقدونه، يقول الماوردي: «أما انعقادها باختيار أهل الحل والعقد، فقد اختلف العلماء في عدد من تنعقد به الإمامة منهم على مذاهب شتى: - فقالت طائفة: لا تنعقد إلا بجمهور أهل العقد والحل من كل بلد ليكون الرضاء به عامًا والتسليم لإمامته إجماعًا، وهذا مذهب مدفوع ببيعة أبي بكر ﷺ على الخلافة باختيار من حضرها، ولم ينتظر ببيعته قدوم غائب عنها.

- وقالت طائفة أخرى: أقل من تنعقد به منهم الإمامة خمسة يجتمعون على عقدها أو يعقدها أحدهم برضا الأربعة استدلالًا بأمرين: أحدهما: أن بيعة أبي بكر ﷺ انعقدت بخمسة اجتمعوا عليها ثم تابعهم الناس فيها، وهم: عمر بن الخطاب وأبو عبيدة ابن الجراح وأسيد بن حضير وبشر بن سعيد وسالم مولى أبي حذيفة ﷺ. والثاني: عمر ﷺ جعل الشورى في ستة ليعقد لأحدهم برضا الخمسة، وهذا قول أكثر الفقهاء والمتكلمين من أهل البصرة.

- وقال آخرون من علماء الكوفة: تنعقد بثلاثة يتولأها أحدهم برضا الاثنين ليكونوا حاكمًا وشاهدين كما يصح عقد التكااح بولي وشاهدين.

- وقالت طائفة أخرى: تنعقد بواحد؛ لأن العباس قال لعلي رضوان الله عليهما: امدد يدك أبايعك فيقول الناس: عم رسول الله ﷺ بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان، ولأنه حكم وحكم واحد نافذ» (٢).

وقد رد الإمام الغزالي هذا القول الأخير، الذي وصم مغنية أهل السنة به، وهو أن البيعة تنعقد بواحد، وأنكر أن يستشهد على صحته بمبايعة عمر بن الخطاب لأبي بكر في سقيفة بني ساعدة، وقال: «ونحن نقول: لما بايع عمر أبا بكر ﷺ انعقدت الإمامة له (لا) بمجرد بيعته، ولكن لتتابع الأيدي إلى البيعة بسبب مبادرته، ولو لم يبايعه غير عمر وبقي كافة الخلق مخالفين أو انقسموا انقسامًا متكافئًا لا يتميز فيه غالب عن مغلوب لما

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٧٨).

(٢) الماوردي: الأحكام السلطانية (ص ٨، ٩).

انعدت الإمامة، فإن شرط ابتداء الانعقاد قيام الشوكة وانصراف القلوب إلى المشايعة ومطابقة البواطن والظواهر على المبايعة، فإن المقصود الذي طلبنا له الإمام جمع شتات الآراء في مصطدم تعارض الأهواء، ولا تتفق الإيرادات المتناقضة والشهوات المتباينة المتنافرة على متابعة رأي واحد إلا إذا ظهرت شوكته وعظمت نجدته وترسخت في النفوس رهبته ومهابته. ومدار جميع ذلك على الشوكة، ولا تقوم الشوكة إلا بموافقة الأكثرين من معتبري كل زمان» (١).

وتشير بعض النصوص الشيعية والسنية على السواء إلى وجوب الشورى، وعلى أن الأمير إنما يولى لخيريته لا لوصاية ولا لنسب: فقد أورد الشيعة عن النبي ﷺ: «إذا كان أمراؤكم خياركم، وأغنياؤكم سمحاءكم، وأموركم شورى بينكم، فظهر الأرض خير لكم من بطنها. وإذا كان أمراؤكم شراركم، وأغنياؤكم بخلاءكم، وأموركم إلى نساءكم، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها» (٢).

وقد اتفقت رواية الشيعة وأهل السنة على حديث يقول فيه النبي ﷺ: «من جاءكم يريد أن يفرق الجماعة، ويغصب الأمة أمرها، ويتولى من غير مشورة فاقتلوه» (٣). وفي رواية أهل السنة: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم أو يفرق جماعتكم فاقتلوه» (٤).

ولأهمية الشورى في اختيار الإمام والحزم والسرعة في ذلك بين علي ﷺ في رسالته لمعاوية ﷺ واجب الناس: «بعدما يموت إمامهم أو يقتل... ألا يعملوا عملاً ولا يحدثوا حدثاً، ولا يقدموا يداً ولا رجلاً، ولا يبدأوا بشيء قبل أن يختاروا لأنفسهم إماماً عفيفاً ورعاً عارفاً بالقضاء والسنة» (٥). وهذا ما فعله الصحابة الكرام بعد انتقال النبي ﷺ إلى

(١) الإمام أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية (ص ١٧٧)، تحقيق عبد الرحمن بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة (١٣٨٣هـ / ١٩٦٤م). وقد وافقه على ذلك ابن تيمية في منهاج السنة (١/٥٣٠). وانظر للتوسع محمد زكريا النداف: الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في الكتاب والسنة (ص ١٥١ - ١٥٣)، دار القلم - دمشق (٢٠٠٤م).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (١٣٩/٧٤)، وأخرجه عند أهل السنة الترمذي بسند ضعيف، كتاب الفتن، باب منه، رقم (٢٣٦٦).

(٣) الصدوق: عيون أخبار الرضا (٦٧/١)، المجلسي: بحار الأنوار (٤٣٤/٢٩).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فزق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم (١٨٥٢).

(٥) بحار الأنوار (٥٥٥/٨)، سليم بن قيس (ص ١٨٢).

الرفيق الأعلى، حيث تشاوروا فاختروا الخليفة قبل دفن نبيهم ﷺ (١).
وقد جاءت رواية في بحار الأنوار لتبين أنه لم يكن هناك نص أيضًا للحسن من علي ؑ،
وأن الأمر يترك شورى بين المسلمين: « في كتاب صلح الإمام الحسن ؑ مع معاوية أن
يكون الأمر بعده شورى بين المسلمين » (٢).

ولكن الواقع جرى على غير ما أوصانا به الشرع الحنيف من وجوب الشورى؛ إذ
أصرّ الشيعة في فكرهم وأمانيتهم على وجوب البيعة للحسن ثم الحسين وزين العابدين
ومن بعدهم من الأئمة الاثني عشر بالوراثة، وآل أمر الخلافة في واقع أهل السنة إلى
الملك العضوض والاستبداد به؛ شهوة للحكم وأثرة؛ خلافاً لمنهج القرآن العظيم وهدى
النبي الكريم، ووصية علي أمير المؤمنين.

* * *

(١) في حين يتهم كتاب الشيعة صحابة النبي ﷺ بأنهم تهارشوا على الخلافة والنبي لم يدفن بعد! في حين
نرى أن اتفاقهم على الخليفة قبل دفن النبي ﷺ هو عمل بمقتضى سنة النبي، بل مقتضى فقه علي ؑ.
(٢) بحار الأنوار (٦٥/٤٤).

الْمَجِّحُ الثَّانِي

عصمة الأئمة



« العصمة في كلام العرب (المنع) وعصمة الله عبده أن يعصمه مما يوبقه، عصمه يعصمه عصماً منعه ووقاه » فمآلها إلى الوقاية والحفظ، « واعتصم بالله: امتنع بلطفه من المعصية »^(١).

ويعرف الشيخ المفيد العصمة بأنها: « الامتناع بالاختيار عن فعل الذنوب والقبائح عند اللطف الذي يحصل من الله تعالى في حقه، وهو لطف يمتنع من يختص به عن فعل المعصية ولا يمنعه على وجه القهر، أي لا يكون له حينئذ داع إلى فعل المعصية وترك الطاعة مع القدرة عليها »^(٢).

ويتبين من هذا التعريف أن الشيعة قد استعاروا فكرة اللطف المعتزلية لتخدم قولهم بعصمة الأئمة^(٣).

ومن خلال هذا التعريف يوضح المفيد أن العصمة لا تكون مع وجود العجز أو القهر، بل تكون مع القدرة الكاملة على فعل المعصية وترك الطاعة.

وهذا التعريف لا يختلف عن رؤية أهل السنة للعصمة، غير أن أهل السنة يقصرون العصمة على الأنبياء ﷺ، دون الأئمة.

قال أهل السنة: العصمة « عدم خلق الله في المكلف الذنب مع بقاء القدرة والاختيار، وهي واجبة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الصغائر والكبائر والمكروه، بل ومن خلاف الأولى، ومن فعل المباح لمجرد الشهوة. وأما غيرهم فلا تنسب إليه العصمة،

(١) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة (عصم) (٤٠٣/١٢)، الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مادة (عصم)، (ص ١٤٦٩).

(٢) شرح عقائد الصدوق (ص ١١٤).

(٣) أنور الباز: عصمة الأئمة عند الشيعة، دار الوفاء (ط ١)، (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م). وأصلها رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة (ص ٥٨، ٥٩).

بل يقال محفوظ»^(١). فلا يصح إطلاق العصمة على أحد عند أهل السنة إلا على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

في حين يرى الاثنى عشرية أن العصمة تكون للأئمة كما تكون للأنبياء ﷺ، ويرون أن الأمة كلها معرضة للخطأ والضلال، والعاصم لها من الضلال هو الإمام المعصوم. ولهذا قالوا لا بد للأمة من رئيس معصوم يسد خطأها، فلو جاز الخطأ عليه لزم له آخر يسدده فيلزم التسلسل، فحيثذ يلزم القول بعصمة الإمام؛ لأن الثقة عندهم بالإمام لا بالأمة.. وقالوا بأنه هو الحافظ للشرع، ولا اعتماد على الكتاب والسنة والإجماع دونه^(٢). غير أن في نصوص الشيعة ما يدل على أن العصمة غير مشترطة في الإمام، كقول علي عليه السلام: « لا بدّ للناس من أمير برّ أو فاجر.. يقاتل به العدو، وتأمّن السبيل، ويؤخذ به للضعيف من القوي، حتى يستريح بر، ويستراح من فاجر»^(٣).

وتجدر الإشارة - من باب المقارنة - إلى أن بعض المتصوفة ابتكروا فكرة الحفظ، وهي تقترب كثيراً من فكرة العصمة، فإذا كان الاثنى عشرية يعتقدون عصمة الأئمة، فإن بعض المتصوفة يعتقدون بالحفظ للأولياء « فالقشيري يوجب للولي صفة الحفظ عن الذنوب في مقابلة صفة العصمة للنبي»^(٤)، ويوضح المراد بالحفظ بقوله: « وهو الذي يتولى الحق سبحانه حفظه وحراسته على الإدامة والتوالي، فلا يخلق له الخذلان الذي هو قدرة العصيان، وإنما يديم توفيقه الذي هو قدرة الطاعة، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٦]». و « الفارق بين ما يعنيه القشيري بالعصمة وما يعنيه بالحفظ هو الفارق بين فكرة الوجوب والإمكان، فالعصمة تمنع من جواز وقوع الذنب، والحفظ لا يمنع منه»^(٥)، وقد تطورت فكرة الحفظ من الإمكان إلى الوجوب العقلي على يد ابن عربي، وعند

(١) علي بن محمد المعروف بالموخر (كان حجاً عام ١١١٨ هـ): مبلغ الطالب إلى معرفة الطالب (ص ٢١٦)، (ط ١)، (١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م). تحقيق الشيخ حبيب بن الطاهر.

(٢) انظر: ابن المطهر: كشف المراد (ص ٣٩٠، ٣٩١)، وانظر: نهج المسترشدين (ص ٦٣)، وانظر: الألفين (ص ٥٦) وما بعدها، القزويني: الشيعة في عقائدهم (ص ٣٦٨، ٣٦٩)، الرنجاني: عقائد الإمامية (ص ٧٧)، هاشم معروف الحسيني: أصول التشيع (ص ١٣١، ١٣٢).

(٣) نهج البلاغة (ص ٨٢).

(٤) الدكتور: السنهوتى: عقائد الإمامية الاثنى عشرية وأصولها (ص ٣٩٦).

(٥) عن حاشية زكريا الأنصاري على القشيري (ص ١٨٤)، د. سنهوتى: عقائد الإمامية الاثنى عشرية وأصولها (ص ٣٩٦).

ذلك لا داعي لاستخدام كلمة الحفظ أصلاً، فوضعت كلمة العصمة التي ينادي بها الشيعة، وهجرت كلمة الحفظ التي اشتهر بها الصوفية، فيذكر ابن عربي أن: « من شرط الإمام الباطن أن يكون معصوماً »^(١).

والحقيقة أن هذا الاتجاه لا يمثل كل أهل التصوف، حيث ذكر عنهم الإقرار بإمكان وقوع الذنوب من الأولياء، فقد قال القشيري: « فإن قيل: فهل يكون الولي معصوماً؟ قيل: أما وجوباً كما يقال في الأنبياء؛ فلا، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يصر على الذنوب إن حصلت هنات أو آفات أو زلات؛ فلا يمتنع ذلك في وصفهم »^(٢). قيل للجنيد: العارف يزني يا أبا القاسم؟ فأطرق ملياً، ثم رفع رأسه وقال: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدْرًا مَقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨] «^(٣). وهذا هو الذي يتفق مع منهج أهل السنة والجماعة، « فليس من شرط أولياء الله المتقين ألا يكونوا مخطئين في بعض الأشياء، خطأً مغفوراً لهم... بل ولا من شرطهم ترك الكبائر »^(٤).

وليس لدى الباحث تفسير لتشابه عقيدة بعض الصوفية مع الاثني عشرية في فكرة العصمة سوى أن المبالغة في الأئمة من الشيعة وفي الأولياء عند بعض الصوفية أوصل الطرفين إلى هذه العقيدة التي لا مستند لها من الأدلة الصحيحة.

أدلة الاثني عشرية على وجوب عصمة الأئمة ومناقشتها:

- إن أول ما يستند الشيعة عليه في إثبات العصمة هو قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. فقد فهم الاثني عشرية من الآية أن الطهارة في الآية تدل على معنى العصمة.

- كما يستدلون بحديث الكساء الذي جاء مفسراً هذه الآية، وقد ورد في كتب السنة والشيعة على السواء: قالت أمنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: « خرج النبي ﷺ غداة وعليه مرط مرحّل من شعر أسود^(٥)، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل

(١) الفتوحات المكية (١٣٨/٣) حيث يقول:.. وانظر: د. سنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٣٩٧).

(٢) القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ): الرسالة القشيرية (ص ٥٢٣). تعليق الدكتور عبد الحليم محمود، تحقيق عبد الكريم عطا، دار علوم القرآن، دمشق (٢٠٠٠ م).

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية (ص ٥٢٤). (٤) مجموعة الرسائل (٤٣/١، ٤٤).

(٥) المرط بكسر الميم وسكون الراء المهملة كساء من صوف أو خزّ، الجمع مروط كذا في القاموس. وقيل: =

معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله ثم قال: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣] « (١) ».

وقد رأى بعض الباحثين من أهل السنة أن هذا الحديث يتعارض مع القرآن الذي يجعل كلمة الآل تطلق أولاً على الأزواج، في حين كان تطبيق النبي ﷺ له مقصوراً على علي وفاطمة وابنيهما ﷺ، دون أزواجه ولذلك يقول الدكتور عامر النجار: « عكف العلامة الشيخ إبراهيم سليمان الجبهان على دراسة هذا الحديث، وخرج بنتيجة هامة، وهي عدم صحته للأسباب التالية:

أولاً: لأن روايته عندنا لم تصل إلى حد التواتر، وليس كل ما صح سنده صح متنه،...
ثانياً: لأن الروايات لم تتفق على تعيين الموضوع الذي نزلت فيه الآية؛ إذ إن رواية مسلم تقول إنها نزلت في بيت عائشة، وفي السنن أنها نزلت في بيت أم سلمة، ووجود الاضطراب في الروايتين يمنع من الأخذ بهما...

ثالثاً: لأن القرآن الكريم لا يمكن أن يتعارض مع ما ثبت صدوره عن النبي ﷺ من قول أو تقرير أو عمل...

رابعاً: أن القرآن نزل بلغة العرب، وأهل بيت الرجل في لغة العرب هم زوجاته وأصوله وفروعه...

وقد بين الشيخ إبراهيم الجبهان أن حديث الكساء الذي تمسك به كل الشيعة وحاولوا من خلاله إثبات العصمة لعلي وأبنائه غير صحيح « (٢) ».

ولكن الحق أحق أن يتبع، فإن حديث الكساء « صحيح رواه أحمد والترمذي من حديث أم سلمة، ورواه مسلم في صحيحه » (٣)، ولا يجوز التعسف في إنكاره، ولو سار الجبهان وراء دعوى اضطراب بعض تفاصيل الأمور الفرعية في الروايات؛ لفتح مجالاً واسعاً لردّ كثير من صحاح السنة. فخلافاً الرواة في بعض فروع الحادثة أمر كثير

= كساء من خز أو كتان. مرخل كمعظم، فيه تصاوير، والمراد تصاوير رجال الإبل. انظر: الشوكاني: نيل الأوطار (٩٥/٢) دار الجيل - بيروت.

(١) صحيح مسلم: كتاب الفضائل، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ.

(٢) د. عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٥٢٢)، انظر: إبراهيم سليمان الجبهان: تبديد الظلام وتبئيه النيام (ص ١٤٧، ١٤٨، ١٥٧، ٥١٤)، (ط ٢) نشر مكتبة الحرمين - الرياض (١٤٠٠هـ / ١٩٧٩م).

(٣) منهاج السنة (١٣/٥) .

الحدوث؛ لأن نسيان الفروع غير المهمة أمر من عادة البشر، ولا يؤثر في صحة الحديث، حيث « أن الرواة إنما يهتمون بحفظ جوهر القصة، دون تفاصيلها الجزئية »^(١).

أما شبهة ردّ هذا الحديث لأنه ليس متواتراً، فإن في هذا طعنًا في غالب ما أتانا من أحاديث النبي ﷺ؛ إذ معظم الأحاديث من هذا النوع، والطعن في الآحاد الذي تلقته الأمة بالقبول طعن في السنة؛ ولذلك فإن الرأي الصحيح المعتمد هو أن التواتر لا يشترط لقبول الحديث والعمل به ما دامت الأمة قد تلقته بالقبول، وقد تلقّت الأمة صحيح البخاري وصحيح مسلم بالقبول، فلا يجوز إنكار الحديث لعدم تواتره^(٢).

فالحديث إذن صحيح، ولكن توجيهه هو المهم، فإن الحديث لا يقتضي ثبوت العصمة أو اختصاص علي وفاطمة وابنيهما ﷺ بكلمة آل البيت، وهو ما تخوف منه الجبهان؛ فإن « دعاء رسول الله ﷺ لأهل بيته بأن يذهب عنهم الرجس وأن يطهرهم منه تطهيرًا ليس معنى ذلك أن يعطيهم هذا حق العصمة، وأن لا يقع منهم ذنب، فالتطهير لا يعني العصمة على الإطلاق، فلا معصوم إلا النبي ﷺ »^(٣).

فآية الطهارة ليس فيها إخبار بطهارة أهل البيت وذهاب الرجس عنهم، « وإنما فيها الأمر لهم بما يوجب طهارتهم وذهاب الرجس عنهم، فإن قوله: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣] كقوله تعالى: ﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُسَبِّحَ لَكُمْ وَهُدْيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَرَتُّبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٢٦ - ٢٨]. فالإرادة هنا متضمنة للأمر والمحبة والرضا وليست هي ضمنيًا ﴿ [النساء: ٢٦ - ٢٨] .

(١) انظر: تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٢٢٩/٥) دار القلم - دمشق (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).

(٢) انظر حول مسألة حكم حديث الآحاد والعمل به: الباعث الخليلي للأستاذ المحقق أحمد محمد شاكر، وهو شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير (ص ٣٣) حيث يقول: « الحق الذي لا مرية فيه عند أهل العلم بالحديث من المحققين ومن اهتدى بهديهم وتبعهم على بصيرة من الأمر: أن أحاديث الصحيحين صحيحة كلها، ليس في واحد منها مطعن أو ضعف » دار الندوة الجديدة - بيروت (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).

(٣) د. عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٦٣٨).

المشيئة المستلزمة لوقوع المراد، فإنه لو كان كذلك لكان قد طهر كل من أراد الله طهارته» (١). ثم إن الآية جاءت في معرض الحديث عن أزواج النبي ﷺ أولاً، فالآية على أقل تقدير ليست خاصة بآل البيت، بل تشمل أمهات المؤمنين رضوان الله عليهن، بل كان السياق القرآني يتحدث عنهن قبل الآية وبعدها، ولم يقل أحد بعصمتهن. وقد بين زيد ﷺ أن أزواجه ﷺ من أهله: حين سأله سائل: «ومن أهل بيته يا زيد أليس نساؤه من أهل بيته قال نساؤه من أهل بيته» (٢). وهو مقتضى كلام العرب، فإن كلمة الأهل لغة تنصرف لأول وهلة إلى الأزواج (٣).

وقد جاء القرآن مؤكداً ذلك؛ فقد قال تعالى في حق السيدة سارة زوجة إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿قَالُوا أَنْتَجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣].

وقال في قصة رجوع سيدنا موسى ﷺ بزوجه من مدين إلى مصر: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩] (٤).

(١) منهاج السنة النبوية (٢١/٤).

(٢) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي ﷺ، رقم (٢٤٠٨)، وأخرجه أحمد في مسنده (٣٦٧/٤).

(٣) قال ابن منظور: «أهل الرجل وأهله: زوجه» لسان العرب مادة (أهل)، وقال الراغب الأصبهاني: «فأهل الرجل في الأصل من يجمعه وإياهم مسكن واحد، ثم تجوز فقييل أهل بيت الرجل من يجمعه وإياهم نسب، وتعرف في أسرة النبي ﷺ مطلقاً إذا قيل أهل البيت لقوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣] وعبر بأهل الرجل عن امرأته مفردات القرآن (ص ٢٩٥). وانظر: أنور الباز: عصمة الأئمة عند الشيعة (ص ٨٣ - ٨٥).

(٤) ويستدل الشيعة على أن المقصود بآل البيت هنا هم أهل الكساء فقط، بأن الضمير في الآيات السابقات ضمير النسوة (يا نساء النبي... تقنتن منكن، بيوتكن) في حين جاء في آية التطهير بضمير الجمع ﴿لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فلو كان الخطاب لنساء النبي لاستخدم نون النسوة، وهذا القول باطل؛ لأن الخطاب في الآيات السابقات جاء بلفظ (نساء)، وهو مؤنث وضميره نون النسوة، في حين جاء الخطاب في آية التطهير بكلمة أهل، وهي وإن كانت تدل على معنى نساء النبي، ولكنها تعامل معاملة الجمع المذكور؛ ولذلك وردت في قصة إبراهيم، وكان الخطاب لامرأة واحدة هي زوجه سارة بضمير الجمع، قال تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتَجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَبَرَكْنَاهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾ [هود: ٧٣]، وكذلك خطاب موسى لزوجه: ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ هَذِي﴾ [طه: ١٠] وقوله في قصة موسى أيضاً في سورة القصص: ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ

وما دامت كلمة الآل تطلق على الأزواج أولاً؛ فما الحكمة من نشر النبي ﷺ كسائه على علي وفاطمة والحسن والحسين، ورفضه إدخال أم سلمة فيه؟ الجواب أن كلمة أهل البيت تستعمل في العرف واللغة للأزواج أولاً بالذات، ولغيرهم تبعاً، فكانت أزواج النبي ﷺ داخلة في أهل البيت أولاً بالذات، وعلي وفاطمة والحسن والحسين ﷺ على سبيل الاحتمال؛ لأن سياق الآيات كان للأزواج فقط، ولكن كلمة أهل البيت تحتل العموم، فأراد النبي ﷺ أن يتأكد هذا العموم في حق علي وفاطمة وابنيهما، فدعاهم وجللهم بكساء ليثبت لهم ما يثبت لأهل البيت، ودعا لهم بالتطهير، لذلك لم يدخل أم سلمة في الكساء؛ لكونها داخلة في أهل البيت قطعاً بدلالة سياق الآيات، فلم تكن هناك حاجة إلى الدعاء والاعتداد بها في جملة أهل البيت، فقال لها: « أنت علي مكانك، أنت علي خير »^(١)، يعني أنك في مقامك السامق داخلة في معنى الآل أصالة، ولا حاجة لتأكيد الأصل، فالمعروف لا يحتاج إلى تعريف.

وكما أراد النبي ﷺ أن يتوسع معنى الآل ليضم صهر النبي وأحفاده؛ أراد أيضاً أن يوسعه فيضم عدداً من الصحابة الكرام منهم: سلمان وواثلة ﷺ، فقد قال ﷺ: « سلمان منا آل البيت »^(٢). وقال وائلة بن الأصقع ﷺ: وأنا يا رسول الله! صلى الله عليك من أهلك، قال ﷺ: « وأنت من أهلي » قال وائلة ﷺ: وإنها من أرجى ما أرتجي^(٣). وكما أدخل هؤلاء الصالحون في معنى الآل؛ أخرج منه من كفر وعصى، كما خرج أبو لهب، وكما خرج ابن نوح لما كفر: ﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾ قَالَ يَنْسُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْضَعُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿ [هود: ٤٥، ٤٦].

- كما يحاول الاثنا عشرية أن يستندوا إلى أي نص من نصوص القرآن الكريم، مهما كان بعيداً عما يريدون، فيصلوا أنفسهم به بأوهى الخيوط، فيستدلون بقوله تعالى:

﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ

= مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِيهِ انكُتُوا إِنِّي مَأْتِسُّ نَارًا لَمْ تَلْنِي مَائِكُمْ مِنْهَا يَحْتَرِي أَوْ جَذْوَةً مِنْ النَّارِ لَمَلَكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿ [القصص: ٢٩] ففي هذه الآيات كان الخطاب لامرأتين يقيناً، هما زوجة إبراهيم وزوجة موسى ﷺ، ومع ذلك خوطبتا بصيغة الجمع.

(١) تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٥٧/٥).

(٢) مستدرک الحاكم (٦٩١/٣).

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٤٩٢/٣) دار المعرفة - بيروت (١٤١٢ هـ).

عَهْدِي أَظْلَمِينَ ﴿ [البقرة: ١٢٤]. فقد صدر المجلسي بهذه الآية بابه الذي عقده في بحاره بشأن العصمة بعنوان « باب .. لزوم عصمة الإمام » (١). والآية إنما تتحدث عن إمامة سيدنا إبراهيم عليه السلام، لا عن إمامة غيره من الناس، وهي تختلف عن مفهوم الإمامة عند الشيعة؛ إذ المقصود بها هنا النبوة (٢).

وهكذا يظهر أنه لا سند للشيعة في آية التطهير، ولا في حديث الكساء، ولا في آية ابتلاء إبراهيم بالكلمات، فلا يصح التدليل بها ولا بغيرها على العصمة. وقد لجأ الشيعة أيضًا في تأكيد عصمة الأئمة إلى نصوص صريحة وضعوها ونسبوها للأئمة في الكافي وغيره، منها:

- عن سدير قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام .. « فما أنتم؟ قال: نحن خزّان علم الله، نحن تراجمه أمر الله، نحن قومٌ معصومون، أمر الله - تبارك وتعالى - بطاعتنا ونهى عن معصيتنا، نحن الحجّة البالغة على من دون السماء وفوق الأرض » (٣).

- وجاء في عيون أخبار الرضا: عن ابن عباس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « أنا وعلي والحسن والحسين وتسعة من ولد الحسين مطهرون معصومون » (٤).

وهذه النصوص لا خلاق لها في ميزان أهل السنة.

الغلو في مفهوم العصمة:

لم يكتف الاثنا عشرية من مفهوم العصمة باستحالة فعل المعصية، بل المشهور عندهم

(١) بحار الأنوار (١٩١/٢٥) ...

(٢) قال ابن عباس والسدي: إنه النبوة، قال: ﴿ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي أَظْلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤] « أي نبوتي »، وقال مجاهد: الإمامة، أي لا أجعل إمامًا ظالمًا يقتدى به، وقال قتادة وإبراهيم التخمي وعطاء والحسن وعكرمة: لا ينال عهد الله في الآخرة الظالمين فأما في الدنيا فقد ناله الظالم فأمّن به وأكل وعاش.. قال الزجاج: وهذا قول حسن، أي لا ينال أمانى الظالمين؛ أي: لا أؤمنهم من عذابي. والمراد بالظالم: المشرك.. وقال الربيع ابن أنس والضحاك، عهد الله الذي عهد إلى عباده: دينه، يقول: لا ينال دينه الظالمين، ألا ترى أنه قال: ﴿ وَدَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مَحْسَنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مَيْمُونٌ ﴾ [الصافات: ١١٣] يقول: ليس كلّ ذرّيتك يا إبراهيم على الحق. وروي عن ابن عباس، أيضًا، ﴿ لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي أَظْلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٢٤]، قال: ليس للظالمين عهد، وإن عاهدته فانقضه. انظر: تفسير الطبري (٢٠/٢) وما بعدها، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٠٨/٢)، تفسير ابن كثير (١٧٢/١، ١٧٣).

(٣) أصول الكافي (٣٢٥/١)، كتاب الحجّة باث في أنّ الأئمة بمن يشبهون ممن مضى وكراهية القول فيهم بالنبوة.

(٤) الشيخ الصدوق: عيون أخبار الرضا (٦٦/١) منشورات الشريف الرضي - قم (١٣٧٨هـ).

أن مفهوم عصمة الأئمة يتعدى ذلك إلى القول بعصمتهم عن السهو والنسيان، مع أن هذا القول المشهور والمنصور لديهم اليوم ليس بمجمع عليه بينهم، وليس هو قول متقدميهم، ناهيك أنه لا يستند إلى روايات قوية من أقوال الأئمة، بل على العكس جاء عنهم ما يدحض هذا الغلو.

وسنسوق هنا نصين لدى الاثني عشرية يثبتان أن العقيدة التي استقرت لديهم هي عصمة الأئمة عن السهو والنسيان في العهود المتأخرة والحاضرة:

- النص الأول من العهد الصفوي، يقول المجلسي: « اعلم أنّ الإمامية اتَّفَقوا على عصمة الأئمة عليهم السلام من الذنوب، صغيرها وكبيرها، فلا يقع منهم ذنب أصلاً لا عمداً ولا نسياناً ولا الخطأ في التأويل ولا للإسهاء من الله سبحانه » (١).

- النص الثاني من أحد كتاب الشيعة المعاصرين، يقول الشيخ المظفر: « ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصوماً من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سن الطفولة إلى الموت، عمداً وسهواً. كما يجب أن يكون معصوماً من السهو والخطأ والنسيان؛ لأن الأئمة حفظة الشرع والقوامون عليه حالهم في ذلك حال النبي، والله الذي اقتضانا أن نعتقد بعصمة الأنبياء هو نفسه يقتضينا أن نعتقد بعصمة الأئمة، بلا فرق.

ليس على الله بمستكر أن يجمع العالم في واحد » (٢)

ولا يبالغ أهل السنة في عصمة الأنبياء حتى يصلوا إلى نفي النسيان والإسهاء عنهم (٣)، فقد قال عليه السلام: « إنما أنا بشر أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكروني » (٤).

وهذا ما ينسجم مع أقوال الأئمة، فقد كانوا يؤكدون على بشريتهم وعدم اتصافهم بالعصمة من الذنوب والنسيان، بل يؤكدون أيضاً على أن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - لم يعصموا من النسيان إذا أَرَادَهُ اللهُ منهم، فالإمام الرضا لعن من يقول بإنكار السهو في حق

(١) بحار الأنوار (٢٥/٢١١)، وانظر: مرآة العقول (٤/٣٥٢).

(٢) محمد رضا المظفر: عقائد الإمامية (ص ٦٧).

(٣) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١/١٣).

(٤) متفق عليه، أخرجه البخاري، كتاب الصلاة، باب استقبال القبلة (١/١٠٥) دار الفكر - بيروت، ومسلم، باب السهو في الصلاة (٢/٨٤)، ومن أمثلة نسيان النبي عليه السلام حديث ذي اليمين في صحيح البخاري وغيره، وفيه سهو النبي عليه السلام في الصلاة؛ حيث سلم في صلاة رابعة على رأس ركعتين، فنتبهه الصحابة الكرام فأتم الصلاة وسجد للسهو.

الأنبياء ﷺ، وقال: « إنَّ الذي لا يسهو هو الله الذي لا إله إلا هو » (١).

وبناء على القول بعصمة الإمام من الخطأ والنسيان فقد أجاز المفيد « للإمام أن يحكم بعلمه كما يحكم بظاهر الشهادات، ومتى عرف من المشهود عليه ضد ما تضمنته الشهادة أبطل بذلك شهادة من شهد عليه، وحكم فيه بما أعلمه الله تعالى » (٢).

وهذا من الدعاوى العريضة التي جاء عن أهل السنة ما يناقضها في حق النبي الأعظم ﷺ، فقد صح الحديث عن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ قال: « ثم إنَّما أنا بشر، وإنكم تختصمون إليّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأقضي على نحو ما أسمع، فمن قضيت له بحق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار » (٣).

ويردّ قول المفيد ما أكدته روايات الاثني عشرية عن الأئمة الذين كانوا يقرّون ببشريتهم وتعرضهم للخطأ، ولذلك كانوا يطلبون المشورة والنصيحة من الرعية، فقد جاء عن علي عليه السلام: « لا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقلاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام النفس، فإنه من استثقل الحق أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفوا عن مقالة بحق، أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسي بفوق أن أخطئ ولا آمن ذلك من فعلي » (٤).

بل جاء عن الأئمة ما يزيل فكرة العصمة من جذورها، إذ تنقل كتب الاثني عشرية عن الأئمة اعترافهم ببشريتهم وتعرضهم للمعصية، كما تذكر استغفارهم وأوبتهم؛ ولذلك قال علي عليه السلام: « اللهم وأستغفرك من كل ذنب خُئْتُ فيه أمانتي، أو بخست بفعله نفسي أو خطئْتُ به على بدني، أو قدّمت فيه لذّتي أو آثرت فيه شهوتي، أو قهرت فيه من منعني. اللهم وأستغفرك من كل ذنب سبق علي في علمك أي فاعله فدخلت فيه بإرادتي واجترحت به بمحبتتي أو أتيت به بشهوتي، ثم أحلت عليك ربي، فلم أغالبك بفعلي إذ كنت كارهاً لمعصيتي، لكن سبق علمك في فحلمت عني فلم تدخلني فيه لمعصيتي، لكن سبق علمك في فحلمت عني فلم تدخلني فيه جبراً. ولم تحملني عليه قسراً ولم تظلمني فيه

(١) بحار الأنوار (٢٥/٣٥٠)، وانظر: ابن بابويه: عيون أخبار الرضا (ص ٣٢٦).

(٢) أوائل المقالات (ص ٧٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري وكرره، باب من أقام البينة بعد اليمين وقال النبي ﷺ: « لعل بعضكم ألحن بحجته من بعض » رقم (٢٥٤٣)، باب موعظة الإمام للخصوم رقم (٦٧٤٨)، وأخرجه مسلم، باب الحكم بالظاهر واللعن بالحجة، رقم (١٧١٣).

(٤) نهج البلاغة (ص ٣٣٥).

وقال الإمام الرضا مبيِّناً حقيقة الإمام: « والإمام يولد ويولد ويصح ويمرض ويأكل ويشرب، ويبول ويتغوط، وينكح وينام وينسى ويسهو، ويفرح ويحزن ويضحك ويبكي، ويحيا ويموت ويقبر ويزار، ويحشر ويوقف ويعرض ويسأل ويثاب ويكرم ويشفع، ودلالته في خصلتين: في العلم واستجابة الدعوة وكل ما أخبر به من الحوادث التي تحدث قبل كونها فذلك بعهد معهود إليه من رسول الله ﷺ توارثه عن آبائه (ع) ويكون ذلك مما عهد إليه جبريل من علام الغيوب » (١).

« وبالرغم من وضوح موقف أهل البيت (ع) من دعوى العصمة وتأكيدهم على الطبيعة البشرية العادية، واستغفارهم لله، فإن الإمامية حاولوا الالتفاف على ذلك، وقاموا بتأويل الروايات الثابتة والنافية للعصمة، بأنها صادرة عن الأئمة في مقام التعليم لعامة الناس، أو أنها صادرة تقيّة. وقاموا إلى جانب ذلك برواية مجموعة من الروايات التي تدعي العصمة بصراحة، وتشرطها في الإمام أو الأئمة، وهي روايات ضعيفة وغامضة وغير ذات دلالة.. لا قيمة لها؛ لأنها غير مسندة ولا ثابتة » (٢).

فإذا واجهنا الاثني عشرية بالخبر المرسل عن زين العابدين: « لا يكون الإمام منا إلا معصوماً » (٣)، ذكرناهم بما جاء عن زين العابدين علي بن الحسين نفسه أنه قال: « المعصوم هو من اعتصم بحبل الله، وحبل الله هو القرآن » (٤).

وهذا النص الأخير يطلعننا على تلك النظرة السليمة للعصمة، وربطها بهذا المعنى الإسلامي الجميل في تلك الفترة المبكرة من تاريخ التشيع؛ فالاعتصام بالقرآن والتمسك به هو العصمة والنجاة، وهذا المعنى ليس مقصوراً على أناس معينين، قال تعالى: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١].

والباحث عن جذور فكرة عصمة غير الأنبياء يجد أنها سابقة لظهور الإسلام، فهي فكرة يهودية، حيث اعتقد اليهود « عصمة الحاخامات وتأليهم » (٥) في حين اتهموا

(١) عيون أخبار الرضا (١٩٣/١)، وهي موجودة في قرص المعجم الفقهي الذي أخرجه الاثنا عشرية. وهكذا وجدتها في نسختي الورقية (١٩٣/١) منشورات الشريف الرضي، الطبعة الأولى (١٣٧٨) قم. وقد ناقشت الخلاف حول هذا النص في فصل العقائد العامة.

(٢) ٣، أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي (ص ٧٥، ٧٦) .

(٤) ابن بابويه: معاني الأخبار (ص ١٣٢)، بحار الأنوار (١٩٤/٢٥) .

(٥) أنور الباز: عصمة الأئمة عند الشيعة (ص ٦١) .

الأنبياء الكرام بالعظائم؛ ولذلك ذمهم الله تعالى، وذم معهم من شابههم من النصارى - بسبب تقديسهم الزعماء الدينيين، فقال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ... ﴾ [التوبة: ٣١]. وقد قلدهم غلاة الشيعة، عندما « أضفوا على الإمام صفات فاقت حتى صفات الأنبياء، فهو عندهم معصوم في كل شيء، بينما الأنبياء معصومون فيما يبلغونه عن الله »^(١). ومن ثم يرى بعض المحققين أن القول بعصمة الإمام دخلت إلى التشيع عبر أفكار ابن سبأ^(٢). في حين يرى معظم المحققين أن هشام ابن الحكم هو أول من أدخل فكرة العصمة إلى الأئمة^(٣)، فقد سأله أحد رجال الشيعة: ما معنى قولكم: « إن الإمام لا يكون إلا معصوماً؟ » فقال هشام: سألت أبا عبد الله (جعفر الصادق) عن ذلك فقال: « المعصوم هو الممتنع بالله من جميع محارم الله، وقال تبارك وتعالى: ﴿ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ [آل عمران: ١٠١] »^(٤). وجاء في أمالي الصدوق عن محمد بن أبي عمير أنه قال: « ما سمعت ولا استفدت من هشام بن الحكم في طول صحبتي إياه شيئاً أحسن من هذا الكلام في صفة عصمة الإمام... »^(٥).

ولا ننسى أن هشام بن الحكم « هو أول من قرر عقائد الإمامية في صورة علمية منظمة، باذلاً جهده في إقامة الدليل عليها من الأحاديث والعقل، فحاول إثبات نظرية النص والعصمة إلى جانب الآراء الأخرى »^(٦). وينسب له كتاب الفرق كالشهرستاني والبغدادي أنه « أجاز المعصية على الأنبياء مع قوله بعصمة الأئمة، ويفرق بينهما بأن النبي يوحى إليه فينبئه على وجه الخطأ فيتوب عنه، والإمام لا يوحى إليه فتجب عصمته »^(٧). ويذكر الدكتور القفاري أنه بعد تأثر الشيعة بالفكر الاعتزالي اصطبح مفهوم العصمة عندهم ببعض الأفكار الاعتزالية كفكرة اللطف الإلهي^(٨)، وفكرة الاختيار

(١) د. محمد عمارة: الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية (ص ٨٣)، نهضة مصر (٢٠٠٠ م).

(٢) انظر: كتب ورسائل ابن تيمية (٥١٨/٤). مكتبة ابن تيمية تحقيق عبد الرحمن محمد قاسم النجدي.

(٣) أنور الباز: عصمة الأئمة عند الشيعة (ص ٦٢).

(٤) والنص عن معاني الأخبار (ص ١٣٢)، بحار الأنوار (١٩٤/٢٥، ١٩٥).

(٥) أمالي الصدوق (٦٣٢).

(٦) د. ضياء الدين الرئيس: النظريات السياسية الإسلامية (ص ٩٤)، مكتبة دار التراث (ط ٦)، (١٩٧٦ م).

(٧) الملل والنحل (١٨٥/١)، وانظر: البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٥٠).

(٨) حول تأثر الشيعة بفكرة اللطف الإلهي عند المعتزلة انظر: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية،

د. عائشة يوسف المناعي (ص ٢٩٧)، (٣٠٧ - ٣٢٣).

الإنساني، كما نلاحظ هذا في تعريف المفيد (ت ٤١٣ هـ) للعصمة حيث قال: « بأنها لطف يفعله الله - تعالى - بالملكف بحيث يمنع منه وقوع المعصية، وترك الطاعة مع قدرته عليها » (١).

فليس معنى العصمة أن يجبر الله الإمام على ترك المعصية بل يفعل به ألقافاً يترك معها المعصية مختاراً. فنلاحظ الاستعانة بمصطلحات المعتزلة لتحديد مفهوم العصمة.

ومسألة العصمة لم تقف عند حد نفي المعصية بل تجاوزت ذلك.. ففي القرن الرابع يقرر ابن بابويه القمي المعروف بالصدوق (ت ٣٨١ هـ) عقيدة الشيعة في العصمة في كتابه (الاعتقادات) فيقول: « اعتقادنا في.. الأئمة.. أنهم معصومون مطهرون من كل دنس، وأنهم لا يذنبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً، ولا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ومن نفي عنهم العصمة في شيء من أحوالهم فقد جهلهم، ومن جهلهم فهو كافر، واعتقادنا فيهم أنهم معصومون موصوفون بالكمال والتمام والعلم من أوائل أمورهم وأواخرها، لا يوصفون في شيء من أحوالهم بنقص ولا عصيان ولا جهل » (٢).

فهو هنا ينفي المعصية، والجهل والنقص، ويثبت الكمال الذي يلزمهم من أول حياتهم إلى آخرها، ويكفر من خالف ذلك.

وهذا طور وتطور آخر للعصمة، انتقلت إليه على يد الصدوق، ولكنه لم يصرح فيه بنفي السهو عن الأئمة - وهو ما سيتجاسر عليه المجلسي وشيوخ الشيعة المتأخرون فيما بعد - بل إنه - أي الصدوق - نص في كتابه (من لا يحضره الفقيه) صراحة على أن نفي السهو عن النبي ﷺ هو مذهب الغلاة والمفوضة، يقول: « إن الغلاة والمفوضة - لعنهم الله - ينكرون سهو النبي ﷺ يقولون: لو جاز أن يسهو في الصلاة لجاز أن يسهو في التبليغ؛ لأن الصلاة فريضة كما أن التبليغ فريضة.. وليس سهو النبي ﷺ كسهونا؛ لأن سهوه من الله ﷻ، وإنما أسهاه الله ليعلم أنه بشر مخلوق، فلا يتخذ رباً معبوداً دونه، وليعلم الناس بسهوه حكم السهو، وكان شيخنا محمد بن الحسن بن أحمد بن الوليد يقول: أول درجة في الغلو نفي السهو عن النبي ﷺ، وأنا أحتسب الأجر في تصنيف كتاب مفرد في إثبات سهو النبي ﷺ والرد على منكريه » (٣).

فهذا ابن بابويه، وهو رئيس الشيعة كما يسمونه - ينكر على من نفي السهو عن

(١) المفيد: النكت الاعتقادية: (ص ٣٣، ٣٤)، تصحيح الاعتقاد (ص ١٠٦).

(٢) الاعتقادات (ص ١٠٨، ١٠٩). (٣) من لا يحضره الفقيه (٢٣٤/١).

المصطفى ﷺ، فكيف بمن هو أقل منه كالأئمة؟! ويعدّ نفي السهو علامة الغلو، ويشير إلى أن هذا القول من مذاهب الغلاة.. ويلتجأ إلى ما ينطوي عليه نفي السهو من تشبيه المخلوق بالخالق جل شأنه.

فالراجح أن نفي السهو أضافه الشيعة المتأخرون إلى مسألة العصمة، في تطور آخر لهذه القضية؛ ولذلك فإن نصوصهم الموضوعية سلفاً عن الأئمة تخالف ذلك، فأبو عبد الله جعفر الصادق كان يقول لما ذكر له السهو:

« أو ينفلت من ذلك أحد؟! ربما أقعدت الخادم خلفي [في] صلاتي »^(١). أي يحصي عليه ركعات الصلاة.

والرضا يلعن من ينفي السهو عن النبي ﷺ - كما مرّ - ويقول: « إن الذي لا يسهو هو الله سبحانه » كما أن كتب الشيعة روت أخباراً في سهوه ﷺ في صلاته^(٢).

وهكذا فإن لتكلمي الاثني عشرية اتجاهًا في مسألة العصمة، يخالف اتجاه الأئمة أنفسهم، وليس هذا بدعًا وغريبًا، فهناك مسائل شتى خالف المتكلمون فيها أئمتهم، واتخذوا التقية وتضعيف الروايات تكتة لصيانة ضرورات المذهب الذي رسخوه أولاً في عقولهم. ولذلك قال محققو أهل السنة: « الإمامية تخالف أهل البيت في عامة أصولهم »^(٣). « ومذهب الشيعة هو مذهب الشيوخ لا مذهب الأئمة »^(٤).

ومن الغريب أن الإمامية يحتجّون في إثبات العصمة واستحالة السهو في حق الأئمة بإجماع علمائهم، حيث يقولون: « إنّ أصحابنا الإمامية أجمعوا على عصمة الأئمة - صلوات الله عليهم - من الذنوب الصغيرة والكبيرة عمدًا وخطأً ونسيانًا من وقت ولادتهم إلى أن يلقوا الله ﷻ »^(٥). رغم أنّ ادعاء الإجماع منقوض بمخالفة شيعة القرن الرابع من قبلهم، وفي مقدمتهم شيخ الطائفة الصدوق وشيخه ابن الوليد أيضًا. وإذا قيل لهم كيف ينعقد إجماعكم، وشيخكم الصدوق ابن بابويه وشيخه ابن الوليد

(١) بحار الأنوار (٣٥١/٢٥). (٢) انظر: من لا يحضره الفقيه (٢٣٣/١)..

(٣) منهاج السنة (٣٦٨/٢). وتمة النص تبين بعض الأمثلة على مخالفة الشيعة لأئمة أهل البيت: « فليس في أئمة أهل البيت - مثل علي بن الحسين وأبي جعفر الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق - من كان ينكر الرؤية، أو يقول بخلق القرآن، أو ينكر القدر، أو يقول بالنص على علي أو بعصمة الأئمة الاثني عشر أو يسب أبا بكر وعمر ».

(٤) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٩٥٠/٢).

(٥) بحار الأنوار (٣٥٠/٢٥، ٣٥١).

قد خالفا هذا المذهب، قالوا: « إن خروجهما لا يخل بالإجماع، لكونهما معروفين بالنسب » (١). وهذه مسألة غريبة عويصة الفهم من مسائل الإجماع عندهم؛ إذ يخرق الإجماع قول رجل غير معروف بالنسب؛ لأنه ربما كان المهدي الغائب المنتظر، ولا يخرقه معروف بالنسب! لأنه يلغى احتمال وجود المهدي المنتظر ضمن أهل هذا الإجماع.

يقول د. القفاري: « ولك أن تعجب كيف يردون النصوص الصريحة في إثبات السهو والواردة في كتبهم عن الأئمة ويتعلقون بإجماع يكشف عن قول المعصوم الغائب على سبيل الظن والاحتمال؟! » (٢).

لذلك تميّز المجلسي - وهو يروي النصوص التي تخالف إجماع أصحابه على استحالة السهو على الأئمة - فقال: « المسألة في غاية الإشكال؛ لدلالة كثير من الأخبار والآيات على صدور السهو عنهم، وإطباق الأصحاب إلا من شذ منهم على عدم الجواز » (٣).
تفويض الأمر إلى الأئمة:

من العقائد الخاصة والخطيرة التي يضمها الشيعة إلى عقيدتهم في عصمة الأئمة: اعتقادهم بأن الله تعالى فوّض الحكم في الأرض إلى النبي ﷺ والأئمة من بعده، يتصرفون فيها كما يشاؤون.

وتنطلق عقيدة التفويض عند الشيعة من فكرتين:

أولاهما: أن الأرض وخيراتها وما فيها ملك للأئمة:

عن أبي عبد الله جعفر الصادق: « إنّ الأرض كلّها لنا، فما أخرج الله منها من شيء فهو لنا » (٤).

وعنه أيضًا: « إنّ جبرئيل عليه السلام كرى برجله خمسة أنهارٍ ولسان الماء يتبعه الفرات ودجلة ونيل مصر ومهران ونهر بلخ، فما سقت أو سقي منها فلإمام والبحر المطيف بالدنيا للإمام » (٥).

(١) بحار الأنوار (٣٥١/٢٥).

(٢) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٩٥٠/٢).

(٣) بحار الأنوار (٣٥١/٢٥)، وانظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩٥٠/٢).

(٤) أصول الكافي (٤٧٤/١)، كتاب الحجّة باب في أن الأرض كلّها للإمام عليه السلام. والحديث صحيح.

(٥) أصول الكافي (٤٧٦/١)، كتاب الحجّة باب في أن الأرض كلّها للإمام عليه السلام. والحديث صحيح.

وقد حاول الشيعة الربط بين الأنبياء الذين مكن لهم في الأرض والأئمة: فروا عن جعفر الصادق أنه قال: « إِنَّ اللَّهَ ﷻ فَوَّضَ إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ دَاوُدَ فَقَالَ: ﴿ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [ص: ٣٩] وَفَوَّضَ إِلَى نَبِيِّهِ ﷺ فَقَالَ: ﴿ وَمَا آتَيْنَاكَ الرَّسُولَ فَخُذْهُ وَمَا نَهَيْتُكَ عَنْهُ فَأَنْتَهُوَ ﴾ [الحشر: ٧] فَمَا فَوَّضَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَدْ فَوَّضَهُ إِلَيْنَا » (١).

ولكن سليمان ﷺ هيمن بدينه على الأرض حتى أتته بلقيس بقومها وأسلمت بين يديه، في حين لم نجد شيئاً من أحوال الأئمة يدل على تفويض الأرض لهم، ولا ملكهم لمقاليدها، بل يذكر تاريخ الشيعة أنهم كانوا مضطهدين، إما فآزين، أو مسجونين، أو مظلومين؛ على حسب روايات الاثني عشرية.

والحقيقة أن النبي ﷺ ذاته لم يكن يدعو إلى ملك الدنيا، ولا للسيطرة عليها، بل كان صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله يحب المساكين ويعيش حياتهم، ويدعو أن يحشر معهم، وقد عرضت عليه الدنيا، فأبأها، ونزل جبريل بخيار الله له بين أن يكون ملكاً رسولاً أو عبداً رسولاً، فاختر أن يكون عبداً رسولاً، كما في مسند أحمد عند أهل السنة، وأصول الكافي عند الشيعة (٢).

ولهذا قال عبد الله بن عمر للحسين بن علي ﷺ لما هم بالخروج إلى العراق لقتال بني أمية: « لا تفعل فإنك لن تنجح في مسعاك؛ لأن النبي ﷺ خيره الله بين الدنيا والآخرة، فاختر الآخرة، وأنت ابنه » (٣).

فلو كان للأئمة ملك الدنيا وقواها، وكانوا مفوضين بطاقتها، لأشبهوا حال نبي الله سليمان ﷺ، الذي قال: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَبْغِي لِإِخْوَتِي مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ [ص: ٣٥].

وثانيتها: أن الأئمة نائبون عن النبي ﷺ:

يرى الاثنا عشرية أن ما كان من سلطات للنبي فهي للأئمة من بعده؛ يقول الشيعة: « إن الإمام المعصوم يمتلك كل مناصب النبي ﷺ سوى النبوة والرسالة، وكما أن أحاديثه حجة في بيان الحقائق والتشريعات والأحكام والمعارف الإسلامية فكذلك تجب

(١) أصول الكافي (١/٣٢٣) كتاب الحجّة باب التفويض إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة ﷺ في أمر الدين.

(٢) مسند أحمد (٢/٢٣١) رقم (٧١٦٠)، وقريب منه رواه الكليني: أصول الكافي (٢/١٢٢).

(٣) عبد الله المشيرفي: تلخيص عقائد الشيعة ومقارنتها بعقائد الصوفية (ص ٢٦).

طاعة أوامره وأحكامه في مختلف القضايا الحكومية» (١). «ولذلك فإن الراد على الإمام راد على الله تعالى، وهو على حد الشرك بالله» (٢).

عن عبد الله بن سنان قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: «لا والله ما فوّض الله إلى أحدٍ من خلقه إلا إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة، قال عليه السلام: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرْتكَ اللَّهُ ﴾ [النساء: ١٠٥] وهي جارية في الأوصياء عليهم السلام» (٣).

وعقيدة التفويض هذه كما وجدت عند الشيعة رأيناها أيضًا عند بعض غلاة الصوفية، إذ يروي ابن عربي عن بعضهم أنه قال لأصحابه: إن الله أعطاني التصرف خمسة عشرة سنة وتركناه نظرًا، ويقول ابن عربي بعدها: «وأما نحن فما تركناه نظرًا وهو تركه إيثارًا، وإنما تركناه لكامل المعرفة» (٤).

وتأتي رواية لتثبت أنه لا يقيم الحدود إلا المعصوم، فهو وحده المفوض بإقامتها أو إلغائها: جاء في فروع الكافي: «لا يقيم الحد من لله عليه حدّ، فمن كان عليه حد مثل ما عليها فلا يقيم عليها الحد، فانصرف الناس يومئذ كلهم ما خلا أمير المؤمنين والحسن والحسين.. وانصرف فيمن انصرف يومئذ محمد بن أمير المؤمنين» (٥). ويخالفه قول النبي ﷺ في فاطمة التي يدعي الشيعة عصمتها مع أولادها رضوان الله عليهم: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها» (٦)، وحاشاها أن تسرق، ولكن هذا الحديث ينفي أن يكون أحد من المسلمين فوق الشرع وخارج نطاقه، وهذه عدالة الإسلام.

وعن حفص بن غياث قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام: من يقيم الحدود: «السلطان أو القاضي؟ فقال: إقامة الحدود لمن إليه الحكم» (٧).

-
- (١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣٢٥).
(٢) د. محمد عمارة: الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية (ص ٨٤).
(٣) أصول الكافي (٣٢٣/١) كتاب الحجّة باب التفويض إلى رسول الله ﷺ وإلى الأئمة عليهم السلام في أمر الدين.
(٤) فصوص الحكم (ص ١٢٩)، دار إحياء الكتب العربية (١٣٦٥ هـ) تعليق د. أبو العلا عفيفي.
(٥) الكليني: الفروع من الكافي (١٨٧/٧) كتاب الحدود. وهذا النص قريب من نص إنجيلي يقول: في موقف مشابه: من كان منكم بلا خطيئة فليكن أول من يرحمها بحجر العهد الجديد، إنجيل يوحنا (٧/٨).
(٦) متفق عليه: صحيح مسلم: كتاب الحدود باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة في الحدود رقم (١٦٨٨)، واللفظ له، وأخرجه البخاري: في الحدود، باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع رقم (٦٤٠٥)، وبعده روايات.
(٧) ابن بابويه: من لا يحضره الفقيه (٥١/٤)، تهذيب الأحكام (١٥٥/١٠)، وسائل الشيعة (٣٣٨/١٨).

وقال المفيد: « فأما إقامة الحدود فهو إلى سلطان الإسلام المنصوب من قبل الله، وهم أئمة الهدى من آل محمد ﷺ، ومن نصبوه لذلك من الأمراء والحكام، وقد فوضوا النظر فيه إلى فقهاء شيعتهم مع الإمكان » (١).

ولعل هذه النصوص تفسر غياب تطبيق الحدود في دول الشيعة، إذ أمر هذه الحدود متروك للإمام المعصوم، والإمام المعصوم غائب!

والحقيقة أن القرآن الكريم لم يشترط وجود إمام معصوم لإقامة الحدود، ولكن اشترط وجود الدولة المسلمة التي خاطبها الله تعالى بقوله: ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٨]، واشترط وجود جماعة من المؤمنين فقال: ﴿ الَّذِينَ وَالُوا فَإِلَافًا مِّنْهُم بِاللَّهِ وَالزَّانِي وَالزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةُ عِدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [النور: ٢]، وقد أقام خلفاء المسلمين هذه الحدود طاعة لله ولرسوله، ومن هؤلاء الخلفاء علي عليه السلام.

وحسب هذا التفويض المزعوم تختلف الأحكام بين الأئمة، فرواية تقول إن أمير المؤمنين علي قال لفاعل قوم لوط: « اختر من إحدى ثلاث: ضربًا بالسيف، أخذ منك ما أخذ، أم هدم جدار عليك، أو حرقًا بالنار ». في حين تبين رواية أخرى أن حكم جعفر الصادق جاء مخالفاً لحكم أمير المؤمنين علي: عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « سألته عن اللوطي، قال: يضرب مائة جلدة » (٢).

وخلافهما في هذه المسألة يدل على أنهما اجتهدا في أمر لم يكن معهما نص فيه، ولذلك اختلفت أحكامهما، وهذا ينقض القول بالعصمة والتفويض.

وما الحاجة إلى تفويض إقامة الحدود إلى الأئمة ما داموا قد أكدوا على أن « حلال محمد حلال أبداً إلى يوم القيامة، وحرامه حرام أبداً إلى يوم القيامة، لا يكون غيره ولا يجيء غيره » (٣).

والمدقق في تصرفات الأئمة يوقن أنهم لم يكونوا بمعصومين، فالحسن لم يكن يرى قتال أهل الشام، وكان ينهى أمير المؤمنين علي عليه السلام عن ذلك، وكذلك فقد تنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية عليه السلام، ولم يكن هذا رأي الحسين، فالحسن طواعٍ معاوية وأعطاه الخلافة

(١) المفيد: المقنعة (ص ١٣٠)، وسائل الشيعة (٣٣٨/١٨).

(٢) انظر: بحار الأنوار للمجلسي (٧٦/٧٣).

(٣) الكليني أصول الكافي (٥٨/١) تحقيق غفاري. كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس.

مع وجود كثرة الأتباع والأجناد^(١)، والحسين حارب الأمويين مع قلة جنده وتفرق أتباعه، فاختلفهما في أمر واحد دليل على اجتهادهما دون وجود العصمة « لأنه إن كان الذي فعله الحسن حقًا واجبًا من موادة معاوية وتسليمه له مع كثرة أنصار الحسن وقوتهم، فما فعله الحسين من محاربة يزيد بن معاوية مع قلة أنصار الحسين وضعفهم حتى قتل وقتل أصحابه جميعًا باطل غير واجب؛ لأن الحسين كان أعذر في القعود عن محاربة يزيد من الحسن في القعود عن محاربة معاوية »^(٢).

وهذا أحد الأئمة يعترض على فعل الإمام الحسن، ويعلل سبب سلب بنيه الإمامة بما فعله من الصلح مع معاوية: عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: رحم الله عمي الحسن عليه السلام لقد غمد الحسن عليه السلام أربعين ألف سيف حين أصيب أمير المؤمنين عليه السلام، وأسلمها إلى معاوية »^(٣).

وهذا النص يبين نقد إمام لأفعال إمام، وهذا يجتث فكرة العصمة من أصولها وقواعدها؛ لأن الاثني عشرية ترى أن اختلاف تصرفات الأئمة ليس تبعًا لاجتهاداتهم، بل لما اعتمدوا عليه من أوامر ربانية، فقد قررت رواية الكافي أن ما فعله الحسن كان بكتاب مختوم فيه أمر الله^(٤)، وكذلك الحسين - كما يقول مغنية: « ظهرت شجاعته في وقعة كربلاء حيث أمر بمقاومة الظالمين، ولم تظهر الشجاعة من الأئمة الباقين؛ لأنهم أمروا بالصبر والمداراة »^(٥)، فلو صححت العصمة لما جاز أن يعترض إمام على إمام في فعل أمره الله تعالى به.

وقد جاءت الروايات لتؤكد أن أتباع الأئمة أيضًا لم يكونوا يرون عصمتهم، فقد لام الشيعة الحسن عليه السلام على تنازله عن الخلافة، فهذا سليمان بن ليلى من أتباع الحسن يدخل

(١) انظر حول صحة رأي الحسن عليه السلام: المرتضى سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، للشيخ أبو الحسن علي الحسيني الندوي دار القلم - دمشق (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، (ط ٢)، (ص ٢٣٧). وهو كتاب قيم يبين موقف علي وبنيه من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم ويوضح مكانتهم وسيرتهم كما بينها أهل السنة.

(٢) النوبختي: فرق الشيعة (ص ٢٥، ٢٦).

(٣) محمد بن مسعود العياشي: تفسير العياشي (٢/٢٩١)، تفسير سورة الإسراء، وانظر: المجلسي: بحار الأنوار (٢٩/٤٥٢، ٤٥٣).

(٤) الكليني: أصول الكافي (١/٢٧٩، ٢٨٠).

(٥) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٢٣٥).

عليه ويقول له: « السلام عليك يا مدلّ المؤمنين! قال: وما علمك بذلك؟ قال: عمدت إلى أمر الأمة فحللته من عنقك، وقلدت هذا الطاغية يحكم بغير ما أنزل الله » (١).

وينسب الكليني إلى بعض هؤلاء (المعصومين) ما يترفع عنه عامة الناس، ونحن ننزههم عنه، وننتهم الرواة. فيروي أن محمد الباقر بن علي بن الحسين (أبو جعفر) كان له حمام وقيم على هذا الحمام، فكان « يدخل فيبدأ فيطلي عانته وما يليها، ثم يلف على طرف إحليله، ويدعوني فأطلي سائر بدنه، فقلت له يوماً من الأيام: الذي تكره أن أراه قد رأيته، فقال: كلا إن النورة سترة » (٢). فهل يليق بعاقل - ولو كان غير معصوم - أن يظهر لخادمه كما خلقه الله تعالى، ما عليه إلا هذا الطلاء! إننا ننزه سادة أهل البيت عن مثل هذا.

وقد ذكرت نصوص الشيعة عن الأئمة من الآراء ما تأباه العقول والعلوم، فقد رووا أن الصادق سئل عن المشوهين في الخلق، فقال: « هم الذين يأتي أبائهم نساءهم في الطمث » (٣).

« وتلك المفاهيم من ألوان الجهل المركب التي اجتثها العلم الحديث الذي أثبت في أولياته أن البويضة لا وجود لها في الرحم خلال الحيض... فمن أين يأتي الولد أصلاً خلال الطمث؟ » (٤).

وروا عن جعفر أيضًا: « إن الله خلق الأرض فأمر الحوت فحملتها، فقالت الحوت: حملتها بقوتي، فبعث الله حوتًا قدر شبر، فدخلت في منخرها فاضطربت أربعين صباحًا، فإذا أراد الله سبحانه أن يزلزل أرضًا نزلت تلك الحوت الصغيرة فزلزلت الأرض فرقًا » (٥).

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٥٢٢/٨)، والمفيد: الاختصاص (ص ٨٢). وهذا النص فيه من الطعن على الشيعة من أكثر من وجهة، فأولاً هم يقولون بعدم جواز إمامة المفضول مع وجود الفاضل، فكيف جاز تصرف الحسن فأعطى الخلافة هينة لينة لمعاوية رضي الله عنه؟ ثم هي دليل على عدم عصمة الأئمة؛ لأن الإمام الحسن خالف في تصرفه هذا تصرف من كان قبله ومن بعده، فلم يرتض الإمام على أن يبايع معاوية، وكذلك لم يرتض الحسين مبايعة يزيد بن معاوية، ثم هو دليل على أن أتباع الأئمة لم يكونوا يتعاملون معهم على أساس التعظيم واعتقاد العصمة، فقد رأينا صاحب الحسن كيف يكلمه كما يكلم أي شخص من عاديي البشر، فلماذا يريد الشيعة أن يتعاملوا مع هؤلاء الأئمة بغير ما تعامل به أصحابهم؟

(٢) الفروع من الكافي (٤٩٧/٦). (٣) الصدوق: علل الشرائع (ص ٨٢).

(٤) د. محمد عبد المنعم بري: الجذور اليهودية في كتاب علل الشرائع (ص ٤٠) طبعة جبهة علماء الأزهر.

(٥) الصدوق: علل الشرائع (ص ٥٥٤).

فهل يكون معصومًا من يقول بمثل هذا الكلام الذي جاءنا من التراث اليهودي المغلوط؟ وهكذا نجد أن الأئمة أنكروا العصمة وتبرأوا منها، وتصرفاتهم تخالفها، وكثير من روايات الاثني عشرية تناقضها.

وأخيرًا نتساءل: هل عصمة الأمة خير أم عصمة الأئمة؟

إن الأمة معصومة بكتاب ربها وسنة نبيها ﷺ، ولا تجمع الأمة على ضلالة، وعصمة الأمة مغنية عن عصمة الإمام؛ لأن الأمم السابقة قبلنا إذا بدلوا دينهم بعث الله نبيًا يبين لهم الحق، وهذه الأمة لا نبي بعد نبيها، فكانت عصمتها تقوم مقام النبوة، فلا يمكن لأحد منهم أن يبدل شيئًا من الدين إلا أقام الله من يبين خطأه فيما بدله؛ ولذلك فإن الله - سبحانه - قرن سبيل المؤمنين بطاعة رسوله في قوله ﷻ: ﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِ ۗ جَهَنَّمَ سَاءَتْ مَصِيرًا ۝ ﴾ [النساء: ١١٥].

فقول من ينسب العصمة في الأمة بحفظها من الضلال خير من قول من « يوجب عصمة واحد من المسلمين، ويجوز على مجموع المسلمين - إذا لم يكن فيهم معصوم - الخطأ » (١).

وكل ما سطره وملأوا به الصفحات من أدلة عقلية تؤكد الحاجة إلى معصوم قد تحققت بالرسول ﷺ؛ ولذلك فإن الأمة ترد عند التنازع إلى ما جاء به الرسول من الكتاب والسنة، ولا ترد إلى الإمام، قال تعالى: ﴿ فَإِنْ نَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ۚ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ ﴾ [النساء: ٥٩]. « قال العلماء: إلى كتاب الله، وإلى نبيه ﷺ، فإن قبض فإلى سنته » (٢)، والأمة بهدي الكتاب والسنة لا تجتمع على ضلالة؛ لأنها لن تخلو من متمسك بهما إلى أن تقوم الساعة.

فإن الحاجة على الأمة قامت بالرسول، قال تعالى: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۗ ﴾ [النساء: ١٦٥]، ولم يقل - سبحانه - : والأئمة (٣).

كما أن أدلة الاثني عشرية العقلية المعتمدة على قاعدة اللطف المعتزلية، والتي تؤكد الحاجة إلى إمام معصوم، وأن الأمة دونه لا إيمان لها ولا أمان؛ هذه الحجج هي أيضًا

(١) الذهبي: المنتقى (مختصر منهاج السنة)، (ص ٤١٠).

(٢) ابن عبد البر: التمهيد (٤ / ٢٦٤). (٣) انظر: ابن تيمية: الفتاوى (١٩ / ٦٦).

تؤدي في النهاية إلى إبطال عصمة الأئمة عندهم؛ لأنّ وجود أئمتهم لم يحقّق مقاصد الإمامة التي يتحدّثون عنها، فلم يقيموا دولة العدل التي حلموا بها.

والواقع أنّه يكفي من ذلك انتهاء ظهور الإمام عندهم منذ سنة (٢٦٠ هـ) - كما تقوله الاثنا عشرية - فإنّ هذا الغائب الموعود أو المعدوم لم ينتفع به في دين ولا دنيا. وهذه ثلثة لا تسد، وفق لا يرتق في المذهب الاثني عشري، لا يبقى ولا يذر لحججهم وزناً ولا أثراً^(١).

* * *

(١) انظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢٩٩/٢).

الْمِحَّةُ الثَّالِثُ

التَّقِيَّةُ



التقية: إظهار خلاف ما في الباطن ^(١). وأكثر العرب ينطقون التقية «تقا»، كما جاء هذا اللفظ في القرآن: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤْا مِنْهُمُ تُقْنَةً﴾ [آل عمران: ٢٨]. وإن كان نطقها تقية صواباً كما قال الفراء ^(٢).

والتقية في الإسلام غالباً إنما هي مع الكفار، قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَكْفُؤْا مِنْهُمُ تُقْنَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]. قال ابن جرير الطبري: «التقية التي ذكرها الله في هذه الآية إنما هي تقية من الكفار لا من غيرهم» ^(٣).

فالتقية من منظور أهل السنة سلوك عملي، ورخصة مرتبطة بالضرورة والاضطرار، وليس عقيدة دائمة، ولا عزيمة مؤكدة.

وجاء هذا التفسير لمفهوم التقية عند الشيعة في قول المفيد: «التقية كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، وكتمان المخالفين، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضرراً في الدين أو الدنيا» ^(٤). وقد التزم كتاب الشيعة المعاصرين في تعريفهم للتقية بما يوضح أنها ضرورة، وليست عزيمة دينية، فالتقية: «أن تقول أو تفعل غير ما تعتقد لتدفع الضرر عن نفسك أو مالك، أو لتحتفظ بكرامتك... بقدر ما تصون به نفسك وتدفع الأذى عنك؛ لأن الضرورة تقدر بقدرها» ^(٥).

ويرى مغنية أن التقية انتفت الآن فيقول مخاطباً من أنكر على الشيعة القول بالتقية:

(١) انظر: النهاية لابن الأثير (١٩٣/١).

(٢) انظر: معاني القرآن للفراء (ص ٢٠٥)، تفسير الطبري (٣١٧/٦)، انظر د. القفاري: أصول مذهب الشيعة (٣٠٩/٢).

(٣) تفسير الطبري (٣١٦/٦) (تحقيق شاکر)..

(٤) شرح عقائد الصدوق (ص ٢٦١) (ملحق بكتاب أوائل المقالات).

(٥) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٤٨، ٤٩).

« لعن الله من أحوجنا إليها، اذهب الآن أنى شئت من بلاد الشيعة فلا تجد للتقية عندهم عينًا ولا أثرًا » (١).

وهناك روايات شيعية تدور حول معنى الاضطرار في التقية، وتوافق أهل السنة، ومن هذه الروايات:

عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: « التّقيّة في كلّ ضرورة، وصاحبها أعلم بها حين تنزل به » (٢).

عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: « إنّما جعلت التّقيّة ليحقن بها الدّم، فإذا بلغ الدّم فليس تقية » (٣). أي لو استوجبت التقية الولوغ في دم حرام؛ كما لو أمره سلطان جائر أن يقتل إنسانًا محرّم القتل فلا يجوز له أن يمتثل أمره، ولو أدى عصيانه إلى أن يقتله السلطان. وهذه الرواية تنسجم مع ما ذكره أهل السنة في مسألة الإكراه؛ إذ قالوا: لا عبرة للإكراه في القتل والزنى. فلا يجوز للمكروه عليهما أن يفعلهما ولو كانت النتيجة أن يقتل (٤).

ولهذا يرى بعض السلف أنه لا تقية بعد أن أعز الله الإسلام، قال معاذ بن جبل رضي الله عنه وتابعه مجاهد: « كانت التقية في جدة الإسلام قبل قوة المسلمين، أما اليوم فقد أعز الله المسلمين أن يتقوا من عدوهم » (٥).

وأجمع أهل السنة على أن التقية رخصة في حال الضرورة، قال ابن المنذر: « أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، أنه لا يحكم عليه بالكفر » (٦).

ولكن من اختار العزيمة في هذا المقام فهو أفضل، فالعلماء « أجمعوا على أن من أكره

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٢).

(٢) أصول الكافي (٢/٢٢٢) كتاب الإيمان والكفر باب التقية قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

(٣) أصول الكافي (٢/٢٢٣) كتاب الإيمان والكفر باب التقية قال محققه: والحديث صحيح.

(٤) قال العز بن عبد السلام: « لا يتصور الإكراه على كفر القلب واكتسابه، ولا يحل بالإكراه زنا ولا قتل ولا لواط ». القواعد الصغرى (فوائد في اختصار المقاصد)، (ص ١١٣)، دار الفكر المعاصر، دار الفكر - دمشق الطبعة الأولى (١٤١٦ هـ)، تحقيق: إياد خالد الطيبان.

(٥) انظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٤/٥٧)، وانظر: تفسير البغوي (ص ٢٩٢)، دار المعرفة - بيروت، تحقيق خالد عبد الرحمن العك، الشوكاني: فتح القدير (١/٣٣١).

(٦) فتح الباري (١٢/٣١٤).

على الكفر واختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله» (١).

إن الأصل في المسلم الصراحة والصدق والوضوح، وليس المخاتلة والنفاق والكذب، ولذلك أجمعت روايات أهل السنة و الشيعة على ذم صاحب اللسانين: « قال الله تبارك وتعالى لعيسى ابن مريم عليه السلام: يا عيسى ليكن لسانك في السر والعلانية لساناً واحداً وكذلك قلبك، إني أحذرك نفسك وكفى بي خبيراً، لا يصلح لسانان في فم واحد ولا سيفان في غمد واحد ولا قلبان في صدر واحد؛ وكذلك الأذهان». ورووا عن النبي ﷺ: « من لقي المسلمين بوجهين ولسانين جاء يوم القيامة وله لسانان من نار » ورووا عن أبي جعفر عليه السلام قال: « بئس العبد عبداً يكون ذا وجهين وذا لسانين، يطري أخاه شاهداً ويأكله غائباً، إن أعطي حسده وإن ابتلي خذله » (٢).

كما أن التقية في دين الإسلام دين الجهاد والدعوة؛ لا يمكن أن تمثل نهجاً عاماً في سلوك المسلم، ولا سمة من سمات المجتمع الإسلامي، بل هي - غالباً - حالة فردية مؤقتة، مقرونة بالاضطرار، مرتبطة بالعجز، وتزول بزوال حالة الإكراه.

ولقد كان للتقية في التاريخ دور عملي يتجلى في خلاص الشيعة وغيرهم من العذاب الذي يقع عليهم من السلطات الحاكمة التي كانت تتوجس الشر من التشيع وتراه عدواً سياسياً يقض مضاجعها، إذ كان التشيع كما - بينا في تمهيد البحث - أرضاً خصبة لمعظم الثورات السياسية على الخلفاء بدءاً من ثورة الحسين عليه السلام... فكانت التقية درعاً واقية للشيعة من أعدائهم ووسيلة للتعامل بين الشيعة ومخالفهم.

وهنا أحب أن أسجل ملاحظتين مهمتين حول اضطرار الشيعة في التاريخ:

الأولى: ينبغي أن نتنبه إلى أن هذا العذاب والاضطرار الذي مارسه السلطات الحاكمة لم يكن خاصاً بالشيعة وحدهم، بل كان عاماً في كل من خالف السلطان، وهذا شأن السلطة غالباً في كل زمان ومكان، فقد اكتوى الزيدية بنار السلطة التي قتلت أئمتهم، ومع ذلك لم تشتهر عندهم التقية كما اشتهرت لدى الاثني عشرية، وكذلك اكتوى علماء وأئمة أهل السنة بنار السلطة، والتاريخ يذكر لنا مقتل سعيد بن جبير على يد الحجاج، وتعذيب الحكام لعلماء أهل السنة كمالك وأحمد بن حنبل، وغيرهم كثير،

(١) فتح الباري (٣١٧/١٢).

(٢) أصول الكافي (٣٣٠/٢) كتاب الإيمان والكفر باب ذي اللسانين، ولم يصحح المحقق أي حديث منها، ورمى الأول بالضعف والثاني بالجهالة.

ومع ذلك أصبر هؤلاء العلماء على الحق حتى نصروه ونشروه، ولم يلجأوا إلى التقية كما لجأ الاثنا عشرية.

الثانية: غلب على كتب التاريخ الشيعي التهويل والمبالغة في شأن الاضطهاد، فليس كل ما أورده الشيعة في كتبهم حول هذا الاضطهاد مسلماً به (١)، ولذلك فيجب التحقق التاريخي من كل حدث على حدة من المصادر التاريخية الموثوقة.

وعلى كل يؤكد كتاب الشيعة على هذا الجانب العملي من التقية، مستلدين بما ورد في الشرع من نصوص تدل على ضرورتها في المحن والشدائد كقوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُؤْا مِنْهُمْ تَقْنَةً﴾ [آل عمران: ٢٨]. ولكن هل اقتصرت التقية في تاريخ الشيعة عند حد الضرورة والرخصة؟

التقية أساس من أسس مذهب الاثني عشرية:

إن مصادر الشيعة الاثني عشرية تؤكد أن التقية ليست مجرد رخصة، بل هي ركن من أركان الدين كالصلاة أو أعظم، وهي تعتمد على مئات الروايات التي تؤكد على عزيمة التقية وفرضيتها واستمرارها.

فقد نقلوا عن الصادق: « لو قلت أن تارك التقية كتارك الصلاة، لكنت صادقاً » (٢).

(١) وعلى سبيل المثال: تؤكد كتب الشيعة أن الأئمة بدءاً من الحسن بن علي إلى الإمام الحادي عشر جميعاً ماتوا قتلاً على أيدي الخلفاء الأمويين والعباسيين. فيقول الصدوق: الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٧٢، ٧٣): « وعلي بن الحسين السيد زين العابدين عليه السلام سمه الوليد بن عبد الملك لعنه الله فقتله. والباقر بن علي عليه السلام سمه إبراهيم بن الوليد لعنه الله. والصادق عليه السلام سمه أبو جعفر المنصور الدوانيقي لعنه الله فقتله [!]. وموسى ابن جعفر عليه السلام سمه هارون الرشيد لعنه الله فقتله [!]. والرضا علي بن موسى عليه السلام فقتله المأمون لعنه الله بالسلم [!]. وأبو جعفر محمد بن علي عليه السلام قتله المعتصم لعنه الله بالسلم [!]. وعلي بن محمد عليه السلام قتله المتوكل لعنه الله بالسلم [!]. والحسن بن علي العسكري عليه السلام قتله المعتمد لعنه الله بالسلم، وبقي الإمام المنتظر الغائب ». وهذه المزاعم يكذبها حسن تعامل الخلفاء مع الأئمة في كثير من الأحيان، انظر: ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة (٦٨٣/٢)، محمد زكريا النداف: المودة والمحبة بين الصحب والآل (ص ٦٥ - ٦٧) دار المعراج - دمشق، (ط ١)، (٢٠٠٩ م).

(٢) ابن إدريس: السرائر (ص ٤٧٩)، ابن بابويه: من لا يحضره الفقيه (٨٠/٢)، جامع الأخبار (ص ١١٠)، الحر العاملي: وسائل الشيعة (٩٤/٧)، بحار الأنوار (٤١٢/٧٥ - ٤١٤).

وقال الشيخ الصدوق: « اعتقادنا في التقية أنها واجبة، من تركها بمنزلة من ترك الصلاة » (١).

وإذا كانت التقوى مناط التكريم عند الله تعالى بنص القرآن الكريم؛ فتأتي رواية شيعية لتقول: « إن أكرمكم عند الله أعلمكم بالتقية قبل خروج قائمنا » (٢).

وهكذا فإن الشيعة انتقلوا من التقية بوصفها ضرورة شرعية إلى التقية بوصفها واجباً شرعياً، فيمتدح فاعلها ولو من غير ضرورة، حتى جعلتها بعض روايات الشيعة تسعة أعشار الدين!!

وصرح علماءهم بوجوبها حتى يخرج القائم آخر الزمان، قال شيخ الطائفة الصدوق: « التقية واجبة لا يجوز رفعها إلى أن يخرج القائم عليه السلام، فمن تركها قبل خروجه فقد خرج عن دين الله تعالى وعن دين الإمامية، وخالف الله ورسوله والأئمة عليهم السلام » (٣). فليست التقية إذن مجرد ضرورة في روايات الشيعة، كما أراد الشيخ مغنية وغيره من المعاصرين أن يقنعونا، بل إنها تعد طبيعة ذاتية في بنية المذهب.

ورواها عن جعفر الصادق أنه قال: « إنكم على دين من كتبه أعزه الله، ومن أذاعه أذله الله » (٤). وقوله: « أباي الله عليه السلام لنا ولكم في دينه إلا التقية » (٥).

وهناك روايات كثيرة تعظم من أمر التقية وترفعها من مرتبة الضرورة إلى قمة التدين: عن هشام بن سالم وغيره عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [القصص: ٥٤] قال: بما صبروا على التقية، ﴿ وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ .. ﴾ [القصص: ٥٤] قال: الحسننة التقية، والسيئة الإذاعة (٦).

وجاءت رواية لتسلب الإيمان ممن لا يعمل بالتقية، وأخرى تجعل تاركها آثماً: عن معمر بن خلاد قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن القيام للولاية؟ فقال: قال

(١) الاعتقادات (ص ١١٤).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٣٢١/٢٥)، علي النمازي: مستدرك سفينة البحار (٣٢١/٥) طبع جماعة المدرسين - قم (١٤١٩هـ).

(٣) الاعتقادات (ص ١١٤، ١١٥).

(٤) أصول الكافي (٢١٨/٢).

(٥) أصول الكافي (٢٢٠/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التقية. قال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

أبو جعفر عليه السلام: «التقية من ديني ودين آبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له» (١).

وعن أبي عبيدة عن أبي جعفر عليه السلام قال قال لي: «يا زيادا! ما تقول لو أفتينا رجلاً ممن يتولانا بشيء من التقية؟ قال قلت له: أنت أعلم، جعلت فداك. قال: إن أخذ به فهو خير له وأعظم أجراً».

وفي رواية أخرى: «إن أخذ به أوجر، وإن تركه - والله - أثم» (٢).

وقد كان الأئمة يمارسون التقية في حياتهم:

عن موسى بن أشيم قال: «كنت عند أبي عبد الله عليه السلام فسأله رجل عن آية من كتاب الله تعالى فأخبره بها، ثم دخل عليه داخل فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبر به الأول، فدخلني من ذلك ما شاء الله حتى كأن قلبي يشرح بالسكاكين، فقلت في نفسي: تركت أبا قتادة بالشام لا يخطئ في الواو وشبهه وجئت إلى هذا يخطئ هذا الخطأ كله! فيبينا أنا كذلك إذ دخل عليه آخر فسأله عن تلك الآية فأخبره بخلاف ما أخبرني وأخبر صاحبي، فسكنت نفسي فعلمت أن ذلك منه تقية قال: ثم التفت إلي فقال لي: يا ابن أشيم إن الله تعالى وفوض إلى نبيه صلى الله عليه وآله فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧] فما فوض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقد فوضه إلينا» (٣).

فقد روى الكليني أن «رجلاً من المنافقين، مات فخرج الحسين بن علي صلوات الله عليهما يمشي معه، فلقبه أحد شيعته فقال له الحسين عليه السلام: أين تذهب يا فلان؟ قال: فقال له مولا: أفر من جنازة هذا المنافق أن أصلي عليها، فقال له الحسين عليه السلام: انظر أن تقوم على يميني فما تسمعي أقول فقل مثله، فلما أن كبر عليه وليه قال الحسين عليه السلام: الله أكبر، اللهم العن فلاناً عبدك ألف لعنة مؤتلفة غير مؤتلفة، اللهم أخز عبدك في عبادك وبلادك، وأصله حرّ نارك وأذقه أشد عذابك، فإنه كان يتولى أعداءك ويعادي أوليائك، ويغض أهل بيت نبيك صلى الله عليه وآله» (٤). والحسين الشهيد الأبي الثائر على الظلم أعلى شأننا من أن يحتاج إلى هذه التقية في صلاة جنازة، وهو الذي رفض بيعة يزيد، ووقف في

(١) أصول الكافي (٢/٢٢٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التقية، قال محققه: والحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٢/٢٢٢) كتاب الإيمان والكفر، باب التقية.

(٣) أصول الكافي (١/٣٢١) كتاب الحجّة، باب التفويض إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وإلى الأئمة عليهم السلام في أمر الدين.

(٤) الكليني: الكافي (٣/١٨٩). باب الصلاة على الناصب، الطوسي: تهذيب الأحكام (٣/١٩٧).

وجه الحكم الأموي، دون خوف، ودفع في سبيل ذلك دمه ودم أبنائه وأحبابه ولم يتراجع، فما حاجته للتقية!

ومن التقية أن الإمام كان يذم بعض خلص أتباعه، عن نصير الخثعمي قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « من عرف أننا لا نقول إلا حقاً فليكتف بما يعلم منا، فإن سمع منا خلاف ما يعلم فليعلم أن ذلك دفاعٌ منا عنه » ^(١).

وبهذا يفسر الشيعة ذم جعفر لزرارة بن أعين، كما ورد عنه في أعيان الشيعة: « إنما أعييك دفاعاً عنك، فإن الناس والعدو يسارعون إلى كل من قربناه وحمدنا أمره بإدخال الأذى عليه وقتله، ويحمدون كل من عبناه، ويكون ذلك دفع الشر عنه، وكان العيب كعيب السفينة » ^(٢).

ولكن هذه التقية توقع الباحثين في لبس شديد، وحيرة في مواقف الأئمة من بعض من حُسبوا عليهم؛ فقد لعن جعفر أناساً آخرين كأبي الخطاب، فهل كان هذا اللعن تقية؟ وقد أعلن أبو الخطاب ما أعلن من هرطقات وكذب على لسان الأئمة؟

إن هذه الرواية التي تبرر نيل الأئمة من بعض أتباعهم هي التي وصلت بأحد الباحثين إلى أن يسوي بين أبي الخطاب الكذاب الأفاك - حسب كثير من روايات الاثني عشرية - وزرارة أحد أشهر رواة الشيعة!

قال د. علي سامي النشار: « أما تبرؤ جعفر منه - عني أبا الخطاب - فقد كانت هذه خطة جعفر الصادق؛ وهي إعلان التبري من بعض رجاله المخلصين حتى لا يضاروا أو يضار جعفر نفسه، وقد فعل هذا مع زرارة بن أعين كما رأينا من قبل » ^(٣).

وقد كان الأئمة كما تزعم الرواية يستخدمون التقية في شتم الشيخين:

« قيل للصادق عليه السلام: ما تقول في العمرين؟ فقال: إمامان عادلان قاسطان، كانا على الحق فرحمة الله عليهما، فلما خفت المجلس سئل عن التأويل فقال: ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً ﴾

(١) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث (١١٩/١)، وهذا يدل على أن الكليني فهم أن من أسباب اختلاف الحديث بين الشيعة: التقية.

(٢) العاملي: أعيان الشيعة (١٧٠/٣٢ - ٢٢٢). وعيب السفينة: إشارة إلى ما فعله الخضر عليه السلام بسفينة المساكين الذين كانوا يعملون في البحر، قال تعالى: ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَمْتَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْدَتْ أَنْ أَعْبَاهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ [الكهف: ٧٩].

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٣٧).

يَدْعُونَ إِلَى التَّكْأَرِ... ﴿ [القصص: ٤١] ، ﴿ وَأَمَّا الْفَاسِقُونَ فَكَانُوا لِحَبَّتِهِمْ حَطْبًا ﴾ [الجن: ١٥] ،
 وعدلا عن الحق وهو علي، فالرحمة وهو النبي ﷺ ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
 [الأنبياء: ١٠٧] ﴿ (١).

وتنقل الروايات أن الأئمة كانوا يمارسون التقية مع أتباعهم:

عن علي بن إبراهيم عن أبيه قال: كنت عند أبي جعفر الثاني عليه السلام إذ دخل عليه صالح بن محمد بن سهل، وكان يتولّى له الوقف، بقمّ فقال: يا سيّدي! اجعلني من عشرة آلاف في حلّ فإنّي أنفقتها. فقال له: أنت في حلّ، فلمّا خرج صالح قال أبو جعفر عليه السلام: أحدهم يشب على أموال حقّ آل محمّد وأيتامهم ومساكينهم وفقرائهم وأبناء سبيلهم فيأخذها، ثمّ يجيء فيقول: اجعلني في حلّ! أتراه ظنّ أنّي أقول: لا أفعل؟! والله! ليسألّتهم الله يوم القيامة عن ذلك سؤالاً حثيثاً (٢).

إن هذه الروايات وأمثالها توضح أن التقية لم تكن مجرد حالة اضطرار، بل تؤكّد على الإصرار على التقية.

ونحن لا نصدق هذه الروايات على كثرتها؛ لأنها تنتقص من قدر آل بيت النبي ﷺ، « وقد نزه الله المؤمنين من أهل البيت وغيرهم عن ذلك، بل كانوا من أعظم الناس صدقاً وتحقيقاً للإيمان، وكان دينهم التقوى لا التقية » (٣).

ولذلك ورد في إحدى الروايات ذم التوسع في التقية، واستخدامها في غير موضعها: فقد جفا الإمام الرضا جماعة من الشيعة وحجّتهم فقالوا: يا ابن رسول الله ﷺ ما هذا الجفاء العظيم والاستخفاف بعد الحجاب الصعب؟ قال: لدعواكم أنكم شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأنتم في أكثر أعمالكم مخالفون، ومقصرون في كثير من الفرائض، وتتهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله، وتتقون حيث لا تجب التقية، وتركون التقية حيث لا بد من التقية (٤).

الأسباب الحقيقية للتقية الاثني عشرية:

ومن لا يرى للتقية سبباً إلا الاضطهاد سيستشكل تلك الروايات المؤكدة لاستمرار

(١) علي بن يونس العاملي: الصراط المستقيم في مستحقي التقديم (٧٣/٣).

(٢) أصول الكافي (٦٢٨/١) كتاب الحجّة باب صلة الإمام.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٤٧/٢).

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة (٤٧٠/١١).

التقية، ولكن الحق يقول أن التقية ستستمر في فكر الشيعة؛ لأن لها أسباباً أخرى مستمرة في فكر الشيعة، وهي أسباب فكرية لا علاقة لها بالاضطهاد:

السبب الأول: التناقض بين المذهب وأفعال الأئمة:

إن بداية التقية تأتي من التناقض الذي شعر به الشيعة بين ما يعتقدونه من غلو في حق الأئمة، وما يصرح به الأئمة أو يفعلونه مخالفاً لعقيدة الغلو، فالشيعة اعتقدوا أحقية علي عليه السلام بالخلافة، وأنه قد نص عليه النبي ﷺ أمام الصحابة الكرام في حديث الغدير، وزعموا أن الصحابة قد تنكروا للنص النبوي. وبعد استقرار هذه العقائد والأفكار يفاجأ الشيعة بوقائع تخالف هذه العقائد، فيرون حسن تعامل علي عليه السلام مع الخلفاء الثلاثة، وجهاده معهم ومناصرتهم! مثل هذه الوقائع تضع الشيعة في حيرة وارتباك، فكيف يعتقدون أولوية علي عليه السلام بالخلافة، وينظرون إلى أولئك الخلفاء نظرتهم إلى الغاصبين للحقوق، ثم بعد ذلك يرون أمير المؤمنين الشرعي يبايعهم ويمشي في ركابهم. لا مخرج من هذا التناقض إلا أن يقول الشيعة أنه اتخذ التقية في عهد الشيخين.

وهذا مرفوض قطعاً، ما كان فارس الإسلام العظيم علي بن أبي طالب عليه السلام يأبى الذل ويتقي في العقيدة (١).

السبب الثاني: التناقض بين المذهب بعد استقراره وبعض أقوال الأئمة وآرائهم:

لقد صارت التقية مشججاً يلقون عليه كل نص لم يعرفوا تأويله أو عسر عليهم الجمع بينه وبين باقي النصوص الواردة على آل البيت، فحكموا أن هذا النص من باب التقية. ففي النكاح جاءت عندهم روايات في تحريم المتعة، ففي كتبهم عن زيد بن علي عن أبيائه عن علي عليه السلام قال: « حرّم رسول الله ﷺ يوم خيبر لحوم الحمر الأهلية ونكاح المتعة » (٢). فقال الحر العاملي: « حملته الشيخ - أي الطوسي - وغيره على التقية يعني في الرواية؛ لأن إباحة المتعة من ضروريات مذهب الإمامية » (٣).

وأنكر الشيعة التعصيب في الميراث، مع أن أحد رواته ابن عباس، وهو من آل بيت النبوة! كما ذكر الحلبي في شرائع الإسلام (٤)، ولكنهم ردوا قول ابن عباس عليه السلام:

(١) انظر: د. علي سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٢٣).

(٢) انظر: الطوسي: تهذيب الأحكام (١٨٤/٢)، الاستبصار (١٣٢/٣)، الحر العاملي: وسائل الشيعة (٤٤١/٧).

(٣) وسائل الشيعة (٤٤١/٧).

(٤) شرائع الإسلام للحلي (١٨٠/٢).

« ما أبقث الفرائض فلأولى عصابة ذكر » بأسلوب عجيب: « قال سفيان: أراه من قبل ابنه [ابن خادم ابن عباس] عبد الله بن طاوس، فإنه كان على خاتم سليمان بن عبد الملك » (١). فقالوا إنه صور للناس صورة ابن عباس فتكلم بالتعصيب!! ولكن جاء في رواية عن الأئمة ما يثبت التعصيب، كقولهم: كتب رجل إلى أبي جعفر يسأله عن رجل مات.. وقد مات مولاه مثله، وللمولى ابن وبنات فسأله عن ميراث المولى فقال: هو للرجال دون النساء». فلم يجدوا مناصاً من التقية لإنكار هذا النص، فقال الحر العاملي: « وقد عرفت أنه محمول على التقية » (٢).

السبب الثالث: الحفاظ على ضروريات المذهب بمخالفة العامة (أهل السنة):

تروي مصادر الشيعة عن علي عليه السلام (أنه غسل رجله في الوضوء، ولكن الشيعة لا يأخذون بهذا الحديث الذي ورد في كتاب من أشهر كتبهم الأربعة: في الاستبصار عن زيد بن علي عن جده علي بن أبي طالب قال: « جلست أتوضأ، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وآله حين ابتدأت الوضوء، إلى أن قال، وغسلت قدمي، فقال لي: يا علي خلل بين الأصابع لا تخلل بالنار » (٣).

ولكن الطوسي بعد أن أورد الخبر قال: « هذا خبر موافق للعامة (يعني أهل السنة) وقد ورد مورد التقية؛ لأن المعلوم الذي لا يتخالج منه الشك من مذاهب أئمتنا عليهم السلام القول بالمسح على الرجلين. ثم قال: إن رواة هذا الخبر كلهم عامة، ورجال الزيدية، وما يختصون به لا يعمل به » (٤).

ألا يمكن الجمع بين الخبرين بالقول بجواز غسل الرجلين - على أقل تقدير - أليس هذا خيراً من طرح الرواية لمجرد موافقتها للعامة أو لأن روايتها من غير الاثني عشرية؟ ولكن رمي الخبر على التقية هو الذي يتماشى مع مبدئهم بوجوب مخالفة الأمة وقولهم: « دعوا ما وافق القوم فإن الرشد في خلافهم » (٥). و « إذا ورد عليكم حديثان مختلفان فخذوا بما يخالف القوم » (٦). وصدق من قال: (خالف تعرف) .

(١) تهذيب الأحكام للطوسي (٢٦٢/٩). (٢) شرائع الإسلام للحلي (١٨٠/٢).

(٣، ٤) الاستبصار (٦٥/١، ٦٦).

(٥) الكليني: أصول الكافي، خطبة الكتاب، وسائل الشيعة (٨٠/٨).

(٦) وسائل الشيعة (٨٥/١٨)، وانظر: د. الفقاري: أصول مذهب الشيعة (٤٤١/١).

السبب الرابع: عقيدة عصمة الأئمة:

اعتقد الاثنا عشرية بعصمة الأئمة، عن السهو الخطأ والنسيان، وهذه الدعوى خلاف ما هو معلوم من تاريخهم وأحوالهم واختلافهم في الآراء الفقهية والمواقف السياسية، ولذلك فالروايات المنسوبة للأئمة مختلفة متناقضة جداً، فلا يوجد خبر من أخبارهم إلا ويزائره ما يناقضه، كما اعترف بذلك شيخهم الطوسي، وهذا ينقض مبدأ العصمة من أصله. فهروباً من تدمير فكرة العصمة قالوا بالتقية لتبرير هذا التناقض والاختلاف.

روى صاحب الكافي عن منصور بن حازم قال: « قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما بالي أسألك عن المسألة فتجيبني فيها بالجواب، ثم يجيبك غيري فتجيبه فيها بجواب آخر؟ فقال: إنا نجيب الناس على الزيادة والنقصان » (١).

وقد سبب هذا التضارب بين أقوال الأئمة ارتداد بعض المشيعين عن التشيع: كما حدث مع سليمان بن جرير صاحب محمد الباقر؛ حيث قال مفسراً لظاهرة التقية - كما ذكر النوبختي الشيعي -: « لما كثرت على أئمتهم مسائل شيعتهم في الحلال والحرام وغير ذلك من صنوف أبواب الدين، فأجابوا عنها، فحفظ عنهم شيعتهم جواب ما سألوه وكتبوه ودونوه، ولم يحفظ أئمتهم تلك الأجوبة لتقادم العهد وتفاوت الأوقات؛ لأن مسائلهم لم ترد في يوم واحد بل في سنين متباعدة وأشهر متباينة وأوقات متفرقة، فوقع في أيديهم في المسألة الواحدة عدة أجوبة مختلفة متضادة، فلما وقفوا على ذلك منهم ردوا إليهم هذا الاختلاف والتخليط في جواباتهم وسألوهم عنه وأنكروا عليهم فقالوا: من أين هذا الاختلاف؟ وكيف جاز ذلك؟ قالت لهم أئمتهم: إنما أجبنا بهذا للتقية » (٢). ونحن نبرئ هؤلاء الأئمة من الكذب، ونرى أن الذين ادعوا التقية في هذه النصوص هم هؤلاء الأتباع أنفسهم ليخلصوا أنفسهم من ورطة التناقض في الروايات، من غير أن تمس فكرة العصمة بسوء.

ولو أن هؤلاء الأتباع علموا أن الأئمة بشر يخطئون ويصيبون، ويغيرون في آرائهم ويبدلون، لما احتاجوا إلى التقية، ولعلموا أن الحياة ميدان تجارب، فقد يستصوب الإنسان اليوم ما خطأه في أمسه، وقد تتغير الفتوى بتغير ظروفها، وكم رأينا من علماء المسلمين من رجع عن كثير من آرائه، فالإمام الشافعي غير كثيرًا من اجتهاداته الفقهية بانتقاله من

(١) أصول الكافي (٦٥/١).

(٢) فرق الشيعة (ص ٥٦).

العراق إلى مصر، وكثيرًا ما ينقل عن الإمام أحمد بن حنبل روايات متعارضة في مسألة واحدة، وما احتاج علماء أهل السنة إلى تعليق تلك الآراء والروايات المتعارضة على مشجب التقية.

وقد أدرك بعض علماء الشيعة المعاصرين المبالغة في أمر التقية؛ ولذلك علت صيحاتهم تدعو إلى الاقتصاد في التقية ومحاولة ضبطها، يقول الخميني: « فلا ينبغي التمسك بالتقية في كل صغيرة وكبيرة... أما إذا كان الإسلام كله في خطر فليس في ذلك متسع للتقية والسكوت، ماذا ترون لو أجبروا فقيهاً على أن يشرع ويتدع؟ فهل ترون أنه يجوز له ذلك تمسكاً بقوله عليه السلام: « التقية ديني ودين آبائي؟! »^(١).

ولكنه يشجع التقية من أجل تغلغل الشيعة في أنظمة حكم أعدائهم، فيقول: « وطبعي أن يسمح الإسلام بالدخول في أجهزة الجائرين إذا كان الهدف الحقيقي من وراء ذلك هو الحد من المظالم »^(٢). « مثل دخول علي بن يقطين^(٣)، ونصير الدين الطوسي^(٤) رحمهما الله »^(٥) في الحياة السياسية.

إن عقيدة التقية حاجز منيع يجب إزالته قبل أي محاولة للتقريب بين المذاهب الإسلامية، فلن يستقيم أي حوار أو نقاش أو تقريب ما دامت التقية دينًا؛ ولذلك نهيب بإخواننا الشيعة أن يتخلوا عن هذه التقية بجعلها أمرًا من الأمور الضرورية التي لجأت إليها هذه الطائفة، وشجع الناس عليها للملابسات كثيرة، فلما زالت هذه الملابس كان من الواجب الرجوع إلى ما كان عليه المسلم من صراحة ووضوح، قال تعالى: ﴿ قُلْ

(١) الحكومة الإسلامية (ص ١٤٢).

(٢) الحكومة الإسلامية (ص ١٤٣).

(٣) كان وزيرًا للرشيد، ذكره الجزائري في الأنوار النعمانية (٣٠٨/٣). وقد هدم على مخالفي الشيعة سجنهم. انظر حول ذلك: الأنوار النعمانية (٣٠٨/٢)، العاملي: الانتصار (١٢٥/٩)، عبد الله عبد الله الموصلي: حقيقة الشيعة (ص ٢٢).

(٤) ذكر التاريخ أن نصير الدين الطوسي صاحب الباع الطويل في الفلسفة « كان يعمل الوزارة لهولاكو، واحتوى على عقله حتى أنه لا يركب ولا يسافر إلا في وقت يأمره به » الكتبي: فوات الوفيات (٢٥٠/٣)، وقد لعب دورًا مهمًا في « سقوط بغداد » حيث كان مرافقًا لهولاكو في زحفه إلى بغداد وهو الذي شجع هولاكو على غزوها، قال نظمي زاده مرتضى أفندي عن هولاكو: « وبتشويق من نصير الطوسي اتجه نحو بغداد ». كلش خلفا (ص ١٢٧) ترجمة موسى كاظم نورس النجف (١٩٧١ م).

فأى تقية في هذا؟! وقد أضع البلد هو وابن العلقمي - الشيعي - وزير الخليفة. انظر: د. محمد جاسم حمادي المشهداني: في محكمة التاريخ: ابن العلقمي والطوسي. دار القلم - دمشق (ط ١)، (١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م).

(٥) الحكومة الإسلامية (ص ١٤٢).

هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ [يوسف: ١٠٨]، والبصيرة تقتضي الوضوح والصدق في الموقف.

وقد حاول السيد الخوئي من المعاصرين أن يظهر للتقية معنى إيجابياً، وهو معنى مداراة أهل السنة في الأمور الخلافية، فهو يجعل التقية مستمرة دائمة، من غير أن تستعدي على الشيعة مخالفهم، فيقول: «.. والصحيح عدم اختصاص التقية بوقت دون وقت... وإنما الحكمة في تشريعها هي المداراة وتوحيد الكلمة وإبراز الميزة بينهم وبين العامة، وعليه فهي تأتي في أمثال زماننا أيضاً، فيستحب حضور مساجدهم والصلاة معهم»^(١). ويا مرحباً بهذا المعنى لو كان هو الوحيد من معاني التقية.

* * *

(١) السيد الخوئي (ت ١٤١٣هـ): كتاب الطهارة (٣١٨/٤، ٣١٩)، دار الهادي (١٤١٠هـ).

الْمَبْحَثُ الرَّابِعُ

البداء



البداء في اللغة يدور حول معنى الظهور. قال ابن منظور: « بدا الشيء يبدو بدواً وبدواً وبداء... ظهر، وأبديته أنا أظهرته، وبداءة الأمر أول ما يبدو منه... وبادي الرأي ظاهره، ويقال: بدا لي بداء أي ظهر لي... والبداء استصواب شيء علم بعد أن لم يعلم... وقال الفراء: بدا لي بداء أي ظهر لي رأي آخر... قال الجوهري: وبدا له في الأمر بداء، ممدودة، أي نشأ له فيه رأي » (١).

وفي معنى الظهور مطلقاً ورد قوله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ يُصَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

أما معنى استصواب الرأي فمنه قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا آيَاتِنَا لِيَسْجُذُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ [يوسف: ٣٥].

وواضح أن البداء بمعنييه يستلزم سبق الجهل وحدث العلم، وكلاهما محال على الله سبحانه. ونسبته إلى الله سبحانه من أعظم الكفر.

وهذا المعنى المنكر يوجد في كتب اليهود، فقد جاءت نصوص صريحة في التوراة التي حرفها اليهود وفق ما شاءت أهواؤهم، تتضمن نسبة البداء إلى الله - سبحانه - ففي العهد القديم: « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كلَّ تصوُّر أفكار قلبه إنما هو شريئٌ كلُّ يوم، فحزن أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسَّف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته.. » (٢).

ويتفق السنة والشيعة على أن البداء في معناه اللغوي: (استصواب شيء علم بعد أن لم يعلم) لا يصح إطلاقه في حق الله تعالى، قال ابن منظور: « وفي حديث الأقرع

(١) لسان العرب (٦٦/١٤)، مادة (ب د ا) .

(٢) سفر التكوين (٥/٦ - ٧) . وانظر تكرار هذا المعنى الباطل في: سفر الخروج (١٢/٣٢، ١٤)، وسفر قضاة (١٨/٢)، وسفر صموئيل الأول (١٠/١٥ - ٣٤)، وسفر صموئيل الثاني (١٦/٢٤)، وسفر أخبار الأيام الأول (١/٢١)، وسفر إرميا (١٠/٤٢)، وسفر عاموس (٣/٧)، وسفر يونا (١٠/٣) وغيرها.

والأبرص والأعمى^(١): (بدا لله ﷻ أن يتليهم) أي: قضى بذلك، قال ابن الأثير: وهو معنى البداء ههنا، لأن القضاء سابق، والبداء استصواب شيء علم بعد أن لم يعلم، وذلك على الله غير جائز^(٢).

يقول ابن المظفر: «البداء بهذا المعنى يستحيل على الله تعالى؛ لأنه من الجهل والنقص، وذلك محال عليه تعالى، ولا تقول به الإمامية»^(٣).

قال الإمام جعفر الصادق: «من زعم أن الله تعالى بدا له في شيء بداء ندامة فهو عندنا كافر بالله العظيم»^(٤).

وقال: «إن الله لم يبد له من جهل»^(٥).

وسئل أيضًا: «هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمس؟ قال: لا، من قال هذا فأخزاه الله، قلت: رأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله؟ قال: بلى قبل أن يخلق الخلق»^(٦). وقال: «ما بدا لله في شيء إلا كان في علمه قبل أن يبدوله»^(٧).

وهذه النصوص تبين لنا أن الشيعة ينزهون الله تعالى عن القول بالبداء الذي هو العلم بعد جهل، أو استصواب أمر بعد أن لم يكن يعلم، ولكن مع ذلك أوردوا روايات عن الأئمة تجعل الاعتقاد بالبداء من أفضل الاعتقادات والعبادات، حتى قال أئمتهم: «ما عُبدَ الله بشيءٍ مثل البداء». وفي رواية عن أبي عبد الله ﷺ: «ما عظم الله بمثل البداء»^(٨).

كيف تسلل البداء إلى فكر الشيعة؟

إذا كان المعنى العام للبداء مرفوضًا باتفاق الشيعة وأهل السنة؛ فلماذا يصير الاثنا عشرية على جعل البداء - مهما كان تفسيره محتملاً للقبول - من مسائل الدين، وعدّ تعظيمه من تعظيم الدين؟

(١) الحديث أخرجه أهل السنة، فقد أخرجه البخاري، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (٣٢٧٧)، عن أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى بدا لله أن يتليهم فبعث إليهم ملكًا...» وأخرجه مسلم، في أوائل كتاب الزهد والرقائق، رقم (٢٩٦٤).

(٢) لسان العرب (٦/١٤، ٦) مادة (ب د ا).

(٣) المظفر: عقائد الإمامية (ص ٦٩). محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (٤/٢٣٢).

(٤) محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (٦/٨٩).

(٥ - ٧) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب البداء (١/١٩٨).

(٨) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب البداء (١/١٩٧).

وخصوصاً أن الذي بدأ بذكر هذا (البداء) من فرق الشيعة ليس الاثني عشرية، بل المختارية؛ إذ يذكر أصحاب المقالات أن السبب الذي جوّزت لأجله المختارية البداء على الله تعالى هو: أن مصعب بن الزبير أرسل جيشاً قوياً لقتال المختار وأتباعه، فبعث المختار إلى قتالهم أحمد بن شमित - أحد قادته، (قتل سنة ٦٧ هـ) - مع ثلاثة آلاف من المقاتلة، وقال لهم: أوحى إلي أن الظفر يكون لكم، فهزم ابن شमित، فقال له أتباعه: أين الظفر الذي قد وعدتنا؟! فقال المختار: هكذا كان قد وعدني ثم بدا لربكم، فإنه سبحانه وتعالى قد قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكَيْبِ﴾ [الرعد: ٣٩] (١).

فالمختار كان يدعي علم الغيب وما يحدث بالمستقبل، فكان إذا وقع خلاف ما أخبر به قال: قد بدا لربكم.

وإذا صح هذا الخبر، كان بمقدور الاثني عشرية أن يعلنوا براءتهم من لوثة البداء، كما تبرؤوا من دعوة المختار.

ولكنهم التصقوا بالبداء، وترددت أصداؤه بينهم، فقد أشاع رواة أخبارهم أن أئمتهم يعلمون ما كان وما يكون ولا يخفى عليهم الشيء (٢)، فإذا نسبوا إلى الأئمة أخباراً لم تقع قالوا: هذا من باب البداء.

جاء في بحار الأنوار في باب البداء «عن أبي حمزة الشمالي قال: قال أبو جعفر وأبو عبد الله عليهما السلام: يا أبا حمزة إن حدثناك بأمر أنه يجيء من هاهنا فجاء من هاهنا، فإن الله يصنع ما يشاء، وإن حدثناك اليوم بحدث وحدثناك غداً بخلافه، فإن الله يمحو ما يشاء ويثبت» (٣). وهذه فحوى كلمة المختار.

- وقد كان موت بعض من عيّنوا أئمة في حياة والديهم سبباً في تأكيد عقيدة البداء عند الشيعة:

فقد ذكروا أن محمد الباقر نصّ على إمامة أكبر أبنائه إسماعيل، وهو ما جاءت النصوص الشيعية لتؤكد، فالإمامة في أكبر أبناء الإمام، ولكن إسماعيل مات في حياة أبيه! فاختار الإمامية، فأنكر بعضهم وفاة إسماعيل بن الباقر، ووقفوا عليه، وقال بعضهم بالبداء، وهم

(١) الإسفرايني: التبصير في الدين (ص ٢٠)، وانظر: البغدادي: الفرق بين الفرق (ص ٥٠ - ٥٢).

(٢) أصول الكافي، باب أن الأئمة يعلمون علم ما كان وما يكون، وأنه لا يخفى عليهم الشيء (٢٦٠/١).

(٣) بحار الأنوار (١١٩/٤)، تفسير العياشي (٢١٧/٢)، البرهان (٢٩٩/٢).

الاثنا عشرية، وقولهم بالبداء جاء هروباً من تكذيب الإمام الباقر أو الوقف عليه (١).
 - وبعد مائة عام تكررت المشكلة عندما أعلن الهادي - كما ذكرت الروايات -
 إمامة ابنه محمد من بعده، ولكنه توفي في حياته، فكان الحل هو البداء، فأوصى الهادي
 إلى الحسن العسكري أبي محمد وقال له: يا بني أحدث لله تبارك وتعالى شكرًا، فقد
 أحدث فيك أمرًا (٢).

- وكان شيوخ الشيعة يمتنون أتباعهم بأنّ الأمر سيعود إليهم، والدولة ستكون لهم،
 حتى إنهم حدّدوا ذلك بسبعين سنة في رواية نسبوها لأبي جعفر، فلما مضت السبعون
 ولم يتحقّق شيء من تلك الوعود ضجّ الأتباع وضجروا من ذلك، فحاول مؤسّسو
 المذهب الخروج من هذا المأزق بالقول بأنّه قد بدا لله سبحانه ما اقتضى تغيير هذا الوعد (٣).

- وقد كان التوقيت لخروج القائم - أيضًا - والإخلاف فيه من أهم أسباب عقيدة البداء،
 فعن عمرو بن الحمق قال: « دخلت على علي عليه السلام حين ضرب الضربة بالكوفة، فقلت: ليس
 عليك بأس إنما هو خدش، قال: لعمرى إني لمفارقكم، ثم قال: إلى السبعين بلاء - قالها
 ثلاثًا - قلت: فهل بعد البلاء رخاء؟ فلم يجبني وأغمي عليه عليه السلام إلى أن قام، فقلت:
 يا أمير المؤمنين! إنك قلت: إلى السبعين بلاء فهل بعد السبعين رخاء؟ فقال عليه السلام: نعم، وإن
 بعد البلاء رخاء، ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩] (٤).

وعن أبي حمزة الثمالي قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: « إن عليًا عليه السلام كان يقول: إلى
 السبعين بلاء، وكان يقول: بعد البلاء رخاء، وقد مضت السبعون ولم نر رخاء؟! فقال
 أبو جعفر عليه السلام: يا ثابت! إن الله تعالى كان وقت هذا الأمر في السبعين، فلما قتل
 الحسين عليه السلام اشتد غضب الله على أهل الأرض، فأخره إلى الأربعين ومائة سنة،
 فحدّثناكم فأذعتم الحديث وكشفتهم قناع السر، فأخره الله ولم يجعل له بعد ذلك وقتًا
 عندنا ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، قال أبو حمزة:
 وقلت ذلك لأبي عبد الله عليه السلام، فقال: قد كان ذلك (٥).

(١) انظر: أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٩٦).

(٢) أصول الكافي (٣٨٤/١) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي محمد - وهو الحسن العسكري -.

وانظر: أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٩٦).

(٣) انظر: تفسير العياشي (٢/٢١٨)، الطوسي: الغيبة (ص ٢٦٣)، المجلسي: بحار الأنوار (٤/٢١٤).

(٤) بحار الأنوار (٤٢/٢٢٣) عن الخرائج (١٨).

(٥) الغيبة (٢٦٣)، الكافي (١/٣٦١)، الغيبة للنعمان (ص ٢٩٣).

قوله تعالى: ﴿.. كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] وكذلك يستخدمون هذا للرد على القائلين: إن الرب خلق الكون دفعة واحدة، وينقل عبد الله شبر عن المجلسي: «أنهم عليه السلام بالغوا في البداء ردًا على اليهود القائلين: إن الله قد فرغ من الأمر، وعلي النظام وبعض المعتزلة القائلين إن الله خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن» (١).

يقول المازندراني: «واليهود أنكروا البداء، وقالوا: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُوبَةٌ عَلَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَلْعَوْا بِمَا قَالُوا...﴾ [المائدة: ٦٤] وهم يعنون بذلك أنه تعالى فرغ من الأمر فليس يحدث شيئًا، ونقل عنهم أيضًا: أنه تعالى لا يقضي يوم السبت شيئًا، ويقرب منه قول النظام من المعتزلة: إن الله تعالى خلق الموجودات دفعة واحدة على ما هي عليه الآن؛ معادن ونباتًا وحيوانًا وإنسانًا، ولم يتقدم خلق آدم على خلق أولاده، والتقدم والتأخر إنما يقع في ظهورها من مكانها دون حدوثها ووجودها، وكأنه أخذ ذلك من الكمون والظهور من مذهب الفلاسفة. ونقل صاحب الكشاف عن الحسين بن الفضل ما يعود إلى هذا المذهب، وهو أن عبد الله بن طاهر دعا الحسين بن الفضل، وذكر أن من آيات أشكلت عليه قوله عز من قائل: ﴿.. كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، وقد صح أن «القلم جف بما هو كائن إلى يوم القيامة» (٢).

فقال الحسين: أما قوله: ﴿.. كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩] فإنها شؤون يديها لا شؤون بيتيها، وهذه المذاهب عندنا باطلة؛ لأنه - تعالى - يحدث ما يشاء في أي وقت يشاء على وفق الحكمة والمصلحة كما دلت عليه روايات هذا الباب» (٣).

ويحاول المثبتون للبداء أن يستندوا إلى أدلة من القرآن الكريم ونصوص من أحاديث أهل السنة، يقول الشيخ الوائلي:

«يعتقد الشيعة بالبداء مستفيدين ذلك من الكتاب والسنة: فالكتاب كقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]. وأما السنة فمثل ما رواه البخاري في الصحيح عن النبي صلى الله عليه وآله أن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأعمى وأقرع بدا لله أن يتليهم فبعث إليهم ملكًا.. إلخ» (٤).

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ١٠٦).

(٢) جاء في صحيح البخاري بلفظ: (يا أبا هريرة جف القلم بما أنت لاق فاخصص على ذلك أو ذر). كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء، رقم (٤٧٨٨).

(٣) شرح أصول الكافي (٢٣٥/٤).

(٤) الشيخ أحمد الوائلي: هوية التشيع (ص ١٠١)، والحديث أخرجه البخاري: كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل رقم (٣٢٧٧).

وقد ردَّ أهل السنة على استدلال الشيعة بهذه النصوص القرآنية والنبوية، يقول الآمدي « أما الآية فالمراد بها إنما هو محو المنسوخ وإثبات محمود ومحو السيئات بالحسنات كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ أَلْسِنَاتٍ ﴾ [هود: ١١٤] ومحو الحسنات بالردة على ما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فِيمَتَّ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ... ﴾ [البقرة: ٢١٧]، أو محو المباحات وإثبات الطاعات على ما قاله أهل التفسير، أو محو ما يشاء من الآجال أو الأرزاق وإثبات غيرها، ويجب الحمل على ذلك جمعاً بينه وبين الأدلة القاطعة الدالة على امتناع الجهل في حق الله تعالى » (١).

أما معنى « بدا لله أن يتليهم » كما ورد في الحديث، فيقول العسقلاني في شرحه: (أي سبق في علم الله، فأراد إظهاره، وليس المراد أنه ظهر له بعد أن كان خافياً؛ لأن ذلك محال في حق الله تعالى وقد أخرجه مسلم... بلفظ: « أراد الله أن يتليهم »، فعمل التغيير فيه من الرواية... وأولى ما يحمل عليه أن المراد: قضى الله أن يتليهم، وأما البداء الذي يراد به تغيير الأمر عما كان عليه فلا) (٢).

ولا يجوز أن يتمسك الشيعة بآية الرعد وحديث « بدا لله أن يتليهم » دون تذكر النصوص التي تؤكد على علم الله المطلق، كقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴾ [الأنعام: ٧٣].

وقوله: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنَ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

وقوله: ﴿ مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَاهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحديد: ٢٢].

روايات الاثني عشرية في البداء وموقف علمائهم منها:

ويستند الشيعة إلى روايات كثيرة عن الأئمة تثبت هذا البداء، وتضخم مكانته، وتجعله من المسائل العقدية المهمة، وتورث القلب إشكالات حول معناه، ومن هذه الروايات:

(١) الآمدي (ت ٦٣١): إحكام الأحكام (١٢٢/٣). دار الكتاب العربي - بيروت، (١٤٠٤ هـ)،

(ط ١)، تحقيق السيد الجميلي.

(٢) فتح الباري (٥٠٢/٦).

عن زرارة بن أعين عن أحدهما عليه السلام قال: « ما عبد الله بشيء مثل البداء ». وفي رواية عن أبي عبد الله عليه السلام: « ما عظم الله بمثل البداء » (١).

وعن مالك الجهني قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « لو علم الناس ما في القول بالبداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه » (٢).

وعن مرزوم بن حكيم قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « ما تنبأ نبي قط حتى يقرّ لله بخمس خصال بالبداء والمشيمة والسجود والعبودية والطاعة » (٣).

وعن هشام بن سالم وحفص بن البختري وغيرهما عن أبي عبد الله عليه السلام قال في هذه الآية: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ .. ﴾ [الرعد: ٣٩] قال فقال: « وهل يمحي إلا ما كان ثابتاً، وهل يثبت إلا ما لم يكن؟ ».

وعن أحمد بن محمد.. الأنباري قال: « كنت حاضرًا عند مضي أبي جعفر محمد ابن علي عليه السلام فجاء أبو الحسن عليه السلام فوضع له كرسي فجلس عليه وحوله أهل بيته وأبو محمد قائم في ناحية فلما فرغ من أمر أبي جعفر التفت إلى أبي محمد عليه السلام فقال: يا بني أحدث لله - تبارك وتعالى - شكرًا فقد أحدث فيك أمرًا » (٤).

ذلك أن الأصل في الإمامة أن تكون في الولد الأكبر، فلما مات الأكبر وهو أبو جعفر، تحولت إلى أخيه أبي محمد، وقد كان أبو الحسن قد قال: « عهدي إلى الأكبر من ولدي » (٥).

وعن أبي هاشم الجعفري قال: كنت عند أبي الحسن عليه السلام (بعد ما مضى ابنه أبو جعفر، ورائي لأفكر في نفسي أريد أن أقول: كأنهما - أعني أبا جعفر وأبا محمد - في هذا الوقت كأبي الحسن موسى وإسماعيل ابني جعفر بن محمد عليه السلام، وإن قصتهما كقصتهما؛ إذ كان أبو محمد المرجى بعد أبي جعفر عليه السلام فأقبل عليّ أبو الحسن قبل أن أنطق فقال: نعم يا أبا هاشم بدا لله في أبي محمد بعد أبي جعفر عليه السلام ما لم يكن يعرف له كما بدا له في موسى بعد مضي إسماعيل ما كشف به عن حاله، وهو كما حدثتك

(١) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب البداء (١٩٧/١).

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب البداء (١٩٩/١).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) أصول الكافي (٣٨٤/١) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي محمد - وهو الحسن العسكري -.

(٥) أصول الكافي (٣٨٤/١) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي محمد.

نفسك وإن كره المبطلون، وأبو محمد ابن أبي الخلف من بعدي..».

وعن زرارة عن حمران عن أبي جعفر عليه السلام قال: «سألته عن قول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ..﴾ [الأنعام: ٢] قال: هما أجلان: أجل محتوم، وأجل موقوف» (١).

وعن الفضيل بن يسار قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: «العلم علمان فعلم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحدًا من خلقه، وعلم علم ملائكته ورسله، فما علمه ملائكته ورسله فإنه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء» (٢).

وعن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إن لله علمين: علم مكنون مخزون لا يعلمه إلا هو، من ذلك يكون البداء، وعلم علم ملائكته ورسله وأنبياءه فنحن نعلمه» (٣).

عن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت: «لهذا الأمر وقت؟ فقال: كذب الوقتون، كذب الوقتون، كذب الوقتون. إن موسى عليه السلام لما خرج وافداً إلى ربه واعدتهم ثلاثين يوماً، فلما زاده الله على الثلاثين عشراً قال قومه: قد أخلفنا موسى، فصنعوا ما صنعوا. فإذا حدثناكم الحديث فجاء على ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله، وإذا حدثناكم الحديث فجاء على خلاف ما حدثناكم به فقولوا: صدق الله، تؤجروا مرتين» (٤).

موقف علماء الاثني عشر من هذه الروايات:

علماء الشيعة في سجال فيما بينهم حول البداء الذي ورد في هذه الروايات، إذ ينكر بعضهم البداء إنكاراً عظيماً، رغم وجود هذه الروايات التي تثبتته، وبعضهم يثبتته ويجعله من العقائد التي لا يمكن التنازل عنها، وبعضهم يؤول معناه.

- الموقف الأول: إنكار روايات البداء:

- فالشيخ الصدوق رفض الاعتراف بحديث البداء في حق جعفر الصادق وأخيه إسماعيل من الأساس؛ ولذلك قال مخاطباً الزيدية: «بم قلت: إن جعفر بن محمد قد نص على إسماعيل بالإمامة؟ وما ذلك الخبر؟ ومن رواه؟ ومن تلقاه بالقبول؟ وإنما هذه

(١) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب البداء (١٩٧/١).

(٢) أصول الكافي (٣٨٥/١) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي محمد.

(٣) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب البداء (١٩٨/١).

(٤) أصول الكافي (٤٣٠/١) كتاب الحجّة باب كراهية التوقيت. قال المازندراني (٣١٦/٦) «مرة

للتصديق الأول، ومرة للتصديق الثاني، وكلاهما حق».

حكاية ولدها قوم قالوا بإمامة إسماعيل ليس لها أصل، لأن الخبر بذكر الأئمة الاثني عشر عليهم السلام قد رواه الخاص والعام» (١).

«وقد أغمض الصدوق عينيه عن هذه الأحاديث وأراح نفسه من عناء مناقشتها والرد عليها، وأهملها بالمرّة، بالرغم أنها كانت مورد إجماع المحدثين السابقين واللاحقين» (٢).

وذكر المازندراني (شارح أصول الكافي) أن تلك الروايات التي تحدثت عن البداء هي أحاديث آحاد، مما سهّل لبعض علماء الشيعة إنكارها؛ ولذلك نقل عن المحقق الطوسي (٣) قوله: «إنهم - يعني الاثني عشرية - لا يقولون بالبداء، وإنما القول بالبداء ما كان إلا في رواية رووها عن جعفر الصادق عليه السلام أنه جعل إسماعيل القائم مقامه، فظهر من إسماعيل ما لم يرتضه منه فجعل القائم موسى، فسئل عن ذلك فقال: (بدا لله في أمر إسماعيل). وهذه رواية، وعندهم أن الخبر الواحد لا يوجب علمًا ولا عملاً» (٤).

قال المازندراني: « ليس خبر الواحد حجة في أصول الدين إذ لا يوجب العلم، ولا في فروع الدين لأنه لا يقوم به الحجة ولا يوجب العمل... وأقول: ليس إنكار البداء خاصًا بالمحقق الطوسي (قدس سره)، بل كل من وجدنا له قولًا ممن يعتبر قوله من العلماء، واطلعنا على رأيه في الآراء وافق المحقق الطوسي في نفي البداء وتبرئة الإمامية عن القول به، منهم السيد المرتضى رحمته الله في الذريعة، وشيخ الطائفة أبو جعفر الطوسي في العدة والتبيان » (٥).

- الموقف الثاني: تأويل البداء:

ولكنثرة ورود الروايات التي ذكرت البداء، فإن بعض علماء الاثني عشرية عزّ عليهم أطراح كل تلك الروايات، ولأجل ذلك التزموا تأويلها بمعانٍ متنوعة:

١ - فاحترامًا لروايات البداء فإن « العلامة المجلسي أوجب ظاهرًا التلفظ به تأدبًا، لا الاعتقاد بمعناه تعبدًا؛ لأنه أيضًا أوّله تأويلًا. فإن قيل: فما تقول فيما ورد في أخباركم من لفظ البداء؟ قلنا: كلامنا في إطلاق هذا اللفظ على الله - تعالى - نظير كلامنا في

(١) الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة (ص ٦٩) تحقيق علي أكبر غفاري، (١٤٠٥ هـ)، مؤسسة النشر

الإسلامي - قم. ويقال له (إكمال الدين وإتمام النعمة) انظر: الذريعة إلى تصانيف الشيعة (٨٠/٤).

(٢) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ١٠٧).

(٣) وهو نصير الدين الطوسي (ت ٦٧٢ هـ)، بخلاف الطوسي صاحب الغيبة (ت ٤٦٠ هـ) الذي يقول بالبداء.

(٤، ٥) محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (٤/ ٢٣٢، ٢٣٣).

إطلاق الغضب والرضا والأسف، كما قال: ﴿ فَلَمَّا ءَاسَفُونَا أَنْتَمْنَا مِنْهُمْ .. ﴾ [الزخرف: ٥٥]، والنسيان في قوله: ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ .. ﴾ [التوبة: ٦٧] وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ آيَوْمَ نُنسِي ﴾ [طه: ١٢٦]. أمثال ذلك يجب تأويله بما يوافق المذهب والعقل، والجامع لجميع ذلك أنه تعالى يعامل معاملة الراضي والغاضب والناسي والمحزون والنادم على ما فعل. لا أنه تعالى متصف بهذه الصفات واقعا^(١).

٢ - كما أوّل بعضهم البداء بالنسخ:

يقول أصحاب هذا الاتجاه: إن التغيّر حصل في المعلوم دون العلم، فالعلم الإلهي ثابت أزلاً أبداً، وهذا الاتجاه يجعل البداء من باب النسخ، فكما هناك نسخ فالبداء مثله. ويمثل هذا الاتجاه الصدوق والشريف المرتضى، حيث إن البداء عندهم كالنسخ عند غيرهم^(٢).

قال المازندراني منتصراً لهذا الرأي: « والنسخ أيضاً داخل في البداء - كما صرح به الصدوق في كتابي التوحيد والاعتقادات - ومن أصحابنا من خص البداء بالأمر التكويني، وأخرج النسخ عنه، وليس لهذا التخصيص وجه يعتد به، وإنما سميت هذه المعاني بداء؛ لأنها مستلزمة لظهور شيء على الخلق بعد ما كان مخفياً عنهم^(٣). » وقد بين الزبيدي رحمته الله أن النسخ للحكم ليس هو البداء، فقال: « النسخ للحكم ليس ببداء كما توهمه الجهلة من الرافضة واليهود، وإنما هو تبديل حكم بحكم يقدر قدره وعلم قد تم علمه^(٤). »

كما أن الآمدي انتقد من خلط من الشيعة بين البداء والنسخ فقال: « ولما خفي الفرق بين البداء والنسخ على اليهود والرافضة منعت اليهود من النسخ في حق الله تعالى، وجوزت الروافض البداء عليه لاعتقادهم جواز النسخ على الله تعالى، مع تعذر الفرق عليهم بين النسخ والبداء... وكشف الغطاء عن ذلك يتحقق بالفرق بين النسخ والبداء فنقول: إذا عرف معنى البداء وأنه مستلزم للعلم بعد الجهل والظهور بعد الخفاء وأن ذلك مستحيل في حق الله تعالى على ما بيناه في كتبنا الكلامية، فالنسخ ليس

(١) المصدر السابق (٢٣٢/٤ - ٢٣٥).

(٢) د. عائشة يوسف المناعي: أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية (ص ٦٤).

(٣) قال المازندراني في شرحه على أصول الكافي (٢٣٥/٤).

(٤) محمد مرتضى الزبيدي: تاج العروس (٣٣/١٠) مكتبة الحياة - بيروت.

كذلك فإنه لا يبعد أن يعلم الله - تعالى - في الأزل استلزام الأمر بفعل من الأفعال للمصلحة في وقت معين واستلزام نسخه للمصلحة في وقت آخر، فإذا نسخه في الوقت الذي علم نسخه فيه فلا يلزم من ذلك أن يكون قد ظهر له ما كان خفيًا عنه، ولا أن يكون قد أمر بما فيه مفسدة ولا نهى عما فيه مصلحة، وذلك كإباحته الأكل في الليل من رمضان وتحريمه في نهاره» (١).

وإذا كنا قد ذكرنا أن بعض آراء الشيعة في الأئمة قد تلاقت مع بعض أفكار المتصوفة في الأولياء، فإن هذا لا يعني أنهم يوافقونهم في المسائل الأخرى، فإن من أهل التصوف السني من أعلن النكير على الشيعة لقولهم بالنسخ بالأخبار، قال الشيخ المحاسبي (٢)، المعاصر للإمام أحمد، رحمهما الله تعالى: «ولا يجوز النسخ في أخباره تعالى عما كان ويكون، فيكون بذلك منصرفًا من الصدق إلى الكذب، ومن الحق إلى الهزل، واللعب، وإنما ينسخ أخباره الكذاب أو المخبر بالظن فيرجع عن قوله إلى أن يكذب نفسه... وقد جوز فريق (٣) من الروافض في أخبار الله جل شأنه التناسخ [يعني النسخ]، وهذا الكفر. لا يجوز أن ينسخ الله خبره» (٤)، وقال: «فالتناسخ والمنسوخ لا يجوز أن يكونا إلا في الأحكام، في الأمر والنهي والحدود والعقوبات، وفي أحكام الدنيا» (٥).

٣ - وهناك اتجاه يؤول البداء بمعنى الإظهار (٦).

(١) الآمدي: إحكام الأحكام (١٢٢، ١٢١/٣).

(٢) الحارث المحاسبي: من أشهر رجال التصوف في القرن الثالث الهجري، صاحب كتاب (رسالة المسترشدين) في التصوف، و (رسالة العقل)، و (رسالة فهم القرآن). انظر: تقديم حسين القوتلي لرسالتي العقل وفهم القرآن، دار الفكر (١٣٩١هـ / ١٩٧١م).

(٣) لاحظ دقة عبارة المحاسبي وإنصافه لخصومه، حيث لم ينسب المقولة بنسخ الأخبار لكل الشيعة، وإنما اعتبر بكلمة «فريق»، وهو ما أثبتته البحث، من وجود خلاف بينهم في تفسير البداء، وأن فريقًا منهم فقط فسروه بالنسخ، وليس كلهم، ناهيك عن أن من الشيعة من أنكر البداء مطلقًا.

(٤) الحارث المحاسبي: فهم القرآن (ص ٣٣٣، ٣٣٤). تحقيق وتقديم حسين القوتلي، دار الفكر (١٣٩١هـ / ١٩٧١م). مطبوعة مع رسالة أخرى هي العقل.

(٥) المرجع السابق (ص ٢٥١). تحقيق وتقديم حسين القوتلي، دار الفكر (١٣٩١هـ / ١٩٧١م). تحت عنوان: البداوات وحدث الإرادة.

(٦) الدكتور أحمد الوائلي: هوية التشيع (ص ١٠١)، انظر معاني البداء في حق اليقين لعبد الله شبر (ص ١١٠، ١١١)، وقد ذكر أهم وجوه تفسير البداء عند الشيعة، وهي (الرد على اليهود) وقد اختاره المجلسي، ثم معنى النسخ وقد اختاره الداماد، فقالوا: إن (البداء نسخ تكويني)، وتخصيص العام وتقييد المطلق، والظهور بعد الخفاء).

فالمفيد يحاول تأويل البداء بالظهور من الله تعالى، قال المفيد: « والذي اعتمدهنا في معنى البداء أنه الظهور »^(١)، وكذلك الشيخ الطوسي يفسر « (بدا لله فيه) بمعنى: بدا من الله فيه »^(٢). وقال الوائلي: « والبداء عند الشيعة بمعنى الإظهار لا بمعنى أن الله يعلم بعد جهل، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا »^(٣).

ولكن « التأويل للبداء بظهور الأمر للناس من الله لا يسوغ كل هذه المغالاة في البداء وجعله من أعظم الطاعات وأصول الاعتقادات، كما أن لفظ البداء يحمل معنى باطلاً في لغة العرب التي نزل بها القرآن، فكيف يعد أصلاً في الدين وهو بهذه المثابة، ويلتمس له تأويل ومخرج!؟ »^(٤).

٤ - تفسير البداء بالتغيير الحاصل في القضاء المعلق:

يحاول الخوئي أن يقرب معنى البداء بناء على فهمه للقضاء الإلهي حيث يقسم القضاء إلى أقسام:

- الأول: قضاء الله الذي لم يطلع عليه أحدًا من خلقه، والعلم المخزون الذي استأثره لنفسه. ولا ريب في أن البداء لا يقع في هذا القسم، بل ورد في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام أن البداء إنما ينشأ من هذا العلم.

- الثاني: قضاء الله الذي أخبر نبيه و ملائكته بأنه سيقع حتمًا. ولا ريب في أن هذا القسم - أيضًا - لا يقع فيه البداء، وإن افرق عن القسم الأول بأن البداء لا ينشأ منه. ويشهد لهذا روايتان مرتًا سابقًا:

الأولى: عن الإمام محمد الباقر يقول فيها: « العلم علمان: فعلم عند الله مخزون لم يطلع عليه أحدًا من خلقه، وعلم علمه ملائكته ورسله، فما علمه ملائكته ورسله فإنه سيكون لا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون يقدم منه ما يشاء ويؤخر منه ما يشاء ويثبت ما يشاء »^(٥).

والثانية: عن ابنه جعفر الصادق يقول فيها: « إن لله علمين: علم مكنون مخزون لا يعلمه

(١) الشيخ المفيد: تصحيح اعتقادات الصدوق (ص ٥١ ، ٥٢).

(٢) الطوسي: الغيبة (ص ٥٥).

(٣) د. أحمد الوائلي: هوية التشيع (ص ١٠١).

(٤) د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١١٤٧/٢).

(٥) أصول الكافي (٣٨٥/١) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي محمد.

إلا هو، من ذلك يكون البداء، وعلمت علمه ملائكته ورسله وأنبياءه فنحن نعلمه» (١).

- الثالث: قضاء الله الذي أخبر نبيه وملائكته بوقوعه في الخارج، إلا أنه موقوف على أن لا تتعلق مشيئة الله بخلافه. وهذا القسم هو الذي يقع فيه البداء: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]، ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]. وقد دلت على ذلك روايات كثيرة، منها هذه الرواية عن جعفر الصادق قال: «إذا كان ليلة القدر نزلت الملائكة والروح والكتابة إلى سماء الدنيا، فيكتبون ما يكون من قضاء الله تعالى في تلك السنة، فإذا أراد الله أن يقدم شيئاً، أو يؤخره، أو ينقص شيئاً أو زيد أمر الملك أن يمحو ما يشاء ثم أثبت الذي أراد» (٢).

وخلاصة القول لدى الخوئي: أن القضاء الحتمي المعبر عنه باللوح المحفوظ، وبأمر الكتاب، والعلم المخزون عند الله، يستحيل أن يقع فيه البداء. وكيف يتصور فيه البداء؟! وأن الله سبحانه عالم بجميع الأشياء منذ الأزل، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء (٣). روى الصدوق في (كمال الدين وتمام النعمة، واعتقادات الإمامية) عن جعفر الصادق قال: «من زعم أن الله ﷻ يبدو له في شيء اليوم لم يعلمه أمس فابراًوا منه» (٤).

ويتحدث الخوئي عن ثمرة الإيمان بالبداء على هذا المعنى قائلاً:

«فالقول بالبداء: هو الاعتراف الصريح بأن العالم تحت سلطان الله وقدرته في حدوثه وبقائه، وأن إرادة الله نافذة في الأشياء أزلاً وأبداً. بل وفي القول بالبداء يتضح الفارق بين العلم الإلهي وبين علم المخلوقين. فعلم المخلوقين - وإن كانوا أنبياء أو أوصياء - لا يحيط بما أحاط به علمه تعالى، فإن بعضاً منهم وإن كان عالماً - بتعليم الله إياه - بجميع عوالم الممكنات لا يحيط بما أحاط به علم الله المخزون الذي استأثر به لنفسه، فإنه لا يعلم بمشيئة الله تعالى - لوجود شيء - أو عدم مشيئته إلا حيث يخبره الله تعالى به على نحو الحتم. والقول بالبداء: يوجب انقطاع العبد إلى الله، وطلبه إجابة دعائه منه، وكفاية مهماته، وتوفيقه للطاعة، وإبعاده عن المعصية. فإن إنكار البداء والالتزام بأن ما جرى به قلم التقدير كائن لا محالة - دون استثناء - يلزمه بأس المعتقد بهذه العقيدة عن إجابة

(١) أصول الكافي: كتاب فضل التوحيد، باب البداء (١٩٨/١).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (١٢/٩٤)، وأصلها في تفسير القمي (ص ٣٤٣).

(٣) السيد الخوئي: رسالتان في البداء (ص ٣٥).

(٤) الصدوق: كمال الدين وتمام النعمة (ص ٦٩)، الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٤١).

دعائه. فإن ما يطلبه العبد من ربه إن كان قد جرى قلم التقدير بإنفاذه فهو كائن لا محالة، ولا حاجة إلى الدعاء والتوسل. وإن كان قد جرى القلم بخلافه لم يقع أبدًا، ولم ينفعه الدعاء والتضرع. وإذا يئس العبد من إجابة دعائه ترك التضرع لخالفه، حيث لا فائدة في ذلك، وكذلك الحال في سائر العبادات والصدقات التي ورد عن المعصومين عليهم السلام أنها تزيد في العمر أو في الرزق، أو غير ذلك مما يطلبه العبد. وهذا هو سر ما ورد في روايات كثيرة عن أهل البيت عليهم السلام من الاهتمام بشأن البداء. فقد روى الصدوق في كتابه: التوحيد بإسناده عن زرارة، عن أحدهما عليهما السلام، قال: « ما عبد الله تعالى بشيء مثل البداء » (١).

وهذا الفهم لقضية البداء يقترب كثيرًا من فهم أهل السنة للقضاء المبرم الذي لا يتغير، وهو الذي يتناوله قوله تعالى في الآية ذاتها: ﴿ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، والقضاء المعلق الذي جعل الله له ارتباطًا بالأسباب وهو الذي يكون محل قوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ ﴾ [الرعد: ٣٩]، كما ثبت في زيادة العمر والرزق للعبد الذي وصل رحمه كما في الصحيح. قال ابن حجر عند شرحه (باب من بسط له في الرزق لصلة الرحم) من صحيح البخاري: « فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، فالحو والإثبات بالنسبة لما في علم الملك، وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى، فلا محو فيه البتة، ويقال له: القضاء المبرم، ويقال للأول: القضاء المعلق ». وقال المباركفوري: « الحاصل أن القضاء المعلق يتغير، وأما القضاء المبرم فلا يبدل ولا يغير » (٢).

فتصبح مسألة البداء على هذا الفهم ممكنة الاتفاق حولها، أما على المعنى الذي يوحى به كثير من تلك الروايات لو أخذت دون تأويل، فإنها تكون من نواقض الإيمان والعباد بالله تعالى، وما دام القوم قد أولوا تلك النصوص - كما فعل المازندراني والخوئي - فنقبل ذلك، ونتعامل مع رواياتهم على أساس هذا التأويل، وإن كان هذا الفهم والتأويل يلزم الشيعة بالقول بأن علوم الأئمة ليست علومًا حتمية؛ لأنها ليست من (أم الكتاب) وإنما مما يقبل المحو والإثبات، وهذا أمر ينبغي عليهم التبصّر به والتأكيد عليه.

* * *

(١) رسالتان في البداء (ص ٤٣، ٤٤).

(٢) ابن حجر: فتح الباري (١٠/٤١٦)، المباركفوري: تحفة الأحوذى (٦/٢٩٠) دار الكتب العلمية - بيروت.

المبحث الخامس

الرجعة



الرجعة في اللغة الانصراف، يقال رجع يرجع رجوعًا: انصرف، وفلان يؤمن بالرجعة أي بالرجوع إلى الدنيا بعد الموت ^(١). وهذا الذي ذكره علماء اللغة هو المقصود بالرجعة الشيعية التي ذكر المفيد إجماع الإمامية على وجوبها فقال: « أجمعت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وإن كان بينهم في معنى الرجعة اختلاف » ^(٢).

وقال أيضًا: « وقد جاء القرآن بصحة ذلك وتظاهرت به الأخبار، والإمامية بأجمعها عليه إلا شذاذًا منهم تأولوا ما ورد فيه مما ذكرناه على وجه يخالف ما وصفناه » ^(٣). وقد ذكر الإجماع بعد المفيد المجلسي وعبد الله شبر الذي يقول ^(٤): « قد عرفت من الآيات المتظاهرة والأخبار المتواترة وكلام جملة من المتقدمين والمتأخرين من شيعة الأئمة الطاهرين أن أصل الرجعة حق لا ريب فيه، ولا شبهة تعتريه، ومنكرها خارج عن ربة المؤمنين، فإنها من ضروريات مذهب الأئمة الطاهرين، وليست الأخبار الواردة في الصراط والميزان ونحوهما مما يجب الإذعان به أكثر عددًا وأوضح سندًا وأصرح دلالة وأفصح مقالة من أخبار الرجعة » ^(٥).

ومن أشهر الآيات التي يستدل بها الإمامية على الرجعة قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ٨٣]. والآية كما يقول مفسرو أهل السنة في يوم الجزاء والحساب، يوم يقوم الناس لرب العالمين ^(٦)، إلا أن الشيعة يجعلونها

(١) انظر: الصحاح للجوهري، القاموس المحيط للفيروزآبادي، مادة (ر. ج. ع).

(٢) المفيد: أوائل المقالات (ص ٤٦). (٣) المصدر السابق (ص ٧٨).

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٩٧).

(٥) المصدر السابق (ص ٣٣٧).

(٦) انظر: تفسير الطبري (١٧/٢٠)، تفسير البغوي (٤٣٠/٣)، ابن الجوزي: زاد المسير (١٩٤/٦)،

القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (٢٣٨/١٣)، البحر المحيط لأبي حيان (٩٨/٧)، تفسير ابن كثير (٣٩٣/٣)،

الشوكاني: فتح القدير (١٥٣/٤ ، ١٥٤) وغيرها.

في عقيدتهم في الرجعة؛ ولذا قال شيخهم شبر بأنها فسرت في أخبارهم في الرجعة (١). وقد كانت عقيدة الرجعة سرًا من أسرار المذهب الشيعي؛ ولذلك قال أبو الحسين الخياط - أحد شيوخ المعتزلة (٢) « بأنهم قد تواصلوا بكتمانها وألا يذكروها في مجالسهم ولا في كتبهم إلا فيما قد أسروه من الكتب ولم يظهروه » (٣).

وقد وجد الدكتور القفاري في كتب الاثني عشرية ما أشار إليه الخياط من التواصي بكتمان أمر الرجعة، حيث روت بعض كتب الشيعة عن أبي جعفر قوله: « لا تقولوا الجبت والطاغوت، ولا تقولوا الرجعة، فإن قالوا لكم: فإنكم قد كنتم تقولون ذلك فقولوا: أما اليوم فلا نقول » (٤).

وفي رواية أخرى ينسبونها للصادق: « لا تقولوا الجبت والطاغوت وتقولوا الرجعة، فإن قالوا: قد كنتم تقولون؟ قولوا: الآن لا نقول، وهذا من باب التقية التي تعبد الله بها عباده في زمن الأوصياء » (٥).

ويرى بعض الباحثين أن عقيدة الرجعة تسربت عن طريق المؤثرات اليهودية والمسيحية (٦) فقد كان لابن سبأ اليهودي - كما تنقل ذلك كتب الشيعة وأهل السنة على السواء - دور التأسيس لمبدأ الرجعة، إلا أنها رجعة خاصة بعلي، وهي قريبة من فكرة الغيبة، حيث ينفي وقوع الموت على علي أصلاً؛ كحال الاثني عشرية مع المهدي المنتظر. فقد قال السبئية لمن نعى عليًا: « كذبت يا عدو الله! لو جئتنا - والله! - بدماعه خربة فأقمت على قتله سبعين عدلاً ما صدقناك، ولعلمنا أنه لم يمت ولم يقتل، وإنه لا يموت حتى يسوق العرب بعصاه ويملك الأرض » (٧). ولما لم يجد العناد شيئاً في إنكار موت علي ﷺ اشتهر القول بالرجعة صراحة عن فرقة ابن سبأ (السبئية)، وقد نسب إليهم المجلسي القول برجعة علي ﷺ (٨).

(١) تفسير شبر (ص ٣٦٩).

(٢) كان حيًا قبل سنة (٣٠٠ هـ). انظر: معجم المؤلفين (٢٢٣/٥).

(٣) الانتصار (ص ٩٧). (٤) بحار الأنوار (٣٩/٥٣).

(٥) بحار الأنوار (١١٥/٥٣، ١١٦).

(٦) انظر: جولد سيهر: العقيدة والشريعة (ص ٢١٥)، أحمد أمين: فجر الإسلام (ص ٢٧٠).

(٧) المقالات والفرق (ص ٢٠) تحقيق الدكتور محمد جواد مشكور - طهران (١٩٦٣ م). وقرينا منه النويختي: فرق الشيعة (ص ٢٣).

(٨) بحار الأنوار (٢١٠/٥١). إضافة إلى رواية تذكره باسمه كما ذكرت في الأصل.

وقد بين الشهرستاني ارتباط الرجعة بالفكر اليهودي، فقال: « أما جواز الرجعة: فإتما وقع لهم من أمرين: أحدهما: حديث عزيز عليه السلام إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه. والثاني: حديث هارون عليه السلام إذ مات في التيه وقد نسبوا موسى إلى قتله بالواحة، قالوا: حسده لأن اليهود كانوا أميل إليه منهم إلى موسى واختلفوا في حال موته، فمنهم من قال: إنه مات وسيرجع، ومنهم من قال: غاب وسيرجع » (١).

والحقيقة أن مسألة الرجعة تأتي من أوهام النفس التي ترفض موت الأحياء والعظماء، ولذلك فلا عجب أن تنتشر بين الشيعة وقد اشتهروا بالتعلق بالأئمة. فهي ليست فكرة خاصة بهم، بل هي وهم يصيب الناس عند فقد أحببتهم، ولذلك ذكر ابن الأثير: أن هذا مذهب قوم من العرب في الجاهلية معروف عندهم (٢).

وكذلك فإن الصدمة العظمى للصحابة الكرام بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت بعضهم يسير بعاطفته - كعمر رضي الله عنه - فيزعم أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يموت، وأنه ذهب لمناجاة ربه وسيعود. وقد زالت هذه الأماني والخيالات حين تلا عليهم أبو بكر الصديق قول الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، وقال: « من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد رب محمد فإنه حي لا يموت » (٣)، وتلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وقد نقلت كتب السنة وجود فكرة الرجعة عند بعض أصحاب علي رضي الله عنه، فقد جاء في مسند أحمد « أن عاصم بن ضمرة (وكان من أصحاب علي رضي الله عنه) قال للحسن بن علي: إن الشيعة يزعمون أن عليًا يرجع. قال الحسن: كذب أولئك الكذابون، لو علمنا ذلك ما تزوج نساؤه، ولا قسمنا ميراثه » (٤).

وهذا جابر الجعفي الذي امتدحته روايات الشيعة يقول بالرجعة؛ جاء في تفسير القمي (٥)

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (٢٠٩/١)، وانظر: د. فتحى الزغبى: غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (اليهودية والمسيحية والمجوسية) (ص ٤٣٠)، (ط ١)، (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٨ م).

(٢) ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث (٢٠٢/٣).

(٣) البغدادي (عبد القاهر بن طاهر ت ٤٢٩ هـ): الفرق بين الفرق (ص ١٢)، دار الآفاق الجديدة - بيروت، (ط ٢)، (١٩٧٧ م).

(٤) مسند أحمد (٣١٢/٢) رقم (١٢٦٥)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وانظر: طبقات ابن سعد (٣٩/٣).

(٥) تفسير القمي (١٤٧/٢).

أن أبا جعفر قال: « رحم الله جابراً بلغ فقهه أنه كان يعرف تأويل هذه الآية: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ ﴾ [القصص: ٨٥]، يعني الرجعة» (١).

وقد أدرك أهل السنة مقولة جابر الفاسدة، ولذلك لم يرووا عنه، وقد اعترف بها شير فقال: « روى مسلم في صحيحه بإسناده.. إلى الجراح بن مليح قال: سمعت جابراً يقول: عندي سبعون ألف حديث عن أبي جعفر محمد الباقر عن النبي ﷺ تركوها كلها... لأنه كان يؤمن بالرجعة» (٢).

لمن تكون الرجعة؟

ويعتقد الاثنا عشرية أن الراجعين إلى الدنيا « فريقان؛ أحدهما: من علت درجته في الإيمان، وكثرت أعماله الصالحات، وخرج من الدنيا على اجتناب الكبائر الموبقات، فيريه الله ﷻ دولة الحق ويعزه بها ويعطيه من الدنيا ما كان يتمناه، والآخر: من بلغ الغاية في الفساد، وانتهى في خلاف المحققين إلى أقصى الغايات، وكثر ظلمه لأولياء الله واقترافه السيئات، فينتصر الله - تعالى - لمن تعدى عليه قبل الممات، ويشفي غيظهم منه بما يحلله من النقمات، ثم يصير الفريقان من بعد ذلك إلى الموت، ومن بعده إلى النشور وما يستحقونه من دوام الثواب والعقاب» (٣).

وإذا رجعنا إلى روايات الشيعة التي تذكر الرجعة نرى أن ممن يحكم الشيعة برجعوعهم السيدة عائشة رضي الله عنها حتى يجلدوا - أي القائم المهدي - الحداً، وحتى ينتقم لابنة محمد فاطمة (٤). وأبو بكر وعمر « يصلبهما ويحرقهما! » (٥). وكذلك « يظهر الحسين عليه السلام في اثني عشر ألف صدّيق واثنين وسبعين رجلاً من أصحابه يوم كربلاء، فيالك عندها من كرتة زهراء بيضاء. ثم يخرج الصديق الأكبر أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام وينصب له القبة بالنجف، ويقام أركانها: ركن بالنجف، وركن بهجر، وركن بصنعاء، وركن بأرض طيبة، لكأنني أنظر إلى مصايحه تشرق في السماء

(١) قال ابن كثير في تفسير الآية: يقول تعالى أمراً رسوله صلوات الله وسلامه عليه بيلاغ الرسالة، وتلاوة القرآن على الناس، ومخبراً بأنه سيرده إلى معاد وهو يوم القيامة فيسأله عما استرعاه من أعباء النبوة، ومعنى ﴿ فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ ﴾ [القصص: ٨٥] أي: افترض عليك أداءه إلى الناس (تفسير ابن كثير ٤١٩/٣).

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٣٦).

(٣) المفيد: أوائل المقالات (ص ٧٨).

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (٢٤٢/٢٢)، الصدوق: علل الشرائع (ص ٣٠٣) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - لبنان.

(٥) الأنوار النعمانية (٨٥/٢).

والأرض، كأضواء من الشمس والقمر، فعندها تبلى السرائر، و ﴿ .. تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢٠].

بل والنبى الأعظم ﷺ: تقول الرواية السابقة برجعته! « ثم يخرج السيد الأكبر محمد رسول الله ﷺ في أنصاره والمهاجرين، ومن آمن به وصدقه واستشهد معه، ويحضر مكذوبه والشاكون فيه والرادون عليه والقائلون فيه أنه ساحر وكاهن ومجنون، وناطق عن الهوى، ومن حاربه وقاتله حتى يقتصّ منهم بالحق، ويجازون بأفعالهم منذ وقت ظهر رسول الله ﷺ إلى ظهور المهدي » (١).

وإذا كان هذا حاصلًا - على حدّ زعم هذه الروايات - فما فائدة قيام الساعة بعد ذلك، وقد حشر كل هؤلاء الخلق!!

وتذكر إحدى الروايات بعض أفعال من يرجعون إلى الدنيا؛ من سفكٍ للدماء في أقدس الأماكن وأطهرها، قال أبو عبد الله: « كأني بحمران بن أعين وميسر بن عبد العزيز يخطبان الناس بأسيافهما بين الصفا والمروة »!! (٢).

وهذه الرواية جعلت الدكتور القفاري يقول: « ولا شك بأن تحديد موضع القتل العام بالمسجد الحرام يدل دلالة أكيدة أن المقصود بالقتل هم المسلمون، وأن هذا ما تحلم به الإمامية.. وهذا الخبر وأمثاله يعطينا - بغضّ النظر عن العنصر الخرافي فيه - صورة لتفكير تلك الزمر الشيعية التي وضعت تلك الروايات، وأهدافها ومخططاتها، فهي « إسقاطات » لرغبات مكبوتة، ونوازع مقهورة لفرقة تتريص بالأمة الدوائر.

كما أن هذه الأخبار السرية قد توضح لنا بعض ما جرى في التاريخ من قيام القرامطة بقتل حجاج بيت الله داخل الحرم (٣).

وأنها كانت تتخذ من مثل هذه الأخبار المنسوبة لآل البيت سندًا لها لدفع تلك العناصر التخريبية للقيام بدورها الدموي » (٤).

إن فكرة الرجعة إلى الدنيا بعد الموت مخالفة صريحة لنص القرآن، وباطلة بدلالة

(١) المجلسي: بحار الأنوار (١٢/٥٣ - ١٦).

(٢) بحار الأنوار (٤٠/٥٣).

(٣) انظر خير ذلك (في حوادث سنة ٣١٧ هـ) في: المنتظم لابن الجوزي (٢٢٢/٦) وما بعدها، والبداية والنهاية لابن كثير (١٦٠/١١)، وتاريخ ابن خلدون (العبر): (١٩١/٣).

(٤) د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١١٠٧/٢).

آيات عديدة من كتاب الله سبحانه، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿١٠٠﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠١﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]. فقوله سبحانه: ﴿ وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ صريح في نفي الرجعة مطلقاً^(١). وقال سبحانه: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [يس: ٣١]. وقال سبحانه: ﴿ وَأَنذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنَا إِلَيْكَ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّحِبُّ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوْلَم نَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَتُوفَنكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ١١، ١٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ وَقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ بَلْ بَدَأ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ [الأنعام: ٢٧، ٢٨].

وقد مر قول الحسن في إنكاره رجعة أبيه علي عليه السلام: « كذب أولئك الكذابون، لو علمنا ذاك ما تزوج نسأوه، ولا قسمنا ميراثه »^(٢).

كما أن القول بالرجعة بعد الموت إلى الدنيا لمجازاة المسيئين وإثابة المحسنين ينافي طبيعة هذه الدنيا وأنها ليست دار جزاء، قال تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحَّجَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

كما أن الإيمان بالرجعة يضعف جانب الإيمان بيوم البعث والجزاء، ويبدو أن هذا من أهداف واضح هذا المبدأ^(٣).

ولما كثر النقد للشيعة من أجل هذه المسألة، كان من الشيعة من يهون من أمر الرجعة، ويراهم أمراً منازعاً فيه بسبب الاختلاف في الدليل، فقد « قال فريق من الإمامية: إن الله سيعيد إلى هذه الدنيا قوماً من الأموات ويرجعهم بصورهم التي كانوا عليها وينتصر بهم

(١) انظر: مختصر التحفة الاثني عشرية (ص ٢٠١).

(٢) مسند أحمد (٣١٢/٢) رقم (١٢٦٥)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وانظر: طبقات ابن سعد (٣/٣٩).

(٣) انظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١١٢١/٢، ١١٢٢).

لأهل الحق من أهل الباطل، وهذا هو معنى الرجعة. وأنكر الفريق الآخر ذلك، ونفاه نفياً باتاً، ونقل هذا الاختلاف الشيخ الإمامي الثقة أبو علي الطبرسي عند تفسير الآية (٨٣) من سورة النمل ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ قَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴾ [النمل: ٨٣] ^(١). ويقول الشيخ الوائلي: أما « موضوع الرجعة عندهم فهو مجرد فهم من كتاب الله تعالى لبعض الآيات ولمضمون تلك الآيات، ذلك بالإضافة إلى روايات كثيرة تدعم تلك المضامين، وهي: أعني الرجعة ليست من ضروريات الإسلام عندهم.... البعض قد يفهم من عقيدة الشيعة القول بالتناسخ فيقول في ذلك، والقول بالتناسخ باطل، ومن دان بالتناسخ فهو كافر؛ لأن في التناسخ: إبطال الجنة والنار... فالمسألة في الرجعة إذن لا تعدو فهمًا من كتاب الله تعالى بإمكان وقوع رجعة في فترة معينة، وكل ذلك لا يستوجب هذه الجلبة والضوضاء في كتب السنة » ^(٢).

يقول السيد محسن الأمين عن الرجعة: « أمر نقلي إن صح النقل به لزم اعتقاده وإلا فلا » ^(٣). ولذلك قال الشيخ أبو زهرة حينما اطلع على هذه الآراء: « ويظهر أن فكرة الرجعة على هذا الوضع ليست أمرًا متفقًا عليه عند إخواننا الاثني عشرية، بل فيهم فريق لا يعتقد » ^(٤).

وما دام الخلاف بسبب النقل ثبت أم لم يثبت، فكيف أطلق عدد من علماء الشيعة القول بأن الإجماع منعقد على وجود الرجعة، وقد مرّ قول المفيد: « أجمعت الإمامية على وجوب رجعة كثير من الأموات إلى الدنيا قبل يوم القيامة، وإن كان بينهم في معنى الرجعة اختلاف » ^(٥). ونقل ذلك عن المجلسي وعبد الله شبر ^(٦)؟ أهكذا يسهل على هؤلاء العلماء أن يدخلوا في الإجماع ما يشتهون بسبب نصوص مشكوك في ثبوتها؟ والآن وبعد ألف وأربعمائة عام ألم يتحقق الأمر، وهل تبقى عقيدة هكذا معلقة حتى يثبت النقل أو لا يثبت، أم أنها التقية، أم أن هذا التردد من المتأخرين في الرجعة يعدّ تطورًا جديدًا من تطورات العقائد الشيعية أو استحياءً من بعضها؟!

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٥٤)، وانظر مجمع البيان.

(٢) د. أحمد الوائلي: هوية التشيع (ص ١٠٢) دار الصفوة - بيروت (١٤١٤ هـ).

(٣) الشيعة بين الحقائق والأوهام (ص ٤٩١)، (ط ٢)، (١٩٧٥ م).

(٤) تاريخ المذاهب الإسلامية في بحث جعفر الصادق.

(٥) المفيد: أوائل المقالات (ص ٤٦).

(٦) انظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٩٧).

الْمَبْحَثُ السَّادِسُ

المهدي المنتظر غيبته وأعماله



إن فكرة المهدي المصلح المنتظر من المسائل العقديّة التي تناولها الشيعة والسنة، ولكن أهل السنة يجعلونها من مسائل الفروع العقديّة، أما الشيعة الاثنا عشرية فليست مسألة المهدي عندهم مجرد « بشرى نبوية تطمينية وردت في بعض أخبار الآحاد تبشّر المسلمين بأن خليفة من آل البيت الكرام سوف يحكم هذه الأمة بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ، مما صنّفه بعض أهل السنة ضمن دلائل النبوة التي تتحدث عن غياب المستقبل، أو هي عقيدة فرعية عند المتأخرين منهم، ولكنها أصل من أصول الاعتقاد... لأنها تتصل بأصل من أصول الإيمان وهو الإمامة » (١).

فالشيعة يرون الإيمان بالمهدي من أصول الدين، ويرون إنكاره كفرًا وضلالًا: يقول الشيخ الصدوق: « مثل من أنكر القائم عليه السلام في غيبته مثل إبليس في امتناعه في السجود لآدم » (٢).

لأنهم يرون إنكار المهدي كإنكار الرسول والأئمة: « من أنكر القائم من ولدي فقد أنكرني » (٣).

إن « جمهور علماء أهل السنة يرونه محمد بن عبد الله من ذرية الحسن بن علي ابن فاطمة، الذي سيولد قبيل ظهوره كما يولد أي مولود من جيله قرب نهاية الزمان، بينما يرى الشيعة الإمامية أنه محمد بن الحسن العسكري الذي ولد في مطالع النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ما بين عامي (٢٥٢ - ٢٦٠ هـ)، ثم غاب غيبته الصغرى وهو طفل، ثم غاب غيبته الكبرى التي سوف تستمر حتى يأذن الله بظهوره في آخر الزمان » (٤).

(١) المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثة نقدية، د. عذاب محمود الحمش، دار الفتح للنشر والتوزيع، الأردن، عمان (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م)، (ص ٤١١، ٤١٢) .

(٢) الصدوق: إكمال الدين (ص ١٣) . (٣) الصدوق: إكمال الدين (ص ٣٩٠) .

(٤) د. عذاب محمود الحمش: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية، دراسة حديثة نقدية (ص ٤١٢)، دار الفتح للنشر والتوزيع، الأردن، عمان (١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م) .

ذكره آناء الليل وأطراف النهار، باعتباره مخلص الشيعة من الظلم الذي وقع بهم على مر الزمان.

جذور فكرة المهدي الغائب المنتظر:

والحقيقة أن فكرة وجود المهدي المنتظر وما يشابهها فكرة قديمة؛ فقد آمن بها اليهود، فهم « بأسرهم مجمعون على أن في التوراة بشارة بواحد بعد موسى عليه السلام » (١). كما احتلت فكرة المخلص مكاناً بارزاً في العقيدة المسيحية، حيث يعتقد النصارى مجيء المسيح عليه السلام إلى هذا العالم مرة أخرى للدينونة: « سيأتي هكذا كما رأيتموه منطلقاً إلى السماء » (٢).

وهذه الفكرة أيضاً من عقائد الزرادشتية الذين يؤمنون بخروج مخلص لهم (٣)، فقد أخبر كتابهم (زند أوستا) ظهور (أشيزريكا) الرجل العالم الذي يظهر بالعدل (٤). كما يؤمن البوذيون بمجيء بوذا، وبعد فتح المسلمين للهند ابتكر بعض الهنود شخصية فيشنو الذي سيخلص الهند من فاتحيها المسلمين. ووعد جنكيز خان قومه المغول برجعته إلى الدنيا (٥).

« والملاحظ بصفة أساسية أن فكرة المخلص في كافة حالاتها تبدو وليدة الشعور بالضيق والمرارة وعدم الرضا عن الواقع الأليم الذي يقهر الجماعة ويغلبها على أمرها، ويحول دون تحقيق النظم العادلة في الدين والسياسة، وهذه الملاحظة هي التي ستفسر لنا سر انتشار العقيدة المهديّة في الأوساط الشيعية المختلفة » (٦).

ولقد ابتدأ تضحّم فكرة المهدي في الفكر الشيعي بالكيسانية، إذ أنشد شاعرهم وهو يتحدث عن إمامهم محمد ابن الحنفية:

وسبط لا يذوق الموت حتى يقود الخيل يقدمها اللواء
تغيب لا يرى فيهم زماناً برضوى عنده غسل وماء (٧)

(١) د. سنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٠٠).

(٢) إنجيل متى (٢٧/٢٤)، أعمال الرسل (١٠/١، ١١).

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٢٢٨).

(٤) الشهرستاني: الملل والنحل (٢١٩/١).

(٥) انظر: الأستاذ الدكتور السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٠١، ٤٠٢).

(٦) الأستاذ الدكتور: السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٠٢).

(٧) الأبيات لكثير عزة (ت ١٠٥ هـ) كثير بن عبد الرحمن. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي (ص ٢٢).

ويقول أيضًا:

ما مت يا مهدي يا ابن المهدي أنت الذي نرضى به ونرتجي
أنت ابن خير الناس من بعد النبي أنت إمام الحق لسنا نمتري
بين لنا وانصح لنا يا ابن الوصي بين لنا من ديننا ما ينبغي^(١)

وهذا « إعلان بالغيبة الكيسانية، وستنتقل الفكرة بنفسها إلى الإمامية الاثني عشرية، ينسبونها إلى الإمام الثاني عشر »^(٢).

ولا شك أن الكيسانية استلهموها من اليهود؛ لأن « السبئية بدأت تختلط بالكيسانية في الكوفة، وبين لنا كثير [عزة] المصدر اليهودي ببساطة حين يقول:

هو المهدي خبّرناه كعب أخو الأحبار في الحقب الخوالي^(٣)

وإذا طالعنا الفكر اليهودي فإننا سنرى بوضوح أصل هذه الأفكار: ففي سفر الملوك « وكان كلام الرب له (إيليا) قائلاً: انطلق من هنا واتجه نحو المشرق واختبئ عند نهر كريت الذي هو مقابل الأردن فتشرب من النهر، وقد أمرت الغربان أن تعولك هناك، فانطلق وأعمل حسب كلام الرب، وذهب فأقام عند نهر كريت الذي هو مقابل نهر الأردن، وكانت الغربان تأتي إليه بخبز ولحم صباحًا ومساءً وكان يشرب من النهر »^(٤).

وإذا كانت التوراة الحاضرة تقول: « العذراء تحبل وتلد ابناً، وتدعو اسمه عمانوئيل، زبداً وعسلًا يأكل متى عرف أن يرفض الشر ويختار الخير... ويكون في ذلك اليوم أن الإنسان يربي عجلة بقر وشاتين ويكون أنه من كثرة صنعها اللبن يأكل زبداً، فإن كل من أبقى في الأرض يأكل زبداً وعسلًا »^(٥)، فإن ابن سبأ كان يقول: « واللّه لينبعن لعليّ في مسجد الكوفة عينان تفيض إحداهما عسلًا والأخرى سمناً، ويغترف منهما شيعته »^(٦).

وقد رأينا من كتاب الشيعة من يحاول أن يجد مصدرًا للمهدي المنتظر في مصادر أهل السنة، ويستند إلى أحاديث كثيرة؛ فعلى من يقارن بين عقائد أهل السنة والاثني عشرية أن يلاحظ الفرق بين الفكرتين؛ ففكرة المهدي السنيّة، وفكرة الغيبة والرجعة

(١) أبو خلف القمي: المقالات والفرق (ص ٢٩).

(٢) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٧٤).

(٣) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام (ص ٧٤، ٧٥).

(٤) سفر الملوك الأول (٢/١٧ - ٦). (٥) سفر أشعيا (١٤/٧، ١٥ - ٢٢).

(٦) الفرق بين الفرق (١/٢٢٥).

الشيعية، فالمهدي عند أهل السنة رجل صالح يكون زمن نزول عيسى عليه السلام ليس له ذاك التهويل والتضخيم الموجود عند الشيعة، كما أنه لم يولد حتى الآن، والإيمان به فرع عقدي، لا أصل جوهري، في حين أن الشيعة الاثني عشرية تعتقد أن الإيمان بالمهدي من أصول المذهب الشيعي، وأنه قد ولد منذ ما يقارب ألفاً ومائتي عام، وينتظرون خروجه في أي لحظة اليوم، يخرج ليثأر للشيعة وينتقم ويقتل ويذبح. وبذلك تكون فكرة المهديّة الشيعية أقرب إلى الرجعة اليهودية، وأبعد عن فكرة المهدي عند أهل السنة.

ومما يجدر ملاحظته أن روايات الاثني عشرية تبينّ تعلق رجال الشيعة الأوائل بالأئمة السابقين، لدرجة أنهم كانوا لا يصدّقون أخبار وفاة هؤلاء الأئمة، وينسبون الغيبة إليهم، ومن ثمّ كثرت فرق الواقعة عند الشيعة.

ومن أشهر الروايات التي تبينّ هذه الحقيقة رواية أبي جرير القميّ « قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: جعلت فداك! قد عرفت انقطاعي إلى أبيك ثمّ إليك ثمّ حلفت له وحقّ رسول الله صلى الله عليه وآله وحقّ فلانٍ وفلانٍ ^(١) حتّى انتهيت إليه بأنّه لا يخرج منّي ما تخبرني به إلى أحدٍ من الناس وسألته عن أبيه أحبّ هو أو ميّث؟ فقال: قد والله! مات فقلت: جعلت فداك إنّ شيعتك يروون أنّ فيه ستّة أربعة أنبياء ^(٢). قال: قد والله الذي لا إله إلا هو هلك، قلت: هلاك غيبةٍ أو هلاك موتٍ؟ قال: هلاك موتٍ فقلت: لعلك منّي في تقيّة؟ فقال: سبحان الله! » ^(٣).

فأنت تلاحظ شكوك الأئمة بوفاة أئمتهم، وتفكيرهم بغيبة الأئمة، وهذا قبل الإمام الثاني عشر، آخر الأئمة في عقيدة الاثني عشرية. فإذا كانت تلك الحيرة تنتهي بظهور إمام من الأئمة، فكيف عندما لا يكون هناك إمام ظاهر؟ عندئذ ستضخم فكرة الغيبة، لتكوّن لنا فكرة المهدي المنتظر.

(١) قال عليه السلام: « من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت » أخرجه البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف

يستحلف، رقم (٢٤٨٢)، ومسلم: كتاب الإيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله، رقم (٣١٠٥).

(٢) وهم يقصدون غيبة بعض الأنبياء، كغيبه موسى في الطور، وإبراهيم عن النمرود كما ذكروا، ويوسف عليه

الصلاة والسلام عن أبيه وأهله. انظر: منتخب الأنوار المضيئة للسيد بهاء الدين النجفي (ص ١٢٨، ١٢٩)،

إكمال الدين (ص ٤٨١).

(٣) أصول الكافي (٤٤٣/١) كتاب الحجّة، باب في أن الإمام متى يعلم أن الأمر قد صار إليه. قال محققه:

والحديث حسن كالصحيح.

الغموض الذي يلف فكرة المهدي عند الشيعة:

هناك خلافات كثيرة وغموض كثيف يلف فكرة المهدي في روايات الشيعة، فهناك خلاف في اسم والدته، وفي عمره عند وفاة والده، وفي مكان اختفائه، وهل هو الثاني عشر أم الثالث عشر من الأئمة.

فقد اختلفت تلك الروايات في:

- تحديد تاريخ ولادته في اليوم والشهر والسنة.
- واختلفت تبعاً لذلك في تحديد عمره عند وفاة أبيه بين سنتين إلى ثماني سنوات.
- واختلفت في طريقة الحمل: في الرحم أم في الجنب، وفي الولادة: من الفرج أم من الفخذ.
- واختلفت الروايات في تحديد لونه بين البياض والسمرة.
- كما اختلفت في أمه: بين جارية اسمها نرجس، أو سوسن، أو صقيل، أو خمط، أو ريحانة، أو مليكة، أو حرة اسمها: مريم بنت زيد العلوية.
- كما اختلفت في طريقة نموه؛ هل هي خارقة للعادة، أم لا (١).

وقد قام بعض الباحثين بدراسة أحاديث المهدي المنتظر، ونظر في حال رجال الأسانيد في الروايات الشيعية، وبيّن ضعف أولئك الرواة في كتب (الرجال والجرح والتعديل) الشيعية (٢). ولكن قضية المهدي المنتظر لا تخضع عند الشيعة للموازين العقلية ولا النقلية، بل هي مسألة مسلّم بها، حيث « لا توجد قضية خارج البحث والاجتهاد مثل تلك القضية » (٣). ولذلك يستوي فيها الإخباريون مع الأصوليين، فلا مجال للنقد والتحصيص فيها، ولا مكان للنقاش حولها.

وهنا تظهر ازدواجية عجيبة! « إن بعض المثقفين من عامة الناس يتلذذ بنقد عقائد الفرق الأخرى، والاستهزاء برجالها الضعاف والوضّاعين ورواياتها غير المعقولة، ولكن عندما يتعلق الأمر بقضية تخص طائفته فإنه يغمض عينيه ويتذرع بالجهل وعدم الاختصاص، ويرفض أن يشغل عقله قليلاً، ويفضل أن ينام على ما ورثه من خرافات وأساطير » (٤).

(١) انظر: أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٢٠٦).

(٢) د. عذاب محمود الحمض: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية دراسة حديثة نقدية (ص ٤٤٣ - ٤٧٧).

(٣) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٢٠٥).

(٤) المصدر السابق (ص ٢٠٦).

وهذا ينطبق على الشيعة في عقيدة المهدي المنتظر، فإن « من يطلع على التراث الشيعي الضخم في مجال الرواية والدراية ويرى اعتناء العلماء منذ القرون الأولى بتقييم الرواة ودراسة الأحاديث وغربلتها وتمييز القوي من الضعيف... يصاب بالدهشة لإهمال العلماء طوال التاريخ لدراسة الروايات التاريخية الواردة حول إثبات ولادة ووجود الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري، واعتمادهم في ذلك على قاعدة ما أنزل الله بها من سلطان تقول: (الضعيف يقوي بعضه بعضاً) واعتبار مسألة الولادة والوجود أمراً مفروغاً منه مسلماً، لا يحتاج إلى مراجعة أو نقاش » (١).

ولذلك استخدموا الطرق الفلسفية الكلامية، و « أراحوا أنفسهم من تهمة الاعتماد على هكذا روايات ضعيفة، وقالوا في البداية: إننا ثبت وجود الإمام الثاني عشر بالطرق الفلسفية العقلية الاعتبارية النظرية، ولسنا بحاجة إلى الروايات التاريخية، وإنما نأتي بها من باب الإسناد والتعزيد والتأييد، وألقوا عن أنفسهم عناء المناقشة العلمية لتلك الروايات والتأكد من سندها والنظر في متنها » (٢).

« لقد أنفق محقق كبير مثل السيد مرتضى العسكري سنوات طويلة من عمره لكي يثبت في مجلدين أو ثلاثة أن عبد الله بن سبأ أسطورة وهمية اختلقها بعض المؤرخين... ولكنه لم يبذل واحداً بالمئة أو الألف من تلك الجهود لبحث حقيقة وجود الإمام الثاني عشر أو يدرس تلك الروايات التي تتحدث عن ولادته » (٣).

ويعلل الاثنا عشرية الغموض الناتج عن تناقض الروايات التي تتحدث عن المهدي بالجال السياسية والاضطهاد الذي كان يهدد وجوده، ويستغلون هذا الغموض لترسيخ هذه العقيدة ذاتها؛ حيث يلقون شخصية المهدي المنتظر بالهيبة والعظمة، فله عدة أسماء: (المهدي، محمد، القائم، الغائب، صاحب الدار، الحجة، صاحب الزمان، الخائف، الخلف، الناحية المقدسة).

ولا يصح بحالة من الأحوال أن ينادى المهدي المنتظر باسمه: فعن داود بن القاسم قال: سمعت أبا الحسن عليه السلام يقول: الخلف من بعدي الحسن فكيف لكم بالخلف من

(١) المصدر السابق (٢٠٤، ٢٠٥).

(٢) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٢٠٤).

(٣) أحمد الكاتب: تطور الفكر الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه (ص ٢٠٥)، وانظر الفكرة ذاتها:

د. عذاب محمود الحمش: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية، دراسة حديثة نقدية (ص ٤٢٢).

بعد الخلف؟ فقلت: ولم جعلني الله فداك؟ فقال: إناكم لا ترون شخصه ولا يحلّ لكم ذكره باسمه، فقلت: فكيف نذكره؟ فقال: قولوا: الحجّة من آل محمّد ﷺ» (١).
ويروون عن الصادق أنه قال: «صاحب هذا الأمر لا يسمّيه باسمه إلا كافراً» (٢).
ولذلك لا عجب أن الكليني بعد أن ذكر آباءه بأسمائهم سماه (صاحب الدار)،
وعندما أراد ذكر اسمه ذكر حروفه مقطعة (م ح م د) (٣). وهذا التقديس في حق
المهدي لم يطلب في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. بل إن النبي الخاتم ﷺ ذكر
اسمه محمد بالقرآن بلفظ صريح واضح.
وللمهدي صفات أسطورية خاصة لا توجد عند باقي البشر، فشر صدر الإمام
الغائب أخضر:

عن ضوء بن عليّ العجليّ عن رجلٍ من أهل فارس سمّاه، قال: أتيت سامراء ولزمت
باب أبي محمّد ﷺ.... فكشفت عن غلامٍ أبيض حسن الوجه وكشف عن بطنه فإذا
شعرٌ نابتٌ من لبتّه إلى سرتّه أخضر ليس بأسود فقال: هذا صاحبكم، ثم أمرها فحملته،
فما رأيتّه بعد ذلك حتّى مضى أبو محمّد ﷺ» (٤).

الخلافة في المهدي هل هو الثالث عشر أم الثاني عشر؟

تعتقد الشيعة الاثني عشرية أن أئمتهم اثنا عشر إماماً، أولهم علي وأخبرهم المهدي
المنتظر، ويحتجّ الاثنا عشرية على أهل السنة بأن هذا العدد قد ورد في روايات أهل
السنة كما ورد في روايات الشيعة، وقد صح عند أهل السنة عن جابر بن سمرة قال:
«يكون اثنا عشر أميراً... كلهم من قريش» هذا لفظ البخاري (٥)، وفي صحيح مسلم
عن جابر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر
خليفة»... «كلهم من قريش». وفي رواية: «لا يزال هذا الدين عزيزاً منيعاً إلى اثني
عشر خليفة»، وفي لفظ آخر: «لا يزال أمر الناس ماضياً ما وليهم اثنا عشر رجلاً» (٦)،

-
- (١) أصول الكافي (٣٨٦/١) كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص على أبي محمد - الحسن العسكري - .
(٢) أصول الكافي (٣٩٢/١) كتاب الحجّة، باب النهي عن الاسم.
(٣) أصول الكافي (٣٨٦/١) كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص إلى صاحب الدار (ع).
(٤) أصول الكافي (٣٨٨/١) كتاب الحجّة، باب في تسمية من رآه (ع).
(٥) صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب الاستخلاف (١٢٧/٨).
(٦) صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش (١٤٥٣، ١٤٥٢/٢).

وعند أبي داود: « لا يزال هذا الدين قائمًا حتى يكون عليكم اثنا عشر خليفة، كلهم مجتمع عليهم الأمة » (١).

« وكلّ هذه الأوصاف لا تنطبق على من تدعى الاثنا عشرية فيهم الإمامة، فلم يتولّ الخلافة منهم إلا أمير المؤمنين علي والحسن مدّة قليلة، ولم تجتمع في عهدهما الأمة، كما لم يقم أمر الأمة في مدة أحد من هؤلاء الاثني عشر - في نظر الشيعة أنفسهم - بل ما زال أمر الأمة فاسدًا » (٢).

وقد وقع خلاف في روايات الشيعة حول المهدي؛ من هو ومن يكون، فقد روي عن علي الهادي - جد المهدي المنتظر على حسابهم - قال: « أبو محمد: ابني، الحسن العسكري - أنصح آل محمد غريزة، وأوثقهم حجة، وهو الأكبر من ولدي، وهو الخلف، وإليه ينتهي عرى الإمامة وأحكامها » (٣). هذا دليل على أنه لا إمام بعد الحسن العسكري الحادي عشر.

وكذلك ورد في كتاب سليم بن قيس أن عدد الأئمة ثلاثة عشر إمامًا (٤). وكذلك ورد في أصول الكافي ما يدل على أن عدد الأئمة ثلاثة عشر إمام: عن أبي جعفر قال: قال رسول الله ﷺ: « إني واثنني عشر إمامًا من ولدي وأنت يا علي زرّ الأرض - يعني أوتادها وجبالها - بنا أوتد الله الأرض أن تسيخ بأهلها، فإذا ذهب الاثنا عشر من ولدي ساخت الأرض بأهلها ولم ينظروا » (٥).

وهذا الحديث لم يذكر عليًا عليه السلام ضمن الأئمة الاثني عشر، مع أن الشيعة يعدّونه أول الأئمة الاثني عشر، ويكون عددهم معه ثلاثة عشر إمامًا.

وقد جاء الطوسي بعد الكليني فروى هذا الحديث بما يرفع الإشكال، فغير العدد الذي فيه إلى ما يتفق مع اعتقاد الشيعة: « إني وأحد عشر من ولدي » (٦) وهذا تحريف واضح للرواية.

(١) سنن أبي داود، أوّل كتاب المهدي (٤٧١/٤).

(٢) د. ناصر بن عبد الله الغفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢/٨١٥، ٨١٦). ويفسر ابن تيمية: منهاج السنة (٤/٢٠٦)، الحديث بأن هؤلاء الخلفاء هم الخلفاء الراشدون الأربعة - رضوان الله عليهم - ثم من جاء بعدهم من الأمويين إلى زمن الخليفة عمر بن عبد العزيز عليه السلام. وبعد ذلك حصل النقص.

(٣) الكليني: الكافي (١/٣٢٧). بتحقيق غفاري.

(٤) انظر: هاشم معروف الحسني: دراسات في الحديث والمحدثين (ص ١٩٧).

(٥) الكليني: الكافي (١/٥٣٤). (٦) الغيبة (ص ٩٢).

وكذلك فإن اسم المهدي المنتظر عند الشيعة يختلف عن الاسم الذي تذكره بعض روايات السنة والشيعة، فقد جاء في الحديث: « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً »^(١)، والرسول ﷺ كما هو معلوم اسمه: محمد بن عبد الله، والمهدي عندهم اسمه محمد بن الحسن، فكيف يكون اسمه على اسم النبي، واسم أبيه على اسم أبي النبي ﷺ؟!

حاول أبو الحسن الأربيلي حل هذه الإشكالية فقال: « كان لرسول الله ﷺ سبطان أبو محمد الحسن وأبو عبد الله الحسين، ولما كان الحجة من ولد الحسين أبي عبد الله - الحجة يعني المنتظر من أولاد الحسين أبي عبد الله - وكانت كنية الحسين أبا عبد الله، فأطلق النبي ﷺ على الكنية لفظ الاسم، لأجل المقابلة بالاسم في حق أبيه، وأطلق على الجد لفظة الأب، فكأنه قال: اسمه اسمي فأنا محمد وهو محمد، وتواطئ كنية جده - الحسين هو أبو عبد الله »^(٢). ولعمر الحق! لو سار الناس في التعريف بأسمائهم على قول الأربيلي لما استقر اسم إنسان، وصارت الأسماء ألغوبة على ألسنة البشر!

ومن الإشكالات أيضاً أنه ورد في نصوص الشيعة أن المهدي ليس واحداً، بل هناك عدد من المهديين: فقد ورد: « يا علي، إنه سيكون بعدي اثنا عشر إماماً، من بعدهم اثنا عشر مهدياً »^(٣).

(١) رواه بهذه اللفظ أبو داود، كتاب المهدي، رقم (٤٢٨٢)، وسنده حسن. وابن حبان في صحيحه (٢٣٦/١٥). والحاكم: المستدرک (٤٨٨/٤)، ورواه من الشيعة بهذه الصيغة: ابن طائوس (ت ٦٦٤ هـ): الملاحم والفتن (ص ٢٨٢)، القاضي النعمان المغربي (ت ٣٦٣ هـ): شرح الأخبار (٣/٣٨٦). وقال محققه محمد الحسيني الجلالي: ومن الملاحظ أن الحديث الذي نقله صاحب عقد الدرر لم يكن فيه جملة (يواطئ اسمه اسمي، واسم أبيه اسم أبي) ولكن الذي لا يمكن إنكاره كثرة الأحاديث الواردة والمتضمنة لهذه الجملة. ورواه فقط بلفظ: (يواطئ اسمه اسمي) دون (واسم أبيه اسم أبي) الترمذي، كتاب الفتن، باب المهدي، رقم (٢٢٣٠)، وأحمد في مسنده (٣٧٦/١). ومن الشيعة: الفتنال النيسابور في روضة الواعظين (ص ٢٦١). وقال الكنجي في كفاية الطالب (ص ٤٨٥): « ولا يرتاب لليبب أن هذه الزيادة لا اعتبار بها مع اجتماع الأئمة على خلافها ». وانظر: بحار الأنوار (١٠٣/٥١).

(٢) كشف الغمة في معرفة الأئمة (٤٤٣/٢).

(٣) الغيبة (ص ٩٧)، علي بن يونس العاملي: الصراط المستقيم (١٥٢/٢).

ولادة المهدي:

وقد ورد في الكافي: أنه « لما مات الحسن العسكري سنة ستين ومائتين ضجت (سرّ من رأى) ضجة واحدة: مات ابن الرضا، وبعث السلطان إلى داره من يفتشها ويفتش حجرها وختم على جميع ما فيها، وطلبوا أثر ولده، وجاؤوا بنساء يعرفن الحمل، فدخلن إلى جواريه ينظرن إليهن فذكر بعضهن أن هناك جارية بها حمل، فوضعت تلك الجارية في حجرة ووكّل بها بعض النسوة، ثم أخذوا بعد ذلك في تهيئته... فلما فرغوا من ذلك بعث السلطان إلى أبي عيسى بن المتوكل للصلاة عليه، فلما دنا أبو عيسى منه كشف عن وجهه فعرضه على بني هاشم من العلوية والعباسية والقواد والكتاب... ثم قال: هذا الحسن بن علي بن محمد الرضا، مات حتف أنفه على فراشه، حضره من حضره من خدم أمير المؤمنين وثقاته.. ثم صلى عليه.. وبعد دفنه أخذ السلطان والناس في طلب ولده وكثر التفتيش في المنازل والدور، وتوقفوا عن قسمة ميراثه، ولم يزل الذين وكلوا بحفظ الجارية التي وهم عليها الحمل ملازمين لها حتى تبين بطلان الحمل، فلما بطل الحمل عنهن قسم ميراثه بين أمه وأخيه جعفر» (١).

وهذه الرواية يستشهد بها الاثنا عشرية ليثبتوا وفاة الحسن العسكري، ولكن الرواية نفسها تذكر عقمه وعدم وجود مولود له، وتقسم ميراثه بين أمه وأخيه جعفر، ولكن الشيعة لا يأخذون بهذا الشطر من الرواية، فيثبتون وجود مولود ذكّر للحسن العسكري. فقد جاء في رواية أخرى أن أحد رجال الشيعة - وهو أحمد بن إبراهيم - توجه سنة (٢٦٢ هـ) - أي بعد وفاة الحسن العسكري بستين - إلى بيت الحسن العسكري وسأل خديجة بنت محمد بن علي الرضا عن ولد الحسن العسكري، فأكدت وجود وليّ للحسن، وسمّته له فقال: « فأين الولد؟ قالت: مستور، فقلت: إلى من تفرع الشيعة؟ قالت: إلى الجدة أم أبي محمد عليه السلام » (٢).

وهذه الرواية وأمثالها لم تقنع معظم الناس حتى من الشيعة أنفسهم « حتى قال بعضهم: إنا قد طلبنا الولد بكل وجه فلم نجده، ولو جاز لنا دعوى أن للحسن ولداً خفياً لجاز مثل هذه الدعوى في كل ميت من غير خلف » (٣).

(١) أصول الكافي (٥٠٥/١)، إكمال الدين (ص ٤١، ٤٢).

(٢) الغيبة للطوسي (ص ١٣٨).

(٣) المقالات والفرق (ص ١١٤، ١١٥)، فرق الشيعة (ص ١٠٣، ١٠٤).

ولذلك كثرت فرقههم بعد موت الإمام الحسن العسكري، فقد ذكر القمي والنوبختي من كتاب فرق الشيعة أنهم افترقوا من بعده إلى فرق عديدة أنكر أكثرها وجود الولد أصلاً^(١).

ولما كان جعفر أخو الحسن العسكري قد أنكر وجود عقب لأخيه، ولذلك اقتسم مع والدته ميراثه، كان محل تكذيب وتشنيع عظيمين، يقول الطوسي: « لانفاق الكل على أن جعفرًا لم يكن له عصمة كعصمة الأنبياء، فيمتنع عليه لذلك إنكار حق ودعوى باطل، والغلط غير ممتنع منه »^(٢). وهكذا ينكر الطوسي خبر جعفر لعدم عصمته، فهل هذه حجة صحيحة؟ وهل كانت خديجة بنت علي الرضا التي أثبتت ولادة المهدي معصومة؟ وهل كان النواب الأربعة - الذين زعموا النيابة عن المهدي الغائب - معصومين؟! ولموقف جعفر المتميز ضد محاولات الرموز الشيعية اختراع ولد لأخيه الحسن؛ ضاق الشيعة ذرعًا به، حتى لقبوه بـ (جعفر الكذاب)^(٣)، ويرى الدكتور ناصر القفاري أنه قد يكون شيوع إطلاق لقب (الصادق) على جعفر بن محمد الباقر، وتمييزه بذلك بين آبائه وأقرانه مصدره الشيعة، نكاية بحفيده جعفر^(٤).

كما وضعوا روايات نسبوها إلى النبي ﷺ، تزعم أنه هو الذي سُمي الأول جعفر ابن محمد بالصادق وسمى الثاني حفيده جعفر بالكذاب، وتنبأ بما سيفعل من إنكار إمامة ابن أخيه، حيث تقول الرواية عنه ﷺ: « إذا ولد ابني جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبي طالب فسموه الصادق، فإن كان الخامس من ولده اسمه جعفر يدعي الإمامة اجترأ على الله وكذبًا، فهو عند الله جعفر الكذاب المفتري على الله ﷻ، والمدعي ما ليس له بأهل، يخالف على أبيه، والحاسد لأخيه، ذلك الذي يروم كشف ستر الله عند غيبة ولي الله ﷻ »^(٥).

كما زعموا روايات نسبت لأوائل أهل البيت تندد بجعفر، تقول الرواية: « كأني بجعفر الكذاب قد حمل طاغية زمانه، على تفتيش أمر ولي الله المغيب في حفظ الله جهلاً

(١) المقالات والفرق (ص ١٠٢ - ١١٦)، فرق الشيعة (ص ٩٦ - ١١٢). وانظر: الدكتور القفاري: مذهب الشيعة (١٠٩٤/٢).

(٢) الغيبة (ص ٧٥).

(٣) انظر: ابن بابويه: إكمال الدين (ص ٣١٢)، سفينة البحار (١/١٦٢)، مقتبس الأثر (٣١٤/١٤).

(٤) د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٩٦/٢).

(٥) الصدوق: إكمال الدين (ص ٣١٩).

منه بولادته، وحرصًا على قتله إن ظفر به؛ طمعًا في ميراث أبيه حتى يأخذه بغير حقه» (١).
مع أنه لم يكن جعفر وحيدًا في إنكاره لوجود ولد للحسن العسكري، بل يظهر من روايات الشيعة أن الإنكار كان من أهل بيت الحسن العسكري أنفسهم وبني عمومتهم، فقد جاء في توقيع عن المنتظر عندهم يقول: «أما ما سألت عنه أرشدك الله من أمر المنكرين لي من أهل بيتنا وبني عمنا. فاعلم أنه ليس بين الله ﷻ وبين أحد قرابة، ومن أنكرني فليس مني، وسبيله سبيل ابن نوح، وأما سبيل عمي جعفر وولده فسبيل أخوة يوسف..» (٢).

وهكذا نرى من خلال روايات الاثني عشرية أنفسهم كثرة الشكوك في المهدي، ترى ألا تعذر الأمة إن لم تعتقد بوجوده؟
علة اختفاء المهدي:

تذكر الروايات أن للإمام غيبة صغرى وكبرى، فالصغرى تبدأ من ولادته (منتصف شعبان ٢٥٥ هـ)، وتنتهي في بداية غيبته الكبرى التي بدأت في (١٥ شعبان ٣٢٨ هـ)، وما تزال مستمرة حتى اليوم، فما علة هذا الاختفاء؟
يروى الشيعة عن جعفر الصادق أنه قال: «إن للقائم الغيبة قبل أن يقوم، قلت: ولم؟ قال: إنه يخاف، وأوماً بيده إلى بطنه، يعني القتل» (٣).

وهذا ما أكدته أقوال علماء الاثني عشرية، قال الطوسي: «لا علة تمنع من ظهوره إلا خوفه على نفسه من القتل؛ لأنه لو كان غير ذلك لما جاز له الاستتار» (٤).

ولكن فكرة الخوف بعيدة جدًا عن أخلاق أهل البيت، وحبهم للشهادة في سبيل الله، كحال الحسين - رضوان الله عليه - ويرد على تعليهم هذا أنه «قد توفر الأمن التام للإمام في أثناء قيام بعض الدول الشيعية فلماذا لم يخرج إليهم، ويأتسوا بطلعته، ويستفيدوا من علمه، وسلاحه، وقوته» (٥)، وقد قامت دول شيعية كثيرة كالفاطمية

(١) إكمال الدين (ص ٣١٢)، سفينة البحار (١٦٢/١).

(٢) إكمال الدين (ص ٤٥١)، الاحتجاج (٢٨٣/٢) ط: النجف (١٣٨٦ هـ)، و (ص ٤٦٩، ٤٧٠) ط: بيروت (١٤٠١ هـ)، سفينة البحار (١٦٣/١)، مقتبس الأثر (٣١٦/١٤).

(٣) أصول الكافي (٣٣٨/١)، الغيبة للنعماني (ص ١١٨)، إكمال الدين (ص ٤٤٩).

(٤) الغيبة (ص ٢٠٣).

(٥) انظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٣٨/٢ - ١٠٨١، ١٠٨٢).

والبوذية والقرامطة والصفوية، وكان آخرها الثورة الشيعية في إيران، والتي اتخذت من المذهب الاثني عشري هوية ومصدرًا، فلم لم يظهر الغائب؟

وتذكر بعض الروايات تعليلاً آخر، هو امتحان قلوب الشيعة: عن زرارة قال: سمعت أبا عبد الله يقول: « إن للغلام غيبة قبل أن يقوم.. وهو المنتظر وهو الذي يشك في ولادته، منهم من يقول: مات أبوه بلا خلف، ومنهم من يقول: حمل، ومنهم من يقول: إنه ولد قبل موت أبيه بستين وهو المنتظر، غير أن الله ﷻ يحب أن يمتحن الشيعة، فعند ذلك يرتاب المبطلون » (١).

سفر الإمام في الغيبة الصغرى:

تذكر نصوص الشيعة أن النيابة في الغيبة الصغرى منذ ولادته كانت أولاً عند جدته، كما ورد في رواية مرّت: « قلت لها: فأين الولد؟ قالت: مستور، فقلت: إلى من تفرع الشيعة؟ قالت: إلى الجدة أم أبي محمد ﷺ » (٢).

ثم جاءت نيابة الرجال الأربعة، حيث تذكر الروايات أن القائم الغائب كان يكتفي في الغيبة الصغرى بمراسلة أتباعه عن طريق أحد سفرائه الأربعة، الذين تولّى كل واحد منهم السفارة بعد موت صاحبه، وهؤلاء السفراء - حسب ترتيبهم الزمني - هم:

- عثمان بن سعيد العمري الأسدي (المشهور بالسّمّان لأنه كان يبيع السمن)، وهو أولهم، وكان وكيلاً للإمام الهادي، والإمام العسكري، ثم الإمام المهدي.
- ولده أبو جعفر، الحسين بن عثمان العمري، بقي في منصبه خمسين سنة (ت ٣٠٤ أو ٣٠٥ هـ).

- أبو القاسم، الحسين بن روح بن بحر النوبختي (ت ٣٢٦ هـ).

- علي بن محمد السمري (ت ٣٢٩).

ولكن هذه النيابة انتهت، إذ « لما حضرت السمري الوفاة سئل أن يوصي فقال: لله أمر هو بالغه. فالغيبة التامة هي التي وقعت بعد مضي السمري » (٣)، « وفيها انقطعت اتصالات السفارة بين الإمام وشيعته » (٤).

(١) أصول الكافي (٣٣٧/١).

(٢) الطوسي: الغيبة (ص ١٣٨). مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، (ط ١)، (١٤١١ هـ).

(٣) الطوسي: الغيبة (ص ٢٤١، ٢٤٢).

(٤) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٢٥٣).

وقد جاء في توقيع عن السمرى منسوب إلى المهدي: « بسم الله الرحمن الرحيم، يا علي بن محمد السمرى، اسمع أعظم الله أجر إخوانك فيك، فإنك ميت ما بينك وبين ستة أيام، فأجمع أمرك، ولا توص إلى أحد يقوم مقامك بعد وفاتك، فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بعد إذن الله - تعالى ذكره - وذلك بعد طول الأمد، وقسوة القلوب، وامتلاء الأرض جورًا » (١).

وقد كانت هناك دعاوى لوجود سفراء بلغوا العشرين، ولكن جاءت توقيعات بلعنهم جميعًا، وكل هذه التوقيعات تأتي باسم النواب الأربعة، وفي مقدمتهم عثمان العمري، تقول تلك التوقيعات: محمد بن علي بن بلال ملعون، الشلمغاني ملعون، العبرثائي ملعون،.. إلخ. وهكذا لعن العشرون، وبقي الأربعة، الذين وجدوا من الشيعة من يصدقهم.

وكان لهؤلاء السفراء الأربعة وكلاء يتهارشون ويتنافسون على المال حتى لعن بعضهم بعضًا، وادعى بعضهم السفارة للإمام المنتظر دون وساطة السفراء الأربعة، وأنكر بعضهم سفارة بعض. فهذا محمد بن علي الشلمغاني، كان وكيلًا عن النائب الثالث الحسين بن روح، ثم انشق عنه وادعى النيابة لنفسه، وقال: « ما دخلنا مع أبي القاسم الحسين بن روح في هذا الأمر إلا ونحن نعلم فيما دخلنا فيه، لقد كنا نتهارش على هذا الأمر كما تتهارش الكلاب على الجيف... فلم تلتفت الشيعة إلى هذا القول وأقامت على لعنه والتبرؤ منه » (٢).

ولذلك يرى بعض الباحثين أن كل أبواب المهدي المزعوم وسفرائه ومراسلاته أتباعه كذب فاضح كانت وراءه أيد خبيثة تخطط في الظلام لتمزيق هذه الأمة وإضلالها، أو كانت لعبة سياسية لصرف وحرف الشيعة المتحمسين الثائرين عن ثوراتهم وتحركاتهم ضد الحكام، تحت دعوى حرمة الخروج على الحاكم حتى ظهور المهدي المنتظر (٣).

ولما كان من المستحيل استمرار الكذب على كل الناس طول الزمان؛ خرج بعد إعلان انتهاء البابية على يد السمرى توقيع من توقيعات المهدي يقول: « أما الوقائع

(١) ابن بابويه: إكمال الدين (ص ٥١٦). الطوسي: الغيبة (ص ٢٥٧).

(٢) الطوسي: الغيبة (ص ٣٩٣)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٥٩/٥١).

(٣) د. عذاب محمود الحمض: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية، دراسة حديثة نقدية

الحادثة فارجعوا فيها إلى رواية حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله» (١)، وبهذا أعلن انقطاع الصلة المباشرة بالمهدي، وفوض أمر النياية عن المنتظر إلى علماء الاثني عشرية (رواية حديثهم وفقهائهم).

حيرة الشيعة في غيبة الإمام المهدي:

هناك نصوص تذكر شكوك وحيرة الشيعة حال غيبة إمامهم:

تنسب إحدى الروايات إلى جعفر الصادق قوله: « إن بلغكم عن صاحبكم غيبة فلا تنكروها » (٢). وفي رواية أخرى: « إن لصاحب هذا الأمر غيبة لا بد منها، يرتاب فيها كل مبطل، فقلت: ولم جعلت فداك؟ قال: لأمر لم يؤذن لنا في كشفه، فقلت فما وجه الحكمة في غيبته؟ قال: وجه الحكمة في غيبات من تقدمه من حجج الله - تعالى ذكره - إن وجه الحكمة في ذلك لا ينكشف إلا بعد ظهوره، كما لا ينكشف وجه الحكمة لما أتاه الخضر من حرق السفينة وقتل الغلام وإقامة الجدار لموسى وقت افتراقهما » (٣).

وسأله أحدهم فقال: « أنت صاحب هذا الأمر؟ فقال: لا، فقلت: فولدك؟ فقال: لا، فقلت: فولد ولدك؟ قال: لا، فقلت: فولد ولد ولدك؟ قال: لا، فقلت: فمن هو؟ قال: الذي يملأها عدلاً كما ملئت ظلمًا وجورًا، لعل فترة من الأئمة يأتي، كما أن النبي ﷺ بعث على فترة من الرسل » (٤).

وجاء في أخبارهم ما يدل على حيرتهم في شأن المهدي، تقول الرواية: « لا يكون الأمر الذي ينتظر حتى يبرأ بعضكم من بعض ويتفل بعضكم في وجوه بعض، فيشهد بعضكم على بعض بالكفر ويلعن بعضكم بعضًا » (٥). فانظر إلى اللطف في الكفر واللعن! مع أن رواياتهم تخبر أن المخلصين من أتباعه لن يرتابوا، تقول الرواية: « لو علم الله أنهم يرتابون ما غيب حجته طرفه عين » (٦).

(١) الكافي، مع شرحه مرآة العقول (٥٥/٤)، إكمال الدين (ص ٤٥١)، الطوسي: الغيبة (ص ١٧٧)، الطبرسي: الاحتجاج (ص ١٦٣)، وسائل الشيعة (١٠١/١٨).

(٢) النعماني (محمد بن إبراهيم): الغيبة (ص ١٨٦).

(٣) انظر: إبراهيم الموسوي الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ١٥٢). وقد نسب الرواية لنصير الطوسي في تجريد العقائد.

(٤) شرح المازندراني (٢٣٣/٦).

(٥) النعماني: الغيبة (ص ١٣٧، ١٣٨)، بحار الأنوار (١١٤/٥٢، ١١٥).

(٦) أصول الكافي (٣٣٣/١)، النعماني: الغيبة (ص ١٠٧).

وخوف ملالة الأتباع من الوعود على مَرّ العهود فقد جعلت الروايات انتظار المهدي من أحب الأعمال إلى الله، ولذلك فـ « المنتظرون لظهوره أفضل أهل كل زمان »^(١)، وجعلت لمن مات مؤمناً بالإمام حيث غيبته أجر ألف شهيد من البدرين!! فقد رواه عن علي بن الحسين قال: « من ثبت على موالاتنا في غيبة قائمنا أعطاه الله ﷻ أجر ألف شهيد من شهداء بدرٍ وأحد »^(٢)!!

ومن أجل تثبيت قلوب الأتباع والرد على مخالفيهم، قام علماء الشيعة بقياس غيبة الإمام على غيبات الأنبياء، فقد قال بهاء الدين النجفي: « أما علموا أن الله تعالى أخفى شخص إبراهيم ﷺ وولادته في زمن نمروذ (حتى كان نمروذ) يقتل أولاد رعيته في طلبه، فلما علم الله حصول المصلحة في إظهاره أظهره الله تعالى، كما هو المشهور في قصته، ثم أنجاه من النار بقدرته. وكذلك موسى ﷻ وحكايته مشهورة، وفي القرآن المجيد مذكورة. وكذا يوسف ﷻ مع قرب موضعه من أبيه، وظهوره بعد خفائه... وأقرب الأحوال شبهها بأحواله في تقلبه وتصرفه وانتقاله، أحوال موسى ﷻ »^(٣).

وقد رصدوا لهذا القياس روايات منها: « عن أبي عبد الله ﷻ قال: إن للقائم منا غيبة يطول أمدها. فقلت له: يا ابن رسول الله! ولم ذلك؟ قال: لأن الله ﷻ أبى إلا أن تجري فيه سنن الأنبياء في غيبتهم، وإنه لا بد له يا سدير! من استيفاء مدد غيبتهم، قال الله تعالى: ﴿ لَتَرْكَبَنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴾ [الانشقاق: ١٩] »^(٤).

وعندما ووجه الشيعة بمن يستغرب حياة المهدي طول هذه الفترة الطويلة، التي ما زالت تمتد حتى اليوم، استخدم بعض كتابهم المعاصرين شيئاً من المبالغات التي صاغوها بقوالب علمية، أسندوها إلى بعض كتّاب الغرب، يقرر محمد حسين آل كاشف الغطا أن « أكابر فلاسفة الغرب قالوا بإمكان الخلود في الدنيا للإنسان.. قال بعض كبار علماء أوروبا: لولا سيف ابن ملجم لكان علي بن أبي طالب من الخالدين؛ لأنه قد جمع جميع صفات الكمال والاعتدال »^(٥)!!، كما قاسوا بقاء مهديهم على

(١) بحار الأنوار (١٢٢/٥٢) وانظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٤٢/٢).

(٢) كمال الدين وتمام النعمة (ص ٣١٥)، بحار الأنوار (١٢٥/٥٢).

(٣) السيد بهاء الدين النجفي: منتخب الأنوار المضيئة (ص ١٢٨، ١٢٩).

(٤) كمال الدين وتمام النعمة (ص ٤٨١). والحقيقة أن تفسير الآية بهذا الشكل فيه تعسف وتلاعب.

(٥) محمد حسين آل كاشف الغطا: أصل الشيعة (ص ٧٠).

بقاء عيسى ابن مريم عليه السلام (١)، بل إن بعضهم عقد المقارنة بين حياة المهدي طول هذه المدة بإبليس الذي أنظره الله إلى يوم يعثون! (٢).

وعلى كل فإن تعليقات الشيعة القديمة والحديثة لم تجد نفعا، فقد بقي من الشيعة من يشك في غيبة المهدي، وخصوصاً في القرون الأولى لغيبته، وقد بين ذلك الشيخ الصدوق في كتابه (كمال الدين وتمام النعمة)، حيث يقول: «إن الذي دعاني إلى تصنيفي هذا أني لما قضيت وطري من زيارة مولانا الإمام أبي الحسن الرضا - صلوات الله عليه - رجعت إلى نيسابور وأقمت فيها، فوجدت أكثر المختلفين إلي من الشيعة قد حيرتهم الغيبة، ودخلت عليهم في أمر القائم عليه السلام الشبهة، وعدلوا عن طريق الحق» (٣). ويقول صاحب كتاب الغيبة: «أي حيرة أعظم من هذه الحيرة التي أخرجت من هذا الأمر الخلق الكثير والجم الغفير؟ ولم يبق عليه ممن كان فيه إلا النزر اليسير، وذلك لشك الناس وضعف يقينهم، وقلة ثباتهم على صعوبة ما ابتلي به المخلصون» (٤).

ثم كيف يختلف الناس في المهدي وهو صاحب الشأن العظيم، وقد ورد من النصوص أن الله تعالى يحفظ أوليائه من الريبة فيه؟!

عن الفضل بن عمر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «أقرب ما يكون العباد من الله - جلّ ذكره - وأرضى ما يكون عنهم، إذا افتقدوا حجة الله - جلّ وعزّ - ولم يظهر لهم ولم يعلموا مكانه، وهم في ذلك يعلمون أنه لم تبطل حجة الله - جلّ ذكره - ولا ميثاقه، فعندها فتوقّعوا الفرج صباحاً ومساءً، فإن أشد ما يكون غضب الله على أعدائه إذا افتقدوا حجته ولم يظهر لهم، وقد علم أنّ أوليائه لا يرتابون، ولو علم أنّهم يرتابون ما غيب حجته عنهم طرفة عين، ولا يكون ذلك إلا على رأس شرار الناس» (٥).

كما استثمر بعضهم فكرة غياب المهدي للطعن على الأمة المسلمة، ممثلة بالصحابة رضوان الله عليهم والتابعين ومن تبعهم بإحسان، «فيوجهون هذا الحقد الناتج من هذا الشعور إلى سب ولعن خير جيل عرفته البشرية»، فيقولون: إن «الإمام الغائب مقموع مقهور مزاحم في حقه، قد غلب قهراً» (٦)، وأنه بسبب غيبته - كما يزعمون - «جرى

(١) عقائد الإمامية (ص ١٠٨).

(٢) الحائري: إلزام الناصب (٢٨٣/١).

(٣) كمال الدين وتمام النعمة (ص ٣).

(٤) النعماني: كتاب الغيبة، المقدمة.

(٥) أصول الكافي (٣٩٢/١)، كتاب الحجّة باب نادر في حال الغيبة، سكت عن درجته المحقق.

(٦) كمال الدين (ص ١٢).

على شيعته من أعداء الله ما جرى من سفك الدماء ونهب الأموال..» (١). قال الجزائري: «إني كلما أشكلت عليّ مسألة أوجبت على نفسي لعنهم؛ لأنهم سبب في استتار الحجة» (٢).

ادعاء لقاء المهدي في غيبته الكبرى:

جاء في توقيع عن السمري - آخر النواب - عن المهدي المنتظر يمنع اللقاء به بعد الغيبة الكبرى، إذ يقول: «.. وسيأتي من شيعتي من يدعي المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفيناني والصيحة فهو كذاب مفتر» (٣). وهذا يعني أن لقاء المهدي قد انقطع بالغيبة الكبرى سنة (١٣٢٩ هـ).

ولكن شيوخ الشيعة - فيما بعد - لم تقتنع بالإعلان عن الانقطاع التام عن المنتظر، وكثرت الدعاوى عندهم في الاتصال بالمنتظر، ولقائه والأخذ عنه (مع أن النص يقطع بكذب وافتراء مدعي المشاهدة واللقاء) فما هو شيخهم ابن المطهر الملقب بالعلامة يدعي اللقاء بالمهدي، وأنه نسخ له كتاباً في ليلة واحدة (٤).

ويستدل هؤلاء على استمرار المشاهدة للمهدي بنص أورده الكليني في الكافي: «لا بد لصاحب هذا الأمر من غيبة، ولا بد له في غيبته من عزلة، وما بثلاثين من وحشة» (٥)، ويفسر النوري الطبرسي هذا النص بأنه: في «كل عصر يوجد ثلاثون مؤمناً وليّاً يتشرفون بلقائه» (٦)، بل قالوا: إن بعض المجتهدين يتمكن من لقاء الغائب يأخذ منه بعض الأحكام الشرعية، وقد لا يستطيع أن يعلن عن هذا اللقاء؛ لأمر الإمام له بالكتمان، فهو حينئذ يدعي حصول الإجماع على هذا الحكم، وإن لم يوجد إجماع في الحقيقة (٧).

وقد ألف بعض شيوخهم مصنفات في حكايات وأحداث من اجتمع بهذا المنتظر، كما فعل المجلسي (ت ١١١١ هـ) في البحار، ثم جاء بعده النوري الطبرسي (ت ١٣٢٠ هـ)

(١) كمال الدين (ص ١٢). وانظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٠٤٥/٢).

(٢) شرح الصحيفة السجادية (ص ٣٧).

(٣) ابن بابويه: كمال الدين (ص ٥١٦)، الطوسي: الغيبة (ص ٢٥٧).

(٤) بحار الأنوار (٣٦١/٥١).

(٥) النوري الطبرسي: جنة المأوى (٣٢٠/٥٣) (مطبوع مع بحار الأنوار).

(٦) المرجع السابق نفسه.

(٧) النوري الطبرسي: جنة المأوى (٣٢٠/٥٣).

فكتب في ذلك كتاباً سماه « جنة المأوى فيمن فاز بلقاء الحجة ومعجزاته في الغيبة الكبرى »، وقد أورد فيه تسعاً وخمسين حكاية، فيها دعوى اللقاء بالمنتظر^(١).

وتدعي بعض روايات الشيعة ظهور المهدي لأفراد من الشيعة في موسم الحج:

عليّ بن محمّد عن أبي أحمد بن راشد عن بعض أهل المدائن قال: « كنت حاجّاً مع رفيق لي فوافينا إلى الموقف، فإذا شابّ قاعدٌ عليه إزارٌ ورداءٌ وفي رجله نعلٌ صفراء، قومت الإزار والرداء بمئة وخمسين ديناراً وليس عليه أثر السفر، فدنا منّا سائلٌ، فرددناه، فدنا من الشابّ، فسألته، فحمل شيئاً من الأرض وناوله، فدعا له السائل واجتهد في الدعاء وأطال، فقام الشابّ وغاب عنّا، فدنونا من السائل فقلنا له: ويحك ما أعطاك؟ فأرانا حصاة ذهبٍ مضرّسةً قدرناها عشرين مثقالاً، فقلت لصاحبي: مولانا عندنا ونحن لا ندري! ثمّ ذهبنا في طلبه فدرنا الموقف كلّه فلم نقدر عليه، فسألنا كلّ من كان حوله من أهل مكة والمدينة، فقالوا: شابّ علويّ يحجّ في كلّ سنة ماشياً »^(٢).

وقد أورد الكليني هذا الخبر في باب (باب في تسمية من رآه عليه السلام - أي المهدي -) ولا يوجد فيه دليل على أن هذا الشخص هو الإمام المنتظر، ولكن كثرة التفكير من الشيعة به جعلهم يجزمون بأنه هو. وهذا يذكرنا ببعض الأحداث والقصص التي ينسبها بعض الناس للخضر عليه السلام.

الخلافة في التوقيت لخروج المهدي المنتظر:

وتختلف روايات الاثني عشرية اختلافاً بيناً في التوقيت لخروج المهدي المنتظر:

عن الأصبغ بن نباتة: «.. فقلت يا أمير المؤمنين وكم تكون الحيرة والغيبة؟ قال ستّة أيّامٍ أو ستّة أشهرٍ أو ستّ سنين... فقلت: ثمّ ما يكون بعد ذلك، فقال: ثمّ يفعل الله ما يشاء، فإنّ له بداءاتٍ وإراداتٍ وغاياتٍ ونهاياتٍ »^(٣).

قال المازندراني مرتباً في شرح هذه الرواية: « أي تقديرات متعددة في أوقات الزمان وإرادات حادثة إن شاء أظهره وإن شاء أخفاه بحسب المصالح المعلومة له تعالى، ولتقديراته وإراداته غايات ونهايات »^(٤).

(١) انظر: أغا بزرك: الذريعة (١٥٩/٥).

(٢) أصول الكافي (٣٩١/١) كتاب الحجة، باب في تسمية من رآه (ع).

(٣) أصول الكافي (٣٩٧/١) كتاب الحجة، باب في الغيبة.

(٤) شرح المازندراني (٢٣٣/٦).

وتبين إحدى الروايات أن خروج المهدي بعيد، ولكن المصلحة تقتضي أن يعلل الأتباع بقرب الفرج: عن « علي بن يقطين قال: قال لي أبو الحسن عليه السلام: الشيعة ترى بالأمانتي منذ مائتي سنة. قال: وقال يقطين لابنه علي بن يقطين: ما بالنا قيل لنا فكان، وقيل لكم فلم يكن؟ قال: فقال له علي: إن الذي قيل لنا ولكم كان من مخرج واحد، غير أن أمركم حضر فأعطيتم محضه فكان كما قيل لكم، وإن أمرنا لم يحضر فعلننا بالأمانتي، فلو قيل لنا: إن هذا الأمر لا يكون إلا إلى مائتي سنة أو ثلاثمائة سنة، لقسست القلوب، ولرجع عامة الناس عن الإسلام، ولكن قالوا: ما أسرعه وما أقربيه؛ تألفا قلوب الناس وتقريباً للفرج » (١). وهذا نص عجيب، إذ ينسب روايات الأئمة إلى الكذب، وهذه الوسيلة الدنيئة مبررة بالغاية النبيلة: تهدئة قلوب الشيعة وتثبيتهم على عقيدة الإمام الغائب.

وهناك رواية تعلق اختلاف التاريخ بغضب الله تعالى على أهل الأرض:

عن أبي حمزة الثمالي قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يقول: « يا ثابت إن الله - تبارك وتعالى - قد كان وقت هذا الأمر في السبعين، فلما أن قتل الحسين - صلوات الله عليه - اشتد غضب الله تعالى على أهل الأرض، فأخره إلى أربعين ومائة، فحدثناكم فأذعتم الحديث فكشفتهم قناع الستر ولم يجعل الله له بعد ذلك وقتاً عندنا و ﴿يَمَحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩] قال أبو حمزة: فحدثت بذلك أبا عبد الله عليه السلام فقال: قد كان كذلك » (٢).

وجاء في كتاب سليم بن قيس: « ثم استمر طيلة أربعة عشر قرناً حتى يبعث الله الإمام المهدي الذي يقوم بإذن الله من عند بيت الله الحرام، وينتقم من مخربي بيت النبوة في مدينة الرسول ﷺ » (٣).

وبسبب تناقض تلك الروايات جاءت رواية تتهم كل من يؤقت لخروج القائم بالكذب: عن عبد الرحمن بن كثير قال: « كنت عند أبي عبد الله عليه السلام إذ دخل عليه مهزماً فقال له: جعلت فداك أخبرني عن هذا الأمر الذي ننتظر متى هو؟ فقال: يا مهزوم كذب الوقتون، وهلك المستعجلون ونجا المسلمون » (٤).

(١) أصول الكافي (٤٣٠/١) كتاب الحجّة، باب كراهية التوقيت، وانظر: الغيبة للنعماني (ص ١٩٨)،

الغيبة للطوسي (ص ٢٠٧، ٢٠٨)، بحار الأنوار (١٠٢/٥٢).

(٢) أصول الكافي (٤٢٩/١) كتاب الحجّة، باب كراهية التوقيت.

(٣) كتاب سليم بن قيس (ص ٤٨٣)، تحقيق محمد باقر الأنصاري.

(٤) أصول الكافي (٤٢٩/١) كتاب الحجّة، باب كراهية التوقيت.

والحقيقة أن فكرة الغيبة الطويلة لم ترد في مذهب الأئمة الأوائل، فقد أنكرها بعضهم، فقد جاء في (رجال الكشي) أن علياً الرضا قيل له: إن قومًا وقفوا على أبيك ويزعمون أنه لم يميت، قال: «كذبوا وهم كفار بما أنزل الله ﷻ على محمد ﷺ، ولو كان الله يمد في أجل أحد لمد الله في أجل رسول الله ﷺ» (١).

كما أنها مرفوضة في كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، فقد قال سبحانه وتعالى للنبي ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مَنِ قَبِلِكَ الْخَلْدَ أَفَآئِينَ مَتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، ويقول ﷺ: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧]، ويقول سبحانه: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ [الواقعة: ٦٠].

وثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال في آخر عمره: «أرأيتم ليلتكم هذه، فإن على رأس مئة سنة منها لا يبقى على وجه الأرض من هو اليوم عليها أحد» (٢).

نيابة فقهاء الاثني عشرية المجتهدين عن الإمام المنتظر:

لقد مرَّ أن آخر توقيعات المهدي في الغيبة الصغرى جاءت قائلة: «أما الوقائع الحادثة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا، فإنهم حجّتي عليكم، وأنا حجة الله» (٣). فقد جاء هذا البيان ليعرف الشيعة كيف يتصرفون بعد غيبة الإمام غيبته الكبرى.

وبالفعل صار المحدثون والفقهاء يقومون بممارسة الإفتاء والإرشاد لأتباعهم، متخذين موقفًا سلبيًا من السياسة والقضاء ضمن الدول التي كانوا يعيشون فيها؛ ذلك أن روايات الأئمة تحذّره من التحاكم إلى القضاء العام للأمة، إذ جاءت رواية عن جعفر الصادق تقول: «إياكم أن تحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفسّاق، اجعلوا بينكم رجلًا ممن قد عرف حلالنا وحرامنا، فإني قد جعلته قاضيًا، وإياكم أن يخاصم بعضكم بعضًا إلى السلطان الجائر» (٤). والمقصود من الفسّاق - حسب زعمهم - القضاة الذين نصبهم ولاة الأمور في ذلك الوقت (٥).

(١) رجال الكشي (ص ٤٥٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب السمر في العلم (٣٧/١)، ومسنّد أحمد (١٢١/٢ - ١٣١)، وانظر في الرد على غيبة الإمام: منهاج السنة لابن تيمية (٦٥/٢).

(٣) الكافي مع شرحه مرآة العقول (٥٥/٤)، الصدوق: كمال الدين (ص ٤٥١)، الغيبة للطوسي (ص ١٧٧)، الاحتجاج للطبرسي (ص ١٦٣).

(٤) الطوسي: تهذيب الأحكام (٣٠٣/٦)، العاملي: وسائل الشيعة (١٣٩/٢٧).

(٥) انظر: الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ٩٠).

كما جاءت الروايات تحذّره من اللجوء إلى الثورة المسلّحة ضد الحكومات التي يخضعون لسلطانها. تقول إحدى الروايات: « كل راية ترفع قبل راية القائم عليه السلام صاحبها طاغوت » ^(١). « وإن كان رافعها يدعو إلى الحق » ^(٢).

ولكن مع مرور الوقت قويت شوكة الشيعة في بعض الفترات التاريخية، إذ صار لهم حظوة لدى بعض السلاطين، ثم أعلن مذهبهم عند ظهور الدول الشيعية - كالدولة الصفوية - فحينها أصبح لفقهاء الاثني عشرية منعة تمكّنهم من فرض الأحكام بإلزام وقوة، فصار لهم (الولاية العامة) فدخل الفقهاء المجتهدون (المراجع والآيات) دهاليز وأبواب السياسة والقضاء من أوسع الأبواب. مع أن نصوص الأئمة كانت تأمرهم بترك السياسة إلى أن يظهر القائم: « ألبدوا ما ألدنا، فإذا تحرك متحركنا فاسعوا إليه ولو حبواً، والله لكأني أنظر إليه بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد » ^(٣).

يقول المظفر: « عقيدتنا في المجتهد الجامع للشرائط، أنه نائب للإمام عليه السلام في حال غيبته، وهو الحاكم والرئيس المطلق، له ما للإمام في الفصل في القضايا والحكومة بين الناس، والرادّ عليه راد على الإمام، والراد على الإمام راد على الله - تعالى - وهو على حد الشرك بالله كما جاء في الحديث عن صادق آل البيت عليهم السلام. فليس المجتهد الجامع للشرائط مرجعاً في الفتيا فقط، بل له الولاية العامة، فيرجع إليه في الحكم والفصل في القضايا، وذلك من مختصاته لا يجوز لأحد أن يتولاها دونه إلا بإذنه، كما لا تجوز إقامة الحدود والتعزيرات إلا بأمره وحكمه. ويرجع إليه في الأموال التي هي من حقوق الإمام ومختصاته.

وهذه المنزلة أو الرئاسة أعطاها الإمام عليه السلام للمجتهد الجامع للشرائط؛ ليكون نائباً عنه في حال الغيبة ولذلك يسمى (نائب الإمام) » ^(٤).

ولكن هذه النيابة لم تكن لشخص واحد، بل كانت لعدد من علماء الشيعة المجتهدين،

(١) أصول الكافي مع شرح المازندراني (٤١٠/١٢)، النعماني: كتاب الغيبة (ص ١١٤، ١١٥)، بحار الأنوار (١١٤/٢٥).

(٢) مرآة العقول (٣٧٨/٤)، وحكم المجلسي على هذه الرواية بالصحة، انظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٨٩٦/٢).

(٣) محمد بن إبراهيم النعماني: كتاب الغيبة (ص ١٩٤) تحقيق علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق - طهران، بحار الأنوار (١٣٥/٥٢).

(٤) عقائد الإمامية (ص ٥٧).

الذين ارتقوا عند أتباعهم إلى درجة الآيات والمراجع الكبرى. وهكذا وصل الفكر الشيعي إلى ما وصله الفكر السني في ترك القضايا الفقهية للمجتهدين.

تطور الفكر الشيعي من نيابة الفقهاء عن المهدي إلى نظرية ولاية الفقيه:

ولكن الفكر الشيعي لم يتوقف هنا، بل تابع المسير في مسألة نيابة المجتهدين، فوصل - رغم الصراع الداخلي بين الأخباريين والأصوليين، بل بين الأصوليين أنفسهم - إلى فكرة (ولاية الفقيه)، وهي تركز السلطة في شخصية كبير الفقهاء.

يقول أحمد الكاتب: « وبالرغم من أن الفكر الشيعي لا يعتبر الفقيه معصوماً، إلا أن الإمام الخميني أعطى للفقيه الحاكم باعتباره (نائباً عن المعصوم) الولاية المطلقة، وكل صلاحيات الإمام والرسول الأعظم، واعتبر الولاية شعبة من ولاية الله، وسمح له بتجاوز الدستور وإرادة الأمة.

وهذا ما دفعني لإجراء مراجعة فقهية استدلالية لنظرية (ولاية الفقيه) التي كنت أؤمن بها من قبل، ودرستها من جديد، وقد حصلت لدي بعض التفاصيل الجزئية التي اختلفت فيها مع الإمام؛ من حيث تحديد الصلاحيات، والفصل بين السلطات واستناد نظرية ولاية الفقيه على الشورى وإرادة الأمة.

وقبل أن أكتب الدراسة بشكلها النهائي ارتأيت أن أعمل لها مقدمة تاريخية تغطي تاريخ المرجعية منذ بداية (الغيبة الكبرى)؛ وذلك من خلال دراسة كتب الفقه القديمة وتاريخ العلماء، لكي أرى مَنْ مِنَ العلماء كان يؤمن بنظرية (ولاية الفقيه) وكيف انعكست على موقفه السياسي وماذا قام به من أعمال؟. فاكشفت فجأة أن العلماء السابقين لم يكونوا يؤمنون بنظرية ولاية الفقيه، أو بالأحرى لا يعرفونها مطلقاً، وإن بعضهم، - كالشيخ عبد الرحمن بن قبة والشيخ الصدوق والعلامة الحلبي - كتب في الرد عليها عندما طرحها الشيعة الزيدية كمخرج لأزمة (الغيبة)، وإن أول من كتب فيها هو الشيخ النراقي في عوائد الأيام قبل نحو مائة وخمسين عامًا، ووجدت أن العلماء السابقين كانوا يؤمنون بنظرية (الانتظار للإمام المهدي الغائب)، ويحرمون العمل السياسي أو الثورة أو إقامة الحكومة وممارسة مهامها في عصر الغيبة، وذلك لفقد شرطي العصمة والنص في الإمام.

لقد كنت فيما مضى أصطدم ببعض العلماء الذين يحرمون العمل السياسي

أو الاقتراب منه، وكنت أسمع بعض المشايخ وهو يردد الحديث المعروف: « كل راية تخرج قبل ظهور المهدي فهي راية ضلالة وصاحبها طاغوت ». ولكني كنت أعتبر هذا الحديث ضعيفاً وغير مهم، ولم أكن أدرك عمق الفكر السلبي الذي كان يخيم على الحوزة ويضرب بجذوره إلى أعماق التاريخ، ويتمتع بفلسفة كلامية عريضة!

وهنا تساءلت مع نفسي: إذا كانت نظرية ولاية الفقيه حادثة مؤخرًا وغير معروفة من العلماء السابقين، فماذا يا ترى ترك (النواب الأربعة الخاصون) من فكر سياسي لعصر (الغيبة الكبرى)؟^(١)

وعلى كل فإن نظرية ولاية الفقيه هي التي انتصرت واقعيًا، هذه النظرية التي شكّلت الدعامة الأساسية لدولة إيران المعاصرة على يد زعيم الثورة (روح الله الخميني) الذي كان يشر بها قبل بدء الثورة في المراجع الشيعية، فما كان كتابه (الحكومة الإسلامية) إلا تبيانًا لهذه النظرية ألقاها على طلاب النجف عام (١٣٨٩ هـ / ١٩٦٩ م) تحت عنوان (ولاية الفقيه)، قبل انتصار ثورته بعقد من الزمان^(٢).

فقد « أصر الخميني على أن يتم الاقتراع - على الدستور - داخل المساجد، وتحت إشراف اللجان الثورية، وأن تظل الدولة تحت ولاية الفقيه الخميني في غياب المهدي المنتظر الإمام الثاني عشر، على أن تنتقل منه إلى فقيه آخر، وفي حال تعذر العثور على فقيه تنتقل إلى لجنة من خمسة فقهاء، وقد منح الدستور الجديد الفقيه سلطات مطلقة، منها سلطة تعيين قائد القوات المسلحة وحق إعلان الحرب وعقد السلم، وحق إلغاء انتخابات الرئاسة »^(٣).

وهكذا تصبح هذه الدولة دولة دينية (ثيوقراطية) من الدرجة الأولى. ونلاحظ اليوم أن هذه الدولة تشهد صراعًا داخليًا خفيًا، وأحيانًا معلنًا بين التيار الإصلاحية والمحافظ، ويساهم في إذكاء هذا الصراع ازدواجية الحكم، لوجود سلطتين، سلطة دينية متمثلة بالآيات والمراجع، وزعيمها المرشد الأعلى، وسلطة سياسية واقعية ممثلة بالحكومة، وفي أعلى هرمها رئيس الدولة. وتتنقد فيها الحكومة ورئيسها بكل

(١) أحمد الكاتب: تطور الفكر السياسي الشيعي من الشورى إلى ولاية الفقيه، المقدمة.

(٢) انظر للخميني: الحكومة الإسلامية، مؤسسة الأعلمي للطبوعات بيروت، المقدمة.

(٣) د. أمال السبكي: تاريخ إيران السياسي بين ثورتين (١٩٠٦ - ١٩٧٩ م) (ص ٢٤٣، ٢٤٤)، سلسلة

عالم المعرفة رقم (٢٥٠) الكويت (١٩٩٩ م).

سهولة، في حين لا يجروُ أحد على انتقاد السلطة الدينية.

نقد ولاية الفقيه:

لقد أنكر عدد لا بأس به من مراجع الشيعة ولاية الفقيه، حتى إن آية الله شريعتمداري الذي تفضّل على الخميني بإعطائه درجة (آية الله) في النجف، وآية الله الخوئي، وآية الله حسن طباطبائي القمي، والشيخ محمد جواد مغنية، وغيرهم (١). وأرى أن الاسترسال في بيان أصول وأدلة هذه النظرية ونقدها يبعدها عن مقصود البحث في مسائل الاعتقاد، فأحيل إلى الأستاذ محمد مال الله الذي جمع وتتبّع الروايات التي اعتمدها أصحاب هذه النظرية وقام بتمحيصها ونقدها في كتابه (نقد ولاية الفقيه) (٢) فمن أحبّ التوسع فليرجع إليه.

أعمال المهدي المنتظر بين أهل السنة والاثني عشرية:

لقد سرد محمد جواد مغنية أحاديث المهدي كما رواها أهل السنة، ثم قال: « هذا المهدي الذي أثبتته الإمام المناوي وصحاح السنة وكثير من مؤلفاتهم هو بالذات المهدي المنتظر الذي قالت به الإمامية » (٣). فهل صحيح أن شخصية المهدي المنتظر عند الشيعة موافقة لشخصية المهدي عند أهل السنة؟

يرى أهل السنة أنه المهدي هو رجل من عامة المؤمنين، ولكنه من النسل النبوي الشريف، ويملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً لقول النبي ﷺ: « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلاً مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه اسم أبي، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » (٤).

ولكن قائم الشيعة يأتي بالقتل والسفك والجلد والهدم والنقمة لا بالخير والرحمة، فهو:

١ - يقيم الحد على أم المؤمنين عائشة: عن أبي جعفر قال: « أما لو قام قائمنا، وردت

(١) محمد مال الله: نقد ولاية الفقيه (ص ٥)، تقديم د. نظام الدين الأعظمي، (ط ٢)، (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م).

(٢) محمد مال الله: نقد ولاية الفقيه، وانظر أيضاً: د. فاروق عبد السلام: ولاية الفقيه.

(٣) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٩١).

(٤) رواه بهذه اللفظ أبو داود، كتاب المهدي، رقم (٤٢٨٢)، وسنده حسن. وابن حبان في صحيحه

(٢٣٦/١٥). والحاكم: المستدرک (٤/٤٨٨)، ورواه من الشيعة بهذه الصيغة: ابن طائوس (ت ٦٦٤ هـ):

الملاحم والفتن (ص ٢٨٢)، القاضي النعمان المغربي (ت ٣٦٣ هـ): شرح الأخبار (٣/٣٨٦). ورواه فقط

بلفظ: (يواطئ اسمه اسمي) دون (واسم أبيه اسم أبي) الترمذي، كتاب الفتن، باب المهدي، رقم (٢٢٣٠)،

وأحمد في مسنده (١/٣٧٦). ومن الشيعة: الفتال النيسابور في روضة الواعظين (ص ٢٦١).

إليه الحميراء^(١)، حتى يجلدّها الحدّ، وحتى ينتقم لابنة محمد فاطمة»^(٢).

٢ - يبعثه الله نعمة: عن أبي جعفر قال: «إن الله بعث محمداً رحمة، وبعث القائم نعمة»^(٣).

٣ - يقتل ذراري قتلة الحسين: قيل للرضا: يا ابن رسول الله ما تقول في حديث روي عن الصادق أنه قال: «إذا خرج القائم قتل ذراري قتلة الحسين بفعل آبائهم؟»، قال: هو كذلك، قلت: وقول الله تعالى: ﴿وَلَا نُزِرْ وَأَزْرَةٌ وَدَرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء: ١٥] قال: ذراري قتلة الحسين يرضون بفعل آبائهم ويفتخرون بها»^(٤).

ومن يرضى من أمة محمد ﷺ بمقتل سيد شباب الجنة؟ إنا نبرأ إلى الله من قاتليه، ونتمنى أن يعود بنا الزمان لننصره ونقتل دونه، ولا نخذله كما خذله مدعو حبه والتشيع له.

٤ - يهدم أربعة مساجد في الكوفة: عن أبي جعفر أيضاً قال: «إذا قام القائم سار إلى الكوفة فهدم بها أربعة مساجد»^(٥).

٥ - يخرج «موتوراً غضبان أسفاً.. يجرد السيف على عاتقه»^(٦)، ويكون نعمة على العرب: «ويل لطغاة العرب من شر قد اقترب»^(٧). وقد نقلوا عن جعفر الصادق أنه

(١) يقصدون بالحميراء أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتتهم روايات الاثني عشرية أم المؤمنين عائشة بأنها اتهمت مارية القبطية بالزنى فبرأها الله تعالى. انظر: تفسير الصافي (٤٢٣/٣)، المجلسي: بحار الأنوار (١٥٤/٢٢)، تفسير شير (ص ٣٣٨).

في حين تنقل كتب الحديث والتفسير لدى أهل السنة أن عائشة هي التي تعرّضت لحادثة الإفك من قبل المنافقين ومن استمع إليهم. انظر: صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب تعديل النساء بعضهن بعضاً، رقم (٢٥١٨)، القرطبي: الجامع لأحكام القرآن (١٩٦/١٢) وما بعدها) ونصّ التنزيل لا يدعم رأي الاثني عشرية لأنه يقرر أن الذين جاؤوا بالإفك جماعة (عصبة)، وزعيمهم رجل تولّى كبره، وليس امرأة، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكَ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١١].

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٢٤٢/٢٢)، الصدوق: علل الشرائع (ص ٣٠٣) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - لبنان.

(٣) بحار الأنوار (٣١٥/٥٢).

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (٢٩٥/٤٥)، تفسير الصافي (١٧٧/٢)، وسائل الشيعة (١٣٩/١٦).

(٥) بحار الأنوار (٣٣٩/٥٢). (٦) بحار الأنوار (٣٦١/٥٢).

(٧) النعماني: كتاب الغيبة (ص ١٩٤) تحقيق علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق - طهران. بحار الأنوار

(١٣٥/٥٢).

قال: « ما بقي بيننا وبين العرب إلا الذبح »^(١). فالمهدي عند الشيعة « ليس شأنه إلا السيف، لا يستتبع أحدًا، ولا يأخذه في الله لومة لائم »^(٢).

٦ - يخرج أبا بكر وعمر من قبريهما « ويصلبهما ويحرقهما »^(٣). وقد جاء تفصيل ما سيفعله المهدي المزعوم بالشيخين وأحبابهما في هذه الرواية المزعومة:

عن جعفر الصادق: حيث يقول القائم عند قبر النبي ﷺ: « كل من أحب صاحبي رسول الله ﷺ وضيعه، فلينفرد جانبًا، فتجزأ الخلق جزأين أحدهما موالٍ والآخر متبرئٍ منهما.... فيأمر المهدي ﷺ ربحًا سوداء فتهب عليهم فتجعلهم كأعجاز نخل خاوية. ثم يأمر بإنزالهما فينزلان إليه، فيحييهما بإذن الله تعالى ويأمر الخلائق بالاجتماع، ثم يقص عليهم قصص فعالهما.... ثم يأمر بهما فيقتص منهما في ذلك الوقت بمظالم من حضر، ثم يصلبهما على الشجرة، ويأمر نازًا تخرج من الأرض فتحرقهما والشجرة ثم يأمر ربحًا فتسفهما في اليم نسفًا »^(٤).

٧ - يخرب المهدي المنتظر حواضر الإسلام كالزوراء، تقول الرواية:

« ثم يسير المهدي ﷺ إلى الكوفة وينزل ما بين الكوفة والنجف، وعنده أصحابه في ذلك اليوم ستة وأربعون ألفًا من الملائكة وستة آلاف من الجن، والنقباء ثلاثمائة وثلاثة عشر نفسًا. قال المفضل: يا سيدي كيف تكون دار الفاسقين في ذلك الوقت؟ قال: في لعنة الله وسخطه تخربها الفتن وتتركها جماء، فالويل لها ولن بها كل الويل من الرايات الصفراء، ورايات المغرب، ومن يجلب الجزيرة ومن الرايات التي تسير إليها من كل قريب أو بعيد. والله لينزلن بها من صنوف العذاب ما نزل بسائر الأمم المتمردة من أول الدهر إلى آخره، ولينزلن بها من العذاب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت بمثله، ولا يكون طوفان أهلها إلا بالسيف، فالويل لمن اتخذ بها مسكنًا، فإن المقيم بها يبقى لشقائه، والخارج منها برحمة الله... ثم ليخربها الله بتلك الفتن وتلك الرايات، حتى ليمر عليها المار فيقول: ههنا كانت الزوراء »^(٥).

(١) النعماني: كتاب الغيبة (ص ٢٣٦)، الأنوار العمانية (٣٤٩/٥٢).

(٢) محمد بن إبراهيم النعماني: كتاب الغيبة (ص ٢٣٣).

(٣) الأنوار العمانية (٨٥/٢).

(٤، ٥) المجلسي: بحار الأنوار (٥٣/١٢ - ١٦). وانظر أخبار المهدي في حق اليقين في معرفة أصول الدين

نعبد الله شبر (ص ٣١٩ - ٣٣٠).

٨ - يقتل المهدي المنتظر عشرات الآلاف من فرقة الزيدية، ولا تشفع لهم قراءة القرآن: « ويياعه سائر العسكر... إلا أربعين ألفاً أصحاب المصاحف المعروفون بالزيدية، فإنهم يقولون: ما هذا إلا سحر عظيم، فيختلط العسكران، فيقبل المهدي عليه السلام على الطائفة المنحرفة، فيعظهم ويدعوهم ثلاثة أيام، فلا يزدادون إلا طغياناً وكفراً، فيأمر بقتلهم فيقتلون جميعاً، ثم يقول لأصحابه: لا تأخذوا المصاحف، ودعوها تكون عليهم حسرة كما بدّلوها وغيّروها وحرفوها ولم يعملوا بما فيها » ^(١)!!

وإذا كان كذلك فعل الاثني عشرية بالزيدية، وهم طائفة من الشيعة، فكيف يكون حال باقي الأمة الإسلامية، المتهممة بالنصب؟ لا بد أنه سيكون أدهى وأمر.

ولسائل أن يسأل: ما أثر هذه النصوص وأمثالها على سلوك المواطن العامي الشيعي في فترات الفتن السياسية التي عصفت وما تزال تعصف بالبلاد الإسلامية، أن يكون لهذه النصوص آثار توقد نار الحقد والكراهية لمخالفى الإمامية، وتثير رياح الانتقام والإجرام؟! إن هذه النصوص التي أوردها الشيعة في حق المهدي لا يمكن أن يوافق عليها أهل السنة والجماعة، فمن كانت هكذا أفعاله حرّياً به أن يكون (الأعرور الدجال) لا (المهدي المنتظر)، وحاشا المهدي أن تلحق به هذه الأفعال الشنيعة؛ من كراهة العرب - وهم أساس الرسالة - وشتمهم وقتلهم وسفك الدماء، وقتل الذراري والأطفال، وإخراج الموتى من قبورهم وإحراقهم، ناهيك أن يكون من هؤلاء زوج النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وصاحبه عليه السلام.

إن المحلل المتبصر يجد لهذه الروايات اعتبارات نفسية لا تخفى، فلقد « ساعدت المحن والفواجع التي أنزلها بنو أمية وبنو العباس بالعلويين على تعلق جمهور الشيعة بأسطورة المهدي المنتظر » ^(٢). فهذه الظلامات التي رسخ في أذهان الشيعة أن الأئمة وأتباعهم قد تعرضوا لها على مر السنين جعلتهم يؤمنون بالنصر على خصومهم في الدنيا قبل الآخرة بظهور المهدي المنتظر، الذي ينشر القتل والرعب في العرب.

وستؤدي هذه النصوص دورها في تفرغ شحنات الغضب والحزن والغیظ، وتنشر الأمل بين الشيعة ليثبتوا على عقائدهم. وستقوم هذه الروايات بتخديرهم بالأمني، حتى

(١) المجلسي: بحار الأنوار (١٢/٥٣ - ١٦). وانظر أخبار المهدي في حق اليقين في معرفة أصول الدين

لعبد الله شبر (ص ٣١٩ - ٣٣٠).

(٢) الأستاذ الدكتور السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٠٨).

قالوا في أخبارهم: « إن الشيعة تربى بالأمانى منذ مائتي سنة »^(١). وقد قالوا: « لقد تركنا أسواقنا انتظاراً لهذا الأمر حتى ليوشك الرجل منا أن يسأل في يده.. إن القائل منكم إذا قال: (إن أدركت قائم آل محمد نصرته) كالمقارع معه بسيفه والشهادة معه شهادتان »^(٢). وفي رواية عن محمد الباقر: « ألبدوا ما ألبدنا، فإذا تحرك متحركنا فاسعوا إليه ولو حبوا »^(٣).

وإذا قارنا هذه النصوص الاثني عشرية التي تتحدث عن المهدي ورجعة أعدائه وأنصاره بنصوص التوراة التي تخبر عن انتصارات اليهود في التاريخ على أعدائهم، وقتلهم للملك الأمم الأخرى، واستعبادهم لشعوبها، سنرى تشابهاً واضحاً، حيث يؤكد بعض الباحثين أن هذه المجازر التي تفيض في العهد القديم « أسطورية ولا وجود لها في الحقيقة ». كان الهدف من كتابتها ووضعها تفرغ شحنات الغضب والحقد اليهودي جرّاء ما أصاب اليهود من حرمان وتشرد وشتات^(٤).

ولكن الفرق الوحيد بين هاتين المجموعتين من النصوص أن الأولى اعتمدت على منهج الرجوع إلى الوراء في مجاهيل التاريخ، والثانية اعتمدت على الهروب إلى سرداب المستقبل؛ وكلاهما لا سلطان للعلم في الخوض في غمارهما إلا بوحى معصوم.. وهيئات.

٩ - وتزعم بعض الروايات أن المهدي يخرج بكتاب جديد غير القرآن: ففي رواية عن محمد الباقر: « واللّه لكأنّي أنظر إليه - بين الركن والمقام - يبائع الناس على كتاب جديد، على العرب شديد.. »^(٥). وفي رواية أخرى: « يقوم القائم بأمر جديد، وكتاب جديد، وقضاء جديد، على العرب شديد »^(٦).

(١) أصول الكافي (١/٣٦٩)، الغيبة للنعماني (ص ١٩٨)، الغيبة للطوسي (ص ٢٠٧، ٢٠٨)، بحار الأنوار (١٠٢/٥٢).

(٢) روضة الكافي (٨/٨٠). فضل أهل البيت وشيعتهم وإن عليّاً عليه السلام أفضل الناس بعد النبي ﷺ.
 (٣) النعماني: كتاب الغيبة (ص ١٩٤)، تحقيق علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق - طهران، بحار الأنوار (١٣٥/٥٢).
 (٤) انظر: أحمد عبد المقصود إبراهيم الجندي: أشعار الحرب والسلام في العهد القديم (ص ٥٧) ماجستير في الآداب قسم الدراسات الشرقية - جامعة القاهرة. وانظر في نصوص أخبار اليهود وما فعلوه في الشعوب المجاورة: محمد زكريا النداف: السياسة الأخلاقية للدولة الإسلامية، ماجستير كلية دار العلوم (ص ٢٩ - ٣٤).
 (٥) النعماني: كتاب الغيبة (ص ١٩٤)، تحقيق علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق - طهران، بحار الأنوار (١٣٥/٥٢).
 (٦) النعماني: كتاب الغيبة (ص ٢٣٣).

وإذا كان من علماء الشيعة من يؤكد أن « القرآن الكريم لن يفقد صحته واعتباره أبداً »^(١)، فإن الإيمان بوجود هذا الكتاب الجديد مع الإمام ينسف عقيدة الإيمان بسلامة القرآن وخلوده وبقائه لقيام الساعة.

١٠ - وسيغير القائم بعض أحكام القرآن كقانون الميراث: فيذكر عن الصادق أنه يقول: « إن الله آخى بين الأرواح في الأظلة قبل أن يخلق الأبدان بألفي عام، فلو قد قام قائمنا أهل البيت أورث الأخ الذي آخى بينهما في الأظلة ولم يرث الأخ من الولادة »^(٢). و « يحكم بثلاث لم يحكم بها أحد قبله، يقتل الشيخ الزاني، ويقتل مانع الزكاة، ويورث الأخ أخاه في الأظلة »^(٣)، وأنه يقتل من بلغ العشرين ولم يتفقه في الدين «^(٤)» وهذا نسف للشريعة الإسلامية.

١١ - كما أن في بعض الروايات حول المهدي المنتظر ما يشم منه المرء رائحة الفكر الماسوني، والدعوة إلى وحدة الأديان، التي يتشدد بها بعض الناس اليوم: « إذا قام القائم قسم بالسوية، وعدل في الرعية، واستخرج التوراة وسائر كتب الله تعالى من غار بأنطاكية، حتى يحكم بين أهل التوراة بالتوراة، وبين أهل الإنجيل بالإنجيل، وبين أهل الزبور بالزبور، وبين أهل القرآن بالقرآن »^(٥). فأين نسخ القرآن للشرائع السابقة؟!

« ثم يتدئ بالصحف التي أنزلها الله على آدم وشيث، وتقول أمة آدم وشيث: هبة الله هذه، والله! هي الصحف حقاً... ثم يقرأ صحف نوح وصحف إبراهيم والتوراة والإنجيل والزبور... وما أسقط منها وبدل حرف منها »^(٦).

وهذا هدم لشرائع الإسلام، فإن الإسلام لم يجز لأحد أن يحكم بغير شريعة القرآن^(٧). قال تعالى: ﴿ فَإِن جَاءُوكَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَكَن يَضْرُوكَ شَيْئًا وَإِن حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المائدة: ٤٢]، ثم يبين أن الحكم بينهم مشروط بأن لا يخالف القرآن الكريم الذي أنزله الله؛ قال تعالى: ﴿ وَأَن

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣١٠).

(٢) الاعتقادات (ص ٨٣).

(٣) ابن بابويه: الخصال (ص ١٦٩)، بحار الأنوار (٣٥٩/٥٢).

(٤) بحار الأنوار (١٥٢/٥٢).

(٥) النعماني: الغيبة (ص ١٥٧)، وانظر: بحار الأنوار (٣٥١/٥٢).

(٦) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٢١).

(٧) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٢٧/٣)، الذهبي: المنتقى (ص ٣٤٣).

أَحْكُمُ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَقْتُلُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴿٤٩﴾ [المائدة: ٤٩].

١٢ - والأثر الشعبي العنصري، واضح في دعوة هذا القائم المنتظر، فعن أبي عبد الله قال: « اتق العرب، فإن لهم خبير سوء أما أنه لم يخرج مع القائم منهم أحد » (١).

١٣ - وكذلك الأثر اليهودي أجلى وأوضح: فلقائم، وهو العربي صاحب السلالة العربية الأصيلة - يدعو الله باللغة العبرية! قال أبو عبد الله عليه السلام: « إذا أذن الإمام دعا الله باسمه العبراني الأكبر » (٢).

ومع المهدي المنتظر سيوف آل داود: عن الصادق وقد سأله رجل عند الكعبة:..... قال: فضحك أبي عليه السلام وقال: ... فلذلك كفّ، فوددت أنّ عينك تكون مع مهدي هذه الأمة والملائكة بسيوف آل داود بين السماء والأرض تعذب أرواح الكفرة من الأموات وتلحق بهم أرواح أشباههم من الأحياء » (٣). وتذكر رواية للنعمانى أن « أصحاب القائم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً أولاد العجم » (٤). بينما تقول رواية في بحار الأنوار: « إذا قام قائم آل محمد استخرج من ظهر الكعبة سبعة وعشرين رجلاً، خمسة وعشرين من قوم موسى الذين يقضون بالحق وبه يعدلون، وسبعة من أصحاب الكهف، ويوشع وصي موسى، ومؤمن آل فرعون، وسلمان الفارسي، وأبا دجانة الأنصاري ومالك الأشر » (٥).

تعلق الشيعة بقائم الزمان واستغاثتهم به:

ذكر الصدوق عن جعفر الصادق رواية تقول: « ما من طفل إلا وهو يرى الإمام

(١) الطوسي: الغيبة (ص ٤٧٦)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٣٣/٥٢).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٣٦٨/٥٢)، تفسير العياشي (٦٧/١)، الشيخ علي الكوراني: معجم أحاديث المهدي (٣٢/٥).

(٣) أصول الكافي (٢٩٩/١) كتاب الحجّة باب في شأن إنا أنزلناه في ليلة القدر وتفسيرها. قال محقق أصول الكافي: الحديث ضعيف على المشهور بالحسن بن العباس.

(٤) الغيبة للنعمانى (ص ٢١٤).

(٥) بحار الأنوار (٣٤٦/٥٢)، وقد نبه الدكتور الفقاري إلى خطأ الروايات من حيث العدد، إذ إنه ذكر أن مجموع العدد (٢٧) ولما فضل زاد العدد إلى (٣٧)، ولذلك جاءت رواية في تفسير العياشي (٣٢/١)، قال: « وخمسة عشر من قوم موسى » فيتوافق بهذا مع المجموع الكلي (٢٧)، أما في تفسير البرهان (٤١/٢) فقد زاد واؤا لتلثم العبارة فقال: « سبعة وعشرين رجلاً وخمسة وعشرين من قوم موسى.. ».

ويناجيه، فبكاؤه لغيبته عنه وضحكه إذا أقبل عليه»^(١)، وهكذا ينشأ الصغار على حب المهدي وكأنه معهم.

ويصفون الإمام الغائب بأنه « كالشمس خلف الغيوم حيث يستفاد من نورها وشاعها»^(٢)، ويرون أن منهم من رآه « وقد وفق الكثير من الأفراد للقاء الإمام عليه السلام، وإن ظهر بصورة رجل مجهول، واستفادوا منه الكثير في قضاء حوائجهم، ومعالجة مشكلاتهم المادية والمعنوية، ويعتبر بقاؤه حيًا عاملاً كبيرًا ومؤثرًا في زرع الطمأنينة وشيوع الأمل بين الناس؛ ليحاولوا إصلاح أنفسهم وإعدادها لظهوره»^(٣). وهذه الأخبار تخالف ما نقلوه عن المنتظر نفسه: « وسيأتي من شعيتي من يدعي المشاهدة، ألا فمن ادعى المشاهدة... فهو كذاب مفتر»^(٤).

فتعلق الشيعة بالمهدي لا حدود له؛ ولذلك فهم يستغيثون به في نوازلهم وينادونه مناداة من يسمعونهم: قال الشهرودي - وهو أحد علمائهم: « لا يخفى علينا أنه عليه السلام، وإن كان مخفيًا عن الأنام ومحجوبًا عنهم، ولا يصل إليه أحد، ولا يعرف مكانه، إلا أن ذلك لا ينافي ظهوره عند المضطر المستغيث به الملتجئ إليه، الذي انقطعت عنه الأسباب، وأغلقت دونه الأبواب، فإنه إغاثة الملهوف، وإجابة المضطر في تلك الأحوال وإصدار الكرامات الباهرة، والمعجزات الظاهرة، هي من مناصبه الخاصة. فعند الشدة وانقطاع الأسباب من المخلوقين، وعدم إمكان الصبر على البلايا دنيوية أو أخروية، أو الخلاص من شر أعداء الإنس والجن، يستغيثون به، ويلتجئون إليه»^(٥).

ولقد « راجت العقيدة بأن المهدي في غيبته ينقذ المشرفين على الموت من أوليائه»^(٦).

هل تضخيم فكرة المهودية يساوي مدة إقامة المهدي المنتظر في الأرض؟

ها هم المعتقدون بغيبة المهدي المنتظر يضعون أكفهم على خدودهم منذ ما يزيد على ألف ومائة عام، ينتظرون أن يخرج قائمهم لسنوات معدودات - كما تذكر الروايات - فيغير وجه الدنيا.

(١) الصدوق: علل الشرائع (ص ٥٨٤) باب في النوادر.

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٩٢/٥٢).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣٥٥).

(٤) ابن بابويه: كمال الدين (١٩٣/٢)، الطوسي: الغيبة (ص ٢٥٧).

(٥) الإمام المهدي وظهوره (ص ٣٢٥).

(٦) الأستاذ الدكتور السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها (ص ٤٠٨) عن الخرائج والجرائح (ص ١٥٨).

وقد ضحّموا فكرة المهديّة حتى جعلوها أساسًا من أسس الدين الإسلامي، وركنًا من أركانه الأساسية، ومن غير الإيمان به لا إيمان، فهل يوازي هذا التضخيم الدور الذي سيقوم به المهدي في الأرض عند ظهوره؟ وهذا التهويل الذي أطلقه الشيعة حول المهدي هل يساوي السنوات التي سيعيشها ظاهرًا حاكمًا على وجه البسيطة؟

لقد اختلفت الروايات في مدة إقامة المهدي المنتظر، فعن الصادق قال: « يملك القائم سبع سنين تكون سبعين سنة من سنّكم هذه ».... وعن الباقر عليه السلام قال: « يملك القائم ثلاثمائة سنة، ويزداد تسعًا كما لبث أهل الكهف في كهفهم » (١).

« أفيلق بنا أبناء هذه الأمة أن نعتقد عقيدة تضعف همة رجالها وتجعلهم يستكينون تحت مقارع الظلم والعسف والجور آلاف السنين، ليأتي المهدي المنتظر، فيسعد بعدله جيلاً من أجيال هذه الأمة! » (٢).

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٩٠، ٢٩١).

(٢) د. عذاب محمود الحمش: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية، دراسة حديثة نقدية (ص ٥٣٢).

الْمَبْحَثُ السَّابِعُ

بعض الممارسات الشيعية المرتبطة بالعقيدة



إن تعلق الشيعة بأئمتهم تعلق كبير، فإذا كانت روايات أهل السنة تذكر عرض أعمال المسلمين على النبي ﷺ في قبره، فإن روايات الاثني عشرية تذكر عرض أعمال العباد على الأئمة:

عن عبد الله بن أبان الزيات، وكان مكيًا عند الرضا عليه السلام قال قلت للرضا عليه السلام: « ادع الله لي ولأهل بيتي، فقال: أولست أفعل، والله إن أعمالكم لتعرض علي في كل يوم وليلة، قال: فاستعظمت ذلك، فقال لي: أما تقرأ كتاب الله عز وجل: ﴿ وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ... ﴾ [التوبة: ١٠٥] قال: هو والله! علي بن أبي طالب عليه السلام » (١).

ولأجل هذا التعلق العاطفي فإن لهم ممارسات سلوكية مرتبطة بالعقيدة، ومن هذه الممارسات:

أولاً: الاستعاذة والتوسل والاستغاثة بالأئمة:

يجيز الإمامية التوسل والاستغاثة والاستعاذة بالبشر، يقول الإمام الخميني: « قد يقال: إن الشرك طلب الحاجات من الأموات؛ لأنه لا نفع ولا ضرر من نبي أو إمام ميتين، إنهما إلا كالجمادات، والجواب على هذا التوهم: أولاً: لم تبينوا لنا معنى الشرك والكفر حتى نعتبر كل ما نريده حسب رأيكم شركًا، وبعد أن اتضح أن الشرك هو طلب شيء من أحد غير الله باعتبار أنه رب، وما عدا ذلك فليس شركًا؛ لا فرق في ذلك بين الحي والميت، حتى إن طلب الحاجة من الحجر والمدر ليس شركًا، وإن كان عملاً لغوًا باطلاً. ثانيًا: نحن نستمد من أرواح الأنبياء والأئمة المقدسة التي منحها الله القدرة » (٢).

وكتبهم زاخرة بهذه الأصناف من التوسلات والاستعاذات والاستغاثات:
عن داود الرقي قال: إني كنت أسمع أبا عبد الله عليه السلام « أكثر ما يلح به في الدعاء

(١) أصول الكافي (٢٧٦/١، ٢٧٧) كتاب الحجّة باب عرض الأعمال على النبي والأئمة.

(٢) الخميني: كشف الأسرار (ص ٥٦). تحت عنوان طلب الحاجة من الأموات.

على الله بحق الخمسة؛ يعني رسول الله ﷺ، وأمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين صلوات الله عليهم» (١).

وقال أبو عبد الله عليه السلام: من دخل على سلطان يهابه فليقل: «بالله أستفتح، وباللله أستنجح، وبمحمد ﷺ أتوجه، اللهم ذل لي صعوبته، وسهل لي حزونه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب» (٢).

وعن سماعة قال: «قال لي أبو الحسن عليه السلام: إذا كان لك يا سماعة إلى الله ﷻ حاجة فقل: اللهم إني أسألك بحق محمد وعلي، فإن لهما عندك شأنًا من الشأن وقدراً من القدر، فبحق ذلك الشأن وبحق ذلك القدر أن تصلي علي محمد وآل محمد وأن تفعل بي كذا وكذا. فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق ملك مقرب ولا نبي مرسل ولا مؤمن ممتحن إلا وهو يحتاج إليهما في ذلك اليوم» (٣).

وجاء في بيان إحدى الصلوات الخاصة: ركعتان، يقرأ في كل ركعة الحمد إلى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، ثم يقول مائة مرة: «اللهم إياك نعبد وإياك نستعين، ثم يتم قراءته الفاتحة، ويقرأ بعدها الإخلاص مرة واحدة، ثم يدعو عقيبتها فيقول: اللهم عظم البلاء، وبرح الحفاء، وانكشف الغطاء، وضائق الأرض ومنعت السماء، وإليك يا رب المشتكى، وعليك المعول في الشدة والرخاء، اللهم صل على محمد وآل محمد الذين أمرتنا بطاعتهم، وعجل اللهم فرجهم بقائمهم، وأظهر إعزازه، يا محمد! يا علي! يا علي! يا محمد! إكفياني فإنكما كافياي، يا محمد! يا علي! يا علي! يا محمد! انصراني، فإنكما ناصراني، يا محمد! يا علي! يا علي! يا محمد! احفظاني فإنكما حافظاني، يا مولاي يا صاحب الزمان! ثلاث مرات، الغوث الغوث، أدركني أدركني، الأمان الأمان» (٤).

ونلاحظ كيف تسوي هذه الرواية في الاستغاثة بين النبي ﷺ وعلي عليه السلام، وفي بعض المرات تقدّم عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وما كان لأحد من البشر أن يتقدم

(١) أصول الكافي (٥٨٠/٢).

(٢) أصول الكافي (٥٢٥/٢) كتاب الدعاء، باب الدعاء للكرب والهم والحزن والخوف، قال محققه: الحديث موثق.

(٣) أصول الكافي (٥٢٩/٢) كتاب الدعاء، باب الدعاء للكرب والهم والحزن والخوف، قال محققه: الحديث صحيح.

(٤) الحر العاملي: وسائل الشيعة (١٨٥/٨)، النوري الطبرسي: مستدرک الوسائل (٣١٠/٦).

على النبي ﷺ وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَانْفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]، فهناك الله في هذا النص التقدّم على الله ورسوله في الذكر أو في الحكم والأمر.

وتثبت إحدى الروايات أن النبي ﷺ نفسه توسل بنفسه وبالأوصياء من بعده! فقد رووا عن جعفر الصادق: كان رسول الله ﷺ يقول: « نعم، لنعم المجيب أنت ونعم المدعو ونعم المسؤول، أسألك بنور وجهك وأسألك بعزتك وقدرتك وجبروتك، وأسألك بملكوتك ودرعك الحصينة وبجمعك وأركانك كلها، وبحق محمد وبحق الأوصياء بعد محمد أن تصلي علي محمد وآل محمد، وأن تفعل بي كذا وكذا » (١).

وقد جاء عن الشيعة التوسل بالأنبياء والملائكة أيضًا إلى جانب التوسل بالنبي ﷺ وآل بيته:

عن أبي عبد الله عليه السلام قال: كان أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - يقول إذا فرغ من الزوال: « اللهم إني أتقرب إليك بجودك وكرمك، وأتقرب إليك بمحمد عبدك ورسولك، وأتقرب إليك بملائكتك المقربين وأنبيائك المرسلين، وبك، اللهم أنت الغني عني وبي الفاقه إليك، أنت الغني وأنا الفقير إليك.. أقلتني عشرتي وسترت علي ذنوبي، فاقض لي اليوم حاجتي، ولا تعذبني بقبيح ما تعلم مني » (٢).

كما هناك رواية تفيد توسل الأنبياء بالأئمة؛ فقد جاء في بحار الأنوار: « إن دعاء الأنبياء استجيب بالتوسل والاستشفاع بهم صلوات الله عليهم أجمعين » (٣).

كما جاء في كتب الشيعة الاستغاثة بالجن في السفر:

وفي الخصال لابن بابويه بإسناده عن علي قال: « ومن ضلّ منكم في سفر وخاف على نفسه فليناد: يا صالح أعثنني، فإن في إخوانكم من الجن جنّيًا يسمى صالحًا يسبح في البلاد لمكانكم محتسبًا نفسه لكم، فإذا سمع الصوت أجاب وأرشد الضال منكم وحبس عليه دابته » (٤).

(١) أصول الكافي (٥٤٩/٢) كتاب الدعاء، باب دعوات موجزات لجميع الحوائج للدنيا والآخرة، سكت عنه المحقق.

(٢) أصول الكافي (٥١٣/٢) كتاب الدعاء، باب الدعاء في أدبار الصلوات، قال محققه: حسن كالصحيح.

(٣) وهذا أحد أبواب بحار الأنوار (٣١٩/٢٦).

(٤) الخصال (٦١٨/٢)، وسائل الشيعة (٣٢٥/٨).

وهذا، فيما يبدو، من موروثات أهل الجاهلية الأولى، كما يدل على ذلك قوله سبحانه: ﴿ وَأَنْتُمْ كَانِ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]. قال أهل العلم: « كانت عادة العرب في جاهليتها إذا نزلت مكانًا يعوذون بعضهم ذلك المكان؛ أن يصيبهم بشيء يسوءهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامته وخفارتة، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقًا أي خوفًا وإرهابًا وذعرًا حتى بقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذًا بهم، كما قال قتادة: ﴿ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ أي: إثمًا، وازدادت الجن عليهم بذلك جرأة... فإذا عاذوا بهم من دون الله رهقتهم الجن الأذى عند ذلك »^(١).

ويرى كتاب الشيعة أن التوسل لا يضر بالإيمان والتوحيد، وأنه من باب الأخذ بالأسباب، الذي لا ينافي التوحيد، وأنه « لو كان التوسل بمعنى أن الله - تعالى - جعل الولي وسيلة للتوصل إلى رحمته - تعالى - وقد أمر تعالى الناس أن يتوسلوا بهذا الولي فهذا توسلٌ، كما أنه لا ينافي التوحيد فإنه يعتبر من شؤون التوحيد في العبادة والطاعة، إذ إنه يتم بأمره تعالى »^(٢).

أما عن حكمة التوسل فهي « التعريف بالمستويات والدرجات الرفيعة لعبادة الصالحين... وأن يمنع من حصول الغرور والاعتداد للبعض بعبادته، حيث يعتقد في نفسه الوصول إلى أرفع الدرجات وأنه يتمتع بأسمى الكمالات الإنسانية، وقد ظهرت هذه الحالة ومع الأسف لأولئك الذين حرموا من نعمة ولاية أهل البيت - عليهم الصلاة والسلام - والتوسل بهم »^(٣).

والحقيقة أنه بالرجوع لما كتبه الأئمة أنفسهم نرى أنهم ربطوا قلوبهم بالله تعالى، ولم يستغيثوا بغير الله تعالى، ولم يسألوا سواه، فقد أوصى علي عليه السلام (كما جاء في نهج البلاغة، ابنه الحسن عليه السلام) قائلاً:

« واعلم أن الذي بيده خزائن السماوات والأرض قد أذن لك بالدعاء وتكفل لك

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٤/٤٥٤، ٤٥٥)، وانظر: تفسير الطبري (١٠٨/٢٩)، فتح القدير (٥/٣٠٥)، وقد جاء هذا المعنى في كتب التفسير عند الشيعة: انظر: البرهان (٤/٣٩١)، تفسير الصافي (٥/٢٣٤، ٢٣٥)، تفسير شبر (ص ٥٣٥).

(٢) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٥٦، ١٥٧).

(٣) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ١٥٧).

بالإجابة، وأمرك أن تسأله ليعطيك، وتسترحمه ليرحمك، ولم يجعل بينك وبينه من يحجبك عنه، ولم يلجئك إلى من يشفع لك إليه، ولم يمنحك إن أسأت من التوبة، ولم يعاجلك بالنقمة ولم يعترك بالإنابة، ولم يفضحك حيث الفضيحة بك أولى، ولم يشدد عليك في قبول الإنابة ولم يناقشك بالجريمة، ولم يؤيسك من الرحمة، بل جعل نزوعك عن الذنب حسنة ^(١).

وجاء في مناجاة الإمام علي بن الحسين زين العابدين في صحيفته السجادية:

« ولي إليك حاجة، قصر عنها جهدي، وتقطعت دونها حيلتي، وسولت لي نفسي رفعها إلى من يرفع حوائجهم إليك، ولا يستغني في طلباته عنك، وهي زلة من زلل الخاطئين، وعثرة من عثرات المذنبين، ثم انتبهت بتذكيرك لي من غفلتي، ونهضت بتوفيقك من زلتي، ونكصت بتسديدك من عثرتي، وقلت: سبحان ربي! كيف يسأل محتاج محتاجاً، وأنى يرغب معدم إلى معدم، فقصدتك يا إلهي بالرغبة، وأوفدت عليك رجائي بالثقة بك ^(٢).

وهذا ما ينسجم مع قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقوله ﷺ لابن عمه عبد الله بن عباس رضي الله عنه: « إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله ^(٣).

تفصيل مذهب أهل السنة في التوسل:

يقسم التوسل إلى أنواع كثيرة ^(٤):

- فمنها ما هو حرام وشرك باتفاق: وهو أن يكون اعتقاد المتوسل أن المعطي هو الله،

(١) نهج البلاغة (ص ٤٧)، من وصية أمير المؤمنين علي لولده الحسن رضي الله عنه.

(٢) الصحيفة السجادية (ص ٨٥).

(٣) صحيح أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب منه، رقم (٢٥١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده (٣٠٣/١) ونصه: عن ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله ﷺ يوماً فقال: « يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام وجفت الصحف ».

(٤) انظر: الشيخ تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم (٣١٦/٥ - ٣١٩).

ولكنه تعالى فوّض الأمر إلى عباده الصالحين المتوسل بهم، أو أن يطلب المتوسل من الله أن يفوّض الأمر إلى المتوسل فيه لينجز له ما يريد، وهذا شرك باتفاق في مذهب أهل السنة والجماعة.

- ومنها ما هو جائز باتفاق: وهو التوسل بأسماء الله تعالى وصفاته، أو بالأعمال الصالحة، أو التوسل بمعنى الطلب من المتوسل بهم من الصالحين أن يدعوا له. وفي هذا المعنى قول عمر في الاستسقاء: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فنتسقين، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قال: فيسقون»^(١). وكان يتوسل بالعباس بن عبد المطلب عليه السلام أي: يطلب منه الدعاء للمسلمين.

- ومنه ما هو مختلف فيه بين العلماء: وهو التوسل إلى الله تعالى بذوات الصالحين، بعيداً عن المعاني الفاسدة التي ذكرناها في النوع الأول، بل بمعنى: اللهم إني أحب عبدك الصالح فلان، وبما أنه محبوب لديك فإني أستجلب رحمتك بعلاقتي به، كقولك: (اللهم إني أتوسل إليك بعبدك فلان).

وقد صرح ابن تيمية بمنعه، وألف في ذلك كتابه (التوسل والوسيلة).

في حين يرى بعض أهل العلم إلى الجواز، ويرى من أجاز هذا النوع من التوسل بأنه «بهذا المعنى لا يرجع إلا إلى التوسل بالأعمال الصالحة الذي انعقد الإجماع على جوازه»^(٢). أو يرجع إلى التوسل إلى الله تعالى بحب الله لمحمد عليه السلام، وهو جائز باتفاق؛ لأنه توسل بصفة من صفات الله - تعالى - وهي المحبة.

ويشهد لهذا حديث السائل عن الساعة، حيث أجاب عليه السلام عن سؤال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ماذا أعددت لها؟ قائلاً: لا شيء إلا أنني أحب الله ورسوله، فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنت مع من أحببت»... قال أنس رضي الله عنه - راوي الحديث -: فأنا أحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأبا بكر وعمر وأرجو أن أكون معهم بحبي إليهم^(٣).

وقد ثبت هذا النوع بالسنة في بعض الروايات: عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال: ادع الله أن يعافيني قال: «إن شئت دعوت وإن شئت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه: كتاب الاستسقاء، باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا رقم (٩٦٤).

(٢) تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٣١٧/٥).

(٣) صحيح البخاري: كتاب المناقب: مناقب عمر رضي الله عنه رقم (٣٦٩٩)، ومسلم في البر والصلة، باب المرء مع

من أحب (٢٦٣٩).

صبرت فهو خير لك». قال: فادعه، قال: فأمره أن يتوضأ فيحسن الدفع ويدعو بهذا الدعاء: «اللهم! إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة، يا محمد إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى لي، اللهم فشفعه في» (١).

قال الشوكاني في تحفة الذاكرين بعد نقله حديث الأعمى وطرقه: «والحديث صحيح، وصححه ابن خزيمة... وفيه دليل على جواز التوسل برسول الله ﷺ إلى الله ﷻ، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله ﷻ، وأنه المعطي المانع» (٢).

وقد أقر ابن تيمية بالحديث، ولكنه أوله قائلًا: «وحديث الأعمى لا حجة لهم فيه، فإنه صريح في أنه توسل بدعاء النبي وشفاعته» (٣). كما أنه رأى أن ذلك محصور في حياة النبي ﷺ، مستدلًا بأن عمر لم يتوسل في خلافته في الاستسقاء بالنبي بل بعم النبي. ولكن يرد هذين التأويلين ما ورد في رواية الطبراني «عن عثمان بن حنيف ؓ أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان ؓ، في حاجة له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي عثمان بن حنيف ؓ، فشكا ذلك إليه، فقال عثمان بن حنيف: أتت الميضاة، ثم أتت المسجد، فصل في ركعتين، ثم قل: «اللهم إني أسألك وأتوجه إليك

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب رقم (٣٥٧٨)، وصحيح ابن خزيمة (٢٢٥/٢)، وأخرجه أحمد في المسند (١٣٨/٣) رقم (١٧٢٨٠). وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط محقق المسند.

(٢) تحفة الذاكرين (ص ١٦٢).

(٣) التوسل والوسيلة (ص ٦٤)، وجاء في كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (١٣٣/٢٧): «هذا طلب من النبي وأمره أن يسأل الله أن يقبل شفاعته النبي له في توجهه بنبيه إلى الله هو كتوسل غيره من الصحابة به إلى الله، فإن هذا التوجه والتوسل هو توجه وتوسل بدعائه وشفاعته». وقال: «وأما قول القائل: أسألك أو أقسم عليك بحق ملائكتك أو بحق أنبيائك أو بنبيك فلان أو برسولك فلان أو بالبيت الحرام أو بزعم والمقام أو بالطور والبيت المعمور ونحو ذلك فهذا النوع من الدعاء لم ينقل عن النبي ﷺ ولا أصحابه ولا التابعين لهم بإحسان، بل قد وجد من العلماء كأبي حنيفة وأصحابه كأبي يوسف وغيره من العلماء على أنه لا يجوز مثل هذا الدعاء، فإنه أقسم على الله بمخلوق، ولا يصح القسم بغير الله، وإن سأله به على أنه سبب ووسيلة إلى قضاء حاجته، أما إذا سأل الله بالأعمال الصالحة وبدعاء نبيه والصالحين من عباده فالأعمال الصالحة سبب للإثابة والدعاء سبب للإجابة فسؤاله بذلك سؤال بما هو سبب لنيل المطلوب، وهذا معنى ما يروى في دعاء الخروج إلى الصلاة اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي هذا. وكذلك أهل الغار الذين دعوا الله بأعمالهم الصالحة، فالتوسل إلى الله بالنبيين هو التوسل بالإيمان بهم وبطاعتهم كالصلاة والسلام عليهم ومحبتهم ومواليتهم أو بدعائهم وشفاعتهم وأما نفس ذواتهم فليس فيها ما يقتضي حصول مطلوب العبد، وإن كان لهم عند الله الجاه العظيم والمنزلة العالية بسبب إكرام الله لهم وإحسانه إليهم وفضله عليهم».

بمحمد نبي الرحمة... إلخ» « وقال الطبراني عقبه: والحديث صحيح » (١).

ومع ذلك حاول ابن تيمية رحمته أن يتلمس العذر في ترك هذه الرواية قائلاً: « وإنما غايتها أن يكون عثمان بن حنيف ظن أن الدعاء يدعى ببعضه دون بعض، فإنه لم يأمره بالدعاء المشروع بل ببعضه، وظن أن هذا مشروع بعد موته، ولفظ الحديث يناقض ذلك، فإن في الحديث أن الأعمى سأل النبي أن يدعو له، وأنه علم الأعمى أن يدعو وأمره في الدعاء أن يقول: « اللهم فشفعه في » وإنما يدعى بهذا الدعاء إذا كان النبي داعياً شافعاً له، بخلاف من لم يكن كذلك، فهذا يناسب شفاعته ودعائه للناس في محياه في الدنيا ويوم القيامة إذا شفع لهم » (٢).

ورغم التهويل والتضخيم الذي يدور حول قضية التوسل اليوم، فأرى أن الخلاف فيها مما يعذر فيه العلماء بعضهم بعضاً، ولا يكفر ولا يفسق بعضهم بعضاً، إذا لم نقل إن الخلاف فيها أقرب إلى أن يكون فقهياً أو لفظياً، فابن تيمية رحمته - وهو حامل لواء المانعين لهذا النوع من التوسل يقول: « السؤال بالمعظم كالسؤال بحق الأنبياء، فهذا فيه نزاع، وقد تقدم عن أبي حنيفة وأصحابه أنه لا يجوز ذلك، ومن الناس من يجوز ذلك.... نعم لو سأل الله بإيمانه بمحمد ومحبه له وطاعته له واتباعه لكان قد سأله بسبب عظيم يقتضي إجابة الدعاء، بل هذا أعظم الأسباب والوسائل » (٣).

الدعاء بلا توسل هو الأصل، ووجوب منع التوسل إذا سبب خللاً في العقيدة:

ومما يجدر التنبيه إليه أن التوسل لم يكن هو الأصل المعمول به في أدعية الصحابة ولا التابعين، وأن أحاديث التوسل التي صحت عند أهل السنة فإنها لا تعدو أن تكون استثناء من الأصل الذي هو سؤال الله تعالى دون توسل.

فمن المعلوم لنا أن الله تعالى قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال عليه السلام معلماً ابن عباس رضي الله عنهما: « إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله » (٤). في حين تجعل روايات الشيعة وعمل كثير

(١) الهيثمي: مجمع الزوائد (٢٧٩/٢). (٢) مجموع الفتاوى (٢٧٥/١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢١٢/١).

(٤) صحيح أخرجه الترمذي، كتاب صفة القيامة والرقائق، باب منه، رقم (٢٥١٦) وقال: هذا حديث

حسن صحيح، وأحمد في مسنده (٣٠٣/١).

من أهل زماننا الحديث عن التوسل والاستغاثة بالأنبياء والصالحين وبالآئمة هي الأصل، مكان التوسل إلى الله بأسمائه وصفاته الحسنی، والأعمال الصالحة.

ولذلك ورد عن بعض الأئمة كراهة بعض صيغ التوسل؛ لأنها موهمة؛ قال الكاساني: « ويكره للرجل أن يقول في دعائه: أسألك بحق أنبيائك ورسلك ^(١)، وبحق فلان، لأنه لا حق لأحد على الله ﷻ جل شأنه » قال الحصكفي: « كره قوله بحق رسلك وأنبيائك وأوليائك أو بحق البيت، لأنه لا حق للخلق على الخالق تعالى » ^(٢). قال ابن عابدين شارحاً: « لأنه لا حق للخلق على الخالق، قد يقال: إنه لا حق لهم وجوباً على الله تعالى، لكن الله ﷻ جعل لهم حقاً من فضله أو يراد بالحق الحرمة والعظمة فيكون من باب الوسيلة، وقد قال تعالى: ﴿ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥]... وجاء في رواية: « اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وبحق ممشاي إليك فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً.. الحديث » ^(٣)... أقول: لكن هذه كلها احتمالات مخالفة لظاهر المتبادر من هذا اللفظ، ومجرد إيهام اللفظ ما لا يجوز كاف في المنع كما قدمناه، فلا يعارض خبر الآحاد طاعة، والله أعلم أطلق أئمتنا المنع على أن إرادة هذه المعاني مع هذا الإيهام فيها الإقسام بغير الله تعالى وهو مانع آخر، تأمل، نعم ذكر العلامة المناوي في حديث « اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك نبي الرحمة » عن العز بن عبد السلام أنه ينبغي كونه مقصوراً على

(١) وما جاء عن توسل آدم بحق النبي محمد عليهما الصلاة والسلام فهو خير ضعيف جاء في مجمع الزوائد (٢٥٣/٨). روي عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: « لما أذنب آدم الخطيئة الذنب الذي أذنبه رفع رأسه إلى العرش فقال: أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، فأوحى الله إليه: وما محمد، قال: تبارك اسمك لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك فأريت فيه مكتوباً (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فعلمت أنه ليس أحد أعظم عندك قدرًا ممن جعلت اسمه مع اسمك. فأوحى الله إليه: يا آدم إنه آخر النبيين من ذريتك ولولا هو ما خلقتك ». قال الهيثمي: رواه الطبراني في الأوسط والصغير وفيه من لم أعرفهم.

(٢) علاء الدين الكاساني: بدائع الصنائع (١٢٦/٥)، الحصكفي: الدر المختار (٣٩٧/٦).

(٣) أخرج ابن أبي شيبة، وابن ماجه هذا الحديث: رقم (٧٧٨)، باب المشي إلى الصلاة: عن أبي سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ: « من خرج من بيته إلى الصلاة فقال: اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياء ولا سمعة، خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك، فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي، إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت؛ أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك ». قال في مصباح الزجاجة (٩٨/١) « هذا إسناد مسلسل بالضعفاء: عطية هو العوفي وفضيل بن مرزوق والفضل بن الموقف كلهم ضعفاء لكن رواه ابن خزيمة في صحيحه من طريق فضيل بن مرزوق فهو صحيح عنده وذكره رزين ورواه أحمد بن منيع ».

النبي وأن لا يقسم على الله بغيره وأن يكون من خصائصه... ونازع العلامة ابن أمير حاج في دعوى الخصوصية وأطال الكلام على ذلك في الفصل الثالث عشر آخر شرحه على المنية فراجعه» (١).

- أما إن فشا بين العامة استخدام التوسل بالطرق الممنوعة كاعتقاد التفويض؛ فإنهم يمنعون منه كما جاء في إمداد الفتوى: «إن التوسل بالمقبولين عند الله في الدعاء سواء كانوا أحياء أو أمواتًا جائز،... نعم إذا ظهر في ذلك غلو في عامة الناس، ومنعوا من أجل ذلك، فالمنع في مثل ذلك صحيح أيضًا، ولكن الاعتقاد بأن الله تعالى تجب عليه الإجابة بالتوسل، أو أن هؤلاء المقربين المتوسل بهم يرحى منهم الإعانة، أو أن أسماءهم كأسماء الله تعالى فإن كل ذلك زيادة على الشرع» (٢). ويدخل في هذا المعنى ما يرد اليوم من استغاثات بالنبي ﷺ أو بالحسين كقولهم يا محمد، يا علي، يا حسين، فهذه الاستغاثات تخالف الأصل الذي هو سؤال الله تعالى وحده، وتعد مدخلًا للشرك والعياذ بالله تعالى. ناهيك على أنها سوء أدب مع الله القائل: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].
وقوله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنِّي عِبَادِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

ثانيًا: تعظيم القبور وتخصيصها والطواف حولها:

لقد ورد عن الأئمة النهي عن رفع القبور وتخصيصها:

عن عبد الأعلى عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنَّ أباي عليه السلام استودعني ما هناك، فلما حضرته الوفاة قال: ادع لي شهودًا فدعوت له أربعة من قريش فيهم نافع مولى عبد الله ابن عمر فقال اكتب: هذا ما أوصى به يعقوب بنيه يا بني إنَّ الله اصطفى لكم الدِّين فلا تموتنَّ إلا وأنتم مسلمون، وأوصى محمد بن عليٍّ إلى جعفر بن محمد وأمره أن يكفنه في برده الذي كان يصلِّي فيه الجمعة وأن يعتمه بعمامته وأن يرتع قبره ويرفعه أربع أصابع» (٣).

(١) حاشية ابن عابدين رد المحتار على الدر المختار (٣٩٧/٦).

(٢) أشرف علي التهانوي: إمداد الفتاوى (٣٧٢/٤). نقله إلى العربية الشيخ تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم (٣١٨/٥، ٣١٩).

(٣) أصول الكافي (٣٦٣/١)، كتاب الحججة باب الإشارة والنص على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق.

هذه وصية الأئمة المنسجمة مع الأوامر النبوية.

في حين نرى كل قبور الأئمة مشرفة مرفوعة مجصصة ومزخرفة، يطوف بها الأتباع بلا نكير من أحد.

بل تذكر الروايات جواز الطواف على القبور واستقبالها بالدعاء:

فقد جعل النوري من أبواب مستدرک الوسائل: باب جواز الطواف على القبور، وذكر أن من فعل ذلك فاطمة عليها السلام: « ودخلت فاطمة عليها السلام المسجد، وطافت بقبر أبيها وهي تبكي وتقول: إنا فقدناك فقد الأرض وابلها » (١).

وجاء في الزيارة الخامسة من زيارات الأئمة في بحار الأنوار:

وتقول عند كل إمام زرته إن شاء الله: السلام عليك يا ولي الله، السلام عليكم يا حجة الله... وقل: بأبي وأمي يا آل المصطفى، إنا لا نملك إلا أن نطوف حول مشاهدكم، ونعزي فيها أرواحكم، على هذه المصائب العظيمة الحالة بفنائكم والرزايا الجليلة النازلة بساحتكم، التي أثبتت في قلوب شيعتكم القروح، وأورثت أكبادهم الجروح، وزرعت في صدورهم الغصص. فنحن نشهد الله أنا قد شاركنا أولياءكم وأنصاركم المتقدمين في إراقة دماء الناكثين والقاسطين والمارقين، وقتلة أبي عبد الله سيد شباب أهل الجنة يوم كربلاء، بالنيات والقلوب، والتأسف على فوت تلك المواقف، التي حضروا لنصرتكم، وعليكم منا السلام، ورحمة الله وبركاته. ثم اجعل القبر بينك وبين القبلة وقل: اللهم يا ذا القدرة التي صدر عنها العالم مكوناً مبروراً عليها، مفطوراً تحت ظل العظمة، فنطقت شواهد صنعك فيه بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، مكونه وبارئه، وفاطره.... إلخ (٢).

وهذه الروايات المجيزة للطواف بالقبور مخالفة لما ورد في الكافي: « لا تشرب وأنت قائم ولا تبل في ماء نقيع، ولا تطف بقبر، ولا تخل في بيت وحدك » (٣). ولذلك جعل الحر العاملي عنوان أحد أبواب كتابه وسائل الشيعة: « باب عدم جواز الطواف بالقبور » (٤). فجاء النوري - صاحب فصل الخطاب ومستدرک الوسائل - ليفسره بقوله « المراد

(١) مستدرک الوسائل: كتاب الحج، باب جواز الطواف بالقبور (٣٦٦/١٠).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (١٦٧/٩٩).

(٣) الكليني: فروع الكافي (٥٣٤/٦). والخبر في علل الشرائع وبحار الأنوار.

(٤) وسائل الشيعة (٤٥٠/١٠).

بالطواف (الحدث) في هذه الأخبار « (١) أي النهي عن تنجيس القبور؛ لأن الطوف هو الحدث من الطعام - الغائط -! « فلا بأس بالطواف حول قبورهم ﷺ » (٢) وقد كان المجلسي من قبل قد فسر علة النهي بقوله: « يحتمل أن يكون النهي عن الطواف بالعدد المخصوص الذي يطاف بالبيت... يحتمل أن يكون يراد بالطواف المنفي هنا التغوط » (٣).

ويرى المجلسي أنّ « استقبال القبر أمر لازم، وإن لم يكن موافقاً للقبلة.. واستقبال القبر للزائر بمنزلة استقبال القبلة، وهو وجه الله، أي جهته التي أمر الناس باستقبالها في تلك الحالة » (٤).

مع أنه ورد عن الأئمة النهي من النبي عن اتخاذ القبر قبلة ومسجدًا: عن أبي جعفر محمد الباقر يقول: إنّ رسول الله ﷺ .. قال: « لا تتخذوا قبوري قبلة ولا مسجدًا، فإنّ الله ﷻ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٥)، وهذا الحديث ثابت عند أهل السنة أيضًا: فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال ﷺ: « لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » (٦).

ومن الطريف أن عليًا عليه السلام كما ثبت في كتب أهل السنة والشيعة - كان من مهامه هدم القبور المشرفة: فقد روى أهل السنة أن عليًا عليه السلام قال لأبي الهياج الأسدي: « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع تماثلاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته » (٧). وهذا موافق لما رواه الأئمة في النهي عن تخصيص القبور ورفعها: روى الكليني عن أبي عبد الله قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام: « بعثني رسول الله ﷺ إلى المدينة فقال: لا تدع صورة إلا محوتها ولا قبراً إلا سويته » (٨)، وفي رواية أخرى: « بعثني رسول الله ﷺ في هدم القبور وكسر الصور » (٩).

(١) مستدرك الوسائل: كتاب الحج، باب جواز الطواف بالقبور (٣٦٦/١٠).

(٢) مستدرك الوسائل: كتاب الحج، باب جواز الطواف بالقبور (٣٦٧/١٠).

(٣) بحار الأنوار (١٢٦/١٠٠). (٤) بحار الأنوار (٣٦٩/١٠١).

(٥) ابن بابويه: علل الشرائع (ص ٣٥٨)، بحار الأنوار (١٢٨/١٠٠).

(٦) البخاري: كتاب الجنائز، باب ما يكره من اتخاذ المساجد على القبور.

(٧) أخرجه مسلم في الجنائز، باب الأمر بتسوية القبر (٩٦٩).

(٨) فروع الكافي (٢٢٧/٢)، وسائل الشيعة (٢/٨٦٩).

(٩) فروع الكافي (٢٢٦/٢)، وسائل الشيعة (٢/٨٧٠).

فلو خرج علي عليه السلام من قبره أسيصح للشيعه بما يفعلونه عند قبره وقبر ذريته من بعده، أم سيطبق وصية النبي صلى الله عليه وآله التي أوصاه بها، وخالفها من يزعمون أنهم أتباعه وأحبابه؟ وعن جعفر الصادق قال: « نهى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يصلّى على قبر أو يقعد عليه أو يبنى عليه » ^(١) وعنه أيضاً: « لا تبنوا على القبور.. فإن رسول الله صلى الله عليه وآله كره ذلك » ^(٢). وعنه أيضاً عن آباءه عن رسول الله صلى الله عليه وآله: « نهى أن يجصص المقابر » ^(٣).

ولكن لن يعجز علماء الشيعة عن تأويل هذه النصوص وأمثالها، فقد زعم الحزب العمالي أنّ هذا النهي يشمل كل قبر « غير قبر النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام، وأن هذا النهي لمجرد الكراهة » ^(٤)، ولكنه لم يوضح من أين جاء هذا التخصيص، فالتخصيص أو صرف النهي من التحريم إلى الكراهة يحتاج لدليل.

وينبغي ملاحظة أمر مهم أن عامة الاثني عشرية في مجال الزيارات يتبعون مذهب الأخباريين، فكثير من الأصوليين في هذه المواقع كالأخباريين؛ لأنه مقام العاطفة الجياشة؛ ولذلك فمن تتبع كتب الزيارات التي يتلوها عوام الشيعة يعلم أن رأي الأخباريين هو الطاعني والغالب عليها.

وكيف لا يببالغ الشيعة في زيارة القبور والطواف فيها، وخصوصاً قبور الأئمة، وقد ورد في فضلها أعظم مما ورد في فضل الحج إلى بيت الله الحرام:

عن أبي الحسن موسى عليه السلام قال: « من زار قبر ولدي علي كان له عند الله كسبعين حجة مبرورة، قال: قلت: سبعين حجة؟ قال: نعم وسبعين ألف حجة، قال: قلت: سبعين ألف حجة؟ قال: رب حجة لا تقبل. من زاره وبات عنده ليلة كان كمن زار الله في عرشه؟ قال: نعم [!!!]. إذا كان يوم القيامة كان على عرش الرحمن أربعة من الأولين وأربعة من الآخرين، فأما الأربعة الذين هم من الأولين فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وأما الأربعة من الآخرين فمحمد وعلي والحسن والحسين - صلوات الله عليهم - ثم يمد المضمار فيقعد معنا من زار قبور الأئمة عليهم السلام، إلا أن أعلاهم درجة وأقربهم حبة زوار ولدي علي عليه السلام » ^(٥).

(١) الطوسي: تهذيب الأحكام (١٣٠/١)، وسائل الشيعة (٨٦٩/٢).

(٢) تهذيب الأحكام (١٣٠/١ - ٦١٢)، وسائل الشيعة (٨٧٠/٢).

(٣) ابن بابويه: من لا يحضره الفقيه (١٩٤/٢)، أمالي الصدوق (ص ٢٥٣)، وسائل الشيعة (٨٧٠/٢).

(٤) وسائل الشيعة (٨٦٩/٢) باب كراهة البناء على القبر في غير قبر النبي والأئمة.

(٥) الكليني: الكافي (٥٨٥/٤)، عيون أخبار الرضا (٢٩٠/١)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، =

وقد عقد لذلك المجلسي بابًا عن زيارة الحسين بعنوان: « باب أن زيارته واجبة مفترضة مأمور بها، وما ورد من الدم والتأنيب والتوعد على تركها » وذكر فيه أربعين حديثًا من أحاديثهم^(١).

وهناك « رفاع » تكتب، وتوضع على قبور الأئمة؛ لأن قبور الأئمة وأضرحتهم عندهم مناط الرجاء ومفزع الحاجات. قالوا: « إذا كان لك حاجة إلى الله ﷻ فاكتب رقعة على بركة الله، واطرحها على قبر من قبور الأئمة إن شئت، أو فشدّها واختمها واعجن طينًا نظيفًا واجعلها فيه، واطرحها في نهر جارٍ، أو بئر عميقة، أو غدير ماء، فإنّها تصل إلى السيد العظيم [أي: المهدي المنتظر]، وهو يتولّى قضاء حاجتك بنفسه »^(٢).
وجاء في الكافي وغيره: « إنّ زيارة قبر الحسين تعدل عشرين حجّة، وأفضل من عشرين عمرة وحجّة »^(٣).

أما عن زيارة الحسين يوم عرفة حين يكون الحجاج في عرفة: فتذكر الرواية أن « من أتى قبر الحسين عارفًا بحقه في غير يوم عيد كتب الله له عشرين حجّة وعشرين عمرة مبرورات مقبولات.. ومن أتاه في يوم عيد كتب الله له مائة حجّة ومائة عمرة.. ومن أتاه يوم عرفة عارفًا بحقه كتب الله له ألف حجّة وألف عمرة مبرورات متقبّلات، وألف غزوة مع نبي مرسل أو إمام عادل »^(٤).

كما أن ظاهر بعض الروايات تشي الناس عن الحج، وتدعو لزيارة الحسين وكربلاء: تقول الرواية: « لو أتى حدّثتكم بفضل زيارته وبفضل قبره لتركتم الحج رأسًا وما حجّ منكم أحد، ويحك أما علمت أنّ الله اتّخذ كربلاء حرماً أمناً مباركاً قبل أن يتّخذ مكة حرماً.. »^(٥).

وقال: « إنّ الله يبدأ بالتّظر إلى زوّار قبر الحسين بن علي عشية عرفة قبل نظره إلى

= (١٤٠٤ هـ)، وانظر: من لا يحضره الفقيه (٩٣/٢)، (ط ٢)، تحقيق علي أكبر غفاري (١٤٠٤ هـ)، جماعة المدرسين - قم.

(١) انظر: بحار الأنوار (١/١٠١ - ١١).

(٢) بحار الأنوار (٢٩/٩٤)، وانظر: د. القفاري: مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٥٤٧/٢).

(٣) فروع الكافي (٣٢٤/١)، الطوسي: تهذيب الأحكام (١٦/٢)، الحرّ العاملي: وسائل الشيعة (٣٤٨/١٠).

(٤) انظر: الكليني: فروع الكافي (٣٢٤/١)، ابن بابويه: من لا يحضره الفقيه (١٨٢/١)، الطوسي: التهذيب (١٦/٢)، ابن قولويه: كامل الزيارات (ص ١٦٩)، الحرّ العاملي: وسائل الشيعة (٣٥٩/١٠).

(٥) بحار الأنوار (٣٣/١٠١)، كامل الزيارات (ص ٢٦٦).

أهل الموقف» (قال الراوي: وكيف ذلك؟) قال أبو عبد الله: « لأنّ في أولئك أولاد زنا، وليس في هؤلاء أولاد زنا »^(١)!!!.

وقد جاء في بعض الروايات رفض هذا الغلو الذي يجعل من الحج إلى القبر أفضل من الحج لبيت الله الحرام. تقول رواية المجلسي في بحار الأنوار: « عن حنان قلت لأبي عبد الله عليه السلام: ما تقول في زيارة قبر الحسين - صلوات الله عليه - فإنه بلغنا عن بعضكم أنه قال: تعدل حجة وعمرة؟ قال: فقال: ما أضعف هذا الحديث! ما تعدل هذا كله، ولكن زوروه ولا تجفوه فإنه سيد شباب أهل الجنة ». ولكن للمرة الألف يتدخل ادعاء التقية، فيرى شيخ الشيعة المجلسي أن هذا النص ورد مورد التقية^(٢)!!

كما تزعم بعض الروايات أن الله ﷻ يزور قبور الأئمة مع الشيعة، ففي البحار للمجلسي « إن قبر أمير المؤمنين يزوره الله مع الملائكة ويزوره الأنبياء ويزوره المؤمنون »^(٣).

وجاء في « وسائل الشيعة » وغيره عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر قال: « لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين عليه السلام من الفضل لماتوا شوقاً، وتقطعت أنفسهم عليه حسرات، قلت: وما فيه، قال: من زاره تشوقاً إليه كتب الله له ألف حجة متقبلة، وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيد من شهداء بدر [!!!]، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة، وثواب ألف نسمة أريد بها وجه الله، ولم يزل محفوظاً سنته من كل آفة أهونها الشيطان، ووكل به ملك كريم يحفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوق رأسه ومن تحت قدمه، فإن مات سنته حضرته ملائكة الرحمن يحضرون غسله وأكفانه والاستغفار له ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار له، ويفسح له في قبره مدّ بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر، ومن منكر ونكير يروعانه، ويُفتح له باب إلى الجنة، ويعطى كتابه بيمينه ويعطى له يوم القيامة نور يضيء لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادي مناد: هذا من زار الحسين شوقاً إليه، فلا يبقى أحد يوم القيامة إلا تمتى يومئذ أنه كان من زوّار الحسين عليه السلام »^(٤).

و « من زار الحسين عليه السلام يوم عاشوراء حتى يظل عنده باكيًا لقي الله ﷻ يوم القيامة

(١) الفيض الكاشاني: الوافي المجلد الثاني (٢٢٢/٨).

(٢) بحار الأنوار (٣٥/١٠١)، الدكتور القفاري: مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٥٥٧/٢).

(٣) بحار الأنوار (٢٥٨/١٠٠).

(٤) كامل الزيارات (ص ١٤٣)، وسائل الشيعة (٣٥٣/١)، بحار الأنوار (١٨/١٠١).

بثواب ألفي ألف حجة، وألفي ألف عمرة، وألفي ألف غزوة، وثواب كل حجة وعمرة وغزوة كتبوا من حج واعتمر وغزا مع رسول الله ﷺ ومع الأئمة الراشدين صلوات الله عليهم ^(١).

« ولعل مثل هذه الروايات هي السبب في شيوع عبادة الأئمة، وأضرحتهم، وعمارة المشاهد وتعطيل المساجد؛ لأن المشاهد هي المساجد، والإمام هو كعبة الله وقبلته، ولهذا صنفوا كتباً سموها: (مناسك المشاهد) أو (مناسك الزيارات) أو (المزار) ^(٢)، واعتنوا ببيان فضائلها وآدابها، وأخذت هذه المسائل في كتبهم المعتمدة قسماً كبيراً ^(٣).

وقد ذكر الشيخ عبد الله شبر من المكفرات « السجود للأصنام » ^(٤). ولعن النبي ﷺ بني إسرائيل لأنهم اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحهم مساجد. وقد رأيت أنا - كاتب الرسالة - بعيني رجلاً يسجد أول ما ظهر له مقام السيدة زينب - رحمها الله - في ريف دمشق، عند عتبة باب مقامها، وعليه لباس علماء الاثني عشرية بالعمامة السوداء، ألا يدخل هذا في النهيات عند الشيعة أو في المكفرات؟ أم أن تعظيم الأئمة بأي طريق كان - ولو بالسجود - لا يعد منهياً عنه ولا مكفراً! ^(٥) والله ﷻ أمرنا بعمارة المساجد، لا عمارة القبور والأضرحة والمشاهد، فقال ﷻ: ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨] ^(٥). وقال: ﴿ إِنَّمَا يَحْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴾ [التوبة: ١٨].

ثالثاً: السجود على التربة الحسينية، وتفضيل كربلاء على كل البقاع المقدسة:

عندما كنت أرى الشيعة يسجدون على أفراس ترابية في مقام السيدة زينب - رحمها الله تعالى - في ريف دمشق كنت أظن أنهم يسجدون عليها لأنهم فقط لا يجيزون السجود على غير ما هو من أصل الأرض، وهي مسألة فقهية يسعنا ويسعهم الخلاف

(١) بحار الأنوار (٢٩٠/١٠١)، كامل الزيارات (ص ١٧٦) ما بعدها.

(٢) مثل كتاب: مناسك الزيارات للمفيد، وكتاب المزار لمحمد علي بن الفضل، والمزار لمحمد المشهدي، والمزار لمحمد بن همام، والمزار لمحمد بن أحمد. ذكرها العالمي في وسائل الشيعة ونقل عنها.

انظر: وسائل الشيعة (٤٨/٢٠، ٤٩)، وانظر: ابن تيمية: منهاج السنة (١٧٥/١)، الفتاوى (٤٩٨/١٧) .

(٣) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٢١٧/١) .

(٤) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٧٣) .

(٥) د. عامر النجار: في مذاهب الإسلاميين (ص ٤٥٤) .

الفقهي فيها. ولكن بعد أن رأيت على بعض هذه الأقراص كتابة مفادها أنها من تربة كربلاء علمت أن لهذا الأمر أصلاً عقدياً علاوة على ذلك الأصل الفقهي.

وبالرجوع إلى النصوص نرى أن الشيعة يروون في حق التربة الحسينية عدة روايات تبين فضلها على باقي التراب:

وهذه رواية عن جعفر الصادق تقول: « إن الله تعالى جعل تربة جدي الحسين عليه السلام شفاء من كل داء وأماناً من كل خوف، فإذا تناولها أحدكم فليقبلها وليضعها على عينيه، وليمرها على سائر جسده، وليقل: (اللهم بحق هذه التربة، وبحق من حل بها وثوى فيها، وبحق أبيه وأمه وأخيه والأئمة من ولده، وبحق الملائكة الحافين به إلا جعلتها شفاء من كل داء، وبرءاً من كل مرض، ونجاة من كل آفة، وحرزاً مما أخاف وأحذر) ثم يستعملها »^(١).

وتروي كتب الشيعة أن هذه الطينة هي أمل الحور العين، فهن يطلبن من الملائكة حينما يهبطون إلى الأرض أن تكون هداياهن من طين قبر الحسين^(٢).

كما أن السجود على هذه التربة يسهل قبول الصلاة والدعاء، فيصفون هذه التربة بأنها « تخرق الحجب السبع »^(٣).

ونجد في كتاب (وسائل الشيعة)، وكتاب (مستدرك الوسائل) باباً بعنوان « باب استحباب وضع التربة الحسينية مع الميت في الحنوط والكفن وفي القبر »^(٤). « ويجعل معه شيء من تربة الحسين فقد روي أنها أمان »^(٥)، ولهم في هذه المسألة أحاديث كثيرة^(٦).

وكيف لا يفضل الشيعة السجود على التربة الحسينية وهناك من الروايات ما يفضل كربلاء على الكعبة، ويفضل زيارة الحسين على الحج إلى بيت الله؟ فقد جاء في الرواية:

(١) الطوسي: الأمالي (ص ٣١٨، ٣١٩)، دار الثقافة - قم (ط ١)، (١٤١٤ هـ)، وبحار الأنوار (١١٩/٩٨)،
العالمي: وسائل الشيعة (٥٢٣/١٤).

(٢) بحار الأنوار (١٣٤/١٠١).

(٣) الطوسي: مصباح التهجد (ص ٥١١)، المجلسي: بحار الأنوار (١٣٥/١٠١).

(٤) وسائل الشيعة (٧٤٢/٢)، مستدرك الوسائل (١٠٦/١).

(٥) مستدرك الوسائل (١٠٦/١). ذكرني هذا بما ذكرته الدكتورة سناء عبد اللطيف في كتابها (هكذا يعلم اليهود أطفالهم) دار القلم - دمشق، حيث ذكرت أن اليهود في شتاتهم يحضرون من تراب فلسطين ما يضعونه في قبر ميتهم، وكأن هذا يجعلهم كأنهم دفنوا في فلسطين.

(٦) وسائل الشيعة (٧٤٢/٢)، مستدرك الوسائل (١٠٦/١)، الطوسي: تهذيب الأحكام (٢٧/٢)،
الطبرسي: الاحتجاج (ص ٢٧٤).

« تنفس أبو عبد الله عليه السلام وقال: يا مفضل إن بقاع الأرض تفاخرت: ففخرت كعبة البيت الحرام، على بقعة كربلاء، فأوحى الله إليها أن اسكتي كعبة البيت الحرام، ولا تفتخري على كربلاء، فإنها البقعة المباركة التي نودي موسى منها من الشجرة، وإنها الربوة التي أوت إليها مريم والمسيح، وإنها الدالية - الناعورة يديرها الماء - التي غسل فيها رأس الحسين عليه السلام، وفيها غسلت مريم عيسى عليه السلام واغتسلت من ولادتها، وإنها خير بقعة عرج رسول الله صلى الله عليه وآله منها وقت غيبته » (١).

وتروي كتب الشيعة أنه ما « من ماء ولا أرض إلا عوقبت لترك التواضع لله، حتى سلط الله على الكعبة المشركين، وأرسل إلى زمزم ماء مالحاً حتى أفسد طعمه.. » (٢). ومع أن كربلاء افتخرت إلا أنه لم يصبها من ذلك شيء فهي القائلة - في رواياتهم -: « أنا أرض الله المقدسة المباركة، الشفاء في تربتي ومائي ولا فخر.. » (٣). لعل واضح هذا النص لم يشرب من ماء زمزم العذب الزلال، أو لعله شرب، ولكن بغضه لهذا الدين جعل حلاوته ملوحة أو مرارة في فمه، على حد قول المتنبي:

ومن يك ذا فمٍ مريضٍ يجد مرّاً به الماء الزلالاً (٤)

وقال أحد كبارهم: « أعطيت كربلاء حسب النصوص الواردة بأكثر مما أعطي لأي أرض أو بقعة أخرى من الزية والشرف في الإسلام، فكانت أرض الله المختارة، وأرض الله المقدسة المباركة، وحرماً آمناً مباركاً، وحرماً من حرم الله وحرم رسوله، وقبة الإسلام، ومن المواضع التي يحب الله أن يعبد ويدعى فيها، » « فإن هذه المزاي وأمثالها التي اجتمعت لكربلاء لم تجتمع لأي بقعة من بقاع الأرض حتى الكعبة » (٥).

لقد فضلت روايات الشيعة من بقاع الأرض ما كان متصلاً بحياة الأئمة وأحداثهم، ككربلاء والنجف وقم، على بقاع الأرض التي ارتبطت بحياة الأنبياء الكرام، فإذا كانت الكعبة المشرفة والمدينة النبوية المنورة وبيت المقدس ارتبط تاريخها بحياة أنبياء الله تعالى

(١) الأنوار النعمانية (٢/٨٦، ٨٧). ولاحظ أنه لم يقل وقت إسرائه ومعراجه، بل عبر عنهما بالغيبة، ليوافق عقيدتهم في غيبة الإمام المنتظر.

(٢) بحار الأنوار (١٠١/١٠٩)، كامل الزيارات (ص ٢٧٠).

(٣) بحار الأنوار (١٠١/١٠٩)، كامل الزيارات (ص ٢٧٠).

(٤) تقي الدين أبي بكر علي بن عبد الله الحموي الأزاري: خزنة الأدب وغاية الأرب (١/١٧٩).

(٥) عبد الجواد آل طعمة: تاريخ كربلاء (ص ١١٥)، ط: النجف (١٣٨٧هـ).

كإبراهيم وإسماعيل وإسحاق وعيسى ومحمد - صلوات الله وسلاماته عليهم أجمعين - فإن كربلاء والنجف والكوفة وقم ارتبط تاريخها بحياة بعض الأئمة، ففضل الشيعة ما ارتبط بتاريخ أمتهم على ما ارتبط بحياة أنبياء الله تعالى، وهذا يؤكد عقيدتهم بتفضيل الأئمة على الأنبياء.

فقد جاءت روايات أخرى تبين مكانة النجف والكوفة وقم، وتشجع الشيعة على زيارتها، روى عن الصادق: « إن لله حرماً هو مكة، ولرسوله حرماً وهو المدينة، ولأمير المؤمنين حرماً وهو الكوفة، ولنا حرماً وهو قم، ستدفن فيه امرأة من ولدي تسمى فاطمة، من زارها وجبت له الجنة » (١).

وقال الفيض الكاشاني عن الكوفة: « إن الكوفة حرم الله وحرم رسوله، وحرم أمير المؤمنين، وإن الصلاة فيها بألف صلاة، والدرهم بألف درهم » (٢). ومن المعلوم أن تحديد الأجر العظيم المضاعف على العمل في هذه البقاع يحتاج إلى توقيف بنصوص شرعية صحيحة؛ لأنه لا يثبت بمجرد العقل، فأين هذه النصوص التي تساوي بين المدينة النبوية والكوفة في مضاعفة الأجر والثواب؟

ومن الملاحظ أن روايات الاثني عشرية لا تذكر أثناء التفضيل المدينة المنورة، على ساكنها وآله أزكى الصلاة والسلام؛ خشية أن تحرك مشاعر المسلمين، حتى من الشيعة أنفسهم؛ لأن رسول الله ﷺ إمام الأئمة جميعاً.

ومع تلك النصوص التي تحط من فضل الكعبة وغيرها من البقاع المقدسة في الإسلام؛ جاءت بعض الروايات عن أئمة الشيعة لتأول الكعبة والمسجد والمساجد والقبلة بالإمام والأئمة، مما يعني صرف أنظار المسلمين عن المساجد والكعبة إلى الأئمة وكربلاء، فقد روى عن الصادق: « .. نحن البلد الحرام، ونحن كعبة الله، ونحن قبلة الله » (٣). وروا في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الأعراف: ٢٩] عن الصادق قال: يعني الأئمة (٤). وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]

(١) المجلسي: بحار الأنوار (١٠٢/٢٦٧).

(٢) الفيض الكاشاني: الوافي (٢/٢١٥)، المكتبة الإسلامية - طهران.

(٣) انظر: بحار الأنوار (٣٠٣/٢٤)، مرآة الأنوار (ص ٢١٣).

(٤) تفسير العياشي (١٢/٢)، البرهان (٨/٢)، تفسير الصافي (١٨٨/٢)، مرآة الأنوار (ص ١٧٥)،

نور الثقلين (١٧/٢).

قال: « إن الإمام من آل محمد، فلا تتخذوا من غيرهم إمامًا » (١).

رابعًا: النياحة على الأئمة:

مع أن النبي ﷺ يقول: « ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية » (٢). فإن بعض الروايات الشيعية تشجع على النياحة والعويل، وإقامة المآتم على الأئمة، والتقوي بالطعام على ذلك، في حين ورد النهي عن النياحة والعويل في كتب الشيعة.

فقد روى الشيعة قول النبي ﷺ: « النياحة من عمل الجاهلية » (٣).

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ؑ، قال: قال رسول الله ﷺ: « أربعة لا تزال في أمتي إلى يوم القيامة: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالأنواء والنياحة » (٤).
وحيثما ورد علي ؑ الكوفة قادمًا من صفين، وسمع بكاء الناس على قتلى صفين، قال: « أتغلبكم نساؤكم على ما أسمع؟ ألا تنهونهنّ عن هذا الرنين؟ » (٥).

وعن الصادق عن آبائه قال: « نهى رسول الله ﷺ عن الرثة عند المصيبة، ونهى عن النياحة والاستماع إليها، ونهى عن اتباع النساء للجنائز » (٦).

فكيف يصح عن جعفر الصادق خلاف ما روى، ففي رواية عن الحسن بن زيد قال: « ماتت ابنة لأبي عبد الله عليه السلام ففاح عليها سنة، ثم مات له ولد آخر ففاح عليه سنة، ثم مات ابنه إسماعيل، فجزع عليه جزعًا شديدًا، فقطع النوح، قال: فقيل لأبي عبد الله:

(١) البرهان (٣٩٣/٤).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب ليس منا من شق الجيوب، رقم (١٢٣٢)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب.. رقم (١٠٣).

(٣) رواه الصدوق في من لا يحضره الفقيه (٢٧١/٤، ٢٧٢) كما رواه الحر العاملي في وسائل الشيعة (٩١٥/٢)، ويوسف البحراني في الحدائق الناضرة (١٦٧/٤)، والحاج حسين البروجردي في جامع أحاديث الشيعة (٤٨٨/٣).

(٤) بحار الأنوار (٤٥١/٢٢)، وانظر: مستدرک الوسائل (٩٣/١٣)، وسائل الشيعة (١٢٨/١٧)، الخصال (٢٢٦/١).

(٥) نهج البلاغة (ص ٥٣٢)، وسائل الشيعة (٢٧٥/٣)، مستدرک الوسائل (٤٥٥/٢)، بحار الأنوار (٦١٩/٣٢).

(٦) بحار الأنوار (٢٥٧/٧٨)، من لا يحضره الفقيه (٣/٤)، وسائل الشيعة (٢٧٢/٣)، وانظر: أمالي الصدوق (ص ٤٢٢).

أصلحك الله، أيناح في دارك؟! فقال: إن رسول الله ﷺ قال لما مات حمزة: « ليبيكين حمزة لا بواكي له » (١) وإن أولنا النياحة هنا بمعنى البكاء فقط، فكيف نفسّر الجزع الشديد؟ وإذا لم يعلمنا آل بيت النبي ﷺ الصبر فمن يعلمنا؟ فإن من معدنهم الكريم يلتمس الصبر عند المصائب؟! فاللهم إني أبرئ جعفرًا الصادق عن مثل هذه الرواية.

إن ما حدث للإمام الحسين يعد « بحق مأساة من أكبر المآسي في تاريخ الإنسانية، ولقد صور الشيعة تلك المآسي تصويرًا أخاذًا، وبكى شعراء الشيعة أهل البيت بكاءً مريزًا، ورأوا فيهم صورة الإنسانية الحزينة حتى قيل: أرقّ من دمعة شيعية » (٢).

إنّا إذا نظرنا إلى واقع الشيعة اليوم رأينا اللطم والنياحة الجماعية. ويسير الشيعة في إباحتهم النوح واللطم على الأئمة وراء روايات اثني عشرية كثيرة، ففي رواية عن جعفر الصادق: « لما قتل الحسين ﷺ أقامت امرأته الكلبية عليه مأتمًا، وبكت وبكين النساء والخدم حتى جفت دموعهنّ وذهبت، فبينما هي كذلك إذ رأت جاريةً من جواربها تبكي ودموعها تسيل، فدعتها فقالت لها: ما لك أنت من بيننا تسيل دموعك؟ قالت: لآني لما أصابني الجهد شربت شربة سويق، قال: فأمرت بالطعام والأسوقة فأكلت وشربت وأطعمت وسقت وقالت: إنما نريد بذلك أن نتقوى على البكاء على الحسين ﷺ » (٣).

وتذكر إحدى الروايات تجويز الأئمة للنياحة في النهار، وتلقين النائحة ما تقول في

نياحتها:

عن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الجعفري قال: أتينا خديجة بنت عمر بن عليّ ابن الحسين بن عليّ بن أبي طالب ﷺ نعزيها بآبنتها، فوجدنا عندها موسى بن عبد الله ابن الحسن، فإذا هي في ناحية قريبًا من النساء فعزيناها ثم أقبلنا عليه، فإذا هو يقول لابنة أبي يشكر الرائية: قولي. فقالت:

اعدد رسول الله واعدد بعده أسد الإله وثالثًا عباسا

واعدد عليّ الخير واعدد جعفرًا واعدد عقيلًا بعده الرؤاسا

فقال: أحسنت وأطربتنني، زيديني. فاندفعت تقول:

(١) كمال النعمة وإتمام الدين (ص ٧٣).

(٢) أ. د. عبد الفتاح الفاوي: المنظومة الشيعية وآلياتها (ص ٩٢).

(٣) أصول الكافي (١/٥٣٧) كتاب الحجّة باب مولد الحسين بن علي. قال المحقق: والحديث ضعيف على

ومنا إمام المتقين محمدًا وفارسه ذاك الإمام المطهر
ومنا عليّ صهره وابن عمه وحمزة منا والمهذب جعفر

فأقمنا عندها حتى كاد الليل أن يجيء، ثم قالت خديجة: سمعت عمي محمد بن عليّ صلوات الله عليه وهو يقول: إنما تحتاج المرأة في المأتم إلى التّوح لتسيل دمعته، ولا ينبغي لها أن تقول هجرًا، فإذا جاء الليل فلا تؤذي الملائكة بالتّوح» (١).

وقد روت بعض كتب الشيعة عن آل البيت تشجيعًا على البكاء والإبكاء على الحسين، تقول إحدى الروايات: «من بكى أو أبكى فينا مائة ضمنا له على الله الجنة، ومن أبكى فينا خمسين فله الجنة... ومن أبكى واحدًا فله الجنة، ومن تباكى فله الجنة» (٢)، وفي رواية: «من أشد في الحسين بيتًا من الشعر فبكى وأبكى عشرة فله ولهم الجنة» (٣).

وقد لاحظ الداعية الأديب أبو الحسن الندوي رحمته الله أن ما ألفه أدياء الشيعة في مناقب ومراثي أهل البيت أغزر وأقوى مما ألفه هؤلاء في مجال السيرة النبوية وأحداثها (٤).

ويستثمر الشيعة ذكريات استشهاد الحسين استغلالًا كبيرًا لإحياء التشيع ونشره، ويفرّعون على استشهاده المناسبات من يوم توجهه إلى العراق إلى أربعينية استشهاده. فبين موجه لهذه الأحداث لنشر الفرقة بين المسلمين وتذكير الشيعة بثارات الحسين على الأمويين، مؤلّبًا ومفرّقًا بين المسلمين، وكأن كلّ أهل السنة من الماضي إلى اليوم هم قتلة الحسين! وبين اتجاه معتدل واع موجه لهذه الأحداث إلى نشر قيم الحسين كالشجاعة والبسالة ورفض الظلم والذل، وهذا الاتجاه الذي ينبغي أن يجتمع عليه المسلمون جميعًا سنة وشيعة، فالحسين ليس حكرًا على طائفة من الطوائف، بل هو للمسلمين جميعًا، وسيبقى نبراسًا ومشعلًا يقول: (هيهات منا الذلة).

(١) أصول الكافي (٤١٨/١)، كتاب الحجّة باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٢) ابن طاوس الحسيني (٦٦٤): اللّهوف في قتلى الطفوف (ط١)، طبعة مهر (١٤١٧هـ)، (ص ١٠)، المجلسي: بحار الأنوار (٢٨٨/٤٤)، وقد رواه عن ابن طاوس، وانظر: العاملي: وسائل الشيعة (١٩٦/١٤).

وانظر الاستشهاد بهذه الرواية عند المعاصرين: آية الله السيد عبد الحسين دستغيب: الدار الآخرة (ص ٢٦)، مؤسسة المنار (ط٢) ترجمة لجنة الهدى.

(٣) العاملي: وسائل الشيعة (١٩٦/١٤)، وتعمد كتب الزيارات بهذه الروايات.

(٤) انظر: صورتان متضادتان: أبو الحسن الندوي (ص ١٠٥).

خامساً: إيذاء الجسد (باللطم والتطبير):

ومن الأمور التي سادت في أوساط الشيعة، وسكت عنها كثير من علمائهم حتى استمرأها العوام، واعتقدوها ديناً يتبع: إيذاء الجسد باللطم والضرب بالحديد، وهو ما يسمى (التطبير)، وقد منعه بعض علمائهم كمحسن الأمين الأمين، وآية الله العظمى الشيخ محمد حسين فضل الله، والشيخ محمد جواد مغنية.

ولكن أصواتهم لا تسمع في فورة العاطفة الجياشة في ذكرى الحسين ﷺ يقول مغنية: « ما يفعله بعض عوام الشيعة في بعض مدن العراق وإيران، وفي بلدة النبطية في جنوب لبنان من لبس الأكفان، وضرب الرؤوس والجباه بالسيوف في اليوم العاشر من محرم، فإن هذه البدعة الشنيعة حدثت في عصر متأخر عن عصر الأئمة وعصر كبار العلماء من الشيعة... وأيدها شيوخ السوء لغاية الربح والتجارة، وسكت عنها من سكت خوف الإهانة والضرر، أو فوات المنفعة والمصلحة، ولم يجروا على مجابقتها ومحاربتها أحد في أيامنا إلا قليل من العلماء، في طليعتهم المرحوم السيد محسن الأمين العاملي (١)... وقاومه من أجلها أهل الخداع والأطماع » (٢).

وقد زار الأمين العراق وإيران، ورأى هذه البدعة المنكرة التي تصدّ عن دين الإسلام، ويستغلها أعداؤه في وصفه بالدموية والإرهاب، فأصدر فتواه الشهيرة عام (١٣٥٢ هـ)، قائلاً: « إن ما يفعله جملة من الناس من جرح أنفسهم بالسيوف أو اللطم المؤذي إلى إيذاء البدن إنما هو من تسويلات الشيطان وتزيينه سوء الأعمال، فذلك مما يغضب الحسين ﷺ ويبعد عنه، لا مما يقرب إليه » (٣).

ولذلك كثر الناقدون الناقمون عليه بسبب هذه الفتوى، حتى هجاه أحدهم قائلاً:

يا راكباً إما مررت بجلّقي فابصق بوجه (أمينها) المتزندق (٤)

(١) ولد في جبل عامل عام (١٢٨١ هـ)، سافر لطلب العلم في التجف عام (١٣٠٨ هـ)، ونزل دمشق بطلب من أهلها عام (١٣١٩ هـ)، توفي عام (١٣٧١ هـ).

(٢) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ١٢، ١٣)، دار التعارف - بيروت، (ط ٤)، (١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م).

(٣) السيد محسن الأمين، حياته وشعره (ص ٤٥، ٤٦)، وهو ينقل عن كتابه المجالس السنوية في مناقب ومصائب العترة النبوية (٧/١٠)، دار التعارف للمطبوعات - بيروت، (٦ ط)، (١٩٧٨ م).

(٤) مجلة الواحة، عدد (١)، النقد الذاتي وسلطة العوام، لفؤاد إبراهيم. وانظر: أعلام التصحيح (ص ٢١٨). (جلق) : دمشق.

فأي الدينين أحق أن يتبع، دين العلماء أم دين الدهماء؟!

مسائل فقهية ذات هالات عقدية:

- وهناك مسائل فقهية اختص بها الشيعة، فأعطوها هالات عقدية، للحفاظ على مذهبهم، وتميزهم عن باقي المسلمين، وقالوا: إن المخالفة في هذه الأمور الفقهية يعدّ خروجاً عن دين آل البيت؛ قال عبد الله شبر: « فإن كثيراً من الأمور كانت من ضروريات مذهبهم ودينهم عليه السلام، فإنكارها أو عدم اعتقادها خروج عن دينهم عليه السلام؛ كحليّة المتعة، وعدم جواز المسح على الخفين.. » (١).

١ - مسألة نكاح المتعة:

« يرى أهل السنة أن الرخصة في المتعة مرة أو مرتين في العهد النبوي يقرب من التدرّج في منع الزنا منعاً باتاً، كما وقع التدرّج في تحريم الخمر، وكلتا الفاحشتين كانتا فاشيتين في الجاهلية، ولكن فشوّ الزنا كان في الإماء دون الحرائر، فتلك الإباحة ثم التحريم المؤبد إنما هي من محاسن الشريعة المحمدية وكمال حكمة شارعها » (٢). ولذلك فقد جاء النهي عنها في سنة النبي صلى الله عليه وآله الصحيحة، برواية عدد كبير من الصحابة.

ولما جاء عن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه التأكيد على تحريم المتعة، شجعت الروايات الاثني عشرية على مخالفته رضي الله عنه فأباحوها رغبة في المخالفة (٣)، وأكدوا عليها تأكيدات كثيرة، حتى جعلوها من مصادر أعظم الثواب، وجعلوها من ضرورات المذهب الاثني عشري، فقد عدّوا « إباحة المتعة من ضروريات مذهب الإمامية » (٤). حتى زعموا أن امرأة كانت تردّ الخطاب؛ لأنها لا رغبة لها في الزواج، ولكنها أرسلت لابن عم لها لتتزوجه متعة؛ رغبة في عصيان عمر، كما تقول الرواية (٥)!

وتنقل كتب الشيعة من الأحكام الفقهية حول المتعة ما يستحيي المرء عن ذكره، فقد

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (٥٦٩/٢).

(٢) الشيخ شبير أحمد النعماني: (شيخ الحديث بالجامعة الإسلامية في داهيل سورت الهند، ومدير دار العلوم ديوبند): فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٣٣٧/٦). دار القلم - دمشق (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).

(٣) انظر: أحمد حارس سحيمي: توثيق السنة بين الشيعة الإمامية وأهل السنة في أحكام الإمامة ونكاح المتعة، ماجستير دار العلوم. دار السلام - القاهرة (٢٠٠٣م)، (ط ١)، (ص ٥٥١).

(٤) وسائل الشيعة (٤٤١/٧).

(٥) انظر: أخبارهم في فضل المتعة في وسائل الشيعة، باب استحباب المتعة (٤٤٢/١٤) وما بعدها.

قال حججهم: « لا بأس بالتمتع بالرضيعة ضئلاً وتقبيلاً وتفخيذاً » ^(١)!!!
 وذكر الكليني والطوسي أنه « تجوز المتعة على العرد الواحد » أي الجماع
 الواحد ^(٢)!!!.

وقد استخدم الاثنا عشرية المتعة أسلوباً ووسيلة من وسائل نشر مذهبهم، فقد نقل
 الدكتور القفاري عن مجلة المنار أن الاثني عشرية في العراق « دفعوا مجموعة من شيوخ
 القبائل إلى اعتناق الرفض عن طريق إغرائهم »، ففي سنة (١٣٢٦ هـ) كشف الشيخ
 العلامة محمد كامل الرافعي في رسالة أرسلها من بغداد لصديقه الشيخ رشيد رضا،
 ونشرتها مجلة المنار، أثناء سياحته في تلك الديار ما يقوم به علماء الشيعة من دعوة
 الأعراب إلى التشيع واستعانتهم في ذلك بإحلال متعة النكاح لمشايخ قبائلهم الذين
 يرغبون الاستمتاع بكثير من النساء في كل وقت ^(٣)!

وقد وضعوا من النصوص عن الأئمة ما يشجع على هذه المتعة، بما تضمنه هذه الروايات
 من مبالغات في ثواب فاعليها.

فتقول رواياتهم عن النبي ﷺ: « من تمتع مرة فدرجته كدرجة الحسين، ومن تمتع مرتين
 فدرجته كدرجة الحسن، ومن تمتع ثلاث مرات فدرجته كدرجة علي، ومن تمتع أربع مرات
 فدرجته كدرجتي » ^(٤).

فهل يصدق عاقل أن تكون مكانة من أتى شهوته بهذه السبيل كالحسين المجاهد
 الصابر القاتل الظالم في كربلاء، والله! إن هذا النص فيه إزاء بالحسين وجهاده
 وكفاحه، حتى يعطى ساقط داعر درجة الحسين التي لا ينالها إلا الرجال الصادقون في
 جهادهم واستشهادهم، ناهيك عن مكانة الحسن ثم مكانة النبي الأعظم ﷺ!
 وتذكر رواية أخرى: أنه إذا تزوجها متعة « لم يكلمها كلمة إلا كتب الله له بها

(١) الحميني: تحرير الوسيلة (٢/٢٤١)، وانظر: عبد الله المشيرفي: نبذة مختصرة عن دين الشيعة (ص ١١).

(٢) روى عن أبي الحسن - الإمام العاشر - أنه سئل: « كم أدنى أجل المتعة؟ هل يجوز أن يتمتع الرجل
 بشرط مرة واحدة؟ قال: نعم، وعن جده أبي عبد الله على عرد [أي مجامعة لمرة واحدة] واحد، فقال:
 لا بأس، ولكن إذا فرغ فليحول وجهه ولا ينظر » انظر: الكليني: الفروع من الكافي (٥/٤٦٠)، الطوسي:

الاستبصار (٣/١٥١).

(٣) مجلة المنار، المجلد (٢٩)، وانظر أيضاً: المجلد الثاني (ص ٦٨٧).

(٤) تفسير منهج صادقين (ص ٣٥٦).

حسنة، ولم يمد يده إليها إلا كتب الله له حسنة - إلى أن يقول - : فإذا اغتسل غفر الله له.. بعدد الشعر « (١).

في حين تحذر الروايات من لم يتمتع في حياته ولو لمرة واحدة؛ لأن « من خرج من الدنيا ولم يتمتع جاء يوم القيامة وهو أجدع » (٢)!

مع أن كتبهم نقلت ما نقله أهل السنة في تحريم المتعة في يوم خيبر، فقد جاء في الاستبصار ووسائل الشيعة عن زيد بن علي عن آبائه عن علي عليه السلام قال: « حرم رسول الله صلى الله عليه وآله يوم خيبر لحوم الحمر الأهلية ونكاح المتعة » (٣). ولكنهم لم يرتضوا هذه النصوص، وحملوها على التقية؛ « لأن إباحة المتعة من ضروريات مذهب الإمامية » (٤).

ويحاول بعض المعاصرين الحديث عن المتعة بأسلوب يتظاهر فيه بالعلمية والحرص على المجتمع تحت عنوان: (المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي) (٥)!

ولا أدري كيف يواجه الاثنا عشرية العالم اليوم بمسألة المتعة وجوازها للحظات تلبّي الشهوة الجنسية الفائرة فقط مقابل صاع أو مدّ من شعير كما ذكروا، من غير ضمان حياة زوجية مستقرة، ولا لسكن نفسي بين الزوجين، ولا استقرار للأسرة، ولا حسن تربية للأبناء. فما الفرق إذن بين الزنا والمتعة.

٢ - وجوب المسح على الرجلين في الوضوء:

قال الشيخ يوسف البحراني: « ما يدل على وجوب المسح ونفي الغسل من أخبارنا مستفيض، بل الظاهر أنه من ضروريات مذهبنا » (٦). مع أنه ورد في بعض الروايات عندهم أن عليًا عليه السلام غسل رجليه في الوضوء أمام النبي صلى الله عليه وآله: عن علي بن أبي طالب

(١) وسائل الشيعة (٤٤٢/١٤)، من لا يحضره الفقيه (٥١/٢). انظر: الدكتور القفاري: مذهب الشيعة (١٤٩١/٣).

(٢) تفسير منهج الصادقين (ص ٣٥٦).

(٣) انظر: الطوسي: تهذيب الأحكام (١٨٤/٢)، الاستبصار (١٣٢/٣)، الحر العاملي: وسائل الشيعة (٤٤١/٧).

(٤) وسائل الشيعة (٤٤١/٧).

(٥) لتوفيق الفكيكي، عراقي معاصر - كتاب: (المتعة وأثرها في الإصلاح الاجتماعي في الرد على مفتريات محمد ثابت في كتابه جولة في ربوع الشرق الأدنى، وعلي موسى جار الله ابن فاطمة التركستاني في كتابه الوشعية)، تقديم الأستاذ عبد الهادي مسعود بوزارة الثقافة والإرشاد القومي! - مطبوعات النجاح بالقاهرة.

(٦) السيد علي الميلاني: حكم الأرجل في الوضوء (ص ٢٥).

قال: « جلست أتوضأ فأقبل رسول الله ﷺ حين ابتدأت الوضوء - إلى أن قال: - وغسلت قدمي، فقال لي: يا علي خلل بين الأصابع لا تخلل بالنار » (١)، قال الطوسي: « هذا خبر موافق للعادة (يعني أهل السنة) وقد ورد مورد التقية؛ لأن المعلوم الذي لا يتخالج منه الشك من مذاهب أئمتنا عليهم السلام القول بالمسح على الرجلين، ثم قال: « إن رواة هذا الخبر كلهم عامة ورجال الزيدية، وما يختصون به لا يعمل به » (٢).

٣ - تحريم المسح على الخفين:

ولما كان المسح على الخفين محلّ إجماع جلة الصحابة وفقهاء أهل السنة؛ أنكر الشيعة المسح على الخفين: فقد سأل رجل الصادق: « ما تقول في المسح على الخفين؟ فتبسّم ثم قال: إذا كان يوم القيامة ردّ الله كلّ شيء إلى شيعته، وردّ الجلد إلى الغنم فترى أصحاب المسح أين يذهب وضوؤهم؟ » (٣).

وإذا كانت التقية دين الشيعة، فإنها ممنوعة في كل ما كان شعارًا من شعارات المخالفين كالمسح على الخفين: عن أبي عمير عن هشام بن سالم عن أبي عمر الأعجمي قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: « يا أبا عمر! إنّ تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له، والتقية في كلّ شيء إلا في التبيذ والمسح على الخفين » (٤).

لأن أهل السنة يرون من علامات التسنن القول بالمسح على الخفين؛ فقد ذكر الفقهاء « إجماع الصحابة على جواز المسح على الخفين قولاً وفعلاً، حتى روي عن الحسن البصري أنه قال: أدركت سبعين بدرية من الصحابة كلهم يرون المسح على الخفين، ولهذا رأى أبو حنيفة من علامات المسلم السني: « أن تفضل الشيخين وتحب الخنتين، وأن ترى المسح على الخفين، وأن لا تحرم نبيذ التمر، يعني المثلث، وروي عنه أنه قال: ما قلت بالمسح حتى جاءني فيه مثل ضوء النهار، فكان الجحود ردًا على كبار الصحابة ونسبة إياهم إلى الخطأ، فكان بدعة؛ فهذا قال الكرخي: أخاف الكفر على من لا يرى المسح على الخفين » (٥).

وهكذا صارت ردّات الأفعال في مسائل فقهية لا عقدية مناطًا للتفسيق والتكفير بين الفرق الإسلامية، وهو أمر ينبغي الحذر منه والترقّع عنه من كلّ الطوائف الإسلامية.

(١) الاستبصار (٦٦ ، ٦٥/١) . (٢) الطوسي: الاستبصار (٦٦ ، ٦٥/١) .

(٣) أصول الكافي (٤١١/١) كتاب الحجّة باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٤) أصول الكافي (٢٢٠/٢) كتاب الإيمان والكفر باب التقية قال محققه: والحديث مجهول.

(٥) أبو بكر الكاساني: بدائع الصنائع (٧/١): المكتبة الحبيبية، باكستان (١٤٠٧ هـ) .



الفصل الخامس

موقف الشيعة الاثني عشرية من الأمة الإسلامية
(وفيه مباحث):

المبحث الأول: تصنيف الناس عند الاثني عشرية.
المبحث الثاني: موقف الشيعة الاثني عشرية من الصحابة الكرام.
المبحث الثالث: موقف الشيعة من الأمة والفرق الكلامية الإسلامية
عموماً.

تمهيد

بيان العلاقة بين الصحابة
الكرام وآل بيت النبي ﷺ

قبل معرفة موقف الاثني عشرية من الأمة الإسلامية عمومًا، ومن الصحابة الكرام خصوصًا، يجدر بيان حقائق مسلمة عند أهل السنة والجماعة، ألا وهي حسن العلاقة بين صحابة النبي ﷺ وآل بيته الكرام (١).

لقد كانت العلاقة بين الآل والصحب علاقة محبة ومودة واحترام، وهذا الذي تورده كتب السنة جمعاء، وبعض الروايات عن أئمة الشيعة، فأهل السنة يكتون للصحابة وآل النبي منهم كل احترام ومودة، فعلي ﷺ من الصحابة الكرام، وكذلك ابناه الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ، كما تتسع دائرة آل بيت النبي لتشمل كل مؤمن؛ فمن كان طائعًا لله فهو من آل بيت النبي ﷺ، ف « سلمان منا آل البيت » (٢).

آل النبي هم أتباع ملته
من الأعاجم والسودان والعرب
لو لم يكن آله إلا قرابته
صلى المصلي على الطاغبي أبي لهب (٣)

وهكذا يتسع قلب المرء المسلم لمحبة صحابة نبيه وآل بيت نبيه، ويعدهم على مستوى واحد في وجوب المحبة والإكرام والتعظيم.

لقد « صلى زيد بن ثابت ﷺ على جنازة، فقربت له بغلة ليركبها فأخذ ابن عباس بركابه، فقال له: خلّ عنك يا ابن عم رسول الله، فقال: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء والكبراء، فقبّل زيد يده وقال: هكذا أمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا » (٤).

وكان ابن عباس ﷺ - وهو من آل النبي - « إذا بلغه حديث عن صحابي ذهب إليه، فإذا رآه قائلًا توسّد رداءه على بابه، فتنسفي الريح التراب على وجهه، حتى يخرج

(١) انظر: المودة والمحبة بين الصحابة والقرابة، محمد زكريا النداف، دار المعراج - دمشق (١٤٣٠هـ / ٢٠٠٩م).

(٢) مستدرک الحاکم (٦٩١/٣).

(٣) من شعر نشوان الحميري. انظر: نيل الأوطار (٣٢٧/٢).

(٤) ابن حجر الهيثمي (أبو العباس أحمد بن محمد، ت ٩٧٣هـ): الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٦٨١/٢). مؤسسة الرسالة - بيروت (١٩٩٧م).

فيقول: ألا أرسلت إليّ فأتيك؟ فيقول له ابن عباس: أنا أحق أن آتيك « (١).

وهكذا كانت علاقة المحبة والاحترام المتبادل بين الصحابة وآل بيت النبي ﷺ معبرة عن تعاليم الإسلام الذي دعا إلى وحدة قلوب المؤمنين.

أولاً: مودة وحب آل البيت في مدرسة الصحابة الكرام:

لا يستغرب رسوخ محبة آل بيت النبي في جذور قلوب الصحابة الكرام ومن جاء بعدهم من التابعين ومن اهتدى بهديهم، فإن نصوص القرآن حضّت على رعاية حق ذوي القربى - كما بيّنّا في تمهيد البحث -.

لقد ثبت في صحاح أهل السنة وكتب التاريخ احترام الصحابة الكرام لعلي ﷺ وللحسن والحسين ﷺ، والتاريخ يشهد كيف كانت صحبة علي لأبي بكر ﷺ، فقد أخرج النسائي: « عن عقبة بن الحارث قال: إني مع أبي بكر حين مر على الحسن فوضعه على عنقه ثم قال: بأبي! شبيه النبي ﷺ لا شبه علي. وعليّ معه فجعل يضحك » (٢). وعند البزار: شبيه النبي ليس بشبيه بعلي، وذلك لشبه الحسن ﷺ لرسول الله ﷺ.

وصح عن أبي بكر ﷺ أنه قال لعلي ﷺ: « والذي نفسي بيده! لقراءة رسول الله أحب إليّ أن أصل من قرابتي » (٣).

وحلف عمر للعباس ﷺ أن إسلامه أحب إليه من إسلام أبيه لو أسلم؛ لأن إسلام العباس أحب إلى رسول الله (٤). وبعث إلى والي اليمن برسالة خاصة لكسوة ريحانتي النبي ﷺ والحسن والحسين ﷺ وهما في سنّ الطفولة (٥). وهذا يبين مقدار اهتمام عمر بشأن حفيدي النبي ﷺ، وطلب عمر ﷺ القرب من البيت النبوي بزواجه من أم كلثوم بنت علي وفاطمة ﷺ (٦). فكان من عمر وأم كلثوم: ولدا عمر بن الخطاب: رقية وزيد.

(١) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٦٨٢/٢).

(٢) سنن النسائي الكبرى: كتاب المناقب، باب فضائل الحسن والحسين (٤٨/٥)، رقم (٨١٦١) دار الكتب العلمية - بيروت (١٤١١هـ / ١٩٩١م)، مسند البزار - ما روى عقبة بن الحارث، حديث: (٦٦١٩٤٠).

(٣) صحيح البخاري: باب مناقب قرابة رسول الله رقم (٣٥٠٨)، وانظر ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢٥٤/٤)، الصواعق المحرقة (٦٨١/٢).

(٤) ابن حجر الهيتمي أبو العباس أحمد بن محمد (٩٧٣هـ)، الصواعق المحرقة (٦٨٢، ٦٨١/٢). باب إكرام الصحابة ومن بعدهم لأهل البيت.

(٥) المتقي الهندي: كنز العمال (٦٣٤/١٣).

(٦) انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢٦٥/٣)، تاريخ يعقوبي (١٤٩/٢، ١٥٠).

ومعلوم أن عمر رضي الله عنه هو الذي جعل ابنة ملك كسرى من نصيب الحسين عليه السلام، فكان منهما الإمام زين العابدين، الذي جمع شرف العرب والعجم.

وقد ذكر الطوسي والصدوق أن عمر رضي الله عنه لم يكن يرتضى من أحد أن يطعن في علي ابن أبي طالب، فقد « وقع رجل في علي عليه السلام بمحضر من عمر، فقال: تعرف صاحب هذا القبر؟ - يعني النبي صلى الله عليه وآله - لا تذكر عليًا إلا بخير، فإنك إن آذيته آذيت هذا صلى الله عليه وآله في قبره » ^(٢).

وقد مشى التابعون ومن بعدهم على خطا الصحابة الكرام في إكرام آل بيت النبي صلى الله عليه وآله، فقد « أتى عبد الله بن حسن بن حسين رضي الله عنه عمر بن عبد العزيز في حاجة فقال له: إذا كانت لك حاجة فأرسل أو اكتب بها إلي، فإنني أستحيي من الله أن يراك على بابي.. ودخلت فاطمة بنت علي على عمر بن عبد العزيز، وهو أمير المدينة، فبالغ في إكرامها، وقال: والله! ما على ظهر الأرض أهل بيت أحب إلي منكم، ولأنتم أحب إلي من أهلي » ^(٣).

وعوتب أحمد في تقريره لشيعة فقال: سبحان الله! رجل أحب قومًا من أهل بيت النبي وهو ثقة، وكان إذا جاءه شريف بل قرشي قدمه وخرج وراءه » ^(٤).

ويقول ابن تيمية عن الإمام الباقر: « أبو جعفر محمد بن علي من خيار أهل العلم والدين، وقيل: إنما سمي الباقر لأنه بقر العلم، لا لأجل بقر السجود جبهته » ^(٥).

ويقول عنه ابن كثير: « تابعي جليل كبير القدر، أحد أعلام هذه الأمة علمًا وعملاً وسيادة وشرافًا » ^(٦).

أما ابنه جعفر الصادق فهو: « أحد الأئمة الأعلام، بڑ صادق كبير الشأن » ^(٧).

(١) « وذلك أن عمر بن الخطاب لما أتى بابتي يزجرده وهب إحداهما للحسين بن علي، فسماها غزالة ». انظر: اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح (ت ٢٨٤هـ): تاريخ اليعقوبي (٣٠٣/٢). دار صادر - بيروت. انظر بحار الأنوار (٣٣٠/٤٥) للمجلسي، مؤسسة الوفاء - بيروت (ط ٢)، (١٤٠٣هـ).

(٢) الصدوق: الأمالي (ص ٣٢٤)، الطوسي: الأمالي (٤٦/٢)، وانظر الخبر في تاريخ دمشق، لابن عساكر (٥١٩/٤٢).

(٣) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة (٦٨١/٢، ٦٨٢). باب إكرام الصحابة ومن بعدهم لأهل البيت.

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) ابن تيمية: منهاج السنة (٥٠/٤).

(٦) ابن كثير: البداية والنهاية (٣٣٨/٩) دار إحياء التراث العربي - بيروت، (ط ١)، (١٤١٨هـ) تحقيق علي شيري.

(٧) الذهبي: ميزان الاعتدال (٢٨٥/٢).

« وهو ذو علم غزير في الدين، وأدب كامل في الحكمة، وزهد بالغ في الدنيا » (١).
وقد أقرّ ابن مطهر الحلبي بأن علماء أهل السنة استفادوا من علوم أئمة أهل البيت:
عندما قال: « علي الرضا أزهد أهل زمانه وأعلمهم، وأخذ عنه فقهاء الجمهور كثيرًا،
وتولّاه المأمون لعلمه بما هو عليه من الكمال والفضل » (٢).

وقال الخليفة الأموي الراشد عمر بن عبد العزيز في علي: « ما علمنا أن أحدًا من هذه
الأمّة بعد رسول الله ﷺ أزهد من علي بن أبي طالب، ما وضع لبنه على لبنه ولا قصبة
على قصبة » (٣).

وقال الشافعي: « ما أقول في رجل أخفت أعداؤه فضائله حسدًا، وأخفت أولياؤه
فضائله خوفًا، وقد شاع من بين ذين ما ملأ الخافقين » (٤).

الفتن التاريخية لم تؤثر على حب الصحابة والامة لآل البيت:

إن الفتن التاريخية في صدر الإسلام لم تغير موقف الصحابة الكرام ولا الأمّة من
محبّتها لآل بيت النبي ﷺ. فقد: « هاجت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ عشرات
الألوف، فلم يحضرها منهم إلا فئة، بل لم يبلغوا ثلاثين » (٥).

وإذا كانت أحداث الفتن المتطاولة قد جعلت بعض الناس ينزلقون في شتم مخالفهم
لمواقفهم السياسية المعارضة لهم. فإن موقف أمة الإسلام ممثلة بصحابة النبي ﷺ
وصالحى التابعين يخالف هذا الاتجاه المشين.

فهذا سعد بن أبي وقاص يعتزل الفتنة، ويرفض سب أمير المؤمنين علي ﷺ (٦)،
وكذلك سهل بن سعد (٧).

(١) الشهرستاني: الملل والنحل (١٦١/١). دار المعرفة - بيروت، (١٤٠٤هـ)، تحقيق: محمد سيد كيلاني.

(٢) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٦٠).

(٣) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ١٠٩).

(٤) المصدر السابق نفسه.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٦٤/٧)، دار الفكر - بيروت (١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م).

(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري في كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب ﷺ
رقم (٣٧٠٦)، وأخرجه مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي ﷺ، رقم (٢٤٠٤).

(٧) متفق عليه: أخرجه البخاري في الصلاة، باب نوم الرجال في المسجد رقم (٤٤١)، وفي فضائل
أصحاب النبي، باب مناقب علي (٣٧٠٣)، وفي باب الأدب، باب التكني بأبي تراب رقم (٦٢٠٤)،
وأخرجه مسلم في كتاب فضائل الصحابة رقم (٢٤٠٩).

وهذا معاوية رضي الله عنه في آخر عمره يشهد لعلي بالفضل، بعد أن ذهب دور السياسة التي فزقت بينهما. فقد ثبت عند أهل السنة والشيعة أن معاوية رضي الله عنه طلب من ضرار الصدائي - أحد أصحاب علي رضي الله عنه - أن يصفه ويذكر له شيئاً من فضائله، قال معاوية: « صف لي علياً يا ضرار! فقال: اعفني يا أمير المؤمنين. فقال: لا بد. فقال: أما إذ ولا بد من وصفه: فكان والله! شديد القوى، بعيد المدى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه... فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن! كان والله! كذلك » (١).

و « قال معاوية يرد على محض بن أبي محضن الضبي حينما اتهم علياً بالبخل والجبن والعي: أعلي كان أبخل الناس؟ والله! لو كان لعلي بيت من تبن وبيت من تير لأنفق تبره قبل تبره، أعلي كان أجبن الناس؟ وهل وقف في الحروب دون رسول الله صلى الله عليه وسلم غير علي؟ أعلي كان أعيب الناس؟ وهل سنّ الفصاحة لقريش إلا علي؟! » (٢).

وقال أحدهم للصحابي سفينة (٣) رضي الله عنه: « إن هؤلاء يزعمون أن علياً لم يكن بخليفة. قال: كذبت أستاذ بني الزرقاء، يعني بني مروان » (٤).

« والمنصوص عن أحمد وأئمة السلف أنه لا يذم أحد منهم [أي الصحابة في عهد علي رضي الله عنه]، وأن علياً أولى بالحق من غيره » (٥).

وقد وقف الصحابة الكرام في وجه أمراء الجور في العهد الأموي ينصحونهم أحياناً ويتوعدونهم أحياناً أخرى، ومن أمثلة ذلك وقفة أبي هريرة في عهد مروان بن الحكم ينصحه بعدم اتخاذ التصاوير (٦).

(١) شرح أصول الكافي - مولي محمد صالح المازندراني (٢٧٤/١١)، ابن المطهر الحلي: منهاج الكرامة (ص ١٦٠)، جعفر كاشف الغطاء: كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء (١٦/١) طبعة انتشارات مهدوي - أصفهان، وأثبت في النص لعن معاوية رضي الله عنه مع أنه ترحم على صاحبه علي رضي الله عنه !!.

(٢) إبراهيم موسى الزنجاني: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ١١٠).

(٣) سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قيل كان اسمه مهران وقيل غير ذلك، أصله من فارس فاشترته أم سلمة ثم أعتقته واشترطت عليه أن يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أم سلمة وعلي. وعن سبب تسميته بسفينة يقول: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في سفر، فكان بعض القوم إذا أعيب ألقى على ثوبه حتى حملت من ذلك شيئاً كثيراً فقال صلى الله عليه وسلم: « ما أنت إلا سفينة ». وكان يسكن بطن نخلة. (ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة (١٣٢/٣)، وتوفي سفينة في زمن الحجاج (ابن عبد البر: الاستيعاب ٢٠٧/١).

(٤) سنن أبي داود: كتاب السنة، باب في الخلفاء رقم (٤٦٤٦). (أستاذة: جمع إسن، وهي مقعدة الإنسان.

(٥) منهاج السنة (٥٣٨/١).

(٦) متفق عليه: أخرجه البخاري، باب نقض الصور، رقم (٥٩٥١)، ومسلم في كتاب الألبسة باب في تحريم =

وهذا زيد بن أرقم رضي الله عنه يتحدثى ابن زياد الذي كان يستخف بالصحابة الكرام (١)، ولم يكن موقف زيد بن أرقم فريداً وحيداً أمام ابن زياد، فهذا معقل بن يسار وعائذ بن عمرو يتخذان الموقف ذاته منه (٢).

وقد روت كتب السنة إنكار الصحابة على عبيد الله بن زياد قتل الحسين رضي الله عنه، فقد ورد أن زيد بن أرقم رضي الله عنه رأى ابن زياد يعث بقضيب في يده بضم الحسين رضي الله عنه فقال له زاجراً: ارفع قضيبك فوالله! لطلما رأيت رسول الله يقبل ما بين هاتين الشفتين. ثم جعل زيد يبكي، فقال ابن زياد: أبكى الله عينيك، لولا أنك شيخ قد خرفت لضربت عنقك، فنهض وهو يقول: أيها الناس! أنتم العبيد بعد اليوم قتلتم ابن فاطمة، وأمرتم ابن مرجانة [يعني ابن زياد]، والله! ليقتلن خياركم ويستعبدن شراركم، فبعداً لمن رضي بالذلة والعار، ثم قال: يا ابن زياد! لأحدثنك بما هو أغضب عليك من هذا: رأيت رسول الله أقعد حسناً على فخذه اليمنى وحسيناً على فخذه اليسرى، ثم وضع يده على يافوخهما ثم قال: « اللهم إني أستودعك إياهما وصالح المؤمنين » فكيف كانت وديعة النبي عندك يا ابن زياد؟ » (٣).

وروى الترمذي خبر انتقام الله من ابن زياد هذا، وكأنني أنظر إلى تهلل وجه الإمام الترمذي، وهو يروي هذا حديث مهلك ابن زياد بسند صحيح: « عن عمارة بن عمير قال: لما جيء برأس عبيد الله بن زياد وأصحابه نضدت في المسجد في الرحبة، فانتهيت إليهم وهم يقولون: قد جاءت، قد جاءت، فإذا حيّة قد جاءت تخلل الزؤوس حتى دخلت في منخري عبيد الله بن زياد، فمكثت هنيهة ثم خرجت، فذهبت حتى تغيبت ثم قالوا: قد جاءت، قد جاءت، ففعلت ذلك مرتين أو ثلاثاً » قال أبو عيسى الترمذي: هذا حديث حسن صحيح (٤).

= صور الحيوان رقم (٢١٠٨) ترقيم دار القلم - دمشق.

(١) مسند الإمام أحمد (٣٦٧/٤) .

(٢) انظر خبر معقل بن يسار في صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب استحقاق الوالي العاش لرعيته النار، رقم (١٤٢) . وانظر: توعد عائذ لابن زياد في صحيح مسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، رقم (١٨٣٠)، ومسند أحمد (٦٤/٥) حديث عائذ بن عمرو رضي الله عنه (٢٠٦٥٦) .

(٣) ابن حجر الهيثمي (أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيثمي): الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة (٥٧٨/٢)، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٧ م) تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمد الخراط.

(٤) سنن الترمذي: في المناقب: مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما، رقم (٣٧٨٠) .

وهكذا يتضح من هذه النصوص حزن الصحابة على مقتل الحسين، وغضبهم وسخطهم على قاتله، واستنهاضهم الهمم على الخروج عليه رغم بطشه الشديد، ثم رأينا تشقي الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم بآبن زياد، وفرحهم بانتقام الله تعالى منه ومن قتلة الحسين ﷺ، حتى خرّجوا تفصيل ذلك في بعض كتبهم الحديثية.

والتاريخ يذكر لنا موقف أهل المدينة من حكم الأمويين، حتى خرجوا عليهم، ف « أهل المدينة لم يكونوا مائلين إلى بني أمية كما كان أهل الشام، بل قد خلعوا بيعة يزيد، وحاربهم عام الحرة وجرى بالمدينة ما جرى » (١) من قتل وسلب.

إن الحكم المستبد الذي عرف في ذلك الزمن لم يكن يفرق بين الخارجين على السلطان، سواء أكانوا من آل البيت أم من غيرهم، أم كانوا من البيت الأموي نفسه، وهي سكرة السلطان والحكم والمنصب، وقد عبّر عنها أحد هؤلاء السلاطين أو الملوك من بني أمية في خطبته: فقد حج عبد الملك بن مروان سنة خمس وسبعين بعد مقتل ابن الزبير بعامين، فخطب وقال: « أيها الناس! إنما نحتمل لكم كل اللغوبة ما لم يكن عقد راية أو وثوب على منبر، هذا عمرو بن سعيد حقه حقه وقرابته قرابته، قال: رأسه هكذا، فقلنا بسيفنا هكذا » (٢).

مصير ابن الزبير وابن علي واحد:

وقد خرج الصحابي ابن الصحابي عبد الله بن الزبير ﷺ على حكم الأمويين، وتوسعت دائرة حكمه، حتى زحفت إليه جيوش الأمويين، وقتله الحجاج في الحرم، ثم صلبه.

عن أبي نوفل: « رأيت عبد الله بن الزبير على عقبة المدينة قال: فجعلت قريش تمر عليه والناس، حتى مر عليه عبد الله بن عمر فوقف عليه فقال: السلام عليك أبا خبيب! السلام عليك أبا خبيب! أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا! أما والله! لقد كنت أنهاك عن هذا (٣) أما والله

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٨٥/٢).

(٢) ابن عساکر: مختصر تاريخ دمشق (٢٠٨٦/١). وعمرو بن سعيد الأشدق من بني أمية، وهو عمرو ابن سعيد بن العاص بن أمية، كان نائباً على المدينة من عهد معاوية، قتله عبد الملك بن مروان سنة تسع وستين وقيل سبعين (البداية والنهاية ٢٣٤/٦).

(٣) ذلك أن مذهب ابن عمر كان رفض الخروج على السلاطين وإن جاروا، لما يترتب على ذلك من إزهاق للأرواح، وفساد وبطش وتكليل، وهي مسألة فيها خلاف كبير بين أهل العلم، وقد نهى ابن عمر الحسين ﷺ عن الخروج من قبل ذلك.

إن كنت ما علمت صَوَامًا قَوَامًا ووصولًا للرحم، أما والله! لأمة أنت أشرها لأمة خير. ثم نفذ عبد الله بن عمر. فبلغ الحجاج موقف عبد الله وقوله، فأرسل إليه فأنزل عن جذعه فألقى في قبور اليهود» (١)!

قال القاضي عياض: «ففيه قول ابن عمر بالحق، وقلة خوفه من الحجاج، فإنه لم تصده سطوته عن الشهادة بما علم فيه ليبين للناس كذب الحجاج وشيعته في وصفهم له بعدو الله والكفر والبخل» (٢).

ووقفت أسماء بنت أبي بكر في وجه الحجاج قاتل ابنها عبد الله بن الزبير قائلة في ثبات المرأة المسلمة: «أما إن رسول الله ﷺ حدثنا أن في ثقيف كذابًا ومبيرًا. فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فلا إخالك إلا إياه. قال: فقام عنها ولم يراجعها» (٣).

وتظهر هذه الحادثة أن ما أصاب المسلمين والصحابة وأبناء الصحابة من الخسف والظلم على يد الحجاج كان شبيهاً بما أصاب آل بيت النبي ﷺ ممثلين بالحسين وآله في كربلاء. فكيف يساق المسلمون كلهم جميعاً سوقاً واحداً بأنهم أتباع الأمويين وأعداء آل البيت؟!

والشبه واضح بين الحسين وعبد الله بن الزبير، فكلاهما من فتيان الصحابة، وأبناء الصحابة، فأبواهما من العشرة المبشرين بالجنة، وكلاهما من قريش، ومن قرابة النبي ﷺ، فعبد الله هو ابن الزبير ﷺ حواري النبي وابن عمته صفية رضي الله عنها، والحسين هو ابن علي ﷺ ابن عم النبي وابن بنته فاطمة الزهراء ﷺ، ولم تشفع لهما القرابة أمام سيف السلطان الغشوم، وحزن أهل السنة على جريمة قتل الرجلين عظيم.

ومن العجب أن الذين ارتضوا خروج الحسين إلى كربلاء على (ظلم يزيد) لم يرتضوا خروج ابن الزبير، فليس لابن الزبير - ولوالديه من قبل - عند كتاب الاثني عشرية إلا الشنآن، قال محقق أصول الكافي عنه: «هو عبد الله، وكان من الشائعين لأهل البيت، وفتنه دعاء الناس إلى نفسه بعد استشهاد الحسين» (٤).

(١) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب كذاب ثقيف ومبيرها، رقم (٢٥٤٥).

(٢) الشيخ تقي الدين العثماني تكملة فتح المفهم (١٦٢/٥)، عن المفهم للقاضي عياض (٥٠٣/٦، ٥٠٤).

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها رقم (٢٥٤٥).

(٤) أصول الكافي (٧٠/٢): هامش حاشية رقم (٥) أثناء شرحه لحديث ورد فيه لفظ: «مما نتخوف من

فتنة ابن الزبير».

صالحو الأمويين يعظمون أهل البيت اقتداءً بعلماء سلف الأمة:

كما أن كتاب الاثني عشرية ينسبون أن صالحى الأمويين كانوا يحبون آل بيت النبي ﷺ ويمنعون من إيذائهم، فقد كان « هشام بن إسماعيل - أحد ولاة الوليد ابن عبد الملك - يؤذي زين العابدين وأهل بيته، وينال من علي، فعزله الوليد وأوقفه للناس، وكان أخوف ما عليه: أهل البيت » (١).

وهذا عمر بن عبد العزيز يقتدي بسيرة أمير المؤمنين علي ﷺ، فيسأل عن سنة علي ﷺ في الصدقات والأوقاف، وهذا ما أثبتته هذه الرواية عند الاثني عشرية أنفسهم:

عن الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبد الله عليه السلام قال سمعته يقول: « إنَّ عمر بن عبد العزيز كتب إلى ابن حزم (٢) أن يرسل إليه بصدقة عليّ وعمر وعثمان (٣)، وإنَّ ابن حزم بعث إلى زيد بن الحسن وكان أكبرهم فسأله الصّدقة فقال زيد: إنَّ الوالي كان بعد عليّ الحسن، وبعد الحسن الحسين، وبعد الحسين عليّ بن الحسين، وبعد عليّ بن الحسين محمّد بن عليّ فابعث إليه. فبعث ابن حزم إلى أبي فأرسلني أبي بالكتاب إليه حتّى دفعته إلى ابن حزم » (٤).

وقد ذكرت كتب التاريخ أن عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه رفض شتم علي ﷺ على المنابر، وألغى هذه العادة السيئة (٥).

ومع أن عمر بن عبد العزيز نشأ في بيئة أموية، إلا أن علماء أهل السنة يتبنوا له ما فعله يزيد، ولذلك أنكر من وراء القرون ما فعله يزيد في خلافته من قتال الحسين، وقتال أهل المدينة واستحلالها، فعن نوفل بن أبي الفرات قال: « كنت عند عمر بن عبد العزيز، فقال رجل: (قال أمير المؤمنين يزيد). فأمر به، فضرب عشرين سوطاً » (٦).

(١) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة (٦٨٣/٢). باب إكرام الصحابة ومن بعدهم لأهل البيت.
(٢) محمد بن عمر بن حزم الأنصاري، ولد في عهد النبي ﷺ سنة عشر بنجران، وكان أبوه عامل النبي على نجران.. انظر: المجلسي: مرآة العقول (٣٢٤/٣).

(٣) أي سجلّ صدقاتهم وأوقافهم.

(٤) الكليني: أصول الكافي (٣٦١/١، ٣٦٢) كتاب الحجّة باب الإشارة والنص على أبي جعفر، والحديث موثق.
(٥) وقد كان هذا بفضل تربية علماء المسلمين لعمر بن عبد العزيز (كما ذكر ابن كثير في البداية والنهاية ١٩٣/٩): « وكان عمر بن عبد العزيز يختلف إلى عبيد الله بن عبد الله يسمع منه، فبلغ عبيد الله أن عمر ينتقص عليّاً، فلما أتاه عمر أعرض عبيد الله عنه، وقام يصلي، فجلس عمر ينتظره، فلما سلم أقبل على عمر مغضباً وقال له: متى بلغك أن الله سخط على أهل بدر بعد أن رضي عنهم، قال: ففهمها عمر، وقال: معذرة إلى الله ثم إليك، والله! لا أعود، قال فما سمع بعد ذلك يذكر عليّاً إلا بخير ».

(٦) سير أعلام النبلاء (٤٠/٤)، وانظر: لسان الميزان (٢٩٤/٦). ومع ذلك فقد جاء في روايات هذه =

وهذا الذي فعله عمر بن عبد العزيز مأخوذ من أقوال علماء أهل السنة، فقد روى ابن مطهر الحلبي أن رجلاً سأل الإمام « أحمد بن حنبل عن يزيد، فقال: هو الذي فعل ما فعل؟ قلت: وما فعل؟ قال: نهب المدينة، وقال له صالح ولده يوماً: إن قومًا ينسبوننا إلى تولي يزيد. فقال: يا بني! وهل يتولى يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ » (١).

غير أن الإنكار على يزيد وغيره لم يجزّ علماء أهل السنة إلى اللعن والشتيم؛ لأنهم يترفعون عن ذلك، طاعة للنبي ﷺ الذي نهانا أن نكون لغائين.

« قال صالح بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: إن قومًا يقولون: إنهم يحيون يزيد. قال: يا بني! وهل يحب يزيد أحد يؤمن بالله واليوم الآخر؟ قلت: يا أبت! فلماذا لا تلعنه؟ قال: يا بني! ومتى رأيت أبك يلعن أحدًا؟! » (٢).

وهذا ابن تيمية - الذي يتهمه الاثنا عشرية بالنصب - يقول عن يزيد: « كان فيه من الظلم ما كان » (٣)، « لهذا كان الذي عليه معتقد أهل السنة وأئمة الأمة أنه لا يسب ولا يحب » (٤).

ولذلك فإن ضمير الأمة المسلمة لا يضلّ طريقه، فقد أطلق على عمر بن عبد العزيز اسم الخليفة الراشدي الخامس، رغم أنه لم يكن من الصحابة الكرام؛ وذلك لأنه ﷺ نسج على منوال الخلفاء الراشدين المهديين، وقد ثبت عند أهل السنة أنه سأل العلماء عن هدي عمر بن الخطاب، كما ثبت عند الشيعة أنه سأل عن نهج علي بن أبي طالب، وكلّ خير، أليس هذا دليلًا على محبة هذا الإمام العظيم لسلف الأمة، ورغبته في أن يقتدي بصحابة النبي ﷺ أبي بكر وعمر وعلي ﷺ؟

= المصادر نفسها أنه كان يترحم على يزيد باعتباره أحد المسلمين. وقد ذكر السيد إبراهيم الموسوي الزنجاني خبر ضرب عمر للقائل عشرين سوطًا، ولكنه لم يذكر تلك الروايات الأخرى، انظر: عقائد الإمامية الاثني عشرية (ص ١٥٢).

(١) الحلبي: منهاج الكرامة (ص ٨٣). وتتمة الرواية: « فقلت ولم لا تلعنه؟ فقال: ومتى رأيتني ألعن شيئًا؟ لم لا تلعن من لعنه الله في كتابه؟ قلت: وأين لعن يزيد في كتابه؟ قال: في قوله: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴾ [محمد: ٢٢] » ولعل هذه التهمة غير صحيحة لما في أخبار أهل السنة من تورع أحمد عن لعن أي أحد من المسلمين، كما في الخير التالي.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٤١٢/٣).

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم (١١١/١).

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى (٤١٢/٣).

وقد كان علماء المسلمين فرحين مسرورين لانتقام الله تعالى من قتلة الحسين عليه السلام؛ فشفى الله بقتلهم صدور قوم مؤمنين؛ قال الزهري: « ما بقي أحد من قاتلي الحسين إلا وعوقب في الدنيا؛ إما بالقتل أو العمى أو سواد الوجه أو زوال الملك في مدة يسيرة، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله يكثر الوصية للمسلمين في ولديه الحسن والحسين » (١). وهذا يدل على أن علماء أهل السنة كانوا ينكرون ما فعله يزيد وغيره من الظلمة، ولم يكونوا متأمرين متحالفين مع هؤلاء الظلمة، ولا راضين بأفعالهم، ولكن سطوة الحكم التي كان هؤلاء يمتلكونها ما كان يقوم بوجهها أحد، لا من قبل الشيعة ولا أهل السنة.

ثانيًا : مودة ومحبة الصحابة في مدرسة أهل البيت:

وإذا نظرنا إلى هذه العلاقة بين الصحب والآل رضوان الله عليهم جميعًا من الزاوية الأخرى؛ فسنرى ما يثلج الصدر ويسر النفس. قال محمد الباقر: « أجمع بنو فاطمة عليها السلام على أن يقولوا في الشيخين أحسن ما يكون من القول » (٢).

كما كان أئمة أهل البيت يسترشدون بأقوال صحابة النبي صلى الله عليه وآله، وخصوصًا أقوال أبي بكر وعمر رضي الله عنهما؛ عن عروة عن عبد الله قال: « سألت أبا جعفر الباقر عن حلية السيف؟ قال: لا بأس به، قد حلّى أبو بكر الصديق رضي الله عنه سيفه. قال: قلت: تقول الصديق، قال: نعم الصديق؟ نعم الصديق، نعم الصديق، فمن لم يقل الصديق فلا صدق الله قوله في الدنيا وفي الآخرة » (٣).

وكانوا يدافعون عن صحابة النبي صلى الله عليه وآله وخصوصًا عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فعن محمد بن حاطب عن علي بن الحسين قال: أتى نفر من أهل العراق، فقالوا في أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فلما فرغوا قال لهم علي بن الحسين: ألا تخبروني، أنتم المهاجرون الأولون، ﴿ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨]؟ قالوا: لا، قال: فأنتم الذين ﴿ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْأَيْمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الحشر: ٩]؟

(١) الحلي: منهاج الكرامة (ص ٨٢)، وانظر الخبر في: منهاج السنة لابن تيمية (٤/٣٣٨). انظر: المودة والمحبة بين الصحابة والقرابة للمؤلف.

(٢) الصواعق المحرقة (١/١٥٥).

(٣) الصواعق المحرقة (١/١٥٦)، وانظر: د. فرماوي: الشيعة والصحابة (ص ٢٤).

قالوا: لا، قال: أما أنتم فقد تبرأتم أن تكونوا من أحد هذين الفريقين، ثم قال: أشهد أنكم لستم من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]، اخرجوا، فعل الله بكم « (١) ».

وقال: « أبلغ أهل الكوفة أني بريء ممن تبرأ من أبي بكر وعمر » (٢).

وإذا كانت هذه الروايات قد وجدت في مصادر أهل السنة، فإن لقائل أن يقول: إنها ليست بحجة على الاثني عشرية - كما فعل نور الله التستري في كتابه الصوارم المهرقة في نقض الصواعق المحرقة (٣) - ولكن قد وجد في روايات الاثني عشرية ما يصدق هذه الدعوى؛ فقد جاء في نهج البلاغة، وهو كتاب معتمد عند الاثني عشرية قول علي ﷺ: « فمشيت عند ذلك إلى أبي بكر فبايعته، ونهضت في تلك الأحداث حتى زاغ الباطل، وزهق، وكانت كلمة الله هي العليا ولو كره الكافرون، فتولى أبو بكر تلك الأمور فيسر وسدد وقارب، واقتصد فصحبته مناصحاً، وأطعته فيما أطاع الله فيه جاهداً... فسمعنا وأطعنا وناصحنا، وتولى عمر، فكان مرضي السيرة ميمون النقيية » (٤).

ولسنا ننكر أن علياً ﷺ وجد في نفسه أنه لم يستشر في أمر الخلافة، ولكن هذا ما كان ليصل به إلى إنكار فضل أبي بكر وعمر وباقي صحابة النبي ﷺ، بل إنه ﷺ كان ناصحاً لهم، يسير في ركابهم، ويطير في سربهم وكان يقول: « لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين، ولم يكن فيها جور إلا عليّ خاصة » (٥).

وقد اعترف بهذا كتاب الشيعة، يقول اليزدي: « وقد سكت الإمام الذي هو الخليفة المنصوب من قبل الله والرسول ﷺ خلال فترة الخلفاء الثلاثة، رعاية لمصالح الأمة الإسلامية الجديدة ولم ينطق بشيء إلا ما يتم به الحجة، وفي الوقت نفسه لم يتخلف لحظة عن تقديم الخدمات والجهود لما فيه مصلحة الإسلام والمسلمين » (٦).

(١) ابن أبي الفتح الإربلي: كشف الغمة (٢٩١/٢)، انظر: تفسير القرطبي (٣١/١٨، ٣٢) .

(٢) حلية الأولياء (١٨٥/٣) .

(٣) انظر: الصوارم المهرقة في نقض الصواعق المحرقة، لنور الله التستري (ت ١٠١٩ هـ)، (ص ٢٣٥) : مطبعة نهضت (١٣٦٧ هـ) .

(٤) نهج البلاغة (١٣٢/١) .

(٥) نهج البلاغة (١٣٤/١)، دار المعرفة - بيروت، بشرح الشيخ محمد عبده.

(٦) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣٥٣) .

فما دام الإمام قد سكت عما سَمَّاه اليزدي خلال فترة الخلفاء الثلاثة فما بال من يزعمون أنهم أتباعه لا يسكتون حيث سكت، وهل اختلفت مصالح المسلمين اليوم عنها في الأمس؟ فإذا كان علي ؑ حريصًا على مصالح الأمة، فلماذا لا يكون أتباعه حريصين أيضًا عليها، فلا يثيروا في الأمة ما يفرقها؟!

لقد كان علي ؑ حريصًا على مصلحة الأمة؛ ولذلك بايع أبا بكر ونهض معه في أعباء محاربة المرتدين فقال: « فما راغني إلا انثيال الناس على أبي بكر يباعدونه، فأمسكت يدي، حتى إذا رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام - أي صارت ردة - فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلماً أو هدماً يكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم هذه، التي هي متاع أيام قلائل يزول منها ما زال كما يزول السراب وكما ينقشع السحاب^(١)، فنهضت حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهنه^(٢) ».

وهذا يدل على أن عليًا رأى في حرب أبي بكر للمرتدين حقًا وصوابًا^(٣).

وها هو علي ؑ يشير وينصح أمير المؤمنين عمر ؓ بعدم خروجه مع الجيش لمواجهة الفرس قائلاً: « إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، لا تكن للمسلمين كانفة دون أقصى بلادهم. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجالاً محترّبا، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت ردءًا للناس ومثابة للمسلمين^(٤) ». « لا تذهب، فأنت رأس الأمر وسنامه^(٥)، » « إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة. وهو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعده وأمده، حتى بلغ ما بلغ وطلع حيث طلع. ونحن على موعود من الله. والله منجز وعده وناصر جنده^(٥) ».

(١) وهذا يدل على أن ولايته لم تكن وصية دينية، وإنما مصلحة دنيوية.

(٢) نهج البلاغة (١١٩/٣).

(٣) بخلاف ما زعم بعض كتّاب الاثني عشرية أن المرتدين اترتدوا لما رأوا الخلافة قد آلت إلى أبي بكر. فمن المعلوم أن عليًا ذاته قاتل مع أبي بكر المرتدين، وكان من سهمه في حربهم امرأة من بني حنيفة، أنجبت له ابنه محمد بن علي، الملقّب بابن الحنفية، فلو كانت تلك الحرب باطلة؛ لكان وجود محمد ابن الحنفية خطأ فادحًا - وحاشاه - لأنه من آثار قتال علي مع الصحابة في تلك الحرب.

(٤) نهج البلاغة (ص ١٩٣). تحقيق صبحي صالح.

(٥) لاحظ أنه يسمي هؤلاء الذين حول عمر جند الإسلام، وأن الله ناصرهم، وقارن ما سيقوله علماء الاثني عشرية عن جيل الصحابة والتابعين من أنهم أهل ردة ونفاق... الخ.

« ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه. فإن انقطع النظام تفرق وذهب، ثم لم يجمع بحذافيره أبدًا. والعرب اليوم وإن كانوا قليلًا فهم كثيرون بالإسلام وعزيزون بالاجتماع. فكن قطبًا، واستدر الرحي بالعرب، وأصلهم دونك نار الحرب، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انتقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدًا يقولوا: هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكليهم عليك وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة » (١).

وقد عمل عمر بنصيحة علي رضي الله عنه؛ لأنه كان يقتر بفضل علي رضي الله عنه ورجاحة عقله، وكان يقول: « لولا عليٌّ لهلك عمر ». ولذلك كان يكثر من استشارته واستصواب رأيه.

فعن ابن عباس رضي الله عنه قال: « أتني عمر رضي الله عنه بمجنونة قد زنت، فاستشار فيها أناسًا فأمر بها عمر أن ترجم، فمرّ بها على علي بن أبي طالب رضوان الله عليه فقال: ما شأن هذه؟ قالوا: مجنونة بني فلان زنت فأمر بها عمر أن ترجم، قال: ارجعوا بها، ثم أتاه، فقال: يا أمير المؤمنين: أما علمت أن القلم قد رفع عن ثلاثة: عن المجنون حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يعقل؟ قال: بلى، قال: فما بال هذه ترجم؟ قال: لا شيء، قال: فأرسلها، قال: فجعل عمر يكثير » (٢).

وقد كان علي بالمقابل يقر أيضًا بفضل عمر رضي الله عنه، ولذلك جاء في بعض روايات الاثني عشرية أنه « لما غسل عمر وكفن دخل علي رضي الله عنه فقال: ما على الأرض أحد أحب إلي أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسحى بين أظهركم » (٣).

ويشهد لهذه الرواية ما في كتب أهل السنة: عن ابن عباس رضي الله عنه يروي حادثة موت عمر رضي الله عنه، فيقول: وضع عمر بن الخطاب على سريره، فتكتفه الناس يدعون ويشنون ويصلون عليه قبل أن يرفع وأنا فيهم، قال: فلم يرعني إلا برجل قد أخذ بمنكبي من ورائي

(١) نهج البلاغة (ص ١٦٣، ١٦٤) نسخة بشرح الشيخ محمد عبده مكتبة مصر، المجلسي: بحار الأنوار (١٣٨/٣١).

(٢) رواه أبو داود: كتاب الحدود، باب المجنون يسرق أو يصيب حدًا، رقم (٤٣٩٩)، وهو حديث صحيح الإسناد.

(٣) انظر: الصدوق: معاني الأخبار (ص ١١٧)، ط. إيران، الطوسي: تلخيص الشافعي (٤٢٨/٢)، ط. إيران.

فالتفتُ إليه فإذا هو علي، فترحم على عمر، وقال: ما خلفت أحدًا أحب إليّ أن ألقى الله بمثل عمله منك، وإيم الله! إن كنت لأظن أن يجعلك الله مع صاحبيك، وذاك أني كنت أكثر أسمع رسول الله ﷺ يقول: « جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر »، فإن كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما (١).

وقد ذكرت بعض كتب الشيعة بعض المديح للصحابة عمومًا:

فقد روى الحسن ﷺ عن علي ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال: « إن أبا بكر مني بمنزلة السمع، وإن عمر مني بمنزلة البصر » (٢).

وعن أبي جعفر ﷺ قال: بينا رسول الله ﷺ في بعض أسفاره إذ لقيه ركبٌ فقالوا: السلام عليك يا رسول الله! فقال: ما أنتم؟ فقالوا نحن مؤمنون يا رسول الله! قال: فما حقيقة إيمانكم؟ قالوا: الرضا بقضاء الله، والتفويض إلى الله والتسليم لأمر الله. فقال رسول الله ﷺ: « علماء حكماء كادوا أن يكونوا من الحكمة أنبياء، فإن كنتم صادقين فلا تبنوا ما لا تسكنون، ولا تجمعوا ما لا تأكلون، واتقوا الله الذي إليه ترجعون » (٣).

فهؤلاء الذين وصفهم النبي ﷺ بهذا الوصف هل من الممكن أن يتخلوا عما ربّاهم عليه النبي ﷺ وهل يمكن أن يتخلف وصف النبي ﷺ لهم، وهو المؤيد بالوحي؟ هل من الممكن أن يمتدح النبي ﷺ صحابته، وهو يعلم بالوحي أنهم سينقلبون على أعقابهم، ولن يثبت منهم على الحق إلا ثلاثة أو أربعة رجال كما ستذكر روايات الشيعة؟ وهذا علي يذكر أقرانه من صحابة النبي ﷺ، فيذكر فضائلهم، وكلّه شوق إلى زمانهم:

عن أبي جعفر ﷺ قال: « صَلَّى أمير المؤمنين ﷺ بالتاس الصبح بالعراق، فلما انصرف وعظهم فبكى وأبكاهم من خوف الله، ثم قال: أما والله لقد عهدت أقوامًا على عهد خليلي رسول الله ﷺ، وإنتهم ليصبحون ويمسون شعثًا غبرًا خمصًا، بين أعينهم كركب المعزى، يبيتون لرئبهم سجدًا وقيامًا، يراوحون بين أقدامهم وجباههم، يناجون ربّهم ويسألونه فكأك رقابهم من التار، والله! لقد رأيتهم مع هذا وهم خائفون مشفقون » (٤).

(١) متفق عليه: أخرجه البخاري في فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب رقم (٣٦٨٥)، وأخرجه مسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل عمر ﷺ (٢٣٨٩).

(٢) انظر: ابن بابويه القمي: عيون أخبار الرضا (١/٣١٣)، القمي: معاني الأخبار (ص ١١٠).

(٣) أصول الكافي (٥٤/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب خصال المؤمن.

(٤) أصول الكافي (٢٣٦/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المؤمن علاماته وصفاته، وقال محققه: والحديث صحيح.

وقال أيضًا: « لقد رأيت أصحاب محمد ﷺ فما أرى أحدًا منكم يشبههم، لقد كانوا يصبحون شعثًا غيرًا، وقد باتوا سجّدًا وقيامًا، يراوحون بين جباههم وخدودهم، ويقفون على مثل الجمر من ذكر معادهم، كأن بين أعينهم ركب المعزى من طول سجودهم، إذا ذكر الله هملت أعينهم حتى تبلّ جيوبهم، ومادوا كما يميد الشجر يوم الريح العاصف خوفًا من العقاب ورجاء للثواب » (١).

وقال: « أين القوم الذين دعوا إلى الإسلام فقبلوه، وقرأوا القرآن فأحكموه، وهيجوا إلى القتال فولهوا وله اللقاح إلى أولادها، وسلبوا السيوف أغمادها، وأخذوا بأطراف الأرض زحفًا زحفًا وصفًا صفًا، بعض هلك وبعض نجا، لا يبشرون بالأحياء ولا يعزّون عن الموتى، مره العيون من البكاء، خمص البطون من الصيام، ذبل الشفاه من الدعاء، صفر الألوان من السهر، على وجوههم غبرة الخاشعين، أولئك إخواني الذاهبون، فحق لنا أن نظمًا إليهم ونعصّ الأيدي على فراقهم » (٢).

وقال ﷺ: « فاز أهل السبق بسبقهم، وذهب المهاجرون الأولون بفضلهم ». ويقول أيضًا: « وفي المهاجرين خير كثير نعرفه، جزاهم الله خير الجزاء » (٣).

وكان ﷺ يأمر أتباعه بأن يقتدوا بالمهاجرين والأنصار في دفاعهم عن النبي ﷺ ودعوته:

« أما بعد! أيها الناس: فوالله لأهل مصركم في الأمصار أكثر من الأنصار في العرب، وما كانوا يوم أعطوا رسول الله ﷺ أن يمنعه ومن معه من المهاجرين حتى يبلغ رسالات ربه إلا قبيلتين صغير مولدها، وما هما بأقدم العرب ميلادًا، ولا بأكثرهم عددًا، فلما آووا النبي ﷺ وأصحابه، ونصروا الله ودينه، رمتهم العرب عن قوس واحدة، وتحالفت عليهم اليهود، وغزتهم اليهود والقبائل قبيلة بعد قبيلة، فتجردوا لنصرة دين الله، وقطعوا ما بينهم وبين العرب من الحبائل وما بينهم وبين اليهود من العهود، ونصبوا لأهل نجد وتهامة وأهل مكة واليمامة وأهل الحزن والسهل وأقاموا قناة الدين، وتصبروا تحت أحلاس الجلاذ حتى دانت لرسول الله ﷺ العرب، ورأى فيهم قرة العين قبل أن يقبضه

(١) نهج البلاغة (ص ١٤٣) الخطبة (٩٦). دار الكتاب - بيروت (١٣٨٧هـ) بتحقيق صبحي صالح.

(٢) نهج البلاغة (ص ١٧٨). (الوله): هيجان الفؤاد من فقدان الأحبة، (مره العيون): المره: فساد العين، أو بياضها من شدة البكاء.

(٣) نهج البلاغة (ص ٣٨٣).

اللَّهِ إِلَيْهِ، فَأَنْتُمْ فِي النَّاسِ أَكْثَرُ مِنْ أَوْلَئِكَ فِي أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ مِنَ الْعَرَبِ» (١).
ويروي المجلسي عن الطوسي رواية موثقة عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال لأصحابه: «أوصيكم في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، لا تسبّوهم، فإنهم أصحاب نبيكم، وهم أصحابه الذين لم يتدعوا في الدين شيئاً، ولم يوقروا صاحب بدعة، نعم! أوصاني رسول الله صلى الله عليه وآله في هؤلاء» (٢).

وورد في (مقاتل الطالبين) نهي علي عليه السلام عن ظلم صحابة النبي صلى الله عليه وآله: «أصحاب نبيكم فلا يظلمنّ بين أظهركم» (٣).

ويمدح المهاجرين والأنصار معاً، حيث يجعل في أيديهم الخيار لتعيين الإمام وانتخابه، وهم أهل الحل والعقد في القرن الأول من بين المسلمين، وليس لأحد أن يردّ عليهم، ويتصرف دونهم، ويعرض عن كلمتهم؛ لأنهم هم الأهل للمسلمين والأساس، فيقول: «إنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك لله رضاء، فإن خرج منهم خارج بطعن أو بدعة ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى» (٤).

وهذا الإمام زين العابدين يخص في دعائه صحابة النبي صلى الله عليه وآله وتابعيهم بالدعاء، فيقول في صحيفته السجادية؛ داعياً لهم مقراً بفضلهم: «اللهم وأصحاب محمد خاصة، الذين أحسنوا الصحبة، والذين أبلوا البلاء الحسن في نصره، وكاتفوه وأسرعوا إلى وفادته، وسابقوا إلى دعوته، واستجابوا له حيث أسمعهم حجة رسالته، وفارقوا الأزواج والأولاد في إظهار كلمته، وقاتلوا الآباء والأبناء في تثبيت نبوته، والذين هجرتهم العشائر إذ تعلقوا بعروته، وانتفت منهم القرباب إذ سكنوا في ظل قرابته، اللهم ما تركوا لك وفيك،

(١) الثقفى الأصبهاني (أبو إسحاق إبراهيم الثقفي الكوفي الأصبهاني الشيعي، ت ٢٨٣هـ): الغارات (٤٧٩/٢، ٤٨٠).

قد أكثر الرواية منه ابن أبي الحديد، والحلي، والمجلسي، والحر العاملي، والنوري، والقمي، والشيرازي، والخوئي، والمماقاني وغيرهم (انظر مقدمة الغارات).

(٢) المجلسي: حياة القلوب (٦٢١/٢).

(٣) أبو الفرج الأصبهاني: مقاتل الطالبين (ص ٣٩). وأبو الفرج: أموي النسب ينزع إلى الشيعة الزيدية، وقد نص على تشييعه ابن الأثير في الكامل (١٩٢/٨)، وابن العماد في شذرات الذهب (٩/٣)، وانظر: الأستاذ الدكتور السنهوتي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم (ص ١٧١).

(٤) نهج البلاغة (٧/٣) ط بيروت، تحقيق محمد عبده، و (ص ٣٦٧) تحقيق د. صبحي الصالح.

وأرضهم من رضوانك وبما حاشوا الحق عليك، وكانوا من ذلك لك وإليك، واشكرهم على هجرتهم فيك ديارهم وخروجهم من سعة المعاش إلى ضيقه، ومن كثرة في اعتزاز دينك إلى أقله، اللهم وأوصل إلى التابعين لهم بإحسان الذين ﴿ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ .. ﴾ [الحشر: ١٠] خير جزائك، الذين قصدوا سمتهم، وتحزوا جهتهم، لو مضوا إلى شاكتهم لم يشنهم ريب في بصيرتهم، ولم يختلجهم شك في قفو آثارهم والائتمام بهداية منارهم مكانفين ومؤازرين لهم، يدينون بدينهم، ويهتدون بهديهم، يتفقون عليهم، ولا يتهمونهم فيما أدوا إليهم» (١).

وجاء في بعض تفاسير الاثني عشرية أن «كليم الله موسى سأل ربه: هل في أصحاب الأنبياء أكرم عندك من صحابتي؟ قال الله: يا موسى! أما علمت أن فضل صحابة محمد ﷺ على جميع صحابة المرسلين كفضل محمد ﷺ على جميع المرسلين والنبين» (٢).

وإذا كان محدثو أهل السنة قد ضعفوا حديث «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهديتم» (٣)، فإن علي بن موسى الرضا سئل «عن قول النبي ﷺ: «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهديتم»، وعن قوله ﷺ: «دعوا لي أصحابي» فقال: هذا صحيح» (٤).

وإذا كانت كتب الحديث الاثني عشرية تتعد عن أحاديث كثير من الصحابة، وتلمز بصدقهم وأمانتهم - كما بيّنا في فصل مصادر التلقي - فقد أقرت بعض الروايات بصدق أصحاب النبي ﷺ:

فعن منصور بن حازم قال قلت لأبي عبد الله ﷺ: «فأخبرني عن أصحاب رسول الله ﷺ صدقوا على محمد ﷺ أم كذبوا؟ قال: بل صدقوا. قال قلت: فما بهم اختلفوا؟ فقال: أما تعلم أنّ الرجل كان يأتي رسول الله ﷺ فيسأله عن المسألة فيجيبه فيها بالجواب، ثم يجيبه بعد ذلك ما ينسخ ذلك الجواب، فنسخت الأحاديث بعضها بعضاً» (٥).

(١) صحيفة زين العابدين (ص ١٣)، الدعاء الرابع، ط الهند (١٢٤٨ هـ).

(٢) تفسير الحسن العسكري (ص ٦٥)، ط الهند، وأيضاً: تفسير «البرهان» (٢٢٨/٣)، واللفظ له.

(٣) وهذا الحديث وإن كان معناه صحيحاً في الجملة، ولكن، «الحديث ضعيف ضعفه أهل الحديث. قال البراز: هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ (وليس هو في كتب الحديث المعتمدة). (ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٢٥٧/٨)، وانظر: تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الشنيعة الموضوعية، لابن عراق الكفائي (٤١٩/١).

(٤) ابن بابويه القمي (الملقب بالصدوق): عيون أخبار الرضا، تحت قول النبي: (أصحابي كالنجوم)، (٨٧/٢).

(٥) أصول الكفائي: كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث (١١٨/١، ١١٩).

وذكرت كتب الشيعة عن جعفر الصادق قوله: « ولدني أبو بكر مرتين »^(١). لأن أمه: أم فروة بنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، وأمها (أي أم فروة): أسماء بنت عبد الرحمن ابن أبي بكر^(٢).

ولذلك لا عجب أن يروي جعفر الصادق عن أبيه بعض أخبار جدّه أبي بكر، ففي صحيح مسلم « عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه في حديث أسماء بنت عميس حين نفست بذئ الحليفة أن رسول الله صلى الله عليه وآله أمر أبا بكر رضي الله عنه فأمرها أن تغتسل وتهلّ »^(٣).

وقد كان دأب الشيعة الأوائل تفضيل أبي بكر الصديق على غيره من الصحابة: قال شريك بن عبد الله بن أبي نمر وقال له قائل: أيهما أفضل أبو بكر أو علي؟ فقال له: أبو بكر. فقال له السائل: أتقول هذا وأنت من الشيعة؟ فقال: نعم. إنما الشيعي من يقول هذا. والله! لقد رقى علي هذه الأعواد فقال: ألا إن خير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر وعمر. أفكنا نرد قوله؟ أفكنا نكذبه؟ والله! ما كان كذاباً^(٤).

وكذلك لا يستغرب أن يروي جعفر وأبوه رحمهما الله بعض أخبار عمر أيضاً، ففي موطأ الإمام مالك: « عن جعفر بن محمد بن علي عن أبيه أن عمر بن الخطاب ذكر المجوس فقال: ما أدري كيف أصنع في أمرهم فقال عبد الرحمن بن عوف أشهد لسمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: ستوا بهم سنة أهل الكتاب »^(٥).

وجاءت إحدى النساء إلى الإمام الصادق، « فتكلّمت فإذا امرأة بليغة، فسألته عنهما (أي أبا بكر وعمر) فقال لها: توليهما، قالت: فأقول لربي إذا لقيته: إنك أمرتني بولايتهما؟ قال: نعم »^(٦).

وإذا استفاض في كثير من روايات الاثني عشرية وكتبهم الإساءة إلى عثمان رضي الله عنه، فإن بعضها الآخر يمتدحه، فتذكر إحدى الروايات عن علي أن عثمان رضي الله عنه قد ساعده في

(١) الصوارم المهرقة (ص ٢٥٧)، وكشف الغمة (١٦١/٢).

(٢) النوبختي: فرق الشيعة (ص ٧٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الحج، باب إحرام النساء، رقم (١٢٠٩).

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٨٦/٢).

(٥) الإمام مالك بن أنس: الموطأ برواية يحيى الليثي (٢٧٨/١). دار لإحياء التراث العربي - مصر.

تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي.

(٦) الروضة من الكافي (١٠١/٨)، تحت عنوان: حديث أبي بصير مع المرأة.

مؤنة زفافه، « قال علي: فأخذت درعي فانطلقت به إلى السوق، فبعته بأربع مائة درهم سود هجرية من عثمان بن عفان، فلما قبضت الدراهم منه وقبض الدرع مني قال: يا أبا الحسن! ألسنت أولى بالدرع منك، وأنت أولى بالدراهم مني؟ فقلت: نعم، قال: فإن هذا الدرع هدية مني إليك، فأخذت الدرع والدراهم وأقبلت إلى رسول الله فطرحته الدرع والدراهم بين يديه، وأخبرته بما كان من أمر عثمان، فدعا له النبي بخير » (١).

وتذكر مديح جعفر الصادق لعثمان وشيعته: « ينادي منادٍ من السماء أول النهار: ألا إن عليًا صلوات الله عليه وشيعته هم الفائزون، قال: وينادي منادٍ آخر النهار: ألا إن عثمان وشيعته هم الفائزون » (٢).

وإذا كانت كتب السيرة النبوية عند أهل السنة تذكر عثمان بأنه مفاوض النبي وسفيره لدى قريش، فإن بعض كتب الشيعة تذكر ذلك، وتذكر مبايعة النبي ﷺ عن عثمان تحت الشجرة، وحسن ظنه به، تقول الرواية: وجلس عثمان في عسكر المشركين، وبايع رسول الله ﷺ المسلمين، وضرب بإحدى يديه على الأخرى لعثمان، وقال المسلمون: طوبى لعثمان قد طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة وأحل، فقال رسول الله ﷺ: « ما كان ليفعل »، فلما جاء عثمان قال له رسول الله ﷺ: « أظفت بالبيت »، فقال: ما كنت لأطوف بالبيت ورسول الله ﷺ لم يطف به (٣).

كما تذكر بعض الروايات مبايعة علي لعثمان بقوله: « فبايعتم عثمان فبايعته » (٤).
تسمية علي بعض أولاده بأسماء الخلفاء الثلاثة قبله:

ومن أوضح الأدلة على حسن العلاقة بين الصحابة الكرام وآل بيت النبي ﷺ - وخصوصًا علي والخلفاء الثلاثة - تسمية علي بعض أولاده بأسماء من سبقه بالخلافة، وهذا دليل المحبة، إذ لا يسمي المرء أولاده إلا بأحب الأسماء وأفضلها، فعندما يذكر لنا المفيد وغيره أولاد سيدنا علي ﷺ يذكر منهم: (محمد، عبد الله، عمر، عثمان) (٥).

(١) المجلسي: بحار الأنوار (١٣١/٤٣)، الأريبي: كشف الغمة (٣٥٩/١).

(٢) الكليني: فروع الكافي (٢٠٩/٨). (٣) الكليني: روضة الكافي (٣٢٥/٨، ٣٢٦).

(٤) الطوسي: الأمالي (١٢١/١٨) ط النجف.

(٥) المفيد: الإرشاد في معرفة حجج الله تعالى على العباد (٣٥٤، ٣٥٥). وللفائدة هذا النص في ذكر أولاد علي ﷺ « فأولاد أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - سبعة وعشرون ولدًا ذكورا وأنثى:

الحسن والحسين وزينب الكبرى وزينب الصغرى المكناة أم كلثوم، أمهم فاطمة البتول سيدة نساء العالمين بنت سيد المرسلين محمد خاتم النبيين ﷺ.

وفي الكافي رواية جاء في سندها: «.. عن عيسى بن عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب عن أبي عبد الله عليه السلام..» (١).

والمرء لا يسمي أولاده بأسماء خصومه وأعدائه؛ لأنه يريد أن ينسأهم ويتخلص من ذكراهم. ولو قيل: إن هذه الأسماء كانت مشتهرة بين الناس، وأن الإمام عليًا سمى أولاده بهذه الأسماء دون اعتبار للخلفاء؛ فالجواب إن الأسماء المشتهرة كثيرة، فلماذا خصّ علي من كل الأسماء المشتهرة هذه الأسماء، ولو كان الأمر مع اسم واحد لربما كان هذا صحيحًا، أما أن يسمي ثلاثة من أولاده بأسماء الخلفاء الثلاثة، فهذا يبعد المصادفة في الأمر، وما أكثر ما نعرض عن أسماء مشتهرة لأنها تذكرنا بمن نكره.

ثم إن كتاب الاثني عشرية أنفسهم برهنوا على صدق ما أقول عندما وضعوا روايات تؤكد كراهة تسمية البنات بما يعتقدونه لقبًا لعائشة رضي الله عنها، وهو لفظ (الحميراء):

عن يعقوب السراج قال: « دخلت على أبي عبد الله عليه السلام وهو واقف على رأس أبي الحسن موسى وهو في المهد، فجعل يسارّه طويلًا فجلست حتى فرغ فقمت إليه فقال لي: ادن من مولاك فسلم، فدنوت فسلمت عليه فردّ عليّ السلام بلسانٍ فصيح ثم قال لي: اذهب فغيّر اسم ابنتك التي سميتها أمس فإنه اسمٌ يبغضه الله وكان ولدت لي ابنةً سميتها بالحميراء. فقال أبو عبد الله عليه السلام: انته إلى أمره ترشد. فغيّرت اسمها » (٢).

= ومحمد المكنى أبا القاسم، أمه خولة بنت جعفر بن قيس الحنفية.

وعمر ورقية كانا توأمين، وأمهما أم حبيب بنت ربيعة.

والعباس وجعفر وعثمان وعبد الله الشهداء مع أخيهم الحسين بن علي صلوات الله عليه وعليهم بطف كربلاء، أمهم أم البنين بنت حزام بن خالد بن دارم.

ومحمد الأصغر المكنى أبا بكر وعبيد الله الشهيدان مع أخيهم الحسين عليه السلام بالطف، أمهما ليلى بنت مسعود الدارمية. ويحيى أمه أسماء بنت عميس الخثعمية رضي الله عنها.

وأم الحسن ورملة، أمهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفي.

ونفيسة وزينب الصغرى ورقية الصغرى وأم هاني وأم الكرام وجمانة المكناة أم جعفر وأمامة وأم سلمة وميمونة وخديجة وفاطمة، رحمة الله عليهن لأمهات شتى وفي الشيعة من يذكر أن فاطمة - صلوات الله عليها - أسقطت بعد النبي ﷺ ولذا ذكرًا كان سماه رسول الله ﷺ - وهو حمل - محسنًا، فعلى قول هذه الطائفة أولاد أمير المؤمنين عليه السلام ثمانية وعشرون، والله أعلم.

(١) أصول الكافي (٣٦٦/١) كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص على أبي الحسن موسى.

(٢) أصول الكافي (٣٦٧/١)، كتاب الحجّة، باب الإشارة والنص على أبي الحسن موسى. الحميراء: تصغير

الحمراء: يريد البيضاء.

ومن يدري؟ فلو أن عليًا عليه السلام لم يسم بعض أولاده بأسماء هؤلاء الخلفاء فرما وجدنا حينها روايات موضوعة تؤكد كراهة ذلك أيضًا! ^(١).

وقد ذكر ياقوت الحموي أنه « بلغ من غلو أهل قم في بغض الشيخين أنهم لم يسموا أحدًا منهم باسم أبي بكر ولا عمر » ^(٢).

ومن الروايات الاثني عشرية المبينة لفضل الصحابة وسلامة عقيدتهم هذه الرواية: « عن أبي عبد الله قال: كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله اثني عشر ألفًا ^(٣) ثمانية آلاف في المدينة وألفان من أهل مكة، وألفان من الطلقاء، لم يرد فيهم قدر، ولا مرجئ، ولا حروري، ولا معتزلي، ولا صاحب رأي، كانوا يكون الليل والنهار » ^(٤).

وفي بحار الأنوار بشارة للتابعين لأنهم رأوا الصحابة، ولتابعي التابعين؛ لأنهم رأوا من رأيهم: قال النبي صلى الله عليه وآله: « طوبى لمن رأي، وطوبى لمن رأي من رأي، وطوبى لمن رأي من رأي من رأي من رأي » ^(٥).

وعن موسى بن جعفر (إمامهم السابع) قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « أنا أمانة

(١) هذا من داخل النظرة الشيعية التي ترى أن هذا اللقب كان معروفًا لعائشة من عهد النبي صلى الله عليه وآله، ولذلك وضعوا روايات في كراهة التسمية به. أما من نظرة أهل السنة فلم يرد هذا اللقب في صحيح البخاري ولا مسلم، وغالب الروايات التي ذكرت هذا اللقب في غيرها ضعيفة أو موضوعة إلا النادر، حتى قال بعضهم: كل حديث ورد فيه الحميراء ضعيف. انظر: أحمد بن أبي بكر الكناني: مصباح الزجاجة. دار العربية - بيروت (١٤١٣ هـ)، تحقيق محمد الكشناوي (٨١/٣). وقال الذهبي: « قد قيل إن كل حديث فيه يا حميراء لم يصح ». سير أعلام النبلاء (١٦٧/٢)، مؤسسة الرسالة، بيروت (١٤١٣ هـ). تحقيق شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي.

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان مادة قم. ومن الطرائف المضحكة التي شهدتها أن عائلة من أهل السنة في دمشق كان أفرادها يجتوبون زيارة مقام السيدة زينب في ريف دمشق، على أساس أنها من أولياء الله، وكان لهم ولد اسمه عمر، فكانوا إذا ذهبوا إلى هناك نادوه باسم آخر، خوفًا عليه ممن يكره عمر!

(٣) عدد الصحابة الذي ذكرته الرواية غير صحيح، فإن الصحابة الذين شهدوا معه صلى الله عليه وآله حينئذ كانوا اثني عشر ألفًا، سوى الأتباع والنساء، ثم جاءت إليه هوازن مسلمين، قال أبو زرعة: توفي النبي صلى الله عليه وآله ومن رآه وسمع منه زيادة عن مائة ألف إنسان من رجل وامرأة. (تدريب الزاوي ٢/٢٢١، الإصابة ٤/١). وإن كان هؤلاء الصحابة متفاوتين من حيث القرب والمواظبة على الصحبة.

(٤) ابن بابويه القمي: الخصال (ص ٦٣٩، ٦٤٠)، مكتبة الصدوق - طهران، وانظر: المجلسي: بحار الأنوار (٣٠٥/٢٢).

(٥) أمالي الصدوق (٢٤٠، ٢٤١)، بحار الأنوار (٣٠٥/٢٢).

لأصحابي، فإذا قبضت دنا من أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا قبض أصحابي دنا من أمتي ما يوعدون، ولا يزال هذا الدين ظاهرًا على الأديان كلها ما دام فيكم من قد رأيي» (١).

وعن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « ما وجدتم في كتاب الله تعالى فالعمل لكم به، لا عذر لكم في تركه، وما لم يكن في كتاب الله تعالى وكانت فيه سنة مني فلا عذر لكم في ترك سنتي، وما لم يكن فيه سنة مني فما قال أصحابي فقولوا به، فإنما مثل أصحابي فيكم كمثل النجوم بأبها أخذ اهتدى، وبأي أقاويل أصحابي أخذتم اهتديتم. [ثم زاد دعاة التفرقة على هذا النص الزيادة التالية] فقيل: يا رسول الله، ومن أصحابك؟ قال: « أهل بيتي » (٢). ونلاحظ في هذه الرواية تحويل معنى الصحبة إلى معنى آل البيت، « ولا شك أن تفسير الصحابة بأهل البيت فقط بعيد جدًا » (٣).

وعن الصادق عن آبائه عن علي عليه السلام قال: « أوصيكم بأصحاب نبيكم لا تسبّوهم، الذين لم يحدثوا بعده حدثًا ولم يؤروا محدثًا، فإن رسول الله أوصى بهم الخير » (٤).
- موقف علماء الاثني عشرية من هذه النصوص:

لقد كانت التقية هي المشجب الأكبر الذي يعلّق عليه الشيعة هذه النصوص وأمثالها، وبهذا يبتلون مفعولها، ويصرفون أتباعهم عنها؛ لأنها تخالف عقيدتهم ومذهبهم. وما دامت هذه النصوص عندهم للتقية؛ فيجب كتمانها، أو التقليل من شأنها ومن تلاوتها حتى لا تنقض المذهب، ولذلك يقول المفيد « ما خرج للتقية لا يكثر روايته عنهم كما تكثر روايات المعمول به » (٥).

وقال ميشم البحراني: « واعلم أن الشيعة قد أوردوا هنا سؤالاً فقالوا: إن هذه المادح التي ذكرها في حق أحد الرجلين [أي: أبا بكر وعمر رضي الله عنهما] تنافي ما أجمعنا عليه من تخطئتهم وأخذهما لمنصب الخلافة، فإما أن لا يكون هذا الكلام من كلامه صلى الله عليه وآله، وإما أن يكون إجماعنا خطأ ». ثم حملوا هذا الكلام على التقية، وأنه إنما كان لأجل « استصلاح

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٣٠٩/٢٢، ٣١٠)، وعزاه إلى نواذر الزواندي (ص ٢٣).

(٢) ابن بابويه: معاني الأخبار (ص ١٥٦، ١٥٧)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٠٧/٢٢).

(٣) د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩٢٦/٢).

(٤) المجلسي: البحار (٣٠٥/٢٢، ٣٠٦). (٥) تصحيح الاعتقاد (ص ٧١).

من يعتقد صحة خلافة الشيخين، واستجلاب قلوبهم بمثل هذا الكلام» (١).

ومثال ذلك الرواية السابقة (مثل أصحابي كالنجوم...) فقد حملها الصدوق على التقية (٢)، مع أن هذا النص ليس فتوى يفتى بها فتنجي الإمام أو أتباعه، بل هي نص حديث يسنده جعفر الصادق إلى رسول الله ﷺ، فهل من مسوغات التقية نقل حديث كامل بروايات الأئمة عن رسول الله ﷺ؟

فإن استحالة تعليل بعض هذه الروايات بالتقية، اختلف الشيعة في أسلوب ردّها اختلافًا كبيرًا، ولعل هذا الاختلاف أظهر دليل على بطلان موقف الشيعة من هذه النصوص.

وعلى سبيل المثال: حقيقة زواج عمر من أم كلثوم ابنة علي وفاطمة ﷺ، فلما نظر الشيعة في الروايات الصحيحة التي تؤكد هذا الزواج، لم يكن لهم أن يكذبوا التاريخ فينكروا الواقعة؛ ولذلك أخذوا في تفسيرها تفسيرًا سيئًا في ظنهم إلى عمر ﷺ، وهو في الحقيقة سيئ إلى بطل بدر والخنديق، وفدائي الإسلام الأول علي ﷺ قبل أن يسيئوا إلى عقول كل من يقرأ تفسيراتهم الغريبة المتناقضة:

- فقد ذكروا رواية عن جعفر الصادق حين سئل عن هذا الزواج الميمون، فقال: «إن ذلك فرج غضبناه» (٣). وهو جواب فظيع منكر.

- ولذلك جاءت روايات أخرى لتقول: إن عليًا ﷺ «بعث مكانها جنية من جن نجران، وأخفى أم كلثوم حتى مات عمر، فذهبت الجنية، وأخرج علي أم كلثوم» (٤). قال المجلسي بعد أن ساق هذه الرواية: «هذه الأخبار لا تنافي ما مرّ من قصة الجنية؛ لأنها قصة مخفية أطلعوا عليها خواصّهم، ولم يكن يتم به الاحتجاج على المخالفين» (٥).

- ثم جاء أخيرًا من يقول: إنه لم يكن من أمر هذا الزواج سوى العقد، وأن عمر ﷺ لم يدخل بها (٦).

(١) ميثم البحراني: شرح نهج البلاغة (٩٨/٤).

(٢) انظر: ابن بابويه: معاني الأخبار (ص ١٥٦، ١٥٧).

(٣) الكليني: الكافي (٣٤٦/٥) تحقيق علي أكبر غفاري، (ط ٣)، (١٣٦٧هـ)، بحار الأنوار (١٠٦/٤٢)، وسائل الشيعة (٥٦٢/٢٠).

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (١٠٦/٤٢). (٥) المصدر السابق (١٠٦/٤٢، ١٠٧).

(٦) علي الحسيني الميلاني: تزويج أم كلثوم من عمر (سلسلة الأبحاث العقائدية رقم ٢٩) (ص ٣٥)، مركز الأبحاث العقائدية.

مع أن التاريخ يذكر لنا ثبوت الدخول والحمل والوضع، حيث أنجبت ولدين أحدهما زيد - الذي سيأتي ذكره في رواية قريبة - وثانيهما رقية بنت عمر (١).

فهل تغير تلك المبررات الشيعية من الحقيقة شيئاً؟

وما يضير الشيعة أن يعترفوا بالمودة بين الصحب والآل ويقروا بما ثبت تاريخياً من أن عمر أراد الاقتراب من نسب النبي ﷺ فتزوج أم كلثوم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، لما ثبت من قول النبي ﷺ عند أهل السنة والشيعة: « كل نسب وصهر ينقطع يوم القيامة إلا صهري ونسبي » (٢).

ففي رواية اليعقوبي: خطب عمر إلى علي بن أبي طالب أم كلثوم بنت علي، وأمها فاطمة بنت رسول الله، فقال علي: إنها صغيرة! فقال: إنني لم أرد حيث ذهبت. لكنني سمعت رسول الله يقول: « كل نسب وسبب ينقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي وصهري »، فأردت أن يكون لي سبب وصهر برسول الله، فتزوجها وأمهرها عشرة آلاف دينار (٣).

ومن العجب إنكار حقائق التاريخ، وإنكار ما سطره بعض الاثني عشرية في كتبهم، فقد ذكرت بعض مصادر الاثني عشرية علاوة على زواج عمر من أم كلثوم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: إنجابها منه واعتدادها بعد وفاته.

فقد روى الطوسي عن جعفر الصادق عن أبيه الباقر رحمهما الله أنه قال: « ماتت أم كلثوم بنت علي وابنها زيد بن عمر بن الخطاب في ساعة واحدة، لا يدري أيهما هلك قبل، فلم يورث أحدهما من الآخر، وصلّي عليهما جميعاً » (٤).

وروى أيضاً عن سليمان بن خالد أنه قال: « سألت أبا عبد الله عليه السلام - جعفر الصادق - عن امرأة توفي زوجها أين تعتد؟ في بيت زوجها أو حيث شاءت؟ قال: بلى حيث شاءت، ثم قال: إن علياً لما مات عمر أتى أم كلثوم فأخذ بيدها فانطلق بها إلى بيته » (٥).

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى (٢٦٥/٣).

(٢) انظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى (٤٦٣/٨)، كنز العمال (٤٠٩/١١). ابن حجر الإصابة (٤٦٥/٨)، وعند الشيعة: بحار الأنوار (٢٣٨/٧).

(٣) تاريخ اليعقوبي (١٤٩/٢، ١٥٠).

(٤) الطوسي: تهذيب الأحكام (٢٦٢/٩) كتاب الميراث، باب ميراث الغرقى والمهدوم.

(٥) الكليني: فروع الكافي (١١٥/٦، ١١٦) كتاب الطلاق، باب المتوفى عنها زوجها، وانظر: الطوسي: الاستبصار (٣٥٣/٣) كتاب الطلاق، أبواب العدة، باب المتوفى عنها زوجها، ورواها في: تهذيب الأحكام

(١٦١/٨) باب في عدة النساء.

وهذا يدلنا على أن كلّ المحاولات التي أتعب وأجهد فيه بعض كتاب الشيعة لإنكار هذا الزواج باءت بالفشل؛ لأن هذا الزواج بين عمر وأم كلثوم صحيح صريح، ويدل على عميق المحبة بين الصحابة والقرابة.

وفيما يأتي سنتعرّف على تصنيف الناس عند الاثني عشرية، والموقف الذي تبنته الاثنا عشرية من صحابة النبي ﷺ ومن عموم الأمة المسلمة، بناء على هذا التصنيف.

* * *

المبحث الأول

تصنيف الناس

عند الاثني عشرية



أولاً: تسامح الصحابة وأئمة آل البيت في تصنيف الناس، وتشدد غيرهم:

إن التسامح بين أصحاب المذاهب والآراء المختلفة مما حض عليه الإسلام، حيث علمنا شرف الخصومة وأدب الاختلاف، وكان أصحاب البيت الواحد من السلف الصالح يختلفون في مذاهبهم السياسية دون أن يكفر بعضهم بعضاً، قال محمد بن طلحة ابن مصرف: « ما كان بالكوفة من أب وأخ أشد تحايباً من طلحة بن مصرف وزيد الياامي كان طلحة عثمانياً وكان زيد علويًا » (١).

وقد تعلمت الأمة هذا الأدب من الصحابة الكرام، فقد كانوا يختلفون، ولكن لا ينسون الفضل بينهم، فقد كان زيد بن ثابت رضي الله عنه عثمانياً، ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه، وكان يظهر فضل علي وتعظيمه (٢).

عن يزيد بن هرم قال: « كتب نجدة بن عامر الحروري إلى ابن عباس يسأله عن العبد والمرأة يحضران المغنم هل يقسم لهما؟ وعن قتل الولدان؟ وعن اليتيم متى ينقطع عنه اليتيم؟ وعن ذوي القربى من هم؟

فقال ليزيد: اكتب إليه، فلولا أن يقع في أحموقه ما كتبت إليه. اكتب: إنك كتبت تسألني عن المرأة والعبد يحضران المغنم هل يقسم لهما شيء؟ وإنه ليس لهما شيء إلا أن يحديا.

وكتبت تسألني عن قتل الولدان؟ وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقتلهم، وأنت فلا تقتلهم إلا أن تعلم منهم ما علم صاحب موسى من الغلام الذي قتله.

وكتبت تسألني عن اليتيم متى ينقطع عنه اسم اليتيم؟ وإنه لا ينقطع عنه اسم اليتيم حتى يبلغ ويؤنس منه رشد.

(٢) أسد الغابة (١/٣٩٣).

(١) تهذيب التهذيب (٣/٢٦٨).

وكتبت تسألني عن ذوي القربى من هم؟ وإنا زعمنا أننا هم، فأبى ذلك علينا قومنا» (١). وهذا الحديث يبين لنا حذب الصحابة على الأمة، وعدم تكفير أفرادها، ولو كانوا من الخوارج، فالواجب نصحهم وإرشادهم. وواقعة محاورة ابن عباس للخوارج مشهورة. حيث رد منهم آلافًا إلى مذهب الحق (٢).

وما ينبغي أن يكون واضحًا لدى كل الساعين في وحدة الأمة وإزالة آثار الطائفية البشعة أن كلَّ زيديٍّ وإمامي وإباضي لن يصبح سنّيًّا، وكذلك كلُّ سني لن يصبح إماميًّا ولا إباضيًّا أو زيديًّا، ولو جتد كل حزب منهم كل قواهم العلمية وقواهم السياسية

(١) صحيح مسلم كتاب الجهاد، باب النساء الغازيات يرضخ لهن، رقم (١٨١٢).

(٢) جاء في تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي (٤٧٦/١): قال عكرمة بن عمار: حدثني أبو زميل أن ابن عباس قال: لما اجتمعت الخوارج في دارها، وهم ستة آلاف أو نحوها قلت لعلي: يا أمير المؤمنين بر بالصلاة لعلي ألقى هؤلاء فإني أخافهم عليك، قلت: كلاً قال: فليس ابن عباس حلتين من أحسن الحلل وكان جهيلاً جميلاً قال: فأتيت القوم فلما رأوني قالوا: مرحبًا بابن عباس وما هذه الحلة؟ قلت: وما تنكرون من ذلك؟ لقد رأيت على رسول الله ﷺ حلة من أحسن الحلل، قال: ثم تلوت عليهم: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ ﴾ [الأعراف: ٣٢]. قالوا: فما جاء بك؟ قلت: جئتكم من عند أمير المؤمنين ومن عند أصحاب رسول الله ﷺ ولا أرى فيكم أحدًا منهم ولأبلغنكم ما قالوا ولأبلغنهم ما تقولون: فما تنقمون من ابن عم رسول الله ﷺ وصهره؟ فأقبل بعضهم على بعض فقالوا: لا تكلموه فإن الله يقول: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] وقال بعضهم: ما يمنعنا من كلامه ابن عم رسول الله ﷺ ويدعوننا إلى كتاب الله قال: فقالوا: ننقم عليه ثلاث خلال: إحداهن: أنه حكم الرجال في دين الله، وما للرجال ولحكم الله؟! والثانية: أنه قاتل فلم يسب ولم يغتم فإن كان قد حل قتالهم فقد حل سبهم وإلا فلا، والثالثة: محا نفسه من أمير المؤمنين، فإن لم يكن أمير المؤمنين فهو أمير المشركين. قلت: هل غير هذا؟ قالوا: حسبنا هذا. قلت: رأيتم إن خرجت لكم من كتاب الله وسنة رسوله أرجعون أنتم؟ قالوا: وما يمنعنا؟ قلت: أما قولكم إنه حكم الرجال في أمر الله فإني سمعت الله يقول في كتابه: ﴿ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٥] وذلك في ثمن صيد أرنب أو نحوه قيمته ربع درهم فوض الله الحكم فيه إلى الرجال ولو شاء أن يحكم لحكم. وقال: ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَأَبْغُتُوا حُكْمًا مِّنْ أَهْلِهِ ﴾ [النساء: ٣٥] الآية. أخرجت من هذه قالوا: نعم. قلت: وأما قولكم: قاتل فلم يسب؛ فإنه قاتل أمكم؛ لأن الله يقول: ﴿ وَأَرْزُقْنَهُمْ أَهْلَهُمْ ﴾ [الأحزاب: ٦] فإن زعمتم أنها ليست بأمكم فقد كفرتم، وإن زعمتم أنها أمكم فما حل سبها. فأنتم بين ضلالتين. أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قال: وأما قولكم إنه محا اسمه من أمير المؤمنين؛ فإني أنبئكم عن ذلك: أما تعلمون أن رسول الله ﷺ يوم الحديبية جرى الكتاب بينه وبين سهيل ابن عمرو فقال: « يا علي! اكتب اسمك واسم أبيك. فقال: « اللهم إنك تعلم أنني رسولك » ثم أخذ الصحيفة فمحاها بيده ثم قال: يا علي اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله. فوالله ما أخرجه ذلك من النبوة. أخرجت من هذه؟ قالوا: نعم. قال: فرجع ثلثهم وانصرف ثلثهم، وقتل سائرهم على ضلالة.

والعسكرية، وهم إن فعلوا ذلك فسوف يجددون بروز ظاهرة النفاق التي كانت في عصر النبي ﷺ أو ظاهرة التقية في عصر الأمويين؛ لأن كل طائفة تعتقد أنها على الحق، وأن ما سواها على خطأ، أو على باطل.

وإنما المطلوب الإقرار بضرورة التعايش السلمي وحسن الجوار ابتداءً^(١)، ثم التركيز على القضايا المجمع عليها بين طوائف المسلمين جميعاً، والتغافل عن القضايا الفرعية الخلافية، وعدم إثارتها والتحريش بها بين عامة المسلمين.

ولا يجوز طرح هذه المسائل الفرعية إلا في دوائر علمية هادئة. يجمع أهلها بين الإخلاص للحق والتمكن العلمي، بعيداً عن المجاملات الجوفاء والمؤثرات الخارجية (السياسية الرسمية، أو الدينية بتدخل المراجع والشيخ، أو موروثات العوام.. إلخ). وتشهد بعض الروايات الاثني عشرية أن الأئمة كانوا يوصون بحسن معاشرة من خالف مذهبهم:

« عن معاوية بن وهب قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: كيف ينبغي لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا وفيما بيننا وبين خلطائنا من الناس [وفي رواية صحيحة: خلطائنا من الناس ممن ليسوا على أمرنا]؟ قال: فقال: تؤدون الأمانة إليهم وتقيمون الشهادة لهم وعليهم، وتعودون مرضاهم وتشهدون جنائزهم »^(٢).

وعن أبي أسامة زيد الشحام قال: قال لي أبو عبد الله عليه السلام: اقرأ على من ترى أنه يطيعني منهم ويأخذ بقولي السلام، وأوصيكم بتقوى الله تعالى، والورع في دينكم، والاجتهاد لله، وصدق الحديث وأداء الأمانة وطول السجود وحسن الجوار. فهذا جاء محمد ﷺ، أدوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها براءً أو فاجراً، فإن رسول الله ﷺ كان يأمر بأداء الخيط والخيط، صلوا عشائركم واشهدوا جنائزهم وعودوا مرضاهم وأدوا حقوقهم، فإن الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدى الأمانة وحسن خلقه مع الناس قيل: هذا جعفري. فيسرني ذلك ويدخل علي منه السرور، وقيل: هذا أدب جعفر. وإذا كان على غير ذلك دخل علي بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر. فوالله! لحدثني أبي عليه السلام أن الرجل كان يكون في القبيلة من شيعة علي عليه السلام فيكون زينها؛

(١) انظر: د. عداة محمود الحمش: المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية، دراسة حديثة نقدية (ص ٤٠٩).

(٢) أصول الكافي (٥٩٩/٢)، كتاب العشرة، باب ما يجب من المعاشرة، قال محققه: الحديث صحيح.

آداهم للأمانة، وأفضاهم للحقوق، وأصدقهم للحديث، إليه وصاياهم وودائعهم، تسأل العشيبة عنه فتقول: من مثل فلان؟ إنه لآدانا للأمانة وأصدقنا للحديث^(١).

كما تبين لنا رواية أخرى ثقة أئمة الشيعة ببعض رواة حديث أهل السنة، مما يدل على احترامهم لعلماء الأمة ومحدثيها: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إنَّ أباي عليه السلام استودعني ما هناك، فلما حضرته الوفاة قال: ادع لي شهودًا فدعوت له أربعة من قريش، فيهم نافع مولى عبد الله بن عمر. فقال: اكتب هذا ما أوصى به... »^(٢). ومشهور أن نافعًا مولى ابن عمر من أشهر رواة الحديث عند أهل السنة.

في حين تذكر بعض الروايات ضيق صدور الأتباع المتعاطفين مع الأئمة، وتشددهم ولعنهم بعضهم بعضًا، مع أن الأئمة جاؤوا بالتسامح حتى مع من خالفهم، فكان أولئك الأتباع ملكيين أكثر من الملك:

عن يعقوب بن الصِّحَّاح عن رجلٍ من أصحابنا سراج، وكان خادماً لأبي عبد الله عليه السلام قال: بعثني أبو عبد الله عليه السلام في حاجة وهو بالحيرة أنا وجماعة من مواليه. قال: فانطلقنا فيها ثم رجعنا مغتمين. قال: وكان فراشي في الحائر الذي كتنا فيه نزولاً، فجئت وأنا بحال فرميت بنفسي. فبينما أنا كذلك إذا أنا بأبي عبد الله عليه السلام قد أقبل قال: فقال: « قد أتيناك - أو قال: جئناك - فاستويت جالساً، وجلس على صدر فراشي فسألني عما بعثني له، فأخبرته، فحمد الله، ثم جرى ذكر قوم قفلت: جعلت فداك! إننا نبرأ منهم، إنهم لا يقولون ما نقول. قال: فقال: يتولوننا ولا يقولون ما تقولون تبرؤون منهم؟ قال: قلت: نعم. قال: فهو ذا عندنا، ما ليس عندكم فينبغي لنا أن نبرأ منكم؟ قال: قلت: لا، جعلت فداك. قال: وهو ذا عند الله ما ليس عندنا أفترأه أطرحنا؟ قال قلت: لا والله! جعلت فداك، ما نفعل؟ قال: فتولّوهم ولا تبرأوا منهم، إنَّ من المسلمين من له سهم، ومنهم من له سهمان، ومنهم من له ثلاثة أسهم، ومنهم من له أربعة أسهم، ومنهم من له خمسة أسهم، ومنهم من له ستة أسهم، ومنهم من له سبعة أسهم »^(٣).

وعن منصور بن حازم قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « من شك في رسول الله ﷺ؟

(١) أصول الكافي (٢/٦٠٠)، كتاب العشرة، باب ما يجب من المعاشرة، قال محققه: الحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (١/٣٦٥)، كتاب الحجّة، باب الإشارة، والنص على أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق.

(٣) أصول الكافي (٢/٤٨)، كتاب الإيمان والكفر باب درجات الإيمان، وله حديث قبله يشبهه في تقسيم

الإيمان إلى سبع درجات، وهو صحيح. أما هذا الحديث فقال عنه المحقق: والحديث مجهول.

قال: كافر؟ قلت: فمن شك في كفر الشاك فهو كافر؟ فأمسك عني، فرددت عليه ثلاث مرّات، فاستبنت في وجهه الغضب» (١).

وغيرب أن المازندراني يعلل غضب الإمام بأمر بعيد: «وكأنه صدّ بالإمسك سؤاله عمن شك في علي عليه السلام لعلمه عليه السلام بأنه يسأل عنه بعد هذا السؤال، فمنعه بالإمسك خوفاً من إفشائه أو تقيّة من بعض الحاضرين» (٢). مع أن ظاهر النص يفيد غضب الإمام من السؤال ذاته.

وهذا السؤال الذي طرح على الإمام يصاغ اليوم بمقولة تكفيرية واضحة: «من لم يكفر الكافر فهو كافر» و«من ليس معنا فهو علينا!» والنبي صلى الله عليه وآله يقول: «أيا رجل قال لأخيه يا كافر! فقد باء بها أحدهما» (٣).

وتظهر لنا الروايات صراعاً داخلئاً في المذهب الاثني عشري بين الأئمة وأتباعهم، فعن زرارة قال: دخلت أنا وحميران أو أنا وبكبير على أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: إنا نمذ المطمار قال: وما المطمار؟ قلت: التّر (٤). فمن وافقنا من علوي أو غيره توليناه، ومن خالفنا من علوي أو غيره برئنا منه.

فقال لي: يا زرارة! قول الله أصدق من قولك، فأين الذين قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْمِينَ مِنْ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾؟ [النساء: ٩٨]. أين المرجون لأمر الله؟ أين الذين ﴿خَاطَبُوا عَمَلًا صَلَاحًا وَآخَرَ سَيِّئًا...﴾ [التوبة: ١٠٢]؟ أين أصحاب الأعراف؟ أين المؤلفة قلوبهم؟! وزاد حماد في الحديث قال: فارتفع صوت أبي جعفر عليه السلام وصوتي حتى كان يسمعه من على باب الدار (٥).

فهذا الحديث يظهر لنا تسامح الأئمة مع من خالفهم، فلم يكفروهم ولم يتبرؤوا

(١) أصول الكافي (٣٦٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر وقال محققه: والحديث حسن كالصحيح.

قال المحقق: «والظاهر أن المراد بالشيخ الذي أساء زرارة الظن به هو الإمام (ع)».

(٢) شرح المازندراني على الكافي (٥٢/١٠، ٥٣).

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري: باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال رقم (٥٧٥٣)، وأخرجه

مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر رقم (٦٠).

(٤) المطمار بالمهمتين خيط للبناء يقدر به وكذا التّر بضم المثناة الفوقية والراء المشددة. قال المحقق: والمعنى أن المقياس الذي نزن به الناس هو ولايتنا لأهل البيت، فمن كان على مذهبنا فيه أحببناه وعظّمناه ونصرناه، ومن كان على مذهب غيرنا أبغضناه وحقرناه وخذلناه وتبرأنا منه.

(٥) أصول الكافي (٣٦٥/٢) كتاب الإيمان والكفر باب أصناف الناس قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

منهم، في حين يظهر تعصب الأتباع بحيث يسوقون من خالفهم سوقاً واحداً.
ترى أي الرأيين أولى بالاتباع؟

وأي الرأيين هو الذي طغى على مذهب الاثني عشرية؟!

ثانياً: تصنيف الناس في روايات الاثني عشرية:

ويظهر من الرواية السابقة وأخواتها أن الناس ينقسمون إجمالاً إلى ثلاث فرق بحسب الإيمان والكفر والضلال، ثم إلى ست فرق تفصيلاً كما في رواية عن الصادق أبي عبد الله: « الناس على ست فرق، يؤولون كلهم إلى ثلاث فرق: الإيمان والكفر والضلال؛ وهم أهل الوعدين الذين وعدهم الله الجنة والنار: المؤمنون، والكافرون، والمستضعفون والمرجون لأمر الله، إما يعذبهم، وإما يتوب عليهم، والمعترفون بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، وأهل الأعراف » (١).

وتفصيل أهل هذه الفرق بناءً على هذه الرواية كما يلي:

الفرقة الأولى: أهل الوعد بالجنة: وهم المؤمنون، وأريد بهم من آمن بالله وبالرسول وبجميع ما جاء به الرسول بلسانه وقلبه، وآمن بالأئمة الاثني عشر، وأطاع الله بجوارحه.
والثانية: أهل الوعيد بالنار: وهم الكافرون، وأريد بهم من كفر بالله أو برسوله أو بشيء مما جاء به الرسول إما بقلبه أو بلسانه أو خالف الله في شيء من كبائر الفرائض استخفافاً. وقد عرّفوا « الكافر وهو من لم ينتحل ديناً أو انتحل ديناً غير الإسلام، أو انتحل الإسلام وجحد ما يعلم أنه من الدين الإسلامي، بحيث رجع جحده إلى إنكار الرسالة، نعم إنكار المعاد يوجب الكفر مطلقاً، ولا فرق بين المرتد والكافر الأصلي الحربي والذمي الخارجي والغالي والناصب » (٢).

والثالثة: المستضعفون: وهم الذين لا يهتدون إلى الإيمان سبيلاً لعدم استطاعتهم كالصبيان والمجانين والبله ومن لم تصل الدعوة إليه. وقد جاءت روايات عن الأئمة تعرّف بهؤلاء المستضعفين:

عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: « المستضعفون الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون

(١) أصول الكافي (٣٦٤/٢) كتاب الإيمان والكفر باب أصناف الناس، قال محققه: الحديث حسن.

(٢) أبو القاسم الخوئي: منهاج الصالحين (١١٦/١) النجف، وانظر: حقيقة الشيعة: عبد الله عبد الله

الموصلي (ص ١٤).

سبيلاً، قال: لا يستطيعون حيلةً إلى الإيمان ولا يكفرون: الصبيان وأشباه عقول الصبيان من الرجال والنساء» (١).

وعن أبي بصير قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: « من عرف اختلاف الناس فليس بمستضعف » (٢).

ورغم نجاة هؤلاء المستضعفين، فإنهم حسب روايات الاثني عشرية ليسوا سواء في مراتب الجنة مع المؤمنين: عن جميل بن دراج قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « إني ربّما ذكرت هؤلاء المستضعفين فأقول: نحن وهم في منازل الجنة؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام: لا يفعل الله ذلك بكم أبداً » (٣).

وقد أجاز الاثنا عشرية الدعاء للوالدين من المستضعفين، ووجهوا لأجل ذلك رواية صحيحة تجيز الدعاء للوالدين وإن كانا على غير دين الإمامية، ما لم يصلوا إلى درجة الكفر أو النصب والعناد: عن معمر بن خلاد قال: قلت لأبي الحسن الرضا عليه السلام: أدعو لوالدي إذا كانا لا يعرفان الحق؟ قال: ادع لهما، وتصدق عنهما، وإن كانا لا يعرفان الحق فدارهما، فإن رسول الله ﷺ قال: « إن الله بعثني بالرحمة لا بالعقوب » (٤).

ومع صحة هذا الحديث عندهم وإطلاق لفظه إلا أن محقق أصول الكافي يقصره على المستضعف فيقول: « ولكن لما كان هذا مخالفاً لما عليه أكثر علماء الإمامية من عدم جواز الدعاء للكافر ومنه الناصب وعدم انتفاعه بالطاعات، لا بد من حمل الحديث على المستضعف » (٥).

ويرى الجزائري أن هذا الحكم بنجاة المستضعف ليس قطعياً؛ لأنه ليس بجمع عليه عند الإمامية، فيقول: « نعم ذهب طائفة منا إلى أن المستضعفين منهم وهم غير المعاندين مثل البله والنساء ومن لم تتم عليه الحجة يكونون ممن يرجى لهم النجاة، لكن لا على سبيل القطع » (٦).

(١) أصول الكافي (٣٨٥/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المستضعف، قال محققه: وهذا الحديث صحيح.

(٢) أصول الكافي (٣٨٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المستضعف، قال محققه: وهذا الحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٣٨٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المستضعف قال محققه: وهذا الحديث حسن كالصحيح.

(٤) أصول الكافي (١٦٦/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب البر بالوالدين قال محققه: والحديث صحيح.

(٥) أصول الكافي (١٦٦٥/٢) الهامش، حاشية رقم (٣).

(٦) نعمة الله الجزائري (ت ١١١٢): نور البراهين (١/٥٧)، (ط ١)، (١٤١٧هـ) - قم، مؤسسة النشر

والرابعة: المرجون لأمر الله، وهم المؤخر حكمهم إلى يوم القيامة، من الإرجاء بمعنى التأخير، حيث لم يأت لهم وعد ولا وعيد في الدنيا، وإنما أخر أمرهم إلى مشيئة الله فيهم، إما يعذبهم، وإما يتوب عليهم.

عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عَلَيْكُمْ: ﴿وَأَخْرَجُوا مُرَجَّوْنَ لِأَمْرِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ١٠٦] قال: « قومٌ كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزة وجعفر وأشباههما من المؤمنين، ثم إنهم دخلوا في الإسلام فوحدوا الله وتركوا الشرك، ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فتجب لهم الجنة، ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فتجب لهم النار، فهم على تلك الحال إما يعذبهم وإما يتوب عليهم » (١).

وهذا التعريف للمرجون لأمر الله تعالى غير معتبر عند أهل السنة؛ لأن الثابت عند أهل السنة أن النبي ﷺ قال: « الإسلام يَجِبُ ما قبله » (٢) فلا عبرة بما فعل هؤلاء حال الجاهلية، قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُعْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يُوَدُّوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

وقد صحَّ عند الشيعة هذا المعنى: « عن أبي جعفر عليه السلام قال: إن ناسًا أتوا رسول الله ﷺ بعد ما أسلموا فقالوا: يا رسول الله! أيؤخذ الرجل منا بما كان عمل في الجاهلية بعد إسلامه، فقال لهم رسول الله ﷺ: من حسن إسلامه وصح يقين إيمانه لم يأخذه الله - تبارك وتعالى - بما عمل في الجاهلية، ومن سخط إسلامه ولم يصح يقين إيمانه أخذه الله - تبارك وتعالى - بالأول والآخر » (٣).

ولكن انظر إلى المجلسي كيف قصر هذا على الشيعة - مع أن الحديث عام في كل المسلمين - فقال: « المراد بالإسلام الحسن أن يكون مقرونًا بالإقرار بجميع أصول الدين؛ ليخرج المخالفون وأضرابهم » (٤)!!

(١) أصول الكافي (٢/٣٨٨) كتاب الإيمان والكفر، باب المرجون لأمر الله. قال المحقق: « يدل الحديث على أن توبة وحشي قاتل حمزة لم تقبل بنحو القطع واليقين. فالظاهر أن الاثني عشرية عز عليهم أن يكون قاتل أسد الله حمزة عم النبي وعم علي في الجنة، ولذلك حكموا بإرجائه لأمر الله، في حين ثبت عند أهل السنة إسلامه وتوبته واشتراكه في قتل مسيلمة الكذاب.

(٢) مسند أحمد بن حنبل (٤/١٩٨).

(٣) أصول الكافي (٢/٤٣٢، ٤٣٣) كتاب الإيمان والكفر، باب أنه لا يؤخذ المسلم بما عمل في الجاهلية قال محققه: هذا الحديث صحيح.

(٤) مرآة العقول (١١/٣٨٣).

والخامسة: فساق الاثني عشرية، (فساق المؤمنين) الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، ثم اعترفوا بذنوبهم، فعسى الله أن يتوب عليهم، وقد أوردهم الكليني مع أصحاب الأعراف في رواية عن موسى بن بكرٍ عن رجل قال: « قال أبو جعفر عليه السلام: الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴿﴾ [التوبة: ١٠٢] فأولئك قومٌ مؤمنون يحدثون في إيمانهم من الذنوب التي يعيها المؤمنون ويكرهونها، فأولئك عسى الله أن يتوب عليهم » (١).

قال المفيد: « اتفقت الإمامية على أن الوعيد بالخلود في النار متوجه إلى الكفار خاصة دون مرتكبي الذنوب من أهل المعرفة بالله تعالى والإقرار بفرائضه من أهل الصلاة، وأنهم بارتكاب الكبيرة لا يخرجون عن الإسلام، وإن كانوا يفسقون بما فعلوه من الكبائر والآثام » (٢). « فلا خلاف في أنهم لا يدخلون في النار، وأما أنهم هل يدخلون النار أم لا؟ فلاخبار فيهم مختلفة اختلافاً كثيراً، ولا يخفى أن في التبهيم والإبهام من الحكم الكثيرة » (٣).

وقد جاءت بعض الروايات تزعم تكفير ذنوب الشيعة خصوصاً: عن « محمد بن مسلم الثقفي، قال: سألت أبا جعفر محمد بن علي عليه السلام عن قول الله ﴿﴾: فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿﴾ [الفرقان: ٧٠]. فقال عليه السلام: يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة حتى يقام بموقف الحساب، فيكون الله (تعالى) هو الذي يتولى حسابه، لا يطلع على حسابه أحداً من الناس، فيعرفه ذنوبه حتى إذا أقرّ بسيئاته قال الله ﴿﴾ لملائكته: بدلوها حسنات وأظهروها للناس. فيقول الناس حينئذ: ما كان لهذا العبد سيئة واحدة، ثم يأمر الله به إلى الجنة، فهذا تأويل الآية، وهي في المذنبين من شيعتنا خاصة » (٤).

في حين جاء الخبر عند أهل السنة أن هذه البشارة لكل مؤمن استحقها فستر معصيته: قال عليه السلام: « إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كفه ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم، أي رب! حتى إذا قرّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيعطى كتاب حسناته » (٥).

(١) أصول الكافي (٣٨٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب أصحاب الأعراف قال محققه: وهو ضعيف.

(٢) المفيد: أوائل المقالات (ص ١٤، ١٥).

(٣) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١٦).

(٤) الأمالي: الشيخ الطوسي (ص ٧٣)، دار الثقافة - قم (١٤١٤هـ).

(٥) صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب في قوله تعالى: « أَلَا لَئِنَّ اللَّهَ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿﴾ [هود: ١٨] رقم

(٢٣٠٩)، وأخرجه مسلم في كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله رقم (٢٧٦٨). من

السادسة: أصحاب الأعراف، وهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، لا يرجح أحدهما على الأخرى ليدخلوا به الجنة أو النار، فيكونون في الأعراف، حتى يرجح أحد الأمرين بمشيئة الله سبحانه. وهذا التفسير والتفصيل يظهر في الرواية التالية:

عن زرارة قال: قال لي أبو جعفر عليه السلام: ما تقول في أصحاب الأعراف؟ فقلت: ما هم إلا مؤمنون أو كافرون، إن دخلوا الجنة فهم مؤمنون، وإن دخلوا النار فهم كافرون، فقال: « والله! ما هم بمؤمنين ولا كافرين، ولو كانوا مؤمنين دخلوا الجنة كما دخلها المؤمنون، ولو كانوا كافرين لدخلوا النار كما دخلها الكافرون، ولكنهم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم، فقصرت بهم الأعمال، وإنهم لكما قال الله عز وجل: فقلت: أمن أهل الجنة هم أو من أهل النار؟ فقال: اتركهم حيث تركهم الله، قلت: أفرجهم؟ قال: نعم أرجعهم كما أرجأهم الله، إن شاء أدخلهم الجنة برحمته، وإن شاء ساقهم إلى النار بذنوبهم ولم يظلمهم، فقلت: هل يدخل الجنة كافؤ؟ قال: لا، قلت: هل يدخل النار إلا كافؤ؟ قال: فقال: لا، إلا أن يشاء الله. يا زرارة! إنني أقول: ما شاء الله، وأنت لا تقول: ما شاء الله، أما إنك إن كبرت رجعت وتحللت عنك عقدك » (١).

وهناك أصناف أخرى ذكرتها روايات الاثني عشرية، ولكنها تؤول إلى التقسيم الأول، وهي فرقة المعارين والنواصب، وكلاهما يؤولان إلى فرقة الكفر عند الاثني عشرية. والعياذ بالله تعالى.

(صنف المعارين)

المعارون في روايات الاثني عشرية: قوم لبسهم الإيمان ثم خرج منهم:

عن عيسى شلقان قال: « كنت قاعدًا فمرّ أبو الحسن موسى عليه السلام ومعه بهمة. قال: قلت: يا غلام! ما ترى ما يصنع أبوك يأمرنا بالشيء ثم ينهانا عنه؟ أمرنا أن نتولّى أبا الخطاب، ثم أمرنا أن نلعنه ونتبرأ منه. فقال أبو الحسن عليه السلام وهو غلام: إن الله خلق خلقًا للإيمان لا زوال له وخلق خلقًا للكفر لا زوال له، وخلق خلقًا بين ذلك أعاره الإيمان، يسمون المعارين إذا شاء سلبهم، وكان أبو الخطاب ممن أعير الإيمان، قال: فدخلت على أبي عبد الله عليه السلام فأخبرته ما قلت لأبي الحسن عليه السلام وما قال لي، فقال أبو عبد الله عليه السلام: إنه نبعة نبوة » (٢).

(١) أصول الكافي (٣٨٩/٢) كتاب الإيمان والكفر باب أصحاب الأعراف، قال محققه: الحديث موثق كالصحيح.

(٢) أصول الكافي (٣٩٧/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب المعارين. قال محققه: الحديث حسن كالصحيح.

المرء إذا حاول البحث عن أهل هذا الصنف في كتب أهل السنة فسيجد ما يدل على وجودهم؛ في قول النبي ﷺ: «بادروا بالأعمال فتناً كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً، أو يمسي مؤمناً ويصبح كافراً، يبيع دينه بعرض من الدنيا» (١).

(النواصب وأحكامهم):

والنواصب كما ذكر ابن منظور: «قوم يدينون ببغض علي ﷺ» (٢). والناصب وهو «الذي يتظاهر بعداوة أهل البيت ﷺ» (٣).

وقد أدرك علماء السنة الحرب الضروس بين الشيعة والنواصب، ولم يحسبوا أنفسهم على أي منهما، فهؤلاء تطرفوا يميناً وأولئك شمالاً، وكلاهما بدعتان ما كانتا على عهد النبي ﷺ، وتختلف طقوس كل منهما في حرب وإغاظة الأخرى.

كما في يوم عاشوراء، يوم مقتل الحسين - رضوان الله عليه - فقد كانت الكوفة بها قوم من الشيعة المنتصرين للحسين، وكان رأسهم المختار بن عبيد الكذاب. وقوم من الناصبة المبغضين لعلي ﷺ، وأولاده، منهم الحجاج بن يوسف الثقفي، وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «سيكون في ثقيف كذاب ومبير». فكان ذلك هو الكذاب وهذا الناصبي هو المبير، فأحدث [في يوم عاشوراء] أولئك الحزن، وأحدث هؤلاء السرور، وهذه بدعة أصلها من المتعصبين بالباطل على الحسين ﷺ، وتلك بدعة أصلها من المتعصبين بالباطل له، وكل بدعة ضلالة، ولم يستحب أحد من الأئمة الأربعة وغيرهم لا هذا ولا هذا، ولا في شيء من استحباب ذلك حجة شرعية.

ولم يسبق رسول الله ﷺ ولا خلفاؤه الراشدون في يوم عاشوراء شيئاً من هذه الأمور، لا شعائر الحزن والترح، ولا شعائر السرور والفرح، ولكنه ﷺ لما قدم المدينة، وجد اليهود تصوم عاشوراء، فقال: «ما هذا؟». فقالوا: هذا يوم نجى الله فيه موسى ﷺ من الغرق فنحن نصومه. فقال: «نحن أحق بموسى منكم». فصامه وأمر بصيامه (٤).

(١) صحيح مسلم: كتاب الإيمان، باب الحث على المبادرة بالأعمال قبل تظاهر الفتن، رقم (١١٨).

(٢) ابن منظور: لسان العرب، مادة (ن. ص. ب).

(٣) ابن المطهر الحلبي: نهاية الأحكام (٢٤٧/١)، ط بيروت.

(٤) صحيح البخاري: كتاب الصيام، باب صيام يوم عاشوراء، رقم (١٩٠٠)، وأخرجه مسلم: كتاب

الصيام، باب صوم يوم عاشوراء، رقم (١١٣٠).

- مصطلح النصب بين التقييد بعداوة آل البيت، والإطلاق على كل من خالف الاثني عشرية:

ولا شك في أن النواصب، وكذلك الغلاة في علي مبتدعون في فعلهم هذا ومخطئون، وخارجون عن السنة؛ لأن الرسول ﷺ قال: « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة » (١).

وبناء على هذا فإذا كان منهج أهل السنة يرفض غلو الشيعة في علي ﷺ، فإنهم بالمنهج نفسه لا يرتضون طريقة النواصب في بغض آل بيت النبي، ويرون النصب خروجًا عن النهج القويم. ويتذكرون ما ورد عند أهل السنة والشيعة من قول النبي ﷺ: « يا علي: إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم، أحبه قوم فأفرطوا في حبه فهلكوا، وأبغضه قوم وأفرطوا في بغضه فهلكوا، واقتصد فيه قوم فنجوا » (٢).

وإذا كان مقياس النصب هو كراهة آل البيت أو إيدائهم، فإن أمة الإسلام بريئة من النواصب براءتها من الغلاة. ولكن بعض روايات وأقوال علماء الشيعة توسع دائرة النصب حتى تشمل جماهير الأمة المسلمة.

فقد روى العامل في (وسائل الشيعة): من « قدّم أبا بكر على علي فهو ناصبي » (٣). فيدخل في معنى النصب - بناء على هذه الرواية - أهل السنة جميعًا!

وكتب أحدهم إلى الإمام علي بن محمد الهادي أبي الحسن: « أسأله عن الناصب، هل احتاج في امتحانه إلى أكثر من تقديمه الجيت والطاغوت [يعني: أبا بكر وعمر ﷺ]، واعتقاد إمامتهما؟ فرجع الجواب: من كان على هذا فهو ناصب » (٤). ولذلك نقل بعض

(١) أخرجه أبو داود، كتاب السنة، باب في لزوم السنة بسند صحيح، رقم (٤٦٠٧)، والترمذي: كتاب العلم، باب الأخذ بالسنة واجتناب البدع، رقم (٢٦٧٦)، وقال: حديث حسن صحيح، وأحمد في مسنده (١٢٦/٤).

(٢) بحار الأنوار: المجلسي (١٥١/٩)، وجاء في مجمع الزوائد للهيتمي (١٣٣/٩) كتاب المناقب، باب فيمن يفرط في محبة علي وبغضه، عن علي بن أبي طالب، وهو ضعيف.

(٣) وسائل الشيعة (٣٤١/٦).

(٤) المحقق الحلي: الرسائل التسع (ص ٢٧٧)، ابن إدريس الحلي (٥٩٨ هـ): السرائر (٣/٥٨٣)، مؤسسة النشر الإسلامي جماعة المدرسين - قم (١٤١١)، تحقيق لجنة التحقيق، المحقق البحراني: الرياض الناضرة (١٨٦/٥)، والخبر في بحار الأنوار أيضًا ووسائل الشيعة.

الكتاب عنهم أن « أخبارهم عليه السلام تنادي بأن الناصب هو ما يقال له عندهم سَنِيًّا » (١).
ولكن ما الرابط بين تقديم الشيخين والعداوة والإيذاء للأئمة وأتباعهم؟ يجيب أحد علمائهم قائلاً: « بعض الأخبار أن كل من قدم الجيت والطاغوت فهو ناصب. واختاره بعض الأصحاب؛ إذ لا عداوة أكثر ممن قدّم المنحطّ عن مراتب الكمال، وفُضِّل المنخرط في سلك الأغبياء والجهال على من تستمّ أوج الجلال... وهو الحق الذي لا تعتريه شبه ولا إشكال، وإن خالفه في مواضع من كلامه في أمثال هذا المجال » (٢).

وقال الجزائري: « وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله أن علامة النواصب تقديم غير علي عليه، وهذه خاصة شاملة لا خاصة... ويؤيد هذا المعنى أن الأئمة عليهم السلام وخواصهم أطلقوا لفظ الناصبي على أبي حنيفة وأمثاله، مع أن أبا حنيفة لم يكن ممن نصب العداوة لأهل البيت عليهم السلام، بل كان له انقطاع إليهم، وكان يظهر لهم التودد، نعم كان يخالف آراءهم ويقول: قال علي وأنا أقول... فيتناولهم هذا اللفظ حيث يطلق؛ ولأنك قد تحققت أن أكثرهم نواصب بهذا المعنى.... وحكمه عندهم كالكافر الحربي في أكثر الأحكام » (٣).

وهناك رواية عن الصادق توضح أن من يشك في كفر الناصب الظالم لآل البيت يدخل في دائرة الكفر مثله، تقول الرواية: « من شك في كفر أعدائنا والظالمين لنا فهو كافر » (٤). وهذه الرواية تذكرنا مرة أخرى بالعبارة المتداولة في أوساط التكفيريين: « من لم يكفر الكافر فهو كافر » و « من لم يكن معنا فهو علينا »، فالمخالف حسب هذه النظرة كافر وعدو ومحارب!!

وبهذا نرى أن لفظ الناصبي يتوسع ليشمل معظم أفراد الأمة المسلمة، ولكن يخرج من ذلك فقط المعذرون وهم المستضعفون أصحاب العقول الضعيفة عن إدراك الحق.

- موقف الاثني عشرية من النواصب:

استفاضت الأخبار عند الاثني عشرية في الحكم بكفر الناصب وشركه ونجاسته وحل

(١) الشيخ حسين بن الشيخ آل عصفور الدرزي البحراني: المحاسن النفسانية في أجوبة المسائل الخراسانية (ص ١٤٧).

(٢) المحقق البحراني (١١٨٦هـ): الحقائق الناضرة (٣٦٣/١٠). جماعة المدرسين، قم، تحقيق محمد تقي الأيرواني.

(٣) الجزائري: الأنور النعمانية (٣٠٧/٢) ظلمة في أحوال الصوفية والنواصب.

(٤) الصدوق: الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٨٠).

- ماله ودمه، وأن النواصب عند الاثني عشرية شر من اليهود والنصارى (١).
- ولا شفاة للناصب يوم القيامة: عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « من سعى في حاجة أخيه المسلم - طلب وجه الله - كتب الله عليه السلام له ألف ألف حسنة، يغفر فيها لأقاربه وجيرانه وإخوانه ومعارفه، ومن صنع إليه معروفًا في الدنيا فإذا كان يوم القيامة قيل له: ادخل النار فمن وجدته فيها صنع إليك معروفًا في الدنيا فأخرجه بإذن الله عليه السلام إلا أن يكون ناصبًا » (٢).
- وعمل الناصب محبط مردود: فقد ورد عن الصادق عليه السلام « سواء على الناصب صلى أم زنى » (٣)!
- وتدل الروايات على نجاسة الكافر والناصبي والخارجي، إذ « لا فرق بين المرتد والكافر الأصلي الحربي والذمي الخارجي والغالي والناصب »، و « لا إشكال في نجاسة الغلاة والخوارج والنواصب » (٤). ومن « صافح ذميًّا أو ناصبًا معلنًا بعداوة » (٥) آل محمد وجب غسل يده إن كان رطبًا، وإن كان يابسًا مسحه بالتراب » (٦).
- بل تبين بعض الروايات أن نجاسة اليهودي والنصراني أخف من نجاسة الناصب:
- فعن خالد القلانسي قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « ألقى الذمي فيصافحني قال: امسحها بالتراب وبالخائط، قلت: فالناصب؟ قال: اغسلها » (٧).

(١) الحدائق الناضرة (٤٣/١٠).

(٢) أصول الكافي (٢٠٣/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب السعي في حاجة المؤمن، قال المحقق: والحديث موثق.

(٣) كتاب الحدائق الناضرة (٤٣/١٠).

(٤) انظر: آية الله محمد كاظم الطباطبائي اليزدي: العروة الوثقى (١٤٥/١) كتابه العروة الوثقى،

(١٤١٧هـ)، مؤسسة النشر الإسلامي - قم. وانظر: السيد الخوئي: كتاب الطهارة (٧١/٢)، (ط ٣)،

(١٤١٠هـ)، دار الهادي - قم. محمد باقر الصدر: شرح العروة الوثقى (٣٠٧/٣)، الأريلي (ت ٩٩٣هـ):

مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان (٢٨٤/١) جماعة المدرسين - قم، (١٤٠٣هـ)، تحقيق

الحاج آقا مجتبي العراقي وآخرين، منهاج الصالحين (١١٦/١) النجف.

(٥) لو قيدوا الناصب دائمًا بهذا القيد فالأمر سهل؛ لأننا أهل السنة نبغض من عادى آل البيت، ولكن المشكلة

في تعميم الحكم بالنصب على جميع من خالف الاثني عشرية، كما سنين.

(٦) المحقق البحراني: الحدائق الناضرة (٣٩٧/٥)، بحار الأنوار (٦٤/٧٧).

(٧) أصول الكافي (٦١٦/٢) كتاب العشرة، باب التسليم على أهل الملل، قال محققه: « هذا يدل على

أخبية الناصب على الكافر، ومع ذلك لا بد من حمل وجوب غسل اليد على صورة ما إذا كانت المصافحة

مع الرطوبة المسرية »، وقال محققه عن الحديث: والحديث مجهول، إذن فما دام المجهول لا يعتد به كيف

تستخرج منه الأحكام الفقهية!!؟

أما في مذهب أهل السنة فالمقرر طهارة جسد كل إنسان مهما نجست عقيدته، أو تلوّثت أخلاقه، ونجاسة الكافر معنوية روحية، لا جسدية حشوية.

وبناء على ما مرّ من روايات نتساءل: ما حكم من لم يعلن كره أهل البيت، هل هو ناصبي أم لا، وهل هو نجس أم لا؟

أما على القول بتضييق مفهوم النصب وقصره على من ظهرت عداوته لآل البيت: فليس بناصر، وهو شأن معظم المسلمين اليوم، الذين يحبون آل البيت، وإن لم يؤمنوا بالأئمة الاثني عشر.

وأما على الروايات التي تجعل من يتولى ويقدم الشيخين من النواصب، فحكمه النجاسة. أما الشيعة الذين لم يحسبوا على الاثني عشرية، ولم يظهر منهم بغض آل البيت، فقد جزم الشيخ لطف الله الصافي الكليايكاني (المعاصر) بطهارتهم، فقال: « غير الاثني عشرية من فرق الشيعة إذا لم يظهر منهم نصب ومعاداة وسب لسائر الأئمة الذين لا يعتقدون بإمامتهم، فهم طاهرون، وأما مع ظهور ذلك منهم فهم مثل سائر النواصب » (١).

- ومن أحكام الناصب أنه حلال الدم والمال والعرض، فهو « كالكافر الحربي في أكثر الأحكام، ففي إحدى الروايات أن الإمام جعفرًا الصادق سئل عن دم الناصب، فقال: حلال الدم، لكنني أتقي عليك، فإن قدرت على أن تقلب عليه حائطًا أو تغرقه في ماء لكي لا يشهد به عليك فافعل، فقلت: فما ترى في ماله؟ قل: خذ ما قدرت » (٢).

وعنه برواية صححوها: « خذ مال الناصب حيثما وجدته، وادفع إلينا الخمس » (٣). وبناء عليه قال الخميني: « والأقوى إلحاق الناصب بأهل الحرب في إباحة ما اغتنم منهم وتعلق الخمس به، بل الظاهر جواز أخذ ماله أين وجد، وبأي نحو كان ووجوب إخراج خمسه » (٤).

واشترطت إحدى الروايات - عن جعفر الصادق أيضًا - إذن الإمام في قتل الناصب: « لولا أننا نخاف عليكم أن يقتل رجل منكم برجل منهم، ورجل منكم خير من ألف رجل منهم ومائة ألف منهم، لأمرناكم بالقتل لهم، ولكن ذلك إلى الإمام » (٥).

(١) الشيخ لطف الله الصافي الكليايكاني (المعاصر): هداية العباد (٩٤/١)، دار القرآن الكريم، (١٤١٦هـ)، (ط ١).

(٢) الجزائري: الأنوار النعمانية (٣٠٧/٢) ظلمة في أحوال الصرافية والنواصب.

(٣) الطوسي: تهذيب الأحكام (٣٨٤/١). (٤) الخميني في تحرير الوسيلة (٣٥٢/١).

(٥) الشيخ حسين بن الشيخ آل عصفور الدرزي البحراني: المحاسن النفسانية (ص ١٦٦).

وعن يزيد بن معاوية العجلي قال: « سألت أبا جعفر عليه السلام عن مؤمن قتل ناصبًا معروفًا بالنصب على دينه غضبًا لله ورسوله ﷺ أيقتل به؟ قال: أما هؤلاء فيقتلونه به، ولو رفع إلى إمام عادل ظاهر لم يقتله. قلت: فيبطل دمه؟ قال: لا، ولكن إن كان له ورثة فعلى الإمام أن يعطيهم الدية من بيت المال؛ لأن قاتله إنما قتله غضبًا لله ولإمام المسلمين » (١).

وهنا تأتي خطورة رأي من رأى أن كل سني ينطبق عليه حكم النصب، إذ سيستسهل النيل من دمه وماله وعرضه.

ولعل الواقع المعاش يفسر كثيرًا مما يحدث لأهل السنة من جرائم في كثير من البلاد في زمن الفتن، وما يترتب على ذلك من ردات أفعال، وفتاوى مضادة تكفر الشيعة وتبيح قتلهم، ونحن لا نرضى أن يكفر أو يحمل السلاح في وجهه.

وإذا لم يؤخذ على أيدي هؤلاء المكفرين من الجانبين، وخصوصًا في زمن المحن، فستدمر البلاد ومواردها وطاقاتها، فينبغي تذكير هؤلاء الذين تعصف بهم رياح الفتن أن أهل السنة لن يستطيعوا أن يفنوا الشيعة، وكذلك لن يستطيع الشيعة أن يفنوا أهل السنة، وأرض الله تتسع لكل البشر على اختلاف أديانهم وألوانهم.

فأين حكماء الطرفين، الذين يمسكون على أيدي سفهائهم، وينشرون الفتاوى التي تصطبغ بالتسامح وتأمّر بحسن التعايش، وتحفظ العباد والبلاد؟!.

ولعل مما يحارب الاتجاه التكفيري عند الاثني عشرية، والذي يسمي كل أهل السنة بالنواصب: التأكيد على أقوال بعض علماء الاثني عشرية الذين يرون حصانة دم المسلمين من أهل السنة وغيرهم، حيث يرون أن « الضروري من الولاية إنما هي الولاية بمعنى الحب أي الولاء » في حين أن « الولاية بمعنى الخلافة من ضرورات المذهب لا من ضرورات الدين » (٢).

ومما هو بدهي أن أهل السنة بهذا المعنى للولاية هم من المسلمين وليسوا من النواصب؛ لأن محبة آل البيت - علي وبنيه - وغيرهم أيضًا مما هو متجذّر في قلوب جميع المسلمين. يقول اليزدي: « الحد الأدنى من الإيمان: الإيمان بالله الواحد، وبالثواب والعقاب الأخرويين، وبصحّة ما نزل على الأنبياء ﷺ ومما يلزم من هذا الإيمان ويترتب عليه العزم والتصميم الإجمالي على العمل بتعاليم الله تعالى وأحكامه... وأما

(١) الكليني: كافي (٧/٧٤ -)، وانظر: المحقق البحراني: كتاب الحدايق الناضرة (١٠/٣٦٤).

(٢) الخوئي: التنقيح شرح العروة الوثقى (٢/٨٣ - ٨٧).

الحد الأدنى للكفر فهو إنكار التوحيد أو النبوة أو الشك فيها، أو إنكار أمر يعلم بنزوله من الله تعالى على الأنبياء، وأما أسوأ مراتب الكفر فهو الإنكار عنادًا لهذه الحقائق مع العلم بصحتها والعزم على محاربة الدين الحق...» (١).

وكذلك يقر اليزدي أنه لا تلازم بين الإيمان والإسلام، بل لعله يرى أن الكفر نوعان عندما يقول:

« إن الإسلام أو الكفر الذي يبحث الفقه فيه، ويكون موضوعًا لبعض الأحكام مثل طهارة الذبيحة وحيثيتها وجواز النكاح والإرث وعدمه لا يلازم الإيمان أو الكفر الذي نبهته في أصول الدين، إذ من الممكن أن ينطق أحد بالشهادتين وتثبت له الأحكام الفقهية الإسلامية مع أنه لم يكن يؤمن قلبيًا بمضمون التوحيد والنبوة ولوازمهما» (٢).

ولذلك فلتتمس من علماء الاثني عشرية أن يوضحوا مفهوم الإيمان والإسلام توضيحًا واحدًا، وأن يلغوا هذه الضبابية في تعريفهما وبيان أهلها. فما ينبغي لعلماء الاثني عشرية أن يستخدموا ألفاظ أهل السنة للدعاية إلى مذهب الاثني عشرية وادعاء تسامحه، من خلال المباحة بالحكم على إسلام المخالفين، في حين هم يقصدون من إسلامهم ذاك جواز مناكتهم ومواكبتهم، لا نجاتهم يوم القيامة (٣).

ذلك أن الاثني عشرية عقديًا لا فقهيًا لا يعدّون أهل السنة مرشحين ولا مهيبين للارتقاء إلى مستوى الإيمان المنجي يوم القيامة؛ ما دام أهل السنة على موقفهم من تولي الشيخين، وترك القول بإمامة الأئمة الاثني عشر جميعًا.

وهذا ما سيتضح من سؤالنا للاثني عشرية: من يخلد في النار، ومن ينجو منها. والجواب على هذا السؤال يريح النفس والفكر من عناء مناقشتهم الطويلة في مفهوم الإسلام والإيمان.

— من يخلد في الجنة ومن يخلد في النار عند الاثني عشرية؟

قال المجلسي: « اعلم أن الذي يقتضيه الجمع بين الآيات والأخبار أن الكافر المنكر لضروري من ضروريات دين الإسلام مخلد في النار، لا يخفف عنه العذاب، إلا المستضعف

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٤٧٢).

(٢) المرجع السابق (ص ٤٧٣).

(٣) في حين يرى أهل السنة والجماعة أن من وصل إلى الإسلام صار مؤهلًا للارتقاء إلى درجة الإيمان بالإقرار بأركان الإيمان والإدعان لأركان وأحكام الإسلام، فستان بين الرأيين.

الناقص في عقله أو الذي لم يتم عليه الحجة ولم يقصر في الفحص والنظر، فإنه يحتمل أن يكون من (المرجون لأمر الله) » (١).

وقال عبد الله شبر في كتابه حق اليقين، مبيِّناً أصناف الناس عند الاثني عشرية:

« لا خلاف في أن من دخل الجنة خلد فيها، ولم يخرج منها، سواء دخلها بعد عذاب أو قبله، ولا خلاف أيضاً في أن الكفار والمنافقين والمنكر لضروري من ضروريات دين الإسلام ممن تمت عليهم الحجة مخلدون في النار.

... وأما المستضعفون الناقصو العقول والذين لم تتم عليهم الحجة ولم يقصروا في الفحص والنظر فهم مرجون لأمر الله ترجى لهم النجاة.

والمراد بضروري الدين ما كان بديهياً في دين الإسلام، بحيث إن من كان مسلماً عرفه بديهية، إلا من كان جديد الإسلام، بحيث لم يصير ضرورياً عنده، وذلك كوجوب الصلاة وصوم رمضان والحج والزكاة ونحوها، فإن استحل تركها فهو كافر، وكذا من صدر منه فعل يتضمن الاستخفاف بالدين المبين والتهاون بحرمة الشرع، كالذي يحرف المصحف الشريف، أو يلقيه بالقاذورات، أو يسب الله - تعالى - أو ملائكته أو أنبياءه أو رسله أو خلفاءه، أو يستخف بهم أو يهجوهم في نظم أو نثر، أو يبول أو يتغوط في الكعبة المعظمة، أو في مسجد النبي ﷺ أو في روضات الأئمة، أو بالتربة الحسينية، ونحو ذلك مما يجب احترامه بديهية.

وأما غير الشيعة الإمامية من المخالفين وسائر فرق الشيعة من الزيدية والفضحية والواقفية والكيسانية والناووسية ونحوهم؛ فإن كانوا منكرين لبعض ضروريات الدين فهم كفار نجسون مخلدون في النار، كالحوارج والغلاة والنواصب، فإن وجوب محبة أهل البيت من ضروريات دين الإسلام، وكذا المجسمة ونحوهم.

وأما ما عداهم فهم فرقتان: إحداهما: المتعصبون المعاندون من المخالفين ممن تمت عليهم الحجة فهم في النار خالدون، والثانية: المستضعفون منهم، وهم ضعفاء العقول، مثل النساء العاجزات والبله وأمثالهم ممن لم تتم الحجة عليهم، أو من مات في زمن الفترة، أو كان في موضع لم يأت إليه خبر الحجة، أو لم يكن له قدرة على التفحص عن المذاهب، فهم المرجون لأمر الله، إما يعذبهم وإما يتوب عليهم، فيرجى لهم النجاة من النار كما دل عليه جمل من الآيات والأخبار...

(١) بحار الأنوار (٨/٣٦٣ - ٣٧٤)، كتاب العدل والمعاد.

وأما سائر المخالفين ممن لم ينصب ولم يعاند ولم يتعصب فالذي عليه جملة من الإمامية كالسيد المرتضى أنهم كفار في الدنيا والآخرة، والذي عليه الأكثر الأشهر أنهم كفار مخلدون في الآخرة، وتجري عليهم أحكام الإسلام في الدنيا من حقن دمائهم وأموالهم، وقيل: إنهم لا يدخلون في النار ولا يدخلون في الجنة، بل يكونون بعد الخروج من النار في الأعراف، وقيل: إنهم يدخلون الجنة بعد العذاب الطويل، وهذا قول نادر لا يعرف قائله... أما دافعوا النص فقد ذهب أكثر أصحابنا إلى تكفيرهم، ومن أصحابنا من حكم بفسقهم خاصة، ثم اختلف أصحابنا في أحكامهم في الآخرة، فالأكثر قالوا بتخليدهم، وفيهم من قال بعدم الخلود، وذلك إما بأن ينقلوا إلى الجنة - وهذا قول شاذ عندهم - أو لا، واستحسنه المصنف ^(١).

« وقال الشيخ المفيد في كتابه المسائل: اتفقت الإمامية على أن من أنكر إمامة أحد من الأئمة وجحد ما أوجبه الله - تعالى - له من فرض الطاعة فهو كافر ضال مستحق للخلود في النار... واجتمعت المعتزلة على خلاف ذلك، وزعموا أن كثيراً من أهل البدع فساق وليسوا بكفار.... وقال الشيخ الطوسي في تلخيص الشافي: عندنا أن من حارب أمير المؤمنين فهو كافر » ^(٢).

ونلاحظ أن ما ينسبه شبر إلى المعتزلة يشير إلى اعتدال المعتزلة في موقفهم من المخالفين، ورحابة صدورهم، إذا ما قورنوا بالاثني عشرية الذين حكموا على باقي الفرق بالكفر، حتى من فرق الشيعة أنفسهم ممن لم يقر بالاثني عشر إماماً كالزيدية والواقفية والفضحية... إلخ.

والمجلسي يتهم من يقول بعدم خلودهم بالنار: بالجهل وعدم المعرفة بما تواتر من أخبار في ذلك، فيقرر بكل ثقة: « أقول: القول بعدم خلودهم في النار نشأ من عدم تتبعهم للأخبار، والأحاديث الدالة على خلودهم متواترة أو قريبة من التواتر » ^(٣).

ويشير شبر إلى حقيقة تغيب عن كثير ممن ينخدع بقول الشيعة بإسلام المخالفين؛ ذلك أنهم يقولون بتخليدهم في النار، وإنما تجري عليهم أحكام الإسلام في الدنيا، فقد

(١) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥٠٩، ٥١٠).

(٢) المصدر السابق (ص ٥١٢).

(٣) بحار الأنوار (٣٦٥/٨)، وانظر: عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١١).

نقل عن الشهيد الثاني (١) في (رسالة حقائق الإيمان) عند تحقيق معنى الإيمان والإسلام قوله: «واعلم أن جمعًا من علماء الإمامية حكموا بكفر أهل الخلاف، والأكثر على الحكم بإسلامهم، فإن أرادوا كونهم كافرين في نفس الأمر لا في الظاهر، فالظاهر أن النزاع لفظي؛ إذ القائلون بإسلامهم يريدون ما ذكرناه من الحكم بصحة جريان أكثر أحكام المسلمين عليهم في الظاهر، لا أنهم مسلمون في نفس الأمر؛ ولذا نقلوا الإجماع على دخولهم النار، وإن أرادوا بذلك كونهم كافرين ظاهرًا وباطنًا فهو ممنوع ولا دليل عليه، بل الدليل قائم على إسلامهم لقوله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله» (٢) اهـ» (٣).

قال مرتضى أنصاري؛ دافعًا للتوهم في إطلاق أحكام الإيمان على جميع المسلمين من غير الشيعة: «كبعض الروايات لمطلق المسلم: مدفوع بما علم بضرورة المذهب من عدم احترامهم وعدم جريان أحكام الإسلام عليهم إلا قليلًا مما يتوقف استقامة نظم معاش المؤمنين عليه مثل.. حل ذبائحهم ومناكحتهم وحرمة دمائهم لحكمة دفع الفتنة، ونسائهم» (٤).

(١) الشهيد الثاني: هو زين الدين بن علي العاملي (٩١١هـ - ٩٦٦هـ)، صاحب اللمعة البهية في شرح اللمعة الدمشقية: أمره في الثقة والعلم والفضل والزهد والعبادة والورع والتحقيق والتبحر وجمالة القدر وعظم الشأن وجمع الفضائل والكمالات أشهر من أن يذكر، ومصنفاته كثيرة مشهورة. روى عن جماعة كثيرين جدًا من الخاصة والعامة في الشام ومصر وبغداد وقسطنطينية وغيرها. انظر: معجم رجال الحديث، للسيد الخوئي (٣٨٥/٨).

والشهيدي الأول: هو محمد بن جمال الدين مكي العاملي (ت ٧٨٦هـ)، صاحب اللمعة الدمشقية. (٢) الحديث أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما، انظر: صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين، باب قتل من أبي قبول فرائض الدين، رقم (٦٥٢٦)، وله روايات فيها إضافة الصلاة والزكاة وغير ذلك، وأخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، رقم (٢١).

ولما كان هذا الحديث يخالف ما أثبتته الشيعة من وجوب الإيمان بالإمامة إلى جانب الإقرار بالشهادتين وغيرهما من أركان الإسلام فإن عبد الله شبر قد ضعف هذا الحديث قائلًا: «وأما الحديث فمع ضعف إسناده وعدم حججه لا يدل على أكثر من كون هذه الكلمة موجهة لحقن الدم ظاهراً» (حق اليقين في معرفة أصول الدين، ص ٥٥٧).

(٣) الشهيد الثاني: حقائق الإيمان (ص ١٣٢) تحقيق: السيد مهدي الرجائي، إشراف: السيد محمود المرعشي، (ط ١)، (١٤٠٩هـ)، مطبعة سيد الشهداء - قم، وانظر: استدلال المجلسي بحار الأنوار (٣٦٧/٨). (٤) مرتضى الأنصاري: المكاسب (٣١٩/١). تحقيق: لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، (ط ١)، (١٤١٥هـ) المطبعة: باقري - قم.

أرأيت بعد هذا العناء الطويل في تحقيق مناط المصطلحات (الإسلام، الإيمان، الخلود في الجنة، الخلود في النار) كيف أن القوم أنفسهم لم يصلوا إلى هذه النتيجة الأخيرة وهي: أن مصير المخالفين - منكري إمامة الاثني عشر - كلهم إلى جهنم إلا بشقّ الأنفس، وقد أقر شبر بتعبه الشديد للوصول إلى هذه الحقيقة (المذهلة) وتوفيقه بين الروايات المصّرحة بكفرهم وإسلامهم معاً، بقوله: « وهو كلام جيد متين وجوهر ثمين جامع بين الأخبار الدالة على إسلامهم والأخبار الدالة على كفرهم، وحينئذ لا معنى بخروجهم من النار في الآخرة، والأخبار الواردة بكفرهم كثيرة لا تحصى، ولو كانوا في الدنيا والآخرة في حكم المسلمين، فأى فرق بينهم وبين فسّاق الشيعة، وأي فائدة فيما أجمعت عليه الفرقة المحقة من كون الإمامة من أصول الدين؟ » (١).

لكن هذا القول الراجح والمشهور في خلود مخالفين الاثني عشرية في النار، وعدم الحكم بإسلامهم في الدنيا والآخرة معاً، يناقض أقوالاً أخرى في هذه المسألة، تضيء كالأنوار الخافتة في الليلة المظلمة، وتقول بنجاة المخالفين الذين لم يقولوا بإمامة الاثني عشر إماماً، لم يناصروا أحداً منهم البغض والعداء، فقد تكلم الأربيلي في مخالفين مذهب الإمامية من المسلمين: فذكر أن « مذاهب أصحابنا فيهم ثلاثة، الجنة مطلقاً، والنار مطلقاً. وقال نصير الملة والدين: محاربو عليّ كفرة، ومخالفوه فسقة، فهو يدل على جواز دخولهم الجنة؛ لأنهم فساق، الله يعلم، فيحتمل عدم سقوط التكليف بالإيمان وتوابعه عن هذه الطائفة، خصوصاً غير الأخيرة، فيكونون مكلفين بالأداء والقضاء، ومعاقبين بها لعدم الصحة ولو فعلوا » (٢).

وجاء في التجريد: « (المسألة الثامنة) في أحكام المخالفين قال: محاربو عليّ عليه السلام كفرة ومخالفوه فسقة... وأما مخالفوه في الإمامة، فقد اختلف قول علمائنا. فمنهم من حكم بكفرهم؛ لأنهم دفعوا ما علم ثبوته من الدين ضرورة، وهو النص الجلي الدال على إمامته مع تواتره. وذهب آخرون إلى أنهم فسقة، وهو الأقوى. ثم اختلف هؤلاء، على أقوال ثلاثة:

أحدها: أنهم مخلدون في النار لعدم استحقاقهم الجنة.

الثاني: قال بعضهم: أنهم يخرجون من النار إلى الجنة.

(١) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٥١٣).

(٢) الأربيلي: مجمع الفائدة والبرهان في شرح إرشاد الأذهان (٢٢٠/٣).

الثالث: ما ارتضاه ابن نوبخت وجماعة من علمائنا أنهم يخرجون من النار لعدم الكفر الموجب للخلود، ولا يدخلون الجنة لعدم الإيمان المقتضي لاستحقاق الثواب» (١).

ولست أدري كيف استساغ علماء الاثني عشرية هذا الخلاف مع أن هناك نصًا عند المجلسي في بحار أنواره يفيد نجاة جميع المخالفين، لكنه لم يقل به، والأضواء لا تسلط كثيرًا على هذا النص، في غمرة ذلك الركام الهائل من روايات الحقد على الفرق الأخرى وتخليدها في النار:

« عن أبي عبد الله عليه السلام عن أبيه، عن جده، عن علي عليه السلام قال: « إن للجنة ثمانية أبواب، باب يدخل منه النبيون والصدّيقون، وباب يدخل منه الشهداء والصالحون، وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبوننا، فلا أزال واقفًا على الصراط، أدعو وأقول: رب! سلم شيعتي، ومحبيّ، وأنصاري ومن تولاني في دار الدنيا، فإذا النداء من بطنان العرش: قد أجيبت دعوتك، وشفعت في شيعتك، ويشفع كل رجل من شيعتي ومن تولاني ونصرني وحارب من حاربنى بفعل أو قول في سبعين ألفًا من جيرانه وأقربائه، وباب منه يدخل سائر المسلمين، ممن يشهد أن لا إله إلا الله ولم يكن في قلبه مقدار ذرة من بغضنا أهل البيت » (٢).

ومن النصوص الدالة على نجاة المخالفين أيضًا: عن محمد الباقر قال: « صلّ على من مات من أهل القبلة، وحسابه على الله ».

وما رواه الأئمة عن رسول الله ﷺ: « صلّوا على المرجوم من أمتي، وعلى القاتل نفسه من أمتي، لا تدعوا أحدًا من أمتي بلا صلاة » (٣).

وواضح جلي أن من صلي عليه من المسلمين رجي له دخول الجنة، والبعد عن النار، إلا أن تكون صلاة تقية، فتصبح لعنة لا صلاة كما ذكروا (٤).

(١) الحلبي: شرح التجرید (ص ٤٢٣ ، ٤٢٤)، تحقيق الزنجاني.

(٢) بحار الأنوار (٣٩/٨) نقلًا عن أمالي الصدوق (ص ٣٩)، وانظر: ميرزا محمد تقي الأصفهاني: مكيا المكارم (٤٣٩/١). وجعفر سبحاني: في ظلال التوحيد (ص ٥٥٦).

(٣) الصدوق: من لا يحضره الفقيه (١٦٥/١)، الطوسي: تهذيب الأحكام (٣٢٨/٣).

(٤) كذلك الصلاة التي زعموا أن الحسين صلاها على منافق: أين تذهب يا فلان؟ قال: فقال له مولاه: أفر من جنازة هذا المنافق أن أصلي عليها، فقال له الحسين عليه السلام: انظر أن تقوم على يميني فما تسمعي أقول فقل مثله، فلما أن كبر عليه وليه قال الحسين عليه السلام: « الله أكبر، اللهم العن فلانًا عبدك ألف لعنة مؤتلفة غير مختلفة، اللهم اخز عبدك في عبادك وبلادك وأضله حرّ نارك وأذقه أشدّ عذابك، فإنه كان يتولى أعداءك ويعادي أولياءك، =

و « عن جعفر عن أبيه أنّ عليًّا عليه السلام لم يكن ينسب أحدًا من أهل حربه إلى الشّرك، ولا إلى التّفاق، ولكنّه يقول: هم بغوا علينا » (١).

وقد رأينا سيدنا عليًّا عليه السلام يصلّي على من مات من مخالفيه في الجمل وصفين. عن ميمون بن مهران قال: « مرّ علي برجل مقتول يوم صفين، ومعه الأشر، فاسترجع الأشر فقال علي: ما لك؟ قال: هذا حابس اليماني عهدته مؤمنًا ثم قتل على ضلالة، قال علي عليه السلام: والآن هو مؤمن » (٢).

وعن الحسن قال: لما قتل علي الحرورية قالوا: من هؤلاء يا أمير المؤمنين! أكفّار هم، قال: من الكفر فزوا، قيل: فمنافقون؟ قال: « إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلًا، وهؤلاء يذكرون الله كثيرًا، قيل: فما هم؟! قال: أصابتهم فتنة فعموا وصمّوا » (٣).

اللهم! إن الجنة جنتك، وإن النار نارك، تدخل فيهما من تشاء، والحمد لك إذ لم تسلط أحدًا من خلقك على اختيار أهل الجنة والنار، فلو حكمت روايات الاثني عشرية وآراء الخوارج في الجنة والنار، لضيقوا واسع رحمتك التي وسعت كل شيء، وأنت القائل: ﴿ ... عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

اللهم! اجعل المسلمين جميعًا منهم.

= ويفض أهل بيت نبيك عليه السلام « الكليبي: الكافي (١٨٩/٣). باب الصلاة على الناصب. والطوسي: تهذيب الأحكام (١٩٧/٣).

(١) انظر: قرب الإسناد (ص ٦٢)، وسائل الشيعة (٦٢/١١).

(٢) المتقي الهندي: كنز العمال، رقم (٣١٧١١).

(٣) المصدر السابق: فتن الخوارج، رقم (٣١٥٦٨).

الْمِحَّةُ الثَّانِي

موقف الشيعة الاثني عشرية

من الصحابة الكرام

(رضوان الله عليهم أجمعين)



إن النصوص القرآنية والنبوية واضحة الدلالة على مكانة أصحاب النبي ﷺ، رضوان الله عليهم أجمعين.

ومن الآيات الصريحة في بيان مكانة الصحابة، قوله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَزَجٍ أُخْرِجَ شَطْفُهُمْ فَتَازَرَهُمْ فَأَسْتَقَالَطُ فَاسْتَوَى عَلَى سُوْقِهِمْ يُعْجَبُ الْزَّرَّاعُ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩] .

وقوله ﷻ: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ [الفتح: ١٨] .

وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

وقوله: ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ مِنْ الْقَدِّينَ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠] .

وقوله سبحانه: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: ١١٧] .

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُدْكِرُ الْبَصِيرَةَ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٢] . وقوله: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الأنفال: ٦٤] .

و « كفى فخراً لهم أن الله تبارك وتعالى شهد لهم بأنهم خير الناس، حيث قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾ [آل عمران: ١١٠] »^(١).

وقد جاءت وصية النبي ﷺ للأمة من بعده باحترام صحابته الكرام، في قوله: « لا تستوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه »^(٢). وهذه النصوص وإن كانت لا تعني عصمة الصحابة، فإنها تدعو لتوقيرهم واحترامهم، والدعاء لهم وذكر حسناتهم، والغض والاستغفار لزلاتهم ﷺ، تصديقاً واتباعاً لقوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

إن سيدنا محمداً ﷺ هو خير الرسل، ولذلك كانت أمته خير الأمم، قال تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ... ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولذلك كان صحبه رضوان الله عليهم خير الأمة وساداتها، فقد اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه، وهذا مصداق ما قاله النبي ﷺ: « خير أمتي القرن الذين بعثت فيهم، ثم الذين يلونهم... »^(٣). وقال: « إن الله اختارني واختار لي أصحاباً، فجعل لي بينهم وزراء وأنصاراً وأصحاباً، فمن سبهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا عدل »^(٤).

وهناك أحاديث كثيرة صحيحة يبشر النبي ﷺ بعض صحابته بالجنة، وأشهرهم

(١) ابن حجر: الصواعق المحرقة (ص ٤).

(٢) أخرجه البخاري (١٩٥/٤)، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين وفضلهم، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب تحريم سب الصحابة، رقم (٢٥٤٠)، وأخرجه الترمذي (٣٥٨/٥) رقم (٣٩٥٢)، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، وأبو داود (٤٠٤/٢)، رقم (٤٦٥٨)، وابن ماجه (٥٧/١) باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ، وأحمد في مسنده - مسند أبي سعيد الخدري (١١/٣)، وغيرهم.

(٣) صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم (٢٥٣٤). من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٤) الطبراني: المعجم الكبير (١٤٠/١٧). مستدرک الحاكم (٧٣٢/٣). وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في التلخيص. من حديث عويم بن ساعدة ﷺ.

العشرة الذين صاروا يعرفون بـ (العشرة المبشرين بالجنة)، وهم الذين بشرهم الرسول ﷺ بالجنة في حديث واحد فقال: « أبو بكر في الجنة، وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة في الجنة، والزبير في الجنة، وعبد الرحمن بن عوف في الجنة، وسعد في الجنة، وسعيد في الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح في الجنة » (١).

كما جاءت البشارة بفوز أهل بدر وأحد، وأهل بيعة الرضوان، وبلال، ووائلة بن الأصقع، وغيرهم.

ناهيك عن البشارة لآل بيت النبي ﷺ؛ أزواجه وفاطمة والحسن والحسين وغيرهم.

فما موقف الاثني عشرية من صحابة النبي ﷺ رغم وضوح هذه النصوص الكثيرة المبيّنة فضل الصحابة؟

قال الشيعة: إن هذه النصوص القرآنية والنبوية ليست دالة على مكانة الصحابة جميعهم، ولا مجموعهم؛ « فلا دلالة فيه على الرضا إلا على من محض الإيمان » (٢).

أما من مات من الصحابة قبل انتقال النبي ﷺ إلى الرفيق الأعلى؛ كأسد الله حمزة ومصعب بن عمير وغيرهم، فهم صحابة مكرّمون موقرون عند الاثني عشرية، وإن لم تصل مرتبتهم إلى درجة الأئمة المعصومين عند الاثني عشرية.

أما من عاش من الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ وباع أبا بكر والخليفين بعده عمر وعثمان، فإن كتب الاثني عشرية مشحونة باتهامهم بالارتداد والتأمر على الإسلام.

فقد جاء في كتاب الروضة من الكافي عن أبي جعفر: « كان الناس أهل ردة بعد النبي ﷺ إلا ثلاثة، فقلت: ومن الثلاثة؟ فقال: المقداد بن أسود وأبو ذر الغفاري وسلمان الفارسي رحمة الله وبركاته عليهم، ثم عرف أناس بعد يسير، وقال: هؤلاء الذين دارت عليهم الرحى، وأبوا أن يبايعوا حتى أتوا بأمر المؤمنين التّكليف مكرهاً فبايع،

(١) أخرجه الترمذي بسند صحيح: كتاب المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف، من حديثه ومن حديث سعيد بن زيد، رقم (٣٧٤٧)، وأخرجه ابن ماجه في الإيمان فضائل الصحابة، باب فضائل العشرة المبشرين بالجنة، وأخرجه أحمد في مسنده بسند صحيح (١٨٧/١).

وقد كان عمر يعظّم أمر هؤلاء المبشرين، ففي صحيح مسلم: عن عمر ؓ: « فإن عجل بي أمر فالخلافة شورى بين هؤلاء الستة الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض ». ومن المعلوم أنه جعل الخلافة شورى بين (عثمان، وعلي، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص) أما سعيد بن زيد، فلم يذكره لأنه من بني الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح كان قد توفي.

(٢) محمد مهدي الكاظمي: إحياء الشريعة في مذهب الشيعة (٦٣/١).

وذلك قول الله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ [آل عمران: ١٤٤] (١).

أما من حارب عليًا من الصحابة؛ كأهم المؤمنين عائشة وطلحة والزبير ومعاوية - غفر الله لهم ورضي عنهم - في تلك الحروب السياسية الطاحنة التي تألمنا أشد الألم لوقوعها؛ فإن الموقف منهم أشد وأعظم، فهم عند الاثني عشرية كفر لا تُقبل توبتهم، ولا تُعتبر أوبتهم، ولا تُغسل حوبتهم.

بل يحاول التستري الاثنا عشري أن يشبه صحابة النبي ﷺ بحال بني إسرائيل الذين عبدوا العجل زمن مناجاة موسى ﷺ ربه في جبل الطور؛ فيقول في كتابه (إحفاق الحق): « كما جاء موسى للهداية وهدى خلقًا كثيرًا من بني إسرائيل وغيرهم فارتدوا في أيام حياته، ولم يبق فيهم أحد على إيمانه سوى هارون، كذلك جاء محمد وهدى خلقًا كثيرًا، ولكنهم بعد وفاته ارتدوا على أعقابهم ».

لذلك جاءت رواية شيعية تقول بتفضيل الشيعة على خير الصحابة: الذين شهدوا بدرًا وأحدًا: عن الصادق أبي عبد الله ﷺ: «... أما والله!.. لا يموت منكم ميتة على الحال التي أنتم عليها إلا كان أفضل عند الله من كثير من شهداء بدرٍ وأحدٍ، فأبشروا » (٢). ومن العجيب أن يتحول كتاب عقيدة إلى ديوان زور وبهتان ومثالب، فهذا عبد الله شبر بعد ذكره فضائل علي ﷺ التي تقرّ بكثير منها نحن أهل السنة، يذكر في عنوان خاص: (المطاعن التي ذكرها العامة في الخلفاء الثلاثة) (٣) في كتاب يتحدث عن (حق اليقين) أي يقينيات العقيدة!

وهذا الموقف الخاطئ من صحابة النبي ﷺ ليس موقفًا عرضيًا، بل هو متأصل في فكر الاثني عشرية، شبّ عليه الصغير، وشاب عليه الكبير؛ لأنه مبثوث في كتب القوم القديمة والحديثة، في كتب العقائد والحديث والفكر والأدب، يقول أحد المعاصرين: « إن

(١) الروضة من الكافي (٢٤٥/٨، ٢٤٦). وأورده المجلسي في بحار الأنوار (٣٣٣/٢٢)، والعياشي في تفسيره (١٩٩/١)، والمولى محسن الفيض القاشاني (ت ١٠٩١هـ) في تفسيره الصافي (١٤٤/١) مكتبة الصدر - طهران (ط ٢)، (١٤١٦هـ) تحقيق الشيخ حسين الأعلمي.

(٢) أصول الكافي (٣٩٤/١) كتاب الحجّة، باب نادر في حال الغيبة.

(٣) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٣١ - ٢٤٧).

المقاييس الموضوعية للتفكير تحكم بأن الجاهلية ذات الأمد الطويل في تاريخ العرب، وأن الجاهلية العريقة كان لا يمكن أن تموت كلياً بعشر سنوات من التربية على يد النبي ﷺ. أجل استطاع الطبيب السماوي والمربي القدير والنبي الخاتم ﷺ أن يخضعهم للإسلام في الظاهر، وأن يهيمن على عواطفهم بوجوده الرباني، وأن يجتذبهم بأخلاقه الجميلة، وأن يجد ملتقى معهم في فطرتهم الربانية؛ لكن مهما أحسنت الظن في هذا التغيير فإنه لم يصل إلى أعماقهم ولم يكن جذرياً» (١).

كما حوّل تراث الشيعة صورة معركة الإسلام الكبرى بين التوحيد والشرك، إلى صورة باهتة فرعية، أمام صورة المعركة الكبرى بين علي وخصومه؛ ولذلك فإن «الأخبار متضافرة في تأويل الشرك بالله والشرك بعبادته بالشرك في الولاية والإمامة؛ أي: يشرك مع الإمام من ليس من أهل الإمامة، وأن يتخذ مع ولاية آل محمد ﷺ (أي الأئمة الاثنا عشر) ولاية غيرهم» (٢). ولأجل ذلك يعتقد الشيعة أن «ما من آية أولها ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إلا وعلي بن أبي طالب قائدها وأميرها وشريفها وأولها... وما من آية تسوق إلى النار إلا وهي في أعدائهم والمخالفين لهم» (٣). «وإذا سمعت الله ذكر قومًا من هذه الأمة بخير فنحن هم، وإذا سمعت الله ذكر قومًا بسوء ممن مضى فهم عدونا» (٤).

ويتكلم داعية التقريب! على صحابة النبي ﷺ فيقول: «إن معاوية وطلحة والزبير وعائشة كانوا أعدى أعداء الإمام علي، لم يجدوا شيئاً يتذرعون به حين قاوموه وحاربوه إلا الطلب كذبًا وافتراء بدم عثمان» (٥).

ويقول صاحب (الثورة الإسلامية): «أولئك الصحابة الذين لم يكن همهم إلا الدنيا والحصول على الحكم دون الإسلام والقرآن، والذين اتخذوا القرآن مجرد ذريعة لتحقيق نواياهم الفاسدة» (٦).

(١) الشيخ محمد حسين الفقيه: لماذا أنا شيعي؟ (ص ٢٦)، دار الغدير للدراسات والنشر - بيروت (ط ٣)، (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

(٢) محمد بن طاهر العاملي أبو الحسن: مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار (ص ٢٠٢).

(٣) اعتقادات الصدوق (ص ٨٧)، الشيخ جعفر كاشف الغطاء: كشف الغطاء عن مبهات الشريعة الغراء (٩/١). ط مهدوي أصفهان.

(٤) تفسير الصافي (١٤/١).

(٥) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٢٥٥).

(٦) الإمام الخميني: كشف الأسرار (ص ١١٤). بالفارسية، عن صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية (ص ٧٠)، (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).

إن هذه النظرة الحاقدة على صحابة النبي ﷺ « ترى المجهودات الجبارة التي بذلها محمد ﷺ ثلاثة وعشرين عامًا لم تنتج إلا ثلاثة أشخاص أو أربعة وفقًا لبعض الروايات... أما غيرهم فقد قطعوا صلتهم فور وفاته ﷺ عيادًا بالله » (١).

فهل يدرك هؤلاء أن طعنهم بصحابة النبي ﷺ هو طعن بتعاليم النبي ودعوته؟ فلو أن مدرسًا في فصل دراسي لم ينجح من تلامذته إلا ثلاثة أو أربعة من الطلاب، في حين رسب خمسون طالبًا لانهاه عليه النقد والتجريح، فكيف بالنبي الأعظم وهو خاتم النبيين وأفضلهم، وهو الذي لم يأل جهدًا في نصح قومه، مع كمال شفقتة عليهم حتى خفف الله عنه قائلًا: ﴿ فَلَمَّا كَبَتْ جَنَاحُ نَفْسِكَ عَلَيَّ ءَأَثَرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: ٦]، وقوله: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ [فاطر: ٨]، فيسلم منهم مائة ألف أو يزيدون، ثم بعد وفاته ينقلبون على أديبارهم، وفي مقدمتهم أولئك الذي هجروا أو طانهم، وصبروا على الجوع والظنك، وبذلوا الغالي والنفيس، وحاربوا الأهل والأحباب في سبيل رفعة هذا الدين، حتى مدحهم الله في كتابه بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْحَقُّ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [النفال: ٦٣، ٦٤].

وهم الذين مشى القرآن سارداً بطولانهم من بدر بقوله: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٢٣، ١٢٤]. إلى أحد والأحزاب بقوله: ﴿ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩، ١٤٠].

وقوله: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣] ليجزي الله الصديقين بصدقهم ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم إن الله كان عفواً رحيمًا ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىٰ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴾ [آل عمران: ١٠٤]. وأنزل الذين ظهروهم من أهل الكُتُبِ

(١) أبو الحسن الندوي: صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية

مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٥﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ
وَدَيَّرَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَنْطُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٦﴾ [الأحزاب: ٢٣ - ٢٧].

أُيعقل أن لا يثبت من هؤلاء على الدين - على أحسن تقدير من هذه الروايات
الاثني عشرية المزعومة - سوى بضعة أشخاص!! إن هذا لو حصل - وحاشا أن يكون -
يهدم دعوة الإسلام ونبي الإسلام، ووحى الإسلام من أساسه.

موقف كتاب الاثني عشرية من حرب الردة والفتوحات الإسلامية:

وإذا كان التاريخ قد سطر لأبي بكر والصحابة الكرام موقفهم الحازم من المرتدين
الذين أرادوا هدم دولة الإسلام في مهدها، فإن كتاب الشيعة يرون أن حروب الردة
كانت على حكم أبي بكر، وليس على أحكام الإسلام، فيقول ابن مطهر الحلبي: إن
« بني حنيفة كافة لم يحملوا الزكاة إليه [أبي بكر] حتى سماهم أهل الردة وقتلهم
وسباهم، وأنكر عمر عليه، وردّ السبايا أيام خلافته » (١).

والغريب أيضًا أن بعض كتاب الشيعة ينظرون إلى فتوح الصحابة للبلاد نظرة بعض
المستشرقين الحاقدين؛ فيرون أن تلك الفتوح كانت تسير بدافع اقتصادي، لا عقدي؛
يقول داعية التقريب المعتدل! : « في مطاوي ما تقدم إلى أن الفتوح الإسلامية كان
القصود الأول منها السيطرة، وامتداد السلطان، وإيجاد أرض للمسلمين يعيشون فيها
أغنى من أرضهم، وتربة أخصب من تربتهم » (٢).

فلا ندري أنسي ابن مطهر الحلبي ومغنية من بعده أن آل بيت النبي ﷺ وعلي ﷺ
منهم كانوا من المشاركين في حروب الردة، وفي تلك الفتوحات؟ ولو كانت حرب
الردة والفتوحات غير مشروعة، لكان أمير المؤمنين علي ﷺ شريكًا في وزرها؛ ذلك أنه
كان مستشارًا مؤتمنًا لأبي بكر وعمر فيهما. وهو القائل معتزًا بدوره في حروب الردة:
« ونهضت في تلك الأحداث حتى زاغ الباطل، وزهق، وكانت كلمة الله هي العليا
ولو كره الكافرون، فتولى أبو بكر تلك الأمور فيسرّ وسدّد وقارب، واقتصد فصحبته
مناصبًا » (٣).

(١) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة (ص ١٨٣).

(٢) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ١٢٧).

(٣) نهج البلاغة (١/١٣٢).

بل علل مبايعته لأبي بكر بخوفه على الإسلام من المرتدين:

« فما راعني إلا انثيال الناس على أبي بكر يبايعونه، فأمسكت يدي، حتى إذا رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام - أي صارت ردة - فخشيت إن أنا لم أنصر الإسلام وأهله، أن أرى فيه ثلماً أو هدمًا يكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولايتكم هذه التي هي متاع أيام قلائل يزول منها ما زال كما يزول السراب، وكما ينقشع السحاب، فهضت حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهه »^(١).

وقد كانت حروب الردة وحروب الفتوح الإسلامية بمشورة من علي عليه السلام ^(٢). ولو علم علي عليه السلام أن خلافة عمر باطلة وأن حربه للفرس والروم غير مشروعة لما شارك في نصحه وإرشاده، على أقل تقدير، ولأسلمه إلى نفسه ورأيه، ولم يدل إليه بما يعزز ذلك الباطل المفترض ويعينه على ذلك المنكر المزعوم.

كما كان أمير المؤمنين علي من الحاصدين لبعض ثمار تلك الفتوحات، فابنه محمد ابن الحنفية، المعروف بأمه التي هي من سبي حروب الردة (من بني حنيفة)، كما هو مشهور في كل كتب التاريخ، وكذلك فإن والده زين العابدين ابنة كسرى من نتائج الفتوحات^(٣). ولو كانت تلك الفتوحات غير مشروعة لما استجاز الحسين لنفسه - ولا أبوه من قبل - أن يأخذ مما نتج عنها من غنائم.

ولقد وجدنا من كلام بعض المستشرقين - بل وبعض المتشدددين المتعصبين للحضارة

(١) نهج البلاغة (١٣٢/١).

(٢) نصح علي أمير المؤمنين عمر في حرب الفتوح، بينها أن يخرج بنفسه لقتال الأعاجم - قائلًا: « إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا هذا أصل العرب فإذا قطعتموه استرحتم، فيكون ذلك أشد لكليهم عليك وطمعهم فيك. فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين فإن الله - سبحانه - هو أكره لمسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره. وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كنا نقاتل بالنصر والمعونة ». (نهج البلاغة ٢٩/٢، المجلسي: بحار الأنوار ٣١/١٣٨).

وقال له: « إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتكذب، لا تكن للمسلمين كائفة دون أقصى بلادهم. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجالاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهره الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت ردةً للناس ومثابة للمسلمين ». (نهج البلاغة (ص ١٩٣). تحقيق صبحي صالح).

(٣) « وذلك أن عمر بن الخطاب لما أتى بابنتي يزجرده وهب إحداهما للحسين بن علي، فسامها غزاة ». تاريخ اليعقوبي (٣٠٣/٢). دار صادر - بيروت. انظر بحار الأنوار (٣٣٠/٤٥) للمجلسي، مؤسسة الوفاء - بيروت (ط ٢)، (١٤٠٣هـ).

الغريبة منهم - ما يؤكد حقيقة مكانة الصحابة العظيمة، وقد ذكر الأستاذ أبو الحسن الندوي رحمته الله نقولاً عن كتاب الغرب ينصفون صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم الكرام، وكان الأولى بمن ينتسب إلى الإسلام أن ينصف أصحاب نبيه الكريم رضوان الله عليهم، فهذا الكاتب الألماني كاتاني يقول في كتابه (سنن الإسلام): « لقد كان هؤلاء الصحابة الكرام ممثلين صادقين لتراث رسول الله الخلقى، ودعاة للإسلام في المستقبل، وحملة لتعاليم محمد صلى الله عليه وسلم... لقد كان هؤلاء قادة الإسلام السابقين الكرام الذين أنجبوا فقهاء المجتمع الإسلامي وعلماءه ومحدثيه الأولين » (١).

ويقول غوستاف لبيون في كتابه (حضارة العرب): « إن فراسة الصحابة وحسن تدبيرهم قد جعلهم ينجحون لدى كل فرصة ومناسبة، لقد وقع الاختيار للخلافة في العهد الأول على أناس كان جلّ غرضهم نشر الدين المحمدي » (٢).

ويقول في (انقراض وسقوط المملكة الرومية): « لقد كانت أخلاق الخلفاء الأربعة الأولين، وتصرفاتهم نزيهة ومضرب المثل، إن نشاطهم وتفانيهم إنما كان بإخلاص تام، ورغم التمكّن والثراء والسلطة فقد أفنوا أعمارهم في أداء المسؤوليات الخلقية والدينية ». حتى إن فيليب حنّي يقول: « عاش أبو بكر صلى الله عليه وسلم قاهرًا للمرتدين وموحد الجزيرة تحت راية الإسلام حياة ساذجة بسيطة ملؤها الوقار... أما عمر صلى الله عليه وسلم الخليفة الثاني فكان رجلًا جلدًا نشيطًا ومثلاً حيًا للبساطة والاقتصاد... وقد مجد عمر الكتاب المسلمون لتقواه وعدله وتواضعه ووقاره » (٣).

ثناء القرآن والسنة وعلي صلى الله عليه وسلم على الصحابة الكرام:

هؤلاء الصحابة الكرام الذين خاض فيهم كتاب الشيعة قديمًا وحديثًا هم الذين أثنى الله عليهم ورسوله بكل خير، ورضي عنهم ووعدهم الحسنى كما قال تعالى: ﴿ وَالسَّيِّفُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَمَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠].

(١) انظر: الندوي: صورتان متضادتان (ص ٣٢).

(٢) حضارة العرب (ص ١٣٤)، ترجمة شمس العلما السيد علي البلكرامي، انظر: الندوي: صورتان متضادتان (ص ٣٣).

(٣) فيليب حنّي: العرب تاريخ موجز: دار العلم للملايين (١٩٤٦م)، (ص ٧٢، ٧٣)، انظر للاستزادة من هذه النصوص: صورتان متضادتان للأستاذ أبي الحسن الندوي رحمته الله (ص ٣٢ - ٥٣)، ط (١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م).

وقال تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَنَجٍ آخَرَجَ شَظْفَقُهُ فَأَزْرَهُ فَاسْتَغْلَطَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوْقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۗ ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال: ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَأُوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٧٤].

وقال تعالى مبيِّنا ثواب السابقين من الصحابة: ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلِ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَتْلِهِمْ وَكُلًّا وَعَدَّ اللَّهُ الْحَسَنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠].

وقال تعالى مادحا المهاجرين والأنصار ومن سار على دربهم: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصَرُونَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۗ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَعْنَهُ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۗ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ٨ - ١٠].

هذه الآيات تتضمن الثناء بالخير على ثلاثة أصناف: على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاؤوا من بعدهم ويستغفرون لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم غلا لهم، ولا ريب أن مبغضي الصحابة خارجون عن الأصناف الثلاثة، فليسوا من المهاجرين، ولا الأنصار، وليسوا ممن يستغفرون للمهاجرين والأنصار، بل في قلوبهم غل عليهم (١). وقد كان علي عليه السلام في حماة حروبه إذا أراد أن ينتقص خصومه يعيب عليهم أنهم ليسوا من المهاجرين والأنصار، فالمهاجرون والأنصار إذن فوق التهمة عنده. يقول في خصومه: « جفاة طغام، وعبيد أقرام، مجتمعا من كل أوب، وتلقطوا من كل شوب، ممن

(١) انظر حول هذا المعنى: ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (١٧/٢، ١٨).

ينبغي أن يفقه ويؤدّب ويعلم ويدرّب، ويؤلى عليه ويؤخذ على يديه، ليسوا من المهاجرين والأنصار، ولا من الذين تبوّأوا الدار «^(١). فأمر المؤمنين علي في هذه الرواية يجعل المهاجرين والأنصار مثلاً للمسلمين الأعلى.

هؤلاء الصحابة من المهاجرين والأنصار جاءت روايات الاثني عشرية لتتهمهم بالزور والبهتان والارتداد:

عن حمران بن أعين قال: « قلت لأبي جعفر عليه السلام: جعلت فداك، ما أقننا لو اجتمعنا على شاة ما أفينناها، فقال: ألا أحدثك بأعجب من ذلك، المهاجرون والأنصار ذهبوا إلا - وأشار بيده - ثلاثة » ^(٢).

وفي رواية أخرى عن أبي جعفر: « وكانوا سبعة، فلم يكن يعرف حق أمير المؤمنين عليه السلام إلا هؤلاء السبعة » ^(٣).

يقول ابن كثير: « وأما ما يفتره كثير من جهلة الشيعة والقصاص الأغبياء من أنه عليه السلام أوصى إلى علي بالخلافة فكذب وبهتان وافتراء عظيم، يلزم منه خطأ كبير من تخوين الصحابة وممالاتهم بعده عليه السلام على ترك إنفاذ وصيته وإيصالها إلى من أوصى إليه، وصرفهم إياها إلى غيره لا لمعنى ولا لسبب، وكل مؤمن بالله ورسوله يتحقق أن دين الإسلام هو الحق يعلم بطلان هذا الافتراء؛ لأن الصحابة كانوا خير الخلق بعد الأنبياء وهم خير قرون هذه الأمة التي هي أشرف الأمم بنص القرآن وإجماع السلف والخلف في الدنيا والآخرة ولله الحمد » ^(٤).

« ومحال أن يتفق هؤلاء الصحابة على طي عهدٍ عهدَ به إليهم رسول الله عليه السلام... إذ لو جاز ذلك لارتفع الأمان في كل ما نقلوه من القرآن والسنة والأحكام، ولم يجزم بشيء من أمور الدين، مع أنه بجميع أصوله وفروعه إنما أخذ منهم » ^(٥).

(١) نهج البلاغة، مع شرحها للشيخ محمد عبده (ص ٢٧٣). والطاقم: أوغاد الناس، والأقزام: أراذل الناس، الشوب: الخلط.

(٢) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب قلّة عدد المؤمنين (٢/٢٤٤)، وانظر: رجال الكشي (ص ٧)، بحار الأنوار (٣٤٥/٢٢).

(٣) رجال الكشي (ص ١١، ١٢).

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية (٢٣٦/٧) دار الفكر - بيروت (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م).

(٥) الأستاذ الدكتور السنهوتّي: عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم

(ص ١١٨)، وانظر: ابن حزم: الفصل في الملل والنحل (٤/٩٦)، والصواعق المحرقة (ص ١٧).

« وكيف يتصور مسلم مثل هذا في ذلك الجيل القرآني الفريد الذين بذلوا المهج وهجروا الأهل والولد، وفارقوا الأوطان في سبيل الله وحده؟! ولمصلحة من، وفي سبيل من يُضحون بسابقتهم، وجهادهم، ويبيعون دينهم وديانهم فيوافقوا أحدًا على المساس بدينهم وكتابهم؟! إن هذا لهتان عظيم » (١).

عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: « يأتي على الناس زمان يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: فيكم من رأى من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم، فيفتح لهم. ثم يغزو فئام من الناس فيقال لهم: هل فيكم من رأى من صحب من صحب رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم. فيفتح لهم » (٢).

وهذا الذي جرى في فئام المسلمين بعد النبي ﷺ. ورضي الله عن عبد الله بن مسعود وهو يصف لنا إخوانه من الصحابة قائلاً: « من كان منكم مستتاً فليستن بمن قد مات، فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد.. كانوا - والله - أفضل هذه الأمة وأبرها قلباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم » (٣).

موقف الاثني عشرية من الخلفاء الراشدين الثلاث (أبي بكر وعمر وعثمان) ❁

إذا كان أهل السنة يقرّون لأبي بكر بالتقدم لقوله ﷺ: « إن الله بعثني إليكم فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدق، وواساني بنفسه وماله » (٤). فقد بشر بالجنة في حديث العشرة المبشرين بالجنة، كما خصّه ﷺ ببشارة خاصة، حيث قال ﷺ: « من أصبح منكم اليوم صائماً؟ » قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: « فمن تبع منكم جنازة؟ » قال أبو بكر ﷺ: أنا. قال: « فمن أطعم منكم اليوم مسكيناً؟ » قال أبو بكر ﷺ: أنا، قال: « فمن عاد منكم اليوم مريضاً؟ » قال أبو بكر ﷺ: أنا فقال رسول الله ﷺ: « ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة » (٥).

(١) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٣٦٠/١).
(٢) متفق عليه، أخرجه البخاري في الجهاد، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، وفي الفضائل، باب فضائل أصحاب النبي رقم (٣٥٩٤)، ومسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم، رقم (٢٥٣٢)، واللفظ لمسلم.

(٣) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٧٦/٢، ٧٧).

(٤) صحيح البخاري: كتاب الفضائل، باب قول النبي ﷺ: « لو كنت متخذاً خليلاً » رقم (٣٤٦١).

(٥) صحيح مسلم: كتاب الزكاة، باب من جمع الصدقة وأبواب البر رقم (١٠٢٨).

أما عمر فهو الفاروق الذي أعزَّ الله به الدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة أيضًا، وكان لهما شرف مصاهرة النبي ﷺ، إذ تزوج الرسول الأعظم ابنة أبي بكر عائشة وابنة عمر حفصة رضي الله عنهم وأرضاهم.

ولكن شخصية أبي بكر وعمر رضي الله عنهما عند الشيعة مختلفة عنها عند أهل السنة، فليسا هما صاحبا النبي صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهما ولا خاصته وأهل مشورته وأخلص جنده وأفضل صحابته، بل إن شخصية الشيخين عند الشيعة أقرب ما تكون بشخصية عبد الله ابن أبي ابن سلول زعيم النفاق، إن لم يكن أعظم، فالشيعة تعتقد أنهما سلبا عليًا رضي الله عنه الخلافة، ويعتقدون أن ما وقع على آل البيت من مظالم في التاريخ إنما كان بسببهما، ويختلفون لأجل ذلك كثيرًا من الروايات!

فقد رووا ^(١) « في الأخبار الخاصة أن أبا بكر كان يصلي خلف رسول الله ﷺ والصنم معلق في عنقه، وسجوده له ^(٢)!! ».

ورووا أن رجلاً سأل أحد الأئمة: « يا سيدي! ومن فرعون ومن هامان؟ قال عليه السلام: أبو بكر وعمر ^(٣) ».

وعن أبي حمزة الثمالي قال: « قلت لعلي بن الحسين عليهما السلام وقد خلا: أخبرني عن هذين الرجلين؟ قال: هما أول من ظلمنا حقنا، وأخذنا ميراثنا، وجلسا مجلسًا كنا أحق به منهما، لا غفر الله لهما ولا رحمهما، كافران، كافر من تولاهما ».

وعن حكيم بن جبير قال: « قال علي بن الحسين عليهما السلام: أنتم تقتلون في عثمان من ستين سنة، فكيف لو تبرأتم من صنمي قريش؟ ».

ورووا عن سورة بن كليب قال: « سألت أبا جعفر عليه السلام عن أبي بكر وعمر؟ قال: هما أول من ظلمنا حقنا، وحملا الناس على رقابنا ».

عن أبي جعفر عليه السلام قال: « سألت عن أبي بكر وعمر؟ فقال: هما أول من انتزى علي حقنا، وحملا الناس على أعناقنا وأكتافنا، وأدخلنا الذل بيوتنا ».

(١) اللهم لا تؤاخذني بروايتي هذه الروايات التي تقسي القلوب، وتؤذي النفوس، ولكن قال الشاعر:

عرفت الشر لا للشر ولكن لتوقيه
ومن لا يعرف الشر من الناس يقع فيه

(إحياء علوم الدين ٧٧/١).

(٢) الجزائري: الأنوار النعمانية (٥٣/١).

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (١٢/٥٣)، الجزائري: الأنوار النعمانية (٥٣/١)، وانظر: لإزام الناصب، لعلي

الجزائري (٢٦٦/٢).

وعنه، عن أبي جعفر عليه السلام قال: « والله لو وجد [أي: علي] عليهما أعوانًا لجاهدتهما، يعني: أبا بكر وعمر ».

وأنه قال: « ما قطرت قطرة دم من دماننا ولا من دماء أحد من المسلمين إلا وهي في أعناقهما إلى يوم القيامة ».

وروا أن ابن بشير قال: « قلت لأبي جعفر عليه السلام: إن الناس يزعمون أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: اللهم أعز الإسلام بأبي جهل أو بعمر، فقال أبو جعفر عليه السلام: والله! ما قال هذا رسول الله صلى الله عليه وآله قط، إنما أعز الله الدين بمحمد عليه الصلاة والسلام، ما كان الله ليعز الدين بشرار خلقه » ^(١).

وروى الكليني عن أبي جعفر عليه السلام قال: « إن الشيخين - أبا بكر وعمر - فارقا الدنيا ولم يتوبا ولم يذكر ما صنعا بأمر المؤمنين عليهم السلام، فعليهما لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » ^(٢).

وتتهم رواية بغیضة أبا بكر بالخوف والجن في الغار واتهام النبي صلى الله عليه وآله بالسحر، وأنه في الغار: « قد أخذته الرعدة وهو لا يسكن، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله حاله قال له: تريد أن أريك أصحابي من الأنصار في مجالسهم يتحدثون، وأريك جعفرًا وأصحابه في البحر يغوصون؟ قال: نعم، فمسح رسول الله صلى الله عليه وآله بيده على وجهه، فنظر إلى الأنصار يتحدثون، ونظر إلى جعفر وأصحابه في البحر يغوصون، فأضمر في تلك الساعة أنه صلى الله عليه وآله ساحر » ^(٣).
ولا يرى ابن المطهر الحلبي لصحبة أبي بكر رضي الله عنه للنبي صلى الله عليه وآله في الغار أي فضيلة فيقول: « لا فضيلة له في الغار؛ لجواز أن يستصعبه حذرًا منه لثلاً يظهر أمره، وأيضًا الآية تدل على نقصه لقوله: ﴿ لَا تَحْزَنْ ﴾ [التوبة: ٤٠] فإنه يدل على خوره وقلة صبره، وعدم يقينه بالله تعالى وعدم رضاه لمساواته للنبي صلى الله عليه وآله وبقضاء الله وقدره... وأيضًا فإن القرآن حيث ذكر إنزال السكينة على رسول الله صلى الله عليه وآله شرك مع المؤمنين إلا في هذا الموضع ولا نقص أعظم منه » ^(٤).

(١) انظر هذه الروايات عند المجلسي: بحار الأنوار (٣٠ / ٣٨١، ٣٨٢)، وأبي الصلاح الحلبي: تقريب المعارف (ص ٢٤٤ - ٢٤٦).

(٢) الكليني: روضة الكافي (٢٤٦/٨).

(٣) الكليني، كتاب الروضة من الكافي (٢٦٢/٨).

(٤) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة (ص ١٨٥).

ونسي الحلبي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] فجعل معية أبي بكر مع النبي ﷺ في معية الله ﷻ.

والنبي ﷺ غني عن أن يصحب منافقاً في أبعد وأخطر سفر له بعد البعثة، ونحن نرى من أحوالنا أننا لا نختار لأسفارنا إلا أوثق أصحابنا وإخواننا.

وينكر الحلبي أيضاً ما صحح عند أهل السنة من مواساة أبي بكر للنبي ﷺ بماله فيقول: «وأما إنفاقه على رسول الله ﷺ فكذب؛ لأنه لم يكن ذا مال» (١).

كما ينكر كتاب الاثني عشرية أن يكون النبي ﷺ قد أمر أبا بكر ﷺ أن يصلي بالناس في فترة مرضه ﷺ، قال أحدهم: «أما ما رووا من التقديم لأبي بكر في الصلاة، فروايتهم في ذلك عن بلال عن عائشة، فلو كنا ممن يميل إلى إبطال الأحاديث من جهة ناقلها دون شواهد وعلامات لإبطالها لكان في إبطال هذا الخبر أوكد مقال». ثم ذهب يستدل من تنوع روايات هذه الأخبار دليلاً على بطلانها (٢). وينسى أن الصحابة لما أشكل عليهم أمر الخلافة استدلوا بصلاة أبي بكر بالناس عند مرض النبي ﷺ، فقالوا على لسان علي نفسه: «فاخترنا لدنيانا من رضيه نبي الله لديننا» (٣).

(١) المصدر السابق (ص ١٨٧).

(٢) علي بن أحمد الكوفي (ت ٣٥٢هـ): الاستغاثة في بدع الثلاثة (١٣/٢). قال النجاشي: «علي ابن أحمد أبو القاسم الكوفي رجل من أهل الكوفة، كان يقول أنه من آل أبي طالب، وغلا في آخر أمره وفسد مذهبه وصنف كتباً كثيرة أكثرها على الفساد: كتاب الأنبياء، كتاب الأوصياء، كتاب البدع المحدثه، كتاب التبديل والتحريف»، كما ذكر النجاشي بأن الغلاة يدعون فيه منازل عظيمة. توفي سنة (٣٥٢هـ). (رجال النجاشي ص ٢٠٣، رجال الحلبي: ص ٢٣٣) وقد حاول المقدم لكتاب (الاستغاثة) والذي لم يفصح عن اسمه أن يدفع عنه صفة الغلو (انظر: ص ب من المقدمة)، مع أن النجاشي نسب له كتاباً سماه: «التبديل والتحريف» (انظر: رجال النجاشي: ص ٢٠٣)، ومشكلة المشاكل عند الاثني عشرية أنهم لا موقف لهم من غلو بعض علمائهم، فمثل هذا الرجل لا ينبغي للشيعة أن ينشروا كتبه، بل يجب أن يتبرأوا منه، لا أن يتبرعوا بنشر كتابه في معجم الفقه الإسلامي على قرص ليزري سهل وسريع الاستخدام.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام (٤٨٧/١)، وانظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ٣٢). وفي نص الذهبي (تاريخ الإسلام: ٤٨٧/١) تلخيص لموقف علي من أبي بكر وعمر في خلافتهم: «عن الحسن قال: لما قدم علي البصرة قام إليه ابن الكواء وقيس بن عباد فقالا له: ألا تخبرنا عن مسيرك هذا الذي سرت فيه تتولى على الأمة تضرب بعضهم ببعض، أعهد من رسول الله ﷺ عهدك إليك؟ فحدثنا فأنت الموثوق المأمون على ما سمعت. فقال: أما أن يكون عندي عهد من النبي ﷺ في ذلك، فلا والله إن كنت أول من صدق به فلا أكون أول من كذب عليه، ولو كان عندي عهد من النبي ﷺ عهد في ذلك ما تركت أخا بني تيم بن مرة [يعني: أبا بكر] وعمر بن الخطاب يقومان على منبره ولقاتلتها بيدي، ولو لم أجد إلا بردي هذا، ولكن رسول الله ﷺ =

وتفتري إحدى الروايات أن الله تعالى نصر النبي من كل أعدائه إلا من عدوه - الذي هو صديقه الذي لا يفارقه - أبي بكر الصديق: تقول الرواية: « فقد نصره الله منفرداً من كل شيء إلا من أبي بكر » (١).

مع أن الله تعالى نصره من أعدائه أجمعين حيث يقول: ﴿ إِلَّا نَصْرُهُ فَكَذَّبْكَ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَائِبِ آثِنِينَ إِذْ هُمَا فِي الْفَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيْدِيَهُمْ يَجْتَوِدُ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [التوبة: ٤٠].

وأظهر سبحانه نبيه على جميع المنافقين وزعيمهم ابن أم سلول وغيره، فقال مبيّناً عزة نبيه ونصرته له: ﴿ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِبُوكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [ملعونين آينما تُفَوُّوا أُخْذُوا وَفُتِلُوا تَفْتِيلًا] ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٠ - ٦٢].

شتم الإمامية للصحابة الكرام ﴿ بين الإسرار والتقية والإعلان:

ولما كان شتم الشيخين وغيرهما من الصحابة الكرام مخالفاً لما عليه إجماع أهل الإسلام؛ عمد الشيعة إلى التقية في شتمهم، فقد زعموا أنه « قيل للصادق عليه السلام: ما تقول في العمرين؟ فقال: إمامان عادلان قاسطان، كانا على الحق فرحمة الله عليهما، فلما خفت المجلس سئل عن التأويل فقال: ﴿ وَجَعَلْنَهُمْ آيَةً يُدْعَوْنَ إِلَى الْكُفْرِ... ﴾ [القصص: ٤١]، ﴿ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴾ [الحج: ١٥]، وعدلاً عن الحق

= لم يقتل قتلاً ولم يميت فجأة، مكث في مرضه أياماً وليالي يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة، فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني، ثم يأتيه المؤذن فيؤذنه بالصلاة فيأمر أبا بكر فيصلي بالناس وهو يرى مكاني، ولقد أرادت امرأة من نسائه أن تصرفه عن أبي بكر فأبى وغضب، وقال: (أنتن صواحب يوسف، مروا أبا بكر يصلي بالناس). فلما قبض الله نبيه نظرنا في أمورنا فاخترنا لدنيانا من رضىه نبي الله لدينا. وكانت الصلاة أصل الإسلام وهي أعظم الأمر وقوام الدين. فبايعنا أبا بكر وكان لذلك أهلاً لم يختلف عليه منا اثنان ولم يشهد بعضنا على بعض ولم نقطع منه البراءة فأديت إلى أبي بكر حقه، وعرفت له طاعته وغزوت معه في جنوده، وكنت آخذ إذا أعطاني وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي، فلما قبض ولأها عمر فأخذ بسنة صاحبه وما يعرف من أمره، فبايعنا عمر، لم يختلف عليه منا اثنان ولم يشهد بعضنا على بعض، ولم نقطع البراءة منه. فأديت إلى عمر حقه وعرفت طاعته وغزوت معه في جيوشه، وكنت آخذ إذا أعطاني، وأغزو إذا أغزاني، وأضرب بين يديه الحدود بسوطي ».

وهو علي، فالرحمة وهو النبي صلى الله عليه وآله عليهما ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] « (١) ».

وهكذا، فإن مبغضي الصحابة إذا كانوا في عهد قوة لأهل السنة؛ كتبوا وأسروا لعنهم وشتمهم للصحابة الكرام، أو استخدموا التقية والمعارض، فإن كانت الصولة والجولة والدولة لهم أظهروا ذلك وأعلنوه.

وقد اشتهر عنهم في كتبهم وشروحهم أن الأول أبو بكر، والثاني عمر، والثالث عثمان رضي الله عنه، وكانوا لا يذكرون أسماءهم تقية في القرون الأولى، حتى إذا جاء العهد الصفوي، وقويت شوكة الشيعة صرّحوا بالمقصود من هذه الرموز كما فعل المجلسي شارح أصول الكافي في مرآة العقول.

وجاء في روضة الكافي: عن حسين الجمال عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِينَ أُضْلَلْنَا مِن أَلْحِنِ وَالْإِنسِ نَجَعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا مِنَ الْأَسْفَلِينَ ﴾ [فصلت: ٢٩] « قال: هما، ثم قال: وكان فلان شيطاناً » (٢).

فرواية الكليني هذه فيها تمويه وإخفاء وعدم تصريح باسم الشيخين. ولكن هذا الإخفاء لن يستمر، إذ إن المجلسي الذي عاش في حضن الدولة الصفوية سيصرّح بما أخفاه الكليني، عند شرحه لهذه الرواية فيقول: « هما: أي أبو بكر وعمر، والمراد بفلان: عمر، أي الجن المذكور في الآية عمر، وإنما سمي به؛ لأنه كان شيطاناً، إما لأنه كان شرك الشيطان لكونه ولد زنى، أو لأنه كان في المكر والخديعة كالشيطان، وعلى الأخير يحتمل العكس بأن يكون المراد بفلان أبا بكر » (٣).

وعندما روى الكليني عن ابن ثوير والشرّاح قالوا: « سمعنا أبا عبد الله عليه السلام وهو يلعن في دبر كلّ مكتوبة أربعة من الرجال وأربعاً من النساء، فلاناً وفلاناً وفلاناً ويستقيهم ومعاوية، وفلانة وفلانة وهنّدا وأمّ الحكم أخت معاوية » (٤) قام الشيعة في العهد

(١) علي بن يونس العاملي: الصراط المستقيم في مستحقي التقديم (٧٣/٣).

(٢) الكليني: روضة الكافي (٣٣٤/٨).

(٣) المجلسي: مرآة العقول (٤٨٨/٢٦) موضع شرح الحديث السابق. الحديث الثالث والعشرون والخمسة: وقال عن درجته: مجهول، ويحتمل أن يكون الجمال حسين بن أبي سعيد المكاربي، فالخير حسن أو موثق.

(٤) فروع الكافي (٩٥/١)، الطوسي: التهذيب (٢٢٧/١).

الصفوي - حيث التمكن والقوة - يصرّحون ويكشفون ما ستروه سابقًا.

فما كتبه أوائل الشيعة في عصر الكليني وما بعده كان بلغة الرّمز والإشارة، وقد كشف أقتعة هذه الرموز شيوخ الشيعة المتأخرون حينما ارتفعت التقية بسبب قوة الدولة الصفوية (١).

قال شيخهم المجلسي - وهو ربيب الدولة الصفوية - في بيان ما كان يرمز به الأوائل في شتم خلفاء الرسول: « (أبو الفصيل) أبو بكر؛ لأنّ الفصيل والبكر متقاربان في المعنى، و (رمع) مقلوب عمر، ونعثل هو عثمان » (٢).

وقال بكل صراحة: « ومّا عدّ من ضروريّات دين الإمامية استحلال المتعة، وحجّ التّمّع، والبراءة من أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية » (٣).

وعقد لذلك الحرّ العاملي بابًا بعنوان: « باب استحباب لعن أعداء الدّين عقيب الصّلاة بأسمائهم » (٤).

ويذكر لنا التاريخ أنه « لما كانت دولة بني بويه ببغداد سنة (٣٣٤ هـ) قوي بهم أمر التشيع والرافضة وجهروا بلعن الصحابة على المنابر، وكتبوا على أبواب المساجد سنة (٣٥١ هـ) : « لعن الله معاوية بن أبي سفيان، ولعن من أغضب فاطمة، ومن منع الحسن حقه أن يدفن عند جده، ومن نفى أبا ذر إلى الرّبذة » (٥).

شتم الشيخين في الشعر:

ذكر ابن أبي الحديد شعراً للكميت (٦) يقول فيه:

(١) د. ناصر عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١٧٩/٢).

(٢) المجلسي: بحار الأنوار (٥٨/٢٧). (٣) الاعتقادات للمجلسي (ص ٩٠ ، ٩١).

(٤) وسائل الشيعة (١٠٣٧/٤).

(٥) المقريري (أحمد بن علي أبو العباس (ت ٨٤٥) : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (٣٥٧/٢). وهم يقصدون بهذه الأقوال أبا بكر وعمر لأنهما - حسب زعم الاثني عشرية - أغضبا فاطمة في مسألة الإرث، ويقصدون عائشة لأنهم يزعمون أنها رفضت دفن الحسن عند جده، وهو غير صحيح، فالذي منع ذلك الأمويون، وعثمان لأنه نفى أبا ذر إلى الرّبذة، وأهل السنة يذكرون روايات أنه ذهب بإرادته إليها، ونصحه عثمان بأن يتعاهد بالحيء إلى المدينة حتى لا يصبح أعرايئًا، فقد نهى الصحابة عن ذلك.

(٦) الكميت من الشعراء ثلاثة، أولهم كميت بن ثعلبة، مخضرم، وهو جد الثاني، أما الثالث فهو أكثرهم شعراً وأشهرهم ذكراً. وهو المقصود، هو الكميت بن زيد الأسدي أبو مستهل الكوفي شاعر زمانه؛ يقال: إن شعره أكثر من خمسة آلاف بيت. وقد وفد على الخليفين يزيد وهشام ابني عبد الملك. انظر: الذهبي: تاريخ =

أهوى عليًا أمير المؤمنين ولا
أرضى بسبّ أبي بكرٍ ولا عمرا
ولا أقول إذا لم يعطيا فدكا
بنت النبي رسول الله قد كفرنا
الله يعلم ماذا يأتيان غدًا
يوم القيامة من عذر إذا اعتذرا

وقد أورد صاحب (النصب والنواصب) هذه الأبيات، ولم ترق له؛ إذ خالفت عقيدته، فشكك في صاحبها ثم نقل توبته منها، وأنه «قاله تقيّة من بني أمية... فاعتذر الكميّ وقال: إني تائب مما قلت» (١).

«والشيخ العالم العامل الشيخ الصالح الجزائري كتب إلى الشيخ المحقق شيخنا البهائي رحمته الله كتابة هذه لفظها: ما يقول سيدي، وسندي، ومن عليه بعد الله وأهل البيت معولي ومعمدي، في هذه الأبيات لبعض النواصب بتر الله أعمارهم وخرّب ديارهم: (أهوى عليًا أمير المؤمنين...) إلى آخر الأبيات الثلاثة؟ فالأمول من أنفاسكم الفاخرة، وألطفكم الظاهرة أن تشرفوا خادمكم بجواب منظوم يكسر سورة هذه النواصب.

فأجابه الشيخ بهاء الدين العاملي:

يا أيها المدعي حبّ الوصي ولم
كذبت والله! في دعوى محبته
فكيف تهوى أمير المؤمنين وقد
فإن تكن صادقًا في ما نطقت به
وأنكر النص في خمّ وبيعته
أيت تبغي قيام العذر في فدك
إن كان في غضب حقّ الطهر فاطمة
فكل ذنب له عذر غداة غد
فلا تقولوا لمن أيامه صرفت
تسمح بسبّ أبي بكرٍ ولا عمرا
تبت يداك ستصلي في غدٍ سقرا
أراك في سبّ من عاداه مفتكرا
فابراً إلى الله من خان أو غدرا
وقال: إن رسول الله قد هجرا
أتحسب الأمر بالتمويه مسترا
سيقبل العذر من جاء معتذرا
وكل ظلم ترى في الحشر مغتفرا
في سب شيخكم قد ضل أو كفرنا

= الإسلام (٩٤٢/١). وقد مدحه أئمة الشيعة، قال له الإمام الباقر: «ما تزال مؤيدًا بروح القدس ما دمت تقول فينا» ولد الكميّ عام (٦٠هـ) وتوفي عام (١٢٦هـ). ابن داود الحلبي: رجال ابن داود (ص ١٥٦)، تحقيق وتقديم: السيد محمد صادق آل بحر العلوم، منشورات مطبعة الحيدرية - النجف (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م). (١) محسن المعلم: النصب والنواصب (ص ١١٦)، وانظر: الغدير (٢/٢٧٦) دار الكتاب العربي - بيروت (ط ٤)، (١٣٩٧هـ).

عسى يكون له عذرا إذا اعتذرا
والأمر متضح كالصبح إذ ظهرها
عميًا وصمًا فلا سمعًا ولا بصرا»^(١)

أهوى سوى من له القرآن قد ذكرا
أرضى بسب أبي بكر ولا عمرا

الأم في بعض من في بغضه خسرا
أرضى بسب أبي بكر ولا عمرا^(٢)

بل سامحوه وقولوا: لا تؤاخذه
فكيف والعذر مثل الشمس إذ بزغت
لكن إبليس أغواكم وصيركم
وكذلك الشيخ ميرزا محمد الخليل:

أهوى عليًا أمير المؤمنين ولا
وكيف أصدق في دعوى ولاه ولا

وقال غيره:

أهوى عليًا أمير المؤمنين ولا
وكيف يلعن طه شائنيه ولا

فانظر إلى هذا الحقد الدفين على صحابة النبي وأعظم تلامذته، كيف صيغ بالشعر
سئًا زعافًا، في حين امتلأت دواوين شعراء أهل السنة بمديح آل بيت النبي ﷺ.

ومن مثا ينسى قصيدة الفرزدق:

قال الشعبي: « حجج الفرزدق بعدما كبر، وقد أتت له سبعون سنة، وكان هشام
ابن عبد الملك قد حج في ذلك العام، فرأى علي بن الحسين في غمار الناس في الطواف،
فقال: من هذا الشاب الذي تبرق أسرته وجهه كأنه مرآة صينية تتراءى فيها عذارى الحي
وجوهها؟ فقالوا: هذا علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب صلوات الله عليهم، فقال
الفرزدق:

والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا التقى النقي الطاهر العلم
بجده أنبياء الله قد ختموا
الغزب تعرف من أنكرت والعجم
إلى مكارم هذا ينتهي الكرم

هذا الذي تعرف البطحاء وطاته
هذا ابن خير عباد الله كلهم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله
وليس قولك: من هذا، بضائره
إذا رأته قريشٌ قال قائلها:

(١) محمد علي بن أحمد التبريزي الأنصاري (ت ١٣١٠هـ): اللعة البيضاء (ص ٧٤٢، ٧٤٣) مؤسسة
الهادي - قم، (١٤١٨هـ)، تحقيق السيد هاشم الميلاني.

(٢) محسن المعلم: التصب والنواصب (ص ١١٦، ١١٧)، دار الهادي - بيروت.

فما يكلم إلا حين يتسم
 من كفّ أروع في عرينه شمم
 ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
 جرى بذاك له في لوحه القلم
 لأولية هذا أو له نعم
 فالدين من بيت هذا نال الأمم
 عنها الأكلف وعن إدراكها القدم
 وفضل أمته دانت له الأمم
 طاب مغارسه والخيم والشيم
 كالشمس تنجأ عن إشراقها الظلم
 كفر قرئهم منجى ومعتصم
 في كل بدء ومختوم به الكلم
 أو قيل من خير أهل الأرض قيل: هم
 ولا يدانيهم قوم وإن كرموا
 ويسترّب به الإحسان والتعم» (١)

يفضي حياءً ويفضي من مهابته
 بكفه خيزران ريحها عبث
 يكاد يمسه عرفان راحته
 الله شرفه قدمًا وعظمه
 أي الخلاق ليست في رقابهم
 من يشكر الله يشكر أولية ذا
 ينمي إلى ذروة الدين التي قصرت
 من جده دان فضل الأنبياء له
 مشتقة من رسول الله نبعته
 ينشق ثوب الدجى عن نور غزته
 من معشر حبه دين وبغضهم
 مقدم بعد ذكر الله ذكركم
 إن غد أهل التقى كانوا أئمتهم
 لا يستطيع جواد كنه جودهم
 يستدفع الشر والبلوى بحبهم

اختلال موازين الإمامية في الحكم على الخلفاء، والتقاط عثراتهم وإنكار محاسنهم
 ومحامدهم:

إنا نقر بفضل الخلفاء الثلاثة ولكننا لا نقول بعصمتهم ﷺ وغفر لهم، ولكن شائني
 ومبغضي الشيخين يلتقطون بعض ألفاظ قالها أبو بكر وغيره من الصحابة الكرام؛ تواضعًا
 وخضوعًا بين يدي الله تعالى، واعترافًا بالضعف البشري، ليستخدموها في إيدائهم،
 كقول أبي بكر ﷺ داعيًا رعيته لنصحه: « إن لي شيطانًا يعتريني فإذا مال بي فقوموني

(١) أخرج القصة وبعض هذه الآيات: الطبراني في المعجم الكبير (١٠١/٣)، والخطيب البغدادي في تاريخ
 مدينة دمشق (٤١/٤٠٠)، وأوردها كاملة أبو الفرج الأصبهاني: الأغاني (١٠/٣٧٨، ٣٧٩)، وانظر في
 مصادر الاثني عشرية: كشف الغمة، لابن أبي الفتح الأربلي (٢/٢٩١)، وبحار الأنوار للمجلسي
 (٤٦/١٢٥، ١٢٦).

« وإذا أخطأت فأرشدوني »^(١)، وقوله: « ليت أُمي لم تلدني! يا ليتني كنت تبنة في لبنة »^(٢)، فيستخدمون هذه الأقوال وأمثالها في اللمز والغمز به ﷺ، يقول ابن مطهر الحلبي: « وكيف تجوز إمامة من يستعين بالرعية على تقويمه مع أن الرعية تحتاج إليه؟! »^(٣).

ولو صح ميزانهم هذا لكان من يعتقد الشيعة عصمتهم من الأئمة وأتباعهم على خط واحد مع أبي بكر وعمر - وهم عندنا كذلك ولكن في الخيرية والتواضع - فهذا علي ﷺ يقول: « يا ليت السباع مزقت لحمي وليت أُمي لم تلدني، ولم أسمع بذكر النار. ثم وضع علي ﷺ يده على رأسه وجعل يبكي ويقول: وا بُعَدَ سَفْرَاهُ! واقلة زاداه في سفر القيامة »^(٤). وهذا زين العابدين يقول: « رب أفحمتني ذنوبي، وانقطعت مقاتلي فلا حجة لي »^(٥).

وتذكر روايات الاثني عشرية عن الصحابة القلائل المكرمين عندهم مثل هذه الأقوال. فقد نقلوا عن أبي ذر قوله: « يا ليت أُمي كانت عاقراً ولم تلدني ولم أسمع بذكر النار » ويذكرون أن المقداد ﷺ قال: « يا ليتني كنت طائراً في القفار، ولم يكن عليّ حساب ولا عقاب، ولم أسمع بذكر النار »^(٦).

وكل هذه الأقوال من صحابة النبي ﷺ ومن آل بيته الكرام تبين ما كانوا عليه

(١) انظر: عيون أخبار الرضا (٢٥٦/١)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٤٧/١٠). والخير في طبقات ابن سعد، الطبقات الكبرى (١٨٣/٣) وغيره، ورواه المتقي الهندي (٥٨٩/٥): أن أبا بكر الصديق خطب فقال: أما والله ما أنا بخيركم، ولقد كنت لمقامي هذا كارهاً، ولوددت أن فيكم من يكفيني أفتظنون أنني أعمل فيكم بسنة رسول الله ﷺ إذن لا أقوم بها، إن رسول الله ﷺ كان يعصم بالرحي، وكان معه ملك، وإن لي شيطاناً يعتريني فإذا غضبت فاجتنبوني أن لا أؤثر في أشعاركم وأبشاركم ألا فراعوني، فإن استقمتم فأعينوني وإن زغت فقوموني، قال الحسن: خطبة والله! ما حُطِبَ بها بعده. وفي حلية الأولياء لأبي نعيم (٥٢/١)، عن الضحاك قال: قال عمر بن الخطاب: ليتني كنت كيش أهلي يسمنونني ما بدا لهم، حتى إذا كنت أسمن ما أكون، زارهم بعض من يحبون فجعلوا بعضي شواء وبعضي قديداً، ثم أكلوني فأخرجوني عذرة ولم أك بشراً. وقد أساء كتاب الاثني عشرية توجيه هذه النصوص، فهم يستكرون أن يكون من يقول هذه النصوص خليفة للنبي ﷺ! انظر: محمد بن جرير الطبري (الشيبي المتوفى في أوائل القرن الرابع الهجري): المسترشد في إمامة أمير المؤمنين (ص ٥٥٤)، مطبعة سلمان الفارسي، قم (ط ١)، تحقيق الشيخ أحمد الحمودي، وابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة (ص ٩٩)، وعبد الله شير: حق اليقين (ص ٢٣٤).

(٢) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة (ص ٩٩).

(٣) المصدر السابق نفسه.

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (٨٨/٤٣).

(٥) الإمام زين العابدين: الصحيفة السجادية (ص ٣٠٦)، برواية الأبطحي، طبعة جماعة المدرسين - قم.

(٦) المجلسي: بحار الأنوار (٨٨/٤٣).

جميعًا من خوف من النار، وخضوع بين يدي الله الجبار، وهي أقوال ترفعهم جميعًا عند الله وعند المؤمنين، لا تستغل للإساءة إليهم.

ويذكر ابن مطهر الحلبي عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: « ليتني في ظللة بني ساعدة ضربت يدي على أحد الرجلين، وكان هو الأمير وكنت الوزير » ^(١). فيقول معلقًا: « وهو يدل على أنه لم يكن صالحًا يرتضي لنفسه الإمامة » ^(٢).

فهل يطلق ابن المطهر الحكم نفسه على أمير المؤمنين علي رضي الله عنه وقد قال قولاً مثله؟ فإنه رضي الله عنه قال: « دعوني والتمسوا غيري...، وأنا لكم وزيرًا خير مني لكم أميرًا » ^(٣).

ويلتقط هؤلاء أيضًا من أحاديث النبي صلى الله عليه وآله عند أهل السنة ما يوافق هواهم، فمثلًا يبنون بناء واهيًا على مقدمتين: الأولى تعتمد على حديث صحيح يقول فيه المصطفى صلى الله عليه وآله « فاطمة بضعة مني، فمن أغضبها أغضبني » ^(٤)، والثانية تعتمد على حديث مغاضبة أبي بكر لفاطمة في أمر إرث النبي صلى الله عليه وآله المشهور - وهو حديث فيه تحقيق طويل لا يسع المتن طوله - ^(٥)، مع أن ما فعله أبو بكر رضي الله عنه في قضية ميراث النبي صلى الله عليه وآله موافقة لما رواه

(١) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة (ص ١٠٠). ونسبه محققه إلى تاريخ الطبري، وهو كذلك (٣٥٣/٢).

(٢) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة (ص ١٠٠).

(٣) نهج البلاغة (ص ١٣٦).

(٤) صحيح البخاري من حديث المسور بن مخرمة، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله رقم (٣٥٥٦).

(٥) لقد أجرى الاثنا عشرية حول موضوع ميراث النبي صلى الله عليه وآله أقلامهم، وألّفوا في (فدك) الكتب، لينالوا من الصديق والفاروق رضي الله عنهما، والأمر أهون من هذا بكثير. والحديث عند البخاري في كتاب الخمس، باب فرض الخمس رقم (٢٩٢٦):

من رواية ابن شهاب الزهري قال أخبرني عروة بن الزبير أنّ عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أخبرته أنّ فاطمة - رضي الله عنها ابنة رسول الله صلى الله عليه وآله - سألت أبا بكر الصديق بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقسم لها ميراثها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله مما آفأ الله عليه، فقال لها أبو بكر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « لا نورث ما تركنا صدقة » فغضبت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وآله فهجرت أبا بكر، فلم تزل مهاجرة حتى توفيت، وعاشت بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ستة أشهر، قالت: وكانت فاطمة تسأل أبا بكر نصيبها مما ترك رسول الله صلى الله عليه وآله من خبير وفدك وصدقته بالمدينة، فأبى أبو بكرٍ عليها ذلك وقال: لست تاركًا شيئًا، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ، فأما صدقته بالمدينة فدفعتها عمر إلى علي رضي الله عنه، وأما خبير وفدك فأمسكها عمر وقال: هما صدقة رسول الله صلى الله عليه وآله كانتا لحقوقه التي تعروه ونوابه وأمرهما إلى من ولي الأمر. قال: فهما على ذلك إلى اليوم. وجاء في رواية أخرى: (صحيح البخاري: كتاب المناقب باب: مناقب قرابة رسول الله صلى الله عليه وآله، ومنقبة فاطمة رضي الله عنها بنت النبي صلى الله عليه وآله ٣٥٠٨): فقال أبو بكر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « لا نورث، ما تركنا =

= فهو صدقة، إنما يأكل آل محمد من هذا المال - يعني مال الله - ليس لهم أن يزيدوا على المأكل». واني والله لا أغير شيئاً من صدقات النبي ﷺ التي كانت عليها في عهد النبي ﷺ، ولأعلمن فيها بما عمل فيها رسول الله ﷺ، فتشهد علي ثم قال: إنا قد عرفنا يا أبا بكر فضيلتك، وذكر قربانهم من رسول الله ﷺ وحققهم، فتكلم أبو بكر فقال: والذي نفسي بيده، لقرباة رسول الله ﷺ أحب إلي أن أصل من قرباني».

قال ابن حجر في فتح الباري: « (فضضبت فاطمة فهجرت أبا بكر فلم تزل مهاجرة) في رواية معمر « فهجرت فاطمة فلم تكلمه حتى مات »، ووقع عند عمر بن شبة من وجه آخر عن معمر « فلم تكلمه في ذلك المال »، وكذا نقل الترمذي عن بعض مشايخه أن معنى قول فاطمة لأبي بكر وعمر: (لا أكلمكما) أي: في هذا الميراث، وتعقبه الشاشي بأن قرينة قوله « غضبت » تدل على أنها امتنعت من الكلام جملة وهذا صريح الهجر، وأما ما أخرجه أحمد وأبو داود من طريق أبي الطفيل قال « أرسلت فاطمة إلى أبي بكر: أنت ورثت رسول الله ﷺ أم أهله؟ قال: لا بل أهله، قالت: فأين سهم رسول الله ﷺ، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن الله إذا أطعم نبيًا طعمة ثم قبضه جعلها للذي يقوم من بعده). فرأيت أن أرده على المسلمين قالت: فأنت وما سمعته « فلا يعارض ما في الصحيح من صريح الهجران، ولا يدل على الرضا بذلك، ثم مع ذلك ففيه لفظه منكراً وهي قول أبي بكر « بل أهله » فإنه معارض للحديث الصحيح: « أن النبي لا يورث ». نعم روى البيهقي من طريق الشعبي « أن أبا بكر عاد فاطمة، فقال لها علي: هذا أبو بكر يستأذن عليك قالت: أتحب أن أذن له؟ قال: نعم، فأذنت له، فدخل عليها فترضاها حتى رضيت » وهو وإن كان مرسلًا فإسناده إلى الشعبي صحيح،.. فإن ثبت حديث الشعبي أزال الإشكال، وأخلق بالأمر أن يكون كذلك لما علم من وفور عقلها ودينها ﷺ اهـ. وهو عند البيهقي (السنن الكبرى ٣٠١/٦) وقال: مرسل حسن بإسناد صحيح. وذكره ابن سعد في طبقاته (٢٧/٨) وعمدة القاري (٢٠/١٥).

ثم إن المشهور عند السنة والشيعة وقد جاءت روايات عند الشيعة والسنة أن ممرضتها في مرضها كانت زوجة أبي بكر: أسماء بنت عميس رضي الله عنها (الحاكم: المستدرک ١٦٢/٣، ابن سعد في طبقاته ٢٨/٨)، وأنها هي التي صنعت لها نعيًا كعادة أهل الحبشة، فبسمت فاطمة لذلك، وأورد تمريرها لها الشيعة في الأمالي للطوسي أبي جعفر: « وكان علي يمرضها بنفسه وتعيه على ذلك أسماء بنت عميس على استمرار ذلك » (الأمالي ١٠٧/١). وذكره المجلسي (جلاء العيون ص ١٧٢)، وهو باللغة الفارسية: « أسماء بنت عميس آن حضرت رادريس أمر معاونت مي کرد ». وترجمة النص في (تكملة فتح الملهم للشيخ تقي العثماني ٦١/٣). وقد روى البيهقي في الجنائز أن عليًا قدم أبا بكر للصلاة عليها (٢٩/٤) من مراسيل الشعبي، وهو أوثق في مراسيله من الزهري الذي أدرج أن أبا بكر لم يحضر الجنائز. وكذلك روى ابن سعد في طبقاته (٢٩/٨)، وكذلك أخرجه الخطيب البغدادي وانظر: كنز العمال عن الباقر (٣١٨/٦)، رقم (٥٢٩٩)، وحلية الأولياء (٩٦/٤). تحقيق رواية الزهري:

وقال الشيخ العثماني في تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٥٥/٣): « وقد حقق فضيلة مولانا الشيخ محمد نافع حفظه الله في كتابه القيم (رحماء بينهم باللغة الأردية ١٢٦/١، ١٢٧): أن قصة مراجعة فاطمة أبا بكر ﷺ مروية بست وثلاثين طريقًا، وإن أحد عشر طريقًا منها مروية من غير الزهري، وليس في واحد منها أدنى ذكر لغضب فاطمة، أو هجرانها لأبي بكر ﷺ، وإن خمسة =

= وعشرين طريقاً تدور على الزهري، التسعة منها خالية عن ذكر الغضب والهجران، وإنما ورد ذكر الغضب والهجران من ستة عشر طريقاً كلها تنتهي إلى الزهري « فالظاهر من هذا التتبع أن قصة الغضب والهجران مدرجة في هذا الحديث من قبل الزهري، وقد عرف من عادة الزهري أنه كان ربما أدرج في الحديث شيئاً من رأيه، ويقول الحافظ في النكت على ابن الصلاح: « وكذا الزهري يفسر الأحاديث كثيراً، وربما أسقط أداة التفسير، فكان بعض أقرانه ربما يقول له: افضل كلامك من كلام النبي ﷺ » وساق الحافظ قبله عدة أمثلة من إدراجات الزهري [النكت على ابن الصلاح (١/٨٢٩)]. ونقل نصيحة ربيعة شيخ مالك للزهري في ذلك الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه (٢/١٤٨)، وحكم السيوطي وغيره على مراسيل الزهري بالضعف ونقل قول الأنبات فيها: « مراسيل الزهري قال ابن معين ويحيى بن سعيد القطان ليس بشيء، وكذا قال الشافعي، قال: لأننا نجده يروي عن سليمان ابن أرقم، وروى البيهقي عن يحيى بن سعيد قال: مرسل الزهري شر من مرسل غيره؛ لأنه حافظ، وكلما قدر أن يسمي سمي، وإنما يترك ما لا يستحب أن يسميه.

ولذلك عارض رواية الزهري ما في أبي داود وغيره: (قالت: أنت وما سمعته) أخرجه أبو داود (باب صفايا رسول الله كتاب الخراج والفيء رقم (٢٩٧٣)، وأحمد (٤/١) وسكت عليه أبو داود، وسكوته تحسين له). وهذا ما رجحه ابن كثير (البداية والنهاية ٥/٢٨٩). وقال: وهذا هو الصواب وهو المظنون بها واللائق بأمرها وسيادتها وعلمها ودينها ﷺ. حيث يقول في باب بيان أنه ﷺ قال: (لا نورث): « ليس يظن بفاطمة رضي الله عنها أنها اتهمت الصديق ﷺ فيما أخبرها به حاشاها وحاشاه من ذلك كيف وقد وافقه على رواية هذا الحديث عمر ابن الخطاب وعثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وعبد الرحمن بن عوف وطلحة ابن عبيد الله والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص وأبو هريرة - وعائشة رضي الله عنهم أجمعين - كما سنينيه قريئاً، ولو تفرد بروايته الصديق ﷺ لوجب على جميع أهل الأرض قبول روايته والانقياد له في ذلك، وإن كان غضبها لأجل ما سألت الصديق إذ كانت هذه الأراضي صدقة لا ميراثاً أن يكون زوجها ينظر فيها، فقد اعتذر بما حاصله أنه لما كان خليفة رسول الله ﷺ فهو يرى أن فرضاً عليه أن يعمل بما كان يعمل رسول الله ﷺ ويولي ما كان يليه رسول الله ﷺ ولهذا قال: وإني والله لا أدع أمراً كان يصنعه فيه رسول الله ﷺ إلا صنعته، قال: فهجرته فاطمة فلم تكلمه حتى ماتت.

وهذا الهجران والحالة هذه فتح على الفرقة الرافضة شراً عريضاً وجهلاً طويلاً، وأدخلوا أنفسهم بسببه فيما لا يعينهم، ولو تفهموا الأمور على ما هي عليه لعرفوا للصديق فضله وقبلوا منه عذره الذي يجب على كل أحد قبوله، ولكنهم طائفة مخذولة وفرقة مردولة يتمسكون بالمشابهة ويتركون الأمور المحكمة المقدرة عند أئمة الإسلام من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من العلماء المعتبرين في سائر الأعصار والأمصار رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين». ومما ينبه عليه أيضاً أن قصة تخلف علي عن بيعته لأبي بكر إلى موت فاطمة من مراسيل الزهري أيضاً، نبه على ذلك البيهقي في الاعتقاد (ص ١٨٠)، وقد ساق تقي العثماني روايات بيعته مباشرة بعد السقيفة أو بعد يومين في تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٣/٦٤، ٦٥). ولعلنا نذكر من مراسيل الزهري التي علّقها البخاري في الصحيح، ونبه إليها الحافظ في فتح الباري ما زاده في قضية لبث انقطاع الوحي، وأن النبي ﷺ كاد يلقي نفسه من شواهد الجبال، وليس ذلك بمسند صحيح..

الكليني محدث الشيعة: قال رسول الله ﷺ: « من سلك طريقاً يطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا به، وإنه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر التجوم ليلة البدر، وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر » (١).

وعن جعفر الصادق قال: « إن العلماء ورثة الأنبياء، وذلك أن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً، وإنما أورثوا أحاديث من أحاديثهم، فمن أخذ بشيء منها فقد أخذ حظاً وافراً، فانظروا علمكم هذا عمّن تأخذونه، فإن فينا أهل البيت في كل خلفٍ غدولاً ينفون عنه تحريف الغالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين » (٢).

ومع وضوح هذه النصوص فإن بعض كتاب الشيعة يستغلون حادثة مناقشة فاطمة لأبي بكر في موضوع الإرث ليتوصلوا إلى أن النبي ﷺ غاضبٌ من أبي بكر لأجل ذلك (٣). بناء على المقدمتين السابقتين!

ولو سلم لهؤلاء هاتين المقدمتين لكان النبي ﷺ غاضباً من علي ﷺ أيضاً! - حاشا وكلاً - ففي الحديث الصحيح: عن سهل بن سعد قال: جاء رسول الله ﷺ بيت فاطمة فلم يجد علياً في البيت فقال: « أين ابن عمك؟ ». قالت: كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج فلم يقل عندي، فقال رسول الله ﷺ لإنسان: « انظر أين هو؟ ». فجاء فقال: يا رسول الله! هو في المسجد راقداً، فجاء رسول الله ﷺ، وهو مضطجع قد سقط رداؤه عن شقه وأصابه تراب، فجعل رسول الله ﷺ يمسه عنه ويقول:

= وما يجدر ذكره أن أزواج النبي ﷺ طلبن طلب فاطمة البتول، وقد كان جوابهن الحديث الذي رواه أبو بكر ﷺ ذاته: ففي صحيح مسلم (بشرح النووي: كتاب الجهاد والسير. باب قول النبي ﷺ: « لا نورث ما تركنا فهو صدقة ») « عن عائشة أنها قالت: إن أزواج النبي ﷺ، حين توفي رسول الله ﷺ أردن أن يعشن عثمان ابن عفان إلى أبي بكر، فيسألنه ميراثهن من النبي ﷺ. قالت عائشة لهن: أليس قد قال رسول الله ﷺ: « لا نورث، ما تركنا فهو صدقة؟ ». ومن المعلوم أن أمهات النبي رضوان الله عليهن من الوارثات - فرضاً - كفاطمة البتول. فكان حكمهن واحداً، ولم يحاب أبو بكر ﷺ زوجات النبي - وابنته إحداهن - في ميراث النبي ﷺ.

(١) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب ثواب العالم والمتعلم (٨٣/١).

(٢) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب صفة العلم وفضله وفضل العلماء، رقم (٢).

(٣) وقد ألقوا لذلك كتباً ذكروا فيه إرث فاطمة الزعوم ومنها فندك، انظر من الكتب: (فندك في التاريخ)

محمد باقر الصدر، مطبعة الشريعة - قم، (١٤٢٣ هـ)، (تركة النبي ﷺ) لحمدان بن زيد البغدادي.

« قم أبا تراب، قم أبا تراب » (١).

وقد بلغ حقد وحنق بعض الاثني عشرية على الأئمة الثلاثة إلى درجة إنكار جميع محامدهم ومفاخرهم، فيقول أحدهم: « مهما وجدت في الكتب شيئاً منسوباً إلى أبي بكر وعمر وأعداء علي من الآداب والحكم والخطب والصواب فاعلم أنها موضوعة، وليست من ألفاظ أولئك المتغلبين، وإن أكثرها نسب إليهم في أيام معاوية وابنه يزيد وأيام بني أمية، وما كان منها في أيامهم فهي من أهل الكتابة والخطابة من الصحابة الذين لهم عادة بالإصابة؛ لأن الخلفاء الثلاثة ما عرفنا منهم أبداً في الجاهلية مقاماً ولا مقالاً يتقضى تصديق نسبة الفصاحة إليهم، ولا عول فيها أحد عليهم » (٢).

ويزعم أن « معاوية كان يبذل الأموال لمن كان موثقاً به عند الناس من الصحابة ليضع حديثاً في فضل الخلفاء الثلاثة، وفي منقصة أمير المؤمنين عليه السلام ثم يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله على المنبر بمشهد من الناس، أو يروي ما ورد في فضل علي عليه السلام في فضلهم » (٣). ويردّ هذا الافتراء أن مناقب وفضائل علي عليه السلام ثابتة في كتب أهل السنة لم تتغير ولم تنسب إلى غيره من الصحابة، بل قد ثبت عند أهل السنة والشيعة أن معاوية عليه السلام قد طلب من أحد أصحاب علي عليه السلام أن يصفه له ويذكر شيئاً من فضائله، فقد قال لضرار الصدائحي: « صف لي عليّاً يا ضرار؟ » وقد وصفه على أحسن وجه « فبكى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن! كان والله! كذلك » (٤).

وقد تواتر عن الاثني عشرية تسمية الشيخين بالجيت والطاغوت: من ذلك: « عن أبي جعفر عليه السلام...: ﴿ وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّلْعُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا ﴾ [الزمر: ١٧]: الجيت والطاغوت: فلاّن وفلاّن وفلاّن، والعبادة: طاعة الناس لهم » (٥). ومعلوم أن روايات

(١) متفق عليه: صحيح البخاري: أبواب المساجد، باب نوم الرجال في المسجد (٤٣٠) أخرجه مسلم في

فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام رقم (٢٤٠٩).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤٩، ٢٥٠).

(٣) المصدر السابق (ص ٢٨٠).

(٤) مولاي محمد صالح المازندراني: شرح أصول الكافي (٢٧٤/١١)، ابن المطهر الحلي: منهاج الكرامة

(ص ١٦٠)، جعفر كاشف الغطاء: كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء (١٦/١) طبعة انتشارات

مهدي - أصفهان.

(٥) الكليني: أصول الكافي (٤٩٨/١) كتاب الحجّة باب في نكت وتنف من التنزيل في الولاية. قال

محققه: هذا الحديث صحيح.

الشيعة تعني بفلان وفلان وفلان الخلفاء الراشدين الثلاثة رضوان الله عليهم، وكان المجلسي ومحقق أصول الكافي كثيرًا ما يبيّن ويوضّح ذلك.

وجاء في كتب الشيعة لغنهم واختلاق أدعية خاصة للغنم، ووضعوا لذلك أعظم الثواب عند الله سبحانه وتعالى! من ذلك «دعاء صنمي قريش»، وبعض أدعية القنوت التي يزعمون أن الأئمة كانوا يقتنون بها في صلاتهم كقنوت: (البلد الأمين وجنة الأمان).

ورد في بحار الأنوار: «هذا الدعاء رفيع الشأن عظيم المنزلة، ورواه عبد الله بن عباس عن علي عليه السلام أنه كان يقنت به، وقال: إن الداعي به كالرامي مع النبي ﷺ في بدر وأحد وحنين بألف ألف سهم. الدعاء: اللهم العن صنمي قريش وجبتها وطاغوتها وإفكيها، وابنتيهما اللذين خالفا أمرك وأنكرا وحيك... إلخ» وهكذا يستمر في سرد الافتراءات عليهما، ثم يقول: «اللهم عذّبهم عذابًا يستغيث منه أهل النار آمين رب العالمين» أربع مرات ^(١). وهكذا صارت الصلاة محلّ الشتم والسب واللعن!!.

(١) المجلسي: بحار أنوار (٢٦٠/٨٢)، وانظر: كتاب سليم بن قيس (ص ٤٨٣). والنص طويل وتمتمه لا أتم الله لقاءه: «وجحدنا إمامك، وعصيا رسولك، وقلبا دينك وحرّفا كتابك، وعظّلا أحكامك، وأبطلا فرائضك، وألحدا في آياتك، وعاديا أولياءك وواليا أعدائك، وخربا بلادك، وأفسدا عبادك. اللهم العنهما وأنصارهما فقد أخربا بيت النبوة، وردما بابه، ونقضا سقفه، وألحقا سماء بأرضه، وعاليه بسافله، وظاهره بباطنه، واستأصلا أهله، وأبادا أنصاره. وقتلا أطفاله، وأخليا منبره من وصيه ووارثه، وجحدنا نبوته، وأشركا بربهما، فعظّم ذنبهما وخلدهما في سقر! وما أدريك ما سقر! لا تبقي ولا تنر. اللهم العنهم بعدد كل منكر أتوه، وحق أخفوه، ومنبر علوه، ومناقق ولّوه، ومؤمن أرجوه، وولي أذوه، وطريد آووه، وصادق طردوه، وكافر نصره، وإمام قهره، وفرض غيره، وأثر أنكره، وشر أضمره، ودم أراقوه، وخبر بدلوه، وحكم قلبه، وكفر أبدعه، وكذب دلّسه، وإرث غصبه، وفيء اقتطعه، وسحت أكلوه، وخمس استحلوه وباطل أسسوه، وجور بسطوه، وظلم نشره، ووعد أخلفوه، وعهد نقضوه، وحلال حرموه وحرام حلّوه، ونفاق أسروه، وغدر أضمره وبطن فتنه، وضيع كسره، وصلح مزقه، وشمل بدّوه، وذليل أعزّه، وعزيز أذلّه، وحق منعه، وإمام خالفه. اللهم العنهما بكل آية حرفوها، وفريضة تركوها، وسنة غيروها، وأحكام عطلوها، وأرحام قطعوها، وشهادات كتموها، ووصية ضيعوها، وأيمان نكثوها ودعوى أبطلوها، وبينة أنكروها، وحيلة أحدثوها، وخيانة أوردوها، وعقبة ارتقوها ودباب دحرجوها، وأزياف لزموها وأمانة خانوها. اللهم العنهما في مكنون السر وظاهر العلانية لعمّ كثيرًا دائبًا أبدًا دائبًا سرمدًا، لا انقطاع لأمدّه، ولا نفاذ لعدده، ويغدو أوله ولا يروح آخره، لهم ولأعوانهم وأنصارهم ومحبيهم ومواليهم والمسلمين لهم، والمائلين إليهم والناهضين بأجنتهم والمقتدين بكلامهم، والمصدقين بأحكامهم. ثم يقول: اللهم عذّبهم عذابًا يستغيث منه أهل النار. آمين رب العالمين» أربع مرات.

وذكر مؤرخ كتب الشيعة محمد محسن (آقا بزرج، الطهراني) في كتابه (الذريعة) (١) أن لهذا الدعاء شرحاً فارسياً وهو (ذخر العاملين في شرح دعاء الصنمين) أي صنمي قريش المذكور.. وهما اللات والعزى (أبو بكر وعمر) فارسي للمولى محمد مهدي ابن المولى على أصغر بن محمد يوسف القزويني، ألفه باسم الشاه سلطان حسين الصفوي (٢). وقد شرح المجلسي هذا الدعاء المسموم.

وقد طبع هذا الدعاء ضمن كتاب (تحفة العوام) وقد صدر هذا الكتاب بأن ما فيه مطابق لفتاوى تسعة مراجع شيعية هم: (أبو القاسم الخوئي، حسين بروجردي - والذي كان من دعاة التقريب في الخمسينات وله مراسلات مع شيخ الأزهر! - محسن الحكيم، أبو الحسن الأصفهاني، محمد باقر، محمد ماوي، ظهور حسين، محمد صاحب قبله، حسين صاحب قبله) وأسمائهم مصورة على أول الكتاب (٣).
وأثنى بعض مراجع الشيعة (الآيات) على هذا الدعاء، كآية الله الشيرازي حيث ذكره في فتاواه.

كما نقلته مواقعهم على شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) فقد جاء في أحد مواقعهم أن شاباً شيعياً يسأل فيقول: (أنا شاب أودّ من خلال هذه الرسالة أن أسأل عن (دعاء صنمي قريش) والدليل عليه، وأحاول أن أفهم معنى الشيعة وموقفهم من الخلفاء الثلاثة؟):

فجاءه الجواب لقد ذكر الله تعالى الشيعة في القرآن وأثنى عليهم إلى درجة كبيرة بحيث نحل اسم الشيعة خليله إبراهيم عليه السلام فقال: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصفافات: ٨٣].

وقد نحل رسول الله ﷺ هذا الاسم من شايع علياً عليه السلام وأتبعه، وذلك حين نزل عليه جبرئيل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: ٠٧].

فقال الرسول ﷺ وهو يشير إلى علي عليه السلام: « هذا وشيعته خير البرية ».

(١) الذريعة (١٩٢/٨).

(٢) الذريعة (٩/١٠) دار الأضواء - بيروت (١٤٠٣هـ).

(٣) صورها فوتوغرافياً عبد الله الموصلي في كتابه حقيقة الشيعة (ص ١١٤).

هذا وقد حرّم القرآن الولاية على الناس إلا لثلاثة:

١ - لله تعالى. ٢ - للنبي ﷺ. ٣ - لعلي أمير المؤمنين وأولاده الأحد عشر عليه السلام.
 فقال: ﴿ إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٦﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٧﴾ [المائدة: ٥٥، ٥٦] وقد بلغ النبي ﷺ قول الله هذا في غدیر خم عند رجوعه بالمسلمين من حجة الوداع، ونصب عليًا عليه السلام أميرًا للمؤمنين وخليفة من بعده وأخذ البيعة له على الناس، وكان أول من بايعه أبو بكر وعمر وقال له: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب! أصبحت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة، لكنهما بعد ارتحال الرسول ﷺ أقصيا عليًا عليه السلام عن الولاية في الحادثة المعروفة، حتى قال علي عليه السلام في (نهج البلاغة) في الخطبة الشقشقية: « أما والله! لقد تَقَمَّصَهَا فلان وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحي » إلى آخر الخطبة.

هذا وقد لعن الله في كتابه، الذين آذوه في نبيته، وآذوا نبيته في أهل بيته بقوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾ [الأحزاب: ٥٧]. وللإطلاع أكثر يراجع الخطبة المذكورة في نهج البلاغة، ويراجع لذلك أيضًا كتاب: الغدير، للعلامة الأميني « (١) ».

ونص هذه الفتوى كما ترى يبرر سبب دعاء صنمي قريش، وأن كل من خان عهد رسول الله يستحق اللعن، وهم بهذا النص يزعمون أن الشيخين عليهما السلام ممن يستحق ذلك. وقد جاء في بعض كتبهم التي يتداولها العامة التأكيد على هذا الدعاء في أقبح الأماكن: « اعلم أن أشرف الأمكنة والأوقات والحالات وأنسبها للعن عليهم - عليهم اللعنة - إذا كنت في المبال فقل عند كل واحد من التخلية والاستبراء والتطهير مرارًا بفرغ من البال: اللهم العن عمر ثم أبا بكر وعمر ثم عثمان، وعمر ثم معاوية، وعمر ثم يزيد وعمر... اللهم العن عائشة وحفصة وهند أم الحكم، والعن من رضي بأفعالهم إلى يوم القيامة » (٢)!

(١) <http://www.s-urdu.com/masael/subject/agmaed/letter.5htm> مؤسسة الرسول الأكرم الثقافية

تعنى بنشر موقع سماحة آية الله صادق الحسيني الشيرازي.

(٢) لآئى الأخبار (ص ٩٢) من منشورات مكتبة العلامة بقم، وقد أخبرني من أتق به أن هذا الكتاب موجود ويوزع في الأماكن الدينية. وانظر: كتاب علماء الشيعة يقولون (ص ٨٠)، ففيه صورة طبق الأصل من صفحة الكتاب ذاتها.

ولما كان أمر الإمامة ركنًا ركينًا من الدين عند الاثني عشرية، وقد عدوا بيعة الشيخين مانعة من بيعة الإمام علي عليه السلام، لذلك عدت رواياتهم بيعة الشيخين من الشيطان: عن زُرارة قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: «فما تقول فيمن يؤمن بالله ورسوله ويصدق رسوله في جميع ما أنزل الله يجب على أولئك حق معرفتكم؟ قال: نعم أليس هؤلاء يعرفون فلانًا وفلانًا؟ قلت: بلى، قال: أترى أن الله هو الذي أوقع في قلوبهم معرفة هؤلاء؟ والله! ما أوقع ذلك في قلوبهم إلا الشيطان، لا والله! ما ألهم المؤمنين حقًا إلا الله عز وجل» (١).

قال المجلسي شارحًا هذه الرواية، متهمًا الصحابة بالضلال: «أي هؤلاء العارفين من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم أضلهم الشيطان حتى أطاعوا فلانًا وفلانًا وانقادوا إليهم واتخذوهم أئمة» (٢).

اتهام أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه في نسبه وعرضه:

هذا كتاب سليم بن قيس - الذي يفاخر محققه بتقدمه وثبوته - يتكلم في أعراض الناس، ففيه أن سلمان رضي الله عنه قال في حديث بيعة أبي بكر رضي الله عنه: «ولم يكن منا أحد أشد قولًا من الزبير، فإنه لما بايع قال: يا ابن صهاك، أما والله لولا هؤلاء الطغاة الذين أعانوك لما كنت تقدم علي ومعني سيفي لما أعرف من جنك ولؤمك، ولكن وجدت طغاة تقوى بهم وتصول. فغضب عمر وقال: أتذكر صهاك؟ فقال: ومن صهاك وما يمنعني من ذكرها؟ وقد كانت صهاك زانية، أو تنكر ذلك؟ أو ليس كانت أمة حبشية لجدي عبد المطلب، فزنى بها جدك نفيلاً، فولدت أباك الخطاب فوهبها عبد المطلب لجديك - بعد ما زنى بها - فولدته، وإنه لعبد لجدي ولد زنا» (٣). وهكذا يريد هؤلاء أن يفرقوا بين الصحابة، فيفترون على لسان الزبير ما فيه إساءة إلى عمر رضي الله عنه.

ويفترون عليه أنه «أتى امرأة لتحذ فقاربها ثم أمر برجمها» (٤).

فهل يعقل في حق من حكم الجزيرة والشام والعراق ومصر واليمن وغيرها أن لا يجد

(١) أصول الكافي (٢٣٦/١) كتاب الحجّة، باب معرفة الإمام والرد عليه.

(٢) مرآة العقول (٣٠٣/٢)، وانظر: أصول الكافي (٢٣٦/١) كتاب الحجّة باب معرفة الإمام والرد عليه.

(٣) كتاب سليم بن قيس (ص ١٥٨). وجاء في الأنوار النعمانية نقل عن ابن الأثير قال عن عمر: «زعمت الروافض أن سيدنا عمر كان مختنأ، كذبوا ولكن كان به داء دواؤه ماء الرجال وغير ذلك مما يستقيح». الأنوار النعمانية (٦٣/١).

(٤) الصراط المستقيم (٣٠/٣).

لذته إلا في هذه المرأة التي حكم برجمها؟ ثم لماذا يرحمها ما دام معطلاً حدود الله تعالى كما يزعمون في رواياتهم؟ ولكنه الحقد الأعمى الذي لا يتسق مع العقل ولا الهدى. ولله در القائل: إذا كنت كذوباً فكن ذكوراً.

أما عن تأويل القرآن للطعن بالخلفاء، ومدح الأئمة فلا تسأل عنه لكثرتة، إذ لم يتورع الوضاعون عن تفسير القرآن الكريم بما فيه إيذاء الخلفاء الثلاثة ﷺ: فمن « صالح ابن سهل الهمداني قال: قال أبو عبد الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ أَوْ كَظُلُمْتِ ﴾ قال: الأول وصاحبه. ﴿ يَفْشَنُ مَوْجٌ ﴾: الثالث. ﴿ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ... ظُلُمْتِ ﴾: الثاني. ﴿ بَعْضًا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾: معاوية وفتن بني أمية. ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدُوَّ ﴾: المؤمن في ظلمة فنتتهم ﴿ لَمْ يَكِدْ يَرْتَهًا ﴾ [النور: ٤٠]»^(١).

وقد جاء في إحدى الروايات اتهام عمر بالهجوم على بيت علي وفاطمة يوم بيعة الصديق ﷺ:

عن أبي جعفر وأبي عبد الله ﷺ قالوا: « إن فاطمة ﷺ لما أن كان من أمرهم ما كان أخذت بتلايب عمر فجدبته إليها ثم قالت: أما والله! يا ابن الخطاب لولا آتي أكره أن يصيب البلاء من لا ذنب له لعلمت آتي سأقسم على الله ثم أجده سريع الإجابة»^(٢).
وتقول رواية سليم عن يوم بيعة الصديق:

« وضع عمر النار بالباب وهو متخوف أن يخرج علي ﷺ بسيفه لما عرف من بأسه وشدته حتى احترق الباب. ثم قال لقفنذ: اقتحم عليه فأخرجه، فافتحم هو وأصحابه، وثار علي ﷺ إلى سيفه فسبقوا إليه وكاثروه فضبطوه وألقوا في عنقه حبلاً. وجاءت فاطمة ﷺ لتحول بينهم وبينه، فضربها قنفذ بسوطه وأضغطت بين الباب، فصاحت: يا أبتاه يا رسول الله! وألقت جنيناً ميتاً، وأثر سوط قنفذ في عضدها مثل الدملاج^(٣)، ثم أمر أناساً حوله أن يحملوا الحطب، فحملوا الحطب وحمل معهم عمر، فجعلوه حول منزل علي وفاطمة وابناهما ﷺ.

(١) أصول الكافي (٢٥١/١) كتاب الحجّة، باب أن الأئمة نور الله ﷺ. حكم محقق أصول الكافي على هذه الرواية بالضعف دون بيان سببه. ومع ذلك بين ما أبيهمه المؤلف في المتن فشرح الأول والثاني بأنهما أبو بكر وعمر رضوان الله عليهما وأن الثالث عثمان ﷺ. فما دام الحديث ضعيفاً فليتم لم يكتف المحقق بما في المتن فيه! اللهم إلا أنه يرضى بما فيه من معان.

(٢) أصول الكافي، باب مولد الزهراء فاطمة ﷺ.

(٣) الدملاج مثل « زنبور: المعصد من الحلبي ». انظر: تاج العروس، مادة (د. م. ل. ج).

ثم نادى عمر، حتى أسمع عليًا وفاطمة عليهما السلام: واللّه! لتخرجن يا علي ولتبايعن خليفة رسول الله، وإلا أضرمت عليك بيتك النار. فقالت فاطمة عليها السلام: يا عمر، ما لنا ولك؟ فقال: افتحي الباب وإلا أحرقتنا عليكم بيتكم.

فقالت: يا عمر، أما تتقي الله تدخل علي بيتي؟ فأبى أن ينصرف.

ودعا عمر بالنار فأضرمها في الباب ثم دفعه فدخل، فاستقبلته فاطمة عليها السلام وصاحت: يا أبتاه! يا رسول الله! فرفع عمر السيف وهو في غمده فوجأ به جنبها فصرخت: يا أبتاه! فرفع السوط فضرب به ذراعها، فنادت: يا رسول الله! لبس ما خلفك أبو بكر وعمر ^(١).

وواضح ما سترك هذه الرواية وأمثالها في ذهن وقلب طفل صغير ينشأ عليها، وهو لا يدري أنها كذب وزور وبهتان، ولو صحت مثل هذه الروايات (ولم يصح منها شيء) لما كان عمر هو الفاروق الذي نجلّه، فنحن نتبرأ من كل من يؤدي آل بيت نبينا عليهم السلام، ويؤدي ابنته الطاهرة البتول فاطمة عليها السلام بهذه الطريقة البشعة المقرزة.

ولذلك فنحن نردّ الرواية التي جاء فيها أن أمير المؤمنين عمر تفل في كتاب يتضمن إقرار أبي بكر بحق فاطمة الزهراء في فدك: « .. فلقبها عمر فقال: ما هذا معك يا بنت محمّد؟ قالت: كتاب كتبه لي ابن أبي قحافة. قال: أرنيه. فأبت، فانتزعه من يدها ونظر فيه ثم تفل فيه ومحاه وخرقه.. » ^(٢).

(١) كتاب سليم بن قيس (ص ١٥٠، ١٥٨، ١٥٣). تحقيق محمد باقر الأنصاري.

(٢) والرواية بتمامها: « عن علي بن محمّد بن عبد الله عن بعض أصحابنا أظنه السّياري عن علي بن أسباط قال: لما ورد أبو الحسن موسى عليه السلام على المهديّ رآه يرّد المظالم فقال: يا أمير المؤمنين! ما بال مظلمتنا لا تردّ؟ فقال له: وما ذلك يا أبا الحسن؟ قال: إنّ الله - تبارك وتعالى - لما فتح على نبيّه عليه السلام فدكاً وما والاها لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فأنزل الله على نبيّه عليه السلام: ﴿ وَمَا ذَا الْقَرْيَةِ حَقُّهُ ﴾ [الإسراء: ٢٦] فلم يدر رسول الله عليه السلام من هم، فراجع في ذلك جبرئيل وراجع جبرئيل عليه السلام ربه، فأوحى الله إليه أن ادفع فدكاً إلى فاطمة عليها السلام، فدعاها رسول الله عليه السلام فقال لها: يا فاطمة! إنّ الله أمرني أن أدفع إليك فدكاً. فقالت: قد قبلت يا رسول الله من الله ومنك، فلم يزل وكلاؤها فيها حياة رسول الله عليه السلام، فلما وُلّي أبو بكرٍ أخرج عنها وكلاءها، فأنته فسألته أن يردها عليها، فقال لها: اثبتيني بأسود أو أحمر يشهد لك بذلك، فجاءت بأمر المؤمنين عليهم السلام وأمّ أيمن، فشهدا لها. فكتب لها بترك التعرض، فخرجت والكتاب معها، فلقبها عمر فقال: ما هذا معك يا بنت محمّد؟ قالت: كتاب كتبه لي ابن أبي قحافة. قال: أرنيه. فأبت، فانتزعه من يدها ونظر فيه ثم تفل فيه ومحاه وخرقه فقال لها: هذا لم يوجف عليه أبوك بخيل ولا ركاب، فضمي الحبال في رقابنا. فقال له المهديّ: يا أبا الحسن حدّها لي. فقال: حدّها من جبل أحدٍ وحدّها من عريش مصر، وحدّها من سيف البحر، وحدّها منها دومة الجندل =

وقد مر تساؤل في مقدمات البحث عن مدى الأثر الفارسي في هذا الحقد الموروث تجاه الفاروق عمر بن الخطاب الذي سقطت إمبراطورية الفرس على أيدي جنوده، حتى عظم بعض الفرس قاتله، فوضعوا في مدينة كاشان الفارسية هناك مزارًا ومقامًا في ميدان

= فقال له: كل هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين! هذا كله، إن هذا كله مما لم يوجف على أهله رسول الله ﷺ بخيل ولا ركاب. فقال كثير: وانظر فيه. « أصول الكافي (١/٥٤٣) ، باب الفياء والأنفال وتفسير الخمس وحدوده وما يجب فيه.

وهذه الرواية فيها من التناقضات العجيبة ما فيها:

١ - هي تبرئ أبا بكر من ظلم فاطمة في ميراثها، وأنه أعطاها كتابًا فيه حقه، ثم فيه مخالفة للنصوص الكثيرة التي نقلوها وأن أبا بكر منعها من الميراث لأنه روى أن الأنبياء لا يورثون، وهي رواية نقلها محدثو السنة والشيعة على السواء، بل إن روايات أهل السنة تقول: إن عمر في خلافته ارتأى أن يعطي فدكًا لعلي والعباس يتصرفا فيها كما كان يتصرف فيها وقصة علي والعباس وفدك في الصحيح.

٢ - وفيها من المبالغة العظيمة في تحديد مكان فدك: إذ جعلته (من جبل أحد في المدينة المنورة إلى عريش مصر، ومن دومة الجندل قرب تبوك في الأردن إلى سيف البحر قرب عُمان والبحرين). مما يعني أن كل هذه المناطق الشاسعة الواسعة كانت مع اليهود، فخلصها النبي والمسلمون منهم، في حين يبين لنا التاريخ أن فدكًا قرية محددة قرب المدينة.

قال ياقوت الحموي: معجم البلدان (٤/٢٣٨، ٢٣٩): « فدك قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان، وقيل ثلاثة، أفاءها الله على رسوله ﷺ في سنة سبع صلحاء، وذلك أن النبي ﷺ لما نزل خيبر وفتح حصونها ولم يبق إلا ثلث واشتد بهم الحصار راسلوا رسول الله ﷺ يسألونه أن ينزلهم على الجلاء وفعل وبلغ ذلك أهل فدك؛ فأرسلوا إلى رسول الله ﷺ أن يصالحهم على النصف من ثمارهم وأموالهم فأجابهم إلى ذلك، فهي مما لم يوجف عليه بخيل ولا ركاب، فكانت خالصة لرسول الله ﷺ وفيها عين فوارة ونخيل كثيرة وهي التي قالت فاطمة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ نحلنيها، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أريد لذلك شهودًا، ولها قصة ثم أدى اجتهاد عمر بن الخطاب بعده لما ولي الخلافة وفتحت الفتوح واتسعت على المسلمين أن يردها إلى ورثة رسول الله ﷺ فكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه والعباس بن عبد المطلب يتنازعان فيها فكان علي يقول: إن النبي ﷺ جعلها في حياته لفاطمة، وكان العباس يأبي ذلك ويقول هي ملك لرسول الله ﷺ وأنا وارثه. فكانا يتخاصمان إلى عمر رضي الله عنه فيأبى أن يحكم بينهما ويقول: أنتمأ أعرف بشأنكمأ، أما أنا فقد سلمتها إليكمأ فاقصدأ فيما يؤتى واحد منكمأ من قلة معرفة. فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة كتب إلى عامله بالمدينة يأمره برد فدك إلى ولد فاطمة رضي الله عنها فكانت في أيديهم في أيام عمر بن عبد العزيز، فلما ولي يزيد بن عبد الملك قبضها، فلم تزل في أيدي بني أمية حتى ولي أبو العباس السفاح الخلافة فدفعها إلى الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، فكان هو القيم عليها يفرقها في بني علي بن أبي طالب. فلما ولي المنصور وخرج عليه بنو الحسن قبضها عنهم فلما ولي المهدي بن المنصور الخلافة أعادها عليهم، ثم قبضها موسى الهادي ومن بعده إلى أيام المأمون فجاءه رسول بني علي بن أبي طالب فطالب بها فأمر أن يسجل لهم بها، فكتب السجل وقرئ على المأمون فقام دعبل الشاعر وأنشد:

أصبح وجه الزمان قد ضحكا برد مأمون هاشم فدكا

وفي فدك اختلاف كثير في أمره بعد النبي ﷺ وأبي بكر وآل رسول الله ﷺ ومن رواة خبرها من رواه =

فيروزى، لفيروز أبى لؤلؤة، قاتل سيدنا عمر رضي الله عنه. ويسمون هذا المجوسى بـ (بابا شجاع الدين) ^(١)، وجعلوا من يوم مقتله عيداً يحييه بعض متشددى الشيعة فى إيران، كما يحصل فى مدينة أصفهان، ومن أصحاب هذا الوزر آية الله أمينى صاحب كتاب الغدير، الذى أحيا هذا العيد فى الخمسينات ^(٢).

ولا داعى للاستطراد فى حادث قتل عمر رضي الله عنه، ولكن من المفيد أن نتذكر أن ابن المطهر الحلى لما مرَّ على أحداث مقتل عمر؛ غضب لأن عثمان رضي الله عنه لم يقم حد القصاص على عبيد الله بن عمر الذى قتل الهرمزان - الفارسى الذى كانت تدور حوله اتهامات بتأمرة مع أبى لؤلؤة فى قتل عمر! ولذلك لم يقم عثمان الحد على قاتله، واكتفى بدفع ديتة - فقال الحلى عن عثمان رضي الله عنه: « وضيع حدود الله، فلم يقدر عبيد الله بن عمر حين قتل الهرمزان مولى أمير المؤمنين بعد إسلامه » ^(٣)!. فأراد ابن المطهر أن يفجع المسلمين بعمر وعبيد الله بن عمر أيضاً.

= بحسب الأهواء وشدة المرء « اهـ.

(١) انظر: عباس القمى: الكنى والألقاب (٥٥/٢).

(٢) فقد ذكر هذا تلميذ الحمينى منتظرى فى مذكراته قائلاً: « كما أتذكر عندما جاء آية الله أمينى صاحب كتاب « الغدير » إلى أصفهان؛ حيث استقبلناه بحرارة، وألقى لعدة أيام خطباً دينية فى أحد مساجد أصفهان حول مسألة الخلافة وأثار خلالها قضايا حساسة تسببت فى إيجاد جو عاطفى ضد السنة. ونتيجة لما يطرحه من فوق المنبر، عاود الناس إحياء بعض التقاليد مثل عيد التاسع من ربيع الأول (يوم اغتيال الخليفة الثانى). وكنت قد عدت إلى قم فى ذلك الحين، وذهبت إلى بيت آية الله بروجردي؛ حيث كان الحاج سيد محمد باقر ابطحي (أحد تجار أصفهان) ووالد زوجته يزوران المرجع الأعلى. وفجأة قال آية الله بروجردي بصوت غاضب: ما هذا الوضع فى أصفهان، إسرائيل تنجز لغزو مصر، وتنوي احتلال قناة السويس، إن المسلمين فى مصر يواجهون العدوان، ونحن هنا بصدد إثارة الفتنة والحرب بين الشيعة والسنة. ما الذى يجرى فى أصفهان؟ ». عن موقع الوحدة الإسلامية www.alwihdah.com، تحت عنوان: ظروف فتوى شيخ الأزهر بالاعتراف بالمذهب الشيعى نشر فى (٢٢/٣/٢٠٠٣ م) عن جريدة الشرق الأوسط، وكذلك موقع فيصل نور الشيعى (مذكرات منتظرى): <http://www.fnoor.com/fn0714.htm>، وينبغى المعرفة أن بروجردي نفسه لا يعارض شتم الشيخين فقد سمح بنشر كتاب (تحفة العوام) المتضمن دعاء صنمى قریش، ولكن موقفه هنا من المواقف السياسية التى اقتضتها طبيعة مسألة التقريب مع أهل السنة.

وإذا أمعنت النظر فى كلام منتظرى يمكنك أن تتساءل: ما هى أسباب إقصاء منتظرى من الواجهة السياسية والفكرية فى إيران بعد الثورة، مع أنه كان التلميذ والرفيق المقرب للحمينى حتى قال عنه: فلذة كبدي، وهل ذكره لوقائع التعصب المذهبى الاثني عشرية - كما فى المثال السابق - أحد عوامل هذا الإقصاء؟

(٣) ابن مطهر الحلى: منهاج الكرامة (ص ١٠٩).

اتهام الخلفاء الراشدين بأنهم نبذوا القرآن:

عن الخشاب، رفعه قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: « لا والله! ولا يرجع الأمر والخلافة إلى آل أبي بكر وعمر أبدًا ولا إلى بني أمية أبدًا، ولا في ولد طلحة والزبير أبدًا، وذلك أنهم نبذوا القرآن وأبطلوا السنن وعطلوا الأحكام، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: « القرآن هدى من الضلالة، وتبيان من العمى، واستقالة من العثرة، ونور من الظلمة وضياء من الأحداث، وعصمة من الهلكة » (١).

وكيف يتهم الخلفاء الثلاثة وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم بتحريف القرآن وهم ناقلو هذا الدين والمجاهدون الأوائل؟ قال الدكتور القفاري:

« وكيف يتصور مسلم مثل هذا في ذلك الحيل القرآني الفريد الذين بذلوا المهج وهجروا الأهل والولد، وفارقوا الأوطان في سبيل الله وحده؟! ولمصلحة من، وفي سبيل من يضحون بسابقتهم، وجهادهم، ويبيعون دينهم وديناهم فيوافقوا أحدًا على المساس بدينهم وكتابهم؟! إن هذا ليهتان عظيم، بل الحق أن عمل عثمان هذا من أعظم مناقبه، ووقع بإجماع من الأمة، كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: « لا تقولوا في عثمان إلا خيرًا، فوالله ما فعل في المصاحف إلا عن ملأ متًا، فجراه الله عن الأمة خيرًا » (٢).

وجاء في أسطورة إحياء علي لأحد الشباب من الموت أن مات على سنة الخلفاء الراشدين ينقلب لسانه في قبره وتتغير لغته! تقول الرواية: « فخرج من قبره وهو يقول بلسان الفرس فقال أمير المؤمنين عليه السلام: ألم تمت وأنت رجل من العرب، قال: بلى ولكنا متنا على سنة فلان وفلان فانقلبت ألسنتنا » (٤).

التشكيك في أولاد النبي صلى الله عليه وآله بسبب كراهة الخليفة الراشد الثالث:

ومن العجائب أن دائرة المعارف الإسلامية الشيعية جاءت لتشكك بوجود بنات للنبي صلى الله عليه وآله غير فاطمة رضي الله عنها! فتقول: « ذكر المؤرخون أن للنبي صلى الله عليه وآله أربع بنات هن بحسب تسلسل ولادتهن: زينب - رقية - أم كلثوم - فاطمة. ولدى التحقيق في النصوص التاريخية لم نجد دليلًا على ثبوت بنوة غير الزهراء (ع) منهن، بل الظاهر أن البنات الأخريات

(١) أصول الكافي (٦٠١/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي داود بسند صحيح كما قاله ابن حجر في فتح الباري (١٨/١٣).

(٣) د. ناصر بن عبد الله بن علي القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (١/٣٦٠).

(٤) أصول الكافي (٥٢٩/١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي صلى الله عليه وآله ووفاته. سكت عنه محقق أصول الكافي.

كُنَّ بنات خديجة من زوجها الأول قبل محمد ﷺ» (١). ولست أدري لماذا هذا التشكيك في حقائق التاريخ الثابتة، هل الهدف هو إنكار تزويج النبي ﷺ لبنتيه (رقية، ثم أم كلثوم) لعثمان ؓ الخليفة الثالث؟.

ولا داعي في الرد على دائرة المعارف للنصوص الكثيرة التي ساقها أهل السنة في بيان أولاد النبي ﷺ وتبجيلهم واحترامهم، ولكن يكفي إيراد ما قاله الكليني الشيعي في الكافي عن النبي ﷺ: « وتزوج خديجة وهو ابن بضع وعشرين سنة فولد له منها قبل مبعثه ﷺ القاسم ورقية وزينب وأم كلثوم، وولد له بعد المبعث الطيب والطاهر وفاطمة ؓ وروي أيضًا أنه لم يولد بعد المبعث إلا فاطمة ؓ» (٢).

وفيه أيضًا: « لما ماتت رقية بنت رسول الله ﷺ قال ﷺ: « إني لأعرف ضعفها وسألت الله ﷻ أن يجيرها من ضمة القبر» (٣).

وانظر هذا التناقض، أو توزيع الأدوار، يشكك بعض المحدثين منهم بينوة رقية للنبي ﷺ، ويتهم بعض متقدميهم عثمان بقتله إياها! ففي الكافي عن أبي بصير.... عن الصادق: « إن رقية لما قتلها عثمان وقف رسول الله على قبرها...» (٤). وهذا الاختلاف والتناقض يدل على اختلاق الروايتين. سبحانك! هذا بهتان عظيم.

روايات انتقام المهدي المنتظر من الشيخين:

ويروي بعض رواة الشيعة أن من أعمال المهدي المنتظر في آخر الزمان أن « يخرج أبا بكر وعمر من قبريهما ويصلبهما ويحرقهما» (٥).

وتفصيل ذلك في بحار الأنوار: عن أبي عبد الله: « يرد إلى قبر جده ﷺ فيقول: يا معاشر الخلائق، هذا قبر جدي رسول الله ﷺ؟ فيقولون: نعم يا مهدي آل محمد فيقول: ومن معه في القبر؟ فيقولون: أصحابه وضجيعاه أبو بكر وعمر؟ فيقول وهو أعلم بهما والخلائق كلهم جميعًا يسمعون: من أبو بكر وعمر؟ وكيف دفنا من بين الخلق مع

(١) حسن الأمين: دائرة المعارف الإسلامية الشيعية (٥٠/١) مادة: النبي محمد ﷺ.

(٢) أصول الكافي (٥١٠/١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي ﷺ ووفاته.

(٣) الكليني: فروع الكافي، باب المسألة في القبر ومن يسأل ومن لا يسأل رقم (١٨)، وعنه عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩٢).

(٤) الكليني: فروع الكافي، باب المسألة في القبر ومن يسأل ومن لا يسأل رقم (٨)، وعنه عبد الله شبر: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٣٩٢).

(٥) الأنوار النعمانية (٨٥/٢).

جدي رسول الله ﷺ، وعسى المدفون غيرهما. فيقول الناس: يا مهدي آل محمد ﷺ ما ههنا غيرهما، إنهما دفنا معه لأنهما خليفتا رسول الله ﷺ وأبوا زوجته، فيقول للخلق بعد ثلاث: أخرجوهما من قبريهما، فيخرجان غضين طريين لم يتغير خلقهما، ولم يشحب لونهما فيقول: هل فيكم من يعرفهما؟ فيقولون: نعرفهما بالصفة وليس ضجيعا جدك غيرهما، فيقول: هل فيكم أحد يقول غير هذا أو يشك فيهما؟ فيقولون: لا، فيؤخر إخراجهما ثلاثة أيام، ثم ينتشر الخبر في الناس ويحضر المهدي ويكشف الجدران عن القبرين، ويقول للنقباء: ابحثوا عنهما وانبشوهما.

فيبحثون بأيديهم حتى يصلوا إليهما. فيخرجان غضين طريين كصورتها فيكشف عنهما أكفانهما ويأمر برفعهما على دوحة يابسة نخرة فيصلبهما عليها، فتحبى الشجرة وتورق ويطول فرعها، فيقول المرتابون من أهل ولايتهما: هذا والله الشرف حقاً، ولقد فزنا بمحبتهما وولايتهما، ويخبر من أخفى نفسه ممن في نفسه مقياس حبة من محبتهما وولايتهما، فيحضرونهما ويرونهما ويفتنون بهما، وينادي منادي المهدي ﷺ: كل من أحب صاحبي رسول الله ﷺ وضجيعيه، فلينفرد جانباً، فتتجزأ الخلق جزأين أحدهما موالي والآخر متبرئ منهما. فيعرض المهدي ﷺ على أوليائهما البراءة منهما فيقولون: يا مهدي آل رسول الله ﷺ نحن لم نتبرأ منهما، ولسنا نعلم أن لهما عند الله وعندك هذه المنزلة، وهذا الذي بدا لنا من فضلهما، أنتبرأ الساعة منهما وقد رأينا منهما ما رأينا في هذا الوقت، من نضارتها وغضاضتهما، وحياة الشجرة بهما؟ بل والله نتبرأ منك ومن آمن بك ومن لا يؤمن بهما، ومن صلبهما، وأخرجهما، وفعل بهما ما فعل.

فيأمر المهدي ﷺ ريحاً سوداء فتهب عليهم فتجعلهم كأعجاز نخل خاوية. ثم يأمر بإنزالهما فينزلان إليه فيحييهما - بإذن الله تعالى - ويأمر الخلائق بالاجتماع، ثم يقص عليهم قصص فعالهما... حتى يقص عليهم قتل هابيل بن آدم ﷺ، وجمع النار لإبراهيم ﷺ، وطرح يوسف ﷺ في الحب، وحبس يونس ﷺ في الحوت، وقتل يحيى ﷺ، وصلب عيسى ﷺ، وعذاب جرجيس ودانيال ﷺ، وضرب سلمان الفارسي، وإشعال النار على باب أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين ﷺ لإحراقهم بها، وضرب يد الصديقة الكبرى فاطمة بالسوط، ورفس بطنها وإسقاطها محسناً، وسم الحسن ﷺ، وقتل الحسين ﷺ، وذبح أطفاله وبني عمه وأنصاره، وسبي ذراري رسول الله ﷺ وإراقة دماء آل محمد ﷺ، وكل دم سفك، وكل فرج نكح

حرامًا، وكل رين وخبث وفاحشة وإثم وظلم وجور وغشم منذ عهد آدم عليه السلام إلى وقت قيام قائمنا عليه السلام. كل ذلك يعدده عليه السلام عليهما، لزمهما فيعترفان به ثم يأمر بهما فيقتص منهما في ذلك الوقت بمظالم من حضر، ثم يصلبهما على الشجرة، ويأمر نازًا تخرج من الأرض فتحرقهما والشجرة، ثم يأمر ريحًا فتنسفهما في اليم نسفًا.

قال المفضل: يا سيدي! ذلك آخر عذابهما؟ قال: هيهات يا مفضل، والله! ليردن وليحضرن السيد الأكبر محمد رسول الله ﷺ والصدّيق الأكبر أمير المؤمنين وفاطمة والحسن والحسين والأئمة عليهم السلام وكل من محض الإيمان محضًا أو محض الكفر محضًا، وليقتصن منهما لجميعهم، حتى أنهما ليقتلان في كل يوم وليلة ألف قتلة، ويردان إلى ما شاء ربهما «^(١). تلك أمانيتهم!!

موقف الاثني عشرية ممن حارب عليًا عليه السلام من الصحابة الكرام:

ويستغل بعض كتاب الشيعة ما جرى بين الصحابة الكرام من أحداث لينالوا منهم، وكأنهم لهم أقران، وما هم كذلك، قال شير: «وأما ما ذكرت من تعرض من أشرتم إليه بدم بعض الصحابة؛ فأنتم تعلمون أن كثيرًا من الصحابة استحلّ بعضهم دماء بعض في حرب طلحة والزبير وعائشة لمولانا علي عليه السلام، وفي حرب معاوية له عليه السلام أيضًا، واستباحوا أعراض بعضهم لبعض حتى لعن بعضهم بعضًا على منابر الإسلام، فأولئك هم الذين طرّفوا للناس اللعن عليهم، وبهم اقتدى من ذمهم أو نسب القبح إليهم، فإن كان لهم عذر في الذي عملوه من استحلال الدماء واستباحة الأعراض، فالذين اقتدوا بهم أعذر وأبعد عن أن تنسبواهم إلى سوء التعصب «^(٢).

ومع أن الله تعالى يقول: ﴿لَا تَلْمِزُوا أَنَّهُ هُوَ يُقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وهو يعلم الضمائر، فإن كتاب الشيعة لا يسرّهم أن يقبلوا ما نقلوه عن توبة من خالف عليًا عليه السلام في حربه كعائشة رضي الله عنها.

قال المفيد: « واجتمعت الشيعة على الحكم بكفر محاربي أمير المؤمنين عليه السلام، ولكنهم لم يخرجوهم بذلك عن حكم ملة الإسلام، إذ كان كفرهم من طريق التأويل كفر ملة، ولم يكفروا كفر ردة عن الشرع، مع إقامتهم على الجملة منهم وإظهار الشهادتين،

(١) المجلسي: بحار الأنوار (١٢/٥٣).

(٢) عبد الله شير: حق اليقين في معرفة أصول الدين (ص ٢٤٨). وهو ينقل عن ابن طائوس في كشف المحجة، الفصل الثالث والستين (ص ٦٣) ط إيران سنة (١٣٠٦ هـ).

والاعتصام بذلك عن كفر الردة المخرج عن الإسلام، وإن كانوا بكفرهم خارجين عن الإيمان مستحقين اللعنة والخلود والنار» (١).

وقال الطوسي: (وأما من نفى عنهم الفسق فما قدمناه من الأدلة يفسد قولهم. وما تدعيه المعتزلة من الأخبار في توبة طلحة والزبير وعائشة فهي كلها أخبار آحاد لا يلتفت إليها، وليس أيضًا فيها تصريح بالتوبة. وأدل الدليل على عدم التوبة أنهم لو تابوا لسارعوا إلى أمير المؤمنين عليه السلام والدخول في عسكره والجهاد معه. فمما تعلقوا به رجوع الزبير عن الحرب، ونفس الرجوع ليس بدليل التوبة لأنه يحتمل غير التوبة، وقد قيل: إنه لما لاحت له أمارات الظفر لأمر المؤمنين عليهم السلام وأيس من الظفر رجوع، وقال قوم: إنه رجع ليتوجه إلى معاوية.... وما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: «بشّر قاتل ابن صفية بالنار» (٢) لا يدل على توبته أيضًا، لأنه يجوز أن يستحق قاتله النار لأمر سوى قتله... وما يروى من حديث البشارة أن النبي صلى الله عليه وآله قال: «عشرة من أصحابي في الجنة وطلحة والزبير منهم» لا يدل على توبتهم أيضًا، لأنه خبر واحد ضعيف مقدر في سنده (٣). وأدّل دليل على فساده أن النبي صلى الله عليه وآله لا يجوز أن يقول لمن ليس بمعصوم: «أنت في الجنة لا محالة» لأن في ذلك إغراء بالقبیح. وقيل: أن راويه سعيد بن زيد، وهو أحد العشرة، فلا يقبل خبره؛ لأنه يشهد لنفسه. فأما ما روي من بكاء عائشة وتلفهها وتمنيها أنها كانت مدرة أو شجرة وقولها: «لئلا أكون شهدت ذلك اليوم أحب إلي من أن يكون لي من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة أولاد كعبد الرحمن بن الحارث بن هشام» لا يدل على التوبة؛ لأن مثل ذلك قد يقوله من ليس بتائب كما حكى الله عن مريم: ﴿يَلَيِّنِي مِثُّ قَبَلٍ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣]. وقد يقول مثل هذا من أراد أمراً لم يبلغه وفاته غرضه ويتحسّر عليه فيتمنى الموت عند ذلك، ويود أنه لم يتعرض له لئلا يشمت به، ولا يدل جميع ذلك على التوبة (٤)!.

(١) الجمل (ص ٢٩، ٣٠)، مكتبة الدواوري - قم.

(٢) مسند أحمد (١/٨٩) عن علي عليه السلام، بسند حسن كما ذكر محقق المسند الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٣) هذا ما تشهيه نفسه، بل الخبر الذي يتضمن بشارة العشرة المبشرين بالجنة صحيح عند أهل السنة، أخرجه الترمذي بسند صحيح: كتاب المناقب، باب مناقب عبد الرحمن بن عوف، من حديثه ومن حديث سعيد ابن زيد، رقم (٣٧٤٧)، وأخرجه ابن ماجه في الإيمان وفضائل الصحابة، باب فضائل العشرة المبشرين بالجنة، وأخرجه أحمد في مسنده بسند صحيح (١/١٨٧).

(٤) الطوسي: الاقتصاد الهادي إلى سبيل الرشاد (ص ٢٢٨ - ٢٣١) طبعة قم، (١٤٠٠هـ)، تحقيق

وقد جاء في كتاب الأنوار النعمانية اتهامهم طلحة بن عبد الله رضي الله عنه في نسبه، لا لشيء إلا لأنه - غفر الله له - حارب عليًا رضي الله عنه، ولذلك قذفوه و « جعلوه ولد زنا » ^(١).

مع أن الله تعالى يبين إمكانية اقتتال المؤمنين - وإن كان لا يحب ذلك ولا يرضاه - فقال: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقْتُلُوا الَّتِي تَبَغَى حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَ تَ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [الحجرات: ٩].

ولما وقف عبد الله شبر عند هذه الآية ارتبك حيث تدل - كما أقر هو - على جواز إطلاق الإيمان على من ارتكب بعض المعاصي فقال: « وأجيب بأنهم سموا مؤمنين باعتبار ما كانوا عليه... وأجيب بجواز إرادة المعنى اللغوي من الإيمان الذي وصفوا به، ويكون المأمور به هو الشرعي » ^(٢)، مع أن المقرر في علم الأصول أن المعنى الشرعي مقدم على المعاني اللغوية والعرفية.

وعلى كل فإن موقف الشيعة في تكفير مقاتلي سيدنا علي رضي الله عنه مخالف لنصوص أوردوها أنفسهم عن أئمتهم: « عن جعفر عن أبيه أن عليًا رضي الله عنه لم يكن ينسب أحدًا من أهل حربه إلى الشرك، ولا إلى التفاق، ولكنه يقول: هم بغوا علينا » ^(٣).

ولكن عقيدة التقية عندهم تجعل دينهم دين الشيوخ لا دين الأئمة، فقد قال الحر العاملي في التعليق على النص السابق: « أقول: هذا محمول على التقية » ^(٤).

وكذلك جاء في كتاب أمير المؤمنين علي رضي الله عنه إلى أهل الأمصار يذكر فيه ما جرى بينه وبين أهل صفين: « وكان بدء أمرنا التقينا والقوم من أهل الشام، والظاهر أن ربنا واحد، ودعوتنا في الإسلام واحدة، ولا نستزيدهم في الإيمان بالله والتصديق برسوله، ولا يستزيدوننا، الأمر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان، ونحن منه براء » ^(٥). وقد أنكر علي رضي الله عنه على من يسب معاوية ومن معه فقال: « إني أكره لكم أن تكونوا سبّابين،

(١) الجزائري: الأنوار النعمانية (٦٥/١).

(٢) عبد الله شبر: حق اليقين (٥٥٦/٢)، وذلك في معرض مناقشته لمسألة معنى الإيمان والكفر.

(٣) انظر: قرب الإسناد (ص ٦٢)، وسائل الشيعة (٦٢/١١).

(٤) وسائل الشيعة (٦٢/١١)، وانظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩٣٤/٢).

(٥) نهج البلاغة (ص ٤٤٨).

ولكنكم لو وصفتم أعمالهم، وذكرتم حالهم، كان أصوب في القول، وأبلغ في العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم» (١).

موقف الشيعة من أم المؤمنين عائشة ؓ :

ومعلوم أنه قد يحصل بين المؤمنين من الخصام والمنافرة ما لا يسقط إلا قبيل دخول الجنة، فقد قال تعالى عن أهل الجنة: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِّنْ غَلِيٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧]، وأمرنا أن ندعوه أن يسأل سخائم صدورنا ونقول ﴿ .. رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

ولا ينكر عاقل أن عليًا ؓ اختلف مع أم المؤمنين عائشة ؓ، وحادثة الجمل مشهورة بينهما.

أما خروجها يوم الجمل فقد كان له ملبساته التاريخية، وإن كان الباحث يقف مع علي أمير المؤمنين في موقفه، ويخطئ اجتهاد أم المؤمنين الذي ثبت ندمها عليه بعد ذلك، ولكن هل يدعو هذا إلى نكران فضلها، والتنقص من زوج النبي ﷺ؟ أم الواجب الاستغفار لها والترضي عنها، بناء على منهج القرآن: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ ﴾ [الحشر: ١٠].؟

خصوصًا إذا تذكرنا ما مرّ في روايات الاثني عشرية أنفسهم من ندمها على خروجها وقولها: « لئلا أكون شهدت ذلك اليوم أحب إلي من أن يكون لي من رسول الله ﷺ عشرة أولاد » (٢).

ولكن روايات الشيعة اتجهت غير هذا الاتجاه، فجمعت بين زوجة النبي عائشة، وزوجتي نوح ولوط الكافرتين:

عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: « فما تقول في مناكحة الناس فإنني قد بلغت ما تراه وما تزوجت قط؟ فقال: وما يمنعك من ذلك؟ فقلت: ما يمنعني إلا أنني أخشى أن لا تحلّ لي مناكحتهم فما تأمرني... فقال لي: قد كان رسول الله ﷺ تزوج،

(١) نهج البلاغة (ص ٣٢٣).

(٢) الطوسي: الاقتصاد الهادي إلى سبيل الرشاد (ص ٢٢٨ - ٢٣١) طبعة قم مكتبة جامع جهلستون

(١٤٠٠هـ) تحقيق الشيخ حسن سعيد.

وقد كان من أمر نوح وامرأة لوط ما كان... وقد زوّج رسول الله ﷺ فلاناً (١) « (٢) .
فأنت تلاحظ في الرواية الربط بين امرأة نوح ولوط ﷺ، وبين أمهات المؤمنين
رضوان الله عليهن، وشتان بين الفريقين، ولكن هكذا فهم شراح حديث الاثني عشرية،
قال المازندراني: « أي تزوج ﷺ عائشة وحفصة وعلتنا بالنفاق واستبطان الكفر وعدم
الإخلاص له ﷺ ما فعلنا وأذاته بما غاظه وكرهه كما هو مذكور في القرآن » (٣) !.
وتتهم رواية أخرى أم المؤمنين عائشة ووالدها بأنهما هتكا حجاب النبي ﷺ :

عن محمد بن مسلم قال سمعت أبا جعفر الطوسي يقول: « لما حضر الحسن بن علي ﷺ الوفاة قال للحسين الطوسي يا أخي! ... اعلم أنه سيصيني من عائشة ما يعلم الله والناس
صنيعها وعداوتها لله ولرسوله وعداوتها لنا أهل البيت... قال لها الحسين الطوسي: قديماً
هتكت أنت وأبوك حجاب رسول الله ﷺ وأدخلت عليه بيته من لا يحبّ قربه، وإنّ
الله سائلك عن ذلك يا عائشة » (٤) .

وتزعم الرواية السابقة أن عائشة رضيها رفضت دفن الحسن إلى جانب جده ﷺ (٥) .

(١) شرحه المحقق بأنه عثمان فيا عجباً كيف يشرحون ما يزيد المسلمين خلافاً مع أنهم يقولون: إن الحديث
مجهول.. فهذا الحديث ألا يحتاج من المعاصرين استنكاراً له، لا مجرد الحكم بجهالته، أولاً، ثم شرحه
والتعليق عليه بما يزيد إيضاحاً ويزيد الأمة تشتيتاً.

(٢) أصول الكافي (٣٨٣/٢ ، ٣٨٤) كتاب الإيمان والكفر، باب الضلال، قال محققه: والحديث مرسل.

(٣) المازندراني: شرح أصول الكافي (١٠٦/١٠) .

(٤) أصول الكافي (٣٥٧/١)، كتاب الحجّة، باب الإشارة والتّصّ على الحسين بن عليّ ﷺ، أشار المحقق
إلى ضعفه.

(٥) أصول الكافي، باب الإشارة والتّصّ على الحسين بن عليّ ﷺ ووفاته. سكت عنه محقق أصول الكافي.
وفيه: « بلغ عائشة الخبر وقيل لها: إنهم قد أقبلوا بالحسن بن عليّ ليدفن مع رسول الله فخرجت مبادرةً على
بغلٍ بسرج، فكانت أول امرأة ركبت في الإسلام سرجاً، فوقفت وقالت: نحوا ابنكم عن بيّتي، فإنه لا يدفن
فيه شيء، ولا يهتك على رسول الله حجابه فقال لها الحسين بن عليّ - صلوات الله عليهم - : قديماً هتكت
أنت وأبوك حجاب رسول الله وأدخلت بيته من لا يحبّ رسول الله قربه، وإنّ الله سائلك عن ذلك
يا عائشة... فمضى الحسين الطوسي إلى قبر أمّه ثم أخرجه فدفنه بالبقيع » .

وهذه الرواية تخالف ما ذكره المؤرخون، من أن عائشة رحبت بدفن الحسن عند جده ﷺ ولكن الأمويين هم
الذين منعوا ذلك، ويشهد لهذا أن أبا هريرة ناقش مروان في ذلك، « عن الوليد بن رباح قال: سمعت أبا هريرة
يقول لمروان حين أرادوا أن يدفنوا الحسن عند جده: تدخل فيما لا عينيك، وكان الأمير يومئذ غيره، ولكنك
تريد رضا الغائب » (ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٤٤١/٧) .

ثم روايتهم هذه تخالف ما رواه المحدثون بأنها في الأصل أعطت المكان المخصص الباقي في غرفتها للدفن لعمر =

ويرى الاثنا عشرية أن من أعمال مهديهم المنتظر أن يقيم الحد على أم المؤمنين عائشة: عن أبي جعفر قال: « أما لو قام قائمنا، وردت إليه الحميراء، حتى يجلد لها الحد وحتى ينتقم لابنة محمد فاطمة » (١).

جاء في تفسير القمي: « وليقيم الحد على فلانة فيما أتت في طريق... وكان فلان يحبها، فلما أرادت الخروج إلى... قال لها فلان لا يحل لك أن تخرجي من غير محرم، فزوجت نفسها من فلان » (٢).

وأى حد يقام على أم المؤمنين التي برأها الله من فوق سبع سماوات؟ ومعلوم أن متطرفي كتاب الاثني عشرية كالقمي يعبر بفلانة عن أم المؤمنين؛ ولذلك كان تفسيره معدوداً من التفاسير الغالية، ومع ذلك فهو مطبوع متداول، ويثني عليه بعض علماء الشيعة، وهذه الأغاليط وحدها كفيلة بأن يتبرأ منه، ويحذّر من تفسيره المليء بالغلو. بل يتهم العياشي والكاشاني والمشهددي في تفاسيرهم أم المؤمنين عائشة وحفصة بأنهما سقتا النبي ﷺ السم!! « عن أبي عبد الله عليه السلام قال: أتدرون مات النبي ﷺ أو قتل، إن الله يقول: ﴿ .. أَفَايُن مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْفَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ .. ﴾ [آل عمران: ١٤٤]. ثم قال: إنهما سقتاه قبل الموت، يعني المرأتين لعنهما الله وأبويهما » (٣).

= ابن الخطاب، ولعله الأرجح، ففي صحيح البخاري (١٣٥٣/٣) كتاب فضائل الصحابة، باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان، رقم (٣٤٩٧). أن عمر قال لما طعن: « يا عبد الله بن عمر!.. انطلق إلى عائشة أم المؤمنين فقل يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين، فإني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر ابن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه. فسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدة تبكي، فقال: يقرأ عليك عمر ابن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه. فقالت: كنت أريده لنفسي ولأثرن به اليوم على نفسي. فلما أقبل قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعوني فأسنده رجل إليه. فقال: ما لديك، قال: الذي تحب يا أمير المؤمنين أذنت ». والتاريخ يصدّق هذا، حيث لم يدفن في الحجرة الشريفة أحد بعد عمر، حتى عائشة نفسها، دفنت رضوان الله عليها في البقيع.

(١) المجلسي: بحار الأنوار، الصدوق: علل الشرائع (ص ٣٠٣) مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - لبنان.
(٢) القمي: تفسير القمي (٣٧٧/٢) تفسير سورة التحريم الآية (٥ - ١٠). وبعض الأماكن الفارغة في النص هكذا وردت في الأصل مما يدل على التقيّة. وقد ورد النص في بحار الأنوار فوضع المجلسي مكان الفراغ كلمة (البصرة)، وقد علمنا أن المجلسي كان في زمن الصفويين وصولاً وجولة الاثني عشرية فلا حاجة للتقيّة إذن في عصره.

(٣) تفسير العياشي (٣٤٢/١)، والفيض القاشاني: التفسير الصافي (٣٨٩/١). ونص بحار الأنوار: « يستعجل ذلك على أن يسقيه سماً»، والميرزا محمد المشهددي (ت حوالي ١١٢٥هـ): تفسير كنز الدقائق (٢٥١/٢)، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم (١٤٠٧هـ).

مع أن كتب الشيعة تروي حديثاً مناقضاً لرواية هؤلاء المفسرين مفاده أن النبي ﷺ مات متأثراً بسّم المرأة اليهودية في خيبر. قال الصدوق: « واعتقدنا في النبي ﷺ أنه سَم في غزوة خيبر، فما زالت هذه الأكلة تعاوده حتى قطعت أبهره فمات منها » (١). وهذا مصداق حديث صحيح أخرجه البخاري رحمه الله تعالى (٢).

وهكذا يتضارب أسلوبان عند كتاب الاثني عشرية: الأسلوب الأول: أسلوب دست ووضوع الأخبار لتبغيض الأتباع بصحابة النبي والمخالفين، والأسلوب الثاني: جمع الأخبار والتقاطها من كتب المخالفين، وكثيراً ما يخفى على أصحاب الأسلوب الثاني ما وضعه أصحاب الأسلوب الأول!.

وجاء في تفسير العياشي وبحار الأنوار والصابي: في تفسير قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَفَضَتْ غَرْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَبَتْ... ﴾ [النحل: ٩٢]: « عائشة هي التي نكثت إيمانها » (٣).

وروى المجلسي رواية تقشعر منها الأبدان، تسيء إلى النبي ﷺ كما تسيء إلى آل بيته الكرام، تقول الرواية المكذوبة: قال علي: « سافرت مع رسول الله ﷺ ليس له خادم غيري، وكان له لحاف ليس له لحاف غيره، ومعه عائشة، وكان رسول الله ﷺ ينام بيني وبين عائشة، ليس علينا ثلاثتنا لحاف غيره، فإذا قام إلى صلاة الليل يحط بيده للحاف من وسطه بيني وبين عائشة حتى يمس للحاف الفراش الذي تحتنا » (٤).

مع أنهم روي عن جعفر الصادق أنه أفتى فيمن يوجد مع امرأة تحت لحاف واحد أنهما يجلدان مائة جلدة (٥). فيلزمهم استحقاق علي وعائشة لهذا الحد عليهما؟؟!!

(١) الشيخ الصدوق: الاعتقادات في دين الإمامية (ص ٧٢)، والأبهر، وزان أحمر: عرق في الظهر.
(٢) في صحيح البخاري (كتاب المغازي: باب مرض النبي ووفاته، رقم ٤١٦٥) : كان ﷺ يقول في مرضه الذي مات فيه: « يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم ».

(٣) التفسير العياشي (٢٢/٣)، المجلسي: بحار الأنوار (٢٨٦/٣٢)، الفيض القاشاني: التفسير الصافي (١٥٤/٣).

(٤) كتاب سليم بن قيس (ص ٢٢١)، بحار الأنوار (٢٩٧/٣٨، ٣١٤) و (١/٤٠).

(٥) انظر: الكافي (١٨٢/٧)، تهذيب الأحكام (٤٠/١٠)، الاستبصار (٢١٣/٤)، وسائل الشيعة (٣٤٨/٢٠)، مستدرک الوسائل (٣٣٩/١٤) باب تحريم الخلوة بامرأة أجنبية تحت لحاف واحد، بحار الأنوار (١٣٠/٧٣) و (٥٧/٧٦ - ٩٣)، من لا يحضره الفقيه (٢٣/٤). لكن المجلسي فرق بين الليل والنهار فزعم أنه إذا وجد رجل مع امرأة ليلاً تحت لحاف واحد فلا حد عليهما، وأما في النهار فيقام عليهما الحد. (بحار الأنوار ٩٤/٧٦).

ومهما ضعّف علماء الشيعة من هذه الروايات ما ضعّفوا، أو أولوا من هذه الروايات ما أولوا، فإن هذا الكم الهائل من الروايات التي شحنت بها هذه الكتب يجعلها فوق التأويل والتضعيف، لأنها أمت بكثرتها منهجاً عاماً يتخذ من صحابة النبي ﷺ.

ذم عامة الصحابة الكرام:

ولم يكتف الاثنا عشرية بثتم وذم الخلفاء الراشدين الثلاثة، وأم المؤمنين عائشة، بل توسعوا بالشتم لكثير من الصحابة الكرام، حملة الدين ودعاة الإسلام الأوائل، ومن هؤلاء الكرام:

أبو عبيدة بن الجراح ﷺ:

تتهم رواية أبا عبيدة بأنه كتب كتاباً فيه التأمير على آل البيت لمنعهم حقوقهم، مع أنه ﷺ من العشرة المبشرين بالجنة، وأمين هذه الأمة، وأحد الدعاة وقادة الفتوح الإسلامية. قال المجلسي: « هو عامر بن عبد الله بن الجراح من رؤساء المنافقين، وكان كاتب الصحيفة الملعونة التي كتبها ودفنها في الكعبة، وكان فيها ميثاقهم ألا يصيروا الأمر في علي بعد النبي ﷺ وهذا المراد بإبرامهم أمراً^(١). يشير إلى قوله تعالى في حق الكافرين الخالدين في جهنم: ﴿ أَمْ أَرْبَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُّبرِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٩]!.

العباس وابنه عبد الله ﷺ:

وعلى الرغم من أن العباس عم علي ﷺ وابنه عبد الله ابن عمه، فالروايات تذكرهما بالسوء: فقد « جاء رجل إلى علي بن الحسين ﷺ فقال له: إن ابن عباس يزعم أنه يعلم كل آية نزلت في القرآن في أي يوم نزلت وفيمن نزلت. فقال أبي ﷺ: سله في من نزلت: ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٢]؟ وفيمن نزلت: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ .. ﴾ [هود: ٣٤] وفيمن نزلت: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَاطِبُوا .. ﴾ [آل عمران: ٢٠٠] .

فأتاه الرجل فسأله فقال: وددت أن الذي أمرك بهذا واجهني به، فأسأله عن العرش مم خلقه الله، ومتى خلق، وكم هو، وكيف هو؟ فانصرف الرجل إلى أبي ﷺ فقال أبي: فهل أجابك بالآيات؟ قال: لا، قال أبي: لكن أجيبك فيها بعلم ونور غير المدعى

(١) مرآة العقول (٥/٥٠). وانظر الخبر عند الكليني: أصول الكافي (١/٤٨٩) كتاب الحجّة، باب في نكت وتنف..

ولا المنتحل، أما قوله: ﴿ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٢] ففيه نزل وفي أبيه، وأما قوله: ﴿ وَلَا يَنْفَعُكَ نَصِيحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ .. ﴾ [هود: ٣٤] ففي أبيه نزلت « (١) ».

خالد بن الوليد ؓ:

لقد دخل خالد بن الوليد ؓ التاريخ من أوسع أبوابه في جهاده في فتوح الإسلام، وملأت أخبار شجاعته وحنكته العسكرية الخافقين، ونال وسام تسميته بأنه (سيف من سيوف الله) كما جاء عن النبي ﷺ في أحداث مؤتة، وأن النبي ﷺ قال في حقّه: « .. حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله حتى فتح الله عليهم » (٢)، ولذلك اشتهر خالد بين الصحابة بهذا اللقب؛ فعن ابن عباس ؓ: « أن خالد بن الوليد الذي يقال له سيف الله أخبره أنه... » (٣).

ولكن هذه النصوص لا تروق للحلي، فيتغافل عنها ويقول: سماوا خالد بن الوليد سيف الله عنادًا لأمر المؤمنين ؓ الذي هو أحق بهذا الاسم؛ حيث قتل بسيفه الكفار... وقال ؓ على المنبر: « أنا سيف الله على أعدائه، ورحمته لأوليائه، وخالد لم يزل عدوًا لرسول الله مكذبًا له، وهو كان السبب في قتل المسلمين في يوم أحد، وفي كسر رباعية النبي ﷺ وفي مقتل حمزة عمه » (٤). وهكذا يحاكم ابن المطهر الحلي خالدًا على ما كان منه قبل إسلامه، مع أن الإسلام يجب ما قبله (٥).

ذم روايات الاثني عشرية للأنصار ؓ:

وإذا صح - عند أهل السنة - عن النبي ﷺ: « آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار » (٦). فإن الاثني عشرية يجعلون من الأنصار خصومًا لهم.

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٢٨٩/٢٢) .

(٢) صحيح البخاري: كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة، رقم (٤٠١٤) .

(٣) صحيح البخاري: كتاب الأطعمة، باب ما كان النبي ﷺ لا يأكل حتى يسمى له فيعلم ما هو، رقم (٥٠٧٦) .

(٤) الحلي: منهاج الكرامة (ص ٧٩ ، ٨٠) .

(٥) جاء في مسند الإمام أحمد بن حنبل (٢٠٤/٤) : عن عمرو بن العاص ؓ قال قلت: يا رسول الله أباعدك على أن تغفر لي ما تقدم من ذنبي، فقال رسول الله ﷺ: « إن الإسلام يجب ما كان قبله، وإن الهجرة تجب ما كان قبلها » .

(٦) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار رقم (٣٥٧٢) ، وأخرجه مسلم في

كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي ؓ من الإيمان، رقم (٧٤) .

فمع أن الكليني نقل أن جعفرًا الصادق شتم محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي (النفس الزكية) ورفض البيعة له لما ثار على الأمويين، فإن الكليني ينقل أيضًا لوم جعفر للأنصار على خذلان محمد بن عبد الله بن الحسن: فقال: « لعنكم الله يا معاشر الأنصار ثلاثًا، ما على هذا عاهدتم رسول الله ﷺ ولا بايعتموه، أما والله إن كنت حريصًا ولكنتي غلبت وليس للقضاء مدفع » (١)، وفي رواية أخرى: « إن الناس عادوا بعدما قبض رسول الله ﷺ أهل جاهلية، وإن الأنصار اعتزلت فلم تعتزل بخير، جعلوا يبايعون سعدًا وهم يرتجزون أرجاز الجاهلية » (٢).

وفي روايات الاثني عشرية كثير من الروايات في ذم غير هؤلاء من الصحابة، ففي ذم معاوية وعمرو بن العاص وغيرهما ما لا يحصى من الروايات (٣).

وهذا الافتراء على الصحابة لم ينقطع، وما يزال مستمرًا، فيتهم بعض كتاب الشيعة المعاصرين الصحابة بالكذب على النبي ﷺ: يقول أحدهم: « ولعل راويًا كسمره ابن جندب يفترى أحاديث تمس من كرامة أمير المؤمنين علي (ع)، ولعل راويًا لا يمتنع أن يروي آلاف الأحاديث في فضل الحكام الجائرين وحسن سلوكهم عن طريق أعوان الظلمة علماء البلاط تمجيديًا للسلطين » (٤).

ويتخذ بعض الاثني عشرية من رواية ذود بعض الصحابة عن حوض النبي ﷺ (٥) متكأً للقول بارتدادهم، وقد قال الخطابي: « إنما وقع - أي الارتداد - لبعض جفاعة العرب، ولم يقع من أحد الصحابة المشهورين » (٦).

(١) أصول الكافي (٤٢٣/١) كتاب الحجّة، باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٢) الكافي (٢٩٥/٨). وانظر: بحار الأنوار (٣٤٧/٣٥ ، ٣٤٨).

(٣) انظر: (حق اليقين في معرفة أصول الدين) إذ يخصص عبد الله شير الصفحات من (ص ٢٤٧ إلى ص ٢٥٠) ليتحدث عن لعن معاوية ثم عن مثالب الصحابة الكرام!

(٤) روح الله الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ٦٠).

(٥) وقد جاء تفصيل ذلك في كتب السنة؛ ففي صحيح البخاري قال رسول الله ﷺ: « ألا وإنه يجاء برجال

من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب أصيحابي! فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما

قال العبد الصالح: ﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾

[المائدة: ١١٧]. فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم » كتاب التفسير، باب قوله تعالى:

﴿ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٧] رقم

(٤٣٤٩) .

(٦) ابن حجر العسقلاني: فتح الباري بشرح صحيح البخاري (٢٨٦/٨).

وفي الحقيقة يشفق المرء على عقول هؤلاء الذين يسمعون هذه الروايات وأضعافها في ذم الصحابة كأبي بكر الخليفة الراشدي الأول وعمر رضي الله عنه ناشر الإسلام وقاهر الأكاسرة، والمهاجرين والأنصار ككتيبة النبي وخاصة أصحابه، وتأخذ الحيرة في شأن هؤلاء العوام الذين يأخذون كتاب الكليني وسليم بن قيس مأخذ التصديق، دون تمحيص أو مقارنة بما ورد في صحاح أهل السنة عن هؤلاء الصحابة الكرام، من محبتهم للنبي وآل بيته عليهم السلام وخدمتهم لهذا الدين.

وقد قلت مرات عديدة في حوارات مع بعض هؤلاء: لو ثبت أن عمر رضي الله عنه فعل هذه الأفاعيل المنكرة - وحاشاه - لكنت من المبغضين له والمنكرين لبيعته، ولكن هذا لم يثبت، وقد تنزلت في الحوار معهم إلى درجة أن قلت: هب أنه وصلك عن رجل خبران: أحدهما يقول بعدالته، والآخر يجرحه، ولم يكن عندك مرجح بين الخبرين؟ أليس الجدير بك أن تتحرى الحق من الخبرين، فإن عجزت احتطت لدينك فلم تقع في عرض هذا الرجل، فلئن يخطئ القاضي في المكافأة فيصرفها إلى غير أهلها أهون من أن يوقع العقوبة على غير أهلها. ثم هب أنه ثبت عندك مذمة شخص ما، فهل يكون من الحق والصواب أن تتخذ شتمه دينًا وديدًا؟

وهل يَأْتُم المرء إذا ترك شتم إبليس أبي الشرور والآثام؟ فأقل القليل في حق الصحابة - رضوان الله عليهم - أن نقول ما قاله تعالى في كتابه: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٤]، والموقف الجدير بأهل الإسلام أن نذكر محاسنهم ونكف عن زلاتهم - لو ثبتت - لنكون ممن قال ربنا ﷺ: عنهم: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

قال الإمام الشعبي: « سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى، وسئلت النصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: حواري عيسى، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد ﷺ. أمروا بالاستغفار لهم فسبّوهم » (١).

فبأي منطق يشتم أصحاب النبي ﷺ في حين تجيز الروايات ملاطفة غير المسلمين عند الحاجة: فمن عبد الرحمن بن الحجاج قال: قلت لأبي الحسن موسى عليه السلام: أ رأيت إن احتجت إلى الطبيب وهو نصراني أن أسلم عليه وأدعو له؟ قال: نعم، إنه لا ينفعه

دعاؤك» (١). ألا يستحق مليار وربع من المسلمين اليوم ملاحظتهم ومنع إيذائهم بمنع شتم رموزهم وسلفهم من الصحابة والتابعين؟!.

ألا يراعي هؤلاء القوم أن أهل السنة قد « أجمعوا على أن خير القرون قرن الصحابة، ثم الذين يلونهم، وعلى أن خير الصحابة أهل بدر، وخير أهل بدر العشرة، وخير العشرة الأئمة الأربعة، أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي رضوان الله عليهم، وأن إمامتهم كانت عن رضا من جماعتهم، وأن الله آلف قلوبهم على ذلك لما أرادوه من استخلافهم جميعاً بقوله: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۗ ﴾ [التور: ٥٥] » (٢).

فإذا لم يكن الموعودون بالاستخلاف في الأرض - والذين حقق الله لهم الاستخلاف كما وعد - هم الصحابة الكرام من المهاجرين والأنصار، فمن يكونون إذن؟ والمرء يلمح من حكمة الله - تعالى - ولطيف قدره: ترتيب خلافة الراشدين الأربعة على ما وقع في التاريخ، بحيث لو غير الترتيب في خلافتهم لما تمت الخلافة لجميعهم، « فجمع الله قلوب المؤمنين على ترتيبهم في التقديم، من قبيل أنهم لو قدموا عمر على الجماعة لخرج أبو بكر عما وعد الله به، وكذلك لو قدموا عثمان لخرج أبو بكر وعمر، لأن الله قد علم أنه يبقى بعدهما، وأنهما يموتان قبله، وكذلك لو قدم علي جميعهم لخرجوا من الوعد بعلم الله أنهم يموتون قبل موته » (٣).

ولقد جاءت وصية النبي ﷺ تنهى عن سب أصحابه، فقد قال ﷺ: « لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده! لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدهم ولا نصيفه » (٤).

أما ما ثبت في التاريخ من شتم الصحابة بعض إخوانهم؛ فإن هذا لا يجيز لمن جاء

(١) أصول الكافي (٦١٥/٢)، كتاب العشرة، باب ما يجب من المعاشرة، صححه المحقق.
(٢) الأشعري: أصول أهل السنة والجماعة المسماة برسالة أهل الثغر (ص ١٠٠)، تحقيق الأستاذ الدكتور محمد السيد الجليند.

(٣) الأشعري: رسالة أهل الثغر (ص ١٠٠).

(٤) حديث متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه كتاب المناقب، باب: قول النبي (لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر، رقم (٣٤٧٠)، ومسلم في فضائل الصحابة باب تحريم سب الصحابة ﷺ رقم (٢٥٤٠).

بعدهم أن يشتمهم، فإنّ الكبار إن اختلفوا وتشاتموا؛ لم يحلّ للصغار أن يدخلوا بينهم، فلو أنّ الأب والعمّ اختلفا فتشاتما، لم يجوز للولد أن يتخذ ذلك ذريعة لشتم أبيه أو عمّه، ولو فعل ذلك لأدّب وعوقب.

وإذا كان النبي ﷺ يشير إلى ترفع المؤمن عن اللعن واللعن والفحش بقوله: « ليس المؤمن بالطعان واللعان ولا البذيء ولا الفاحش » (١). فكيف الحال إذا كان المشتوم صحابياً؟!

قال الإمام أحمد بن حنبل: « إذا رأيت أحداً يذكر أصحاب النبي ﷺ بسوء فاتهمه على الإسلام... ومن شتم أصحاب النبي ﷺ يعاقب ويحبس... » (٢).

قال الإمام النووي: « واعلم أن سب الصحابة ﷺ حرام من فواحش المحرمات سواء من لا يس الفتن منهم وغيره؛ لأنهم مجتهدون في تلك الحروب متأولون... قال القاضي: وسب أحدهم من المعاصي الكبائر، ومذهبا ومذهب الجمهور أنه يعزر ولا يقتل، وقال بعض المالكية: يقتل » (٣).

وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالسَّيِّئُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]: « قد أخبر الله العظيم أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم أو أبغض أو سب بعضهم، ولا سيما سيد الصحابة بعد الرسول وخيرهم وأفضلهم أعني الصديق الأكبر والخليفة الأعظم أبا بكر بن أبي قحافة ﷺ، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة ويغضونهم ويسبونهم، عياداً بالله من ذلك، وهذا يدل على أن عقولهم معكوسة وقلوبهم منكوسة، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يستبون من رضي الله عنهم؟ » (٤).

« والواقع أن التشكيك في عدالة الصحابة ﷺ لا ينتج إلا التشكيك في الدين

(١) صحيح ابن حبان (٤٢١/١) رقم (١٩١)، مؤسسة الرسالة (ط ٢)، (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م) تحقيق

شعيب الأرنؤوط، وأخرجه أحمد في مسند عبد الله بن مسعود ﷺ (١/٤٠٥).

(٢) ابن تيمية: الصارم المسلول على شاتم الرسول (ص ٤٣٥)، تحقيق حمزة النشري، عبد الحفيظ فرغلي،

عبد الحميد مصطفي، يطلب من مكنتات الأهرام.

(٤) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم (٢/٥٠٥).

(٣) شرح صحيح مسلم (٩٣/١٦).

وأصوله؛ لأن الدين كله حتى القرآن الكريم لم يصل إلينا إلا بواسطة هؤلاء الصحابة، فلو ارتفعت الثقة عنهم - والعياذ بالله - لارتفع الأمان عن النصوص ولترزع ببيان الدين» (١).

إن المتأمل لمواقف الفرق من بعضها بعضاً يرى أن موقف أهل السنة هو أكثرها تسامحاً، وهو موقف اقتفى فيه أهل السنة أثر علي عليه السلام ذاته في معاملته لمن خالفه.

وكما أن أهل السنة وسط بين اليهود والنصارى في عقيدتهم في عيسى عليه السلام، فلم يرفعوه فوق قدره كالنصارى، ولم ينزلوه عن مكانته ويتهموه ويتهموا أمه كاليهود، فهو عبد الله ورسوله؛ فكذلك هم وسط بين الخوارج والاثني عشرية في أمر علي وباقي الصحابة عليه السلام. فأهل السنة ليسوا كالخوارج في تكفيرهم علياً وبعض الصحابة، ولا كالاثني عشرية في غلوهم في علي والأئمة وتكفيرهم كثيراً من الصحابة.

أما الخوارج والاثنا عشرية والمعتزلة فمقالاتهم في الصحابة لون آخر؛ فالخوارج تكفر علياً وعثمان ومن والاهما، والاثنا عشرية تكفر جمهور الصحابة كالخلفاء الثلاثة ومن والاهم وتفسقهم، وينسبون العصمة إلى علي، ويفضّلون من قاتل معه كمحمد بن أبي بكر والأشتر النخعي على أبي بكر وعمر وعثمان وجمهور الصحابة من المهاجرين والأنصار الذين قاتلوا المشركين مع النبي محمد ﷺ ونصروا دينه ودعوته (٢)!

ففقيدة أهل السنة في الصحابة الكرام هي الوسطية التي جاء بها الإسلام؛ إذ ترعى حق كل الصحابة عليه السلام، من غير مغالاة وادعاء للعصمة فيهم، ولا تقصير ولا انتقاص من حقهم، رضوان الله عليهم أجمعين.

موقف آل البيت ممن ادعى اتباعهم وإمامتهم؟

إذا كان هذا هو حال صحابة النبي ﷺ في روايات الشيعة، فما هو حال أتباع الأئمة وأصحابهم؟ هل يستحقون أن يكونوا قدوة للناس مكان صحابة النبي ﷺ؟، ذلك أننا لو سألنا علماء الشيعة: ما هو البديل لحليل الصحابة الذي جرحتموه، وحكمتهم برده، وفسقه وخنوعه للظلمة؟ أصحاب الأئمة كانوا مثلاً للأجيال يقتدى به في كل زمان ومكان؟ إن تاريخ الشيعة أنفسهم يخبرنا أن أصحاب آل البيت لم يكونوا أحسن حالاً مما حكاها الشيعة عن الصحابة الكرام.

(١) الشيخ تقي الدين العثماني: تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم (٣٥/٥).

(٢) انظر: ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٥٤٣/١ - ٥٤٥).

فكتب الشيعة أنفسهم تثبيت تجريح الأئمة لمن ادعى أنه من أتباعهم، والروايات الشيعة تذكر لنا تأفف علي عليه السلام وتلمله من صحابته، حتى أنشأ فيهم دواوين العتاب والتأنيب، وسمع له وهو يقول لهم:

« ألا وإنني قد دعوتكم إلى قتال هؤلاء القوم ليلاً ونهاراً، سرّاً وإعلاتاً، وقلت لكم: اغزوه قبل أن يغزوكم، فوالله! ما غزي قوم في عقر دارهم إلا ذلّوا. فتواكلتم وتخاذلتم حتى شنت الغارات عليكم وملكت عليكم الأوطان... فيا عجباً والله! يمت القلب ويجلب الهم من اجتماع هؤلاء القوم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم، فقبحاً لكم وترحاً، حين صرتم غرضاً يرمى، يغار عليكم ولا يغيرون. وتغزؤون ولا تغزؤون. ويُعصى الله وترضون، فإذا أمرتكم بالسير إليهم في أيام الحر قلتم: هذه حمارة القيظ أمهلنا يسبخ عنا الحر، وإذا أمرتكم بالسير إليهم في الشتاء قلتم: هذه صبارة القر أمهلنا ينسلخ عنا البرد، كل هذا فراراً من الحرّ والقرّ! فإذا كنتم من الحرّ والقرّ تغزؤون، فإذا أنتم والله من السيف أفرّ!

يا أشباه الرجال! ولا رجال. حلوم الأطفال، وعقول ربّات الحجال.

لوددت أنني لم أركم ولم أعرفكم. معرفة والله جرّت ندماً وأعقبت سدماً، فانتلكم الله! لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرّعتموني نغب التهمام أنفاساً، وأفسدتم عليّ رأيي بالعصيان والخذلان حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع ولكن لا علم له بالحرب. لله أبوهم! وهل أحد منهم أشد لها مراساً وأقدم فيها مقاماً مني؟! لقد نهضت فيها وما بلغت العشرين، وها أنا ذا قد ذرفت على الستين. ولكن لا رأي لمن لا يطاع» (١).

ومن طالع التاريخ يعلم أن عليّاً عليه السلام كان صاحب الحق الشرعي بالخلافة، وأنه أقرب الطائفتين إلى الحق، ولكن مصيبته كانت في كثير من جنده العاصين لأوامره، والمتخاذلين عن نصرته، كما تذكر روايات الاثني عشرية.

في حين كان أصحاب النبي صلى الله عليه وآله أطوع له من بنانه. فاسمع إليهم، وقد استشارهم في أمر القتال يوم بدر فقالوا: «يا رسول الله! والذي نفسي بيده! لو أمرتنا أن نخيضها البحر لأخضناها، ولو أمرتنا أن نضرب أكبادها إلى بزك الغماد لفعلنا، قال: فندب

(١) نهج البلاغة (٦٨/١ - ٧٠)، وانظر: الكليني: الكافي (٥/٥). (حمارة القيظ): شدة حر الصيف.

(نغب): النغبة: الجرعة، نغب الريق: ابتلعه. (القاموس المحيط، مادة: نغب)، (التهمام): الهم.

رسول الله ﷺ الناس فانطلقوا حتى نزلوا بدرًا» (١).

ونحن والله لا نرمي أصحاب علي - رحمهم الله تعالى - بشيء، ولكن نستنطق نصوص الاثني عشرية. فاسمع إلى روايتهم عن علي ؑ وهو يقول في تأنيبهم:

« كم أداريكم كما تدارى البكار العمدة، والثياب المتداعية، كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر، أكلما أطل عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق كل رجل منكم بابه وانجحر انجحر الضبّة في جحرها والضبع في وجارها.

الذليل والله من نصرتموه، ومن رمي بكم فقد رمي بأفوق ناصل» (٢). إنكم والله لكثير في الباحات، قليل تحت الرايات، وإني لعالم بما يصلحكم، وقيم أودكم، ولكني والله! لا أرى إصلاحكم بإفساد نفسي» (٣).

ولم يكن أصحاب الحسن بن علي ؑ أحسن حالاً؛ إذ لم يحسنوا صحبتهم. وانظر إليهم وقد خذلوه في حربه، وسرقوا متاعه، وجرحوه، حتى ألقوه إلى مبايعة أهل الشام الذين لو علموا حوله رجالاً ما تجرؤوا على قتاله، ثم جاء هؤلاء الأتباع يلومونه على مصالحتهم جند الشام بعد ذلك، مع أنهم ادعوا عصمته! ومن كان معصوماً فلا يلام ولا يناقش. لقد « بويع الحسن بن علي ثم غدر به، ووثب عليه أهل العراق، حتى طعن بخنجر في جنبه، فوادع معاوية» (٤).

وعن ابن وهب الجهني قال: لما طعن الحسن بن علي ؑ بالمدائن أتيتهم وهو متوجع فقلت: ما ترى يا ابن رسول الله؟ فإن الناس متحIRON. فقال: أرى - والله - معاوية خيراً لي من هؤلاء، يزعمون أنهم لي شيعة ابتغوا قتلي وانتهبوا ثقلي، وأخذوا مالي، والله! لأن آخذ من معاوية عهداً أحقن به دمي وآمن به في أهلي خير من أن يقتلوني فتضيع أهل بيتي وأهلي، والله! لو قاتلت معاوية لأخذوا بعنقي حتى يدفعوني إليه سلماً.

(١) صحيح مسلم، كتاب المغازي، باب غزوة بدر، رقم (١٧٧٩) وبرك الغماد: موضع من وراء مكة بخمس ليال بناحية الساحل، وقيل: بلدتان، وقال القاضي وغيره: هو موضع بأقاصي هجر.

(٢) البكر: الفتى من الإبل، والعمدة - بفتح العين وكسر الميم -: الإبل التي انفضح داخل سنامها من كثرة الركوب وظاهرها سليم، حيصت: خيطة، (تهتكت): تحزقت وتمزقت، المنسر - كمجلس -: القطعة من الجيش، والوجار: جحر الضبع، والسهم الأفوق الناصل: المكسور مكان موضع الوتر منه، والمنزوع النصل، فلا أثر له في الرمية.

(٣) نهج البلاغة (١١٨/١) دار المعرفة - بيروت، تحقيق الشيخ محمد عبده، ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (١٠٢/٦). كلام له ؑ في ذم أصحابه.

(٤) ابن أبي الحديد: شرح نهج البلاغة (٤٣/١١).

فو الله لأن أسأله وأنا عزيز خير من أن يقتلني وأنا أسيره، أو يمين علي فتكون سبة على بني هاشم إلى آخر الدهر» (١).

ويقول محمد جواد مغنية عن الحسن: «بويع بالخلافة سنة (٤١ هـ)، وله من العمر (٣٧) سنة، وأقام في خلافته ستة أشهر وثلاثة أيام، حيث وقع الصلح بينه وبين معاوية، خوفاً على نفسه، بعد أن تبين له أن جماعة من رؤساء أصحابه كتبوا سرّاً إلى معاوية وضمنوا له أن يسلموه إليه عند دنو العسكرين» (٢).

فإن صح هذا الخبر دل على ما كان عليه أصحاب الأئمة من ضحالة خلقية، حتى يسلموا الإمام إلى خصمه. في حين يعدّ مؤرّخو أهل السنة خلافة الحسن تامة الخلافة الراشدة، ويذكرون فضله في الإصلاح (بين طائفتين عظيمتين من المسلمين) كما أخبر النبي ﷺ في حديث صحيح.

أما الحسين ﷺ فمأساته لا تمحوها الدهور ولا تنسيها العصور، استدرجه من ادعوا التشييع له إلى الكوفة، وحلفوا له أن ينصروه، فلما جدّ الجدّ خذلوه، وللموت أسلموه (٣). وكانت الأمة في حالة من الضعف والهوان في درجة لم تستطع أن تحمي حفيد نبيّها رضوان الله وسلامه عليه! يقول التاريخ: «لما فعل يزيد برأس الحسين ما مرّ كان عنده رسول قيصر، فقال متعجباً: إن عندنا في بعض الجزائر في دير حافر حمار عيسى، فنحن نحج إليه كل عام من الأقطار وننذر النذور ونعظّمه كما تعظّمون كعبتكم، فأشهد إنكم على باطل، وقال ذمي آخر: بيني وبين داود سبعون أباً، وإن اليهود تعظّمني وتحترمني، وأنتم قتلتم ابن نبيكم!» (٤).

وإذا كنا نبراً ممن قتله فإننا أيضاً نبراً ممن استجرّه إلى القتل، ممن دعاه للخروج فلم ينصره، ثم جلس يبكي عليه طول الدهر.

قال المسعودي - المؤرخ ذو الميل الشيعي (٥) - : «وفي سنة خمس وستين تحركت

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٢٠/٤٤).

(٢) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٢١٨).

(٣) انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء (ص ١٨٢).

(٤) ابن حجر الهيتمي: الصواعق المحرقة (٢/٥٨٠، ٥٨١).

(٥) هو علي بن الحسين، أبو الحسن (ت ٣٤٦ هـ)، صاحب مروج الذهب ومعادن الجوهر، وله كتاب

(البيان في أسماء الأئمة). انظر: كشف الظنون (١/٢٦٤).

الشيعة في الكوفة، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم على الحسين فلم يغيثوه، ورأوا أنهم أخطأوا بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه، ولقتله إلى جانبهم فلم ينصروه» (١).

ويؤكد هذا ما رواه الجاحظ عن خزيمة السدي قال: دخلت الكوفة فصادفت منصور علي بن الحسين بالذرية من كربلاء إلى ابن زياد، ورأيت نساء الكوفة يومئذ قياتما يندبن متهتكات الجيوب، وسمعت علي بن الحسين وهو يقول بصوت ضئيل - وقد نحل من شدة المرض: يا أهل الكوفة! إنكم تبكون علينا، فمن قتلنا غيركم؟.

وقالت زينب بنت علي - وقد شهدت وقعة كربلاء مع أخيها - « يا أهل الكوفة! يا أهل الختر والخذل! فلا رقات العبرة، ولا هداآت الرنة. إنما مثلكم كمثل التي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا، تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم. ألا وهل فيكم إلا الصلف والشنف (٢)، وملق الإماء وغمز الأعداء؟ وهل أنتم إلا كمرعي على دمنة، أو كقصبة على ملحودة (٣)؟ ألا ساء ما قدمت أنفسكم. أن سخط الله عليكم، وفي العذاب أنتم خالدون. أتبيكون؟ إي والله فابكوا، وإنكم والله أحرى بالبكاء. فابكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد فزتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسلٍ بعدها أبداً » (٤).

وقد قارن بعض المحققين بين الخوارج على ضلالهم والشيعة فقال: « فإنه لم ير الزهد والجهاد في طائفة أقل منه في الشيعة. والخوارج المارقون كانوا أزهق منهم وأعظم قتالاً، حتى يقال في المثل: حملة خارجية، وحروبهم مع جيوش بني أمية وبني العباس وغيرهما بالعراق والجزيرة وخراسان والمغرب وغيرها معروفة، وكانت لهم ديار يتحيزون فيها لا يقدر عليهم أحد، وأما الشيعة فهم دائماً مغلوبون مهزومون، وحبهم للدنيا وحرصهم عليها ظاهر، ولهذا كاتبوا الحسين ﷺ فلما أرسل إليهم ابن عمه ثم قدم بنفسه غدروا به، وباعوا الآخرة بالدنيا، وأسلموه إلى عدوه وقتلوه مع عدوه.

(١) المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر (١١٠/٢)، وانظر د. علي سامي النشار (٣٥/٢)، ود. القفاري: أصول مذهب الشيعة الاثني عشرية (٤٦/١).

(٢) (الصلف): من معانيه التكبر، (الشنف): البغض والإعراض، قال العرب: « شنف له كفرح: أبغضه وتنكره » القاموس المحيط، مادة: صلف، شنف.

(٣) جاء في لسان العرب (٧٣/٧): « وفي حديث زينب: يا قصبة على ملحودة، شبهت أجسامهم بالقبور المتخذة من الحص، وأنفسهم بجيف الموتى التي تشتمل عليها القبور ».

(٤) انظر: تقديم الشيخ محب الدين الخطيب لمختصر التحفة الاثني عشرية للسيد محمود شكري الألوسي وأصله لشاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي.

فأي زهد عند هؤلاء وأي جهاد عندهم، وقد ذاق منهم علي بن أبي طالب عليه السلام من الكاسات المرة ما لا يعلمه إلا الله، حتى دعا عليهم فقال: اللهم! قد سئمتهم وسئموني، فأبدلني خيراً منهم وأبدلهم شراً مني، وقد كانوا يغشونهم ويكاتبون من يحاربه ويخونونه في الولايات والأموال... لهذا أشار عقلاء المسلمين ونصحاءهم على الحسين أن لا يذهب إليهم؛ مثل عبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر، وأبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وغيرهم؛ لعلمهم بأنهم يخذلونهم ولا ينصرونهم، ولا يوفون له بما كتبوا له إليه، وكان الأمر كما رأى هؤلاء، ونفذ فيهم دعاء عمر بن الخطاب عليه السلام ثم دعاء علي بن أبي طالب حتى سلط الله عليهم الحجاج بن يوسف، فكان لا يقبل من محسنهم ولا يتجاوز عن مسيئهم ^(١).

وكذلك قارن بينهم وبين الزيدية، فقال: « فالزيدية خير من الرافضة، أعلم وأصدق وأزهد وأشجع » ^(٢).

وهذا زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام يقول: « أيها الناس! أحبونا حب الإسلام، فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عاراً » ^(٣).

أما محمد الباقر أبو جعفر فتقول إحدى الروايات عنه: « .. لو كان الناس كلهم لنا شيعة لكان ثلاثة أرباعهم لنا شكاكاً، والربع الآخر أحق » ^(٤).

وقال جعفر الصادق لمن نصّبوا أنفسهم له أصحاباً: « إن أصحاب جعفر منكم لقليل، إنما أصحاب جعفر من اشتد ورعه وعمل خالقه » ^(٥).

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٩٠/٢ - ٩٣) .

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية (٩٦/٢) .

(٣) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (٣٧٤/٤١) دار الفكر - بيروت (١٤١٥ هـ)، تحقيق علي شيري.

(٤) الشيخ الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٤٥٩/٢) . وسبب مقاله هذه تبينها بداية الرواية: عن أسلم مولى محمد

ابن الحنفية، قال: كنت مع أبي جعفر عليه السلام جالسا مسنداً ظهري إلى زمزم، فمر علينا محمد بن عبد الله بن الحسن

وهو يطوف بالبيت، فقال أبو جعفر: يا أسلم! أتعرف هذا الشاب؟ قلت: نعم هذا محمد بن عبد الله بن الحسن....

قال: أما أنه سيظهر ويقتل في حال مضية، ثم قال: يا أسلم! لا تحدث بهذا الحديث أحدًا فإنه عندك أمانة، قال:

فحدثت به معروف بن خربوذ وأخذت عليه مثل ما أخذ علي. قال: وكنا عند أبي جعفر (غدوة وعشية أربعة

من أهل مكة فسأله معروف عن هذا الحديث، فقال: أخبرني عن هذا الحديث الذي حدثني، فإني أحب أن

أسمعه منك، قال: فالتفت إلى أسلم، فقال له أسلم: جعلت فداك! إني أخذت عليه مثل الذي أخذت علي، قال،

فقال أبو جعفر عليه السلام: لو كان الناس كلهم لنا شيعة لكان ثلاثة أرباعهم لنا شكاكاً، والربع الآخر أحق » .

(٥) الطوسي: اختيار معرفة الرجال (٥٢٥/٢) طبع مؤسسة آل البيت - قم (١٤٠٤ هـ)، تحقيق محمد

باقر الحسيني وآخرين، وهو تهذيب لكتاب معجم الرجال للكشي.

وهذا الإمام زيد بن علي بن الحسين كانوا معه متوافرين متحفّزين، فلما اشتدت الحرب، أرادوا حيلة ليتصلّوا من بيعته والحرب معه، فسألوه عن أبي بكر وعمر في وقت الجهاد وبذل الدماء، لا وقت الجدال والحجاج، فلما لم يجيبهم إلى ما أرادوا تركوه حتى قتل وخلعوا بيعته (١).

وورد أن «الرضا عليه السلام جفا جماعة من الشيعة وحجبهم فقالوا: يا ابن رسول الله ﷺ ما هذا الجفاء العظيم والاستخفاف بعد الحجاب الصعب، قال: لدعواكم أنكم شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأنتم في أكثر أعمالكم مخالفون، ومقصرون في كثير من الفرائض، وتهاونون بعظيم حقوق إخوانكم في الله، وتتقون حيث لا تجب التقية، وتركون التقية حيث لا بد من التقية» (٢).

وتتردد عبارات الذم لأصحاب الأئمة في كتب الشيعة، فقد روى الكشي بسنده أن بريذا العجلي قال: كنت أنا وأبو الصباح الكناني عند أبي عبد الله (أي جعفر الصادق) فقال: «كان أصحاب أبي خيرا منكم، كان أصحاب أبي ورقا لا شك فيه، وأنتم شك لا ورق فيه». فقال أبو الصباح: جعلت فداك، فنحن أصحاب أبيك! قال: «كنتم يومئذ خيرا منكم اليوم».

ونقل أيضا عن المعلی قال: ذهبت بكتاب عبد السلام بن نعيم وسدير وغير واحد إلى أبي عبد الله، فضرب بالكتاب الأرض ثم قال: «أفّ، أفّ، ما أنا لهؤلاء بإمام» (٣). وهذا يدل على عدم محبة الأئمة لهؤلاء الأتباع، وعلى عدم احترام هؤلاء الأتباع لهؤلاء الأئمة الأجلاء.

فهل نترك أصحاب السيرة العطرة من الصحابة وآل بيت النبي ﷺ منهم ومعهم، وهم الذين مدحهم الله ورسوله، وأئمة البيت النبوي أنفسهم؛ ثم لنقتدي بمثل هؤلاء الذين زعموا أنهم أتباع آل بيته، فخذلوهم وقصروا في حقهم؟.

(١) انظر: الأشعري: مقالات الإسلاميين (٦٥/١).

(٢) وسائل الشيعة، الحر العاملي (٤٧٠/١١).

(٣) انظر: المامقاني في تنقيح المقال (٣٨/١)، (٨/٢) عن رجال الكشي. وفيه أن أبا الصباح هذا الذي كان من كبار شيعة الصادق وأبيه الباقر قد عبث بثدي جارية ناهد خرجت له من منزل إمامه الباقر، فأثبه على ذلك.

الْمَبْحَثُ الثَّالِثُ

موقف الاثني عشرية من عموم الأمة والفرق الكلامية الإسلامية



يعد الاثنا عشرية أنفسهم الفرقة الناجية من بين الفرق الإسلامية الأخرى، وهذا شأن معظم الفرق؛ إذ الكل يتمسكون بحديث الافتراق: « تفرقت اليهود على إحدى وسبعين أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفرقت أمتي على ثلاث وسبعين فرقة » وهو حديث صحيح^(١).

وقد وقع خلاف كبير بين المحدثين من أهل السنة في زيادات هذا الحديث التي تعين وتبين الناجي من الهالك من هذه الفرق الكثيرة، ففي كثير من روايات هذا الحديث أنها « كلّها في النار إلا واحدة » وهي الفرقة الناجية، « ما أنا عليه وأصحابي » أو « السواد الأعظم » أو « الجماعة »، وفي رواية أخرى أنها « كلّها في الجنة إلا واحدة »! وهم الزنادقة. وقد أطلال المحدثون النفس في الحكم على هذه الزيادات التي وردت في هذا الحديث^(٢).

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من طريق محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعاً بدون ذكر النصارى (٣٣٢/٢). وأخرجه أبو داود في سننه وسكت عنه، في كتاب السنة، باب شرح السنة (١٩٧/٤). وأخرجه الترمذي في جامعه، في كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، واللفظ له، وقال: حديث حسن صحيح (٢٥/٥). وأخرجه ابن ماجه في سننه بنحو لفظ الإمام أحمد، في كتاب الفتن، باب افتراق الأمم (١٣٢١/٢). والحديث حسن صحيح.

(٢) ومنتهى التمهيص حول هذا الحديث: أن الروايات اتفقت على وقوع الافتراق في الأمة إلى هذه الفرق الكثيرة، ثم وقع الخلاف بين الروايات في الهالك والناجي منها على وجهين:

الوجه الأول: وهو المشهور: « تفرقت أمتي على ثلاث وسبعين ملة، كلهم في النار إلا ملة واحدة ». قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: « ما أنا عليه وأصحابي ». أخرجه الترمذي وقال: حديث مفسر غريب لا نعرفه مثل هذا إلا من هذا الوجه. وأخرجه الحاكم في المستدرک (٢١٨/١)، ويبين أن إسناده قد تفرد به عبد الرحمن ابن زياد الإفريقي، وهو لا تقوم به حجة. وأخرجه الطبراني في معجمه الأوسط (٢٢/٨). وقد أنكر ابن حزم هذه الزيادة في الفصل في الملل والأهواء والنحل (١٣٨/٣) وتابعه ابن الوزير اليميني في العواصم والنقائص في الذب عن سنة أبي القاسم (١٨٦/١).

والوجه الثاني: « ستفترق أمتي على كذا وسبعين ملة كلها في الجنة إلا ملة واحدة ». قيل: أي ملة، قال: « الزنادقة ». أخرجه القزويني في التدوين في أخبار قزوين (٧٩/٢). وذكره أبو شجاع شيرويه بن شهردار =

كما أطال علماء الكلام الكلام في تأكيد نجاة الفرق التي ينتسبون إليها وهلاك خصومها، إذ كل فرقة تطلق النجاة على أتباعها وتمنع الآخرين. يقول ابن مطهر الحلبي: « بحثنا عنها [أي الفرقة الناجية] وعن قول النبي ﷺ: « ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فرقة منها ناجية والباقي في النار » فوجدنا الفرقة الناجية هي فرقة الإمامية لأنهم يباينون جميع المذاهب، وجميع المذاهب قد اشتركت في أصول العقائد » (١). وكذلك وقع الخلاف كبيراً بين المتكلمين - حتى في داخل كل فرقة - في بيان الفرق المخالفة التي يجب أن يصل عددها في النهاية إلى ثلاث وسبعين فرقة، حسب الرواية الواردة في هذا الحديث، ولكن دون دليل جلي، إنما بالظن أو التخمين؛ على حد مجنون بني عامر:

وكلُّ يدعي وصلاً لليلي وليلى لا تقر لهم بذاكا

والجدل في بيان هذه الفرق الهالكة عقيم، لا يجدي نفعاً، بل على العكس ينشر البغضاء بين الفرق، والأولى التأكيد على معنى الوحدة الإسلامية، وسعة رحمة الله تعالى. ولقد وردت أحاديث في كتب الشيعة تبين فضل جماعة المسلمين، فمن الصادق قال: « من فارق جماعة المسلمين قيد شبرٍ فقد خلع ربة الإسلام من عنقه ». وقال: « من فارق جماعة المسلمين ونكث صفقة الإمام جاء إلى الله ﷻ أجذم » (٢).

= الديلمي (ت ٥٠٩ هـ): الفردوس بمأثور الخطاب (٦٣/٢). وفي رواية بلفظ: « تفرقت هذه الأمة على بضع وسبعين فرقة إني أعلم أهداها، الجماعة » رواه الديلمي: الفردوس بمأثور الخطاب (٦٤/٢). قال العجلوني الجراحي (ت ١١٦٢ هـ): « ورواه الشعراني في الميزان من حديث ابن النجار وصححه الحاكم بلفظ غريب وهو: « ستفترق أمتي على نيف وسبعين فرقة كلها في الجنة إلا واحدة ». وفي رواية عند الديلمي: « الهالك منها واحدة. قال العلماء: هي الزنادقة » (كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس (١٥٠/١). وعلل الدكتور الكريم: مصعب الخير إدريس السيد مصطفى الإدريسي سرد الشعراني للحديث بروايتين متعارضتين بأن الشعراني وفق بينهما وفق ميزانه في الجمع بين الأحاديث وتصحيح أقوال المجتهدين، بأن الرواية الأولى من باب التشديد باعتبار مبدأ المصير، والثانية من باب التخفيف باعتبار المال وختام المصير للموحدين من أمة محمد ﷺ. وإذا أبعدنا النجعة فسنقول: نحسب أنه أورد رواية « كلها في الجنة إلا واحدة » منفردة؛ للتدليل على قوله بصحة جميع أقوال المجتهدين التي تصدر في رأيه عن عين الشريعة الواحدة. انظر: ملحق رسالته للدكتوراه: الفكر الكلامي الاثنا عشري خلال القرن الخامس الهجري: دراسة مقارنة بأراء أهل السنة، كلية دار العلوم (ص ١٣٤ - ١٤٢).

(١) ابن مطهر الحلبي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٤٩).

(٢) الكليني: أصول الكافي (٤٧٠/١) باب ما أمر النبي ﷺ بالتصحيح لأئمة المسلمين والزموم لجماعتهم =

ولقد جاءت في معنى هذين الحديثين أحاديث صحيحة عند أهل السنة، في حين حكم محققو أحاديث الأئمة بضعف هذه الروايات!!.

ولذلك جاءت بعض الروايات عن الأئمة لترفع مستوى الاثني عشرية عن باقي الناس، وتعطي الشيعة ولو ماتوا على فرشهم أضعاف مرتبة الشهداء، في حين تجعل الويل والثبور على من مات مخالفاً لمذهب الشيعة، ولو مات مجاهداً شهيداً محتسباً صابراً:

وروا عن الإمام الرضا: « إنّه ليس أحدٌ من شيعتنا يبئلى ببليّة، أو يشتكي فيصبر على ذلك إلا كتب الله له أجر ألف شهيد » (١).

وعن عبد الله بن سنان قال: « قلت لأبي عبد الله عليه السلام: جعلت فداك! ما تقول في هؤلاء الذين يقتلون في هذه الثغور؟ قال: فقال: الويل، يتعجلون قتلة في الدنيا وقتلة في الآخرة، والله! ما الشهيد إلا شيعتنا ولو ماتوا على فرشهم » (٢).

وعن حفص قال: سمعت موسى بن جعفر يقول: « يا حفص من مات من أوليائنا وشيعتنا ولم يحسن القرآن علّم في قبره ليرفع الله به من درجته، فإن درجات الجنة على قدر آيات القرآن » (٣).

ولقد تبنى المجلسي هذه النظرة المتعالية من الشيعة على غيرهم، وأشاعه في باب عقده بعنوان: « باب الصفح عن الشيعة » وذكر فيه سبعا وتسعين رواية (٤).

وتقول إحدى الروايات: « إذا كان يوم القيامة ولينا حساب شيعتنا، فمن كانت مظلمته فيما بينه وبين الله ﷻ حكمتنا فيها فأجابنا، ومن كانت مظلمته فيما بينه وبين الناس استوهبناها فوهبت لنا، ومن كانت مظلمته فيما بينه وبيننا كنا أحق من عفا وصفح » (٥).

ولذلك لحق لأحد الباحثين أن يلخص لنا عقيدة الاثني عشرية في أنفسهم وفي

= ومن هم. وقد ضعف المحقق هذين الحديثين، وقال عن الثاني: « والحديث ضعيف كسابقه ». أو كلما جاءكم حديث بما لا تهوى أنفسكم حديثاً ضعفتهم وحديثاً تكذبون!!.

(١) أصول الكافي (٤١٥/١) كتاب الحجّة، باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٢) الطوسي: تهذيب الأحكام (١٢٦/٦)، وسائل الشيعة (٣١/١٥).

(٣) أصول الكافي (٦٠٦/٢)، المعالم الزلّفي (ص ١٣٣).

(٤) انظر: بحار الأنوار (٩٨/٦٨ - ١٤٩).

(٥) بحار الأنوار (٩٩/٦٨)، عيون أخبار الرضا (٦٨/٢).

موقفهم من خالفهم من المسلمين، فيقول: إنهم « وعيدية بالنسبة لمن خالفهم، كما أنهم مرجئة فيمن دان بقولهم » (١).

وقد رواه أنه « إذا التقى الشيعي مع الشيعي يتساءلان، قالت الحفظة: اعتزلوا بنا، فإن لهم سرًا وقد ستره الله عليهما » (٢). مع أن الله سبحانه يقول: ﴿ إِذْ يَنْقَلِبُ الْمُتَلَفِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۗ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عِنْدٌ ۗ ﴾ [ق: ١٧، ١٨]. وقال سبحانه: ﴿ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴾ [الزخرف: ٨٠].

فهل بين الرب العظيم وبعض عباده نسب حتى يحرم هؤلاء الجنة رغم حسن العمل، ويعطي هؤلاء مراتب الشهداء رغم الجهل والكسل؟! وما هو الفرق بين قول هؤلاء وقول أهل الكتاب: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّونَهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

وأين قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ بِأَمَانِيَّتِكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَىٰ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٢٣].؟

وسنرى فيما يلي أمثلة تبين هذه النظرة المتعالية الحاقدة على المخالفين، المحامية للأتباع المقربين:

- جواز غيبة المخالفين وشتيمهم وقذفهم:

وبناء على الموقف السلبي من الآخرين، وأنهم من أهل الهلاك في الآخرة، تأتي الروايات لتؤكد حلّ أعراض المخالفين، وجواز غيبتهم؛ إذ « إن ظاهر الأخبار اختصاص حرمة الغيبة بالمؤمن. أقول: المراد من المؤمن هنا من آمن بالله ورسوله وبالعباد وبالائمة الاثني عشر عليه السلام: أولهم علي بن أبي طالب عليه السلام، وآخرهم القائم الحجة المنتظر عجل الله فرجه، وجعلنا من أعوانه وأنصاره، ومن أنكر واحداً منهم جازت غيبته لوجوه: الوجه الأول: أنه ثبت في الروايات والأدعية والزيارات جواز لعن المخالفين، ووجوب البراءة منهم، وإكثار السب عليهم، واتهامهم، والوقية فيهم: أي غيبتهم؛ لأنهم من أهل البدع والريب. بل لا شبهة في كفرهم، لأن إنكار الولاية والائمة حتى الواحد منهم، والاعتقاد بخلافة غيرهم، وبالعقائد الخرافية، كالجبر ونحوه يوجب الكفر والزندقة، وتدل عليه الأخبار المتواترة الظاهرة في كفر منكر الولاية، وكفر المعتقد بالعقائد

(١) د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٧٠٤/٢).

(٢) وسائل الشيعة (٥٦٣/٨، ٥٦٤).

المذكورة، وما يشبهها من الضلالات... وفي بعض الأحاديث الواردة في عدم وجوب قضاء الصلاة على المستبصر (إن الحال التي كنت عليها أعظم من ترك ما تركت من الصلاة) «^(١)».

وليس هذا القول قديماً مندثراً، بل حياً ينميه الكتاب المعاصرون منهم، يقول عبد الحسين دستغيب: «يجب أن يعلم أن حرمة الغيبة مختصة بالمؤمن أي المعتقد بالعقائد الحقّة، ومنها الاعتقاد بالأئمة الاثني عشر عليهم السلام، وبناء على ذلك فإن غيبة المخالفين ليست حراماً» «^(٢)»، وقال محمد حسن النجفي: «فالظاهر إلحاق المخالفين بالمشركين في ذلك؛ لاتحاد الكفر الإسلامي والإيماني فيه، بل لعل هجاءهم على رؤوس الأشهاد من أفضل عبادة العباد ما لم تمنع التقية، وأولى من ذلك غيبتهم التي جرت سيرة الشيعة عليها في جميع الأعصار والأمصار... بل يمكن دعوى كون ذلك من الضروريات فضلاً عن القطعيات» «^(٣)».

قال مرتضى أنصاري: «إن ظاهر الأخبار اختصاص حرمة الغيبة بالمؤمن فيجوز اغتيال المخالف كما يجوز لعنه، وتوهم عموم الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتِنُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّكُ بِعَظْمِ الظَّنِّ إِنَّهُ وَلَا يُجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَانفُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] كبعض الروايات لطلق المسلم؛ مدفوع بما علم بضرورة المذهب من عدم احترامهم وعدم جريان أحكام الإسلام عليهم إلا قليلاً» «^(٤)». وهذا القليل الذي أجروه من أحكام الإسلام على المخالفين ليس تسامحاً، بل هو للحاجة إليهم، كجواز مناكحتهم والاستمتاع بنسائهم، ومعاملاتهم.

- ذم روايات الاثني عشرية لأبي حنيفة رضي الله عنه:

وقد آذت روايات الشيعة فقهاء المسلمين، فقد أتى لعن أبي حنيفة في (الكافي) صريحاً لا تلميحاً، لأنه يقول بالقياس، مع أنه تلميذ جعفر الصادق رحمهما الله تعالى:

(١) السيد الخوئي (ت ١٤١٣ هـ): مصباح الفقاهة (١/٣٢٣، ٣٢٤)، المطبعة الحيدرية، النجف. وانظر أيضاً تقارير الحدود والتعزيرات، لآية الله الحاج محمد رضا الموسوي الكلبايكاني (ت ١٤١٤ هـ) (٧٣/٢) نسخة قرص المعجم الفقهي - قم (١٤٢١ هـ).

(٢) دستغيب: الذنوب الكبيرة (٢/٢٦٧)، (ط ٢)، الدار الإسلامية - بيروت (١٩٨٨ م).

(٣) محمد حسن النجفي: جواهر الكلام (٢٢/٦٢)، عن حقيقة الشيعة: عبد الله عبد الله الموسلي (ص ٢٨).

(٤) مركز المصطفى عليه السلام: متفرقات عن النصب والنواصب (ص ٤٤)، في قرص مدمج: المعجم الفقهي.

الإصدار الثالث (٢٠٠١ م)، وموقعه على الإنترنت: (www.almarkaz.net).

« عن محمّد بن حكيم قال أبو الحسن موسى عليه السلام: « لعن الله أبا حنيفة كان يقول: قال علي عليه السلام وقلت أنا، وقالت الصحابة » (١).

وعن سدير قال: « سمعت أبا جعفر عليه السلام ... قال: يا سدير! فأريك الصادّين عن دين الله؟ ثم نظر إلى أبي حنيفة وسفيان الثوري في ذلك الزمان وهم جلق في المسجد فقال: هؤلاء الصادّون عن دين الله بلا هدى من الله ولا كتاب مبين، إنّ هؤلاء الأخابث لو جلسوا في بيوتهم فجال الناس فلم يجدوا أحدًا يخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله حتى يأتونا فنخبرهم عن الله تبارك وتعالى وعن رسوله صلى الله عليه وآله » (٢).

فكان الحق لا يظهر إلا إن سكت صوت الباطل، والله تعالى يقول: ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا نَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٨] .

مع أن أبا حنيفة رضي الله عنه كان يتولى آل بيت النبي صلى الله عليه وآله، فقد كان يوالي زيد بن زين العابدين ويناصره، ويفتي سرًا بوجوب نصرته والحمل إليه والخروج معه، كما كان أبو حنيفة على بيعة محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، الملقب: النفس الزكية - ومن جملة شيعته، حتى رُفِع أمره إلى المنصور في ذلك، فحبسه حبس الأبد حتى مات في الحبس، رحمه الله تعالى (٣).

ويتهم كتاب الشيعة جريًا وراء بعض الشبهات أبا حنيفة - رحمه الله تعالى - بقلة البضاعة في الحديث الشريف، وهو الإمام المجتهد؟ يقول مغنية - أحد دعاة التقريب! -: « ولكن أبا حنيفة لم يثبت عنده من أحاديث الرسول إلا سبعة عشر حديثًا؛ لأنه لا يقبل الحديث إلا إذا رواه جماعة عن جماعة » (٤).

وهذا تحريف في النصوص، فإن أهل العلم قالوا: يقال لم يرو إلا سبعة عشر، لا أنه لم يثبت عنده إلا سبعة عشر حديثًا، بل ثبت عنده ما لا يحصى من الأحاديث التي اعتمد عليها في مذهبه الفقهي. ولكن الرواية للحديث شيء، والعلم به وثبوته شيء آخر، ولا يعيب أبا حنيفة أنه لم يكن محسوبًا على المحدثين.

(١) أصول الكافي: كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس (١٠٨/١).

(٢) أصول الكافي (٤٥٧/١) كتاب فضل الحجة، باب أنّ الواجب على الناس بعدما يقضون مناسكهم أن يأتوا الإمام فيسألونه عن معالم دينهم ويُعلمونهم ولايتهم ومودّتهم له. قال محقق الكافي: والحديث ضعيف، وهو وإن كان ضعيفًا فيكفي أن يعمل به الأخباريون ومن تبعهم من العوام فتتفرق بذلك الأمة.

(٣) الشيخ عبد الحلیم محمود: التفكير الفلسفي في الإسلام (ص ٧٧). وانظر مقاتل الطالبين.

(٤) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ٨٠).

ويناقض بعض كتاب الشيعة كلام مغنية، فقد ذكر الشيخ لطف الله الصافي أن
أبا حنيفة روى ثلاثمائة حديث^(١).

قال ابن خلدون رحمته: « وقد تقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان
قليل البضاعة في الحديث، فلهذا قلت روايته. ولا سبيل إلى هذا المعتقد في كبار الأئمة،
لأن الشريعة إنما تؤخذ من الكتاب والسنة، ومن كان قليل البضاعة في الحديث فيتعين
عليه طلبه... وأبو حنيفة إنما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف
رواية الحديث اليقيني إذا عارضها الفعل النفسي، وقلت من أجلها روايته فقل حديثه،
لا أنه ترك رواية الحديث متعمداً، فحاشاه من ذلك، ويدل على أنه من كبار المجتهدين
في علم الحديث اعتماد مذهبه بينهم والتعويل عليه واعتباره رداً وقبولاً، وأما غيره من
المحدثين وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم، والكمل عن اجتهاد، وقد
توسّع أصحابه من بعده في الشروط وكثرت روايتهم، وروى الطحاوي^(٢) فأكثر وكتب
مسنده وهو جليل القدر... فلا تأخذك ريبة في ذلك، فالقوم أحق الناس بالظن الجميل
بهم، والتماس الخراج الصحيحة لهم »^(٣).

ناهيك عن أن الإمام أبا حنيفة رحمته كان في العراق، بلد الوضع والوضاعين في
زمانه، وخصوصاً من غلاة الشيعة، فقد عاصر الإمام جعفر الصادق - رحمهما الله
تعالى - وأخذ عنه العلم، وما أخذ منه تحذيره من الكذابين الذين كانوا يكذبون على
لسانه، كما مر معنا.

- ذم ابن شبرمة:

وكذلك تنال إحدى الروايات من أحد علماء الأمة المجتهدين وهو ابن شبرمة: « عن

(١) الشيخ لطف الله الصافي: مجموعة الرسائل (٣٠/٢): عن « ابن عدي إنه لم يرو إلا ثلاثمائة حديث،
بل قال ابن خلدون في مقدمته: يقال: إنه إنما بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثاً أو نحوها إلى خمسين ».
(٢) الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة (ت ٣٢١) صاحب كتاب (اختلاف العلماء) وهو
سفر كبير ضخيم في الفقه المقارن، وله (مشكل الآثار). محدث شارك مسلماً وأبا داود وابن ماجه في بعض
الرواة كهارون بن سعيد الأيلي، وأخذ عنه النسائي، كما تتلمذ عليه جماعة من أهل الجرح والتعديل،
كابن عدي، وابن يونس، والطبراني، وله كتاب (التاريخ الكبير) في علم الرجال. انظر: مقدمة مختصر
اختلاف العلماء لأبي بكر الجصاص الرازي (٣٦/١).

(٣) مقدمة ابن خلدون (ص ٤٤٤، ٤٤٥). دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط ٤).

أبي شيبة قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « ضلَّ عِلْمُ ابنِ شبرمة » (١).

- ذم أعلام الصوفية:

ولم أجد في الروايات المنقولة عن أئمة الاثني عشرية ذمًا لمشاهير الصوفية كما وجدت ذمًا لمشاهير الفقهاء، وهذا أمر منطقي؛ إذ الفكر الصوفي متأخر في تشكله وتبلوره عن الفقه وعن حياة الشيعة الأوائل، ولكن هذا لا يعني أن الاثني عشرية يوادون الصوفية، بل هم من الشائنين لهم، رغم أن الصوفية يقرّون بفضل آل بيت النبي صلى الله عليه وآله، بل من المتصوفة من التصق بالفكر الشيعي من حيث لا يشعر، ولكن ذلك لن يولد له عند الاثني عشرية حبًا ولا قربًا، فهذا شارح نهج البلاغة حبيب الخوثي يقول: « مذاهب الصوفية بحذافيرها مخالفة لمذهب الشرعة الإمامية الحقة، شيد الله بنيانه وأحكم قواعده وأركانه، كما ظهر لك أن الآيات والأخبار في لعنهم وطعنهم والتعريض والازدراء عليهم - لعنهم الله تعالى - متضافرة، وأن الأخبار التي تمسكت بها هذه الفئة الضالة المبتدعة المطرودة الملعونة إما موضوعة مجعولة أو متشابهة مؤولة أو ضعيفة سخيفة... فرضوا بالشبلي والغزالي وابن العربي وجنيد أئمة... خذلهم الله - تعالى - في الدنيا، وضاعف عليهم العذاب في العقبى » (٢).

وعندما يتحدث الأشتياني - المعاصر - عن (التفكير العقلي والفلسفي في الإسلام) يتعجب من حرب حجة الإسلام الغزالي للفلسفة على الرغم من أن آثار الغزالي مليئة بتمجيد العقل ودوره، ولكن يعزو الأشتياني ذلك إلى ما يزعمه من تعصب حجة الإسلام الغزالي لمذهب الأشاعرة، ويتهمه بوضعه لحديث « إن الله تجلى للناس عامة ولأبي بكر خاصة » (٣)، فيقول: « فتشت عن مصدر هذه الرواية كثيرًا إلا أنني لم أجدها، لا أعلم لعله هو الذي وضعها » (٤)، ونحن نعلم أن بضاعة الإمام الغزالي في

(١) أصول الكافي (١٠٤/١) كتاب فضل العلم، باب البدع والرأي والمقائيس. في حين سمعت محاضرة لأحد علماء الشيعة وهو د. جناتي يمتدح علماء المسلمين ومنهم ابن شبرمة على أساس أنهم كانوا لا يجدون غضاضة في الاختلاف في الاجتهاد!

(٢) حبيب الله الهاشمي الخوثي: منهاج البراعة في شرح نهج البلاغة (٢١/١٤). وإن كان المتخصصون بالعرفان، وهو مصطلح شيعي قريب من معنى التصوف - لا يألون جهدًا في الاستفادة من أفكار التصوف السني، كاستشهاد الخميني بابن عربي.

(٣) ذكره الغزالي في: معارج القدس في مدارج معرفة النفس (ص ١٦٠)، دار الآفاق الجديدة - بيروت.

(٤) يعزو هذا الحديث إلى مقدمة كتاب الغزالي: جواهر القرآن، انظر: جلال الدين الأشتياني: التفكير العقلي =

علم الحديث كانت مزجاة كما قال الغزالي نفسه، ولذلك لا تخلو كتبه من أحاديث ضعيفة وربما موضوعة، استدعت من بعض علماء الحديث تعقّب الأحاديث في مؤلفاته - كما فعل الحافظ العراقي عندما خرّج أحاديث كتابه: (إحياء علوم الدين)، وسماه (المغني عن حمل الأسفار.. إلخ)، ولكن هذا لا يعني أن الغزالي وضّاع للأحاديث. ولا ندرى ربما كان موقف الغزالي من التشيع ونظرية الإمامة في كتابه (فضائح الباطنية) وراء هذا الموقف السلبي للأشتياني منه.

والعجيب أن تجد أهل السنة، المذهبيين أتباع المذاهب الفقهية الأربعة، والمغريين في الصوفية بشتى طرقهم، والسلفيين على اختلاف مشاربهم، يختلفون ويتهاجون^(١). وكلهم سواء في نظر الاثني عشرية، حيث يصل إليهم جميعاً من كثير من علماء الشيعة التكفير والازدراء. ويستثمر الاثنا عشرية خلافاً هذه المدارس السنيّة للطعن على مذهب أهل السنة، ويستغلون النقد الداخلي في هذه المدارس المتنوعة (الأشاعرة، السلفية، المذهبيين، اللامذهبيين، الصوفية... إلخ) فيجمعون تلك الانتقادات التي يطرحها أهل السنة فيما بينهم، ليوجهوها إلى أهل السنة أجمعين^(٢).

- شتم أعلام الأمة المسلمة من الخلفاء والحكّام:

وكذلك الشتم واضح في حق الخلفاء، خلفاء بني أمية والعباسيين، قال الخميني: « وها هو التاريخ يحدثنا عن جهال حكموا الناس بغير جدارة ولا لياقة، هارون الرشيد أي ثقافة حازها، وكذلك من قبله ومن بعده! »^(٣).

= والفلسفي في الإسلام (ص ١٩٠ - ١٩٦)، ضمن مجلة المحجة: مجلة فصلية متخصصة تعنى بشؤون الفكر الديني والفلسفة الإسلامية المعاصرة، تصدر عن المعهد الإسلامي للمعارف الحكيمية بالتعاون مع دار الهادي، العدد الأول تشرين أول (٢٠٠١ م / ١٤٢٢ هـ) - بيروت.

(١) أما عن ذمهم للفكر السلفي المعاصر، فهو أمر لا يحتاج إلى بيان، انظر: مثلاً مؤلفات الشيخ جعفر سبحاني عن السلفية. وكتاب (مع الوهابية في خططهم وعقائدهم)، وقد لعب العامل السياسي دوره في إذكاء الحرب بين الشيعة والسلفيين (الوهابية) بسبب حرب الخليج الأولى بين إيران والعراق، ومن ورائها دول الخليج، وتحولت المراكز الثقافية للجانبين إلى ساحات معارك فكرية بين الاتجاهين.

(٢) وعلى سبيل المثال: ينشرون في الأقراص الليزرية إلى جانب الكتب المهمة الفقهية والعقدية كتب الردود بين أهل السنة، فينشرون مثلاً: نقد ابن السبكي لابن القيم (.. في الرد على ابن زفيل)، ونقد السقاف الأشعري المعاصر للسلفيين، وكتاب (الرد على الألباني المتبدع) لعبد الله بن صديق الغماري ليضربوا أهل السنة بعضهم ببعض!

(٣) الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ١٣٣).

وإذا حفظ التاريخ لنا مكانة صلاح الدين المجاهد العظيم الذي وُحِدَ المسلمين من شتاتهم وحارب الفرنجة؛ فإن مغنية له فيه رأي آخر، إذ يقول عن مخلص القدس من الصليبيين: « لقد حمل الأيوبي معه إلى مصر وسورية تيارًا هائلًا من التعصب الأعمى، وكل تعصب أعمى - كان له أسوأ الأثر في حياة المسلمين وما زالوا يعانون منه حتى اليوم ». ويتهم صلاح الدين أيضًا بأنه قتل الشيعة واستأصلهم في مصر (١).

وهذا القول منه قمة التعصب، فقد كان المذهب الإسماعيلي المذهب الرسمي للدولة العبيدية الدخيلة على مصر، ولم يكن مذهب العامة في مصر؛ ولذلك ذهب هذا المذهب بذهاب دولته، وما ذكره عن اضطهاد صلاح الدين للشيعة فلم يثبت، وإنما المعروف تاريخيًا أن صلاح الدين رحمته الله افتتح المدارس السننية ونشرها ليعلم الناس دينهم، ثم إن الإسماعيلية في نظر الاثني عشرية معدودون من الغلاة، حتى إن الحاكم بأمر الله ادعى الإلهية، فكيف يتأسف مغنية على ذهابهم؟ وقد كان موقف آل البيت من الغلاة موقف اللعن والطرود والإبعاد.

ثم من نظرة سياسية: هل كان صلاح الدين ليصل إلى ما وصله من توحيد الشام ومصر ثم تحرير القدس لولا إسقاطه الخلافة الفاطمية التي كانت تتآمر مع الصليبيين؟ (٢).

لقد تحول صلاح الدين ومن قبله عمر بن عبد العزيز ومن قبله عمر بن الخطاب إلى رموز للأمة المسلمة عند المسلمين وغيرهم، فلمصلحة من يحاول مغنية وأمثاله أن يكسروا رموز الإسلام ورجاله، المشهورين - حتى عند الغربيين - بالعدالة والشهامة والتقوى؟.

- شتم الأمة كلها ولعنها:

عن سدير الصيرفي قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: « إنَّ في صاحب هذا الأمر شَبَهًا من يوسف عليه السلام قال: قلت له: كأنك تذكره حياته أو غيبته قال فقال لي: وما ينكر من ذلك هذه الأمة أشباه الخنازير، إنَّ إخوة يوسف عليه السلام كانوا أسباطًا أولاد الأنبياء تاجروا يوسف وبايعوه وخاطبوه وهم إخوته وهو أخوهم فلم يعرفوه حتى قال: أنا يوسف وهذا أخي، فما تنكر هذه الأمة الملعونة أن يفعل الله تعالى بحجته في وقت من الأوقات كما فعل بيوسف عليه السلام » (٣).

(١) محمد جواد مغنية: الشيعة في الميزان (ص ١٧٣).

(٢) انظر تفصيل حياة صلاح الدين في مصر: شاعر مصطفى: صلاح الدين، دار القلم - دمشق.

(٣) أصول الكافي (١/٦٢) كتاب الحججة، باب في الغيبة. قال محقق أصول الكافي: والحديث حسن!!

- اتهام المسلمين بأنهم أولاد زنا، واتهام مكاسبهم بالخبث والحرمة:

عن علي بن أسباط يرفعه إلى أبي عبد الله عليه السلام قال: « إن الله تبارك وتعالى يبدأ بالنظر إلى زوار قبر الحسين بن علي عليه السلام عشية عرفة قال: قلت: قبل نظره إلى أهل الموقف، قال: نعم، قلت: وكيف ذلك، قال: لأن في أولئك أولاد زنا، وليس في هؤلاء أولاد زنا » (١).

وعن أبي حمزة، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: إن بعض أصحابنا يفترون ويقذفون من خالفهم؟ فقال لي: الكف عنهم أجمل (٢)، ثم قال: والله يا أبا حمزة إن الناس كلهم أولاد بغايا ما خلا شيعتنا. قلت: كيف لي بالخرج من هذا؟ فقال لي: يا أبا حمزة كتاب الله المنزل يدل عليه أن الله تبارك وتعالى جعل لنا أهل البيت سهاما ثلاثة في جميع الفيء، ثم قال عليه السلام: ﴿ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآبِئِ السَّبِيلِ.. ﴾ [الأنفال: ٤١]، فنحن أصحاب الخمس والفيء، وقد حرمناه على جميع الناس ما خلا شيعتنا. والله! يا أبا حمزة ما من أرض تفتح ولا خمس يخمس فيضرب على شيء منه إلا كان حراما على من يصيبه فَرَجًا كان أو مالا... وقد أخرجونا وشيعتنا من حقنا ذلك بلا عذر ولا حق ولا حجة » (٣).

وعن ميثم بن أبي يحيى، عن جعفر بن محمد عليه السلام قال: « ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالة بحضرته، فإن علم الله أنه من شيعتنا حجه من ذلك الشيطان، وإن لم يكن من شيعتنا أثبت الشيطان إصبعه السبابة في دبره فكان مأبوتا (٤)، فإن كان امرأة أثبت في فرجها فكانت فاجرة، فعند ذلك يبكي الصبي بكاء شديدا إذا هو خرج من بطن أمه، والله بعد ذلك يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب » (٥).

(١) الشيخ الصدوق: معاني الآثار (ص ٣٩١، ٣٩٢)، تحقيق علي أكبر غفاري، طبعة انتشارات إسلامي، المجلسي: بحار الأنوار (٨٥/٩٨)، والحر العاملي: وسائل الشيعة (٤٦٢/١٤)، والنوري الطبرسي: مستدرک الوسائل (٢٨٣/١٠) .

(٢) قال محقق هذا الحديث عن هذه العبارة: « بأنه لا ينبغي لهم ترك التقية »، فلم يفهم من نهى الإمام عن القذف النهي لمجرد كونه فعلا منهجا عنه شرعا، بل فهم أن النهي إنما لأنه خروج عن التقية، لا لدافع أخلاقي !! .

(٣) الكليني: الكافي (٢٨٥/٨) . بحار الأنوار (٣١١/٢٤)، وسائل الشيعة (٣٧/١٦) .

(٤) المأبوت: هو الرجل الخنث الذي انقلبت شهوته إلى دبره. انظر: لسان العرب (٣٧٥/١) .

(٥) تفسير العياشي (٢١٨/٢)، المجلسي: بحار الأنوار (١٢١/٤)، نعمة الله الجزائري: نور البراهين (٢٢٠/٢)، الحويزي: تفسير الثقلين (٥١٣/٢) .

وتعلل إحدى الروايات أن من سبب اشتهاار الزنا في المخالفين عدم دفعهم للخمس إلى أئمة أهل البيت: عن ضريس الكتاسي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: « من أين دخل على الناس الزنا؟ قلت: لا أدري جعلتُ فداك! قال: من قبل خمسننا أهل البيت إلا شيعتنا الأطينين فإنه محلل لهم لميلادهم » (١).

وتنص إحدى الروايات على أنه لا يأكل الحلال إلا الاثنا عشرية، أتباع الأئمة، وتفسيرهم لذلك أنه لما كانت الأرض ملكاً للأئمة بنص الإمام الصادق، وغير الشيعة لا يدفعون الخمس إلى الأئمة ولا إلى وكلائهم، فهم إذن يأكلون الحرام، عن الصادق: « يا أبا ستار إن الأرض كلها لنا فما أخرج الله منها من شيء فهو لنا... وكل ما في أيدي شيعتنا من الأرض فهم فيه محللون حتى يقوم قائمنا فيجيئهم... وأما ما كان في أيدي غيرهم فإن كسبهم من الأرض حرام عليهم حتى يقوم قائمنا فيأخذ الأرض من أيديهم ويخرجهم صغرة، قال عمر بن يزيد: فقال لي أبو ستار: ما أرى أحداً من أصحاب الضياع ولا تمن يلي الأعمال يأكل حلالاً غيري إلا من طيئوا له ذلك » (٢).

- دعوى سلب شهادة (لا إله إلا الله) من المخالفين يوم القيامة:

عن أبان بن تغلب، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « يا أبان إذا قدمت الكوفة فارو هذا الحديث: من شهد أن لا إله إلا الله مخلصاً وجبت له الجنة، قال: قلت له: إنه يأتيني من كل صنف من الأصناف أفأروي لهم هذا الحديث؟ قال: نعم، يا أبان إنه إذا كان يوم القيامة وجمع الله الأولين والآخرين فتسلب لا إله إلا الله منهم إلا من كان على هذا الأمر » (٣).

- بغض العرب في بعض روايات الاثني عشرية:

ثم ما هذا الإصرار على ذم العرب في بعض الروايات؟ وهل تكون تلك الروايات دليلاً على العامل الخارجي الفارسي في تطور الفكر الشيعي؟:

عن ابن أبي يعفور قال: « سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ويل لطفاعة العرب من أمرٍ قد اقترب. قلت: جعلت فداك كم مع القائم من العرب؟ قال: نفرّ يسير. قلت: والله!

(١) الكليني: أصول الكافي (٦٢٦/١) كتاب الحجّة، باب صلة الإمام. والحديث حسن، أي تزكو ولادتهم وتطيب ذرياتهم.

(٢) أصول الكافي (٤٧٤/١)، كتاب الحجّة، باب في أن الأرض كلها للإمام عليه السلام. والحديث صحيح.

(٣) أصول الكافي (٤٨٩/٢) كتاب الدعاء، باب من قال لا إله إلا الله مخلصاً. قال محققه: الحديث موثق.

إنَّ من يصف هذا الأمر منهم لكثيرٍ، قال: لا بدَّ للناس من أن يَحْصُوا ويمَيِّزُوا ويغرِبلُوا ويستخرج في الغرِبال خلقٌ كثيرٌ» (١).

ويروي الشيعة أن من أعمال القائم، المهدي المنتظر، قتلَ العرب: عن أبي عبد الله قال: « ما بقي بيننا وبين العرب إلا الذبح » (٢).

وعن أبي عبد الله قال: « اتق العرب، فإن لهم خبر سوء، أما أنه لم يخرج مع القائم منهم أحد » (٣).

وعنه: إذا قام القائم من آل محمد، أقام خمسمائة من قريش فضرب أعناقهم، ثم أقام خمسمائة فضرب أعناقهم، ثم خمسمائة حتى يفعل ذلك ست مرات » (٤).

عن أبي جعفر قال: « لو يعلم الناس ما يصنع القائم إذا خرج لأحب أكثرهم ألا يروه، مما يقتل من الناس، أما إنه لا يبدأ إلا بقريش فلا يأخذ منها إلا السيف، ولا يعطيها إلا السيف حتى يقول كثير من الناس ليس هذا من آل محمد، لو كان من آل محمد لرحم » (٥).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: « إنه قال لي أبي... والله لكأنني أنظر إليه - أي المهدي المنتظر - بين الركن والمقام يبايع الناس على كتاب جديد، على العرب شديد، وقال: ويل لطغاة العرب من شر قد اقترب » (٦).

وفي رواية أخرى أيضًا: « يقوم القائم بأمر جديد، وكتاب جديد، وقضاء جديد، على العرب شديد، ليس شأنه إلا السيف، لا يستتیب أحدًا، ولا يأخذه في الله لومة لائم » (٧).

- أهل مكة والمدينة والشام:

من صفات منهج القرآن الكريم أنه ذم الأوصاف والأفعال البغيضة، ولم يذم الأشخاص إلا نادرًا، ممن سبق العلم الإلهي بعدم إسلامهم كأبي لهب، فاللعنة على

(١) أصول الكافي (٤٣١/١) كتاب الحجّة، باب التمهيص والامتحان.

(٢) بحار الأنوار (٣٤٩/٥٢).

(٣) الطوسي: الغيبة (ص ٤٧٦)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٣٣/٥٢).

(٤) الشيخ المفيد: الإرشاد (٣٨٣/٢)، المجلسي: بحار الأنوار (٣٣٨/٥٢). الشيخ علي الكوراني: معجم

أحاديث المهدي (٤٢/٤).

(٥) بحار الأنوار (٣٥٤/٥٢).

(٦) محمد بن إبراهيم النعماني: كتاب الغيبة (ص ١٩٤) تحقيق علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق،

طهران. بحار الأنوار (١٣٥/٥٢).

(٧) محمد بن إبراهيم النعماني: كتاب الغيبة (ص ٢٣٣).

الأوصاف: ﴿ فَلَمَنَّا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٨٩]، ﴿ لَمَنَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤، هود: ١٨]، ﴿ لَمَنَّا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٦١] .

أما في الكافي فاللعن يوصف به أهل الأماكن التي ورد عند أهل السنة فضلها: عن سليمان بن خالد عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « أهل الشام شرٌّ من أهل الروم، وأهل المدينة شرٌّ من أهل مكة، وأهل مكة يكفرون بالله جهرةً »^(١). وفي رواية: « وأهل المدينة أخبث من أهل مكة، أخبث منهم سبعين ضعفاً »^(٢).

قال المازندراني معللاً هذا النص: « الخيرية والشرية لهذه الأمة باعتبار الإيمان ومحبة أهل البيت عليهم السلام وباعتبار الكفر وعداوتهم... وداوة أهل الشام لما كانت أكثر من عداوة أهل الروم كان شرهم أكثر من شرهم، وكذلك أهل المدينة بالنسبة لأهل مكة، يكفرون بالله جهرة لأنهم ينكرون الأوصياء صريحاً »^(٣).

ولا عجب إذا اختل الميزان عند أصحاب هذه الروايات أن يكون الكفار - وهم أهل الروم - أقرب إليهم من أهل مكة والمدينة والشام، وهم أهل حواضر الإسلام الأولى، وهي حواضر الإسلام الأولى، ولا عجب بعد ذلك ما سنقرؤه في التاريخ من التآمر مع الروم (الفرنجية) على بلاد المسلمين.

- تقديس أهل قم والثناء على أهل الكوفة:

وجاء في المصادر التي ذمت أهل بلاد الإسلام نفسها مديح أهل قم، فقد: دخل عمران بن عبد الله القمي على جعفر الصادق، « فسأله وبره وبشّه، فلما قام قلت لأبي عبد الله: من هذا الذي بررت به هذا البر؟ فقال: من أهل البيت النجباء يعني أهل قم، ما أرادهم جبار من الجبابرة إلا قصمه الله »^(٤).

وعن أبي الحسن الرضا قال: « إنّ للجنة ثمانية أبواب، ولأهل قم واحد منها فطوبى لهم ثم طوبى »^(٥) و « هم خيار شيعتنا من بين سائر البلاد، خمر الله تعالى ولايتنا في

(١، ٢) أصول الكافي (٣٩٠/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب في صنوف أهل الخلاف وذكر القدرية والخوارج والمرجئة وأهل البلدان، وقال محققه: والحديث موثق.

(٣) شرح المازندراني (١٠٨/١٠).

(٤) المجلسي: بحار الأنوار (٢١١/٥٧)، الشيخ المفيد: الاختصاص (ص ٦٩).

(٥) بحار الأنوار (٢١٥/٦٠)، سفينة البحار (٤٤٦/١).

طبتهم»^(١)، وجاء في رواية أخرى: «إن أهل مدينة قم يحاسبون في حفرهم ويحشرون من حفرهم إلى الجنة»^(٢).

وواضح أن هذا المديح لأهل قم لأنهم من الشيعة، وكذلك مديح أهل الكوفة، «إن الله عرض ولايتنا على أهل الأمصار فلم يقبلها إلا أهل الكوفة»^(٣). وهنا يظهر تناقض الأخبار، فقد مر في المبحث السابق ذم كبار الأئمة لأهل الكوفة؛ لتخاذلهم عن نصره أسيادنا علي والحسن والحسين. فقد قال عنهم الإمام زين العابدين: يا أهل الكوفة، إنكم تكون علينا، فمن قتلنا غيركم؟^(٤).

ثم رأيت لو غير أهل مكة والمدينة والشام ومصر عقيدتهم - لا قدر الله - ودانوا بدين الاثني عشرية ألا تبقى هذه الروايات وصمة عار في حقهم؟ وحاشا أحفاد النبي الأعظم ﷺ أن يزينوا بهذا الميزان المختل.

وقد علمنا القرآن أن تعميم الأحكام خطأ جسيم، وأن الإنصاف في ترك التعميم حتى مع أشد الناس عداوة للمؤمنين فقال تعالى: ﴿وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ بِقِطَارٍ يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنَ إِن تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّيهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوتِ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٥].

ومن علامات الإنصاف عند محدثي أهل السنة والجماعة أن رواياتهم تبين مديحا ليس لأهل قم وحدهم، بل تشمل كل أهل فارس، ولو كانت الأحاديث النبوية تكتب بالأهواء لما وجدت هذه الأحاديث المادحة لأهل فارس، رداً على روايات أهل التشيع في ذم بلاد الإسلام الأخرى. مما يدل على عدم عنصرية أهل السنة، فقد أخرج الحديث الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لو كان الدين عند الثريا لذهب به رجل من فارس - أو قال - من أبناء فارس، حتى يتناوله»^(٥).

(١) بحار الأنوار (٢١٦/٦٠).

(٢) بحار الأنوار (٢١٨/٦٠)، عباس القمي: الكنى والألقاب (٧١/٣).

(٣) بحار الأنوار (٢٠٩/٦٠).

(٤) انظر: تقديم الشيخ محب الدين الخطيب لمختصر التحفة الاثني عشرية للسيد محمود شكري الألوسي، وأصله لشاه عبد العزيز غلام حكيم الدهلوي.

(٥) صحيح البخاري: كتاب التفسير، باب قوله: ﴿وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا﴾ [الجمعة: ٣] رقم (٤٦١٥)،

وأخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب فضل فارس رقم (٢٥٤٦). وقد جاء الأمر واقعياً كما أخبر النبي ﷺ، فكثير من علماء الحديث المشهورين ليسوا عربياً، بل هم من تلك البلاد وما جاروها، فالبخاري من بخارى =

- اتهام أهل الكنانة وبهتهم:

تقول الروايات واضحة الكذب والبهتان: « أبناء مصر لعنوا على لسان داود عليه السلام، فجعل الله منهم القردة والخنازير »^(١)، « وما غضب الله على بني إسرائيل إلا أدخلهم مصر، ولا رضي عنهم إلا أخرجهم منها إلى غيرها »^(٢). و « بس البلاد مصر! أما إنها سجن من سخط الله عليه من بني إسرائيل »^(٣). و « انتحوا مصر لا تطلبوا المكث فيها، ولا أحسبه إلا قال: وهو يورث الديانة »^(٤). وفي رواية أخرى: « لا تأكلوا في فخارها ولا تغسلوا رؤوسكم بطينها، فإنه يذهب بالغيرة، ويورث الديانة »^(٥)!.

قارن هذه الروايات البغيضة بما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم في مديح أهل مصر وجندها والوصية بهم، مما اشتهر عند أهل السنة، عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يسمى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسنوا إلى أهلها، فإن لهم ذمة ورحمًا. أو قال: ذمة وصهرًا »^(٦). أما الرحم فلأن هاجر أم إسماعيل عليه السلام من مصر، وأما الصهر فلأن والده ابن النبي صلى الله عليه وسلم إبراهيم (مارية القبطية) من مصر أيضًا.

- اتهام الأكراد بأنهم من الجن!

تقول إحدى الروايات المزعومة أن جعفرًا الصادق سئل عن مخالطة الأكراد « يجيئونا بالبيع ونباعهم، فقال: لا تخالطهم فإن الأكراد حي من الجن كشف عنهم الغطاء، فلا تخالطهم »^(٧).

- كراهة الناس أجمعين واتهامهم بالمشخ:

وهناك رواية تذكّرنا بما ذكره حاخامات اليهود في التلمود من أن غير اليهود ليسوا

= ومسلم من نيسابور وكذلك الحاكم، وابن ماجه من قزوين، وأبو داود من سجستان، والنسائي من نسا، والترمذي من ترمذ،... إلخ. رحمهم الله تعالى.

(١) بحار الأنوار (٢٠٨/٦٠)، تفسير القمي (ص ٥٩٦) ط: إيران.

(٢) بحار الأنوار (٢٠٨/٦٠، ٢٠٩)، قرب الإسناد (ص ٢٢٠)، تفسير العياشي (٣٠٤/١)، البرهان (٤٥٦/١).

(٣) تفسير العياشي (٣٠٥/١)، بحار الأنوار (٢١٠/٦٠)، البرهان (٤٥٧/١).

(٤) بحار الأنوار (٢١١/٥٧)، النوري الطبرسي: مستدرک الوسائل (٢٩٠/١٣)، البروجردي: جامع

أحاديث الشيعة (١٤١/١٧).

(٥) الكليني: الكافي (٣٨٦/٦)، المجلسي: بحار الأنوار (٢٠٩/٥٧).

(٦) صحيح مسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب وصية النبي بأهل مصر رقم (٢٥٤٣).

(٧) الصدوق: علل الشرائع (ص ٥٢٧).

بشراً، إنما هم في صورة البشر ليستأنس بهم اليهود^(١)، تقول رواية بحار الأنوار بصورة مشابهة لرواية التلمود: « عن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام: أنا مولاك ومن شيعتك، ضعيف البصر، اضمن لي الجنة. قال: أو لا أعطيك علامة الأئمة؟ قلت: وما عليك أن تجمعها لي؟ قال: وتحب ذلك؟ قلت: كيف لا أحب؟ فما زاد أن مسح على بصري فأبصرت جميع ما في السقيفة التي كان فيها جالساً، قال: يا أبا محمد! هذا بصرك، فانظر ما ترى بعينك، قال: فوالله ما أبصرت إلا كلباً وخنزيراً وقرداً، قلت: ما هذا الخلق الممسوخ؟ قال: هذا الذي ترى، هذا السواد الأعظم^(٢)، ولو كشف الغطاء للناس ما نظر الشيعة إلى من خالفهم إلا في هذه الصورة، ثم قال: يا محمد، إن أحببت تركتك على حالك هكذا وحسابك على الله، وإن أحببت ضمنت لك على الله الجنة ورددتك على حالك الأول، قلت: لا حاجة لي إلى النظر إلى هذا الخلق المنكوس، ردني فما للجنة عوض، فمسح يده على عيني فرجعت كما كنت^(٣) ».

– الكراهة الشديدة للمخالفين ولو كانوا من أهل البيت النبوي:

وإذا كان الاثنا عشرية يضربون على وتر أهل البيت، فإنهم أنفسهم يخالفون آل البيت، إذ يجعلون هذه المحبة مقصورة على اثني عشر رجلاً منهم، في حين يكيلون الدم والشتم لباقي آل البيت.

فأين أبناء الحسن بن علي في قاموس محبتهم وولائهم، وأين أولاد العباس وعقيل وجعفر...؟ إن هؤلاء لهم في قاموس الاثني عشرية الكراهة والبغض، كما تشير إليه هذه الرواية وأمثالها:

عن الكلبي التّشابهة قال: دخلت المدينة ولست أعرف شيئاً من هذا الأمر، فأُتيت المسجد فإذا جماعة من قريش فقلت: أخبروني عن عالم أهل هذا البيت فقالوا: عبد الله ابن الحسن فأُتيت منزله فاستأذنت، فخرج إليّ رجلٌ ظننت أنه غلامٌ له فقلت له: استأذن لي على مولاك فدخل ثم خرج فقال لي: ادخل. فدخلت فإذا أنا بشيخٍ معتكفٍ شديد

(١) يتفنن حاخامات اليهود بوصف غير اليهود بأن « أرواحهم مصدرها الروح النجسة، خنازير نجسة، تسكن الغابات، وخلق الله الأجنبي على هيئة الإنسان ليكون لائقاً لخدمة اليهود الذين خلقت الدنيا لأجلهم » انظر: الكنز المرصود في فضائح التلمود، للأستاذ الدكتور محمد عبد الله الشراقوي (ص ٢٠٤ - ٢٠٦). مكتبة الوعي الإسلامي (١٩٩٠م).

(٢) هذا السواد الأعظم، الذي جاءت روايات أهل السنة بالتمسك به!

(٣) المجلسي: بحار الأنوار (٣٠/٢٧).

الاجتهاد فسلمت عليه، فقال لي: من أنت؟ فقلت: أنا الكلبيّ التّسابه فقال: ما حاجتك؟ فقلت: جئت أسألك فقال: أمرت بابني محمّد؟ قلت: بدأت بك فقال: سل فقلت: أخبرني عن رجلٍ قال لامرأته: أنت طالق عدد نجوم السماء. فقال: تبين برأس الجوزاء والباقي ورزّ عليه وعقوبة، فقلت في نفسي: واحدة فقلت: ما يقول الشيخ في المسح على الخفين؟ فقال: قد مسح قومٌ صالحون ونحن أهل البيت لا نمسح. فقلت في نفسي: ثنتان، فقلت: ما تقول في أكل الجزّي؟ أحلالٌ هو أم حرام؟ فقال: حلالٌ إلا أنا أهل البيت نعافه. فقلت في نفسي: ثلاث، فقلت: فما تقول في شرب التّبيز؟ فقال: حلالٌ إلا أنا أهل البيت لا نشربه. فقمت فخرجت من عنده وأنا أقول هذه العصابة تكذب على أهل هذا البيت، فدخلت المسجد فنظرت إلى جماعةٍ من قريشٍ وغيرهم من الناس فسلمت عليهم ثم قلت لهم: من أعلم أهل هذا البيت؟ فقالوا: عبد الله بن الحسن. فقلت: قد أتيتك فلم أجد عنده شيئاً. فرفع رجلٌ من القوم رأسه فقال: انت جعفر ابن محمّد ﷺ فهو أعلم أهل هذا البيت، فلامه بعض من كان بالحضرة فقلت: إنّ القوم إنّما منعهم من إرشادي إليه أوّل مرّة الحسد فقلت له: ويحك إياه أردت « (١).

فلاحظ كراهة الشيعة لآل الحسن، لا لشيء إلا أنهم على مذهب أهل السنة، إذ أجوبة عبد الله بن الحسن تدل على أنه على فقه أهل السنة. وكذلك فعلوا من قبل بمحمد ابن الحنفية فاتهموه بأنه أراد الإمامة لنفسه، « فقال له: يا ابن أخي... وأنا عمك وصنو أبيك وولادتي من علي ﷺ في سنيّ وقديمي أحقّ بها منك في حدائتك فلا تنازعني في الوصيّة والإمامة ولا تحاجني، فقال له عليّ بن الحسين ﷺ: يا عم! اتق الله ولا تدع ما ليس لك بحق، إني أعظك أن تكون من الجاهلين... فلا تعرّض لهذا فيأتي أخاف عليك نقص العمر وتشتت الحال... فانصرف محمّد بن عليّ وهو يتولّى عليّ بن الحسين ﷺ بعد أن شهد الحجر الأسود لزين العابدين « (٢).

وكيف نستغرب هذا الموقف الاثني عشري الشديد من الأمة؟ ورجال الاثني عشرية الأوائل كان يكفر بعضهم بعضاً!!

استمع إلى ما يرويه الكشي، وعنه الطوسي « بأنه في سنة (١٩٠ هـ) اجتمع ستة عشر رجلاً في باب أبي الحسن الثاني، فقال له أحدهم ويدعى جعفر بن عيسى:

(١) أصول الكافي (٤١٠/١ ، ٤١١) كتاب الحجّة، باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

(٢) أصول الكافي (٤٠٩/١) كتاب الحجّة، باب ما يفصل به بين دعوى الحق والمبطل في أمر الإمامة.

« يا سيدي، نشكو إلى الله وإليك ^(١) ما نحن فيه من أصحابنا، فقال: وما أنتم فيه منهم؟ فقال جعفر: هم والله يزندقونا ويكفروننا ويتبرأون منا، فقال: هكذا كان أصحاب علي بن الحسين، ومحمد بن علي، وأصحاب جعفر، وموسى: صلوات الله عليهم، ولقد كان أصحاب زرارة يكفرون غيرهم، وكذلك غيرهم كانوا يكفرونهم.. » وقال يونس: « جعلت فداك إنهم يزعمون أنا زنادقة » ^(٢).

فإذا كانت هكذا أحوالهم فيما بينهم، فلا يبعد تصديق ما وقع في التاريخ من مناوشات وحروب بين الاثني عشرية والدولة الصفوية والدولة العثمانية، وكذلك ما وقع بينهم وبين طوائف الشيعة الأخرى كالتوائفة الدرزية، حيث يذكر التاريخ أنه « في سنة ألف ومائة وخمسين... وسنة سبع وخمسين كانت وقعة في مرج عيون بين الدروز والشيعة، وكانت الغلبة للشيعة... وفي سنة ست وثمانين صارت الوقعة في صيدا بين المتأولة والدروز وقتل من الدروز ثلاثة آلاف ومن المتأولة خمسة عشر رجلاً » ^(٣).

موقف الاثني عشرية من الحكم والقضاء الإسلامي والجهاد في سبيل الله:

- التحاكم إلى قضاة المسلمين تحاكم إلى الطاغوت، حسب روايات الاثني عشرية:

عن عمر بن حنظلة قال: « سألت أبا عبد الله عليه السلام عن رجلين من أصحابنا بينهما منازعة في دين أو ميراث فتحاكما إلى السلطان وإلى القضاة أيجل ذلك؟ قال: من تحاكم إليهم في حق أو باطل، فإتما تحاكم إلى الطاغوت، وما يحكم له فإتما يأخذ سحتاً وإن كان حقاً ثاباً؛ لأنه أخذه بحكم الطاغوت، وقد أمر الله أن يكفر به قال الله تعالى: ﴿ .. يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ... ﴾ [النساء: ٦٠] » ^(٤).

وقد جاء في وسائل الشيعة قول علي عليه السلام لأحد أشهر قضاة المسلمين: « يا شريح! قد جلست مجلساً لا يجلسه إلا نبي أو وصي نبي أو شقي » ^(٥).

(١) نهينا عن مثل هذه العبارة في الحديث الشريف، والصحيح: « نشكو إلى الله ثم إليك ». كما نبه الدكتور القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩١٠/٢).

(٢) رجال الكشي (ص ٤٩٨، ٤٩٩)، د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩١٠/٢).

(٣) السيد حسن الصدر (١٣٥٤ هـ): تكملة أمل الآمل (ص ٤٥٠، ٤٥١)، مكتبة آية الله المرعشلي - قم (١٤٠٦ هـ). والمتأولة كما علمت في مقدمة البحث من أسماء الاثني عشرية.

(٤) الكليني: أصول الكافي (١٢١/١، ١٢٢)، كتاب فضل العلم، باب اختلاف الحديث. واستدل به الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ٨٧)، وسماها مقبولة عمر بن حنظلة.

(٥) وسائل الشيعة، وقد استدل به الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ٧٤).

ورود أيضًا أن إياكم « أن تحاكموا إلى أحد من هؤلاء الفساق ».

وشرح الخميني المقصود بالفساق في هذه الرواية فقال: « والمقصود من الفساق القضاة الذين نصبهم ولاية الأمور في ذلك الوقت »^(١).

أما استلام مناصب الدولة الإسلامية، فإن بعض روايات الاثني عشرية تذكر أن جواز استلام المناصب لحكام المسلمين مشروط بمحاربة الشيعة، وظلم غيرهم:

عن جعفر الصادق أنه: « ذكر عنده رجل من هذه العصاة قد ولي ولاية، فقال: كيف صنيعته إلى إخوانه؟ قال: قلت: ليس عنده خير، فقال: أف يدخلون فيما لا ينبغي لهم، ولا يصنعون إلى إخوانهم خيرًا ».

وعن علي بن يقطين قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: « ما تقول في أعمال هؤلاء؟ قال: إن كنت لا بد فاعلاً فاتق أموال الشيعة، قال: فأخبرني علي أنه كان يجيئها من الشيعة علانية ويردها عليهم في السر »^(٢). وذكروا أن ابن يقطين صار وزير الرشيد، و « اجتمع في حبسه جملة من المخالفين، فأمر غلمانهم وهدموا أسقف الحبس على المحبوسين، فماتوا وكانوا خمسمائة رجل »^(٣)، ومدح الخوانساري في روضات الجنات فعله قائلاً: حتى سالت دماؤهم الأقدار كأمثال الأنهار « وذكر خبره الحر العاملي في أمل الآمل »^(٤).

وليس غريباً أن يفعل ابن يقطين هذا فقد سأل إمامه « موسى بن جعفر عن خدمة القوم [أي عامة المسلمين] فيما لا يثلم ديني، فقال: لا ولا نقطة قلم، إلا بإعزاز مؤمن [ومعلوم أن المؤمن عندهم الاثنا عشري فقط] وفكّه من أسرهِ »^(٥).

وترى الروايات أن « كل راية ترفع قبل راية القائم عليه السلام صاحبها طاغوت »^(٦). « وإن كان رافعها يدعو إلى الحق »، وحكم المجلسي على هذه الرواية بالصحة^(٧).

(١) الخميني: الحكومة الإسلامية (ص ٩٠). (٢) الكليني: فروع الكافي (١١٠/٥).

(٣) الجزائري: الأنوار النعمانية (٣٠٨/٢).

(٤) انظر حول ذلك: الأنوار النعمانية (٣٠٨/٢)، العاملي: الانتصار (١٢٥/٩)، عبد الله عبد الله الموصللي: حقيقة الشيعة (ص ٢٢).

(٥) المجلسي: بحار الأنوار (٣٧٩/٧٢).

(٦) أصول الكافي مع شرح المازندراني (٤١٠/١٢)، النعماني: كتاب الغيبة (ص ١١٤، ١١٥)، بحار الأنوار (١١٤/٢٥).

(٧) مرآة العقول (٣٧٨/٤)، انظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٨٩٦/٢).

وكل خروج على ظالم قبل مجيء المهدي غير مبرر، فإن هذا الخروج مذموم مقدوح في صاحبه ولو كان من آل البيت أنفسهم، فقد رواه عن محمد الباقر: قال: « مثل من خرج منا أهل البيت قبل قيام القائم مثل فرخ طار ووقع في كوة فتلاعبت به الصبيان » (١). فإذا كانت هذه الروايات تنطق بهذا الموقف السلبي فمن أين جاءت ثورة الحسين التي صارت مشعلاً يضيء للمستضعفين، ومن أين أخذت الثورة الإيرانية شرعيتها ومددها المعنوي في الخروج على شاه إيران، ومن أي عقيدة استلهم الإخوة في جنوب لبنان عقيدة الجهاد والاستشهاد في وجه الصهاينة الغاصبين؟!.

- القتال مع غير أئمة الشيعة حرام:

لقد جاءت روايات الحديث النبوي عند أهل السنة لتأمر الأمة بالصلاة وراء البرّ والفاجر والجهاد مع البرّ والفاجر ما دام الهدف وحدة الأمة وإعلاء راية الله تعالى. فقد قال ﷺ: « يا بلال! قم فأذن: لا يدخل الجنة إلا مؤمن، وإن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر » (٢). في حين جاءت بعض الروايات الاثني عشرية لتمنع الجهاد في سبيل الله تحت راية حكام غير الاثني عشرية، فعن أبي عبد الله قال: « القتال مع غير الإمام المفترض طاعته حرام مثل الميتة والدم ولحم الخنزير » (٣). فهل نسي هؤلاء أن علياً عليه السلام قاتل تحت راية أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم؟.

وأما حكم هؤلاء الشهداء المجاهدين فهم إلى جهنم: وعن عبد الله بن سنان قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام: « جعلت فداك ما تقول في هؤلاء الذين يقتلون في هذه الثغور؟ قال: فقال: الويل يتعجلون قتلة في الدنيا وقتلة في الآخرة » (٤).

ولأجل هذه الروايات قال محمد عرفة عضو هيئة كبار علماء الأزهر معلّقاً على هذه الرواية وأمثالها: « وهذا هو السر في رغبة الاستعمار في نشر هذا المذهب في البلاد الإسلامية » (٥). ذلك أنهم لا يرون حمل السلاح قبل ظهور المهدي، ويرون جهاد

(١) المجلسي: بحار الأنوار (١٣٩/٢٥).

(٢) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر، وكتاب القدر، باب العمل بالخواتيم رقم (٦٢٣٢)، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه، رقم (١١١).

(٣) فروع الكافي (١/٣٣٤)، تهذيب الأحكام (٢/٤٥)، وسائل الشيعة (١١/٣٢).

(٤) الطوسي: تهذيب الأحكام (٦/١٢٦)، وسائل الشيعة (١٥/٣١).

(٥) في مقدمة كتاب الوشيعة في نقد عقائد الشيعة لموسى جبار الله.

المسلمين من مخالفهم لا يجدي نفعًا بل هو تعجل الموت.
فيا فرحة المستعمرين بمثل هذه الآراء التي ما أظن الشيعة المظلومين في العالم يقرون بها؛ لأن محاربة الظلم أمر فطري.

ولذلك لا رهان على من لا يقاتل المحتلّ والغاصب تحت لواء قادة أمته، ويتسلى بالمقاومة السلمية ويزعم أنه بها ينكي عدوّه ويخرجه خاسمًا من دياره، ويجلس منتظرًا إمامه الموعود ليحمل يومها السلاح على عدوه، ومعظم الوقائع يبرهن على صدق هذه القاعدة، وما شذ عنها فيحتاج إلى دراسة متأملة لمعرفة السبب، فإن عرف السبب بطل العجب!

ورغم وضوح هذه الحقيقة في روايات الشيعة وعقول علماء الاثني عشرية؛ فإنهم خالفوا هذه الروايات وضعفوها عندما أرادوا السير وراء نظرية (ولاية الفقيه)؛ لأن هذه الروايات وأمثالها كانت عائقًا أمامهم، فهذا مصطفى الخميني يرد على مثل هذه الروايات ويضعفها في إحدى رسائله بعنوان (ولاية الفقيه) تحت عنوان: « حول بعض الروايات التي ربما تدل على اختصاص الحكومة والبيعة بالأئمة المعصومين ». وعدّد هذه الروايات، ثم قال: « ومنها غير ذلك مما يمكن أن يطلع عليه المتتبع، لكنه لا يجد إلا في مثل هذه الكتب المعدة لأسقاط الأحاديث كما لا يخفى »^(١). مع أن الرواية الأولى صححها المجلسي كما بيّنا، مما يدل على مزاجية التصحيح والتضعيف واللعب بالروايات حسب المصالح والرغبات.

موقف الاثني عشرية من الفرق الكلامية المختلفة:

أبين فيما يلي بشيء مختصر موقف الاثني عشرية من الفرق الكلامية المخالفة، كالمرجئة، والزيدية، والمعتزلة، والأشاعرة، والقدرية والخوارج وغيرهم، وأدعو الباحثين لتسليط الأضواء على أقوال الاثني عشرية في حقّ كل فرقة كلامية على حدة، وأقوال علماء هذه الفرقة الكلامية أو تلك في حقّ الاثني عشرية، وخصوصًا في زمان اختلطت فيه الأمور، وضيّعت فيه المفاهيم، وصاد من شاء في الماء العكر بهدف تكثير أتباع فرقته بالتدليس وتمييع الحدود بين الفرق الكلامية المختلفة.

(١) مصطفى الخميني: ثلاث رسائل، ولاية الفقيه (ص ٦٠، ٦١)، (١٤١٨ هـ)، (ط ١)، مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام مصطفى الخميني - قم.

- تكفير المرجئة والقدرية والخوارج:

ويعنون بالمرجئة أهل السنة، ولهذا تجد شيخهم المجلسي يشرح حديثهم الذي يقول: «اللهم العن المرجئة فهم أعداؤنا في الدنيا والآخرة»^(١). ويرجح أن المراد بالإرجاء في هذا النص تأخير علي عن الدرجة الأولى إلى الدرجة الرابعة من الخلفاء الراشدين^(٢).

و «عن أبي مسروق قال: سألتني أبو عبد الله عليه السلام عن أهل البصرة فقال لي: ما هم؟ قلت مرجئة وقدرية وحرورية فقال: لعن الله تلك الملل الكافرة المشركة التي لا تعبد الله على شيء»^(٣). قال محقق الكافي علي أكبر غفاري في تعليقه على هذا الحديث: «المرجئة: المؤخرون أمير المؤمنين عليه السلام عن مرتبته في الخلافة، أو القائلون: لا يضر مع الإيمان معصية»^(٤). ومعلوم أن كل أهل السنة يرون تقديم أبي بكر وعمر وعثمان على علي في الخلافة، وبالتالي فإن هذا اللعن موجه في هذه الرواية المزعومة إلى أهل السنة أجمعين.

وعن الفضيل قال: دخلت على أبي جعفر عليه السلام وعنده رجل، فلما قعدت قام الرجل فخرج فقال لي: «يا فضيل ما هذا عندك؟ قلت: وما هو؟ قال: حروري. قلت: كافر؟ قال: إي والله! مشرك»^(٥).

- تكفير المخالفين ووجوب قتلهم:

قال المفيد: «اتفقت الإمامية على أن أصحاب البدع كلهم كفار، وأن علي الإمام أن يستتيبهم عند التمكن بعد الدعوة لهم وإقامة البيئات عليهم، فإن تابوا عن بدعهم وصاروا إلى الصواب، وإلا قتلهم لردتهم عن الإيمان، وأن مات منهم على تلك البدعة فهو من أهل النار»^(٦).

(١) فروع الكافي مع شرحه: مرآة العقول (٣٧١/٤).

(٢) انظر: مرآة العقول (٣٧١/٤)، عن: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩٠٧/٢).

(٣) أصول الكافي (٣٦٩/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، وقال محقق أصول الكافي - وهو غير علي أكبر غفاري -: والحديث حسن موثق، وأورده مرة أخرى، باب: في صنوف أهل الخلاف وذكر القدرية والخوارج والمرجئة وأهل البلدان (٣٩٠/٢).

(٤) أصول الكافي، كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر وباب: في صنوف أهل الخلاف وذكر القدرية والخوارج والمرجئة وأهل البلدان، تحقيق علي أكبر غفاري (الهامش).

(٥) أصول الكافي (٣٧٠/٢) كتاب الإيمان والكفر، باب الكفر، قال عنه المحقق: حسن موثق.

(٦) أوائل المقالات (ص ١٦).

وقال المجلسي: « لا تجوز الصلاة على المخالف لجبر أو تشبيه أو اعتزال أو خارجية أو إنكار إمامة إلا للتقية، فإن فعل [يعني صلى عليه تقية] لعنه بعد الرابعة » (١).

- تكفير الزيدية ووصمهم بالنصب:

وإذا كان الزيدية يوافقون الاثني عشرية في بعض القضايا، كتفضيل أمير المؤمنين علي على باقي الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، فإن ذلك لم يشفع لهم عند الاثني عشرية، فلم يخرجوهم من دائرة التشيع فحسب، بل اعتبروهم « نواصب » (٢).

ولم يكتفوا بذلك، فقد جاء في رجال الكشي أن « الزيدية شر من النواصب » (٣). وذكر البحراني أن « الزيدية والواقفية والثصاب بمنزلة واحدة » (٤).

وقال المجلسي: « كتب أخبارنا مشحونة بالأخبار الدالة على كفر الزيدية وأمثالهم من الفطحية، والواقفة » (٥).

وجاء في بحار الأنوار أن المهدي المنتظر سيقتل أربعين ألفاً من الزيدية، « أصحاب المصاحف المعروفون بالزيدية... فيأمر بقتلهم فيقتلون جميعاً ثم يقول لأصحابه: لا تأخذوا المصاحف، ودعوها تكون عليهم حسرة كما بدلوها وغيروها وحرفوها » (٦).

وفي الكافي « عن عبد الله بن المغيرة قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: إن لي جارين أحدهما ناصب والآخر زيدي، ولا بدّ من معاشرتهما فمن أعاشر؟ فقال: هما سيان، من كذب بآية من كتاب الله فقد نبذ الإسلام وراء ظهره هو المكذب بجميع القرآن والأنبياء والمرسلين، ثم قال: إن هذا نصب لك، وهذا الزيدي نصب لنا » (٧). ولم يشفع للزيدية عندهم أنهم « دعوا إلى ولاية علي » (٨)، وأنهم كانوا من الشيعة، لأنهم « خلطوها بولاية أبي بكر وعمر » (٩).

(١) مرآة العقول (٧٢/٤، ٧٣).

(٢) انظر: الطوسي: التهذيب (٣٦٤/١)، الحر العاملي: الوسائل (٢٨٨/٤).

(٣) انظر: رجال الكشي (ص ٤٥٩)، انظر: د. القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٥٤/١).

(٤) الحدائق الناضرة (١٨٩/٥). (٥) المجلسي: بحار الأنوار (٣٤/٣٧).

(٦) المجلسي: بحار الأنوار (١٧/٥٣).

(٧) الكافي، كتاب الزوضة (٣٠٤/١٢) (مع شرحه للمازندراني).

(٨) بحار الأنوار (١٨١/٧٢).

(٩) بحار الأنوار (١٨١/٧٢)، وانظر: د. ناصر بن عبد الله القفاري: أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية (٩٠٨/٢).

وتقول أمنياتهم: « إذا قام القائم عليه السلام سار إلى الكوفة فيخرج منها بضعة عشر ألفاً أنفس يدعون البترية ^(١) عليهم السلاح فيقولون له: ارجع من حيث جئت فلا حاجة لنا في بني فاطمة. فيضع فيهم السيف حتى يأتي على آخرهم » ^(٢).

في حين نرى الأئمة ينصحون الزيدية وإن خالفوهم: فهناك نص اثني عشري يثبت أن الإمام علياً الرضا نصح أخاه زيداً، وهو إمام الزيدية الذي خرج على الأمويين: « ... ووعظ يوماً أخاه زيداً فقال له: يا زيد! ما أنت قائل لرسول الله صلى الله عليه وآله إذا سفكت الدماء وأخفت السبيل، وأخذت المال من غير حله؟ غرّك حمقاء أهل الكوفة » ^(٣). فهذا النص وإن يدل على خلاف عميق بين الأخوين، ولكنه في الوقت نفسه يدل على شفقة عظيمة من الإمام الرضا على أخيه وحرصه عليه، ولم يُشعر هذا النص أن الخلاف بينهما كان عقدياً.

وإذا كان أهل السنة يروون حديثاً عن النبي صلى الله عليه وآله مفاده: « تصدّقوا على أهل الأديان » ^(٤)، فإن روايات الاثني عشرية لا تستجيز ذلك، فعن عمر بن يزيد قال: « سألت أبا عبد الله عن الصدقة على الناصب وعلى الزيدية؟ قال: لا تصدّق عليهم بشيء ولا تسقمهم من الماء إن استطعت، وقال لي: الزيدية هم النصاب » ^(٥).

– افتراءات على الأشاعرة:

ولما أثبت الأشاعرة صفات المعاني مع الصفات المعنوية، فقالوا بصفة البصر، مع كونه تعالى بصيراً، وكذلك السمع والعلم... إلخ، وقالوا: إن تعدّد الصفات لا يعني تعدّد الذوات، وأنكر الشيعة صفات المعاني لتوهمهم أن الإقرار بها يؤدي إلى القول بتعدد

(١) البترية: فرقة من الزيدية، وهم أصحاب الحسن بن صالح بن حي، وأصحاب كثير النوى، وكان كثير يلقب بالأبتر، وقد يسمون « الصالحية » نسبة للحسن بن صالح، خالفوا الاثني عشرية في كثير من المسائل، فهم ينكرون عقيدة الرجعة، ولا يرون لعلي إمامة إلا حين بويج. انظر: مقالات الإسلاميين (١/١٤٤)، الملل والنحل (١/١٦١).

(٢) الإرشاد (ص ٤١١، ٤١٢)، بحار الأنوار (٣٣٨/٥٢).

(٣) ابن مطهر الحلي: منهاج الكرامة في معرفة الإمامة (ص ٦٠).

(٤) جاء في مصنف ابن أبي شيبة (٤٠١/٢): عن سعيد بن جبيرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « لا تصدقوا إلا على أهل دينكم » فأنزله الله تعالى: ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ﴾ إلى قوله: ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ ﴾ [البقرة ٢٧٢] قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: « تصدقوا على أهل الأديان ».

(٥) رجال الكشي (ص ١٩٩)، بحار الأنوار (١٧٩/٧٢).

القدماء مع الله تعالى، موافقين للمعتزلة، قال الجزائري الاثنا عشري الأخباري:

« الأشاعرة لم يعرفوا ربهم بوجه صحيح، بل عرفوه بوجه غير صحيح، فلا فرق بين معرفتهم هذه ومعرفة باقي الكفار، لأنه ما من قوم ولا ملة إلا وهم يدينون بالله سبحانه ويشبتونه وأنه الخالق سوى شرذمة شاذة وهم الدهرية... فالأشاعرة ومتابعوهم أسوأ حالاً في باب معرفة الصانع من المشركين والنصارى، وذلك أن من قال بالولد أو الشريك لم يقل أنه تعالى محتاج إليهما في إيجاد أفعاله وبدائع محكماته، فمعرفتهم له سبحانه على هذا الوجه الباطل من جملة الأسباب التي أورثت خلودهم في النار مع إخوانهم من الكفار وأفادتهم الكلمة الإسلامية حقن الدماء والأموال في الدنيا، فقد تبايناً وانفصلنا عنهم في باب الربوبية، فربنا تفرد بالقدم والأزل، وربهم من كان شركاؤه في القدم ثمانية، ووجه آخر لهذا لا أعلم أتى رأيته في بعض الأخبار، وحاصله: أننا لم نجتمع معهم على إله ولا على نبي ولا على إمام، وذلك أنهم يقولون أن ربهم هو الذي كان محمد ﷺ نبيه وخليفته من بعده أبو بكر، ونحن لا نقول بهذا الرب، ولا بذلك النبي، بل نقول: إن الرب الذي خليفة نبيه أبو بكر ليس ربنا ولا ذلك النبي نبينا » (١).

ولما خالفهم الأشاعرة فلم يشبوا الحسن والقبح العقليين قالوا عنهم: « فالأشاعرة يلزمهم إبطال دينهم حيث أنكروا مقتضى عقولهم » (٢).

ولم يتورع ابن المطهر الحلبي في منهاج الكرامة من أن ينسب للأشاعرة وغيرهم من أهل السنة ما لم يقولوا به، واستدعى ذلك من ابن تيمية الرد عليه في كتابه (منهاج السنة) (٣).

اختلال ميزان الاثني عشرية في الحكم على المخالفين لهم في العقيدة:

إذا نظرنا من منظور أهل السنة لمن خالفهم؛ نرى أن هناك دائرة الإيمان التي تشمل الصادقين من المسلمين، وهي للخالق ﷻ، وإن دلّ عليها كثير من الأعمال، وهناك

(١) الجزائري: الأنوار النعمانية (٢٧٨/٢)، وانظر: علماء الشيعة يقولون (ص ٢٧)، فالصفحة مصورة من أصل الكتاب. وتوضيح رأي الأشاعرة والاثني عشرية والمعتزلة في الصفات الإلهية قد مرّ تفصيله في فصل العقائد العامة، فلا داعي لتكراره هنا.

(٢) علي بن يونس العاملي (٨٨٧هـ): الصراط المستقيم (٢٢/١). المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية تحقيق محمد باقر البهبودي.

(٣) انظر: منهاج الكرامة للحلي، ومنهاج السنة لابن تيمية الجزء الأول.

دائرة الإسلام الأوسع التي تتسع لكل من يشهد الشهادتين ويقرّ بأحكام الإسلام الرئيسة وما علم منه بالضرورة، وهي دائرة واسعة، يدخل فيها من أطاع، ومن عصى وفسق، ومن ابتدع بدعة لم تصل لحضيض إنكار شيء مما علم من الدين بالضرورة.

ثم هناك دائرة ملتصقة بالمسلمين، وهي دائرة أهل الكتاب التي تعطي بعض الامتيازات لأهل ديانات الوحي الإلهي الذي شابه شيء من التحريف، وهي دائرة أهل الكتاب، اليهود والنصارى.

ثم دائرة المجوس الذين ثبت أن السلف ستوا بهم سنة أهل الكتاب من حيث العهد والذمة، ولم يضيفوا لهم امتياز أهل الكتاب بأكل ذبائحهم ونكح نسائهم.

ثم يأتي حكم باقي البشر، وهؤلاء أيضًا منهم من هو في حكم الأمان وعصمة الدم. ومنهم من هو في حكم المحاربين الذين عاندوا وحاربوا الإسلام والمسلمين، قال تعالى:

﴿ لَا يَتَّهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴾ [المتحنة: ٨].

ولا يجوز تجاوز دائرة من هذه الدوائر الكثيرة عند أهل السنة دون ضابط ولا ميزان. وإذا قارنا هذا الموقف المبدئي عند أهل السنة ممن خالفهم، بموقف الاثني عشرية من المخالفين لهم في العقيدة نرى أمرًا مختلفًا، فموقف الاثني عشرية من أهل الكتاب أعدل وأرحم من موقفهم من بعض أهل الإسلام، كالخوارج والزيدية والأشاعرة وعموم أهل السنة، كما مرّ، فالاثنا عشرية يرون أن « الفقه الإسلامي لم يعتبر أهل الكتاب بمستوى المشركين، بل يرى أنهم لو دفعوا الجزية (وهي بدل الخمس والزكاة المفروضين على المسلمين) فلهم الأمان في ظل الدولة الإسلامية، ويمكنهم العمل بأحكام شريعتهم، وهذا دليل على اعتبار سائر الأديان » (١).

ونحن لا نعترض على موقفهم هذا من أهل الكتاب، بل هو موقف أهل السنة أيضًا، ولكن العجب من أنهم مع تسامحهم مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى يشتدّون على خصومهم من المسلمين من الفرق التي اختلفت معهم، وهذا شبيه من موقف الخوارج الذين كانوا يقتلون المسلمين، فإذا رأوا أهل الكتاب قالوا: ذمة نبينا (٢)!

(١) محمد تقي مصباح اليزدي: دروس في العقيدة (ص ٣١١، ٣١٢).

(٢) الخوارج رأوا عبد الله بن خباب بن الأرت، فلما خالفهم في عقيدته: « قصدوا قتله، وقتله رجل منهم اسمه مسمع وجرى دمه على وجه الماء.. ثم قصدوا بيته وقتلوا أولاده وأمها أولاده بالنهروان » (الإسفراييني: التبصير في الدين ص ٤٧).

وإيم الله إن دم المسلم أعز، وصونه أوجب وأكد، لو كانوا يعلمون!

ومن أمثلة اختلال هذا الميزان في الحكم على المخالفين:

- قولهم بنجاة عبد المطلب وأبي طالب:

وإذا كان الرأي عند الاثني عشرية خلود كل من لم يؤمن بإمامة الاثني عشر إمامًا في النار، على حد قول المجلسي: « اعلم أنّ إطلاق لفظ الشّرك والكفر - يعني في نصوصهم - على من لم يعتقد إمامة أمير المؤمنين والأئمة من ولده ﷺ، وفضّل عليهم غيرهم يدلّ أنّهم كفّار مخلّدون في النار »^(١)؛ فما هو المبرر إذا للحكم بدخول الجنة لبعض من لم يكونوا من أمة الإسلام أصلًا؟ ولم يعرفوا الأئمة ولم يؤمنوا بدينهم ولا بشريعتهم؟

ففي اللحظة التي يثبت فيها الشيعة خلود معظم صحابة النبي والأمة المسلمة من بعده في النار، فإنهم يثبتون نجاة وإيمان أبي طالب والد علي ﷺ، ونجاة عبد المطلب، مع أنه لم يثبت عند السنة نجاتهما، فأبو طالب أدرك عهد النبوة ولم يؤمن، وفي أحاديث أهل السنة الصحيحة أن أبا طالب « أهون أهل النار عذابًا »^(٢):

وعن أبي سعيد الخدري ﷺ: أنه سمع النبي ﷺ وذكر عنده عمه فقال: « لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيجعل في ضحضاح من النار يبلغ كعبه يغلي منه دماغه »^(٣). وفي رواية عن العباس بن عبد المطلب ﷺ: قال للنبي ﷺ ما أغويت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: « هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار »^(٤). فلا محاباة في دين الله ﷻ، ولا نسب بين الله تعالى وأي أحد من خلقه.

(١) بحار الأنوار (٣٩٠/٢٣).

(٢) أخرج مسلم في صحيحه: كتاب الإيمان، باب أهون أهل النار عذابًا، رقم (٢١٢)، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « أهون أهل النار عذابًا أبو طالب وهو منتعل بتلعين يغلي منهما دماغه ».

(٣) متفق عليه: أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب رقم (٣٦٧٢)، وأخرجه مسلم في الإيمان، باب شفاعته النبي ﷺ لأبي طالب (٢٠٩).

(٤) متفق عليه: أخرجه البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب قصة أبي طالب (٣٦٧٠). وأخرجه مسلم في الإيمان، باب شفاعته النبي ﷺ لأبي طالب. والضحضاح: قريب القعر، بعكس العميق والغمر. جاء في لسان العرب (٤١٩/١٠) مادة (د. ر. ك): « والضّحضاح أريد به القليل من العذاب مثل الماء الضحضاح الذي هو ضد الغمر، وقيل لأعرابي: إن فلاتًا يدعي الفضل عليك فقال: لو كان أطول من مسيرة شهر ما بلغ فضلي، ولو وقع في ضحضاح لغرق. أي لو وقع في القليل من مياه شرفي وفضلي لغرق فيه ».

ولم يكتف الاثنا عشرية بالقول بنجاة أبي طالب، بل أثبتوا له ما فوق ذلك: عن دُرُست بن أبي منصورٍ أنه سأل أبا الحسن الأول عليه السلام: «أكان رسول الله ﷺ محجوجاً بأبي طالب؟ فقال: لا ولكنّه كان مستودعاً للوصايا فدفعها إليه ﷺ قال: قلت: فدفع إليه الوصايا على أنه محجوج به؟ فقال: لو كان محجوجاً به ما دفع إليه الوصية، قال: فقلت: فما كان حال أبي طالب؟ قال: أقرّ بالنبيّ وبما جاء به ودفع إليه الوصايا ومات من يومه» (١).

ذكر المجلسي في معنى (محجوج به) وجوهاً منها: الأول: هل كان أبو طالب حجة على رسول الله ﷺ وإماماً؟ فأجاب الإمام عليه السلام بالنفي... الثاني: هل كان رسول الله ﷺ مغلوباً بالحجة في شأن أبي طالب لكونه قصر في هدايته إلى الإيمان فلم يؤمن؟ فأجاب الإمام عليه السلام بالنفي لأن أبا طالب كان قد آمن (٢).

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال: «نزل جبرئيل عليه السلام على النبيّ ﷺ فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: إني قد حرّمت النار على صلب أنزلك وبطن حملك وحجر كفلك، فالصّلب صلب أبيك عبد الله بن عبد المطلب، والبطن الذي حملك، أمنة بنت وهب، وأما حجرٌ كفلك فحجر أبي طالب» (٣). قال محقق أصول الكافي عند هذه الرواية: «وهذا الحديث واضح في إسلام أبوي رسول الله ﷺ وعمه أبي طالب». وعن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام قال: «إنّ مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف أسروا الإيمان وأظهروا الشّرك فاتاهم الله أجرهم مرتين» (٤).

بل ينسبون إليه - في رواية - علم أبي طالب بأن عليّاً سيكون وزير النبي ﷺ: عن الفضل بن عمر قال: «سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: لما ولد رسول الله ﷺ فتح لآمنة بياض فارس وقصور الشّام، فجاءت فاطمة بنت أسيد أم أمير المؤمنين إلى أبي طالب ضاحكةً مستبشرةً، فأعلمته ما قالت آمنة، فقال لها أبو طالب: وتتعجبين من هذا إنك تحلين وتلدين بوصيته ووزيره» (٥).

(١) أصول الكافي (٥١٦/١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي ﷺ ووفاته. وروى الكليني قريباً منه عن علي عليه السلام.

(٢) انظر: مرآة العقول (٢٢٤/٥).

(٣) أصول الكافي (٥١٨/١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي ﷺ ووفاته.

(٤) أصول الكافي (٥٢٠/١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي ﷺ ووفاته. وقال محققه: والحديث حسن.

(٥) أصول الكافي (٥٢٦/١)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي ﷺ ووفاته. سكت عنه المحقق ولم يذكر درجته. وكثيراً ما يفعل بالروايات التي تخالف أهل السنة، فهل سكوته من باب حيرته بين الحفاظ على مذهبه والحفاظ على وحدة الأمة؟

ويعتقد أهل السنة أن عبد المطلب من أهل الفترة، وللعلماء فيهم اختلاف كبير^(١)، أقواها أنهم غير مكلفين، والأولى الوقف في شأنهم، ووكلمهم إلى حكمة الله تعالى ورحمته، القائل في كتابه: ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

أما الاثنا عشرية فيضعون عبد المطلب في مكانة أعظم من مكانة عظماء الصحابة! فعن زرارة بن أعين عن أبي عبد الله عليه السلام قال: « يحشر عبد المطلب يوم القيامة أمة واحدة عليه سيماء الأنبياء وهيبة الملوك »^(٢).

ونحن والله! لنفرح لو صحَّ شيء من تلك الأخبار في حق أبي طالب عم النبي صلى الله عليه وآله، وجده عبد المطلب، ولكن لم يصحَّ في منهج المحدثين منها شيء في حق عبد المطلب جدَّ النبي صلى الله عليه وآله، وجاء من الأحاديث الصحيحة في حق أبي طالب ما يناقضها، والحقُّ أحقُّ أن يتبع.

- قولهم بنجاة كسرى:

وإذا كان موقفهم هذا من عبد المطلب وأبي طالب مبررًا بأن القوم أخذتهم الحمية والعاطفة على والد (الوصي) وجد النبي صلى الله عليه وآله وجد (الوصي) أيضًا؛ فأنطقوا الروايات بنجاتهما، فما بال كسرى يحكم بنجاته وهو الجوسي الكافر؟ إذ تفيد بعض رواياتهم نجاة كسرى أنوشيروان الجوسي الفارسي من عذاب النار وهو فيها!!

تقول الرواية: قدم أمير المؤمنين عليه السلام المدائن فنزل بإيوان كسرى... ثم نظر عليه السلام إلى جمجمة نخرة، فقال لبعض أصحابه: « خذ هذه الجمجمة، ثم جاء عليه السلام إلى الإيوان وجلس فيه، ودعا بطست فيه ماء، فقال للرجل: ضع هذه الجمجمة في الطست، ثم قال: أقسمت عليك يا جمجمة لتخبريني من أنا ومن أنت؟ فقالت الجمجمة بلسان فصيح: أما أنت فأمرير المؤمنين وسيد الوصيين وإمام المتقين، وأما أنا فعبد الله وابن أمة الله كسرى أنوشيروان، فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: كيف حالك؟ قال: يا أمير المؤمنين! إنني كنت ملكًا عادلاً شفيقًا على الرعايا رحيمًا، لا أرضى بظلم، ولكن كنت على دين الجوس، وقد ولد محمد صلى الله عليه وآله في زمان ملكي، فسقط من شرفات قصرني ثلاث وعشرون شرفة ليلة ولد، فهممت أن أؤمن به من كثرة ما سمعت من الزيادة من أنواع شرفه

(١) انظر مسألة أهل الفترة وأولاد المشركين وكثرة الأقوال والآراء فيها في: الفصل في الملل والنحل، وشرح فتح الباري.

(٢) أصول الكافي (١/٥١٨)، كتاب الحجّة، باب في مولد النبي صلى الله عليه وآله ووفاته. والحديث صحيح.

وفضله ومرتبته وعزه في السماوات والأرض ومن شرف أهل بيته، ولكنني تغافلت عن ذلك وتشاغلته عنه في الملك، فيا لها من نعمة ومنزلة ذهبت مني حيث لم أؤمن، فأنا محروم من الجنة بعدم إيماني به، ولكنني مع هذا الكفر خلصني الله تعالى من عذاب النار ببركة عدلي وإنصافي بين الرعية، وأنا في النار، والنار محرمة علي، فواحسرتاه لو آمنت» (١).
وتذكر إحدى الروايات أن كسرى مخلص من النار، فتقول: «إن الله قد خلصه من النار، وإن النار محرمة عليه» (٢).

وهنا نتساءل عن دور الأثر والعامل الفارسي في وضع مثل هذه النصوص المخالفة للكتاب والسنة في تحريم الجنة على الكافرين. قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: ١٤٠].

ونحن لا نضيق حدود رحمة الله تعالى، ولكن نتساءل: كم الفرق واسع والبون شاسع بين تسامح الاثني عشرية مع جد النبي عبد المطلب الذي مات في زمن الفترة، وعمه أبي طالب، بل ومع كسرى أنوشيروان المجوسي، وبين تشددهم وتعصبهم وتصلب موقفهم أمام الصحابة وعامة المسلمين والفرق الكلامية المخالفة لهم.

فكان حريًا بهم أن يحكموا بنجاة الفرق الإسلامية المخالفة لهم في بعض الجزئيات كالإمامة، تلك الفرق التي وافقتهم في أصول الدين وأركانه الأساسية، كالإيمان بالله وملائكته واليوم الآخر والكتب السماوية كلها. تلك الأركان التي فقدت كلها، ولم يوجد منها شيء يذكر عند كسرى المجوسي الذي حكمت الرواية بنجاته.

* * *

(١) المجلسي: بحار الأنوار (٢١٣/٤١)، وفي آخر الرواية أن بعض أصحاب علي عليه السلام كفروا وآلهوه، فنهاهم فحرق من لم ينته بالنار.

(٢) بحار الأنوار (٤/٤١).

خاتمة



بعد هذه الجولة الممتدة في دراسة التشيع عمومًا والاثني عشري خصوصًا، يمكن للباحث أن يقرر أهم نتائج دراسته هذه:

١ - التشيع لم ينشأ في التاريخ دفعة واحدة، بل مرّ بأطوار متعددة، وخلال هذه الأطوار ظهرت فرق شيعية كثيرة متنوعة ومختلفة ينكر بعضها بعضًا، من هذه الفرق ما باد وفني، ولم يبق لأصحابه إلا إشارات في كتب الملل والمقاتلات، ومن هذه الفرق ما كتب له البقاء والاستمرار، ومن أشهر وأكبر هذه الفرق الباقية الاثنا عشرية والزيدية. وهكذا تطور التشيع حتى استقر على صورته الحالية في اتجاهين: الأول: الاتجاه الزيدي، والثاني: الاتجاه الاثني عشري.

٢ - إن التشيع خلال مراحلها كلها اصطبغ بصبغة المواجهة والتدافع بين الغلو والاعتدال، وهذه المواجهة والتدافع توقدت من عهد التشيع القديم، فقد كان الغلو على يد السبئية ثم الكيسانية والخطابية، وكان هذا الاتجاه محاربًا من قبل من عاصره من الأئمة أنفسهم ومن قبل أتباعهم المقرّين.

وإذا كان كتاب الإمامية الاثني عشرية يرون هذا الغلو مرحلة مضت وانتهت؛ فإن الباحث قد ظهر له من خلال الأدلة الواضحة من مرويات الاثني عشرية أنفسهم أن الفكر الغالي بقي موجودًا، إذ تسلّل إلى الفكر الاثني عشري من خلال كثير من الروايات التي نسبت إلى الأئمة. وجاء دور المعتدلين من الشيعة ليردّوا وليضعفوا هذه الروايات أو يؤولوها بما يتفق مع روح الإسلام وعقيدة المسلمين، وافقهم من وافقهم، وخالفهم من خالفهم من علماء الاثني عشرية.

٣ - وإذا كان القرآن الكريم والسنة المشرفة متفقًا عليهما - ظاهرًا - بوصفهما أساس العقيدة عند أهل السنة والشيعة، فإن البحث والتمحيص يثبت اختلاف الفريقين في تفسيرهما وكيفية الاستفادة منهما، فالقرآن واحد، ولكن حفظه عند الشيعة تم من خلال الأئمة، أما عند أهل السنة فمن خلال تواتره عن الصحابة الكرام ثم عن التابعين ثم عن بعدهم حتى وصل إلينا، أما من حيث تفسيره عند الاثني عشرية فإنه غالبًا

مرتبط بما ينقلونه عن أئمتهم (المعصومين) فلا حجة بأقوال من سواهم من الصحابة والتابعين، في حين يعتمد أهل السنة - بعد تفسير القرآن بالقرآن وتفسيره بالسنة - على أقوال الصحابة والتابعين في تفسير القرآن.

هذا وقد ظهرت بعض الكتب التفسيرية المعتدلة لدى الشيعة تستأنس بأقوال الصحابة إلى جانب أقوال الأئمة، وإن قابلها بعض الأخباريين - للأسف - بالمعارضة أو اتهامها بالتقية!

٤ - أما بالنسبة للسنة النبوية؛ فالمصادر الحديثية عند الشيعة تختلف عنها عند أهل السنة، فأشهر كتب الحديث عند الشيعة (الكافي، والاستبصار، والتهذيب، ومن لا يحضره الفقيه) لا يعرفها أهل السنة، وأشهر كتب الحديث عند السنة (كالبخاري ومسلم والسنن الأربعة ومسند أحمد) لا يعرفها الشيعة، اللهم إلا بقصد الرد والمجادلة للفريق الآخر.

وعلى كلٍّ فبينهما قواسم مشتركة كثيرة في أبواب التوحيد والأخلاق والمعاملات، ولكن يظهر الخلاف بمجرد التعرض لمسألة الإمامة وما يتعلق بها.

ويظهر الخلاف جلياً حول الحكم على الأحاديث من تصحيح وتضعيف بين علماء الشيعة الاثني عشرية أنفسهم؛ فالتيار (الأخباري) يرى تصحيح كل الأحاديث المنقولة في كتب الحديث جملة وتفصيلاً، وهذا ما أوقعهم في تناقضات واعتقادات تخالف جمهور المسلمين، لعل أعظمها تصحيح الروايات التي تقول بتحريف القرآن الكريم.

في حين يرى التيار (الأصولي) أن ما ورد عن الأئمة ليس كله صحيحاً، بل قابلاً للتصحيح والتضعيف، حسب ضوابط كثيرة تتعلق بالسند والمتن، ولذلك ردوا تلك الروايات التي صدّقها الأخباريون في تحريف القرآن.

وبين هذين التيارين مساجلات ونقاشات تظهر صدق الأصوليين القائلين بسلامة القرآن الكريم من التحريف.

وبسبب هذا الخصام بين هذين التيارين توصل الباحث أن عقيدة الأصوليين بسلامة القرآن من التحريف صادرة وناجحة عن فكر وعقيدة واجتهاد، لا عن المجاملة والتقية لأهل السنة، فقد أنكر التحريف كبار علمائهم القدامى، وكذلك معظم العلماء المحدثين.

ولكن الذي يأسف له الباحث أن الأصوليين المنكرين للتحريف ليس لهم موقف

واضح من الأخباريين الذين رأوا من خلال الروايات وقوع التحريف، وكأن مسألة سلامة القرآن ليست من المسائل القطعية كما هو الحال عند أهل السنة، بل هي خاضعة للاجتهاد، بحيث لا يكفر منكرها!.

وعلى كلِّ فعلى الأمة مدَّ اليد إلى هؤلاء العلماء الذين أنكروا تحريف القرآن الكريم، وانتقدوا القائلين بالتحريف، وتحملوا عناء خصومتهم لهم، لا اتهامهم بأنهم إنما فعلوا ذلك تقية، وذلك لجمع وحدة الأمة، وأخذًا بالظاهر الذي طالبنا الشرع بالتعامل به مع الناس، وهو ما يصدِّقه الواقع، إذ المصاحف في أيدي إخواننا الشيعة هي مصاحف جميع المسلمين، من غير زيادة ولا نقصان.

٥ - يرى الباحث أن معظم المسائل العقديّة التي تناولها علماء الكلام من أهل السنة قد تناولها علماء الكلام الاثنا عشرية، ويرى اتفاقاً كبيراً في مبحث إثبات الإيمان بالله تعالى وأدلة وجوده، فقد أبدع علماء الاثني عشرية بما ساقوه من نصوص عن أئمة أهل البيت تثبت وجود الله تعالى، ثم جاء علماء الكلام من الاثني عشرية ليتفقوا في الاستدلال على وجود الله مع علماء الكلام من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية.

كما يرى الباحث الاتفاق في كثير من مسائل النبوات، كالقول بعصمة الأنبياء ﷺ، والإيمان بالملائكة واليوم الآخر، وإن كانت مسحة التشيع تظهر بين الحين والآخر في تناول هذه المسائل العقديّة العامة، فتضخيم مكانة آل البيت تستمر في الفكر الشيعي من ولادة الإنسان إلى قبره، إلى البعث والصراف ودخول الجنة.

٦ - لقد تطور الفكر الكلامي الاثنا عشري بأسلوب مشابه للفكر الكلامي عند الأشاعرة وغيرهم من متكلمي السنة تقريباً، من حيث محاربة الاعتزال أولاً ثم التأثير به ثانياً، ثم التأثير بالفكر الفلسفي في النهاية، مع وجود صيحات من هنا وهناك لمحاربة الاعتزال والفلسفة.

ومن الملاحظ أن الشيعة وغيرهم من الفرق دخلوا وخاضوا في الصفات الإلهية خوفاً ما كان ينبغي أن يخوضوه، وهذه زلة كبيرة ساقطت المسلمين إلى كهف مظلم تاه المسلمون فيه، وما كادوا يخرجون منه.

٧ - أما عن علاقة التشيع بالاعتزال فالعلاقة بينهما قديمة وحميمة، حتى دفع بعض المعتزلة دماءهم في سبيل نصره ثورات أهل البيت، وتأصلت عقائد المعتزلة في العدل والتوحيد واللفظ في كتب الشيعة.

ولكن الخلاف الفكري دار عبر تساؤل محير: مَنْ تأثر بالآخر: الاعتزال بالتشيع أم العكس؟ وللعلماء آراء مختلفة في هذه القضية، فكثير من علماء الفرق المعاصرين يجعلون التشيع هو المتأثر بالاعتزال، ولكن كتاب الاثني عشرية المعاصرين لا يرتضون هذا الاتجاه، ويحاربونه بشدة.

ولكن الذي لا شك فيه أن التأثير واضح يبين، فكتب العقيدة للجانبين توضح وجود آثار لهذا التأثير المزدوج بينهما.

ولكن الباحث يقرر أن حاجة التشيع للفكر الاعتزالي - كما ظهر في كتب الاثني عشرية - أعظم من حاجة الفكر الاعتزالي إلى الفكر الشيعي، مما يجعل تأثير الفكر الاثني عشري بالاعتزال أوضح وأبين، وخصوصاً إذا لوحظ (المنهج الجمعي) عند علماء الاثني عشرية القدامى، حيث كانوا يأخذون من كل مذهب ما يدعم مذهبهم، فنظرية اللطف الاعتزالية - مثلاً - استعيرت لتخدم فكرة حاجة البشر إلى الأئمة.

٨ - هناك عقائد خاصة آمن بها الاثنا عشرية إيماناً مطلقاً، واختصوا بها عن جميع المسلمين، كالقول بإمامة اثني عشر إماماً بالنص الصريح، والقول بعصمة هؤلاء الأئمة، وهذه العقائد الخاصة بالاثني عشرية لا يستطيع المذهب الاثنا عشري أن يتخلص منها أو يتخلى عنها؛ لأنه لو تخلى عنها تخلى عن اسمه أولاً وعن كيانه ثانياً، فلا يراها الباحث قابلة للمناقشة أو الجدل، فالاثنا عشرية جميعهم يعتقدونها، سواء أكانوا أصوليين أم أخباريين، فقد وردت في كتبهم بأسانيد صحيحة - في نظرهم - لا تصلها يد تضعيف أو تأويل، ولو أنكرها منكر فإنما أنكر المذهب ذاته.

٩ - وهناك عقائد خاصة أخرى عند الشيعة يمكن المجادلة بها؛ لأنها ليست محل الاتفاق بينهم كالقول بالرجعة والبداء، فهي محل اجتهاد أو تأويل ونقاش فيما بينهم.

١٠ - ومن خلال مقارنة عقائد الاثني عشرية الخاصة من خلال مصادرهم بما سطره كتاب الفرق الأقدمون من علماء السنة (كالأشعري والشهرستاني وابن حزم... إلخ) يتضح رسوخ هؤلاء العلماء في معرفة عقائد الآخرين وإنصافهم، في حين يظهر عند بعض الكتاب المعاصرين الضعف في معرفة عقائد الشيعة الاثني عشرية، بسبب عدم اطلاعهم على كتب الاثني عشرية الأصلية الموثوقة عندهم (كالكافي، الاستبصار، التهذيب، من لا يحضره الفقيه)، في حين يقنعون بالكتب الدعائية الإعلامية للاثني عشرية، أو يكتفون بما يكتبه عنهم خصومهم؛ ولذلك يترددون بين متساهل في أمرهم

يجعلهم في عداد الزيدية. ومتشدد في حقهم يقيسهم على الغلاة مطلقاً، دون تفریق بين الاتجاه الأصولي والإخباري.

١١ - لقد كان لتلك الفتن التي حدثت في العهد الأول بين المسلمين حول الخلافة، وما جرى في سبيلها من دماء، وما خلفه مقتل الحسين عليه السلام، وما تبعه من ثورات قام بها سادة أهل البيت... إلخ - كان لكل ذلك الأثر البالغ في تأجيج نار الكراهية من قبل أتباع المذهب الشيعي تجاه مخالفيهم، وكان للسرية دورها في تضخيم هذه الكراهية للأمة والصحابة والتابعين وعلماء الأمة.

وقد ساهم في نشر هذه الأحقاد كمّ هائل من الأكاذيب التي نسبت للفظائع والشرور إلى كبار الصحابة الكرام، حتى شتّب عليها الصغير وشاب عليها الكبير عند الاثني عشرية. والصحابة الكرام مبرّؤون من هذه العظائم، كيف وقد أثنى عليهم ربنا تعالى في كتابه ونبينا صلى الله عليه وآله في سنته؟.

وقد استطاع الباحث - بفضل الله تعالى - أن يحشد من الروايات التي نسبت إلى آل البيت أيضًا ما يخالف تلك المرويات الجائرة. ففي مصادر الاثني عشرية أنفسهم روايات تبين فضل الصحابة ومكائنتهم، فينبغي فتح أذان أبناء هذا الطائفة على هذه المرويات والتأكيد عليها؛ لأنها تؤكد ما كان عليه أمر الأمة من تلاحم وتواؤم بين آل البيت الكرام والصحابة، وهو تواؤم ومحبة لا تهدمها تلك الفتن، ولا تغيرها الأيام والمحن.

١٢ - لا يجوز الحكم على أية طائفة من الطوائف الإسلامية حكماً واحداً، ولا يجوز الحكم على جميع علماء الاثني عشرية مرة واحدة، إذ لكل منهم آراؤه واجتهاداته، ولا يجوز الحكم على أي طائفة من طوائف المسلمين من خلال ما يكتبه أعداؤها؛ فقد تبين في دراسة الفرق وجود كثير من الأقوال نسبت إلى غير أصحابها، أو فهمت على غير مراد قائلها، فعلى المنصف التروي بحيث لا يقبل عن أحدٍ قولاً إلا من خلال أقواله الصحيحة والصريحة.

١٣- ويطيب لي أن أختتم هذا البحث ببيان الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية:

بيان الدوحة الصادر عن مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية خلال الفترة من (١ - ٣)

محرم (١٤٢٨هـ) الموافق (٢٠ - ٢٣) يناير (٢٠٠٧م):

« انعقد مؤتمر الدوحة لحوار المذاهب الإسلامية (دور التقريب في الوحدة العملية للأمة) الذي نظّمته جامعة قطر بالتعاون مع جامعة الأزهر والمجمع العالمي للتقريب بين

المذاهب الإسلامية، وشارك فيه أكثر من مئتي عالم من أكثر من أربعين دولة». وانتهى العلماء المؤتمرون إلى عشرة بنود هي:

أولاً: إدانة ما يحدث في العراق من حرب طائفية بين السنة والشيعة، مما يؤدي إلى تفجيت العراق، وصرف الانتباه عن العدو الحقيقي المترصص بالأمة.

ثانياً: التأكيد على حرمة دم المسلم وماله وعرضه، واستنكار الجرائم المرتكبة على الهوية المذهبية.

ثالثاً: الوقوف صفاً واحداً أمام التحديات والعدوان الذي تتعرض له الأمة.

رابعاً: ضرورة استمرار الجهود لتحقيق التقارب والتفاهم بين مختلف المذاهب والفرق الإسلامية، والعمل على إزالة العقبات التي تعترض طريق الوحدة.

خامساً: بذل الجهود لتفعيل القرارات والتوصيات التي انتهت إليها المؤتمرات السابقة التي تصب في الاتجاه نفسه.

سادساً: يرفض جميع العلماء المشاركين ممثلي السنة والشيعة والزيدية والإباضية رفضاً قاطعاً كل تطاول أو إساءة إلى بيت رسول الله ﷺ وصحابته - رضوان الله عليهم جميعاً - وأمهات المؤمنين، ويناشدون أتباع المذاهب والفرق الإسلامية احترام مقدسات كل طرف، والحفاظ على الاحترام المتبادل في الحوار والنشاط الدعوي.

سابعاً: دعوة القيادات والمراجع الدينية السنية والشيعية إلى الحفاظ على حدود وضوابط التعامل مع الآخر، وعدم السماح بالتبشير لمذهب التشيع في بلاد السنة، أو التسنن في بلاد الشيعة، درءاً للفتنة والشقاق بين أبناء الأمة الواحدة.

ثامناً: يناشد المؤتمر حكام ورؤساء الدول العربية والإسلامية، تعزيز جهود العلماء والمفكرين في سبيل تحقيق الوحدة، وإقرار سياسة الحوار بين المذاهب الإسلامية.

تاسعاً: تشكيل مجمع علمي عالمي يضم علماء السنة والإمامية والزيدية والإباضية، يعزز فكرة التقريب، ويرصد المعوقات والخروقات، ويضع لها الحلول المناسبة، ويقترح المؤتمر أن تكون الدوحة مقراً لهذا المجمع.

عاشراً: إصلاح المناهج التعليمية بما يدعم فكرة الوحدة والتقريب بين المذاهب والفرق الإسلامية اهـ.

وفي الختام أسأله تعالى أن يجمع شمل هذه الأمة، وأن يوحد صفوفها أمام أعدائها

الذين لا يفرقون بين المسلمين ومذاهبهم، بل يرونهم جميعًا قدى في عيونهم وشوكة في حلوقهم.

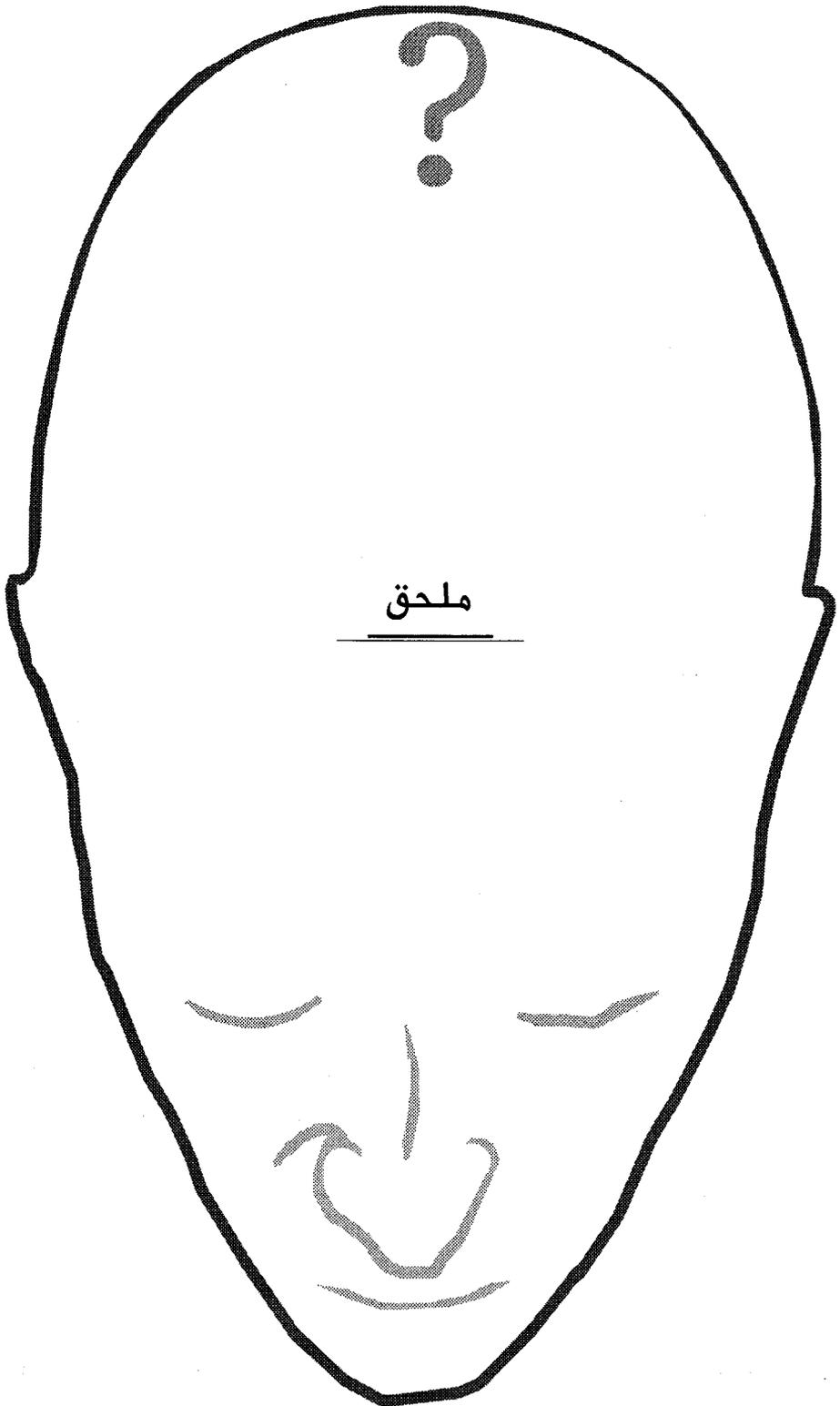
فعلى المسلمين السعي إلى ما يجمع كلمتهم، وأن يكونوا ممن قال الله تعالى في وصفهم: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ١٨].

ممثلين قوله ﷺ: ﴿ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

وصلى الله تعالى على نبيه محمد، وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار، إنه سميع مجيب.

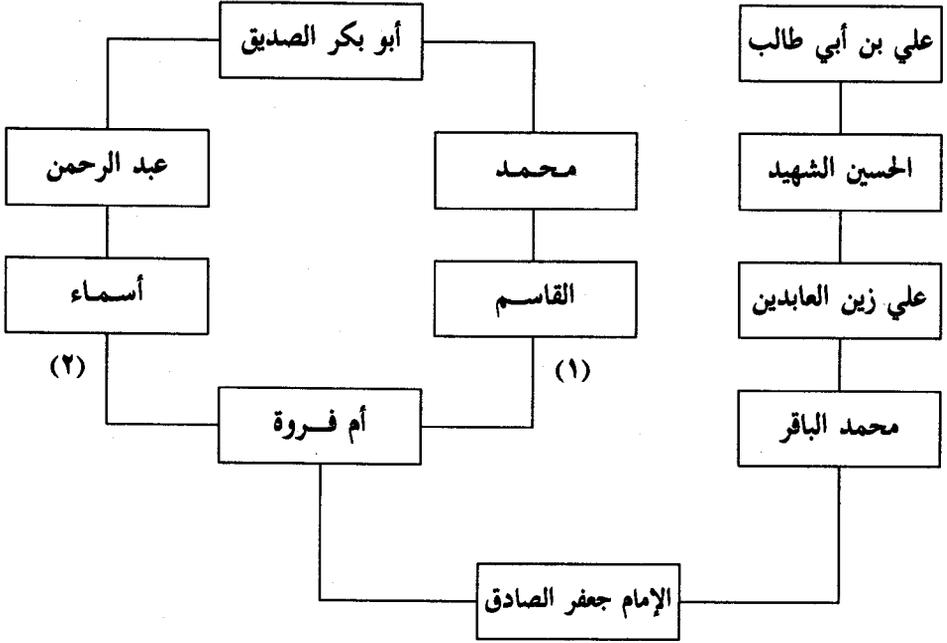
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

د. مُحَمَّد زَكْرِيَّا النَّدَاف



ملحق

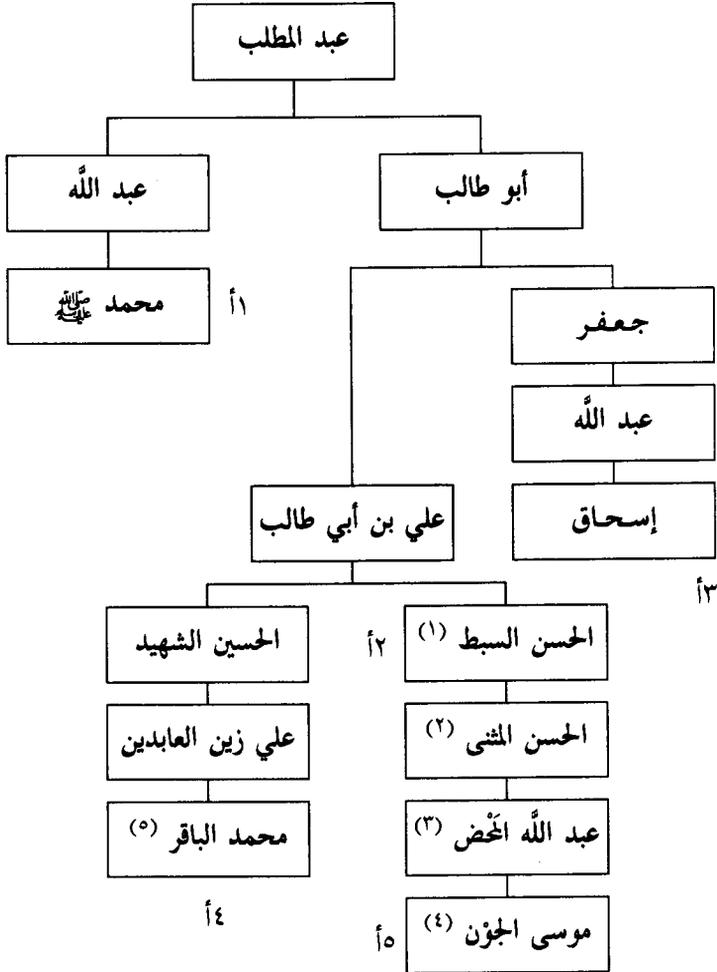
مقولة الإمام جعفر الصادق عليه السلام
 « ولدني أبو بكر الصديق مرتين »



يشير المساران (١) و (٢) في هذا الرسم التوضيحي إلى مقصود الإمام جعفر الصادق عليه السلام بشأن هاتين المرتين اللتين ولده عن طريقهما أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأرضاه.

المصاهرات بين آل النبي ﷺ وآل الصديق رضي الله عنهم أجمعين

(١)



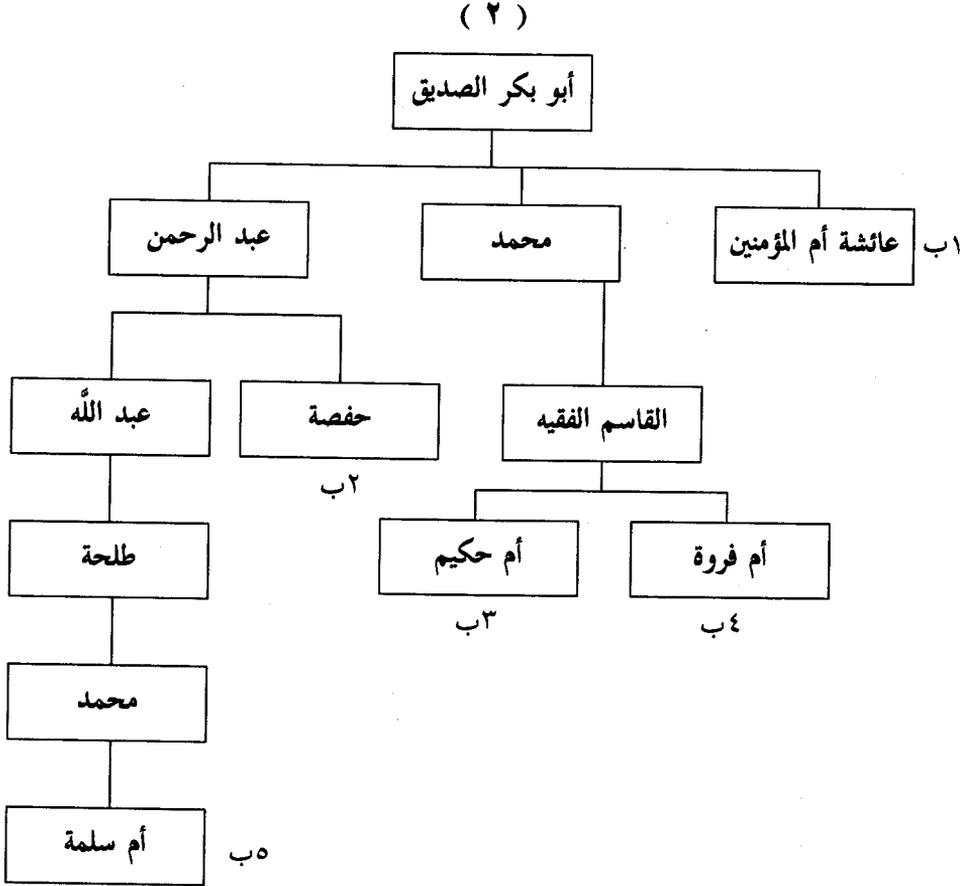
(١) السبط لغة: هو ولد الولد، وقيل: ولد الابن، وقيل: وولد البنت أيضًا، واصطلاحًا: سبط رسول الله ﷺ ولدا ابنته فاطمة الزهراء الحسن والحسين رضوان الله عليهما كما ورد بذلك الحديث وفيه: « وحسين سبط من الأسباط » أي أمة في الخير.

(٢) المثني: الثاني.

(٣) المحض لغة: الخالص، واصطلاحًا: من تزوج ابنة عمه وكلاهما هاشميان.

(٤) الجوزن: شديد السواد.

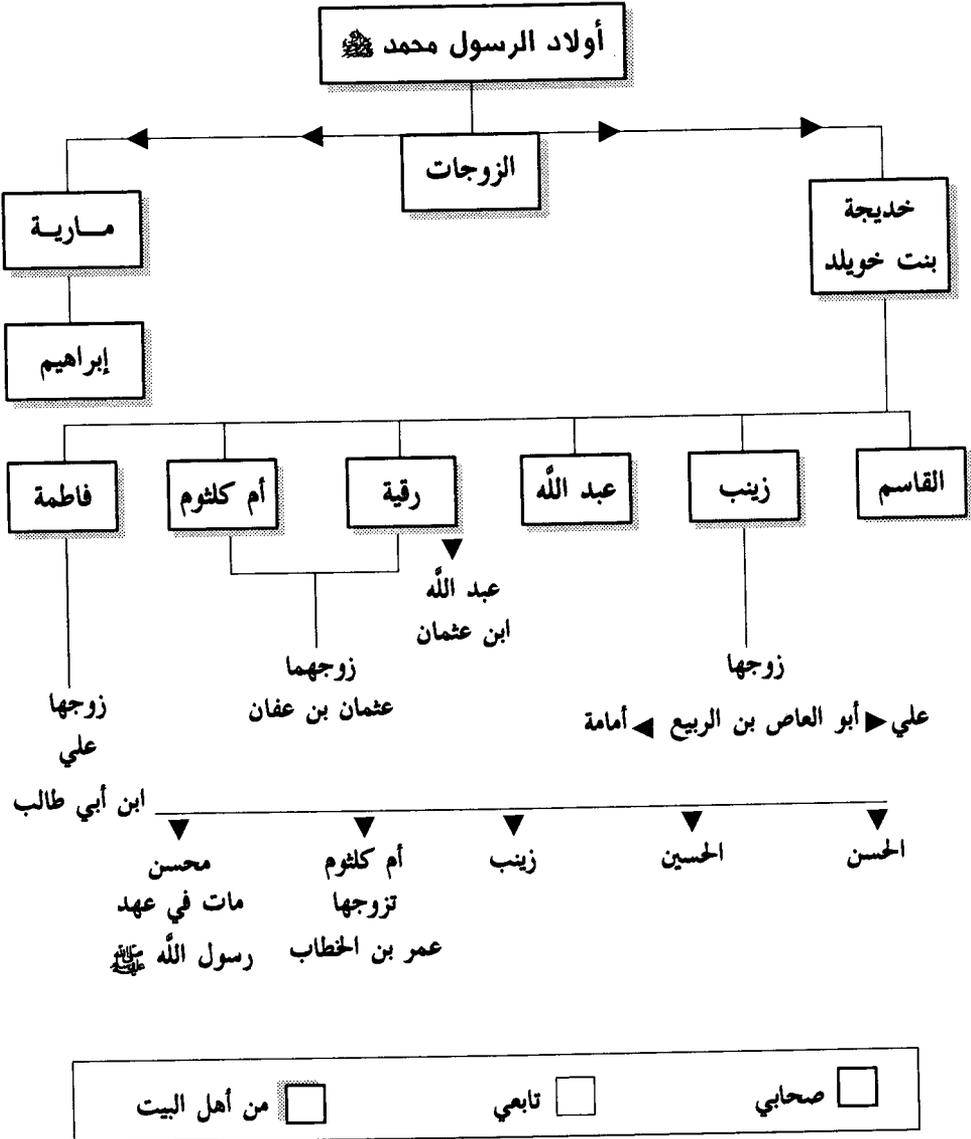
(٥) الباقر: من بقر العلم، أي شق جوفه واستخرجه.

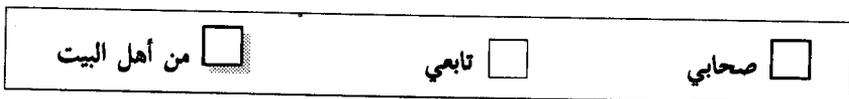
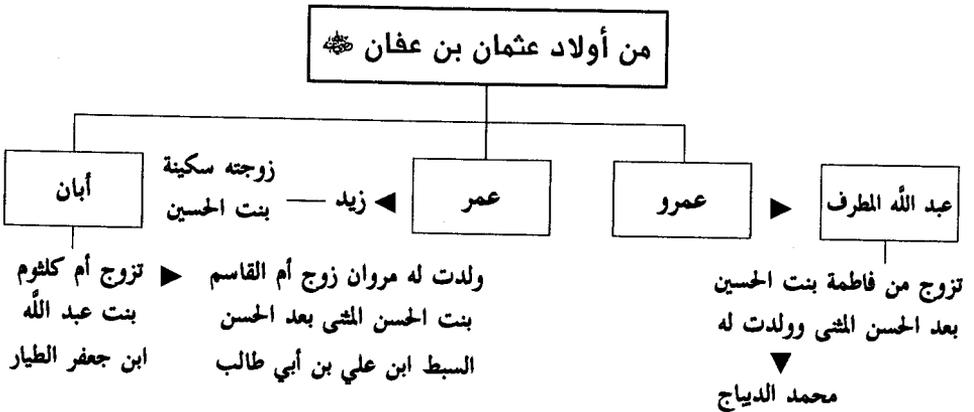
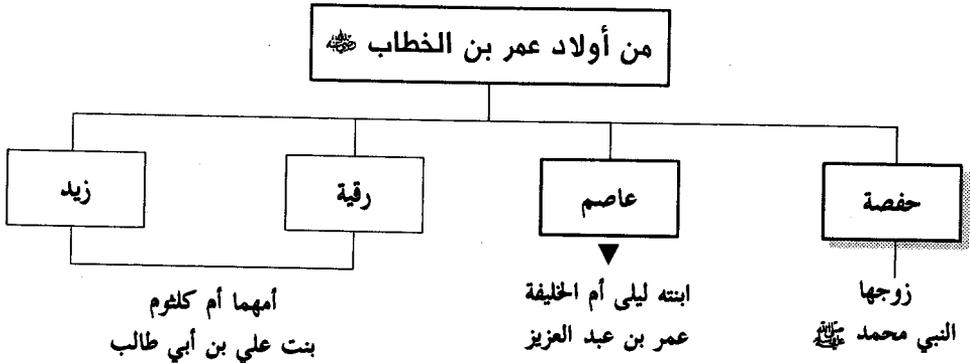
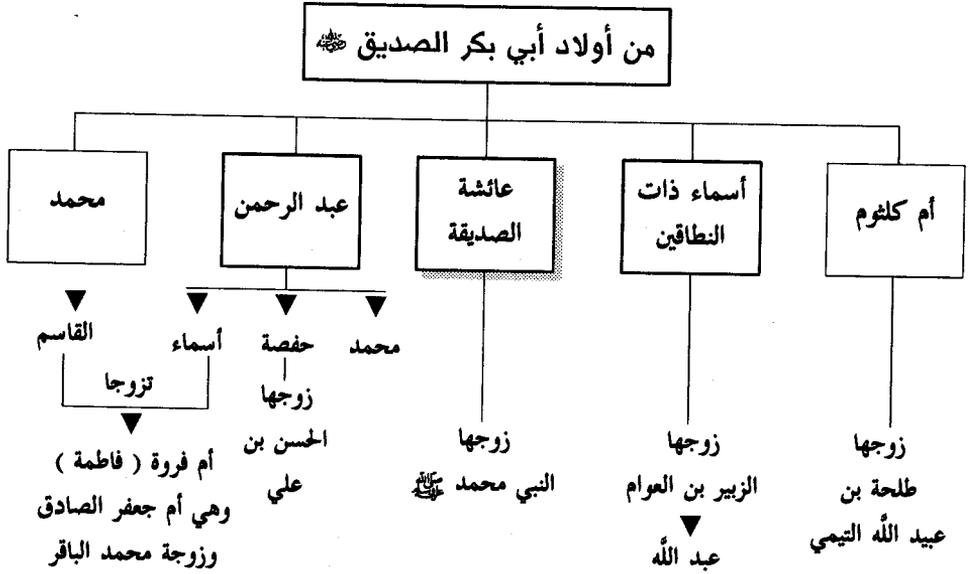


لمعرفة الترقيم الوارد هنا: (أ) و (١ ب)، وفي المصاهرات الباقية - تم ترقيم كل مصاهرة من هذه المصاهرات الخمس الواردة؛ لكي تسهل الإشارة إليها بالأرقام نفسها في هذا المخطط الإيضاحي؛ بحيث يسمى الزوج بالحرف (أ) بينما تسمى الزوجة بالحرف (ب) أمام كل رقم؛ لكي تتضح العلاقة بينهما في ثنايا ذلك المخطط الإيضاحي.

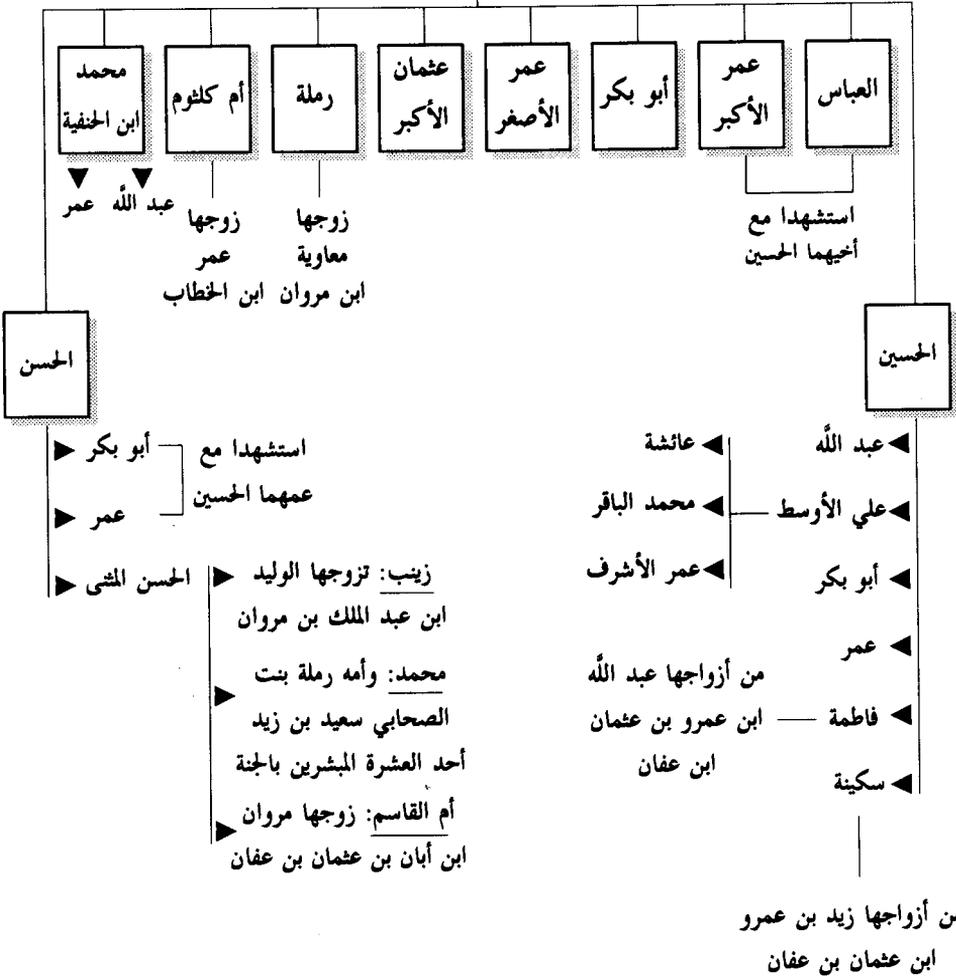
الآل والأصحاب أصهار وأحباب

قال الله تعالى: ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].
قال رسول الله ﷺ: « وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي » - قالها ثلاثاً [صحيح مسلم].
بهذه الشجرة شهدت ونطقت مصادر المسلمين أن الآل والأصحاب شيء واحد، يسمى بعضهم بأسماء بعض والصاهرة قائمة بين الطرفين، فلنحذر من المدسوس في التاريخ.

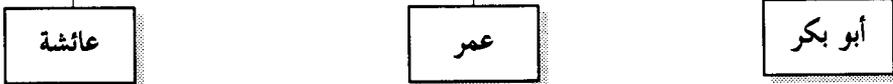




من أولاد علي بن أبي طالب عليه السلام



من أولاد موسى الكاظم ابن جعفر الصادق عليه السلام



من أهل البيت

تابعي

صحابي

المصادر والمراجع

أولاً: مصادر أهل السنة:

الألباني (محمد ناصر الدين):

- سلسلة الأحاديث الضعيفة المكتب الإسلامي - بيروت.

الآلوسي محمود أبو الفضل:

- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- خطة المنار في التأليف بين المسلمين، مجلة المنار مجلد (٢٩)، (٤٢٤/٦)،

ربيع الآخر (١٣٧٤ هـ) أكتوبر (١٩٢٨ م)، وهي في أصلها صورة الكتاب الذي أرسله إلى علامة الشام الشيخ جمال الدين القاسمي في الرد على صاحب رسالة (الحصون المنيعه فيما أورده صاحب المنار في الشيعة) العالمي.

الأمدي (ت ٦٣١ هـ):

- إحكام الأحكام، دار الكتاب العربي - بيروت (١٤٠٤ هـ)، (ط ١)، تحقيق /

السيد الجميلي.

إبراهيم العلي:

- صحيح السيرة النبوية، دار النفائس - الأردن (ط ٧)، (١٤٢٥ هـ / ٢٠٠٤ م).

أحمد حارس سحيمي:

- توثيق السنة بين الشيعة الإمامية وأهل السنة في أحكام الإمامة ونكاح المتعة،

ماجستير دار العلوم. دار السلام، القاهرة، (٢٠٠٣ م)، (ط ١).

أحمد قوشتي عبد الرحيم (الدكتور):

- حجية الدليل النقلي بين المعتزلة والأشاعرة، ماجستير دار العلوم (١٤١٩ هـ /

١٩٩٨ م)، إشراف الأستاذ الدكتور / محمد عبد الله الشرقاوي.

أحمد (الإمام أحمد بن حنبل الشيباني):

- مسند الإمام أحمد، دار صادر - بيروت.

أحمد محمود شاكر:

- الباحث الحثيث للأستاذ المحقق / أحمد محمود شاكر، وهو شرح اختصار علوم الحديث للحافظ ابن كثير، دار الندوة الجديدة - بيروت (١٤١٢هـ / ١٩٩٢م).

أحمد أمين:

- فجر الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٢٠٠٠م).

الإسفرائيني: طاهر بن محمد الإسفرائيني (ت ٤٧١هـ):

- التبصير في الدين وتمييز الفرقه الناجية عن فرق الهالكين، (ط ١)، عالم الكتب - بيروت (١٩٨٣م)، تحقيق / كمال يوسف الحوت.

أبو الحسن الأشعري:

- أصول أهل السنة والجماعة المستأمة برسالة أهل الثغر، مكتبة العلوم والحكم - دمشق، الطبعة الأولى، (١٩٨٨م)، تحقيق / عبد الله شاكر محمد الجندي.

- مقالات الإسلاميين، دار إحياء التراث العربي - بيروت، تحقيق / هلموت ريتز (ط ٣). وطبعة الهيئة العامة لقصور الثقافة (ط ٤)، (١٤٢١هـ / ٢٠٠١م).

الأندكاني:

- صدق الكلام في علم الكلام، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، تحقيق / الأستاذ حافظ عاشور حافظ عبد الحليم (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).

أنور الباز:

- عصمة الأئمة عند الشيعة، دار الوفاء، (ط ١)، (١٤١٩هـ / ١٩٩٨م). وأصلها رسالة ماجستير في الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة.

الإيجي: (عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي):

- المواقف، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، (١٩٩٧م)، تحقيق / د. عبد الرحمن عميرة. الباجوري (الشيخ):

- شرح جوهره التوحيد: مؤسسة أنس بن مالك للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت.

الباقلاني (أبو بكر محمد بن الطيب بن جعفر بن القاسم الباقلاني):

- تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت، (ط ١)، (١٩٨٧م) تحقيق / عماد الدين أحمد حيدر.

الإمام البخاري:

- صحيح البخاري، دار الفكر - بيروت.

البديوي، خالد بن محمد بن صالح:

- أعلام التصحيح والاعتدال مناهجهم وآراؤهم (في صفوف الإمامية في القرن الأخير)،
(ط ١)، (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م)، نسخة مصورة من مكتبة الملك فهد الوطنية.

البغدادي: عبد القادر البغدادي:

- الفرق بين الفرق، دار الآفاق الجديدة - بيروت، (ط ٢)، (١٩٧٧م).

البوطي: الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي:

- العقيدة الإسلامية والفكر المعاصر، (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م). مطبوعات جامعة دمشق.

اليهقي:

- السنن الكبرى، تحقيق / محمد عبد القادر عطا، دار الباز - مكة (١٤١٤هـ / ١٩٩٤م).

- الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، دار الآفاق الجديدة - بيروت (ط ١)،

(١٤١١هـ)، تحقيق / أحمد عصام الكاتب.

الفتازاني (سعد الدين بن مسعود بن عمر، ت ٧٩٢هـ):

- شرح العقائد النسفية: تحقيق / محمد عدنان درويش، تقديم / الشيخ أديب

الكلاس، د. ت.

تقي الدين العثماني:

- تكملة فتح الملهم بشرح صحيح مسلم، دار القلم - دمشق (١٤٢٧هـ / ٢٠٠٦م).

ابن تيمية: (أحمد بن عبد الحلیم):

- التدمرية: ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام.

- التسعينية ضمن مجموع الفتاوى، ط كردستان (١٣٢٩هـ).

- رسالة في (فضل أهل البيت وحقوقهم) جمع أبي تراب الظاهري، دار وحي

القلم (١٤٢٥هـ / ٢٠٠٤م).

- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية، مؤسسة قرطبة، تحقيق / د. محمد

رشاد سالم (١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م).

الجزجاني:

- التعريفات، دار الكتاب العربي - بيروت، (١٤٠٥ هـ)، (ط ١)، تحقيق / إبراهيم الأبياري.

الجزائري: الشيخ طاهر الجزائري:

- الجوهرة في قواعد العقائد، تصحيح حسن السماحي سويدان، دار القلم - دمشق (١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م).

رسول جعفریان:

- أكذوبة تحريف القرآن، الناشر: ممثلة الإمام الخامنئي في الحج، مطبعة سلمان الفارسي، (١٤١٣ هـ).

ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن):

- تلبیس إبلیس: تحقیق / خیر الدین علی، دار الوعی العربي - بیروت.

- الموضوعات: تحقیق / عبد الرحمن عثمان، دار الفکر، (ط ٢)، (١٤٠٣ هـ).

الحارث الحاسبي:

- العقل وفهم القرآن، تحقیق وتقديم / حسین القوتلی، دار الفکر (١٣٩١ هـ / ١٩٧١ م).

ابن حبان:

- کتاب المجروحین، تحقیق / محمود إبراهيم زايد.

- صحیح ابن حبان، مؤسسة الرسالة، (ط ٢)، (١٤١٤ هـ / ١٩٩٣ م)، تحقیق /

شعیب الأرنؤوط.

ابن حجر:

- تقریب التهذیب، دار الکتب العلمیة - بیروت، (١٤١٥ هـ)، تحقیق / مصطفى

عبد القادر عطا، وطبعة دار الرشيد - دمشق (١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م)، (ط ١)،

تحقیق / الشیخ محمد عوامة.

- تهذیب التهذیب، دار الفکر، بیروت، (ط ١)، (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م).

- فتح الباری شرح صحیح البخاری، دار المعرفة - بیروت.

- لسان المیزان، مؤسسة الأعلمی للمطبوعات - بیروت، (١٣٩٠ هـ).

ابن حجر الهيتمي (أبو العباس أحمد بن محمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي):
- الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، مؤسسة الرسالة، بيروت،
(ط ١)، (١٩٩٧ م)، تحقيق / عبد الرحمن بن عبد الله التركي وكامل محمد الخراط.

ابن حزم:

- الفصل في الملل والأهواء والنحل، مكتبة الخانجي - القاهرة.

حسن خطاف (الدكتور):

- منزلة السنة في الفكر المعتزلي، أطروحة دكتوراه، جامعة الزيتونة، (٢٠٠٣ م).

حسن الشافعي (الأستاذ الدكتور):

- مدخل إلى علم الكلام، مكتبة وهبة، (ط ٢)، (١٤١١ هـ / ١٩٩١ م).

حسن بن فرحان المالكي:

- نحو إنقاذ التاريخ الإسلامي (قراءة نقدية لنماذج من الأعمال والدراسات الجامعية)،

كتاب الرياض العدد (٤٢) يونيو (١٩٩٧ م)، مؤسسة الإمامة الصحفية.

خالد علي عباس القط (الدكتور):

- أثر الأحاديث الموضوعية في نشأة وصياغة عقائد الشيعة الإمامية، رسالة دكتوراه،

كلية البنات، قسم الدراسات الفلسفية، إشراف الدكتورة / كوكب محمد عامر،

(١٤٢٢ هـ / ٢٠٠١ م).

الدولابي (أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابي، ت ٣١٠ هـ):

- الذرية الطاهرة: الدار السلفية - الكويت (١٤٠٧ هـ) تحقيق / سعد المبارك الحسن.

الحافظ الذهبي:

- المنتقى من منهاج الاعتدال في نقض كلام أهل الرفض والاعتزال (مختصر منهاج

السنة) تحقيق / الشيخ محب الدين الخطيب، المطبعة السلفية.

- سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، (١٤١٣ هـ). تحقيق / شعيب

الأرنؤوط ومحمد نعيم العرقسوسي.

- ميزان الاعتدال، دار المعرفة - بيروت.

الرازي (محمد بن عمر بن الحسين أبو عبد الله):

- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، (١٣٩٨ هـ).

رشدي، عبد الستار:

- الأثر الأفلاطوني في الفكر السياسي الإسلامي، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم.
رمزي نعاة (الدكتور):

- بدع التفسير في الماضي والحاضر، من منشورات وزارة الأوقاف والشؤون
والمقدسات الإسلامية، المملكة الأردنية الهاشمية، وقد وجدته بالعنوان نفسه لأستاذه
الذهبي صاحب (التفسير والمفسرون) ينسبه لنفسه.

الزبيدي محمد مرتضى:

- تاج العروس، مكتبة الحياة - بيروت.

سعيد أحمد الأفندي:

- قواعد المنهج عند ابن الوزير اليماني بين النظرية والتطبيق مع تحقيق / مخطوط
ترجيح أساليب القرآن على أساليب اليونان، رقم (١٢٦٠) رسائل كلية دار العلوم،
إشراف الأستاذ الدكتور / سيد رزق الحجر.

سميح دغيم (الدكتور):

- موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، مكتبة لبنان ناشرون.

السنهوتي (الأستاذ الدكتور):

- التنزيه والتشبيه عند متكلمي الاثني عشرية، إشراف الأستاذ الدكتور / محمد
كمال جعفر، جامعة القاهرة، كلية دار العلوم، رسالة دكتوراه، عام (١٩٧٧ م).

- عقائد الإمامية الاثني عشرية وأصولها، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم، عام
(١٩٦٧ م)، إشراف الأستاذ الدكتور / محمود قاسم.

سيد رزق الحجر (الأستاذ الدكتور):

- ابن الوزير ومنهجه الكلامي، ضمن رسائل كلية دار العلوم الجامعية، طبع الدار
السعودية للنشر والتوزيع (١٩٨٦ م).

السيوطي:

- الإتقان في علوم القرآن، دار ابن كثير، دمشق، (ط ٣)، (١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م)،
تحقيق / د. مصطفى ديب البغا.

الشهرستاني (محمد بن عبد الكريم أبو الفتح ت ٥٤٨ هـ):

- الملل والنحل، المكتبة التوفيقية، تحقيق / محمد بن فريد، وطبعة دار المعرفة - بيروت (١٤٠٤ م)، تحقيق / محمد سيد كيلاني.

الشوكاني:

- نيل الأوطار، دار الجليل - بيروت.

صابر عبده أبا زيد (الدكتور):

- الإلهيات عند الشيعة الاثني عشرية، مع تحقيق / مخطوطة شرح الوشحي على تجريد العقائد للطوسي، آداب الإسكندرية، رقم [٥٢٠٩ - ٥٢١١]، رسالة دكتوراه عام (١٩٨٧ م).

- منهاج أهل السنة في الرد على الشيعة والقدرية: عرض تحليلي نقدي، دار الوفاء لدنيا الطباعة، الإسكندرية، (٢٠٠٠ م).

الطبري ابن جرير (الإمام المفسر والمؤرخ السني):

- تاريخ الأمم والملوك، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويد - بيروت.

الطحاوي:

- الطحاوية مع شرحها: المكتب الإسلامي، (ط ٤)، (١٣٩١ هـ) - بيروت.

عائشة يوسف المناعي (الدكتورة):

- أصول العقيدة بين المعتزلة والشيعة الإمامية: دار الثقافة - الدوحة، (ط ١)، (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م)، وأصلها رسالة دكتوراه، جامعة الأزهر، (١٩٩١ م).

عامر النجار (الدكتور):

- في مذاهب الإسلاميين (الخوارج، الإباضية، الشيعة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (٢٠٠٥ م).

عبد الجبار بن أحمد الهمداني (القاضي المعتزلي):

- تثبيت دلائل النبوة، تحقيق / عبد الكريم عثمان، دار العربية - بيروت.

عبد الحليم محمود (الشيخ):

- التفكير الفلسفي في الإسلام، دار المعارف - القاهرة، (١٩٨٤ م).

عبد الرحمن حبنكة الميداني:

- العقيدة الإسلامية وأسسها، دار القلم - دمشق، (ط ٧)، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م).

عبد العزيز حاجي (الدكتور):

- تفسير آيات العقيدة: استعراض شامل لمذاهب المفسرين في العقيدة، دار الصابوني (١٤٢٤ هـ)، رسالة دكتوراه في كلية دار العلوم، القاهرة.

عبد الفتاح أحمد الفاوي (الأستاذ الدكتور):

- اختلافات المسلمين بين السياسة والدين، مطبوعات قسم الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة، (١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م).

- المنظومة الشيعية وآلياتها، مجلة: حوليات دار العلوم، جامعة القاهرة، العدد (١٧)، سنة (١٩٩٤ م)، مطبعة جامعة القاهرة (١٩٩٥ م).

عبد الله عبد الله الموصلي:

- حقيقة الشيعة: دار الحرمين للطباعة - القاهرة، (ط ١)، (١٩٩٢ م).

العجلي (أحمد بن عبد الله ت ٢٦١ هـ):

- معرفة الثقات، مكتبة الدار، المدينة المنورة، (ط ١)، (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).

ابن عساكر:

- تاريخ مدينة دمشق، دار الفكر، بيروت (١٤١٥ هـ)، تحقيق / علي شيري.

علي أحمد السالوس (الدكتور):

- مع الاثني عشرية في الأصول والفروع موسوعة شاملة وحول تفسير البيان بالذات. دار التقوى - مصر (ط ٤)، (١٤٢٣ هـ / ٢٠٠٢ م).

علي سامي النشار (الدكتور):

- نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف - القاهرة، (ط ٨).

علي بن محمد المعروف بالموخر (كان حيًا عام ١١١٨ هـ):

- مبلغ الطالب إلى معرفة الطالب، (ط ١)، (١٤٢٧ هـ / ٢٠٠٦ م). تحقيق

الشيخ / حبيب بن الطاهر، دار اليمامة - دمشق.

عمر محمد الفرماوي (الدكتور):

- أصول الرواية عند الشيعة الإمامية، رسالة دكتوراه من قسم الحديث في كلية أصول الدين - جامعة الأزهر، (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

- الشيعة والصحابة، مكتبة الإيمان، المنصورة، (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

العجلوني (إسماعيل بن محمد الجراحي ت ١١٦٢هـ):

- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، دار الكتب العلمية (٢ ط)، (١٤٠٨هـ).

عداب محمود الحمش (الدكتور):

- المهدي المنتظر في روايات أهل السنة والشيعة الإمامية، دراسة حديثة نقدية، دار الفتح للنشر والتوزيع - الأردن - عمان، (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م).

الغزالي (الإمام):

- فضائح الباطنية: تحقيق / د. عبد الرحمن بدوي، مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت.
- المقصد الأسنى، نشر الجفان الجابي - قبرص (١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م)، تحقيق / بسام عبد الوهاب الجابي.

فتحي محمد الزغبى (الدكتور):

- غلاة الشيعة وتأثرهم بالأديان المغايرة للإسلام (اليهودية والمسيحية والمجوسية) (ط ١)، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م)، أصلها رسالة ماجستير كلية أصول الدين، طنطا - قسم العقيدة والفلسفة (١٩٨٥م).

القاري (الملا علي القاري):

- المصنوع في معرفة الحديث الموضوع: مكتبة الرشد - الرياض (١٤٠٤هـ)، تحقيق / الشيخ عبد الفتاح أبو غدة.

- الحذر في أمر الخضر، تحقيق / محمد خير رمضان، دار القلم - بيروت (١٤١١هـ / ١٩٩١م).

القشيري (أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن ٣٧٦ - ٤٦٥هـ):

- الرسالة القشيرية، تعليق الدكتور / عبد الحليم محمود، تحقيق / عبد الكريم عطا، دار علوم القرآن - دمشق، (٢٠٠٠م).

- القضاعي: (الحافظ أبو عبد الله محمد بن سلامة القضاعي المصري الشافعي): -
 - دستور معالم الحكم ومأثور مكارم الشيم من كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب
 كرم الله وجهه، دار القلم - دمشق (١٤٢٤ هـ / ٢٠٠٣ م).
 القيرواني: أبو محمد عبد الله بن زيد القيرواني (٣١٠ - ٣٨٦ هـ):
 - الرسالة القيروانية شرح عقيدة أهل السنة والجماعة على مذهب الإمام مالك، مع شرح
 القيروانية الميسر، محمد بن عبد الرحمن الحميس، دار الفتح، الشارقة، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م).
 ابن كثير:
 - تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة - بيروت (١٤١٢ هـ).
 - البداية والنهاية، دار إحياء التراث العربي - بيروت (ط ١)، (١٤١٨ هـ) تحقيق /
 علي شيري، وطبعة دار الفكر - بيروت (١٣٩٨ هـ / ١٩٧٨ م).
 الكناني: أحمد بن أبي بكر:
 - تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الضعيفة والموضوعة، تحقيق / عبد الوهاب
 عبد اللطيف وعبد الله صديق، دار الكتب العلمية - بيروت، (١٤٠١ هـ).
 - مصباح الزجاجة، دار العربية - بيروت (١٤١٣ هـ)، تحقيق / محمد الكشناوي.
 ابن ماجه:
 - سنن ابن ماجه، دار الفكر - بيروت، ترقيم / محمد فؤاد عبد الباقي.
 مامادو كارامبيري:
 - موقف الرافضة من القرآن الكريم، مكتبة ابن تيمية.
 محب الدين الخطيب (الشيخ):
 - الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية.. مقتطف من
 مذكرات علامة العراق السيد عبد الله بن الحسين السويدي العباسي (١١٠٤ -
 ١١٧٤ هـ) المكتبة السلفية - القاهرة (١٣٩٣ هـ).
 محسن عبد الناظر:
 - مسألة الإمامة والوضع في الحديث عند الفرق الإسلامية، الدار العربية للكتاب.
 محمد أبو زهرة (الشيخ):
 - تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي - القاهرة.

محمد حميد الله:

- مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والراشدي، دار النفائس.

محمد خير رمضان يوسف:

- الخضر بين الواقع والتهويل (دراسة تحليلية مقارنة على ضوء الكتاب والسنة والتاريخ) دار القلم - دمشق، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م).

محمد السيد الجليند (الأستاذ الدكتور):

- الإمام ابن تيمية وقضية التأويل (دراسة لمنهج ابن تيمية في الإلهيات وموقفه من المتكلمين والفلاسفة والصوفية)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (ط ٥)، (٢٠٠٠ م).

محمد عبد المنعم بري:

- الجذور اليهودية في كتاب (علل الشرايع)، طبعة جبهة علماء الأزهر.

محمد عمارة (الدكتور):

- رسائل العدل والتوحيد: قسم الدراسة، دار الهلال، (١٩٧١ م).

- الوسيط في المذاهب والمصطلحات الإسلامية، نهضة مصر، (٢٠٠٠ م).

محمد مال الله:

- نقد ولاية الفقيه، تقديم / د. نظام الدين الأعظمي، (ط ٢)، (١٤٠٩ هـ / ١٩٨٩ م).

المزي (يوسف بن الزكي عبد الرحمن أبو الحجاج):

- تهذيب الكمال، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة الأولى، (١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م)، تحقيق / د. بشار عواد معروف.

مسلم بن الحجاج (الإمام):

- صحيح مسلم، دار الفكر - بيروت، وطبعة دار المعرفة - بيروت، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٥ م)، (ط ٢)، تحقيق / الشيخ خليل مأمون شيحا.

مصطفى سعيد الحنن (الأستاذ الدكتور):

- مبادئ العقيدة الإسلامية، (ط ٦)، مطبعة جامعة دمشق (١٤١٢ هـ / ١٩٩١ م).

الملطي (أبو الحسين محمد بن أحمد):

- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، تعليق / الشيخ محمد زاهد الكوثري، مكتبة المعارف - بيروت (١٣٨٨ هـ).

ابن منظور:

- لسان العرب، (ط ١)، دار إحياء التراث العربي، (١٤٠٥ هـ).

ناصر بن عبد الله علي القفاري (الدكتور):

- أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثني عشرية، دار الرضا للنشر والتوزيع، الجيزة مصر، (ط ٣)، (١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م).

- فكرة التقريب بين أهل السنة والشيعة: رسالة ماجستير، قسم العقيدة والمذاهب، جامعة الإمام محمد بن سعود.

النسائي (الإمام):

- سنن النسائي الكبرى، دار الكتب العلمية - بيروت، (١٤١١ هـ / ١٩٩١ م).

الندوي (الشيخ أبو الحسن علي الحسن الندوي):

- صورتان متضادتان لنتائج جهود الرسول الأعظم ﷺ بين السنة والشيعة الإمامية، (١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م).

- المرتضى سيرة أمير المؤمنين سيدنا أبي الحسن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه، دار القلم دمشق (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، (ط ٢).

النوي:

- شرح صحيح مسلم، دار الكتاب العربي، بيروت، (١٤٠٧ هـ)، (ط ٢).

ابن الوزير:

- إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، دار الكتب العلمية - بيروت (ط ٢)، (١٩٧٨ م).

ثانياً: مصادر الشيعة الاثني عشرية:

آغا بزرك الطهراني:

- الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء - بيروت، (ط ٣)، (١٤٠٣ هـ).

إحسان الأمين:

- التفسير بالمأثور وتطويره عند الشيعة الإمامية، دار الهادي - بيروت (ط ١)، (١٤٢١ هـ / ٢٠٠٠ م).

- الإحقاقي (ميرزا حسن الخائري):
 - الإيمان، مكتبة الصادق، الكويت (ط ٢)، (١٤١٢ هـ).
 أحمد الوائلي (الشيخ الدكتور):
 - هوية التشيع، دار الصفوة - بيروت، (ط ٣)، (١٤١٣ هـ).
 أحمد بن علي النجاشي أبو العباس (ت ٤٦٠ هـ):
 - رجال النجاشي: تحقيق / محمد جواد النائيني، (ط ١) دار الأضواء - بيروت.
 وطبعة مؤسسة النشر الإسلامي - قم، (١٤١٦ هـ).
 الأصفهاني (آية الله العظمى):
 - آراء حول القرآن، دار الهادي.
 الأميني (عبد الحسين الأميني ت ١٣٩٢):
 - الغدير في الكتاب والسنة والأدب، دار الكتاب العربي - بيروت (ط ٤)،
 (١٣٩٧ هـ).
 الأنصاري (الشيخ مرتضى ت ١٢٨١ هـ):
 - كتاب المكاسب، تحقيق / لجنة تحقيق تراث الشيخ الأعظم، مطبعة باقري - قم،
 (ط ١)، (١٤١٥ هـ).
 باقر شريف القرشي:
 - سلامة القرآن الكريم من التحريف، (١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م).
 البحراني:
 - الحدائق الناضرة، تحقيق / محمد تقي الأيرواني، طبع جماعة المدرسين - قم.
 - البرهان في تفسير القرآن، مؤسسة البعثة - طهران، تحقيق / قسم الدراسات الإسلامية.
 ابن البراج الطرابلسي (القاضي عبد العزيز ت ٤٨١ هـ):
 - المهذب، مؤسسة النشر التابعة لجماعة المدرسين، المطبعة العلمية - قم (١٤٠٦ هـ)،
 إشراف / الشيخ جعفر السبحاني.
 البرقعي (آية الله العظمى أبو الفضل بن رضا):
 - كسر الصنم (نقض كتاب أصول الكافي)، (ط ١)، دار البيارق - عمان،
 (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، ترجمة / د. عبد الرحيم ملا زادة البلوشي.

البروجردى:

- تفسير الصراط المستقيم، تحقيق / غلام رضا البروجردى، مؤسسة الوفاء - بيروت، (ط ١)، (١٤٠٣ هـ).

التبريزي: محمد علي بن أحمد التبريزي الأنصاري (ت ١٣١٠ هـ):

- اللمعة البيضاء، (١٤١٨ هـ)، مؤسسة الهادي - قم، تحقيق / السيد هاشم الميلاني.

التستري: الشهيد نور الله التستري (ت ١٠١٩ هـ):

- الصوارم المهرقة في نقض الصواعق المحرقة، مطبعة نهضة إيران، (١٣٦٧ هـ).

- دلائل الإمامة، (ط ١). تحقيق / قسم الدراسات، مؤسسة البعثة - قم، (١٤١٣ هـ).

الجزائري (السيد نعمة الله، ت ١١١٢ هـ):

- الأنوار النعمانية، مؤسسة الأعلمي - بيروت.

- نور البراهين في أخبار السادة الطاهرين، (ط ١)، (١٤١٧ هـ)، مؤسسة النشر

الإسلامي - قم، تحقيق / السيد الرجائي.

جعفر السبحاني:

- بحوث في الملل والنحل، مؤسسة الصادق - قم، (١٤١٦ هـ).

- العقيدة الإسلامية على ضوء مدرسة أهل البيت، ترجمة / جعفر الهادي (ط ١)،

(١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م) - قم.

جلال الدين الأشتياني:

- التفكير العقلي والفلسفي في الإسلام، ضمن مجلة المحجة: مجلة فصلية

متخصصة تعنى بشؤون الفكر الديني والفلسفة الإسلامية المعاصرة، تصدر عن المعهد

الإسلامي للمعارف الحكيمة بالتعاون مع دار الهادي، العدد الأول تشرين أول

(٢٠٠١ م / ١٤٢٢ هـ) - بيروت.

الحر العاملي (محمد بن الحسن الحر العاملي، ت ١١٠٤ هـ):

- الفصول المهمة، مؤسسة معارف إسلامي إمام رضا - قم، (١٤١٨ هـ).

- وسائل الشيعة: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث - قم، (١٤١٤ هـ).

ابن أبي الحديد (ت ٦٥٦ هـ):

- شرح نهج البلاغة. دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركاه، مصر، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم.

الحكيمي (محمد رضا الحكيمي):

- سلوني قبل أن تفقدوني من مختصات أمير المؤمنين، مكتبة الصدر، طهران (١٤٢٠ هـ).

الحلي (المحقق):

- المسلك في أصول الدين، وتليه الرسالة الماتعية، مؤسسة الطبع والنشر في الأستانة الرضوية المقدسة (١٤١٤ هـ)، تحقيق / رضا الأستاذي.

الخامني:

- الأصول الأربعة في علم الرجال، تقديم / الشيخ محمد علي التسخيري، (١٤١٤ هـ).

الخميني (روح الله):

- الحكومة الإسلامية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، والكتاب في الأصل دروس فقهية ألقاها على طلاب النجف تحت عنوان: (ولاية الفقيه) عام (١٣٨٩ هـ).
- تحرير الوسيلة، الدار الإسلامية - بيروت.

الخنيزي (أبو الحسن، من شيعة القطيف):

- مقدمة في أصول الدين، مؤسسة البلاغ، بيروت، (١٤١٦ هـ / ١٩٩٦ م).

الخوانساري:

- البيان في تفسير القرآن، دار الزهراء - بيروت، (١٣٩٥ هـ)، (ط ٤).

- رسالتان في البداء، ضمن قرص ليزري (المعجم الفقهي).

- معجم رجال الحديث وتفصيل طبقات الرواة، تحقيق / محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، منشورات مكتبة آية الله المرعشلي النجفي، و (ط ٥)، لجنة التحقيق (١٤١٣ هـ).

الخوانساري (محمد باقر):

- روضات الجنات في أحوال العلماء السادات، تحقيق / أسد الله إسماعيليان، المطبعة الحيدرية، (١٩٥٠ م).

دستغيب (آية الله السيد عبد الحسين دستغيب):

- الدار الآخرة، مؤسسة المنار، (ط ٢)، ترجمة / لجنة الهدى.

رضي الدين علي بن موسى بن جعفر بن طاوس (ت ٦٦٤ هـ):

- إقبال الأعمال، (١٤١٤ هـ)، مكتب الإعلام الإسلامي.

زين الدين (أبو محمد علي بن يونس النباطي العاملي البياضي ت ٨٧٧ هـ):

- الصراط المستقيم إلى مستحقي التقديم، المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، مطبعة الحيدري. (ط ١)، (١٣٨٤ هـ).

زين العابدين (علي بن الحسين بن علي):

- الصحيفة السجادية، برواية الأبطحي، طبعة جماعة المدرسين - قم.

الزنجاني (إبراهيم الموسوي):

- عقائد الإمامية الاثني عشرية، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، (١٣٩٣ هـ / ١٩٧٣ م).

سالم الصفار:

- نقد منهج التفسير والمفسرين المقارن، دار الهادي - بيروت، (١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م).

سليم بن قيس الهلالي أبو صادق (ت ٩٠ هـ):

- كتاب سليم بن قيس، تحقيق / محمد باقر الأنصاري.

صالح الورداني:

- المناظرات بين فقهاء السنة والشيعة، الهدف، القاهرة. وهو كتاب منحول عن (مؤتمر علماء بغداد) الذي لأبي الهيجاء شبل الدولة: مقاتل بن عطية البكري، (١٤١٥ هـ / ١٩٩٤ م)، تحقيق / الشيخ محمد جميل حمود، منشورات لبنان: الجنوب - النفاخية.

الصدوق (محمد بن علي بن بابويه القمي):

- إكمال الدين وإتمام النعمة، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، (١٤٠٥ هـ).
- الاعتقادات في دين الإمامية، إيران، (١٣٢٠ هـ).
- التوحيد، نشر جماعة المدرسين - قم، (١٣٨٧ هـ).
- الخصال، تصحيح علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق - طهران، (١٣٨٩ هـ).
- علل الشرائع، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - لبنان، (١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م).
- عيون أخبار الرضا، ثلاث طبعات: طبعة إيران، (١٣١٨ هـ). وطبعة منشورات الشريف الرضي - قم (١٣٧٨ هـ)، (ط ١)، وطبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، (١٤٠٤ هـ).

- معاني الآثار، تحقيق / علي أكبر غفاري، طبعة انتشارات إسلامي.
- من لا يحضره الفقيه، تحقيق / علي أكبر غفاري، (١٤٠٤ هـ)، جماعة المدرسين - قم.
- الهداية في الأصول والفروع، مؤسسة الهادي - قم، (١٤١٨ هـ).

ابن طاوس الحسني (٦٦٤ هـ):

- اللّهُوف في قتلى الطفوف، طبعة مهر، (ط ١)، (١٤١٧ هـ).
- الطباطبائي (محمد حسين):
- الشيعة في الإسلام، مركز بقية الله الأعظم - بيروت، (١٩٩٩ م).
- القرآن في الإسلام، مؤسسة الإعلام الإسلامي - طهران، (١٤٠٤ هـ).
- الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي - بيروت، (١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م).

الطبرسي (الفضل بن الحسن):

- تفسير: مجمع البيان، دار مكتبة الحياة - بيروت.
- الطبرسي أبو المنصور أحمد بن علي بن أبي طالب (من علماء القرن السادس):
- الاحتجاج، منشورات الشريف الرضي، (١٣٨٠ هـ).

الطبري (محمد بن جرير بن رستم الطبري):

- المسترشد في إمامة أمير المؤمنين، مطبعة سلمان الفارسي، قم، (ط ١)، تحقيق / الشيخ أحمد الحمودي.

- دلائل الإمامة، (ط ١)، تحقيق / قسم الدراسات، مؤسسة البعثة - قم (١٤١٣ هـ).
- الطبسي (محمد جعفر):
- رجال الشيعة في أسانيد السنة، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم (١٤٢٠ هـ).
- الطوسي (أبو جعفر محمد بن الحسن بن علي ت ٤٦٠ هـ):
- اختيار معرفة الرجال، طبع مؤسسة آل البيت - قم (١٤٠٤ هـ)، تحقيق / محمد باقر الحسيني وآخرين، وهو تهذيب لكتاب معجم الرجال للكشي.
- الاستبصار فيما اختلف من الأخبار، تحقيق / حسن الخراسان، دار الكتب الإسلامية - طهران، (ط ٣)، (١٣٩٠ هـ).
- الاقتصاد الهادي إلى سبيل الرشاد - قم، مكتبة جامع جهلستون، (١٤٠٠ هـ)، تحقيق / الشيخ حسن سعيد.
- الأمالي، (ط ١)، (١٤١٤ هـ)، دار الثقافة - قم.
- التبيان في تفسير القرآن، النجف، (١٣٨٣ هـ).
- تهذيب الأحكام، تحقيق / حسن الخراسان، دار الكتب الإسلامية، طهران، (ط ٣)، (١٣٩٠ هـ).
- عدة الأصول، مؤسسة آل البيت - قم.
- الغيبة، مؤسسة المعارف الإسلامية - قم، (ط ١)، (١٤١١ هـ).
- الفهرست: مؤسسة الوفاء - بيروت، (ط ٣)، (١٤٠٣ هـ).
- العالمي (الشهيد الثاني زين الدين العالمي، ت ٩٦٥ هـ):
- حقائق الإيمان، تحقيق / السيد مهدي الرجائي، إشراف / السيد محمود المرعشي، (ط ١)، (١٤٠٩ هـ)، مطبعة سيد الشهداء - قم، وانظر: استدلال المجلسي بحار الأنوار (٣٦٧/٨).
- الروضة البهية، شرح اللمعة الدمشقية (لشهاد الأول محمد بن جمال الدين العالمي ت ٧٨٦ هـ) طبعة قم (١٤١٠ هـ).
- شرح البداية في علم الدراية، قم.
- العالمي محسن الأمين:
- أعيان الشيعة، مطبعة ابن زيدون - دمشق.

عبد الحسين شرف الدين الموسوي:

- الفصول المهمة في تأليف الأمة، دار الزهراء - بيروت، (ط ٧)، (١٣٦٧ هـ).

عبد الرسول الغفاري:

- بين الكليني وخصومه، دار المحجة البيضاء - لبنان.

- الكليني والكافي، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، (١٤١٦ هـ)، (ط ١).

عبد الله شبر (ت ١٢٤٢ هـ):

- حق اليقين في معرفة أصول الدين، دار الأضواء - بيروت (ط ١)، (١٤٠٤ هـ).

وطبعة مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت - لبنان، (١٤١٨ هـ / ١٩٩٧ م)، (ط ١).

عبد الله نعمة:

- فلاسفة الشيعة: حياتهم وآراؤهم، دار الفكر اللبناني، بيروت.

- هشام بن الحكم، دار الفكر اللبناني (ط ٢)، (١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤ م).

عدنان العلوي آل عبد الجبار البحراني:

- مشارق الشموس الدرية في أحقيّة مذهب الأخبارية، منشورات المكتبة العدنانية - البحرين.

علي البروجردي الجابلق (ت ١٣١٣ هـ):

- طرائف المقال، مكتبة آية الله العظمى المرعشلي - قم، (١٤١٠ هـ)، تحقيق /

محمد السيد الرجائي.

علي الحسيني الميلاني:

- تزويج أم كلثوم من عمر (سلسلة الأبحاث العقائدية رقم ٢٩)، مركز الأبحاث

العقائدية، (ط ١).

علي بن أحمد الكوفي (ت ٣٥٢ هـ):

- الاستغاثة في بدع الثلاثة، دار الكتب العلمية - قم.

علي البخاري:

- مستدرک سفينة البحار، طبع جماعة المدرسين - قم، (١٤١٩ هـ).

علي بن يونس العاملي (٨٨٧ هـ):

- الصراط المستقيم: المكتبة المرتضوية لإحياء الآثار الجعفرية، تحقيق / محمد باقر البهبودي.

القاشاني (المولى محسن الفيض القاشاني، ت ١٠٩١ هـ):

- تفسير الصافي، مكتبة الصدر طهران (ط ٢)، (١٤١٦ هـ)، تحقيق / الشيخ حسين الأعلمي.

القزويني (الدكتور / علاء الدين بن السيد أمير محمد):

- مع الدكتور / موسى الموسوي في كتابه الشيعة والتصحيح، دائرة معارف الفقه الإسلامي طبقاً لمذهب أهل البيت، (ط ٢)، (١٤١٤ هـ / ١٩٩٤ م).

القمي (علي بن إبراهيم):

- تفسير القمي، تصحيح وتعليق / طيب الموسوي الجزائري، (ط ٢)، (١٣٨٧ هـ).

القمي (سعد بن عبد الله الأشعري القمي، (ت ٣٠١ هـ - وقيل: ٢٩٩ هـ):

- المقالات والفرق، تحقيق / الدكتور محمد جواد مشكور وفرهنكي، طهران، (١٩٦٣ م).

كاشف الغطاء (محمد حسين آل كاشف الغطاء):

- أصل الشيعة وأصولها، (ط ١)، (١٤١٥ هـ)، مؤسسة الإمام علي عليه السلام.

الكليني:

- أصول الكافي، تحقيق / محمد جعفر شمس الدين، دار التعارف للمطبوعات -

بيروت، (١٤١٩ هـ / ١٩٩٨ م)، تقديم / د. حسين علي محفوظ.

- فروع الكافي، دار الكتب الإسلامية آخوندي، (١٣٨٩ هـ)، تحقيق / علي أكبر

غفاري.

لطف الله الصافي:

- مع محب الدين الخطيب في خطوطه العريضة، مكتبة الصدر، طهران،

(١٣٩٠ هـ).

المازندراني (محمد صالح):

- شرح أصول الكافي، المكتبة الإسلامية، طهران، (١٣٨٤ هـ).

المامقاني (ت ١٣٥١ هـ):

- تلخيص مقباس الهداية، (ط ١)، جامعة الإمام الصادق - طهران، تحقيق / علي

أكبر الغفاري.

الجلسي:

- بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء - بيروت، الطبعة الثانية المصححة، (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).

محمد باقر الصدر:

- المعالم الجديدة للأصول، دار التعارف - بيروت.

- بحث حول الولاية، دار التعارف للمطبوعات - بيروت، (١٣٩٩هـ).

محسن المعلم:

- النصب والنواصب، دار الهادي - بيروت.

محمد بن إدريس الحلبي (٥٩٨هـ):

- السرائر: مؤسسة النشر الإسلامي جماعة المدرسين - قم (١٤١١) تحقيق / لجنة التحقيق.

محمد تقي مصباح اليزدي:

- دروس في العقيدة، مؤسسة الهدى للنشر والتوزيع، ترجمة / هاشم محمد -

طهران، (١٤٢٤هـ).

محمد جواد مغنية (ت ١٤٠٠هـ):

- الشيعة في الميزان، (ط ٤)، دار الشروق - بيروت.

- التفسير المبين، (ط ٢).

محمد حسين الأعلمي الحائري:

- دائرة المعارف الشيعية العامة، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت.

محمد حسين الفقيه:

- لماذا أنا شيعي، دار الغدير للدراسات والنشر، بيروت، (ط ٣)، (١٤١٧هـ / ١٩٩٦م).

محمد رضا المظفر:

- أصول الفقه، النجف، (١٩٦٧م).

- عقائد الإمامية، دار الغدير - بيروت (١٣٩٣هـ). وطبعة مؤسسة أنصاريان - قم

(١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م)، (ط ٣)، تقديم / د. حامد حفني داود.

محمد صالح الجوهري (الحاج):

- ضياء الصالحين، مكتبة الألفين - الكويت.

محمد الشيخ محمد صالح الحائري:

- منهاج عملي للتقريب إلى إخواننا المسلمين، مطبوع ضمن كتاب الوحدة الإسلامية أو التقريب بين المذاهب الإسلامية السبعة، وهو مجموعة مقالات لكبار علماء السنة والشيعية، جمعها ورتبها: عبد الكريم الشيرازي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، (ط ٢)، (١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م).

ابن عياش (محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمي السمرقندي، ت ٣٢٠ هـ):

- تفسير العياشي، المكتبة العلمية الإسلامية، طهران، تحقيق / هاشم الرسولي المحلاتي. محمد علي الحلو:

- عقائد الإمامية برواية الصحاح الستة، دار الهادي للطباعة والنشر - بيروت، (ط ١)، (١٤٢٠ هـ / ٢٠٠٠ م).

محمد هادي معرفة:

- صيانة القرآن من التحريف، (ط ١)، مؤسسة النشر الإسلامي - قم، (١٤١٣ هـ).

محيي الدين الموسوي الغريفي:

- قواعد الحديث، (ط ١)، مكتبة المفيد - قم.

مرتضى العسكري:

- ابن سبأ، (ط ٦)، (١٤١٣ هـ / ١٩٩٢ م) نشر التوحيد، تقديم / محمد جواد مغنية.

- معالم المدرستين، المجمع العلمي الإسلامي، (ط ٦)، (١٣١٤ هـ / ١٩٩٤ م).

المرتضى: (علي بن الحسين الشريف):

- نهج البلاغة، دار المعرفة، بيروت، تحقيق / الشيخ محمد عبده.

مرتضى مطهري:

- التوحيد، ترجمة / إبراهيم الخزرجي، دار المحجة البيضاء، ودار الرسول الأكرم،

(١٤١٨ هـ / ١٩٩٨ م).

- العدل الإلهي، الدار الإسلامية - بيروت، (١٤١٧ هـ / ١٩٩٧ م)، (ط ٣).

مروان خليفات:

- وركبت السفينة، مؤسسة دار الرشد للطباعة والنشر - بيروت، إصدار تمثلية آية الله العظمى

السيد محمد سعيد الطباطبائي الحكيم، دمشق، السيدة زينب. (١٤٢٢هـ / ٢٠٠١م)، (ط ٣).

مصطفى كامل الشيبني (الدكتور):

- الصلة بين التصوف والتشيع، (ط ٣)، دار الأندلس - بيروت (١٩٨٢م).

ابن مطهر: جمال الدين الحسن بن علي بن يوسف الحلبي (٧٢٦هـ):

- تذكرة الفقهاء: مؤسسة آل البيت - قم، (١٤١٧هـ).

- كشف اليقين في فضائل أمير المؤمنين، (ط ١)، طهران (١٤١١هـ / ١٩٩١م)،

تحقيق / حسين الدركاھي.

- منهاج الكرامة في معرفة الإمامة، تحقيق / عبد الرحيم مبارك، (ط ١)، مؤسسة

عاشوراء للتحقيقات - قم.

المفيد: محمد بن محمد بن النعمان ابن المعلم العكبري البغدادي (ت ٤١٣هـ):

- الاختصاص: مؤسسة الأعلمي - بيروت، (١٤٠٢هـ).

- الإرشاد في معرفة حجج اللہ تعالیٰ علی العباد، مؤسسة الأعلمي - بيروت، (ط ٣)،

(١٣٩٩هـ).

- أوائل المقالات، دار المفيد، بيروت، تحقيق / إبراهيم الأنصاري الزنجاني الخوئي،

(١٤١٤هـ).

- تصحيح اعتقادات الإمامية، تحقيق / حسين دركاھي، دار المفيد - بيروت،

(١٤١٤هـ / ١٩٩٣م). وهو في طبعة أخرى بعنوان: تصحيح الاعتقاد بصواب الانتقاد

أو شرح عقائد الصدوق، دار الكتاب الإسلامي - بيروت (١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م).

- الجمل: مكتبة الدواوري - قم.

- الفصول العشرة، دار المفيد - بيروت، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م)، تحقيق / فارس حسون.

- الفصول المختارة، دار المفيد - بيروت (ط ٢)، (١٤١٤هـ / ١٩٩٣م)، تحقيق /

السيد مير علي شريفی.

- المسائل السروية، المؤتمر العالمي لألفية الشيخ المفيد.

مهدي المهریزی:

- نصوص الحديث ونهج البلاغة، تعريب أنور الرصافي، المركز العالمي للدراسات

الإسلامية، (ط ١) - قم، (١٤٢٢هـ).

الميرزا محمد المشهدي (ت حوالي ١١٢٥ هـ):

- تفسير كنز الدقائق، مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين - قم، (١٤٠٧ هـ).
ابن النديم:

- الفهرست، مكتبة الخياط - بيروت.

نصير الدين الطوسي:

- تلخيص المحصل، مطبوع بذييل محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين للرازي، مكتبة الكليات الأزهرية.

نظمي زاده مرتضى أفندي:

- كلش خلفا: ترجمة / موسى كاظم نورس، النجف، (١٩٧١ م).

النعمان (القاضي نعمان بن محمد بن منصور بن أحمد بن حيون التميمي المغربي، ت ٣٦٢ هـ):

- دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله ﷺ،
دار المعارف (١٣٨٣ هـ / ١٩٦٣ م)، تحقيق / آصف بن علي أصغر فيضي.

النعمان (محمد بن إبراهيم):

- كتاب الغيبة، تحقيق / علي أكبر غفاري، مكتبة الصدوق، طهران.

النوبختي: (الحسن بن موسى، من علماء القرن الثالث الهجري):

- فرق الشيعة: دار الرشد - القاهرة. تحقيق / د. عبد المنعم الحفني، (ط ١)،
(١٤١٢ هـ / ١٩٩٢ م).

النوري الطبرسي ميرزا حسين:

- فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب، نسخة مصورة عن طبعة
إيران، (١٣٩٨ هـ).

- مستدرک الوسائل، المكتبة الإسلامية - طهران (١٣٨٢ هـ).

هاشم معروف الحسنی:

- الشيعة بين الأشاعرة والمعتزلة، دار القلم - بيروت، (ط ١)، (١٩٧٨ م).

اليقوي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح، ت ٢٨٤ هـ):

- تاريخ اليقوي، دار صادر - بيروت.



د. محمد زكريا النداف.

- من مواليد: دمشق عام (١٩٧٣ م).
- إجازة في الشريعة من كلية الشريعة جامعة دمشق.
- دبلوم في الفقه والأصول من كلية الشريعة جامعة دمشق.
- ماجستير في الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم / جامعة القاهرة.
- دكتوراه في الفلسفة الإسلامية، كلية دار العلوم / جامعة القاهرة.
- حاليًا مدرس في قسم العقائد والأديان، كلية الشريعة / جامعة دمشق.

* المؤلفات:

- الأخلاق السياسية للدولة الإسلامية في الكتاب والسنة / دار القلم دمشق.
- المودة بين الصحابة والقراة - دار المعراج - دمشق.
- توضيح وبيان لأركان الإيمان / دار اليمامة - دمشق (قيد الطبع).

ضمن رسائل الوعي الاجتماعي:

- ١ - الحجاب لماذا؟ وكيف؟
- ٢ - عدة المرأة المتوفى عنها زوجها.
- ٣ - الزيارات واللقاءات الاجتماعية.
- ٤ - الشورى والحوار بين الزوجين (قيد الطبع).
- ٥ - ظاهرة تسامح الأئمة وتشدد الأتباع (مؤتمر التسامح / كلية الشريعة - دمشق).

مؤلفات تحت الإنجاز:

- الحكومة الحديثة: ملامحها وأسس بنائها (جاهز للطباعة).
- الحياة الاجتماعية في عهد الصحابة رضوان الله عليهم (قيد الإنجاز).

رقم الإيداع

٢٠١٠/١٣٣٩٩

I.S.B.N الترفيم الدولي

978-977-342-918-8